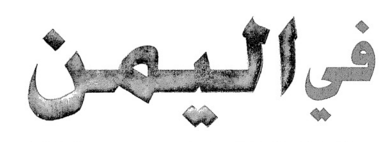
الحياة السياسية

ومظاهر الحضارة



في عهد الدويلات المستقلة

من سنة (429 هـ/1037م) إلى (626 هـ/1228م)

تأليف

الدكتور محمد عبده محمد السروري

أستاذ التاريخ الإسلامي / كلية الآداب - جامعة صنعاء





إصدارات وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء

الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن

في عهد الدويلات المستقلة

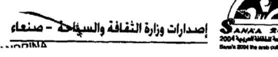
من سنة (429هـ/1037م) إلى (626هـ/1228م)

تأليف

الدكتور محمد عبده محمد السروري

أستاذ التاريخ الإسلامي/ كلية الآداب - جامعة صنعاء





إصدارات وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء

١٤٢٥هـ - 2004 م

رقم الإيداع بدار الكتب بصنعاء

(١٤٥/٢٠٠٤)

الناشر

الجمهورية اليمنية

وزارة الثقافة والسياحة

صنعاء الحصبة - ص.ب. (36)-(237)

هاتف: 235114 - فاكس: 235113

بريد الكتروني: moc@y.net.ye

من بهاء صنعاءَ... وتجليات عبقها.. في عام تتويجها عاصمةً للثقافة العربية.. يأتي هذا الاحتفاءُ بمجد الكلمة.. وجلال أنوارها.
في بدء الوعي الإنساني كانت الكلمة..
وعلى رأس فعاليات هذا العام الاستثنائي تأتي هذه الإصدارات..
حدثاً يتوج صنعاء فضاءً شاسعاً للثقافة والتاريخ والجمال والخصوصية.

خالد عبد الله الرويشان

وزير الثقافة والسياحة


بسم الله الرحمن الرحيم





المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد..

دراسة التاريخ تعد من أهم الدراسات التي يجب أن يتوجه الاهتمام إليها، كما تعد الدراسة في التاريخ الحضاري من أهم الدراسات الحديثة وأمتعها لما تبرزه هذه الدراسة من مستوى رقي المجتمع أو تدهوره. ممثلاً في نظمه الإدارية والمالية والقضائية والعسكرية وأيضاً في حياته الاجتماعية، والعلمية، والاقتصادية. واليمن بحاجة إلى مزيد من إلقاء الضوء على تاريخها السياسي بشكل عام، وتاريخها الحضاري بشكل خاص.

وقد لقي تاريخ اليمن في الآونة الأخيرة جهوداً بارزة في البحث في تاريخه من قبل العديد من الباحثين العرب والأجانب، فظهرت عدة كتب وبحوث عن تاريخ اليمن سواء بشكل دراسات جادة ومنهجية لأساتذة أو بشكل دراسات جامعية أكاديمية لنيل درجتي الماجستير والدكتوراه من جامعات مصرية وعراقية وسعودية وغيرها من الجامعات العربية، أو من الجامعات الأجنبية.

وهذا البحث يعد أحد المساهمات التي تعالج جوانب التاريخ السياسي والحضاري لليمن في فترة محددة وهو عبارة عن قسمين أحدهما القسم السياسي. ويشمل عدة بحوث أعدها الباحث خلال عمله في جامعة صنعاء كمدرّس للتاريخ الإسلامي، وثانيهما القسم الحضاري وهو عبارة عن دراسة قدمت لجامعة القاهرة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ نوقشت سنة 1990م تحت عنوان (مظاهر الحضارة في الدول المستقلة في اليمن من سنة (439 ـ 626هـ/ 1047 ـ 1228م).

واختيار فترة هذا البحث بذاتها وهي القرنين الخامس والسادس الهجريين، لها أهميتها من الناحية المذهبية والسياسية، فهي فترة مهمة بالنسبة لتاريخ اليمن، لأنه وجد بها عدة دويلات مذهبية وقبلية متصارعة سياسياً مع بعضها البعض. كما وجد بها دول عملت على توحيدها.

فالمذهب الإسماعيلي سيطر سياسياً على نجد اليمن منذ قيام دولة الصليحيين

عام 429هـ/ 1037م فعلا شأنه. ثم تلاهم الزريعيون في عدن بينما كانت دويلات المذهب السني تسود في تهامة اليمن منذ بداية القرن الثالث الهجري في عهد بني زياد ثم بني نجاح في زبيد. كما سيطر ابن مهدي الخارجي على تهامة اليمن بعد النجاحيين. في حين ظلت الزيدية متواجدة في صعدة، إلى أن قدم الأيوبيون فسيطروا على معظم اليمن منذ عام 569هـ/ إلى 626هـ وفي ظل الحكم الأيوبي ساد المذهب الشافعي على معظم اليمن.

وفي المجال السياسي كانت اليمن منقسمة إلى عدة دويلات مختلفة الاتجاه. ففي المناطق التهامية كانت الدولة النجاحية التي أيّدت العباسيين. وفي المناطق الجبلية كانت الدولة الصليحية التي أيّدت الفاطميين، أما منطقة صعدة فقد كان بها الأئمة الزيدية الذين كانوا مستقلين عن الخلافتين. كما ظهرت عدة دول مختلفي التبعية السياسية هم الزريعيون في عدن، وآل حاتم في صنعاء وبنو مهدي في زبيد، ثم تلا هؤلاء جميعاً الأيوبيون فعملوا على توحيد اليمن.

وفي عهد كل من الصليحيين والأيوبيين ازدادت علاقة اليمن السياسية والاقتصادية بمصر. فكان لذلك أثره في تاريخ اليمن. ففي المجال المذهبي تأثرت اليمن بالمذهب الإسماعيلي الفاطمي. ثم استعاد المذهب السني مجاله في اليمن بسيطرة الأيوبيين عليها. وقضائهم على المذهب الإسماعيلي في كل من مصر واليمن. وأدت هذه العلاقة مع مصر أيضاً إلى ازدهار الحركة التجارية ومركزها عدن.

هذا وقد واجه الباحث عدة صعوبات أولها ضخامة البحث ذاته زمنياً وموضوعياً. ففي إطار الفترة الزمنية شمل عصر الدولة الصليحية والأيوبية وما عاصرهما من دويلات، وهي ما تقارب القرنين من الزمان.

وفي إطار الموضوع شمل البحث الجوانب المتعددة للحياة السياسية ولمظاهر الحضارة من اقتصادية واجتماعية وعلمية وإدارية. هذه المواضيع جميعها متشعبة وكثيرة تطلبت مجهوداً كبيراً من الباحث.

والصعوبات الثانية هي ندرة المعلومات وخاصة المعلومات الإدارية والاقتصادية والاجتماعية، لعدم الاهتمام بتدوينها من جانب المؤرخين الأقدمين، مما استلزم قراءة مادة المصادر بكاملها للبحث عن الإشارات المتناثرة بين ثنايا الكتب مما يفيد موضوع البحث في جوانبه المذكورة.

والخلاصة أن هذه الدراسة ساهمت في إلقاء الضوء على الحياة السياسية وعلى جميع مظاهر الحضارة باليمن وهي بهذا تعطي فكرة واضحة عن الاستمرارية والحيوية لهذا الشعب اليمني العريق.

شمل القسم الأول: وهو التاريخ السياسي ثلاثة أبواب تحدث الباب الأول عن الدولة الصليحية وفيه ثلاثة فصول عالج الفصل الأول دور علي الصليحي في قيام دولته ابتداءً من تعليمه واعتناقه المذهب الإسماعيلي. ثم تناول مراحله السياسية في دورها السري والسلمي والحربي. وصراعه لجميع قوى اليمن حتى انتصر عليهم ووحّد اليمن تحت سلطانه.

أما الفصل الثاني: فقد تحدّث عن المكرم أحمد الصليحي منذ توليه السلطة بعد أبيه وصراعه ضد قبائل اليمن التي خرجت عن طاعة الصليحيين وصراعه مع بني نجاح والزيدية حتى تمكن من إعادة توحيد اليمن.

بينما تناول الفصل الثالث السيدة الحرة أروى الصليحية وحكمها لليمن بادئاً من اسمها وتعليمها وزواجها ثم سياستها في عهد زوجها وبعد وفاته وأهم قادتها، ثم بلوغها أعلى مراتب الدعوة الإسماعيلية وانفصالها عن مصر.

وخصص الباب الثاني لدويلات صنعاء وعدن وزبيد وفيه أربعة فصول. الفصل الأول منه تحدث عن حكم الهمدانيين لصنعاء فركّز على أهم أسرة حاكمة فيهم وهي أسرة حاتم اليامي الذي عمل على التوسع شمال صنعاء وتصارع مع الزيدية. ثم استكمل التحدّث عن ابنه علي وعلاقته بالزيدية وصراعه مع الأيوبيين.

في حين أن الفصل الثاني منه تحدث عن الزريعيين في عدن وعلاقتهم مع بني معن والمكرم والسيدة. واستعرض اشتراك بني زريع في حكم عدن ثم انفصالهم عن الصليحيين في عهد السيدة، ثم انفراد الداعي سبأ بحكم عدن وتوسع ابنه محمد بن سبأ في شراء حصون بني الصليحي في اليمن الأسفل.

أما الفصل الثالث: فقد تناول الدولة النجاحية في تهامة اليمن فتحدث عن مراحل قيامها ثم تحدث عن سيطرة الأمراء على مقاليد الحكم وصراعهم مع الدولة الصليحية حول السيطرة على تهامة. ثم مرحلة سيطرة الوزراء على مقاليد السلطة وصراعهم مع بعضهم البعض حتى نهاية دولتهم.

بينما استعرض الفصل الرابع منه دولة بني مهدي في تهامة، فتحدث عن دور علي بن مهدي في إقامة دولته ابتداءً من مرحلة المسالمة ومرحلة حربه للدولة النجاحية حتى تمكنه من القضاء عليها وإقامة دولته ثم تناول توسع أبنائه في السيطرة على مناطق اليمن.

واهتم الباب الثالث في التحدّث عن الحكم الأيوبي لليمن، فشمل خمسة فصول. تناول الفصل الأول الأسباب التي أدّت إلى الفتح الأيوبي لليمن. ومراحل سيطرته على مدن اليمن ومناطقه وتمكنه من القضاء على دويلات اليمن المتعددة.

وعالج الفصل الثاني منه قدوم طغتكين الأيوبي إلى اليمن وسيطرته عليها واستكمل التحدّث عن صراعه المستمر مع قوى اليمن القبلية المتعددة وقضائه عليها وتمكنه من توحيد اليمن تحت سلطان الأيوبيين.

في حين عالج الفصل الثالث منه تولي المعز للسلطة في اليمن وعلاقته بالقوى الأيوبية التي خرجت عنه وصراعه لهم كما تحدث عن صراعه مع الإمام الزيدي في شمال صنعاء.

بينما استعرض الفصل الرابع وراثة الناصر بن طغتكين للحكم فتحدث عن دور الأتابك سُنْقُر في مساعدته في الحكم وعلاقة سنقر بالأيوبيين الخارجين عليه وعلاقته مع الإمام الزيدي. كما تحدث عن وردشار أو وردسار وولايته لصنعاء وصراعه مع الإمام الزيدي في شمالها.

أما الفصل الخامس: فقد كان الحديث فيه عن قدوم الملك المسعود إلى اليمن وسيطرته عليها. كذلك تحدث عن صراعه مع الزيدية وتمكنه من توحيد اليمن. كما تناول عودته إلى مصر وموته وتولي بني رسول لليمن ونهاية الحكم الأيوبي بها.

وبالنسبة للقسم الحضاري شملت هذه الدراسة أربعة أبواب والخاتمة وقائمة المصادر وبعض الملاحق.

تناول التمهيد المسميات المختلفة للوحدات الإقليمية لليمن. أما الموضوع فقد جاء في أربعة أبواب كل منها مقسّم إلى عدة فصول اقتضاها البحث.

الباب الأول بعنوان النظم الحضارية في اليمن في ثلاثة فصول. تناول الفصل الأول فيها نظام الحكم من حيث تبعية الدول المستقلة للخلافة العباسية أو الفاطمية أو الإمامة الزيدية. كما تحدث عن مبدأ الوراثة في منصب الإمارة والذي تعدّى إلى مناصب الولاية والوزارة والنيابة والقضاء.

واهتم الفصل الثاني ببحث النظام الإداري في هذه الدولة. ورأينا كيف تسمى حكام الأقاليم بألقاب مختلفة من والي أو نائب أو أتابكية أو إقطاع، والنظامان الأخيران أدخله الأيوبيون إلى اليمن وكان يختار لحكم الأقاليم رجال من الأسرة الحاكمة أو من المخلصين للدولة. هذا إلى جانب منصب الوزارات والكتابة واختصاصاتها مع تطور الوزارة من وزارة تنفيذ إلى وزارة تفويض في بعض الدول.

وأظهر الفصل الثالث نظام القضاء لدى جميع دويلات اليمن خلال فترة البحث، من حيث ذكر من تولى القضاء ونظام القضاء وإجراءاته.

وعني الفصل الخامس بالنظام العسكري في اليمن من حيث عناصر الجند وأنواع الأسلحة المستخدمة آنذاك، والأساليب العسكرية المتعددة.

أما الباب الثاني فهو يتناول الحياة الاقتصادية في اليمن وفيه أربعة فصول. الفصل الأول خصص للنواحي الزراعية وتناول العوامل الطبيعية وأثرها من تضاريس وموارد مائية، كما استعرض ملكية الأراضي الزراعية من ملكية خاصة إلى ملكية الدولة إلى أراضي موقوفة، كما تحدث عن العمل الزراعي من طرق الري والتسميد والحرث والبذر والزرع والحصاد والمحاصيل الزراعية بالإضافة إلى المراعي الطبيعية والحيوانات. فضلاً عن تناوله دراسة تاريخية عن الأنماط الزراعية.

وفي فصل الصناعة كان الحديث عن المعادن والنشاط الصناعي من الصناعة المعدنية والصناعة الجلدية وصناعة المنسوجات إلى غيرها من الصناعات الأخرى بالإضافة إلى الصباغة والزخرفة.

أما فصل التجارة فقد تعرض لبيان الطرق البحرية والبرية والبضائع المصدَّرة والمستوردة. كما أوضح في التجارة الداخلية أشهر المراكز التجارية في اليمن والأسواق الداخلية والحسبة، بالإضافة إلى المعاملات المالية والتجارية مثل العملة والموازين والمكاييل والمقاييس.

أما الفصل الرابع فهو ما خصص للنظام المالي وقد استعرض الموارد المالية الشرعية من عشور الأراضي الزراعية (الخراج) والزكاة والجزية. والموارد غير الشرعية من ضرائب ورسوم ومكوس، ومصادرات ومصالحات وغنائم بالإضافة إلى نظام الضمان لتحصيل هذه الموارد ثم أوجه الإنفاق أو المصروفات.

وشمل الباب الثالث الحركة العلمية والتعليمية في ثلاثة فصول. الفصل الأول الحركة التعليمية من حيث مراحل التعليم ومراكزه وطرق التدريس وموادها وكذا تمويل التعليم بالإضافة إلى منح الشهادات أو الإجازات، وتحدث الفصل الثاني عن الحركة العلمية من حيث مؤثراتها الثقافية والمراكز العلمية المتعددة وخصائص الحركة العلمية من رحلات داخلية وخارجية في طلب العلم وظاهرة وراثة الفقه والنشاط العلمي في علوم الدين واللغة والآداب والتاريخ والجغرافيا.

وجاء الفصل الثالث عارضاً لجميع مذاهب اليمن مثل مذهب أهل السُنَّة مركزاً على المذهب الشافعي، كما تحدث عن المذهب الزيدي وانقسامه إلى مطرفية ومخترعة، والمذهب الإسماعيلي وعلوه في عهد الصليحي، بالإضافة إلى المذهب الأباضي. ونشاط كل مذهب من تلك المذاهب وانتشارها في اليمن.

وتناول الباب الرابع الحياة الاجتماعية في أربعة فصول مبتدئاً بعناصر السكان ممثلة

في رجال القبائل اليمنية في أصولها القبلية ثم العناصر الأجنبية وأهل الذمة والرقيق.

وتحدث الفصل الثاني عن طبقات المجتمع ممثلة في طبقات عليا وتشمل الحكام والعلماء وكبار الملاّك والتجار. والطبقات العامة وتشمل طبقة الجند والفلاحين وأرباب الحرف والصناع.

كما تناول الفصل الثالث الحياة الاجتماعية فتحدث عن الاحتفالات الدينية والشعبية والخاصة. والزواج وإجراءاته، والأعياد والمواسم والمأكل والملبس. كما تناول العادات والتقاليد.

وجاء الفصل الرابع يبحث العمران موضحاً الاهتمام ببناء المدن والمساجد والمدارس والقصور والحصون والطرقات وغيرها.

أما الفصل الخامس والأخير من هذه الدراسة فقد اختص ببحث الأوقاف وأثرها في الحياة الاجتماعية باليمن.

أهم مصادر البحث:

هناك العديد من المصادر التي اعتمد عليها البحث وعلى رأسها كتاب المفيد في أخبار صنعاء وزبيد لعمارة اليمني المتوفى سنة 569هـ/ 1173م. وتظهر أهمية كتاب عمارة من أنه معاصر لكثير من الأحداث، ولأنه من أقدم المصادر التي تعرضت لأخبار اليمن، نقلت عنه الكثير من المصادر التي أتت بعده.

ويعتبر كتاب عمارة مصدراً هامًا للنواحي السياسية والإدارية لدويلات اليمن المستقلة وأهمها دولة الصليحيين وآل نجاح والزريعيين وآل مهدي. كما أنه مفيد في النواحي القضائية والمالية والعسكرية والاقتصادية والفكرية. حيث إنه أشار إلى بعض أنواع الضرائب كما أورد الكثير من المعلومات الهامة عن الأدباء والشعراء في اليمن وعن طبقاتهم الاجتماعية.

ومن المصادر التي أفادت البحث في النواحي السياسية والإدارية كتاب (بهجة الزمن في تاريخ اليمن) لتاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد المتوفى سنة 744هـ/ 1343م تحقيق مصطفى حجازي نقلاً عن كتاب (نهاية الأرب) للنويري الجزء الثالث والعشرين. ثم ظهرت نسخة أخرى من هذا الكتاب لنفس المؤلف تحقيق عبد الله الحبشي.

وبالمقارنة بين النسختين نجد أن هناك فرقاً كبيراً فيما بينهما فالنسخة التي حققها الحبشي أكثر تفصيلاً وذكراً للحوادث عن الدويلات اليمنية. وربما يرجع ذلك إلى أن النويري اختصر كتاب ابن عبد المجيد أو نقله مختصراً عن كتاب آخر. وقد اعتمد البحث على النسخة التي حققها الحبشي.

ومن المصادر المهمة أيضاً كتاب (العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك) تأليف علي بن الحسن الخزرجي المتوفّى سنة 812هـ/ 1410م والكتاب عبارة عن تاريخ عام لليمن منذ فجر الإسلام حتى عصر المؤلف واستفاد منه البحث في النواحي السياسية والإدارية ومن بعض الإشارات عن النواحي المالية والعسكرية والعمرانية.

كذلك استفاد البحث من كتابي عبد الرحمن بن علي بن الديبع المتوفّى سنة 944هـ/ 1527م وهما كتاب (بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد) وهو عبارة عن تاريخ عام لمدينة زبيد وكتاب (قرة العيون في أخبار اليمن الميمون) وهو عبارة عن تاريخ عام لدويلات اليمن منذ فجر الإسلام حتى عصره، والكتابان أفادا البحث في النواحي السياسية والإدارية، وبعض الإشارات عن النواحي العسكرية والمالية والعمرانية.

ومن المصادر الهامة في تاريخ اليمن كتاب (السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن) لبدر الدين محمد بن حاتم المتوفّى بعد سنة 702هـ/ 1302م تحقيق المستشرق الدكتور ركس سميث، يعدّ هذا الكتاب من أهم المصادر عن الحكم الأيوبي في اليمن استفاد منه البحث عن الأحوال السياسية ونظم الأيوبيين الإدارية والأنظمة الجديدة التي أدخلها الأيوبيون لليمن مثل نظام الإقطاع الإداري أو ما يسمى الإقطاع العسكري ونظام الأتابك، ونظام النواب، كما وجد في الكتاب إشارات إلى النواحي القضائية والعسكرية للأيوبيين في اليمن.

ومن المصادر التي أفادت البحث (تاريخ مدينة صنعاء) للرازي المتوفّى بعد سنة 460هـ/ 1067م تحقيق حسين العمري ذكر فيه معلومات مهمة عن الحياة العلمية والاقتصادية والعمرانية.

كذلك استفاد البحث بكتاب (تاريخ وصاب) المسمى (الاعتبار في التواريخ والآثار) للوصابي المتوفّى سنة 782هـ/ 1370م حقّقه عبد الله الحبشي، أورد معلومات مهمة عن النواحي الفكرية والعلمية لعلماء وصاب، كما اشتمل على بعض المعلومات في النواحي السياسية والإدارية للدولة النجاحية والدولة الصليحية وآل مهدي.

ومن الكتب المهمة في موضوع البحث أيضاً كتاب (صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز) المسمى تاريخ المستبصر تأليف ابن محمد بن مسعود بن علي بن أحمد بن المجاور، البغدادي النيسابوري[1]، المتوفّى بعد سنة 630هـ/ 1232م، تحقيق أوسكر لوفغرين.

يعدّ هذا الكتاب من أهم المصادر التي تتعرّض للنواحي الاقتصادية

---

(1) ابن المجاور: صفة، ص: 252، د. أيمن فؤاد: مصادر، ص: 123.

والاجتماعية في اليمن وخاصة فترة الزريعيين والأيوبيين، وتظهر أهميته أن مؤلفه عاش قريباً من الفترة المعاصرة لفترة الدراسة، فهو يقدم لنا معلومات متعددة عن النواحي الاجتماعية مثل الزواج والاحتفالات والعادات والمأكولات، كما أنه يقدم لنا معلومات متعددة عن النواحي الاقتصادية مثل الزراعة وأنواع الفواكه، وطرق المواصلات في أنحاء اليمن، كما أنه يصف لنا صناعة الجلود في اليمن وصناعة الملابس في زبيد ويصف لنا حركة النشاط التجاري في عدن وصنعاء. فمثلاً يذكر لنا أنواع الصادرات وأنواع الواردات فيقدم قائمة بأنواع البضائع ومقدار العشور الذي يؤخذ عليها والبضائع التي تعفى من العشور ونوع المعاملات التجارية في عدن وطريقة التفتيش الدقيق بها. كما أنه يشير إلى البلدان التي تتعامل مع اليمن تجارياً. كذلك يقدم لنا أنواع المكاييل والموازين والمقاييس والعملة المستخدمة في اليمن في عصره. كما يشير إلى بعض المعلومات عن النواحي الإدارية لآل زريع والأيوبيين.

واستفاد البحث بكثير من الكتب الجغرافية من الذين عاشوا خلال القرون الثالث والرابع والخامس للهجرة، مثل المسالك والممالك لكل من ابن خرداذبه والاصطخري، وصورة الأرض لابن حوقل، والأعلاق النفيسة لابن رسته، وكتاب البلدان لليعقوبي، وأحسن التقاسيم للمقدسي، ونزهة المشتاق للإدريسي. فقد أوردت لنا هذه الكتب الجغرافية معلومات هامة عن النواحي الاقتصادية في اليمن، مثل طرق المواصلات التجارية ومحطاتها، وبعض الصناعات والسلع التجارية المستوردة والمصدرة، وذكرت مناطق وقرى اليمن الزراعية وأنواع الزراعة بها. كما أوردت معلومات عن النواحي الإدارية في اليمن قبيل الدويلات المستقلة بها، فذكرت مخاليف اليمن المتعددة. وأشارت بعض هذه الكتب إلى النواحي المذهبية في اليمن مثل كتاب المقدسي الذي ذكر فيه مذاهب اليمن خلال القرن الخامس الهجري.

وأيضاً أوردت كتب الرحلات مثل رحلة ابن بطوطة المتوفى سنة 703هـ/ 1304م ورحلة ابن جبير المتوفى سنة 614هـ/ 1217م معلومات مهمة في النواحي الاقتصادية والاجتماعية في اليمن، وعن كيفية انتقال التجارة عبر البحار وصعوبتها وعلاقات البلدان التجارية باليمن. فمثلاً يورد لنا ابن جبير مسألة ظهور ميناء عيذاب كمركز تجاري فقال: (ورُمنا في هذه الطريق إحصاء القوافل الواردة والصادرة فما تمكن لنا، ولا سيما القوافل العَيْذابية المتحملة لسلع الهند الواصلة إلى اليمن، ثم من اليمن إلى عيذاب. وأكثر ما شاهدنا من ذلك أحمال الفلفل، فلقد خيل إلينا لكثرته أنه يوازي التراب قيمة)[1].

(1) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص: 43.

وهناك كتب كثيرة استفاد منها البحث مثل كتاب مسالك الأبصار لابن فضل اللّه العمري المتوفّى سنة 749هـ/ 1349م وكتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشاء للقلقشندي المتوفّى سنة 821هـ/ 1481م، فقد أورد هذان الكتابان معلومات مهمة في النواحي الاقتصادية مثل الصناعة والزراعة في اليمن، وقد نقل القلقشندي الكثير من معلوماته من كتاب مسالك الأبصار للعمري وأضاف إليها الكثير من المعلومات الإدارية عن اليمن.

كذلك استفاد البحث من كتب الهمداني المتوفّى سنة 360هـ/ 970م. مثل كتاب صفة جزيرة العرب، وأجزاء كتاب الإكليل المنشورة، فقد أوردت هذه الكتب معلومات مهمة عن النواحي الاقتصادية في اليمن مثل صناعة البرود في الإكليل وأسلوب الزراعة والحرث والسقي وأنواع التربة وأنواع المزروعات وأنواع المأكولات في اليمن في صفة جزيرة العرب. وكذلك عن وجود أنواع المعادن في اليمن.

ومن الكتب الهامة في موضوع البحث كتاب (ملح الملاحة في معرفة الفلاحة) للملك الأشرف عمر بن يوسف بن عمر بن رسول المتوفّى سنة 696هـ/ 1296م أورد الكثير من المعلومات الزراعية الهامة، استفاد البحث بكثير منه مثل أماكن زراعة ونوع المحصولات الصيفية والشتوية، وأوقات الزراعة والحصاد وأنواع التربة وعملية الزراعة والسقي (الري) وغيرها.

وكانت كتب التراجم أو الطبقات من أهم المصادر التي أفادت البحث في النواحي الثقافية والمذهبية والتعليمية وتأتي في مقدمة هذه المصادر (طبقات فقهاء اليمن) لعمر بن علي بن سمرة الجعدي المتوفّى سنة 586هـ/ 1190م تحقيق فؤاد سيد، والكتاب يستعرض فقهاء الشافعية في اليمن في صنعاء وعدن وتهامة منذ عهد الرسول ﷺ إلى عصره.

وتعد أهمية هذا الكتاب أنه معاصر لموضوع البحث فقد عاصر حكم الزريعيين وآل مهدي وبداية حكم الأيوبيين، فأورد لنا الكثير عن فقهاء وعلماء القرنين الخامس والسادس الهجريين. وعنه أخذت الكتب التي أتت بعده. والكتاب من أهم الكتب فائدة للبحث في النواحي الثقافية والتعليمية والدينية والمذهبية لليمن.

ومن كتب التراجم المهمة أيضاً كتاب (السلوك في طبقات العلماء والملوك) تأيف بهاء الدين محمد بن يوسف الجندي المتوفّى سنة 732هـ/ 1332م تحقيق محمد الأكوع والكتاب يترجم لفقهاء اليمن الشافعية وعلمائها منذ فجر الإسلام حتى عصره. وزعم أنه يعتمد في معلومات الكتاب على مصادر من سبقته من الكتب مثل طبقات ابن سمرة وتاريخ صنعاء للرازي إلا أنه يضيف معلومات كثيرة

عليها استقاها من مصادر أخرى وأضاف كثيراً من المعلومات للأشخاص الذين ترجمت لهم تلك الكتب.

ويعد الكتاب مصدراً مهمًا للبحث في الحياة العلمية، لأنه يحتوي على الكثير من المعلومات في النواحي الفكرية والدينية والمذهبية، ويمتاز الكتاب بإيراد أسماء أماكن هؤلاء الفقهاء والعلماء مع ضبط أسماء المناطق والأعلام مما جعل للكتاب أهمية خاصة في تصحيح نطق الأسماء المتعددة.

ومن كتب التراجم كتاب (تحفة الزمن في ذكر سادات اليمن) لبدر الدين الحسين ابن عبد الرحمن بن محمد الأهدل المتوفّى سنة 855هـ/ 1451م، تحقيق عبد اللّه الحبشي. إعتمد في تأليفه لهذا الكتاب على كتاب السلوك للجندي بل يعدّ مختصراً له ثم أضاف إليه ترجمة العلماء منذ وفاة الجندي إلى عصره. وقد استفاد البحث منه في الجوانب الفكرية والعلمية والمذهبية لليمن.

كذلك من الكتب المهمة التي استفاد منها البحث في الحياة السياسية والحياة الاقتصادية والحياة الفكرية. والحياة الاجتماعية كتاب (تاريخ ثغر عدن) لعبد اللّه الطيب بامخرمة (ت. 947هـ/ 1540م). والكتاب عبارة عن تراجم لكثير من العلماء والساسة الذين دخلوا عدن.

تلك هي أهم الكتب التي ترجمت لعلماء وفقهاء أهل السُنَّة في اليمن. أما التراجم أو الطبقات التي ترجمت لأهل المذاهب الأخرى مثل المذهب الزيدي فأهمها هي مخطوطة (المستطاب في تاريخ علماء الزيدية الأطناب) والمسمى (طبقات الزهر في أعيان العصر)، أو (الطبقات الزيدية الصغرى) ليحيى بن الحسين المتوفّى سنة 1100هـ/ 1688م. وهذا الكتاب أو المخطوط عبارة عن ترجمة لكثير من علماء الزيدية وفقهائها، والمخطوط من أهم المصادر للبحث في النواحي الثقافية والمذهبية للمذهب الزيدي ـ المطرفية والمخترعة ـ فهو يوضح نشأة المذهب الزيدي وانشقاق المذهب المطرفي والمخترعة منه والصراع فيما بينهما. كذلك استفاد البحث بمخطوطة (الحدائق الوردية في مناقب الأئمة الزيدية) لحميد المحلي المتوفّى سنة 652هـ/ 1254م.

كذلك استفاد البحث بمخطوطة مسلم اللحجي المسمى تاريخ مسلم اللحجي (ت. سنة 545هـ/ 1150م) الذي ترجم لعلماء المطرفية في اليمن في عصره وعصر مشايخه ومن سبقوه. وهي أهم مخطوطة ترجمت للمطرفية نقل أغلبها يحيى بن الحسين في طبقات الزيدية الصغرى.

كذلك يعد كتاب (أسرار الباطنية وأخبار القرامطة) لمحمد بن مالك الحمادي

المتوفّى سنة 470هـ/ 1077م من أهم الكتب التي تستعرض للمذهب الإسماعيلي في اليمن منذ ظهوره باليمن حتى قيام الدولة الصليحية.

ومن مصادر البحث عدة سير للأئمة الزيدية مثل سيرة الإمام أحمد بن سليمان المتوفّى سنة 566هـ/ 1170م للثقفي، وسيرة ذي الشرفين المتوفّى سنة 485هـ/ 1092م للربعي، وسيرة الإمام عبد اللّه بن حمزة المتوفّى سنة 614هـ/ 1217م لمجهول، وكذلك سيرة الأمير السلطان المكرم (ت. سنة 577هـ) لمجهول.

وهذه السير أوردت معلومات مهمة عن العملة والنواحي الإدارية للزيدية. كما أوردت معلومات مهمة عن الحياة السياسية للزيدية وعلاقتهم مع الصليحيين. ومن جانب سيرة المكرم فقد أوردت معلومات سياسية مهمة عن علاقة المكرم مع النجاحيين وعلاقته مع الزيدية.

هذا بجانب مصادر أخرى هامة وردت في قائمة المصادر.

المراجع الحديثة:

وجد الكثير من المراجع الحديثة كتبت عن اليمن بعضها ألف بطريقة علمية. وقد استفاد البحث منها سواء بالرجوع إليها مباشرة أو قراءتها والرجوع إلى المصادر التي اعتمدت عليها تلك البحوث منها الآتي: (الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن) لحسين بن فيض الهمداني بالاشتراك مع د. حسين سليمان محمود، واستفاد البحث منه في النواحي السياسية والإدارية للصليحيين والزريعيين والنواحي المذهبية للإسماعيلية وكتاب (تاريخ اليمن الإسلامي في القرون الثلاثة للهجرة عصر الولاة) للدكتور محمد أمين صالح، استفاد البحث منه في الفصل الخاص بالنواحي الاقتصادية والاجتماعية لليمن، وله أيضاً عدة بحوث عن الزريعيين والصليحيين والنجاحيين وآل مهدي سترد أسماؤها والمجلات التي نشرت بها في قائمة المراجع. واستفاد البحث أيضاً بكتاب (الأيوبيين في اليمن) للدكتور محمد عبد العال أحمد في النواحي السياسية والإدارية للأيوبيين في اليمن والنظم الأخرى مثل الإقطاع الإداري والعسكري والنواب ونظام الأتابك. كذلك استفاد البحث أيضاً في النواحي السياسية والاقتصادية والإدارية والاجتماعية للأيوبيين من كتابين هما: كتاب (الحجاز واليمن في العصر الإسلامي) للدكتور جميل حرب محمود حسين، وكتاب (الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن في العصر الأيوبي) لمحمد بن علي بن مسفر العسيري. واستفاد البحث في النواحي السياسية والإدارية والاقتصادية لبني زريع والأيوبيين في عدن بكتاب (عدن دراسة في أحوالها السياسية والاقتصادية، 476 ـ 626هـ). كذلك استفاد البحث بكتاب (اليمن في ظل

الإسلام) للدكتور عصام الدين عبد الرؤوف في النواحي السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية لليمن، وكتاب (تاريخ اليمن السياسي في العصر الإسلامي) للدكتور حسن سليمان محمود في النواحي الإدارية والسياسية. وكذلك استفاد البحث في النواحي السياسية للدولة النجاحية بكتاب الدكتور محمد عيسى الحريري (معالم التطور السياسي في دولة بني نجاح في اليمن وعلاقتهم بالصليحيين).

واستفاد البحث كذلك في النواحي المذهبية والدينية بعدة كتب منها: (تاريخ اليمن الثقافي) الجزء الرابع لأحمد حسين شرف الدين، وكتاب (تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجري) للدكتور أيمن فؤاد سيد، وكتاب (الحياة الفكرية في اليمن في القرن السادس الهجري) للدكتور محمد رضا الدجيلي.

هذا بجانب الكثير من المراجع والدوريات المذكورة في قائمة المراجع.

وبذلك نأمل أن نكون قد وفقنا في إعطاء صورة موضحة عن الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن خلال فترة الدراسة.

والله ولي التوفيق والهداية

القسم الأول

التاريخ السياسي

الباب الأول: الدولة الصليحية

الباب الثاني: دويلات صنعاء وعدن وزبيد

الباب الثاني: الحكم الأيوبي لليمن



الباب الأول

الدولة الصليحية

الفصل الأول: علي بن محمد الصليحي

الفصل الثاني: المكرم أحمد بن علي الصليحي

الفصل الثالث: السيدة الحرة أروى الصليحية

مقدمة

علي بن محمد الصليحي

في غياب الفكر الموحد لجميع الناس ثقافياً واجتماعياً وسياسياً وعدالته، تظل العوامل الطبيعية والقبلية هي الأكثر تأثيراً والأكثر سيطرة على حياة الناس، وإذا استعرضنا طبيعة اليمن الجبلية نجد أنها أثرت على حياة اليمنيين السياسية والاجتماعية والثقافية تأثيراً كبيراً على مدى عصورهم المختلفة وذلك في غياب الفكر الموحد لهم أو في وجود الخلاف السياسي.

فالشكل الجغرافي لليمن عبارة عن مناطق جبلية متعددة يتخلل هذه الجبال قيعان وأودية ضيقة أو متوسطة الاتساع، وكل منطقة تنفصل عن الأخرى بحاجز جبلي يصعب اجتيازه عند الانتقال من منطقة إلى أخرى. هذه التشكيلة أدت إلى انعزال المناطق اليمنية عن بعضها البعض. فنشأت في كل منطقة منعزلة جماعة من الأفراد أصبحت هذه الجماعة عبر مرحلة من الزمن ترتبط مع بعضها البعض بقرابة أسرية، تطلبت الظروف في تلك المناطق أن يوجد الأفراد لأنفسهم أنظمة تحميهم من الآخرين، وأنظمة تنظم علاقتهم مع بعضهم البعض. فوجد لذلك ما يطلق عليه القبيلة. وبذلك تكون المنطقة الجغرافية المنعزلة هي التي أنشأت القبيلة. أو أن القبيلة نشأت من أسرة واحدة، فعبر مرحلة من الزمن أصبحت الأسرة تتكوّن من مجموعة كبيرة من الأفراد، ونتيجة لتلك الظروف الطبيعية فقد أدّت إلى التقليل من اللقاء بين القبيلة والقبائل الأخرى المجاورة لها وأدى ذلك إلى الانعزال، فنشأت لكل منطقة منعزلة عبر مرحلة زمنية لهجة خاصة بها، أدى ذلك إلى تعدّد لهجات المناطق اليمنية فأسهم ذلك في التباعد بين المناطق اليمنية المتعددة وتعميق النظام القبلي. لذلك أصبح لكل منطقة منعزلة قبيلة معينة لها حدودها الخاصة بها، كما أصبح لها نظامها الخاص بها.

إلا أن هذه الحدود لم تظل ثابتة فقد أدى ازدياد أفراد القبيلة الواحدة عن إمكانيات المنطقة المنعزلة اقتصادياً إلى البحث عن مناطق مجاورة للسيطرة عليها، فتحول بذلك النظام القبلي إلى نظام سياسي يتسع وينكمش بحسب قوة القبيلة وضعفها. وفي ظل الفكر الموحد تمكنت الجماعات من أن تكون دولة موحدة لليمن كلها، فنشأت بها الحضارات المتنوعة وظلت حضاراتها قائمة ما دامت مستمرة على

العدل وفكرها الموحد، وفي غياب العدل والفكر الموحد انهارت تلك الحضارات وعادت سيطرة العوامل الطبيعية والقبلية من جديد تسيطر على اليمن.

وبالنسبة للفترة الإسلامية فقد عمل الفكر الإسلامي على توحيد الناس ثقافياً واجتماعياً وسياسياً، فساهم ذلك في وحدة اليمن والعالم الإسلامي في دولة واحدة استمرت طيلة عدة قرون، إلا أنه نتيجة اتساع العالم الإسلامي وتنوّع ذكاء الأفراد في معرفة مفاهيم الدين الإسلامي، أدى إلى انتشار العديد من المذاهب الدينية في العالم الإسلامي، وعلى الرغم من تعدد المذاهب الدينية إلاّ أن وحدة الفكر الإسلامي ظلت هي الموحدة لهم، فلم يكن من هذا التعدد المذهبي خلافاً يوجب الاختلاف عليه بل جعلته اجتهاداً في مجال الدين، ولكن هذه الوحدة السياسية والدينية لم تستمر فقد عاد الانقسام إليها بمسببات عدة، فعندما تعددت رؤية المسلمين السياسية ظهر الخلاف فيما بينهم وتناقضوا، مما جعل المسلمين يدخلون في صراع مستمر وحروب دامية مع بعضهم البعض حول المفهوم السياسي فأدى ذلك إلى تفكك المسلمين بل وإلى تخلّفهم.

وعلى الرغم من أن ساسة المسلمين حاولوا حلّ الخلاف السياسي بإغفال مفهوم الشورى وتسليم أكثر الفرق بالنظام الوراثي تجنباً للصراع حول السلطة. إلا أن هذا النظام الوراثي لم يحل المشكلة، فقد عمّق الصراع فيما بينهم أكثر وأظهر تباينات واضحة في خلافاتهم وتباعداً كبيراً فيما بينهم، مما صعب في حل مشاكلهم السياسية. فالشيعة جعلوا السلطة وراثية في أسرة واحدة. فعمل الإسماعيلية والإمامية على جعل الوراثة في أولاد الحسين، والزيدية جعلت السلطة وراثية في أولاد فاطمة، وبالرغم من حصرهم السلطة وراثية في أسرة واحدة أو شخص واحد، إلا أنه ظهر خلاف وتناقض فيما بينهم حول هذا المفهوم فحاربوا بعضهم البعض. أما أهل السُنّة فقد جعلوا السلطة في القرشيين وعمل الأمويون ثم العباسيون بعدهم على حصر السلطة وراثياً في أسرتهم، فدخلوا في صراع مستمر مع بعضهم البعض، ومع القرشيين الآخرين مثل العلويين حول من يكون أحق بالوراثة. بينما جعل الخوارج السلطة في جميع العرب ولكنهم لم يتفقوا في هذا المفهوم فقد صارع بعضهم البعض وتوزّعوا إلى عدة فرق كل فرقة فيهم تكفر الأخرى ولم يتخلصوا من نظام الوراثة فقد توارثوا السلطة فيهما بينهم.

ونتج عن ذلك أن اتجه أصحاب كل مذهب سياسي يستقطب الأنصار بناء على فكرتهم المذهبية والسياسية، فادعى أصحاب كل مذهب سياسي أنهم أصحاب الحق في تولي السلطة السياسية دون غيرهم من الفرق، وأوردوا لذلك الأدلة

والبراهين والحجج التي تؤيد رأيهم وتقنع بها أنصارهم. لذلك استخدم أصحاب كل مذهب سياسي أسلوباً خاصاً بهم في دعوة الناس واستقطاب الأنصار إلى مذهبهم السياسي، فالشيعة الإسماعيلية اتخذوا أسلوب الدعوة السرية ثم استخدموا القوة للوصول إلى السلطة، أما الزيدية فقد استخدموا أسلوب الدعوة إلى الذات بظهور الإمام داعياً إلى نفسه بالإمامة وشاهراً سيفه ضد السلطة المخالفة له مذهبياً مدعياً أنه أحق بالسلطة من غيره من الناس، بينما عمل أهل السُنَّة على تأييد السلطة الموجودة من أموية وعباسية وغيرها، معتقدين بمذهبهم الديني والسياسي وأخذوا يستمدون سلطتهم الشرعية منها فنشأ لذلك صراع مستمر وقتال مرير حول السلطة بين كل تلك الفرق.

ولم يكن هذا الصراع سببه الخلاف المذهبي الديني، بل كان سببه الخلاف السياسي حول السلطة. لذلك فقد كان محور الصراع في الفترة الإسلامية في اليمن وغيرها هي السلطة أدى ذلك الخلاف السياسي والصراع حوله إلى عودة العوامل الطبيعية والقبلية في التغلب على أوضاع اليمن السياسية.

ومع تسليمنا بوحدة اليمن فكرياً وثقافياً واجتماعياً منذ فجر الإسلام حتى الآن، إلا أن الخلاف السياسي والعامل القبلي، وطبيعة اليمن الجبلية المعقدة أثرت على ذلك تأثيراً واضحاً وزاد في وضوح ذلك غياب الوحدة السياسية لليمن. وهنا سنعطي صورة عن وضع اليمن السياسي ثم المذهبي قبيل قيام الدولة الصليحية.

في بداية القرن الخامس الهجري كانت اليمن مفككة سياسياً ومجزأة إلى وحدات سياسية متعددة تحكمها زعامات قبلية مختلفة أهمها قبائل حِمْيَر وقبائل همدان، فاليمن الأسفل كان مقسماً بين قبائل حِمْيَر وكانوا غالباً ما يخضعون لحكام تهامة باعتبارهم ممثلين للخلافة العباسية. واليمن الأعلى كان مقسماً بين قبائل همدان والزيدية، فقبائل همدان كانوا أحياناً يطيعون حكام تهامة وأحياناً يستقلون بالسلطة لأنفسهم وتارة أخرى يطيعون الزيدية، وإذا ما رسمنا خارطة سياسية توضح حكم الزعامات القبلية لليمن آنذاك وما طرأ عليها من تغيّر فهي كالآتي:

1 ـ (بنو مَعْن) وهم من ذي أصبح ثم من حِمْيَر حكموا عدن ولحج وأبين وحضرموت والشحر[1].

---

(1) عمارة بن علي اليمني: تاريخ اليمن ص: 86. تحقيق محمد الأكوع، مطبعة السعادة، القاهرة ط2، 1976م، عبد الرحمن ابن الديبع: قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، ص: 334، تحقيق محمد الأكوع المطبعة السلفية، القاهرة، يحيى بن الحسين: غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، جـ1، ص: 241، تحقيق عبد الفتاح عاشور، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة 1968م.

2 ـ (بنو الكَرَنْدِي) وهم من حِمْيَر حكموا مخلاف المعافر ومخلاف الجَنَدْ بحصونها مثل السَّمَدَان والسَّوَا والدُمْلُوة، وصَبِرْ وذُخَر (جبل حبشي) ثم توسعوا نحو مخلاف جَعْفَر، فسيطروا على مخلاف عَنَّة (العدين) بمدنها مثل الْمُذَيْخِرَة وذي جبْلَة وحصونها مثل التَّعْكَر[1].

3 ـ بنو أَصْبَح وهم من حِمْيَر حكموا المناطق الواقعة شرق وشمال مدينة (إب) مثل حصن حَبَّ (بعدان) وعَزَّان وبيت عز والشِّعِر وأَنْور والنقيل والسَّحُول، ثم صارت تلك المناطق تحت حكم بني التبعي[2].

(1) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 86، 87، ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 72 ـ 73، تحقيق أسكارلو فغرين، طبعة لندن، مطبعة بريل، 1951م، عبد الرحمن بن محمد الوصابي: تاريخ أصاب المسمى الاعتبار في التواريخ والآثار، ص: 29، تحقيق عبد الله الحبشي، دار العودة بيروت ط1، 1979م، علي بن الحسن الخزرجي: العسجد المسبوك في من ولي اليمن من ملوك ص: 105، مخطوط مصور دار الفكر، دمشق، صورة ثانية، سنة 1981. ابن الديبع: قرة العيون ص: 334 ـ 335، يحيى بن الحسين: غاية الأماني جـ1، ص: 241، محمد بن إسماعيل الكبسي: اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية، ص: 25 ـ 26، مطبعة السعادة، مصر، 1983م، حسين بن فيض الهمداني: الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، ص: 63، دار المختار، دمشق، 1995م، د. محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن ص: 41 ـ 62، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1980م، السَّوَا: حصن من أعمال تعز يسمى اليوم عزلة السوا مركزها النشمة، السَّمَدَان: حصن باليمن عظيم الخطر، هو اليوم عزلة الشمايتين من أعمال تعز، الدُمْلُوة: حصن عظيم باليمن يقع في جنوب الجند وهو من الصلو من أعمال تعز، صَبِرْ: إسم الجبل الشامخ العظيم المطل على تعز فيه عدة قرى وحصون، ذخر: جبل بالمعافر باليمن أو مقاطعة كبيرة من المعافر ويسمى اليوم جبل حبشي، التعكر: قلعة حصينة عظيمة باليمن من خلاف جعفر مطلة على ذي جبلة، مخلاف الجند: يسمى اليوم تعز، والمعافر: الحجرية من أعمال تعز، ومخلاف جعفر: إب، ومخلاف عَنَّة: العدين من أعمال إب، القاضي إسماعيل الأكوع: البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي ص: 144، 145، 109، 161، 55، 201، ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت 1957م، جـ2، 34، 471، جـ3، 246، 270، 392، البغدادي: مراصد الاطلاع، دار إحياء الكتب العربية، مصر، 1954م، ص: 265، 534، 729، 735، 832.

(2) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 87، 89، ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 72 ـ 73، الوصابي: الاعتبار، ص: 29، الخزرجي: العسجد، ص: 105، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 335، 336، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، جـ1، ص: 241، الكبسي: اللطائف، ص: 25، 26، محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 41، 42، حصن حب: حصن مشهور في مخلاف بعدان من أعمال إب، عزان: من حصون ريمة باليمن، بيت عز: من حصون اليمن في بعدان، خُدَد: حصن في مخلاف جعفر باليمن وهو من ناحية حبيش من أعمال إب، حصن الشعر: في ناحية النادرة متصل ببعدان شرقاً، أنور: حصن باليمن من مخلاف قيضان، وهو في ناحية المخادر من أعمال إب، النقيل: هو نقيل صيد وهو بين مخلاف جعفر وحقل ذمار، =

4 ـ (بنو وائل) وهم من الكلاع ثم من حِمْيَر حكموا المناطق الواقعة غرب وشمال مدينة ذي جِبْلَة مثل مخلاف وُحَاظَة بحصونها مثل يَرْيَس ودَهْرَان ويَفُوْز وعِزَّان والخضراء وشعب ومدينتهم شاحط ثم حل محلهم بنو التبعي في الشمال وبنو الكَرَنْدِي في الجنوب[1].

5 ـ (بنو التبعي) وهم من حِمْيَر حكموا المناطق الشمالية لمدينة ذي جبلة مثل حصن خدد (جبل حبشي) والشوافي أولاً، ثم توسع حكمهم نحو المناطق الشمالية والشرقية لمدينة إب، فسيطروا على حصن حب (بعدان) وعزان والشعر والسحول[2].

6 ـ (بنو عبد الواحد) وهم من حِمْيَر أيضاً حكموا المناطق المجاورة لباجل مثل أعمال بُرَع والعَمَد ولَعْسَان[3].

7 ـ وبالنسبة لقبائل همدان فقد حكم قوم منهم حصن أَشْيَح (آنس) ومُقْرَى ومخاليفها[4].

= ويسمى اليوم سمارة، السحول: كان أحد مخاليف اليمن، وهو حقل يبدأ من سفوح مدينة إب الشمالية ويمتد شمالاً إلى رحاب، الشوافي: مخلاف من ذي الكلاع قرب العدين، الأكوع: البلدان اليمانية، ص: 33، 135، 102، 46، 280، 281، الهمداني: الصليحيون، ص: 63، 64، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 337، جـ2، ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ1، 273، 2 ـ 348، 3 ـ 195، 4 ـ 118، 5 ـ 303، البغدادي: مراصد الاطلاع، ص: 126، 453، 696، 938، 1388. يحيى بن الحسين: غاية الأماني، جـ1، ص: 241.

(1) عمارة: تاريخ اليمن ص: 90، 91، ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 72 ـ 73، الوصابي: الاعتبار، ص: 29، الخزرجي: العسجد، ص: 105، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 335، 336، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، جـ1، ص: 241، الكبسي: اللطائف، ص: 25، 26، محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 41، 42، حصن يريس: أحد حصون مخلاف وحاظة، دهران: من قرى اليمن وهو حصن في عزلة بني عوض من حبيش من أعمال إب، يفوز: من حصون حمير في مخلاف جعفر الذي يسمى اليوم إب، شعب: جبل باليمن أو حصن في جبل حضراء أعلى جبل حبيش، عزان: من حصون ريمة باليمن، الخضراء: حصن باليمن في جبل أوصاب من أعمال زبيد أو مقاطعة حسنة أعلى جبل حبشي، ظفرْ: حصن في جبل وصاب من أعمال زبيد باليمن، القاضي الأكوع: البلدان اليمانية، ص: 284، 110، 297، 103، 180، 195. ابن الديبع: قرة العيون، ص: 339، جـ1، ص: 338 جـ1، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، هـ ص: 241، ياقوت الحموي: معجم البلدان 2 ـ 391، 4 ـ 118، 5 ـ 439، البغدادي: مراصد الاطلاع، ص: 545، 938، 1481.

(2) الخزرجي: العسجد، ص: 105، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 335 ـ 337، محمد الحداد: التاريخ العام لليمن، جـ2: 229.

(3) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 94، الحداد: التاريخ العام، ص: 229.

(4) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 93، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 240، الخزرجي: العسجد =

8 ـ (صنعاء وما حولها) حكمها كل من آل الضحاك الهمداني وأبي الفتوح الخولاني والأئمة الزيدية وقد دار صراع كبير بين هذه القوى الثلاث حول السيطرة على صنعاء، وكانت كل قوة من هذه القوى الثلاث تسيطر على صنعاء لبعض الوقت إلا أن آل الضحاك كانوا أكثر تلك القوى سيطرة عليها[1].

9 ـ (صعدة وما حولها) كانت تحت حكم الأئمة الزيدية[2].

10 ـ (مغارب اليمن الأعلى) أو مغارب صنعاء تحت سيطرة بني شاور[3].

11 ـ (حصن مسار) تحت حكم قوم من حراز[4].

12 ـ (تهامة) كانت تحت حكم بني نجاح وكانوا يوالون الخلافة العباسية[5].

وعند بدء إعلان علي الصليحي قيام دولته في العقد الرابع من القرن الخامس الهجري كانت أهم الزعامات القبلية الحاكمة لليمن هم (بنو معن) في عدن، (وبنو الكرندي) في المعافر، (وبنو التبعي) في السحول، (وبنو نجاح) في تهامة، (وبنو شاور) في مغارب اليمن الأعلى، (والزيدية) في صعدة، و(آل الضحاك الهمداني) في صنعاء.

ومن ناحية الوضع المذهبي لليمن في بداية القرن الخامس الهجري فإنه نتيجة لطبيعة اليمن الجبلية وبعدها عن مركز الخلافة العباسية، فقد كانت محطة جذب لجميع الفرق الإسلامية، لذلك انتشرت فيها جميع المذاهب الإسلامية، فمذهب الإسماعيلية انتشر في مغارب اليمن الأعلى فضلاً عن نجران وعسير[6]، ومذهب

= المسبوك، ص: 105، أشيح: حصن منيع عالي جداً في جبال اليمن ويعرف اليوم بحصن ظفار من أعمال آنس، ومقرى: مخلاف مكون من مخلاف المنار من أعمال آنس، ومن ناحية مقرى عنس وبعض مخلاف وادي الجار من أعمال ذمار. إسماعيل الأكوع: البلدان اليمنية، ص: 29، 272.

(1) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 64، الخزرجي: العسجد، ص: 50، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، جـ1، 242.

(2) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، جـ1، ص: 234، 235.

(3) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 244.

(4) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 94.

(5) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 334.

(6) محمد بن مالك الحمادي: كشف أسرار الباطنية، ص: 37، 75، 36. تحقيق د. زينهم، دار الصحوة، مصر، ط1، 1986م، مسلم اللحجي: شيء من أخبار الزيدية، ق5، 20، صورة لدى الباحث، الحسن بن أحمد الهمداني: الإكليل جـ1، ص: 329. تحقيق محمد الأكوع، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1963م، د. محمد أمين صالح: تاريخ اليمن الإسلامي (عصر الولاة) ص: 178 مطبعة الكيلاني، القاهرة، ط1، 1975م.

الأباضية انتشر في غرب صنعاء في شظب[1]، وفي حضرموت، أما الزيدية فقد انتشرت في صعدة وما حولها بينما انتشرت مذاهب أهل السُنَّة في بقية اليمن[2].

قيام الدولة الصليحية:

وفي أثناء هذا التفكك السياسي والتعدد المذهبي لليمن وبالتحديد في الربع الثاني من القرن الخامس الهجري ظهرت شخصية يمنية تعتنق المذهب الشيعي الإسماعيلي، يدعى علي بن محمد الصليحي، يعلن قيام دولة جديدة في اليمن تسمى الدولة الصليحية، ويعلن الولاء الإسمي للخلافة الفاطمية في مصر وقد أدت هذه الشخصية دوراً بارزاً في تاريخ اليمن السياسي خلال هذه الفترة حيث يرجع إليها الفضل الأكبر في قيام الدولة الصليحية وتوحيد اليمن، وباستعراض أدوار علي الصليحي في قيام الدولة الصليحية مبتدئين بمعلمه سليمان الزواحي فهي كالآتي:

سليمان الزواحي:

ظل دعاة الإسماعيلية في اليمن مستمرين بالدعوة سراً، تنتقل من شخص إلى آخر إلى أن تولى رئاسة الدعوة فيها أحد شخصيات حِمْيَر هو سليمان بن عبد الله الزواحي وذلك في عهدي الحاكم وعهد الظاهر الفاطميان[3]، أي فيما بين سنوات (400هـ إلى 427هـ) وقد اتصف سليمان الزواحي بكثرة المال والجاه[4]. وبكرم النفس والتعامل الطيب مع الأفراد حيث (كان يكرم الناس ويتلطف بهم)[5]. هذه الصفات جعلت سليمان الزواحي يؤدي دوراً بارزاً في استمالة الكثير من أهل مغارب اليمن الأعلى وأهل حراز إلى مذهبه الإسماعيلي، وكان أهمهم علي بن محمد الصليحي الآتي ذكره والذي كوَّن دولة إسماعيلية في اليمن.

---

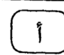
(1) مسلم اللحجي: شيء من أخبار الزيدية، ق5، 20.

(2) عمر بن علي بن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 80، 87 ـ 88، تحقيق فؤاد سيد دار القلم ـ بيروت، د. ت، محمد بن يوسف الجندي: السلوك في طبقة العلماء والملوك جـ1، ص: 249، تحقيق محمد الأكوع، نشر ج. ع. ي وزارة الأعلام، ط1، 1983م، الحسين بن عبد الله الأهدل: تحفة الزمن في تاريخ اليمن، ص: 242، تحقيق عبد الله الحبشي، منشورات المدينة، دار التنوير للطباعة بيروت ط1، 1986م.

(3) الحمادي: كشف، ص: 80، ابن عبد المجيد: بهجة اليمن، ص: 74، عماد الدين إدريس الحمزي: تاريخ اليمن من كتاب كنز الأخيار في معرفة السير والأخبار، ص: 77، تحقيق عبد المحسن مداعج، مؤسسة الشراع العربي، الكويت، 1992م. يوضح الحمزي أن دعوة سليمان الزواحي استمرت في عهد الحاكم والظاهر والمستنصر، ص: 77.

(4) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص: 74، إدريس الحمزي: تاريخ اليمن كنز الأخيار، ص: 77.

(5) الحمادي: كشف، ص: 80.



المرحلة المبكرة لعلي الصليحي

نسبه: ولد علي بن محمد الصليحي في قرية (قَتَرْ) من أعمال حراز[1] في سنة 403هـ/ 1012م)[2]، وينتسب إلى قبيلة الأصلوح من بلاد حراز[3] وإلى آل الصليحي من بني عبيد بن أوام بن حجور ثم من همدان، وهم بيت من الأخروج بين حضور وهوزن[4] وقد اتصف هؤلاء الصليحيون بأنهم أنجاد كرماء[5]..

تعليمه: من الأمور الأكثر أهمية معرفة مدارس أبرز قادة اليمن آنذاك، أمثال علي الصليحي ودور هذه المدرسة في تكوين عقله وفكره السياسي والمذهبي، فقد نشأ علي الصليحي في بيت عرف بالعلم والتقوى[6]، فوالده قاضي حراز، وأهم شخصية تولت تعليمه هو سليمان الزواحي الذي كان على علاقة طيبة بأبيه ومقرّباً إليه، فقد كان سليمان الزواحي يفد كثيراً على قاضي حراز السنّي محمد الصليحي، يلاطفه ويتقرّب إليه وذلك نظراً (لرئاسته وسؤدده وصلاحه وعلمه)[7]، مما جعل قاضي حراز يثق به كثيراً ويعهد إليه بتعليم ابنه علي الصليحي.

ولكثرة مخالطة سليمان الزواحي للقاضي محمد الصليحي وتعليمه لابنه، أدرك ذكاء علي الصليحي وفطنته وهو دون البلوغ. فاجتهد على تدريسه العلوم الإسلامية، ولما كبر علي الصليحي أخذ سليمان الزواحي (يخلو به ويحدثه على ما عنده من مذهبه)[8]. واستمر على ذلك (حتى استماله وغرس في قلبه

---

(1) الهمداني: الصليحيون، ص: 65، مصطفى غالب: أعلام الإسماعيلية، ص: 403، دار اليقظة العربية، بيروت، 1964م.

(2) مصطفى غالب: أعلام الإسماعيلية، ص: 403.

(3) الهمداني: الصليحيون، ص: 64، العرشي: بلوغ المرام ص: 24، الواسعي: تاريخ اليمن، ص: 172، وحراز من حمير، عرشي 24.

(4) أبو محمد الحسن الهمداني: الإكليل جـ10، ص: 99، تحقيق محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية القاهرة، 1368هـ، الهمداني: الصليحيون، ص: 64.

(5) أبو محمد الحسن بن يعقوب الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 211، تحقيق محمد الأكوع، دار الآداب، بيروت، ط3، 1403هـ ـ 1983م.

(6) الهمداني: الإكليل، جـ10/ 99.

(7) مصطفى غالب: أعلام الإسماعيلية، ص: 42.

(8) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 96، الخزرجي: العسجد، ص: 56، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 242، الهمداني: الصليحيون، ص: 68، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، جـ1، ص: 248.

ولبه ما غرس من علومه وأدبه ومحبة مذهبه)[1] حدث ذلك دون علم أبيه وقومه[2]. وطبيعي أن يكون ميل علي الصليحي إلى المذهب الإسماعيلي دون علم أبيه وقومه، وذلك بسبب مرور الدعوة الإسماعيلية بدور الستر، وخوفاً عليه من أبيه لأن أباه محمد الصليحي كان سنيًا شافعي المذهب وقاضي حراز، وحرصاً عليه من معارضة قومه له، لأن مذهب قومه كان مذهب أهل السُنَّة وهم على عداء مع الإسماعيلية.

زواجه: يعد زواج علي الصليحي ظاهرة فريدة، فيها نوع من الطرافة والغرابة، وهي تعطي صورة عن الحالة المالية لرجل تمكن من أن يحكم اليمن كله، إن دل ذلك على شيء فإنما يدل على عقليته ومقدرته على عدم اليأس من أكبر الأمور وأصغرها، فبالرغم من أن عليًا الصليحي كان إبناً لقاضي حراز، وأنه من آل الصليحي الموصوفون بالنجدة والكرم إلا أنه لم يكن صاحب ثراء عريض آنذاك، فقد وصف عمّارة حالته بأنه: (تقلبت به الأحوال في مبادئ عمره من خفض إلى رفع ومن ضر إلى نفع)[3]. ومن ذلك أنه عندما بلغ علي الصليحي الحلم أو مبلغ الرجال، وأراد الزواج من ابنة عمه أسماء بنت شهاب، غال أبوها عليه في مهرها، فحاول علي الصليحي الاتجاه إلى ملوك بني معن في عدن وآل الكرندي في السَّوأ من المعافر، للاستعانة بهم في تدبير المهر[4]، وكانت عادات العرب آنذاك ينجدون من يطلبهم الإعانة ممن يتعرضون لصولة الدهر ونكباته، مثل تحمل الديات[5].

ولما سار علي الصليحي نحوهم، ووصل إلى زبيد مساءً، دخل أحد مساجدها المجاورة لفرج السحرتي، وجلس يقرأ القرآن وأثناء ذلك خرج فرج السحرتي إلى المسجد يتفقد أحوال الغرباء النازلين عليه، وكان (من أهل المعروف

---

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 56، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 243، عبد الله الطيب بامخرمة: ثغر عدن، ص: 191، بيروت دار الجيل، عمان، دار عمار، ط2، 1987، الهمداني: الصليحيون ص: 68، د. مصطفى غالب، أعلام الإسماعيلية، ص: 403، د. حسن سليمان محمود: تاريخ اليمن السياسي في العصر الإسلامي، ص: 172، بغداد، المجمع العلمي العراقي، ط1، 1969م.

(2) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 96، الخزرجي: العسجد، ص: 56، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 243، الهمداني: الصليحيون، ص: 68.

(3) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 97، الهمداني: الصليحيون، ص: 65.

(4) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 98، 99، الهمداني: الصليحيون، ص: 66، الحداد: التاريخ العام، ص: 215.

(5) الهمداني: الإكليل، جـ2، ص: 66.

والصدقات الواسعة)[1]. ومن عادته أن يتفقد أحوال الضيوف سراً عن وكلائه وخدمه، فلما رأى فرج السحرتي رجلاً غريباً يقرأ القرآن ذهب إليه وطلب منه تناول طعام العشاء عنده، وفي البداية تجاهل علي الصليحي دعوة فرج السحرتي لإكرامه، وقال في ذلك شعراً من قول الشاعر المتنبي قوله:

من علّم الأسود المخصي مكرمة   أعمامه الغر أم أخواله الصيد

ومع ذلك فإن فرج السحرتي لم يلمه على ذلك، وأصر على أخذه إلى منزله، فلما أكرمه طلب منه أن يقص عليه سبب نزوله تهامة فأخبره علي الصليحي بقوله: (إن لي عمًّا يقال له شهاب وله ابنة يقال لها أسماء قليلة النظير في الجمال معدومة المثل في الأدب والعقل خطبتها إليه فاشتط في مهرها)[2]، ولما سمع فرج السحرتي قصته دفع إليه (مالاً جزيلاً أضعاف ما التمس الصليحي وجهّز العروسين جميعاً أحسن جهاز يحتفل الملوك به لعقائلهم، وأعاده إلى عمه فتزوج بأسماء)[3].

ومن الواضح أن هذه القصة حدثت قبل أن يعهد سليمان الزواحي برئاسة الدعوة وأمواله لعلي الصليحي، كما أنها كانت بعد موت أبيه القاضي محمد الصليحي، إذ أنه ليس من المعقول أن يكون أبوه موجوداً ويترك ابنه يذهب في طلب المال من بني معن أو بني الكرندي أو فرج السحرتي، ولا غال عليه شهاب في مهر ابنته، إذ أن المهر الذي طلبه شهاب كان كثيراً لا يقدر على تدبيره علي الصليحي[4] بسبب موت أبيه وحداثة سنه.



المرحلة السياسية لعلي الصليحي

1 ـ الدور السري:

رئاسة الدعوة: بعد أن نجح سليمان الزواحي في استمالة علي الصليحي إلى مذهبه الإسماعيلي، وثق به وقربه إليه، فتوطدت العلاقات بينهما واطمأن إلى

---

(1) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 98، الوصابي: الاعتبار، ص: 31، الهمداني: الصليحيون، ص: 66، الحداد: التاريخ العام ص: 251.

(2) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 98، الوصابي: الاعتبار، ص: 31، الخزرجي: العسجد، ص: 56، الهمداني: الصليحيون، ص: 66، الحداد: التاريخ العام ص: 251.

(3) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 98، الوصابي: الاعتبار، ص: 31، الهمداني: الصليحيون، ص: 66، الحداد: التاريخ العام ص: 251.

(4) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 99.

ذلك، واستمر سليمان في نشر الدعوة الإسماعيلية في اليمن سراً حتى عهد بنقل رئاسة الدعوة إلى علي الصليحي ليكمل مشوار المسير في الدعوة بنفس الطريقة السرية، وذلك عندما شعر سليمان الزواحي بقرب أجله أوصى برئاسة الدعوة الإسماعيلية إلى علي الصليحي، وأوصى له بجميع كتبه[1]. (وأعطاه مالاً جزيلاً كان قد جمعه من أهل مذهبه)[2]. كما أوصى أهل مذهبه بالسمع والطاعة له[3] بذلك أصبح علي الصليحي داعية إسماعيلية. وكما يبدو أن ذلك كان سنة 427هـ/1035م) بداية تولي المستنصر الخلافة. بعد ذلك عكف علي الصليحي على دراسة المذهب الإسماعيلي حتى تضلَّع في معارفه (وأصبح فقيهاً في مذهب الإمامية (الإسماعيلية) مستبصراً في علم التأويل)[4].

حجه: ومنذ أن بلغ الحلم علي الصليحي بدأ يستخدم أسلوب الحج حقلاً لنشر مذهبه الإسماعيلي[5]، وميداناً لوصوله إلى السلطة، وذلك بعمله دليلاً للحج (على طريق السروات) والطائف لعدة سنين لا يحج بالناس أحد غيره[6]، إستغرق في هذا العمل ما يقارب الخمس عشرة سنة[7]، واتصل خلال عمله هذا بأنصار مذهبه الإسماعيلي في أنحاء اليمن، عن طريق الإلتقاء بهم في الحج، فتعرَّف عليهم وعرف إمكانية تحويل الدعوة الإسماعيلية من دورها السري إلى دورها العلني.

استطلاعه الأمر: وفي الوقت الذي بدأ فيه علي الصليحي يتطلع إلى السياسة

(1) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 96، عبد الباقي عبد المجيد: بهجة الزمن في تاريخ اليمن، ص: 74، بيروت ـ دار الفكر المعاصر، ط1، 1988م، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، جـ1، ص: 248، الوصابي: الاعتبار، ص: 31.

(2) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 74، الخزرجي: العسجد، ص: 56، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 242، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 191، 192، إدريس الحمزي: تاريخ اليمن كنز الأخبار، ص: 77، الهمداني: الصليحيون، ص: 69، د. حسن سليمان: تاريخ اليمن السياسي في العصر الإسلامي، ص: 174، حريري: معالم، ص: 28.

(3) الحمادي: كشف، ص: 81.

(4) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 97، الخزرجي: العسجد، ص: 56، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 243، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 192، الوصابي: الاعتبار، ص: 31.

(5) مصطفى غالب: أعلام الإسماعيلية، ص: 403، الهمداني: الصليحيون، ص: 69.

(6) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 97، الخزرجي: العسجد، ص: 56، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 192، الوصابي: الاعتبار، ص: 30، الحمزي: تاريخ اليمن كنز الأخيار، ص: 77.

(7) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 100، 101، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 75، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 243، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 192، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، جـ1، ص: 248، ابن خلدون: تاريخ، ص: 137.

والحكم، توجه في شبابه إلى مدينة حيس يستطلع أخبار عبدي مرجان وهما نجاح وأنيس أو نفيس، وذلك أثناء حربهما من أجل السلطة في تهامة والتي دامت عدة سنوات. وذلك كما يبدو فيما بين سنة 426هـ إلى سنة 428هـ. فلما مر على بعض من يعرفه تنكّر عنهم، فخلع ثيابه ولبس ثياب سلاط (بائع سليط) من معصرة من إحدى معاصر حيس[1]، وبعد معرفة أخبار نجاح وأنيس عاد إلى حراز. وكما يبدو أن صراع نجاح وأنيس حول السلطة في تهامة دفعت علي الصليحي إلى الاهتمام بإظهار دعوته وتكوين دولة له.

2 ـ الدور السلمي:

حين أدرك علي الصليحي أنه سوف يستفيد من سمعة ومكانة أبيه القاضي محمد الصليحي لدى أهل حراز كونه كان يطيعه أربعون ألف رجل منهم[2]، وذلك لإتصافه بأنه كان (حسن السيرة مرضي الطريقة مطاع في أهله، وجماعته ولا يخرجون عن أمره)[3] عمل على بدء إظهار دعوته سلمياً فوقف أهل حراز هؤلاء إلى جنبه.

مبايعته: وفي هذا الدور بدأ علي الصليحي بإظهار الدعوة الإسماعيلية بطريقة سلمية دون مجابهة أية قوة، وكانت بداية ذلك بعد أن تولى رئاسة الدعوة الإسماعيلية بوصية من سليمان الزواحي له، والتفاف الإسماعيلية كلهم حوله، ففي حج سنة 428هـ/ 1036م بايعه في مكة على القيام بالدعوة ستون رجلاً من الإسماعيلية، ممن كانوا وجهاء في عشائرهم وفي منعة من قومهم لكثرة عددهم[4]، فساهم ذلك في نقل الدعوة الإسماعيلية من دور الستر إلى دور الظهور السلمي.

تحصنه: فبعد عودة علي الصليحي من الحج مع من بايعه من أنصاره الإسماعيلية، طلع جبل مسار للمرة الأولى في شوال سنة 429هـ/ 1037م، بغرض تحصينه، ولما علمت القوى السياسية اليمنية المجاورة له بطلوعه وأصحابه حصن

---

(1) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 100.

(2) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 95.

(3) الخزرجي: العسجد، ص: 56، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 242.

(4) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 101، 102، الخزرجي: العسجد، ص: 56، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 243، 244، بامخرمة: ثغر عدن ص: 192، أحمد المطاع: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 226، تحقيق الحبشي، بيروت، دار التنوير، ط1، 1986م، سعيد عوض باوزير: معالم تاريخ الجزيرة العربية، ص: 190، عدن، مؤسسة الصبان، ط2، 1966م، عبد الرحمن ابن خلدون: تاريخ اليمن المنقول من العبر، ضمن تاريخ اليمن لعمارة: تحقيق حسن سليمان محمود، دار الثناء، شارع الجيش، القاهرة، 1957م، ص: 137.

مسار، استنكروا عمله ذلك واتجهوا إليه مسرعين بجموعهم الكثيرة (فأحاط به عشرون ألف ضارب سيف)[1].

فحاصروه وقبحوا عمله وشتموه، وقالوا له: (إما نزلت وإما قتلناك أنت ومن معك بالجوع)[2]، رأى علي الصليحي أنه غير قادر على مقاومة هذه القوى الكبيرة فاستخدم معهم أسلوب المهادنة والمسالمة فقال لهم: (إني لم أفعل ما فعلت إلا خوفاً عليكم أن يملك هذا الجبل علينا وعليكم، فإن تركتموني أحرسه وإلا نزلت إليكم)[3]، فاقتنعوا بكلامه هذا وانصرفوا عنه فأخذ علي الصليحي يبني حصن مسار بناء منيعاً، بوضعه درباً محكماً على أنحاء الحصن، فلم تمض غير أشهر قليلة حتى أكمل تحصينه[4] بذلك يكون علي الصليحي قد بدأ في إعلان الخطوة الأولى نحو بدء قيام دولته.

دخوله صنعاء: وفي هذا الدور السلمي تمكن علي الصليحي من دخول صنعاء في سنة (432هـ/ 1040م) وذلك أثناء انعدام وجود سلطة القبائل الهمدانية، والخولانية، والأئمة الزيدية، وغيرهم على صنعاء، بسبب احتدام الصراع القبلي حول تولي السلطة بها حيث كانت صنعاء تخلو من وجود سلطة بها في بعض السنوات، من ذلك أنها خلت على فترات منها في ما بين سنة 429هـ/ 1037م إلى 431هـ/ 1039م، يوضح ذلك ابن عبد المجيد بقوله: (فدخل ابن أبي حاشد صنعاء ثم خرج منها فتعطلت من السلطنة إلى سنة 431هـ/ 1039م[5]، وما بين سنة 432هـ/ 1040م إلى سنة 437هـ/ 1045م حيث يقول ابن عبد المجيد أيضاً: (وصنعاء خالية من السلطنة إلى شوال سنة 437هـ/ 1045م)[6]. كما عبر عن ذلك صاحب الأنباء

---

(1) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 117، الخزرجي: العسجد، ص: 56، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 244، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 192، الوصابي: الاعتبار، ص: 32.

(2) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 117، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 75، الخزرجي: العسجد، ص: 56، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 244، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 192، الهمداني: الصليحيون، ص: 75، الحداد: التاريخ العام، ص: 217.

(3) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 117، الخزرجي: العسجد، ص: 56، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 244، الوصابي: الاعتبار، ص: 32.

(4) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 117، الخزرجي: العسجد، ص: 56، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 244.

(5) ابن المجيد: بهجة الزمن، ص: 70.

(6) ابن المجيد: بهجة الزمن، ص: 71، الحزرجي وابن الديبع يذكران أن صنعاء خلت من السلطنة إلى سنة 439هـ بدلاً من 437هـ التي ذكرها ابن عبد المجيد والأصح ما ذكره ابن عبد المجيد، لأن الإمام الزيدي الديلمي دخل صنعاء سنة 437هـ.

بقوله: (من سنة 504هـ إلى سنة 448هـ عمَّ الخراب صنعاء وغيرها من بلاد اليمن لكثرة الخلاف والنزاع وعدم اجتماع المملكة الواحدة... وأظلم اليمن وكثر خرابه وفسدت أحواله... وكانت صنعاء وأعمالها كالخرقة لها في كل سنة أو شهر سلطاناً غالباً عليها، حتى ضعف أهلها وانتقلوا إلى كل ناحية)[1]، كذلك عبر عن ذلك الربعي بقوله: (بقي الناس في ظلمة وفتن وزلازل ومحن من سنة أربع وأربعمائة إلى تسع وثلاثين وأربعمائة)[2].

ضرب عملة جديدة: وفي هذه الفترة التي دخل فيها علي الصليحي صنعاء أصدر بها عملة نقدية هي الدينار، كتب عليها ضُرِب في صنعاء سنة 433هـ كما كتب عليها اسم الداعي علي بن محمد فقط دون ذكر الخليفة الفاطمي، إلا أنه كتب عليها المأثورة الشيعية المعروفة وهي: (عليٌّ ولي اللّه)[3]، مما يدل على أن عليًّا الصليحي في هذا الدور السلمي لم يعلن إظهار التبعية للخلافة الفاطمية، واكتفى بإظهار الانتماء الشيعي والإسماعيلي بتلك العبارة، وربما يكون سبب ذلك تولي المستنصر الخلافة الفاطمية وهو طفل فظل يترقب ثبوت سلطته، أو بسبب عدم إثارة القبائل اليمنية ضده حتى يتمكن من تثبيت أقدامه وتكوين قوته.

سياسة المهادنة: من أهم ما فكر به الصليحي مسالمة القوى اليمنية، حتى يتمكن من تقوية نفسه، ففي أثناء هذا الدور السلمي عمل علي الصليحي على مكاتبة نجاح حاكم تهامة، وذلك بهدف مهادنته وملاطفته والعمل على الاستكانة لأمره، لأنه كان يخشاه ويخافه[4] باعتباره ممثلاً للخلافة العباسية ومدافعاً عن مذهب أهل السُنَّة في اليمن، ومع طاعته تلك لنجاح فإنه كان كاتماً (لما يضمره من الدعوة)[5]. ويعمل الحيلة في إظهار أمره[6] وإعلانه التبعية للخلافة الفاطمية، فاستمر أمر علي الصليحي يستفحل شيئاً فشيئاً[7] حتى بدأ الدور الحربي.

(1) الهمداني: الصليحيون، ص: 63، عن ـ أنباء ـ دار 27 ـ 27.

(2) مفرج بن أحمد الربعي: سيرة الأميرين الشريفين، تحقيق رضوان السيد، وعبد الغني محمود، دار المنتخب العربي، بيروت ط1، 1413هـ ـ 1993م، ص: 72.

(3) د. محمد أبو الفرج العش، المسكوكات في الحضارة العربية الإسلامية، مجلة الإكليل اليمنية، ص: 43، وزارة الأعلام صنعاء، العدد الخامس، سبتمبر 1981م.

(4) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 117، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 193.

(5) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 117.

(6) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 75، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 193.

(7) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 117، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 49، الخزرجي: العسجد، ص: 56، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 344، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 193، الهمداني: الصليحيون ص: 73.

3 ـ الدور الحربي:

عندما أحس علي الصليحي أنه قادر على إعلان قيام دولة له، بما يملك من قوة وملاءمة الظروف له بدأ يتحوّل من دور المسالمة إلى دور استخدام القوة فاتجه إلى طلوع حصن مسار للمرة الثانية (ليلة الخميس للنصف من جمادى الأولى سنة تسع وثلاثين وأربعمائة) مع أنصاره البالغ عددهم تسعمائة وخمسين رجلاً[1] وجاهر بإعلان إظهار الدعوة إلى الخليفة المستنصر الفاطمي معد بن الظاهر صاحب مصر[2].

وقبل بدء الدور الحربي راسل علي الصليحي الخليفة المستنصر الفاطمي بمصر، معلناً موالاته له. وطالباً منه الإذن بإظهار الدعوة في اليمن فعاد رد الخليفة الفاطمي بالسماح لعلي الصليحي بإظهار الدعوة. فلما وصل الرسل إلى المهجم من تهامة عائدين من مصر، طلع علي الصليحي حصن مسار، فوصلوا إليه إلى الحصن بعد يومين من طلوعه[3].

وكما يتضح أن عليًا الصليحي كان يهدف بمراسلته هذه المرة إلى الخليفة المستنصر الفاطمي هو إشعار الخليفة عن أموره أولاً، وإشعار الخليفة بالوقوف معه ضد العباسيين ثانياً. وذلك لكي يتمكن من تأمين جانبه من العباسيين في حالة تفكيرهم إرسال جيش نحو اليمن باعتبارها تابعة لهم.

وفي بداية هذا الدور أيضاً كان علي الصليحي قد بدأ بمراسلة أنصاره الإسماعيلية إلى أماكن كثيرة ومواضع مختلفة ومتباعدة في أنحاء اليمن، يستدعيهم

---

(1) الحمادي: كشف أسرار الباطنية، ص: 81، يذكر ابن سمرة أن ثورة علي الصليحي في حصن مسار كانت في شوال من سنة 439هـ، الطبقات، ص: 97، بينما يذكر ابن عبد المجيد أنه كانت في ثالث جمادى الآخرة، بهجة الزمن، ص: 72، أما عبد الله الثور فيذكر أنها كانت في شهر ذي القعدة، هذه اليمن، ص: 378، والأصح هي رواية الحمادي لمعاصرته علي الصليحي، بينما ابن الأثير يذكر أن ظهور علي الصليحي باليمن كان في سنة 447هـ، وهذا يخالف الأحداث التي ذكرها مؤرخو اليمن، ولكن الذي يبدو أن ابن الأثير يشير إلى دخول علي الصليحي صنعاء سنة 447هـ بعد عودته من تهامة، وجعلها عاصمة له، ابن الأثير: الكامل، جـ9، ص: 614، كذلك يذكر الربعي، ص: 73، أن ثورة الصليحي في شهر جمادى دون أن يذكر اليوم، والهمداني في الصليحيين، ص: 73، يوافق الحمادي، أما كل من عمارة، ص: 101، والخزرجي، ص: 56، وابن الديبع، ص: 243، ويحيى بن الحسين، ص: 247، فهم يذكرون السنة فقط دون ذكر الشهر أو اليوم.

(2) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 244، الجندي: السلوك، جـ2، ص: 486، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 193، ابن خلدون: تاريخ، ص: 137.

(3) الهمداني: الصليحيون، ص: 75 ـ 76 نقلاً عن إدريس: عيون الأخبار: 7 ـ 7.

الحضور إليه لموعد حدده لهم[1] هو موعد ظهوره في حصن مسار في جمادى سنة 439هـ/ أكتوبر (1047م)، فاستجابت له شيعته، فوصلوا إليه من أنحاء اليمن مصطحبين معهم الكثير من الأموال[2].

ومن هذه القبائل التي وصلت إليه جمع كبير من مناطق عسير، ونجران، مثل قبائل سنحان، وَيَام، وجَشْم[3]، وجُنَبْ[4]، ونَهَد[5]، وهُبَيْرَة المسماة بالحجازين[6]، وهم من حمير وهمدان[7]. وبالطبع كان قدوم تلك القبائل المناصرة لعلي الصليحي على فترات، حيث كانت كل فترة تفد جماعة منهم.

وفي هذا الدور بدأ الصراع العسكري أو القتال فيما بين علي الصليحي والقوى اليمنية الأخرى. فقد شعرت القوى اليمنية المختلفة بخطورة ظهوره، فبدأت تتجمع في تكتلات متعددة لمقاومته وخاصة في المناطق المجاورة لهم. وقد بذل علي الصليحي مجهوداً كبيراً في إظهار الدعوة الإسماعيلية، فحارب قبائل اليمن المتعددة حرباً شديداً حتى تمكن من تكوين دولته. ويمكن تقسيم الدور الحربي أو صراع علي الصليحي إلى أربع صراعات:

1 ـ صراعه مع زعامات قبائل اليمن الأعلى.

2 ـ صراعه مع الزيدية.

3 ـ صراعه مع زعامات قبائل اليمن الأسفل.

4 ـ صراعه مع نجاح.

---

(1) الحمادي: كشف، ص: 81.

(2) محمد بن يوسف الجندي: السلوك في طبقات العلماء والملوك، جـ2، ص: 476، الخزرجي: العسجد، ص: 56، 57، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 244، الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، ص: 55، تحقيق د. يوسف شلحد، بيروت، دار العودة، 1983م، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 192، حسن سليمان: تاريخ اليمن السياسي، ص: 57.

(3) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 75، الخزرجي: العسجد، ص: 57.

(4) الحمادي: كشف أسرار الباطنية، ص: 84، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 228.

(5) المطاع: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 228.

(6) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 75، هناك قبائل أخرى من سنحان جنوب شرق صنعاء، وجنب شرق ذمار، لذلك سموا سنحان وجنب في نجران وعسير بالحجازين، وجنب وسنحان من قبائل مذحج، ونهد من حمير، ويام من همدان.

(7) عبد الواسع بن يحيى الواسعي: تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن، ص: 172، الدار اليمنية للنشر، ط4، 84م.

أولًا

صراعه مع زعامات قبائل اليمن الأعلى

في الوقت الذي أعلن فيه علي الصليحي إظهار موالاته للفاطميين سياسياً ومذهبياً خرجت القبائل اليمنية المتعددة معلنة محاربته، لأن ذلك يشكل خطراً سياسياً ومذهبياً على تلك القبائل، التي كانت تحاول الاحتفاظ بسلطانها القبلي والمذهبي على مناطقها. لذلك فإن أول من شعر بهذا الخطر السياسي والمذهبي وبدأ يتجه لمقاتلته، قبائل مغارب اليمن الأعلى المجاورة له، والتي تجمعت إلى رئيسهم جعفر بن عباس الشاوري تحثه على القتال[1]، لأنه كان يحكم تلك المناطق وكان مجاباً بها، كما اتجه هو الآخر إلى تحريض قبائل مغارب اليمن الأعلى للقتال معه، لأنه شعر بخطورة ظهور علي الصليحي المخالف له في المذهب، حيث كان الشاوري شافعي المذهب، فتجمع إليه الكثير من القبائل يقدرون بثلاثين ألف رجل، وشارك في هذه التجمعات الشريف جعفر بن القاسم العياني[2] فساروا جميعاً نحو علي الصليحي المتحصن في مسار، فلما قاربوا الحصن خرج إليهم علي الصليحي لمقاتلتهم فدارت معركة شديدة بين الطرفين في شعبان من نفس السنة وهي سنة 439هـ/ 1047م انتهت بانتصار علي الصليحي وقتل جعفر الشاوري وكثير من أصحابه[3] منهم منيع بن إسحاق الهمداني من بني حماد في جماعة من بني عمه بالجحادب[4] والذي ساعد علي الصليحي في الانتصار على الشاوري في هذه المعركة، أن مناطق الشاوري المسيطر عليها كانت من أهم مناطق انتشار المذهب الإسماعيلي منذ عهد ابن حوشب، فلم يخلصوا له في المعركة رغم كثرة عددهم. وبعد هذا الانتصار فسح المجال أمام علي الصليحي في الظهور والتوسع.

---

(1) مفرج بن أحمد الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 72 ـ 73.

(2) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 75، الخزرجي: العسجد، ص: 57، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 344، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 192، د. حسن سليمان: تاريخ اليمن السياسي، ص: 177، 178، محمد زبارة أئمة اليمن، جـ1، ص: 92، تعز، مطبعة الناصر، 1952م، الحداد: التاريخ العام، ص: 219، 220، الحمزي: كنز الأخبار، ص: 78.

(3) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 75، الخزرجي: العسجد، ص: 57، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 344، الحمزي: كنز الأخبار، ص: 78، يذكر كل من الخزرجي وابن عبد المجيد وابن الديبع أن الشريف جعفر بن القاسم قاتل مع الشاوري وصاحب تاريخ اليمن المجهول يورد العبارة التالية: (فقتل ابن عباس ومعه خلق عظيم وانهزم جعفر) مما يدل على اشتراك جعفر مع الشاوري، ق: 163.

(4) مفرج الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 73، عمارة: تاريخ اليمن، هامش، ص: 107.

وبعد تحقيق هذا النصر على الشاوري تحقق لعلي الصليحي الاستقرار في حصن مسار لأن الشاوري كان أهم زعيم قبلي في تلك المنطقة المجاورة له فكتب إلى الإمام المستنصر الفاطمي معلناً إظهار الدعوة الإسماعيلية ومعلناً ولاءه له، وللتعبير عن هذا الولاء (وجه إليه بهدايا سبعين سيفاً مقابضها عقيق واثنتي عشرة سكيناً نصلها عقيق لأن للعقيق عندهم قدراً لأنه لا يكون إلا في اليمن، وخمسة أثواب وشي وجام عقيق وفصوص عقيق مع إهليج كابلي ومسك وعنبر). وبعث تلك الهدايا مع رجلين من قومه هما خاله أبو سبأ أحمد ابن المظفر الصليحي ووالد السيدة أحمد بن محمد الصليحي، وبعد أن تسلم المستنصر تلك الهدايا رد على علي الصليحي بأن بعث إليه (برايات وألقاب وعقد له الولاية)[1] على اليمن. كذلك رد المستنصر على علي الصليحي في سجل له أبدى فيه عدم رضاه بما استولى عليه الصليحي بقوله: (قولوا للداعي علي أني لا أرضى أن أقتصر على ملك حراز والحصن الذي ملكه فيها وهو يملك حصون اليمن قاصيها ودانيها عن قريب)[2].

إقامة المراكز: واستكمالاً لذكر صراع علي الصليحي مع الزعامات في اليمن الأعلى، يأتي دور الزعامات المسيطرة على صنعاء وصراعها مع علي الصليحي، فقد حاولت تلك الزعامات القبلية إستخدام أسلوب منع أنصار علي الصليحي من الوصول إليه عبر بلادهم. ففي سنة 422هـ/ 1050م عندما أرادت جماعة علي الصليحي الوصول إليه وحاولت العبور إليه من أنحاء متفرقة من اليمن وخاصة من

---

(1) الحمادي: كشف أسرار الباطنية، ص: 12، الجندي: السلوك، جـ2، ص: 486، ابن الديبع: الفضل المزيد، ص: 55، 56، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 47، 193. اختلفت المصادر في ذكر الهدايا التي بعث بها علي الصليحي إلى المستنصر والسنة التي بعث بها وطلب الاستئذان في إظهار الدعوة فالحمادي، ص: 81، 82، يذكر أن علياً الصليحي أرسل الهدايا بعد أن استقر في حصن مسار سنة 439هـ/ 1047م دون أن يذكر الطلب بالاستئذان بإظهار الدعوة، وعمارة، ص: 118، 119، يذكر أن علياً الصليحي كتب إلى المستنصر سنة 453هـ 1158م دون أن يذكر الهدايا وكل من الخزرجي، ص: 57، ابن الديبع، ص: 346، بامخرمة، ص: 193، يحيى بن الحسين ن 1/ 253، يجمعون بين الروايتين أو يخلطون بين الأمرين فهم يذكرون الهدايا وطلب الاستئذان معاً، وأنه كان سنة 453هـ/ 1158م أما الجندي، جـ2، ص: 486، فهو يذكر أن علياً الصليحي أرسل بالهدايا فقط وذلك بعد فتحه لصنعاء ولم يذكر طلبه بإظهار الدعوة بينما يذكر أن رد المستنصر لعلي الصليحي يشمل الإذن له بإظهار الدعوة، وعقد له الولاية على اليمن. والذي يتضح أن علياً الصليحي كان على اتصال مستمر مع المستنصر فكان يخبره بكل أمر يجد عليه ويطلب رأيه في ذلك وهو ما يعبر عن طلب الاستئذان كما كان يرسل له الهدايا باستمرار وعلى ذلك فقد أرسل هدايا وطلب الإذن عندما سيطر على حصن مسار وقبله وبعده.

(2) حسن سليمان محمود: الصليحيون في اليمن وعلاقتهم بالفاطميين في مصر، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، 1952م.

سنحان، ويام، وجنب، المسمى بالحجازين. أقام زعماء القبائل على أنصار علي الصليحي المراكز من جميع أنحاء بلادهم ومنعوهم الطريق والوصول إليه، وعلى رأس هؤلاء الزعماء الذين أقاموا المراكز المنصور بن أبي أسعد بن أبي الفتوح الخولاني، الذي أقام عليهم الحراس في كل مكان وكلف عبد الأعلى بالإغارة عليهم، ولما عبروا من حدود مذحج وصاروا بوعلان هجم عليهم عبد الأعلى وقتل منهم أكثر من مائة رجل، ومع ذلك فقد وصلت إليه أنصاره بطرق متعددة مثل بذل المال وغيره[1].

توسع الصليحي: أما من جهة الصليحي فإنه بعد تحقيقه الكثير من الانتصارات، حاول التوسع بالسيطرة على الحصون المجاورة له، ففي جمادى الأولى سنة 443هـ/ 1051م اتجه نحو حصن حضور أو ما يسمى (بيت خولان) أو (جبل النبي شعيب) فأخذه ثم اتجه نحو حصن (يناع بالحيمة الداخلية) وهو أحد مواضع بني الصليحي في الأخروج فسيطر عليه بمساعدة أبي الحسن مهلهل بن جناح الحميري وذلك بعد قتل الكثير من الأحبوب وأهل جبل يناع ممن وقفوا لقتاله، منهم ابن أبي العسكر والعطاب في جماعة من وجوه تلك المناطق[2].

معركة صوف: ونتيجة لهذه الانتصارات المتعددة التي حققها علي الصليحي وتوسعه، إرتاع أهل اليمن، وشعرت القوى المختلفة في اليمن الأعلى بخطورته، فاجتمع الكثير من الناس من حمير وبني الحارث وهمدان في عدد من رؤسائهم إلى السلطان حاشد بن يحيى أمير صنعاء ورئيس همدان، وقرروا الاتجاه لمحاربة علي الصليحي، فساروا جميعاً إلى قتاله على شكل فرق، فالفرقة الأولى وهي مجموعة من الهمدانيين، سارت على رأسها أحد رؤسائهم وهو عبد الأكبر بن وهيب الهمداني الذي كان يعدّ من أصحاب البأس والشدة والنجدة، فهجم على الجبل المصاقب لجبل (بيت خولان) وغنم الكثير مما فيه، ثم انسحب سالماً بعد أن قتل منهم مجموعة كبيرة، وممن قتل منهم شاعر بني الصليحي ولسانهم محمد بن جعفر بن راسان[3]، أما بقية العسكر وهم الفرقة الثانية فقد ساروا بقيادة زعيمهم

---

(1) مجهول: تاريخ اليمن في الكواني والفتن وملوك حمير وفي رجال الحديث من الصحابة والتابعين، ص: 173، أمبروزيانا ـ مخطوط رقم 15.

(2) مفرج الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 74، 75، مجهول: تاريخ اليمن، ق: 173، عمارة: تاريخ اليمن، هامش، ص: 111، يذكر مفرج الربعي صاحب السيرة أن سيطرة علي الصليحي على يناع في سنة 444هـ بينما يذكر صاحب تاريخ اليمن لمؤلف مجهول أنها كانت سنة 443هـ وهي المرجح لأنه أورد اسم الشهر الذي وقعت فيه.

(3) مفرج الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 75، عمارة: تاريخ اليمن، هامش، ص: 111.

أمير صنعاء أبو حاشد بن يحيى بن الضحاك حتى وصلوا (يازل) في وادي (صوف).
ومن جهة علي الصليحي فقد وقف يرقب تحركات هذه القوة القبلية واتجاهها نحوه، فلما وصلوا (وادي صوف) نزل عليهم بجيشه في هجوم كاسح تمكن من إلحاق الهزيمة بهم[1] قتل منهم ما يقدر بألف رجل[2] على رأسهم قائدهم وهو أبو حاشد في عدة من الرؤساء والسلاطين، وغنم ما كان معهم من الخيل والسلاح والعدد والرماح وغيرها[3]. وكانت تلك المعركة في يوم الأحد من شهر ربيع الأول 444هـ/ 1052م[4] بهذه المعركة وهي وقعة (صوف) يكون علي الصليحي قد أكمل القضاء على أغلب رؤساء القبائل في اليمن الأعلى من همدان وحمير وخولان وبني الحارث وغيرهم، إذ يضرب المثل في اليمن بهذه الواقعة ويقال (قتله صوف)[5] فازداد استفحال أمره وطار ذكره في أنحاء اليمن[6] وأصبحت صنعاء مفتوحة أمامه.

ويرجع السبب في انتصار علي الصليحي في هذه المعركة إلى مكان القتال، حيث إن هذه القوى الكبيرة اتجهت نحوه وقاتلته في مناطق ضيقة وغير محصنة، فلم تتمركز في مواقعها الحصينة، وقد نوّه إلى ذلك أحد أشراف الحماديين من همدان وهو حتروش الذي نصحهم بعدم مفارقة قاع سَهْمَان بقوله: (لا أراكم أن تفارقوا مواضعكم. وإن هبط إليكم القوم أخذتهم الخيل في هذا القاع، وإن وقفوا كنتم أصبر فأبوا إلا التقدم)[7]. كما يرجع إلى أسلوب القتال الذي قام به علي

---

(1) مفرج الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 75 ـ 76، المطاع: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 231ن، عمارة: تاريخ اليمن، هامش، ص: 111، 112، (صوف) قرية ما بين الحيمة وحضور، في غاية الأماني، جـ1، ص: 249، وقرية بين حضور بلد بني شهاب في قرة العيون، ص: 245، وكما يبدو أن بلدة بني شهاب هي الحيمة.

(2) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 75، الخزرجي: العسجد، ص: 57، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 245، هؤلاء ذكروا عدد القتلى، أما صاحب سيرة ذي الشرفين لم يذكر عدد القتلى بلى اكتفى بذكر (وقتل في ذلك خلق كثير) ص: 76.

(3) مفرج الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 76، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 75، الخزرجي: العسجد، ص: 57، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 245، إدريس عماد الدين: لا يذكر قتل أبي حاشد في معركة (صوف) بل يذكر أن علياً الصليحي سيطر على صنعاء ودخل أبو حاشد في طاعته عيون، جـ7، ص: 15، نقلاً عن الصليحيين هامش، ص: 81.

(4) مفرج الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 76، يورد صاحب تاريخ اليمن لمؤلف مجهول أن معركة (صوف) كانت في خمس بقين من جمادى الأولى سنة 443هـ، ق: 173.

(5) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 75، الخزرجي: العسجد، ص: 57، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 245، الحداد: التاريخ العام، ص: 221.

(6) المطاع: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 231.

(7) المطاع: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 228، 229 نقلاً عن مسلم اللحجي.

الصليحي، إذ أنه هجم عليهم مباغتة في وادي صوف الضيق مما أربكهم وجعلهم غير قادرين على الدفاع عن أنفسهم. كذلك يرجع إلى تنسيق القوى فقد كانت قوات علي الصليحي متماسكة لاعتقادها بمذهب الإسماعيلية، بينما كانت قوات حِمْير وهمدان وخولان غير متماسكة لأن هذه القبائل ظلت في صراع مستمر مع بعضها البعض حول السيطرة على صنعاء منذ ما قبل قيام علي الصليحي[1].

دخول الصليحي صنعاء: بعد أن أسفرت معركة صوف 444هـ/ 1052م عن قتل أمير صنعاء وزعيم همدان أبي حاشد بن يحيى الضحاك أصبحت صنعاء مفتوحة أمام علي الصليحي، فأسرع في الاستيلاء عليها دون مقاومة من أحد، وظلت منذ ذلك التاريخ تحت نفوذ الصليحيين[2]. وعلى الرغم من دخول علي الصليحي صنعاء والسيطرة عليها إلا أنه سرعان ما غادرها في نفس السنة، بعد أن ترك عليها مؤيديه يحكمونها باسمه، وسار نحو (بيت خولان) ومنها توجه نحو مدينة زبيد في تهامة، فمكث بها فيما بين سنة 444هـ ـ 447هـ/ 1052 ـ 1055م ثم عاد إلى صنعاء بسبب خوفه من سيطرة الزيدية عليها بعد أن علم بتحركهم إليها[3].

وفي أثناء دخول علي الصليحي صنعاء هذه المرة أي سنة 447هـ حاول إخضاع الكثير من القبائل، فقام بإرسال حملات إلى منطقة (عجيب) وغيرها[4] كما أنه توجه بقواته مع الكثير ممن أطاعه من أهل المشرق نحو يحصب ورعين (يريم ورداع) حيث دارت فيها عدة معارك شديدة بينهم أدت إلى قتل الكثير منهم، انتهت بإلزامهم بطاعته، ثم عاد إلى صنعاء، وأقام بها أياماً، ثم خرج بمن أطاعه من يحصب ورعين وجماعة من أهل المشرق وهمدان نحو بلاد حمير، فأطاعه مغارب اليمن الأعلى كله[5].

ثانياً

صراعه مع الزيدية

على الرغم من وجود علاقة مشتركة بين الإسماعيلية والزيدية في المفهوم السياسي، بأن الفريقين ينتميان إلى الشيعة مع فارق أن الزيدية تعتقد أن الإمامة يجب أن تكون في أولاد الحسن والحسين معاً، بينما تحصر الإسماعيلية الإمامة في

---

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 50، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 231.
(2) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 75، الخزرجي: العسجد، ص: 57.
(3) مفرج الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 76، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 233.
(4) مفرج الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 93.
(5) مجهول: تاريخ اليمن، ق: 173، يبدو أن قتل الإمام الديلمي كان في نفس هذه الفترة عندما تحرك علي الصليحي نحو يحصب ورعين حيث قتل فيها وذلك فيما بين سنة 448هـ ـ 449هـ.

أولاد الحسين فقط من أحفاد إسماعيل بن جعفر الصادق، إلا أنه حدث عداء كبير وواضح بين الفرقتين، وشكلت الزيدية عائقاً كبيراً أمام توسع الدولة الصليحية واستقرارها، فتحارب الطرفان حروباً عدة في عدة مواقع ومناطق في اليمن، وهنا نستعرض المعارك التي حدثت بينهما.

أول هذه الصراعات هي اشتراك جعفر بن القاسم العياني مع جعفر الشاوري في قتال علي الصليحي عندما ثار في حصن مسار سنة 439هـ/ 1047م مباشرة[1] حيث اتجه جعفر بن القاسم نحو حصن الأخروج وانتزعه من أصحاب الصليحي، ولما قتل الشاوري ترك حصن الأخروج هارباً من قوات الصليحي[2]. ومن جهة القبائل فإنه بعد قتل الشاوري الذي يعد من أهم زعماء مغارب اليمن الأعلى، اتجهت أغلب قبائل اليمن الأعلى مشارقه ومغاربه للاستعانة بالأشراف الزيدية لمقاتلة علي الصليحي فاستعانوا بالشريف جعفر بن القاسم العياني وأبنائه وقد دارت عدة معارك بين علي الصليحي من جهة وبين جعفر بن القاسم العياني وأبنائه والقبائل اليمنية من جهة أخرى من ذلك الآتي:

معركة المحارم: اشترك في معركة المحارم الكثير من قبائل اليمن الأعلى مناصرين للزيدية في حربهم ضد علي الصليحي، فقد اجتمعت رؤساء من همدان وحمير ورؤساء مغارب اليمن الأعلى ووجوه الأحبوب واتفقوا على اللقاء في (بيت معدن) (بلدة في حضور) بهدف الاتجاه لقتال علي الصليحي، حضر هذا اللقاء الأمير جعفر بن القاسم وأولاده عبد الله وأبو حاشد بن يحيى بن الضحاك، وتم الاتفاق بينهم على اختيار الأمير عبد الله بن جعفر قائداً لجموعهم ليتقدم بهم إلى نواحي الحيمة ـ حضور ـ لمقاتلة علي الصليحي، وذلك لخبرته بمسالك تلك المناطق ولأن بعض أهلها عشيرته، فقادهم الأمير حتى وصل بهم إلى منطقة (المحارم) من عزلة الحدب بالحيمة حيث التقت بهم جموع علي الصليحي، فدار بها قتال شديد انتهى بهزيمة القوى المتحالفة ضد علي الصليحي وقتل الكثير منهم، وأُخِذ الأمير عبد الله بن جعفر أسيراً، وحُمِل إلى حصن مسار فأقام بها مدة، ثم أُطْلِق سراحه بعد أن تعهد بعدم الخروج على علي الصليحي وقتاله[3]. ومن

(1) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 75، الخزرجي: العسجد، ص: 57، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 244، ويبدو أن إغفال صاحب سيرة ذي الشرفين ذكر اشتراك جعفر بن القاسم يرجع إلى عدم تزعم جعفر لهذه المعركة، أطلق عليهم الأشراف لأنهم احتسبوا للإمامة الزيدية ولم يدعوا لأنفسهم بها.

(2) الهمداني: الصليحيون، ص: 78.

(3) مفرج الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 73، 74، مجهول: تاريخ اليمن، ق: 173، أحمد

المرجح أن هذه المعركة كانت سنة (443هـ/ 1009م). ويبدو أن اتجاه القبائل اليمنية للاستعانة بالأشراف الزيدية، هو لغرض إبطال الفكر الإسماعيلي الباطني الذي ينتمي إليه الشيعة عن طريق إظهار المعارضة له من الشيعة أنفسهم مخالفة لهم في المفهوم السياسي وهم الزيدية، وأن القبائل بدأت تميل إلى الزيدية لقربها من أهل السُنَّة، فذهبت لمساعدتهم في محاربة الإسماعيلية لبعدهم عن فكر أهل السُنّة والزيدية معاً. وأن المصلحة هي التي جمعت القبائل اليمنية بالزيدية، باعتبار أن الإسماعيلية هي العدو المشترك لكل من القبائل اليمنية والزيدية فاشترك الجميع في محاربتها.

معركة صيد البرار: وبعد هزيمة الأمير عبد الله بن جعفر وأصحابه عاد الأشراف الزيدية والقبائل اليمنية لقتال علي الصليحي بقيادة شخصية أخرى، فقد اجتمعت رؤساء حمير وهمدان مرة أخرى واتجهوا إلى جعفر بن القاسم العياني والد الأمير السابق، وطلبوا منه المسير لحرب علي الصليحي بهدف المدافعة عن بلدانهم منه، فنهض بهم الأمير جعفر وساروا حتى وصلوا إلى (صيد البرار) في ريدة حيث التقوا بجيش علي الصليحي الذي خرج هو الآخر لقتالهم، فدارت فيها معركة كبيرة بين الطرفين كانت نهايتها انتصار علي الصليحي وهزيمة جيش الأمير جعفر وأسره وقتل الكثير من أصحابه من وجهاء حمير وهمدان، يزيدون عن ثلاثمائة رجل، منهم أنيس بن يعقوب الهمداني، وعبد الرحمن بن حسان الحوالي، وعلي بن عبد الله الأكبر وغيرهم، وبعد المعركة نُقِل الأمير جعفر أسيراً إلى حصن مسار حيث أقام بها مدة ثم أطلقوا سراحه بعد أن تعهد هو الآخر (بأن لا ينصب له حرباً ولا يقاتل له حزباً)[1] ومن المحتمل أن تكون هذه المعركة سنة 443هـ/ 1051م.

كذلك حاولت الأشراف الزيدية الاستمرار في القتال فعندما كان علي الصليحي في زبيد فيما بين 444هـ/ 1052م ـ 447هـ/ 1055م حاول الشريف الفاضل (القاسم بن جعفر) هدم منازل الإسماعيلية بالإضافة إلى حصونهم في بني الحذيفي بالحيمة والبون، ولما خاف الشريف الفاضل بعمله هذا من علي الصليحي ذهب يحرّض الناس على قتاله، والاتجاه للسيطرة على صنعاء فنهض معه خمسمائة رجل أمَّرَ عليهم أخاه الحسين وابن عمه عيسى وساروا إلى صنعاء. وقد حاول علي

= المطاع: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 230، عمارة: تاريخ اليمن، ص: 107، يذكر صاحب تاريخ اليمن لمؤلف مجهول أن هذه المعركة هي (المحارم) كانت بعد سيطرة علي الصليحي على يناع سنة 443هـ ق: 173، وذكر كل من الربعي والمطاع أن هذا اللقاء كان في بيت معدي كرب بينما ذكرها الأكوع في بيت معدن نفس الصفحات.

(1) مفرج الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 74، المطاع: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 230، عمارة: تاريخ اليمن، هامش، ص: 108.

الصليحي من زبيد مكاتبة أنصاره من رؤساء القبائل في صنعاء والبون وغيرها، أن يحثوا الناس بعدم اشتراكهم بالخروج مع الشريف الفاضل وأن يستميلوهم بالأموال، حتى يصل إليهم، ولما علمت أنصار الشريف الفاضل بقدوم علي الصليحي نحو صنعاء افترقوا عنه، وبقي في نفر قليل مما اضطره للخروج من صنعاء هارباً والسير إلى بلد بني صريم، فدخل علي الصليحي صنعاء في ذي القعدة سنة 447هـ/ 1055م دون مقاومة من أحد[1].

وقعة حاز: ومع هذا فقد عادت الحرب مرة ثالثة بين الأشراف الزيدية وأنصارهم من جهة وبين الصليحيين من جهة أخرى، وذلك بعد أن دخل علي الصليحي صنعاء سنة 447هـ/ 1055م وهرب منه الشريف الفاضل بن جعفر بن القاسم إلى بلاد صريم، كما هرب منه رؤساء همدان وتوزعوا في بني صريم وبلد ابن الدعام، منهم سلامة بن الضحاك، وعلي بن دغفان وغيرهم، وآنذاك اتجهوا إلى تجميع العسكر من حاشد وبكيل وطلبوا من الشريف الفاضل الخروج معهم لمحاربة علي الصليحي، فساروا جميعاً على رأسهم قيس بن وهيب وعلي بن دغفان، حتى وصلوا منطقة (حاز) بالجوف من همدان، بينما اتجهت قوات علي الصليحي نحوهم، لما سمعوا بتجمعهم لحربه، فوصلت قواته (قراتل) بجوار حاز وفيها دارت معركة كبيرة بين الجيشين وذلك في المحرم من سنة 448هـ/ 1056م انتهت هي الأخرى بانتصار علي الصليحي وهزيمة الشريف الفاضل ومن معه من قبائل همدان وقتل الكثير من رؤسائهم، منهم علي بن دغفان وقيس بن وهيب مع جماعة من وجوه القبائل الآخرين[2].

حصار الهرابة: بعد هذه المعركة مباشرة اتجه الشريف الفاضل ومن معه من رؤساء القبائل، مثل جشم بن عبد الأعلى بن الدعام، والربيع بن الروية، ودغفان بن دغفان، وعباد بن شهاب صاحب الهجر بالأحبوب وغيرهم، نحو

---

(1) مفرج الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 93، المطاع: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 233، عمارة: تاريخ اليمن، هامش، ص: 113 ـ 115، يذكر صاحب تاريخ اليمن لمؤلف مجهول أن دخول علي الصليحي صنعاء عند قدومه من تهامة إليها في ذي الحجة من سنة 447هـ، ق: 173، بذلك يختلف مع الربعي في الشهر الذي دخل فيه الصليحي صنعاء.

(2) مفرج الربعي: سيرة ذي الشرفين، ق: 13، أحمد المطاع: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 234، محمد الحداد: التاريخ العام لليمن في موكب الإسلام (1) جـ2، ص: 222، 223، بيروت، دار التنوير ط1، 1986م، عمارة: تاريخ اليمن، هامش، ص: 115، عصام الدين الفقيه: اليمن في ظل الإسلام، ص: 182، ذكر الأكوع بدلاً عن (قراتل) (قرمل) وعند الكبسي (قواتل)، ص: 32، ويبدو أن ذلك أخطاء مطبعية.

حصن (الهرابة) في بلاد وادعة لتحصين أنفسهم من قوات علي الصليحي الذي سار في أثرهم يتبعهم ويفرض علهيم الحصار من كل جوانب الحصن، فشدد عليهم الحصار ونصب نحوهم المنجنيقات والعرادات(1). وفي هذا الحصار حاول الشريف الفاضل الاستعانة بأمراء مكة. فأرسل الشريف عيسى بن عباس لطلب العون من شريف مكة شاكر بن أبي الفتوح الحسيني، فعاد دون مساعدة(2) ودام الحصار لمدة سبعين يوماً، وذلك خلال شهري جمادى الأولى والآخرة وحتى العاشر من رجب سنة 448هـ/ 1056م. خلالها وقعت العديد من المناوشات والقتال بين الطرفين. ولم يتركهم علي الصليحي إلا بعد أن استسلموا. وأخذ الشريف الفاضل أسيراً معه وقاده إلى صنعاء(3) حيث ظل بها إلى أن أطلقه علي الصليحي سنة 450هـ/ 1058م(4).

وترجع انتصارات علي الصليحي على تجمعات القبائل اليمنية مع الأشراف الزيدية إلى عدم الوفاق السياسي فيما بينهم، حيث إن هذه القبائل ظلت في صراع مستمر مع الزيدية ومع بعضها البعض فظلت محافظة على شكلها القبلي بهدف المحافظة على سلطانها دون التسليم للأئمة الزيدية بالخضوع والطاعة، مما جعل اشتراكهم هذا مع الأشراف ضد علي الصليحي اشتراك مصلحة ضد عدو مشترك دون وجود إخلاص في مناصرة الزيدية فتحقق لهم جميعاً الانهزام.

ومن ناحية صراع الأئمة الزيدية مع علي الصليحي فقد كان صراعه مع الإمام أبي الفتوح الديلمي الذي قدم من طبرستان إلى اليمن سنة 437هـ/ 1045م ودعا لنفسه بالإمامة بها، فأيدته جماعة من أهل اليمن من صعدة وصنعاء وذمار، ولما ظهر علي الصليحي أحجم عن تأييد الإمام الديلمي الكثير منهم، فخاف على نفسه من علي الصليحي، وظل يتنقل من بلد إلى آخر، مثل بلاد خولان وبلاد عنس

(1) المطاع: تاريخ اليمن، ص: 234، 235، عمارة: تاريخ اليمن، هامش، ص: 115، 116، محمد إسماعيل الكبسي: اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية، ص: 32، القاهرة، مطبعة السعادة، 1983م، الهمداني: الصليحيون، ص: 82، 83، الجرافي: المقتطف، ص: 77، عصام الفقي: اليمن في ظل الإسلام، ص: 182، الحداد: التاريخ العام، ص: 222 (الهرابة) أكمة في بلاد وادعة الظاهرة بحاشد، الكبسي: اللطائف، ص: 32، وهي بحوث.

(2) المطاع: تاريخ اليمن، ص: 236.

(3) المطاع: تاريخ اليمن، ص: 235، 237، عمارة: تاريخ اليمن، هامش ص 116، د. حسن سليمان: تاريخ اليمن السياسي، ص179.

(4) عمارة: تاريخ اليمن، هامش ص116، يذكر كل من يحيى بن الحسين والكبسي، أن إطلاق الشريف الفاضل من سجن علي الصليحي من صنعاء كان سنة 449هـ، غاية الأماني، جـ1، ص: 252، اللطائف ص: 32.

وغيرهما، وفي أثناء تنقله هذا اتجه إليه علي الصليحي لمحاربته وذلك بعد أن سيطر على صنعاء والكثير من المناطق المجاورة لها، وقضى على أغلب زعامات اليمن الأعلى، من أهمها زعامة أبي حاشد بن يحيى الضحاك الذي كان زعيم همدان وأمير صنعاء. فالتقى معه بنجد الحاج فى رداع، حيث دارت فيها معركة كبيرة بين الطرفين انتهت بقتل الإمام الديلمي والكثير من أصحابه يقدرون بنيف وسبعين رجلاً وذلك في سنة 444هـ/ 1052م. أو سنة 446هـ/ 1054م[1].

ثالثاً

صراعه مع زعامات قبائل اليمن الأسفل

السيطرة على بلاد الكرندي: تأتي هذه المرحلة لعلي الصليحي بعد أن تمكن من القضاء على معظم رؤساء اليمن الأعلى وأصبحت مناطقهم خاضعة لسلطانه، فسار نحو السيطرة على اليمن الأسفل، ففي المحرم من سنة 450هـ/ 1058م اتجه علي الصليحي نحو يعفر بن أحمد الكرندي الذي كان مسيطراً على المَعَافِر والدُّمْلُوة، والجَنَد والتَّعَكر (ذي جبلة) فحاصره في السُّوا التي كان مقيماً بها، واستمر الحصار لمدة تسعة أشهر، انتهى هذا الحصار بتسليم يعفر الكرندي نفسه لعلي الصليحي، حيث قاده معه أسيراً إلى صنعاء[2] وأسكنه فيها كرهينة مثل بقية حكّام اليمن، واستمر فيها إلى سنة 459هـ/ 1066م حينما اتجه علي الصليحي بهم إلى الحج وقتل فيها[3]. وقد خاض علي الصليحي عدة معارك في تلك المناطق

(1) الكبسي: اللطائف، ص: 31، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 250، المطاع: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 231، زبارة: أئمة اليمن: 1/ 93، الهمداني: الصليحيون، ص: 82، الواسعي: تاريخ اليمن، ص: 184، الحداد: التاريخ العام لليمن، جـ2، ص: 222، الثور: هذه اليمن، ص: 280، تذكر أغلب المصادر أن قتل الإمام الديلمي كان سنة 444هـ بينما يذكر صاحب البسامة أن قتله كان في سنة 446هـ والذي يبدو أن قتله كان فيما بين سنة 448هـ إلى 449هـ عندما اتجه علي الصليحي إلى يحصب (يريم ورداع) للسيطرة عليها، انظر زبارة: أئمة اليمن، جـ1، ص: 93.

(2) مفرج الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 109، المطاع: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 237، يحيى بن الحسين يذكر أن نزول علي الصليحي نحو بني الكرندي كان سنة 449هـ ويبدو أن نزول علي الصليحي نحو بني الكرندي كان في أواخر سنة 449هـ عن طريق زبيد وكانت بداية محاصرة بني الكرندي في المحرم من سنة 450هـ، كذلك يذكر صاحب سيرة ذي الشرفين أن الشريف الفاضل نزل مع علي الصليحي لمحاصرة بني الكرندي بينما يذكر صاحب غاية الأماني أن الشريف الفاضل استأذن من علي الصليحي للاتجاه للحج أثناء ما كان في زبيد سنة 449هـ، الربعي: سيرة ذي الشرفين ص: 109، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، جـ1، ص: 252 ـ 253.

(3) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 127، الجندي: السلوك، جـ2، ص: 448.

منها معركة في السمدان ومعركة في ريمة المناخي (المذيخرة) وغيرهما انتهت بانتصاره وإخضاعها لسلطانه[1] كما استولى على حصن صبر وحصن الدملوة[2] كذلك سيطر على المناطق التابعة لبني التبعي مثل حب (بعدان) والشعر والسحول والشوافي[3] وذلك كما يبدو في سنة 451هـ/ 1059م.

السيطرة على عدن: وفيما بين سنة 451هـ وسنة 452هـ توجه علي الصليحي إلى الجند ومنها سار نحو بني معن في عدن فاستولى عليها وعلى أَبْيَن وأَحْوَر، وذلك بعد أن هرب منها بنو معن تاركين مدنهم تقع تحت سيطرة جيش الصليحي، إلا أنه لم يطل بهم الهرب، فقد سارعوا في العودة إلى علي الصليحي مسَّلمين له الأمر وباذلين له الطاعة، فقبل طاعتهم وترك لهم حكم عدن وفرضتها (مينائها)[4] مع المناطق التابعة لهم مثل لحج وأبين وحضرموت والشحر مقابل دفع مائة ألف دينار سنوياً[5] ويُعَدُّ بنو معن الوحيدين من الزعامات القبلية الذين تركهم علي الصليحي نوّاباً له في منطقة حكمهم، وذلك يرجع إلى خبرتهم في إدارة ميناء عدن التي كانت آنذاك أهم موانئ اليمن ومن أهم موانئ العالم الإسلامي. وبعد تولية علي الصليحي لبني معن على عدن أخذ أحدهم رهينة عنده، ثم عاد إلى مخلاف جعفر ومنه عاد إلى صنعاء. ثم توجه إلى تهامة فاستولى عليها[6].

رابعاً

صراعه مع نجاح

لم يكن متوقعاً من دولة نجاح في تهامة أن تقف موقفاً متقاعساً من قيام دولة علي الصليحي الإسماعيلية في الجبال، على اعتبار أن نجاحاً كان ممثلاً عن الخلافة العباسية في اليمن كلها ومدافعاً عن أهل السُنَّة فيها، إذ أن الخلافة العباسية كانت قد منحت نجاحاً تقليداً على اليمن وفوضت إليه أمر تولية القضاة والعمال

---

(1) ابن الديبع: قرة العيون، هامش، ص: 245، ريمة المناخي: جبل فوق المذيخرة من ناحية الغرب المقحفي، ص: 283.

(2) الهمداني: الصليحيون، ص: 85، الحداد: التاريخ العام، ص: 224.

(3) الهمداني، الصليحيون، ص: 85، الجرافي: المقتطف، ص: 78، الحداد: التاريخ العام، ص: 224.

(4) الهمداني: الصليحيون، ص: 86، نقلاً عن رسائل القمي: 19 ـ 22.

(5) الخزرجي: العسجد، ص: 84، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 304 ـ 305.

(6) الهمداني: الصليحيون، ص: 86، نقلاً عن رسائل القمي: 19 ـ 22.

(7) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 334.

بها[1]. ولكن واقع الحال هو الذي حتّم ذلك، فالذي حدث هو أن نجاحاً ترك عليًا الصليحي يتوسع في المناطق اليمنية المختلفة ويسيطر عليها المنطقة تلو الأخرى، دون أن يحشد قواته لمنعه من ذلك وكما يتضح أن السبب في ذلك يرجع إلى الآتي:

1 ـ انحصار سلطة نجاح في تهامة فقط، وعدم توفر الإمكانات المالية التي تمكنه من تكوين جيش يفرض سلطته على اليمن كله، ولأنه اعتمد في تكوين جيشه على السودان النوبيين والأحباش ولم يعتمد على أهل اليمن، وهؤلاء من الصعب جلبهم آنذاك في حالة قلة إمكانياته المالية.

2 ـ سيطرة زعماء المناطق الجبلية على مناطقهم واستقلالهم بها مالياً عن نجاح[2] وإن ظلوا معلنين له الولاء الاسمي ويبذلون له الطاعة[3].

3 ـ ضعف الخلافة العباسية: فقد كانت الخلافة تمر بحالة ضعف أواخر العهد البويهي وبداية العهد السلجوقي، فلم تستطع إرسال جيش إلى اليمن لمساعدة نجاح، فقد وصلت الخلافة الفاطمية إلى الشام وسيطرت عليه، ولم تتمكن الخلافة العباسية من صدهم عن ذلك، بل إن البساسيري استغل صراع السلاجقة مع بعضهم البعض وغيابهم عن مركز الخلافة العباسية، فسيطر على بغداد في ذي القعدة سنة 450هـ/ 1058م وفرض على الخليفة القائم بأمر اللّه العباسي الإقامة الجبرية في مدينة (عنة). كما أنه سيطر على واسط البصرة وظل في سيطرته تلك يخطب للفاطميين لما يقرب من عام[4] وهذا ما يمثل عن حالة ضعف الخلافة العباسية وهي الفترة التي عاصرت أحداث علي الصليحي ونجاح في اليمن وهنا سنتحدث عن العلاقة بينهما.

في المرحلة الحربية أبقى علي الصليحي علاقته مع نجاح علاقة طيبة فكانت بينهما مصالحة على المسالمة، لذلك لم يتدخل نجاح ضد علي الصليحي خلال حربه مع القوى المختلفة في اليمن الأعلى، ولكن هذه العلاقة لم تظل حسنة فيما بينهما، ففي سنة 442هـ/ 1050م أقام نجاح مراكز وحواجز لمنع الطريق عن أنصار علي الصليحي من الوصول إليه من قبائل سنحان ويام وجنب الحجازين[5] وذلك

---

(1) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 334، 341.

(2) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 191.

(3) خليل السامرائي وطارق فتحي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي، دار الكتب، الموصل، العراق، 1988م، ص: 219.

(4) مجهول: تاريخ اليمن، ق: 173.

بسبب مكاتبة الإمام الديلمي لنجاح، وتحريضه على الوقوف ضد علي الصليحي، مما أدى إلى تدهور العلاقة فيما بينهما[1]. وكرد فعل لما قام به نجاح فقد اتجه علي الصليحي نحو زبيد ودخلها سنة 442هـ/ 1050م وضرب عملة بها هي الدينار يحمل عبارة ضرب في زبيد سنة 442هـ ويحمل اسم علي بن محمد ولقب الخليفة الفاطمي المستنصر (المعد) مع كلمة سيف وهو (سيف المعد)[2] ثم تصالح مع نجاح في نفس السنة وهي سنة 442هـ/ 1050م[3] وبعدها ترك زبيد متجهاً إلى مسار. ويبدو أن هذا الصلح تم نتيجة لاتجاه علي الصليحي ونجاح إلى المسالمة ولظروف قواتهما، وعدم استقرار حكم علي الصليحي في مسار وما حولها من بلاد حراز. ومن خلال العملة السابقة يتضح إظهار موالاة علي الصليحي للفاطميين.

وتعتبر معركة صوف سنة 444هـ/ 1052م فاتحة عهد جديد لعلي الصليحي سهلت له السيطرة على صنعاء وغيرها ففي الأشهر الأخيرة من سنة 444هـ/ 1052م اتجه علي الصليحي من صنعاء إلى بيت (خولان) ومنها نزل إلى تهامة وسيطر على زبيد وأزاح سلطان نجاح عنها ومكث فيها إلى سنة 447هـ/ 1055م[4] وفيها أصدر عدة دنانير نصفها كالآتي: في الوسط (الوجه): المستنصر بالله أمير المؤمنين.

في الوسط (الظهر): الإمام معد أبو تميم.

المدار الوجه:

1 ـ محمد رسول اللّه أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله.

2 ـ أمر به الأمير المظفر نظام المؤمنين.

المدار الظهر:

1 ـ ضرب هذا الدينار بزبيد سنة خمس وأربعين وأربعمائة.

2 ـ لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه، علي ولي اللّه.

بالإضافة إلى ضرب هذا الدينار سنة 445هـ/ 1053م فقد ضرب عدة دنانير أخرى بنفس الوصف منها سنة 447هـ/ 1055م وسنة 451هـ/ 1059م[5].

ومن الملاحظ أن عليًا الصليحي أعلن في هذا الدور الحربي إظهار موالاته

---

(1) الهمداني: الصليحيون، ص: 82.

(2) د. محمد العش: المسكوكات في الحضارة العربية الإسلامية، مجلة الإكليل، ص: 43، لقب الخليفة المستنصر كان (معد أبو تميم).

(3) مجهول: تاريخ اليمن، ق: 173.

(4) مفرج الربعي: سيرة ذي الشرفين، ق: 7، ص: 76، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 233.

(5) د. محمد العش: المسكوكات، مجلة الإكليل، ص: 43.

للفاطميين وهذا ما تشير إليه العملة السابقة الذكر والتي أصدرها في زبيد سنة 443هـ، والتي ذكر فيها لقب المستنصر فقط وهو معد بن تميم، والعملة التي صدرت سنة 444هـ/ 1052م والتي ذكر فيها اسم المستنصر بالله صراحة مع ذكر لقبه، الإمام أبو معد كما هو مذكور سابقاً، كما يظهر فيها لقب علي الصليحي مثل الأمير المظفر ونظام المؤمنين. مما يدل على أن هذه الألقاب وصلت إليه بعد معركة صوف سنة 444هـ/ 1052م. ويتضح من ذلك أيضاً أن السلطان علي الصليحي استمر في زبيد من أواخر سنة 444هـ أما بداية السنة نفسها فقد كانت تحت سيطرة نجاح يشير إلى ذلك عملة أصدرها نجاح بها. وهي الدينار كتب عليه ضرب في زبيد سنة 444هـ وتحمل اسم الخليفة القائم بأمر الله العباسي واسم علي بن مظفر الزيادي، والمؤيد نجاح نصير الدين. وفي أثناء سيطرة علي الصليحي على زبيد من المرجح أن سلطة نجاح كانت محصورة في مناطق شمال زبيد فقط، وهي مناطق (الكدرا والمهجم والواديين)[1] وهما وادي مور وبيش، وهذه الأعمال هي جُلّ أعمال تهامة شمال زبيد، وهي الأعمال التي تولاها نجاح قبل قيام دولته[2] وذلك يرجع إلى أن مدينة الكدرا أصبحت مقر حكم بني زياد وبني نجاح، منذ أن قام الحسن بن سلامة بتجديدها وتحصينها حيث وردت في عهد حُكم مرجان لها عبارة (صاحب الكدرا)[3] ويقصد بها حاكم تهامة، كما أورد الخزرجي العبارة التالية: (وكانت وفاة نجاح في سنة 452هـ/ 1060م في مدينة الكدرا)[4] وهي إشارة واضحة على استقرار نجاح فيها.

معركة الزرائب: كذلك وقعت معركة قوية في تهامة بين علي الصليحي من جهة وابن طرف من جهة أخرى، وذلك حينما اجتمع إلى ابن طرف الكثير من أنصاره من ملوك الحبشة وهم (النجاحيون) والسودان يقدرون بحوالي عشرين ألف رجل، فلما سمع علي الصليحي بتجمعهم في بلاد بني طرف، اتجه إليهم مع مجموعة تقدر بألفين وسبعمائة فارس، فالتقى الطرفان في منطقة (الزرائب) حيث دارت بها معركة كبيرة انتصر فيها علي الصليحي[5].

---

(1) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص40.

(2) الخزرجي: العسجد، ص: 103، ذكرت هذه العبارة أثناء ما كان نجاح متولياً هذه الأعمال من قبل مرجان قبل تكوين دولته.

(3) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 67.

(4) الخزرجي: العسجد، ص: 57.

(5) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 123، 124، الهمداني: الصليحيون، ص: 83، 84، نقلاً عن عيون الأخبار، ص: 7 ـ 14، الوصابي: الأخبار، ص: 34.

ومن الواضح في هذه المعركة أن الأعداد مبالغ فيها، فغير معقول أن ينتصر ألفان وسبعمائة على عشرين ألفاً، كما أن هناك اختلافاً في تحديد زمن هذه المعركة، فعمارة يورد أنها كانت في سنة 460هـ/ 1067م بترجيح الرواية الخاطئة بموت علي الصليحي سنة 473هـ/ 1080م[1]. وإدريس يذكر أنها كانت في سنة 450هـ/ 1058م[2] وفي أثناء هذه الفترة يوضح الربعي أن عليًّا الصليحي اتجه في المحرم من سنة 450هـ/ 1058م نحو يعفر بن أحمد الكرندي وحاصره في السوا في المعافر لمدة تسعة أشهر[3] ويرجح الأكوع أنها كانت سنة 447هـ/ 1056م أثناء ما كان علي الصليحي في زبيد[4]. ولكن الذي يظهر أنها كانت أواخر سنة 448هـ/ 1056م توجد إشارة إلى ذلك لدى ابن عبد المجيد بقوله عن علي الصليحي: (وكان سبب قتله أنه لما استولى على زبيد سنة 448هـ/ 1056م وقتل نجاح بالسم)[5]، وهي إشارة إلى العداوة بين نجاح وعلي الصليحي وإلى نزوله إلى زبيد سنة 448هـ/ 1056م وقتل نجاح وقد يقصد بزبيد هنا تهامة، وورد أيضاً تواجد علي الصليحي في بداية سنة 448هـ/ 1056م في بلاد حاشد محاصراً الأشراف الزيدية في (الهرابة) وهي قريبة من بلاد بني طرف ومن المحتمل أنه بعد هذه المعركة نزل إلى معركة (الزرائب).

موت نجاح: ومن الأساليب السياسية التي عمد إلى تطبيقها علي الصليحي هي سيطرته على جميع مناطق اليمن، وتركه لنجاح في تهامة آخر من يتجه إليه، بينما كان من المتوقع أن ينهي دولته أولاً، ولكنه بعد أن قضى على زعامات اليمن كلها، عمل على القضاء على نجاح بقتله بالسم عن طريق الجارية التي أهداها إليه، فمات مسموماً في الكدرا سنة 452هـ[6]/ 1060م والسبب في ذلك كما يبدو يرجع إلى الآتي:

أولاً: حرص علي الصليحي على عدم إثارة الخلافة العباسية رغم ضعفها، كون نجاح كان ممثلاً عنها في اليمن.

---

(1) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 134.

(2) الهمداني: الصليحيون، ص: 83، نقلاً عن عيون الأخبار: 7/ 14.

(3) مفرج الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 18، عمارة: تاريخ اليمن، هامش، ص: 124.

(4) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 124.

(5) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 77.

(6) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 117، 118، الخزرجي: العسجد، ص: 57، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 77، الجندي: السلوك ص: 486، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 246، المطاع: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 239، الحداد: التاريخ العام، ص: 226، 227، ابن خلدون: تاريخ، ص: 137، 138.

ثانياً: إرادة علي الصليحي تأمين ظهره من المناطق الجبلية المحصنة طبيعياً، فسيطر عليها أولاً، بعدها يصبح سهلاً عليه السيطرة على تهامة لعدم تحصينها طبيعياً.

مرحلة ما بعد موت نجاح: تأتي هذه المرحلة من أهم مراحل تأسيس الدولة (الصليحية الإسماعيلية) في اليمن، فبعد أن تمكن علي الصليحي من القضاء على أغلب الزعامات في معظم اليمن بالأسر أو بالقتل وغيره وعلى رأسهم نجاح، كتب إلى الإمام المستنصر سنة 453هـ/ 1061م يخبره بنجاح إظهار الدعوة ويستأذنه في إعلان قيام الدولة في اليمن وكعادته أرسل مع الرسل هدايا جليلة منها سبعون سيفاً قوائمها من عقيق فلما وصلت إلى المستنصر استجاب لطلبه فعقد له بولاية اليمن ومنحه الألقاب والرايات[1] وبذلك كسب علي الصليحي الصفة الشرعية بإقامة دولته، بعد أن كسب الصفة الشرعية بتولي رئاسة الدعوة الإسماعيلية الفاطمية وإظهارها.

وفي الوقت الذي أكمل فيه علي الصليحي السيطرة على أغلب مناطق اليمن وأزاح سلطان الزعامات القبلية عنها، اتجه للاستيلاء على تهامة سنة 454هـ/ 1062م من مولى نجاح واسمه كهلان، الذي تولاها بعد موت نجاح سنة 452هـ/ 1060م والذي مكث في حكمها سنتين نيابة عن أولاد نجاح الذين كانوا لم يبلغوا بعد سن تولي السلطة، فاستولى عليها علي الصليحي، وبذلك يكون قد تمكن من السيطرة على تهامة، وهي من آخر المناطق اليمنية التي سيطر عليها[2].

كذلك استأذن علي الصليحي المستنصر الفاطمي للذهاب إلى مكة لإخضاع أمرائها وإعادتهم إلى سلطان الخليفة الفاطمي لأن شريف مكة محمد بن جعفر بن أبي هاشم كان متقلباً في موالاته بين الخلافة الفاطمية والخلافة العباسية ويرجع ذلك إلى أن مكة كانت بحاجة إلى المعونة المالية. فالخلافة التي تمنحهم الأموال يعلنون الطاعة لها، لذلك كان محمد بن جعفر بن أبي هاشم موالياً للمستنصر الفاطمي، ثم تحوّل إلى موالاة الخلافة العباسية فخطب للخليفة القائم العباسي، فلما وصل علي الصليحي إلى مكة في حج سنة 454هـ/ 1062م أزاح الأشراف عن السلطة[3] وقام بكسوة الكعبة بثياب

---

(1) الجندي: السلوك، 1/ 486، الخزرجي: العسجد، ص: 57، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 193، الكبسي: اللطائف، ص: 33، حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية، ص: 240، النهضة المصرية، القاهرة، ط5، 1993م، الحريري: معالم، ص: 36.

(2) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 192، الخزرجي: العسجد، ص: 106، تذكر أكثر المصادر أن سيطرة علي الصليحي على تهامة كان سنة 455هـ ولكن المرجح أنه سيطر عليها سنة 454هـ لأن هذه المصادر نفسها تورد أن كهلان تولى تهامة لمدة سنتين بعد موت نجاح سنة 452هـ.

(3) الهمداني: الصليحيون، ص: 88 ـ 93، عصام الدين: اليمن في ظل الإسلام، ص: 152، 153 تورد أغلب المصادر أن علياً الصليحي حج سنة 455هـ بينما يذكر إدريس أن حجه كان سنة =

بيضاء (الديباج الأبيض) كما رد الحلي إلى الكعبة التي أخذها بنو الطيب عندما سيطروا عليها بعد موت شكر الحسيني[1]. وذلك بعد أن سيطر عليها الصليحي، وعامل الأشراف بالحسنى حتى بذلوا له بالطاعة ثم طلب منهم أن يختاروا والياً عليها. فأعاد الوالي السابق محمد بن جعفر بن أبي هاشم إلى حكم مكة، لأنه بذل الولاء والطاعة للخليفة المستنصر، فمنحه الصليحي الأموال والسلاح[2] بذلك يكون علي الصليحي أهم أعوان الخلافة الفاطمية في الجزيرة العربية.

وبعد أن سيطر علي الصليحي على أغلب مناطق اليمن اتجه إلى الاستيلاء على منطقة (صعدة) التي كانت خارجة عن نفوذه بوجود أولاد الناصر فيها فاستولى عليها بعد التخلص من حاكمها، وهي آخر منطقة في اليمن يسيطر عليها الصليحي، وبها أكمل سيطرته على جميع اليمن، يشير إلى ذلك النص التالي: (ولم تمض سنة 455هـ إلا وقد ملك من مكة إلى حضرموت سهلاً وجبلاً فامتنعت عليه صعدة بعض التمنع بأولاد الناصر، ثم أنه لما قتل القائم فيها، ملكها)[3] وكما يظهر أن هذه السيطرة كانت فيما بين سنة 454هـ/ 1062م وسنة 455هـ/ 1063م.

بذلك يكون علي الصليحي قد وحَّد اليمن تحت سلطانه، وهذا التوحيد لم يتمكن من تحقيقه الكثير من زعماء اليمن ممن حكموها قبل علي الصليحي. وذلك لأن حُكم اليمن كان موزعاً بين قبائلها المتعددة، عبر عن ذلك العرشي بقوله: (ولم يقع لأحد فيمن ملك اليمن ما وقع لعلي بن محمد الصليحي، فإنه استولى على اليمن سهله وجبله وشماله وجنوبه وغربه وشرقه في المدة اليسيرة وقهر ملوكه)[4] كما عبر

= 454هـ ويرجح الهمداني هذا الرأي لوجود سجلين يحكيان عن حج علي الصليحي أحدها مسجل رقم (7) كتب في شهر ربيع الآخر سنة 455هـ بعد عودة علي الصليحي من مكة والآخر سجل رقم (4) رد للخطابين اللذين بعث بهما علي الصليحي بعد عودته من مكة صدر الأول بصنعاء وأرخ في شهر شعبان سنة 455هـ وصدر الثاني بالهجر وأرخ في شهر شوال من نفس السنة، الصليحيون، ص: 90، وكما يبدو أن علياً الصليحي حج سنة 454هـ لإخضاع الأشراف كما حج سنة 455هـ للتأكد من استمرار ولائهم.

(1) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 193، الهمداني: الصليحيون، ص: 91.

(2) الهمداني: الصليحيون، ص: 92، عصام الدين الفقي: اليمن في ظل الإسلام، ص: 152، 153.

(3) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 246، 247، انظر الجندي: السلوك: جـ2، ص: 486، 487، الخزرجي: العسجد، ص: 58، يذكر أحمد شرف الدين أن علياً الصليحي قبل القائم بصعدة نائباً له بها إذ يقول: (إلا مدينة صعدة فقد تمنع أولاد الناصر بعض التمنع ثم أنه قبل القائم فيهم كنائب على صعدة) اليمن عبر التاريخ، ص: 199.

(4) حسين بن أحمد العرشي: بلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وإمام، ص: 26، مصر، 39م، عصام الدين: اليمن في ظل الإسلام، ص: 154.

عنه عمارة بقوله: (وذلك أمر لم يعهد مثله في جاهلية ولا إسلام)[1].

لقد أكمل علي الصليحي في سنة 455هـ/ 1063م تأسيس دولته التي شملت اليمن كلها، فاستقر في صنعاء وجعلها عاصمة لدولته، فبنى فيها الدور والقصور، وسكن بها وقومه ومن أخذهم معه من أسرى من حكام اليمن الذين أزال ملكهم، ويبدو أن اتخاذ علي الصليحي صنعاء مقراً لحكمه يرجع إلى أن صنعاء كانت منطقة تنافس بين القوى اليمنية المتعددة الطامحة في السلطة، من همدان وحمير وخولان والتي تتمركز حول صنعاء، لذلك اتخذها علي الصليحي مقراً له لمنع هذه القبائل من إعادة السيطرة على صنعاء وتكوين دويلات لها، لأن السيطرة على صنعاء من أية قبيلة مجاورة لها يجعلها تطمع في التوسع نحو المناطق الأخرى، مما يشكل خطورة على أغلب المناطق، بالإضافة إلى مسببات أخرى مثل اعتدال جوّها وتوسطها اليمن وغيرها، ورغم نجاح علي الصليحي بهذه الفكرة في حياته إلا أنها لم تكن عاصمة موفقه للدعوة الإسماعيلية بعد موته، وذلك لأن قبائل صنعاء والقبائل التي حولها كانوا لا يؤمنون بالفكر الإسماعيلي كما كانوا في صراع دائم حول السيطرة على صنعاء، ولذلك انتقلت عاصمتهم بعد موت علي الصليحي من صنعاء إلى ذي جبلة.

ولعل أهم الأسباب التي أدت إلى نجاح علي الصليحي في تكوين دولته على جميع القوى اليمنية وتوحيد اليمن تحت سلطته يرجع إلى عدة مسببات منها الآتي:

1 ـ شخصية علي الصليحي:

تميز علي الصليحي بصفات تؤهله تولي السلطة السياسية إذ يوصف بصفات حسنة مثل: الذكاء والتواضع والشجاعة والشهامة وغيرها، كما اتصف بالأعمال الطيبة مثل العفو والتسامح وغيرهما ومن تلك الصفات التي اتصف بها علي الصليحي قولهم عنه: (وكان علي بن محمد الصليحي من أعيان اليمن وسادتها وأذكياء الملوك ودهاتهم وكان شاعراً فصيحاً بليغاً)[2] كما وصفوه بقولهم: (وكان علي الصليحي حازماً عازماً جواداً شجاعاً ممدحاً، وكان متواضعاً لا يمر بقوم إلا أشار إليهم بالسلام، فطناً ما يخبر بشيء إلا ويصح فصيحاً بليغاً شاعراً)[3] بالإضافة

(1) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 119، الخزرجي: العسجد، ص: 57، عصام الدين: اليمن في ظل الإسلام، ص: 154.

(2) الجندي: السلوك، ص: 487، الخزرجي: العسجد، ص: ابن الديبع: قرة العيون، ص: 251، الفضل المزيد، ص: 56.

(3) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 195.

إلى ذلك قولهم عنه: (وكان الصليحي شهماً شجاعاً مقداماً)[1] وهذه الصفات الحسنة هي التي جعلته يحقق الكثير من الانتصارات ويحقق توحيد المين.

2 ـ حسن معاملته للقوى اليمنية:

كذلك ترجع انتصارات علي الصليحي إلى أسلوبه في التعامل مع القوى اليمنية المختلفة، ومن ذلك أن أبا النور جهور صمم على مقاومة علي الصليحي عندما بدأ يتوسع في السيطرة على حصن حضور ويناع، فاعتصم أبو النور جهور بحصن لهاب بحراز، وقام بأسر جماعة من أنصار الصليحي منهم القاضي لمك بن مالك الحمادي، ولكنه فك أسره عندما لقي محاصرة شديدة من جيش الصليحي كما حاول جهور الإستعانة بنجاح حاكم تهامة، وتوسع في الاستيلاء على (حصن زبار) بحراز من أنصار الصليحي، إلا أنه لم يتمكن من المحافظة على ما تحت يديه من حصون بسبب عدم حصوله على مساعدة من نجاح وعدم مقدرته على مقاومة علي الصليحي، فاضطر إلى تسليم نفسه لعلي الصليحي فعفا عنه وأطلق سراحه[2]. كما كان لا يحقد على أحد من أعدائه ومحاربيه، بل يحترمهم ويقدرهم ومن ذلك أنه عندما تحارب مع الشريف الفاضل وحاصره في الهرابة، اتجه إليه الشريف الفاضل للتفاهم معه حول تسليم نفسه، فلما قرب من علي الصليحي (نهض لاستقباله ماشياً وأكرمه وعظمه)[3] ثم عفا عنه.

كذلك عامل الأشراف الزيدية الذين أشهروا سيوفهم ضده، معاملة طيبة، من ذلك معاملته مع جعفر بن القاسم العياني وأبنائه، عبد اللّه ومحمد، الذين قادوا حملات متتالية ضده مع جمع كبير من قبائل اليمن الأعلى، وعندما تمكن علي الصليحي من الانتصار عليهم أخذهم أسرى معه إلى صنعاء فأكرمهم بها دون عقابهم بشيء، بل عفا عنهم جميعاً وأطلق سراحهم كما سبق ذكره[4].

وأيضاً تعامل مع حكام اليمن الذين أزال سلطانهم بمعاملة تختلف عن المعاملات السابقة، إذ أنه أخذهم معه إلى صنعاء كرهائن لديه وأسكنهم معه وكان يأخذهم معه حيثما اتجه، وذلك خوفاً منهم ومن قبائلهم أن يثوروا عليه[5].

---

(1) الحمادي: كشف أسرار الباطنية، ص: 81.

(2) الهمداني: الصليحيون، ص: 79، 80.

(3) المطاع: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 236.

(4) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ق: 6، المطاع: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 230، 237.

(5) الجندي: السلوك، جـ2، ص: 487، الخزرجي: العسجد، ص: 58، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 252، الفضل المزيد، ص: 56.

كما أنه كان يتعامل مع من لم يحاربه من سكان اليمن ويدخل في طاعته بالإستعانة بهم وإبقائهم في سلطانهم نوَّاباً له، فذلك ما فعله مع بني معن في عدن حينما أبقاهم على حكمهم. وذلك ليتحاشى دخوله في الحرب مع جميع قوى اليمن من ناحية، ومن ناحية أخرى لكي يطمئن قوى اليمن إليه كي تسلم له بالطاعة حفاظاً على سلطانهم دون محاربته[1].

وكذلك لم يتعصب لمذهبه الإسماعيلي فقد عامل أهل المذاهب الأخرى بالتسامح الديني فترك لهم حريتهم المذهبية في ممارسة شعائرهم الدينية وفقاً لمذاهبهم، من ذلك ما أمر به واليه علي زبيد أسعد بن شهاب حين بعثه إليها أن يحسن السيرة مع أهلها ففعل أسعد ما أمره به علي الصليحي (فسمح لأهل السُنَّة في إظهار مذهبهم[2] كما عامل ابن نجاح ومواليه الذين أُطْلِق عليهم الحبشة وهم من يتهم بالدولة ـ أي موظفي الدولة ـ بالصفح والإحسان حتى زرع محبته في قلوب الناس)[3].

واستخدم أيضاً علي الصليحي أسلوب المكاتبة مع رؤساء القبائل اليمنية بالانضمام إليه وعدم الدخول معه في حرب أو عدم مناصرة أعدائه ومحاربيه، وكان يستميلهم إليه بمنحهم الأموال أو السلطة على مناطقهم، من ذلك ما فعله مع رؤساء قبائل اليمن الأعلى حينما أراد الشريف الفاضل السيطرة على صنعاء أثناء ما كان علي الصليحي في زبيد فقد كاتب رؤساء تلك القبائل ومنحهم الأموال وبالفعل تمكن من إفسادهم عن مناصرة الشريف الفاضل فافترق أصحابه عنه ولم يتمكن من السيطرة على صنعاء فدخلها علي الصليحي دون قتال سنة 447هـ/ 1055م ودون وجود الشريف الفاضل بها[4].

وكذلك ترجع انتصارات علي الصليحي إلى اتجاهه إلى تكوين دولته على أساس مذهبي وهو المذهب الإسماعيلي الذي اعتقد به واعتقدت به أنصاره الإسماعيلية والذين اتجهوا إليه من أنحاء اليمن لمناصرته بالمال والسلاح والأفراد، فقدموا إليه أموالاً جليلة، وقاتلوا معه، منهم قبائل يام وجنب وجشم وسنحان المسمون بالحجازين وغيرهم من قبائل اليمن من همدان وحمير ومذحج[5]، أما

---

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 83، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 304.

(2) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 121، ابن الديبع: الفضل المزيد، ص: 57، عند عمارة بدلاً من إظهار مذهبهم كلمة إظهار أديانهم.

(3) الخزرجي: العسجد، ص: 58، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 248.

(4) أحمد الربعي: سيرة ذي الشرفين ـ ق: 13.

(5) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 75، الخزرجي: العسجد، ص: 57، الواسعي: تاريخ اليمن، ص: 172.

القبائل الأخرى رغم اعتقادها بمذاهب أكثر انتشاراً من مذهب علي الصليحي لم يحاولوا تكوين دولتهم على أساس مذهبي لأنهم كانوا في صراع قبلي مستمر حول السلطة، وهذا ما جعل علي الصليحي يحقق النصر عليهم.

3 ـ وضع اليمن القبلي:

يعتبر وضع اليمن القبلي أحد الأسباب الهامة في مساعدة علي الصليحي في تكوين دولته، إذ أن السلطة في اليمن كان يحكمها الانتماء القبلي، وهو الذي شكّل الوضع السياسي لليمن إبان تلك الفترة وما بعدها، فقد ظهر هذا العامل القبلي في الساحة السياسية لتاريخ اليمن الإسلامي منذ بداية القرن الثاني الهجري، عندما سمح المأمون بإقامة دولة مستقلة في اليمن باسم بني زياد في تهامة وعندما سمح لبعض قبائل اليمن بحكم صنعاء نيابة عن العباسيين باسم بني شهاب، ثم تطور هذا العامل القبلي إلى أن صار صراعاً محتدماً بين جميع القبائل اليمنية وهو ما يتمثل بالصراع حول السلطة، وخاصة عندما عجزت الخلافة العباسية عن المحافظة على سلطانها في اليمن، وأوضح دليل على ذلك ما أوردته المصادر بقولها: (وقامت الفتنة على صنعاء بين همدان وخولان وحمير والأبناء وبني شهاب، في كل شهر لها أمير وعليها رئيس وفي أكثر أوقاتها تخلو من السلطنة، والغالب عليها آل الضحاك إلى سنة أربعمائة)[1].

4 ـ طبيعة اليمن الجبلية:

كما ترجع انتصارات علي الصليحي إلى استفادته من طبيعة اليمن الجبلية التي تميزت بكثرة جبالها. فاستعان لذلك بخبرته الشخصية وخبرة أنصاره الذين قدموا من أنحاء اليمن. بمعرفة مسالك ودروب جبال اليمن وسهولها، وقد استخدم لذلك أسلوباً عسكرياً يتناسب مع تلك المناطق الجبلية ويتمثل هذا الأسلوب في عدة طرق أحدها: تحصين المناطق الجبلية العالية والتحصن بها لحماية نفسه من هجمات القبائل المتألبة عليه، وقد قام بتحصين الكثير من حصون المناطق اليمنية بالإضافة إلى مركزه الرئيسي حصن مسار. وثانيها: الهجوم المفاجئ على القوات المحاربة له، وذلك عندما تتقدم إليه تلك القوى لمحاربته وتحاول استخدام أسلوب المحاصرة ضده لم يتح لها الفرصة لذلك. حيث إنه يقوم بالإسراع على شن الهجوم المباغت عليها من أماكن لا تتوقعها بحيث يضمن لنفسه النصر، بالرغم من

(1) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 64، الخزرجي: العسجد، ص: 50، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 231، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، ص: 234، 235.

قلة أعداد جنده وكثرة أعداد الجيش المحارب له، وذلك ما حدث في معركته مع الشاوري ومعركة صوف. وثالثها: استخدامه أسلوب المحاصرة لقوات أعدائه وتشديده الحصار عليهم حتى يستسلموا له، ومن ذلك محاصرته لمن تحصن بالهرابة لمدة سبعين يوماً ومحاصرته لبني الكرندي في السوا لمدة تسعة أشهر، حتى استسلموا له وقادهم أسرى لديه[1]. وقد تمكن بهذه الأساليب من أن يسيطر على اليمن (سهله ووعره وبره وبحره)[2]. تلك هي أهم الأسباب التي ساعدت الصليحي في تكوين دولته.

أسلوب الصليحي في حماية تكوين دولته: ومن أساليب علي الصليحي في التعامل مع القوى اليمنية بهدف حماية تكوين دولته الجديدة عملية أخذ الرهائن. فقد استمر علي الصليحي فترة طويلة يقاتل القبائل اليمنية مقاتلة شديدة من أجل تكوين دولته، حتى تمكن من الانتصار عليهم وإقامتها (وكان من هؤلاء من ظفر به أقبح الظفر ومنهم من سلم له على تقية)[3] كما سبق توضيحه.

واستخدم علي الصليحي أسلوباً قبلياً في التعامل مع هذه القبائل وهو نظام الرهائن، فقد أخذ زعماء قبائل اليمن الحاكمة آنذاك الذين أزال سلطانهم كرهائن عنده، وأسكنهم معه في مقر حكمه وعاصمته صنعاء، وذلك خوفاً من خروج هذه القبائل عن طاعته، لأن القبائل اليمنية كانت دائمة الخروج والثورات والحروب، فكان نظام الرهائن ضماناً لاستقرار سلطان علي الصليحي وعدم خروج القبائل عليه[4]، يشير إلى ذلك مسلم اللحجي بقوله: (كان الصليحي قد أسر ملوك اليمن فكانوا حوله وكأنهم لا يفارقونه خوفاً على الخلاف عليه)[5] كما أشار إلى ذلك النص التالي: (لما قهر ملوك اليمن ألزمهم ألا يفارقوا ركابه حيث كان، بعد أن توثق منهم بالرهائن والأيمان)[6] وكان هذا الأسر ناتجاً عن حروب طويلة لعلي الصليحي مع القبائل اليمنية المتعددة وحوّل هذا الأسر إلى رهائن كي لا يترك لهذه القبائل فرصة العودة إلى حربه مرة أخرى بعد حروبه الكثيرة معهم، وغالباً ما كان هؤلاء الرهائن من القبائل التي قاومته والتي حاربهم حتى أزاح سلطانهم وممن لا

(1) أحمد المطاع: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 235، 237.

(2) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 119.

(3) مسلم اللحجي: تاريخ مسلم اللحجي، ص: 178، مخطوط مصور، صور لدى الباحث.

(4) الجندي: السلوك، جـ2، ص: 487، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 76، الخزرجي: العسجد، ص: 58.

(5) تاريخ مسلم اللحجي، ص: 177.

(6) الجندي: السلوك جـ2، ص: 487، الخزرجي: العسجد، ص: 58.

يثق بهم من القبائل. وحتى القبائل التي أعلنت الطاعة والاستسلام له ولم تحاربه والتي ترك لها السلطة في مناطقها فقد أخذ منها الرهائن.

أسلوب الصليحي في التولية: أما عملية التولية فقد قام علي الصليحي بتولية المناطق (وأعمال الحصون والجبال لقوم يثق بهم)[1] وغالباً ما كان هؤلاء من أصحاب مذهبه الإسماعيلي وأقاربه الذين وقفوا معه في حروبه المتعددة مثل بني الصليحي، وبني شهاب، وبني الزواحي وغيرهم من حمير، وهمدان، ومذحج.

ومن ضمن حركة التولية التي قام بها علي الصليحي في اليمن، وَلَّى الحسين بن مهلهل الحميري حصن الأخروج بحراز، ووَلَّى قريبه عبد اللّه بن علي الصليحي حصن خدد ببلاد حبيش، ووَلَّى أخاه السلطان عبد اللّه بن محمد الصليحي حصن التعكر بذي جبلة كما ولَّى ابنه أحمد المكرم على الجند وما حولها[2]، وكذا وَلَّى عبد اللّه بن موسى بن عيسى بن هارون مخلاف البياض بحجة[3]، وولَّى صعدة أحمد ابن المظفر الصليحي وولَّى حصن مسار علي بن مالك بن شهاب وولَّى يحصب ورعين وعنس إسماعيل بن أبي شهاب الصليحي[4].

كذلك ولى زبيد وأعمالها التهامية صهره أسعد بن شهاب الذي اتجه إليها ودخلها سنة 456هـ/ 1063م وقد اتصف أسعد بحسن السيرة مع الرعية فترك لأهل السُنَّة حرية إظهار مذاهبهم دون التعرض لهم، كما ولَّى علي الصليحي إلى جانبه في تلك الأعمال ثلاثة رجال أعواناً له الأول: أحمد بن سالم الذي كان إليه أمر العمال من وادي حرض إلى قرب عدن، وكانت مهمته الاتصال بالعمال واستخراج الأموال منهم، ووضع حسابات لهذه الأموال وتقديمها إلى أسعد بن شهاب، والثاني: القاضي أبو محمد ابن أبي عقامة وكانت مهمته القيام بالأمور الشرعية، والثالث: أبو الحسين علي بن محمد القم وكانت مهمته كتابة الإنشاء، ومن المرجح أن أسعد بن شهاب قد تولى زبيد وأعمالها ولاية ضمان يدفع خلاله ألف ألف دينار سنوياً[5].

وعن كيفية تولي أسعد بن شهاب لزبيد وأعمالها التهامية هناك قصة يوردها

---

(1) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 126.

(2) الهمداني: الصليحيون، ص: 107، عصام الدين: اليمن في ظل الإسلام، ص: 155، الحداد: تاريخ اليمن العام جـ2، ص: 227، 228.

(3) مسلم اللحجي: تاريخ مسلم اللحجي، ص: 195.

(4) مجهول: سيرة السلطان المعظم الأمير الأجل المكرم، ص: 44، 50، 75/ مخطوط مصور لدى الباحث.

(5) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 121 ـ 123.

عمارة وهي: أن عليًا الصليحي كان قد حلف أن لا يوليها إلا لمن يدفع له مائة ألف دينار فحاولت زوجته أسماء أخت أسعد أن تأخذ هذا المبلغ من خزانة زوجها، فأخذته وأعطته لزوجها كي يولي أخاها أسعد تلك الأعمال، فعمل برأيها وولاه[1]. ويبدو من خلال هذه القصة أن عليًا الصليحي كان يريد أن يولي الأعمال التهامية لرجل موثوق به، ولاية ضمان يدفع له فيها مبلغ محدد من المال وهو مبلغ مائة ألف دينار سنوياً، وعليه مؤنة الجيش وعماله وموظفيه، وحلف لذلك فأردات زوجته أسماء كي يولي أخاها أخذ هذا المبلغ من خزانة زوجها، فأخذته وأعطته إياه كتبرئة ليمينه.

ألقاب علي الصليحي: وللتعبير عن العلاقة الطيبة بين الخلافة الفاطمية بمصر والدولة الصليحية باليمن، فقد منح الخليفة المستنصر الفاطمي عليًا الصليحي ألقاباً فخمة تَدَرَّج في منحها له، بحسب المعارك التي انتصر فيها علي الصليحي، فبعد انتصاره سنة 444هـ. لقب (بالمظفر في الدين نظام المؤمنين). ومنذ عام 445هـ حتى عام 448هـ منحت له الألقاب التالية: (سيف الإمام المظفر في الدين نظام المؤمنين علي بن محمد الصليحي) وبعد ذلك أضيف إليه لقب «تاج الدولة». وما بعد سنة 455هـ وهي السنة التي أكمل سيطرته على اليمن كلها لقب بعدة ألقاب، فظهر لقبه سنة 457هـ/ كالآتي:

«الأمير، الأجل، الأوحد، أمير الأمراء، عمدة الخلافة، شرف المعالي، تاج الدولة، سيف الإمام، المظفر في الدين، نظام المؤمنين، علي بن محمد الصليحي»[2]. ومن الملاحظ في هذه الألقاب أنها عبارة عن مدح وإطراء وتبجيل لعلي الصليحي اعتادت الخلافة الفاطمية منحها لكبار رجال دولتها.

نهاية علي الصليحي: وردت ثلاث روايات حول قتل علي الصليحي وكل رواية تختلف عن الأخرى على النحو التالي:

1 ـ الرواية الأولى:

أوردها (عمارة) وفحواها هي أن سعيداً الأحول خرج من (دهلك) مغاضباً لأخيه جياش حين نهاه عدم الغدر بصاحب (دهلك)، فاتجه نحو زبيد واستتر عند أحد السوقة كان محبًا لآل نجاح واسمه الرئيس ملاعب الخولاني، ثم كتب إلى أخيه جياش يطلب قدومه من دهلك إلى زبيد لاستعادة ملكهم وقتال علي

---

(1) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 120، الخزرجي: العسجد، ص: 58، ابن الديبع: قرة العيون ص: 7 ـ 248، الفضل المزيد، ص: 56، بامخرمة، ثغر عدن، ص: 193.

(2) عن ألقاب علي الصليحي. انظر السجلات المستنصرية.

الصليحي، فقدم جياش إلى أخيه، ثم ظهر سعيد الأحول في زبيد في سبعين رجلاً لا فرس لواحد منهم ولا سلاح، إلا مسامير من الحديد مركبة في جريد النخل، لذلك قام سعيد الأحول بقتل جنديٍّ وأخذ فرسه[1].

وفي التاسع من ذي القعدة، اتجهوا لقتال علي الصليحي عن طريق الساحل متحاشين الطريق السلطانية، وهي الطريق الرسمي للحج والتي سلكها علي الصليحي، وذلك خوفاً من ملاقاة العساكر واكتشاف أمرهم، وقد ساروا في هذا الطريق لمدة ثلاثة أيام حتى وصلوا المهجم، ولما سمع حاكم زبيد بخروج سعيد الأحول كتب إلى علي الصليحي يخبره بذلك، وبعث بعدهم خمسة آلاف من رماة الحراب من الأحباش الذين كانوا من موالي بني نجاح وعبيدهم وأولاد عمومتهم وذلك للقضاء على سعيد الأحول وأخيه ومن معهما. وأدرك ذلك سعيد الأحول، فاتجه طريقاً مخالفاً لهذا الجيش، فساروا حتى وصلوا إلى المخيم الذي يقيم به علي الصليحي فدخلوه دون أن يعرفهم الناس إلا عبد اللّه الصليحي لاعتقادهم أنهم من جملة العساكر[2].

أما عبد اللّه أخو علي الصليحي الذي عرفهم فقد ركب فرسه وقال لأخيه اركب (فهو واللّه الأحول بن نجاح الذي جاءنا به رسالة أسعد من زبيد فقاتلهم حتى قتل). وبالنسبة لعلي الصليحي لما أدرك بوجود سعيد الأحول لحقه يأس من الحياة فلم يبرح مكانه حتى قتله سعيد الأحول ولم يشعر الناس إلا بقتله. كما قتلوا الكثير من بني الصليحي. وأسروا أسماء بنت شهاب زوجة علي الصليحي، وأدخلوها زبيد بعد ثلاثة أيام ثم إن سعيداً الأحول أرسل رسله إلى الخمسة آلاف التي أرسلها أسعد الصليحي لقتاله ومن معه يقول لهم: (إن الصليحي قد قتل وأنا رجل منكم والعز عزكم فأطاعوه)[3]. والواقع أن رواية (عمارة) هذه غير معقولة بأن يخرج سبعون رجلاً بدون سلاح ويقتلون علي الصليحي ومن معه وهم ممن اتصفوا بالشجاعة والتمرس على القتال. كما أنه غير معقول أن يصل خبرهم إلى علي الصليحي دون أن يستعد لقتالهم ويحمي نفسه منهم.

2 ـ الرواية الثانية:

يوردها إدريس ملخصها أنه عندما تمكن علي الصليحي من قتل نجاح والسيطرة على تهامة هرب أبناؤه إلى أرض الحبشة (دهلك). وقد حاول سعيد

(1) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 192، 193.

(2) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 193 ـ 195.

(3) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 195 ـ 197.

الأحول الانتقام لأبيه واستعادة ملكه على تهامة، فبعث الجواسيس، وكانت أخبار علي الصليحي تأتيه في كل وقت، ولما عزم الصليحي على الحج سنة 459هـ/ 1066م وصلت إليه أخباره (فخرج من البحر معارضاً له في خمسة آلاف حربة من الحبشة قد انتقاهم) فخرجوا بساحل المهجم وساروا منه حتى وصلوا مخيم علي الصليحي في المهجم منتصف النهار (والناس مفترقون في خيامهم غير مستعدين لحرب ولا خائفين منه) فهجم مع جماعته على مخيم علي الصليحي، فأدركوه عندما كان يحاول ركوب الخيل، فقتلوه وقتلوا أخاه عبد اللّه بينما اتجهت بقية جيش الأحباش نحو مخيم من رافق علي الصليحي، فقتلوا من قدروا عليه واستولوا على جميع خزائن علي الصليحي وأمواله (وكان قد اصطحب معه أموالاً جليلة قيل كان يقصد بها مصر)[1].

هذه الرواية أكثر الروايات تصديقاً وأكثرها معقولية وتتناسب مع سير الأحداث، وهي أن المؤامرة تمت بسرية من خارج اليمن، فقدم الجيش الكثيف إليها عندما كان علي الصليحي يسير نحو الحج بأمان دون توقع أي هجوم عليه. فقتلوه في المهجم كما هو موضح.

3 ـ الرواية الثالثة:

هي رواية صاحب سيرة المكرم ومضمونها كالآتي:

كان علي الصليحي قد ولّى حصن مسار رجلاً من عبيد نجاح واسمه فرج البيشي (كان يظهر من التودّد والنصح وإظهار المنافع) ما حمل علي الصليحي من أن يقربه ويدنيه منه ويوليه حصن مسار، فلما تولى فرج حصن مسار أبطن لعلي الصليحي الغدر، فكان يخلو كثيراً بأصحابه العبيد دون بقية العرب ويحرضهم على الغدر بعلي الصليحي، فحرض العبيد الموجودين بحراز وصنعاء، ولما لم يتمكن العبيد في صنعاء من تدبير مؤامرتهم وإظهار أمرهم لقلتهم وكثرة العرب بها، اتجه إلى عبيد زبيد يحرضهم على الغدر بعلي الصليحي، وقد لقي من الكثير منهم استجابة، منهم سعيد الأحول، ولذلك دعا فرج رماة الحراب وجمعهم بسعيد الأحول وقال لهم: (هذا ابن ملككم وأنتم إن قمتم معه فإنكم تنتصرون من العرب وتأخذون بثأركم)[2].

استمر فرج البيشي يحرض رماة الحراب خفية في كل من مسار وصنعاء

---

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 59، نقلاً عن إدريس.

(2) مجهول: سيرة المكرم، ص: 24.

وزبيد، وقد تركزت دعوته على زبيد أكثر من غيرها من المناطق لكثرة العبيد فيها وكان يقول لهم: (كم تملككم العرب وتستخدمون لها وتذلون وقد صرتم في جمع تمتنعون به وتعزون)[1].

لم تظل دعوة فرج البيشي لعبيد الحبشة مخفية، فقد أُكتشف أمره وألقي القبض عليه وأرسل إلى علي الصليحي بصنعاء. ونتيجة لاستخدام السرية في دعوته فقد حاول إنكار ما قام به وأبدى استعداده للقبض على بني نجاح، فتركه علي الصليحي يتجه إلى زبيد للقبض عليهم، ولما وصل إلى زبيد أخبر بني نجاح أن أمره قد انكشف وأنهم يقومون بالدعوة بأنفسهم، ولما لم يُلق القبض على بني نجاح كما قال لعلي الصليحي، ومحاولته دعوة عبيد زبيد لمناصرة بني نجاح، ألقى القبض عليه واليها أبو السعود بن أسعد بن شهاب وكتّفه ثم سلمه لعلي الصليحي عند مروره بتهامة للذهاب إلى الحج، فساقه معه محبوساً إلى أن وصل إلى (العمد) ضربت عنقه، وذلك في يوم الخميس التاسع من ذي القعدة سنة 459هـ/ 1067م. وبقتله ازدادت العبيد في النفور[2].

ومن ناحية سعيد الأحول فإنه اتجه سراً لدعوة أنصاره الحبشة في زبيد لمقاومة الصليحيين، ولما علم علي الصليحي بأخباره أرسل إليه العيون ليلقوا القبض عليه فاختفى وأكثر الحرص في الاستتار، مرة كان يختفي عند فرج البيشي في مسار ومرة أخرى كان يختفي في زبيد ينتقل من بيت إلى بيت[3].

وعندما ألقي القبض على فرج البيشي واتجه علي الصليحي نحو الحج منفرداً بقلة من أصحابه دون اصطحاب جيش معه، أدرك سعيد الأحول أنه لا بقاء له على الخفية والاستتار فدعا أصحابه ورماة الحراب بزبيد للقيام معه لاستعادة ملكه، فحملوا سلاحهم وظهروا بزبيد يوم الأربعاء الثامن من ذي القعدة سنة 459هـ/ 1067م فهجموا على دار الوالي أبي السعود وأحمد بن أسعد بن شهاب الصليحي وأخذوا جميع ما كان معهما من الأموال والعدة والسلاح وغيره، وقتلوا من لقوا بزبيد من أهل حراز، فكانت السيطرة على زبيد وعلى ذلك فإن هذه الأموال والخيول والسلاح التي استولوا عليها كانت عوناً لهم على محاربة علي الصليحي.

بعد السيطرة على زبيد مباشرة قام الأحول بمراسلة أصحاب الحبشة في زبيد

---

(1) مجهول: سيرة المكرم، ص: 25.

(2) مجهول: سيرة المكرم، ص: 27، 28، أبو السعود بن أسعد بن شهاب بن جعفر الصليحي تولى أمر زبيد بعد أسعد بن شهاب.

(3) مجهول: سيرة المكرم، ص: 85.

للاتجاه معه لقتال علي الصليحي كما خرج هو ومن معه من زبيد نحو المناطق الشامية أو الشمالية لإدراك علي الصليحي الذي خرج للحج عن طريق تهامة[1] ذلك ما كان من سعيد الأحول ونصيره فرج البيشي.

أما بالنسبة لعلي الصليحي فإنه لما أراد الحج في موسم سنة 459هـ/ 1067م أمر السلاطين والأمراء والقادة ومن معه من الذين كانوا يريدون الحج معه أن يتقدموا قبله رويداً رويداً حتى لا يزدحموا في مناهل المياه، فساروا بناءً على ذلك منذ خروجهم من صنعاء، وبقي علي الصليحي في جماعة قليلة من جنده ممن يحملون الحراب وفي نفر من بني عمه[2].

فلما خرج علي الصليحي للحج رافق تلك القلة، ولم يكن معه من قبائل اليمن المسمون بالحجازيين والذين هم أكثر اليمنيين إسماعيلية ونصرة له، ولا من حمير ولا من كبار رجاله وأهل النجدة والبأس أحد يسير معه، لأنهم تقدموا في الطريق عليه فمنهم من صار في المقدمة، مثل القاضي عمران بن فضل اليامي، والحسين بن عمرو السنحاني في جماعة من يام، وسنحان، وآخرون، ومنهم من صار بذهبان مثل عامر بن سليمان الزواحي، ومدافع بن حسين الجنبي في جنب وحمير ويوسف بن زايد السنحاني وموسى بن حذيفة الجنبي، أما أثقال علي الصليحي من الخيول والجمال والأموال فهي كانت مبثوثة من المهجم إلى الهجر، تسير رويداً رويداً وهو يسير معها بالقليل من جنده العبيد رماة الحراب وبني عمه وأخواه إبراهيم وعبد الله وزوجته أسماء بنت شهاب[3].

ولما وصل علي الصليحي المهجم يوم الجمعة العاشر من ذي القعدة وصلته أخبار تفيد أن سعيداً الأحول وأنصاره من رماة الحراب، قد نهبوا بيت الدولة في زبيد وقتلوا الحرازيين الذين بها واتجهوا لقتاله فدعا عبيده رماة الحراب الذين معه وأعلمهم خبر العبيد وما فعلوه في زبيد وأنهم قادمون إليه لحربه، فانتدبوا أنفسهم للخروج للقائهم وأظهروا استعدادهم للاتجاه لقتالهم، بينما كانوا يبطنون شيئاً آخر، فلما سمح لهم علي الصليحي للاتجاه لحربهم ساروا في طريقهم نحو زبيد، ولما عرفوا أن سعيداً الأحول وجماعته قادمون إلى المهجم لقتال علي الصليحي عن طريق الجادة (عرجوا عن طريقهم لئلا يلقونهم، وخافوا إن كانوا معهم ويختلطون بهم فتكون الدائرة عليهم فيحيق بهم جميعاً المكر) لذلك أرسلوا من يتتبع

---

(1) المصدر نفسه، ص: 28.

(2) المصدر نفسه، ص: 24.

(3) المصدر نفسه، ص: 28، 29.

أخبارهم، فلما تحقق لهم أن سعيداً الأحول وجماعته يريدون الاتجاه نحو علي الصليحي والبلاد الشامية، راسلوهم وأخبروهم أنه لوحده وعليهم إدراكه سريعاً قبل أن يلحق بأصحابه فلا يستطيعون له، فأسرعوا إليه فأدركوه خارج المهجم ضحى يوم السبت الحادي عشر من ذي القعدة من سنة 459هـ/ 1067م. فهجموا عليهم وقاتلوهم قتالاً شديداً انتهى بانتصار الأحول وقتله لعلي الصليحي وأخويه إبراهيم وعبد الله والكثير من غيرهم من الصليحيين[1].

هذه الرواية قد تكون صحيحة من جانب واحد هو دور سعيد الأحول في زبيد وأنصاره، ومن جانب آخر فهي غير صحيحة. أن يصطحب علي الصليحي العبيد معه، وأن يرسلهم لقتال أبناء عمومتهم عبيد زبيد، وأن يظل بدون حماية وخاصة بعد أن عرف أن سعيداً الأحول وأنصاره قادمون إليه.

والذي يظهر من خلال تلك الروايات أن علياً الصليحي لم يكن يعلم بمؤامرة سعيد الأحول وأنصاره ولا دعوتهم السرية في زبيد أو غيرها، سواء عندما كان في صنعاء أو عندما كان في الطريق أثناء سيره إلى الحج، ولم يصله خبرهم لأنه من غير المعقول أن يصل إليه أخبار سعيد الأحول عندما ظهر في زبيد وأنه متجه إليه لقتاله ويهمل هذا الخبر دون أن يحرص على نفسه، ولا اصطحب معه جنداً لحمايته من العبيد، والرواية المقبولة بشكل أكثر هي أن جياشاً قدم بجيش كثيف من الحبشة دون أن يعرف به أحد. أما خروج سعيد الأحول بسبعين فرداً بغير سلاح فغير معقول، إلا إذا اعتبرنا أنه خرج من زبيد بذلك العدد عندما وصلت له أخبار مؤكدة تخبره أن جياشاً بجيشه منتظرون له بساحل المهجم. فاكتفى سعيد الأحول بأخذ الأفراد السبعين، وذلك لأنه عرف أن علياً الصليحي سار بقلة من أهله ولم يصطحب جنداً معه.

ومن جهة تصورنا لمجمل تلك الروايات يتضح لنا أن نهاية علي الصليحي كانت كالآتي:

اتصف علي الصليحي بكثرة الذهاب إلى الحج وقد كان يحج سنوياً في

---

(1) مجهول سيرة المكرم، ص: 30، ممن قتل مع علي الصليحي وأخواه عمر بن حاشد بن جعفر الصليحي ومسلم بن كديس بن عبد الله الصليحي، وحاشد بن جعفر بن حاشد الصليحي، ومالك بن إبراهيم الصليحي، وأحمد بن قاسم بن عبد الله، ابن أحمد بن قاسم بن جعفر أخو القاضي أسعد عبد الله الصليحي، ومحمد بن يعلى بن المظفر الصليحي، وعمر بن موسى بن أبي حدية الجنبي، وروح بن سليمان اليامي، وعلي بن زيد اليامي وخيران بن ربيع اليامي، مجهول: سيرة المكرم، ص: 31.

بعض الفترات وخاصة قبل تكوين دولته[1] وبعد تكوينها واستتباب الأمن والاستقرار فيها، وكان من أهدافه في الحج هي تفقد طريق الحجيج للقيام بإصلاحها[2]، حيث بنى جزءاً منها يوضح ذلك ابن المجاور بقوله: (الجنابة هي ثلاث قباب مبنيات بالآجر المحكوك والجص. . . . وبناء الأمير علي الصليحي وأراد أن يبني من زبيد إلى مكة في كل مرحلة من المراحل مسجداً ورباطاً يذكر به بعد موته ولا زال يبني إلى أن وصل المهجم)[3] كذلك كان هدفه من الحج الالتقاء بأصحاب مذهبه الإسماعيلية في مكة لتعريفهم أخباره ومعرفة أخبارهم والتشاور معهم في أمور المذهب وغيرها من الأهداف، كما اتصف بالاستمرار بإرسال الهدايا للمستنصر الفاطمي رمزاً للولاء والطاعة له.

لذلك عندما قارب موسم حج سنة 459هـ/ 1067م استخلف علي الصليحي ابنه المكرم في حكم اليمن، واتجه نحو الحج، واصطحب معه زوجته أسماء بنت شهاب وجماعة من قومه بني الصليحي يقدر عددهم بمائة وسبعين رجلاً[4]، بالإضافة إلى خمسين حاكماً من حكام اليمن الذين أزال حكمهم وأخذهم للإقامة معه في صنعاء كرهائن، وأعداد قليلة أخرى. ساروا الجميع على شكل فرق متباعدة نسبياً لتجنب الازدحام حول آبار المياه، كذلك اصطحب معه في حجه هذا هدايا جليلة لإرسالها للمستنصر الفاطمي وهي عبارة عن (خمسمائة فرس مجنوبة عليها مراكب الفضة وخمسمائة هجين عليها أكواب الفضة)[5] وخمسين دواة من ذهب وفضة وغير ذلك من الزينة التي لا تنحصر)[6].

وكان علي الصليحي قد وثق من استقرار حكمه على اليمن منذ أن أكمل

---

(1) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 100 ـ 111.

(2) الهمداني: الصليحيون، ص: 101، 102.

(3) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 75.

(4) الجندي: السلوك، جـ2، ص: 487، اختلفت المصادر في ذكر عدد بني الصليحي الذين رافقوا علي الصليحي إلى الحج فعمارة وابن عبد المجيد وابن الديبع، يذكرون أنهم كانوا مائة وستين رجلاً (تاريخ اليمن ص: 126، بهجة الزمن، ص: 76، الفضل المزيد، ص: 57) بينما يذكر الجندي أنهم مائة وسبعون رجلاً السلوك جـ2، ص: 487، أما الخزرجي فهو يذكر الروايتين معاً، بأن علياً سار في مائة وستين أو مائة وسبعين من آل الصليحي العسجد، ص: 58، وتضاف إلى تلك الروايات رواية أخرى أوردها ابن الديبع وبامخرمة قولهما بأن علياً الصليحي سار إلى الحج (في مائة وخمسين أو سبعين من آل الصليحي)، قرة العيون، ص: 350، ثغر عدن، ص: 194.

(5) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 250.

(6) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 194.

سيطرته عليها سنة 455هـ/ 1063م، حيث لم تعد توجد قوة فيها تستطيع إزاحته منها فأمن من ذلك، ولما كان من عادته الاستمرار إلى الحج لم يكن يتوقع هجوم أي قوى عليه، فقد سار نحو مكة في تلك السنة 459هـ/ 1067م بألفي فارس ساروا مفترقين عن بعضهم البعض وكان هدفهم الحج وليس غيره، دون اصطحاب قوات كبيرة من قواته الكثيرة العدد[1].

أما من ناحية أولاد نجاح فبعد أن سيطر علي الصليحي على تهامة هربوا منها إلى جزيرة دهلك الحبشية، وظلوا يترقبون الفرصة للعودة إليها، ومن أجل ذلك خططوا لوضع كمين للتخلص من علي الصليحي، وكان موسم الحج هو أنسب الوقت لذلك، لمعرفتهم استمرار علي الصليحي السير إلى الحج دون اصطحاب قواته، وذلك للعداوة التي كانت بينهما بسبب إنهاء علي الصليحي للدولة النجاحية بقتل نجاح وسيطرته على زبيد وأعمالها التهامية، والتي أدت إلى زوال ملكهم وهروبهم خوفاً منه[2] أو اختفاء بعضهم في زبيد هروباً من القضاء عليهم[3].

وقد ظل جياش في دهلك، أما سعيد الأحول فقد عاد إلى زبيد على أثر خلاف حدث بينه وبين أخيه جياش حينما نهاه جياش بعدم الغدر بصاحب دهلك[4]، وقد ظل سعيد الأحول في زبيد مختفياً يتتبع أخبار علي الصليحي من خلال جواسيسه المنتشرة في زبيد وتهامة وغيرها، حيث كانت أخباره تصله في كل وقت وكان يراسل أخاه جياشاً إلى دهلك ويخبره بأخبار علي الصليحي، كما كان يعد لإعلان الثورة في زبيد[5]. وعندما تحقق لسعيد الأحول عزم علي الصليحي على الحج سنة 459هـ/ 1067م. قام بتجهيز الكمين فكتب لأخيه جياش يخبره بذلك وطلب منه أن يقدم إليه مع أنصارهم وواعدهم اللقاء في ساحل المهجم، فجمع جياش حوله خمسة آلاف حربة يجيدون الرمي بالحراب انتقاهم من أقوياء الناس وسار بهم عن طريق البحر حتى وصل ساحل المهجم[6].

فلما وصلت أخبار جياش إلى سعيد الأحول أنه وصل ساحل المهجم بجيشه بالإضافة إلى علمه بنزول علي الصليحي تهامة، وسيره على طريق الجادة السلطانية

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 59، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 252، الفضل المزيد، ص: 57.
(2) الخزرجي: العسجد، ص: 59، ابن الديبع: الفضل المزيد، ص: 57.
(3) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، جـ1، ص: 256.
(4) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 192.
(5) الخزرجي: العسجد، ص: 106، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 253، الفضل المزيد، ص: 57.
(6) الخزرجي: العسجد، ص: 59، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 253، الفضل المزيد، ص: 57، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 77.

نحو الحج وبرفقته القليل من الأفراد دعا أصحابه للتجمع إليه فلما تجمعوا إليه أعلن عن ثورته في زبيد، فاتجه نحو دار الإمارة واستولى على جميع الأموال التي كانت بحوزة واليها الأمير أبو السعود بن شهاب[1] ولم ينتظر إكمال السيطرة على زبيد، بل ترك هذه المهمة لأنصاره الذين طلب منهم أن يكملوا جمع أنصارهم ويسيطروا على زبيد ويمدوه بخمسة آلاف رامي حراب يسيرون بعده عن طريق الجادة السلطانية.

وبعد أن تمكن سعيد الأحول من إعلان الثورة في زبيد، اتجه مسرعاً بسبعين رجلاً من ثقاته للانضمام إلى جيش أخيه جياش الكثير العدد والاتجاه للحاق بعلي الصليحي فسار على طريق الساحل حتى وصل ساحل المهجم، حيث التقى هناك بقوات أخيه، ومنها ساروا جميعاً نحو مخيم علي الصليحي الذي وصل إليه وهو (ضيعة الدهيم وبئر أم معبد في مدينة المهجم) والذي مكث فيه للاستراحة من عناء السفر ولقضاء وقت القيلولة تجنباً من وهج الحر[2] حيث كان من عادة المسافرين على تلك الطرقات تجنب السفر في منتصف النهار والاستراحة والسير في الأوقات الأخرى.

وعلى حين غفلة من علي الصليحي وجماعته أثناء استراحتهم في ذلك النهار وعدم استعدادهم للحرب هجم عليهم سعيد الأحول وجياش بقواتهما فجأة، حيث لم يشعر بهم الناس إلا وقد قتل فيها علي الصليحي وأخوه عبد الله والكثير من قومهما في معركة غير متكافئة، وذلك في 11 من شهر ذي القعدة سنة 459هـ/ سبتمبر 1067م وأسر الكثير من قوم علي الصليحي منهم زوجته أسماء التي أخذوها أسيرة معهم إلى زبيد كما غنموا كل الأموال التي اصطحبها علي الصليحي معه كهدايا للمستنصر الفاطمي وهي أموال جليلة[3] كما سبق ذكرها وهكذا كانت نهاية علي الصليحي مؤسس الدولة الصليحية.

---

(1) مجهول: سيرة المكرم، ص: 28.

(2) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 127، الخزرجي: العسجد، ص: 59، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 253، الفضل المزيد، ص: 57.

(3) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 127، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 77، الخزرجي: العسجد، ص: 59، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 255، الفضل المزيد، ص: 57، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، جـ1، ص: 257، بالنسبة لليوم الذي قتل فيه علي الصليحي يورد عمارة في تاريخه، ص: 126، أنه كان يوم السبت الحادي عشر من شهر ذي القعدة، وبالنسبة للسنة التي قتل فيها علي الصليحي، فذكر كل من يحيى بن الحسين في غاية الأماني، جـ1، ص: 255 ـ 257، وأحمد شرف الدين في اليمن عبر التاريخ، ص: 197، وعبد الله الثور في هذه اليمن، ص: 280 أن قتل علي الصليحي كان سنة 458هـ بينما يذكر كل من الجندي في السلوك، =

الخاتمة:

يمثل قيام الدولة الصليحية نموذجاً رائعاً في توحيد اليمن في دولة واحدة، ففي بداية القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي. ظهر علي بن محمد الصليحي متصفاً بالذكاء منذ طفولته، فكان ذلك حافزاً لسليمان الزواحي أن يهتم بتدريسه الدين الإسلامي على المذهب الإسماعيلي، فأدى ذلك بعلي الصليحي أن يصبح مذهبه إسماعيلياً، على عكس أبيه الذي كان على مذهب أهل السُنَّة.

ومنذ العقد الثالث للقرن الخامس الهجري شهدت اليمن تحولات مذهبية وسياسية كبيرة. فلما بلغ علي الصليحي مبلغ الرجال أسندت إليه رئاسة الدعوة الإسماعيلية، فحوَّل الدعوة الإسماعيلية في اليمن من دور الاستتار إلى دور الظهور وذلك في سنة 429هـ/ 1037م، وبذلك أخذت الدعوة الإسماعيلية تنتشر سريعاً في أنحاء اليمن لدى أنصارهم الإسماعيلية. فأسهم ذلك في الانتقال بالدعوة إلى الدور السياسي.

وفي سنة 439هـ/ 1048م بدأ علي الصليحي يبذل ما بوسعه لتكوين دولة له في اليمن فقاد أتباعه الإسماعيلية بشجاعة نادرة. وصارع القوى المذهبية والسياسية المتعددة في اليمن مثل قوى المذهب الزيدي في شمال صنعاء والتي تمركزت في صعدة وما حولها. وقوى النجاحيين ممثلي الخلافة العباسية والتي جعلت تهامة مركزاً رئيسياً لها. والقوى القبلية في كل من صنعاء وما حولها واليمن الأسفل في كل من مخلاف جعفر (إب) ومخلاف الجند (تعز) وعدن. ولم يأت عام 455هـ/ 1063م إلا وقد كوّن علي الصليحي دولة إسماعيلية شملت اليمن كله. وبذلك يعتبر علي الصليحي الشخصية الوحيدة آنذاك التي تمكنت من توحيد اليمن كله. وهذه أهم ميزة تميزت بها قيام الدولة الصليحية في اليمن. وذلك حدث لم يعهده اليمن في العصرين الجاهلي والإسلامي كما عبر عنه عمارة اليمني وغيره من المؤرخين. لأن اليمن كان مقسماً إلى عدة دويلات مذهبية وسياسية وقبلية.

وعلى الرغم من ميل علي الصليحي إلى مذهب الإسماعيلية وحكم اليمن

= جـ2، ص: 487، وابن الديبع في الفضل المزيد، ص: 57، أن قتله كان سنة 473هـ وذلك تمشياً مع إحدى روايتي عمارة التي أوردها ورجح إحداهما بقوله: (إن قتله كان في يوم السبت الثاني عشر من ذي القعدة سنة 473هـ وقيل سنة 459هـ، وهي رواية صحيحة) تاريخ اليمن، ص: 126. أما زبارة في أئمة اليمن، جـ1، ص: 94، فيقول: ولم تطل مدة علي بن محمد الصليحي بعد الأمير حمزة فقد قتل في تهامة في ذي القعدة من تلك السنة سنة تسع وخمسين وأربعمائة على أرجح الأقوال في ذلك. ونستخلص من ذلك كله أن الرواية الأكثر ترجيحاً هي رواية ابن عبد المجيد في بهجة الزمن، ص: 76، الخزرجي في العسجد، ص: 58، وابن الديبع في قرة العيون، ص: 248، والتي تحكي أن قتل علي الصليحي كان في سنة 459هـ.

كلها بهذا المذهب. إلا أنه ترك لجميع أهل اليمن الحرية الدينية والمذهبية فيما يعتقدون من مذاهب. ولم يحاول إجبارهم على اعتناق مذهبه الإسماعيلي. كما اتصف بالتعامل الطيب مع جميع قوى اليمن.

ومن أهم النتائج التي حققها علي الصليحي بقيام دولته الصليحية باليمن هي أن الدولة الصليحية بمذهبها الإسماعيلي استمرت تحكم اليمن لما يقرب من قرن كامل مع الاستمرار في موالاتها للفاطميين بمصر. وأن الدويلات التي ظهرت في اليمن بعد الدولة الصليحية استمرت تحاول العمل على توحيد اليمن كله تحت سلطانها. وعلى ذلك كان قيام الدولة الصليحية في اليمن على يد الداعي علي الصليحي.

المقدمة

المكرم أحمد بن علي الصليحي

ورث المكرم أحمد بن علي الصليحي السلطة في اليمن بعد أبيه، مستمراً في إعلان موالاته الاسمية للفاطميين، وقد أدى دوراً بارزاً في إعادة توحيد اليمن تحت سلطانه، بعد أن بدأت الزعامات القبلية اليمنية تخرج عن سلطان الصليحيين بعد قتل أبيه علي الصليحي سنة 459هـ/ 1067م، وفي هذه الصفحات القليلة سنتحدث عن سياسة المكرم في هذا التوحيد، وتعامله مع القوى اليمنية منذ توليه السلطة وحتى نهاية حكمه.

ولاية العهد: من الأمور الهامة للفاطميين والصليحيين آنذاك التأكد من انتقال السلطة إلى من يأتي بعدهم من الأفراد. وكان مألوفاً آنذاك أن يخلف الابن أباه في الحكم، فجرياً على توريث السلطة لدى الخلفاء الفاطميين، فقد عملوا على تشيجع ذلك في الدويلات التي تدين لهم بالطاعة المذهبية، مثل الصليحيين في اليمن، لذلك بادر علي الصليحي بطلب توليه ولاية العهد لابنه من الخليفة المستنصر الفاطمي، فأرسل إليه سجلاً يجعل الأمير المكرم ولياً للعهد بدلاً من أخيه المتوفى في المحرم من سنة 458هـ ديسمبر/ 1066م فوصل ذلك السجل في شهر ربيع الآخر سنة 458هـ/ مارس 1066م أثناء ما كان علي الصليحي في أبين[1] وبذلك أصبح المكرم يحمل الصفة الشرعية في حكم اليمن بعد أبيه وفي توليه رئاسة المذهب الإسماعيلي فيها.

توليه السلطة: وفي الوقت الذي توجه فيه علي الصليحي إلى الحج في سنة 459هـ/ ديسمبر 1067م عهد بتولي حكم اليمن إلى ابنه الأمير أحمد المكرم وأوصاه (بالعدل وحسن السيرة والسياسة وتقوى اللّه في الجهر والسريرة، والعمل بأعمال الشريعة وإقامة دعائمها والائتمار بأوامرها والانتهاء عن محارمها)[2] وجعل إلى جانبه خاله أحمد ابن المظفر بن علي الصليحي، ليساعده في إدارة الدولة، واستبقى معهما في صنعاء عدداً من الجند يقدرون بـ(ستمائة رجل من الحجازيين

---

(1) الهمداني: الصليحيون، ص: 96، 304، نقلاً عن عيون الأخبار 78، 80، 81، حسن سليمان: تاريخ اليمن السياسي، ص: 184، أمين صالح: علاقة الدولة الصليحية بالخلافة الفاطمية، ص: 64.

(2) عمارة: تاريخ اليمن تحقيق كاي ترجمة حسن محمود، ص: 323، نقلاً عن عيون الأخبار 7/ 88.

والحرازيين)[1] أما بقية الجند فقد كانوا متمركزين في حصون اليمن المتعددة، وعندما وصل علي الصليحي إلى المهجم في تهامة فاجأه سعيد الأحول وعدد من جنوده فقتلوه في نفس السنة فانتهت بذلك أهم شخصية كونت الدولة الصليحية في اليمن ليتولى مكانه شخصية أخرى هي ابنه المكرم، وأيدت الخلافة الفاطمية هذه التولية فبعثت كتاباً إليه وصله في شهر شعبان سنة 460هـ/ يونيو 1068م عبّرت فيه عن أسفها لوفاة والده وعهدت إليه بشؤون الدعوة[2].

وضع اليمن بداية عهد المكرم: لما وصلت الأخبار إلى مسامع المكرم بقتل أبيه في المهجم وأسر والدته أسماء، ارتاع من هذا الخبر، وحزن منه، وأدرك مدى تحمل مسؤولية أعباء إدارة الدولة، إذ أصبح من واجبه الاتجاه للثأر لأبيه وتخليص أمه من الأسر، كما أصبح من واجبه المحافظة على نفوذ الدولة الواسعة التي تركها له أبوه، فتطلب الأمر منه الإسراع في التجهيز للقتال، فاتجه إلى خزائن السلاح فأخرج ما كان بها وأمر الناس بالاستعداد للحرب[3].

ومن جهة القبائل اليمنية، فسرعان ما طارت الأخبار إليها بقتل علي الصليحي وانتشر الخبر سريعاً في أنحاء اليمن، فأعلنت الكثير من القبائل خروجها عن طاعة المكرم والاستقلال بسلطانها عنه بشكل ينذر بزوال الدولة الصليحية، ومنهم أهل حضور، وأهل حراز وأهل يحصب ورعين وعنس ومشرق خولان، وبلاد حمير ومغارب اليمن الأعلى[4] بالإضافة إلى عودة ظهور دولة بني نجاح في تهامة، وبني الكرندي في مخلاف الجند، والمعافر وبني معن في عدن ولحج وأبين[5]. والأئمة الزيدية في شمال صنعاء[6]. كذلك تعرضت الكثير من حصون بني الصليحي إلى الحصار منها حصن التعكر حاصره بنو نجاح، وحصن مسور وحصن مسار، وحصن كحلان وهران، حاصرتها القبائل المجاورة لتلك الحصون، وامتد العصيان إلى أن وصل إلى مدينة صنعاء نفسها وهي مقر إقامة المكرم[7] بذلك اختلت

(1) مجهول: سير الأمير المكرم، ص: 23، 24، مخطوط لدى الباحث، الهمداني: الصليحيون، ص: 114.
(2) سرور: النفوذ الفاطمي، ص: 80، عصام الدين: اليمن في ظل الإسلام، ص: 167.
(3) مجهول: سيرة الأمير المكرم، ص: 23، 24.
(4) مجهول: سيرة المكرم، ص: 35، 36.
(5) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 42.
(6) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 142، الكبسي: اللطائف، ص: 33.
(7) رسائل القمي 36 ـ 72 نقلاً عن الهمداني: الصليحيون ملحق رقم 6، ص: 311، الهمداني: الصليحيون، ص: 113، مصطفى غالب: أعلام الإسماعيلية، ص: 118، الحداد: التاريخ العام، ص: 238، محمد العقيلي: المخلاف السليماني، جـ2، ص: 33.

الأحوال السياسية لليمن بداية عهد المكرم غاية الاختلال. والسبب في ذلك يرجع إلى أن القبائل اليمنية أرادت العودة إلى حكم نفسها والتخلي عن الحكم المركزي للدولة الصليحية، كما يرجع إلى تحريض بني نجاح للقبائل اليمنية بالتمرد ضد الصليحيين. فقد عمل سعيد الأحول على إطلاق الرهائن الذين كانوا مع علي الصليحي. مثل وائل بن عيسى الوحاظي، وعلي بن معن، وابن الكرندي(1) فلما عادوا إلى بلادهم استقلوا بها. كما يرجع ذلك إلى الخلاف المذهبي بين قبائل اليمن والمكرم.

جابه المكرم تلك التمردات والخلافات بشيء من الصبر والحكمة والشجاعة، والإصرار على المحافظة على ما حققه أبوه من سلطان(2) وهذا ما يلاحظ من خلال ما اتصف به المكرم، فقد اتصف بالشجاعة وكرم الأخلاق(3) فوصفه عمارة بقوله: (كان فصيحاً شجاعاً مشهوراً بالثبات والإقدام إذا زلت الأقدام، ولم يكن في زمانه من يتعاطى حمل رمحه وسيفه لشدة قوته وعظم خلقته)(4) فبدأ يراسل القبائل المناصرة له للحضور إليه لمقاتلة أعدائه، ثم توجه إلى محاربة الخارجين عن سلطانه، فتتالت انتصاراته عليهم حتى أعادهم إلى الطاعة(5).

ويمكن تقسيم صراع الأمير المكرم من أجل القضاء على التمردات وإعادة توحيد اليمن تحت سلطانه، إلى ثلاثة أقسام هي: أولاً: صراعه مع القبائل اليمنية، ثانياً: صراعه مع بني نجاح، ثالثاً: صراعه مع الزيدية.

أولًا

صراعه مع القبائل اليمنية

على الرغم من قلة الجند الذين كانوا مع المكرم في صنعاء، إلا أنه لم يقف مكتوف الأيدي حتى تصل إليه أنصاره لمساعدته، ولكنه بدأ يوجه جنده إلى المناطق القريبة من صنعاء، بهدف إجبار قبائلها على الالتزام بطاعة المكرم، ومنعها من التحرك نحو صنعاء لمحاصرتها والسعي لإسقاطها، لأنها تعد مركزاً مهماً

---

(1) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 127، الجندي: السلوك، 2/ 488.

(2) مجهول: سيرة المكرم، ص: 26.

(3) الهمداني: الصليحيون، ص: 113.

(4) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 129، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 39، مصطفى غالب: أعلام الإسماعيلية، ص: 124، 125.

(5) مجهول: سيرة المكرم، ص: 46.

للصليحيين بما تحويه من أموال وذخائر فأرسل المكرم قائده أحمد بن المظفر الصليحي في ستمائة من الحجازيين وأهل حراز لقتال حضور غرب صنعاء، وسرعان ما أيقن هؤلاء بعدم جدوى الحرب فعادوا إلى طاعة المكرم، بذلك هدأت تمرداتهم، فتركهم أحمد بن المظفر وعاد إلى صنعاء[1].

وما كاد القائد أحمد بن المظفر يعود من حضور إلى صنعاء، حتى أرسله المكرم نحو مشرق خولان في سبعمائة من الجند، فقاتلهم قتالاً شديداً حتى انتصر عليهم، وقتل منهم جماعة كبيرة، ولم يكف عن قتالهم حتى التزموا بالسمع والطاعة للمكرم. وبذلك توقف تمرد تلك المنطقة، فعاد إلى صنعاء مصطحباً معه عدة رؤوس ممن قتل منهم[2].

ومن جهة أنصار المكرم قواد علي الصليحي الذين ساروا معه للحج وتقدموا عليه في الطريق، مثل عامر بن سليمان الزواحي، ومدافع بن الحسن الجنبي، وموسى بن أبي حذيفة ويوسف بن زائد السنحاني، ومالك بن شهاب بن جعفر وغيرهم[3]. فإنهم ما إن سمعوا بقتل علي الصليحي وهم في طريقهم إلى الحج، حتى أسرعوا في العودة نحو صنعاء لمناصرة المكرم، فاستفاد المكرم من عودتهم، وكانوا سنداً له في حربه ضد الخارجين عليه[4]. وقد تمكن هؤلاء القادة من إعادة الكثير من المناطق اليمنية إلى طاعة المكرم.

وهكذا تقوى مركز المكرم الحربي بعد عودة قادة الدولة الصليحية، فبدأ يرسلهم إلى المناطق البعيدة عن صنعاء، بهدف إعادة قبائلها إلى طاعة الدولة الصليحية بقيادة المكرم، فبعث إسماعيل بن أبي يعفر الصليحي، وسبأ بن أحمد بن المظفر الصليحي في الخامس من شهر ذي الحجة سنة 459هـ/ أكتوبر 1067م نحو المخالفين له في مناطق يحصب ورعين وعنس. وهي المناطق التي كان إسماعيل بن أبي يعفر متولياً عليها، فدار قتال شديد بين الفريقين، أسفر عن تمكن الصليحيين من الانتصار عليهم، وعلى أثر ذلك التزم أهل تلك المناطق بالعودة إلى طاعة المكرم[5].

---

(1) مجهول: سيرة المكرم، ص: 35.

(2) مجهول: سيرة المكرم، ص: 35.

(3) مجهول: سيرة المكرم، ص: 35، رسائل القمي 36 ـ 72، ملحق رقم 6 الصليحيون، ص: 312 مصطفى غالب: أعلام الإسماعيلية، ص: 119، العقيلي، المخلاف السليماني، جـ2، ص: 33، الحداد: التاريخ العام، جـ2، ص: 238، 239.

(4) مجهول: سيرة المكرم، ص: 35، 36.

(5) مجهول: سيرة المكرم، ص: 45، رسائل القمي 36 ـ 72، ملحق رقم 6 الصليحيون، ص: 312، مصطفى غالب: أعلام الإسماعيلية، ص: 120.

كما أرسل المكرم عامر بن سليمان الزواحي إلى بلاد حمير ومغارب اليمن الأعلى، وهي المناطق التي كان متولياً عليها، للقضاء على تمرد قبائلها ضد المكرم، وما أن وصل إليهم، حتى تسارع وجوه حمير فيها إلى طاعته وطاعة المكرم، ولم يتمرد منهم إلا قلة، قاتلهم عامر الزواحي حتى ألزمهم العودة إلى طاعة المكرم[1]. وبذلك أصبحت تلك المناطق ضمن الداخلين في طاعة المكرم.

ولم يبق خارجاً عن طاعة المكرم في اليمن الأعلى، إلا حصن مسار وحراز وهي أماكن بدء انطلاق قيام الدولة الصليحية، والتي كان سعيد الأحول قد أغرى أنصاره فيها على التمرد ضد المكرم فاتجه أحمد بن المظفر الصليحي، وعامر بن سليمان الزواحي، وإسماعيل بن يعفر الصليحي نحوها وأثناء سير هؤلاء القادة انضم إليهم خارج مدينة صنعاء مدافع الجنبي وكافة الجنبيين مع يوسف بن زائد السنحاني وكافة السنحانيين ومن بقي من صنعاء من الهمدانيين[2]، فساروا جميعاً تجاه حراز ولما رأى أهلها هذا الحشد الكبير، أسرعوا في إعلان طاعتهم للمكرم منهم أهل كرار ومجيج وبني سهل، ولم يخرج عن هذه الطاعة إلا قائد منهم هو أسعد بن تبع من بني يعلا، الذي كان محاصراً لمسار، فقد هرب إلى بني نجاح في زبيد، فأصبح من السهل على هذا الجمع الكبير السيطرة على حصن مسار، فدخلوه دون قتال[3] وأقاموا في حراز ثمانية أيام يرتبون أحواله وأموره ثم اتجهوا نحو بكيل فحاربوهم حتى أعادوهم إلى طاعة المكرم ثم عادوا إلى صنعاء في صفر سنة 460هـ/ ديسمبر 1067م[4].

بذلك تمكن المكرم من سرعة القضاء على التمردات والخلافات التي أحدثتها القبائل في اليمن الأعلى، في مدة زمنية قاربت نحو الأربعة الأشهر. وتعود سرعة تمكن المكرم القضاء عليها، إلى النظام القبلي في اليمن، فقد جابهت كل قبيلة جيش المكرم منفردة، وذلك بسبب عدم استطاعة هذه القبائل التكتل نتيجة عدائها وصراعها مع بعضها البعض. وعادةً ما كان التكتل القبلي يلقى الفشل بسبب ذلك

---

(1) مجهول: سيرة المكرم، ص: 45، رسائل القمي 36 ـ 72، ملحق رقم 6 الصليحيون، ص: 313، الهمداني: الصليحيون، ص 116، مصطفى غالب: أعلام الإسماعيلية، ص: 120، حسن سليمان: تاريخ اليمن، ص: 187، العقيلي: المخلاف السليماني، جـ2، ص: 24.

(2) مجهول: سيرة المكرم، ص: 50، رسائل القمي 36 ـ 72، ملحق رقم 6 الصليحيون، ص: 313، مصطفى غالب: أعلام الإسماعيلية، ص: 121، حسن سليمان: تاريخ اليمن، ص: 187، 188.

(3) مجهول: سيرة المكرم، ص: 50 ـ 54.

(4) مجهول: سيرة المكرم، ص: 57، رسائل القمي 36 ـ 72، ملحق رقم 6، الصليحيون، ص: 313.

الصراع، كذلك كان إعلان التمرد من تلك القبائل دون المقدرة المالية والبشرية على المقاومة والحرب لجيش الدولة الصليحية كما أن هذه التمردات كانت تقودها قلة من أفراد القبائل وليس جميع أفرادها، لذلك سرعان ما كانوا يعودون إلى طاعة الدولة الصليحية عندما يرون جيشاً قادماً إليهم، وذلك ما حدث في عهد المكرم. كذلك تعود سرعة قضاء المكرم على تلك التمردات إلى أنه بعث إلى تلك المناطق ولاتها السابقين مثل عامر الزواحي الذي كان متولياً على حمير ومغارب اليمن الأعلى وكان مقر إقامته شبام كوكبان، وإسماعيل بن أبي يعفر الصليحي الذي كان متولياً على يحصب ورعين وعنس، فأدى هذان القائدان دوراً بارزاً في إعادة تلك المناطق إلى طاعة المكرم.

السيدة الحرة أسماء بنت شهاب: كان أهم هدف للأمير المكرم تخليص أمه أسماء من الأسر الذي وقعت فيه بعد قتل زوجها في المهجم سنة 459هـ/ سبتمبر 1067م من قبل سعيد الأحول النجاحي، الذي أخذها وأنزلها دار شحار وأوكل من يحرسها فيه[1] وقبل الخوض في كيفية تخليص أسماء من الأسر، لا بد لنا من إعطاء صورة عن شخصيتها ودورها في سياسة الدولة الصليحية.

صفاتها: اتصفت أسماء بنت شهاب بأنها كانت (من أعيان النساء وحرائرهن وكرائمهن)[2] وكانت إذا حضرت مجلساً لا تستر وجهها عن الحاضرين[3] تلك كانت عادتها منذ عهود زوجها علي الصليحي وذلك (لسمو قدرها عمن تحتجب عنه النساء)[4].

سياستها: وتعد الحرة أسماء من النساء القلائل اللواتي لعبن دوراً كبيراً في المساهمة في السياسة في اليمن، فكان علي الصليحي يعتمد عليها كثيراً كما (كان يثق بها ثقة لكمالها، فوكل إليها أمر تدبير الدولة، ولم يخالف في أغلب أمورها، ويجلها إجلالاً عظيماً[5]. وذلك لِما كان يوجد فيها من الحزم والتدبير ما لم يكن من نساء زمانها)[6].

من ذلك أن الحرة أسماء طلبت من زوجها أن يولي أخاها أسعد بن شهاب

(1) الجندي: السلوك، 2/ 448.

(2) الجندي: السلوك، 2/ 448، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 193.

(3) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 133، الهمداني: الصليحيون، ص: 67، نقلاً عن الأزدي: الدول المنقطعة، ورقة 69.

(4) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 133، مصطفى غالب: أعلام الإسماعيلية، ص: 123.

(5) الهمداني: الصليحيون، ص: 67، نقلاً عن الأزدي: الدول المنقطعة، ورقة 69.

(6) الجندي: السلوك، 2/ 487، الهمداني: الصليحيون، ص: 67.

أعمال زبيد وتهامة، وكان علي الصليحي قد أقسم يميناً أن لا يولي تهامة إلا لمن وزن له مائة ألف دينار[1]. فاستجاب لطلبها وولّى أخاها أعمال تهامة، بعد أن كَفَّرَت عن يمينه بإعطائه ذلك المبلغ من خزانته[2].

وقد كان أسعد بن شهاب ومالك بن شهاب يتلقيان أوامر الولاية من علي الصليحي وزوجته أسماء حيث يقول أسعد بن شهاب عن علي ابن القم قوله: (فجعله الصليحي معي وزيراً وكاتب إنشاء وأمرني هو ومولاتنا أسماء أن لا أقطع برأي دون رأيه)[3].

كرمها: واهتمت أسماء كثيراً بإكرام رجال دولتها، فمنحت الكثير منهم العطايا والهدايا والصلات يتضح ذلك من النص التالي: (وكانت أسماء من الكرم والسؤدد تمنح الجوائز السنية الجزيلة للشعراء والصلات في سبيل المروءة والخير)[4].

فقد كانت أسماء هي التي تستلم مالية تهامة وقدرها ألف ألف دينار سنوياً[5]. أي مليون دينار وهذا المبلغ كانت أسماء تصرفه كيفما تشاء لشؤون قصرها ولمن في القصر من الجواري والخدم والحشم وفي سبيل الخير من صلات ومروءات وغيره، وكمثال لما تصرفه أسماء صلة. كان عامل تهامة أحمد بن سالم يحمل من زبيد إلى صنعاء ألف ألف دينار كل سنة وكان لا يرجع من عندها إلا بصلة قدرها خمسون ألف دينار. فكان والي زبيد يقسم هذا المبلغ بنيه وبين أصحابه[6].

وكمثال آخر للصلات والوفادات التي كانت تقدمها أسماء للعرب ولرجال دولتها، فإن عامل تهامة أحمد بن سالم أوفده في إحدى السنوات والي تهامة مالك ابن شهاب على المكرم وعلى أسماء ومعه مالية تهامة المذكورة آنفاً وهو ألف ألف دينار، (ففرقت أسماء على وفود العرب معظمه فنتف ابن سالم لحيته وقال دخلت النار في جمع هذا المال ثم صار إلى ما صار إليه)[7].

فردَّت عليه أسماء ببيت من الشعر هو:

إذا المال لم تصرفه في مستحقه فما هو إلا حسرة ووبال

---

(1) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 120، الهمداني: الصليحيون، ص: 87.
(2) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 120.
(3) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 123.
(4) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 99، الهمداني: الصليحيون، ص: 67.
(5) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 123.
(6) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 123.
(7) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 134.

وحتى لا تغضب أسماء عامل تهامة أحمد بن سالم، كتبت إلى أخيها والي تهامة مالك بن شهاب تأمره أن يحتسب لابن سالم عشرين ألف دينار من مالية السنة الحاضرة آنذاك صلة له وبراً به[1] وهكذا كانت أسماء تكرم رجالها وتمنحهم الصلات.

وكمثال للمكافآت التي كانت أسماء تقدمها لرجال دولتها، فعندما انتصر الجيش الذي نزل إلى تهامة لتخليصها من الأسر سنة 460هـ/ 1067م وهبت أخاها مالك بن شهاب قائد مسيرة الجيش مائة ألف دينار وهو ارتفاع مالية عدن، كما وهبت عمها قائد الميمنة مائة ألف دينار أخرى وهو ارتفاع مالية كوكبان وحوشان[2]. وعلى ذلك كان إسهام أسماء في إدارة الدولة.

وكذلك كان يُدعى لأسماء على منابر اليمن، وذلك ما يوضحه بامخرمة بقوله: (وكان يُدعى لها على المنابر فيخطب أولاً للمستنصر ثم للصليحي ثم للحرة فيقال: اللهم أدم أيام الحرة الكاملة السيدة كافلة المؤمنين)[3]. وهكذا أُكرِمت أسماء وعُظِّمت وذلك انعكاساً لعظمة قدرها ورجاحة عقلها وكفاءتها في إدارة الدولة وعمل الخير. وبذلك أعطت أسماء نموذجاً مثالياً عن مقدرة المرأة ودورها في ذلك العصر.

ثانياً

صراع المكرم مع بني نجاح

على أية حال اتخذ الصراع بين النجاحيين والصليحيين طابعاً مذهبياً، بين أنصار أهل السُنَّة والخلافة العباسية وهم النجاحيون، وبين أنصار الإسماعيلية والخلافة الفاطمية وهم الصليحيون. وفي عهد المكرم الصليحي تمثل الصراع بأكثر من مسبب، فبالإضافة إلى العامل المذهبي فقد تمثل بأنه صراع من أجل تخليص المكرم لأمه من الأسر، والثأر لأبيه علي الصليحي من سعيد الأحول النجاحي، فضلاً عن محاولة كل طرف فرض سلطانه على اليمن كله أو جزء منه، لذلك دار قتال شديد بين الطرفين في عهدي المكرم وسعيد الأحول ومن تبعهما من الصليحيين والنجاحيين طيلة بقاء الدولتين في اليمن. وهنا نستعرض ذلك الصراع في عهد المكرم.

---

(1) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 135، الوصابي: الاعتبار، ص: 37، 38.

(2) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 133، الوصابي: الاعتبار، ص: 37.

(3) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 194، الهمداني: الصليحيون، ص: 67، نقلاً عن ابن الجوزي: مرآة الزمان، 12/ ورقة 88ب، سرور، النفوذ الفاطمي، ص: 78.

كان حلماً من أحلام النجاحيين إعادة اليمن كلها إلى سلطانهم وتبعيتها للخلافة العباسية، فبعد أن قتلوا علي الصليحي وسيطروا على تهامة، حاولوا أثناء انشغال المكرم بقتال قبائل اليمن الأعلى، أن يتجهوا إلى اليمن الأسفل، فاتجه بلال وأبو الفتوح، ابني نجاح مع الكثير من أنصارهما إليها، لقتال الصليحيين وإخراجهم منها. فساروا إلى (الجند) ثم إلى (ذي أشرق) في طريقهم إلى حصن (التعكر) في ذي جبلة لمحاصرة أسعد بن عبد اللّه الصليحي الذي كان متولياً للحصن وإخراجه منه، ولما علم بهم أسعد أخرج إليهم جيشاً كبيراً قابلهم (بذي أشرق) فقاتلهم بها قتالاً شديداً انتهى بانتصار الصليحيين وغنيمتهم للكثير من الأموال، وهزيمة بني نجاح وهروبهم نحو (الجند) واستمر الجيش الصليحي يتابعهم ويطاردهم إلى (الجند) حتى أجبرهم على العودة إلى زبيد[1]. وبذلك تمكن الصليحيون في اليمن الأسفل من هزيمة تجمع أنصار النجاحيين دون مساعدة من المكرم.

نزول زبيد للمرة الأولى: في الوقت الذي جدد فيه النجاحيون القتال ضد الصليحيين بقتل علي الصليحي في المهجم، حاول جيّاش أن يتجنب القتال معهم، فطلب من أخيه سعيد الأحول، أن يحسن إلى السيدة أسماء ويفك أسرها وأن يعفو عن بني الصليحي الذين أسرهم في المهجم، وعن الرهائن من سلاطين اليمن، والاكتفاء بأخذ الثأر من علي الصليحي وأخيه فقط، وأشار على أخيه جيّاش: (أن يكتب على يديها إلى ولدها المكرم بن علي الصليحي إنا أدركنا ثأرنا واسترجعنا ملكنا وقد أَحْسَنَّا إليك بصيانة أمك والعفو عن بني عمك)[2]. ولكن سعيد الأحول رفض طلب أخيه، وقال بيتاً من الشعر هو:

لا تقطعن ذنب الأفعى وتتركها إن كنت شهماً فاتبع رأسها الذنبا

ثم أمر بقتل من أسر من الصليحيين، فقتلوا جميعاً[3] فأثار ذلك زيادة العداوة بين الصليحيين والنجاحيين. ومن المحتمل أن سعيداً الأحول كان يقصد من إبقاء أسماء أسيرة لديه، الضغط على مكرم لكي لا يحاربه خوفاً على أمه من القتل والتوصل معه إلى اتفاق ينهي الحرب بينهما، ويترك بني نجاح يحكمون تهامة، إلا أن قتل علي الصليحي ومن أسر من الصليحيين لم يمر على النجاحيين بسلام، فقد جعل الصليحيين أكثر إصراراً على قتالهم.

---

(1) مجهول: سيرة المكرم، ص: 57، الهمداني: الصليحيون، ص: 119.

(2) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 198، 199، العرشي: بلوغ المرام، ص: 25، الهمداني: الصليحيون، ص: 126.

(3) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 200، الهمداني: الصليحيون، ص: 126.

ومن جهة أسماء فإنها حاولت الكتابة لابنها المكرم من سجنها في زبيد تطلب نجدتها فتلطفت إلى رجل مشرقي أو شحاذ، فأعطته رغيفاً به رسالة إلى المكرم، وفيها حاولت أسماء كسب عواطف القبائل اليمنية ضد بني النجاح، وإثارة النخوة والحمية والشهامة فيهم، وذلك عن طريق ادعائها كذباً أنها قد صارت حبلى من سعيد الأحول الذي لم يفعل ذلك حقيقة، لأنه لم يَرَها قط ولم يعرفها، وطلبت من المكرم سرعة النزول إليها وتخليصها من الأسر قبل أن يصيبها العار والفضيحة، فلما قرأ المكرم الكتاب على رؤساء القبائل اليمنية نهضوا من فورهم في الاتجاه نحو زبيد[1].

أما من جهة المكرم فإنه بعد أن تمكن من إصلاح الأمور في صنعاء، والقضاء على جميع التمردات والخلافات من قبائل اليمن الأعلى، عزم على الذهاب إلى مدينة زبيد[2] بهدف الثأر لأبيه وتخليص أمه من الأسر، وبدأ بذلك العمل عندما رجع قوّاده أحمد بن المظفر الصليحي، وعامر بن سليمان الزواحي، وإسماعيل بن أبي يعفر الصليحي من حراز وبكيل، حيث اجتمع بهم واستشارهم في الاتجاه نحو زبيد، فأجمع رأيهم على النزول إليها، واتفقوا أن يبدأ سيرهم إليها يوم 19 صفر سنة 460هـ/ ديسمبر 1067م، وانضم إلى هذا التجمع عمران بن المفضل اليامي، والحسين بن عمران في جماعة من سنحان، ونهد، ويام، وشاكر[3].

بعد ذلك استخلف المكرم على صنعاء إسماعيل بن أبي يعفر الصليحي وساروا نحو زبيد بتلك الجموع الكبيرة عن طريق (حراز) ثم (العمد) وفي طريقه تلك كاتب أهل حراز يدعوهم إلى الذهاب معه إلى زبيد لقتال بني نجاح، فتسارعوا إلى طاعته. ولما وصل (العمد) أخذ يستعرض تلك الجموع فأقبلت تعرض نفسها (بين يديه مواكب وقبائل) مبتدئين بأهل الحجاز، ثم حمير، ثم حراز، ثم خولان، فبلغ عددهم، ما بين (عشرة آلاف راجل وفارس)[4] (وثلاثمائة ألف راجل وأربعمائة فارس)[5]. والغرض من هذا العرض هو حصر جنده لمعرفة

---

(1) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 128، الحمزي: كنز الأخبار، ص: 79، ابن خلدون: تاريخ، ص: 138، الجندي: السلوك، 2/ 488، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 78، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 355 ـ 357، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 39، 40، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 258، العرشي: بلوغ المرام، ص: 25، الواسعي: تاريخ اليمن، ص: 172، الخزرجي: العسجد، ص: 59، 60، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 247.

(2) رسائل القمي، ص: 36 ـ 72، ملحق رقم 6، الصليحيون، ص: 313.

(3) مجهول: سيرة المكرم، ص: 57، 58، الهمداني: الصليحيون، ص: 120.

(4) عمارة: تاريخ اليمن، تحقيق كاي، ص: 325، نقلاً عن عيون الأخبار، 7/ 99.

(5) مجهول: سيرة المكرم، ص: 59.

عدد الذاهبين معه للقتال، لأن المكرم كان كلما سار في الطريق إلى زبيد خطب في الناس يعرفهم أنهم سيقدمون على الموت. فمن أراد الاتجاه معه للقتال فليأت ومن أراد الرجوع فليرجع[1] لذلك ذكر عمارة أنه رجع من ذلك الجند ألف وأربعمائة فارس، وبقي معه ألف وستمائة فارس[2] بينما ذكر الخزرجي، وبامخرمة أنه يقال أنه لم يرجع أحد من ذلك الجند[3].

ومن الملاحظ أن المصادر لم تتفق على عدد جيش المكرم فصاحب سيرة المكرم، يذكر أنهم ثلاثمائة ألف راجل وأربعمائة فارس، وصاحب عيون الأخبار يذكر أنه نزل بعشرة آلاف راجل وفارس بينما يذكر آخرون أن عدد جيشه كان ثلاثة آلاف فارس غير الراجل[4]، في حين أن عمارة ذكر أن جيشه كان ثلاثة آلاف فارس فقط[5]، والذي نخلص من ذلك أن عدد جيش المكرم كانوا كثيرين، بغض النظر عن عددهم، وأن استجابة القبائل للنزول مع المكرم، كانوا حسب ما ذكرته السيرة ثلاثمائة ألف، بينما الذين نزلوا معه إلى زبيد أقل من ذلك العدد. إذ أنه من غير المعقول أن ينزل إلى تهامة بذلك العدد الكبير، وأما رواية عمارة بأن عدد جيشه ألف وستمائة فارس أو ثلاثة آلاف فارس فغير معقول أن ينزل بهم تهامة. وخاصة أن جيّاشاً وسعيداً الأحول جهزا خمسة آلاف حربة عند قتلهما علي الصليحي، لذلك فلا بد أن يجهز المكرم أكثر من ذلك العدد، ويمكن أن نقبل الرواية الثالثة التي تذكر أن المكرم نزل تهامة بثلاثة آلاف فارس غير الراجل، وعدد الرُجّل بالطبع يزيدون عن عدد الفرسان. أو الرواية التي تذكر أنه نزل بعشرة آلاف راجل وفارس.

وأثناء سير المكرم في طريقه هذه إلى زبيد ألقى خطبة على أصحابه وضّح فيها هدفه من النزول إلى تهامة فقال فيها: (إننا لم ننزل لغرض من الدنيا نصيبه، ولا مال نخزنه، ولا لشيء نذهب به من متاع الدنيا، سوى إدراكنا ثأرنا من هؤلاء العبيد، واستنقاذ حريمنا، لا لقصد إضرار بأحد من الناس، ولا لتغيير شيء مما يملكون، ولا تَعَدٍّ على زروعهم ومواشيهم ونحن في طريقنا)[6].

---

(1) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 129، الجندي: السلوك، 2/ 488، الخزرجي: العسجد، ص: 60، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 257، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 40، الحداد: التاريخ العام، 2/ 240.

(2) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 128، 129، الجندي: السلوك، ص: 2/ 488.

(3) بامخرمة، ثغر عدن، ص: 40، الخزرجي: العسجد، ص: 60.

(4) ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 78، الحزرجي: العسجد، ص: 60، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 257، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 259، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 249.

(5) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 129.

(6) إدريس: عيون الأخبار، 7/ 97، نقلاً عن الصليحيين، ص: 12، عمارة كاي، ص: 325.

استمر المكرم وجنده في السير من (العمد) إلى الحلفاء من وادي سهام فوصلها يوم الأربعاء لست بقين من شهر صفر سنة 460هـ/ ديسمبر 1067م. ومنها سار إلى (المقطع) ثم سار إلى أن وصل إلى الحد بين رمع وزبيد، فقام بتميز جيشه بهدف معركة كل قبلية لأفرادها وجهة عملها، فجعل كل قبيلة في جهة، فكان الحجازيون في ناحية، وحمير في ناحية ثانية، والحرازيون في ناحية ثالثة[1]، وباتوا ليلتهم في تلك المنطقة متيقظين، بسبب قربهم من النجاحيين، وفي الصباح اتجهوا نحو زبيد من ناحية بابها الشرقي، المسمى باب الشبارق، وذلك بعد أن عبأ المكرم جيشه تعبئة قبليّة وعسكرية معاً، حيث جعل المكرم نفسه في القلب مع قبيلة سنحان ونهد وحمير، مع من أَمَّرَ عليهم مثل أحمد بن المظفر الصليحي، وعامر بن سليمان الزواحي، وأبو الحسين بن مهلهل بن الدعام، والحسين بن عمرو السنحاني، وجعل في الميمنة قبيلة يام وجنب، أَمَّر عليهم عمران بن المفضل اليامي، ومدافع بن الحصن الجنبي، ومحمد بن علي بن جبر اليامي، وفي الميسرة جعل الحرازيين مع جماعة من أهل المشرق من خولان وغيرهم، أَمَّرَ عليهم مالك بن شهاب الصليحي[2] في المقابل عبأ سعيد الأحول النجاحي جيشة على شكل كراديس، فجعل في الميمنة كردوسين وفي الميسرة كردوسين، وفي القلب كردوس وكردوس جعله كميناً وراء الحائط، وكان عددهم ما بين ثمانية عشر ألفاً[3] وعشرين ألفاً[4].

والهدف من هذه التعبئة العسكرية ترتيب الجيش لضمان تحقيق النصر، وقد كانت التعبئة أحد الأساليب المتبعة في ذلك العهد، وهي عبارة عن خطة تنظيمية لإدارة المعركة، والغرض منها تشكيل الجيش المقاتل إلى فرق أو كراديس أو جماعات أو غيره، بحيث يكون لكل فرقة أو كردوس علم خاص به، فيفيد العلم

---

(1) مجهول: سيرة المكرم، ص: 61.

(2) مجهول: سيرة المكرم، ص: 62، العقيلي: المخلاف السليماني، 2/ 35، تذكر بعض المصادر أنه (كانت ميمنة العرب لأسعد بن شهاب والميسرة لعمه..... وسار المكرم في القلب) دون تحديد أسماء الأمراء وأسماء القبائل، عمارة: ص: 131، 132، ابن الديبع، ص: 358، بامخرمة، ص: 40، الخزرجي، ص: 60.

(3) مجهول: سيرة المكرم، ص: 62، الهمداني: الصليحيون، ص: 123، مصطفى غالب: أعلام الإسماعيلية، ص: 122.

(4) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 131، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 87، الحمزي: كنز الأخبار، ص: 79، ابن خلدون: تاريخ اليمن، ص: 138، الجندي: السلوك، 2/ 488، الخزرجي: العسجد، ص: 60، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 40، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 259، الكبسي: اللطائف، ص: 36، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 249، الواسعي: تاريخ اليمن، ص: 172، ويضيف الجندي، ص: 2/ 488، أن عددهم عشرون ألف أو واحد وعشرون ألفاً.

معرفة الأفراد اتجاههم في السير في المعركة وتقدمهم وانسحابهم، وإذا حدث اختلاف أو انهزام، فعلى كل فرقة العمل على التجمع حول علمها. كذلك يحدد لكل فرقة أو كردوس مكان قتال معين بحيث لا يتعداه، مثل الميمنة أو الميسرة أو القلب، لذلك وجب أن يكون لكل فرقة أو كردوس قائد معروف للجند، هو الذي يأمرهم بالقتال أو التوقف أو الهجوم أو الانسحاب أو تغيير المكان أو غيره، ولا بد أن يكون القائد لديه الكفاءة والمعرفة بالقواد الآخرين للاشتراك معاً في العمل القتالي، كما يجب أن يكون لكل فرقة أو كردوس معرفة ببعضهم البعض معرفة جيدة وعددهم، حتى لا يحدث أن يقتل الجيش الواحد بعضه البعض، وحتى يتمكنوا من إسعاف من يجرح أو غيره، كذلك يجب أن يكون للجيش الواحد زي مميز ليساعد أفراد الجيش سرعة التعرف على زملائهم، حتى لا يتجهوا إلى محاربة بعضهم البعض، ولذلك كانت التعبئة من أهم العوامل التي تحقق النصر.

بعد هذه التعبئة من قبل الجيشين استعداداً للمعركة، كان لا بد من أن ينشب القتال فيما بين الطرفين، لذلك التقى الجيشان على باب زبيد الشرقي يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر صفر سنة 460هـ/ ديسمبر 1067م فدار قتال شديد استمر حتى الظهر، أسفر عن انكسار الميمنة والميسرة لقوات النجاحيين وانهزامهم، واستمر جيش المكرم يتابع هجومه تجاه المنهزمين حتى قتل أكثرهم، وهرب الباقون فأتاح ذلك فرصة للمكرم وجيشه دخول زبيد للسيطرة عليها ومتابعة قتال النجاحيين[1].

وفي ذلك الوقت جعل المكرم أكبر همه تخليص أمه من الأسر، فأسرع نحوها بجزء من جنده إلى (دار شحار) الذي كانت مسجونة فيه، وذلك خوفاً من إسراع النجاحيين إليها قبله، وإصابتها بضرر وإخراجها منه وهروبهم بها، فسبقهم إلى أمه أسماء وخلصها من الأسر، أما بقية جيشه فقد اتجه لمتابعة مطاردة النجاحيين[2] وقد أتاحت فرصة انشغال المكرم بتخليص والدته من الأسر، أن يتمكن أولاد نجاح من الهرب وينجون من القتل[3].

---

(1) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 132، الجندي: السلوك، 2/ 488، الخزرجي: العسجد، ص: 60، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 78، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 40، مصطفى غالب: أعلام الإسماعيلية، ص: 122، العقيلي: المخلاف السليماني، 2/ 36، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 259، الكبسي: اللطائف، ص: 36، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 249، الحداد: التاريخ العام، 2/ 241.

(2) مجهول: سيرة المكرم، ص: 62، عمارة: تاريخ اليمن، ص: 132، 133، ابن عبد المجيد: بهجة، ص78، الجندي: السلوك، 2/ 488، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 40.

(3) رسائل القمي، ص: 37 ـ 72، ملحق رقم 6، الصليحيون، ص: 314.

وبعد تخليص المكرم لوالدته من الأسر، اتجه نحو دار عمه عبد اللّه بن محمد الصليحي، وأمر الجند بالكف عن القتال وعن نهب مدينة زبيد، لأن الكثير من جنده بعد انتصارهم على النجاحيين اتجهوا إلى نهب المدينة[1] وهي ظاهرة غير محمودة أن ينهب من لم يشارك في القتال مثل المدنيين والتجار، لذلك منعهم المكرم. أما أموال النجاحيين فقد غنمها المكرم وكانت كثيرة، فحسب وصف القمي. (أنه غنم مالاً ما لا يمكن نعته ولا يتأتى وصفه)[2].

ومن الأمور التي ساعدت المكرم على تحقيق النصر، أن المكرم نزل إلى تهامة بجيش أكثر من جيش سعيد الأحول، كما ساعد المكرم أنه وأنصاره قاتلوا بهدف الثأر وتخليص أسماء من الأسر، فكانوا أكثر شدة في القتال من النجاحيين. كذلك ساعد المكرم على النصر إثارة العداوة بين قبائل اليمن الجبلية والمولدين الأحباش في تهامة، وهذا ما يتضح من خلال تصرف المكرم بعد دخوله زبيد، فقد أمر بقتل من كان بها من المولدين الأحباش وترك العرب[3].

أقام المكرم في (زبيد) إلى السابع من شهر ربيع سنة 460هـ/ يناير 1068م ثم اتجه نحو (القحمة) لقتال بني نجاح، الذين اتجهوا إليها مع أنصارهم، وجعلوا أنفسهم كميناً للحرة أسماء لكي يلقوا القبض عليها وإعادتها إلى الأسر مرة أخرى، وذلك لما علموا أنها ستتجه عن طريق صنعاء في عدد قليل من الجند ومعها الأموال والأنفال الكثيرة، ولكن الأخبار وصلت إلى المكرم بوجودهم في (القحمة) فأسرع إليهم[4]. ولما عرف بنو نجاح سير المكرم نحوهم، سارعوا نحو زبيد في طريق مغاير لطريق المكرم، لكي يخلفوه إلى زبيد فيسيطرون عليها، وإذا عاد المكرم إليها، خرجوا منها وهكذا[5].

ولما وصل المكرم إلى (الدومة) قرب القحمة، وصله كتاب من إسماعيل بن يعفر الصليحي، واليه على صنعاء يخبره فيه أن القاسم بن جعفر الزيدي نقض عهده، واستغل عدم وجود المكرم، فأخذ يحشد الكثير من أتباعه ودعاته للاتجاه بهم نحو السيطرة على صنعاء، كما أخبره فيه أن المرض اشتد عليه وأن الحجازيين

---

(1) مجهول: سيرة المكرم، ص: 65 ـ 71.
(2) رسائل القمي: 36 ـ 72، ملحق رقم 6، الصليحيون، ص: 314، العقيلي: المخلاف السليماني، 2/ 27.
(3) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 134.
(4) مجهول: سيرة المكرم، ص: 71.
(5) مجهول: سيرة المكرم، ص: 73.

والحرازيين بصنعاء حدث بينهم نزاع وساءت العلاقة بينهم فخاف المكرم من ازدياد ظهور المخالفين له من القبائل المتعددة المتواجدة حول صنعاء، وخاف أن يتمكنوا من السيطرة على صنعاء، فأسرع بالاتجاه نحوها تاركاً تهامة للنجاحيين[1]، فوصل صنعاء في السادس والعشرين من ربيع الأول سنة 460هـ/ فبراير 1068م[2]، بذلك عادت سيطرة بني نجاح لزبيد، أما المكرم فقد اكتفى من نزوله لهذه المرة الأولى تخليص أمه من الأسر، وترك الثأر لأبيه لمعركة أخرى. وبعد وصول المكرم إلى صنعاء بفترة قصيرة توفي واليه عليها إسماعيل بن يعفر الصليحي[3].

وبهذا الانتصار الذي حققه الصليحيون على النجاحيين، كتب الخليفة المستنصر الفاطمي سجلاً في شهر ربيع الأول 461هـ/ فبراير سنة 1069م أرسله إلى المكرم يهنئه فيه بانتصاره على سعيد الأحول جاء فيه: (فللّه درك أيها الأجل لقد زكي غرسك وطاب، وحق أمل أمير المؤمنين في تقديم قدمك وما خاب، فاعلم أنك خليفته في بلاد اليمن، وعماده وعدته وسناده، وقر عيناً بما أعطاك اللّه من الرتبة السنية والدرجة العلية)[4] ولقبه في هذا السجل بأمير الأمراء.

اتجاه المكرم إلى اليمن الأسفل لقتال أنصار النجاحيين: لم يقف الصراع بين المكرم والنجاحيين وأنصارهم، فقد ظهر للمكرم عدو آخر هم زعامات اليمن الأسفل، متعاونين مع بني نجاح، إذ أن سعيداً الأحول حاول الاستعانة بهم للتقارب المذهبي فيما بينهم، كونهم كانوا يدينون لنجاح بالولاء والطاعة. لأنه ممثلاً للخلافة العباسية، وقد كان علي الصليحي أخذ زعامات اليمن رهائن عنده، فلما ذهب إلى الحج أخذهم معه خوفاً من خروجهم ضد ابنه المكرم، لكنه حدث ما كان يخشاه، فقد أقدم سعيد الأحول على قتله، وإطلاق سراح الرهائن على رأسهم ثلاثة من زعامات اليمن الأسفل، هم وائل بن عيسى الوحاظي، وعلي بن معن، وابن الكرندي[5]. فلما عاد هؤلاء إلى مناطقهم استقلوا بها معلنين خروجهم عن طاعة المكرم وتعاونهم مع سعيد الأحول، فشكل ذلك خطراً على الصليحيين،

---

(1) مجهول: سيرة المكرم، ص: 73، الهمداني: الصليحيون، ص: 125، 314، العقيلي: المخلاف السليماني، 2/ 37.

(2) رسائل القمي، ص: 36 ـ 72، ملحق رقم 6. الصليحيون، ص: 314، الهمداني: الصليحيون، ص: 126، حسن سليمان تاريخ اليمن، ص: 187، الحداد: التاريخ العام، 2/ 242.

(3) رسائل القمي، ص: 36 ـ 72، ملحق 6، الصليحيون، ص: 315، الهمداني: الصليحيون، ص: 126، عند الهمداني الصليحيون: 26 ربيع الآخر. وفي رسائل القمي 1 ربيع الآخر.

(4) السجلات المستنصرية، ص: 198، عصام الدين: اليمن في ظل الإسلام، ص: 168.

(5) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 127، الجندي: السلوك، 2/ 488، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 342.

ففي أثناء ما كان المكرم يصلح أمور مغارب اليمن الأعلى، وصلته عدة كتب تشرح حال اليمن الأسفل.

فالكتاب الأول يفيد أن الحسن ابن المغيرة التبعي وأبا العباس بن أسعد السخطي وأبا إسماعيل الكلالي، اتجهوا لمناصرة النجاحيين، فنزلوا إلى (الحمراء) في جبل الشعر بجمع كبير من أهل يحصب ورعين وزُبَيْد، وعددهم ثلاثون ألف راجل ومائة فارس، أغلبهم بغير سلاح، وأنهم أخربوا ما اجتازوا به من البلاد، وأحرقوه ونهبوا أموال الرعية ومواشيهم[1].

وكان هدفهم من ذلك الحشد هو القضاء على نفوذ الصليحيين في حصن التعكر من ذي جبلة، ولكن أسعد ابن عبد اللّه الصليحي والي الحصن، أرسل إليهم جيشاً بلغ أربعة آلاف رجل وثمانون فارساً، بقيادة علي بن سويد وعبد اللّه بن معمر، فقاتلوهم قتالاً شديداً، حتى انتصروا عليهم، وقتلوا أكثر من ألف رجل منهم[2].

أما الكتاب الثاني فيفيد أن سعيداً الأحول طلع من تهامة بجيش كبير، نحو مخلاف جعفر بناء على مكاتبة تلقاها من جماعة من سلاطين اليمن الأسفل هم التبعي والسخطي ووائل بن عيسى واليحصبيين والرعينيين وجميع سلاطينهم، يشرحون له استعدادهم لمناصرته وأنهم قد صاروا في سوق الجبجب من أحاظة ويطلبون سرعة حضوره إليهم[3].

بينما الكتاب الثالث يذكر فيه أن الأخوين بلال وأبا الفتوح ابني نجاح اتجهوا إلى يعفر الكرندي وتحالفوا معه لقتال الصليحيين، فجمعوا جيشاً كبيراً عسكروا به في (الجند) مقابلاً لجيش أسعد بن عبد اللّه الذي كان معسكراً بذي أشرف[4].

كذلك احتوت هذه الكتب على شكوى الصليحيين في مخلاف جعفر وحصن التعكر للمكرم، تحكي ضعف عساكرهم وقلتهم أمام تلك التجمعات الكبيرة، ويطلبون فيها من المكرم سرعة الاتجاه إليهم لمناصرتهم[5].

بعد أن تتالت رسائل الصليحيين من اليمن الأسفل تستعجل المكرم الحضور لمناصرتهم، أسرع المكرم نحوهم بسبب حرصه على الاحتفاظ بتبعية اليمن الأسفل

---

(1) مجهول: سيرة المكرم، ص: 82.
(2) مجهول: سيرة المكرم، ص: 82، الهمداني: الصليحيون، ص: 128.
(3) مجهول: سيرة المكرم، ص: 83، الهمداني: الصليحيون، ص: 129.
(4) مجهول: سيرة المكرم، ص: 83، الهمداني: الصليحيون، ص: 128.
(5) مجهول: سيرة المكرم، ص: 83، الهمداني: الصليحيون، ص: 128.

لسلطانه وعزله من مساعدة النجاحيين فخرج من صنعاء في اليوم الثالث من جمادى الآخرة سنة 461هـ/ مارس 1069م وسار عبر مشرق خولان ثم (بينون) في عنس، فلما وصله عرض على أهله الأمان، فرفضوا، فلجأ إلى الضغط عليهم بالاتجاه إلى تخريب بعض مزارعهم، وهذا عمل غير إنساني أو ديني، ولكنه استخدم ذلك من أجل إجبار أهل تلك المناطق على الطاعة مما جعلهم يضطرون إلى التسليم وطلب الأمان، وبذل الطاعة له فأمنهم[1].

ثم اتجه يوم 23/ جمادى الآخرة نحو بلاد حمير من يحصب ورعين وعنس ومذحج وأثناء سيره في تلك الطريق خضعت له بعض القبائل مثل بني صعب من عنس وبني الحارث ومذحج[2] وضمن بذلك عدم اشتراك هؤلاء في الحرب مع التكتل القبلي لحمير ويحصب، وسار حتى وصل قرية (دلاب) ولما علمت جموع تلك القبائل بقدوم المكرم نحوهم أسرعوا إلى التحصن بجبال تلك المناطق، أما السلطان الحسين بن المغيرة التبعي، وأبو العباس السخطي مع معظم اليحصبيين والرعينيين والعنسيين مع بعض النجاحيين، فقد تحصنوا في حصن (الشعر) وعندما عرف المكرم أماكن تحصنهم قرر الاتجاه نحو أهم مراكز تحصنهم، فسار نحو حصن (الشِّعِر) فلما قرب منه عبأ جيشه للقتال بهدف تنظيم جيشه لضمان تحقيق النصر، فجعل أهل الحجاز وأهل حراز وخولان يسيرون نحو ميسرة الجبل، وأَمَّرَ عليهم علي بن مالك بن شهاب الصليحي، وجعل أبا الحسن بن مهلهل بأصحابه مع جماعة من الخولانيين، يسيرون نحو وسط الجبل، أما المكرم نفسه مع جماعة من الخولانيين وجماعة من الحجازيين فقد ساروا نحو ميمنة الجبل[3] والتفت تلك الجماعات حول الحصن تحاصره، ثم اتفقوا على طلوع الحسن للقتال في سحر يوم 26 جمادى الآخرة فلما صعدوا الجبل بحسب الموعد، دار قتال شديد بين الطرفين منذ فجر ذلك اليوم، انتهى بانتصار المكرم[4] وهروب بني نجاح إلى زبيد، أما التبعي والسخطي والكلالي والحوالي، فقد راسلهم المكرم، وعرض عليهم الأمان فقبلوا ذلك فأمنهم[5].

---

(1) مجهول: سيرة المكرم، ص: 89، الهمداني: الصليحيون، ص: 198، حسن سليمان: تاريخ اليمن، ص: 190، 191 (بينون) وادي في عنس وهو حصن أسعد الكامل، سيرة المكرم، ص: 89.

(2) الهمداني: الصليحيون، ص: 129.

(3) مجهول: سيرة المكرم، ص: 90، 91 (دولاب) قرية عامرة ذو نواس كان يسكنها سيرة المكرم، ص: 90.

(4) مجهول: سيرة المكرم، ص: 91، الهمداني: الصليحيون، ص: 129.

(5) مجهول: سيرة المكرم، ص: 92، 93، حسن سليمان: تاريخ اليمن، ص: 191.

ومن الملاحظ أن هذا التجمع القبلي لم ينظم من قبل زعماته، ولم يعملوا على تعبئة هذا التجمع للقتال ضد المكرم، لذلك فشلوا في تحقيق النصر على الصليحيين، حيث كان من السهل على المكرم هزيمتهم وإلزامهم الطاعة، وبذلك تمكن المكرم من القضاء على أنصار النجاحيين في تلك المنطقة.

ثم اتجه نحو حصن (التعكر) بذي جبلة ومعه السخطي والتبعي، ولما وصلوا إليها استأذن منه التبعي للذهاب إلى قرية (المشعب) فلما أذن له المكرم هرب إلى بني نجاح في زبيد، أما المكرم فقد أقام أسبوعاً في ذي جبلة يدبر أمرها ثم عاد إلى صنعاء[1] فدخلها في اليوم السابع من شعبان[2] سنة 461هـ/ مايو 1069م.

وكما يتضح أن هذه القبائل التي تجمعت لمناصرة بني نجاح في منطقة (الشعر) قد تعهدت بعدم محاربة المكرم وعدم الوقوف مع سعيد الأحول رغم ميلها المذهبي إليه، ولم يقف خارجاً عن طاعة المكرم إلا الحسين بن المغيرة التبعي الذي ظل مسانداً لبني نجاح، وهذا ما سنلاحظه من خلال حرب المكرم لسعيد الأحول فيما بعد هذه الحرب، وبذلك ضمن المكرم أن يدخل الحرب مع سعيد الأحول بدون أن تقف هذه القبائل معه باستثناء التبعي، وهذا ما كان يسعى إليه المكرم.

نزول المكرم إلى زبيد مرة ثانية: ظل الصراع مستمراً بين الطرفين، فمن جهة النجاحيين فقد حاول سعيد الأحول طلب النجدة من أهل السهول والجبال لمناصرته ضد الصليحيين، فتجمع حوله حشود كثيرة من الخيل والرجال، كما أجاب دعوته السلطان حسين بن مغيرة التبعي، فسار سعيد الأحول بجموعه نحو اليمن الأسفل[3]. ومن جهة المكرم فإنه لم يهدأ له بال ما دام سعيد الأحول مسيطراً على تهامة يحرض الناس ضده، ولم يثأر لأبيه منه، فأخذ يدعو أنصاره لحرب النجاحيين فتسارع أنصاره إلى التجمع إليه فنزل بهم نحو زبيد للمرة الثانية في غرة شهر رمضان سنة 461هـ/ يونيو 1069م بهدف الثأر لأبيه، فلما وصل (العمد) وصله عامر بن سليمان الزواحي في حمير، وأبو الحسين مهلهل في أهل حضور، ومحمد بن إبراهيم الصليحي في أهل مسور وأهل مغارب اليمن الأعلى،

---

(1) مجهول: سيرة المكرم، ص: 93، الهمداني: الصليحيون، ص: 129.

(2) الهمداني: الصليحيون، ص: 129، حسن سليمان: تاريخ اليمن، ص: 191، العقيلي: المخلاف السليماني، 2/ 38، الحداد: التاريخ العام، 2/ 243، رسائل القمي، ص: 36 ـ 72، ملحق رقم 6، الصليحيون، ص: 315، يذكر أن دخول المكرم صنعاء في الخامس من شعبان.

(3) رسائل القمي، ص: 36 ـ 72، ملحق رقم 6، الصليحيون، ص: 315.

بالإضافة إلى ألفين من أهل حراز، بذلك التجمع بلغ جيش المكرم حين استعرضهم في (العمد) عشرة آلاف راجل وستمائة من الفرسان[1].

استمر المكرم في سيره نحو (الحلفاء) ثم (المقطع) ومنها أرسل جواسيسه إلى زبيد يستطلعون له أخبار سعيد الأحول، فعاد جوابهم بأن سعيداً الأحول خرج من زبيد مع جيشه نحو مخلاف جعفر أو عدن في غرة شهر رمضان، عدا أخيه جيّاش وبعض أنصارهم فإنهم اتجهوا نحو (المهجم) لذلك تجنب المكرم دخول زبيد لأن هدفه الثأر لأبيه من سعيد الأحول وليس السيطرة عليها فاتجه إلى مطاردة سعيد الأحول، مقتفياً أثره نحو المناطق التي سار إليها ولما وصل قرب حيس وصلته الأخبار أن سعيداً الأحول مقيم (بالجند) وأن أهم قائد له وصاحب رأيه الحسين بن مغير التبعي، فسار المكرم نحوهم[2].

وفي أثناء تجمع سعيد الأحول وأنصاره في (الجند) أشار عليهم ابن المغيرة أن يتجهوا إلى ناحية (دلال) في بعدان، ثم يطلعوا حصن (الشعر) ويتجهوا نحو صنعاء لخلوها من المكرم وجيشه، بينما أشار عليهم أحد رجال الأحول بأن يتجهوا نحو طريق الساحل إلى زبيد، وإذا لحق بهم المكرم ساروا نحو طريق الشام (شمال زبيد)، وإذا تابع المكرم سيره نحوهم نحو الشام، عادوا نحو اليمن (الجنوب) وهكذا يظلون يراوغون المكرم، ولكن ابن المغيرة رفض هذا الرأي، وقبل سعيد الأحول رأي ابن المغيرة، فاتفقوا على الذهاب إلى (الشعر) فساروا إليها[3].

وفي الوقت الذي كان فيه النجاحيون وأنصارهم في الشعر، وصلهم خبر أن المكرم قارب الوصول إليهم، فحاولوا التحصن في الجبال، فابن المغيرة اتجه إلى حصنه المعروف (بالقرانح) أما سعيد الأحول فقد سار إلى قرية تعرف (بالحمادي) من الشعر بفرقة من جيشه، بينما الفرقة الثانية حاولت السير إلى تهامة عبر طريق نقيل صيد، بقيادة أخويه بلال ومالك ابني نجاح، للسيطرة عليها بعد خروج المكرم منها[4].

ومن جهة المكرم فإنه لما وصل إلى الجند، أرسل إلى مخلاف جعفر يسأل عن سعيد الأحول، فوصل إليه الخبر أنه سار نحو (دلال) فسار المكرم نحو ذي أشرق في طريقه لمتابعة الأحول وجيشه، وأثناء سيره في تلك الطريق قسم جيشه

(1) مجهول: سيرة المكرم، ص: 107، رسائل القمي، ص: 36 ـ 72، ملحق رقم 6، الصليحيون، ص: 315، الهمداني: الصليحيون ص: 131.
(2) مجهول: سيرة المكرم، ص: 108، العقيلي: المخلاف السليماني، 2/ 39.
(3) مجهول: سيرة المكرم، ص: 108، 109.
(4) مجهول: سيرة المكرم، ص: 110.

إلى فرقتين، فرقة اتجهت نحو (الشعر) بقيادة المكرم نفسه في جماعة كبيرة من همدان وأهل حراز، والفرقة الأخرى سارت في اتجاه نقيل صيد (سمارة) بقيادة عامر بن سليمان الزواحي والحسين بن عمرو السنحاني ومدافع الجنبي في سنحان وجنب وحمير، وذلك بهدف الالتفاف على جيش بني نجاح، فلما ساروا في هذا الطريق التقوا بذلك الجيش في نقيل صيد فقاتلوهم قتالاً شديداً، أسفر عن هزيمة بني نجاح وقتل الكثير منهم على رأسهم بلال ومالك ابني نجاح[1]. أما المكرم فإنه سار نحو (الشعر) فلما أشرف عليها تجنب مقاتلة ابن المغيرة واتجه لمحاربة سعيد الأحول في (الحمادي) وفي تلك الأثناء لم يحاول ابن المغيرة مناصرة سعيد الأحول وكما يبدو أنه حوصر، وكان بنو نجاح قد حاولوا بدء السير نحو حقل قتاب، بهدف تجنب محاربة المكرم، ولكن جيش المكرم أدرك مؤخرتهم فناوشهم، مما اضطرهم إلى التحصن في (ذروة) المقابل للشعر، إلا أن هذا التحصن لم يحميهم من جيش المكرم، الذي أسرع في متابعتهم إلى (ذروة) فقاتلهم قتالاً شديداً، انتهى بهزيمة النجاحيين وهروب سعيد الأحول محاولاً النجاة بنفسه، ولكنه لم يفلح في ذلك، فقد سار خلفه رجل من أنصار المكرم من قبيلة شاكر اسمه عزيز بن حسين بن أبي الحجاج، فأدركه أسفل قرية (مابة) من الشعر فقتله واحتزَّ رأسه[2]. وذلك في شهر رمضان من سنة 461هـ/ يونيو 1069م وبذلك تمكن المكرم من الثأر لأبيه ومن قتل معه من الصليحيين.

ومن الملاحظ في هذه المعركة أن الحسين التبعي لم يقم بأي دور فعال مع سعيد الأحول في (الشعر) وهي المنطقة التي يحكمها، ومن المحتمل أنه قد حوصر في حصنه (القرانح) من قبل جيش المكرم، بهدف منعه من مساعدة سعيد الأحول، حتى يتمكن من الثأر لأبيه علي الصليحي من النجاحيين، أما سعيد الأحول وجيشه فمن المحتمل أن الحصون التي صعدوا إليها كانت غير محصنة جيداً لأنها لو كانت محصنة لظل الحصار مفروضاً عليها لعدة أيام أو أشهر، ومن المحتمل أيضاً أن جيش سعيد الأحول تفرق في الآكام والحصون للاحتماء بها ولم يكن مجتمعاً في منطقة واحدة، مما سهل على المكرم الاتجاه إلى مكان سعيد الأحول دون غيره. ومن الملاحظ أننا لم نجد أي إشارة إلى أن سعيداً الأحول قد

---

(1) مجهول: سيرة المكرم، ص: 111، رسائل القمي، ص: 36 ـ 72، ملحق رقم 6، الصليحيون، ص: 316، الهمداني: الصليحيون، ص: 131.

(2) مجهول: سيرة المكرم، ص: 111، الهمداني: الصليحيون، ص: 131، مصطفى غالب: أعلام الإسماعيلية، ص: 124، وقبر سعيد الأحول موجود في نجد قيظان بالشعر، طبقات ابن سمرة، ص: 104.

عبأ جيشه للقتال، وهي الخطة التنظيمية للمعركة، مما جعل جيشه غير قادر على تحقيق النصر أو الدفاع عن أنفسهم، كما أننا نجد أن جيش سعيد الأحول والحسين التبعي فوجئوا بقدوم المكرم، مما أربكهم وجعلهم غير قادرين على تنظيم صفوفهم والدفاع عن أنفسهم إذ أن القتال دار في نفس اليوم الذي وصل إليهم به المكرم، وقد أسرع إلى مناوشة مؤخرتهم، لأنهم كانوا عازمين على الذهاب من تلك المنطقة، ومن المرجح أن جيش المكرم كان أكثر من جيش سعيد الأحول، إذ أن سعيداً الأحول لو كان معه جيش كبير لبقي في زبيد وتحصن بها، ولكنه ذهب إلى طلب المساعدة من أهل الجبال، ولم يكن الحسين التبعي قادراً على مساعدته وحمايته بقلة من أفراده، وخاصة أن المكرم جيَّش جمعاً كبيراً من القبائل يفوق عدد جيش التبعي وسعيد الأحول، ومن الملاحظ أن المكرم وجيشه كان هدفهم الأول وهمهم الكبير هو الثأر لعلي الصليحي، لذلك قاتلوا بصلابة، واهتموا في الاتجاه نحو المكان الذي كان سعيد الأحول متحصناً فيه دون غيره من الحصون.

نزول المكرم إلى زبيد مرة ثالثة: وما أن تمكن المكرم من الثأر لأبيه بقتله سعيد الأحول، حتى أسرع في الاتجاه نحو زبيد للسيطرة عليها وإعادتها إلى حكم الصليحيين، فاتجه إليها من (الشعر) عبر (الحمراء) وذي جبلة فوصل زبيد في التاسع والعشرين من شهر رمضان سنة 461هـ/ 1069م. وفي غرة شوال صَلَّى العيد في زبيد[1].

وما كادت تمضي أربعة أيام على بقاء المكرم في زبيد، حتى ولّى عليها سبأ بن أحمد الصليحي وأسرع في الاتجاه نحو (المهجم) شمال زبيد، لمحاربة جيّاش بن نجاح ومن انضم إليه لمناصرته، وظل يتابعهم ويطاردهم من منطقة إلى أخرى حتى أخرجهم إلى أقصى بلاد اليمن ثم عاد إلى زبيد يوم الجمعة الثالث عشر من ذي القعدة من سنة 461هـ/ أغسطس 1069م[2]. وبذلك تمكن من إنهاء دولة بني نجاح من تهامة وإعادة سيطرته عليها، بعد أن خلّص أمه من الأسر وثأر لأبيه.

وبعد أن طارد المكرم النجاحيين في المهجم والهجر وغيرها من تهامة وعاد إلى (زبيد) كما سبق ذكره ولّى على (الهجر) محمد وعلي ابني مالك بن شهاب، وأثناء ما كان المكرم في (زبيد) وصله أبو القاسم بن أبي النور وابن أبي العسكر بسجل من الخلافة الفاطمية، تبارك له بنصره على النجاحيين. بعد ذلك ولّى

---

(1) مجهول: سيرة المكرم، ص: 112، 113، حسن سليمان: تاريخ اليمن، ص: 191.

(2) مجهول: رسائل القمي، ص: 36 ـ 72، ملحق رقم 6، الصليحيون ص: 316، الهمداني الصليحيون، ص: 131، حسن سليمان: تاريخ اليمن، ص: 191، 192.

المكرم على (زبيد) مالك بن شهاب الصليحي، وعاد إلى صنعاء فوصلها في الثاني من ذي الحجة سنة 461هـ/ سبتمبر 1069م[1].

الاختلاف في الأقوال عن أسر أسماء بنت شهاب: والملاحظ أن عمارة وبعض المؤرخين ذكروا أن الحرة أسماء بنت شهاب بقيت في أسر سعيد الأحول في زبيد مدة سنة كاملة[2]. إذ أنه يشير إلى أن الرسالة التي بعثت بها أسماء من زبيد، وصلت إلى المكرم في شوال من سنة 461هـ/ يوليو 1069م[3] وعلى ذلك فعمارة يذكر أن المكرم نزل زبيد مرة واحدة فقط. بينما صاحب سيرة المكرم يذكر أن المكرم نزل زبيد ثلاث مرات خلال سنة 460هـ وسنة 461هـ/ 1069م. ففي المرة الأولى نزل المكرم زبيد في صفر سنة 460هـ/ ديسمبر 1069م تمكن خلالها من تخليص أمه من الأسر، وذلك بعد أربعة أشهر من أسرها، وفي المرة الثانية نزل زبيد في شهر رمضان سنة 461هـ/ يونيو 1069م للثأر لأبيه، في حين أنه نزل زبيد للمرة الثالثة للسيطرة عليها آخر يوم من رمضان، حيث صَلّى بها العيد في غرة شوال سنة 461هـ/ يوليو 1069م[4] أما الجرافي فله رأي آخر إذ يذكر أن أسماء قد أطلق سراحها بعد ثمانية أشهر من أسرها[5]. ومن ذلك يتضح أن عمارة دمج المرات الثلاث لنزول المكرم زبيد في مرة واحدة. في حين أن صاحب سيرة المكرم أوضح أنه نزل ثلاث مرات كما سلف ذكره ونتيجة للخلاف في عدد المرات، كان من الطبيعي والمنطقي أن يختلفوا في زمن خروج أسماء من الأسر. فصاحب السيرة ذكر أنه خلّصها في المرة الأولى أي في صفر سنة 460هـ/ ديسمبر 1069م بينما ذكر عمارة أنه خلّصها في شوال 461هـ/ 1069م على اعتبار أنه ذكر أن المكرم نزل زبيد لمرة واحدة هي هذه المرة. لذلك فإن رواية صاحب سيرة المكرم هي الأكثر تصديقاً.

اختلاف الأقوال عن قتل سعيد الأحول: ومن الملاحظ أيضاً أن المصادر لم تتفق على زمن قتل سعيد الأحول، ولكنها اتفقت على مكان قتله. فمن حيث

---

(1) مجهول: سيرة المكرم، ص: 122 ـ 126.

(2) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 127، 128، الخزرجي: العسجد، ص: 59، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 255، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 39، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 258.

(3) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 128.

(4) مجهول: سيرة المكرم، ص: 113، 114.

(5) الجرافي: المقتطف، ص: 79، وفي اللطائف، ص: 35، يذكر أنها قعدت في السجن ثمانية أشهر أو سنة، (الشعر) ناحية تابعة لقضاء النادرة.

المكان فجميع المصادر أجمعت على أنه قتل في (الشعر) في أحد حصونها[1]. ومن حيث تاريخ قتله فالمصادر مختلفة في ذلك فعمارة وبعض المؤرخين ذكروا أنه قتل سنة 481هـ/ 1088م[2] بينما ذكر صاحب سيرة المكرم أنه قتل سنة 461هـ/ 1069م[3] ومن حيث الأحداث فهي متقاربة في بعض سياقها ومختلفة في أسماء قادتها وطريقة تنفيذها، فمن حيث التقارب يذكرون أن الصليحيين ساروا إلى زبيد ثم ساروا يتابعون سير سعيد الأحول منزلاً بمنزل حتى وصلوا إلى جبل (الشعر) ومن حيث الاختلاف في أسماء قادتها وطريقة تنفيذ ذلك، فعمارة وبعض المؤرخين يذكرون أن السيدة الحرة أروى هي التي قتلت سعيداً الأحول[4] بينما صاحب السيرة يذكر أن الذي قتله هو المكرم[5]. وقصة قتل السيدة الحرة لسعيد الأحول كما أوردها عمارة ملخصها الآتي:

اشتركت السيدة الحرة أروى مع الحسين التبعي صاحب (حصن الشعر) في تدبير حيلة لقتل سعيد الأحول، فكتبت إليه تعلمه أن يكتب إلى سعيد الأحول إلى زبيد، يخبره أن المكرم قد أصابه الفالج وعكف على اللذات فأصبح غير قادر على إدارة أمور الدولة، حيث أوكل بإدارتها إلى امرأته السيدة الحرة، ويخبره أيضاً أنه أقوى حكام اليمن آنذاك وأنه أحب إليه والي المسلمين من الصليحيين الإسماعيلية، ويخبره كذلك أنه سيتعاون معه على قتال الصليحيين حيث قال له: (فإن رأيت أن تطبق على ذي جبلة أنت من تهامة ونحن من الجبال فنستريح منه وترجع إليكم البلاد بأسرها فافعل فدولتكم أحب إلى المسلمين من هؤلاء الخوراج)[6] لذلك بادر سعيد الأحول في الطلوع حسب الموعد الذي حدده له ابن التبعي، فخرج من زبيد نحو ذي جبلة في ثلاثين ألف حربة، وأثناء ذلك كتبت السيدة الحرة إلى أسعد بن شهاب وعمران بن المفضل اللذين استخلفهما المكرم على صنعاء عند انتقاله إلى ذي جبلة، تخبرهما أن يخلفا سعيد الأحول على زبيد في ثلاثة آلاف فارس،

(1) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 144، ابن سمرة: طبقات، ص: 104، الخزرجي: العسجد، ص: 62، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 264، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 255.

(2) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 142، الخزرجي: العسجد، ص: 62، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 263.

(3) مجهول: سيرة المكرم، ص: 111، الهمداني: الصليحيون، ص: 131.

(4) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 143، 144، الخزرجي: العسجد، ص: 59، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 263 ـ 265.

(5) مجهول: سيرة المكرم، ص: 113، 114.

(6) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 142، 143.

ويتبعوا أثره منزلاً بمنزل ففعلوا ذلك. ولما وصل سعيد الأحول إلى تحت حصن (الشعر) أطبق عليه الجيشان فقتلوه ومن معه[1].

أما صاحب سيرة المكرم فيذكر أن المكرم هو الذي نزل إلى زبيد وظل يتابع سعيداً الأحول منزلاً بمنزل حتى لحق به في (الشعر) فحاربه حتى قتله، بينما اتجه عامر الزواحي بجيشه نحو نقيل صيد (سمارة) فالتقى ببعض جيش النجاحيين فقاتلهم حتى تمكن من قتل أخوي سعيد الأحول وهما بلال ومالك ابني نجاح[2] كما سبق ذكره.

كذلك لم تتفق المصادر عن هروب النجاحيين بعد معركتهم مع المكرم في (زبيد) فبعض المؤرخين ذكروا أن سعيداً الأحول ومن معه من بني نجاح وأنصارهم قد أعدوا خيولاً على الباب الغربي لزبيد المسمى بباب النخل، فلما انهزموا من قبل المكرم سنة 460هـ/ 1069م هربوا إلى جزيرة دهلك[3]، أما صاحب سيرة المكرم فيذكر أنهم لم يهربوا إليها بل ظلوا في تهامة كما سبق توضيحه.

وبالنسبة لابن خلدون فهو يذكر أن المكرم هو الذي كتب لصاحب حصن (الشعر) بأن يغري سعيد الأحول ضد المكرم وانتزاع ذي جبلة منه. فلما سار سعيد الأحول في ثلاثين ألفاً من الحبشة كَمِنَ له المكرم تحت حصن الشعر فقتله[4].

ومما تقدم نستخلص الآتي:

1 ـ أشار عمارة أن الحسين التبعي كتب إلى سعيد الأحول يخبره بالطلوع إلى ذي جبلة فكان من المتوقع أن يلتقيا بها لقربها من زبيد، وليس في (الشعر).

2 ـ وذكر عمارة أن الحسين التبعي تعاون مع السيدة الحرة لقتل سعيد الأحول في حين أن ابن سمرة ذكر أن الحسين بن المغيرة، وأحمد بن عبد اللّه الكرندي كانا من أهل السُنَّة وأكثر الناس مجانبة لما عليه الصليحيين من السمعلة[5] أي الإسماعيلية، ولذلك لا يمكن أن يكون الحسين بن المغيرة التبعي قد اشترك مع السيدة الحرة التي تنتمي إلى المذهب الإسماعيلي، ضد سعيد الأحول

(1) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 143، 144، الخزرجي: العسجد، ص: 59، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 263 ـ 265، العرشي: بلوغ المرام، ص: 26.

(2) مجهول: سيرة المكرم، ص: 111.

(3) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 132، الخزرجي: العسجد، ص: 60، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 259.

(4) ابن خلدون: تاريخ، مج4، ص: 463.

(5) ابن سمرة: طبقات، ص: 105.

الذي ينتمي إلى مذهب أهل السُنَّة الذي ينتمي إليه الحسين التبعي.

3 ـ وأورد عمارة أيضاً أن أسعد بن شهاب كان متولياً لصنعاء سنة 481هـ/ يوليو 1088م في حين أن بعض المصادر ذكرت أن أسعد مات في شعبان سنة 456هـ/ يونيو 1064م[1].

4 ـ كذلك ذكر عمارة وبعض المؤرخين أن الحسين بن المغيرة التبعي هو الذي اشترك مع السيدة الحرة لقتل سعيد الأحول سنة 481هـ/ 1088م كما سبق ذكره بينما ورد في كتاب ابن سمرة أن الحسين بن المغيرة التبعي صاحب حصن (القرانح) في الشعر مات سنة 478هـ/ 1085م[2]. وبذلك انتفي اشتراكه مع السيدة الحرة سنة 481هـ/ 1088م.

5 ـ وأشار عمارة ومن أخذ عنه أن المكرم كان موجوداً في سنة 481هـ/ 1088م، حينما دبرت السيدة الحرة الحيلة ضد سعيد الأحول، وذكرت أنه عكف على اللذات، في حين أن بعض المصادر ذكرت أن المكرم توفي سنة 477هـ/ 1084م[3].

ومن خلال ما سبق نعتقد أن الذي قتل سعيداً الأحول هو المكرم وذلك في سنة 461هـ/ 1069م، وليست السيدة الحرة أي أننا نميل إلى تصديق رواية صاحب سيرة المكرم لأنها أكثر معقولية، بينما لا نصدق رواية عمارة ومن أخذ عنه بسبب التناقضات التي أشرنا إليها.

واستكمالاً لذكر الأحداث فبالرغم من ذلك فقد ظل الحسين بن المغيرة التبعي مناصراً للنجاحيين، فوصلت إلى المكرم أثناء ما كان في تهامة ثلاث رسائل في 16 شوال سنة 461هـ/ 1069م، الأولى من السيدة أسماء، والثانية من عبد الله بن إسماعيل بن أبي يعفر والي يحصب ورعين وعنس، والثالثة من كديس الصلحي، تخبرنه أن الحسين التبعي أشاع لدى عشيرته وقبائله أن سعيداً الأحول ابن نجاح لم يقتل، فصدقته أغلب المناطق التي يحكمها، وأظهر أكثرهم التمرد والعصيان ضد ولاة المكرم في تلك المناطق[4]. إلا أن المكرم لم يهتم بتحريك جيشه نحوهم وأمام هذه الإشاعة فهل قتل سعيد الأحول حقاً أم لا؟ وما نعتقده أنه قتل كما سبق ذكره.

(1) الهمداني: الصليحيون، هامش رقم 4، ص: 87.

(2) ابن سمرة: طبقات، ص: 104.

(3) الهمداني: الصليحيون، ص: 141، نقلاً عن عيون الأخبار لإدريس.

(4) مجهول: سيرة المكرم، ص: 114.



صراعه مع الزيدية

الإمام أبو حمزة: أدى مقتل علي الصليحي في ذي القعدة سنة 459هـ/ سبتمبر 1067م إلى عودة ظهور الزيدية بمساعدة بعض القبائل اليمنية، واتجاههم لحرب المكرم، أملاً في القضاء عليه وإقامة دولة زيدية، فقد ظهر الإمام حمزة بن أبي هاشم يدعو لنفسه بالإمامة، بتحريض من بني شهاب الذين حسنوا له القيام ضد المكرم مستغلين خلاف أغلب القبائل اليمنية له، واصفين للإمام (إن لم يفعل ذلك سبقه إليه غيره) فيذهب عنه الفخر، فنهض معهم وسار يدعو الناس إليه فأجابته الكثير من قبائل بكيل وبني بحير ونهم ووداعة وذبيان، حتى صاروا جمعاً كبيراً حوله، وكاتبوا كل من حول صنعاء يدعوهم إلى مناصرتهم، واتجهوا نحو صنعاء للسيطرة عليها[1] بجمع كبير يقدر بثمانية آلاف مقاتل مع عدد كبير من الخيل[2] واثقين أنهم قادرون على دخولها بدون قتال كبير، فساروا حتى بلغوا منطقة (المنوى) في أرحب[3].

وعندما علم المكرم بهذا التجمع القبلي المناصر للزيدية، دعا قائده عامر بن سليمان الزواحي الذي كان في مغارب اليمن الأعلى، فوصل إليه يوم الثلاثاء 19/ ذي الحجة سنة 459هـ/ أكتوبر 1067م، في خمسمائة من حِمْيَر وألف رجل من صنعاء، وانضم إليه أحمد بن المظفر الصليحي بجمع كبير من عساكر الصليحيين[4] بلغ عددهم ألف وخمسمائة فارس وخمسة عشر ألف راجل[5] فساروا جميعاً نحو الإمام الزيدي.

---

(1) مجهول: سيرة المكرم، ص: 46، 47، الهمداني: الصليحيون، ص: 117، الإمام حمزة هو الحسن بن عبد الرحمن بن يحيى بن عبد الله بن الحسن بن القاسم بن إبراهيم، الواسعي، ص: 85.

(2) مجهول: سيرة المكرم، ص: 47، زبارة: أئمة اليمن، 1/ 94، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 255، الهمداني: الصليحيون، ص: 117.

(3) مجهول: سيرة المكرم، ص: 46، 47، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 255، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 241، 246، الحداد: التاريخ العام: 2/ 358، وادي المنوى بأوسان من بلاد أرحب وهي على مسافة مرحلة كاملة شمال إلى الشرق، من صنعاء، زبارة: أئمة، ص: 94، أو على نصف مرحلة في الشرق من صنعاء سيرة، ص: 46، 47 (والمنوى) في بلاد أرحب من بلد الخشب، اللطائف، ص: 33، 34، الجرافي، ص: 78.

(4) مجهول: سيرة المكرم، ص: 47، مصطفى غالب: أعلام الإسماعيلية، ص: 121، الهمداني: الصليحيون، ص: 117.

(5) زبارة: أئمة اليمن، ص: 94، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 255، الهمداني: الصليحيون، ص: 117.

ولما أدرك الإمام حمزة وأنصاره قدوم جيش المكرم، أخذوا يستعدون للقتال فسيطروا على جانبي (وادي المنوى) وجعلوا على الأكمة الشرقية عدداً من أصحابهم، وعلى الأكمة الغربية عدداً آخر، وأخذت الخيل مضيق الوادي، وشددوا حراسة الطرق لمنع نفوذ الجيش الصليحي منها[1]. أما جيش الصليحيين نفسه فقد اتجه لإطباق الحصار عليهم، فأخذوا أسفل الوادي وأعلاه[2]. واتجه عامر الزواحي بحِمْير نحو الأكمة الغربية[3]. فاشتد القتال بين الطرفين، رمى خلالها جيش الصليحيين جيش الإمام بالنبل والحجارة، فقتلوا منهم ثمانمائة رجل ووقف بجانب الإمام سبعون شيخاً من همدان، تقاتل معه حتى قُتِلُوا وقُتِل الإمام حمزة وولده[4]. بذلك حقق الصليحيون الانتصار على الزيدية وأقام عامر الزواحي يصلح أمور تلك البلاد سبعة عشر يوماً ثم عاد إلى صنعاء فدخلها في 19 محرم من سنة 460هـ/ نوفمبر 1067م[5] وهكذا حقق الصليحيون أول انتصار لهم على بداية ظهور الزيدية بقيادة الإمام أبي حمزة.

عودة الشريف الفاضل إلى اليمن: وما إن وصلت الأخبار إلى مسامع الشريف الفاضل القاسم بن جعفر إلى المدينة بقتل علي الصليحي في ذي القعدة سنة 459هـ/ سبتمبر 1067م حتى أسرع في العودة نحو اليمن قبل أن يتأكد من صحة ذلك الخبر، فسار نحو (مكة) فلما قرب منها تحاشى دخولها لأن أبا البقاء وزير الصليحي كان قد دخلها مصطحباً معه الأموال والرجال مقدمة لمجيء الصليحي إليها. واستمر الشريف الفاضل يتابع سيره نحو اليمن، وكان كلما سار من منطقة إلى أخرى لقي أخباراً مطردة بقتل الصليحي، ولما وصل (ترج) لقي أخباراً مؤكدة بقتله فاطمأن لذلك وأعطاه ذلك فرصة على التخلّي عن تعهداته بعدم حرب الصليحيين، كما أعطاه ذلك حافزاً على الذهاب إلى أماكن أنصاره في اليمن، فسار حتى وصل حقل (صعدة) حيث اجتمعت إليه الكثير من القبائل[6] بهدف مناصرته على محاربة الصليحيين وتكوين دولته.

---

(1) مجهول: سيرة المكرم، ص: 47، الكبسي: اللطائف، ص: 33، 34.
(2) زبارة: أئمة اليمن، ص: 94، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 255.
(3) مجهول: سيرة المكرم، ص: 47.
(4) مجهول: سيرة المكرم، ص: 47، 48، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 255، 256، زبارة: أئمة اليمن: 1/ 94، الكبسي: اللطائف، ص: 33، 34، الجرافي: المقتطف، ص: 78، الهمداني: الصليحيون، ص: 118، عصام الدين الفقي: اليمن في ظل الإسلام، ص: 183.
(5) مجهول: سيرة المكرم، ص: 49.
(6) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 139 ـ 142.

وبالنسبة لذي الشرفين محمد بن جعفر فإنه بعد أن تأكد من قتل الصليحي بدأ يظهر أمره فبعث إلى أخيه الشريف الفاضل، يخبره بذلك، ويطلب منه مناصرة الإمام أبي حمزة بن هاشم، فوصله كتابه عندما وصل إلى صعدة، فعمل على تجميع أنصاره لمناصرة الإمام، ولكن لم تمض أيام قليلة حتى وصل إليه العلم بقتل الإمام أبي حمزة، فحزن لذلك وتراجع عن القيام ضد الصليحيين ولكنه عاد إلى محاربتهم حيث ذهب إلى عيان فوصلها في شهر ذي الحجة سنة 459هـ/ أكتوبر 1067م. وعندما وصل إليها توافدت إليه شيعته من وادعة وقبائل بني الدعام وبني بحير وجماعة من نهم يحرضونه على القيام وفي البداية حاول رفض طلبهم، ولكنه تراجع وقبل طلبهم لما رأى كثرة تجمعهم حوله وذلك بعد أن تعهدوا له بدفع الخمس من أموالهم. ومشاركته بخيولهم ورجالهم[1].

المصالحة: ولم تلبث الظروف آنذاك أن أدت إلى خلق مصالحة مؤقتة بين الطرفين، وذلك بسبب محاولة كل طرف العمل على التهيئة لحل مشاكله، فمن جهة الزيدية فقد كانوا بحاجة إلى إعداد أنفسهم الإعداد الكافي وتجميع أكبر قدر من الأنصار حولهم. وبالنسبة للمكرم فإنه كان بحاجة إلى الذهاب إلى زبيد لتخليص أمه من الأسر، لذلك سعى الطرفان إلى المصالحة[2].

وقد اختلفت مصادر الطرفين حول تحديد من الذي بدأ يطلب المصالحة، فصاحب سيرة المكرم ذكر أن الشريف الفاضل هو الذي بدأ يطلب المصالحة، وبعث لذلك أخويه محمداً وحسناً ابني جعفر بن القاسم رسولين إلى المكرم، يخبرانه بتعهده أنه لا يصل إليه سوء من جهة الشريف الفاضل ولا من أحد قرابته ولا عسكريته، فقبل المكرم ذلك، وبعث أحد كتابه يستوثق منه لذلك ويأخذ عهده وميثاقه على الوفاء والطاعة للمكرم[3].

أما صاحب سيرة ذي الشرفين فقد ذكر أن المكرم هو الذي طلب من الشريف الفاضل القدوم إليه لمصالحته، وذلك بسبب اتجاه المكرم إلى (زبيد) لتخليص أمه من الأسر، وقد توجه ذو الشرفين وأخوه الحسن لإتمام هذه المصالحة مع والي صنعاء آنذاك إسماعيل بن أبي يعفر الصليحي، ووافق الشريف الفاضل على هذه المصالحة ووقع عليها. ومن أجل التزامه بهذه المعاهدة ترك الشريف الفاضل ولده محمد بن القاسم رهينة في صنعاء لدى الصليحيين[4]. وكانت المصالحة تهدف إلى

(1) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 142 ـ 144، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 247، 248.
(2) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 144.
(3) مجهول: سيرة المكرم، ص: 58، 59.
(4) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 144، 146، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 248، 249.

جعل نقبل عجيب حداً فاصلاً بين الطرفين[1]. ومهما يكن من أمر فإن المصالحة تمت لتتيح لكل طرف أن يتمكن من تجهيز قواته لبدء الصراع في مرحلة قادمة.

نقض المصالحة: ما كادت تمضي على المصالحة عدة أيام حتى نقضت، وقد اتهم كل طرف منهما الآخر بأنه هو الذي نقض المصالحة، فصاحب سيرة ذي الشرفين يذكر أن أحمد بن مظفر الصليحي هو الذي بدأ بإنكار هذه الهدنة والمحادة وذلك بعد رجوعه من تهامة (لأن البلاد التي وقعت عليها الحدود مما كان في يديه)[2]. وأما صاحب سيرة المكرم فقد ذكر أن الزيدية هم الذين بدأوا في نقض هذه المصالحة بعد خروج المكرم من صنعاء بعدة أيام، حيث أرسل إسماعيل بن أبي يعفر الصليحي والي صنعاء كتاباً إلى المكرم يخبره بعدم التزام الشريف الفاضل بالمعاهدة وأنه جمع جيشاً كبيراً، واتجه بهم نحو صنعاء للسيطرة عليها مستغلاً غياب المكرم عنها، فوصلت رسالته إلى المكرم أثناء ما كان في (الدومة) من تهامة يطارد النجاحيين المنهزمين[3]. فلما قرأ الرسالة أسرع في العودة نحو صنعاء.

والذي يتضح أن سعيداً الأحول ابن نجاح هو الذي حرّض الشريف الفاضل على نقض المعاهدة، فقد أرسل إليه رسولين يخبرانه بالتعاون معه لمحاربة المكرم واللقاء إلى صنعاء، فكان ذلك فرصة للشريف الفاضل أن ينهي مصالحته مع المكرم فاستجاب له وأرسل معهما صنوه الشريف الأجل أحمد بن جعفر، والقاضي عيسى بن الحسين للاتفاق مع سعيد الأحول على موعد لقائهما لحرب المكرم، ثم عاد من تهامة إلى الجوف بعد أن اتفقا على الميعاد المحدد ليوم معلوم، ومعهما عدة هدايا وألفي دينار شهابية من سعيد الأحول للشريف الفاضل، ولكن لم تتمكن الزيدية والنجاحيون من التعاون لقتال المكرم، إذ سرعان ما وصل إلى الزيدية الخبر بعد ذلك بقتل سعيد الأحول[4].

فكرة المهدي المنتظر: ولقد استخدم الشريف الفاضل عند دعوته للإمام الزيدية في اليمن فكرة (المهدي المنتظر) وهذه الفكرة ليست مستوحاة من الفكر الزيدي، وإنما هي فكرة اعتقد بها أصحاب المذهب الإمامي والإسماعيلي في بداية تكوينهما. فالإسماعيلية استخدموها في بداية دعوتهم في كثير من البلدان، فأوصلتهم هذه الدعوة إلى النجاح في تكوين دويلات سياسية لهم مثل دولة علي بن

(1) المطاع: تاريخ اليمن، ص: 249.
(2) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 156.
(3) مجهول: سيرة المكرم، ص: 73.
(4) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 148.

الفضل في اليمن، ودولة القرامطة في البحرين والشام والعراق، والدولة الفاطمية في المغرب ثم مصر.

وقد ادعى الشريف الفاضل أن عمه الحسين القاسم العياني حياً لم يمت وأنه غائب وسيعود ليملأ الأرض عدلاً وسلاماً، وأنه قد حان وقت ظهوره وعودته آنذاك، باعتباره المهدي المنتظر[1].

والحسين بن القاسم هذا كان قد ظهر يدعو لنفسه بالإمامة في اليمن سنة 393هـ/ 1002م ودخل في صراع مع ابن الضحاك الهمداني، ومن ضمن أهم الحروب التي دارت بينهما حرب سنة 404هـ/ 1013م والتي جمع فيها جيشاً كبيراً، واتجه به لمحاربة ابن الضحاك الذي استعد هو الآخر لحربه، فجمع جيشاً أكثر من جيش الإمام من أهل الجهات المخالفة له، فالتقى الطرفان في (ذي بين) حيث وقعت بينهما حرب شديدة، أسفرت عن هزيمة الإمام وهروبه إلى الجوف، ولكن هذه الهزيمة أعطت الإمام حافزاً على العودة للحرب مرة أخرى، بهدف تحقيق النصر ومحو هزيمته السابقة، فرجع إلى بلد الصيد (البون) في مائة فارس، ثم سار بها إلى (ريدة) وما أن سمعت قبائل همدان بعودة الإمام للحرب، حتى خرجت لقتاله، فالتقت به في (وادي البون) وحاربته حرباً شديداً انتهت بتمكين بني حماد من قتله في صفر سنة 404هـ/ أغسطس 1013م[2].

وعند قتل الحسين ابن العياني لم يصدق أصحابه بموته، فظل هذا الاعتقاد الخاطئ ينتشر لدى الكثير (من جهلة شيعته ونحوهم من يزعم أنه حي لم يقتل وأنه المهدي المنتظر)[3] ولم يكن هذا الاعتقاد محصوراً لدى الجهلة من أتباع الإمام، بل شمل أشراف الزيدية أنفسهم، يوضح ذلك الخزرجي بقوله: (وكان على هذا الاعتقاد كثير من الأشراف)[4]. وكانت أهم مناطق لانتشار هذه الفكرة مغارب صنعاء[5].

وهذه الفكرة بدأ بنشرها الإمام الحسين ابن القاسم العياني نفسه منذ سنة 401هـ/ 1011م. فاستجاب له الكثير من أهل اليمن الأعلى يوضح ذلك النص التالي: (ثم وصل الإمام الحسين ابن الإمام القاسم ابن علي إلى قاعة سنة إحدى وأربعمائة

---

(1) مجهول: سيرة المكرم، ص: 75، الهمداني: الصليحيون، ص: 127.

(2) زبارة: أئمة اليمن، ص: 84، 85، الخزرجي: العسجد، ص: 52، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 239، المحلي: الحدائق الوردية، ص: 64.

(3) المحلي: الحدائق الوردية، ص: 64، زبارة: أئمة اليمن، ص: 85، الخزرجي: العسجد، ص: 52، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 234، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 239.

(4) الخزرجي: العسجد، ص: 52.

(5) الخزرجي: العسجد، ص: 52.

وادعى أنه المهدي المنتظر الذي بشر به الرسول ﷺ فأجابته حِمير وهمدان وسائر أهل المغرب)[1] ومنذ ذلك التاريخ انتشرت هذه الفكرة حتى عهد المكرم.

والذي يتضح أن الزيدية آنذاك وخاصة الشريف الفاضل أخذوا يقلدون الإسماعيلة بالدعوة إلى المهدي المنتظر، لأنها حققت نجاحاً في المجال السياسي، وهذا ما تسعى إليه الزيدية، فكانت المناطق التي انتشر فيها الفكر الإسماعيلي في مغارب اليمن، هي الأكثر تقبُّلاً لفكرة المهدي المنتظر التي نشرتها الزيدية إلا أن هذه الدعوة انقرضت فيما بعد القرن السابع الهجري[2] وادعت الأئمة الزيدية الذين ينكرون هذا الاعتقاد أن الحسين بن القاسم العياني (اختلط عقله في آخر عمره)[3].

حرب الصليحيين والزيدية في شمال صنعاء سنة 460هـ: كانت بداية الحروب بين المكرم والشريف الفاضل حول حدود المصالحة بين الطرفين وتشجيع الزيدية لقبائل شمال صنعاء على التمرد ضد المكرم، ودعوتهم في ظهور المهدي المنتظر، فما أن وصل المكرم إلى صنعاء حتى أسرع في مكاتبة الشريف الفاضل يلومه على ما فعل بعدم التزامه بالمصالحة، ويستنكر تشجيعه لقبائل (ذيبان) على أخذ الطعام (الحبوب) على المكرم، فردَّ عليه الشريف الفاضل بأن هذه القبائل تدخل ضمن المحادة التي حددت له، ويطلب منه عدم معاقبتهم، فغضب المكرم من ذلك الرد، واتجه لمعاقبة قبائل (ذيبان) فخرج من صنعاء في شهر ربيع سنة 460هـ/ يناير 1068م. وسار نحوها فدخلت قواته عدة قرى منها، أجبر أهلها على الخضوع له[4].

وفي الوقت الذي وصل فيه المكرم بقواته إلى (ذيبان) تسارعت القبائل من بني الدعام وبني بحير ونهم إلى المحطة التي عسكر بها المكرم في (السمط) من بني بحير معلنة ولاءها وطاعتها له، وملتزمين بعدم طاعة الشريف الفاضل وباذلين الانقياد له والخروج معه للحرب في كل مخرج، إلا تهامة فهم في الخيار[5]. من ذلك نجد أن المكرم اهتم بالاتجاه نحو القبائل الخارجة عن سلطانه، فحاربهم حتى تمكن من إعادتهم إلى طاعته.

وبالنسبة لأحمد بن مظفر الصليحي فقد أنكر المحادة بعد عودته من تهامة،

---

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 51، ابن الديبع، ص: 232.

(2) الخزرجي: العسجد، ص: 52.

(3) الحزرجي: العسجد، ص: 52، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 234، 235.

(4) مجهول: سيرة المكرم، ص: 77، 78، الكبسي: اللطائف، ص: 36 (ذيبان) قبيلة في بلاد أرحب المقحفي، ص: 254.

(5) مجهول: سيرة المكرم، ص: 79 ـ 81.

وتوجه نحو البون لمحاربة الزيدية سنة 460هـ/ 1068م. وأوضح أن البلدان التي وقعت عليها المحادة تدخل ضمن البلدان التي يسيطر عليها، فسار إلى بلد وادعة حتى وصل إلى (المدحك) ثم سار منها إلى (أَثَافِت) وأثناء ما كان في (أثافت) توجه الشريف الفاضل بقواته إلى (شُوَابة) وكان يريد التوجه لمقاتلة ابن مظفر الصليحي إلى (أثافت) ولكن رجاله نصحوه بعدم فعل ذلك، لعدم توفر القوة الكافية لمحاربة الصليحيين، ومن جهة أحمد الصليحي فقد أرسل بعض قواته تحت قيادة محمد بن إبراهيم الصليحي لمحاربة الزيدية هناك، فسارت هذه القوة حتى وصلت (المنقل من خرفان) وفيها هجم عليه جماعة من الزيدية، فدار قتال شديد بين الطرفين أسفر عن هزيمة الصليحيين، بسبب افتراق قواتهم، فانسحبت هذه القوة المنهزمة إلى (أثافت) بعد ذلك قرر أحمد الصليحي الانسحاب من أثافت إلى صنعاء. أما الشريف الفاضل فبعد خروج الصليحيين من (أثافت) توجه إليها وأخرب دار بني الصليحي بها، ثم عاد إلى (شوابة) ثم إلى الجوف[1]. أعطى هذا الانتصار في موقعة خرفان الزيدية دافعاً على الإقدام على محاربة الصليحيين.

حاولت الزيدية الاستمرار في القتال، فعندما توجه الشريف الفاضل إلى (شوابة) سنة 460هـ/ 1068م. علم أن أحمد بن مظفر (بذروة) فأرسل إلى أخيه يستمده لمقاتلته، فبعث إليه جماعة من أنصاره، سار بهم إلى (ورور) وفيها اجتمع إليه الكثير من ذيبان وسفيان وبني بحير ونهم وبني الدعام، فاتفق رأيهم على المسير إلى ذيبين لمحاربة الصليحيين. ومن جهة أحمد بن مظفر فقد انتقل من (ذروة) إلى (يناعة) وكان في قلة من أصحابه، فأرسل إلى صنعاء يطلب المدد من المكرم، فأرسل إليه جيشاً التقى بجيش الزيدية في (بركة مذود) قرب ذيبين، حيث دار فيها قتال شديد أسفر عن هزيمة الزيدية، وهروب الشريف الفاضل إلى الجوف[2] وعودة أحمد بن مظفر إلى صنعاء. وقد سمّيت هذه الواقعة بواقعة (ذيبين).

التحصن في شهارة: في الوقت الذي شعرت الزيدية فيه بشدة القتال بين قبائل اليمن والمكرم سنة 460هـ/ 1068م رأت أنه لا بد من أن يتجهوا إلى تحصين أنفسهم من هجمات القوى المعادية لهم، فعمدوا على اختيار منطقة محصنة طبيعياً

---

(1) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 156 ـ 158، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 252، (أثافت) في بلاد حاشد بالشرق من مدينة خمر، المقحفي، ص: 13.

(2) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 160، 161 (ذي بين) مدينة بالشمال الغربي من صنعاء بمسافة 94 كم من قضاء عمران، (ذروة) حصن منيع يطل على ذي بين من بلاد حاشد، (شوابة) وادي من أعمال ذي بين (يناعة) بلد وواد في ناحية خارف بقضاء خمر، المقحفي، ص: 25، 366، 717.

إضافة إلى بعدها عن الصليحيين ووجود قبائل مناصرة لهم، فاختاروا حصن (شهارة) شمال حجة كمركز يجتمعون به، فاستغلوا انشغال الصليحيين في قتالهم ضد قبائل اليمن الأعلى، وضد النجاحيين وأنصارهم في اليمن الأسفل، فذهبوا إلى الاستيلاء على هذا الحصن في شهر رمضان سنة 460هـ/ يوليو 1068م بواسطة الاتفاق والمساعدة من مشايخ الأهنوم في تلك المنطقة[1]. وبذلك تم للزيدية التحصن في شهارة.

وما أن تمكنت الزيدية من الاستيلاء على حصن شهارة، حتى أسرعت إلى أنصارها تحرضهم على الاستقرار في هذا الحصن، فانتقل إليه الكثير من أنصار الشيعة الحسينية وبعض قبائل نهم وسفيان وغيرهم، ثم أمر الشريف الفاضل أخاه ذا الشرفين الاتجاه للتمركز في هذا الحصن، فذهب إليه وعمل على ترتيبه، وأرسل العمال على أنحاء شهارة[2]. بذلك تمكنت الزيدية من إيجاد مركز محصن لها. ثم بدأت نشاطها السياسي في التوسع نحو المناطق المجاورة لشهارة.

حصار شهارة: بعد أن مضت سنتان على تحصن الزيدية في حصن شهارة شمال حجة حاول الصليحيون مقاومتهم، ولكن دون الدخول في صراع مع قبائل المناطق التي تواجدت بها الزيدية، لأن هذه القبائل لم تكن كلها مناصرة للزيدية، ولكن بعضاً منها، لذلك ظهر صراع الصليحيين ضد الزيدية ضعيفاً آنذاك ففي سنة 462هـ/ 1069م. توجه الصليحيون بقيادة المكرم نحو (شهارة) ففرضوا عليها الحصار من جميع جهاتها، إذ أنهم أقاموا حولها أحد عشر مركزاً[3] ولكن لم يلبث المكرم أن أدرك صعوبة الاستيلاء على شهارة في فترة قصيرة، فعاد نحو صنعاء تاركاً استمرار الحصار لبعض قواته بقيادة السلطان سبأ بن أحمد الصليحي وأبو الحسين بن جناح وبعض الحجازيين فظل الحصار لمدة خمسة أشهر، وأثناء الحصار عمل جياش بن نجاح على مناصرة الزيدية بالمال، فكان يبعث للشريف الفاضل ألف دينار شهرياً[4].

وخلال المحاصرة استمرت عملية شن الغارات والحروب المتقطعة بين

---

(1) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 148، 149، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 251، 252، الكبسي: اللطائف، ص: 36، عصام الدين، اليمن في ظل الإسلام، ص: 183، شهارة: جبل مشهور في بلاد الأهنوم شمال حجة، المقحفي، ص: 365.

(2) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 149، 150، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 251، 252.

(3) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 165، 166، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 257.

(4) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 175 ـ 184، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 252، الكبسي: اللطائف، ص: 36.

الطرفين، بلغت سبعين وقعة، كانت آخرها وقعة (أقر) التي انتصرت فيها الزيدية وقتل فيها الكثير من الناس بلغ عددهم ما يزيد على الثمانمائة رجل[1]. بعدها انسحب الصليحيون إلى صنعاء. وقد أدى انتصار الزيدية على الصليحيين في شهار إلى إقبال العديد من القبائل المجاورة لها، معلنة ولاءها وطاعتها للزيدية[2]. ومن الملاحظ أن المكرم وجيشه أدركوا أن قبائل شهارة هم الذين ساعدوا الزيدية على السيطرة على حصن (شهارة) ووقفوا لمناصرتهم، لذلك ترك المكرم وجيشه محاصرتهم وعادوا إلى صنعاء تجنباً للدخول في قتال معهم.

استيلاء الزيدية على صعدة: ساهمت الأحداث في صعدة على قدوم الزيدية إليها، فقد حدث خلاف بين أولاد الهادي وأهل صعدة بشأن الخطبة في مسجدها لبني الصليحي، إذ تزعم أهل صعدة كبارهم وصاحب الرأي فيهم جعفر بن الحسن الشمري، حيث أجمع أهل الرأي فيها على الذهاب إلى صنعاء للاتفاق مع بني الصليحي على تدعيم حكمهم في صعدة. وآنذاك توجه رجلان من أولاد الهادي مع جماعة من الربيعيين إلى الشريف الفاضل، يطلبون منه المساعدة لمنع أهل صعدة من طاعة الصليحيين والذهاب إليهم. وأثناء خروج أهل صعدة نحو صنعاء اعترضتهم الزيدية في (مذاب) بحرف سفيان، فعادوا منها إلى برط، ثم عادوا إلى صعدة[3] وأمروا خطيباً لهم بالصعود إلى منبر الهادي للخطبة لبني الصليحي، فعارضهم على ذلك أولاد الهادي، فوقع بين الطرفين مشاجرة أسفرت عن حدوث بعض الجراحات، وَتَغَلُّب أهل صعدة عليهم وطلوع خطيبهم المنبر والدعوة فيه للأمير المكرم.

وسرعان ما وصل هذا الخبر إلى الشريف الفاضل إلى شهارة، فأمر القاسم بن إبراهيم بن سليمان على تجهيز الجيش من (الجوف) كما جهز هو جيشاً آخر من الأهنوم، والتقى الجيشان في (الحيط) أسفل وادي مذاب، ثم ساروا نحو صعدة، فوصلوها في إحدى ليالي رمضان سنة 462هـ/ يوليو 1070م فحاصروها من جميع أبوابها، ثم دخلوها واستولوا على دار الإمارة فيها، ثم ضربوا الطبول والأبواق فارتاع الناس لذلك، وأقبلوا في الصباح معلنين ولاءهم للزيدية وباذلين لهم الأموال والسلاح، أما التجار فقد سجنهم الشريف الفاضل في درب الناصر، كما ألقى القبض على زعيمهم جعفر بن الحسن الشمري وأرسله إلى (شهارة) فظل

---

(1) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 167 ـ 177، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 262.

(2) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 184.

(3) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 189 ـ 193، يحيى بن الحسين: غاية الأماني: 1/ 262، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 260.

في سجنها إلى سنة 470هـ/ 1077م بذلك تمكنت الزيدية من الاستيلاء على صعدة، بعدها عاد الشريف الفاضل إلى شهارة[1].

ونتيجة لأن السيطرة على صعدة كانت نتاجاً عن صراع قبلي فيما بين قبائلها واستعانة بعضهم بالزيدية، فقد ترك المكرم والصليحيون الذهاب لاسترجاعها، وخاصة أنهم قد أهملوا الاهتمام بصعدة عندما سحبوا واليها أحمد بن مظفر الصليحي ليتولى صنعاء بجانب المكرم أثناء ذهاب علي الصليحي للحج.

التوسع في حجة

1 ـ طلوع مسور:

أسهم الخلاف القبلي بين بني المنتاب وبني شاور حول السيطرة على مسور حجة وتمكن الزيدية من الاستيلاء على (شهارة) على خروج المناطق المجاورة لها عن طاعة الصليحيين، وميلهم إلى الزيدية، من ذلك أهل (مسور) حيث كتب السلطان المنصور بن الحسين ابن المنتاب في شهر رمضان سنة 464هـ/ مايو 1072م إلى الشريف الفاضل وأخيه ذي الشرفين يخبرهما أنه دخل في طاعتهما، وأنه سيعمل على الاستيلاء على (حصن مسور) ويطلب منهما نصرته، فكان ذلك فرصة ثمينة للزيدية أن تتوسع بسلطانها، فاستجاب لطلبه، وما أن تمكن المنصور ابن المنتاب من السيطرة على مسور حتى أسرع في الكتابة إلى ذي الشرفين يستعجله القدوم إليه، وذلك بسبب خوفه من بني صليح وبني عمه وقرابته وبقية العشائر هناك من محاولتهم استعادة الحصن، فأسرع ذو الشرفين بجيش كبير سار بهم نحو مسور، فلما وصل إليه انتشر الخبر بوصوله فأقبلت عشائر مسور معلنة له الطاعة والولاء[2] بعدها استقر ذو الشرفين في مسور وهكذا ساهم الصراع القبلي بين بني المنتاب وعشيرته في استيلاء الزيدية على مسور.

حاول بنو شاور وهم المنافسون لبني المنتاب في امتلاك حصن مسور، عدم دفع خراج أراضيهم للزيدية، فأرسل ذو الشرفين إلى أخيه الشريف الفاضل يطلب تجميع أنصارهم والقدوم لمحاربة بني شاور، فحضر الشريف الفاضل بجيشه ودارت معركة كبيرة بين الطرفين أسفرت عن انتصار الزيدية وانهزام بني شاور[3] وبذلك

(1) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 191 ـ 193، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 262، 263، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 260، عصام الدين: في ظل الإسلام، ص: 184.

(2) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 200، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 264، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 261، عصام الدين: اليمن في ظل الإسلام، ص: 184.

(3) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 201، عصام الدين: اليمن في ظل الإسلام، ص: 184.

توطدت سلطة كل من بني المنتاب والزيدية في مسور بمساعدة كل منهما الآخر.

لم تتوقف المعارضة القبلية للزيدية في تلك المنطقة ففي سنة 464هـ/ 1072م، عارضت الزيدية بنو عامر في جبل الساعد من بلد حجور بحجة، بقيادة السلطان حسين بن مفلح العامري، فأرسل ذو الشرفين إلى أخيه الشريف الفاضل الذي خرج إليهم بجيشه فقاتلهم حتى هزمهم، وقتل قائدهم حسين بن مفلح(1). وبعد ذلك الانتصار أقبل الكثير من العشائر في تلك الجهات على طاعة الزيدية، منهم من تهامة بنو مشعل، وبنو شابرة، ونمرة، وصاحب عمدة صحار، وأسعد بن عراف من المهجم(2). بذلك عملت التجمعات القبلية على تأييد الزيدية والخضوع لها والهروب من سلطان الصليحيين.

وبعد أن وطدت الزيدية سلطانها في مسور حجة بمساعدة قبائلها، اتجهوا للتوسع في المناطق المجاورة لها والتابعة للصليحيين فتوجهت الزيدية نحو حصن القفل (بحفاش) لمقاتلة من به من بني الصليحي، فساروا حتى وصلوا إلى الحصن فحاصروه من جميع جهاته، بعد ذلك طلعت فرقة الشريف الأجل نحو الجبل فالتقت بعسكر السلطان محمد بن إبراهيم الصليحي، فدار قتال شديد بين الطرفين أسفر عن هزيمة الصليحيين وقتل الكثير منهم، من بينهم السلطان عبد القاهر بن الحسين الهمداني، وألقوا القبض على السلطان أبي الحسين بن إبراهيم الصليحي، والسلطان محمد بن إبراهيم الصليحي، ووزيرهما عبد الخالق، وغنمت الزيدية الكثير من أموالهم وسلاحهم(3) وهكذا توسعت الزيدية نحو المناطق التابعة للصليحيين دون أن يتمكن المكرم من تقديم أية مساعدة لهم. وبعد ذلك عادت الزيدية إلى مسور، وأرسلوا بالأسرى إلى (شهارة)(4). وخلال تلك الفترة شعرت الزيدية بعد توسعها ذلك، أنه حان لها أن تصدر عملة نقدية يتعامل بها أتباعها والتخلي عن استخدام عملة الصليحيين. ففي سنة 464هـ/ 1072م عملت الزيدية على إنشاء دار لضرب العملة في (شهارة)(5) وهي ما تعبر عن إقامة دولتهم بكيانها الخاص المستقل، وهكذا توسعت دولة الزيدية، ومن الملاحظ أن المكرم لم يحاول استعادة مناطق حجة والمناطق المجاورة لها، وذلك بسبب أن السيطرة

---

(1) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 204، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 261.

(2) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 207.

(3) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 214، يحيى بن الحسين: غاية الأماني: 1/ 264، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 261.

(4) الربعي: سيرة ذي الشرفين، .ص: 215، يحيى بن الحسين: غاية الأماني: 1/ 264 ـ 365.

(5) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 212، 213، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 262.

على تلك المناطق تمت عن طريق الصراع القبلي فيما بين قبائلها.

ما كادت تمضي مدة سنتين على استيلاء الزيدية على مسور والمناطق المجاورة لها في حجة بمساعدة قبائلها، حتى حدث الخلاف بينهم وبين بني المنتاب حول تبعية المناطق التي فتحت في تلك الجهات. لذلك أرسل ذو الشرفين الذي كان قد جعل حصن مسور مقراً له إلى أخيه الشريف يطلب سرعة حضوره لحل هذا الخلاف. وحرصاً من الشريف الفاضل أن تظل مسور وحجة تابعة للزيدية، فقد أسرع في الاتجاه نحوها بهدف حل المشكلة، ولما حضر إليهم، أراد إدخال الثقة بين ذي الشرفين والحسين بن المنتاب، فأمر ابن المنتاب أن يحلف اليمين لذي الشرفين على طاعته[1]. ولما حلف له حكم الشريف الفاضل أن تكون لابن المنتاب مخاليف مسور التي كانت تعرف في عصر أبيه من قديم الزمان ولا يعودها إلى غيرها مما افتتحه الأمير ذو الشرفين من البلدان[2].

إلا أن هذا الحل لم يكن مقنعاً للمنصور بن المنتاب لأنه كان يريد (أن يكون الأمر كله إليه) بحيث تكون له مسور وما جاورها، ولاعتين وحملان، وأردان، وعيان، وقيلاب، والتهائم، كما أن هذا الحل لم يكن مقنعاً لذي الشرفين لأنه كان يتحمل تكاليف الإنفاق على الجند والحراس في مسور، حيث كان يجلبها من أعمال شهارة. إلا أن الشريف الفاضل أراد من أخيه التنازل عن بعض الأمور والإغماض عنها، وانتهى الأمر بحل المشكلة حسب ما اقترحه الشريف الفاضل السابق الذكر، وحتى لا يعود الخلاف بين الطرفين، قعد الشريف الفاضل آنذاك في مسور، بينما قعد ذو الشرفين في الطويلة[3].

والذي يتضح من ذلك أن الشريف الفاضل كان يهدف من خلال إلزام ابن المنتاب بحلفه اليمين، هو استمرار طاعته للزيدية، ولا يمنع من تركه يحكم المناطق التابعة لآبائه. ما دام مطيعاً للزيدية ولو اسمياً، أما ذو الشرفين فقد كان يريد أن تكون السيطرة الفعلية له على تلك المناطق لعدة أسباب منها شحن تلك المنطقة بالجند لمقاومة الصليحيين، وأن الإنفاق عليهم من مالية شهارة.

التوسع في غرب صنعاء:

طلوع حصن يناع: بسبب الخلافات القبلية حول السيطرة على (حصن يناع) بين بني جناح أدى إلى أن يلجأ أحد سلاطينها لطلب مساعدة الزيدية ضد بني عمه

---

(1) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 215، 216.

(2) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 216.

(3) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 216.

الموالين للصليحيين مستغلاً ظهور الزيدية، ففي سنة 464هـ/ 1072م توجه السلطان محمد بن ورقاء من بني جناح من (يناع) إلى مسور معلناً تأييده للزيدية، ويطلب منهم مناصرته للاستيلاء على (حصن يناع) فكان ذلك فرصة للزيدية أن يصبح لها تواجد في تلك المنطقة فوافقت على ذلك، ولما عاد السلطان محمد بن ورقاء إلى بلاده، تمكن من طلوع (حصن يناع) وأنزل من مكان به من خدم بني عمه السلطان أبي الحسين بن جناح الموالي للصليحيين، ثم كتب إلى ذي الشرفين يطلب سرعة نجدته، فأرسل له حمدان بن القاسم، فسار إلى الحيمة، ولما وصله علم أن بني الصليحي قدموا من صنعاء إلى يفاعة، كما علم أن محمد بن ورقاء نزل من الحصن وأصبح الحصن خالياً من الفرقتين، لذلك وقف حميدان مكانه يستطلع الأخبار[1].

وفي غضون ذلك طلعت جماعة مؤيدة للزيدية جبل حضور (النبي شعيب) فاستولوا عليه فأدرك الصليحيون أنهم غير قادرين على مقاومة الزيدية وقبائل المنطقة فأرادوا العودة إلى صنعاء، وأثناء انسحابهم هجم عليهم بعض أهل حضور، كما نزل من في جبل النبي شعيب فقاتلوا بني الصليحي حتى هزموهم وقتلوا الكثير منهم، فضلاً عن غنيمتهم للكثير من أموالهم[2].

وبعد مضي سنتين من سيطرة الزعامات القبلية المناصرة للزيدية على (حصن يناع) حاول الصليحيون بقيادة المكرم سنة 466هـ/ 1073م الذهاب نحو (يناع) لاسترجاعها من الزيدية، فساروا حتى وصلوا (عرذيب) فعسكروا بها، ومنها ذهبت جماعة منهم للسيطرة على جبل (النبي شعيب) كذلك حرضوا قبائل حراز للقتال معهم، فخرج أهل حراز حتى وصلوا وادي شم، فالتقت بهم جماعة من أنصار الزيدية فقاتلوهم في (شم) حتى انتصرت الزيدية عليهم[3]. وآنذاك لم تهمل زعامات الزيدية من مناصرة الزعامات القبلية الموالية لها في (يناع) بل أسرع ذو الشرفين في التوجه إليها لخوفه من تمكن الصليحيين من استعادتها، فسار إليهم في شهر رجب سنة 466هـ/ مارس 1074م بجمع كبير من قواته، تمكن من دخول

(1) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 220، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 265، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 262، عصام الدين، اليمن في ظل الإسلام، ص: 185، يناع/ حصن منيع في عزله الجدعان بالحيمة الداخلية، المقحفي، ص: 707.

(2) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 220، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 265، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 262.

(3) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 225، يحيى بن الحسين: غاية الأماني: 1/ 266، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 263.

الحصن قبل بني الصليحي، ولكنه لم يبق في الحصن غير سبعة أشهر، انتهت بتمرد أهل يناع عليه، ونزوله منه[1].

السيطرة على شمال صنعاء: شعر الصليحيون بالضعف أمام التجمعات القبلية مع الزيدية ضدهم، من ذلك عبد اللّه بن محمد اللهابي وهو أحد قادة السلطان أحمد بن مظفر، وكان متولياً من قبله على حصن (ذروة) قرب ذيبين، وعندما علم باستيلاء الزيدية على (يناع) خاف على نفسه منهم فنزل من حصنه سنة 464هـ/ 1071م متجهاً نحو صنعاء، فلما وصل منطقة الصيد (البون) اشتبكت معه جماعة من أهلها ممن كانوا مناصرين للزيدية، فقاتلوه قتالاً شديداً حتى قتلوا الكثير من رجاله، أما هو فقد خلص بنفسه وهرب منهم[2]. ولما علمت الزيدية بنزوله من الحصن، توجهوا إليه بقوات كثيرة، فحاصروا من بقي به من الصليحيين، ثم اقتحموا الحصن بالقوة وسيطروا عليه[3].

لذلك أظهرت القبائل استعدادها لمناصرة الزيدية ضد الصليحيين، ففي سنة 465هـ/ 1072م طلبت قبائل (زجان) من الشريف الفاضل عندما كان معسكراً في (مدار) أن يساعدهم على السيطرة على حصن (ذمرمر) قرب صنعاء، وإخراج بني الصليحي منه، فأرسل معهم جماعة من أصحابه، فساروا نحو الحصن فسيطروا عليه، وأخذوا من به من الصليحيين أسرى، ثم تولى الحصن رجل من الشيعة الموالين للزيدية اسمه سبأ بن شمر من جنب[4] بذلك أصبحت الزيدية تشكل خطراً على صنعاء عاصمة الصليحيين.

السيطرة على شمال غرب صنعاء: حاولت الزيدية التوسع في الاستيلاء على حصون شمال غرب صنعاء، إما بقواتها أو عن طريق تحريض القبائل ضد الصليحيين، ومساعدتها على الاستيلاء على حصونها منهم. فلما كان ذو الشرفين في الطويلة، توجهت قواته نحو حصن (يريم بالرجم) فاستولوا عليه بالقوة بعد حصار دام شهرين، انتهى بقتل الكثير ممن كانوا في الحصن وأسر الباقين[5].

ومن جهة الزعامات القبلية فقد استمرت في إعلان موالاتها للزيدية،

---

(1) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 230.

(2) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 220، 221.

(3) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 221، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 265، 266 (ذمرمر) حصن بالشمال الشرقي من صنعاء بمسافة 8 كيلو متر، المقحفي، ص: 255.

(4) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 224 (الرجم) ناحية من الطويلة، المقحفي، ص: 263.

(5) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 222.

والاستعانة بهم من أجل السيطرة على حصونها، ففي سنة 465هـ/ 1072م وصل مشايخ (حضور) قرب (ثلاء) إلى ذي الشرفين إلى الطويلة، يطلبون مساعدته للاستيلاء على حصن (حضور المصانع) فأرسل منهم جماعة من أصحابه تمكنوا من السيطرة عليه[1].

كذلك وصل إلى ذي الشرفين سنة 465هـ/ 1072م إلى (عُر براود) جماعة من الحميريين، يطلبون منه مساعدتهم على السيطرة على حصن (بكر) فأرسل معهم جماعة من رجاله ساعدوهم على السيطرة عليه[2].

كما وصل إلى ذي الشرفين إلى (عرّ عستن) مشايخ الأعدار، سنة 465هـ/ 1072م يطلبون منه إرسال بعض أنصاره للسيطرة على حصن (القُرَانع) فأرسل معهم الحسن بن علي العلوي التهامي والياً على الحصن[3].

كذلك استغل أهل (ثُلاء) فرصة وجود الشريف الفاضل في (شوابة) سنة 465هـ/ 1072م فاتجهت إليه جماعة منهم طالبين منه إمدادهم بالجند للسيطرة على حصن ثلاء لخوفهم من سبق الصليحيين الاستيلاء عليه، فأرسل معهم جماعة من أنصاره بقيادة الشيخ محمد بن كليب الحدي، تمكنوا من طلوع الحصن قبل بني الصليحي، وآنذاك حاول المكرم وعامر الزواحي محاصرة حصن (ثلاء) ومراسلة من في الحصن من أنصارهما ولكن أنصار الزيدية ألقت القبض عليهم وسجنتهم، واستمرت القبائل والزيدية ترسل الإمدادات لمناصرة أهل ثلاء، فلما تعذر على المكرم والزواحي الاستيلاء على حصن (ثلاء) دون الخوض بحرب طويلة معهم. فضّلا الانسحاب وتركا القبائل والزيدية تسيطر على الحصن[4].

ومن الملاحظ أن المكرم والصليحيين تركوا الدخول في صراع مع القوى القبلية المستعينة بالزيدية في شمال وشمال غرب صنعاء، والتي ظهرت لتصارع قوى قبلية أخرى، حول تولي حصون مناطقها، رغم تمركز عامر الزواحي في شبام كوكبان قريباً من تلك الحصون التي استولت عليها القوى القبلية، ورغم خروج

---

(1) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 221، 222 (حضور المصانع) هو حضور الشيخ جبل شامخ في القرب الشمالي من صنعاء مطل على مدينة ثلا، المقحفي، ص: 180.

(2) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 222 (بكر) حصن يحاذي كوكبان ويطل على مركز الطويلة، المقحفي، ص: 83.

(3) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 222 (القرانع) حصن يطل على مدينة الطويلة، المقحفي، ص: 511.

(4) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 223، 224 (ثلا) على بعد 45 كيلو متراً من صنعاء بالشمال الغربي، المقحفي، ص: 99 قرب شبام كوكبان.

المكرم بقواته إلى شهارة ثم انسحابه منها، وذلك تجنباً من الدخول في صراع قبلي لا تستفيد منه الدولة الصليحية مالياً وعسكرياً.

هجوم الزيدية على صنعاء من الغرب والشمال: في الوقت الذي كان الصليحيون فيه يريدون استعادة حصن (يناع) سنة 466هـ/ 1073م حاولت الزيدية فتح جبهة على بني الصليحي من جهة شمال صنعاء، وذلك بهدف تخفيف هجوم بني الصليحي على (يناع) فقد نزل الشريف الفاضل من (مسور) وسار نحو (ثلاء) فجمع الكثير من أنصاره الشيعة والهمدانيين والبكيليين، وسار بهم حتى نزل في سهل (علمان) قرب صنعاء، وشن الغارات على الصليحيين، فوصلت غاراته إلى (الجراف) وإلى مزارع (شعوب) فخاف منه أهل صنعاء فأغلقوا أبوابهم، ثم توجه الشريف الفاضل نحو حصن (ذمرمر) في شهر رمضان سنة 466هـ/ 1074م. ومنه شن الغارات المتعددة على صنعاء حتى وصلت غاراته أبواب صنعاء[1].

وفي نفس الوقت الذي كانت الزيدية فيه تهاجم شمال صنعاء، حاولوا تشديد القتال على الصليحيين من جهة غرب صنعاء، فعمل ذو الشرفين على مكاتبة بني شهاب لمناصرته، فاستجابوا له، إلا أنه لم يثق بهم، فتركوا عنده ستة رهائن من سلاطينهم دليلاً على التزامهم بمناصرته، ثم ساروا إلى (بيت يرام) في بني مطر في شعبان سنة 466هـ/ أبريل 1074م. وفيها اتفقوا على تقسيم جمعهم ذلك إلى ثلاث فرق، فرقة تذهب إلى (قرن عنتر) وفرقة تذهب إلى (فيفان) أما الفرقة الثالثة فتبقى في (بيت يرام) ومن جهة الصليحيين فقد حاولوا الاتجاه نحو (قرن عنتر) فحاصروه، وأرادوا طلوع الحصن والاستيلاء عليه بالقوة، فدارت معركة كبيرة بين الطرفين، انتهت بهزيمة الصليحيين وانسحابهم نحو صنعاء، فلحقت بهم أنصار الزيدية تطاردهم حتى وصلوا إلى نقيل (حدة) قرب صنعاء كذلك استمر ذو الشرفين يشن الغارات المتعددة على الصليحيين من تلك الجهة حتى وصلت غاراته إلى غيل البرمكي بصنعاء[2]، والواقع أن هذا الهجوم المركز على صنعاء من قبل الزيدية والقبائل المناصرة لها، جعلت الصليحيين يفكرون في نقل عاصمتهم من صنعاء إلى ذي جبلة كما سيتضح فيما بعد.

انتهاء الزيدية: على أن العلاقة الطيبة التي قامت بين الدولة الزيدية والقبائل لم تظل مستمرة على ذلك، فمثلما كانت الزعامات القبلية هي العامل المساعد

---

(1) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 231، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، ص: 266، 267، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 263.

(2) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 236، 237.

لمناصرة الزيدية، فقد كانت عاملاً مساعداً على انتهاء سلطانها على الكثير من المناطق اليمنية، فقد تخلت القبائل عن مناصرة الزيدية فجأة، بل واتجهت لمحاربتهم، فمن جهة عشائر مغارب اليمن، فقد كان (فسادهم بسبب العمال واستلحاق الأموال وسوء السياسة)[1]. وقد قاموا بمراسلة جميع العشائر من جميع البلدان على التعاون والتآمر معهم على الفساد ضد الزيدية، فاستجابوا لهم، أما من جهة عشائر أهل المشرق فقد استمالهم بنو الصليحي بالأموال. ولما شعر ذو الشرفين بتمرد القبائل ضدهم، عمل على النزول من حصن (يناع) الذي كان متمركزاً فيه، فخاف أن يصطدم بالمفسدين أثناء سيره في الطريق، فكتب إلى أخيه الشريف الفاضل يطلب إمداده بالجند، فأرسل إليه جماعة كبيرة من قادته وجنده، وبعد أن وصلوا إليه إلى (يناع) خرجوا مع ذي الشرفين في شهر محرم سنة 467هـ/ أغسطس 1074م، وساروا عبر طريق (سهمان) في بني مطر، حتى وصلوا إلى قرية (حضور المصانع) حيث التقوا بها بالشريف الفاضل، ومنها صعدوا حصن (ثلاء)[2]. وبذلك انتهت سيطرة الزيدية عن غرب صنعاء دون أن يبذل الصليحيون أي مجهود في ذلك.

وفي الوقت الذي كان الشريف الفاضل فيه وأخوه في ثلاء. وصل إليه مشايخ (مسور) بحجة، يخبرونه بخلاف أهل (مسور) عنه ففضَّل الذهاب لقتالهم بدلاً من قتال الصليحيين، وسار بجيشه إلى حصن مسور ثم توجه لقتال من بحوله من المفسدين عليه، فلما وصل إلى (المَشْوَرَة) قاتله أهلها قتالاً شديداً أسفر عن هزيمة الزيدية وقتل الكثير منهم، وانسحاب الشريف الفاضل إلى (أقر) في شهارة[3]، بعد ذلك أيقنت الزيدية عدم مقدرتها على محاربة القبائل مع الصليحيين، لأن القبائل كانوا يمثلون الدعامة الأساسية لقوة الزيدية، ولذلك تخلى قادة الزيدية وشرفائهم وسلاطينهم عما كان بأيدهم من الحصون فنزلوا منها وساروا إلى مقرهم الأساسي في شهارة، وآنذاك فضَّل الشريف الفاضل التخلي عن السياسة والحرب نهائياً والاتجاه إلى الزراعة[4]. وقد علل يحيى بن الحسين تخلي الشريف الفاضل وأخيه ذي الشرفين عن الحرب بقوله: (وأعرضا عن الحرب لما كثرت عليهما مواد الأجناد، ورأوا تغير أحوال الرعية)[5].

نهاية الشريف الفاضل: وعلى أثر تمرد القبائل ضد الزيدية، فضَّل الشريف

(1) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 237، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 265.
(2) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 238، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 265.
(3) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 238 ـ 240، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 266.
(4) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 242، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 266.
(5) يحيى بن الحسين: غاية الأماني ، ص: 1/ 267.

التخلي عن الحرب والاتجاه إلى الزراعة، فتوجه إلى ضيعة (عمران) بالجوف وعمل على إعادة غيل الخارد إلى مجراه القديم الذي كان يمر بهذه الضيعة، وقسَّم المزارعة ثلاثة أقسام، قسم لبني نهم، وقسم لبني الدعام، والقسم الثالث له ولصنوه ذي الشرفين[1]، وبدأ العمل على عمارة الساقية والدرب وداراً له، إلا أن هذا التقسيم لم يقتنع به بنو نهم، وبدلاً من اتجاههم إلى مطالبة الشريف الفاضل بإعادة التقسيم، اتجهوا إلى التخلص منه، فأثناء ما كان العمل جارياً على إصلاح الدرب والساقية، استغل الرافضون لهذا التقسيم نزول الشريف الفاضل ليستحم في الغيل، فهجموا عليه وقتلوه، ونهبوا ما كان معه من السلاح[2]، وكان قتله في ذي الحجة سنة 468هـ/ 1076م[3]. وبذلك انتهت أهم شخصية زيدية قاومت المكرم.

حاول ذو الشرفين الثأر لأخيه الشريف الفاضل ففي سنة 469هـ/ 1076م كتب إلى جميع القبائل القدوم لمناصرته بأخذ الثأر، فقدم إليه جمع كبير من القبائل سار بهم نحو (الجوف) فقاتلهم قتالاً شديداً حتى تمكن من قتل الكثير منهم وأخذ الثأر لأخيه، ثم عاد إلى شهارة[4].

موت ذي الشرفين: ظل ذو الشرفين في (شهارة)، وقد حاول العديد من المرات استعادة مكانة الزيدية السياسية والعسكرية ولكنه لم يتمكن من ذلك، ثم داهمه المرض سنة 473هـ/ 1080م وظل المرض يعاوده مراراً حتى داهمه للمرة الأخيرة سنة 478هـ/ 1085م فمات منه وذلك في المحرم من سنة 478هـ/ أبريل 1085م[5].

نخلص مما تقدم إلى أن المكرم اهتم بمحاربة الزعامات القبلية في اليمن الأعلى خلال عامي 460هـ/ 461هـ مثل (ذيبان) شمال صنعاء، وحمير مغارب صنعاء، وهي القبائل التي أغرتها الزيدية على الخروج ضد المكرم، ونشرت فيها فكرة المهدي المنتظر، كما اهتم بمحاربة زعامات اليمن الأسفل، مثل بني التبعي والكلالي، وابن وائل الوحاظي ويحصب ورعين وعنس وهي القبائل التي حرضها بنو نجاح لرفض طاعة المكرم، وقد تمكن من الانتصار على هذه القبائل التي حاربها وإعادتها إلى الخضوع لسلطانه، كذلك اهتم باستخلاص أمه من الأسر من

(1) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 243.
(2) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 246.
(3) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 268، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 266، 267، الكبسي: اللطائف، ص: 73، الواسعي: تاريخ اليمن، ص: 185.
(4) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 246 ـ 256، الكبسي: اللطائف، ص: 37.
(5) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 279، 280، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 270، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 269، الكبسي: اللطائف، ص: 38.

زبيد، والثأر لأبيه والصليحيين من سعيد الأحول، وإعادة سيطرة الدولة الصليحية على تهامة، وإنهاء الدولة النجاحية منها.

أما بالنسبة لصراع بني المنتاب وبني شاور في مسور حجة سنة 464هـ/ 1071م حول السيطرة عليها، وميل بني المنتاب للزيدية، وتوسعهم في السيطرة على المناطق المجاورة لها، فإن المكرم لم يتدخل بهذا الصراع، على اعتبار أنه صراع قبلي ترك أمره إلى قبائل المنطقة نفسها. كما كان ذلك موقف المكرم تجاه صراع بني جناح حول السيطرة على حصن (يناع) بالحيمة سنة 464هـ/ 1071م ففي البداية لم يتدخل في ذلك الصراع، ولكن عاد إلى التدخل في هذا الصراع سنة 466هـ/ 1073م فحاول استعادة هذا الحصن لقربه من صنعاء، إلا أنه فشل في استعادته. ولنفس السبب السابق وهو عدم دخول المكرم في الصراع القبلي فقد توقف عن الدخول في الصراع مع الزيدية والقبائل المناصرة في توسعهم في شمال غرب صنعاء سنة 465هـ/ 1072م.

والذي يبدو أن المكرم ترك الدخول في الصراع مع قبائل اليمن الأعلى الموالية للزيدية، لأن القبائل كانت دائمة الخروج والعصيان، وهذا يكلف المكرم ودولته الكثير من الإنفاق يفوق مقدرة تلك المناطق المالية، كما أن الحاميات التي تركها المكرم في حصون اليمن الأعلى المتعددة لم تكن قادرة على الاستمرار في القتال بعددها القليل. لذلك ترك الصليحيون الدخول في صراع قبلي في تلك المناطق، لعدم جدوى ذلك الصراع.

والواقع أن الدولة الصليحية عندما عملت على عدم الدخول في صراع مع القبائل المناصرة للزيدية في عهد المكرم، جعلت هذه القبائل والزيدية يتوسعون كثيراً نحو مدينة صنعاء لإسقاطها، فهاجموها من أطرافها الشمالية الغربية سنة 466هـ/ 1073م كادت تسقط في أيديهم. إلا أن هذا التحالف القبلي مع الزيدية لم يدم، فقد أحجمت القبائل عن مناصرتهم للزيدية بل اتجهوا لمحاربتهم، مما أدى إلى نهاية السيطرة الزيدية على الكثير من مناطق اليمن الأعلى.

ألقاب المكرم: بعد الانتصار الذي حققه المكرم على النجاحيين، منحه الخليفة المتنصر الفاطمي عدة ألقاب إضافية إلى ألقابه السابقة التي منحت له منذ توليه ولاية العهد. وهذه الألقاب هي الآتي: (الأجل، الأوحد، المنصور، العادل، المكرم، عمدة الخلافة، تاج الدولة، سيف الإمام، المظفر في الدين، نظام المؤمنين، عماد الملة وغياث الأمة، شرف الإيمان، مؤيد الإسلام، عظيم العرب، سلطان أمير المؤمنين وعميد جيوشه أبي الحسن أحمد بن

الأجل)[1]. ومن الملاحظ أن المكرم ورث عدة ألقاب من أبيه مثل عمدة الخلافة، تاج الدولة، نظام المؤمنين. كما أن هذه الألقاب وردت جميعها منذ سنة 461هـ وما تلاها من سنوات سجلات المراسلة له من الخلافة الفاطمية سنة 468هـ وسنة 476هـ[2].

المكرم وبنو معن: كان تخلي قبائل اليمن الأعلى عن خروجها ضد المكرم، وتخليها عن مناصرتها للزيدية في مطلع عام 466هـ/ 1074م فرصة للمكرم أن يتوجه إلى عدن لإعادتها لسلطانه، وكان بنو معن قد استقلوا بها منذ قتل علي الصليحي سنة 459هـ. ولم يتمكن المكرم من الاتجاه إليهم، بسبب محاربته لبني نجاح والزيدية مع قبائل اليمن الأعلى. فلما هدأت الحروب المعادية للمكرم، توجه إلى عدن وكان ذلك في شعبان سنة 467هـ/ مارس 1075م ولما قارب الوصول إليها خاف منه حاكمها محمد بن معن، فهرب منها أواخر شعبان من نفس تلك السنة، واتجه نحو (أحور) فأتاح ذلك فرصة للمكرم أن يستولي على عدن ولحج وأبين وسبأ صهيب وجميع قرى ما بين عدن، والفرضة (الميناء)[3].

وآنذاك رأى محمد بن معن أنه لا يمكن له أن يقاوم المكرم وأن يبقى خارجاً عن سلطانه لذلك فكّر في الاتجاه إلى المكرم لمصالحته، ورأى المكرم من جهته أنه لا بد من الاستعانة ببني معن وإنهاء حربه معهم، فصالحهم، بعد هذه المصالحة، استقر محمد بن معن في أبين. وكما يبدو أن المصالحة كانت تهدف أن تقسم مالية عدن أو الضرائب المفروضة على التجارة، بين الطرفين. لذلك ترك المكرم فيها القاضي حاتم بن الغشيم اليامي نائباً له، كما ترك محمد بن معن ابن الدهاني نائباً له بها[4].

استمرت هذه المصالحة سنة وأربعة أشهر ثم نقضت، وذلك كما يبدو بسبب قتل حاتم بن الغشيم اليامي لابن الدهاني في ذي الحجة من سنة 468هـ/ يوليو 1075م مما جعل محمد بن معن يتجه للسيطرة على عدن، فأدى ذلك إلى إساءة العلاقات بينه وبين المكرم. اضطر المكرم أن يتجه إلى عدن للمرة الثانية في نفس الشهر وهو ذي الحجة من سنة 468هـ/ يوليو 1075م، فاستولى عليها وعلى أبين ولحج. وبالرغم من ذلك فقد عاد بنو معن مرة أخرى إليها فصالحهم المكرم في

(1) السجلات المستنصرية، ص: 140، 143، 206.

(2) السجلات المستنصرية، ص: 140، 143، 206. انظر حسن إبراهيم: الدولة الفاطمية، ص: 243.

(3) روضة الجحوري، ورقة 485، عمارة: تاريخ اليمن، ص: 173 هامش.

(4) روضة الجحوري، ورقة 485، عمارة: تاريخ اليمن، ص: 173 هامش.

نفس السنة، على أن يتركوا للمكرم باب عدن ونصف قوانينه (أي نصف مالية ضرائب ميناء عدن) علاوة على تركهم له مناطق العارة ولحج وأبين. وفي هذه المرة ترك المكرم بنو زريع حكاماً على عدن، يجمعون الأموال ويقسمونها بين المكرم وبني معن. أما محمد بن معن فقد استقر في منطقة (أحور) وهي المنطقة التي هرب إليها في المرة الأولى والثانية مع المعنيين والعامريين وأهل أبين. وظل مقيماً لمدة خمس سنوات من أواخر سنة 468هـ حتى سنة 473هـ، ثم عاد مع من كان معه إلى أبين واستقر بها إلى أن تجدد القتال بينه وبين أنصار المكرم في سنة 478هـ/ 1085م، فوقعت بينهما معركتان بخنفر (أبين) المعركة الأولى وقعت في شهر صفر من سنة 478هـ/ مايو 1085م، والمعركة الثانية في شهر جمادى الآخرة سنة 478هـ/ يوليو 1085م كان النصر فيهما حليف الصليحيين[1].

انتقال عاصمة المكرم إلى ذي جبلة: نتيجة استمرار قتال الزيدية مع قبائل اليمن الأعلى ضد المكرم، ومحاولتهم شن الغارات المتعددة على صنعاء، فكّر المكرم وزوجته السيدة الحرة أروى في نقل عاصمتها من صنعاء المهددة بالسقوط والحروب المستمرة، إلى منطقة أكثر أمناً وهدوءاً فاختاروا ذي جبلة وكانت الفرصة مناسبة للصليحيين للانتقال منها عندما امتنعت القبائل مناصرتها للزيدية، مما جعل الزيدية نفسها تعتزل محاربة المكرم سنة 467هـ/ 1074م هذا بينما توفت الحرة أسماء بنت شهاب الصليحية في نفس سنة 467هـ/ 1074م[2].

وقد بذلت السيدة الحرة دوراً كبيراً في اختيار هذا المكان فأوردت المصادر قصة هذا الانتقال. إذ جاء فيها أن السيدة كانت قد نزلت إلى ذي جبلة فأعجبت بها وبطباع أهلها، وقررت اتخاذها عاصمة لها، فلما عادت إلى صنعاء (قالت للمكرم أرسل يا مولانا على أهل صنعاء فليحتشدوا في غد ليحضروا إلى هذا الميدان فلما حضروا قالت له أشرف عليهم وانظر ماذا ترى فلم يقع طرفه إلا على بروق السيوف ولمع البيض والأسنة).

ولما توجهت إلى ذي جبلة قالت له: احشد أهل ذي جبلة ومن حولها فلما تجمعوا صبيحة اليوم الثاني قالت: (أشرف يا مولانا وانظر فلم يقع طرفه إلا على رجل يجرُ كبشاً ويحمل ظرفاً مملوءاً بالسمن فقالت: العيش بين هؤلاء أصلح[3] (لأن ذلك

(1) روضة الجحوري، ورقة 485، 486، عمارة: تاريخ اليمن، ص 173 هامش.

(2) العرشي: بلوغ المرام، ص: 26، الواسعي: تاريخ اليمن، ص: 173، الهمداني: الصليحيون، ص: 135.

(3) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 139، الخزرجي: العسجد، ص: 62، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 263، الهمداني: الصليحيون، ص: 136.

أقر للمملكة وثبوت قواعدها، وأسهل جانباً في مصادر الأمور ومواردها، وهي متوسطة بين اليمن الأعلى والأسفل، وبها يخصب العيش ويطيب المحل)[1].

ويتبين مما سبق أن كثرة الحروب في صنعاء وما حولها، جعلت المكرم وزوجته السيدة الحرة يفكران في الانتقال منها إلى ذي جبلة، لميل أهلها إلى المسالمة والاستقرار والطاعة. فضلاً عن تميز ذي جبلة بالخصب والنماء. ولما انتقلت السيدة الحرة إليها أمرت ببناء الدار الأولى مسجداً جامعاً وهو المسجد الجامع الثاني، أما المكرم فقد بنى بها داراً أخرى سميت بدار العز الكبيرة[2] هذا بينما بنى دار العز الأولى عبد اللّه الصليحي سنة 458هـ/ حين اختط ذي جبلة[3].

إصدار العملة: بعد أن تمكن المكرم من إعادة نفوذه على عدن وتوابعها وانتقاله إلى ذي جبلة بعد موت السيدة أسماء، وانتهاء مقاومة الزيدية والقبائل له في اليمن الأعلى، امتد حكمه على اليمن كله، فأصدر عملة نقدية في سنة 467هـ ثم في سنة 477هـ/ 1084م. سمّيت بالدينار الملكي نسبة إلى الملك المكرم، وقد كتب على هذه العملة العبارة الآتية:

1 ـ على الوجه الأول: لا إلٰه إلا اللّه محمد رسول اللّه عليٌّ ولي اللّه.

2 ـ على الوجه الثاني: الملك السيد المكرم عظيم العرب سلطان أمير المؤمنين[4].

وهذه العبارة تدل على أن المكرم أصبح الحاكم الوحيد في اليمن وتدل أيضاً على استمرار موالاته للشيعة الإسماعيلية الفاطمية.

الولاة: وَلَّى المكرم أهم قواده على المدن والحصون الهامة، وجعل ما حول هذه المدن والحصون من مناطق تابعة له. وكمثال لتولية المكرم وتوزيع الأقاليم في عهده، فقد تولى صنعاء وما حولها أحمد بن المظفر الصليحي، ولما نزل المكرم إلى تهامة وَلَّى عليها إسماعيل بن أبي يعفر، وبعد موت هذا الوالي عادت ولاية صنعاء لأحمد بن المظفر، وكان الكثير من حصون شمال صنعاء تابعة له مثل (ذمرمر) و(ذروة) حيث كان متولياً عليها السلطان عبد اللّه بن محمد اللهابي، الذي

---

(1) الهمداني: الصليحيون، ص: 136، نقلاً عن عيون الأخبار، 7/ 122.

(2) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 142، الخزرجي: العسجد، ص: 62، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 262، يوضح عمارة أن دار العز الكبيرة بناها المكرم سنة 480هـ، وهذا خطأ إذ أن المكرم مات سنة 477هـ. والصحيح أنه بناها فيما بين سنة 468هـ وسنة 470هـ.

(3) عمارة ك كاي، ص: 225، هامش 3.

(4) عمارة: تاريخ اليمن، هامش رقم 3 نقلاً عن مخطوطة، عمارة رقم (ط).

كان أحد كفاة السلطان أحمد بن المظفر، كما كان السلطان أحمد بن أسعد اللهابي متولياً على حضور وتابعاً لوالي صنعاء[1].

أما عامر بن سليمان الزواحي فقد كان متولياً على مغارب صنعاء، ومركزه شبام كوكبان، وكانت أغلب مناطق حجة والمحويت والطويلة وثلاء وما حول شبام من مناطق وحصون تابعة له، فحصن (حُفاش) كان متولياً عليه السلطان محمد بن إبراهيم الصليحي[2]. ولما قتل عامر الزواحي تولى أعماله ابنه سليمان بن عامر وهو أخو السيدة الحرة من أمها.

بينما وَلَّى المكرم على تهامة مالك بن شهاب الصليحي، وكان مركزه مدينة (زبيد) وَوَلَّى على (المهجم) محمد بن مالك وعلى (الهجر) علي بن مالك وجعلهما تابعين لأبيهما في زبيد[3].

كذلك ولى المكرم أسعد بن عبد اللّه الصليحي على حصن التعكر في ذي جبلة خلفاً لأبيه، وجعل المُذَيْخِرَة وإب والجند (تعز) والمعافر تابعة له، كما وَلَّى على يحصب ورعين وعنس عبد اللّه بن إسماعيل الصليحي خلفاً لأبيه، وجعل ذمار ويريم وعنس ورداع تابعة له، فولّى إلى جانبه على (هران) حماد بن منيع بن كديس الصليحي[4]. أما عدن وأبين ولحج وحضرموت والشحر فقد كانت تابعة لبني معن في عدن، ثم ولاها المكرم بني زريع.

على أن هؤلاء الولاة لم يظلوا ثابتين في أماكن ولاياتهم فقد تولى أعمالهم آخرون، فعندما انتقل المكرم إلى ذي جبلة ولّى على صنعاء عمران بن المفضل اليامي، وجعل إلى جانبه أبو السعود بن شهاب[5] وكما يظهر أن هذه التولية بعد موت أحمد بن المظفر. أما حصن التعكر في ذي جبلة، فقد وَلَّى عليه أبا البركات بن الوليد الحميدي، ووَلَّى أخاه أبا الفتوح الحميري حصن تعز، بينما وَلَّى أسعد بن عبد اللّه الصليحي ولاية (ريمة) عوضاً عن حصن التعكر[6]. كذلك وَلَّى على حصن أشيح سبأ بن أحمد الصليحي.

نهاية المكرم: اختلف المؤرخون حول السنة التي مات فيها المكرم، فعمارة

(1) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 265.
(2) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 264.
(3) الهمداني: الصليحيون، ص: 132، عمارة كاي، ص: 226.
(4) مجهول: سيرة المكرم، ص: 89.
(5) الهمداني: الصليحيون، ص: 137.
(6) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 269.

يذكر أنه مات سنة 484هـ/ 1091م[1] بينما يذكر ابن سمرة أنه مات سنة 479هـ/ 1086م أو سنة 480هـ/ 1087م[2] في حين أن إدريس يذكر أنه مات في شهر جمادى الأولى من سنة 477هـ/ 1084م[3]. ويؤيد هذا الرأي الأخير السجلات المستنصرية، فقد كتب المستنصر سجلاً في شهر ربيع إلى السيدة الحرة أروى وإلى ولدها علي بن المكرم يقلده ما كان متقلداً له من الدعوة الهادية والأحكام والمظالم في سائر أعمال اليمن[4].

وعلى ذلك فوفاة المكرم كانت سنة 477هـ/ 1084م. ولما قارب المكرم أجله أوصى برئاسة الدعوة الإسماعيلية إلى الأمير سبأ بن أحمد الصليحي[5] وهي وظيفة لا تتقلدها امرأة في نظر بعض المؤرخين، أما السلطة الزمنية في حكم الدولة الصليحية في اليمن، فقد تولتها السيدة الحرة أروى وأيدتها الخلافة الفاطمية[6] وهكذا كان حكم المكرم لليمن ونهايته.

الخاتمة: بالرغم من حداثة سن المكرم حين تولّى أمر الدولة الصليحية، إلا أنه أبرز كفاءة عالية في إدارة شؤون الدولة فقد كانت أغلب قبائل اليمن أعلنت العصيان ضده مما جعل دولته تصبح وشيكة السقوط، ولكنه ناضل من أجل أن لا تسقط دولته حتى تمكن من القضاء على ذلك العصيان وإعادة القبائل اليمنية إلى طاعته، وتخليص أمه من الأسر والثأر لأبيه من سعيد الأحول. وذلك بفضل وقوف جماعة من قادة الدولة الصليحية بجانبه، مثل عامر الزواحي وأحمد بن المظفر الصليحي، وإسماعيل بن أبي يعفر وغيرهم. فقد بذل هؤلاء القادة جهوداً كبيرة في انتصار المكرم والمحافظة على دولته من السقوط، وذلك عن طريق اشتراكهم في القضاء على زعامات اليمن القبلية التي حاولت الاستقلال عن سلطان المكرم.. كما ساهم هؤلاء القادة في إعادة توحيد اليمن مرة أخرى تحت حكم المكرم.

ويعتبر المكرم من الشخصيات القوية التي جعلت الدولة الصليحية متماسكة، فقد التف حوله جميع قادة الدولة الصليحية مع جميع أنصارهم الإسماعيلية. فناصروا المكرم على مخاليفه حتى انتصروا عليهم وألزموهم لطاعته. ولم يحدث

---

(1) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 146.
(2) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 122.
(3) الهمداني: الصليحيون، ص: 141، عمارة كاي، ص: 227 ـ 228، هـ، نقلاً عن إدريس ج 7.
(4) السجلات المستنصرية، ص: 158.
(5) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 146.
(6) عمارة كاي، ص: 288، أحمد شرف الدين: اليمن عبر التاريخ، ص: 201، حسن محمود: تاريخ اليمن، ص: 288، أمين صالح: العلاقة، ص: 67.

في عهده أن وجد خلاف في صفوف الدولة الصليحية. مما سهّل على المكرم من إعادة توحيد اليمن تحت سلطانه.

ومن الملاحظ أن المكرم استخدم أسلوباً مغايراً لأبيه في التعامل مع قبائل اليمن، فهو لم يعمل على أخذ الرهائن من الزعامات القبلية، وربما يعود ذلك إلى محاولته كسب رضا القبائل اليمنية، وإعطائهم فرصة التخلي عن عداوتها للدولة الصليحية، كما يعود إلى إعطاء هذه القبائل الثقة بالتعامل مع الدولة الصليحية دون اللجوء إلى أخذ ضمانات منهم، مثل الرهائن وغيره. ولذلك ترك المكرم وقاداته الدخول في صراع مع الزعامات القبلية لليمن الأعلى حين حدث صراع قبلي بين قبائلها حول الموالاة للصليحيين فترك مناصرة أنصاره وذلك تجنباً لزيادة حدة الصراع القبلي. وجعل للقبائل حرية الاختيار في تحديد تبعيتها، فأدت هذه السياسة إلى عودة القبائل بنفسها إلى طاعة الدولة الصليحية دون أن يبذل المكرم أي مجهود حربي في ذلك، وذلك بسبب عدم مقدرة الزيدية المالية في المحافظة على مناطق نفوذهم.

وعلى الرغم من أن المكرم بذل مجهوداً كبيراً في محاربة القبائل والنجاحيين حتى ألزمهم لطاعته واستخدم الشدة والقسوة في قتالهم. إلا أنه كان يميل إلى المسالمة فقد ترك محاربة قبائل اليمن الأعلى في هجومهم على صنعاء من غربها وشمالها حتى كادت تسقط في أيديهم فلم يتشدد في قتالهم، وذلك يعود إلى موت أغلب قواده مثل إسماعيل بن أبي يعفر، وأحمد بن المظفر، وعامر الزواحي، فضلاً عن إصابة المكرم بالفالج وهو ارتعاشة يديه وبشرة وجهه كما يعود إلى اتجاهه إلى المسالمة وترك الحرب، ولذلك اتجه إلى ذي جبلة وجعلها عاصمة له بدلاً عن صنعاء وذلك لميل أهل ذي جبلة إلى الطاعة والمسالمة، وذلك ما يدل على أن المكرم كره استخدام الحرب ومال إلى الاستقرار والمسالمة، وهكذا كانت إدارة المكرم للدولة الصليحية.

السيدة الحرة أروى الصليحية

تميزت فترة حكم الدولة الصليحية في اليمن بظهور أهم شخصية نسائية تتولى الأمور السياسية للدولة. هي الحرة الملكة السيدة أروى بنت أحمد الصليحية، التي حكمت اليمن لفترة طويلة تقدر بخمس وخمسين سنة. وهي الفترة التي تمتد من سنة 477هـ/ 1084م حتى سنة 532هـ/ 1138م. إذ أنها تعمرت 92 سنة. وكان ذلك الحكم بفضل ما امتازت به من عقلية ذكية وحكمة عالية. وما كسبته من علم ومعرفة. أعطاها ذلك شخصية قوية، ومقدرة فائقة على إدارة الأمور السياسية للدولة الصليحية في اليمن. وسوف نتحدث في الصفحات التالية عن حياة هذه السيدة الحرة وحكمها لليمن.

اسمها: بالنسبة لاسمها معظم المصادر اليمنية توضح أنها كانت تسمى (سيدة بنت أحمد الصليحية)[1]. ما عدا إدريس صاحب عيون الأخبار، والوصابي صاحب تاريخ وصاب فهما يذكران أن اسمها (أروى بنت أحمد الصليحية)[2]. وقد دارت كتابات بين القاضي الأكوع وعارف تامر تناقش اسمها. ملخصها أن القاضي الأكوع يذكر أن اسمها (سيدة) مستنداً على ما سمتها المصادر اليمنية. بينما يذكر عارف تامر أن اسمها (أروى) مستنداً على تسميتها من صاحب عيون الأخبار.

وبالعودة إلى الرسائل أو السجلات المستنصرية التي دارت بين هذه السيدة وحكام مصر، والاطلاع عليها لمعرفة اسمها. نجد أن هذه السجلات لم تذكر صراحة أسماء النساء المُرْسِلات للرسائل من مصر مثل أم المستنصر وأخته وابنة الظاهر. أو المُرْسَل إليهن الرسائل إلى اليمن مثل السيدة أسماء بنت شهاب والسيدة الحرة الصليحية. نوضح ذلك بالآتي:

1 ـ النوع الأول: أسماء المُرْسِلات.

في هذا النوع ورد ثلاثة سجلات، كل سجل مرسل من امرأة في مصر إلى

(1) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 137، الخزرجي: العسجد، ص: 61، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 79، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 264.

(2) إدريس: عيون الأخبار، 7/ 207، الوصابي: تاريخ وصاب، ص: 38، الهمداني: الصليحيون، ص: 191، حسن محمود: أروى ملكة اليمن، ص: 84.

امرأة أخرى في اليمن. لم تذكر هذه السجلات أسماء نساء مصر أو اليمن صراحة بل ذكرت ألقابهن. ففي السجل رقم (51) المرسل من أم المستنصر إلى السيدة الحرة لم يذكر اسمها صراحة بل جاء فيه: (من السيدة الملكة والدة الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين، عرض علينا أيتها الحرة المخلصة السديدة)[1]. كما ورد في السجل رقم (28) قوله: (من السيدة أخت الإمام)[2] لم يذكر اسمها. كذلك ورد في السجل رقم (52) المرسل من ابنة الظاهر إلى الحرة السيدة الصليحية لقبها دون ذكر اسمها جاء فيه: (من السيدة الطاهرة، الشريفة، الملكة، الكريمة، الرؤوف، الرحيمة، إبنة الظاهر لإعزاز الله أمير المؤمنين، إلى الحرة الملكة السيدة السديدة المخلصة)[3].

2 ـ النوع الثاني: أسماء المُرْسَل إليهن.

في هذا النوع من السجلات لم تذكر أسماء نساء اليمن صراحة بل ذكرت ألقابهن. ففي السجل رقم (55) المؤرخ في شهر جمادى الآخرة سنة 461هـ/ مارس 1069م والسجل رقم (65) المؤرخ في شهر رمضان سنة 461هـ/ يونيو 1069م. كتب الخليفة المستنصر الفاطمي في هذين السجلين إلى السيدة أسماء بنت شهاب الصليحية وخاطبها بالحرة دون ذكر اسمها صراحة بقوله في السجلين العبارة الآتية: (من عبد الله... أمير المؤمنين إلى الحرة، الزكية، التقية، الفاضلة، كافلة المؤمنين، الساعية في مصالح الدين أم الأمراء المنجبين)[4].

وبالنسبة للحرة الصليحية تدرجت الخلافة في منحها الألقاب على ثلاث مراحل نوضحها بالآتي:

1 ـ مرحلة مخاطبتها (بالحرة). في بداية المراسلات بين الخلافة الفاطمية في عهد الخليفة المستنصر وبين الحرة الصليحية منذ سنة 471هـ حتى سنة 478هـ. خاطبتها هذه السجلات باسم (الحرة) فقط دون أن تذكر اسمها حيث أوردت هذه السجلات العبارة الآتية: (... الحرة، المخلصة، المكينة، ذخيرة الدين، عمدة المؤمنين، كهف المستجيبين، ولية أمر المؤمنين)[5]. وردت هذه العبارة في السجلات رقم (51) المؤرخ في صفر سنة 471هـ/ أغسطس 1078م

(1) السجلات، ص: 169.
(2) السجلات، ص: 96.
(3) السجلات، ص: 171.
(4) السجلات، ص: 180، 208، 209.
(5) السجلات، ص: 76.

والسجل رقم (44) المؤرخ في شوال سنة 472هـ/ مارس 1080م، والسجل رقم (46) المؤرخ في شهر ربيع الآخر سنة 478هـ/ يوليو (1085م[1].

2 ـ مرحلة مخاطبتها (بالحرة السيدة) وردت هذه المخاطبة في السجل رقم (14) المؤرخ في ربيع الأول سنة 478هـ/ يونيو 1085م، والسجل رقم (48) المؤرخ في ربيع الأول أيضاً سنة 478هـ/ يونيو 1085م، خاطبها السجلان بالعبارة الآتية: (.... الحرة السيدة، المخلصة، المكينة، السديدة)[2].

3 ـ مرحلة مخاطبتها (بالحرة الملكة السيدة) وردت هذه المخاطبة في عدة سجلات، وهي السجلات المرسلة منذ سنة 480هـ/ 1087م، حتى نهاية حكم السيدة لليمن، حيث أوردت هذه السجلات العبارة الآتية: (الحرة، الملكة، السيدة، المخلصة، المكينة، السديدة) وجاءت هذه العبارة في السجلات رقم (36، 38، 45، 49، 52) وهي السجلات الصادرة سنة 480هـ/ 1087م، والسجل رقم (50) الصادر سنة 482هـ/ 1089م، والسجلان رقم (35، 43) الصادران في سنة 489هـ/ 1096م[3].

مما تقدم يتضح لنا أن كلمة (الحرة) أطلقت على السيدة الصليحية في عهد زوجها المكرم أي منذ سنة 471هـ حتى سنة 478هـ. أما كلمة (الحرة السيدة) فقد أطلقت عليها في فترة بداية تولي ابنها علي بن المكرم وكانت وصية عليه، وهي الفترة ما بين سنة 478هـ حتى سنة 480هـ. بينما أُطْلِقَت عليها كلمة (الحرة الملكة السيدة) منذ سنة 480هـ حتى نهاية حكمها. وهي الفترة التي شاركت فيها إبنها السلطة، والفترة التي انفردت فيها بتولي السلطة في اليمن.

من ذلك كله من المرجح أن الصليحية كان اسمها (أروى) بدليل عدم ذكر إسم أسماء بنت شهاب، وأم الخليفة المستنصر وأخته وابنة الظاهر صراحة في السجلات المستنصرية. بالإضافة إلى ذكر اسم (أروى) صراحة لدى كل من صاحب عيون الأخبار والوصابي، واللذين عاشا في فترة قريبة من الدولة الصليحية. فقد أورد إدريس على لسانها أنها قالت: (أنا أروى ابنة أحمد بالأمس ولي عهد المسلمين واليوم أمير المؤمنين)[4].

ومن المحتمل أن تكون كلمة (السيدة) لقب لأروى الصليحية ولكنه نتيجة

---

(1) السجلات، ص: 169، 151، 156، 157.
(2) السجلات، ص: 62، 162.
(3) انظر السجلات.
(4) انظر عيون الأخبار، 7/ 207، عن الهمداني: الصليحيون، ص: 191.

لكثرة استخدام أهل اليمن لهذا اللقب أصبحت كلمة (سيدة) إسماً لها. أي أن اللقب حل محل الاسم الأصلي لكثرة استخدامه فأصبح اللقب هو الاسم الأصلي.

وعلى أية حال مهما كان اسمها سواءً أكانت تسمى (سيدة) أم تسمى (أروى) فهذا لا يغير شيئاً من الأحداث التاريخية لتلك المرأة الصليحية التي حكمت اليمن. ولا داعي للجدل الطويل حول اسمها. أهو ذا أم ذاك. أما بالنسبة لما نرجحه فيمكن أن يكون اسمها الكامل هو (الحرة الملكة السيدة أروى بنت أحمد بن محمد بن القاسم الصليحية).

أبوها: أبو السيدة أروى هو أحمد بن محمد بن القاسم الصليحي، أرسله علي الصليحي مع وفد، منهم أحمد بن المظفر الصليحي إلى الخليفة المستنصر الفاطمي إلى مصر. يطلبون الإذن له بإظهار الدعوة الإسماعيلية في اليمن[1]. وقد اختلفت المصادر في الفترة التي ذهب بها ذلك الوفد إلى مصر. فالرأي الأول يذكر أن الوفد ذهب إليها بعد طلوع علي الصليحي حصن مسار[2]. أي سنة 439هـ/ 1047م. والرأي الثاني يذكر أنه ذهب إليها بعد أن تغلب علي الصليحي على صنعاء وإخراج همدان منها[3] أي سنة 444هـ/ 1052م. والرأي الثالث يذكر أنه ذهب بعد سنة 453هـ/ 1061م[4] أي بعد سيطرة علي الصليحي على معظم اليمن. وما نرجحه هو الرأي الثاني بعد تمكن علي الصليحي من السيطرة على صنعاء 444هـ/ 1052م. وكان رد الخليفة المستنصر الفاطمي لعلي الصليحي مع ذلك الوفد، أنه بعث إليه (برايات وألقاب وعقد له الولاية) على اليمن[5].

وبعد عودة أحمد بن محمد الصليحي من مصر عمل في عدن نائباً عن علي الصليحي. بجانب حكامها بني معن. وأثناء عمله ذلك تهدمت فوقه البيت التي كان يسكنها بعدن، فمات بها[6]. وكان ذلك في طفولة الحرة السيدة أروى[7] لأنها ولدت سنة 440هـ/ 1048م[8].

---

(1) الحمادي: كشف، ص: 82، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 47، الجندي: 2/ 486.

(2) الحمادي: كشف، ص: 81.

(3) الجندي: السلوك، 2/ 486.

(4) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 47.

(5) الحمادي: كشف، ص: 82، الجندي، 2/ 486.

(6) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 47، الجندي: السلوك، 2/ 493.

(7) الهمداني: الصليحيون، ص: 142. يوضح ابن الديبع في قرة العيون، ص: 261، أن أبا السيدة الحرة هو الذي تولى تربيتها.

(8) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 137، الخزرجي: العسجد، ص: 61، حسن محمود: أروى، ص: 13، العقيلي: المخلاف السليماني، 2/ 40، يذكر الخزرجي في العسجد، ص: 61، أن مولد السيدة كان سنة 444هـ.

أمها: أم السيدة أروى هي الرداح بنت الفارع بن موسى الصليحية تزوجت بعد موت زوجها الأول أحمد بن محمد الصليحي بزوج آخر إسمه عامر بن سليمان الزواحي. فأنجبت له ولداً سمي سليمان بن عامر الزواحي وهو أخو السيدة من أمها[1] حيث وقف بجانبها في كثير من المواقف العسكرية والسياسية.

كفالتها: تولت السيدة أسماء بنت شهاب الصليحية مهمة كفالة السيدة أروى بعد موت أبيها وتزوّج أمها، فعملت على تربيتها التربية الفاضلة (وتأديبها وتهذيبها) على أحسن وأكمل وجه[2].

صفاتها الجسمية: اتصفت السيدة الحرة أروى الصليحية بسمات جمالية رائعة، فقد وُصِفت بأنها كانت (بيضاء اللون مشربة بحمرة، مديدة القامة، معتدلة البدن، تميل إلى السمنة، كاملة المحاسن جهورية الصوت)[3].

إكرام علي الصليحي لها: أولى علي الصليحي اهتماماً كبيراً بالسيدة الحرة أروى الصليحية منذ طفولتها. وذلك لما اتصفت به من ذكاء ورجاحة عقل. أوضح ذلك عمارة بقوله: (إن الصليحي كان يخصها من الإكرام في حال صغرها بما لا يماثلها فيه أحد ويقول لأسماء أكرميها فهي والله كافلة ذرارينا وحافظة هذا الأمر على من بقي منا)[4].

تعليمها: لقيت الحرة السيدة أروى اهتماماً كبيراً في تعليمها. فقد تعلمت في دار أسماء بنت شهاب المعارف الدينية وغيرها من المعارف التي كانت سائدة آنذاك، حتى أصبحت (قارئة كاتبة تحفظ الأشعار والأخبار والتواريخ)[5]. كما

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 137، الخزرجي: العسجد، ص: 61، الوصابي: الاعتبار، ص: 38، الهمداني: الصليحيون، ص: 143، حسن محمود: تاريخ اليمن، ص: 193.

(2) الوصابي: الاعتبار، ص: 38، الخزرجي: العسجد، ص: 61، الهمداني: الصليحيون، ص: 143، مصطفى غالب: أعلام الإسماعيلية، ص: 143، 144، أيمن فؤاد: المذاهب، ص: 150.

(3) عمارة: المفيد، ص: 137، الوصابي: الاعتبار، ص: 38، الخزرجي: العسجد، ص: 61، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 261، الهمداني: الصليحيون، ص: 143، حسن محمود: تاريخ اليمن، ص: 194، مصطفى غالب: أعلام الإسماعيلية، ص: 144، الحداد: التاريخ العام، ص: 245، العقيلي: المخلاف السليماني، ص: 41.

(4) عمارة: المفيد، ص: 138، الجندي: السلوك، 2/ 493، الوصابي: الاعتبار، ص: 38، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 261، الهمداني: الصليحيون، ص: 143، حسن محمود: تاريخ اليمن، ص: 193، أروى، ص: 41، الحداد: التاريخ العام، ص: 225، أيمن فؤاد: المذاهب، ص: 150، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 79.

(5) عمارة: المفيد، ص: 137، الجندي: السلوك، 2/ 493، الوصابي: الاعتبار، ص: 38، الخزرجي: العسجد، ص: 61، الهمداني: الصليحيون، ص: 143، مصطفى غالب: أعلام الإسماعيلية، ص: 144، حسن محمود: أروى، ص: 14.

أصبحت (عارفة بالأنساب. . . . وأيام العرب)[1]. (وما أحسن ما كانت تلحق بين سطور الكتاب في اللفظ والمعنى)[2]. أي كان (لها تعليقات وهوامش على الكتب مما يدل على غزارة علمها)[3].

وقد وصفها إدريس بقوله: (كانت الملكة الحرة متبحرة في علم التنزيل والتأويل والحديث عن الأئمة والرسول عليهم السلام. . . وكان الدعاة يتعلمون منها وراء الستر ويأخذون عنها ويرجعون إليها)[4].

صفاتها العقلية: اتصفت السيدة الحرة أروى من الناحية العقلية بأنه كان (يقال لها بلقيس الصغرى لرجاحة عقلها وحسن تدبيرها للملك وكانت تفضل بالمعروف على كثير من الملوك)[5].

كما اتصفت السيدة الحرة أروى بأنها: (كانت امرأة فاضلة ذات نسك وورع وفضل وكمال عقل وعبادة وعلم، تفوق الرجال فضلاً عن ربات الحجال)[6]. وقد مدحها الشاعر في هذا الشأن بقوله:

وما التأنيث لإسم الشمس عيب ولا التذكير فخرٌ للهلالي

كما أورد عنها إدريس قوله: (وقد استحقت التقديم والتفضيل على الفضلاء من الرجال، وكان الإمام المستنصر أصدر إليها أبواب دعوته. فأفادها في علوم الدعوة ورُفعت عن حدود الدعاة إلى مقامات الحجج)[7] كما سيأتي ذكره.

زواجها: ونتيجة لما اتّصفت به الحرة السيدة أروى من الذكاء والعقل والعلم والأدب والفضيلة. وتربيتها من قبل أسماء وإكرامها من قبل علي الصليحي. فكان لا بد لهما من أن يختاراها زوجة لولدهما أحمد المكرم. لذلك تزوجت الحرة

---

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 61.

(2) عمارة: المفيد، ص: 137.

(3) الهمداني: الصليحيون، ص: 143، العقيلي: المخلاق السليماني، ص: 41، مصطفى غالب: أعلام الإسماعيلية، ص: 144.

(4) إدريس: عيون الأخبار، 7/ 208، الهمداني: الصليحيون، ص: 143، حسن محمود: أروى، ص: 14، 15، مصطفى غالب: أعلام الإسماعيلية، ص: 144.

(5) الجندي: السلوك، 2/ 493، الخزرجي: العسجد، ص: 61، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 261، حسن محمود: تاريخ اليمن، ص: 194، أروى، ص: 14، الحداد: التاريخ العام، ص: 245، أحمد شرف الدين: اليمن عبر التاريخ، ص: 202، مصطفى غالب: أعلام، ص: 144.

(6) إدريس: عيون الأخبار، 7/ 122، الهمداني: الصليحيون، ص: 143، 144، حسن محمود: تاريخ اليمن، ص: 194، أروى، ص: 15، مصطفى غالب: أعلام، ص: 144.

(7) إدريس: عيون الأخبار، 7/ 131، الهمداني: الصليحيون، ص: 144، مصطفى غالب: أعلام، ص: 144، 145.

أروى بأحمد المكرم في عهد أبيه علي الصليحي[1]. وذلك في سنة 458هـ/ 1066م. حين تولى المكرم منصب ولاية العهد من أبيه ومن الخلافة الفاطمية. وكان عمرها آنذاك 18 سنة[2]. وقد أصدقها علي الصليحي في هذا الزواج مالية عدن، التي كانت تقدر بمائة ألف دينار سنوياً[3]. وقد ظل هذا المبلغ يرفع إلى الحرة السيدة سنوياً لفترة طويلة. حتى استقل بنو زريع في عدن. وكانت تصرف هذا المبلغ في شؤون قصرها وحواشيها وخدمها. وبالنسبة لذريتها فقد أنجبت للمكرم أربعة أولاد اثنين بنين هما علي ومحمد واثنتين بنات هما فاطمة وأم همدان[4].

سياستها في عهد زوجها: تأثرت الحرة السيدة أروى بمربيتها أسماء بنت شهاب الصليحية في الاهتمام بالأمور السياسية والمساهمة فيها. وكان أول بداية ظهور مساهمتها في الأمور السياسية للدولة في عهد زوجها المكرم، وذلك عندما توفت الحرة أسماء بنت شهاب سنة 467هـ/ 1074م. أوضح ذلك عمارة بأنه لما ماتت أسماء أم المكرم «فوض الأمر إلى زوجته هذه الملكة السيدة بنت أحمد». وذلك بسبب إصابته بمرض الفالج وهو ارتعاشة يديه وبشرة وجهه. ودراية الحرة السيدة بالأمورة السياسية. «فاستبدت بالأمر»[5].

وبالنسبة للمكرم نفسه كما توضح المصادر فقد أخلد إلى الراحة وإلى الاستمتاع إلى الغناء والشراب. ولم يهتم كثيراً بالأمور السياسية لدولته. لذلك تولّت الحرة السيدة أروى مهمة الاهتمام بالأمور السياسية للدولة. ونظراً لذلك أرادت الحرة السيدة من زوجها المكرم عدم معاشرتها لتتفرغ لمهمة إدارة الدولة. أوضح ذلك عمارة بقوله: «يقال... أنها استعفته في نفسها وقالت له: إن امرأة تراد للفراش لا تصلح لتدبير أمر، فدعني وما أنا بصدده، فلم يفعل»[6].

والواقع أن هذا الكلام غير معقول. إلا إذا اعتبرنا أن ذلك القول يخص زواجها الثاني من سبأ بن أحمد الصليحي بعد موت المكرم، فيمكن تصديق ذلك، أما بالنسبة للمكرم فلا يمكن أن نصدقه وذلك للآتي: **أولاً**: لورود كلمة «يقال» أي

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 147.
(2) الهمداني: الصليحيون، ص: 147، مصطفى غالب: أعلام، ص: 145.
(3) الوصابي: الاعتبار، ص: 38، الهمداني: الصليحيون، ص: 147، مصطفى غالب: أعلام، ص: 145.
(4) عمارة: المفيد، ص: 137، الخزرجي: العسجد، ص: 61.
(5) عمارة: المفيد، ص: 138، الخزرجي: العسجد، ص: 62.
(6) عمارة: المفيد، ص: 138، الخزرجي: العسجد، ص: 62، حسن محمود: تاريخ اليمن، ص: 196.

أن عمارة غير متأكد من هذا القول. **وثانياً**: لورود كلمة «لم يفعل» أي أن المكرم لم يقبل ذلك الطلب. **وثالثاً**: أن المكرم لما مات سنة 477هـ/ 1084م كان لديه أربعة أولاد بعضهم كانوا في سن الطفولة مما يدل دلالة واضحة عدم صحة ذلك الخبر في عهد المكرم.

وعن أهم المساهمات السياسية التي شاركت بها الحرة السيدة أروى في عهد زواجها المكرم حسب ما توردها المصادر هي. **أولاً**: تحريضها المكرم لنقل عاصمته من صنعاء إلى ذي جبلة. **وثانياً**: مشاركتها في التآمر على سعيد الأحول. نوضح ذلك بالآتي:

1 ـ المساهمة الأولى: انتقال العاصمة إلى ذي جبلة.

كانت الحرة السيدة أروى والمكرم قد زارا ذي جبلة عدة مرات قبل موت أسماء، فأعجبت السيدة بها. ولما ماتت أسماء وتولت الحرة السيدة مشاركة زوجها في الأمور السياسية لإدارة الدولة، حرضته على الانتقال إلى ذي جبلة لجعلها عاصمة له. وذلك نتيجة تمتع ذي جبلة بالخصب والنماء وكثرة المزروعات. وميل أهلها إلى المسالمة. فضلاً عن ازدياد حدة الصراع القبلي حول صنعاء والذي كان يهدد عاصمة الصليحيين بالسقوط. لذلك كله فضلت السيدة الانتقال إلى ذي جبلة وقد أوردت المصادر قصة هذا الانتقال بالآتي:

نتيجة لموت أسماء بنت شهاب وتفويض المكرم أمر الدولة لزوجته الحرة السيدة أروى وإعجابها بذي جبلة. ارتحلت من صنعاء لوحدها بجيش كبير وتركت بها المكرم، وذهبت إلى ذي جبلة، فبنت بها دار العز. وكما يتضح أن السبب في ترك المكرم لزوجته الحرة ترحل لوحدها هو انشغاله بحرب القبائل المجاورة لصنعاء، والتي كانت تناصر الزيدية. وكانت ذي جبلة مدينة بين غيلين جاريين في الشتاء والصيف وأول من اختطها كمدينة عبد الله بن محمد الصليحي سنة 458هـ/ 1066م[1].

ولما عادت الحرة السيدة أروى إلى صنعاء أرادت أن تقنع المكرم بالانتقال إلى ذي جبلة بطريقة واقعية وعملية. فطلبت منه أن يدعو أهل صنعاء وما حولها للاجتماع بهم. فعمل برأيها وطلبهم للحضور إليه. فلما حضروا قالت له: «إشرف عليهم وانظر ماذا ترى فلم يقع طرفه إلاَّ على بروق السيوف ولمع البيض والأسنة» مما يدل على أن حياة هذه القبائل كانت تعتمد على الحرب والقتال.

ولما نزلت الحرة السيدة أروى مع المكرم إلى ذي جبلة طلبت منه أن يجمع

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 139، الخزرجي: العسجد، ص: 62، ابن الديبع: بغية، ص: 60.

أهل الجهات المجاورة لها. فلما اجتمعوا إليه قالت له: «إشرف يا مولانا وانظر ماذا ترى. فلم يقع طرفه إلاّ على رجل يجر كبشاً ويحمل ظرفاً مملوءاً بالسمن فقالت له العيش بين هؤلاء أصلح»[1]. وذلك ما يدل على أن أهل ذي جبلة وما حولها كانوا قبائل تميل إلى المسالمة لا يرغبون بالحروب. لذلك فضَّلت العيش بينهم.

من ذلك يتضح أنه على الرغم من أن الدولة كانت بحاجة إلى مقاتلين لحمايتها. وهذا ما كانت تتصف به صنعاء وما حولها. إلا أن استمرار القتال والحرب. وخاصة إذا تحولت هذه الحروب ضد الدولة نفسها. فذلك مؤشر على القضاء على الدولة ونهايتها. وهذا ما شعرت به الحرة السيدة أروى والمكرم حينما رأيا أن قبائل صنعاء وما حولها اتجهوا إلى مناصرة الأئمة الزيدية ومحاربة الدولة الصليحية. وهذا يشكل خطورة كبيرة على دولتهما. لذلك فكرا في نقل عاصمتهما إلى المناطق المسالمة. لأن الدولة بحاجة إلى المسالمة أكثر من الحرب. إذ أن الحضارة واستقرار الدولة وطاعة نظامها لا يمكن أن يتحقق إلا بوجود سِلْم وعدم استمرار الحرب. لذلك كله فضلت الحرة السيدة أروى وكذلك المكرم نقل عاصمتهما من صنعاء إلى ذي جبلة.

وقد أوضح العرشي أن سبب انتقال المكرم وزوجته السيدة إلى ذي جبلة هو حرب الزيدية لهم بقوله: «ورحل بنو الصليحي من (صنعاء) لما أصابها من المحاصرات، والموارِدة والمصادرة، وكان خروجه منها خروج كراهية لا خروج استيلاء، وبقي بها عمالهم حتى قالت (السيدة بنت أحمد): ما خرجت صليحية، وهي لا تملك شيئاً، إلا الصفر من الأقراط يعني النحاس»[2].

وعلى الرغم من نقل المكرم عاصمته من صنعاء إلى ذي جبلة. إلا أنه لم يهمل الأمور السياسية لليمن الأعلى. فقد كان (يطلع صنعاء فيقيم بها ثم ينزل إلى ذي جبلة)[3] وذلك بهدف الاحتفاظ بحكمه على تلك المنطقة.

2 ـ المساهمة الثانية: التآمر على قتل سعيد الأحول.

اشتركت الحرة السيدة أروى في التآمر على قتل سعيد الأحول النجاحي وقصة هذا الاشتراك كما حكاه عمارة ومن أخذ عنه. أنها دبرت مؤامرة لقتل سعيد الأحول بالاشتراك مع الحسين التبعي صاحب حصن الشعر. نورد محتوى هذا التآمر بالآتي:

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 139 ـ 141، ابن المجيد: بهجة الزمن، ص: 79، 80، الوصابي: الاعتبار، ص: 39، الخزرجي: العسجد، ص: 62، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 263، بغية المستفيد، ص: 60.

(2) العرشي: بلوغ المرام، ص: 37.

(3) ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 80.

لما حلت سنة 481هـ/ 1088م كتبت الحرة السيدة إلى الحسين التبعي تخبره بمراسلة سعيد الأحول النجاحي وإخباره بأن دولته أحب إليه من دولة الصليحيين. وأن المكرم قد أصيب بالفالج وعكف على الاستمتاع بالغناء والشراب، وترك أمور الدولة إلى زوجته الحرة السيدة أروى تديرها كيفما تشاء، وأوضح له الحسين التبعي أنه سيساعده على القضاء على دولة الصليحيين وطلب منه أن يجهز جيشاً من (زبيد) ويطلع به إلى حصن (الشعر) في موعد حدده له، حيث سيلتقي به فيه. ومن الشعر سيتجهان إلى ذي جبلة للقضاء على المكرم. فأعجب سعيد الأحول النجاحي بهذه الفكرة وجهز جيشاً مكوناً من ثلاثين ألف جندي، وسار بهم حسب الموعد المحدد له إلى حصن الشعر. وعند طلوعه ذلك أمرت السيدة الحرة والي صنعاء عمران اليامي أن يخلف سعيد الأحول إلى زبيد في ثلاثة آلاف مقاتل ففعل ذلك. كما أنها جهزت من عندها من ذي جبلة جيشاً واتجهت به إلى حصن (الشعر) ولما وصل جيش سعيد الأحول إلى أسفل الحصن أطبق عليه الجيشان من كل جهة وهما جيش السيدة الحرة وجيش الحسين التبعي فقاتلوه قتالاً شديداً حتى هزموا جيشه وقتلوه[1].

هذه الرواية غير معقولة أن تحدث بتلك الكيفية لعدة أسباب منها أولاً: أن عدد جيش سعيد الأحول غير معقول أن يكون تعدادهم ثلاثين ألف مقاتل. إذ لو كان لديه ذلك العدد لاكتفى بمقاتلة الصليحيين دون الاستعانة بالحسين التبعي. ومنها ثانياً: أن ذي جبلة كانت أقرب لسعيد الأحول من (الشعر). وكان من المتوقع أن يوعده الحسين التبعي للالتقاء قرب ذي جبلة وليس في الشعر. ومنها ثالثاً: وهو الأهم أن موعد طلوع سعيد الأحول وهو سنة 481هـ/ 1088م كان مناقضاً لوجود المكرم والحسين التبعي على قيد الحياة. إذ أن السجلات المستنصرة حددت موت المكرم في أواخر سنة 477هـ/ 1085م. كما أن الحسين التبعي مات سنة 478هـ/ 1086م. وبذلك لا يمكن أن تكون حدوث هذه القصة في ذلك الوقت، وبذلك العدد من الجيش، ولكن من المحتمل أن تكون السيدة الحرة أروى اشتركت مع زوجها المكرم والحسين التبعي في التآمر على سعيد الأحول النجاحي سنة 461هـ/ 1069م، وليس سنة 481هـ/ 1088م. وإذا صح ذلك فتكون السيدة الحرة قد اشتركت في المساهمة بقتل سعيد الأحول آنذاك.

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 142، 145، الخزرجي: العسجد، ص: 62، 63، الوصابي: الاعتبار، ص: 39، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 264، بغية، ص: 60، 61، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 270، 272، الحريري: معالم، ص: 51، 52.

سياسة الحرة السيدة أروى بعد موت زوجها

1 ـ تولية ابنها علي بن المكرم:

حين توفي المكرم أحمد بن علي الصليحي أسند أمر الدعوة الإسماعيلية إلى الداعي سبأ بن أحمد الصليحي[1] وهذا شيء طبيعي أن يسند الدعوة الإسماعيلية إلى أحد رجال الدولة الصليحية الأقوياء. إلاّ أن الحرة السيدة أروى أرادت أن تكون الدعوة الإسماعيلية من نصيب ابنها وذلك حسب القاعدة الإسماعيلية التي توصي بتوريث الحكم والدعوة للأبناء. لذلك كاتبت السيدة الخلافة الفاطمية تطلب منها منح ابنها الطفل التقليد بالدعوة الإسماعيلية وتوليته الأمور السياسية باليمن. فوافق الخليفة المستنصر الفاطمي على ذلك، وأرسل ثلاثة سجلات سنة 478هـ/ 1085م يقلد فيها علي بن المكرم الدعوة والسلطة في اليمن نوضحها بالآتي:

في السجل رقم (14) والمؤرخ في غرة شهر ربيع الأول سنة 478هـ/ يونيو 1085م أرسل الخليفة المستنصر الفاطمي، هذا السجل إلى عبد المستنصر علي بن المكرم يقلّده فيه أمور الدعوة في اليمن جاء فيه: «وأمره أن يقلدك النظر فيما كان أبوك تقلده من الدعوة الهادية والأحكام في اليمن وسائر الأعمال المضافة إليه براً وبحراً وسهلاً ووعراً»[2].

كذلك أوصى الخليفة المستنصر في هذا السجل جميع أنصار الدعوة الإسماعيلة باليمن طاعة علي بن المكرم بقوله فيه: «وأن يصل أوامر أمير المؤمنين إلى كافة الأولياء المؤمنين، رجال الدعوة الميامين، كثرهم اللّه، وأعزهم بعضدك والائتمار لأوامرك، والازدجار بزواجرك، وأن يجزيك عن جميع نظمه من تلك البلاد والمعاقل، والحصون والأعمال، الدانية والقاصية على الرسم المعهود من طاعة أمير المؤمنين فيك، وأن يجمع كلمتهم على الاتفاق في نصرتك، والجهاد قدامك، والتبرؤ من المارقين الذين يبدون الشنآن لك، وأن يسالموا من سالمت، ويعادوا من عاديت، ويحاربوا من حاربت. . . ومن خرج منهم عن هذا التمثيل من كافة الأولياء المؤمنين والناس أجمعين، برئت منه ذمة الدعوة وحقت عليه كلمة البعد من الرحمة»[3].

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 146، الخزرجي: العسجد، ص: 63، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 265، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 274، حسن محمود: أروى، ص: 23، يذكر أحمد شرف الدين في اليمن عبر التاريخ، ص: 201، أن المكرم أسند الوصية في الملك إلى زوجته السيدة الحرة أروى الصليحية. وفي الدعوة إلى ابن عمه سبأ بن أحمد بن المظفر الصليحي، ويوافق هذا الرأي أمين صالح في العلاقة بين الصليحيين والفاطميين، ص: 67.

(2) السجلات، ص: 61، حسن محمود: أروى، ص: 23، 24، عصام الفقي: اليمن، ص: 169.

(3) السجلات، ص: 61، 62.

وفي السجل رقم (48) المؤرخ في شهر ربيع الأول أيضاً سنة 478هـ/ يونيو 1085م، أرسل الخليفة المستنصر الفاطمي هذا السجل إلى الحرة السيدة أروى يشرح فيه توريث ابنها الدعوة ويقلده أمر اليمن جاء فيه: «فرأى أن لا يجرد الدعوة من نصابها ولا يجليها من أربابها ولا يعدل بها عن الناشئين فيها المتعلقين بوثيق أسبابها فاصطنع والد الماضي ـ رحمه اللّه ـ الذي هو ولدك. . . عبد المستنصر. . . ونصبه منصبه. . . فتألف بكتب تقليد ولدك الدعوة الهادية والأحكام، على نية تضاهي ما كان لأبيه»[1].

كذلك أرسل الخليفة المستنصر الفاطمي السجل رقم (46) والمؤرخ في شهر ربيع الآخر سنة 478هـ/ يوليو 1085م إلى السيدة الحرة أروى يعرفها بمعرفته بوفاة المكرم وأنه يحول المكاتبات التي يرسلها إلى ابنها علي ابن المكرم الملقب بعبد المستنصر. ويؤكد لها تقليده له على اليمن كله وريثاً لأبيه جاء فيه قوله: «وقد كان أمير المؤمنين بما اطلع على وفاة الأجل المكرم ـ رحمه اللّه ـ وانتقاله إلى دار رضوانه وكرامته. . . وخرج أمره بمكاتبته الأجل، المكرم ـ ولدك. . . وأن له من المفاخر شرف الدعوة وتنقلها في بيته من علو ذروة فانتقض له أن يورثها عن سلفه ويحلّى جيده بها. ويزداد بتقليدها له في شرفه، ونصبه منصب الماضي ـ رضوان اللّه عليه ـ وقلده ما كان قلده من الدعوة الهادية والأحكام والمظالم في سائر أعمال اليمن»[2].

من خلال ما تقدم نجد أن الخليفة المستنصر الفاطمي عمل بعد موت المكرم على تقليد ابنه علي بن المكرم الذي كان طفلاً لا يتجاوز عمره عشر سنوات[3] أمر الدعوة في اليمن. إضافة إلى الأمور السياسية والإدارية. وأنه منحه هذا التقليد كوريث لوالده حتى لا تخرج الدعوة عن مؤسسيها بني الصليحي. كما أنه حوّل المكاتبات باسمه. وبذلك تكون الخلافة الفاطمية قد وقفت بجانب علي بن المكرم كوريث شرعي، وإلى جانب أمه السيدة الحرة.

لم يقبل جمع من الأفراد من اليمنيين على رأسهم سبأ بن أحمد الصليحي أن يتولى علي بن المكرم أمر الدعوة الإسماعيلية والسلطة في اليمن. وهو طفل لا يتجاوز العشر سنين. بينما وقف إلى جانب توليته جمع آخر على رأسهم سليمان بن عامر الزواحي والسيدة الحرة أروى. لذلك انقسم أنصار الدولة الصليحية في اليمن إلى قسمين. هم آل الصليحي بقيادة سبأ بن أحمد الصليحي

---

(1) السجلات، ص: 163.

(2) السجلات، ص: 157، 158.

(3) حسن محمود: أروى، ص: 25، عارف تامر: ملكة اليمن، ص: 65.

وآل الزواحي بقيادة سليمان بن عامر الزواحي والسيدة الحرة. فدار صراع بين الطرفين منذ نهاية سنة 478هـ/ 1085م حتى بداية سنة 480هـ/ 1087م.

وخلال فترة هذا الصراع أرسلت السيدة الحرة أروى عدة مكاتبات إلى الخلافة الفاطمية مع عدة رسل هم نعيم الشاعر الهلالي، وسعد اللّه ورفيقه الشيرازي. وكاتبها أبي نصر سلامة بن الحسن. وضّحت السيدة في هذه المراسلات تصارع الزواحيين والصليحيين حول تولي الدعوة والسلطة في اليمن. وطلبت من الخلافة الفاطمية الوقوف بجانبها وتدعيم تولية ولدها أمر الدعوة والسلطة في اليمن. انتهى هذا الصراع بحل الخلاف بين الطرفين عن طريق زواج السيدة الحرة بسبأ بن أحمد الصليحي نورد قصة هذا الزواج بالآتي:

قصة زواج الحرة السيدة أروى الصليحية من سبأ الصليحي

بعد أن تأزمت الأمور بين الزواحيين والصليحيين لمدة سنتين انتهت هذه الأزمة بقبول السيدة الحرة أروى الزواج من سبأ بن أحمد الصليحي وذلك كما يتضح في أواخر سنة 479هـ/ 1087م. وقصة هذا الزواج كما أورده عمارة ومن أخذ عنه بالآتي:

طلب سبأ بن أحمد الصليحي الزواج من السيدة الحرة أروى بعد موت زوجها المكرم فرفضت طلبه في البداية. فغضب من ذلك سبأ بن أحمد فجهز جيشاً لمحاربتها وسار بهم من مقره في حصن أشيح إلى مقرها في ذي جبلة. وآنذاك وقف بجانب السيدة الحرة أخوها سليمان الزواحي. ولما وصل جيش سبأ بن أحمد إلى ذي جبلة نشبت الحرب بين الطرفين لعدة أيام. ونتيجة لذلك القتال والصراع اقترح سليمان بن عامر الزواحي عرض قضية الزواج على الخليفة المستنصر الفاطمي وتحكيمه في ذلك حيث قال له: «واللّه لا أجابتك إلى ما تريد إلا بأمر المستنصر باللّه» فقبل سبأ الصليحي ذلك. وتوقفت الحرب بينهم وأرسلوا رسولين إلى الخلافة الفاطمية بمصر. هما القاضي الحسن بن إسماعيل الأصفهاني، وأبو عبد اللّه الطيب. لذلك رجع سبأ الصليحي من ذي جبلة إلى مقره حصن أشيح في انتظار الرد.

وبالنسبة للرسولين فقد عادا من الخلافة الفاطمية بمصر بموافقة الخليفة المستنصر على زواج السيدة الحرة أروى من سبأ بن أحمد الصليحي. وتأكيداً لتلك الموافقة أرسل الخليفة الفاطمي مع الرسولين أستاذاً من لديه يعرف بحامل المذبة

«أو الدواة». ولما وصلت الرسل إلى حصن أشيح أرسل سبأ الصليحي معهم رسوله البجلي. فسار الرسل جميعاً إلى السيدة الحرة إلى ذي جبلة. فلما وصلوا إليها أبلغها الأستاذ سلام الخليفة المستنصر الفاطمي ومدحها «بوحيدة الزمن وسيدة ملوك اليمن» ثم أقرأها رسالة الخليفة التي تقول: «وقد زوجك مولانا أمير المؤمنين من الداعي الأوحد المنصور المظفر عمدة الخلافة أمير المؤمنين أبي حمير سبأ بن أحمد بن المظفر بن علي الصليحي على ما حضر من المال وهو مائة ألف دينار عيناً وخمسون ألف أصناف من تحف وألطاف وطيب وكساوي». ولكن السيدة الحرة تذمرت من ذلك وحاولت عدم القبول به. إزاء ذلك اتجه إليها وزيرها زريع بن أبي الفتح والأصفهاني وغيرهما لإقناعها بالزواج فظلوا يلاطفونها حتى قبلت الزواج. وتعبيراً عن فرحة سبأ الصليحي بذلك استمرت احتفالات الزواج لمدة شهر[1].

وكما يتضح من المراسلات التي دارت بين الحرة السيدة والخلافة الفاطمية أن تجهيز سبأ الصليحي لجيشه من مقره أشيح وذهابه إلى ذي جبلة كان سببه التمسك بأحقيته في تولي الدعوة الإسماعيلية باليمن بناء على عهد المكرم له بذلك. وليس بسبب رفض الحرة السيدة الزواج منه. وأن وقوف سليمان بن عامر الزواحي والسيدة الحرة ضد سبأ الصليحي كان سببه تمسكهما بتولية الخلافة الفاطمية وتوريثها الدعوة الإسلامية والسلطة في اليمن لعلي بن المكرم. وليس بسبب عدم قبول السيدة الزواج. ونتيجة لمطالبة كل من سبأ الصليحي وسليمان بن عامر الزواحي والسيدة، أو كل من الطرفين بأحقية تولي أمر الدعوة الإسماعيلية والسلطة في اليمن، وطول مدة الصراع، كان الحل الأمثل لحل الخلاف فيما بينهم هو فكرة زواج الحرة السيدة أروى بالداعي سبأ بن أحمد الصليحي. ولذلك طلبوا استشارة الخليفة المستنصر الفاطمي في ذلك الزواج. فوافق الخليفة على الزواج إذا قبلت الحرة السيدة بذلك. دون أن يكون ذلك الزواج بأوامر مفروضة من الخليفة. لذلك ظل وزيرها والأصفهاني وغيرهما يلاطفونها حتى قبلت الزواج.

وعلى الرغم من زواج الحرة السيدة أروى من الداعي سبأ بن أحمد الصليحي إلاّ أنها لم تكن راغبة بهذا الزواج بعد موت زوجها المكرم، نتيجة لاهتمامها

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 150 ـ 152، الوصابي: الاعتبار، ص: 40، 41، الحمزي: كنز، ص: 81، الخزرجي: العسجد، ص: 64، 65، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 267، 268، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 276، 277، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 276، 277، أيمن فؤاد: المذاهب، ص: 153، أمين صالح: العلاقة، ص: 68، 69.

بالأمور السياسية للدولة الصليحية. لذلك طلبت الحرة السيدة من سبأ الصليحي استعفائها فقالت له وليس للمكرم كما أورد عمارة: «إن امرأة تراد للفراش لا تصلح لتدبير أمر فدعني وما أنا بصدده»[1]. لذلك قعد سبأ الصليحي فترة قصيرة في ذي جبلة ثم غادرها عائداً إلى مقره في أشيح.

وهناك رواية تذكر أن سبأ الصليحي لم يقعد في ذي جبلة بعد احتفالات الزواج غير أيام قلائل وذلك بسبب تجاهل الناس له في ذي جبلة وتعظيم الحرة السيدة، حيث كان كل واحد يقول: «مولاتنا مولاتنا ما حقر نفسه وندم على خطبتها وأرسل سبأ إلى الحرة بالسر أن تأذن له في الدخول إلى دار العز ليتوهم الناس أنه دخل بها ففعلت ذلك وأما كثير من أهل جبلة فيزعمون أنه اجتمع بها ليلة واحدة ثم ارتحل»[2]. وبالرغم من عدم تصديقنا لهذه الرواية إلاّ أنها تدل على أن الزواج استهدف حل مشكلة سياسية في اليمن بإنهاء الصراع بين الزواحيين والصليحيين وليس ناتجاً عن رغبة مسبقة بالزواج.

ونتيجة لحل الأزمة السياسية في اليمن بالزواج. وقبول سبأ الصليحي بتوريث الدعوة والسلطة لعلي بن المكرم وطاعته له. أرسل الخليفة المستنصر الفاطمي سنة 480هـ/ 1087م ثلاثة سجلات أحدها إلى عبد المستنصر علي بن المكرم. والثاني إلى الزواحيين والصليحيين، والثالث إلى الحرة السيدة. تؤكد هذه السجلات استمرار وقوف الخلافة الفاطمية بجانب السيدة الحرة وابنها علي بن المكرم وأنها تورثه الدعوة والسلطة في اليمن. كما توضح جواز تولية الأطفال للدعوة الإسماعيلية والسلطة. وتطلب هذه السجلات من جميع اليمنيين طاعة الحرة السيدة وابنها. نورد محتوى هذه السجلات بالآتي:

في السجل الموجه من الخليفة المستنصر الفاطمي إلى علي بن المكرم وهو السجل رقم (37) والمؤرخ في شهر ربيع الأول سنة 480هـ/ 1087م جاء فيه ثلاثة أفكار هي:

1 ـ **الفكرة الأولى**: تحكي عن تأكيد الخلافة الفاطمية على توريث الدعوة الإسماعيلية والسلطة باليمن لعبد المستنصر علي بن المكرم. نصها الآتي: «وكان حقيقياً من أمير المؤمنين أن يورثك من الدعوة تراث أبيك وجدك. . . . من نصبك منصب أبيك وتقليدك الدعوة الهادية في سائر أعمال اليمن وما يليه سهلاً ووعراً وبراً وبحراً»[3].

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 138، الخزرجي: العسجد، ص: 62.

(2) عمارة: المفيد، ص: 152.

(3) السجلات، ص: 124.

2 ـ **الفكرة الثانية**: تتحدث عن تكليف علي بن المكرم إبلاغ جميع السلاطين والأنصار باليمن طاعته وطاعة أمه الحرة السيدة أروى ذكر ذلك السجل بقوله: «وأمره أن يخص سائر السلاطين والأولياء والمؤمنين. . . . على الاستمرار على مضافرتك وأن يقودهم إلى تباعتك في الطاعة ومناصرتك ومناجدتك. . . . وإعلام الكبير والصغير أن من أطاعك وأطاع والدتك الحرة الملكة. . . . وانقاد بمقادتكما. . . . أطاع أمير المؤمنين»[1].

3 ـ **الفكرة الثالثة**: توضح أن يبلغ علي بن المكرم جميع المستنكرين على توليته وهو طفل. أنه يجوز تولية الأطفال الدعوة الإسماعيلية والسلطة. لأن المستنصر الفاطمي تولّى الخلافة الفاطمية وعمره ست سنوات. وضّح ذلك السجل بقوله: «لأن اللّه فوض أمير المؤمنين الخلافة وسنه دون الثمان سنين وجده علي بن الحسين ـ صلّى اللّه عليه ـ تولى الخلافة وعمره تسع سنين وقد جاز هذا في الإمامة وهي الدرجة التي تلي النبوة. فكيف الدعوة التي لأمير المؤمنين أن يتصرف فيها على اختياره ويفوضها إلى من يرتضيه ويختاره»[2]. من ذلك يتضح أن الخلافة الفاطمية مُصِرَّة على توريث السلطة في اليمن لابن المكرم رغم صغر سنه وطفولته.

وفي السجل رقم (38) والمؤرخ في شهر ربيع الأول أيضاً سنة 480هـ/ 1087م. والمرسل من الخليفة المستنصر الفاطمي إلى المتصارعين من الزواحيين والصليحيين وغيرهم. أورد فكرتين هما:

1 ـ **الفكرة الأولى**: يثني الخليفة المستنصر على الزواحيين والصليحيين مناصرتهم للدعوة الإسماعيلية ويطلب منهم عدم الاختلاف والافتراق ذكر ذلك السجل بقوله: «من عبد اللّه. . . . الإمام المستنصر باللّه، أمير المؤمنين، إلى كافة السلاطين الصليحيين والزواحيين، والمشايخ الحجازيين، وطوائف المؤمنين الميامين، كثرهم اللّه ونصرهم. . . . ولما عرف أمير المؤمنين ما كان منكم في النصرة من حميد المساعي، ومأثور مواقفكم في حماية الدعوة، وما أنتم عليه من الالتزام بشرائط الطاعة، والعمل بعلائق الوفاء والديانة والمناصحة، شكر لكم هذه المناقب، التي تقلدتم بها قلائد التقوى، ونلتم بها الدنيا والآخرة. . . وأمير المؤمنين يأمركم بالجري على هذا السنن المشكور، والاعتماد المأثور

---

(1) السجلات، ص: 126، 127.

(2) السجلات، ص: 127، حسن محمود: أروى، ص: 25.

وأن تعتمدوا الائتلاف، والتحذير من عواقب المقاطعة والاختلاف....»[1].

2 ـ **الفكرة الثانية**: يطلب الخليفة المستنصر من الزواحيين والصليحيين وأنصار الدعوة الإسماعيلية باليمن، طاعة ومناصرة علي بن المكرم ووالدته الحرة السيدة. وعدم مخالفتهما وضح ذلك السجل بقوله: «وبحكم ذلك فهو يفرض عليكم التدين بطاعة داعيكم... عبد المستنصر... ويأمركم أن تعتمدوا الجد والتشمير في متابعته ومناصرته. ومشايعته. ومضافرته، والإزماع والجهاد تحت رايته،.... وأن تخلصوا النيات في موافقته وطاعة والدته: الحرة الملكة السيدة،.... وَحَرَّم عليكم كافة السلاطين المقدمين، والمؤمنين الديانين مخالفتها والرد لأمرها والقعود عن مناصرتها. والادهان في طاعتها والتأخر عن أمثلتها فمن خالف هذه المراسم فقد مرق من الدين، وتعرض لمساخط أمير المؤمنين وخسر الدنيا والدين»[2]. يدل ذلك أن السيدة الحرة أصبحت صاحبة النفوذ والسلطة إلى جانب ابنها وأن على جميع سلاطين اليمن طاعتها ومناصرتها.

وفي السجل رقم (36) والمؤرخ في شهر ربيع الأول كذلك سنة 480هـ/ 1087م والمرسل من الخليفة المستنصر الفاطمي إلى الحرة السيدة. أورد ثلاثة أفكار هي:

1 ـ **الفكرة الأولى**: يؤكد في هذا السجل الخليفة المستنصر للحرة السيدة على توريث الدعوة الإسماعيلية والسلطة في اليمن لابنها علي بن المكرم بعد وفاة والده. فقال: «ولما كان من قضاء الله تعالى على خليلك الملك الأجل، المكرم ـ رحمة الله عليه ـ ما كان، علم أمير المؤمنين بانتقاله بادر إليك بنصب ولدك.... عبد المستنصر.... فنصبه وأصدر التقليد بموضعه وأورثه رتبته، حراسة للدعوة الهادية أن لا تزال مستقرة في بيتها وإقرارها.... في أغمادها وأنصبها»[3].

2 ـ **الفكرة الثانية**: أوضح الخليفة المستنصر للحرة السيدة أنه تحدث مع رسولها أبي نصر سلامة بن الحسن واطلع على المكاتبات السابقة منها بشأن المشاجرة التي حدثت بين الزواحيين ويشكر فيه موقف سبأ بن أحمد الصليحي من حسن طاعته. أوضح ذلك السجل بقوله: «وأما ما كان شجر بين السلطانين الأجلين أبي حمير سبأ بن أحمد الصليحي وأبي الربيع سليمان بن عامر الزواحي... فقد عرف أمير المؤمنين ما تكررت به مكاتبات مع نعيم الشاعر الهلالي، ثم

---

(1) السجلات، ص: 128، 129.
(2) السجلات، ص: 131، 132.
(3) السجلات، ص: 119.

مع سعد اللّه ورفيقه الشيرازي وهذه النوبة، وشافه رسولك أبو نصر ـ . . . . بما كان من تسديد السلطان أبي حمير سبأ في جميع ما جرى بينه وبين السلطان أبي الربيع من المنافرة والمشاجرة وما أَفَضْت فيه على السلطان أبي حمير سبأ في الثناء والتزكية والإطراء، وما قَرَظَته به من حسن الطاعة ولين قيادة في الموافقة والمبايعة، وإيفائه على ما طلب منه من المسامحة والمساعدة»[1].

3 ـ **الفكرة الثالثة**: موافقة الخليفة المستنصر على ما ترتضيه السيدة من حل لقضية الخلاف الدائر في اليمن بين الصليحيين والزواحيين حيث قال: «وقد كان أمير المؤمنين ندبك من قبل ويندبك، وفوض، ويفوض إليك، ويرتضي سداد رأيك لفصل هذه القضية، وإعادة الأمر فيها إلى الصورة المرضية العائدة بإطفاء الثائره وحسم مادة ما شجر بين المذكورين من النقاء»[2].

من الملاحظ من السجل رقم (36) أن الحرة السيدة أصبحت صاحبة النفوذ والسلطة وذلك لما تتمتع به من عقلية ذكية وحكمة. جعلت الخليفة المستنصر الفاطمي يفوّض إليها أمر حل مشكلة اليمن التي حدثت بين الزواحيين والصليحيين. كما جعلته يرتضي ما تتوصل إليه السيدة من حل لهذه المشكلة مما يدل على أن السيدة الحرة أروى أصبحت منذ سنة 480هـ/ 1087م متولية للأمور السياسية في اليمن، نظراً لصغر سن ابنها علي بن المكرم.

ومن خلال ما تقدم من المراسلات التي دارت بين مصر واليمن، نستنتج أن الخلاف والصراع الذي دار بين الزواحيين والصليحيين في اليمن بدأ منذ نهاية سنة 477هـ/ 1085م وهي السنة التي توفي بها المكرم وعهد بها بتولي الدعوة الإسماعيلية باليمن للداعي سبأ بن أحمد الصليحي، وبداية سنة 478هـ/ 1085م وهي السنة التي عهدت بها الخلافة الفاطمية بتولية علي بن المكرم الدعوة الإسماعيلية والسلطة في اليمن. واستمر حتى نهاية سنة 479هـ/ 1087م وهي السنة التي قبلت بها الحرة السيدة الزواج من الداعي سبأ الصليحي. وبداية سنة 480هـ/ 1087م وهي السنة التي انتهى فيها الصراع بين الزواحيين والصليحيين في اليمن.

وأن ذلك الصراع كان سببه ادعاء كل طرف بأحقيته بتولي الدعوة والسلطة في اليمن. فالصليحيون على رأسهم سبأ بن أحمد الصليحي كانوا يدّعون بأن سبأ الصليحي أحق بالدعوة لأن المكرم عهد إليه بذلك. ولأن علي بن المكرم كان طفلاً لا يجوز له تولي الدعوة، لعدم مقدرته على تحمل أعبائها. أما الزواحيون

(1) السجلات، ص: 120، 121. (2) السجلات، ص: 121.

وعلى رأسهم سليمان بن عامر الزواحي والحرة السيدة فقد كانوا يدّعون أن علي بن المكرم كان أحق بتولي الدعوة لأن الخليفة المستنصر الفاطمي عهد إليه بذلك. وأنه في نظر هؤلاء والخليفة أنه يجوز تولية الأطفال الدعوة والسلطة. كما سبق ذكره.

وخلال فترة هذا الصراع ظلت المراسلات قائمة بين الحرة السيدة في اليمن والخليفة المستنصر الفاطمي بمصر. كان موقف الخلافة الفاطمية الوقوف بجانب السيدة الحرة وابنها علي بن المكرم ومساعدتهما. فأكدت مراراً على أحقية علي بن المكرم في تولي الدعوة والسلطة في اليمن وراثياً رغم صغر سنه. لأن تولية الأطفال الدعوة والسلطة جائز لدى الفكر الإسماعيلي. وحاولت الخلافة الفاطمية إقناع اليمنيين المعارضين لتولية الأطفال، بجواز توليتهم. كما أكدت الخلافة مراراً لجميع الزواحيين والصليحيين وأنصار الدعوة الإسماعيلية في اليمن بطاعة علي بن المكرم ووالدته الحرة السيدة. وشكرت الخلافة الفاطمية طاعة سبأ الصليحي لعلي بن المكرم. كما أيدت إنهاء الصراع بين الزواحيين والصليحيين، وشكرت الحرة السيدة لمقدرتها على حل ذلك الخلاف. وفوّضت إليها حل مشاكل اليمن.

كذلك نستنتج من تلك المراسلات أنه على الرغم من استمرار المراسلات بين اليمن ومصر حول الصراع الدائر في اليمن. أن حل الخلاف بين الزواحيين والصليحيين جاء من اليمن نفسها وليس من الخلافة الفاطمية. وذلك بقبول سبأ بن أحمد الصليحي طاعة علي بن المكرم. وموافقة الحرة السيدة أروى على الزواج من سبأ الصليحي. وذلك من خلال شكر الخلافة الفاطمية لطاعة سبأ لعلي بن المكرم وارتضاء الخلافة بما حلت الحرة السيدة تلك المشكلة.

وعلى الرغم من انتهاء الصراع في اليمن بين الزواحيين والصليحيين إلاّ أن الخلافة الفاطمية استمرت في إرسال السجلات إلى اليمن تؤكد فيها دعمها لأنصارها فأرسل الخليفة المستنصر الفاطمي إلى عبد المستنصر الفاطمي سجلاً برقم (22) مؤرخ في ذي القعدة سنة 481هـ/ يناير 1089م أورد فيه أربعة أفكار هي:

1 ـ **الفكرة الأولى**: أوضح الخليفة المستنصر فيها وقوفه بجانب علي بن المكرم وأمه الحرة السيدة حيث قال فيه: «ولا يزال أمير المؤمنين شاداً لأواخيك فصدر أوامره وللحرة والدتك الملكة السيدة»[1].

2 ـ **الفكرة الثانية**: يشكر فيها الخليفة المستنصر طاعة علي بن المكرم له. وذلك من وفق استعراضه للرسائل المتبادلة بينهما حيث جاء فيه: «وأنه عرض بحضرة

---

(1) السجلات، ص: 80.

أمير المؤمنين كتابك، جواب ما كان صدر إليك على يد الشيخ أبي نصر سلامة بن حسين كاتبك ـ . . . . ـ ووقف أمير المؤمنين عليه حامداً للّه جلت آلاؤه على ما خصه فيك من الاستقامة، مسروراً بما سهله اللّه من ضم كلمة الاتفاق واستواء نظامه، فأما اعترافك بشكر ما أولاكه أمير المؤمنين من إقرار الدعوة منك في نصابها، وإحكام وثائقها وأسبابها، وقدرك. . . . . فأمير المؤمنين يرعى خدمة أبيك وجدك فيك»[1].

3 ـ **الفكرة الثالثة**: يشكر الخليفة سلاطين اليمن على طاعتهم لعلي بن المكرم بقوله: «وأما وصول الشيخ أبي نصر المذكور بالسجلات والملطفات إلى كافة السلاطين والمؤمنين بجزيرة اليمن بالائتمار لأمرك وشكرك لمساعيهم، وإشادتك بما يوجههم بحضرة أمير المؤمنين ويحظيهم، واختصاص السلطان سبأ بن أحمد الصليحي في ذلك بما أقر عينه من نباهة التمييز، وإحلاله محل الأمير العزيز»[2].

4 ـ **الفكرة الرابعة**: اقتناع الخليفة المستنصر بالحل الذي تمّ بين الزواحيين والصليحيين وانتهاء الشجار بينهم بقوله عن ذلك: «وكمل بورود أوامر أمير المؤمنين تمامه، من زوال ما كان شجر، بين سبأ بن أحمد الصليحي، وسليمان بن عامر الزواحي وانقشاع ما كان غشي أمير المؤمنين بذلك من الضباب وخمود ما كان تأجج من نار الفتنة التي أغلق دونها الباب، وعود الأمر فيما بينهما إلى أجمل عوائد الاتفاق»[3]. وهكذا شرح السجل رقم (22) معرفة الخليفة المستنصر لما جرى في اليمن. وشكر فيه طاعة كل من علي بن المكرم وسبأ الصليحي. كما أوضح السجل اطمئنان الخليفة لانتهاء الصراع بين الزواحيين والصليحيين في اليمن.

علاقة اليمن بالدعوة الإسماعيلية بالهند وعُمان:

وبالنسبة لتبعية الهند وعُمان في الدعوة الإسماعيلية لليمن في عهد الحرة السيدة أروى. فقد أرسل الخليفة المستنصر الفاطمي إلى الحرة السيدة سجلاً برقم (50) ومؤرخ في العشر الأواخر من ذي القعدة سنة 481هـ/ يناير 1089. يشكرها فيه على حسن اهتمامها بهذه الجهات وتولية من تراه صالحاً للدعوة الإسماعيلية فيها، جاء فيه: «فإنه عرض بحضرة أمير المؤمنين كتابك المضمَّن كتاب وفاة داعية

(1) السجلات، ص: 81.
(2) السجلات، ص: 81.
(3) السجلات، ص: 81، 82.

بالهند. . . وأنه خلَّف ولدين ذوي دين وتقية واستصلاح للخدمة. وأن المومأ إليه منهما: أحمد الأكبر لتمييزه وحميد طريقته، وصدق حاجة المؤمنين هناك إلى داع شملهم على الطاعة ويؤنس وحشتهم، بعد وفاة داعيهم الذي كان له حسن الأثر، مؤثراً بحسن الولاء والتباعة، ثم شفعت ذلك بما اعتمده المعروف بإسماعيل بن إبراهيم الداعي كان بعمان من التخلي عن الخدمة والركاض في طلب التجارة، وبقي المؤمنون شتاتاً بعد بعده وانفصاله، وأن سبط حميد الدين المتوفّى خَلَّفَ ولداً يسمى حمزة يصلح للاستخدام عوض المذكور، إلى غير ذلك مما وقف أمير المؤمنين عليه، وأحمد لك تنبهك على هذه المصالح وتفقدك أحوال الدعوة والدعاة في ذلك الأطراف والنواحي، وعلم أنك يقظة لما عاد بقيام أمر الدين ووطد مهاده، وعلى سلطان الدعوة ورفع عماده»[1].

من خلال ذلك النص نجد أنه نظراً لأن الحرة السيدة أصبحت صاحبة النفوذ والسلطة في اليمن ـ أوكلت إليها الخلافة الفاطمية أمر تولية الدعاة في الهند وعُمان والإشراف عليهما. لذلك عمل الخليفة المستنصر برأي الحرة السيدة بتعيين الشخصين المذكورين في الهند وعُمان وأصدر أوامره إلى أمير جيوشه بدر الجمالي بإصدار تقليد لهما بقوله: «وأوعز أمير المؤمنين إلى فتاه: السيد الأجل، أمير جيوشه. . . بإصدار التقليدين عن مجلس نظره، باسم كل من الداعيين المذكورين. .»[2].

ونتيجة لتبعية الهند وعُمان لليمن واهتمام الحرة السيدة بهذه الجهات فقد أوكل الخليفة المستنصر الفاطمي لها حرية التولية لمن تشاء وإدارة تلك الجهات كما تريد. حيث جاء في السجل (50) قوله: «وأنت قد جعل إليك أمير المؤمنين النظر في تلك البلاد والأعمال ومراعاة دُعاتها، وانتظام حال الدعوة فيها، ومعونتهم بما يصلح خدمهم، ويؤكد أمرهم، ويجب أن تندبي من تخيرتيه للتوجه إلى هناك، وإنفاد كتبك بما تطيب به النفوس، وتنشرح له الصدور بالرعاية وتسديدها، والمطالعة بما يحتاج إليه من مصالحها. فاعلمي ذلك وأعملي بحسبه، إن شاء اللّه والسلام عليك ورحمة اللّه وبركاته»[3].

مما سبق يتضح أن الخلافة الفاطمية أوكلت إلى الحرة السيدة أروى منذ سنة 480هـ/ 1087م تولي أمور السلطة في اليمن. كما جعلتها مسؤولة عن تولية الدعاة في الهند وعُمان. وبذلك ارتفعت الحرة السيدة إلى (مقامات الحجج) وهي من أعلى مراتب الدعوة الإسماعيلية. نذكرها فيما بعد.

(1) السجلات، ص: 168.
(2) السجلات، ص: 168.
(3) السجلات، ص: 169.

وقد ظلت السيدة الحرة تحكم اليمن إلى جانب ابنها علي بن المكرم منذ وفاة أبيه المكرم. إلا أن ابنها لم تطل به الحياة فقد مات على الأرجح سنة 484هـ/ 1091م أما أخوه الأصغر محمد بن المكرم فقد مات قبل أخيه وذلك في سنة 480هـ/ 1087م كما يبدو. وبعد موت علي بن المكرم تولت أمه السيدة الحرة اليمن بنفسها دون أن يستطيع أحد من قادة الصليحيين أو سلاطين اليمن معارضة حكمها. بسبب وقوف أخيها سليمان الزواحي إلى جانبها وكذلك الخلافة الفاطمية. وما كانت تتمتع به من عقلية وحكمة. لذلك أصبحت السيدة الحرة هي الحاكم الفعلي لليمن منذ وفاة ابنها حتى وفاتها سنة 532هـ/ 1138م حيث لقبت «بوحيدة الزمن» و«سيدة ملوك اليمن»[1].

أهم قادة الحرة السيدة: ساهمت جماعة من القادة في مناصرة السيدة الحرة وابنها. وتدعيم سلطانهما ونفوذهما في اليمن. مثل سبأ بن أحمد الصليحي، وأخيها سليمان الزواحي والمفضل ابن أبي البركات وابن عمه أسعد ابن أبي الفتوح. ومبعوث الخلافة الفاطمية إلى اليمن ابن نجيب الدولة. نورد هنا أهم أدوارهم بالآتي:

1 ـ **سبأ بن أحمد الصليحي:** كان سبأ بن أحمد الصليحي أحد أنصار المكرم وقف بجانبه ضد الزيدية وقبائل اليمن الأعلى وضد النجاحيين. ولاّه المكرم حصن أشيح وما حوله من الحصون. فجعل سبأ أشيح مقر سلطانه. وكانت أهم الحصون التابعة له في تلك المنطقة هي حصن مقري ووصاب ونعمان وقوارير والظفر والشرف وذو الريشة وظفار وريمة ومخاليفها. وهذه الحصون مطلة على تهامة ومقابلة لزبيد[2].

وعندما شعر المكرم بقرب أجله سنة 477هـ/ 1085م أوصى برئاسة الدعوة الإسماعيلية في اليمن إلى سبأ بن أحمد الصليحي. نظراً لأنه كان من أهم شخصيات بني الصليحي آنذاك. إلاّ أنه لم يتمكن من الاحتفاظ بهذا المنصب لظهور منافسين له في تولي هذا المنصب. كما سبق ذكره.

ومن أهم المشاكل التي نشأت بين سبأ بن أحمد الصليحي والحرة السيدة أن

(1) عمارة: المفيد، ص: 151.

(2) عمارة: المفيد، ص: 148، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 80، الحمزني: كنز، ص: 81، وابن الديبع: بغية، ص: 59، الخزرجي: العسجد، ص: 64، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 274، 275، الكبسي: اللطائف، ص: 40، الجرافي: المقتطف، ص: 80، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 275، الحداد: التاريخ، ص: 248.

سبأ حاول التمسك بوصية المكرم له بتولية الدعوة الإسماعيلية في اليمن. إلاّ أن الخلافة الفاطمية وسليمان الزواحي والمفضل بن أبي البركات وقفوا بجانب تولية الدعوة والسلطة لابن السيدة علي بن المكرم. فحاول سبأ الاستيلاء على السلطة بالقوة، فدار صراع قصير بين الطرفين انتهى بحل الصراع بينهما بقبول السيدة الزواج من سبأ وقبول سبأ طاعة ابنها. كما سبق توضيحه.

أما أهم الأدوار التي ناصر بها السلطان سبأ بن أحمد الصليحي سلطان الحرة السيدة وابنها علي بن المكرم. هو محاولته الاستيلاء على تهامة. وذلك نتيجة لأن السلطان سبأ بن أحمد الصليحي كان مستولياً على الحصون القريبة من تهامة وزبيد. فدار صراع طويل ومستمر بينه وبين جياش النجاحي. حول السيطرة على تهامة. وكما يبدو أن هذا الصراع استمر من سنة 472هـ/ 1079م حتى سنة 476هـ/ 1083م. وخلال هذه الفترة كانت تهامة تحكم ستة أشهر من قبل الصليحيين وستة أشهر من قبل النجاحيين. حيث كان الصليحيون ينزلون تهامة إذا كان النسيم أو الجو بارداً فيها، فيحكمونها طيلة فصلي الشتاء والربيع. أما إذا تغير النسيم أو اشتدت الحرارة في تهامة خلال فصلي الصيف والخريف. فالصليحيون لا يستطيعون البقاء في تهامة بل يرحلون عنها إلى الجبال. وكان رحيلهم عنها لعدة أسباب منها انتشار الوباء بها أو شدة الحرارة أو اتجاه النجاحيين لقتالهم.

وأثناء ذلك الصراع وإقامة جند سبأ الصليحي في تهامة كان سبأ: «يجبي خراجها ولا يؤذي أحداً من الرعايا بظلم ولا غيره وكان يحتسب للعمال بما يقبض منهم جياش في أشهر الصيف والخريف». كذلك كان جياش عندما يتمكن من استعادة تهامة من الصليحيين: «يحتسب للعمال واجبات الأموال بما قبضه منهم سبأ في شهور الشتاء والربيع».

ونتيجة لأن أهل زبيد وتهامة كان أغلبهم من أهل السُنَّة وهو المذهب الذي كان النجاحيون ينتمون إليه. فقد كانوا يكرهون حكم الصليحيين لهم. ويميلون إلى قبول حكم النجاحيين. أوضح ذلك عمارة بقوله: «وإذا عاد جياش إلى زبيد نشرت المصاحف وابتهلت له الرعايا بالدعاء وظهرت الفقهاء وتطاولت العلماء»[1].

معركة الكظائم: تعتبر معركة الكظائم التي وقعت على باب زبيد الشرقي،

(1) عمارة: المفيد، ص: 148، 149، ابن عبد المجيد، بهجة، ص: 80، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 266، بغية، ص: 59، الخزرجي: العسجد، ص: 64، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 275، الجرافي: المقتطف، ص: 80، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 276، حسن محمود: أروى، ص: 27، الحريري: معالم، ص: 56.

من أهم المعارك التي دارت بين سبأ الصليحي وجياش النجاحي. وكان حدوثها بسبب تدبير جياش ووزيره خلف بن أبي طاهر حيلة للقضاء على سبأ الصليحي حسب رأي عمارة اليمني محتواها الآتي:

أشار الوزير خلف بن أبي طاهر على جياش أن يصادر ماله ويحبسه ويولّي مكانه في الوزارة محمد بن العقاري. وأوضح خلف لجياش أنه بعد أن يحبسه سينقب السجن ويهرب منه إلى سبأ الصليحي وحرّضه على النزول على تهامة. «وضمن له الخبرة والمكائد ما يقطع به دابر جياش».

وكان الوزير خلف أثناء تحريضه لسبأ الصليحي يكتب إلى جياش سراً ويخبره أن يظهر التراخي والعجز. ويحاول استعطاف سبأ ومداراته بأن يعطيه نصف مالية تهامة شريطة أن يتوقف عن مناصرة الوزير خلف ويبعده من عنده. وذلك بهدف إيهام الصليحيين أن النجاحيين لا يملكون قوة وخائفين منهم.

لذلك اطمأن سبأ الصليحي لعدم مقدرة جياش قتاله فجهز جيشاً كبيراً مكوّناً من ثلاثة آلاف فارسٍ وعشرة آلاف راجل من ضمنهم القاضي عمران اليامي والي صنعاء. ولما سار جيش الصليحيين نحو زبيد ووصلوا إليها عسكروا خارجها من ناحية بابها الشرقي منتظرين قدوم الصباح ليبدأوا به المعركة.

وبالنسبة لجياش النجاحي فقد استعد للمعركة واستعان لقتالهم بالشريف القاسم بن غانم بن وهاس صاحب المخلاف السليماني، ومولى سعيد الأحول ريحان الكهلاني. وأثناء عسكرة الصليحيين خارج باب زبيد، أعد القائد ريحان الكهلاني كميناً لهم حيث هجم عليهم ليلاً على حين غرة منهم ورماهم بالحراب والسهام. فأهلك الكثير من جيش الصليحيين وهزمهم. وقتل جماعة من قادتهم منهم عمران اليامي وأخ لسبأ يسمى قيس بن أحمد الصليحي ومحمد بن مهنا الصليحي. وحتى سبأ نفسه كان سيهلك نتيجة عقر فرسه. إلا أنه هرب مترجلاً في الليل، وأدركه أحد أفراده فحمله على فرسه. قبل أن يهلك[1]. وكان حدوث هذه المعركة في يوم الجمعة الخامس من ذي الحجة سنة 479هـ/ مارس 1087م. في موضع يسمى الكظائم[2]. بعد هذه المعركة لم يحاول

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 149، 150، الوصابي: الإعتبار، ص: 41، الهمداني: الصليحيون، ص: 152، 154، حسن محمود: أروى، ص: 27، 28، الكبسي: اللطائف، ص: 40، العقيلي: المخلاف السليماني، 2/ 42، 43، الحريري: معالم، ص: 57، 58.

(2) الهمداني: الصليحيون، ص: 152، يذكر أحمد شرف الدين في اليمن عبر التاريخ، ص: 202، أن معركة الكظائم كانت سنة 484هـ.

سبأ النزول إلى تهامة. وبذلك أصبح النجاحيون مسيطرين عليها دون منازع.

وكما يتضح أن رواية عمارة هذه لا يمكن أن تتم بتلك الكيفية أن يدبر الوزير خلف حيلة لنزول سبأ الصليحي إلى تهامة. والحقيقة كما يوضحها بامخرمة أن خلافاً حقيقياً حدث بين خلف وجياش أدى إلى هروب خلف إلى سبأ الصليحي ومحاولته التعاون معه للقضاء على جياش. ولكنهما لم يتمكنا من ذلك[1] وسنوضح ذلك في فصل الدولة النجاحية.

اتصف سبأ الصليحي بأنه كان جواداً شاعراً[2] مدحه كثير من الشعراء وممن مدحه الشاعر الحسين بن علي بن القم بعدة قصائد منها قوله:

إن ضامك الدهر فاستعصم بأشيح ... أو أزرى بك الفَقْرُ فاستمطر بنان سبا
ما جاءه طالب يبغي مواهبه ... إلاّ وأزمع منه فقرُهُ هربا
بني المظفر ما امتدت سماء علا ... إلاّ وألفيتم أفقها شهبا
إن امرأ كنت دون الناس مطلبه ... لأجدر الناس أن يحظى بما طلبا

وقول ابن القم أيضاً:

وما يلتقي صدق الوداد وطاعة ... العذول، ولا جود ابن أحمد والجَدْبُ
كريم إذا جادت فواصل كفه ... تيقنت أن البخل ما يفعل السحب
أجار فلا خوف، وأحيا فلا ردى ... وجاد فلا فقر ورام فلا صُعَبُ
كتبت إليه والمفاوز بيننا ... وكان جوابي جواد كفيه لا الكُتُبُ

ومن شعر ابن القم كذلك:

معاليك لا ما شيدته الأوائل ... ومجدك لا ما قاله فيك قائل
وما المجد إلاّ حيث هممت قاصداً ... وما النصر إلاّ حيث تنزل نازِل
مليك يقض الجيش والجيش حافل ... ويخجل صوب المزن والغيث هاطل
سحاب عواديه لُجَين وعَسْجد ... وليث عواديه قنا وقنابل[3]

وكذلك مدحه الحسين القمي بقوله:

ولما مدحت الهِزْ بَريَّ ابن أحمد ... أجاز وكافاني على المدح بالمدح
فعوضني شعراً بشعري، وزادني ... عطاءً، فهذا رأس مالي، وذا ربحي

(1) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 102، 103.
(2) عمارة: المفيد، ص: 146، الخزرجي: العسجد، ص: 63.
(3) عيون الأخبار، 7/ 142، 143، الهمداني: الصليحيون، ص: 159، 160، حسن محمود: أروى، ص: 38، 39، العقيلي: المحلاف السليماني، 2/ 44.

شققت إليه الناس حتى لقيته فكنت كمن شق الظلام إلى الصبح
فقبح دهر ليس فيه ابن أحمد ونزه دهر كان فيه من القبح[1]

وعن ألقاب سبأ بن أحمد الصليحي فقد لقب بالآتي: «الأمير الأجل الأوحد المنصور المظفر عمدة الخلافة أمير الأمراء أبي حمير سبأ بن أحمد بن المظفر بن علي الصليحي»[2]. مما يدل على أنه كان أهم قائد للسيدة الحرة وابنها أمير أمراء اليمن آنذاك. وبالنسبة لوفاة سبأ الصليحي فقد كانت وفاته في سنة 491هـ/ 1098م.

2 ـ **سليمان الزواحي**: ورث سليمان الزواحي السلطة بعد أبيه عامر الزواحي على مناطق مغارب اليمن الأعلى. مثل شبام كوكبان والمناطق المجاورة لها. وكان أهم زعماء حمير في تلك المنطقة. فضلاً عن أنه كان زعيم آل الزواحي الذين كانوا مع آل الصليحي من أهم دعاة الإسماعيلية في اليمن. وهو أخو السيدة الحرة من أمها، ظل مناصراً لها ولابنها في تولي السلطة في اليمن ضد طموح سبأ الصليحي السياسي في حكم اليمن.

ونظراً لدور آل الزواحي في مناصرة الدعوة الإسماعيلية في اليمن ووقوف سليمان بجانب السيدة الحرة لم يتمكن سبأ الصليحي من انتزاع السلطة منها. وعلى ذلك فقد كان حكم السيدة الحرة لليمن قوياً بمناصرة أخيها سليمان الزواحي لها. كما أن اليمن الأعلى في عهده ظل خاضعاً لسلطان الصليحيين.

ولما توفي سليمان بن عامر الزواحي وذلك سنة 492هـ/ 1099م. وقبله بسنة سبأ الصليحي انتهى بذلك أهم قائدين للسيدة الحرة. وعلى أثر وفاتهما استقلت صنعاء عن سلطان السيدة الحرة والصليحيين[3].

3 ـ **أسرة آل أبي البركات الحميري**: كان أسعد بن عبد الله الصليحي متولياً لحصن التعكر. فلما انتقل المكرم إلى ذي جبلة. نقل أسعد إلى حصون ريمة وأعمالها. وَوَلّى على التعكر أبا البركات بن الوليد الحميري. كما وَلّى أخاه أبا الفتح الحميري حصن تعز[4]. وظلت بعد ذلك ولاية حصني التعكر وتعز وراثية في أسرة آل أبي البركات.

وعلى الرغم من أن عمارة أوضح أن سبب نقل أسعد بن عبد الله الصليحي

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 147، الهمداني: الصليحيون، ص: 161، حسن محمود: أروى، ص: 39.
(2) عمارة: المفيد، ص: 146.
(3) إدريس: عيون الأخبار، 7/ 168، الهمداني: الصليحيون، ص: 161، الخزرجي: العسجد، ص: 65.
(4) عمارة: المفيد، ص: 154، 155، الوصابي: الاعتبار، ص: 42، الخزرجي: العسجد، ص: 65.

من حصن التعكر إلى حصون ريمة هو سوء سيرته. إلاّ أن ذلك غير معقول وكما يتضح أن أسرة آل أبي البركات كانت أحد الزعامات القبلية في مخلاف جعفر مالوا إلى المذهب الإسماعيلي. فنالوا ثقة الصليحيين، ولما انتقل المكرم إلى ذي جبلة اعتمد عليهم في تدعيم نفوذه في اليمن الأسفل وجعلهم أهم أنصاره. فولاّهم حصني التعكر وتعز واستعان بهم في كثير من حروبه. وكما يبدو أنه حدث اتفاق بين المكرم وأسرة أبي البركات على منحهم حكم التعكر وتعز وراثياً مقابل استمرار طاعتهم ومناصرتهم لآل الصليحي.

ولما توفي المكرم وتوفي بعده أبو البركات الحميري وَلّت السيدة الحرة حصن التعكر لابنه خالد بن أبي البركات. وكان خالد على علاقة طيبة بالفقيه الشافعي عبد اللّه بن المصوع. فكان يداوم على الذهاب إلى خالد إلى حصن التعكر كونه حاكماً على بلدته ذي السفال. وكان خالد يترك الفقيه يدخل عليه دون حجابة. وعلى الرغم من تلك العلاقة الطيبة بين الاثنين، واتصاف الفقيه ابن المصوع بأنه كان فقيهاً فاضلاً ذا دنيا واسعة لم يكن له طموح في السلطة أو المال. إلاّ أنه استحل دم خالد بن أبي البركات والي التعكر. وأقدم على قتله بعد سنتين من ولايته. والسبب في ذلك اعتناق خالد للمذهب الإسماعيلي ومغالاته فيه[1]. وكان ذلك في حدود سنة 480هـ/ 1087م[2].

المفضل بن أبي البركات: بعد أن قتل خالد بن أبي بركات ولت السيدة الحرة مكانه على حصن التعكر أخاه المفضل بن أبي بركات. وكان المفضل منذ صغر سنه يعمل بمهنة الوصافة في قصري المكرم والسيدة الحرة، أوضح ذلك عمارة بقوله: (والمفضل يومئذٍ يتوصف للملك المكرم بذي جبلة وهو من صغار الدار الذين يدخلون على الحرة الملكة في رسائل المكرم والحوائج بينهما)[3]. لذلك ولّته السيدة حصن التعكر.

ثأر المفضل لقتل أخيه: أول عمل للمفضل بن أبي البركات بعد توليته التعكر هو الانتقام لمقتل أخيه. فعلى الرغم من أن الفقيه ابن المصوع أقدم على قتل خالد دون أن يشترك معه أحد من الفقهاء أو يشاورهم على قتله. وأنه قتل بعد قتل خالد مباشرة من قبل جنوده في الحصن. إلا أن المفضل لم يكتف بذلك. فقد صادر

---

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 66، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 269، 270، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، ص: 279، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 280.

(2) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 269، 270.

(3) عمارة: المفيد، ص: 155، الخزرجي: العسجد، ص: 66، حسن محمود: أروى، ص: 40.

أموال الفقيه وأراضيه وبساتينه في ذي السفال. وأظهر عداوة ضد فقهاء الشافعية في مخلاف جعفر وعمل على تتبعهم. وخاصة فقهاء ذي السفال. فهرب منه معظمهم خوفاً من سطوته عليهم[1].

ومن أهم أعمال المفضل لمناصرة السيدة الحرة بداية توليته التعكر أنه وقف بجانبها ضد سبأ الصليحي في صراعها معه حول تولية الدعوة والسلطة في اليمن. فقد جهز المفضل جيشه وسار لمحاربة سبأ الصليحي. إلا أن هذه الحرب توقفت بسبب تحكيم الخليفة المستنصر الفاطمي[2].

أما أهم الأعمال العسكرية التي ناصر بها المفضل السيدة الحرة بعد موت سبأ الصليحي وسليمان بن عامر الزواحي. أنه قام بالقضاء على تمردات عمرو بن غرفطة الجنبي وغيره من القبائل. كما قام بالقضاء على استقلال بني زريع في عدن. فضلاً عن قيامه بالقضاء على محاولة علي بن سبأ الصليحي الذي سعى إلى وراثة السلطة على حصون أبيه نوضح ذلك بالآتي:

لما مات السلطان سبأ الصليحي والسلطان سليمان بن عامر الزواحي حاولت قبيلة جنب بقيادة عمر بن عرفطة الجنبي، وقبائل سنحان وعنس وزُبَيْد الخروج عن طاعة السيدة الحرة فاتجه إليهم المفضل بن أبي البركات بجيشه فحاربهم حتى تمكن من إعادتهم إلى طاعة السيدة الحرة[3].

كذلك استغل بنو زريع في عدن موت السلطانين سبأ الصليحي وعامر الزواحي فحاولوا قطع المائة ألف دينار التي كانت تدفع سنوياً للسيدة الحرة. فنزل المفضل بن أبي البركات إليهم بجيشه لمحاربتهم فتمت المصالحة بينهم على أن يدفع زريع للسيدة نصف المبلغ السابق وهو خمسون ألف دينار[4].

أما بالنسبة لشمس المعالي علي بن سبأ الصليحي الذي حاول أن يتولى السلطة على الحصون التي كانت تابعة لأبيه. فقد وقفت السيدة الحرة ضده، ووجهت المفضل لمحاربته وانتزاع حصن قيظان منه. وقد أورد عمارة قصة صراعه مع السيدة بالآتي:

كان علي بن سبأ متزوجاً ابنة السيدة الحرة. واسمها فاطمة بنت المكرم. كان متولياً لحصن قيظان، ولما تزوج علي بن سبأ زوجة ثانية على زوجته الأولى

---

1) الخزرجي: العسجد، ص: 66، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 280.
2) عمارة: المفيد، ص: 156، الخزرجي: العسجد، ص: 67، أيمن فؤاد، المذاهب، ص: 159.
3) عمارة: المفيد، ص: 156.
4) عمارة: المفيد، ص: 156، الحمزي: كنز، ص: 82، الواسعي: تاريخ اليمن، ص: 174.

ابنة السيدة الحرة. كتبت إلى أُمها تستنجد بها. فأرسلت إليها السيدة جيشاً بقيادة المفضل بن أبي البركات. فحاصر علي بن سبأ حصاراً شديداً حتى أخرجه من ملكه بالحصن بأمان على نفسه. أما زوجته ابنة السيدة فقد لبست زي الرجال وخرجت من حصن زوجها بحماية عسكر المفضل ثم أرسلها إلى أمها السيدة[1].

والواقع أن قصة زواج علي بن سبأ التي أوردها عمارة سابقاً لم تكن هي السبب الحقيقي في الخلاف الذي دار بينه وبين السيدة الحرة. وإنما الخلاف الحقيقي هو أن علي بن سبأ أراد أن يحل محل أبيه بعد موته في توليه حصونه في اليمن وراثياً. فوقفت السيدة ضده. وقد صادف خلاف علي بن سبأ مع السيدة بحدوث زواجه على زوجة أخرى فوق ابنتها فاطمة مما جعل فاطمة تميل إلى مناصرة أمها السيدة الحرة. ولذلك كله أرسلت السيدة المفضل بن أبي البركات للقضاء عليه.

وبعد أن تمكن المفضل انتزاع حصن قيظان من علي بن سبأ. حاول اللجوء إلى الخلافة الفاطمية بمصر. فذهب إلى الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي يطلب مساعدته (فلم يلتفت إليه ولم يكرمه). فعاد علي بن سبأ إلى اليمن واتجه للاستيلاء على بعض حصون أبيه بالقوة. إلا أن المفضل دس عليه من قتله بالسم سنة 495هـ/ 1102م[2] وبذلك تخلص المفضل والسيدة من علي بن سبأ.

لذلك كان المفضل أحد رجالات السيدة الحرة المخلصين لها. لأنه تربّى في قصرها. وكان يطيعها ويعمل على تنفيذ الأوامر التي تأمره بها، أوضح ذلك عمارة بقوله: (والمفضل يتصرف عن أوامرها ويدخل إليها مع خواص وزرائها والأئمة والأكابر من عبيدها)[3]. لذلك كان المفضل من أهم رجالات قصر السيدة الحرة وقادتها.

وكانت السيدة الحرة تجل المفضل وتكرمه و(تواصل بره بما يحسن عنده موقعه من الجواري المغاني والكساوي والطيب والعبيد والأستاذين وغير ذلك). ولم تزل هذه حالته معها طيلة حياته (ومن لامها فيه أو حذرها منه لم تسمع كلامه)[4].

ثم ارتفعت مكانة المفضل حتى أصبح أهم رجل في الدولة الصليحية وأهم رجل لدى السيدة الحرة وخاصة بعد موت سبأ الصليحي وسليمان بن عامر

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 153، 154، الوصابي: الاعتبار، ص: 41.
(2) عمارة: المفيد، ص: 153، 154.
(3) عمارة: المفيد، ص: 155، الخزرجي: العسجد، ص: 67.
(4) عمارة: المفيد، ص: 156، الخزرجي: العسجد، ص: 68، حسن محمود: أروى، ص: 42.

الزواحي، حتى صار المفضل: (هو رجل الدولة ومدبرها والمرجوع إلى رأيه وسيفه والحرة لا تقطع أمراً إلا به فعظم ذلك شأنه وعلت كلمته) حتى: (لم يبق في اليمن من يساويه ولا يساميه)[1].

ومن أهم أعمال المفضل تجاه موظفي الدولة أنه كان: (ينظر أحوال الأعمال والعمال ويجيب عن كل كتاب وصل الباب). وبالنسبة للرعايا فإنه كان يفتح بابه لكل الناس ويعتني بمن (اجتمع ببابه من الوفود ويصل إليه القوي والضعيف)[2].

وبالإضافة إلى أن حصن التعكر كان من أهم حصون اليمن المنيعة فقد كان: (مقر دخائر بني الصليحي التي صارت إليهم من ملوك اليمن) وكانت السيدة الحرة تستخدمه مصيفاً لها: (فكانت تطلع إليه في أيام الصيف فتقيم به وإذا برد الوقت سكنت بذي جبلة)[3].

وعندما أرادت الحرة السيدة التدخل بما يهم الحصن من الأمور وخاصة الأمور العسكرية نصحها المفضل بعدم فعل ذلك بقوله لها: (انظري إلى ما كان في هذا الحصن من ذخائر فأنزلي به إلى دار العز أو فاعزليه في بعض هذه القصور وأما هذه الحجر يعني التعكر فاتركيه لي فلا طاعة لك عليَّ فيه بعد اليوم). يدل ذلك على أن المفضل بدأ يحدّ من سلطان السيدة الحرة. وعلى الرغم من قناعتها بكلام المفضل، وعدم التدخل في الأمور العسكرية، ولا بما في الحصن: (ونزلت إلى ذي جبلة ولم تغير من الأحوال شيئاً). إلا أنها غضبت من تصرف المفضل نحوها فتركت طلوع الحصن للتصيف به. فحاول المفضل إقناعها بالطلوع حيث (كان ينزل إليها ويترضاها في طلوع الحصن كعادتها فلا تفعل)[4].

نزول المفضل إلى تهامة ونهايته: نتيجة لصراع أولاد جياش حول السلطة في تهامة. أدى ذلك إلى أن يلجأ الأستاذون والوصفان بمولاهم منصور بن فاتك بن جياش إلى المفضل بن أبي البركات والسيدة الحرة إلى التعكر في ذي جبلة سنة 503هـ/ 1109م. يطلبون منهما مساعدتهم على استعادة سلطانهم من عبد الواحد بن جياش. مقابل إعطائهم ربع محصول مالية بلاد تهامة على نصرتهم. فاستقبلتهم

(1) عمارة: المفيد، ص: 156، الخزرجي: العسجد، ص: 66، حسن محمود: تاريخ اليمن، ص: 199، أروى، ص: 41.
(2) عمارة: المفيد، ص: 157.
(3) عمارة: المفيد، ص: 155، الوصابي: الاعتبار، ص: 43، الخزرجي: العسجد، ص: 67.
(4) عمارة: المفيد، ص: 156، الخزرجي: العسجد، ص: 67 ـ 68، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 281، حسن محمود: أروى، ص: 41، 42.

السيدة الحرة والمفضل وأكرما مثواهم. وقبلا مساعدتهم[1]. ومن الملاحظ هنا أن أعداء الأمس أصبحوا أصدقاء اليوم.

رأى المفضل أن ذلك فرصة له لاستعادة تهامة وضمها إلى نفوذ الصليحيين في عهده. فجهز جيشاً كبيراً وسار بهم نحو زبيد. فحارب عبد الواحد بن جياش حتى هزمه. وأعاد منصور بن فاتك إلى سلطته. وآنذاك حاول المفضل أن يغدر بأهل تهامة ويستولي على السلطة. وكان كلما طلب منه منصور بن فاتك الخروج من زبيد ماطل في ذلك. إلا أن الاستيلاء على التعكر جعله يترك تهامة.

استغل فقهاء ذي جبلة خلو حصن التعكر من المفضل، وطول إقامته في تهامة. فأعلنوا الثورة عليه واستولوا على الحصن. وقد ساعدهم على ذلك أن المفضل ترك على حصن التعكر حين نزل زبيداً نائباً له يسمى الجمل اتسم بالدين[2]. (وكان جماعة من فقهاء الشافعية يخالطونه إلى التعكر)[3]. ولما حانت الفرصة للثورة صعد سبعة من الفقهاء منهم محمد بن قيس الوحاظي، وعبد اللّه بن يحيى، وعم عمارة إبراهيم بن زيدان الذي تزعم الثوار حيث كانت إليه البيعة فاستولوا على الحصن من الجمل نائب المفضل.

وكانت الرعايا من أهل السُنَّة قد اتفقوا مع الفقهاء على مناصرتهم حيث أشاروا عليهم بأنهم إذا وصلوا إلى رأس الحصن أشعلوا النار دليلاً على نجاحهم في الاستيلاء على الحصن، فلما نجح الفقهاء في الاستيلاء على الحصن، أوقدوا النار ليلاً. فاستعدت الرعايا ولم يصبح الصبح إلا وقد صار عشرون ألف رجل منهم على باب الحصن. وبذلك ساعدت الرعايا على استيلاء الفقهاء على حصن التعكر[4].

ولما وصل الخبر إلى المفضل بن أبي البركات إلى زبيد في تهامة أسرع في العودة إلى التعكر في ذي جبلة. لأنه كان يوجد به ذخائره وأمواله وسراريه فوصل إلى حصن عزان. ثم حاصر الفقهاء في التعكر. وآنذاك كانت خولان حاولت الوقوف بجانب الفقهاء إلا أنها غيرت رأيها فتركت مناصرتهم. ولما رأى الفقهاء الموجودين في الحصن محاصرة المفضل لهم وعدم مناصرة خولان لهم. دبروا حيلة لقتل المفضل

(1) عمارة: المفيد، ص: 157، إدريس: عيون الأخبار، 7/ 179، الخزرجي: العسجد، ص: 68، ابن الديبع: بغية المستفيد، ص: 64، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 283، الهمداني: الصليحيون، ص: 164، حسن محمود: أروى، ص: 43، 44، الحريري: معالم، ص: 65.

(2) عمارة: المفيد، ص: 157، الوصابي: الاعتبار، ص: 43، الحريري: معالم، ص: 66.

(3) إدريس: عيون الأخبار، 7/ 179.

(4) عمارة: المفيد، ص: 158، إدريس: عيون الأخبار، 7/ 179.

وهي إخراج سراريه وحظاياه على السطوح. حيث قال إبراهيم بن زيدان: (لن أموت حتى أقتل المفضل ثم أهلاً بالموت فعمد إلى حظاياه من السراري فأخرجهن في أكمل زي وأحسنه وجعل بأيديهن الطارات وأطلعهن على سقوف القصور بحيث يشاهدهن المفضل ويسمع هو ومن معه من تلك الأمم أصواتهن).

ولما نظر المفضل إلى سراريه وحظاياه بتلك الصورة لم يتحمل رؤية ذلك الموقف لأنه كان (أكثر الناس غيرة وأنفة فقيل إنه مات في تلك الليلة) حزناً عليهن وعلى نفسه (وقال آخرون: امتص خاتماً) مسموماً كان معداً عنده فمات منه. وكان ذلك في رمضان سنة 504هـ/ مارس 1111م[1]. ومن المستنتج من ذلك أنه من المستبعد أن يكون المفضل قد مات غيرة على خطاياه وسراريه، أو مسموماً من قبل نفسه، ولكن من المحتمل أنه مات مسموماً من قبل أعدائه الذين كانوا قد اندسوا بين صفوف جنده، ويعلل الأكوع أن ثورة الفقهاء في التعكر كانت من تدبير السيدة الحرة، بسبب سوء العلاقة بينهما أواخر عهده[2]. وهكذا كانت نهاية المفضل سواءً بالقتل بالسم أو غيره.

ومهما يكن من أمر فإن المفضل اتصف بأنه كان (حازماً عاقلاً شجاعاً شهماً له عدة مكارم وجملة مفاخر، ولكنها دون الداعي سبأ بن أحمد. وكان جواداً ممدوحاً. قصده الشعراء من الأماكن البعيدة) فمدحوه من ضمنهم مواهب بن جديد المغربي مدحه بقصيدة منها:

يا مالك الدين والدنيا وأهلهما ... ومن بعزته الإسلام ممتسك
قد قيل جاور لتغني البحر أو ملكاً ... وأنت يابن الوليد البحر والملك

كما مدحه القاضي أبو بكر اليافعي بقصيدة منها قوله:

وأقل مكرمة له وفضيلة ... إجراؤه للغيل في الأجناد
شق الجبال الشامخات كأنها ... كانت معالمها متون وهاد[3]

أما أهم أعماله العمرانية فإنه (حفر في الصفا حفراً عديدة، وخرق بعضها إلى

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 168، الوصابي: الاعتبار، ص: 43، إدريس: عيون الأخبار، 7/ 179، 180، الخزرجي: العسجد، ص: 68، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 273، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 283، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 280، 281، حسن محمود: أروى، ص: 44، 45، الحداد: التاريخ العام، ص: 259.

(2) عمارة: المفيد هامش، ص: 157، 158.

(3) الخزرجي: العسجد، ص: 66، 67، الهمداني: الصليحيون، ص: 165، 166، حسن محمود: أروى، ص: 45، 46.

بعض وأجرى الماء فيها) كما أجرى الغيل من خنوة إلى الجند. كذلك جدد بنا المقدمة والجناحين من مسجد الجند[1].

السيدة وفقهاء التعكر: ولما مات المفضل سنة 504هـ/ 1111م. اتجهت السيدة الحرة لحل مشكلة ثورة فقهاء التعكر وإنزالهم من الحصن، فجهزة جيش كبيراً وسارت بهم إلى قرب الحصن فعسكرت في منطقة (الربادي). وقامت السيد بمراسلة الفقهاء وملاطفتهم على ترك الحصن. وبعد المراسلات المتعددة ت الاتفاق بين السيدة والفقهاء على أن تمنح السيدة الأمان لهم وتتركهم يأخذو الأموال التي كانت موجودة بالحصون كغنيمة لهم، مقابل تخلي الفقهاء عن الحصر وعودتهم إلى طاعتها. واشترطوا عليها أن ترحل بجيوشها من جوار الحصن وتولي عليه من تشاء، وضماناً لتنفيذ ذلك طلبوا أن يبقوا في الحصن مع الوالي الجديد حتى تصل غنائمهم التي غنموها من الحصن مأمنهم فوافقت السيدة على ذلك، وقد كانت الأموال التي غنموها من الحصن كثيرة حيث بلغ نصيب عم عمارة إبراهيم بن زيدان (من العين خمسة وخمسين ألفاً)[2] من الدنانير.

بنو الزر الخولاني: قبل موت المفضل بن أبي البركات بفترة قصيرة قدمت عدة قبائل من خولان صعدة إلى مخلاف جعفر بلغ عددهم ستة آلاف قوس أو رما بالأقواس. وكانوا من بني بحر وبني منبه وبني مروان وبني رازح وشعب وبني جماعة، ففرقهم المفضل على حصون المخلاف واستخلفهم على الطاعة. ومنذ ذلك الوقت أصبحت (خولان مستظهرة ولهم صولة وكلمة) في مخلاف جعفر. وكما يتضح أن السيدة هي التي طلبت قبائل خولان القدوم إليها وذلك للحد من نفوذ المفضل وجعلهم جيشاً لها.

ولما مات المفضل أتاح ذلك فرصة لبني مروان بقيادة المسلم بن الزر الخولاني أن يسيطروا على حصن (خدد) جبل (جبشي) بالقوة من واليه عبد الله بن يعلى الصليحي ويأخذون جميع ما معه من الأموال، ومع استيلاء المسلم على حصن خدد بالقوة إلاّ أنه أعلن طاعته للحرة السيدة واتصل بها وبحواشيها وطلب منها أن توليه بدلاً عن المفضل. وتأكيداً على طاعته وولائه لها رهن عندها ولديه عمران وسليمان. ونتيجة للعلاقة الطيبة بينها وبينهما حاولت السيدة تزويجهما من بعض حواشيها اللواتي كن عندها.

---

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 67، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 270، 272، الهمداني: الصليحيون، ص: 166.

(2) عمارة: المفيد، ص: 159، إدريس: عيون الأخبار، 7/ 180، عند صاحب عيون الأخبار وفي بعض نسخ عمارة خمسة وعشرون ألف دينار.

ولما مات المسلم ابن الزر الخولاني تولى حصن (خدد) ابنه سليمان أما عمران فقد ظل رهينة عند السيدة الحرة. بعد ذلك دبر عمران وسليمان حيلة للسيطرة على حصن التعكر، وهي أن عمران خطب ابنة القائد فتح بن مفتاح الصليحي والي حصن التعكر، وفي يوم الزفاف غدر عمران وسليمان بفتح بن مفتاح فألقيا القبض عليه. ونقلاه بأمواله من حصن التعكر إلى حصن آخر هو حصن شار القريب منه، أما التعكر نفسه فقد سيطر عليه عمران. وكان ذلك في يوم الأحد 12 شهر ربيع الأول سنة 509هـ/ 1115م. ومع تلك السيطرة فقد ظل عمران موالياً للسيدة الحرة يبذل لها الطاعة والخدمة.

ونتيجة لتلك السيطرة (امتدت أيدي خولان على الرعايا وغيرهم وعاثوا وأفسدوا). وآنذاك حاولت السيدة الحرة الاستعانة بقبائل أخرى. فكانت كلما طغت خولان أرسلت إلى عمرو بن عرفطة الجنبي، تطلب منه إيقاف خولان عن طغيانهم فيأتي الجنبي إليها بجيشه ويسيطر على الأماكن التي يحكمها بنو الزر الخولاني. ولا يخلصهم من الجنبي إلاَّ الاتجاه إلى السيدة الحرة والتضرع إليها برفع الجنبي عن بلادهم، فَتَأْمُر الجنبي الرحيل عن مناطقهم، وذلك أنها تكتب (بخطها إلى عمرو بن عرفطة الجنبي وفيها إذا وقفت على أمرنا فارتحل عن بلاد بني الزر مشكوراً) فيرتحل عمرو عنهم[1] وهكذا ظلت حالة بني الزر الخولاني مع السيدة الحرة والجنبي.

4 ــ **أسعد بن أبي الفتوح**: كذلك حاولت السيدة الحرة بعد موت المفضل الاستعانة بابن عمه أسعد بن أبي الفتوح فولته قيادة جيشها. وكان أسعد متولياً لحصني تعز وصبر وراثياً بعد أبيه، ولكنه ظل مقيماً في تعز. بعد ولاية السيدة له قيادة الجيش ولم ينتقل إلى ذي جبلة. وقد ناصر أسعد السيدة ضد بني زريع في عدن، والذين كانوا قد امتنعوا لما مات المفضل عن دفع نصف المبلغ السابق الذكر أي اتفق معهم على دفع خمسة وعشرين ألف دينار سنوياً للسيدة الحرة. ولم يزل أسعد متولياً لتعز (حتى غدره رجلان من أصحابه فقتلاه بين الناس في حصن تعز سنة 514هـ/ 1120م)[2].

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 160 ــ 162، الوصابي: الاعتبار، ص: 44، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 255، الهمداني: الصليحيون، ص: 167.

(2) عمارة: المفيد، ص: 174، الخزرجي: العسجد، ص: 68، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 274، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 283، 284، الهمداني: الصليحيون، ص: 167، 168، حسن محمود: تاريخ اليمن، ص: 200، أروى، ص: 49، 50، العقيلي: المخلاف السليماني، 20/ 45، الحداد: التاريخ العام، ص: 162، 263.

5 ـ **ابن نجيب الدولة**: عندما رأت السيدة الحرة تسلط خولان على ذي جبلة وما حولها وصعوبة الاستعانة بالقبائل الأخرى ضدهم، وعدم قيام قائدها أسعد بن أبي الفتوح بالانتقال إلى ذي جبلة، ومنع قبائل خولان من التسلط على الرعايا، وتفضيله البقاء في تعز، فضلاً عن عدم وجود قائد من البيت الصليحي تستعين به لقيادة الدولة. أرسلت السيدة إلى الخلافة الفاطمية بمصر تطلب منها مساعدتها لتولي الأمور العسكرية في اليمن.

لذلك أرسل الخليفة الآمر بأحكام اللّٰه ووزيره الأفضل بن بدر الجمالي سنة 513هـ/ 1119م. علي بن إبراهيم ابن نجيب الدولة إلى اليمن فسار ومعه عشرون فارساً من الفرقة المسماة الحجرية. ومن الملاحظ من ذلك أن الخلافة الفاطمية وكذا السيدة الحرة كانت بحاجة إلى قيادة عسكرية وليس إلى جيش. لذلك أرسلت الخلافة القائد ابن نجيب الدولة مع عدد قليل من الأفراد.

وكان ابن نجيب الدولة يعمل في مصر (على خزانة الكتب الأفضلية وكان غزير الحفظ مستبصراً في المذهب) الإسماعيلي[1]. وقد لقبته الخلافة (الأمير المنتخب عن الخلافة فخر الدولة العلوية الموفق في الدين داعي أمير المؤمنين). واكتسب معرفة عن أحوال أهل اليمن عن طريق التقائه في جزيرة دهلك بأحد رجال الكارم (التجار) المسمى محمد بن أبي العرب الداعي. فأفاد ذلك ابن نجيب الدولة[2].

ولما وصل ابن نجيب الدولة إلى ذي جبلة جعلته السيدة الحرة صاحب (بابها وحافظاً لها)[3] أي حاجبها وحارساً لها، وفي بداية تعامل ابن نجيب الدولة مع أهل اليمن لم يحسن التصرف. فقد ضرب بالعصا أحد رجال بني الزر الخولاني (حتى أحدث في ثيابه). إضافة إلى ذلك قام بسجنه واسمه سليمان بن عبيد، أدى ذلك إلى غضب بني الزر الخولاني. فاتجهوا إلى الزحف إلى ذي جبلة للانتقام من ابن نجيب الدولة واستخراج صاحبهم. إلا أن أحمد بن سليمان الزواحي ابن أخي السيدة الحرة تدَخَّل في حل المشكلة، فأخذ الخولاني بالقوة من ابن نجيب الدولة، وأرضاه بالخلع. وأرسله إلى قومه. فهدأت خولان وتوقفت عن الزحف إلى ذي جبلة لمقاتلة ابن نجيب الدولة[4].

(1) عمارة: المفيد، ص: 162، الوصابي: الاعتبار، ص: 45، الخزرجي: العسجد، ص: 68، 69، الهمداني: الصليحيون، ص: 168، أيمن فؤاد: المذاهب، ص: 161.
(2) عمارة: المفيد، ص: 162، 163، الهمداني: الصليحيون، ص: 168، 169، عصام الفقي: اليمن، ص: 174، أيمن فؤاد: المذاهب، ص: 161.
(3) الخزرجي: العسجد، ص: 69، أمين صالح: العلاقة، ص: 71.
(4) عمارة: المفيد، ص: 163.

وفي ذلك الوقت انضم إلى ابن نجيب الدولة لمناصرة السيدة الحرة أربعمائة من همدان[1] وثلاثمائة فارس من بني حماس وسنحان. فولّى عليهم الطوق الهمداني[2]. بعد ذلك اتجه ابن نجيب الدولة إلى إخضاع القبائل التي بدأت تخرج عن طاعة السيدة. فبدأ بالقبائل القريبة من ذي جبلة. فاتجه شرقها نحو أهل متيم. كما اتجه نحو أهل السهلة والشوافي فأخضعهم لطاعة السيدة الحرة[3].

أدت حملات ابن نجيب الدولة إلى تقوية وتعزيز جانب السيدة الحرة فانقمع (أهل اليمن عن الطمع في أطراف بلادها) كما أدت إلى إقامة الحدود، وعدله في الرعايا، وعدم بسط يديه على أموالهم. وأدت أيضاً إلى توقف أيدي الرعاع (المفسدين) عن أخذ أموال الناس (فأمنت البلاد ورخصت الأسعار)[4].

ولما مات الوزير الأفضل الفاطمي في رمضان سنة 515هـ/ نوفمبر 1121م. وتولى الوزارة الفاطمية المأمون البطائحي (قوى ابن نجيب الدولة وشد أزره وكتب إليه بالتفويض) على الجزيرة اليمنية. وأرسل إليه (أربعمائة قوس أرمني وسبعمائة أسود).

وعندما عززت الخلافة الفاطمية ابن نجيب الدولة بالجند والتفويض على اليمن ازدادت قوته. فأمرته السيدة الحرة أن يسكن معهم في منطقة الجند لأنها (وطيئة الحافر ومتوسطة في الأعمال). (فضاق الأمر به على سلاطين الوقت وهم سليمان وعمران أبناء الزر ومنصور بن المفضل وسبأ بن أبي السعود ومفضل بن زريع)[5].

غزو ابن نجيب الدولة لتهامة: وفي الوقت الذي كثر فيه جيش ابن نجيب الدولة حاول استعادة تهامة لسلطان السيدة الحرة من النجاحيين فقرر غزوهم سنة 518هـ/ 1124م. ولما وصل إلى باب زبيد المسمى القرتب دارت معركة كبيرة بين الطرفين أسفرت عن هزيمة ابن نجيب الدولة، وكان سبب هزيمته أن عشرة رماة من أصحابه استأمنوا من أهل زبيد وانضموا إليهم في حربهم، فلما وقعت الحرب رمى أحدهم بسهم أنف الفرس الذي كان مع ابن نجيب الدولة. فشب الفرس

---

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 69، الحمزي: كنز، ص: 82، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 275، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 285، الهمداني: الصليحيون، ص: 169، حسن محمود: أروى، ص: 51، الحداد: التاريخ العام، ص: 263.

(2) عمارة: المفيد، ص: 164، الخزرجي: العسجد، ص: 69، الهمداني: الصليحيون، ص: 169، الحداد: التاريخ العام، ص: 162.

(3) عمارة: المفيد، ص: 164.

(4) عمارة: المفيد، ص: 164، الخزرجي: العسجد، ص: 69، الهمداني: الصليحيون، ص: 169.

(5) عمارة: المفيد، ص: 164، الخزرجي: العسجد، ص: 69، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 275، الهمداني: الصليحيون، ص: 170، أيمن فؤاد، ص: 162.

وارتفعت مقدمته إلى أعلى. مما أدى إلى سقوط ابن نجيب الدولة على الأرض. فانهزم جيشه على أثر سقوطه، وقتل جمع كبير من جيش السودان والأرمن. أما ابن نجيب الدولة نفسه فلما سقط على الأرض (قاتلت عنه همدان أشد القتال) حتى أنقذه رجل منهم يسمى السباعي. وولوا هاربين إلى الجند[1]. وبعد أربعة أشهر من وقعة زبيد توجه ابن نجيب الدولة إلى ذي جبلة فغزا بلاد سليمان ابن الزر الخولاني مما يدل على أن علاقة السيدة الحرة ببني الزر الخولاني قد ساءت آنذاك.

لم يكتف ابن نجيب الدولة بما حل له من هزيمة في زبيد بل اتجه بعدها إلى قتال بني زريع لإجبارهم على طاعة السيدة الحرة، ولما ذهب إليهم التقى في منطقة الجؤة بالمفضل بن زريع، فدارت معركة كبيرة بين الطرفين في أكمة بني سلمة في دمنة خدير. أسفرت عن هزيمة ابن نجيب الدولة. وطعنه من قبل أحد عبيد مسعود بن زريع المسمى مسافر بعد سقوطه من فرسه، لأنه كان لا يحسن الفروسية وبعد هذه الهزيمة عاد ابن نجيب الدولة إلى الجند[2].

محاصرة ابن نجيب الدولة بالجند: ونتيجة لتهور ابن نجيب الدولة في إقحام جيش الدولة الصليحية في معارك خاسرة لامته السيدة الحرة على أفعاله وتصرفاته فساءت العلاقة بينهما، مما أدى بابن نجيب الدولة إلى إعلان الثورة ضدها واتهامها بالخرف حيث قال عنها أنها: (قد خرفت واستحقت عندي أن يحجز عليها)[3] إزاء ذلك التصرف من ابن نجيب الدولة لم تقف السيدة الحرة مكتوفة الأيدي فقد عزمت على مقاومته، واستعانت لذلك بالعديد من سلاطين اليمن لأنهم (كانوا تحت طاعتها لا يخالفها منهم أحد فيما تأمرهم به من حرب أو صلح)[4]. منهم سليمان وعمران ابنا الزر وسبأ بن أبي السعود والمفضل بن زريع والمنصور بن المفضل بن أبي البركات، وكان هؤلاء السلاطين يكنون العداء لابن نجيب الدولة لتسلطه عليهم فاتجهوا نحوه إلى الجند في نهاية سنة 519هـ حسب قول عمارة أو في المحرم سنة 520هـ حسب قول الخزرجي. فحاصروا بها ابن نجيب الدولة ومن

(1) عمارة: المفيد، ص: 164، 165، الخزرجي: العسجد، ص: 69، الحمزي: كنز، ص: 82، 83، الوصابي: الاعتبار، ص: 45، حسن محمود: أروى، ص: 54، 55.

(2) عمارة: المفيد، ص: 165، 166.

(3) عمارة: المفيد، ص: 166، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 81، الخزرجي: العسجد، ص: 69، الهمداني: الصليحيون، ص: 171، حسن محمود: أروى، ص: 55، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/286.

(4) الخزرجي: العسجد، ص: 69.

معه من همدان والذين كانوا نحو أربعمائة فارس لفترة قصيرة من الزمن[1].

وبعد أن شددت القبائل الحصار على ابن نجيب الدولة استنجد بالسيدة الحرة لفك الحصار عنه، فكتبت إلى عمرو بن عرفطة الجنبي تطلب حضوره. فلما حضر إليها خيم بجيشه في ذي جبلة كما بعثت إلى زعماء القبائل، فلما حضروا إليها إلى ذي جبلة فرقت عليهم عشرة آلاف دينار مصرية، وقالت (للرسل أشيعوا في العسكر، أن ابن نجيب فرق في الناس عشرة آلاف دينار مصري). لذلك طالبت القبائل من زعمائها تفريق الدنانير المصرية عليهم. ولكن زعماء القبائل لم يفرقوها عليهم مما أدى بالقبائل إلى الارتحال عن محاصرة ابن نجيب الدولة، بذلك انتهى الحصار عليه[2].

والواقع أن فك الحصار بتلك الكيفية غير قابلة للتصديق ولكن ما يمكن أن نستنتجه أن القبائل مع زعاماتها جاءت لمحاصرة ابن نجيب الدولة بناءً على طلب من السيدة الحرة. ولما استنجد بها ابن نجيب الدولة لفك الحصار عنه، أرادت السيدة صرف القبائل والزعامات عن المحاصرة، فوزعت الدنانير المصرية عليهم كمكافأة لهم أو بدلاً عن الغنائم التي وُعِدُوا بها وطلبت منهم فك الحصار، وعلى ذلك انتهى حصار ابن نجيب الدولة.

القبض على ابن نجيب الدولة: أورد عمارة أن سبب القبض على ابن نجيب الدولة يتمثل بالآتي: في أواخر وزارة المأمون البطائحي أرسل رسولاً إلى اليمن يسمى الأمير الكذاب كان يحمل السيف، فلما وصل إليها اجتمع بابن نجيب الدولة في ذي جبلة في مجلس حافل بأهل اليمن، فأهمل ابن نجيب الدولة إكرام الرسول أو ضيافته فحدثت مشاجرة كلامية بين الاثنين أدت إلى غضب كل منهما من الآخر[3].

ونتيجة لتشاجر الشخصين انضم كثير من أعداء ابن نجيب الدولة إلى الرسول واشتكوا إليه بتصرفات ابن نجيب الدولة نحوهم فحاول الرسول أن يكيد لابن نجيب الدولة، تؤدي إلى غضب الخلافة الفاطمية منه فحرض أهل اليمن على

(1) عمارة: المفيد، ص: 166، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 81، الوصابي: الاعتبار، ص: 45، الخزرجي: العسجد، ص: 69، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 275، 276، الهمداني: الصليحيون، ص: 171، حسن محمود: أروى، ص: 55، يحيى بن الحسين: غاية الأماني 1/ 286.

(2) عمارة: المفيد، ص: 167، الوصابي: الاعتبار، ص: 45، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 81، الحمزي: كنز، ص: 83، الخزرجي: العسجد، ص: 69، الهمداني: الصليحيون، ص: 171، حسن محمود: أروى، ص: 56، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 286.

(3) عمارة: المفيد، ص: 167، 168، الخزرجي: العسجد، ص: 70، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 276، الهمداني: الصليحيون، ص: 172، حسن محمود: أروى، ص: 57.

الشكوى بتصرفات ابن نجيب الدولة، إلى الخليفة الآمر الفاطمي وأنه دعاهم إلى فرقة النزارية ـ التي تدعي أن نزار أحق من الآمر بالخلافة وتأكيداً لذلك ضربوا سكة نزارية باليمن دليلاً على صدق كلامهم فأوصلها الرسول إلى الخليفة الآمر[1].

ولما وصلت شكوى أهل اليمن إلى الخليفة الآمر الفاطمي أرسل أحد رجاله المسمى الموفق ابن الخياط مع مائة فارس من فرقة الحجرية إلى اليمن للقبض على ابن نجيب الدولة، وما أن علم ابن نجيب الدولة بقدوم ابن الخياط للقبض عليه حتى ذهب إلى بلدة بني زُبَيْد للامتناع بها والاحتماء بأهلها إلا أن أعداءه دخلوا على السيدة وقالوا لها: (احتفظي بابن نجيب الدولة فإن الإمام لا يطلبه إلا منك). لذلك تمارضت السيدة الحرة وأرسلت إليه الشريف محمد ابن الحوالي يطلب حضوره إليها إزاء ذلك حضر ابن نجيب الدولة من بني زبيد إلى ذي جبلة فاحتفظت به السيدة وقيدته[2].

وعندما وصل ابن الخياط رسول الخلافة الفاطمية من عدن إلى ذي جبلة يطلب تسليم ابن نجيب الدولة، رفضت السيدة الحرة تسليمه للرسول. ولما أصرَّ على القبض عليه قالت له: (أنت حامل كتاب فخذ جواب وإلا فاقعد حتى اكتب إلى مولانا ويعود الجواب). ولكن أحد رجالها حذرها سوء السمعة، بالنزارية وظلوا يحاولون إقناعها على تسليم ابن نجيب الدولة إلى أن قبلت تسليمه، بعد أن استوثقت له بعهود من ابن الخياط بعدم معاقبته وكتبت إلى الخليفة الآمر تطلب منه العفو عن ابن نجيب الدولة، لذلك سيرت إليه كاتبها محمد بن الأزدي. وأرسلت معه هدية إليه وهي عبارة عن (بدرة قيمة الجواهر التي فيها أربعون ألف دينار)[3]. وكان القبض على ابن نجيب الدولة سنة 520هـ/ 1126م حسب قول الوصابي[4].

بعد ذلك سار ابن الخياط من ذي جبلة بمن معه من الجند ومعهم ابن نجيب الدولة وكاتب السيدة، فلما فارقوها قيدوا ابن نجيب الدولة وشتموه وأهانوه وعذبوه وسفَّروه من عدن إلى مصر في مراكب سواكنية أول شهر رمضان، أما

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 168، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 81، الحمزي: كنز، ص: 83، الخزرجي: العسجد، ص: 70، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 167، الهمداني: الصليحيون، ص: 172، حسن محمود: أروى، ص: 57، 58.

(2) عمارة: المفيد، ص: 170، الهمداني: الصليحيون، ص: 172، 173.

(3) عمارة: المفيد، ص: 170، الخزرجي: العسجد، ص: 70، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 277، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 287، حسن محمود: أروى، ص: 58، عصام الفقي: اليمن، ص: 176، أيمن فؤاد: المذاهب، ص: 163.

(4) الوصابي: الاعتبار، ص: 46.

كاتب السيدة فقد سفروه بعده بخمسة عشر يوماً فغرق في باب المندب[1]. وبالنسبة لابن نجيب الدولة فقد وصل إلى القاهرة بمصر ثم قتل مع المأمون البطائحي سنة 522هـ/ 1128م[2]. وفي رأي ثاني أن ابن نجيب الدولة لم يقتل بل شُهِّرَ به في القاهرة سنة 524هـ/ 1130م، وفي رأي ثالث أن مصيره غير معروف[3] والمرجح سجنه وقتله.

ونستنتج من خلال ما تقدم أنه نتيجة لتصرفات ابن نجيب الدولة الخاطئة مع السيدة الحرة وأهل اليمن اشتكوا به للخليفة الآمر الفاطمي فلما تأكد للرسول صدق شكوى أهل اليمن عاد إلى مصر مصطحباً معه شكوى أخرى منهم وعملة نزارية لذلك أرسل الخليفة الآمر الفاطمي ابن الخياط للقبض على ابن نجيب الدولة فتم القبض عليه وأرسل إلى مصر حيث قتل بها.

بلوغ السيدة مرتبة حجة: في عهد الخليفتين المستنصر والمستعلي الفاطميين كانت السيدة الحرة متولية للسلطة السياسية ومسؤولة عن الدعوة الإسماعيلية في اليمن، إضافة إلى تبعية الهند وعمان لها، وفي عهد الخليفة الآمر بأحكام اللّٰه بلغت السيدة الحرة إلى أعلى مراتب الدعوة الإسماعيلية. وهي مرتبة حجة. أوضح ذلك النص التالي: (فرفعت بذلك عن حدود الدعاة إلى مقامات الحجج، وكفلت كافة المؤمنين والدعاة الميامين والحدود والمستجيبين خير كفالة، وأوضح البرهان في ولاية الأئمة عليهم السلام، وأظهرت معالم الدعوة للتابعين وأبانت وما وهنت لما أصابها في سبيل اللّٰه)[4].

وعن اعتراض بعض الناس تولية الإناث رتبة الحجة أوضح السلطان الخطاب بن الحسين أحد أقطاب الدعوة بقوله: (نقول إن القمص البشرية الجسمانية لا قول بها ولا عمل عليها... إنا نجد من هو ظاهر بقمص الإناث هو في أعلى الرتب وأشرفها كالزهراء البتول... وخديجة بنت خويلد... ومريم ابنة عمران، ونجد أيضاً بالعكس... إن الذكر والأنثى من القمص البشرية لا يعرب عن حقيقته ولا يهدي إلى طريقته بل المعرب والهادي الظاهر لها... وهو ما يظهر

(1) عمارة: المفيد، ص: 170، 171، الخزرجي: العسجد، ص: 70، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 277، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 287، عصام الفقي: اليمن، ص: 176، 177.

(2) أيمن فؤاد: المذاهب، ص: 174.

(3) الهمداني: الصليحيون، ص: 173، عن أخبار مصر لابن ميسر، ص: 70، حسن محمود: أروى، ص: 59.

(4) إدريس: عيون الأخبار، 7/ 141، الهمداني: الصليحيون، ص: 180، حسن محمود: تاريخ اليمن، ص: 203، أروى، ص: 67.

من الأفعال في الطاعات والقبول. . . ومن أفعال الخير. . . فإن ظهر عنه خير لا شر فيه، وطاعة لا معصية معها، وولاية لا مكابرة بعدها، وقبول لا يمازجه رد، . . . وقع العلم بأنه قد رسخ عنه ما ألقي إليه وقبله وأثمر منه. . .)[1]. يدل ذلك على جواز تولية الإناث أعلى مراتب الدعوة الإسماعيلية عند أصحاب هذا الفكر.

ولاة القضاء في عهد السيدة: وبالنسبة للقضاء في عهد السيدة الحرة، فقد تولى منصب قاضي قضاة الإسماعيلية باليمن القاضي لَمَكْ بن مالك الحمادي، كما قام بمساعدتها في شؤون الدعوة ولقب في عهدها (داعي بلاغ) أو داعي دعاة الإسماعيلية. والقاضي لمك هذا بعثه علي الصليحي إلى مصر لدراسة المذهب الإسماعيلي فدرس بها خمس سنوات ثم عاد إلى اليمن بعد وفاة الصليحي. فتولى في عهد المكرم قاضي قضاة اليمن وظل متولياً لهذا المنصب في عهد السيدة الحرة إلى أن توفي في 27/ جمادى الآخرة سنة 510هـ/ 6 أكتوبر 1116م. فتولى بعده قاضي قضاة الإسماعيلية ابنه يحيى بن لمك الحمادي. واستمر في هذا المنصب إلى أن توفي في 28/ جمادى الآخرة سنة 520هـ/ يوليو 1126م[2].

وبعد ذلك تولى قاضي قضاة الإسماعيلية وداعي دعاتهم في اليمن للسيدة الحرة القاضي الذؤيب بن موسى الوادعي الهمداني، حيث أصدرت السيدة والقاضي يحيى بن لمك تقليداً له بذلك نوضحه بالآتي: (اجتمع عدة من سلاطين اليمن إلى قاضي القضاة وداعي الدعاة يحيى بن لمك. . . فحين اجتمعوا عند القاضي الأجل يحيى بن لمك أعلن بالتعريف بفضل الداعي ذؤيب بن موسى وعالي مقامه، وأنه العاضد له والخالف له بعد انقضاء أيامه، وتلا على السلاطين والمؤمنين التقليدين من الحرة الملكة السيدة ولية أمير المؤمنين، وكافة أوليائه الميامين، ومن داعي الدعاة وقاضي القضاة يحيى بن لمك ذي الحجة الماضية البراهين، فسمع أهل الفضل والديانة قول الحرة الملكة حجة الإمام الآمر، وقول داعيه يحيى بن لمك ولم يكن منهم جاحد ولا مكابر)[3].

ألقاب السيدة الحرة: منحت السيدة الحرة عدة ألقاب، أولى هذه الألقاب صادر من الخلافة الفاطمية في السجلات المرسلة إليها وهي كالتالي: (الحرة، الملكة، السيدة، السديدة، المخلصة، المكينة، دخيرة الدين، عمدة المؤمنين،

---

(1) الهمداني: الصليحيون، ص: 144، عن رسالة بغاية المواليد.

(2) الهمداني: الصليحيون، ص: 180، 181، حسن محمود: تاريخ اليمن، ص: 203، 204.

(3) إدريس: عيون الأخبار، 7 / 187، 188، الهمداني: الصليحيون، ص: 182.

كهف المستجيبين، ولية أمير المؤمنين، وكافلة أوليائه)[1]. وثاني هذه الألقاب كتبتها المصادر اليمنية وهي: (الحرة، الملكة، السيدة الرضية، الطاهرة، الزكية، وحيدة الزمن وسيدة ملوك اليمن، عمدة الإسلام، خالصة الإمام ودخيرة الدين، عصمة المسترشدين، كهف المستنجدين، ولية أمير المؤمنين، كافلة أوليائه الميامين)[2]. تدل هذه الألقاب على أن السيدة الحرة كانت لها مكانة عالية لدى الخلافة الفاطمية ولدى أهل اليمن.

مدح الشعراء للسيدة: مدح السيدة الحرة عدة شعراء منهم السلطان الخطاب الذي مدحها بعدة قصائد منها قوله الآتي:

فما أنا إلا السيف هزني القضا — وقد ألهب الأيام عزم غراري
فمن مبلغي؟ مولاتنا بنت أحمد — نهايتي القصوى وقطب مداري
أمولاتنا حقت لديك نصيحة — حقيقة أعلام بغير تماري

ومنها قوله:

ورمت رضى المنصور فيما أتيته — إذا فارقت ذرى قشور محاري
فهل لي بمولاتنا منك عاضد — معزية يضحى زنادي وأري
أمولاتنا لا تتركيني بقفرة — وحيد الأعداء تروم دياري

ومنها قوله:

من مبلغ مولاتنا بنت أحمد — كهف النجاة ومطلع الأنوار
ومقرنا بيد الإمام الآمري المنصور — نجل العترة الأطهار
والشم من قحطان حيث تبوأت — في المجد خير مبوأ وقرار
قومي وأنصاري الذين إذا يدي — علقت بهم غنت عن الأنصار

ومنها قوله:

كوحيدة الزمن التي أضحى التقى — وشعارها من محضة ودثارها
رضى الأئمة سعيها فتوطدت — أركان دولتها وقر قرارها
وتواصلت بركاتها موصولة — منها حبائل ما استرام مغارها

ومنها قوله:

أنتم بنو الأصلوح جوهر يعرب — وسواكم أصدافها ومحارها

(1) السجلات، ص: 118، سجل رقم 36.
(2) عمارة: المفيد، ص: 151، الخزرجي: العسجد، ص: 64، إدريس: عيون، 7/ 218.

ولأنت يا ابنة أحمد ينميك من تلك اللاتي الفائقات كبارها
أنقذتم اليمن الذي كانت به ظلم الضلالة طافياً تبارها[1]

كذلك مدحها الشاعر الحسين بن علي القم بقصيدة منها قوله:

أعلى الأنام أباً وأكرم طيبة وأتم أعراقاً وأصلب عودا
لو كان يعبد لجلالة في الورى بشر لكانتِ ذلك المعبودا
أو كان في أثوابها بلقيس ما هابت سليمان ولا داودا
وإذا الوفود تأخرت، وفدت عطا ياها، فكانت بالوفود وفودا
هي رحمة اللّه التي ما ماؤها ثمداً ولا معروفها مجحودا
هي رحمة اللّه التي ما زالت من فوق البرية ظلها ممدودا[2]

علاقة السيدة بالخليفة الآمر: وعن علاقة السيدة الحرة بالخليفة الآمر بأحكام اللّه الفاطمي، فقد كانت علاقة طيبة وحميمة إذ أن السيدة في عهده أصبح يطلق عليها (حجة الإمام الآمر) لذلك كانت المراسلات بينهما مستمرة تحكي عمّا يجري في بلادهما سواء السياسية أو غيرها من الأمور مثل التهاني والتبريكات وإرسال الهدايا وغيرها، من ذلك طلبت السيدة الحرة من الآمر بأحكام اللّه الفاطمي مساعدتها في إدارة شؤون اليمن العسكرية فأرسل إليها ابن نجيب الدولة كما سبق ذكره، كذلك أرسل الخليفة الآمر إلى السيدة الحرة رسالة بمناسبة مولوده الجديد الذي سماه الطيب بقوله لها: (من عبد اللّه ووليه الآمن المنصور، أبي علي الآمر بأحكام اللّه، أمير المؤمنين إلى الحرة، الملكة الطاهرة الزكية، وحيدة الزمن، سيدة ملوك اليمن. . . فأنعم اللّه . . . بأن رزقه مولوداً زكياً رضياً براً تقياً وذلك في الليلة المصبحة بيوم الرابع من شهر ربيع الآخر سنة أربع وعشرين وخمسمائة. . . وسماه الطيب لطيب عنصره وكناه أبا القاسم)[3]. كذلك ظلت السيدة الحرة وفية لعلاقتها بالخليفة الآمر وابنه الطيب.

انفصال السيدة عن مصر: ولما قتلت فرقة النزارية الخليفة الآمر بأحكام اللّه في ذي القعدة سنة 524هـ/ أكتوبر 1130م، وتولى بعده الخلافة ابن عمه الحافظ، انقسمت الدعوة الإسماعيلية بمصر إلى فرقتين: إحداهما الفرقة الطيبية نسبة إلى

---

(1) السلطانان: ديوان السلطانين، ص: 167 ـ 170، الهمداني: الصليحيون، ص: 145، 146.
(2) الهمداني: الصليحيون، ص: 146، عن الحسين بن القم ورقة 5، 6.
(3) إدريس: عيون الأخبار، 7/ 192، 193، الهمداني: الصليحيون، ملحق رقم 9، ص: 321، 322، حسن محمود: أروى، ص: 70، 71.

الطيب ابن الآمر والتي جعلت الإسكندرية مقرًا لها، والأخرى الحافظية نسبة إلى الخليفة الحافظ والتي جعلت القاهرة مركزاً لها، وبعد صراع قصير تغلبت الحافظية على الطيبة بمصر وأصبح الخليفة الحافظ صاحب السيادة بمصر[1]. وكما يتضح أن سبب هذا الانقسام هو عدم التزام الإسماعيلية بفكرهم الإسماعيلي القاضي بانتقال السلطة أو الخلافة في الأبناء، وعدم انتقالها من أخ إلى أخ أو من ابن عم إلى ابن عم، ولذلك حدث الخلاف.

وبالنسبة لليمن فقد ظلت السيدة الحرة على ولائها للدعوة الطيبية رغم انتهائها من مصر التزاماً منها بالفكر الإسماعيلي القاضي بأحقية الأبناء في تولي الخلافة أو السلطة، وقد حاول الخليفة الحافظ الفاطمي مراسلة السيدة الحرة بهدف إبقاء تبعيتها له، ولكن السيدة رفضت ذلك. أوضح هذا الموقف إدريس بقوله: (وكان عبد المجيد يكاتب الحرة الملكة ابنة أحمد حجة الأئمة في الجزيرة اليمنية ذات الرتبة السنية من ولي عهد المسلمين وابن عم أمير المؤمنين) ثم كتب إليها (من أمير المؤمنين) فاستنكرت السيدة الحرة ذلك وقالت: (أنا أروى ابنة أحمد بالأمس ولي عهد المسلمين، واليوم أمير المؤمنين، لقد جرى في غير ميدانه وادعى أمراً يبعد عن مكانه)[2].

يتضح من ذلك عدم رغبة السيدة موالاتها للحافظ الفاطمي، وبذلك انفصلت تبعية السيدة لمصر في الدعوة الإسماعيلية في عهد الحافظ، وأصبحت اليمن مركزاً رئيسياً للدعوة الطيبية الإسماعيلية، لذلك أوصت السيدة الحرة بالثروة الموجودة لديها لإنفاقها في سبيل الدعوة الطيبية[3].

أهم أعمال السيدة الحرة: للسيدة الحرة أعمال خيرية كثيرة منها:

أوقفت أراضي كثيرة لرعي المواشي، وأوقفت أراضي واسعة في نواحي ذي جبلة وحقل كتاب (قتاب) تصرف غلاتها لشراء الفحول من البقر، كما عملت على تعبيد الطرقات منها تعبيد الطريق من رأس جبل سمارة إلى السياني، كذلك أنشأت عدة مدارس منها مدرسة في ذي جبلة لتدريس الحديث مثل كتاب الصحيحين كما بنت الكثير من المساجد منها المسجد الجامع في ذي جبلة ومسجد الضربة في يريم وغيرهما[4].

(1) أيمن فؤاد: المذاهب، ص: 171.

(2) الهمداني: الصليحيون، ص: 191، إدريس: عيون الأخبار، 7/ 207، حسن محمود: أروى، ص: 84، عصام الفقي: اليمن، ص: 178، الحداد: التاريخ العام، ص: 244.

(3) انظر وصية السيدة الحرة في ملحق رقم 9 من كتاب الصليحيين، ص: 323 ـ 330.

(4) الهمداني: الصليحيون، ص: 205، 206، حسن محمود: تاريخ اليمن، ص: 205 ـ 207، =

وفاة السيدة: وبعد أن حكمت السيدة الحرة اليمن لأكثر من خمسين عاماً توفيت في غرة شعبان من سنة 532هـ/ أبريل 1138م[1]، وقد رثاها جماعة من الشعراء في عدة قصائد منهم الشاعر القاضي حسين بن عمران اليامي بقوله:

وقفت على قبر الوحيدة وقفة ... وقد زين منها مسجد وستور
فقبلته واستعنت رباً ترابه ... وعاود قلبي رنة وزفير
وسألت دموع العين مني كأنها ... بشط مجاري المقلتين سطور
والله منها روح قدس تميزت ... فصارت بأعلى الدائرات تطير
ومن جود بحر بالعطايا نواله ... على معتقيه عسجد وحرير

كما رثاها القاضي محمد بن أحمد بن عمران اليامي بقوله:

نأت ربّة القصر الشريف عن القصر ... فأبأس راجي النصر فيه عن النصر
إذا اجتث الدهر الشر دوحة روضة ... فقضبانها لا تستقم على الهصر
فصاروا بلا نور يتيهون في العمى ... وذلك تمثيل لما كان في مصر

كذلك رثاها السلطان الخطاب في قصيدة بقوله:

أمولاتنا يا من بباهر نورها ... تجلين عن أبصارنا الظلمات
أجلك عن موت بروحك نازل ... وأنت لأرواح الأنام حشاة
بصرت بأمر منك ما بصرت به ... عيون لهم في غيها وسنات[2]

الخاتمة: وُهِبَت السيدة الحرة عقلية ذكية مكنتها حكم اليمن لفترة طويلة، وقد تولت السيدة حكم اليمن إلى جانب ابنها علي بن المكرم ووقفت الخلافة الفاطمية وجمع كبير من اليمنيين إلى جانبها في ذلك، وتمكنت خلال مرحلة حكمها مع ابنها أن تقف ضد محاولة قائد الصليحيين سبأ بن أحمد الصليحي في حكم اليمن بدلاً عن المكرم، ولما عجز سبأ بن أحمد عن مقاومتها أعلن الطاعة لها ولابنها. وعندما توفي ابنها علي بن المكرم أصبحت السيدة الحرة هي الحاكم

= أروى، ص: 93، 94، العقيلي: المخلاف السليماني، 2/ 45، الحداد: التاريخ العام، ص: 266.

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 71، الهمداني: الصليحيون، ص: 207، حسن محمود: تاريخ اليمن، ص: 206، أروى، ص: 95، الواسعي: تاريخ اليمن، ص: 174، قال الخزرجي في العسجد، ص: 71، أن السيدة الحرة ماتت سنة 532هـ وعمرها 88 سنة أي أنه يجعل ميلادها سنة 444هـ وهذا مخالف لقول عمارة الذي يجعل ميلادها سنة 440هـ وعلى قول عمارة يكون عمر السيدة الحرة حين وفاتها 92 سنة وهو الأصح.

(2) الهمداني: الصليحيون، ص: 208 ـ 210، حسن محمود: تاريخ اليمن، ص: 207، 208.

الفعلي لليمن ولم يستطع أحد معارضتها في ذلك، بسبب التأييد لها من قبل جمع كبير من اليمنيين ومن الخلافة الفاطمية في حكمها لليمن، وقد أضافت الخلافة الفاطمية إليها الإشراف على الدعوة الإسماعيلية في الهند وعمان. كما أن الخلافة الفاطمية وقفت إلى جانبها في جميع مراحل حكمها لليمن وأيدتها في كثير من مواقفها واعتمدت عليها في حل جميع القضايا السياسية وأمور الدعوة الإسماعيلية في اليمن وغيرها.

وخلال حكم السيدة الحرة لليمن وقف إلى جانبها في الأمور العسكرية جماعة من القادة وحينما ازدادت قوات هؤلاء القادة عملت السيدة على الحد من تصرفاتهم بالاستعانة ضدهم بالقادة الآخرين، مثل استعانتها بالمفضل وسليمان الزواحي ضد سبأ بن أحمد الصليحي، واستعانتها بجماعة من سلاطين اليمن مثل المفضل بن زريع وابن أبي الغارات والمنصور بن المفضل ضد ابن نجيب الدولة كما أنها عملت على الحد من سيطرة القبائل على مناطقها بالاستعانة بالقبائل الأخرى، مثل استعانتها بقبيلة جنب بقيادة عمرو بن عرفطة الجنبي ضد قبيلة الزر الخولاني التي بدأت تسيطر على ذي جبلة وتظلم الرعايا بها. كما وقف إلى جانبها في إدارة القضاء والدعوة الإسماعيلية جماعة من القضاء مثل القاضي لمك بن مالك الحمادي، وابنه يحيى بن لمك وغيرهما.

وقد ظلت السيدة الحرة وفية للخلافة الفاطمية بمصر وخاصة تجاه الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمي، فلما تولى الحافظ الخلافة الفاطمية دون اتباع نظام الفكر الإسماعيلي بتوريث الأبناء السلطة، وأزاح الطيب ابن الآمر عن تولي الخلافة، انفصلت السيدة الحرة عن مصر وعملت على نشر الدعوة الطيبية في اليمن والهند، وبانتهاء السيدة الحرة انتهت الدولة الصليحية في اليمن. أما الدعوة الطيبية فقد استمرت في بعض مناطق غرب صنعاء. وتحولت من دور الظهور إلى الدور السري.

وكما يتضح أن من أهم الأسباب التي أدت إلى نهاية الدولة الصليحية هي عدم إتاحة السيدة الحرة الفرصة للقادة الصليحيين تولي السلطة في اليمن. فضلاً عن محاولة السيدة الحد من سيطرة القادة وازدياد قوتهم بالاستعانة ضدهم بالقادة الآخرين وإضافة إلى ذلك انفصالها عن الخلافة الفاطمية.

الباب الثاني

دويلات صنعاء وعدن وزبيد

الفصل الرابع : الهمدانيون في صنعاء

الفصل الخامس: الزريعيون في عدن

الفصل السادس: الدولة النجاحية في تهامة اليمن

الفصل السابع : دولة بني مهدي في تهامة اليمن

الهمدانيون في صنعاء

بعد موت السلطان سبأ بن أحمد الصليحي سنة 491هـ/ 1098م وموت السلطان سليمان بن عامر الزواحي سنة 492هـ/ 1099م الذي كان يحكم مغارب صنعاء استقلت صنعاء عن حكم الصليحيين وحكمتها ثلاث أسر همدانية، فيما بين سنة 592هـ/ 1099م حتى سنة 490هـ/ 1194م أولهم آل الغشيم، والثانية آل القبيب، والثالثة آل حاتم اليامي، نلخصها في الصفحات التالية.

1 ـ آل الغشيم:

أول من حكم صنعاء مستقلاً عن الصليحيين سنة 492هـ/ 1099م، السلطان حاتم بن الغشيم المغلسي الهمداني، الذي كان يوصف من أهل الكفاءة المعدودين من همدان[1] وهو من قبيلة يام وكان يعمل نائباً لعلي الصليحي بعدن بجانب بني معن[2] وكما يتضح أن استقلاله بحكم صنعاء كان بسبب الخلاف الذي حدث بين الصليحيين والزواحيين بداية عهد السيدة الحرة وتوقف همدان عن مناصرتهم، فسعت كل زعامة من همدان تبحث عن إيجاد سلطة مستقلة بها في مناطقها.

ومن أهم الأحداث في عهد السلطان حاتم الغشيم أن ابنه محمد عمل على جمع همدان وغزا بهم نجران عن طريق مأرب فاستباحها ثم عاد إلى صنعاء[3]. وكما يبدو أن سبب غزوه لنجران هو استنجاد بعض القبائل المتحالفة معه أو المناصرة له، ضد أعدائهم القبائل الأخرى، فذهب إلى نجران لمناصرة أصدقائه وتأديب أعدائهم، أما اتساع سلطان آل الغشيم إلى نجران آنذاك فمن المعتقد أنه لم يكن قد وصل إلى تلك المنطقة.

استمر حاتم بن الغشيم يحكم صنعاء وعلى علاقة طيبة بهمدان دون أن تخالفه في حكمه وظلت مطيعة له حتى وفاته سنة 502هـ/ 1108م. وبعد وفاته تولى الأمر ابنه عبد اللّه، ولكنه مات مسموماً بعد سنتين من ولايته، فتولى بعده أخوه

(1) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 87، الخزرجي: العسجد، ص: 71، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 284، حسن سليمان: تاريخ اليمن، ص: 234، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 318.

(2) عمارة: المفيد، ص: 173 عن الحجوري ومساكن قبيلة يام في نجران.

(3) ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 88، الحمزي: كنز، ص: 86، الخزرجي: العسجد، ص: 72، يحيى بن الحسين: غاية، ص: 280.

معن، وأثناء حكم معن هذا لصنعاء تجبر على همدان وقسى عليهم فشمل ظلمه لأكثر رجالاتهم مما أدى بهمدان إلى استنكار تصرفه ذلك، فاجتمعت سنة 510هـ/ 1116م بقيادة القاضي أحمد بن عمران اليامي وقررت عزله عن حكم صنعاء[1]. وبذلك انتهت أسرة آل الغشيم عن حكم صنعاء، وكما يبدو أن سبب تجبر معن على همدان هو اتهامهم بقتل أخيه بالسم.

2 ـ آل القبيب:

بعد أن اجتمعت همدان على عزل معن بن الغشيم اختارت هشاماً بن القبيب اليامي الهمداني، وولته أمر صنعاء فذهب إليها بجمع كبير من همدان فحاصروا معناً بها، وانتهت المحاصرة بتسليم معن نفسه للقاضي أحمد بن عمران وتنازله عن السلطة مقابل منحه الأمان، فمنح ذلك وطلع جبل (براش). وبذلك تولى هشام بن القبيب أمر صنعاء بمساعدة همدان له، واستمرت همدان تطيع هشام وهو يحكمهم وفقاً لما يرغبون به إلى أن مات فتولى السلطة بعده أخوه حماس، وفي عهد حماس هذا غزا قبيلة (جنب) في ذمار وعنس فخاض معهم معركة كبيرة في منطقة (هران)، أسفرت عن قتل الكثير من الطرفين. وكما يبدو أن السبب في غزو قبائل (جنب) هو استمرار العداء القبلي بين قبائل اليمن. وبعد موت الحماس في رمضان سنة 527هـ/ يوليو 1133م اختلف أولاده وإخوته حول تولي السلطة، فاعتزلت همدان عن مناصرتهم وعزلتهم عن تولية صنعاء سنة 533هـ/ 1138م[2]. وبذلك انتهت الأسرة الثانية عن حكم صنعاء.

3 ـ آل حاتم اليامي:

بعد أن تنازع آل القبيب حول تولي السلطة في صنعاء أجمعت همدان سنة 533هـ/ 1138م على اختيار السلطان حاتم بن أحمد بن عمران بن المفضل اليامي الهمداني. نظراً لما كان يتصف به من حكمة وصلاح ليتولى أمرهم، وقد اجتمع معه سبعمائة فارس من همدان وساروا معه إلى صنعاء فسيطروا عليها، وبذلك تولى حاتم اليامي أمر صنعاء[3].

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 72، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 287، يحيى بن الحسين: غاية، ص: 282 ـ 285، الكبسي: اللطائف، ص: 42، 43، الحداد: التاريخ العام، 2/ 320.
(2) الخزرجي: العسجد، ص: 73، يحيى بن الحسين: غاية، ص: 294، الحداد: التاريخ العام، ص: 320.
(3) الخزرجي: العسجد، ص: 74، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 288، يحيى بن الحسين: غاية، ص: 297

وتعد أسرة آل حاتم اليامي هذه من أهم الأسر التي حكمت صنعاء آنذاك كما أنها تعد من أهم الأسر التي ناصرت الصليحيين في إقامة دولتهم، فقد كان عمران اليامي جد حاتم هذا أحد أنصارهم وخاصة في عهد المكرم والسيدة. حيث تركه المكرم والياً على صنعاء حينما ذهب إلى ذي جبلة، وظل والياً عليها فترة طويلة، وخلال ولايته لصنعاء استعان به سبأ بن أحمد بن المظفر الصليحي لقتال آل نجاح في زبيد، فنزل إليها لمناصرة سبأ وخاض معه معركة الكظائم سنة 479هـ/ 1086م حيث قتل في هذه المعركة كما سبق ذكره.

ومن أهم الأحداث التي قابلت آل حاتم صراعهم مع الإمام أحمد بن سليمان، وصراعهم مع الدعاة الإسماعيلية نوردها بالآتي:

1 ـ صراع حاتم مع الإمام:

صادف تولي حاتم اليامي حكم صنعاء ظهور الإمام أحمد بن سليمان الذي دعا لنفسه بإمامة الزيدية في سنة 532هـ/ 1138م. فأجابه في دعوته كل من الجوف وصعدة ونجران وبلاد الظاهر وعيان ووادعة وغيرها من المناطق المجاورة لصعدة[1]. وظل مستمراً في هذه المناطق ينشر الفكر الزيدي ويقضي على المخالفين له، لذلك اصطدمت قوات حاتم بقوات الإمام حول توسيع نفوذ كل منهما في السيطرة على اليمن الأعلى. فقد كانت حدود حاتم اليامي تمتد من نقيل الغابرة في الحدا إلى بركة الجوب في البون من عمران[2]. وكان يريد توسيع سلطته نحو مناطق أخرى، بينما كان الإمام أحمد بن سليمان يسعى نحو صنعاء. لذلك نشأ صراع كبير بين الطرفين، وزاد من تعميق الصراع اختلافهما مذهبياً حيث كان الإمام زيدياً وحاتم اليامي إسماعيلياً.

وقد زاد من محاولة الطرفين التوسع في مناطق اليمن الأعلى هو أنهما ظهرا بعد موت السيدة الحرة سنة 532هـ/ 1138م. وانتهاء نفوذ وسلطان الدولة الصليحية من هذه المناطق، حيث كان ذلك فرصة مناسبة لأن يوسع الطرفان نفوذهما في هذه المناطق ويقيما دولتهما لذلك احتدم الصراع بين الطرفين.

وكان بداية الصراع العسكري بين حاتم اليامي والإمام أحمد بن سليمان هو سعي حاتم اليامي في قتل الشيخ محمد بن عليان في سوق سَهْمَان على يد رجل

---

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 74، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 290، 291، الجرافي: المقتطف، ص: 126.

(2) ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 88، 89، الحمزي: كنز، ص: 86، 87، الخزرجي: العسجد، ص: 74، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 289.

من يام في سنة 545هـ/ 1150م بسبب تحريض الشيخ للإمام السيطرة على صنعاء[1]. فبدأ الإمام في الانتقال إلى عمران في نفس سنة 545هـ/ 1150م للاتجاه نحو صنعاء، فلما علمت بعض قبائل اليمن الأعلى في اتجاهه لمحاربة حاتم اليامي انضمت لمناصرته أعداد كبيرة منهم، من بني شهاب وأهل حضور فضلاً عن بعض من سنحان وجنب، وذلك بسبب العداء القبلي بين القبائل اليمنية، فذهب الإمام إلى بيت بوس جنوب صنعاء فعسكر بها في انتظار الفرصة المناسبة لبدأ قتال أمير صنعاء. فبدأ بإرسال أحد أفراده إلى صنعاء ليستطلع له أخبارها وأخبار أميرها، ويعمل على تحريض الزيدية بها، وكان إرساله تحت ستار أنه يشتري له منها ورقاً وصابوناً، فلما علم حاتم اليامي بالرسول طلب حضوره إليه ثم أعطاه رسالة للإمام يلومه فيها على تصرفه ذلك، وأرسل إليه شعراً يقول فيه:

أبالورق الطلحي تأخذ أرضنا ولم تشتجر تحت العجاج رماح
وتأخذ صنعاء وهي كرسي ملكنا ونحن بأطراف البلاد شحاح[2]

تدل تلك الأبيات على أن حاتماً أخبر الإمام أن الاستيلاء على صنعاء ليس سلماً ولا سهلاً ببعث الرسل لشراء الورق أو غيره، ولكنه بسفك الدماء وخوض القتال وإظهار الشجاعة، فهل لديه استعداد لذلك وهو بمثابة التهديد للإمام من التفكير في دخول صنعاء.

وعلى أثر ذلك بدأت المعارك بين الطرفين، فلما تأكد الإمام بعد عودة رسوله أن قواته قادرة على دخول صنعاء اتجه بهم إليها في نفس سنة 545هـ/ 1150م. فدار قتال شديد بين الطرفين انتهى بهزيمة حاتم اليامي، لعدم مناصرته من همدان كلها ولأن جمعاً كبيراً من أهل السرار ممن صاروا من أهل صنعاء انضموا إلى مناصرة الإمام، ولما رأى حاتم اليامي هزيمة جيشه طلب من الإمام الأمان له ولأصحابه فأمنه وقال في هزيمته شعراً قوله:

غلبنا بني حواء بأساً ونجدة ولكنا لم نستطع غلب الدهر

---

(1) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، ص: 301، الكبسي: اللطائف، ص: 37، العرشي: بلوغ المرام، ص: 38، كريم: عدن، ص: 163.

(2) الخزرجي: العسجد، ص: 75، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 291، يحيى بن الحسين: غاية، ص: 302، زبارة: أئمة، ص: 98، الكبسي: اللطائف، ص: 47، العرشي: بلوغ المرام، ص: 39، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 322، الواسعي: تاريخ اليمن، ص: 188، حسن سليمان محمود: تاريخ اليمن، ص: 234، 235، الحداد: التاريخ العام، 2/ 322.

فلا لوم فيما لا يطاق وإنما يلام الفتى فيما يطاق من الأمر[1]

وبعد أن تمكن الإمام من السيطرة على صنعاء ولّى عليها القاضي جعفر بن أحمد بن عبد السلام[2]. أما السلطان حاتم اليامي فقد اتجه بعد هزيمته إلى المنظر بالروضة وأقام فيه فترة قصيرة. ثم اختلف مع الإمام واتجه إلى حصن الظفر جنوب شبام كوكبان. حيث عمل على جمع همدان واتجه بهم نحو صنعاء، فدار قتال شديد بين قواته وقوات الإمام تحت حصن (براش) الذي تحصن به الإمام[3].

لم تحسم هذه المعركة الصراع بين الطرفين. فقد اتجه حاتم اليامي إلى الرحبة سنة 546هـ/ 1151م. وفيها اجتمعت إليه الكثير من همدان مناصرين له ضد الإمام، فلما علم الإمام بتجمعهم أرسل إليهم جمعاً من قبيلة (جنب) فحاربوا همدان حتى هزموهم. ثم اجتمعت همدان بكاملها مرة أخرى لمناصرة حاتم اليامي في نفس السنة. بسبب خلافهم مع الإمام. واتجهوا لمحاربته فدار قتال شديد بين الطرفين أسفر عن هزيمة جيش الإمام ودخول همدان والسلطان حاتم صنعاء والسيطرة عليها[4]. بعد ذلك ظل حاتم مسيطراً على صنعاء ولم يتمكن الإمام من استعادتها رغم المحاولات المتكررة.

وأثناء ذلك عمل الإمام على الاستعانة بقبائل (جنب) في ذمار. ولما وصل إليهم انضم إليه ثلاثمائة فارس منهم. إلا أنه نتيجة للعداء بين قبائل (جنب) نفسها فقد انضم إلى حاتم اليامي تسعمائة من (جنب) المعادين لمن انضموا إلى الإمام بقيادة عبد اللّٰه بن يحيى فحدثت معركة كبيرة بين الطرفين في موضع يسمى (القليس) في بلاد ذمار، انتهت المعركة بهزيمة أنصار الإمام[5].

ولما رأى الإمام أن قبائل (جنب) متعادية وغير متحدة وذلك بسبب القتال الذي كان بينهم. ووجود قتول كثيرة بينهم، أراد أن يصلح بينهم ويجمعهم على كلمة واحدة. فضرب لهم موعداً لاجتماعهم. ولما علم حاتم اليامي بذلك أراد أن يمنع (جنب) عن مناصرة الإمام. فذهب بنفسه إلى (ذمار) فوصل إليهم في نفس

---

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 75، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 292، يحيى بن الحسين: غاية، 1/ 302، زبارة: أئمة، ص: 98، الكبسي: اللطائف، ص: 48، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 323، حسن سليمان محمود: تاريخ اليمن، ص: 235، الحداد: التاريخ العام، ص: 323.

(2) زبارة: أئمة، ص: 98، الجرافي: المقتطف، ص: 84.

(3) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 301.

(4) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 305.

(5) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 305، زبارة: أئمة، ص: 99، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 328، 329.

يوم ميعاد اجتماعهم الذي حدده الإمام. وأثناء ذلك الاجتماع قال لهم حاتم: (حياكم الله يا وجوه العرب) (وصلناكم يا وجوه العرب لأمر لكم فيه شرف ولنا فيه عز إلى حين). ثم قال: (لما علمت أنكم في طلب صلاح وأخذ ذمم بينكم وهدم قتول من عشائركم رأيت أن ألمَّ شملكم وأقطع عنكم ما تحاذرون وأتحمل من مالي ديات قتلاكم)[1]. فقبلت (جنب) أن يدفع حاتم اليامي دية قتلاهم وشكرته على ذلك، وانتهت مشكلة الصراع بينهم. وبذلك فوت حاتم اليامي على الإمام فرصة وقوف قبيلة (جنب) إلى جانبه.

وفي ذلك الوقت رأى الطرفان عدم جدوى الحرب. فاتفق الإمام وحاتم على المصالحة حيث التقى الاثنان في بيت الجالد في بلاد الخشب شمال صنعاء وتمت المصالحة على توقيف القتال بينهما. واشترط الإمام على السلطان حاتم اليامي أن يمنع الخطبة للإسماعيلية الباطنية في صنعاء. وأن يسمح بإظهار مذهب الهادي بها وهو المذهب الزيدي[2]. وكما يتضح أن حاتم اليامي سمح بالحرية المذهبية في صنعاء دون أن يتحامل على الزيدية أو يتعصب للإسماعيلية.

وعلى الرغم من ذلك المصالحة إلا أن الحرب تجددت بين الطرفين ففي سنة 550هـ/ 1155م. اتجه الإمام أحمد بن سليمان نحو بلاد ذمار فجمع ثلاثة آلاف من قبائل مذحج وغيرها، واتجه بهم نحو صنعاء لمحاربة السلطان حاتم اليامي الذي استعد هو الأخير لمحاربة الإمام. فالتقى الطرفان في منطقة (الشرزة) في بلاد سنحان. حيث دار بها قتال شديد بين الطرفين أسفر عن انتصار الإمام الزيدي وأنصاره وانسحاب جيش حاتم إلى صنعاء للتحصن بها فتابعه الإمام إلى أسوار صنعاء إلا أنه لم يتمكن من دخولها. فقد انسحب إلى بيت بوس ثم سار إلى سناع[3].

ومع تلك الحروب فقد عادت المصالحة من جديد بين الطرفين ففي سنة 553هـ/ 1158م. طلب حاتم اليامي مصالحة الإمام فتمت المصالحة بينهما على نفس شروط المصالحة الأولى[4]. وهي ترك الحرية المذهبية لأهل صنعاء والمناطق التي يحكمها حاتم اليامي.

---

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 76، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 294.

(2) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 308، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 332.

(3) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 310، زبارة: أئمة، ص: 104، الكبسي: اللطائف، ص: 39، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 336، 337 (الشرزة) منطقة بين قرية شيعان وقرية أسناف في سنحان، زبارة، ص: 104، عند المطاع، ص: 336، وزبارة، ص: 114، أن معركة الشرزة كانت في شهر شعبان سنة 552هـ.

(4) المطاع: تاريخ اليمن، ص: 339.

2 ـ علي بن حاتم:

في رمضان سنة 556هـ/ أغسطس 1161م مات السلطان حاتم اليامي وتولى السلطة في صنعاء ابنه علي بن حاتم[1]. وعند توليه السلطة حاولت بعض قبائل همدان التخلي عن مناصرته. وذهبت إلى تولية محمد بن حماس ابن القبيب إلى داره بحي القطيع بصنعاء فحرضته على تولي حكم صنعاء وبايعته. وتجمع منهم سبعمائة فارس في باب شعوب. وذلك أثناء غياب علي بن حاتم في وادي (ضهر). ولما علم السلطان علي بن حاتم بذلك أسرع إليهم في مائة فارس إضافة إلى أنصاره الآخرين فتمكن من دخول صنعاء. وقاتل في شوارعها همدان قتالاً شديداً أسفر عن قتل أخ للسلطان حاتم اسمه عمران فخافت همدان من انتقام علي بن حاتم والثأر لأخيه، ولكن السلطان علي بن حاتم وهب همدان دم أخيه وطلب توقيف القتال والذهاب لدفنه، فتوقفت همدان عن القتال وعادت إلى مناصرة السلطان علي بن حاتم. وبذلك انتهت مخالفة همدان له[2].

صراع السلطان علي بن حاتم مع دعاة الإسماعيلية: وبالرغم من أن علي بن حاتم كان أحد قادة الإسماعيلية، إلا أنه دخل في صراع مع دعاتهم. ففي سنة 561هـ/ 1166م. حدث صراع بين السلطان علي بن حاتم اليامي والداعي حاتم بن إبراهيم الحامدي الذي تولى أمر الدعوة الإسماعيلية (الطيبية) في اليمن في سنة 557هـ/ 1162م خلفاً لأبيه. والذي كان مقيماً في شبام حراز (مناخة). وكما يتضح أن سبب الصراع بين الطرفين ناتج عن أن السلطان علي بن حاتم تخلى عن مناصرة الإسماعيلية. أو تقاعس عن تأييدهم، لاعتقادهم بالدعوة للإمام المستور الذي هو الطيب. بينما تحمس الداعي حاتم الحامدي لنشر الدعوة الإسماعيلية. واستجاب لدعوته كثير من قبائل همدان وأهل حراز وغيرهم[3].

وأثناء الصراع انتقل الداعي حاتم بن إبراهيم الحامدي (من حراز إلى ريعان ولؤلؤة ليكون قريباً من حرب السلطان علي بن حاتم)[4]. ولكن السلطان علي بن حاتم هاجم الداعي إلى ريعان. مما جعل الداعي يضطر إلى الاتجاه نحو كوكبان

---

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 80، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 296، الكبسي: اللطائف، ص: 51.

(2) الخزرجي: العسجد، ص: 80، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 296، 297، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، ص: 314، الحداد: تاريخ اليمن العام، ص: 327، 328.

(3) الخزرجي: العسجد، ص: 81، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 299.

(4) الخزرجي: العسجد، ص: 81، 82، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 299، 300.

وكان تابعاً لبني الزواحي. وأثناء ذلك استعان الداعي حاتم بالسلطان سبأ بن يوسف اليعبري في حراز ضد السلطان علي بن حاتم. فكان له دور كبير في مساعدة الداعي وبقائه في شبام لفترة طويلة[1]. أما السلطان علي بن حاتم فقد استمر في الاتجاه لمحاربة الداعي. وذهب إليه إلى شبام كوكبان حيث عمل على تخريب مدينة شبام وما حولها من القرى. واستمرت الحرب بين الطرفين لمدة ثلاث سنوات. انتهت بتمكن السلطان علي بن حاتم من السيطرة على حصن شبام كوكبان من أبي النور علي بن الزواحي في سنة 564هـ/ 1168م[2]. وكذا الحصون المجاورة له مثل العروس والظفر وبكر. وبذلك امتد سلطان علي بن حاتم إلى مغارب صنعاء.

ونتيجة لذلك انقسمت همدان بين مؤيد للداعي حاتم الحامدي الذي كان يدعو إلى الإسماعيلية (الطيبية) ومؤيد للسلطان علي بن حاتم الذي ترك الحرية المذهبية في مناطق نفوذه. ومؤيد للدعوة الحافظية التي اعتقد بها الزريعيون في عدن. وفي هذا الشأن عاتب السلطان علي بن حاتم الداعي حاتم الحامدي بقوله له: (أظهر دينك، واجمع أهل دعوتك ولا تفرق همدان وتحملهم على العداوة والشنآن)[3].

علي بن حاتم والزيدية:

اتسمت علاقة السلطان علي بن حاتم بالزيدية بالعلاقة الطيبة والمناصرة. ففي سنة 557هـ/ 1163م اتجه المطهر ابن الإمام أحمد بن سليمان إلى صنعاء لطلب النجدة من السلطان علي بن حاتم ضد أهل صعدة فأنجده[4]. وفي سنة 565هـ/ 1169م استنجد به أولاد الإمام أحمد بن سليمان على أثر إلقاء القبض على أبيهم من قبل الأشراف القاسميين، وكان الإمام قد خرج آنذاك في قلة من رجاله إلى لقاء جماعة من أهل الظاهر ووادعة، فاستغل ذلك القاسميون فهجموا على الإمام عند وصوله إلى تلك المنطقة سنة 565هـ/ 1169م وألقوا القبض عليه وسجنوه في (أثافت) بخمر. فاستنجد أولاده بالسلطان علي بن حاتم حيث عمل على الكتابة إلى القاسميين يطلب منهم إطلاق سراح الإمام فأطلقوا سراحه، وذهب إلى (حوث) وأقام بها إلى أن مات في شهر صفر سنة 566هـ/ 1170م[5] وبذلك ناصر السلطان علي بن حاتم الزيدية بعكس أبيه الذي حاربهم.

---

(1) الهمداني: الصليحيون، ص: 275

(2) الخزرجي: العسجد، ص: 82، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 332

(3) الهمداني: الصليحيون، ص: 274، عن نزهة.

(4) الخزرجي: العسجد، ص: 81، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 328، 329.

(5) الخزرجي: العسجد، ص: 82، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 301، 302، يحيى بن =

توسع السلطان علي بن حاتم:

عمل السلطان علي بن حاتم على توسيع نفوذه في اليمن الأعلى والقضاء على الزعامات القبلية فيها، فقد اتجه نحو سلاطين بني سلمة بن الحسن الكندي أصحاب حصن بيت بوس الذين استولوا عليه بعد انتهاء الدولة الصليحية، وحاربهم عدة مرات وذلك بسبب مساعدتهم للإمام الزيدي أحمد بن سليمان. وكانت آخر الحرب بين الطرفين سنة 565هـ/ 1169م تمكن فيها السلطان علي بن حاتم من الاستيلاء على بيت بوس بعد حرب شديدة معهم. أدت إلى هزيمتهم وتخليهم عن حصن بيت بوس له[1].

استمر السلطان علي بن حاتم بالتوسع فبعد أن توفي الإمام أحمد بن سليمان اتجه السلطان بجيشه سنة 566هـ/ 1170م نحو بلاد وادعة والظاهر وأثافت بخمر فحارب أهلها حرباً شديدة انتهت بطلب أهلها الأمان منه فأمنهم[2]. بعد ذلك قدم مشايخ بني الكم ابن محمد إلى السلطان علي بن حاتم إلى صنعاء في شهر ذي الحجة سنة 566هـ/ أغسطس 1171م. وسلموا له حصن أو مصنعة (أثافت)[3] وبذلك امتد سلطان علي بن حاتم إلى البون شمال صنعاء. كذلك وصلت سلطة السلطان علي بن حاتم أو نفوذه في بعض السنوات إلى معظم اليمن الأعلى مثل الجوف وصعدة[4] بالإضافة إلى مغارب صنعاء حيث وصلت سلطته إلى حجة وشبام وحراز وغيرها. بذلك يعتبر السلطان علي بن حاتم من أشهر سلاطين آل حاتم. بعد هذه المرحلة قدم الأيوبيون إلى اليمن وسوف نتحدث عن علاقتهم بالأيوبيين فيما بعد.

وقد مدح الشاعر أبو الحسن أحمد بن علي الأسواني السلطان علي بن حاتم بقوله[5]:

لأن أجدبت أرض الصعيد أو أقحطوا   فلست أنال القحط في أرض قحطاني

= الحسين: غاية، ص: 317، 318، زبارة: أئمة، ص: 106، 107، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 328، 329.

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 82، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 300، يحيى بن الحسين: غاية، ص: 317، 318.

(2) الخزرجي: العسجد، ص: 82، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 302.

(3) الخزرجي: العسجد، ص: 83.

(4) الخزرجي: العسجد، ص: 81، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 298.

(5) عمارة: المفيد، ص: 38، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 37.

وقـد كـفـلـت لـي مـأرب بـمـأربـي فـلـسـت عـلـى أسـوان يـومـاً بـأسـوان

خاتمة:

وكما يتضح من استعراضنا لحكم الهمدانيين لصنعاء، أنه عندما بدأت الدولة الصليحية تتجه نحو الضعف والانهيار أواخر عهد السيدة الحرة بموت أهم قوادها مثل سليمان بن عامر الزواحي وسبأ بن أحمد الصليحي عادت الزعامات القبلية إلى السيطرة على بعض المناطق اليمنية. حيث ظهرت ثلاث أسر همدانية تستقل بحكم صنعاء وهم جميعاً ينتمون إلى قبيلة يام الهمدانية التي كانت تسكن نجران، والتي اعتنقت المذهب الإسماعيلي مبكراً وناصرت الصليحيين في إقامة دولتهم. وأهم هذه الأسر الثلاث هم أسرة حاتم اليامي أولهم حاتم الذي تولى حكم صنعاء بعد موت السيدة الحرة مباشرة. والذي استغل نهاية الدولة الصليحية فاتجه إلى توسيع نفوذه في شمال صنعاء ثم جاء أبناؤه من بعده فشمل سلطانهم الكثير من مناطق اليمن الأعلى.

وقد جابه حاتم اليامي هذا ظهور الإمام الزيدي أحمد بن سليمان الذي ظهر يدعو إلى نفسه بالإمامة الزيدية في صعدة في نفس الوقت الذي تولى به حاتم اليامي لصنعاء. وقد استمر الصراع بينهما فترة طويلة حول توسيع كل منهما مناطق نفوذه. ونتيجة لذلك الصراع فقد ظل الإمام مسيطراً على مناطق صعدة والجوف وما حولهما. بينما استمر حاتم اليامي مسيطراً على صنعاء وما حولها.

وبعد موت حاتم اليامي ورثه في تولي السلطة على صنعاء ابنه علي بن حاتم وهو من أشهر من حكموا صنعاء من أسرة اليامیين إذ أن نفوذه امتد إلى الكثير من مناطق اليمن الأعلى مثل شبام كوكبان وذيبين وحراز (مناخة) والطويلة والمحويت وحصن أشيح وغيرها.

وعلى الرغم من ظهور عدة شخصيات قوية آنذاك يحكمون اليمن الأعلى مثل الإمام أحمد بن سليمان وحاتم اليامي وابنه علي. إلا أن أي واحد منهم لم يتمكن من توحيد اليمن أو حتى توحيد اليمن الأعلى تحت نفوذه. وهو الهدف الذي كان كل حاكم في اليمن يسعى إلى تحقيقه. وذلك بسبب العداء المذهبي والقبلي. وعدم توفر الإمكانات المادية والبشرية لهم.

وفي عهد علي بن حاتم هذا دخل الأيوبيون اليمن فحاربوهم حتى تمكنوا من إنهاء حكمه على صنعاء وما حولها من المناطق وبذلك انتهى حكم الهمدانيين لصنعاء.

الزريعيون في عدن

مقدمة:

1 ـ **بنو معن وعلي الصليحي**: كان بنو معن يحكمون عدن ولحج وأبين والشحر وحضرموت[1]. فلما استولى عليها علي الصليحي، أبقاهم حكاماً عليها، نظراً لمعرفتهم إدارة ميناء عدن التجاري. مقابل إعطائه مائة ألف دينار سنوياً. ومن أجل التزام بني معن بطاعة علي الصليحي أخذ منهم أحد أبنائهم رهينة عنده[2]. ولما تزوج المكرم من السيدة الحرة سنة 458هـ/ 1066م، جعل علي الصليحي مالية عدن وما ناهجها صداقاً لها. وأمر بأن ترفع إليها سنوياً لتصرفها في شؤون قصرها وحواشيها وخدمها، والتزم بنو معن على دفع ذلك المبلغ إلى السيدة سنوياً. وظلوا مطيعين لعلي الصليحي طيلة حكمه لليمن[3].

وعندما ذهب علي الصليحي إلى الحج سنة 459هـ/ 1067م أخذ معه الرهائن من حكام اليمن (خوفاً منهم أن يثوروا على البلاد)[4]. إلا أنه حدث عكس ما كان يهدف إليه. فقد قتل علي الصليحي في تلك السنة وعاد هؤلاء الرهائن إلى بلادهم من ضمنهم ابن معن، فما أن وصل ابن معن إلى عدن حتى أعلن استقلاله بها وعدم طاعته للمكرم الصليحي. وكما يتضح أن هناك اتفاقاً حدث بين بني نجاح وهؤلاء الرهائن على عدم طاعة المكرم والثورة ضده.

2 ـ **بنو معن والمكرم**: لم يتمكن الملك المكرم من الإسراع في النزول إلى عدن لإعادة بني معن إلى طاعته. بسبب انشغاله بإخضاع القبائل المتمردة عليه في اليمن الأعلى. وانشغاله في الاتجاه لتخليص أمه من الأسر والثأر لأبيه. فأتاح ذلك الفرصة لحكام عدن الاستقلال بحكم مناطقهم لعدة سنوات. فأول من

---

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 83.

(2) عمارة: المفيد، ص: 127.

(3) عمارة: المفيد، ص: 174، ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 121، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 82، الخزرجي: العسجد، ص: 83، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 304، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 118، حسن سليمان محمود: تاريخ اليمن، ص: 222، كريم: عدن، ص: 94، 95.

(4) عمارة: المفيد، ص: 127.

حكمها مستقلاً عن المكرم هو السلطان عباس بن معن الذي حكمها ثلاث سنوات من أواخر ذي الحجة سنة 459هـ/ 1067م حتى سنة 462هـ/ 1070م. ثم خلفه بعد موته أخوه السلطان محمد بن معن[1]. وهو الذي صارع المكرم عدة مرات ملخصة الآتي.

في الوقت الذي تمكن فيه المكرم من تحقيق إخضاع قبائل اليمن الأعلى وتخليص أمه من الأسر والثأر لأبيه. اتجه نحو عدن للسيطرة عليها، وذلك في سنة 467هـ/ 1075م. ولما علم حاكمها محمد بن معن بنزول المكرم نحوه أدرك أنه غير قادر على مقاومته. فهرب من عدن ومعه العامريون في أواخر شهر شعبان سنة 467هـ/ مارس 1075م إلى منطقة (أحور). وبذلك سيطر الملك المكرم على عدن بسهولة. وعلى الرغم من ذلك فقد عمل المكرم على مصالحة السلطان محمد بن معن. على أن تكون نصف مالية عدن ومنطقة لحج والعارة وسبأ صهيب بلحج وأبين وجميع قرى ما بين منطقة عدن وميناءها تابعة للمكرم. وأن يكون نصف مالية عدن وشرق أبين وغيرها من المناطق التابعة لعدن تابعة للسلطان محمد بن معن. لذلك عاد بعد المصالحة ابن معن واستقر في أبين. ومن أجل ذلك ترك الملك المكرم أحد رجاله نائباً له في عدن هو القاضي حاتم بن الغشيم اليامي بينما ترك السلطان محمد بن معن ابن الدهاني نائباً له بها[2].

لم تستمر تلك المصالحة قائمة بين الطرفين فقد عاد الخلاف بينهما بعد سنة وأربعة أشهر من المصالحة. بسبب إقدام القاضي حاتم بن الغشيم على قتل ابن الدهاني المناصر لابن معن في ذي الحجة سنة 468هـ/ يوليو 1075م. فأغضب ذلك محمد بن معن وجعله يتجه إلى الاستيلاء على عدن من القاضي حاتم بن الغشيم. فأدى هذا الموقف إلى تجديد الصراع بين ابن معن والمكرم الصليحي. فقد نزل المكرم إلى عدن بجيشه. وحين علم ابن معن بنزوله هرب مرة أخرى إلى (أحور). وبعدها جددت المصالحة بينهما على أن يسلم بنو معن باب عدن ونصف قوانينه (نصف ضرائب مالية عدن التجارية). إضافة إلى تسليم منطقة العارة ولحج وأبين. وأن لا يكون لمحمد بن معن أي نائب له في عدن ـ وكما يتضح أن المقصود بنصف قوانينه هي الضرائب الإضافية التي فرضتها دولة بني معن على ميناء عدن التجاري. وهي غير العشور التجارية ـ. وبعد تلك المصالحة اتجه محمد بن معن نحو (أحور)

(1) عمارة: المفيد، هامش، ص: 173، عن الحجوري.
(2) عمارة: المفيد، هامش، ص: 173، عن الحجوري.

ومعه العامريون وأهل أبين. فأقاموا بها خمس سنين[1] أما المكرم فقد ولّى على عدن هذه المرة المسعود والعباس ابني الكُرَّم اليامي. وعاد إلى ذي جبلة. وبعد ذلك بدأت مرحلة جديدة بين بني معن وبني الكرَّم أو ما يسمون بالزريعيين.

تولية بني الكُرَّم اليامِيين لعدن: بعد مصالحة الملك المكرم لبني معن أواخر سنة 468هـ/ 1075م، أو أوائل سنة 469هـ/ 1075م وَلَّى على جباية أموال عدن بني الكُرّم اليامِيين. أحدهما العباس الذي جعل إليه المكرم حصن التعكر (جبل حديد) مقراً له. وجعل إليه جباية الأموال التجارية القادمة من البر. والآخر هو المسعود الذي جعل إليه المكرم حصن الخضراء في (حقات) مقراً له، وجعل إليه جباية الأموال التجارية القادمة من البحر. كما جعله متولياً على أمر المدينة[2] وقد ألزم المكرم كل من العباس والمسعود على التعهد بدفع مالية عدن إلى السيدة الحرة وقدرها مائة ألف دينار سنوياً. فكان المسعود يدفع خمسين ألف دينار والعباس يدفع خمسين ألف دينار[3].

وكان سبب تولية المكرم للعباس والمسعود أمر عدن لانتمائها إلى الدعوة الإسماعيلية وتقديم الخدمات لها. فقد كان لهما سابقة في دخول الدعوة، وفضلاً كبيراً في مناصرة علي الصليحي في إقامة دولته ودعوته الإسماعيلية. ومجهوداً كبيراً في مناصرة ابنه المكرم في تخليص أمه من أسر النجاحيين والثأر لأبيه منهم[4].

وينتسب بنو الكُرَّم أبو بنو زريع إلى همدان بن جشم بن يام بن أصبا[5]. وهؤلاء (بنو الكُرّم يعرفون بآل الذئب وهم بعد بني الصليحي بقية العرب في اليمن)[6]. وتعد قبيلة همدان ويام من أهم القبائل والأسر التي خدمت الدولة الصليحية وفكرها الإسماعيلي في اليمن.

---

(1) عمارة: المفيد، هامش، ص: 173، عن الحجوري.

(2) عمارة: المفيد، ص: 172 ـ 174، ابن المجاور: صفة، ص: 121 ـ 124، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 304، 305، الحمزي: كنز، ص: 84، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 119، الوصابي: الاعتبار، ص: 64، كريم: عدن، ص: 98، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 295.

(3) الجندي: السلوك، 2/ 501.

(4) عمارة: المفيد، ص: 172، ابن المجاور: صفة، ص: 121، الجندي: السلوك، 2/ 501، الخزرجي: العسجد، ص: 84، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 304، الجرافي: المقتطف، ص: 81.

(5) عمارة: المفيد، ص: 172، ابن المجاور: صفة، ص: 121، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 118، الجندي: السلوك، 2/ 506، كريم: عدن، ص: 96.

(6) عمارة: المفيد، ص: 177، كريم: عدن، ص: 96، 97.

بنو الكُرّم أو بنو زريع وبنو معن: عندما اتجه السلطان محمد بن معن إلى (أحور) أواخر سنة 468هـ/ 1075م أو أوائل سنة 469هـ/ 1075م ـ للإقامة بها بعد مصالحته للملك المكرم سار معه العامريون وأهل أبين كما سار معه يعفر بن العباس بن معن. وبعد قعودهم خمس سنين عادوا إلى أبين سنة 473هـ/ 1080م. وفي أواخر عهد السلطان محمد بن معن تجدد القتال بينه وبين بني زريع الياميين (أل الكرم) والصليحيين. ففي 19/ من شهر صفر سنة 477هـ/ يونيو 1084م وقعت المعركة الأولى بخنفر (أبين) بين الطرفين. كما وقعت المعركة الثانية بينهم في 19/ جمادى الآخرة سنة 478هـ/ سبتمبر 1085م[1]. ومن الملاحظ من هاتين المعركتين أنهما لم تحسما الخلاف بين الطرفين ولم تحققا أي غلبة لأحد الجانبين.

استمر بنو معن يحكمون شرق أبين وأحور وحضرموت لمدة سنوات فبعد المعركة الثانية بخنفر (أبين) توفي السلطان محمد بن معن في 21/ من شهر جمادى الآخرة سنة 478هـ/ سبتمبر 1085م. فتولى السلطة بعده يعفر بن العباس بن معن، ثم تولى بعده عدة أشخاص من بني معن هم أخوه زريع بن العباس بن معن سنة 485هـ/ 1092م لمدة خمس سنوات عدا عدة أشهر. وبعده تولى السلطة سبأ بن زريع بن العباس بن معن سنة 491هـ/ 1098م. لخمس سنوات وعدة أشهر. ثم تولى بعده المسعود بن العباس بن معن وقتل في شهر ربيع الأول سنة 501هـ/ أكتوبر 1107م. فتولى بعده مسعود بن زريع بن العباس بن معن ومات سنة 511هـ/ 1117م[2]. وخلال حكم بني معن الفترة هذه لأبين وأحور حدث صراع بينهم وبين بني (زريع) الياميين أو بني الكرّم. لعدة مرات. انتهت بانتهاء دولة بني معن وتوسيع نفوذ بني (زريع أو الكرّم) في مناطقهم.

تناقض أقوال المصادر:

وردت في المصادر اليمنية بعض التناقضات حول ذكر بعض شخصيات الدولة الزريعية في عدن وعلاقتها بالسيدة الحرة نوردها في الآتي:

ذكر الوصابي أن البهاء بن زريع وأبا الغارات هما اللذان امتنعا عن دفع الأموال المقررة للسيدة. فأرسلت إليها قائدها المفضل فصالحهما على النصف. كما أورد أنهما قتلا على باب زبيد سنة 503هـ/ 1109م حينما اشتركا مع المفضل لقتال النجاحيين. كذلك أوضح أن أبا السعود بن زريع هو الذي عاصر محمد ابن

(1) عمارة: المفيد، هامش، ص: 173، عن الحجوري.

(2) عمارة: المفيد، هامش، ص: 176، عن الحجوري.

أبي الغارات بقوله عن ذلك: (ثم البهاء بن زريع بن العباس وأبو الغارات بن مسعود بن المكرم. ثم تغلبا على السيدة في عدن. ثم اصطلحوا على نصف ارتفاع عدن للسيددة. فلما قتلا مع المفضل ابن أبي البركات الحميري في باب زبيد سنة ثلاث وخمسمائة ولي في عدن ابنه أبو السعود بن زريع ومحمد بن أبي الغارات ابن مسعود)[1]. وهذا القول مناقض لأخبار المصادر الآتي ذكرها:

فبالنسبة لعمارة اليمني فقد ذكر أن المفضل بن أبي البركات حارب زريع بن العباس وابن عمه أبا الغارات بقوله: (تغلب على عدن زريع بن العباس وأبو الغارات بن مسعود فسار المفضل بن أبي البركات إلى عدن وجرت بينه وبينهما حرب كان آخرها المصالحة على نصف ارتفاع عدن)[2]

هذا القول يناقضه عمارة نفسه في الصفحة التالية لقوله السابق بقوله: (فإن المفضل بن أبي البركات نزل في بعض غزواته إلى زبيد وكان معه زريع بن عباس وعمه مسعود بن الكُرّم وهما يومئذ صاحبا عدن فقتلا جميعاً على باب زبيد ثم ولى الأمر بعدهما بعدن أبو السعود بن زريع وأبو الغارات بن مسعود)[3].

ومن الواضح أن المفضل نزل زبيد سنة 503هـ/ 1109م. ومات سنة 504هـ/ 1110م بعد عودته مباشرة من معركة زبيد إلى ذي جبلة. فغير معقول أن يكون المفضل حارب زريع بن العباس وأبا الغارات حسب ذلك القول. كما أن عمارة أورد أن أبا الغارات قُتل مع زريع. ثم أورد أن أبا الغارات تولى مع أبي السعود. فكيف يعقل أن يقتل ثم يتولى، فهذا غير معقول هو الآخر. ولا يمكن أن نتهم عمارة بهذا الخطأ. ولكن هذا قد يكون من خطأ النساخ بإيراد اسم الابن بدلاً عن الأب في العبارة الأولى.

أما ابن الديبع وبامخرمة فهما يذكران أن المفضل حارب أبا السعود بن زريع وأبا الغارات بن مسعود وأجبرهما على المصالحة على نصف ما كان يرفعانه للسيدة بقولهما: (فانتقل أمر عدن إلى ولديهما أبي السعود بن زريع وأبي الغارات بن مسعود فتغلبا على الحرة فبعثت إليهما المفضل في جيش عظيم فقاتلهما ثم اتفق الأمر على نصف الخراج خمسين ألف دينار كل سنة).

هذا الخبر ينافي قولهما في نفس الصفحة حيث قالا: (فلما بعثت السيدة المفضل بن أبي البركات إلى زبيد كتبت إلى زريع وعمه مسعود أن يلقاه بزبيد

(1) الوصابي: الاعتبار، ص: 64.

(2) عمارة: المفيد، ص: 174.

(3) عمارة: المفيد، ص: 175.

فلقياه وقاتلا معه وقتلا على باب زبيد)[1]. فكيف يكون المفضل حارب أبا السعود وأبا الغارات وهما قد توليا السلطة بعد ابنيهما اللذين قتلا على باب زبيد سنة 503هـ ومات المفضل بعدهما مباشرة سنة 504هـ دون أن يتمكن من النزول إلى عدن بعد معركته في زبيد.

كذلك أورد الحمزي (أن المفضل غزا تهامة وعدن مراراً)[2] وإذا اعتبرنا أن المفضل نزل زبيد قبل سنة 503هـ/ 1109م. وقتل في هذه المعركة زريع ومسعود، ثم تولى بعدهما ابناهما أبو الغارات وأبو السعود وامتنعا عن دفع مالية عدن. فنزل إليهما المفضل وصالحهما. يمكن أن نعتبر ذلك صحيحاً. ولكن لم تشر المصادر إلى وجود معركة كبيرة خاضها المفضل مع النجاحيين قبل سنة 503هـ. ولذلك لا نميل إلى ترجيح هذا الاحتمال.

وما نستنتجه مما سبق نورده في المرحلة الأولى لحكم بني زريع أو بني الكُرّم لعدن، وعلاقتهم مع السيدة الحرة الآتي ذكرها.

المرحلة الأولى لدولة بني الكُرّم أو بني زريع: تتحدث هذه المرحلة عن بني الكُرّم اليامين. واستمرارهم في تقاسم السلطة وتوريثها لأبنائهم منذ ولايتهم لعدن سنة 469هـ/ 1076م، حتى سنة 532هـ/ 1138م عندما استقل بها بنو زريع عن الصليحيين. وهي ما يمكن تسميتها بالفترة الأولى لحكم بني زريع لعدن أو بالمرحلة الأولى لدولة بني زريع أو بفترة علاقة بني زريع بالسيدة الحرة نوردها بالآتي:

ظلت جباية الأموال التجارية وتولية عدن يتوارثها الأبناء عن الآباء فكانت جباية الأموال التجارية البرية لأبناء العباس. وجباية الأموال التجارية البحرية وولاية عدن يتوارثها أبناء المسعود. وظلوا ملتزمين في طاعتهم للدولة الصليحية. ورفع مالية عدن المقدرة بمائة ألف دينار سنوياً إلى السيدة في عهدي الملك المكرم والسلطان سبأ بن أحمد الصليحي.

فلما مات العباس سنة 479هـ/ 1086م ورثه في السلطة ابنه زريع بن العباس وكان معاصراً لعمه المسعود في حكم عدن. فعمل على توسيع سلطانه في السيطرة على حصن الدملوة في الصلو. فسيطر عليه في شهر رمضان سنة 480هـ/ نوفمبر 1087م[3]. وكما يبدو أن سبب استيلائه على الدملوة هو تأمين القوافل التجارية

(1) ابن الديبع: قرة، ص: 305، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 119.
(2) الحمزي: كنز، ص: 82.
(3) الخزرجي: العسجد، ص: 84، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 305، كريم: عدن، ص: 100، 101.

البرية القادمة من والي عدن فضلاً عن زيادة محصوله المالي. وقد ساعده في ذلك التوسع صراع الصليحيين والزواحيين حول السلطة.

ولما مات سبأ الصليحي سنة 491هـ/ 1098م امتنع زريع بن العباس اليامي وعمه المسعود عن دفع مالية عدن إلى السيدة الحرة فأرسلت إليهما قائدها المفضل بن أبي البركات فحاربهما عدة مرات. انتهت بالمصالحة على دفع خمسين ألف دينار وهو نصف المبلغ السابق[1] وكما يتضح أن السبب في رفض بني الكُرّم الياميين دفع المبلغ إلى السيدة الحرة. ومصالحة المفضل لهما بالنصف هو ضعف النشاط التجاري آنذاك وقلة الواردات المالية لهما نتيجة الصراع العسكري بين النجاحيين والصليحيين. والذي أثر على القوافل التجارية العابرة من عدن وإليها عبر تهامة.

وفي الوقت الذي أرادت فيه السيدة الحرة والمفضل بن أبي البركات إعادة منصور بن فاتك النجاحي إلى السلطة في زبيد. كتبت السيدة إلى حكام عدن سنة 503هـ/ 1109م. وهما زريع بن العباس وعمه المسعود تطلب منهما أن يلقيا المفضل بجيشيهما في زبيد. وبالفعل لبيا طلبها دليلاً على طاعتهما لها. فسارا إلى زبيد وقاتلا قتالاً شديداً انتهى بقتلهما على باب زبيد في نفس السنة التي قدما فيها[2].

وبعد موتهما تولى حكم (عدن) ابناهما أبو السعود بن زريع وأبو الغارات بن المسعود وحاولا الاثنان بعد موت المفضل سنة 504هـ/ 1110م الامتناع عن دفع الخمسين ألف دينار المخصصة للسيدة سنوياً. فأرسلت إليهما قائدها أسعد بن أبي الفتوح الحميري فحاربهما ثم صالحهما على دفع خمسة وعشرين ألف دينار[3].

استمر بنو الكُرّم الياميون يتقاسمون السلطة في عدن ويتوارثونها. فحين توفي أبو الغارات بن مسعود سنة 510هـ/ 1116م. تولى ابنه محمد بن أبي الغارات السلطة مكانه في حكم عدن وما يدخل إليها من الأموال التجارية عن طريق البحر. وبعد وفاة أبو السعود بن زريع تولى ابنه سبأ بن أبي السعود السلطة بدلاً عنه في

(1) عمارة: المفيد، ص: 174، ابن المجاور: صفة، ص: 122، الجندي: السلوك، 2/ 501، الوصابي: الاعتبار، ص: 64، الديبع: قرة، ص: 305.

(2) عمارة: المفيد، ص: 175، ابن المجاور، صفة، ص: 122، الخزرجي: العسجد، ص: 84، ابن الديبع: قرة، ص: 305، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 119، كريم: عدن، ص: 104، 105.

(3) الوصابي: الاعتبار، ص: 64، عمارة: المفيد، ص: 174، ابن المجاور: صفة، ص: 122، الجندي: السلوك، 2/ 493، 494، الخزرجي: العسجد، ص: 84، ابن الديبع: قرة، ص: 305، أمين صالح: بنو معن وآل زريع في عدن، ص: 325.

حكم التعكر (جبل حديد) وما يدخل من الأموال التجارية عن طريق البر[1].

وخلال حكم هذين السلطانين توسعا في الاستيلاء على مناطق جديدة. فمن جهة سبأ بن أبي السعود فقد توسع في السيطرة على المناطق التي كانت تحت حكم بني الكرندي في اليمن الأسفل. فاستولى على مناطق كثيرة من أعمال الجند والمعافر مثل الرما وسامع ومطران ويمين وذبحان. بالإضافة إلى الدملوة[2]. أما محمد بن المسعود فقد توسع نحو السيطرة على المناطق التي كان يحكمها بنو معن في أبين وأحور وغيرهما. وبالنسبة لمنطقة لحج فقد تقاسم مناطقها كل من سبأ بن أبي السعود الذي أخذ منطقة بني أبة بلحج. وعلي بن أبي الغارات الذي أخذ منها منطقة الرعارع[3].

استقلال بني الكُرّم (بني زريع) عن الصليحيين:

حاول بنو الكُرّم في عدن عدة مرات عدم دفع المخصصات المالية المحددة للسيدة الحرة. بهدف الاستقلال عن الصليحيين ولكنهم لم يتمكنوا بادئ الأمر. وعندما استولى بنو الزر الخولاني على حصن التعكر في ذي جبلة في شهر ربيع الأول من سنة 509هـ/ يوليو 1115م. استغل بنو الكُرّم (بنو زريع) في عدن هذه الفرصة. فعمل سبأ بن أبي السعود ومحمد بن أبي الغارات على الاستقلال عن حكم السيدة. وعملا على الامتناع عن دفع الخمسة والعشرين ألف المخصصة لها. ولم تتمكن السيدة من إرسال جيش إليهما بسبب ضعف قواتها واستيلاء بني الزر على حصن التعكر بذي جبلة[4] وبذلك استقل بنو الكُرّم (زريع) عن الصليحيين.

وفي ذلك الوقت حاول ابن نجيب الدولة إعادة بني الكُرَّم (زريع) في عدن إلى سلطان السيدة الحرة فاتجه نحوهم بجيشه سنة 519هـ/ 1125م فخاض معهما معركة كبيرة في منطقة الجؤة قرب الدملوة. أسفرت عن هزيمة ابن نجيب الدولة وانسحابه نحو الجند[5].

---

(1) الجندي: السلوك 2/ 501، ابن الديبع: قرة، ص: 305، 306.

(2) عمارة: المفيد، ص: 177، الجندي: السلوك، 2/ 501، ابن عبد المجيد، بهجة، ص: 82، الخزرجي: العسجد، ص: 84، ابن الديبع: قرة، ص: 306، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 119.

(3) عمارة: المفيد، ص: 178، 179، ابن الديبع: قرة، ص: 307.

(4) عمارة: المفيد، ص: 174، 175، أمين صالح: المرجع السابق، ص: 326، كريم: عدن، ص: 109، في بعض نسخ عمارة ذكر أن بني الزر سيطروا على التعكر سنة 505هـ، وعند الوصابي، ص: 64، أنهم سيطروا على التعكر سنة 507هـ، وعند ابن سمرة أنهم سيطروا على التعكر سنة 515هـ، عمارة هامش، ص: 161.

(5) عمارة: المفيد، ص: 165، أمين صالح: المرجع السابق، ص: 327، كريم: عدن، ص: 112، يورد أمين صالح أن المعركة كانت سنة 518هـ.

وعندما تولى الحافظ الفاطمي أمر الخلافة الفاطمية بمصر سنة 524هـ/ 1130م. امتنعت السيدة الحرة عن طاعة الحافظ. وتولت القيام على نشر الدعوة الطيبية في اليمن والهند وقالت: (حسب بني الصليحي ما علموا من أمر مولانا الطيب)[1] مما يدل على الاكتفاء عن موالاة الفاطميين. لذلك تركت السيدة الحرة أمر الدعوة الحافظية إلى سبأ بن أبي السعود بن زريع[2]. ومن جهة الخليفة الحافظ الفاطمي فقد أوكل إلى سبأ بن أبي السعود الزريعي القيام بأمر الدعوة الحافظية الإسماعيلية في عدن. وبالفعل عمل سبأ على القيام بالدعوة الحافظية في عدن[3]. وبذلك أعلن حكام عدن موالاتهم للفاطميين بمصر. ولذلك أطلق على سبأ الزريعي اسم الداعي ولقّب من الخلافة الفاطمية بعدة ألقاب هي: (الداعي الأوحد المظفر مجد الملك وشرف الخلافة عضد الدولة سيف الإمام تاج العرب ومقدمها داعي أمير المؤمنين سبأ بن أبي السعود بن زريع)[4].

2 ـ **المرحلة الثانية لدولة بني زريع**: تميزت هذه المرحلة بظهور أسرة واحدة تحكم عدن هي أسرة آل زريع الذين أطلق اسمهم على جميع حكام عدن. وقد استمرت هذه المرحلة من سنة 532هـ/ 1138م حتى سنة 569هـ/ 1174م. نوضحها بالآتي:

انفراد الداعي سبأ بالحكم في عدن: عندما توفي محمد بن أبي الغارات سنة 524هـ/ 1130م خلفه أخوه علي بن أبي الغارات. وأثناء معاصرته لابن عمه الداعي سبأ بن أبي السعود الزريعي. حدث فيما بين الاثنين صراع حول السلطة في عدن. فسعى الداعي سبأ إلى الانفراد في تولي السلطة. والسبب في ذلك الصراع حسب ما تصف المصادر حدوث خلافين فيما بينهما. أحدهما: حدوث الخلاف حول الماء والحطب الذي كان يجلب إلى عدن من خارجها. لأن المياه في عدن نفسها كانت مالحة. وأرضها لا يوجد بها أشجار. لذلك كان أهلها يجلبون الماء والحطب من خارجها[5]. والآخر: حدوث خلاف حول جباية الأموال في عدن. فقد كان حكم مدينة عدن لعلي بن أبي الغارات إضافة إلى تحصيل الأموال التجارية القادمة من البحر. وقد أوكل لهذا العمل أحد نوابه واسمه علي بن محمد الجزري.

(1) عمارة: المفيد، ص: 239.
(2) الجندي: السلوك، 2/ 494.
(3) أيمن فؤاد: المذاهب الدينية في اليمن، ص: 186.
(4) عمارة: المفيد، ص: 177، أمين صالح: المرجع السابق، ص: 327، 328.
(5) ابن المجاور: صفة، ص: 124.

بينما كان لسبأ بن أبي السعود جباية الأموال التجارية القادمة من البر. فأوكل لهذا العمل نائبه أحمد بن غياث الهذلي. فاشتط ابن الجزري في قيمة الأموال لابن الهذلي. وكذلك (امتدت أيدي أصحاب علي بن أبي الغارات إلى ظلم الناس وعاثوا وأفسدوا وأطلقوا الأقوال بذمة الداعي سبأ)[1].

وآنذاك حاول الداعي سبأ عدم التسرع في محاربة ابن عمه علي بن أبي الغارات. فازدادت صولة أصحاب علي بن أبي الغارات وظلمهم للناس إلى الحد الذي لا يستطيع فيه الداعي سبأ التحمل. وخاصة عندما كاد احتمال الداعي سبأ يوصله إلى خروج السلطة من تحت يديه. لذلك قرر الاتجاه لمحاربة ابن عمه علي بن أبي الغارات. فاستمرت الحرب سنتين من سنة 330هـ/ 1136م حتى سنة 332هـ/ 1138م[2].

ومن الملاحظ أنه رغم حدوث الخلاف حول الماء والحطب وقسمة الأموال. فإنها لم تكن هي الأسباب الحقيقية لتحريك الصراع، لأن حكم (عدن) نفسها كان من اختصاص علي بن أبي الغارات. وقسمة الأموال كانت واضحة. حيث كانت لعلي بن أبي الغارات جباية الأموال القادمة من البحر. وكانت لسبأ بن أبي السعود جباية الأموال القادمة من البر. وذلك لا يسبب الخلاف بين الطرفين. وإن حدث الخلاف فمن السهل حله.

والواقع أن الخلاف الحقيقي حدث حول التوسع في السلطة، فالداعي سبأ بن أبي السعود بعد أن أصبح داعية للخلافة الفاطمية في اليمن. أراد توسيع نفوذه ونشر الدعوة الإسماعيلية في أغلب مناطق اليمن مما أدى إلى معارضة سلطان ابن عمه على مناطقه. فضلاً عن أن الداعي سبأ أراد أن تكون (عدن) عاصمة لنفوذه لأهميتها. وأراد السيطرة عليها لأنه كان مقيماً في الدملوة وهي لا توافق طموحه في جعلها عاصمة له. لذلك حدث الصراع بين الطرفين.

وفي بداية الصراع بين سبأ وابن عمه علي بن أبي الغارات حاول صاحب

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 178، الحمزي: كنز، ص: 84، ابن المجاور: صفة، ص: 124، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 82، 83، الجندي: السلوك، 2/ 501، ابن الديبع: قرة، ص: 306، حسن سليمان محمود: تاريخ اليمن، ص: 224، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 296، المحصلات التجارية سماه ابن المجاور الدخل والخرج.

(2) عمارة: المفيد، ص: 178، ابن المجاور، صفة، ص: 123، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 84، الحمزي: كنز، ص: 84، الخزرجي: العسجد، ص: 84، 85، ابن الديبع: قرة، ص: 306، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 119، 120، حسن محمود: تاريخ اليمن، ص: 224، 225.

جزيرة كيش (قيس) في الخليج مهاجمة عدن بعدة سفن حربية وجيش كبير نزلوا في صيرة. وذلك بهدف تحويل التجارة من عدن إلى كيش. وأثناء هجومهم على عدن. لم يكن يوجد بها جيش يقاومهم. لأن سبأ بن أبي السعود كان في الدملوة وعلي بن أبي الغارات في الرعارع بجيشيهما يحاربان بعضهما البعض. أما أهل عدن فقد هربوا من بيوتهم للتحصن بجبال عدن خوفاً من جيش صاحب جزيرة كيش. إلا أن هذه الحملة لم تتمكن من تحقيق أهدافها. فبعد شهرين من حصار عدن وتخويف أهلها. انتهى مصير الحملة بالانهزام. وذلك عن طريق حيلة وضعها لهم قائد قلعة الخضراء بعدن. حيث تظاهر لهم بالاستسلام. فأرسل إليهم الدقيق والمؤن اللازمة للطعام. كما أرسل إليهم النبيذ فلما أكلوا وشربوا كثيراً حتى سكروا. وأثناء ذلك هجم عليهم جيش الزريعيين فقتل الكثير منهم[1] وحسب رواية أخرى تقول إنه دار قتال شديد في صيرة بين جيش صاحب جزيرة كيش وجيش الزريعيين القادم من خارج عدن. انتهى بانتصار الزريعيين وهزيمة جيش صاحب جزيرة كيش وهروبهم[2] وهذا الرأي الأخير أكثر معقولية وهو ما نرجحه. وبذلك انتهى ذلك الهجوم بالفشل.

ومن الملاحظ أثناء صراع الزريعيين أن الداعي سبأ بن أبي السعود اتخذ قلعة الدملوة مقراً له. بينما اتخذ علي بن أبي الغارات مدينة الرعارع المسورة بلحج مقراً له وذلك من أجل أن يتحصنا بهما واستخدام القبائل المجاورة إليهما في الصراع. ولتوفر المواد الغذائية والمياه بهما. ولذلك دام الصراع سنتين دون أن تحقق أية نتيجة لأحد الطرفين. ولما رأى الداعي سبأ عدم مقدرة جيشه الموجود لديه للقضاء على علي بن أبي الغارات. عمل على طلب الاستعانة بقبائل اليمن الأخرى. فاستجابت لطلبه قبائل من همدان وجنب بن سعد وعنس وخولان وحمير ومذحج وغيرهم[3]. وذلك كون سبأ الزريعي داعية إسماعيلي في اليمن ومفوضاً من الخلافة الفاطمية فيها. ولما تجمعت هذه القبائل إلى الدملوة اتجه إلى قتال علي بن أبي الغارات على جبهتين.

إحداهما بقيادة وزيره بلال بن جرير المحمدي. الذي تولى أمر القتال بمدينة عدن نفسها. حيث كلفه الداعي سبأ بذلك عندما قرر الداعي القتال في الرعارع بأن يقاتل بلال أنصار علي بن أبي الغارات في عدن[4] في نفس الوقت الذي يقاتله فيه

---

(1) ابن المجاور: صفة، ص: 124 ـ 126، كريم: عدن، ص: 118 ـ 121.

(2) كريم: عدن، ص: 123، انظر عن هذا الهجوم بتوسع في كتاب عدن، ص: 117 ـ 126.

(3) عمارة: المفيد، ص: 178، الوصابي: الاعتبار، ص: 64، الخزرجي: العسجد، ص: 89، ابن الديبع: قرة، ص: 307، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 297.

(4) ابن الديبع: قرة، ص: 306، 307.

الداعي في الرعارع. وخلال الحرب في عدن تمكن الوزير بلال المحمدي من الانتصار والاستيلاء على حصن الخضراء (حقات) مقر علي بن أبي الغارات. وإنزال أمه بهجة منه. واستيلائه على جميع ما كان لديها من الأموال والذخائر وكانت كثيرة[1].

والأخرى بقيادة سبأ الزريعي نفسه الذي اتجه بجيشه ومن انضم معه من القبائل نحو قرية بني أبة في وادي لحج استعداداً لمقاتلة علي بن أبي الغارات الذي كان معسكراً في الرعارع. ثم سار سبأ فالتقى الطرفان قرب الرعارع. فدارت بها معركة كبيرة بينهما أدت إلى (كثر الطعن بين الفريقين والجلاد بالسيوف وعقر الخيل) انتهت هذه المعركة بانتصار الداعي سبأ وهزيمة علي بن أبي الغارات وهروبه مع عمه منيع إلى صهيب سبأ في أعالي لحج.

وقد علل عمارة على لسان محمد بن سبأ الزريعي أن سبب هزيمة علي بن أبي الغارات هو أنه كان ينفق الكثير من الأموال جزافاً منذ بداية المعارك. وكان قريباً من تحقيق النصر. بينما كان الداعي سبأ قليل الإنفاق. ولما قلت أموال علي بن أبي الغارات تضعضعت حاله فبدأ الداعي سبأ بالإنفاق. وبسبب ذلك حقق الداعي النصر عليه[2]. والواقع أن استعانة الداعي سبأ بالقبائل هي التي أدت إلى ترجيح كفة سبأ فحقق الانتصار.

وبعد تحقيق الداعي سبأ النصر بالرعارع بلحج. وسيطرة وزيره بلال المحمدي على عدن اتجه الداعي نحو عدن للاستقرار بها واتخاذها عاصمة له. وبذلك انفرد سبأ الزريعي بالسلطة في عدن.

تولية علي الأعز: بعد انفراد الداعي سبأ بالحكم في عدن لم يعمر طويلاً فقد مات بعد سبعة أشهر من انتصاره ودخوله عدن. وكانت وفاته سنة 533هـ/ 1138م حسب رأي عمارة[3] وسنة 532هـ/ 1137م حسب رأي الخزرجي[4] ومن المحتمل

(1) عمارة: المفيد، ص: 182، الوصابي: الاعتبار، ص: 64، الجندي: السلوك، 2/ 502، الخزرجي: العسجد، ص: 86 ـ 88، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 121، حسن سليمان محمود: تاريخ اليمن، ص: 325، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 297.

(2) عمارة: المفيد، ص: 178 ـ 180، الوصابي: الاعتبار، ص: 65، الجندي: السلوك، 2/ 502، الحمزي: كنز، ص: 84، 85، الخزرجي: العسجد، ص: 85، 86، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 120، 121.

(3) عمارة: المفيد، ص: 183، الجندي: السلوك، 2/ 502، الحمزي: كنز، ص: 85، كريم: عدن، ص: 157.

(4) الخزرجي: العسجد، ص: 88، ابن الديبع: قرة، ص: 309.

أنه مرض في ذي الحجة سنة 532هـ ومات في أوائل سنة 533هـ/ 1138م. أو أن مرضه كان حسب رواية الخزرجي، وموته حسب رواية عمارة.

وبعد موته تولى ابنه الأعز علي بن سبأ بناء على وصية أبيه له. وكان مقيماً بالدملوة عندما أوصى له أبوه بالسلطة، وظل مقيماً بها. ولكن حكم الأعز هذا لم يدم طويلاً فقد مات بعد سنتين من ولايته متأثراً بمرض السل وذلك في سنة 534هـ/ 1139م. وأوصى بالحكم بعده إلى ابنه حاتم الذي كان طفلاً مع أخوين له لا زالا في سن الطفولة. وهما عباس ومنصور وكانوا جميعاً تحت وصاية مولاه أنيس الحبشي[1].

تولية محمد بن سبأ: تولى محمد بن سبأ السلطة في عدن بناءً على دعم من الوزير بلال بن جرير المحمدي والسبب في ذلك حسب وصف عمارة أن علاقة علي الأعز بالوزير بلال كانت غير طيبة. فقد همَّ بقتل بلال. لذلك عمل بلال على تحويل السلطة من أبناء علي الأعز بعد موته إلى محمد بن سبأ. والواقع أن السبب الرئيسي في تحويل السلطة إليه هو صغر سن أولاد علي الأعز. وعدم مقدرتهم تحمل الأعباء السياسية. فضلاً عن عدم تأييد أغلب الناس والقادة لتولية ابن الأعز الطفل. وكان محمد بن سبأ أثناء موت أخيه هارباً في ذي جبلة مستنجداً بالأمير منصور ابن المفضل الحميري[2] ويبدو أن سبب هروب محمد إلى ذي جبلة هو طموحه في تولي السلطة بعد موت أبيه بدلاً من أخيه الأكبر علي الأعز نظراً لإصابة علي بمرض السل. ولكنه قاوم أخاه محمد فهرب منه إلى ذي جبلة.

طريقة توليه السلطة: وعن الطريقة التي تولى بها محمد بن سبأ السلطة هي أنه لما مات علي الأعز كتب الوزير بلال من عدن إلى محمد بن سبأ الذي كان هارباً في ذي جبلة يخبره بوفاة أخيه ويطلب منه الحضور إليه ليتولى السلطة. فلما وصل محمد بن سبأ إلى قرب عدن خرج إليه الوزير بلال المحمدي لاستقباله. فأحسن الترحيب به. ثم أخذه معه إلى قصر المنظر بعدن في حقات. فأنزله به. ثم جمع الناس لمبايعته فبايعوه. كما بايعه جميع العساكر في عدن. وبذلك تولى محمد السلطة. ثم جهزه بلال بجيش للاتجاه إلى الدملوة للاستيلاء عليها من أولاد أخيه. فسار إليها وحاصر من بها مثل أنيس الحبشي الوصي ويحيى العامل كاتب ووزير علي الأعز ومن معهما ممن كانوا مقيمين آنذاك في الدملوة. واستمر الحصار

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 183، 184، الخزرجي: العسجد، ص: 87، حسن سليمان محمود: تاريخ اليمن، ص: 226.

(2) عمارة: المفيد، ص: 183، 184، الجندي: السلوك، 2/ 503، الخزرجي: العسجد، ص: 87، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 300.

حتى أعلنوا طاعتهم له. وبذلك ضمن محمد بن سبأ عدم وجود معارضين لحكمه. وبعد عودته إلى عدن زوجه الوزير بلال المحمدي من ابنته[1]. وبدأ بذلك حكم محمد بن سبأ للدولة الزريعية في عدن.

تقليد محمد بن سبأ الدعوة من الخلافة الفاطمية: وفي ذلك الوقت قدم من مصر مبعوثاً من الخلافة الفاطمية هو الرشيد ابن الزبير الأسواني. وذلك لتقليد علي الأعز بن سبأ أمر الدعوة الإسماعيلية الحافظية. فلما وصل إلى عدن وجد الأعز قد مات وتولى أخوه محمد بن سبأ الحكم. فقلده الرشيد أمر الدعوة الإسماعيلية الحافظية. ونعته (بالمعظم المتوج المكين) كما نعت وزيره بلال بن جرير المحمدي (بالشيخ السعيد الموفق السديد)[2]. وبذلك كسب محمد بن سبأ الصفة الشرعية في تولية أمر الإسماعيلية في اليمن. وأصبح موالياً للفاطميين مذهبياً.

وعلى الرغم من انفراد محمد بن سبأ بالسلطة في عدن. واعتراف الجميع بسلطانه. إلا أنه ظل يتتبع خصمي أبيه وهما علي بن أبي الغارات ومنيع ابن المسعود، اللذين تحصنا في حصني (المنيف والحلقة) في أعالي لحج بعد هزيمتهما سنة 532هـ/ 1137م إلى أن أتاحت له الفرصة فتمكن من قتلهما سنة 545هـ/ 1150م[3]. وبذلك تخلص من احتمال منافستهما له في السلطة. وأمن على استمرار السلطة تحت نفوذه وتوريثها لأبنائه.

وفي غضون ذلك توفي الوزير بلال بن جرير المحمدي سنة 545هـ/ 1150م بعد أن بذل مجهوداً كبيراً في مناصرة محمد بن سبأ. وخلفه في تولي الوزارة ابنه مدافع بن بلال لفترة قصيرة ثم خلفه أخوه ياسر بن بلال الذي ظل في الوزارة حتى نهاية دولة بني زريع[4].

---

(1) الوصابي: الاعتبار، ص: 66، الجندي: السلوك، 2/ 503، الخزرجي: العسجد، ص: 88، كريم: عدن، ص: 159، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 300.

(2) عمارة: المفيد، ص: 185، 186، الجندي: السلوك، 2/ 503، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 84، الوصابي: الاعتبار، ص: 66، الخزرجي: العسجد، ص: 88، ابن الديبع: قرة، ص: 309، 310، حسن سليمان محمود: تاريخ اليمن، ص: 226، 227، ، يحيى بن الحسين: غاية، ص: 297، 298، كريم: عدن، ص: 160.

(3) عمارة: المفيد، ص: 182، 183، كريم: عدن، ص: 162، أورد الجندي، 2/ 503، أنهما قتلا سنة 546هـ وقيل سنة 547هـ.

(4) عمارة: المفيد، ص: 190، 191، الخزرجي: العسجد، ص: 89، ابن الديبع: قرة، ص: 311، أورد عمارة، ص: 190، أنه توفي سنة 546هـ، أو سنة 547هـ، أما الخزرجي، ص: 89، قال وقيل توفي سنة 547هـ.

خَلَّفَ الوزير بلال المحمدي ثروة كبيرة نظراً لمشاركته بعض التجار ومما خلفه من الثروة ستمائة ألف دينار ملكي، والكثير من الدنانير المصرية. ومخازن من الملبوسات، وعدد من الطيب وألطافه. فضلاً عن الكثير من العدد والسلاح والتحف الهندية وألطاف الصين والمغرب والعراق وغيرها. وقد أوصى بهذه الثروة إلى مولاه محمد بن سبأ[1].

وآنذاك لم يلبث الداعي محمد بن سبأ أن عمل على توسيع نطاق نفوذه. ففي سنة 544هـ/ 1149م أو سنة 547هـ/ 1152م. اشترى من الأمير منصور ابن المفضل بن أبي البركات الحميري جميع المعاقل والحصون والمدن التي ورث حكمها من بني الصليحي بمبلغ مائة ألف دينار. وهي ثمانية وعشرون حصناً ومدائن منها مدينة ذي جبلة[2]. ويعلل الجندي أن سبب بيع هذه الحصون كبر سن منصور وحبه للسكون والدعة[3]. بالإضافة إلى ذلك فهناك سبب آخر في بيع هذه الحصون هو المحافظة على تبعية هذه المناطق للفكر الإسماعيلي. كون الداعي محمد بن سبأ متولياً لأمر الدعوة الإسماعيلية في اليمن، بتفويض من الخلافة الفاطمية المتزعمة لهذا الفكر. وكما يبدو أن منصور كان موالياً لمحمد بن سبأ مذهبياً وسياسياً. لذلك باع له هذه الحصون. وبشراء هذه الحصون والمدن اتسع سلطان الداعي محمد بن سبأ فشمل معظم اليمن الأسفل.

وفي ذلك الوقت اتجه الداعي محمد بن سبأ نحو مخلاف جعفر سنة 548هـ/ 1153م. فسكن ذي جبلة وتزوج بامرأة منصور ابن المفضل. وفي ذلك أكثر الشعراء (بتهنئته ومدحه بالمعاقل والعقيلة)[4] ويعد محمد بن سبأ من أشهر من حكموا الدولة الزريعية.

ومن ضمن من مدحه من الشعراء الآتي:

1 ـ مدحه القاضي يحيى بن عبد السلام بقوله:

النصر من قرناء عزمك فاعزم والدهر من أسرار حكمك فاحكم

ومدحه الشريف يحيى الحسيني بقوله:

جلالك ألبس العيد الجلالا ومجدك فيه مجد العيد طالا

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 191.

(2) عمارة: المفيد، ص: 187، الجندي: السلوك، 2/ 500، الخزرجي: العسجد، ص: 90، ابن الديبع: قرة، ص: 314، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 248، حسن سليمان محمود: تاريخ اليمن، ص: 227، كريم: عدن، ص: 166.

(3) الجندي: السلوك، 2/ 500.

(4) عمارة: المفيد، ص: 178 ـ 188.

وعـزك ألـبـس الأعـيـاد عـزا   تـنـبـه بـه فـصـار لـه جـمـالا

ومدحه حاتم بن محمد الصنعاني بقوله:

قـسـمـاً بـمـجـدك أنـه لـمـشـيـد   حـقـاً وأنـك فـي الـزمـان وحـيـد

فـاقـعـد بـدسـت الـمـلـك غـيـر مـنـازع   وألـبـس رداء الـمـجـد فـهـو جـديـد

وأفـخـر عـلـى أهـل الـزمـان فـإنـهـم   خـول وإنـك فـيـهـم الـعـمـيـد[1]

ومدحه الشيخ الأديب سالم بن عمران الثعلبي بقوله:

هل لـلـفـضـائل عـن مـديـحك مـعـزل   أم هـل لـهـا مـن دون بـابـك مـوئـل

شغلت صفائك ألسن الشعراء عن   أن يـنـسـبـوا مـعـهـا أو أن يـتـغـزلـوا[2]

تولية عمران: بعد سيطرة الداعي محمد بن سبأ على أملاك الصليحيين في اليمن الأسفل لم تطل به الحياة. فقد مات على الأرجح سنة 550هـ/ 1155م. فخلفه في تولي السلطة ابنه عمران[3].

اتصف عمران بأنه (اقتفى طريقة أبيه مع زيادة لائقة وأخلاق رائعة وكان جواداً كريماً)[4] مدحه الشعراء. ولكنه جابه أواخر حياته توسع دولة ابن مهدي في مناطق نفوذه فقد شن على لحج حملتين إحداهما سنة 556هـ/ 1116م والثانية سنة 558هـ/ 1163م فصالحه عمران بمبلغ من المال تحمل إليه سنوياً[5] وسيأتي ذكره عند التحدث عن بني مهدي.

وفي غضون ذلك توفي عمران سنة 560هـ/ 1164م مخلفاً بعده ثلاثة أطفال لم يدركوا الحلم. تركهم تحت كفالة الأستاذ أبي الدر جوهر المعظمي بمقره في حصن الدملوة. أما عدن فقد كان القائم بها الوزير ياسر بن بلال المحمدي. وظل الأمر على ذلك حتى قدم السلطان تورانشاه الأيوبي سنة 569هـ/ 1174م فاستولى

---

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 88، 89، ابن الديبع: قرة، ص: 310، كريم: عدن، ص: 166، 167.

(2) الخزرجي: العسجد، ص: 88.

(3) عمارة: المفيد، ص: 189، الجندي: السلوك، 2/ 503، الخزرجي: العسجد، ص: 90، ابن الديبع: قرة، ص: 314، اختلفت الأقوال في موت الداعي محمد بن سبأ، فقيل أنه مات سنة 548هـ، وقيل أنه مات سنة 549هـ، وقيل أنه مات سنة 550هـ، الخزرجي: العسجد، ص: 90، الجندي، ص: 503، عمارة هامش، ص: 189، ومن المرجح أنه مات سنة 550هـ، لأنه كان موجوداً في ذي جبلة سنة 549هـ.

(4) ابن الديبع: قرة، ص: 314، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 305.

(5) الجندي: السلوك، 2/ 504.

على عدن بعد هروب الوزير ياسر بن بلال إلى الدملوة ثم إلى تعز. فألقى القبض عليه فيها مع مملوكه مفتاح السدوسي وأعدما سنة 571هـ/ 1176م[1]. وبذلك انتهت دولة بني زريع في عدن. أما حصن الدملوة فقد ظل تحت سيطرة آل زريع إلى أن اشتراه منهم طغتكين سنة 585هـ/ 1189م[2] وبذلك انتهت دولة بني زريع من اليمن.

خاتمة:

من خلال ما تقدم نجد أن حكم العباس ومسعود ابني الكُرَّم لعدن مرَّ بمرحلتين. **إحداهما**: مرحلة اشتراكهما وتقاسمهما حكم عدن تم توريث حكمها لأبنائهما. وفي هذه الفترة كان اعتمادها على الأموال التجارية. وظل أولادهما في طاعة الدولة الصليحية في عهدي المكرَّم والسيدة الحرة. ثم بدأوا يحاولون الاستقلال بحكم عدن عن الصليحيين عدة مرات إلى أن تمكنوا من الاستقلال في حكمي أبي الغارات بن مسعود وابن عمه سبأ بن أبي السعود بن زريع. وهذان الحاكمان عملا على التوسع في السيطرة على المناطق القريبة لهما. وهي مناطق الجند والمعافر ولحج وأبين وذلك في ظل استمرار ضعف الدولة الصليحية في عهد السيدة الحرة.

وثانيهما: مرحلة استقلال بني زريع دون بني عمومتهم في حكم عدن وهي أهم مرحلة لحكم بني زريع لعدن اعتمدوا فيها على الموارد المالية للتجارة والزراعة. وقد بدأت هذه المرحلة عندما تولى سبأ بن زريع أمر الدعوة الإسماعيلية في اليمن بتقليد من الخليفة الحافظ الفاطمي. بدلاً عن السيدة الحرة التي تنازلت عن تولي الدعوة الحافظية وانفصلت عن موالاتها للفاطميين بمصر.

وقد بلغت الدولة الزريعية في عهد محمد بن سبأ أقصى اتساع لها وذلك بشرائه كل حصون ومدائن الصليحيين في اليمن الأسفل، فوصل سلطانه إلى ذي جبلة. ثم ورثه في السلطة ابنه عمران. وظل يحكم الدولة الزريعية على اتساعها ذلك إلى أن جاء بنو مهدي في عهده فتوسعوا في الاستيلاء على الكثير من مناطقهم. ومع ذلك فقد ظل بنو زريع يحكمون عدن وبعض المناطق اليمنية الأخرى حتى قدم إليهم الأيوبيون من مصر فتمكنوا من إنهاء الدولة الزريعية وحكمها في اليمن.

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 190، الجندي: السلوك، 2/ 504، الخزرجي: العسجد، ص: 95، 96، ابن الديبع: قرة، ص: 319.
(2) الخزرجي: العسجد، ص: 95.

الدولة النجاحية في تهامة اليمن

بدأ ظهور نجاح مؤسس الدولة النجاحية كقائد لدولة بني زياد يعمل على مناصرتهم إلى أن أصبح أهم قائد لأمراء بني زياد. ولما توفي آخر أمير زيادي لم يكن له وريث يتولى السلطة، فأتاح ذلك فرصة لنجاح أن يؤسس دولة له عرفت باسم الدولة النجاحية ويمكن تقسيم حكم الدولة النجاحية في تهامة اليمن إلى فترتين رئيسيتين. **إحداهما**: فترة سيطرة الأمراء على السلطة. وتبدأ منذ تولي الأمير نجاح الحكم في تهامة اليمن حتى نهاية الأمير فاتك بن جياش بن نجاح. **وثانيهما**: فترة سيطرة الوزراء على السلطة. وتبدأ منذ تولي الأمير منصور بن فاتك وتولي الوزارة أنيس الفاتكي وتمتد حتى نهاية الدولة النجاحية. نوضح ذلك في الآتي:

أ ـ المرحلة الأولى: وهي مرحلة سيطرة الأمراء على السلطة.

أولاً

الأمير نجاح نصير الدين

قيام الدولة النجاحية: حلت الدولة النجاحية محل الدولة الزيادية في حكم تهامة اليمن، وإعلان الولاء والطاعة للخلافة العباسية. وعن زمن قيام هذه الدولة فقد اختلفت الروايات حولها كالتالي:

1 ـ **الرواية الأولى**: أوردها عمارة واقتدى أثره أغلب المؤرخين الأقدمين في إيراد ما أورده عن قيام الدولة النجاحية. أنها كانت سنة 412هـ/ 1022م وتبعهم في ذلك المؤرخون الحديثون. وفحوى تلك الرواية التي أوردها عمارة ما يأتي:

بعد موت الحسين بن سلامة سنة 402هـ/ 1011م. انتقلت إمارة بني زياد إلى طفل زيادي اسمه إبراهيم أو عبد اللّه. فتولت الوصاية له عمته. أما الوزارة فقد انتقلت إلى أحد عبيد الحسين بن سلامة المسمى مرجان. وكان لمرجان هذا عبدان أحدهما يسمى نفيساً وكان يتولى تدبير الحضرة أو الوزارة. والآخر يسمى نجاحاً وكان يتولى أعمال الكدرا والواديين[1].

(1) عمارة: المفيد، ص: 83، الوصابي: الاعتبار، ص: 30، الجندي: السلوك، 2/ 482، ابن الديبع: قرة، ص: 232، بغية، ص: 54. ذكر ابن الأثير في الكامل أن وفاة الحسين بن سلامة =

ثم حدث التنافس بين نجاح ونفيس حول تولي وزارة الحضرة فوقفت عمة الأمير الزيادي إلى جانب نجاح. بينما وقف مرجان إلى جانب نفيس وتآمرا على الأمير الزيادي وعمته. وحدث ذلك التآمر عندما اشتكى نفيس لمولاه مرجان عن ميل عمة الأمير الزيادي إلى نجاح. فقام مرجان بالقبض عليهما وتسليمهما إلى نفيس. فعمل نفيس على القضاء عليهما عن طريق بناء جدار محكم عليهما في دار الإمارة وهما حيّان يناشدانه اللّه حتى أحكم قفل الجدار فماتا في ذلك الدار سنة 407هـ/ 1016م[1].

وعلى أثر ذلك قام نجاح باستنفار جميع الناس ضد نفيس، فلما اجتمعوا إليه توجه بهم إلى زبيد لمحاربته. فخاض معه عدة معارك استمرت ثلاث سنين تبادل فيها الاثنان النصر والهزيمة. فمن المعارك التي انتصر فيها نفيس المعركتين اللتين سميتا بيوم رمع ويوم فشال. أما المعركتان اللتان انتصر فيهما نجاح فهما يوم العقدة ويوم العرق. وأهم تلك المعارك المعركة الأخيرة التي نشبت على باب زبيد الشمالي والتي سميت بيوم العرق. والتي قتل فيها نحو خمسة آلاف وأربعمائة رجل من الطرفين. وانتهت بانتصار نجاح وقتل نفيس وذلك في ذي القعدة سنة 412هـ/ فبراير 1022م. بعدها دخل نجاح زبيد واستولى على السلطة بها[2].

ومع إجماع أغلب المؤرخين على رواية عمارة اليمني السابقة الذكر. إلا أن هناك روايتين تخالفان تلك الرواية زمنياً وموضوعياً. وهما الرواية الثانية والرواية الثالثة الآتي ذكرهما:

2 ـ **الرواية الثانية**: أوردها ابن جرير الصنعاني، وتحكي هذه الرواية أنه عندما توفي الحسين بن سلامة في النصف من صفر من سنة 426هـ/ ديسمبر 1034م تولى الوزارة بدلاً عنه غلامه المسمى رشيداً أو رشداً بأمر من الأمير الزيادي علي بن المظفر. إلا أن هذا الوزير لم يظل مخلصاً أو مطيعاً لمولاه الأمير الزيادي. فقد حدث خلاف بينه وبين أحد القادة المسمى ابن قاسم. انتهى هذا الخلاف

= كانت سنة 428هـ. كذلك أشار بامخرمة، ص: 93 أنه وجد في محراب مسجد زبيد عبارة مكتوبة أنه من عمل الحسين بن سلامة سنة 425هـ. مما يدل على أن الحسين بن سلامة عاش إلى هذا التاريخ.

(1) عمارة: المفيد، ص: 84، الجندي: السلوك، 2/ 482، الخزرجي: العسجد، ص: 103، ابن الديبع: بغية، ص: 54، الجرافي: المقتطف، ص: 74، 75، الحريري: معالم، ص: 21، 22.

(2) عمارة: المفيد، ص: 85، الجندي: السلوك، ص: 482، ابن الديبع: قرة، ص: 333، 334، بغية، ص: 55، الحريري: معالم، ص: 21، 22. عند ابن عبد المجيد في بهجة، ص: 41، أن نجاحاً استولى على زبيد سنة 422هـ.

بإصدار الوزير رشيد أمراً بقتل ابن قاسم. بعدها عمد على الاستيلاء على جميع أموال بني زياد وخزائنهم في زبيد. كما عمل على إطلاق من كان محبوساً فيها من سلاطين الجبال وعددهم أربعة وتسعين سلطاناً. وعمل أيضاً على مكاتبة أهل الجبال يدعوهم إلى طاعته فأطاعوه. وعلى ذلك صارت السلطة بيديه في زبيد في سنة 426هـ/ 1035م. أما الأمير الزيادي علي بن المظفر فقد غضب من تصرف وزيره رشيد. فخرج هارباً من زبيد متجهاً نحو المهجم[1]. واتخذها عاصمة له. ومنذ ذلك التاريخ أصبحت المهجم عاصمة للزياديين ثم عاصمة للنجاحيين عهد الأمير نجاح.

3 ـ **الرواية الثالثة**: أوردتها العملة المضروبة في اليمن. وهي عبارة عن عدة دنانير ضربت باسم أواخر أمراء الدولة الزيادية وموجودة الآن في متحف قطر منها ديناران يحملان اسم الأمير الزيادي المظفر بن علي والخليفة القائم بأمر اللّه العباسي. ضرب أحدهما في صنعاء سنة 435هـ/ 1043م والآخر ضرب في الجند سنة 438هـ/ 1046م. وديناران آخران يحملان اسم الأمير الزيادي علي بن المظفر وهو ابن الأمير السابق. واسم الخليفة القائم بأمر اللّه العباسي. وإلى جانبهما ذكر اسم المؤيد نجاح نصير الدين. أحدهما ضرب في الجند سنة 437هـ/ أو سنة 439هـ/ 1047م. والآخر ضرب في زبيد سنة 444هـ/ 1052م[2].

هذه الرواية الأخيرة توضح بلا شك أن الدولة الزيادية ظلت مستمرة إلى سنة 444هـ/ 1053م وهي بذلك تخالف رواية عمارة الأولى. وأن اسم الأمير نجاح ظهر كما أوردته العملة منذ سنة 439هـ/ 1047م، تابعاً لأمراء بني زياد. وعلى ذلك فمن المرجح أن نهاية الدولة الزيادية وقيام الدولة النجاحية كان في نهاية سنة 444هـ/ 1053م.

وبالعودة إلى الروايات السابقة فإنه على الرغم من اختلاف الروايتين الثانية والثالثة في إيراد اسم الأمير الزيادي المسمى علي بن المظفر أو أبيه المظفر كما سبق. إلا أنه من المعتقد أن علي بن المظفر تولى السلطة قبل سنة 426هـ/ 1035م وظل يصدر العملة باسم أبيه المظفر حتى سنة 438هـ/ 1046م وبعد ذلك أصدر علي بن المظفر العملة باسمه وإلى جانبه قائده الأمير نجاح نصير الدين والخليفة القائم باللّه العباسي. ومن المعتقد أيضاً أن رشيد هو نفيس وأن ابن قاسم هو ابن أحد الأمراء الزياديين. وأن نجاحاً بعد قتل ابن قاسم اتجه لمحاربة رشيد أو نفيس.

---

(1) الرازي: تاريخ مدينة صنعاء، ص: 158، 159.

(2) محمد العش: المسكوكات، الإكليل، ص: 42، 43.

وأن أحداث الصراع بدأت سنة 426هـ/ 1035م واستمرت حتى سنة 429هـ/ 1038م وقد تكون هذه الأحداث استمرت حتى سنة 432هـ/ 1041م.

بالإضافة إلى اختلاف الروايات السابقة في زمن الأحداث وتفاصيلها. فقد اختلفت المصادر في ذكر اسم القائد الذي حاربه الأمير نجاح. فعمارة والخزرجي وابن الديبع يذكرون أنه كان يسمى (نفيساً)[1]. والوصابي يذكر أنه كان يسمى (قيساً)[2] بينما يذكر الجندي أنه كان يسمى (أنيساً)[3] أما ابن جرير الصنعاني فيذكر أنه كان يسمى (رشيد أو رشد)[4].

كذلك اختلفت المصادر في الزمن الذي قتل فيه (نفيس) لمولاه الأمير الزيادي وعمته. فالجندي، والخزرجي، وابن الديبع[5] يذكرون أن قتلهما كان في سنة 407هـ/ 1016م. وأن تمكن نجاح من قتل (نفيس) في ذي القعدة سنة 412هـ/ فبراير 1022م. بينما يذكر الوصابي[6] أن قتل (نفيس أو قيس) للأمير الزيادي وعمته كان في سنة 409هـ/ 1018م. ويتفق مع ما سبق في تمكن نجاح من قتل (نفيس) في ذي القعدة سنة 412هـ/ 1022م. ويذكر الجندي أن مدة الحرب أو التنافس بين نجاح ونفيس استمرت ثلاث سنين[7].

وعلى أية حال فمن خلال استعراض تلك الروايات السابقة الذكر نرجح أن أحداث الصراع بين نجاح ونفيس وقيام الدولة النجاحية حدثت كالآتي:

عندما توفي وزير آل زياد الحسين بن سلامة في صفر سنة 426هـ/ ديسمبر 1034م. كان المتولي لأمر الدولة الزيادية الأمير علي بن المظفر بن علي بن إبراهيم بن زياد. فقام هذا الأمير بإسناد أعمال الوزارة إلى القائد (رشيد أو نفيس). إلا أن هذا القائد لم يطعه بعض القادة فحدث صراع بينه وبين أحد القادة المسمى ابن قاسم أسفر عن قيام (نفيس) بقتل القائد (ابن قاسم). بعد ذلك اضطربت الأمور في تهامة. فاستولى (نفيس) على زبيد واستقل في السلطة بها. وقام بمصادرة ما بها

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 84، الخزرجي: العسجد، ص: 103، ابن الديبع: قرة، ص: 333، بغية، ص: 54.

(2) الوصابي: الاعتبار، ص: 29.

(3) الجندي: السلوك، 2/ 482.

(4) الرازي: تاريخ مدينة صنعاء، ص: 158.

(5) الجندي: السلوك، 2/ 482، الخزرجي: العسجد، ص: 103، 104، ابن الديبع: قرة، ص: 333، 334، الحريري: معالم، ص: 20.

(6) الوصابي: الاعتبار، ص: 30، الحريري: معالم، ص: 20.

(7) الجندي: السلوك، 2/ 484.

من الأموال والخزائن التابعة لبني زياد. كما قام بإطلاق من كان مسجوناً في زبيد من سلاطين الجبال وعددهم أربعة وتسعين سلطاناً. وطالب من سلاطين الجبال طاعته فأطاعوه. ثم اتجه بعد ذلك إلى استعادة سلطان مواليه أمراء لحج وعدن وأبين وهم بنو حوشب أو بنو معن. وبعد استعادة سلطانهم عاد إلى زبيد مع السلطان أحمد بن عبد الله الكرندي فاستولى عليها. وظل حاكماً بها.

وبالنسبة للأمير الزيادي علي بن المظفر فقد غضب من تصرف القائد (نفيس) بعد قتله لابن قاسم. فخرج من زبيد هارباً نحو المهجم. واستعان بالقائد نجاح الذي كان متولياً لأعمال الكدرا، والواديين والتي كانت جُلّ الأعمال الشمالية لزبيد. فقام نجاح بطلب النجدة من جميع أهل تهامة وأهل الجبال المناصرين للأمير الزيادي. ولما تجمع إليه جمع كبير منهم توجه بهم نحو زبيد لمحاربة (نفيس). فدارت بينهما عدة معارك استمرت ما بين ثلاث سنين أو خمس سنين. مرة ينتصر فيها (نجاح) ومرة أخرى ينتصر فيها (نفيس) وفي آخر هذه المعارك تمكن القائد (نجاح) من قتل (نفيس) والسيطرة على زبيد. وذلك كما يتضح سنة 432هـ/ 1040م[1] وبعد هذا الانتصار أطلق على نجاح لقب المؤيد نصير الدين وبذلك أصبح نجاح وزير لآل زياد.

وإذا استعرضنا حكم الأمير نجاح بعد سيطرته على (زبيد) فيمكن أن نقسمها إلى فترتين إحداهما: تبعيته ومشاركته للأمير الزيادي وتمتد هذه الفترة من سنة 432هـ/ 1040م حتى سنة 444هـ/ 1052م. والفترة الثانية: استقلال الأمير نجاح بالحكم في تهامة. وهي ما تعبر عن ظهور الدولة النجاحية وتمتد هذه الفترة حتى وفاة نجاح سنة 452هـ/ 1060م. نذكر ذلك في الآتي:

1 ـ الفترة الأولى:

بعد أن استطاع (نجاح) قتل (نفيس) في حوالي سنة 432هـ/ 1040م. وسيطرته على زبيد وتهامة وتولي الوزارة للأمير الزيادي علي بن المظفر. وخلال ذلك توجه نجاح نحو المناطق الجبلية لإخضاع سلاطينها. فتمكن من إعادة تبعية المناطق الجبلية وطاعة سلاطينها له وللأمير الزيادي. ومما يدل على تلك التبعية صدور دينار ضرب في صنعاء سنة 435هـ/ 1043م ودينار آخر ضرب في الجند سنة 439هـ/ 1047م. يحملان اسم الأمير الزيادي المظفر بن علي والخليفة القائم بأمر الله العباسي. كما سبق ذكره. كدليل على خضوع هذه المناطق لسلطان الدولة الزيادية والخلافة العباسية.

---

(1) الرازي: تاريخ مدينة صنعاء، ص: 158، 159.

وتأتي بعد ذلك مرحلة أخرى وهي ظهور اسم القائد نجاح على العُملة إلى جانب الأمير الزيادي والخليفة العباسي. ظهر ذلك من خلال ما وجد مكتوباً على دينارين أحدهما ضرب في (الجند) سنة 439هـ/ 1047م. والآخر ضرب في (زبيد) سنة 444هـ/ 1052م. يحملان اسم القائد نجاح ولقبه نصير الدين. وإلى جانبه اسم الأمير الزيادي علي بن المظفر والخليفة القائم بأمر اللّه العباسي. مما يدل دلالة واضحة على استمرار بقاء الدولة الزيادية حتى تلك الفترة. وأن نجاحاً كان أحد القادة البارزين لهذه الدولة.

2 ـ الفترة الثانية:

في هذه الفترة أتت نهاية الأمير الزيادي علي بن المظفر. دون أن يكون له وريث يتولى السلطة. وأن وفاته كانت في المهجم أواخر سنة 444هـ/ 1052م كما يبدو. مستدلين على ذلك بنزول علي الصليحي إلى زبيد أواخر هذه السنة وسيطرته عليها حتى سنة 447هـ/ 1055م.

أما الأمير نجاح فبعد موت الأمير الزيادي استقل في السلطة في تهامة. وجعل المهجم عاصمة له. وضرب السكة باسمه. وكاتب الخلافة العباسية بالعراق معلناً لها ولاءه وطاعته. وطالباً منها منحه تقليداً على السلطة في اليمن. وبالفعل قبلت الخلافة العباسية ذلك. فأصدرت له تقليداً على اليمن. وفوضت إليه أمر تقليد القضاء لمن يراه أهلاً لذلك. كما فوضت إليه النظر العام في جميع اليمن فخوطب في هذه الفترة بالملك وبمولانا[1]. مما يدل على تفرده بالحكم.

ومن خلال ما سبق من المرجح أن ظهور الدولة النجاحية كان أواخر سنة 444هـ/ 1052م وعلى ذلك يعتبر الأمير نجاح الذي كان عبداً حبشياً ينتمي إلى قوم من الحبشة يقال لهم (الجزل). والذي ترقى في المناصب حتى صار قائداً ووزيراً لآل زياد. هو مؤسس الدولة النجاحية. ونتيجة لذلك أُطلق على دولته ودولة أبنائه اسم ملوك الحبشة باليمن[2] قال عنهم عمارة: (وهم وإن كانوا عبيداً حبشة فلم تكن العرب تفوقهم في الحسب. إلا بالنسب، وإلاّ فلهم الكرم الباهر والعز الظاهر والجمع بين الوقائع المشهورة والصنائع المأثورة)[3].

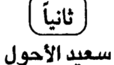
---

(1) عمارة: المفيد، ص: 86، الوصابي: الاعتبار، ص: 30، الجندي: السلوك، 2/ 485، الخزرجي: العسجد، ص: 104، ابن الديبع: قرة، ص: 334، بغية، ص: 55، الجرافي: المقتطف، ص: 75، عصام الفقي: اليمن، ص: 187، الحريري: معالم، ص: 24، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 212.

(2) الخزرجي: العسجد، ص: 104.

(3) عمارة: المفيد، ص: 209، الجندي: السلوك، 2/ 506، الخزرجي: العسجد، ص: 114، ابن =

ومهما يكن من أمر فإنه على الرغم من استمرار المؤيد نصير الدين نجاح (مالكاً لتهامة من أعمال طرف إلى عدن وملوك الجبال تعظم دولته وتتقى صولته) إلا أنه لم يستمر في الحكم طويلاً فقد تمكن علي الصليحي من قتله سنة 452هـ/ 1060م. بواسطة إحدى الجواري التي أهداها له. فخلف نجاح أولاداً صغاراً لم يبلغوا حد الكمال أو سن تولي السلطة. فتولى الوصاية لهم أحد مواليه المسمى كهلان وحكم تهامة نيابة عنهم لمدة سنتين. بعدها تمكن علي الصليحي من دخول تهامة والسيطرة عليها. وذلك في حوالي سنة 454هـ/ 1062م[1] وبذلك انتهت الدولة النجاحية بعد موت مؤسسها نجاح لتعود مرة أخرى في عهد أولاده.



سعيد الأحول

استعادة سيطرة أولاد نجاح على تهامة: بعد أن سيطر علي الصليحي على تهامة. هرب أولاد نجاح إلى جزيرة (دهلك) التابعة للحبشة. وبدأوا يفكرون باستعادة ملك أبيهم على تهامة. فبالنسبة لسعيد الأحول فإنه عاد إلى زبيد على أثر خلاف حدث بينه وبين أخيه جياش. بسبب قيام جياش بمنعه من محاولة الإقدام على الغدر بصاحب جزيرة (دهلك). فاختفى في زبيد عند أحد أنصار آل نجاح المسمى ملاعب الخولاني. وعمل سعيد الأحول أثناء اختفائه في زبيد على مراسلة أنصاره المسمون بالحبشة سراً ودعاهم للتجهز معه لمحاربة الصليحيين حين يعلن لهم ذلك. كما عمل على تتبع أخبار علي الصليحي. فكانت أخباره تصل إلى سعيد الأحول في كل وقت وحين[2].

ومن ناحية جياش فإنه أقام في جزيرة دهلك. واستعان على إقامته بها باستخراج وديعة كانت له عند عبد الرحمن بن طاهر العيني. وظل بها مكباً على طلب العلم حتى برع فيه[3]. كما ظل مستعداً لتجهيز جيش للقدوم به إلى تهامة حين يحين ذلك. وكانت المراسلات مستمرة بينه وبين أخيه سعيد الأحول. ولما

= الديبع: قرة، ص: 351، بغية، ص: 65، حسن سليمان محمود: تاريخ اليمن، ص: 166.

(1) عمارة: المفيد، ص: 191، 182، الخزرجي: العسجد، ص: 105، 106، ابن الديبع: قرة، ص: 341، عصام الفقي: اليمن، ص: 188، عند الخزرجي، ص: 106، أن علياً الصليحي استولى على زبيد سنة 455هـ.

(2) عمارة: المفيد، ص: 192، الوصابي: الاعتبار، ص: 47، الخزرجي: العسجد، ص: 106، ابن الديبع: قرة، ص: 252، 253، بغية، ص: 57.

(3) الخزرجي: العسجد، ص: 106، ابن الديبع: قرة، ص: 253، بغية، ص: 57.

تجهز علي الصليحي للذهاب إلى الحج كتب سعيد الأحول إلى أخيه جياش إلى دهلك في شهر شوال سنة 459هـ/ أغسطس 1067م يطلب منه القدوم إلى تهامة بجيش للقضاء على علي الصليحي واستعادة ملكهم[1]. فخرج جياش من دهلك بخمسة آلاف حربة انتقاهم منها. وسار بهم في البحر حتى وصل بهم ساحل المهجم في تهامة[2]. فكاتب سعيد الأحول إلى زبيد بوصوله.

ولما علم والي زبيد أحمد بن أسعد بن شهاب الصليحي بقدوم جياش وعدد جيشه أرسل إليهم خمسة آلاف حربة من العبيد في زبيد. ولكن جياشاً خالفهم في الطريق. فلم يتمكنوا من الالتقاء به[3]. كما أن هؤلاء العبيد لم يكن لهم نية المحاربة.

أما من جهة سعيد الأحول الذي كان مختفياً في زبيد. فإنه لما وصلته الأخبار بقدوم أخيه جياش من الحبشة إلى ساحل المهجم. وذهاب علي الصليحي إلى الحج في قلة من أصحابه. وإرسال والي زبيد لخمسة آلاف حربة من العبيد الموجودين في زبيد. استغل تلك الفرصة فدعا أنصاره المسلحين بالحراب في زبيد وأمرهم بالقيام معه، فحملوا سلاحهم وظهروا في زبيد معلنين الثورة على واليها الصليحي وذلك يوم الأربعاء الثامن من ذي القعدة سنة 459هـ/ سبتمبر 1067م. فهجموا على دار الإمارة وهي الدار التي كان بها أبو السعود وأحمد بن أسعد بن شهاب الصليحي. وألقوا القبض عليهما وأخذوا ما في الدار من الأموال والسلاح. ثم استولوا على زبيد. واستفاد سعيد الأحول من تلك الأموال وذلك السلاح حيث كانت عوناً له على محاربة علي الصليحي[4].

وبعد تمكن سعيد الأحول من الاستيلاء على زبيد قام بمراسلة أنصاره الحبشة إلى كل مكان في تهامة طالباً منهم الاجتماع إليه لمقاتلة الصليحيين. كما أنه أسرع في الاتجاه نحو قتال علي الصليحي وترك أمر زبيد لأصحابه. فسار على طريق الساحل متجنباً طريق الجادة السلطانية ـ وهي الطريق الرسمي للتجارة والحجاج ـ حتى لا يصطدم بالعساكر الذين أرسلهم والي زبيد. فلما وصل إلى ساحل المهجم التقى بأخيه جياش وجيشه. فساروا جميعاً منها نحو المهجم. فلما وصلوها هجموا

(1) عمارة: المفيد، ص: 192، الخزرجي: العسجد، ص: 106، الوصابي: الاعتبار، ص: 47، الحريري: معالم، ص: 49.

(2) الوصابي: الاعتبار، ص: 47.

(3) الوصابي: الاعتبار، ص: 47، الخزرجي: العسجد، ص: 106، ابن الديبع: قرة، ص: 253، 254، بغية، ص: 57.

(4) مجهول: سيرة المكرم، ص: 28 ـ 30.

على مخيم علي الصليحي على حين غفلة منه. وذلك منتصف النهار أثنار القيلولة وهم مستريحون من عناء السفر. ولم ينتبه الصليحيون الموجودون في المخيم لجيش النجاحيين. ويستعدون لقتالهم. لأنهم كانوا يظنون أنهم من جملة العساكر التابعة لهم. فأتاح ذلك فرصة لأولاد نجاح مداهمة علي الصليحي وقتله مع أخيه ومن كان معهما من الصليحيين. وكان قتلهم في الثاني عشر من ذي القعدة سنة 459هـ/ سبتمبر 1067م. وبعد ذلك استولى سعيد الأحول على أموال علي الصليحي وخزائنه التي اصطحبها معه لتقديمها هدية لحاكم مصر الخليفة المستنصر. وهي أموال جليلة. ومن جملة هذه الأموال التي غنمها سعيد الأحول ألفي فرس وثلاثة آلاف جمل بعددها. كما أسر أسماء بنت شهاب زوجة علي الصليحي وجمعاً من نساء بني الصليحي[1].

وبالنسبة للعساكر الذين بعثهم والي زبيد أحمد بن أسعد الصليحي قبل الثورة عليه لقتال أولاد نجاح. فقد كاتبهم سعيد الأحول وقال لهم: (إن الصليحي قد قتل وأنا رجل منكم والعز عزكم فأطاعوه) وبانضمام جيش تهامة العبيد إلى صف النجاحيين وطاعتهم لهم ساهم ذلك في تقوية النجاحيين ضد الصليحيين. أوضح ذلك عمارة بأنه عندما انضمت العبيد إلى سعيد الأحول استطال بهم (على عسكر الصليحي قتلاً وأسراً ونهباً)[2].

ومن جهة موقف جياش في أسرى معركة المهجم فقد أشار على أخيه سعيد الأحول بالاكتفاء بقتل علي الصليحي وإطلاق أسماء بنت شهاب من الأسر وعدم قتل بقية بني الصليحي المأسورين حتى لا يُزِيْد العداوة بين الطرفين. بأن (يكتب على يديها إلى ولدها المكرم بن علي الصليحي إنا أدركنا ثأرنا واسترجعنا ملكنا وقد أحسنَّا إليك وحملنا إليك بصيانة أمك والعفو عن بني عمك)[3].

وأوضح جياش هدفه من ذلك هو الاحتفاظ بحكم تهامة وعدم إثارة حفائظ العرب بقوله له: (واللّه يا مولانا لئن فعلت ذلك لنازعتك قحطان في

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 193، 201، الوصابي: الاعتبار، ص: 49، الخزرجي: العسجد، ص: 106، 107، ابن الديبع: قرة، ص: 254، 255، بغية، ص: 57، 58، الحريري: معالم، ص: 42، 44، يذكر عمارة، ص: 201 والخزرجي، ص: 107، أن سعيداً الأحول دخل زبيد يوم 16 ذي القعدة سنة 459هـ.

(2) عمارة: المفيد، ص: 197، الوصابي: الاعتبار، ص: 48.

(3) عمارة: المفيد، ص: 199، الوصابي: الاعتبار، ص: 48، الخزرجي: العسجد، ص: 107، ابن الديبع: قرة، ص: 341، حسن سليمان محمود: تاريخ اليمن، ص: 155، الحريري: معالم، ص: 45.

ملك تهامة ولئن كرهت ذلك لتهيجن حفائظها ولتطلبن دخولها)[1] .

إلا أن سعيداً الأحول أصر على أسر أسماء وقتل بقية بني الصليحي. وعددهم مائة وسبعون رجلاً. وكان الأحول يهدف بعمله هذا إلى استئصال القادة الصليحيين حتى لا يعودوا إلى قتاله. ولكنه حدث العكس فقد زاد ذلك في تعميق الصراع بينه وبين الصليحيين وحدث ما نبه إليه جياش.

ومهما يكن من أمر فإنه بعد معركة الهجم بثلاثة أيام توجه سعيد الأحول نحو زبيد مع ما غنمه من الأموال والأُسَرَاء من نساء بني الصليحي وعلى رأسهن أسماء بنت شهاب أم المكرم. فدخل زبيد في اليوم الرابع أي في 16/ ذي القعدة سنة 459هـ/ سبتمبر 1067م[2] . وبذلك تمكن أولاد نجاح من الثأر لأبيهم واستعادة سلطانهم على تهامة.

وعلى أية حال فقد أحدثت عملية قتل علي الصليحي ومن معه. وانتصار سعيد الأحول. أن هابته الكثير من سلاطين اليمن، فأدى إلى تغلب هؤلاء السلاطين على ما في أيديها من الحصون. حتى كاد أمر المكرم في اليمن ينتهي عنه[3] .

صراع سعيد الأحول مع المكرم:

ظل الصراع مستمراً بين النجاحيين والصليحيين لعدة أسباب منها أولاً: الخلاف المذهبي والمتمثل في أن النجاحيين كانوا من أهل السُنَّة ومناصرين للخلافة العباسية. وأن الصليحيين كانوا إسماعيلية مناصرين للخلافة الفاطمية. ومنها ثانياً: محاولة كل طرف الاحتفاظ بسلطانه على اليمن أو بعض مناطق منها. وثالثاً: محاولة كل طرف الثأر لقتلاه. ورابعاً: إصرار المكرم على تخليص أمه من الأسر.

فعلى الرغم من محاولة سعيد الأحول الاستعداد لقتال الصليحي وتقوية جيشه بشراء عشرين ألف حربة من الحبشة[4] . إلا أن سيطرته على تهامة لم تستمر كثيراً بعد قتله لعلي الصليحي. فسرعان ما عاد الصراع بينه وبين المكرم. وكان حدوث ذلك بعد أن تمكن المكرم من القضاء على الخارجين عليه من أهل الجبال. حيث

(1) عمارة: المفيد، ص: 200، الخزرجي: العسجد، ص: 107، ابن الديبع: قرة، ص: 341، الحريري: معالم، ص: 45.

(2) عمارة: المفيد، ص: 201، الخزرجي: العسجد، ص: 107، حسن سليمان محمود: تاريخ اليمن، ص: 155.

(3) عمارة: المفيد، ص: 202، الخزرجي: العسجد، ص: 108، حسن سليمان محمود: تاريخ اليمن، ص: 156.

(4) عمارة: المفيد، ص: 203، الخزرجي: العسجد، ص: 108، الحريري: معالم، ص: 46.

اتجه بعدها إلى زبيد للثأر لأبيه وبني الصليحي وتخليص أمه من الأسر. فخرج من صنعاء بجيش كبير في 9/ شهر صفر سنة 460هـ/ ديسمبر 1067م. أي بعد أربعة أشهر من قتل أبيه. وسار بهم نحو زبيد فوصلها في 26/ من نفس الشهر. وما أن رأى سعيد الأحول قدوم جيش المكرم نحوه حتى وقف بجيشه العبيد البالغ عددهم ثمانية عشر ألف رجل. وراء حائط نجاح أمام الباب الشرقي المسمى الشبارق مما يلي الكظائم مرتبين في ستة كراديس. شبهوا أنهم كانوا واقفين مثل العارض الأسود[1]. وكان في قلب الجيش النجاحي هذا فرقة اتصفت بالشدة والجبروت تسمى البازة والنوبة والمولدة[2]. ومع ذلك فلم تستطع هذه الفرقة تحقيق النصر على الصليحيين.

فما أن وصل المكرم بجيشه حتى دارت معركة كبيرة بين الطرفين على باب زبيد الشرقي. قاتل خلالها سعيد الأحول قتالاً شديداً حتى انهزم عليه الجناحان تلاه انهزام جيشه كله وهروبه نحو المهجم بعد أن قتل من جيشه ثمانية آلاف رجل كما تصف بعض المصادر[3] فأتاح ذلك فرصة للمكرم وجيشه دخول زبيد والسيطرة عليها وتخليص أمه من الأسر.

وبالرغم من ذلك فقد عمل سعيد الأحول بعد هروبه إلى المهجم على تجميع جيشه وشن الغارات على جيش المكرم. كما عمل على الاتجاه إلى إعادة أسر أسماء بنت شهاب مرة أخرى بعد أن علم أنها ستتجه إلى صنعاء في عدد قليل من الجيش ومعها جميع الأثقال والأموال التي غنمها المكرم. وذلك بسبب قعود المكرم وجيشه في زبيد للسيطرة عليها. فذهب إلى (القحمة)[4] بهدف اعتراض أم المكرم. ولكن المكرم علم بهذه المؤامرة فخرج بجيشه من زبيد مسرعاً لتتبع سعيد الأحول وجيشه والقضاء عليهم. فلما وصل إلى (الدومة) في طريقه إلى (القحمة). وصلته أخبار من واليه على صنعاء تخبره أنه مريض وأن ابن قاسم بن جعفر العياني نقض عهده وجمع حشوداً كثيرة يريد السيطرة على صنعاء مستغلاً غياب المكرم

---

(1) مجهول: سيرة المكرم، ص: 57 ـ 62، رسالة ابن القمي، ملحق رقم 6 صليحيون، ص: 313، الهمداني: الصليحيون، ص: 123، حسن سليمان: تاريخ اليمن، ص: 157.

(2) مجهول: سيرة المكرم، ص: 62.

(3) مجهول: سيرة المكرم، ص: 64، الهمداني: الصليحيون، ص: 123، ابن الديبع: بغية، ص: 58، يحيى بن الحسين: غاية، ص: 259، حسن سليمان: تاريخ اليمن، ص: 157، الحريري: معالم، ص: 47، عند العرشي في بلوغ المرام، ص: 25، بلغ عدد القتلى نيفاً وعشرين ألفاً.

(4) مجهول: سيرة المكرم، ص: 71.

عنها[1]. فترك المكرم متابعة النجاحيين في تهامة وعاد مسرعاً إلى صنعاء فوصلها في أول ربيع الآخر سنة 460هـ/ يناير 1068م[2].

أما من جهة سعيد الأحول فإنه لما علم بقدوم المكرم نحوه إلى القحمة لمحاربته. أدرك أنه غير قادر على مقاومته. لذلك أراد أن يخلفه على زبيد. فسار في طريق مغاير للطريق التي سلكها المكرم حتى لا يصطدم به. ولما عاد المكرم إلى صنعاء استغل سعيد الأحول تلك الفرصة فتمكن من السيطرة على زبيد وتهامة للمرة الثانية[3].

وفي ذلك الوقت حاول سعيد الأحول الاستعانة بسلاطين اليمن أهل السُنَّة مثل يعفر بن الكرندي ووائل بن عيسى والسخطي والتبعي والكلالي أو الكلاعي. لذلك تكونت ثلاث فرق لمناصرة النجاحيين أحدها كانت بقيادة بلال ومالك ابني نجاح وابن الكرندي والتي سارت إلى الجند حيث وقفت هذه الفرقة مقابلة لجيش أسعد بن عبد اللّٰه الصليحي في (ذي أشرق). والفرقة الثانية كانت بقيادة سعيد الأحول نفسه فاتجهت نحو سوق الجبجب في إحاظة فعسكرت فيه. والفرقة الثالثة تجمعت في الحمراء من الشعر بقيادة سلاطين تلك المنطقة على رأسهم الحسين التبعي. وكانت تهدف هذه التجمعات إلى الذهاب إلى ذي جبلة للقضاء على جيش الصليحيين فيها. ثم الاتجاه إلى صنعاء للقضاء على المكرم[4] إلا أن هذه الفرقة لم تحقق هدفها فقد تمكن الصليحيون من هزيمتهم.

وآنذاك خاف المكرم من سيطرة النجاحيين على اليمن الأسفل فما أن وصل إليه استنجاد الصليحيين بها حتى أسرع إليهم. فلما وصل إلى دلال وصله خبر بانهزام فرقتين من النجاحيين. أحدهما سعيد الأحول الذي عاد إلى زبيد. والآخر فرقة جيش ابن الكرندي وبلال بن نجاح الذين قاتلهم الصليحيون المعسكرون بذي أشرف حتى هزموهم، ولم يبق أمام المكرم إلا فرقة قبائل الجبال من يحصب ورعين وعنس تجمعت في الشعر. واعتصمت بجبالها الصعبة وأوديتها الضيقة بقيادة السلاطين: التبعي، والشخطي، والكلاعي والحوالي. فأتاح ذلك فرصة للمكرم أن يتجه نحو تلك الجموع. فنزل في قرية قتاب (كتاب) ثم جبل أدم

---

(1) مجهول: سيرة المكرم، ص: 73.

(2) مجهول: سيرة المكرم، ص: 73، رسالة ابن القمي ملحق رقم 6 الصليحيون، ص: 313 ـ 315، الهمداني: الصليحيون، ص: 125 ـ 126.

(3) رسالة ابن القمي ملحق رقم 6 الصليحيون، ص: 314.

(4) مجهول: سيرة المكرم، ص: 77 ـ 85.

المتصل بالشعر. وخاض معهم عدة معارك انتهت بانتصار المكرم[1] واستسلام تلك القبائل وسلاطينها له. بعدها سار المكرم نحو ذي جبلة ومعه بعض سلاطين تلك القبائل مثل الشخطي وابن التبعي. فلما وصلوا إليها راوغ ابن التبعي المكرم فهرب منه إلى زبيد لمناصرة النجاحيين[2]. أما المكرم فقد عاد إلى صنعاء فدخلها في 5 شعبان سنة 461هـ/ مايو 1069م[3].

ومع ذلك فقد حاول سعيد الأحول الاتجاه مرة أخرى إلى الجبال بتحريض من ابن المغيرة التبعي للاستعانة بسلاطينها. فخرجوا من زبيد غرة شهر رمضان سنة 461هـ/ يونيو 1069م. وساروا إلى الجؤة ثم إلى الجند. ولما علموا باتجاه المكرم نحوهم أشار عليه ابن المغيرة التبعي أن يتجهوا نحو دلال في الشعر ثم يتجهوا إلى صنعاء بعد تجميع قبائل تلك المناطق. بينما أشار عليه ابن دينار أن يرجع إلى زبيد طريق الساحل لقلة عددهم. فإذا لحق بهم المكرم خرجوا نحو شمال تهامة وإذا لحق بهم مرة أخرى عادوا نحو الجنوب. ولكن سعيد الأحول وافق على رأي ابن المغيرة التبعي في الاتجاه نحو الشعر[4].

أما من ناحية المكرم فإنه خرج من صنعاء نحو زبيد غرة رمضان أيضاً سنة 461هـ/ يونيو 1069م. أي في نفس الوقت الذي خرج به سعيد الأحول. فلما وصل المكرم إلى الشرجة وجد خبراً يفيد أن سعيداً الأحول خرج من زبيد نحو اليمن الأسفل. فعمل المكرم على السير في تتبع أثره من منطقة إلى أخرى. فلما وصل إلى حيس وصله خبر أن الأحول في الجند فسار إليها. ولما وصلها علم أن الأحول سار إلى جبل الشعر فلحق به[5].

ونتيجة لإسراع المكرم في اللحاق بسعيد الأحول وابن المغيرة فإنهما لم يتمكنا من تجميع قبائل تلك المنطقة لمناصرتهما لاعتقادهما أن المكرم سيعسكر في ذي جبلة. لذلك لم يتمكنا من مقاومته. وزاد الأمر إرباكاً أن سعيداً الأحول قسَّم جيشه إلى فرقتين: فرقة تظل مقيمة بالشعر تنتظر تجميع القبائل للذهاب بهم إلى صنعاء بقيادة سعيد الأحول نفسه. وفرقة تتجه نحو زبيد للسيطرة عليها بقيادة بلال ومالك ابني نجاح. كما زاد الأمر أكثر تعقيداً سرعة وصول المكرم إليهم إلى

---

(1) مجهول: سيرة المكرم، ص: 90، 91.
(2) مجهول: سيرة المكرم، ص: 93، رسالة ابن القمي ملحق رقم 6 الصليحيون، ص: 315.
(3) رسالة ابن القمي ملحق رقم 6 الصليحيون، ص: 315.
(4) مجهول: سيرة المكرم، ص: 108، 109.
(5) مجهول: سيرة المكرم، ص: 109، رسالة ابن القمي ملحق رقم 6 الصليحيون، ص: 315.

الشعر. وعدم وجود تحصينات في تلك المنطقة يحتمون بها. مما صعب اجتماع جيش ابن المغيرة التبعي مع سعيد الأحول، لمحاربة المكرم. فقد انسل ابن المغيرة من سعيد الأحول دون علمه وطلع حصنه المعروف بالقرانح للاحتماء به. أما سعيد الأحول فإنه توجه نحو إحدى قرى الشعر المعروفة بالحمادي بالجحادب للتحصن بها. ولكن المكرم أسرع بجيشه نحوه. فاقتتل الطرفان قتالاً شديداً. انتهى بهزيمة سعيد الأحول وجيشه ومحاولته الهروب. إلا أن أحد رجال المكرم من قبيلة شاكر اسمه عزيز بن حسين بن الحجاجي تمكن بمن معه من الجند أن يلحق سعيداً الأحول ويقتله في قرية (مابة) في الشعر سنة 461هـ/ 1069م. كذلك قتل بلال ومالك أخوي سعيد الأحول في نقيل صيد من قبل جيش المكرم عندما كانا ذاهبين نحو زبيد[1].

وبذلك انتهى سعيد الأحول الذي كان يشكل خطورة على الصليحيين. ولم يبق غير جياش. وعلى أثر هذه المعركة التي انتصر فيها المكرم وثأر لأبيه. توجه نحو زبيد فدخلها في غرة شوال سنة 461هـ/ يوليو (1069م وسيطر عليها ثم سيطر على تهامة كلها. وبذلك انتهت الدولة النجاحية منها. واستعاد الصليحيون سلطانهم على تهامة وزبيد[2]. واستمرت تحت سلطانهم حتى قدم جياش وأخرجهم منها.

ثالثاً

جياش بن نجاح

في الوقت الذي توجه فيه سعيد الأحول نحو اليمن الأسفل للاستعانة بسلاطينها لمحاربة المكرم. توجه جياش نحو المهجم في عدد قليل من جنده العبيد[3] منتظراً ما تسفر عنه أحداث الصراع بين أخيه سعيد الأحول والمكرم. إلا أن الأحداث انتهت لصالح المكرم فقد تمكن من قتل سعيد الأحول كما سبق ذكره. واتجه إلى زبيد للسيطرة عليها ثم توجه نحو شمال تهامة لإكمال القضاء على بقية آل نجاح وعلى رأسهم جياش بن نجاح ومن تجمع معه في تلك المنطقة من أنصارهم العبيد. ونظراً لعدم تمكن جياش من مقاومة المكرم. فقد ظل ومن معه ينتقلون من منطقة إلى أخرى. وظل المكرم يتتبعهم من مكان إلى آخر حتى

---

(1) مجهول: سيرة المكرم، ص: 111، الهمداني: الصليحيون، ص: 131، حسن سليمان: تاريخ اليمن، ص: 159.

(2) رسالة ابن القمي ملحق رقم 6 الصليحيون، ص: 316، الهمداني: الصليحيون، ص: 131.

(3) مجهول: سيرة المكرم، ص: 108.

أجبرهم على التفرق والذهاب إلى أقصى بلاد اليمن. بعد ذلك عاد المكرم إلى زبيد فدخلها يوم الجمعة 13 ذي القعدة سنة 461هـ/ يونيو 1074م[1].

وباستعراض حياة جياش السياسية بعد موت أخيه سعيد الأحول نجد أنها تميزت بأربع فترات كما يتضح لنا. الفترة الأولى امتدت من سنة 461هـ/ 1069م حتى سنة 471هـ/ 1078م، والفترة الثانية استمرت من سنة 471هـ/ 1078م إلى سنة 476هـ/ 1083م استتر جياش خلال هاتين الفترتين. والفترة الثالثة تستمر من سنة 476هـ/ 1083م حتى 479هـ/ 1086م ظهر فيها جياش واستعاد سيطرته على تهامة. والفترة الرابعة وتمتد من سنة 479هـ/ 1086م إلى وفاته سنة 498هـ/ 1104م. عمل فيها جياش على توطيد وتدعيم سلطان النجاحيين في تهامة نوضح ذلك في الآتي:

الفترة الأولى:

على الرغم من محاولة الصليحيين القضاء على أبناء نجاح. إلا أن جياش بن نجاح هو الوحيد الذي ظل باقياً لم يتمكن المكرم من القضاء عليه. وخلال هذه الفترة الأولى الممتدة من سنة 461هـ/ 1069م حتى سنة 471هـ/ 1078م. لم يقم جياش بأي دور عسكري فعال لاستعادة سلطانه على تهامة نظراً لصغر سنه واختفائه. اللهم إلا محاولته مساندة الزيدية. فقد كان جياش يدفع للشريف الفاضل ألف دينار شهرياً[2] بهدف تقويته على محاربة المكرم لشغله عن محاربة النجاحيين أو إضعافه.

الفترة الثانية:

في هذه الفترة حاول جياش وأنصاره العبيد استعادة سيطرتهم على تهامة. فظل الصراع مستمراً بينهم وبين الصليحيين لمدة خمس سنوات تبادل الطرفان الهزيمة والانتصار. فتارة كانت تهامة تحت حكم النجاحيين وتارة أخرى تحت حكم الصليحيين. وقد تزعم قيادة الصليحيين الداعي سبأ بن أحمد الصليحي نظراً لأنه كان أهم قائد صليحي ورئيس الدعوة الإسماعيلية. ولأنه كان متولياً لحصون وصاب وريمة وأشيح وهي الحصون المطلة على زبيد. كما تزعم النجاحيين جياش بن نجاح وكانت الحرب سجالاً بين الطرفين. خلالها كان جياش يستولي على زبيد وتهامة في موسمي الصيف والخريف. وكان أثناء تلك الفترة يجبي خراجها دون أن يظلم أحد من الرعايا. وكان يحتسب للعمال ما جباه منهم الداعي سبأ بن أحمد الصليحي وإذا حل موسمي الشتاء والربيع عادت السيطرة على تهامة

(1) رسالة ابن القمي ملحق رقم 6 الصليحيون، ص: 316، 317.

(2) المطاع: تاريخ اليمن، ص: 258.

وزبيد للصليحيين. ويذهب النجاحيون غير بعيد عن تهامة. وكان سبأ بن أحمد الصليحي خلال سيطرته على تهامة يجبي خراجها دون أن يظلم أحد من الرعايا ويحتسب للعمال ما جباه منهم جياش. وبعد انتهاء فصلي الشتاء والربيع يرحل الصليحيون عن تهامة. وكان رحيلهم عنها تارة بالوباء وتارة أخرى بحرب النجاحيين لهم. وهكذا استمر تبادل حكم تهامة بين الطرفين طيلة الفترة الممتدة من سنة 471هـ/ 1078م حتى سنة 476هـ/ 1083م. وكان أهل زبيد وتهامة أكثر ميلاً إلى تأييد النجاحيين وترحيباً بهم. فقد كانوا عندما تعود سيطرة جياش على بلادهم: (نشرت المصاحف وابتهلت له الرعايا بالدعاء وظهرت الفقهاء وتطاولت العلماء)[1]. مما يدل على كره أغلبهم المذهب الإسماعيلي ومناصرتهم أهل السُنَّة النجاحيين لاتفاقهم مذهبياً.

الفترة الثالثة:

تعتبر هذه الفترة من أهم فترات جياش السياسية لأنه استعاد فيها سلطانه على زبيد وتهامة وتمتد هذه الفترة من سنة 476هـ/ 1083م إلى سنة 479هـ/ 1086م وهي كالآتي:

نظراً لعدم حسم المعارك بين النجاحيين والصليحيين فقد اضطر جياش إلى أن يتجه إلى الهند مع وزيره خلف الأموي. وذلك بهدف إيهام أعدائه الصليحيين بالذهاب بعيداً عن اليمن وتخليه عن الصراع. ومحاولته جلب الأموال من تجار اليمن المقيمين بالهند. فاتفق الاثنان أن يعملا معاً على استعادة السيطرة على تهامة. وتعاهدا على اقتسام ملكها فيها بينهما ولذلك أطلق على خلف لقب قسيم الملك[2]. فذهب الاثنان إلى عدن متنكرين ومنها توجها إلى الهند. وذلك كما يبدو في سنة 476هـ/ 1083م.

مكث جياش ووزيره خلف في الهند ستة أشهر[3] أو تسعة أشهر[4]. وخلال هذه الفترة تزوج جياش بجارية هندية ثم عاد مع زوجته الهندية ووزيره خلف إلى عدن. فلما وصلوا إليها اتفق الاثنان على وضع خطة لتتبع أخبار الصليحيين

(1) عمارة: المفيد، ص: 148، 149، الحمزي: كنز، ص: 81، ابن الديبع: بغية، ص: 59، حسن سليمان: تاريخ اليمن، ص: 161، 162، عصام الفقي: اليمن، ص: 191.

(2) ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 90، ابن الديبع: قرة، ص: 351، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 102.

(3) عمارة: المفيد، ص: 204، الوصابي: الاعتبار، ص: 49، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 90، ابن الديبع: بغية، ص: 61، الكبسي: اللطائف، ص: 39.

(4) الخزرجي: العسجد، ص: 108، ابن الديبع: قرة، ص: 342، الحريري: معالم، ص: 53، الحداد: تاريخ اليمن، 2/ 273.

والاتصال بأنصارهم الحبشة في زبيد وتهامة. وكانت هذه الخطة كالآتي:

أمر جياش وزيره خلفاً أن يتوجه إلى زبيد عن طريق الساحل ويطلب فيها الأمان لنفسه من الصليحيين. ويشيع خبر موت جياش بالهند لكي يصرف اهتمام الصليحيين عن تتبعه. كما أمره أن يتصل بأنصار النجاحيين الحبشة في زبيد سراً. ويتعرف على حقيقة أمرهم ويدعوهم إلى التجهز لاستعادة ملك النجاحيين على زبيد حينما يطلب منهم ذلك. وبالفعل عمل الوزير خلف بنصيحة جياش فذهب إلى زبيد وطلب الأمان من واليها للصليحيين وظل يتصل سراً بأنصار النجاحيين.

أما جياش نفسه فقد اصطحب زوجته الهندية وتوجه إلى ذي جبلة متنكراً بزي أحد الهنود مقتفياً عاداتهم في تطويل الشعر والأظافر فضلاً عن ستر إحدى عينيه بخرقة حتى لا يتعرف عليه أحد. وذلك لكي يطَّلع على أحوال المكرم والصليحيين فيها. ولم تطل مدة إقامة جياش في ذي جبلة، فقد أسرع في التوجه نحو زبيد قبل اكتشاف أمره. ولما وصل إليها. سكن خفية في دار قريبة من دار الإمارة التابعة للصليحيين وذلك ليتعرف على أحوال واليهم بها. واجتمع سراً بوزيره خلف الأموي فأخبره الوزير أخباراً سارة عن أنصاره في زبيد وتهامة. وهي: «أنهم في البلاد كثير وإنما يعدمون رأساً يثورون معه». فاطمأن جياش لذلك الخبر. وكان يلتقي بالوزير ليلاً ويتجنب الالتقاء به في النهار. حتى لا ينكشف أمرهما. وخلال ذلك استمر الاثنان على مكاتبة أنصارهما الحبشة الذين كانوا منتشرين في زبيد وتهامة يدعواهم للاستعداد للظهور لمناصرتهم[1].

ومن خلال ذلك العمل تمكن الاثنان من أن يتأكدا أنه سيجتمع حولهما خمسة آلاف حربة من أنصارهما الحبشة. لذلك أمر جياش وزيره خلفاً أن يتجه إلى عمر بن سحيم ليأخذ منه عشرة آلاف دينار كانت عنده لجياش. وأن ينفقها على الرجال الذين سيجتمعون حولهما استعداداً لبدء الثورة على الصليحيين في زبيد ففعل ذلك الوزير خلف.

وآنذاك استغل جياش العلاقة السيئة التي حدثت بين والي الصليحيين على زبيد أسعد بن عراف. والوزير علي بن القم. كما يتضح أن سوء العلاقة كانت ناتجة عن الخلاف المذهبي بين الوزير السني والوالي الإسماعيلي. أدى ذلك إلى

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 204، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 90، 91، الوصابي: الاعتبار، ص: 49، الخزرجي: العسجد، ص: 108، 109، ابن الديبع: بغية، ص: 61، قرة، ص: 342، 343، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 76، الكبسي: اللطائف، ص: 39، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 2/ 273، 274، الحريري: معالم، ص: 53، 54.

كره الوزير علي بن القم للصليحيين. حيث كان يقول: «والله لو وجدت كتاباً (أو كلباً) من أول نجاح لأملكته زبيد». كما كان يقول: «عجل الله علينا بكم يا آل نجاح». فحاول جياش التقرب للوزير مستغلاً عدم معرفته من أغلب الناس لأن معظم حياته كان مختفياً. فكان إذا افترق الناس من الصباح توجه نحو مصطبة الوزير علي بن القم. وذلك بهدف إقامة علاقة طيبة معه وكان يلاعبه وابنه الحسين الشطرنج. وقد أدى استمرار لعبه الشطرنج معهما إلى أن يكشف جياش عن نفسه للوزير علي بن القم. وذلك بعد أن تأكد عدم قبوله لحكم الصليحيين وميله إلى النجاحيين. فضلاً عن حلف الأيمان بعدم إفشاء سره لأحد من الناس[1].

وبعد أن تعرف الوزير علي بن القم على جياش عمل على مساعدته لاستعادة ملكه على تهامة. والثورة ضد الصليحيين في زبيد. وكان بداية التعاون معه أنه أمر بإخلاء دار الأعز الصليحي وأمر بفرشها ووضع الستائر عليها لإسكان زوجة جياش الهندية فيها. كما أمر أن يحمل إليها وصائف ووصفان وأثاث وماعون، وهذا يعني اشتراك الاثنين في بداية إعلان الظهور، لذلك أسرع علي بن القم إلى جياش وأمره أن يظهر أمره سريعاً قبل أن يُكتشف مكانه ويُقبض عليه. وذلك بعد أن باحثه في عدد أنصاره حين ذهب إليه إلى الدار الجديدة منتصف ليلته تلك حيث قال له: «إن خبرنا لا يخفى على أسعد» بن عراف. فرد عليه جياش: «إن معي في البلد خمسة آلاف حربة» فقال علي بن القم «لجياش: فقد ملكت البلد فاكشف أمرك»[2].

ولما اكتملت العوامل المساعدة لظهور جياش أعلن ثورته صبيحة الليلة التي تسلم فيها دار الأعز. فضرب الطبول والأبواق إيذاناً بدعوة أنصاره الحبشة وغيرهم للاجتماع لمناصرته. فثارت معه عامة المدينة. كما حضرت إليه خمسة آلاف من الحبشة من تهامة، فاتجه بجمع منهم نحو أسعد بن عراف والي زبيد وتهامة للصليحيين فألقى القبض عليه. ثم عفا عنه ولم يبقه أسيراً عنده فتركه يسير من زبيد بجميع ما يملك من مال وأهل. وعلى ذلك حقق النجاحيون نجاحاً موفقاً بالسيطرة

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 205، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 91، 92، الوصابي: الاعتبار، ص: 92، ابن الديبع: بغية، ص: 61، 62، قرة، ص: 343، 344، الكبسي: اللطائف، ص: 39، حسن سليمان: تاريخ اليمن، ص: 161، الحريري: معالم، ص: 54، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 274، 275، عند ابن عبد المجيد، ص: 92، عمر بن سحيم.

(2) عمارة: المفيد، ص: 206، ابن عبد المجيد: بهجة ، ص: 93، الوصابي: الاعتبار، ص: 50، الخزرجي: العسجد، ص: 109، 110، ابن الديبع: قرة، ص: 345، بغية، ص: 62، 63، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 77، الهمداني: الصليحيون، ص: 151، الحريري: معالم، ص: 55.

على المدينة ثم على تهامة. ولم يمض شهر واحد حتى تجمع حوله عشرون ألفاً من العبيد وبني عمه الحبشة[1].

وبذلك تمكن جياش من استعادة سلطانه على زبيد وتهامة وكان ذلك في سنة 477هـ/ 1084م. مستدلين على ذلك بقول عمارة: «وعاد بنو نجاح فأخرجوا أسعد... من زبيد وملكوها سنة سبع وسبعين» وأربعمائة[2]. وكما يتضح أن ثورة جياش النجاحي حدثت في نفس الوقت الذي توفي فيه المكرم، لذلك استغل النجاحيون موته فثاروا في تهامة. ولم يحاول الصليحيون الإقدام على استعادتها لانشغالهم في ترتيب أمور الدولة بعده. ولم يكن من الصليحيين «بعد ذلك كثير نكاية في جياش أكثر من غارات على أعمال زبيد»[3].

وبذلك قدم الوزير علي بن القم مساعدة كبيرة لمناصرة النجاحيين في استعادة سلطانهم على تهامة وزبيد وذلك بسبب ميله إلى مذهب أهل السُنَّة الذي يعتنقه النجاحيون وكرهه لمذهب الصليحيين الإسماعيلي كما سبق ذكره. ولنفس السبب أيضاً تعاون القاضي السني الحسن بن أبي عقامة مع جياش في استعادة سلطانهم على تهامة. لأنه كان يرى أن بني نجاح كانوا أولى بالملك من الصليحيين[4].

تنتهي هذه الفترة بحدوث معركة حاسمة بين النجاحيين والصليحيين. هي معركة الكظائم التي حدثت أواخر سنة 479هـ/ 1086م. وعن السبب الذي أدى إلى هذه المعركة أوردت المصادر روايتين. إحداهما أوردها عمارة. والأخرى أوردها بامخرمة. وفحوى تلك الروايتين الآتي:

الرواية الأولى:

أوضح عمارة فيها أنه لما طالت الحرب بين جياش وسبأ بن أحمد الصليحي أشار الوزير خلف على جياش بحيلة للقضاء على سبأ وهي أن يقوم جياش بالقبض على وزيره خلف الأموي، ويودعه السجن ويصادر أمواله ويولي مكانه في الوزارة محمد بن العقاري. ففعل ذلك جياش. وأثناء ما كان الوزير خلف مسجوناً عمل على حفر نقب في السجن للهرب منه والذهاب إلى سبأ الصليحي في أشيح ولما هرب إليه حاول أن يحثه على النزول للسيطرة على تهامة. وضمن له الخبرة في الانتصار على جياش.

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 207، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 93، الوصابي: الاعتبار، ص: 50، 51، ابن الديبع: قرة، ص: 345، بغية، ص: 63، يحيى بن الحسين: غاية، 1/ 274، الكبسي: اللطائف، ص: 39، 40، الحريري: معالم، ص: 55.

(2) عمارة: المفيد، ص: 135. (3) عمارة: المفيد، ص: 207.

(4) الجندي، السلوك، ص: 1/ 294.

وكان الوزير خلف يكاتب جياشاً سراً يأمره أن يظهر العجز أمام سبأ الصليحي بأن يكاتبه ويعرض عليه أنه مستعد لإعطائه نصف حاصلات تهامة أو أنه يلتزم له بإعطائه ما يساوي نصف حاصلات بلاده مالاً. على شرط أن يبعد الوزير خلف من عنده. فلم يوافق سبأ الصليحي على ذلك. وقرر الاتجاه للسيطرة على تهامة فجهز جيشاً كبيراً قوامه عشرة آلاف راجل وثلاثة آلاف فارس. فسار نحو زبيد فعكسر في الكظائم أمام باب زبيد الشرقي. ومن جهة جياش فقد استعد لقتاله بالاستعانة بأمير المخلاف السليماني وإعداد كمين لسبأ عن طريق قائده ريحان الكهلاني. حيث هجم هذا القائد على جيش سبأ الصليحي ليلاً على حين غرة منهم أدى ذلك إلى قتل الكثير من جيش الصليحيين، وانهزام سبأ وهروبه للنجاة بنفسه[1]. وكان حدوث هذه المعركة في 5 ذي الحجة سنة 479هـ/ 1086م.

ومن المستنتج من هذه الرواية أن سبأ الصليحي لا يمكن أن يصدق الوزير خلف في هذه الحيلة. ويسير بناء على رأيه وخاصة أن الوزير خلف كان قسيم الملك لجياش. وهو ممن ناصر النجاحيين وساعد على إعادة سلطانهم على تهامة. فضلاً عن أن هذا الوزير سبق وأن أشاع خبر موت جياش في الهند. ثم ظهر جياش في زبيد. . ومما سبق يمكن تصديق أحداث هذه الرواية دون تصديق أن أسبابها حدثت بحيلة من الوزير خلف.

الرواية الثانية:

أوردها بامخرمة وهي تحكي عن خلاف حقيقي حدث بين الأمير جياش ووزيره خلف أدى إلى هروبه إلى سبأ بن أحمد الصليحي. ومحتوى هذه الرواية الآتي:

كان الوزير خلف بن أبي طاهر الأموي ينتسب إلى بني أمية. وتسمى قسيم الملك لأنه اشترك في إعادة ملك جياش على تهامة كما سبق توضيحه. وبعد ذلك استوزره جياش واختصه ووقره. وبعد فترة فسدت العلاقة بينهما فافترقا. وكان سبب اختلافهما أن الوزير خلف شرب كثير من النبيد ليلة في داره وغنّى له ابن المصيري الذي كان محسناً للغناء آنذاك تميز بعذوبة الصوت وحلو النغم. فمدح في غناه بني أمية ببيت من الشعر هي قوله:

لـو كـان حـولـي بـنـو أمـيـة لـم ... يـنـطـق رجـال إذا هـم نـطـقـوا

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 149، الحمزي: كنز، ص: 81، الهمداني: الصليحيون، ص: 152، حسن سليمان: تاريخ اليمن، ص: 162، 163، الحريري: معالم، ص: 57، 58، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 277، 278، الكظائم موضع لآل نجاح فيه قصر وغيل وهو شرق باب زبيد الشرقي.

إن جولسوا لم تضق مجالسهم — أو ركبوا ضاق عنهم الأفق

فطرب الوزير خلف لذلك فخلع على كل من كان حاضراً في مجلسه ثلاث مرات ووصلهم. وكان عددهم 13 رجلاً. وظل خلف على سكره وطربه حتى الصباح حيث نقل إلى مجلس جياش وهو في حالة سكر فتغير جياش من ذلك كثيراً. ولذلك حدث الخلاف بين الاثنين. ففارق الوزير خلف جياشاً وذهب إلى سبأ الصليحي. ولما كتب إليه جياش يستعطفه ويطلب منه العودة إلى زبيد لم يقبل ذلك ورد عليه بأبيات من الشعر توحي برفضه العودة إليه قال فيها:

إذا لم تكن أرضي لعرضي معزة — فلست وإن نادت إليَّ أجيبها

ولو أنها أضحت كروضة جنة — من الطيب لم يحسن مع الذل طيبها

وسرت إلى أرض سوادها تعز لي — وإن كان لا يعوي من الجدب ذيبها[1]

ومن خلال ما سبق يمكن أن نستنتج أنه بعد موت المكرم سنة 477هـ/ 1084م أصبح سبأ الصليحي هو القائد الأول للصليحيين. لذلك فكَّر في استعادة تهامة. وكان خلاف الوزير خلف الأموي مع جياش فرصة مشجعة لسبأ الصليحي أن يتجه إليها معتقداً أن جياشاً قد ضعفت قواته. لذلك جهز سبأ بن أحمد الصليحي جيشاً كبيراً اشترك معه السلطان عمران بن الفضل اليامي أمير صنعاء[2] فنزل تهامة في جيش بلغ عدده عشرة آلاف راجل وثلاثة آلاف فارس[3]. وسار حتى وصل منطقة الكظائم على باب زبيد الشرقي فعسكر فيه.

أما من ناحية جياش فقد استعد لهذه المعركة بالشريف يحيى بن حمزة بن وهاس أمير المخلاف السليماني[4] وجمعاً من قادته. فعمل على وضع كمين لجيش سبأ. وهو أن جهز قائده ريحان الكهلاني مولى سعيد الأحول بجماعة من جنده الذين يجيدون الرمي بالحراب. ووضعهم كميناً لجيش سبأ بأن يأتوا من خلفهم ليلاً ويرموهم بالحراب. وبالفعل قام هذا الكمين بالهجوم على جيش سبأ الصليحي ليلاً على حين غفلة منهم أثناء ما كانوا معسكرين في الكظائم. فرموهم بالحراب حتى أهلكوا أغلبهم ولم ينجوا منهم إلاَّ القلة. منهم سبأ بن أحمد الصليحي الذي هرب ليلاً على قدميه بعد أن عُقر فرسه[5]. وقتل في هذه المعركة قيس بن أحمد

---

(1) الوصابي: الاعتبار، ص: 53، الخزرجي: العسجد، ص: 114، ابن الديبع: قرة، ص: 351، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 102، 103، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 276.

(2) الهمداني: الصليحيون، ص: 153.

(3) عمارة: المفيد، ص: 149، الهمداني: الصليحيون، ص: 152.

(4) الهمداني: الصليحيون، ص: 152.

(5) عمارة: المفيد، ص: 149.

الصليحي أخو سبأ ومحمد بن مهنا الصليحي. كما قتل القاضي عمران بن المفضل اليامي قتله الشريف يحيى بن حمزة السليماني[1]. وبذلك حقق النجاحيون انتصاراً حاسماً على الصليحيين ثبتوا فيه بقاء سلطانهم على تهامة. بعد ذلك لم يحاول الصليحيون النزول إلى تهامة وزبيد طيلة عهد سبأ بن أحمد الصليحي[2].

الفترة الرابعة:

تأتي هذه الفترة تكملة للفترة التالية من حيث احتفاظ النجاحيين بسلطانهم على تهامة. وهي الأخرى من أهم فترات جياش السياسية. عمل فيها على تثبيت حكمه واستقراره. لذلك لم تحدث فيها معارك كبيرة بينه وبين الصليحيين. رغم استعداد الطرفين للحرب واستمرار التجهيز لها. لاقتناع الطرفين بما تحت يديهما من مناطق. كذلك تميزت هذه الفترة بتغير تصرفات جياش نحو قادته وكبار رجال دولته. فقتل بعضاً منهم وهرب بعض آخر. وامتدت هذه الفترة من سنة 479هـ/ 1086م. حتى وفاة جياش سنة 498هـ/ 1104م نوجزها بالآتي:

على الرغم من اتصاف جياش بأنه كان عادلاً وشاعراً وحكيماً إلا أن تصرفاته تجاه بعض رجال دولته تحولت واتسمت بالظلم. من ذلك تصرفه تجاه القاضي الحسن بن أبي عقامة الذي كان يميل إلى مذهب النجاحيين السني. والذي عمل على مناصرتهم لاستعادة سلطانهم على تهامة. فإن جياشاً أنكر ذلك الجميل. وأقدم على قتله لبضع وثمانين وأربعمائة للهجرة. وذلك بسبب عدم موافقته على تزويج جياش من أحد نساء الفرسانيين من أهل موزع. فاستنكر تصرفه ذلك كثير من الناس ولاموه واتهموه بالظلم من ذلك قول الشاعر الحسن بن علي ابن القم:

أخطأت يا جياش في قتل الحسن   فقأت واللّه به عين الزمن
كان جزاه حين ولاك اليمن   قتلكه ودفنه بلا كفن[3]

لذلك خاف الشاعر الكاتب أبو عبد اللّه الحسين بن علي بن القم من أن تمتد يد جياش فيقتله. فهرب إلى الداعي سبأ بن أحمد الصليحي وأقام عنده بأشيح يكتب له. وكان خطه يشبه خط ابن مقلة. ثم كان يكتب عن الحرة الملكة السيدة أروى الصليحية إلى الديار المصرية[4].

---

(1) الهمداني: الصليحيون، ص: 152، 153.
(2) عمارة: المفيد، ص: 119 ـ 150.
(3) الجندي: السلوك، 1/ 294، 295، 2/ 507، الخزرجي: العسجد، ص: 112، حسن سليمان، ص: 164.
(4) الجندي: السلوك، 1/ 299.

وفي تلك الفترة وبالتحديد في سنة 485هـ/ 1092م. استعان جياش لمحاربة سبأ بن أحمد الصليحي بالغز الأتراك. حيث استدعى جياش ثلاثة آلاف قوس منهم. ولكن جياشاً خاف من أن يتمردوا عليه ويقضوا على دولته. فعمل على التخلص من أكثرهم ولم يصل منهم من مكة إلى زبيد سوى ألف فارس. فساهم هؤلاء الغز في مناصرة دولة الحبشة النجاحيين في تهامة ودحروا الصليحيين عنها. حيث جهز جياش خمسمائة رجل منهم وأرسلهم إلى الجبال ففتحوا عدة مناطق منها. ولما وصلوا بون صنعاء دس عليهم جياش من يقتلهم بالسم كما عمل على تفريق كلمتهم بالحرب والأموال. ولم يبق منهم بتهامة سوى أربعمائة وخمسون فارساً أقطعهم وادي زبيد أول سنة 486هـ/ 1093م فاستمروا في هذا الوادي[1].

عدا تلك الأحداث فإن فترة حكم جياش بن نجاح لزبيد وتهامة سادها الاستقرار في هذه الفترة حتى وفاته في ذي القعدة سنة 498هـ/ 1104م[2].

رابعاً

أولاد جياش

لم يظل أفراد البيت النجاحي على وفاق فيما بينهم. كما حدث في عهد أولاد نجاح. فقد انعدم التعاون بين أولاد جياش بن نجاح في تصريف أمور الدولة النجاحية. فحدث فيما بينهم صراع متعدد حول تولي أمرة الدولة النجاحية. وذلك يعود إلى انتمائهم إلى أمهات مختلفات وانتماء الجند إلى عناصر مختلفة مثل الغز (الأتراك) والحبشة (السودان) واليمنيين.

فبعد أن مات جياش بن نجاح خلفه ابنه الأكبر فاتك بن جياش، ابن الهندية. ليتولى أمر الدولة النجاحية. وذلك حسب النظام الوراثي الذي يعطي الابن الأكبر الأسبقية في تولي السلطة. إلا أن أخويه عبد الواحد وإبراهيم عارضا تولية أخيهما السلطة. فانقسم الجيش بينهم. ودارت عدة معارك فيما بين الطرفين. انتهت بانتصار فاتك بن جياش وتمكنه من أسر أخيه عبد الواحد. ثم العفو عنه واصطحابه معه إلى زبيد. واسترضاه بالأموال التي أغنته وصرفته عن المطالبة بالإمارة. وذلك تجنباً لإثارة المتاعب عليه من أخيه وجنده. وخاصة أن كثيراً من الجند كانت تميل إلى تأييد عبد الواحد وتأمنه. فاستقر بعد ذلك عبد الواحد في زبيد راضياً عن تولي

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 215، 216، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 103، 104، يحيى بن الحسين: غاية، 1/ 276، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 278.

(2) عمارة: المفيد، ص: 207، وقيل أن وفاته في رمضان سنة 500هـ، عمارة، ص: 207.

أخيه. أما أخوه الآخر إبراهيم فقد هرب إلى المناطق الجبلية ولجأ إلى السلطان أسعد بن وائل بن عيسى الوائلي الكلاعي الوحاظي فنزل عنده[1].

لم تمض مدة طويلة على حكم فاتك للدولة النجاحية حتى مات في سنة 503هـ/ 1109م فخلفه في تولي السلطة ابنه الطفل منصور بن فاتك. فعاد الصراع من جديد بين أولاد جياش وابن أخيهم منصور بن فاتك. فمن ناحية إبراهيم الذي لجأ إلى أسعد بن وائل الوحاظي. فإنه حشد جمعاً كبيراً من قبائل الجبال ونزل بهم لمحاربة ابن أخيه. فلما وصلوا إلى وادي زبيد خرج إليهم جند منصور فالتقوا بهم عند قرية (الهويب). وأثناء التقاء الجيشين في تلك المنطقة استغل عبد الواحد الذي كان مستقراً في زبيد فرصة خلوها من جند ابن أخيه منصور. فثار بها واستولى على دار الإمارة ثم استولى على زبيد[2]. وبذلك أصبحت السلطة بيد عبد الواحد بن جياش.

أمام ذلك لم يكن من القوى التي التقت للحرب خارج زبيد إلا أن تترك القتال وتبحث عن مخرج لها. فبالنسبة لإبراهيم لما رأى أن أخاه عبد الواحد قد سبقه في السيطرة على زبيد. ترك القتال والمطالبة بالملك وتوجه إلى الحسن بن أبي الحفاظ الحجوري الذي كان سيد منطقة الجريب شمال تهامة فنزل عنده. أما ما كان من الأمير النجاحي الطفل منصور بن فاتك الذي كان في زبيد أثناء سيطرة عمه عليها. فقد أخرجه الأستاذون والوصفان منها خفية حيث أنهم: «أدلوه من سور البلد ليلاً خوفاً عليه من عمه عبد الواحد» وذهبوا به إلى جيش أبيه خارج زبيد[3].

وآنذاك لم يرض جيش منصور بن فاتك بسيطرة عبد الواحد على زبيد. فعمل على الاستعانة بقوى أخرى لمناصرتهم على استعادة سيطرتهم على زبيد. ولم تكن هذه القوى قادرة على إعادتهم إلاّ الدولة الصليحية. فأخذوا أميرهم الطفل وذهبوا به إلى السيدة الحرة الصليحية وقائدها المفضل بن أبي البركات الحميري إلى ذي جبلة. وطلبوا منهما نجدتهم. والتزموا لهما بدفع ربع محصول تهامة مقابل نصرتهم على عبد الواحد بن جياش. فلقي منصور بن فاتك وجيشه ترحيباً لدى

(1) عمارة: المفيد، ص: 207، 208، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 94، 95، الوصابي: الاعتبار، ص: 54، الخزرجي: العسجد، ص: 112، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 342، بغية، ص: 63، 64، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 281، 282، الحريري: معالم، ص: 64.

(2) عمارة: المفيد، ص: 208، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 94، 95، الخزرجي: العسجد، ص: 112، ابن الديبع: بغية، ص: 64، حسن سليمان، ص: 165.

(3) عمارة: المفيد، ص: 208، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 95، الخزرجي: العسجد، ص: 112، ابن الديبع: قرة، ص: 349، بغية، ص: 64، الوصابي: الاعتبار، ص: 54، الحريري: معالم، ص: 65.

السيدة وقائدها المفضل بن أبي البركات. واستعداداً لمناصرتهم. وكان الهدف من تلك المناصرة استغلال صراع أولاد جياش فيما بينهم للسعي في استعادة سيطرة الدولة الصليحية على زبيد وتهامة. فجهز المفضل جيشاً كبيراً وسار بهم نحو زبيد فحارب عبد الواحد وجيشه حتى أجبرهم على الخروج من زبيد. واستولى عليها المفضل سنة 504هـ/ 1110م. وأعاد منصور بن فاتك إلى حكمه. وبعد ذلك حاول المفضل البقاء في زبيد للغدر بمنصور وجيشه وإعادتها تحت نفوذ الدولة الصليحية. إلاّ أنه حدث ما لم يكن في حسبان المفضل منعه من تحقيق ذلك. وهو أن فقهاء الشافعية في ذي جبلة استولوا على حصن التعكر. وهو الحصن الذي كان مقراً للمفضل وبه أمواله وحواشيه وجواريه. فعاد مسرعاً نحو ذي جبلة تاركاً زبيد للنجاحيين فكانت تلك فرصة مناسبة لمنصور بن فاتك أن يظل سلطانه باقياً في زبيد وتهامة[1].

المرحلة الثانية: وهي مرحلة سيطرة الوزراء على السلطة:

بعد أن استعاد منصور بن فاتك وجنده السلطة على زبيد بمساعدة الصليحيين. دخلت الدولة النجاحية مرحلة جديدة في نظام الحكم السياسي. وهي أن تكون الإمارة في أولاد فاتك بن جياش وأن تكون الوزارة في أولاد عبيدهم[2]. وهذا يعني تحوّل نظام الوزارة من وزارة تنفيذ إلى وزارة تفويض. والذي يصبح فيها الوزراء أكثر نفوذاً من الأمراء[3]. أي أن يكون تحت يديه الأعمال الكتابية وقيادة الجند. وقد فرض هذا الوضع تولي أمراء الدولة النجاحية السلطة وهم أطفال. مما أدى إلى عدم قدرتهم على إدارة الدولة وقيادة الجند. وقد وصفت المصادر هذه المرحلة بقولها: «ولم يكن لأولاد فاتك بن جياش من الأمر سوى النواميس الظاهرة من الخطبة لهم بعد بني العباس والسكة والركوب بالمظلة في أيام المواسم وعقد الآراء في مجالسهم وأما الأمر والنهي والتدبير وإقامة الحدود وإجازة الوفود فلعبيدهم الوزراء وهم عبيد فاتك بن جياش وعبيد منصور ابنه»[4].

وفي هذه المرحلة تولى حكم الدولة النجاحية ثلاث شخصيات هم

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 208، 209، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 95، 96، الخزرجي: العسجد، ص: 112، 113، ابن الديبع: قرة، ص: 350، بغية، ص: 64، 65، الوصابي: الاعتبار، ص: 54، الكبسي: اللطائف، ص: 42، حسن سليمان: تاريخ اليمن، ص: 165، عصام الفقي: اليمن، ص: 192، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 282، 283.

(2) عمارة: المفيد، ص: 209، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 96، الحريري: معالم، ص: 65، 66.

(3) الحريري: معالم، ص: 63.

(4) عمارة: المفيد، ص: 209، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 96، الخزرجي: العسجد، ص: 114، ابن الديبع: قرة، ص: 351، بغية، ص: 65، عصام الفقي، ص: 192.

منصور بن فاتك وابنه فاتك بن منصور. ثم ابن عمه فاتك بن محمد. وكلهم انتهت حياتهم بالقتل. وأما الوزارة فقد تولاها ستة وزراء، هم أنيس، ومنّ اللّه، ورزيق، ومفلح وإقبال وأخيراً سرور. انتهت حياة معظمهم بالقتل أيضاً.

ومن الملاحظ أن هؤلاء الوزراء أطلق عليهم جميعاً اسم فاتكي نسبة إلى أميرهم فاتك بن جياش ثم أميرهم الآخر فاتك بن منصور، نوضح تلك المرحلة بالآتي:

وزارة أنيس الفاتكي 504 ـ 517هـ:

بدأت مرحلة سيطرة الوزراء على الأمراء بتولي أنيس الفاتكي سنة 504هـ/1110م حيث أجمع الجند على توليته قائداً للجيش ووزيراً للأمير فاتك بن منصور[1] وعلى الرغم من انتماء أنيس الفاتكي إلى نفس قبائل أمراء بني نجاح وهم الجزليون. إلاّ أن هذا الانتماء لم يمنعه من إحكام القبضة على جميع أمور الدولة بيديه والسيطرة على الأمير النجاحي. وذلك يعود إلى صغر سن هذا الأمير النجاحي وضعفه وعدم مقدرته على إدارة الدولة النجاحية. فعمل هذا الوزير على مشاركة الأمير مظاهر السلطنة. فضرب السكة باسمه وعمل لنفسه مظلة الركوب وهي خاصة بالأمراء[2]. أدى هذا الأمر بالوزير إلى الطغيان والجبروت. فقد وصف أنه كان جباراً غشوماً متهوراً. فضلاً عن أنه كان شجاعاً وجواداً.

ومن أهم أعماله العمرانية التي اتصفت بالعظمة بنائه للقصور الواسعة التي تتكون من حجرات ضخمة ذات أرضية واسعة. بلغ عرض كل قاعة منها ثلاثون ذراعاً أي خمسة عشر متراً. وطول كل مجلس فيها أربعون ذراعاً[3] أي عشرون متراً والواقع أن بناء الدولة محتاجة إلى تلك السعة.

أما أهم أعماله الحربية فقد عمل على الدفاع عن تهامة من هجمات أنصار الدولة الصليحية أثناء قيادة أسعد بن أبي الفتوح للجيش الصليحي[4] الذي تولى

---

(1) الجندي: السلوك، 2/ 558، ابن الديبع: قرة، ص: 352.

(2) عمارة: المفيد، ص: 210، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 97، الخزرجي: العسجد، ص: 115، ابن الديبع: قرة، ص: 352، بغية، ص: 67، حسن سليمان: تاريخ اليمن، ص: 166، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 283.

(3) عمارة: المفيد، ص: 210، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 97، الخزرجي: العسجد، ص: 115، ابن الديبع: قرة، ص: 352، حسن سليمان: تاريخ اليمن، ص: 166، الحريري: معالم، ص: 67.

(4) عمارة: المفيد، ص: 210، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 98.

القيادة بعد موت ابن عمه المفضل. فقد جهز أسعد جيشاً كبيراً ونزل بهم لمحاربة النجاحيين والسبب في ذلك كما يبدو عدم التزام بني نجاح بإرسال ربع متحصل تهامة من الأموال العينية والنقدية التي وعدوا بها المفضل بن أبي البركات، مقابل إعادتهم إلى السلطة على زبيد. ولكن أسعد فشل في تحقيق أي نصر على النجاحيين لتمكن أنيس من صده.

صراعه مع الأمير:

عندما كبر الأمير النجاحي منصور بن فاتك أراد فرض سلطانه على أمور الدولة. فأقلق ذلك الوزير أنيس الفاتكي الذي اعتاد على الاستحواذ على السلطة بكاملها لذلك بدأ الصراع بين الطرفين. فعمل كل واحد على تدبير المؤامرة ضد الآخر. فبدأ الوزير أنيس تدبير مؤامرة للتخلص من مولاه. إلا أن الخبر وصل سريعاً إلى الأمير النجاحي عبر طريق ندماء الوزير فأخذ الأمير الحيطة منه. ودبر هو الآخر مؤامرة لقتل الوزير. وهي أن يدعو الأمير وجوه دولته مع الوزير إلى الحضور إلى وليمة كبيرة أعدها لهم في قصر الإمارة. فلما حضر الوزير أنيس. أمر الأمير أصحابه بقتله. فقتل في سنة 517هـ/ 1123م. وقطعت رأسه وصودرت أمواله وجواريه. ومن تلك الجواري اشترى الأمير منصور الجارية علم. وهكذا انتهت حياة هذا الوزير بالقتل بسبب صراعه مع الأمير حول السلطة. وهي أول حادث قتل لوزير في الدولة النجاحية[1].

وزارة مَنّ الله الفاتكي 517 ـ 524هـ:

بعد قتل الوزير أنيس الفاتكي عهد الأمير النجاحي منصور بن فاتك بتولي الوزارة إلى أحد كبار قادته هو مَنّ الله الفاتكي. فتولاها في سنة 517هـ/ 1123م. وكان هذا الوزير من «أكابر الوزراء وأعيانهم» اتصف بالشجاعة والهيبة والكرم[2].

ومن شجاعته أنه قام بأعمال حربية دافعت عن كيان الدولة النجاحية ضد الطامعين في القضاء عليها. من ذلك أنه اشترك قبل توليه الوزارة مع الوزير أنيس

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 210، الجندي: السلوك، 2/ 508، الخزرجي: العسجد، ص: 115، ابن الديبع: قرة، ص: 352، بغية، ص: 67، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 284، الحريري: معالم، ص: 67.

(2) عمارة: المفيد، ص: 210، الخزرجي: العسجد، ص: 115، ابن الديبع: قرة، ص: 352، يوضح الخزرجي، ص: 106، أن أنيساً قتل سنة 517هـ وتولى منّ الله الفاتكي سنة 519هـ ويوافقه ابن عبد المجيد، ص: 98، ويحيى بن الحسين، ص: 289. والصحيح والمرجح أن منّ الله تولى سنة 517هـ.

الفاتكي في خوض معركة كبيرة دافع فيها عن زبيد من هجمات قائد الجيش الصليحي أسعد بن أبي الفتوح الحميري تمكن خلالها مَنّ اللّه الفاتكي من هزيمة أسعد بن أبي الفتوح. وقتل ما ينيف على الألف من العرب أنصار الدولة الصليحية[1].

أما أهم أعماله الحربية عندما تولى الوزارة فهي الأخرى الدفاع عن الدولة النجاحية وعاصمتها زبيد من هجمات قائد الجيش الصليحي ابن نجيب الدولة. حيث تكمن الوزير من هزيمة القائد الصليحي وجيشه على باب زبيد أواخر سنة 518هـ/ 1124م. وقتل الكثير من أصحابه منهم مائة من العرب وثلاثمائة من الأرمن من الذين يجيدون الرمي بالرماح وخمسمائة جندي من الجنود السود[2]. وكانت هذه المعركة آخر المعارك التي دارت بين الصليحي والنجاحيين. لم يعد بعدها الصليحيون أية محاولة للنزول إلى تهامة[3].

لم يلبث الوزير مَنّ اللّه أن طمع في الاستحواذ على السلطة وأن يكون هو المتحكم بكل أمور الدولة النجاحية. دون أن يحاسبه أحد من الناس. ولن يتأتى ذلك إلا بالتخلص من مولاه الأمير منصور بن فاتك صاحب السلطة الفعلية. فعمل على قتله بالسم سنة 519هـ/ 1125م. وولى مكانه ابنه الطفل فاتك بن منصور[4]. وهو ابن الحرة علم التي أوكلت كفالة ابنها إلى عبيد أبيه الأستاذون[5].

وفي تلك الأثناء قام الوزير منّ اللّه الفاتكي بإزاحة بعض القادة المنافسين له عن السلطة. فقد كان أحمد بن مسعود الجزلي ومفلح الفاتكي صاحبي الحل والعقد في زبيد، ومن أكابر قادتها. فحاول الوزير منّ اللّه الفاتكي التخلص منهما بتدبير مؤامرة لقتلهما فخافا منه وهربا إلى الجبال[6]. وبخروجهما دانت لمنّ اللّه زبيد وتهامة كلها فعلا شأنه[7].

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 210، الخزرجي: العسجد، ص: 115، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 98، ابن الديبع: بغية، ص: 68، حسن سليمان: تاريخ اليمن، ص: 167.

(2) عمارة: المفيد، ص: 210، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 98، الخزرجي: العسجد، ص: 115، ابن الديبع: قرة، ص: 352، في كتاب بغية المستفيد، ص: 68، يوضح أن الوزير منّ اللّه الفاتكي قتل تسعمائة من جيش ابن نجيب الدولة وأن المعركة حدثت أواخر سنة 518هـ.

(3) ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 80.

(4) عمارة: المفيد، ص: 211، ابن عبد المجيد، ص: 98، حسن سليمان: تاريخ اليمن، ص: 167، الحريري: معالم، ص: 67، 68، تذكر المصادر أن منّ اللّه الفاتكي أول ما تولى الوزارة قام بقتل مولاه وذلك كما يبدو سنة 517هـ. ولكن من المرجح أن قتله كان سنة 519هـ.

(5) عمارة: المفيد، ص: 211.

(6) عمارة: المفيد، ص: 210، الخزرجي: العسجد، ص: 116، ابن الديبع: قرة، ص: 352.

(7) عمارة: المفيد، ص: 210.

ومن أعمال الوزير منّ اللّه الفاتكي أنه تصدق على مدارس الفقهاء الحنفية والشافعية بمنحهم الأراضي والمرافق والرباع التي تدر عليهم دخلاً كبيراً يكفي نفقات العلماء والمتعلمين طيلة فترة التدريس. مما جعلهم يستغنون عن مطالبة التجار وغيرهم للإنفاق عليهم[1]. وهي بادرة تعبر عن قيام الدولة بالإنفاق على التعليم.

أما عن كرمه فقد كان يمنح الشعراء المادحين له الكثير من الأموال. فقد ذكر مؤدب أولاده محمد بن عبد اللّه التهامي أنه (جلّد مما مدح به الوزير عشرة أجزاء من شعر المجيدين المشاهير).

وبالرغم من تميز منّ اللّه الفاتكي بصفات الشجاعة والكرم إلا أنه حسب وصف عمارة اتصف بالفسق مع الجواري. فقد عبث بأكثر جواري وحظايا مولاه منصور بن فاتك اللواتي كن بقصره وعددهن أكثر من ألف سرية أو أمة. لم يسلم منهن من هذا الوزير ورجاله إلا القليل. ولذلك دفع حياته ثمناً لهذا التصرف. فقد قامت إحداهن وهي أم أبي الجيش بقتله بالسم في 15/ جمادى الأولى سنة 524هـ/ أبريل 1130م عن طريق حيلة بتمكين نفسها له ثم قتله[2]. وبذلك انتهت حياة هذا الوزير بالقتل. وكما يتضح أن السبب الحقيقي لقتله هو إقدامه على قتل مولاه الأمير منصور وليس كما وصف عمارة. وقد تكون تلك التهمة ألصقت عليه للتخلص منه.

وزارة رزيق الفاتكي 524هـ:

عملت الحرة علم أم الأمير منصور على تولية رزيق الفاتكي الوزارة سنة 524هـ/ 1130م[3]. وقد اتصف بالشجاعة والكرم والثراء الكبير. ومن شجاعته وأعماله الحربية أنه صد هجوماً على زبيد من قبل المنشقّين على الوزير السابق. والذين اتخذوا من الجبال مقراً لهم. والذين هاجموا زبيد بقيادة مفلح الفاتكي. ولكن الوزير رزيق الفاتكي صدهم حين تزعم أهل زبيد حيث خرج إليهم بجيشه فخاض معهم معركة كبيرة (اشتجر فيه سبعة أرماح وهو لابس درعين فحصد أكثرها بسيفه واندق منها رمحان. وهو ثابت في سرجه)[4].

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 210، الوصابي: الاعتبار، ص: 55، ابن الديبع: قرة، ص: 352، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 284.

(2) عمارة: المفيد، ص: 210، الوصابي: الاعتبار، ص: 55، الحريري: معالم، ص: 68، 69.

(3) عمارة: المفيد، ص: 211، 212، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 98، 99، الوصابي: الاعتبار، ص: 55، الخزرجي: العسجد، ص: 117، الجندي: السلوك، 2/ 509، 510، ابن الديبع: بغية، ص: 68، يحيى بن الحسين: غاية، 1/ 291، حسن سليمان، ص: 167.

(4) الخزرجي: العسجد، ص: 117، 118، ابن الديبع: بغية، ص: 69.

ونتيجة لثبات رزيق في المعركة كان مفلح ينادي جنده بأن يعقروا فرس رزيق حتى يتمكنوا من هزيمته. إلا أن رزيقاً هجم على مفلح فضربه بالسيف ضربة وقعت في فرسه فقسمته نصفين وسقط مفلح من الفرس. فحاول رزيق قتله. ولكن دافعت عنه بنو مشعل وهم من عرب تهامة[1].

وعلى الرغم من ذلك فإن رزيق لم يتمكن من تدبير الملك فاستقال من الوزارة[2]. واستدعى مفلحاً ليتولاّها. وتوضح المصادر أن السبب في ذلك هو عدم طاعة العسكر له وعدم وجود خبرة له بإقامة نواميس السلطنة[3].

وزارة مفلح الفاتكي 524 ـ 527هـ:

ينتمي مفلح الفاتكي إلى قبيلة سحرت الحبشية واتصف بالشجاعة والكرم والحزم والعفة[4]. وهو أحد القادة الذين كان لهم الحل والعقد في زبيد[5]. ولكنه هرب إلى الجبال في عهد الوزير منّ اللّه الفاتكي خوفاً على نفسه منه. ثم استعان بعرب المهجم على محاربة أهل زبيد والوزير رزيق[6] بعد ذلك فضل رزيق عدم الاستمرار في الدخول معه في صراع فتنازل له بالوزارة. واستدعاه من الجبال[7]. وولاه الوزارة بسبب ما ذكر سابقاً.

ولما تولى مفلح الوزارة حدث تطوراً آخر في نظام البيت النجاحي وهو التقليل من نفوذ الوزراء، عن طريق إسناد أهم الأعمال لرجال القصور. فأحدث هذا التطور صراعاً بين الوزير وعبيد القصور كما سيأتي.

كانت الحرة عَلَمْ وزوجها منصور بن فاتك قد عملا على شراء العبيد وتربيتهم للخدمة في قصورهما فقسما هؤلاء العبيد إلى فرقتين هما الوصفان والأستاذون مثل صواب الذي كان متولياً إمرة الزمام. ويمن وريحان وعز. ومن

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 212، الوصابي: الاعتبار، ص: 56، الخزرجي: العسجد، ص: 118، ابن الديبع: قرة، ص: 353.

(2) عمارة: المفيد، ص: 212، الخزرجي: العسجد، ص: 118، الحريري: معالم، ص: 70.

(3) ابن الديبع: بغية، ص: 69.

(4) عمارة: المفيد، ص: 215، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 102، 103، الوصابي: الاعتبار، ص: 56، الجندي: السلوك، 2/ 510، ابن الديبع: قرة، ص: 353، بغية، ص: 69، حسن سليمان: تاريخ اليمن، ص: 168.

(5) عمارة: المفيد، ص: 215، الوصابي: الاعتبار، ص: 56، 57، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 103، ابن الديبع: قرة، ص: 354، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 285.

(6) عمارة: المفيد، ص: 210.

(7) عمارة: المفيد، ص: 212.

الأستاذين الفحول. إقبال وبرهان وسرور. فكانوا أكثر طاعة لهما. وعندما قتل الأمير منصور أوكلت الحرة علم الوصاية على ولدها الطفل فاتك بن منصور إلى أولئك الوصفان والأستاذين[1]. فأصبح هؤلاء العبيد هم أصحاب الأمر والنهي وهم المسيطرون على أمور الدولة. كما أصبحوا (هم الذين يتكلمون على لسان السلطان). لذلك (صار الوزير في أمور السلطان أجنبياً معهم)[2].

أدى ذلك إلى عدم تمكن الوزير مفلح من فرض سلطانه على الأمير النجاحي. فنشب صراع بينه وبين هؤلاء الوصفان والأستاذين. ومن أجل تحقيق النصر على الوزير فقد استعان هؤلاء العبيد بكثير من القادة والجند. فاستمالوا كثيراً من الفرسان والرجال فعظم شأنهم كما عظم بهم جانب الحرة علم[3].

ومن ضمن الصراع الذي حدث بين الوزير وهؤلاء العبيد أنهم دبروا عدة حيل للقضاء عليه وهي كالآتي:

1 ـ الحيلة الأولى:

طلبوا من الوزير تجهيز الحرة إلى مكة بثلاثين ألف دينار. إلا أنه امتنع عن تجهيزها وقال لهم: (صرف الأموال إلى محاربة أعداء الدولة أولى من هذه الخرافات ولمولاتنا للغزل ولزومها كسر بتيها) (شغل شاغل عن الحج). فألحوا عليه في الطلب حتى ظهر منه خطأ ضد الحرة علم. لم يغفر له من هذا الخطأ إلا الاستجابة لطلبهم. فجهزها بثلاثين ألف دينار وأرسل معها إلى مكة ولده منصور[4].

2 ـ الحيلة الثانية:

طلبوا من مفلح الذهاب إلى عدن لمحاربة سبأ بن أبي السعود وعلي بن أبي الغارات الزريعيين. وبالفعل جهز مفلح جيشاً كبيراً. وسار بهم نحو عدن. فلما صار على بعد يوم من زبيد ثار فيها محمد بن فاتك بن جياش، على الحرة علم وولدها. أدى ذلك إلى عودة مفلح بجيشه إلى زبيد[5].

(1) عمارة: المفيد، ص: 215، الخزرجي: العسجد، ص: 118.

(2) عمارة: المفيد، ص: 211، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 108، 109، الخزرجي: العسجد، ص: 122.

(3) عمارة: المفيد، ص: 220، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 109، الخزرجي: العسجد، ص: 122، يحيى بن الحسين: غاية، 1/ 291، حسن سليمان: تاريخ اليمن، ص: 168، الحريري: معالم، ص: 70، 71.

(4) عمارة: المفيد، ص: 220، الخزرجي: العسجد، ص: 122.

(5) عمارة: المفيد، ص: 221، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 109، الوصابي: الاعتبار، ص:

3 ـ الحيلة الثالثة:

قام القائد سرور بمكاتبة قبائل المهجم وهم الزعلي والعمراني وبنو مشعل. وطلب منهم الهجوم على أعمال المهجم[1]. ففعلوا ذلك. مما أدى إلى خروج الوزير مفلح بجيشه لمحاربتهم. وعندما ساروا على بعد يوم من زبيد أشار سرور على الجند الرجوع فرجع أكثرهم. ولم يبق مع مفلح إلا قلة من خواصه. فأسرعوا إلى زبيد واستولوا عليها بقيادة سرور الفاتكي. إزاء ذلك لم يتمكن الوزير مفلح من العودة إلى زبيد فقرر الاتجاه نحو جبال برع وذلك سنة 527هـ/ 1133م واتخذ من حصن الكرش بها مقراً له. وبدأ يشن الغارات المتعددة على تهامة. فقاومه أهلها مقاومة شديدة، ثم انتقل إلى حصن (ديسان). فظل يشن الغارات المتعددة على أعمال المهجم[2].

ثم كاتب مفلح الشريف غانم بن يحيى السليماني صاحب مخلاف بني طرف أو المخلاف السليماني. وبني عم الشريف يطلب منهم إعانته على المحاربة معه للسيطرة على زبيد. ووعدهم بإسقاط ما عليهم من الأموال لصاحب زبيد وهي ستون ألف دينار في كل سنة. فضلاً عن تعهده بأنه سيضيف إليهم أعمال الواديين وهي واسعة[3].

كذلك انضمت إلى مفلح الفاتك والشريف غانم قبائل العرب من بني مشعل وبني عمران وبني حرام والحكميين في جموع كثيرة تقدر بألف فارس وعشرة آلاف راجل. فساروا نحو القائد سرور الفاتكي الذي كان متولياً للمهجم. فلما علم بتجمعهم كاتب أهل زبيد يستنفرهم، فحضر إليه جمع كبير منهم. والتقى الطرفان في المهجم فدارت بها معركة كبيرة بين الطرفين انتهت بقتل الكثير من الناس. وانتصار القائد سرور وهزيمة مفلح الفاتكي. وهروبه إلى جبال برع للتحصن بها. وظل يشن الغارات على المهجم إلى أن مات في حصن الكرش سنة 529هـ/ 1135م[4].

= 59، الخزرجي: العسجد، ص: 122، ابن الديبع: قرة، ص: 354، 355، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 285، 286.

(1) عمارة: المفيد، ص: 221، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 109، ابن الديبع: قرة، ص: 356، يحيى بن الحسين: غاية، ص: 291، حسن سليمان: تاريخ اليمن، ص: 168.

(2) عمارة: المفيد، ص: 221، 222، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 109، 110، الوصابي: الاعتبار، ص: 59، الجندي: السلوك، 2/ 510، ابن الديبع: قرة، ص: 355، يحيى بن الحسين: غاية، ص: 291، حسن سليمان: تاريخ اليمن، ص: 168، 169.

(3) عمارة: المفيد، ص: 222، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 110، الوصابي: الاعتبار، ص: 59، الخزرجي: العسجد، ص: 123، ابن الديبع: قرة، ص: 355.

(4) عمارة: المفيد، ص: 225، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 110، الوصابي: الاعتبار، ص: =

حل محل مفلح في مقاومة النجاحيين ابنه منصور فشن الغارات المتعددة على المهجم وتهامة. ولما طالت محاربة منصور لسرور الفاتكي الذي كان متولياً المهجم. خذله أصحابه وتركوا مناصرته وانصرفوا عنه بسبب عدم تمكنه الاستمرار في صرف أعطياتهم. ولما أصبح في قلة من أصحابه أدرك أنه غير قادر على محاربة النجاحيين فطلب الأمان من القائد سرور ومن الوزير إقبال ومن الأمير فاتك فقبلوا منحه الأمان بواسطة القائد سرور. ولما دخل زبيد حسب الأمان، غدر به الوزير إقبال فقتله[1].

وزارة إقبال الفاتكي 527 ـ 531هـ:

بعد أن هرب الوزير مفلح الفاتكي إلى جبال برع. تولى الوزارة للأمير النجاحي فاتك بن منصور قائده إقبال الفاتكي سنة 527هـ/ 1133م. وكان إقبال من فرقة الأستاذين الفحول الذين تربوا في قصر الحرة علم. وبالرغم من تلك التربية. إلا أنه لم يسلك طريق الصواب في سياسته. فقد ارتكب خطأين كبيرين أحدهما قتل منصور. والآخر قتل مولاه الأمير، نوردهما في الآتي:

1 ـ الخطأ الأول:

لما منح لمنصور بن مفلح الأمان قدم إلى القائد سرور إلى المهجم فرافقه إلى زبيد. ولما وصل إليها استقبله الوزير إقبال وخلع عليه وأنزله دار أبيه. وما كاد يمضي يوم واحد على سكن منصور في دار أبيه حتى أسرع إليه الوزير إقبال فغدر به وألقى القبض عليه وأخذه إلى داره ثم قتله ليلاً بيديه[2].

2 ـ الخطأ الثاني:

أثار ذلك القتل غضب الأمير النجاحي فاتك وقائده سرور فحاول الأمير قتل الوزير إقبال، ولكنه أبقاه خوفاً من عصيان الجند منتظراً أن تحين له الفرصة لقتله. ومن جهة الوزير إقبال فقد قدم الاعتذار والتلطف لمولاه الأمير فاتك[3]. ومع ذلك

= 59، الجندي: السلوك، 2/ 510، 511، الخزرجي: العسجد، ص: 123، ابن الديبع: قرة، ص: 355، بغية، ص: 70، يحيى بن الحسين: غاية، ص: 292.

(1) عمارة: المفيد، ص: 122، الجندي: السلوك، 2/ 511، الخزرجي: العسجد، ص: 123، ابن الديبع: قرة، ص: 335، 356.

(2) عمارة: المفيد، ص: 222، الوصابي: الاعتبار، ص: 59، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 111، الجندي: السلوك، 2/ 511، الخزرجي: العسجد، ص: 123، ابن الديبع: قرة، ص: 356، بغية، ص: 71، حسن سليمان: تاريخ اليمن، ص: 169.

(3) الجندي: السلوك، 2/ 511، الخزرجي: العسجد، ص: 123.

فقد ظل حذراً لم يأمن على نفسه منه. لذلك أقدم على السبق في تدبير مؤامرة ضد مولاه الأمير. فبعث رسولاً من عنده إلى التاجر حميد بن أسعد يطلب منه سمًّا. فلما اشترى له السم، عمل على التلطف للأمير فاتك حتى سقاه السم فمات في شعبان سنة 531هـ/ أبريل 1137م[1]. دون أن يكون له عقب. فاتفق رأي أعيان الدولة على اختيار ابن عم له اسمه فاتك بن محمد بن فاتك بن جياش[2] وبالنسبة للوزير إقبال فبعد قتله لمولاه لم يستقم له الأمر فقد عُزل ثم قُتل في نفس السنة التي قتل فيها مولاه. وتولى الوزارة القائد سرور الفاتكي.

وزارة سرور الفاتكي 531 ـ 552هـ:

كان سرور الفاتكي من أهم وزراء الأمراء النجاحيين وآخرهم. ونسرد هنا قصته منذ جلبه من الحبشة صغيراً حتى وصوله إلى تولي الوزارة في زبيد كنموذج لما وصل إليه المماليك العبيد آنذاك.

فهو ينتسب إلى القبيلة الحبشية المسماة (أمحرة)[3] أو (أمهريا)[4]. . وكان من ضمن الوصفان الذين اشترتهم الحرة علم من الحبشة صغاراً ليعملوا في قصرها. فتربى في حجرها تربية خاصة[5]. وضم إلى فرقة الأستاذين الفحول[6]. ولما شب وأصبح ماهراً في عمله ولّته الحرة علم زمام المماليك (وصرفت إليه الرئاسة على كل من في القصر)[7]. فوفق في عمله هذا وحالفه النجاح فولّته الحرة علم (العرافة) على طائفة من الجند فعاملهم معاملة طيبة اتصفت بالإحسان عليهم والصفح عن مسيئهم حتى أطاعوه[8].

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 222، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 111، الوصابي: الاعتبار، ص: 59، الجندي: السلوك، 2/ 511، ابن الديبع: قرة، ص: 356، الخزرجي: العسجد، ص: 123، 124، حسن سليمان: تاريخ اليمن، ص: 169، عند حسن سليمان أنه قتل سنة 530هـ.

(2) الجندي: السلوك، 2/ 511.

(3) الجندي: السلوك، 2/ 511، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 113، ابن الديبع: قرة، ص: 356.

(4) رياض: دولة الحبشة، ص: 115.

(5) عمارة: المفيد، ص: 224، 225، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 113، الوصابي: الاعتبار، ص: 60 الجندي: السلوك، 2/ 511، الخزرجي: العسجد، ص: 124، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 356، بغية، ص: 70.

(6) الجندي: السلوك، 2/ 511.

(7) عمارة: المفيد، ص: 225، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 113، الوصابي: الاعتبار، ص: 60، الجندي: السلوك، 2/ 511، الخزرجي: العسجد، ص: 124، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 356، حسن سليمان، ص: 169.

(8) عمارة: المفيد، ص: 225، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 113، الوصابي: الاعتبار، ص: 60، =

ثم ترقت به الحال إلى أن تولى (الخطابة) وهي (الترسل) بين الوزراء والسلطان[1]. أدى ذلك إلى الاستغناء عن موظفي الزمام الذين كانوا يقومون بهذا العمل[2]. وكان الناظر (الشيخ صواب) آنذاك متولياً لزمام الدار يميل إلى العبادة والتدين. لم يحاول منافسة سرور في القيام بهذا العمل[3]. فتركه يسيطر على عمله. ولما تولى مفلح الفاتكي الوزارة تولى سرور الفاتكي المهجم. فدخلا في صراع معه. كما دخل في صراع مع الوزير إقبال الفاتكي. خلاله تمكن سرور من إخراج الوزير إقبال عن الوزارة وتولى مكانه[4].

أهم أعمال سرور الحربية:

من أهم أعمال القائد سرور قبل توليه الوزارة أنه استعاد ملك مولاه فاتك بن منصور ومربيته الحرة علم. وكان ذلك عندما قام الوزير مفلح بالذهاب إلى عدن لمحاربة الزريعيين خرج معه سرور الفاتكي. فلما ساروا على بعد ليلة أو نصف مرحلة عن زبيد هجم عليها محمد بن فاتك بن جياش واستولى على دار الإمارة وسيطر على السلطة بها. فأقبل الناس على تهنئته بذلك وسرعان ما وصل الخبر إلى القائد سرور الذي كان في مؤخرة الجيش فعاد سريعاً نحو زبيد. ثم تسلل من السور ودخل قصر مولاته من الخلف ليلاً. ثم قام بإلباس مائة جارية وخمسين أستاذ بزيّ الجنود وإعطائهم السلاح والدروع. ثم فتح طيقان القصر وأمرهم أن يصيحوا الجميع صيحة واحدة عظيمة بعبارة (فاتك بن منصور) ففعلوا ذلك وكان محمد بن فاتك جالساً على السرير تحت طيقان الدار فهاله ذلك الصوت. فالتفت إلى أعلى في اتجاه الصوت. فإذا بحجر يقع عليه من القائد سرور أضر بأنفه. فاعتقد بوجود جيش كبير داخل القصر فخاف على نفسه وهرب مع أصحابه ليلاً من زبيد[5]. وبتلك الحيلة تمكن سرور من إعادة سلطة مولاه على زبيد.

= الجندي: السلوك، 2/ 511، الخزرجي: العسجد، ص: 124، ابن الديبع: بغية، ص: 70، 71.

(1) عمارة: المفيد، ص: 225، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 113، الخزرجي: العسجد، ص: 124، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 356، بغية، ص: 71، حسن سليمان، ص: 169.

(2) عمارة: المفيد، ص: 225، الوصابي: الاعتبار، ص: 60، الجندي: السلوك، 2/ 511، 512، الخزرجي: العسجد، ص: 124، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 356، بغية، ص: 71، الزمام وظيفة أكبر من الخطابة.

(3) عمارة: المفيد، ص: 225، الوصابي: الاعتبار، ص: 60، الجندي: السلوك، 2/ 512، الخزرجي: العسجد، ص: 124، ابن الديبع: بغية، ص: 71.

(4) الجندي: السلوك، 2/ 512، الخزرجي: العسجد، ص: 124، ابن الديبع: بغية، ص: 71.

(5) عمارة: المفيد، ص: 226، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 114، 115، الوصابي: الاعتبار، ص: 60، الخزرجي: العسجد، ص: 125، ابن الديبع: قرة، ص: 356، 357.

بعد أن تمكن القائد سرور الفاتكي من هزيمة مفلح الفاتكي ومن معه في المهجم. تضاعف حظه وارتفع شأنه لدى الصديق والعدو وهابه كثير من الناس[1]. أما الأمير النجاحي فاتك بن منصور فقد أرسل إليه تقليداً على أعمال المهجم التي كانت آنذاك كرسي ملك[2]. وما يتبعها من الأعمال وهي مور والواديين. فاستقر بها[3].

وخلال ولاية سرور الفاتكي للمهجم ظل الصراع مستمراً بينه وبين عربها من المشاعلة وبني عمران وبني زعل. كما استمر صراعه مع الحكميين وأميرهم الشريف غانم بن يحيى الحسني وكان الانتصار في معظمه لصالح سرور[4]. وعندما تولى القائد سرور الفاتكي الوزارة سنة 531هـ/ 1136م. تغيرت العلاقة فيما بين الطرفين. فقد أرسل الشريف غانم بن يحيى السليماني رسولاً إلى الوزير سرور الفاتكي هو وزيره الشيخ مسلم بن يشجب يطلب منه عقد هدنة فيما بينهما فتمت الهدنة[5]. كذلك انتهت علاقة الحرب بينه وبين قبائل تلك المنطقة.

أهم أعمال سرور بعد توليه الوزارة:

عندما تولى سرور الفاتكي الوزارة كان يقيم سنوياً في زبيد عشرة أشهر من ذي القعدة حتى شعبان. ثم يتوجه إلى المهجم ويقيم بها شهرين هما شهر رمضان وشوال. وذلك بهدف القيام بإصلاح أعمال تلك المنطقة. يتضح من ذلك أن سروراً ظل محتفظاً بولايته للمهجم بعد توليه الوزارة. فكان يذهب إليها سنوياً. وخلال إقامة الوزير سرور في المهجم كان يقيم فيها مطبخاً طيلة شهر رمضان، يدعو جميع الناس للحضور إليه. وكانت صرفياته لهذا المطبخ تبلغ ألف دينار يومياً[6].

استقباله في زبيد:

وعندما يعود الوزير سرور من المهجم إلى زبيد كان الناس بجميع طبقاتهم يخرجون لاستقباله. فيصطفون على تل عال مرتبين على حسب طبقاتهم، فأول ما يصافح طائفة الفقهاء المالكية والحنفية والشافعية. وكان يسلم عليهم وهو مترجل

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 225، الخزرجي: العسجد، ص: 124، 125.
(2) عمارة: المفيد، ص: 226، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 115.
(3) عمارة: المفيد، ص: 222، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 110.
(4) عمارة: المفيد، ص: 226، الخزرجي: العسجد، ص: 124، 125.
(5) عمارة: المفيد، ص: 223، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 112.
(6) عمارة: المفيد، ص: 226، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 115، الوصابي: الاعتبار، ص: 61، الجندي: السلوك، 2/ 513، الخزرجي: العسجد، ص: 125، 126، ابن الديبع: قرة، ص: 357، بغية، ص: 72، الحريري: معالم، ص: 73.

ولا يترجل لغيرهم إكراماً وتبجيلاً لهم. ثم يصافح التجار، ثم العساكر، ثم من حضر من الأفراد. أما بقية الناس الذين لا يستطيعون الخروج لاستقباله فقد كانوا ينتظرونه أمام مسجده ليستقبلوه ويصافحوه. ويعني ذلك أن الوزير سرور كسب عطف واحترام كثير من الناس. بعد ذلك يتجه الوزير سرور إلى أداء فريضة السلام على مولاه السلطان فاتك بن محمد ثم يتجه إلى مصافحة مولاته الحرة عَلَم، وكان سرور يخبرها بخطته السياسية لسنته (من ولاية وعزل وإتمام وقتل) وغيره ثم يتجه بعد ذلك إلى مسجده لأداء صلاة الظهر[1]. وهذا الاستقبال يعبر عن كيفية إجراء المراسيم لرجال الدولة آنذاك.

صرف الأموال في عهده:

اتسعت صرفيات الوزير سرور، فشملت جميع الطبقات وكانت لهم أعطيات أو صدقات أو هدايا أو صلات أو غيره. فمن الصدقات كان يصرف للفقهاء والقضاة والمتصدرين في الحديث والنحو واللغة وعلم الكلام والفروع مبلغ اثني عشر ألف دينار سنوياً. ومن الصلات كان يمنح العساكر أموالاً كثيرة خارجة عن أعطياتهم. أما الهدايا فقد كانت تدفع (في كل سنة برسم حواشي السلطان من الجهات والأزمة، ووصفان الخاص عشرون ألف دينار) وهي بمثابة (هدية وصلة خارجاً عن أرزاقهم المستقرة) وبالنسبة للأموال المنقولة من المهجم والواديين. فقد كان سرور يحمل منها إلى بيت مولاه السلطان في كل سنة ستون ألف دينار. ويحمل إلى بيت مولاته الحرة علم وحواشيها خمسة عشر ألف دينار سنوياً[2].

أعماله اليومية:

نورد هنا بعضاً من أعمال الوزير سرور اليومية كما أوردها عمارة كمثال لما كان يعمله الحكام آنذاك. فقد كان كثيراً ما يخرج إلى مسجده وهو على باب داره بعد منتصف الليل أو ثلثه. وذلك كما قال: (أنا أخرج في هذا الوقت لعل أحداً من أهل البيوتات وأرباب الستر لا يقدر على الوصول إلى عندي بالنهار إما لكثرة الناس أو لفرط الحياء) وإذا صلّى الصبح اتجه (إما إلى فقيه يزوره أو مريض يعوده أو

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 226، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 115، الوصابي: الاعتبار، ص: 61، الجندي: السلوك، 2/ 513، الخزرجي: العسجد، ص: 126، ابن الديبع: قرة، ص: 357، بغية، ص: 72، الحريري: معالم، ص: 74.

(2) عمارة: المفيد، ص: 227، 228، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 116، 117، الوصابي: الاعتبار، ص: 61، 62، الجندي: السلوك، 2/ 514، ابن الديبع: قرة، ص: 357، بغية، ص: 72، 73، الحريري: معالم، ص: 74، 75، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 288.

صحبة ميت يحضره. أو وليمة أو عقد نكاح وما يخص بذلك أكابر الجند والعلماء والتجار دون أصاغرهم بل من دعاه أجابه... ثم يعود بعد ركوبه بالغداة فيسلم على السلطان ويشتغل بتدبير أموره العسكرية إلى وقت الغداء) فيعود إلى داره ويتناول الغداء (ثم يخرج إلى المسجد في زوال الظل ولا يشتغل بشيء سوى المسندات الصحيحة عن رسول الله ﷺ إلى صلاة العصر ثم يدخل داره ويخرج قبل المغرب إلى المسجد. فإذا صلى المغرب تناظر الفقهاء بين يديه إلى العشاء الآخرة وربما يطيل المناظرة في بعض الليالي). استمر على هذه الحالة من سنة 529هـ/ 1134م إلى أن قتل سنة 551هـ/ 1156م[1].

معاملته:

تعامل الوزير سرور مع الرعايا بمعاملة حسنة فكان إذا حضر إليه المتظلم من الرعايا. وجفا عليه وأفحش له بالقول لم يعاقبه ولم يغضب عليه. كما كان يساوي بين المتخاصمين ولو كان حاكماً. حيث كان يدعو الحاكم للحضور لمقابلة خصمه دون أن يقبل منه التوكيل. وكان يأمره يالقعود بين يدي الحاكم تواضعاً وامتثالاً لأوامر الشرع[2]. ويعني ذلك أنه كان ينصف الرعايا من الحكام.

وعلى الرغم من اتصاف الوزير سرور الفاتكي بالشجاعة والإقدام ومعاملته الطيبة لكثير من الناس. إلا أن حياته انتهت بالقتل من قبل علي بن مهدي الثائر على الدولة النجاحية عن طريق إرساله أحد رجاله المسمى محرم. والذي ظل يترصد للوزير سرور حتى تمكن من قتله يوم الجمعة 12/ شهر رجب سنة 551هـ/ أغسطس 1156م. أثناء تأديته صلاة العصر في مسجده في زبيد[3].

الدولة النجاحية بعد قتل الوزير سرور:

بعد قتل الوزير سرور الفاتكي لم تلبث الدولة النجاحية بعده غير فترة قصيرة. فقد تصارع القواد وأعيان الدولة وتنافسوا على شغل الوظيفة التي كان

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 228، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 117، 118، الوصابي: الاعتبار، ص: 62، الجندي: السلوك، 2/ 512، 513، ابن الديبع: قرة، ص: 357، بغية، ص: 71، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 289.

(2) عمارة: المفيد، ص: 228، الخزرجي: العسجد، ص: 127، ابن الديبع: قرة، ص: 357، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 289.

(3) عمارة: المفيد، ص: 228، 229، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 118، الخزرجي: العسجد، ص: 127، ابن الديبع: قرة، ص: 357، حسن سليمان: تاريخ اليمن، ص: 170، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 289.

يشغلها وهي الوزارة. أدى ذلك إلى ترك تدبير الملك للدولة النجاحية. وقتل الأمير النجاحي فاتك بن محمد فأتاح ذلك فرصة لثأر علي بن مهدي أن يتمكن من القضاء عليهم جميعاً والسيطرة على زبيد سنة 554هـ/ 1159م[1]. وبذلك انتهت الدولة النجاحية.

خاتمة:

مما سبق يتضح لنا أن قيام الدولة النجاحية كان معاصراً لقيام الدولة الصليحية في اليمن. إلاّ أن الدولة النجاحية كانت وريثة الدولة الزيادية مذهبياً وسياسياً فكان قيامها أسهل من قيام الدولة الصليحية التي اعتمد قيامها على القوة.

وعلى الرغم من أن الدولة النجاحية كانت ممثلة للخلافة العباسية وأن سيطرتها يجب أن تمتد على اليمن كله. إلاّ أن الصليحيين تمكنوا من إزاحة نفوذهم عن معظم مناطق اليمن. وذلك بسبب ضعف الخلافة العباسية التي لم تتمكن من صد الفاطميين عن السيطرة على مصر والشام. ونتيجة لذلك لم تتمكن الخلافة العباسية من تقديم المساعدة لأنصارها النجاحيين في اليمن. كما أن النجاحيين كانوا آنذاك يمرون بضعف في حين أن الصليحيين ظهروا كقوة جديدة في اليمن معلنين انتمائهم إلى الخلافة الفاطمية التي كانت آنذاك في عز سطوتها ونشاطها وتوسعها.

وعلى أية حال فإن النجاحيين تمكنوا من الاحتفاظ بسلطانهم على تهامة اليمن وعاصمتها زبيد وظلت هذه المنطقة تحت نفوذهم رغم محاولة الصليحيين العمل على إزاحتهم عنها.

وقد تميزت فترة حكم الدولة النجاحية لتهامة اليمن آنذاك بالصراع المستمر مع الدولة الصليحية حول حكم تهامة أو محاولة كل طرف إنهاء خصمه أو التوسع في المناطق الأخرى. فظل الصراع طيلة فترة بقاء الدولتين في اليمن. حيث كان الصليحيون تارة يتمكنون من إنهاء الدولة النجاحية عن تهامة وتارة أخرى يتمكن النجاحيون من استعادة سلطانهم عليها. وظل ذلك الحال إلى أن تمكن جياش من استعادة تهامة في نهاية عهد المكرم. وظلت بعد ذلك الدولة النجاحية مستمرة في تهامة اليمن. وعلى أية حال فإن تهامة ظلت في معظم فترات الصراع مع الصليحيين تحت سيطرة النجاحيين.

وعن نوع حكم الدولة النجاحية في تهامة اليمن فقد تميزت بفترتين مختلفتين

(1) عمارة: المفيد، ص: 229، الجندي: السلوك، 2/ 515.

عن بعضهما البعض. فالفترة الأولى سيطر فيها الأمراء على مقاليد الحكم في عهد كل من نجاح وولديه سعيد الأحول وجياش. وفي الفترة الثانية سيطر فيها الوزراء على مقاليد الحكم في عهد أولاد جياش وذلك لتولي الأمراء الإمارة وهم أطفال. واستمرت هذه الفترة حتى نهاية الدولة النجاحية. ومن الملاحظ في فترة سيطرة الوزراء، أن حياة الأمراء والوزراء انتهت بالقتل. وذلك لانعدام الثقة بين الطرفين وتنافسهم حول السيطرة على مقاليد حكم الدولة النجاحية. ونتيجة لذلك التنافس حول السلطة ضعفت الدولة النجاحية فتمكن بنو مهدي من القضاء عليها.

دولة بني مهدي في تهامة اليمن

مقدمة:

في بداية العقد الثالث من القرن السادس الهجري ظهر أحد النساك المتعبدين المسمى علي بن مهدي الحميري، يدعو أهل تهامة والمناطق المجاورة لها إلى تغيير الكثير من المفاهيم الدينية التي سادت آنذاك. كما يدعوهم إلى عدم مصاحبة رجال السلطة باعتبارهم ظلمة وغير ملتزمين بالدين. ويحرض أتباعه على مقاومتهم. فاستجاب لدعوته الكثير من الناس من أهل تهامة وأهل الجبال. ومن أجل استمرار مقاومة حكام تهامة فقد اتخذ من الجبال المجاورة لزبيد مركزاً لشن غاراته المتعددة على تهامة وزبيد. وظل يشن الحملات المتتالية عليهما حتى تمكن من إسقاط الدولة النجاحية في منتصف القرن السادس الهجري. ثم توسع أبناؤه في كثير من مناطق اليمن. ويمكن تقسيم قيام دولة بني مهدي في تهامة اليمن إلى ثلاث مراحل. المرحلة الأولى: مرحلة المسالمة. والمرحلة الثانية: مرحلة الحرب حتى قيام دولتهم. والمرحلة الثالثة: مرحلة التوسع في مناطق اليمن الأخرى، نوضح ذلك بالآتي:

المرحلة الأولى: مرحلة المسالمة:

تشمل هذه المرحلة منذ بدء علي بن مهدي نشاطه الديني بالتمسك الشديد بالدين. واستمراره في الذهاب إلى الحج سنوياً، ومحاولة التنقل من قرية إلى أخرى في ساحل زبيد لدعوة الناس إلى مفاهيمه الدينية، ثم مبايعتهم له البيعة الأولى ومحاولته محاربة الدولة النجاحية. ثم عودته إلى زراعة أرضه ومصالحة الحرة عَلَمْ على عدم الحرب وهي كالآتي:

ينتسب علي بن مهدي بن محمد إلى رعين من حمير. بدأ حياته بالمواظبة على التدين والتزود بالعلوم الدينية. لأن أباه كان (رجلاً صالحاً سليم الصدر) متديناً بعيداً عن مخالطة الحكام. فنشأ علي بن مهدي على طريقة أبيه في العزلة والتمسك بالعبادة والصلاح. أدى ذلك إلى ميله إلى اتباع نهج الصوفية. وكان يسكن قرية (العنبرة) في أسفل وادي زبيد على مقربة من سفح البحر[1].

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 229، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 118، 119، الحمزي: كنز، ص: =

صفاته:

وعن صفات علي بن مهدي الجسمية فقد (كان رجلاً أخضر اللون صبيحاً)[1] (مخروط الجسم)[2]. أما عن صفاته العلمية فإنه نظراً لقرب العنبرة من مدينة زبيد التي كانت آنذاك مدينة العلم. فلا يستبعد أن يكون علي بن مهدي قد رحل إليها كما فعل عمارة. وتعلم بها. فضلاً عن تعلمه على يد والده وأهل بلدته، علوم الدين واللغة حتى صار (فصيحاً حسن الصوت طيب النغمة حلو الإيراد غزير المحفوظات). لذلك عمل علي بن مهدي بالخطابة. كما عمل (بالوعظ والتفسير). وشرح طريقته الصوفية. فأقام بذلك أتم القيام[3].

ونتيجة لتلك الصفة العلمية ومقدرته على الإقناع. فقد تمكن من أن يجذب إليه الكثير من الناس من أهل تهامة أو المناطق المجاورة لها من أهل الجبال مثل وصاب وريمة وغيرهما. فزوَّدهم بالكثير من المعارف الدينية.

ونظراً لغزارة علمه وقلة المعرفة الدينية والعلمية للناس في تلك المناطق آنذاك. اعتقدوا أنه (كان يتحدث بشيء من أحوال المستقبلات) وأنه يَحْدُث كما يقول. لذلك صدَّق أقواله الكثير من الأفراد. فازداد عدد من استمال قلوبهم إليه[4].

بدء نشاطه:

بدأ نشاط علي بن مهدي الديني (بساحل زبيد بقرى العنبرة وواسط، والقضيب، والأهواب، والمقتفي وساحل القارة) منذ سنة 531هـ/ 1136م. وكان ينتقل في البوادي بين هذه الأماكن يدعو الناس ويعظهم[5]. وخلال وعظه للناس

= 89، الوصابي: الاعتبار، ص: 105، الخزرجي: العسجد، ص: 129، ابن الديبع: قرة، ص: 360، بغية، ص: 75، الجندي: السلوك، 2/ 515، 516، يحيى بن الحسين: غاية، ص: 299، الجرافي: المقتطف، ص: 75، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 315، حسن سليمان، ص: 237، 238، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 341.

(1) ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 118، الجندي: السلوك، 2/ 516، الخزرجي: العسجد، ص: 129، الحريري: معالم، ص: 75، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 341.

(2) ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 118، الحريري: معالم، ص: 75، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 341.

(3) عمارة: المفيد، ص: 229، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 118، 119، الوصابي: الاعتبار، ص: 105، الجندي: السلوك، 2/ 516، الخزرجي: العسجد، ص: 129، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 315، الحريري: معالم، ص: 75، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 341، 342.

(4) عمارة: المفيد، ص: ٢٢٩، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: ١١٩، الوصابي: الاعتبار، ص: ١٠٥، الخزرجي: العسجد، ص: ١٢٩، الجندي: السلوك، ص: ٢/ ٥١٦، يحيى بن الحسين: غاية، ص: ٢٩٩.

(5) عمارة: المفيد، ص: 229، 230، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 119، الجندي: السلوك، 2/ 516، الخزرجي: العسجد، ص: 129، ابن الديبع: قرة، ص: 360.

كان يقول لهم: (أيها الناس دنا الوقت وأزف الأمر كأنكم بما أقول لكم وقد رأيتموه عياناً)[1].

طريقته:

أضاف علي بن مهدي إلى التمسك بالعبادة والتصوف، المداومة المستمرة على الحج وزيارة قبر الرسول ﷺ. وذلك منذ سنة 531هـ/ 1136م حتى سنة 536هـ/ 1141م. وأثناء ذهابه إلى الحج كان يلتقي (بحجاج العراق ووعاظها) فيباحثهم في علومهم حتى تضلّع من معارفهم[2]. لذلك ساهم حجاج العراق في تحويل علي بن مهدي من رجل متمسك بالدين والصلاح. إلى داعية دينية. وهذه طريقة حجاج العراق في تحويل المتدينين إلى دعاة سياسة، فمن المعروف أن أغلب الفرق الإسلامية إن لم نقل كلها، كان منشؤُها من العراق.

بدء النشاط السياسي:

وعندما عاد علي بن مهدي إلى اليمن من الحج متأثراً بحجاج العراق عمل على بدء نشاطه السياسي الديني بطريقة سليمة فاعتزل الحكام (وأظهر الوعظ وإطلاق التحذير من صحبة) (الملوك وحواشيهم وأتباعهم)[3]. وكما يتضح أن ابن مهدي اعتبر الحكام ظلمة. ولذلك حذر الناس من صحبتهم واتباعهم حتى لا يصبحوا ظلمة مثلهم ويسود الظلم المجتمع كله. لذلك كان علي بن مهدي لا يريد الاقتراب من الحكام من أجل أن (لا يقبل الصدقة ولا الهدية) منهم[4].

وعلى أية حال فإنه نتيجة لاتصاف علي بن مهدي بالصلاح والتعبد والتنسك واتباع طريقة الصوفية، واتصاف الحرة عَلَمْ أُم الأمير النجاحي فاتك بن منصور بالأعمال الخيرة. فقد أعفت (الخراج) عن أراضي علي بن مهدي وإخوته

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 230، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 120، ابن الديبع: قرة، ص: 360، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 342.

(2) عمارة: المفيد، ص: 229، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 118، الوصابي: الاعتبار، ص: 105، الجندي: السلوك، ص: 516، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 315، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 341، عصام الفقي: اليمن، ص: 198.

(3) عمارة: المفيد، ص: 229، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 118، الوصابي: الاعتبار، ص: 105، الجندي: السلوك، 2/ 516، ابن الديبع: قرة، ص: 360، الخزرجي: العسجد، ص: 129.

(4) عمارة: المفيد، ص: 229، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 119، الجندي: السلوك، ص: 2/ 516، الخزرجي: العسجد، ص: 129، ابن الديبع: قرة، ص: 360، الحريري: معالم، ص: 78.

وأصهاره. وكل من يلوذ به من قريب أو صاحب. وذلك منذ سنة 536هـ/ 1141م. فاتسعت بهم الحال وأثروا وركبوا الخيل[1].

وما يتضح من عبارة إعفاء أرض علي بن مهدي من (الخراج) أن حكام الدولة النجاحية آنذاك جعلوا بعض أراضي اليمن أرضاً (خراجية) في حين أن أرض اليمن أرض عشرية وليست خراجية. ونتيجة لذلك أرادت الدولة النجاحية مهادنة علي بن مهدي بإعفاء أرضه من (الخراج) حتى لا يثور عليهم. ويحرض الناس ضدهم مستغلاً أن أرض اليمن ليست خراجية. وعلى أية حال فإن هذا الإعفاء جذب الكثير من الناس للانضمام إلى علي بن مهدي للاستفادة من إعفاء أراضيهم من الخراج. لذلك كسبوا الكثير من الأموال وأثروا. كما استفاد علي بن مهدي بزيادة عدد أتباعه.

ومهما يكن من أمر فقد اتسعت دعوة علي بن مهدي حتى وصلت إلى الجبال المجاورة لتهامة ولما بدأت دعوته تأخذ الطابع المعادي للدولة النجاحية نزل إليه جماعة منهم وحالفوه على النصر[2]. فبايعوه البيعة الأولى في منطقة (القضيب) في وادي زبيد سنة 538هـ/ 1143م[3]. فأعطت تلك البيعة علي بن مهدي دافعاً لأن يبدأ نشاطه الحربي. فخرج من تهامة نحو الجبال فجمع جمعاً كبيراً من مؤيديه بلغ عددهم أربعين ألف رجل. فسار بهم نحو مدينة الكدراء فالتقى بها بالقائد النجاحي إسحاق بن مرزوق السحرتي. فنشبت بها معركة كبيرة بين الطرفين في نفس سنة 538هـ/ 1143م. انتهت بهزيمة علي بن مهدي وقتل الكثير من أنصاره. وكما يبدو أن السبب في هزيمة علي بن مهدي هو أن جيشه كان أغلبه من القبائل وهم غير مدربين التدريب العسكري الكافي للقتال. بينما كان جيش النجاحيين جيشاً نظامياً مدرباً على القتال. فضلاً عن عدم معرفة علي بن مهدي للخطط العسكرية. ومن ذلك نلاحظ أن علي بن مهدي تحوّل من داعية دينية إلى رجل عسكري وسياسي.

وما أن حلت الهزيمة بعلي بن مهدي حتى اتجه نحو الجبال ومكث بها إلى سنة 541هـ/ 1146م. وآنذاك أدرك أنه غير قادر على مقاومة الدولة النجاحية، بسبب عدم توفر المال اللازم والمؤن له ولأنصاره، وعدم خبرتهم بالحرب. لذلك فضل

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 230، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 119، الجندي: السلوك، 2/ 516، الخزرجي: العسجد، ص: 129، ابن الديبع: قرة، ص: 360، يحيى بن الحسين: غاية، ص: 299، حسن سليمان: تاريخ اليمن، ص: 238، الحريري: معالم، ص: 76.

(2) عمارة: المفيد، ص: 230، الخزرجي: العسجد، ص: 129، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 342.

(3) الجندي: السلوك، ص: 2/ 516، الخزرجي: العسجد، ص: 129، ابن الديبع: قرة، ص: 360.

المهادنة والاتجاه إلى العمل بالزراعة لجمع الأموال. فطلب من الحرة عَلَمْ أُم الأمير فاتك النجاحي العفو عنه وعن أصحابه ومنحهم الأمان كما طلب منها السماح له بالعودة إلى بلده لزراعتها وإعفائه من الخراج فوافقت الحرة علم على منح علي بن مهدي الأمان وإعفاء أرضه وأرض أنصاره من الخراج رغم معارضة الكثير من رجال دولتها وفقهاء عصرها لذلك[1]. وكما يتضح أن الحرة علم منحت ذلك الأمان والإعفاء لعلي بن مهدي وأنصاره شريطة عدم الخروج على دولتها.

وبعد عودة علي بن مهدي إلى بلدته التزم بطاعة الحرة عَلَم وعدم الخروج عليها، وظل يعمل في أرضه منذ سنة 541هـ/ 1146م. وهي معفية من الخراج حتى توفت الحرة عَلَم سنة 545هـ/ 1150م. فتجمّع لديه الكثير من الأموال[2]. وعلى الرغم من عدم خروج علي بن مهدي على الحرة عَلَم خلال تلك الفترة فقد استمر على صلة بأتباعه يعلمهم الدين وينتقل من قرية إلى أخرى يدعو الناس إلى اتباع مذهبه.

المرحلة الثانية: مرحلة الحرب:

تعتبر هذه المرحلة من أهم مراحل علي بن مهدي لأنه تحوّل من دور الوعظ والتعبد والمسالمة إلى دور الاستمرار في القتال ضد الدولة النجاحية فامتدت هذه الفترة لما يقرب من عشر سنين ابتدأت من سنة 545هـ/ 1150م. وانتهت بالقضاء على الدولة النجاحية وقيام دولة علي بن مهدي سنة 554هـ/ 1159م نوضحها بالآتي:

استغل علي بن مهدي موت الحرة عَلَم أُم الأمير النجاحي فاتك سنة 545هـ/ 1150م. فأتاح ذلك فرصة التخلّي عن تعهده نحوها بعدم الخروج عليها. واتجه إلى محاربة الدولة النجاحية فبدأ ذلك سنة 547هـ/ 1151م. عندما بايعه أنصاره المبايعة الثانية التي تمت أيضاً في منطقة (القضيب) في وادي زبيد. وكانت هذه البيعة تنص (على الجهاد بين يديه لأهل المنكر وهم الحبشة ومن عاضدهم من العرب وهم الأشاعر) وعك[3].

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 230، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 120، الوصابي: الاعتبار، ص: 106، الجندي: السلوك، 2/ 516، ابن الديبع: قرة، ص: 360، 361، حسن سليمان، تاريخ اليمن، ص: 239، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 325، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 342، 343، عصام الفقي: اليمن، ص: 198، الحريري: معالم، ص: 76، 78.

(2) عمارة: المفيد، ص: 230، الجندي: السلوك، 2/ 517، الوصابي: الاعتبار، ص: 106، الخزرجي: العسجد، ص: 130، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 343.

(3) الخزرجي: العسجد، ص: 130، ابن الديبع: قرة، ص: 361، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 344.

سبب ثورة علي بن مهدي:

تعددت أسباب ثورة علي بن مهدي أو محاربته الدولة النجاحية أو ما يطلق عليهم الحبشة ومن أهم تلك الأسباب ثلاثة عوامل هي العامل الديني والتأثر بحجاج العراق والوضع الاجتماعي لأهل علي بن مهدي نوضح ذلك بالآتي:

1 ـ العامل الديني: يعتبر العامل الديني من أهم العوامل التي حركت علي بن مهدي وأنصاره ضد الدولة النجاحية. فمن خلال مبايعة (القضيب) الثانية نجد أنها أوضحت هدفها المرتكز على جهاد أهل المنكر من رجال الدولة النجاحية ومن ناصرهم من الأشاعر وعك. وهذا يعني أن ثورة ابن مهدي وأنصاره كان هدفها بالدرجة الأولى ديني وهو إزالة المنكر. وعلى الرغم من عدم توضيح ما هو المنكر. إلا أن هذه العبارة دفعت الكثير من الناس إلى مناصرة علي بن مهدي، لذلك حاربوا الدولة النجاحية في تهامة حرباً شديداً من أجل إقامة الدين حسب مفهومهم وإقامة العدل. والواقع أن العامل الديني أكثر جذباً للناس فلا يخلون أن يجد له حجة في أي زمان ومكان.

2 ـ التأثر بحجاج العراق: ظل علي بن مهدي مداوماً على الحج سنوياً منذ سنة 531هـ/ 1137م وأثناء ذلك الحج كان يلتقي بحجاج العراق فيباحثهم في علومهم أدى ذلك إلى تمكنه من معرفة علومهم والتضلع بها وكما هو معروف أن العراق كانت من أهم البلدان التي نشأت بها الفرق الإسلامية السياسية الدينية. وحجاج العراق كان معظمهم يحملون أفكاراً سياسية مخالفة للعباسيين. لذلك تأثر علي بن مهدي بأفكارهم فتحول من داعية دينية إلى داعية سياسية. فحذر أصحابه من عدم مصاحبة رجال الدولة النجاحية في تهامة وحواشيهم وأتباعهم كما حرض أنصاره على قتالهم. ومن الطبيعي أن يعتنق علي بن مهدي أفكاراً دينية وسياسية مخالفة للدولة النجاحية من أجل القضاء عليهم.

3 ـ الوضع الاجتماعي لأهل علي بن مهدي: ومن أهم العوامل التي دفعت علي بن مهدي وأنصاره على مقاومة الدولة النجاحية التمايز الطبقي المفروض من قبل الهيئة الحاكمة على المجتمع آنذاك فنتيجة للوضع الاجتماعي لأهل علي بن مهدي من حيث وضعهم في أسفل السلم الطبقي للمجتمع واستحواذ رجال الدولة النجاحية على الكثير من المناصب والمميزات وتملك الأراضي وظلم الآخرين. حتى صار أهل علي بن مهدي طبقة مضطهدة تتولى المهن الصغيرة في المجتمع. أوضح ذلك عمارة بقوله: (وكان الرجل من أصحاب ابن مهدي

يلقى أخاه وقريبه وهو مع الحبشة إما مزارع أو حمال أو راعي ماشية أو حارس ضيعة)[1]. لتلك الأسباب وغيرها أعلن علي بن مهدي وأنصاره مقاومة الدولة النجاحية في تهامة والثورة ضدهم فحاربوهم حرباً شديدة حتى انتصروا عليهم.

لم يستخدم علي بن مهدي تهامة منطلقاً لهجماته نظراً لعدم توفر الإمكانات القتالية اللازمة له المساوية لإمكانات الدولة النجاحية. ونظراً لعدم توفر التحصينات اللازمة لحمايته وأنصاره بها لذلك استخدم علي بن مهدي المناطق الجبلية مركزاً لمقاومة الدولة النجاحية وذلك من أجل استمرار المقاومة لفترة أطول ومن أجل تحقيق النصر. فاتجه أولاً نحو حصن (الداشر) ثم ارتفع إلى حصن (الشرف) وجعله مقراً له. وكان الحصنان مركزين تابعين لقبائل خولان الذين قدموا لمناصرة الصليحيين. ومن حصن (الشرف) هذا بدأ علي بن مهدي يشن غاراته المتعددة على النجاحيين.

تنظيم علي بن مهدي لأصحابه في الجبال: وعن عملية تنظيم علي بن مهدي لأصحابه في الجبال. فإنه لما صعد إليها واستقر في حصن (الشرف) قسم أصحابه إلى فرقتين: إحداهما فرقة الأنصار وهم أهل الجبال وولى عليهم والياً اسمه سبأ بن محمد أو ابن يوسف. وأطلق عليه لقب نقيب لطائفة الأنصار. والفرقة الأخرى فرقة المهاجرين وهم الذين قدموا معه من تهامة وولى عليهم والياً من العمرانيين اسمه التويني وأطلق عليه لقب نقيب لطائفة المهاجرين فضلاً عن أنه أطلق عليهما لقب شيخي الإسلام. كما جعل علي بن مهدي النقيبين هما الواسطة بينه وبين أتباعه. أي أنه لا يصل إليه أحد من الأتباع سواهما[2]. بذلك احتجب عن الكثير من أتباعه. وذلك نظراً لكثرتهم. ويعلل عمارة أن السبب في ذلك هو سوء ظن علي بن مهدي وعدم ثقته بالكثير من أصحابه. وخوفاً على نفسه منهم[3]. ومن الطبيعي أن يخاف علي بن مهدي من التآمر عليه من قبل النجاحيين. لذلك شدد الحراسة على نفسه ولم يترك أحداً يدخل عليه إلاّ من يثق به.

وفي ذلك الوقت عمل علي بن مهدي على حث أنصاره على قتال النجاحيين

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 232.

(2) عمارة: المفيد، ص: 231، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 120، الوصابي: الاعتبار، ص: 106، الحمزي: كنز، ص: 89، الجندي: السلوك، 2/ 517، 518، الخزرجي: العسجد، ص: 130، 131، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 304، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 324، عصام الفقي: اليمن، ص: 199، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 344، 345.

(3) عمارة: المفيد، ص: 231، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 326.

فقال لهم: (فوالله العظيم على كل مؤمن موحد لأخدمنكم بنات الحبشة وأخواتهم، ولأخولنكم أموالهم وأولادهم)[1]. وذلك يدل على كره علي بن مهدي للنجاحيين وعداوته لهم. وتحفيز أنصاره على قتالهم كما يدل على أن علي بن مهدي كان يريد جعل نساء وبنات وأخوات رجال الدولة النجاحية وأموالهم غنيمة لأنصاره. وهي تعني أنه أجاز استرقاق نساء أعدائه وإن كانوا مسلمين وهي فكرة غير إسلامية أن يسترقق المسلم نساء المسلمين الآخرين.

بدء القتال:

لم يكد علي بن مهدي يستقر في الجبال بعد طلوعه إليها حتى عمل على شن الغارات تلو الغارات على المنخفضات أو السهول القريبة من الجبال المتحصن بها. فتمكن من تخريبها. وذلك رغم محاولة الدولة النجاحية إقامة المراكز والحاميات المتعددة، لمنع علي بن مهدي من التقدم، ومحاولة النجاحيين الاستمرار على عمل تبديل تلك الحاميات في المراكز بحاميات أخرى، إلا أن ذلك لم يحقق للنجاحيين النصر أو منع أنصار علي بن مهدي من التقدم نحو تهامة. فقد تمكنوا من تخريب الكثير من المناطق السهلية المجاورة للجبال.

وقد ساعد علي بن مهدي وأنصاره على الصمود وتحقيق الانتصار عدة عوامل أهمها طبيعة المنطقة التي تحصن بها. فهي منيعة ومن الصعوبة السيطرة عليها. فإذا أراد الإنسان أن يصل إلى حصن (الشرف) الذي هو مركز انطلاق هجمات علي بن مهدي مشى في وادي ضيق بين جبلين مسافة يوم كامل. وإذا وصل إلى أسفل الجبل احتاج نصف يوم إلى طلوع أعلاه. وإذا طلع ووصل إليه لم يكن قادراً على الحرب لأن وصوله إلى أعلى الجبل لم يتحقق إلا بعد أن يتعب وتنهك قواه.

بالإضافة إلى ذلك فإن الوادي يتصل مسيله بتهامة وهو وادي متعرج به (أحراج) عظيمة مليئة بالأشجار (إذا كمنت فيه الجيوش العظيمة الجرارة شهراً لم يعلم بهم أحد)[2]. وهذه المنطقة جعلت الجيش النجاحي غير قادر على المجازفة بدخولها. فشكل صعوبة على تمكنهم من القضاء على علي بن مهدي.

لذلك استغل علي بن مهدي وأنصاره تلك الأحراج فكانت غزواته تغير على

---

(1) الجندي: السلوك، 2/ 517، الخزرجي: العسجد، ص: 130، ابن الديبع: قرة، ص: 361، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 344، عصام الفقي: اليمن، ص: 199.

(2) عمارة: المفيد، ص: 231، 232، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 121، الوصابي: الاعتبار، ص: 106، الخزرجي: العسجد، ص: 131.

بعض أعمال تهامة ليلاً فتنهب وتحرق ما تجده أمامها. فإذا أدركها الفجر عادت وكمنت في تلك الأحراج فلا يستطيع أن يصل إليهم أحد من الجيش النجاحي.

استمر علي بن مهدي يبعث الغارات إلى سهل تهامة ليلاً ونهاراً. وامتدت غاراته إلى أن شملت معظم تهامة المقابلة للجبال التي تحصن بها. حتى (أجلى جميع أهل البوادي وقطع الحرث والقوافل التجارية)[1]. وبطلت الأسفار وعمارة المدن في تهامة[2]. فأثر ذلك اقتصادياً على الدولة النجاحية وتجار زبيد وتهامة. ومن يتاجر إليها. أوضح ذلك عمارة بقوله: (فانقطع الناس عن السفر من زبيد إلى عدن ومن عدن إلى زبيد مدة ثلاث سنين فقضى ذلك برخص بضائع كل بلد منهما وغلائها في البلد الآخر حتى صار ما يساوي دينار بربع دينار وما يساوي ديناراً في البلد الآخر بأربعة دنانير)[3].

لم يكن عمل علي بن مهدي التخريبي قاصراً على الأعمال التجارية والزراعية بل شمل جميع الأشياء فقد (كان يأمر أصحابه أن يسوقوا الأنعام والرقيق وما عجز عن المسير عقروه) أرهب ذلك أهل تهامة جميعاً. ونشر فيهم الرعب وأدّى إلى خراب معظم الأعمال في تهامة.

ولما رأى علي بن مهدي طول فترة حربه للنجاحيين حاول الاستعانة لقتالهم بحاكم عدن الداعي محمد بن سبأ بن أبي السعود الزريعي فذهب إليه علي بن مهدي سنة 549هـ/ 1154م إلى ذي جبلة أثناء ما كان موجوداً بها. وطلب منه مساعدته لمحاربة أهل زبيد والدولة النجاحية. إلا أن الداعي محمد بن سبأ رفض مساعدته[4]. يدل ذلك على أن طموح علي بن مهدي كان سياسياً. وعلى الرغم من العداوة المذهبية التي كانت قائمة بين الزريعيين الإسماعيلية والنجاحيين السُنَّة التي استغلها علي بن مهدي لطلب مساعدته. إلا أن الداعي رفض مساعدته لعدم وجود الثقة بينهما. وعدم تفضيل الداعي الدخول في صراع مع النجاحيين آنذاك. فضلاً عن تعارض مذهب علي بن مهدي مع الزريعيين[5].

ولما فشل علي بن مهدي في الحصول على مساعدة من الزريعيين دبر حيلة

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 232، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 121، 122، الوصابي: الاعتبار، ص: 106، ابن الديبع: قرة، ص: 361، 362.
(2) الخزرجي: العسجد، ص: 131.
(3) عمارة: النكت العصرية، ص: 26، 27.
(4) عمارة: المفيد، ص: 232، الخزرجي: العسجد، ص: 131.
(5) الحريري: معالم، ص: 83.

للقضاء على رجالات الدولة النجاحية. فعمل على التآمر على قتل وزيرها وقائدها سرور الفاتكي. فأرسل إليه أحد رجاله والذي ظل يترصد الوزير ويكمن له حتى تمكن من قتله في صفر سنة 551هـ/ مارس 1156م[1]. أثناء ما كان يؤدي صلاة العصر في مسجده في زبيد[2].

أحدثت عملية قتل القائد الوزير سرور الفاتكي اشتغال رؤساء أهل زبيد بالتنافس والتحاسد على تولي الوزارة وقيادة الجيش بدلاً عن سرور. مما أدى إلى محاربة بعضهم البعض وعدم تمكنهم من الاتجاه لصد هجمات علي بن مهدي. فساعد ذلك علي بن مهدي على التقدم لحرب النجاحيين، فنزل من حصن (الشرف) إلى حصن (الداشر) الذي كان يبعد أقل من نصف يوم مشياً على الأقدام من زبيد. سبَّب ذلك إلى نفور رعايا وعرب تهامة وهم الذين كانوا رعايا الدولة النجاحية وميلهم إلى علي بن مهدي خوفاً من شره[3]. فأثر ذلك على النجاحيين وقلل من محصولهم المالي. بينما ازداد المحصول المالي عند علي بن مهدي.

حصار زبيد:

ظل علي بن مهدي يشن الغارات المتعددة على مدينة زبيد ويفرض عليها الحصار حتى بلغ عدد غاراته عليها (اثنين وسبعين زحفاً) قتل فيها العديد من الأفراد من الطرفين، وقد أصابت هذه الغارات أهل زبيد بالفزع والضر والجوع واشتد عليهم البلاء[4]. كما أدى ذلك إلى هروب الكثير من فقهاء زبيد الشافعية إلى عدن وإلى الجبال[5].

ونتيجة لذلك حاول أهل زبيد الاستنجاد بالإمام الزيدي أحمد بن سليمان سنة 553هـ/ 1158م. والذي صادف وجوده آنذاك في حصن (أشيح) وشرطوا له أن يملكوه عليهم. وفي مقابل مساعدته لهم طلب منهم قتل مولاهم فاتك بن محمد. لاتهامه بالخروج عن الدين. فقتلوه في أواخر سنة 553هـ/ 1158م. وبعد ذلك حاول الإمام

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 232، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 121، الخزرجي: العسجد، ص: 134، قرة، ص: 364، أن سروراً قتل في رجب من نفس السنة.

(2) الحريري: معالم، ص: 84.

(3) عمارة: المفيد، ص: 232، الخزرجي: العسجد، ص: 135.

(4) عمارة: المفيد، ص: 233، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 122، الوصابي: الاعتبار، ص: 107، الخزرجي: العسجد، ص: 135، ابن عبد المجيد: بهجة ص: 123، حسن سليمان: تاريخ اليمن، ص: 240، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 340، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 363، عصام الفقي: اليمن، ص: 198، 199.

(5) الجندي: السلوك، ص: 518.

الاتجاه إلى مناصرتهم. ولكنه لم يتمكن من ذلك فتركهم وعاد إلى ذمار[1].

والسبب في إحجام الإمام عن مناصرة النجاحيين كما يوضح المطاع هو تحريض الشيخ جابر بن عبد الله الجنبي لأصحاب الإمام الاتجاه لأخذ أموال زبيد قبل محاربة علي بن مهدي حيث قال لهم: (إن كنتم تريدون أموال أهل زبيد فدعوا ابن مهدي إلى أن تفرغوا من زبيد وهو لكم من بعد). وكذلك تقاعس أصحاب الإمام من الاتجاه لمحاربة ابن مهدي بسبب حدوث خلاف بينهم وبين أهل زبيد. حدث ذلك عندما حاول الإمام الخروج إلى (رمع) للاتجاه لمحاربة ابن مهدي حيث تأخر بعض أصحابه في زبيد وتقاعدوا عن الخروج للحرب. فأغلق عليهم أهل مدينة زبيد الباب ولم يفتحوه إلا بعد مخاطبة الإمام لهم. ونتيجة لذلك تراجع الإمام عن مناصرة النجاحيين[2].

ومهما يكن من أمر فقد ازدادت أمور زبيد أكثر تعقيداً بعد قتل أهلها لمولاهم. حيث أدى ذلك إلى عدم الاتفاق فيما بين رجال الدولة النجاحية حول تولي الإمارة. فضلاً عن عدم اتفاقهم حول من يتولى قيادة الجيش والوزارة. فسبب ذلك عدم مقدرتهم مقاومة زحف علي بن مهدي على زبيد فأتاح ذلك فرصة لعلي بن مهدي أن يجهز جيشاً جراراً ويتجه به إلى زبيد. حيث تمكن من دخولها في 14/ شهر رجب سنة 554هـ/ يوليو 1159م. وبدخوله زبيد انتهت الدولة النجاحية وبدأ قيام دولة بني مهدي[3].

مذهب علي بن مهدي:

واستكمالاً لما سبق عرضه عن علي بن مهدي لا بد لنا من التحدث عن مذهبه الديني. فقد جمع بين مذهب أهل السُنَّة في الفروع ومذهب الخوارج في الأصول. فكان (حنفي الفروع) وفي الأصول أخذ عقيدة الخوارج هي: (التكفير بالمعاصي والقتل بها وقتل من خالف اعتقاده من أهل القبلة واستباحة الوطء

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 233، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 122، 123، الخزرجي: العسجد، ص: 135، ابن الديبع: قرة، ص: 363، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 340، 343، الكبسي: اللطائف، ص: 50، 51.

(2) المطاع: تاريخ اليمن، ص: 341 ـ 343.

(3) عمارة: المفيد، ص: 223، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 123، الحمزي: كنز، ص: 90، الجندي: السلوك، 2/ 518، ابن الديبع: قرة، ص: 364، ، يحيى بن الحسين: غاية، ص: 309، الكبسي: اللطائف، ص: 50، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 343، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 346، الخزرجي: العسجد، ص: 135.

لسباياهم واسترقاق ذراريهم وجعل دارهم دار حرب يحكم فيه حكمه في أهل دار الحرب)[1] وهذه العقائد تشبه عقائد الخوارج[2]. ومن الطبيعي أن يميل علي بن مهدي إلى مذهب مغاير لمذاهب أعدائه في اليمن. وذلك من أجل جذب الكثير من الأنصار ممن ظلموا من أصحاب هذه المذاهب أو الطامعين في السلطة. ومن أجل تحقيق حلم علي بن مهدي الديني والسياسي. وذلك لعدم تحقيق هذه المذاهب ذلك الطموح الديني والسياسي الذي كان يحلم به علي بن مهدي وغيره من الناس. وكما هو واضح أن علي بن مهدي اتبع المذهب السني الحنفي في الأمور الدينية. أما ما يخص الحرب والجهاد فقد أخذ فيه مذهب الخوارج.

وعن علاقة علي بن مهدي بأهل تهامة عندما بدأت الحرب من الجبال توضح المصادر أنه كان لا يثق بالمهاجرين إليه إلا إذا قتل أحد أقاربه مثل ابنه أو أمه أو أخته أو ولده[3]. وأوضح عمارة أن ذلك حدث في عهده فقد أقدم أحد أصدقائه على قتل والدته عندما أتت لزيارته[4]. وكما يتضح أن ذلك كان ناتجاً عن عدم ثقته بأهل تهامة لمقاتلة الحبشة النجاحيين. لأن الكثير منهم كانوا مولدين من العرب والحبشة. وكذلك خوفاً على نفسه من التآمر عليه من قبل أعدائه. لذلك شدد في قبول الأفراد المنضمين إليه. وكما يبدو أن علي بن مهدي أوهم أنصاره بأن أباهم وأخوانهم وأقاربهم كفار يجب قتلهم إن لم يؤمنوا بعقيدة علي بن مهدي. ويتخلوا عن عقيدة أعدائه. وعلى كل فقد استخدم علي بن مهدي عدم الثقة بمن ينضمّ إليه في بداية دعوته فقط.

أما علاقة أصحاب علي بن مهدي به فقد أطاعوه طاعة عمياء وجعلوه في مصاف الأنبياء. فكان علي بن مهدي (إذا غضب على رجل من أكابرهم وأعيانهم حبس نفسه في الشمس ولم يطعم ولم يشرب ولم يصل إليه ولد ولا زوجة ولا يقدر أحد أن يشفع فيه حتى يرضى عنه ابتداء من نفسه)[5]. وكما يتضح أن علي بن مهدي استغل حب الناس للدين والتضحية في سبيله فألزمهم طاعته لتحقيق مطامعه

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 236، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 125، 126، الوصابي: الاعتبار، ص: 70، الجندي: السلوك، 2/ 519، الخزرجي: العسجد، ص: 141، ابن الديبع: قرة، ص: 373، عصام الفقي: اليمن، ص: 199، الحريري: معالم، ص: 79.

(2) الخزرجي: العسجد، ص: 141.

(3) عمارة: المفيد، ص: 236، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 126، الجندي: السلوك، 2/ 519.

(4) عمارة: المفيد، ص: 236.

(5) عمارة: المفيد، ص: 236، 237، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 126، الجندي: السلوك، 2/ 519، الحريري: معالم، ص: 80.

السياسية عن طريق الدين. في حين أن الناس كانوا يعتقدون به امتثالاً وطاعة للدين نفسه. فصدقوه بكل ما يقول وأطاعوه. وبهذا العمل حقق علي بن مهدي الوصول إلى هدفه السياسي والديني معاً في إسقاط الدولة النجاحية. وكما يتضح أيضاً أن علي بن مهدي استخدم الشدة في معاقبة من ينضم إليه لمعرفة من يستطيع أن يتحمل الصعاب معه ويصبر على المتاعب ابتداء من تدريبه على الوقوف بالشمس وانتهاء بالصمود في المقاتلة ضد النجاحيين. وكما يتضح كذلك أن علي بن مهدي عمل ذلك من أجل أن يختبر أصحابه في طاعته وقوة تحملهم. إذ أنه من يستطيع أن يتحمل حرارة الشمس وعدم وصول ولده وزوجته إليه. يستطيع أن يصمد في المعركة القتالية. بذلك العمل تمكن علي بن مهدي من قيادة أتباعه إلى تحقيق النصر ضد أعدائه النجاحيين.

نظام علي بن مهدي العسكري:

في بداية تنظيم علي بن مهدي العسكري ابتدع نظاماً عسكرياً جديداً طبقه بين عساكره دون غيرهم من الناس. وذلك أنه ألزم كل واحد من أصحابه أن (يحمل ما تغزله زوجته وبناته إلى بيت المال ويكون علي بن مهدي هو الذي يكسو الواحد منهم ويكسو أهله من عنده. وليس لأحد من العسكرية فرس يملكه ولا يرتبطه في داره ولا عدة من سلاح ولا غيرها بل الخيل في إصطبله والسلاح في خزائنه فإذا عنّ له أمر دفع لهم من الخيل والعدة ما يحتاجون إليه)[1].

وكما يتضح أن هذا النظام نشأ نتيجة عدم مقدرة علي بن مهدي الإنفاق على أنصاره من حيث صرف الأعطيات والمؤن الغذائية وشراء أسلحة وغيره. فأوجد نظاماً تعاونياً يدفع كل فرد من أصحابه ما لديه من الأموال النقدية أو العينية. ويشرف علي بن مهدي على التصرف بها وتوزيعها كيفما يشاء. وهذا أشبه بنظام سيطرة الدولة أو الحاكم على كل شيء. أو ما يسمى بالنظام الاشتراكي. ولكن في نطاق الأشياء المسموح بها دينياً. والواقع أن دافع الناس الديني آنذاك جعلهم يتعاونون مع علي بن مهدي كثيراً. والهدف من ذلك هو نصرتهم للدين. وأن عملهم هذا مقدماً لوجه الله. وأنهم سيكسبون الثواب من الله سبحانه وتعالى. وهذا هو الذي جعلهم يطبقون ذلك التعاون. وكما هو واضح أن علي بن مهدي طبق ذلك أثناء بقائه في الجبال يحارب النجاحيين. أما عندما وصل إلى السلطة وأقام دولته فقد ترك العمل بذلك النظام. إذ أنه أصبح لدولته موارد مالية ثابتة

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 237، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 126، الخزرجي: العسجد، ص: 142، الحريري: معالم، ص: 80.

يدفعها الناس إليه سنوياً. وأصبح للجند مرتبات وليست له حاجة إلى التبرعات غير الثابتة التي كان يدفعها أصحابه إليه وإنفاقها لمن يحتاجها من أصحابه.

وإلى جانب فكرة سيطرة الحاكم على أموال أنصاره وسلاحهم والإشراف على توزيعها في حكم علي بن مهدي. فقد كان علي بن مهدي نفسه متشدداً في معاقبة عساكره في كثير من الحالات ومن الأمور التي تشدد بها كما وصفها عمارة بقوله: (ومن سيرته أن المنهزم من عسكره تضرب رقبته ولا سبيل إلى حياته) ومن سيرته أيضاً (قتل من شرب وقتل من سمع الغناء وقتل من زنى وقتل من تأخر عن صلاة الجماعة أو مجلس وعظه وهما يوم الخميس ويوم الإثنين وقتل من تأخر عن زيارة قبر أبيه وهذه الرسوم إنما هي على العسكرية) فقط (أما الرعايا فالأمر فيهم ألطف من العسكرية)[1]. ونحن نشك بأن علي بن مهدي كان يقتل أصحابه لهذه الأسباب ولكن ما نفهمه أنه كان يعاقب بشدة إلى درجة أنها توصف بالقتل.

على أية حال فإن هذه التعاليم المتشددة التي اتبعها علي بن مهدي في بداية إقامة دولته لم يستمر في تطبيقها. فقد ألغى العمل بها عندما وصل إلى السلطة. أوضح ذلك عمارة بقوله: (وقد بلغني في هذا الوقت وهو سنة 563هـ/ 1168م أن الأمر قد هان مما كان عليه من هذه الشدة)[2].

تولي مهدي بن علي:

بعد دخول علي بن مهدي زبيد وإقامة دولته لم تطل مدة حكمه. فقد مات في 6/ شوال في نفس السنة 554هـ/ أكتوبر 1159م. أي بعد أن حكم فيها شهرين وعدة أيام. فتولى السلطة بعده ابنة مهدي بن علي بن مهدي[3]. ومن الغريب في ذلك أن الظروف ساهمت في أن علي بن مهدي بن علي لم يمت إلا بعد أن أسس له دولة في تهامة اليمن.

المرحلة الثالثة: مرحلة التوسع في عهد مهدي بن علي:

وفي الوقت الذي تأسست فيه دولة بني مهدي في تهامة أسرع مهدي بن علي

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 237، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 127، الوصابي: الاعتبار، ص: 107، الخزرجي: العسجد، ص: 142، حسن سليمان: تاريخ اليمن، ص: 241، الحريري: معالم، ص: 79.

(2) عمارة: المفيد، ص: 237.

(3) عمارة: المفيد، ص: 233، الجندي: السلوك، 2/ 518، الخزرجي: العسجد، ص: 135، 136، ابن الديبع: قرة، ص: 365، الجرافي: المقتطف، ص: 75، 76، في العسجد، ص: 136 أن مهدي بن علي تولى قيادة الجيش وعبد النبي تولى أمور الدولة.

في الاتجاه إلى توسيع نطاق دولته في الاستيلاء على المناطق التابعة لدولة بني زريع. فجهز جيشاً كبيراً وخاض به حرباً كبيرة في العديد من المناطق من ضمن ذلك أنه أغار على لحج مرتين أحدهما في شهر شعبان من سنة 556هـ/ يوليو 1161م. والثانية في شهر رمضان سنة 558هـ/ أغسطس 1163م. فقتل في هاتين المعركتين أعداداً كبيرة من أهل لحج وسبى الحريم كما نهب الأموال الكثيرة[1].

لم تكن الدولة الزريعية في عدن آنذاك قادرة على مقاومة مهدي بن علي بسبب أن جيشها الذي كانت تعتمد عليه كان معظمه من القبائل وهم جيش غير منظم ويحتاج تجهيزه إلى وقت. لذلك عمل الداعي عمران الزريعي على مهادنة مهدي بن علي عن مدينة عدن والدملوة بمال محدد يؤديه إليه سنوياً[2].

استمر مهدي بن علي في التوسع والسيطرة على المناطق المتعددة. فاتجه نحو مدينة الجند فحاصرها 14 يوماً ثم دخلها بالقوة في ذي القعدة من سنة 558هـ/ أكتوبر 1163م. وقتل كل من وجد بها من صغير أو كبير. ورماهم في بئر المسجد الموجود بها. كما عمل على إحراق أغلب دورها. كذلك قام بإحراق المسجد على من فيه من الضعفاء والعجائز والعواكف. كما أحرق ما كان موجوداً به من أموال الناس المودعة. وكذلك أحرق الكتب والمصاحف التي كانت في المسجد[3].

وكما يتضح أن الناس في مدينة الجند رفضوا التسليم له وطاعته أثناء محاصرته لهم. لذلك قرر دخولها بالقوة فأباح سفك دمائهم فقتل كل من وجده داخلها. وكما يتضح أيضاً أن أغلب رجالها هربوا خارج مدينة الجند ولم يبق إلا النساء والأطفال والشيوخ والعجائز والعزل من السلاح. لذلك لم تحدث أية مقاومة لمهدي بن علي. الذي اتجه إلى إكمال مسلسل القتل فاتجه نحو مسجد الجند الذي لجأ إليه الكثير من الأطفال والعجائز والشيوخ. فأحرقه على من فيه. ومن الواضح أن المسجد كان مغلقاً. مما جعل مهدي بن علي يضطر إلى إحراق المسجد بمن فيه من الناس والأموال.

بعد حادثة مدينة الجند ومسجدها اتجه مهدي بن علي نحو أهل (المغربة) أو

---

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 136، ابن الديبع: قرة، ص: 366، يحيى بن الحسين: غاية، 1/ 315، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 348، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 348، 349.

(2) عمارة: المفيد، ص: 233، الجندي: السلوك، 2/ 518، الخزرجي: العسجد، ص: 146، ابن الديبع: قرة، ص: 365.

(3) الجندي: السلوك، 2/ 518، 519، الخزرجي: العسجد، ص: 137، ابن الديبع: قرة، ص: 366، بغية، ص: 76، يحيى بن الحسين: غاية، ص: 315، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 348، عصام الفقي: اليمن، ص: 201، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 349.

(العربة) والذنبتين القريبتين من الجند فقتل أغلب أهل المغربة. أما أهل الذنبتين فقد كانوا حاولوا الهرب والتخفي وراء أحد الآكام إلا أن مهدي بن علي وجيشه تبعهم فقتل الكثير منهم[1]. وبذلك أخاف مهدي بن علي الكثير من الناس في العديد من المناطق.

تولي عبد النبي ابن مهدي:

وفي الوقت الذي كان فيه مهدي بن علي يسعى إلى توسيع نفوذه أصيب بمرض (تفطر جسمه) أي أنه حدث في جسمه (شبه إحراق النار) وعلى أثر ذلك نقل من الجند إلى زبيد فأقام بها عدة أيام مريضاً ثم توفي بها في المحرم من سنة 559هـ/ نوفمبر 1163م. فتولى الأمر بعده أخوه عبد النبي ابن مهدي[2]. والذي اتصف بأنه (كان من أجود الرجال وأنجد الأبطال)[3]. إذ يعد من أهم رجالات دولة بني مهدي.

التوسع في عهد عبد النبي:

ما إن تسلم عبد النبي السلطة بعد أخيه حتى اتجه إلى التوسع في الاستيلاء على المناطق المتعددة، فسار إلى منطقة (أبين) التابعة لبني (زريع). فأحرق أحد قراها المعروفة (بالضربة) في شهر صفر سنة 559هـ/ ديسمبر 1163م[4] وقتل الكثير من أهلها ثم عاد إلى زبيد[5].

وفي سنة 561هـ/ 1165م أخذ عبد النبي ابن مهدي جيشاً كبيراً واتجه به نحو المخلاف السليماني شمال تهامة. فقاتل أهلها قتالاً شديداً حتى قتل الكثير منهم. ومن ضمن من قتلهم الأمير الشريف وهّاس بن غانم بن يحيى بن حمزة بن وهّاس السليماني[6] فضلاً عن ذلك فقد أخذ الكثير من أموالهم وسبى العديد من حريمهم[7].

---

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 137.

(2) الجندي: السلوك، 2/ 519، الخزرجي: العسجد، ص: 137، ابن الديبع: بغية، ص: 76، يحيى بن الحسين: غاية، ص: 315، عند ابن الديبع في قرة، ص: 366، أن مهدي بن علي توفي في ذي الحجة سنة 558هـ.

(3) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 159.

(4) الخزرجي: العسجد، ص: 137، ابن الديبع: بغية، ص: 76، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 159.

(5) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 159.

(6) الخزرجي: العسجد، ص: 137، ابن الديبع: قرة، ص: 366، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 159، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 349، عصام الفقي: اليمن، ص: 201.

(7) الخزرجي: العسجد، ص: 137، ابن الديبع: قرة، ص: 366، يحيى بن الحسين: غاية، ص: 316.

كما أرسل عبد النبي أخاه أحمد بن علي ومعه الجيش الكبير إلى الجند لعمارة مسجدها في شهر ربيع سنة 561هـ/ 1166م. فعمل على عمارتها.

وفي غضون ذلك خرج أحمد بن علي بعد إكمال عمارة الجند لمقاتلة بني زريع، فاتجه نحو منطقة (الجؤة) قرب الدملوة وكان بها جيش الداعي عمران. فحاربهم أحمد بن علي حتى هزمهم ثم دخل الجؤة وأحرقها[1].

كذلك اتجه عبد النبي ابن علي بن مهدي بنفسه نحو عدة مناطق في اليمن الأسفل وذلك في جمادى سنة 561هـ/ مارس 1166م. فاستولى على تعز، وصبر، وغيرهما من المناطق الأخرى. ثم عاد إلى زبيد. وبعدها اتجه نحو مخلاف جعفر في سنة 562هـ/ 1167م. فاستولى على مدينة (إب) ثم الشماحي. وغيرهما من البلدان[2].

وما نتج عن ذلك التوسع أن دولة بني مهدي في عهد عبد النبي ابن علي. بلغت أقصى اتساع لها وغنمت الكثير من الأموال. أوضح ذلك عمارة بقوله: (واجتمع لهذا عبد النبي ملك الجبال والتهائم وانتقل جميع ملك اليمن وذخائرها) إليه و(حصل في خزائن ابن مهدي ملك خمس وعشرين دولة من دول أهل اليمن فمنها أموال أهل زبيد... لأنه ملك الذراري والنساء فأظهروا له كنوز أموالهم وكذلك المصوغ واللؤلؤ واليواقيت الفاخرة والملابس الجليلة على اختلاف أصنافها)... (وانتقل إليهم ملك بني وائل أهل وحاظة... ومما انتقل إلى ابن مهدي حصن المجمعة وأمواله وحصن التعكر وأمواله ومدينة ذي جبلة... وكذلك مدينة الجند وأعمالها وكذلك تالبة وشرياق وذخر وأعماله... والسوا... ومعاقل الداعي عمران بن محمد التي صارت لابن مهدي وهي حصن سامع وحصن مطران وحصن يمين وهذه الحصون في إقليم المعافر) في تعز. فضلاً عن حصن (حَبْ) في بعدان بالإضافة إلى ذلك فقد سيطر عبد النبي ابن علي على (بلاد بني المظفر سبأ بن أحمد الصليحي) وهي أشيح وريمة ووصاب وأيضاً سيطر على (إقليم حراز وبرع وبكيل وحاشد ووادي عَنَّة في العدين ووادي زبيد وجبال وادي رمع)[3]. شكل هذا التوسع من قبل عبد النبي ابن مهدي خطورة على قبائل اليمن المتعددة فتحالفت ضده.

---

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 138، ابن الديبع: قرة، ص: 367، بغية، ص: 77، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 160.

(2) الخزرجي: العسجد، ص: 138، 139، ابن الديبع: قرة، ص: 368.

(3) عمارة: المفيد، ص: 233، 236، الوصابي: الاعتبار، ص: 108، حسن سليمان: تاريخ اليمن، ص: 242، الحداد ك: تاريخ اليمن، ص: 349، 350.

التحالف القبلي ضد عبد النبي ابن مهدي:

عندما اتجه عبد النبي ابن مهدي إلى محاصرة عدن سنة 568هـ/ 1172م عمل بنو زريع على الاستعانة لمحاربته بالقبائل اليمنية نظراً لعدم تمكنهم لوحدهم من مقاتلته. فاتجه السلطان حاتم بن علي بن سبأ الزريعي في ذي القعدة سنة 568هـ/ يونيو 1173م. نحو قبائل جنب ومذحج في عنس وهمدان في صنعاء. فلما وصل إلى صنعاء استقبله حاكمها السلطان علي بن حاتم اليامي فأكرمه وأبدى استعداده على مناصرته ولكنه اشترط عليه أن يذهب إلى استنهاض قبائل جنب ومذحج. فإذا وقفت هاتان القبيلتان مع حاتم الزريعي لمناصرته، فسوف يأتي السلطان علي بن حاتم اليامي للمحاربة معه، والهدف من اشتراط علي بن حاتم اليامي استنهاض قبائل جنب ومذحج هو توسيع التحالف القبلي وزيادة عدد قواتهم من أجل ضمان النصر على دولة بني مهدي. والواقع أن القبائل اليمنية كانت قد انزعجت كثيراً من توسع عبد النبي ابن مهدي. فكانت استعانة بني زريع بهم فرصة مناسبة للتحالف ضد بني مهدي للقضاء عليهم.

فلما ذهب حاتم الزريعي إلى ذمار وعنس إلى السلطان عبد اللّٰه بن يحيى والشيخ زيد بن عمرو وطلب منهما نصرته أسرعا في إجابة طلبه. فكتب إلى السلطان علي بن حاتم اليامي إلى صنعاء يخبره بموافقة قبيلتي جنب ومذحج على نصرة الزريعيين. لذلك قرر السلطان علي بن حاتم السير بمن معه من الجيش من همدان وسنحان وبني شهاب ونهد وغيرهم لمناصرة الزريعيين، فخرج من صنعاء بجموعه في شهر صفر سنة 569هـ/ سبتمبر 1173م. فسار حتى وصل ذمار ثم سار منها قبل قبائل جنب ومذحج إلى أن وصل (التباشع) من السحول فعسكر به في انتظار قبائل ذمار وعنس. فلما وصلت تلك القبائل إلى السحول اتجه الجميع نحو جيش عبد النبي ابن مهدي في إب[1].

ومن جهة عبد النبي ابن مهدي فقد كان قسّم جيشه في مخلاف جعفر إلى ثلاث فرق. إحداها وضعها في قرية ذي جبلة. والثانية وضعها في أكمة الخيالي غرب ذي جبلة. والثالثة وضعها في حصن المسود وحول زلال شرق ذي جبلة[2].

أما جيش التحالف القبلي فقد اتجه جميعه نحو أكمة الخيالي غرب ذي

---

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 139، ابن الديبع: قرة، ص: 368، 370، الجرافي: المقتطف، ص: 53، حسن سليمان: تاريخ اليمن، ص: 242، 243، المطاع: تاريخ اليمن، ص: 352، 353، الحداد: تاريخ اليمن، ص: 350، 351.

(2) الخزرجي: العسجد، ص: 139، ابن الديبع: قرة، ص: 370.

جبلة. فقاتلوا الفرقة الثانية من جيش ابن مهدي وأسفرت المعركة عن هزيمة فرقة ابن مهدي بعد قتل الكثير منهم وأسر بعضهم وغنيمة ما معهم من السلاح[1]. وعندما اتجه جيش التحالف القبلي في اليوم التالي إلى مدينة ذي جبلة لمقاتلة الفرقة الأولى من جيش ابن مهدي وجدوها خالية من أي شخص لأنهم هربوا ليلاً لما علموا بهزيمة أصحابهم في الخيالي. وبذلك استولى التحالف القبلي على ذي جبلة دون قتال.

وبعد إقامة قصيرة لجيش التحالف القبلي في مدينة ذي جبلة اتجهوا جميعاً نحو الجند فوصلوها في شهر ربيع الأول من سنة 569هـ/ أكتوبر 1173م. ووجدوها هي الأخرى خالية من جيش عبد النبي ابن مهدي ومن الرعايا أيضاً فعسكر بها لعدة أيام. ثم سار هذا التحالف القبلي نحو تعز. لما علموا أن عبد النبي متحصناً بها. وكان عبد النبي قد سحب جيشه المحاصر لعدن إلى تعز[2] لما علم بقدوم التحالف القبلي نحوه، ولما وصل هذا التحالف القبلي إلى تعز وجدوا جمعاً من جيش عبد النبي معسكراً في ذي عدينة. فدار بها قتال شديد بين الطرفين انتهى بهزيمة جيش عبد النبي ابن مهدي بعد قتل الكثير منهم وغنيمة ما معهم من الأموال والسلاح ونهب المدينة. بعد ذلك اضطر عبد النبي ابن مهدي الذي كان معسكراً في حصن تعز إلى الانسحاب إلى زبيد[3].

كما انسحبت إليه فرقة عبد النبي المعسكرة في الرعارع بلحج. وبذلك تمكن التحالف القبلي من هزيمة جيش عبد النبي ابن مهدي في ذي جبلة وتعز وإنهاء محاصرته لعدن والرعارع. وإجباره على الانسحاب نحو زبيد.

وفي ذلك الوقت عاد جيش التحالف القبلي إلى الجند وعسكر فيه. وآنذاك حاول السلطان علي بن حاتم الاتجاه إلى زبيد لمقاتلة بني مهدي ولكن قبائل جنب ومذحج رفضت ذلك واكتفت بهزيمة ابن مهدي وانتهاء خطورة تهديده لدولة بني زريع فعاد ذلك التحالف القبلي إلى أماكنهم. وبذلك حقق هذا التحالف القبلي هدفه بالانتصار على دولة بني مهدي. وفي عضون ذلك قدم الأيوبيون سنة 569هـ/ 1174م. إلى اليمن. بسبب توحيد الجبهة الإسلامية فضلاً عن استنجاد أشراف المخلاف السليماني بالخلافة العباسية وصلاح الدين. الذي جهز حملة تورانشاه إلى اليمن[4]، وبقدومه انتهت دولة بني مهدي وغيرها من دويلات اليمن. كما سيتضح فيما بعد.

---

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 139.
(2) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 160.
(3) الخزرجي: العسجد، ص: 140.
(4) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 159.

خاتمة:

ظل علي بن مهدي فترة طويلة يناضل من أجل إقامة دولته في تهامة اليمن والقضاء على الدولة النجاحية. بلغت ما يقارب العشرين سنة يشن فيها العديد من الغارات ويخوض العديد من المعارك مع رجال الدولة النجاحية في زبيد. وذلك بسبب اتهام علي بن مهدي للنجاحيين بالظلم وعدم القبول لحكمهم. حيث ظل يحاربهم حتى حقق الانتصار عليهم.

وقد استخدم علي بن مهدي نفس أسلوب الإسماعيلية في تكوين دولتهم مثل علي بن الفضل وعبد اللّه الشيعي. وهي الابتداء بالدعوة الدينية. حيث أن علي بن مهدي بدأ بالتنسك والتعبد والحج ودعوة الناس إلى معرفة الدين حتى جذب إليه الكثير من الناس. بعد ذلك تحول إلى الدعوة السياسية والنضال من أجل إسقاط الدول التي اعتبرها خارجة عن الدين. مع الفارق أنهم يختلفون مذهبياً فعلي بن المهدي كان يميل إلى مذهب الخوارج في القتال. بينما كان علي بن الفضل وعبد اللّه الشيعي إسماعيلية.

وبعد أن تمكن علي بن مهدي من تكوين دولته ورَّث أبناءه الحكم بعد وفاته فعملوا على التوسع في أنحاء مناطق اليمن فاستولوا على معظم اليمن الأسفل مثل الجند وتعز وذي جبلة من الزريعيين الذين كانوا إسماعيلية.

وقد استمر الصراع بين بني مهدي من جهة وبني زريع وحكام اليمن الآخرين من جهة أخرى. مما جعل القبائل اليمنية المختلفة في اليمن تخاف من توسع بني مهدي نحو مناطقهم وخاصة دولة بني زريع في عدن وبني جنب في ذمار وبني حاتم في صنعاء. فعملوا على التحالف لمحاربتهم وتوقيفهم عن التوسع وكان ذلك حينما اتجه بنو زريع للاستعانة بهم. وقد نجح هذا التحالف القبلي في هزيمة بني مهدي والحد من توسعهم بل واسترجاع بعض مناطق الزريعيين في اليمن الأسفل. وأثناء ذلك الصراع القائم في اليمن بين دويلاتها قدم إليهم من مصر جيش جديد ودولة ناشئة جديدة هي الدولة الأيوبية. فتمكنت من القضاء على دولة بني مهدي وكل دويلات اليمن المتعددة وتوحيد اليمن تحت نفوذهم.

الباب الثالث

الحكم الأيوبي لليمن

شمس الدولة تورانشاه الأيوبي

أوضاع اليمن السياسية قبل الفتح الأيوبي:

كانت بلاد اليمن قبل الفتح الأيوبي مجزأة ومفككة سياسياً، فظهرت بها وحدات سياسية متعددة، مختلفة فيما بينها مذهبياً ومتعادية سياسياً ومتحاربة عسكرياً.

فكان بنو زريع وهم إسماعيلية (فاطميون) يحكمون عدن ولحج وأبين وبعض مناطق من تعز، مثل حصون منيف والسوا والسمدان والدملوة. وامتد سلطانهم إلى حصن (حب) في بعدان وقيظان ونقيل سمارة في مخلاف جعفر. وحَكَمَ سلاطين جنب مدينة (ذمار) ومخاليفها. بينما حَكَمَ بنو حاتم وهم إسماعيلية أيضاً حصن أشيخ في آنس وصنعاء وما حولها، ووصل سلطانهم إلى بلاد الظاهر في البون من حاشد شمال صنعاء. أما بنو مهدي وهم خوارج، فقد حَكَمُوا تهامة من حرض حتى تعز وذي جبلة في مخلاف جعفر، وبعض مناطق من تعز، مثل الجند ومدينة تعز نفسها وجبل صبر وجبل حبشي. كذلك حَكَمَ الشريف قاسم بن غانم بن وهاس المخلاف السليماني، وحكم الإمام الزيدي أحمد بن سليمان صعدة والجوف وما حولها[1].

وكانت العلاقة بين ابن مهدي وهذه الدويلات عدائية، فقد حاول التوسع على حساب دولة بني زريع في الجنوب ودولة الشريف قاسم في الشمال، وقد حاول كل من بني زريع وبني جنب وبني حاتم تكوين تحالف قبلي ضد ابن مهدي، فنجحوا في هزيمته وصده عن التوسع في مناطقهم الأخرى[2]. بينما تأرجحت علاقة الإمام الزيدي أحمد بن سليمان بسلاطين بني حاتم فتارة سادها العداء والحرب وتارة أخرى سادتها المصالحات[3]. وهكذا كان وضع اليمن السياسي قبيل الفتح الأيوبي. وفي الصفحات التالية سأتحدث عن فتح الأيوبيين لليمن وأسبابه.

---

(1) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، ص: 316، زبارة: أئمة، 1/107، 108، الكبسي: لطائف، ص: 52، المطاع: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 351، عصام الفقي: اليمن في ظل الإسلام، ص: 203، 204، كريم: عدن، ص: 216، مسفر: الحياة السياسية، ص: 84.

(2) الخزرجي: العسجد، ص: 139، 140، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 368، 372.

(3) الخزرجي: العسجد، ص: 75 ـ 81، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 291 ـ 294، 301.

أسباب الفتح الأيوبي لليمن:

تعددت آراء المؤرخين في أسباب الفتح الأيوبي لليمن. وقد ذكر هذه الأسباب عدة مؤرخين قدامى، وناقشها مؤرخون حديثون. ولا داعي هنا لإعادة ذكر هذه الأسباب مفصلة ومناقشتها. ولكن ما يهمنا هنا هو إعطاء فكرة مختصرة عن هذه الأسباب. لكي نلقي الضوء عن هدف اتجاه الأيوبيين لفتح اليمن. نوردها بالآتي:

1 ـ **الرأي الأول**: خاف صلاح الدين الأيوبي من مولاه نور الدين محمود زنكي أن يعزله عن ولاية مصر ـ باعتباره تابعاً له ـ بسبب ظهور خلاف فيما بينهما حول تباطؤ صلاح الدين لتنفيذ أوامر نور الدين بالذهاب إلى (الكرك) لمحاربة الصليبيين. وقد حاول نور الدين مراراً الاتجاه إلى مصر، ولكن الصليبيين شغلوه عن ذلك. ولما كان صلاح الدين متوقعاً وصول نور الدين إليه، وأنه لا طاقة له به. بعث صلاح الدين أخاه شمس الدولة تورانشاه إلى اليمن لمعرفة أحوالها ليجعلها ملجأ له إذا فكر نور الدين بعزله[1].

2 ـ **الرأي الثاني**: خاف صلاح الدين من إخوته لكثرتهم، وخاصةً من أخيه الأكبر تورانشاه أن يأخذ منه السلطة في مصر، لذلك سعى صلاح الدين إلى أن يبعث به إلى اليمن ليُكَون له مملكة في منطقة أخرى بعيدة عنه[2].

3 ـ **الرأي الثالث**: أراد صلاح الدين السيطرة على اليمن بسبب ظهور ابن مهدي فيها، وسفكه لدماء أهلها، ونهب أموالهم، وتغلبه على مناطقهم، وخروجه عن طاعة الخلافة العباسية، فضلاً عن خوف صلاح الدين من أن يستولي ابن مهدي على الأماكن المقدسة في مكة والمدينة. لأنه أشاع أن ملكه سينتشر على الأرض كلها[3].

4 ـ **الرأي الرابع**: أراد صلاح الدين بسيطرته على اليمن تأمين القوافل التجارية القادمة من الهند والصين إلى مصر عبر اليمن. لأن النشاط التجاري البحري

---

(1) ابن الأثير: الكامل: 11/ 396، الخزرجي: العسجد، ص: 147، الجندي: السلوك، 2/ 526، عبد العال: الأيوبيون، ص: 70، عصام الفقي: اليمن، ص: 217، 218، كريم: عدن، ص: 217، الحمزي: كنز، ص: 91.

(2) ابن شداد: سيرة صلاح الدين، ص: 46، أبو شامة: الروضتين، 1/ 552، عبد العال: الأيوبيون، ص: 71، جميل حرب: الحجاز واليمن، ص: 97، كريم: عدن، ص: 217.

(3) ابن شداد: سيرة صلاح الدين، ص: 46، أبو شامة: الروضتين 1/ 551، الخزرجي: العسجد، ص: 147، ابن الديبع: قرة، ص: 274، عبد العال: الأيوبيون، ص: 71، كريم: عدن، ص: 217، جميل حرب: الحجاز واليمن، ص: 67.

عبر اليمن كان قد نشط منذ العهد الفاطمي بمصر وبدأ يقل نشاطه في العهد الأيوبي فأثر ذلك على دخل مصر المالي[1].

5 ـ **الرأي الخامس:** حرض عمارة اليمني صديقه فخر الدولة تورانشاه للذهاب إلى اليمن، وأخبره أن فيها خيرات كثيرة وملك كبير، سواء أكان ذلك التحريض حقيقة من عمارة أن تكون اليمن تابعة للأيوبيين أم أنه كان يهدف من وراء ذلك إخراج عدد كبير من الجيش الأيوبي عن مصر، ليسهل له بعد ذلك ولأتباعه التآمر على صلاح الدين والقضاء عليه وإعادة الدولة الفاطمية إلى مصر بمساعدة الشيعة والصليبيين[2].

6 ـ **الرأي السادس:** كان فخر الدولة تورانشاه كثير الإنفاق بسبب كرمه وجوده، وأن إقطاعه بمصر لا يكفيه، لذلك حرضه عمارة وغيره من الأنصار للاتجاه نحو اليمن للسيطرة عليها لزيادة إقطاعه[3].

7 ـ **الرأي السابع:** أراد صلاح الدين بإرساله حملة إلى اليمن القضاء على ما بها من مذاهب مخالفة لمذهب الخلافة العباسية مثل مذهب الإسماعيلية الفاطمية ومذهب الخوارج والزيدية، ونشر مذاهب أهل السُنَّة بها[4].

8 ـ **الرأي الثامن:** أرسل صلاح الدين حملته إلى اليمن نتيجة طلب مسبق من الشريف قاسم بن غانم صاحب المخلاف السليماني وأهل تهامة، من الخليفة العباسي، وصلاح الدين لنجدتهم بالقدوم إلى اليمن للسيطرة عليها من ابن مهدي، الذي أقدم على قتل وهاس بن غانم وعدد من أهل حرض (سنة 561هـ/ 166م). وخاصةً أن الشريف قاسم وأهل تهامة كانوا من أهل السُنَّة، وموالين للخلافة العباسية، وابن مهدي خارجاً عن طاعتها[5].

---

(1) أمين صالح: دولة الخوارج في اليمن، ص: 141، 142، كريم: عدن، ص: 218، جميل حرب: الحجاز واليمن، ص: 96، مسفر: الحياة السياسية، ص: 67.

(2) ابن الأثير: الكامل، 11/ 196 + ص: 398، 399، عبد العال: الأيوبيون، ص: 71، جميل حرب: الحجاز واليمن، ص: 96، مسفر: الحياة السياسية، ص: 59، 60.

(3) أبو شامة: الروضتين، 1/ 552، عن أبي طيء، عبد العال: الأيوبيون، ص: 71، مسفر: الحياة السياسية، ص: 60.

(4) عبد العال: الأيوبيون، ص: 80، جميل حرب: الحجاز واليمن، ص: 98، مسفر: الحياة السياسية، ص: 65.

(5) أبو شامة: الروضتين، 1/ 554، الخزرجي: العسجد، ص: 147، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 376، عبد العال: الأيوبيون، ص: 72، جميل حرب: الحجاز واليمن، ص: 97، مسفر: الحياة السياسية، ص: 61.

والواقع أن هذه الآراء عبارة عن وجهة نظر المؤرخين في سبب اتجاه صلاح الدين الأيوبي لفتح اليمن. وليس شرطاً أن تكون هذه الآراء حقيقة هي التي دفعت صلاح الدين لفتح اليمن. ولا داعي لمناقشة خطأ أو صحة كل رأي على حدة، لأنه سبق وأن ناقشها كثير من المؤرخين[1]. وفي اعتقادي أنه لم يكن أي رأي من تلك الآراء السابقة هو الذي جعل صلاح الدين يفكر بفتح اليمن. والذي يتضح لنا من مجريات الأحداث في العالم الإسلامي آنذاك أن أهم الأسباب الرئيسية في اتجاه صلاح الدين الأيوبي لفتح اليمن الآتي:

1 ـ السبب الأول ـ فكرة الدولة الإسلامية الواحدة:

فمنذ بداية تكوين الدولة الإسلامية، سيطر على الفكر الإسلامي السياسي والديني فكرة الدولة الواحدة على جميع المناطق التي تدين بالإسلام، والعمل على المحافظة عليها. وليس الأمر كذلك فحسب، بل السعي إلى نشر الدين الإسلامي خارج نطاق حدودهم بالتوسع للسيطرة على البلدان المجاورة. لذلك كان ضرورياً لكل دولة إسلامية العمل على تحقيق ذلك الهدف بما أتيح لها من قوة، وعلى ذلك سعى صلاح الدين لفتح اليمن.

2 ـ السبب الثاني ـ فكرة توحيد الجبهة الإسلامية:

ظهرت هذه الفكرة حينما بدأ الصليبيون يعملون على تكوين جبهة صليبية ضد المسلمين، جمعت كل أوروبا واتجهوا لغزو العالم الإسلامي. فشكل ذلك خطراً على المسلمين، الذين كانوا قد افترقوا وانقسموا إلى عدة دويلات مختلفة سياسياً ومذهبياً. لذلك كان لا بد من مجابهة هذه الجبهة الصليبية بجبهة إسلامية موحدة. فتزعم هذا العمل نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي. فعملا على السعي لتوحيد المسلمين في جبهة واحدة لمقاومة هذا الغزو الصليبي. على أن هذا التوحيد لم يكن هدفه الاقتصار على القضاء على الدويلات السياسية ذات المذهب الواحد، بل القضاء على جميع المذاهب الإسلامية التي ظهرت آنذاك في العالم الإسلامي، من شيعة وخوارج، وتوحيدهم في دولة سياسية واحدة ومذهب ديني واحد هو مذهب أهل السُنَّة أو مذهب الخلافة العباسية، وهو المذهب الذي يدين به نور الدين محمود وصلاح الدين. لأن التعدد المذهبي والسياسي جلب للمسلمين حروباً مهلكة. أدت إلى إضعافهم واختلافهم وافتراقهم، فانقسم العالم

(1) عبد العال: الأيوبيون، ص: 70، 80، جميل حرب: الحجاز واليمن، ص: 92 ـ 102، مسفر: الحياة السياسية، ص: 55 ـ 70.

الإسلامي بين هذه المذاهب المتعددة إلى عدة دويلات متحاربة. فحتم ذلك على نور الدين وصلاح الدين توحيد العالم الإسلامي سياسياً ومذهبياً. لذلك عمل صلاح الدين الأيوبي على فتح اليمن وفقاً لهذا المفهوم.

1 ـ شمس الدولة ـ فخر الدين تورانشاه:

الحملة: ومهما يكن من أمر، فقد استأذن صلاح الدين مولاه نور الدين محمود لفتح اليمن، واختار لفتحها أحد الشخصيات القوية هو أخوه الأكبر شمس الدولة تورانشاه، الملقب بفخر الدين، والذي اتصف بأنه كان (ملكاً ضخماً شجاعاً شهماً فارساً مقداماً)[1]. وجهزه بحملة عسكرية كبيرة فيها العديد من الأمراء والقادة، وجمع كبير من العساكر بلغ عددهم ثلاثة آلاف فارس وراجل[2]. فضلاً عن أنه جهزه بالكثير من الأموال التي يحتاجها لهذه الحملة قدرت بمائتين وست وستين ألف دينار وهي مالية (قوص) للسنة التي قدم فيها تورانشاه إلى اليمن[3].

سير الحملة: خرجت حملة شمس الدولة تورانشاه من مصر نحو اليمن في رجب سنة 569هـ/ فبراير 1174م[4]. مزودة بالمواد الغذائية (الأزواد) والعدد والآلات[5]. وكان سيرها من القاهرة عبر نهر النيل إلى قوص، ثم سارت منها بطريق البر إلى ميناء عيذاب المصرية، ثم قطعت البحر الأحمر حتى وصلت ميناء جدة، ومنها سارت إلى مكة لأداء مناسك العمرة[6]. والسبب في سير الحملة عبر عيذاب وليس عبر السويس أو العقبة هو تأمين الحملة من التعرض للصليبيين، الذين كانوا مسيطرين على فلسطين.

دخوله حرض: بعد أن اعتمر شمس الدولة تورانشاه وجيشه في مكة، خرج منها في مستهل رمضان من نفس السنة متجهاً نحو اليمن عبر طريق الحجيج. وما

---

(1) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 69.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 15، الخزرجي: العسجد، ص: 148، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 321، الكبسي: اللطائف، ص: 45، محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 81، عصام الفقي: اليمن في ظل الإسلام، ص: 208، جميل حرب: الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص: 99، مسفر: الحياة السياسية، ص: 71، أورد الخزرجي، ص: 148، أنه خرج مع تورانشاه ألف فارس وقيل ثلاثة آلاف فارس أي أن الحملة كانت كلها فرسان.

(3) أبو شامة: الروضتين، 1/ 554، عبد العال: الأيوبيون، ص: 81، 82.

(4) الخزرجي: العسجد، ص: 146، بامخرمة: ثغر عدن، 69، محمد عبد العال: الأيوبيون، ص: 82، مسفر: المرجع السابق، ص: 72، كريم: عدن، ص: 219.

(5) ابن الأثير: الكامل، 11/ 396.

(6) أبو شامة: الروضتين، 1/ 554، عبد العال: الأيوبيون، ص: 82.

إن وصلت حملته إلى (حرض) من أرض اليمن حتى أسرع إليه حاكم المخلاف السليماني الأمير قاسم بن غانم بن يحيى السليماني معلناً الطاعة والولاء له، ومبدياً استعداده لمناصرته ضد ابن مهدي، وذلك بسبب هجوم ابن مهدي على بلاده سنة 561هـ/ 1166م، ونهبه لحرض وقراها وقتله لأخيه الشريف وهّاس[1]، فوافق تورانشاه على اصطحابه، كونه من القوى اليمنية التي ستسهل له معرفة مسالك الطريق وكيفية التعامل مع القوى اليمنية الأخرى[2].

السيطرة على زبيد: خرجت حملة شمس الدولة تورانشاه والشريف قاسم من (حرض) في أواخر شهر رمضان من سنة 569هـ/ مارس 1174م، متجهة نحو زبيد، فوصلها في السابع من شهر شوال[3] وما أن علم عبد النبي ابن مهدي بوصول الجيش الأيوبي نحوه حتى أسرع في الخروج لقتالهم خارج أسوار (زبيد). مستغلاً تعب الحملة من جراء سيرها في الطريق. بالإضافة إلى المدافعة عن أسوار المدينة من خارجها خوفاً من نصب السلالم عليها. وقد حاول عبد النبي تحميس جيشه للقتال بقوله لهم: (كأنكم بهؤلاء وقد حمي عليهم الحر فهلكوا، وما هم إلا أكلة رأس)[4] أي أنهم قليلو العدد ولا يستطيعون تحمل الحرب في حر تهامة.

ولما دارت رُحَى الحرب بين الطرفين لم تتمكن قوات ابن مهدي من الصمود، فانهزمت واتجهت نحو (زبيد) للتحصن وراء أسوارها. أما الجيش الأيوبي فقد ظل يتابع مطاردة جيش ابن مهدي نحو (زبيد) فحاصروهم بها. ونصبوا السلالم على أسوارها وظلت الحرب قائمة بين الطرفين لمدة ثلاثة أيام، انتهت بتمكن الأيوبيين من دخول (زبيد) بالقوة غروب شمس اليوم التاسع من شوال. وما إن دخلت قوات الأيوبيين (زبيد) حتى أسرعوا لأسر حكامها من بني مهدي، ونهبوا ما بها من الأموال والخيول وسبوا الكثير من نسائها. وبعد ذلك عاد الشريف قاسم السليماني إلى (حرض). أما شمس الدولة تورانشاه فقد أقام في زبيد

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 16، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 64، جميل حرب: المرجع السابق، ص: 99.

(2) محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 83.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 16، الحمزي: كنز، ص: 91، الخزرجي: العسجد، ص: 148، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 276، جميل حرب: المرجع السابق، ص: 99، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 84، مسفر: المرجع السابق، ص: 74، يورد الوصابي، ص: 108، أن دخول تورانشاه اليمن كان سنة 570هـ وهذا مخالف لما أجمع عليه بقية المؤرخين.

(4) ابن الأثير: الكامل، 11/ 369، عبد العال: الأيوبيون، ص: 84، جميل حرب: الحجاز واليمن، ص: 99، مسفر: الحياة السياسية، ص: 74.

لضبط أمورها وإراحة جنده حتى شهر ذي القعدة[1]. بذلك تمكن الجيش الأيوبي من السيطرة على (زبيد) والقضاء على حكامها. فانتهت بذلك دولة بني مهدي من تهامة.

ومن الملاحظ أن هناك العديد من الأسباب التي أدت إلى انتصار الأيوبيين على ابن مهدي. منها أن قوات ابن مهدي بدأ يظهر عليها الضعف والانهزام منذ بداية 569هـ/ 1174م حينما تكتلت ضده قوات اليمن القبلية من بني زريع وبني جنب وبني حاتم، حيث أسفر هذا التجمع القبلي عن هزيمة ابن مهدي في (ذي جبلة وتعز). ومنها أن ابن مهدي لم يحاول سحب قواته من المناطق التي سيطر عليها في اليمن للدفاع عن (زبيد) أو الهروب إلى الجبال والتحصن بها، وذلك لعدم معرفته بقدرة الجيش الأيوبي القتالية. ومنها أيضاً أن الجيش الأيوبي القادم إلى اليمن كان أكثر عدداً من جيش ابن مهدي الموجود في زبيد، وكان الجيش الأيوبي كله جيشاً معداً للقتال، ومدرباً تدريباً عسكرياً عالياً، جعل مقدرته القتالية أكثر فاعلية. أما جيش ابن مهدي فقد كان عكس ذلك، حيث كان أغلبه جيشاً قبلياً لم يكن على مستوى عالٍ من التدريب العسكري والمقدرة القتالية. ومنها كذلك استخدام الجيش الأيوبي السلالم لاقتحام مدينة زبيد من جميع جهاتها. وفكرة استخدام السلالم لم تكن مستخدمة لدى اليمنيين، بسبب عدم حاجاتهم إليها لكثرة جبالهم المحصنة طبيعياً، والتي لا ينفع معها استخدام السلالم. لأن اليمنيين كانوا غالباً ما يستخدمون التحصن في الجبال وليس في المدن. وكانت من عادتهم إذا أرادوا السيطرة على هذه الحصون، استخدام الحصار لفترة طويلة حتى ينفذ ما في الحصون من مؤن، بعدها يعلن ما بها من أفراد الاستسلام. وهذا الحصار الطويل لا يتناسب مع الأيوبيين، لأن ذلك يكلفهم الوقت الطويل والإنفاق الكثير، وهو ما لم يرغب به الأيوبيون، إضافة إلى ذلك فإن الجيش الأيوبي كانت لديه المقدرة القتالية العالية في المناطق المفتوحة أكثر من المناطق الجبلية، وزبيد من المناطق المفتوحة، فكان من السهل عليهم فتحها. لذلك كله حقق الأيوبيون النصر على ابن مهدي.

وعن مصير ابن مهدي في زبيد، فقد اختلفت أقوال المؤرخين في ذلك، فابن حاتم يورد أن تورانشاه ألقى القبض على عبد النبي ابن مهدي وإخوته[2]. أما عبد المجيد فيقول: (وقبض على عبد النبي ابن مهدي ومات في أسره، وقيل

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 16، 17، الخزرجي: العسجد، ص: 147، 148، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 69، محمد عبد العال، المرجع السابق، ص: 74، 75، ابن الأثير: الكامل، 11/ 397.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 16، 17 .

شنقه)[1]. بينما يذكر الخزرجي وابن الديبع عدة روايات، فقالا: (وقاتله عبد النبي قتالاً شديداً، فقتل في الحرب وقيل أسر ثم قتل بعد الأسر وقيل لم يزل في الأسر حتى مات)[2]. وفي غاية الأماني واللطائف قالا: (إن عبد النبي قتل في الحرب وأسر إخوته)[3]. أما الحنبلي فقد ذكر أن عبد النبي ابن مهدي طلب الأمان من شمس الدولة تورانشاه بعد انهزامه وعودته إلى زبيد، فأمنه[4].

وبالنسبة لتحديد الزمن الذي قتل فيه بنو مهدي، فقد ذكر الجندي، أن تورانشاه شنق عبد النبي وإخوته وياسر بن بلال ومولاه (مفتاح) أو مصباح السدوسي في رجب سنة 571هـ/ 1176م. وذلك عندما أراد تورانشاه ترك اليمن والذهاب إلى الشام[5]. بينما ذكر ابن حاتم أن قتل عبد النبي ابن مهدي وإخوته أحمد ويحيى كان يوم الثلاثاء السابع من رجب سنة 570هـ/ 1175م في زبيد، بأمر من تورانشاه أثناء ما كان في ذي جبلة لنائبه على زبيد، بسبب خلاف حدث في تهامة ضد الأيوبيين[6].

ومن خلال ما تقدم يتضح لنا أنه نتيجة للخلاف المذهبي بين الأيوبيين وبني مهدي، فقد أدرك عبد النبي ابن مهدي أنه سيقتل حتى ولو استسلم أو أسر، لذلك قاتل قتالاً شديداً حتى قتل. أما أخواه أحمد ويحيى فقد أسرا لأنهما لم يكونا على رأس الدولة. ثم قتلا في 7 رجب سنة 570هـ/ 1175م.

مراحل سيطرة تورانشاه على اليمن:

أ ـ **المرحلة الأولى**: في هذه المرحلة توجه شمس الدولة تورانشاه نحو عدة مدن في اليمن للسيطرة عليها مثل مدينة تعز، والجند، وعدن، وذي جبلة. فضلاً عن السيطرة على ذمار، ومروراً على صنعاء، ثم عودته إلى زبيد، نوضح هذه المرحلة بالتالي:

السيطرة على تعز والجند:

عندما أراد تورانشاه الخروج من زبيد للسيطرة على بقية مناطق اليمن، ولّى عليها أحد الأمراء والقادة الأيوبيين هو المبارك بن منقذ، وأوكل إليه أمر تعذيب

(1) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 129.
(2) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 376، الخزرجي: العسجد، ص: 147.
(3) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 321، الكبسي: اللطائف، ص: 54.
(4) محمد كريم: عدن، ص: 220، 221، عن الحنبلي: شفاء القلوب، ص: 52.
(5) الجندي: السلوك، 2/ 522.
(6) ابن حاتم: السمط، ص: 20.

بني مهدي واستخلاص الأموال منهم[1]. واتجه تورانشاه في مطلع ذي القعدة نحو تعز. وكانت تابعة لابن مهدي، فسيطر عليها دون مقاومة من أحد. وذلك بسبب اتجاه حامياتها للتحصن في الجبال المجاورة لها، لخوفهم من الجيش الأيوبي. وبعد ذلك حاول تورانشاه السيطرة على جبل صبر وجبل ذخر (جبل حبشي)، ولكنه لم يتمكن من السيطرة عليهما بسبب مناعة حصونهما وظهور المقاومة بهما من حاميات ابن مهدي، وعدم توفر الوقت الكافي لتورانشاه والجيش الأيوبي لاستمرار فرض الحصار على تلك الحصون، ففضلوا تركها واتجهوا نحو الجند، فسيطروا عليها هي الأخرى بدون حرب[2]. وبذلك امتد سلطان الأيوبيين نحو هذه المناطق.

السيطرة على عدن:

قبل أن يكمل تورانشاه فتح حصون تعز، اتجه اهتمامه نحو القضاء على دولة بني زريع في عدن، فسار إليها. وما أن قارب وصول الجيش الأيوبي إلى عدن حتى خرج لمحاربتهم جيش الدولة الزريعية بقيادة وزيرهم ونائبهم على عدن ياسر بن بلال المحمدي. فدارت معركة كبيرة بين الطرفين أسفرت عن هزيمة جيش بني زريع، ومحاولتهم الانسحاب إلى عدن للتحصن بها، ولكن تورانشاه فوَّت عليهم تلك الفرصة، فأثناء ما كان القتال يدور بين الطرفين خارج عدن، أرسل بعضاً من جيشه للسيطرة عليها، فلم يتمكن الجيش الزريعي من العودة إلى عدن للتحصن بها، لأنهم وجدوا الجيش الأيوبي قد سبقهم في دخولها. كما وجدوا تورانشاه وجيشه يتابع اللحاق بهم إلى عدن، فاستسلم بعضهم ووقع البعض الآخر في الأسر، أو اتجهوا للهرب. بذلك أصبح سهلاً على الجيش الأيوبي دخول عدن، فدخلوها في يوم الجمعة من شهر ذي القعدة سنة 569هـ/ يونيو 1174م. وخلال دخولهم تعرضت المدينة للنهب من قبلهم[3]. ولكن تورانشاه عمل على منعهم من نهب المدينة وقال لهم: (ما جئنا لنخرب البلاد، وإنما جئنا لنملكها ونعمرها وننتفع بدخلها)[4]. وبدخول الجيش الأيوبي عدن، انتهت الدولة الزريعية

---

(1) الجندي: السلوك، 2/ 520.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 17، الخزرجي: العسجد، ص: 148.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 17، الخزرجي: العسجد، ص: 148، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 376، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 69، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 87، مسفر: المرجع السابق، ص: 77، يوضح بامخرمة، ص: 69، أن تورانشاه دخل عدن في يوم 18 ذي القعدة أو 19 منها.

(4) ابن الأثير: الكامل، 11/ 397، محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 88، جميل حرب، المرجع السابق، ص: 100، عن ابن خلدون، 5/ 287، كريم: عدن، ص: 221.

بها. أما بالنسبة لياسر بن بلال، فقد تمكن من الهرب مع مولاه مفتاح السدوسي إلى الدملوة وأقاما بها عدة أيام والسبب في ذلك هو أن الوزير ياسر بن بلال والسدوسي هرّبًا أولاد عمران الزريعي إلى الدملوة للتحصن بها، ثم اتجها متنكرين إلى عدينة في تعز، فوشى بهما أحد الأفراد إلى شمس الدولة تورانشاه، فألقى القبض عليهما ثم قتلهما في رجب سنة 571هـ/ يناير 1176م[1].

والذي ساعد تورانشاه الأيوبي على الانتصار على بني زريع، خروجهم للقتال خارج عدن، وعدم التحصن بها، فسهل ذلك أن يضع تورانشاه خطة عسكرية تضمن له النصر، وهي إرسال فرقة من جيشه لدخول عدن أثناء ما كان القتال جارياً بين الطرفين. فأربك ذلك جيش بني زريع وأوقعهم في الانهزام. أوضح ذلك ابن الأثير بقوله عن عدن: (من وجهة البر من أمنع البلاد وأحصنها، وصاحبها إنسان اسمه ياسر، فلو أقام ولم يخرج عنها لرجعوا خائبين، وإنما حمله جهله وانقضاء مدته على الخروج إليهم ومباشرة قتالهم، فسار إليهم وقاتلهم، فانهزم ياسر ومن معه، وسبقه جيش شمس الدولة، فدخلوا البلد قبل أهله، فملكوه وأخذوا صاحبه ياسر أسيراً)[2]. وكما هو واضح أن ياسر بن بلال كان يهدف من خروجه لحرب الأيوبيين خارج عدن، هو إتاحة الفرصة له بالهرب إذا ما فشل في صد الأيوبيين، وهذا ما حدث بالفعل. كما ساهم في انتصار الأيوبيين ضعف قوات بني زريع في عدن، فقد حاصرهم بها ابن مهدي عدة أيام قبيل قدوم الأيوبيين، ولم يتمكن بنو زريع من مقاومتهم. ومهما كان السبب فقد تمكن الأيوبيون من تحقيق الانتصار على بني زريع وإنهاء دولتهم.

السيطرة على ذي جبلة:

أقام شمس الدولة تورانشاه الأيوبي في عدن إلى النصف من شهر ذي الحجة[3]. ثم توجه نحو مخلاف جعفر (إب)، فسيطر على ذي جبلة وتسلم حصن التعكر فيها سلماً دون قتال، وكان تابعاً لابن مهدي. ثم بايعه أهل ذي جبلة في يوم الثلاثاء، الثالث والعشرين من ذي الحجة آخر سنة 569هـ/ يوليو 1174م[4].

---

(1) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 319، 320، كريم: عدن، ص: 222.

(2) ابن الأثير: الكامل، ص: 11/ 397، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 87، 88، مسفر: المرجع السابق، ص: 77، 78، جميل حرب: المرجع السابق، ص: 100، كريم: عدن، ص: 222.

(3) الخزرجي: العسجد، ص: 150.

(4) ابن حاتم: السمط، ص: 17، الخزرجي: العسجد، ص: 150، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 89، مسفر: المرجع السابق، ص: 79.

واستقر بها عدة أيام، ثم سار نحو اليمن الأعلى. ويرجع السبب في سيطرة الأيوبيين على ذي جبلة بدون قتال إلى ميل أهلها إلى المسالمة، ومخالفتهم لمذهب ابن مهدي، وضعف قواتهم. فضلاً عن انتهاء دولة بني مهدي التابعين لها.

السيطرة على ذمار:

استمرت رحلة شمس الدولة تورانشاه نحو فتح المناطق اليمنية، فسار نحو (ذمار) عبر طريق نقيل صيد (سمارة). ولما وصلوا في أول المحرم سنة 570هـ/ أغسطس 1174م إلى حصن (ذروان) شرق ذمار، وكان تابعاً للسلطان عبد اللّٰه بن يحيى الجنبي. دارت معركة بين الطرفين، فلما رأى السلطان عبد اللّٰه الجنبي عدم مقدرته على مقاومة الأيوبيين، صالح تورانشاه وبذل له الطاعة. بعد ذلك توجه الأيوبيون نحو حصن (المصنعة) قرب ذمار، وكان تابعاً للشيخ محمد بن زيد اليعبري الجنبي، فسيطروا عليه دون قتال[1]. ثم استمر الأيوبيون في السير نحو (ذمار)، فلما قربوا منها اعترضتهم قبيلة (جنب) في موضع يسمى (الرخمة) شرق (ذمار)، فنشبت معركة كبيرة بين الطرفين في يوم الخميس العاشر من المحرم سنة (570هـ/ أغسطس 1174م، أسفرت عن قتل خمسة وستين رجلاً من الأيوبيين وعدد من القبائل، وانتهت المعركة بتمكن الأيوبيين من دخول (ذمار) والسيطرة عليها[2].

وما كادت تمضي عدة أيام على سيطرة الأيوبيين على (ذمار) حتى أسرعوا في الاتجاه نحو صنعاء. وعندما خرجوا من ذمار اعترضتهم خارجها مرة أخرى قبائل (جنب). وفي هذه المرة حرض شمس الدولة تورانشاه جنده على القتال وقال لهم: (أين أنتم من ديار مصر؟ قاتلوا على أنفسكم وإلا أكلتكم العرب). فقاتلوا قتالاً شديداً. انتهى بهزيمة قبائل جنب وقتل سبعمائة من رجالهم وغنيمة ما معهم من السلاح والخيول، وهروب من بقي من جنب، فلحق بهم الأيوبيون حتى ألجأوهم إلى حصن (هران) شمال ذمار[3]، ثم تركوهم وذهبوا إلى صنعاء.

ومن الملاحظ أن قبائل جنب لم يستخدموا حرب المواجهة لعدم مقدرتهم على قتال الجيش الأيوبي، ولكنهم استخدموا في معاركهم الهجمات المتعددة

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 17، الخزرجي: العسجد، ص: 150.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 17، الخزرجي: العسجد، ص: 150، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 89، 90، مسفر: المرجع السابق، ص: 79، 80.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 17، 18، الخزرجي: العسجد، ص: 150، 151، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 378، محمد عبد العال، المرجع السابق، ص: 80، مسفر: المرجع السابق، ص: 90، 91، عصام الفقي: اليمن في ظل الإسلام، ص: 208.

التي يكثر فيها الكر والفر، وكانوا يهاجمون الأيوبيين من مناطقهم المحصنة ثم يعودون إليها. وكان هجومهم يهدف إلى تكبيد الأيوبيين الخسائر الكثيرة في الأرواح والمعدات، حتى لا يفكرون في الاستقرار في بلادهم. ومن الملاحظ أيضاً أن قبائل جنب لم يهاجموا الأيوبيين أثناء ما كانوا معسكرين في ذمار، ولكنهم هاجموهم أثناء ما كانوا سائرين في الطريق. ففي المرة الأولى حدث الهجوم عليهم وهم قادمون إلى ذمار قبيل دخولها، وفي المرة الثانية حدث الهجوم عليهم وهم خارجون منها. وذلك لأن الجيش الأيوبي كان غير مستعد للقتال، وغير متحصن، ونتيجة لذلك لم يحاول تورانشاه العمل على ضم ذمار لسلطانه، فقد خرج منها دون أن يترك بها جيشاً للسيطرة عليها. وبالنسبة لحرب قبائل (جنب) للأيوبيين، فذلك يرجع إلى محاولة القبائل التمسك بنظامها القبلي بالاحتفاظ بسلطانها على مناطقها.

السير نحو صنعاء:

واصل شمس الدولة تورانشاه سيره نحو صنعاء فوصل إلى منطقة (الجبوب) قرب مدينة صنعاء من شرقها الجنوبي يوم الجمعة السابع عشر من شهر محرم سنة 570هـ/ أغسطس 1174م. فعسكر بها لمدة ثلاثة أيام. ومن ناحية علي بن حاتم حاكم صنعاء ومخاليفها، فإنه ما أن سمع بقدوم الأيوبيين نحوه حتى أدرك أنه غير قادر على محاربتهم، فأسرع هو وأخوه بشر بمن معهما للتحصن في حصن براش المطل على صنعاء من شرقها[1]. وذلك بعد أن أمر بهدم سور صنعاء حتى لا يفكر الأيوبيون الاستقرار بها. لأن إعادة تحصين أسوارها سيكلف الأيوبيين الوقت الطويل والمال الكثير، وخاصةً في ظل استمرار مقاومتهم من بني حاتم، وهذا سيشغل الأيوبيين عن مواصلة فتح بقية اليمن. أما أهل صنعاء فرغم خوف الكثير منهم من الأيوبيين وهروبهم. فإن جماعة من مشايخهم خرجوا إلى شمس الدولة لطلب الأمان منه وعدم محاربتهم. فلما وصلوا إليه أمر بإحضار جماعة من رؤسائهم لمحادثتهم في أمور الدين، وذلك لكي يتعرف على مذهبهم الديني وهل هم من أهل المذاهب المعتدلة في الإسلام أم من الغلاة. وخاصة أن حكامهم بنو حاتم كانوا من أتباع الصليحيين الإسماعيلية. وبعد أن منح شمس الدولة تورانشاه الأمان لأهل صنعاء دخلها،

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 18، الخزرجي: العسجد، ص: 151، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 379، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 91، 92، مسفر: المرجع السابق، ص: 80، جميل حرب: المرجع السابق، ص: 101، عصام الفقي: المرجع السابق، ص: 209.

وأقام بها عدة أيام[1]. ثم تركها بسبب عدم توفر الميرة، وسار نحو تهامة[2].

العودة إلى زبيد:

سار تورانشاه نحو (زبيد) عبر طريق السود فتعرضت مؤخرة جيشه لهجمات قبائل بني شهاب، وسنحان، وقبائل منطقة برع، أثناء سيره في الطريق، ونهبت بعض أمواله وسلاحه، وبالرغم من ذلك فلم يحاول تورانشاه مقاتلتهم، بل استمر في سيره نحو زبيد حتى وصلها[3].

ومن الملاحظ أن شمس الدولة تورانشاه في رحلته الأولى حول اليمن، عمل على السيطرة على المدن فقط، مثل مدينة زبيد، وتعز، والجند، وعدن، وذي جبلة، وإنهاء من بهذه المدن من الحكام مثل دولة بني مهدي ودولة بني زريع، أما الحصون فقد تركها لرحلة أخرى.

ب ـ **المرحلة الثانية**: اتجه الجيش الأيوبي في هذه المرحلة إلى القضاء على أتباع دولة بني مهدي، وأتباع دولة بني زريع المتمركزين في حصون اليمن الأسفل، والتي لم تتح لهم الفرصة في السيطرة عليها في المرحلة الأولى.

فبعد أن أقام شمس الدولة تورانشاه في (زبيد) إلى شهر جمادى الأولى سنة 570هـ/ ديسمبر 1174م. عزم على الاتجاه نحو (الجند)، فلما وصلها أسرع إليها متولي حصن (صَبِر) من قبل ابن مهدي، معلناً ولاءه وطاعته لشمس الدولة تورانشاه وتسليمه الحصن له. فكان ذلك فرصة لشمس الدولة أن يتسلم الحصن دون قتال. بعد ذلك توجه الأيوبيون نحو الحصون الواقعة غرب مدينة تعز، وكانت تابعة لبني مهدي أيضاً. فسيطروا على حصني (بادِية وشِرْيَاق). أما حصن عزان ذخر (جبل حبشي) الذي كان متولياً عليه علي بن الحجاج صهر عبد النبي ابن مهدي فقد طلب مصالحة الأيوبيين حينما حاصروه، على أن يسلم لهم الحصن وما بحوزته من أموال لابن مهدي، التي كانت تقدر بعشرة آلاف دينار ذهب، وأن يتركوا سبيله ومن معه، فقبل شمس الدولة ذلك، وتسلم الحصن منه[4]. ويتضح

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 151، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 131، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 379، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 92، مسفر: المرجع السابق، ص: 80، جميل حرب: المرجع السابق، ص: 101، عصام الفقي: المرجع السابق: 209.

(2) أبو شامة: الروضتين، 1/ 554، مسفر: الحياة السياسية، ص: 81.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 19، الخزرجي: العسجد، ص: 151، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 379، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 93، عصام الفقي: المرجع السابق، ص: 209.

(4) ابن حاتم: السمط، ص: 19، الخزرجي: العسجد، ص: 151، 152، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 94.

مما سبق أن شمس الدولة استولى على حصون بني مهدي في صبر وجبل حبشي دون قتال. وذلك لعدم تمكن حاميات هذه الحصون من مقاومة الجيش الأيوبي أو تحمل الحصار لفترة طويلة. وذلك لتفوق القوى الأيوبية عليهم، والتي تمكنت من تحقيق الانتصار على العديد من القوى اليمنية والسيطرة على مدنهم. لذلك سرعان ما أعلن أصحاب تلك الحصون استسلامهم.

بعد ذلك توجه شمس الدولة تورانشاه نحو منطقة المعافر، للسيطرة على الحصون التي كانت تابعة لبني زريع. فاستولى على حصن (يُمين) بالقوة. وكان متولياً عليه الأمير منصور بن محمد بن سبأ الزريعي، والذي انهزم بسبب هروب الجيش المتمركز في الحصن وتخاذل رجال الديوان عن مناصرته، كذلك استولى الأيوبيون على حصن (مُنيف) من واليه أبي الغيث ابن سامر، كما استولوا على حصن (السمدان) من واليه المعين من قبل الزريعيين[1]. وبالرغم من المقاومة الضعيفة التي حدثت من قبل الزريعيين في المعافر، إلا أنهم لم يتمكنوا من الاحتفاظ بحصونهم، وذلك لانتهاء دولتهم في عدن. وعدم مقدرتهم مساعدة بعضهم البعض، لذلك سرعان ما سقطت حصونهم تحت نفوذ الأيوبيين. وبذلك يكون شمس الدولة قد سيطر على عدة حصون هامة في المعافر وتعز، عدا حصني السوا والدملوة.

حصار الدملوة:

وبالنسبة لحصن الدملوة بالصلو، فقد حاول شمس الدولة الاستيلاء عليه. وكان متمركزاً به أولاد الداعي عمران الزريعي تحت وصاية جوهر المعظمي، فحاصره شمس الدولة فترة قصيرة، ثم ترك حصاره نظراً لصعوبة السيطرة عليه لإحكام تحصينه، وارتفاعه، لأن المجانيق التي نصبها لم تبلغ إليه واحتياجه إلى وقت طويل لمحاصرته، فضلاً عن قبول جوهر إعطائهم الأراضي الواقعة تحت الحصن، لذلك تركه شمس الدولة وتوجه إلى ذي جبلة[2].

وأثناء ما كان شمس الدولة تورانشاه في ذي جبلة، وصله خبر من الأيوبيين في (زبيد) مفاده أن خلافاً وقع عليهم في تهامة، من قبل بعض أهلها المناصرين لبني مهدي، فأمر بقتل أخوي عبد النبي ابن مهدي، وهما أحمد ويحيى، فقتلا في رجب سنة 570هـ/ فبراير 1175م. واستمر شمس الدولة في الإقامة في ذي جبلة

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 20، الخزرجي: العسجد، ص: 152.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 20، الخزرجي: العسجد، ص: 152، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 94، مسفر: المرجع السابق، ص: 81.

حتى الشهر التالي له وهو شهر شعبان من نفس السنة، ثم عاد إلى زبيد[1].

وما أن تمكن شمس الدولة تورانشاه من السيطرة على اليمن الأسفل وتهامة، وقضائه على دولة بني مهدي، ودولة بني زريع حتى لقب (بالملك المعظم). وخطب له في هذه المناطق كما خطب للخليفة المستضيء بأمر الله العباسي[2]. رمزاً على خضوعهم لنفوذ الأيوبيين ثم العباسيين.

عاصمة شمس الدولة:

ومن الملاحظ أن شمس الدولة حاول خلال رحلتيه في اليمن، البحث عن مركز رئيسي لإقامة الأيوبيين فاختار (تعز) لتكون عاصمة لهم. فعمل على اختطاطها، واتجه للإقامة بها سنة 570هـ/ 1175م، حتى شهر رجب سنة 571هـ/ 1176م. والجدير بالذكر أن اختيار شمس الدولة لتعز لتكون عاصمة للأيوبيين لها عدة مسببات، منها ميل أهلها إلى المسالمة، فهم لم يقاتلوا الأيوبيين، لانتمائهم لمذهب أهل السُنَّة الذي يعتنقه الأيوبيون. ومنها كذلك تكلفة تورانشاه الأطباء أن يختاروا له: (مكاناً صحيح الهواء ليتخذ فيه سكناً، فوقع اختيارهم على مكان تعز، فاختط به المدينة ونزل بها)[3].

أما عدم اختيار الأيوبيين لكل من زبيد، وعدن، وذي جبلة، وذمار، وصنعاء عاصمة لهم، فقد كان له مسببات، منها: أن زبيد لا تناسب الأيوبيين كعاصمة لأنهم استوخموا بها، بسبب حرها الشديد وارتفاع الرطوبة بها (أو رداءة المناخ بها)، لأن الأيوبيين اعتادوا على الحياة في المناطق المعتدلة أو المائلة إلى البرودة. كذلك اتصفت عدن بالحر الشديد كزبيد، فضلاً عن أنها كانت في أطراف اليمن، ولا يُمَكِّن ذلك الأيوبيين الأشراف على السيطرة على اليمن كله. أما ذي جبلة فقد بقيت عدة حصون مجاورة لها تحت نفوذ بقايا بني مهدي وبقايا بني زريع، وهذا الوضع سيجعل الأيوبيين غير مستقرين. وبالنسبة لذمار وصنعاء، فقد ظهر بهما مقاومة شديدة ضد الأيوبيين، وظل زعماؤها متمركزين في حصونهم. وهذه الحالة ستجعل الأيوبيين في خطورة مستمرة، لذلك لم يعملوا على اختيار أحد هذه المدن عاصمة لهم، وفضلوا اختيار تعز.

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 20، الخزرجي: العسجد، ص: 152.

(2) جميل حرب: الحجاز واليمن، ص: 101، 102، عن المقريزي: السلوك، 1/1/ 53، مسفر: المرجع السابق، ص: 82.

(3) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ5، ص: 647، جميل حرب: الحجاز واليمن، ص: 202، كريم: عدن، ص: 224.

أسباب انتصار شمس الدولة:

والذي ساعد شمس الدولة تورانشاه على الانتصار في اليمن عدة أسباب منها: مقدرات الجيش الأيوبي القتالية من حيث التدريب والانضباط والنظام، واصطحاب المعدات والآلات الحربية مثل المجانيق والسلالم وغيرها. بعكس دويلات اليمن، التي كان أكثر اعتمادها في القتال على الجيش غير المنظم ـ وهم القبائل ـ ومنها انقسام اليمن إلى عدة دويلات مختلفة مذهبياً ومتصارعة سياسياً. فكان بنو مهدي خوارج، وأصحاب المخلاف السليماني سُنَّة، وحكام عدن وصنعاء إسماعيلية. فضلاً عن دخول بني مهدي في صراع مستمر مع هذه الدويلات. ومنها كذلك تعاون أهل السُنَّة اليمنيين مع الأيوبيين ضد بني مهدي وبني زريع مثل تعاون أصحاب المخلاف السليمان.

عودة شمس الدولة إلى الشام:

بعد أن تمكن شمس الدولة تورانشاه من السيطرة على الكثير من مناطق اليمن، استقر بها سنة كاملة[1]. من شعبان سنة 570هـ/ مارس 1175م. دون أن يتجه لمقاتلة أي قوى بها، وذلك بسبب تركه للكثير من جنده حاميات في كل من زبيد، وتعز، وعدن، وذي جبلة. أما بالنسبة لإقامته باليمن منذ قدومه من مصر، فقد استغرقت سنتين من رجب 569هـ/ أبريل 1174م حتى رجب سنة 571هـ/ يناير 1176م[2]. بعد تلك الفترة فكَّر شمس الدولة في الاتجاه نحو الشام. وحول عودته ذكرت المصادر عدة أسباب منها الآتي:

السبب الأول: عدم رغبة شمس الدولة الإقامة في اليمن. وضح ذلك الخزرجي بقوله: (وضاقت عليه اليمن ولم تعجبه لأنه تربية الشام وهي كثيرة الخيرات واليمن مجدبة بالنسبة إلى الشام)[3].

السبب الثاني: رغبة شمس الدولة حكم الشام. حكى ذلك الخزرجي بقوله: (وكان قد بلغه خبر وفاة نور الدين محمود بن زنكي واستيلاء أخيه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب على مملكة الشام) فاشتاق إليها[4].

السبب الثالث: اشتياق شمس الدولة لرؤية أخيه صلاح الدين.

---

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 152.
(2) محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 97.
(3) الخزرجي: العسجد، ص: 152.
(4) الخزرجي: العسجد، ص: 152.

السبب الرابع: إصابة جسم شمس الدولة بالمرض والتعب من جو زبيد[1].

والواقع أن رغبة شمس الدولة بالاتجاه نحو الشام، وعدم رغبته في الإقامة باليمن هي الأكثر معقولية، فضلاً عن طمعه في حكم الشام، يؤيد ذلك الشاعر اليمني الأديب العَنَدِي بقصيدة قالها على لسان شمس الدولة نورد منها الأبيات الآتية:

ما الدار إلا دمشق والمنى حلب	والسؤل مصر وفي الزوراء مداري
تلك المنازل لا لحج ولا عدن	ولا زبيد ولا إكثار تعساري
هذا على أن قدر الملك في يمنٍ	عال ولكن من دون مقداري[2]

ومهما يكن من أمر، فإن شمس الدولة تورانشاه كتب إلى أخيه الملك الناصر صلاح الدين يستأذنه الاتجاه نحو الشام. فلما وصل هذا الكتاب إلى صلاح الدين حاول من جهته أن يكتب رسالة إلى أخيه شمس الدولة: (يرغبه في الإقامة في اليمن) ويخبره: (أن اليمن بلد مبارك وهي كثيرة الأموال ومملكتها واسعة)[3]. تجاه ذلك لم يحاول شمس الدولة رفض طلب أخيه ولكنه حاول أن يبرهن لرسول أخيه أن اليمن ليست بها خيرات كثيرة آنذاك. فأمر متولي خزانته أن يحضر له ألف دينار. فلما أحضرها قال لأستاذ داره أمام رسول أخيه: (أرسل لنا بهذا الكيس إلى من يشتري به طبق شمس لوزي (أي مشمش) قال: وأين يوجد هذا حفظك اللّه تعالى؟ فجعل يعدد عليه من الأشياء التي لا توجد في اليمن ذلك الزمن)، فلم يجد من ذلك شيئاً، وقد علل ذلك الخزرجي بقوله: (إنما أراد شمس الدولة إظهار عدم راحته في اليمن) أما عدم وجود تلك الأشياء في اليمن فإن اللّه تعالى، (قد خَصَّ كل أرض بفضيلة). فلما لم يجد شمس الدولة ما طلبه قال: (ليت شعري ماذا أصنع بهذه الأموال إذا لم أنتفع بها فيما أريد). ولما عاد الرسول إلى صلاح الدين وأخبره بذلك الخبر، أذن لأخيه شمس الدولة في الاتجاه نحو الشام[4].

بعد ذلك قرر شمس الدولة السير نحو الشام، فسار إليها من الجند في رجب سنة 571هـ/ يناير 1176م. وأثناء سيره ذلك أمر بشنق ياسر بن بلال وزير بني زريع وعبده مفتاح أو مصباح السدوسي، فَشُنِقَا على باب الخان في زبيد في نفس شهر

---

(1) محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 99، عن المقريزي: الخطط، ص: 60.

(2) الخزرجي: العسجد، ص: 152، 153، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 100، 101، بدلاً عن إكثار تعساري تورد بعض المصادر، أكناف تعشاري وهي بلد.

(3) الخزرجي: العسجد، ص: 153، 154.

(4) الخزرجي: العسجد، ص: 154، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 381.

رجب السالف الذكر[1]. واستمر شمس الدولة في سيره إلى الشام، فوصل إلى أخيه صلاح الدين في شهر رمضان من نفس السنة، وهو محاصر حلب، فاشترك معه في الحصار والسيطرة عليها، ولما عاد صلاح الدين إلى مصر سنة 572هـ/ 1177م ترك أخاه شمس الدولة متولياً على دمشق، فأقام بها سنتين ثم انتقل إلى مصر فتولى الإسكندرية حتى وفاته في بداية سنة 576هـ/ 1180م[2].

ومن أهم النتائج التي حققها شمس الدولة تورانشاه في فتحه لليمن هي قضاؤه على دولة بني مهدي في تهامة ومذهبها الخارجي. ودولة بني زريع في عدن ومذهبها الإسماعيلي. وضم معظم اليمن الأسفل وتهامة إلى سلطان الأيوبيين والخلافة العباسية، وسيادة مذهبها السني في تلك المناطق. إضافة إلى ذلك تأمين الطريق التجاري البحري الواصل من اليمن إلى مصر، وحماية الأماكن المقدسة (مكة والمدينة) من هجمات دويلات اليمن الشيعية والخارجية.

النواب:

وعلى الرغم من عودة شمس الدولة سريعاً من اليمن. إلا أن الوجود الأيوبي لم يأت إلى اليمن لينتهي سريعاً كما فعل شمس الدولة. بل أتى ليبقى فترة أطول ويجعل اليمن خاضعة لنفوذهم. فعندما غادر شمس الدولة تورانشاه اليمن استخلف على المناطق التي سيطر عليها الأيوبيون أربعة نوَّابٍ له، فولَّى على (زبيد) وما يليها من التهائم: أبا الميمون مبارك بن منقذ، وولَّى على (عدن) وما يتبعها: عثمان بن علي الزنجيلي، وولَّى على (تعز والجند) وأعمالها: ياقوت التعزي، وولَّى على (ذي جبلة) ومخلاف جعفر ونواحيها: مظفر الدين قايماز[3].

وأثناء ولاية مبارك بن منقذ لزبيد وأعمالها صادف ظهور أحد الصوفية فيها، يسمى مبارك بن خلف. فمال إليه كثير من الناس، والتفوا حوله، فخشي ابن منقذ أن يفعل هذا الصوفي مثل ما فعل ابن مهدي في تكوين دولته، فقتله. ومن أهم

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 150، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 381.

(2) الخزرجي: العسجد، ص: 156، أورد ابن الديبع في تاريخ مدينة زبيد، ص: 70 أن شمس الدولة تورانشاه توفي في صفر سنة 576هـ، بينما أورد الجندي في السلوك، 2/ 523، أنه توفي في سلخ المحرم من نفس السنة السابقة الذكر.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 20، 21، الخزرجي: العسجد، ص: 156، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 131، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 70، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 326، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 103، كريم: عدن، ص: 224، 225، الزنجيلي يسمى عند ابن حاتم، ص: 23، السنجاري، وعند آخرين الزنجبيلي.

أعمال ابن منقذ هذا، أنه قام بهدم جامع ابن مهدي، وبناء مقدمة جامع زبيد القديم، وهو ما يسمى بجامع الحبشة أو جامع بني نجاح[1].

ولم يمكث مبارك بن منقذ طويلاً في زبيد بعد خروج شمس الدولة منها، بسبب إصابته بالمرض وعدم استطابته البقاء في اليمن[2]. لذلك طلب الإذن من صلاح الدين وأخيه شمس الدولة بالعودة إلى مصر فأذنا له[3]. وسار إلى مصر بما معه من الأموال التي غنمها من تهامة. بعد أن ولَّى على زبيد أخاه خطاب أو حطان بن منقذ[4]. وكانت مغادرته لها سنة 574هـ/ 1179م. واستمر مبارك بن منقذ في خدمة شمس الدولة في الإسكندرية إلى أن مات شمس الدولة، بعدها توجه إلى أخيه صلاح الدين في القاهرة. وفيها دبرت له مكيدة أدت إلى مصادرة ما معه من الأموال من قبل صلاح الدين، محتجاً عليه بمصادرته لأموال بني مهدي في تهامة[5]. وتوفي مبارك بن منقذ في شهر رمضان سنة 587هـ/ سبتمبر 1191م[6].

وبالنسبة لعثمان الزنجيلي الذي تولى (عدن) وأعمالها منذ سنة 570هـ/ 1174م حتى سنة 579هـ/ 1183م[7]. فقد عمل على الاستيلاء على حضرموت التي كانت قد نشأت فيها عدة أسر حاكمة، هم آل راشد في منطقة تريم، وكانوا على مذهب الإمام الشافعي وبنو الدغار في شبام. وآل إقبال أو آل فارس في الشحر[8]، فجهز من عدن سنة 575هـ/ 1180م جيشاً كبيراً من الأيوبيين واليمنيين المناصرين له. وساروا في سبع سفن حربية إلى أن وصلوا إلى الشحر، فاستولوا عليها من آل فارس بعد هروبهم منها. بعد ذلك تابع الجيش الأيوبي سيره نحو آل راشد في تريم. وكان حاكمها آنذاك شجعنة بن راشد، قد عمل على الاستعانة لمقاتلة الأيوبيين بأبناء عمومته آل الدغار أمراء شبام، فأعانوه والتقوا جميعاً بالأيوبيين في غيل باوزير قرب تريم. فدارت بها عدة مناوشات قتالية أسفرت عن هزيمة أهل

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 157، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 108.
(2) ابن حاتم: السمط، ص: 22.
(3) الخزرجي: العسجد، ص: 157، ابن خلدون: جـ5/ 648.
(4) ابن حاتم: السمط، ص: 22، الخزرجي: العسجد، ص: 157، بعض المصادر تسميه خطاب والبعض الآخر حطان.
(5) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، 5/ 648، الخزرجي: العسجد، ص: 157، 158، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 108.
(6) الخزرجي: العسجد، ص: 156.
(7) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 204.
(8) كريم: عدن، ص: 226، الشاطبي: أدوار التاريخ الحضرمي، ص: 165، 171.

حضرموت، وإلقاء القبض على راشد بن شجعنة وأبي الرشيد أحمد، ودخول الأيوبيين تريم في ذي الحجة من سنة 575هـ/ أبريل 1180م، والسيطرة عليها[1].

وبعد سيطرة الأيوبيين على (تريم) أخذوا عدة رهائن من آل راشد وسيروهم إلى عدن. منهم عبد الله بن راشد وأخوه أحمد بن راشد وابن أخيه أبا أحمد بن شجعنة[2]. ومن الواضح أن الهدف من أخذ الرهائن هو إجبار أهل حضرموت على طاعتهم وعدم الخروج عليهم.

وبالرغم من ذلك فإن أهل حضرموت لم يقبلوا بالحكم الأيوبي لبلادهم. ففي المحرم سنة 576هـ/ مايو 1180م، أعلنوا العصيان والخروج عن الطاعة. فأرسل إليهم عثمان الزنجيلي جمعاً من الجيش الأيوبي بقيادة أخيه سويد، فساروا إليهم براً عبر طريق أحور، وبصحبتهم راشد بن شجعنة وأبو الرشيد. ولما وصلوا إلى (الأسعا) التقوا بشجعنة بن راشد، وساروا إلى أن تمكنوا من دخول تريم في ربيع الآخر من نفس سنة 576هـ/ أغسطس 1180م. وخلال دخول الأيوبيين هذه المرة أقدموا على قتل الكثير من علماء وفقهاء وقراء تريم، منهم يحيى وأخوه أحمد ابني سالم وأحمد أكدر والفقيه علي بن أحمد بن بكير، والفقيه المقرئ أبو بكر بن بكير، كما قتلوا عدداً كبيراً من الصالحين[3]، منهم جمع كبير أهل الدومتين بحضرموت، أدت هذه الحملة إلى تمكن الأيوبيين من السيطرة على حضرموت كلها[4].

ومع ذلك فإن أهل حضرموت لم يستكينوا للأيوبيين، فقد خرجوا عليهم مرة أخرى في شوال سنة 576هـ/ فبراير 1181م بقيادة عبد الباقي بن أحمد الدغار أمير شبام. والذي اتجه إلى تريم وحاصر الأيوبيين فيها. وكما يبدو أن هذا الحصار أسفر عن المصالحة بين الأيوبيين وحكام حضرموت، لذلك أطلق الأيوبيون سراح شجعنة بن راشد وأخيه عبد الله من عدن في أواخر سنة 576هـ/ 1181م، وفي المحرم من سنة 577هـ/ مايو 1181م تمكنا من إعادة سلطانهما على تريم. كما تمكن آل فارس من استعادة سلطانهم على الشحر. فضلاً عن استعادة آل الدغار

---

(1) سالم بن محمد الكندي: تاريخ حضرموت، تحقيق عبد الله الحبشي، ط1، 1991م ص: 70، 71، صلاح البكري: تاريخ حضرموت السياسي، مطبعة البابي الحلبي، بمصر، ط2، 1956م، ص: 81، سعيد عوض باوزير: معالم تاريخ الجزيرة العربية، الناشر مؤسسة الصبان، ط2، 1966م، ص: 274، كريم: عدن، ص: 227، 228.

(2) سالم الكندي: تاريخ حضرموت، ص: 71، البكري: تاريخ حضرموت، ص: 81، كريم: عدن، ص: 227، 228.

(3) سالم الكندي: تاريخ حضرموت، ص: 71، كريم: عدن، ص: 299، 230.

(4) ابن حاتم: السمط، ص: 23.

لحكمهم في شبام. وبذلك أعادت الأسر الثلاث لسلطانها في حضرموت (آل فارس في الشحر، وآل راشد في تريم، وآل الدغار في شبام). وبالنسبة لأبي أحمد بن شجعنة فقد أطلق سراحه في سنة 587هـ/ 1191م[1].

استمر نواب شمس الدولة تورانشاه على اليمن، يبعثون له أموال اليمن إلى الشام ثم إلى الإسكندرية إلى أن توفي سنة 576هـ/ 1880م[2]. بعد ذلك استقل كل نائب بما تحت يديه من أعمال وادَّعى كل واحد منهم الملك لنفسه وضرب كل واحد منهم العملة باسمه وحرم على أهل بلده أن يتعاملوا بغيرها عدا مظفر الدين قايماز[3].

ولما رأى صلاح الدين الأيوبي استقلال كل نائب في اليمن بما تحت يديه من مناطق وصراعهم، أدرك أنه من الواجب عليه توحيد اليمن تحت قائد واحد. واستمرار تبعيتها للأيوبيين. لذلك أرسل صلاح الدين والي القاهرة صارم الدين خُطُلبا (مطلوبغا) ومعه حملة كبيرة في جمادى الآخرة سنة 577هـ/ أكتوبر 1181م. وكتب معه إلى الأمراء باليمن يخبرهم أن يسيروا معه لحرب حطان بن منقذ والي زبيد، وأن يتولى عليها خطلبا[4]. وكما يتضح أن حطان خرج عن طاعة الأيوبيين بسبب مصادرة صلاح الدين لأموال أخيه مبارك في القاهرة.

توجه صارم الدين خطلبا بحملته من القاهرة نحو عدن عن طريق البحر، فلما وصلها استقبله الزنجيلي وسار معه نحو زبيد. ولما وصلوا إلى الجند أتاهما ياقوت التعزي من تعز، ومظفر الدين قايماز من ذي جبلة، وساروا جميعاً نحو زبيد. ولما علم حطان بن منقذ بقدومهم رأى أنه غير قادر على مقاومتهم، فترك زبيد وهرب نحو أحد الحصون القريبة من زبيد هو حصن (قوارير)، وأتاح ذلك فرصة لخطلبا

---

(1) سالم الكندي: تاريخ حضرموت، ص: 71.

(2) الخزرجي: العسجد، ص: 156.

(3) الخزرجي: العسجد، ص: 156، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 384، بغية المستفيد، ص: 72، الفضل المزيد، ص: 82، ابن حاتم: السمط، ص: 22.

(4) ابن حاتم: السمط، ص: 22، 23، الخزرجي: العسجد، ص: 158، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 386، بغية المستفيد، ص: 73، المفضل المزيد، ص: 82، 83، ابن عبد المجيد: بهجة، ص: 131، 132، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 112 ـ 114، مسفر: المرجع السابق، ص: 92، جميل: المرجع السابق، ص: 103، كريم: عدن، ص: 133، يذكر الخزرجي، ص: 158، وابن الديبع: في بغية المستفيد، والمفضل المزيد، ص: 82، 83، أن خطلبا دخل اليمن سنة 574هـ/ 1178م بينما يذكر الحجوري أن خطلبا وصل إلى اليمن يوم الاثنين من شهر المحرم سنة 578هـ/ 1187م وكما يبدو أن الأخير تاريخ وفاته، انظر كريم: عدن، ص: 233.

وجيشه دخول زبيد دون قتال. وبعد ذلك عاد كل والي إلى مكان عمله وتولى زبيد خطلبا[1].

حاول حطان بن منقذ أن يكسب ود صارم الدين خطلبا، فظل يراسله من حصنه إلى زبيد، ويرسل له الهدايا إلى أن حصلت الألفة بينهما. وبعد فترة طويلة على سيطرة خطلبا على زبيد مرض وأشرف على الموت أثناء ذلك استدعى حطان بن منقذ وسلم له زبيد وقال له (تسلم البلاد فأنت أولى بها) من عثمان الزنجيلي[2]. وكانت وفاة خطلبا في نفس السنة التي تولّى بها زبيد.

وبعد موت صارم الدين خطلبا، طمع عثمان الزنجيلي في التوسع نحو اليمن الأسفل وتهامة، والسيطرة عليهما باسم الأيوبيين ـ أي أراد أن يكون نائباً عن الأيوبيين على اليمن كله ـ فجهز حملة من عدن واتجه بها إلى الجند، وكانت تابعة لياقوت التعزي، فسيطر عليها. وقعد بها ثمانية أيام، ثم اتجه نحو مخلاف جعفر (إب) فتسلمها من مظفر الدين قايماز سنة 578هـ/ 1192م بعد أسره. وكان قايماز قد عجز عن ضبط الأمور بها، أو أنه فضل المسالمة وعدم المقاومة أو الخروج. بعد ذلك ترك الزنجيلي أخاه عمر بن علي نائباً عنه بذي جبلة[3]. أما مظفر الدين قايماز فقد ظل في الأسر حتى وصول سيف الإسلام طغتكين إلى اليمن[4].

ومن وجهة حطان بن منقذ والي زبيد، فقد قاوم والي عدن عثمان الزنجيلي. لذلك دخل الواليان في صراع عسكري مع بعضهما البعض، وقد بدأ الزنجيلي ذلك الصراع. فجهز حملة عسكرية من عدن وسار بها نحو تهامة. فلما وصل إلى الجند اتفق مع ياقوت التعزي على حرب حطان. فسارا بجيشيهما نحو زبيد، فحاصروها عدة أيام. وأثناء الحصار وضع حطان حيلة لفكه. ففتحوا ليلاً أبواب زبيد المقابلة للقوات المحاصرة لهم. فهجموا عليهم فجأة وهم غير مستعدين للقتال مما أربكهم. أدى ذلك إلى قتل عدة أفراد منهم وسلبهم وغنيمة أموالهم[5]. وانتهت هذه الهجمة بهزيمة الزنجيلي وحلفه وهروبهم نحو تعز. واستمر حطان في مطاردتهم إلى الجند. وفي منطقة مصابيح دارت معركة كبيرة بين الطرفين لعدة

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 22، 23، الخزرجي: العسجد، ص: 158، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 112 ـ 114.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 23.

(3) الخزرجي: العسجد، ص: 157 ـ 159.

(4) الجندي: السلوك، 2/ 524.

(5) ابن حاتم: السمط، ص: 22.

أيام، انتهت بعقد صلح بين الطرفين. يقضي بأن يتخلى الزنجيلي عن منطقة الجند وحصون ذخر (جبل حبشي) وإعادتها إلى ياقوت التعزي. وذلك بهدف تقليص نفوذ الزنجيلي الذي بدأ يتوسع وترك كل نائب يحكم ما تحت يده حسب ما تركهم شمس الدولة. وبعد ذلك عاد حطان بن منقذ إلى زبيد فوصلها في شعبان من سنة 579هـ/ نوفمبر 1183[1]. وهكذا كان صراع نواب تورانشاه في اليمن. وعلى إثر ذلك، قدم إليها سيف الإسلام.

وما يتضح مما ذكر سابقاً أنه على الرغم من اهتمام الأيوبيين بفتح اليمن وضمها إليهم. إلا أن اهتمامهم الأكبر انصبَّ على مصر والشام. وذلك لمحاربة الصليبيين الذين كانوا يتواجدون في فلسطين. والذين كانوا يشكلون خطورة كبيرة على الإسلام والمسلمين في تلك الجهات. وذلك ما لاحظناه من سرعة عودة تورانشاه إلى الشام ثم مصر، بعد الاكتفاء بالقضاء على دويلات اليمن المتعددة، والعمل على ضمها إلى سلطانهم.

كما نجد أيضاً أن أسرة بني أيوب كان لها دور كبير في توحيد الجيش الأيوبي تحت قيادتهم والتزامهم بالطاعة وعدم الخروج عليهم. وذلك ما نجده عندما كان تورانشاه يحكم اليمن. فلما رحل عنها اختلف نوابه وتصارعوا فيما بينهم حول من يحكم اليمن مما يدل على عدم اتفاقهم على اختيار أحدهم. لذلك فكَّر صلاح الدين الأيوبي في إرسال أحد إخوته إلى اليمن لحل ذلك الخلاف. فأرسل أخاه سيف الإسلام طُغْتَكِين الذي سيأتي ذكره فيما يلي.

---

(1) الجندي: السلوك، 2/ 526.

الملك سيف الإسلام
(طُغْتِكِيْن)

أسباب الحملة:

كان أهم سببين دفعا صلاح الدين إلى إرسال أخيه سيف الإسلام نحو اليمن الآتي:

السبب الأول ـ خلاف النواب في اليمن:

ظلت أنظار صلاح الدين متجهة نحو اليمن، فلما رأى عدم اتفاق الأمراء الذين تركهم أخوه شمس الدولة على اليمن. وحدوث فتنة فيما بينهم ومحاربة بعضهم البعض[1]. وكان التنافس شديداً بين حطان أمير زبيد، وعثمان الزنجيلي أمير عدن، الذي أراد أن يكون جميع النواب في اليمن تابعين له. أرسل أخاه سيف الإسلام.

السبب الثاني ـ ظهور الخطر الصليبي على البحر الأحمر:

نتيجة للصراع الديني بين الصليبيين والمسلمين على بيت المقدس، وعدم مقدرتهم مقاومة الأيوبيين في مصر والشام، بدأ الصليبيون يهتمون بالاتجاه نحو البحر الأحمر. ففي سنة 577هـ/ 1181م فكر البرانس (أرناط) صاحب إمارة الكرك (شرق البحر الميت) في الاستيلاء على المدينتين المقدستين (مكة والمدينة)[2]، وتهديد قوافل التجارة وقوافل الحُجاج العابرة البحر الأحمر، والاتصال بمملكة الحبشة المسيحية للاتفاق معها على فرض الحصار على المسلمين من جهة الجنوب. فحمل (أرناط) أخشاباً من (عسقلان) على جمال ـ أستأجرها من العرب ـ إلى ميناء (إيلة) على خليج العقبة[3]. ولما وصلوا إليها سمروا هذه الأخشاب وأنشأوا عدة مراكب لهم[4]. فشكل ذلك خطراً كبيراً على المسلمين.

---

(1) محمد بن جبير: رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، 1964م، ص: 124.
(2) القوصي: تجارة مصر في البحر الأحمر، ص: 153.
(3) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص: 34، القوصي: المرجع السابق، ص: 153.
(4) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص: 34، القوصي: المرجع السابق، ص: 152 ـ 154.

ففي المرة الأولى حاول (أرناط) السير نحو الأماكن المقدسة في الحجاز، وكان هدفه دخول مدينة الرسول ﷺ وإخراج ضريحه الشريف المقدس منه[1]. فلما وصلت حملته إلى تيماء توقفت، بسبب عدم تحملهم شدة الحر وقلة الماء، وكذلك مهاجمة الكرك ونهبها من قبل الأيوبيين بقيادة عز الدين فرخ شاه، فاضطر لذلك (أرناط) العودة إلى الكرك[2].

وفي المرة الثانية، حاول (أرناط) سنة 578هـ/ 1182م الاتجاه نحو البحر الأحمر لمنع وصول التجارة إلى مصر، ومنع وصول الحجيج إلى مكة. عندما كانت قوافل التجارة والحجيج تسلك طريق عيذاب المصرية ومنها إلى جدة ومكة أو اليمن. فأخذت سفن (أرناط) تعبر البحر الأحمر، فأحرقت فيه ستة عشر مركباً للمسلمين[3]. ثم اتجه (أرناط) بحملته البحرية نحو ميناء عيذاب. فلما وصلها نهب منها قافلة تجارية كبيرة، كانت قادمة من قوص إلى عيذاب، وفتك بجميع أفراد القافلة. كذلك نهب مركبين قادمين بتجارة من اليمن، وأيضاً أحرق في عيذاب كثيراً من الأطعمة كانت معدة لميرة مكة والمدينة[4].

وعن محاولة الصليبيين بقيادة (أرناط) منع وصول قوافل الحجاج إلى مكة والمدينة، ومنع وصول تجارة الكارم إلى مصر. أوضح أبو شامة في رسالة بعث بها صلاح الدين إلى الخليفة العباسي تقول: (وأما الطريق القاصد سواحل الحجاز واليمن فقدر (أرناط) أن يمنع الحاج عن حجه، ويحول بينه وبين فجه، وأخذ تجار اليمن وأكارم عدن، ويلم بسواحل الحجاز فيستبيح المحارم ويهيج جزيرة العرب بعظيمة دونها العظائم)[5].

كذلك حاول الصليبيون الوصول إلى مملكة الحبشة المسيحية في جنوب البحر الأحمر للتحالف معها ضد المسلمين في قطع التجارة الواصلة من الهند والصين إلى مصر عبر مدخل البحر الأحمر ومهاجمة اليمن[6].

ونتيجة لذلك الخطر الصليبي أرسل صلاح الدين الأيوبي إلى أخيه العادل يأمره بالاتجاه إلى القضاء على حملة أرناط، فجهز العادل حملة بحرية مكونة من عدة

---

(1) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص: 34، القوصي: المرجع السابق، ص: 154، 155.
(2) القوصي: المرجع السابق، ص: 154.
(3) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص: 34.
(4) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص: 34، القوصي: المرجع السابق، ص: 154.
(5) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، 2/ 37، القوصي: المرجع السابق، ص: 155.
(6) محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 117، جميل حرب: المرجع السابق، ص: 93.

سفن، جهزت من القاهرة والإسكندرية بقيادة حسام الدين لؤلؤ. واتجهت الحملة نحو البحر الأحمر. وظل الأيوبيون يتتبعون الصليبيين حتى تمكنوا من الإيقاع بهم في شوال سنة 578هـ/ فبراير 1183م، وهزيمتهم وإلقاء القبض على كثير منهم وأخذهم أسرى، وتفريقهم في البلدان الإسلامية ليقتلوا فيها عبرة لما فعلوه بالمسلمين. ومن ضمن المدن التي وجهت إليها الأسرى وقتلوا فيها مكة والمدينة[1]. لذلك كله كان اهتمام صلاح الدين لإرسال أخيه سيف الإسلام للاستيلاء على اليمن.

الحملة:

جهز صلاح الدين الأيوبي سنة 579هـ/ 1183م حملة بقيادة أخيه سيف الإسلام طغتكين مكونة من ألف فارس وخمسمائة راجل[2]. فسارت الحملة عبر الطريق التجاري وطريق الحاج المرتادة آنذاك. حيث خرجت من القاهرة عبر النيل إلى (قوص)، ومنها سارت براً إلى (القُصَيْر المصرية) ثم عبرت البحر الأحمر إلى (ينبوع الحجازية)، ومنها سارت حملة طغتكين لزيارة قبر الرسول ﷺ، ثم توجهت الحملة إلى (مكة) لأداء مناسك العمرة، فدخلها طغتكين في الثالث من شهر رمضان سنة 579هـ/ ديسمبر 1183م[3]. فاستقبله فيها أمير مكة مكثر بن فليتة، فخلع عليه طغتكين خلعة حسنة لم ير مثلها. والسبب في سير سيف الإسلام طريقاً مغايراً لطريق أخيه تورانشاه، هو اقتصار الطريق المؤدي إلى المدينة من مصر، وتجنب احتمال هجوم الصليبيين عليه، وخاصة أن عيذاب تعرضت لهجوم من قبلهم. فضلاً عن أن هذه الطريق توصل مباشرة إلى المدينة المنورة وهو الهدف الذي سعى إليه سيف الإسلام بزيارة قبر الرسول ﷺ. وبعد أن مكث طغتكين أسبوعاً في مكة، توجه بجيشه نحو اليمن في العاشر من رمضان من سنة 579هـ/ ديسمبر 1183م[4].

المرحلة السلمية لاستيلاء سيف الإسلام على مدن اليمن:

طغتكين ونواب تورانشاه: ما أن علم حطان بن منقذ بقدوم طغتكين إلى اليمن حتى خرج من زبيد إلى الكدراء لاستقباله[5]. ولما قابله سيف الإسلام

---

(1) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص: 35، القوصي: المرجع السابق، ص: 155، 156، محمد عبد العال، المرجع السابق، ص: 118، 119.

(2) الخزرجي: العسجد، ص: 158، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 133، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 133.

(3) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص: 124.

(4) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص: 127، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 120، كنز الأخبار، ص: 91، يذكر أن طغتكين دخل اليمن سنة 576هـ.

(5) الجندي: السلوك، 2/ 527، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 120.

طغتكين ترجل له وأحسن إليه وأنصفه وشرفه، كما أحسن إلى وجوه عسكره بمنحهم الخِلع، قال له: (أنت لي بمقام الأخ)[1]. أو (أنت أخي بعد أخي)[2]. ثم ساروا جميعاً إلى زبيد، فدخلوها في الثالث عشر من شهر شوال سنة 579هـ/ يناير 1184م[3]. وبذلك تسلم طغتكين زبيد بدون قتال، بعد أن بذل له واليها الطاعة.

ولم يشأ سيف الإسلام أن يظل حطان بن منقذ متولياً لأمر زبيد، رغم ما بذله من طاعة. ولكنه ولاه أحد الحصون المطلة على تهامة وهو حصن (قوارير)[4]. إلا أن حطان أدرك أنه لا يستقيم له أمر مع طغتكين، فطلب منه الإذن بالعودة إلى مصر، فوافق طغتكين على عودته[5].

قام حطان بتجهيز عفشه ومتاعه في نية الاتجاه إلى بلاده، فلما جمع أمواله وأثقاله وتركها تسير طريقها أمامه. دخل على طغتكين ليودعه، فخرج طغتكين معه لوداعه، فلما صارا في (الجنابذ) شمال زبيد، رأى طغتكين أموالاً كثيرة مع حطان، فأمر بالقبض عليه وأخذ جميع ما كان معه من الأموال[6]. وهي عبارة عن سبعين غلافاً زردية مملوءة ذهباً[7] قدّر قيمتها بألف ألف دينار[8] (أي مليون دينار). وكانت هذه الأموال هي ما جمعها حطان من تهامة بعد استقلاله عن الأيوبيين بعد موت تورانشاه سنة 576هـ/ وحتى سنة 579هـ. بعد ذلك أمر طغتكين بتقييد حطان وإرساله مع ياقوت التعزي إلى حصن تعز لسجنه، فبقي بها عدة أيام ثم أمر بقتله، فقتل سراً خنقاً[9].

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 24.

(2) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 133، الجندي: السلوك، 2/ 527.

(3) الخزرجي: العسجد، ص: 159، الجندي: السلوك، 2/ 527، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 133، عبد العال: المرجع السابق، ص: 120، كريم: عدن، ص: 236، الوصابي، ص: 109، والخزرجي، ص: 159، وابن الديبع، ص: 386. يذكرون أن دخول سيف الإسلام طغتكين اليمن أواخر سنة 577هـ بينما يذكر الجندي، 2/ 526، أنه دخل زبيد في شوال 579هـ.

(4) ابن حاتم: السمط، ص: 24.

(5) ابن حاتم: السمط، ص: 24، الجندي: السلوك، 2/ 527.

(6) ابن حاتم: السمط، ص: 24، الخزرجي: العسجد، ص: 159، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 122.

(7) الجندي: السلوك، 2/ 527، الخزرجي: العسجد، ص: 159، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 122، مسفر: المرجع السابق، ص: 96.

(8) محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 122، مسفر: المرجع السابق، ص: 96.

(9) ابن حاتم: السمط، ص: 24، الجندي: السلوك، 2/ 527، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 122.

والواقع أن الثقة قد انعدمت بين بني أيوب وبني منقذ منذ أن صادر صلاح الدين أموال مبارك بن منقذ في القاهرة وعصيان حطان بن منقذ في زبيد، ولم تكن طاعة حطان لطغتكين كافية لإعادة الثقة بينهما، لذلك لم يقنع حطان بتوليه حصن قوارير. كما أن طغتكين لم يقبل بتركه دون عقاب، فكانت الفرصة مناسبة له عندما تجهز حطان للخروج من اليمن بالأموال التي جمعها منها. فألقى القبض عليه وصادر أمواله ثم أمر بقتله. وكان الأجدى بطغتكين أن يأخذ منه الأموال ويتركه يسير بدونها. كما فعل أخوه صلاح الدين بمبارك بن منقذ. إلا أن طغتكين أصرَّ على قتل حطان بسبب خروجه عن طاعة الأيوبيين، وليس بسبب أخذ الأموال.

أما ما كان من ياقوت التعزي فإنه لما سمع بدخول طغتكين اليمن ووصوله إلى زبيد اتجه إليها من تعز واستقبله فيها وسلم له مفاتيح حصن تعز. فأعجب به طغتكين وأكرمه ثم أعاده إلى ولايته، وبعث معه حطان ليسجنه فيها[1]. ومن الواضح أن ياقوت التعزي لم يخرج عن طاعة الأيوبيين، لذلك أبقاه طغتكين على ولايته.

وبالنسبة لعثمان الزنجيلي أمير ولاية عدن، فإنه لما علم بما جرى لحطان بن منقذ في زبيد. خاف على نفسه، فخرج من عدن هارباً من سيف الإسلام طغتكين نحو مكة في يوم الأحد 6 ذي القعدة سنة 579هـ/ فبراير 1184م، عن طريق البحر بسفن مشحونة بثروة عظيمة (وأموال لا تحصى كثرة لأنه طال مقامه في تلك الولاية واتسع كسبه. . . [و] لأنه كان في ولايته يوصف بسوء السيرة مع التجارة، وكانت المنافع كلها راجعة إليه، والذخائر الهندية المجلوبة كلها واصلة إلى يديه، فاكتسب سحتاً عظيماً وحصل على كنوز قارونية)[2].

ولما علم سيف الإسلام طغتكين بهروب الزنجيلي بأمواله عن طريق البحر أرسل سفناً تعترضه قبالة ساحل زبيد. فأدركت مؤخرة سفنه، فاستولوا عليها. أما عثمان الزنجيلي نفسه فقد نجا ومعه الكثير من الأموال[3]. ووصل إلى مكة في يوم الاثنين الخامس من شهر ذي الحجة سنة 579هـ/ مارس 1184م[4]. ثم غادرها إلى الشام فأقام بدمشق إلى أن مات سنة 583هـ/ 1187م[5]. وبذلك نجا الزنجيلي من عقاب طغتكين.

---

(1) الجندي: السلوك، 2/ 527، الخزرجي: العسجد، ص: 159، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 122.

(2) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص: 148.

(3) الجندي: السلوك، 2/ 528، الخزرجي: العسجد، ص: 159، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 123.

(4) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص: 148.

(5) محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 123.

وفي تلك الأثناء عزم سيف الإسلام طغتكين على التوجه نحو (تعز)، فوصلها في الأيام العشرة من ذي الحجة وعيَّد بها عيد الأضحى لسنة 579هـ/ مارس 1184م. ثم توجه إلى الجند. وأرسل مولاه ابن عين الزمان والياً على عدن[1]. أما ولاية ذي جبلة، فقد أرسل طغتكين مملوكه (إيليا) ليستولي على حصن التعكر من الأمير عمر بن علي الزنجيلي الذي كان متولياً عليه من قبل أخيه عثمان الزنجيلي بعد سيطرته عليه من قايماز[2]. كما أمر بتخليص قايماز من الأسر[3]. وبذلك تمكن سيف الإسلام طغتكين بدون قتال إعادة السيطرة على المناطق التي استولى عليها أخوه تورانشاه في اليمن من النواب الذين عملوا على محاربة بعضهم البعض.

المرحلة الثانية استيلاء سيف الإسلام على حصون اليمن

1 ـ سيف الإسلام وحصون اليمن الأسفل:

بعد أن تمكن سيف الإسلام طغتكين من إعادة المناطق التي فتحها أخوه تورانشاه. اتجه لإزالة بقايا القوى اليمنية المختلفة من بني زريع وبني مهدي وغيرهم المتمركزين في الحصون التي لم تفتح في عهد أخيه واقتضى منه ذلك صراعاً طويلاً. نوضح ذلك بالآتي:

في البداية اتجه سيف الإسلام طغتكين نحو المعافر فحاصر حصن (السوا) بها لمدة، فلما (أصاب أهله مرض عظيم أشرفوا منه على الهلاك) سلموا له الحصن من غير قتال[4].

بعد ذلك اتجه سيف الإسلام طغتكين نحو مخلاف جعفر (إب)، فاستولى سنة 580هـ/ 1184م على حصون وصاب وأعمالها. كما استولى على حصون أولاد أبي النور ابن أبي الفتح وهما حصنا بيت عز ونعم في الشعر دون قتال[5]. كذلك استولى على حصن (شواحط) من أهله دون حرب لأن شيخهم بايع سيف الإسلام بمكة عند قدومه من مصر[6].

---

(1) الجندي: السلوك، 2/ 528، الخزرجي: العسجد، ص: 159، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 387.

(2) الجندي: السلوك، 2/ 527، الخزرجي: العسجد، ص: 159.

(3) الجندي: السلوك، 2/ 524.

(4) ابن حاتم: السمط، ص: 24، الخزرجي: العسجد، ص: 159، 160.

(5) ابن سمرة: طبقات، ص: 229، ابن حاتم: السمط، ص: 25.

(6) ابن حاتم: السمط، ص: 24، 25.

وأيضاً توجه سيف الإسلام طغتكين في شوال سنة 581هـ/ ديسمبر 1185م للاستيلاء على حصن عنة في العدين. وفي سنة 582هـ/ 1186م استولى على حصن يفوز من يد عبد اللّه بن محمد العودري. كما استولى على حصن خدد (جبل حبشي) من صاحبه علي بن عبد اللّه بن مقبل الخولاني[1]. كذلك استولى على عدة حصون أخرى مثل حصن ريمة الحدبا، وحصن بحرانه، وسماءة، وقزعة وعتمة[2]. وبذلك سقطت معظم حصون القوى القبلية لليمن الأسفل وأصبحت تحت سلطان الأيوبيين، ولم يبق معهم فيها إلا حصني (حب) في بعدان، و(الدملوة) في الصلو.

2 ـ سيف الإسلام وبقايا الزريعيين:

حصن حب (بعدان):

كان حصن (حب) في بعدان تابعاً لبني زريع وكان متولياً له السلطان زياد بن حاتم بن علي بن سبأ الزريعي. فاتجه سيف الإسلام طغتكين لحصاره سنة 581هـ/ 1185م. ولما طال الحصار وقرب موعد الحج ترك طغتكين مولاه الهمام أباريا محاصراً للحصن ومعه شمس الخواص. واتجه نحو مكة لأداء فريضة الحج. وأثناء الحصار حاول السلطان زياد بن حاتم الزريعي أن يطلب النجدة من السلطان علي بن حاتم حاكم صنعاء. والشيخ عبد اللّه الجنبي حاكم قبيلة (جنب) فأرسل علي بن حاتم ولديه عمران والفضل وأخاه بشر بن حاتم في جمع من العساكر من همدان. خرجوا من صنعاء آخر ذي القعدة سنة 581هـ/ يناير 1186م، أثناء غياب سيف الإسلام طغتكين في الحج. ولما وصلوا إلى ذمار انضم إليهم الشيخ عبد اللّه بن يحيى والشيخ عمران بن زيد الجنبي في جمع كبير من عساكر مذحج وجنب. وفي منطقة (الصنمية) من بلاد الحقل انضمَّ إليهم السلطان أسعد بن علي بن عبد اللّه الصليحي صاحب حصن (قيضان). وفيها تشاور قادة الجيش حول كيفية الاتجاه لمحاربة الأيوبيين، فكان هدف بشر بن حاتم أن يسير الجيش بكامله في جهة قتالية واحدة، بينما رأى أسعد بن علي أن يتجه الجمع من جهتين، فتغلب رأي أسعد بتقسيم الجيش إلى فرقتين، فرقة وهم همدان بقيادة بشر بن حاتم تتجه نحو حصن (نعم) في الشعر، وكان قد سيطر عليه الأيوبيون وفرقة أخرى وهم مذحج وجنب وغيرهم تتجه نحو السحول[3].

وما كادت تصل قبيلة (جنب) إلى قرب السحول حتى أحبط عزمها الشيخ

---

(1) ابن سمرة: طبقات، ص: 229.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 25.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 25، الخزرجي: العسجد، ص: 160.

علي بن محمد بن إبراهيم من التقدم، فانسحبوا، وكان سبب خذلان هذه القبائل الأحقاد القديمة بين الشيخ عبد الله بن يحيى الجنبي والشيخ عمران بن زيد الجنبي[1]. ولما علم بشر بن حاتم بانسحاب قبائل (جنب) أمر همدان بالرحيل عن حصن (نعم)، فارتحلوا عنه. وعندما وصلوا إلى حقل قتاب (كتاب) حاول الشيخ عمران أن يشرح لبشر سبب خذلان (جنب) عليه وذلك بهدف عودتهم إلى التحالف، إلاّ أنهم لم يتفقوا على حل (ولم يحصلوا على شيء مما أمَّلُوه)[2] فعادت قبائل همدان وجنب إلى مواضعها بعد عشرين يوماً من توجهها[3].

وكما يتضح أن التوقيت كان غير مناسب أن تتجه هذه القبائل لحرب الأيوبيين في أيام عيد الأضحى. إضافة إلى خوفهم من الأيوبيين أن يقدموا بجيش آخر أكثر منهم. فيتجهوا لمحاربة كل قبيلة على حدة إلى أماكنها دون أن يتمكنوا من مناصرة بعضهم البعض. فضلاً عن أن هذه القبائل لم تكن على وفاق ديني وسياسي. لذلك فشلوا في هذا التجمع.

وفي الوقت الذي عاد فيه سيف الإسلام طغتكين من الحج شدد الحصار على حصن (حب)، وأنذر من به بتسليم أنفسهم. فلما رأى عدم تسليمهم بطاعته قرر اقتحام الحصن بالقوة يوم الأربعاء جمادى الآخرة سنة 582هـ/ أغسطس 1186م. فهجم عليه، (وقتل جميع من كان به، ولم يسلم منهم إلا من لم يعرف أو دخل في الجند الذي له أو طرح نفسه بين القتلى، وتزلزلت لذلك اليوم جميع اليمن شاماً ويمناً)[4]. وكما يبدو أن السبب بعدم تسليم الحامية التي كانت موجودة في حصن (حب) لسيف الإسلام. أنها كانت تأمل أن يعود التجمع القبلي لمناصرتهم ويقدموا إليهم المساعدة. وأن سيف الإسلام لن يقوم بالهجوم عليهم.

والجدير بالذكر أنه كان لهذه المعركة صدى كبير في أنحاء اليمن، فقد أعلنت القوى اليمنية تسليمها لطاعة طغتكين. فقد نزل السلطان عبد الله بن يحيى الجنبي وأولاده إلى سيف الإسلام معلنين ولاءهم وطاعتهم له، فخلع عليهم وأحسن إليهم. ثم تتابعت قبيلة (جنب) بالقدوم إلى سيف الإسلام معلنة الطاعة والولاء له[5]. وهكذا كانت سيطرة الأيوبيين على حصن (حب) وقضائهم على بقايا بني زريع به.

---

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 160، 161. (2) ابن حاتم: السمط، ص: 25.

(3) الخزرجي: العسجد، ص: 160.

(4) ابن حاتم: السمط، ص: 26، الخزرجي: العسجد، ص: 161، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 126، 127.

(5) ابن حاتم: السمط، ص: 26، الخزرجي: العسجد، ص: 161.

3 ـ سيف الإسلام وقبيلة (جنب):

ما إن سمعت قبيلة (جنب) التي كانت من أشد القبائل معارضة للأيوبيين بما حدث لأصحاب حصن (حب)، حتى أسرعت لإعلان الطاعة والولاء لسيف الإسلام طغتكين. وذلك خوفاً على نفسها من أن تتعرض بلادهم وقبائلهم لمثل ما تعرض له أصحاب الحصن. فتوجه السلطان عبد اللّه بن يحيى وأولاده إلى طغتكين معلنين الطاعة له. فخلع عليهم وأحسن إليهم. ثم تابعت قبيلة (جنب) بالقدوم إلى سيف الإسلام معلنين له الطاعة، فأحسن إلى كل من جاء منهم، ولم يبق من قبيلة (جنب) خارجاً عن طاعة الأيوبيين إلا عمران بن زيد الجنبي وإخوته[1].

بعد إعلان تلك الطاعة توجه سيف الإسلام طغتكين نحو بلاد (جنب) فسيطر عليها كلها، وسيطر على حصن (هران) شرق ذمار. وأقام معسكراً أسفل هذا الحصن، فتوافدت إليه الكثير من قبائل (جنب) من لم يكن وصله من قبل باذلين له الولاء والطاعة، فمنحهم العطايا وكساهم. وبذلك سيطر طغتكين على ذمار[2]. وأثناء ذلك أرسل ابن حاتم حاكم صنعاء رسوله إلى سيف الإسلام إلى ذمار لمصالحته، فتوقف عن الاتجاه نحو اليمن الأعلى.

وفي الوقت الذي أراد فيه سيف الإسلام العودة إلى اليمن الأسفل، وَلَّى على (ذمار) مظفر الدين قايماز مملوك أخيه تورانشاه. فاستغل الشيخ عمران الجنبي عدم وجود سيف الإسلام، وقلة الحامية الأيوبية في ذمار، فجمع جموعاً كثيرة من بلاد جنب وبلاد عنس وغيرها وسار بهم نحو ذمار فدخلها بالقوة ونهبها. أما الحامية الأيوبية (أو الرتبة) فقد تحصنت منه بقرية تسمى (ذي خولان). وأرسلت إلى سيف الإسلام طغتكين إلى ذي جبلة تخبره بهجوم الشيخ عمران الجنبي عليهم، فأسرع سيف الإسلام في القدوم إليهم. ولما وصل هربت منه بعض قبائل جنب، ولم يبق إلا عمران بمن صبر معه، فدارت معركة بين الطرفين أسفرت عن هزيمة الشيخ عمران مع قبائل جنب، وقتل الكثير منهم، وغنيمة ما معهم من الخيول والسلاح. ولم ينجوا منهم إلا قلة منهم الشيخ عمران[3]. وقد علل ذلك الخزرجي بأنه لولا استخدام ابن نصير الأيوبي الكر والفر في المعركة (ما فلت أحد من جنب)[4]، من خلال ذلك نجد أن التفوق العسكري للأيوبيين كان واضحاً.

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 26، الخزرجي: العسجد، ص: 161.
(2) ابن حاتم: السمط، ص: 26، الخزرجي: العسجد، ص: 161.
(3) ابن حاتم: السمط، ص: 28، الخزرجي: العسجد، ص: 160.
(4) ، الخزرجي: العسجد، ص: 160، 161.

وآنذاك لم يطمئن سيف الإسلام من أهل ذمار، فقد توجه بجيشه نحو منطقة (بشار) شمال شرق ذمار فقتل منهم نحو ستمائة رجل. وذلك بسبب تحالفهم مع قبيلة جنب ومؤاواتهم[1]. وبالنسبة للسلطان عبد اللّه بن يحيى الجنبي فبالرغم من طاعته لسيف الإسلام، إلا أنه قدم المساعدة لقبيلة جنب ضد الأيوبيين. ورفض تسليم بلاده لهم. فتحصن في حصن (ذروان). ولكن طغتكين لم يرد تركه متحصناً في بلاده، بعد أن عمل على تقديم المساعدة لجنب. فأرسل مظفر الدين قايماز لحصاره، فاستمر الحصار لمدة خمسة أشهر ونتيجة لتعب السلطان عبد اللّه بن يحيى الجنبي من الحصار وقلة الموارد الغذائية والمياه عليهم، استسلموا للأيوبيين دون قتال[2]. وبذلك أعاد سيف الإسلام السيطرة الأيوبية على ذمار.

4 ـ سيف الإسلام وبقايا الصليحيين:

كان السلطان أسعد بن علي الصليحي صاحب حصن (قيظان) أحد بقايا الصليحيين وأحد الموالين لبني زريع، قد خاف على نفسه من الأيوبيين بعد اقتحامهم لحصن (حب) في بعدان وقتل جميع من فيه. فأرسل ولده منصور إلى سيف الإسلام طغتكين يطلب منه (التوثيق والدخول في الطاعة)[3]. إلا أن هذه الطاعة لم تكن موثوقاً بها، بسبب الخلاف المذهبي بين الأيوبيين والصليحيين، ومحاولة أسعد الصليحي التحالف لمناصرة أصحاب حصن (حب). فضلاً عن بقائه مسيطراً على حصن (قيظان). وهو ما لا يرضى به الأيوبيون. لذلك كان من واجب سيف الإسلام الاتجاه للاستيلاء على هذا الحصن وإنهاء بقايا الصليحيين والزريعيين، فاتجه سيف الإسلام لمحاصرته. فرماه بالمجانيق واستمر الحصار لمدة تسعة أشهر، ولما عجز الصليحيون عن المقاومة طلبوا من سيف الإسلام تسليمه الحصن مقابل إعطائهم الأمان واشترطوا أن يكون خروجهم إلى صنعاء إلى السلطان علي بن حاتم. ومن أجل تنفيذ ذلك الشرط ترك كل من سيف الإسلام وأسعد الصليحي رهائن لدى بشر بن حاتم. وبعد خروجهم من الحصن ووصولهم صنعاء تسلم سيف الإسلام الحصن[4]، وبذلك

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 28، الخزرجي: العسجد، ص: 161، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 129، 130.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 28، الخزرجي: العسجد، ص: 162، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 130، 131.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 26، الخزرجي: العسجد، ص: 161.

(4) ابن حاتم: السمط، ص: 28، 29، الخزرجي: العسجد، ص: 162، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 131.

انتهت بقايا الصليحيين من حصن قيظان. وأصبحت جميع مناطق اليمن الأسفل تحت سيطرة الأيوبيين عدا الدملوة بالصلو.

5ـ سيف الإسلام وبقايا الزريعيين:

حصن الدُمْلُوة: بعد صراع سيف الإسلام طغتكين العسكري في ذمار وقيظان وحب، توجه نحو حصن الدملوة بالصلو سنة 584هـ/ 1189م. وكان تابعاً لبني زريع. وكان فيه جوهر المعظمي وصياً على أولاد الداعي عمران بن محمد بن سبأ الزريعي. فحاصره حصاراً شديداً. ولما أدرك جوهر عدم مقدرته مقاومة الأيوبيين، وأن الحصار سيطول به، عرض بيع الحصن لسيف الإسلام بعشرة آلاف دينار ذهباً، فوافق سيف الإسلام على ذلك. لأن تكلفة الحصار واقتحام الحصن سيكلفه أكثر من عشرة آلاف دينار. فضلاً عن قتل عدد غير قليل من الجيش، بسبب مناعة الحصن وصعوبة اقتحامه بسهولة، لذلك وافق على شراء الحصن واشترط جوهر على سيف الإسلام (أن لا يطلع إليه نائب ولا ينزل هو من الحصن حتى يكون عيال سيده وأموالهم قد جاوزوا البحر)[1]، فوافق على ذلك.

وعندما قبض جوهر المال من سيف الإسلام، جهز أولاد سيده الداعي عمران من البنين والبنات وأخذ نفيس أمواله. وترك على الحصن نائباً له واشترط عليه أن لا يسلم الحصن إلا بعد أن يصله علمه بوصوله الحبشة[2]، ثم سار بأولاد سيده نحو المخاء خفية، فلما وصلها ركب في سفن أعدت له بها واتجه إلى أرض الحبشة. بعد ذلك كتب جوهر إلى سيف الإسلام ونائبه على الدملوة بتسليم الحصن للأيوبيين[3]. فاستغرب سيف الإسلام أن تصله رسالة جوهر من الحبشة، لأن جوهراً كان قد ترك أوراقاً كثيرة وخاتمه عند نائبه. وظل النائب يراسل سيف الإسلام بخاتم جوهر. فاعتقد سيف الإسلام أن جوهراً لا زال في الحصن، لذلك كان استغراب سيف الإسلام. والسبب في هذا التصرف من جوهر هو خوفه من سيف الإسلام أن يقبض عليه بعد تسليمه المال ويأخذه منه.

وبالنسبة لنائب جوهر على حصن (الدملوة) فإنه رفض تسليم الحصن لسيف الإسلام إلا بعشرة آلاف دينار أخرى. فانزعج لذلك سيف الإسلام وعاد لتشديد الحصار على الحصن. لذلك استغرق حصاره لمدة أربعة عشر شهراً[4].

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 29، الخزرجي: العسجد، ص: 161.
(2) ابن حاتم: السمط، ص: 29.
(3) ابن حاتم: السمط، ص: 29، الخزرجي: العسجد، ص: 161.
(4) ابن حاتم: السمط، ص: 29.

وفي ذلك الوقت تردد سيف الإسلام بين تسليم عشرة آلاف مرة ثانية وبين شن الحرب، وفي الأخير وافق على تسليم المبلغ مرة أخرى. واقترح النائب أن يكون السلطان بشر بن حاتم الذي صادف وجوده آنذاك في تعز لتجديد الصلح بين بني حاتم والأيوبيين حكماً بينهما، فيتولى عملية تسليم المال من سيف الإسلام وتسليمه الحصن، واشترط النائب على بشر أن يُحَمَل هو وأولاده ومن كان معه إلى صنعاء بخفارته، فالتزم له بشر بذلك. وأثناء ذلك كان سيف الإسلام يريد محاسبة النائب بالمبلغ الذي تسلمه جوهر، ولكن بشر لم يوافقه على ذلك، ولم يسلم الحصن لسيف الإسلام إلا بعد أن وصل إليه خبر من أخيه السلطان علي بن حاتم أن النائب وصل إليه إلى صنعاء وتسلم المبلغ[1]. بذلك أصبح اليمن الأسفل وتهامة كلها خاضعة للأيوبيين.

6 ـ سيف الإسلام وبنو حاتم:

تميزت علاقة الأيوبيين ببني حاتم حكام صنعاء بمرحلتين: إحداهما مرحلة المصالحات، والأخرى مرحلة الحرب، نوضحها بالآتي:

1 ـ مرحلة المصالحة:

لما رأى بنو حاتم في صنعاء استيلاء سيف الإسلام طغتكين على معظم اليمن الأسفل وتهامة خافوا منه، وأدرك السلطان علي بن حاتم وأخوه بشر أنهما غير قادرين على مقاومته. لذلك لم يكن منهما إلا أن أمرا بخراب قصر غمدان في شهر شعبان سنة 583هـ/ أكتوبر 1187م. وخراب سور صنعاء حتى لا يستخدمه طغتكين مركز دفاع له، ونقلا جميع ما كان لهما إلى حصن (براش) للتحصن فيه، كما أمرا بحرق ما كان لهما من غلة وعلف حتى لا يستفيد منها طغتكين، كذلك أمرا كافة الرعايا بالخروج عن بلادهم إلى الحصون والمعاقل للاحتماء بها، وهذا ما يدل على الخوف الشديد من الأيوبيين. وفي نفس الوقت أرسل السلطان علي بن حاتم ابن عمه القاضي حاتم بن أسعد للتفاوض مع سيف الإسلام طغتكين، فوصله إلى شرق ذمار. وصالحه المصالحة الأولى عن السلطان علي بن حاتم سنة 583هـ/ 1187م. على أن يدفع له ثمانين ألف دينار حاتمية ومائة حصان في سنة واحدة. فقبل سيف الإسلام هذه المصالحة، فعدل عن رأيه في الاتجاه نحو صنعاء، وعاد نحو اليمن الأسفل[2]. والسبب في قبول سيف الإسلام هذه المصالحة هو عدم

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 31، الخزرجي: العسجد، ص: 164، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 134.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 27، الخزرجي: العسجد، ص: 161، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 135.

تمكنه من إكمال سيطرته على جميع حصون اليمن الأسفل ومحاولته كسب بني حاتم إلى التعاون مع الأيوبيين، فضلاً عن أن هذا الصلح هو الحل الأسلم للطرفين لتجنب الدخول في الحرب، لأن الحرب ستكلف الطرفين الكثير من الخسائر.

وما أن انتهت سنة المصالحة بين بني حاتم وبني أيوب حتى اتجه السلطان بشر من صنعاء إلى تعز لتجديد الصلح، وأثناء ذلك أمر سيف الإسلام نوابه باستقباله وإكرامه وعدم التعرض إليه بأذى وتأمين سيره في الطريق. فلما وصل إلى ذمار أكرمه أميرها مظفر الدين قايماز، كما أكرمه ياقوت الشمسي في الحقل. وعندما وصل إلى تعز أحسن إليه سيف الإسلام وخلع عليه الخلعة التي كانت له وهي سيفه وسراجاً من ذهب وطوقاً من ذهب وكر نضار وغير ذلك من الخلع السنية. كما أحسن إلى كل من وصل معه[1]. ولما كان بشر هذه المرة في تعز توسط في تسليم الدملوة كما سبق ذكره. وأثناء المحادثة حول تجديد الصلح أسقط سيف الإسلام عن بني حاتم عن مصالحة السنة السابقة عشرين ألف دينار وعشرين حصاناً[2]. لتصبح مقدار المصالحة المجددة ستين ألف دينار وثمانين حصاناً عن السنة الواحدة. وعلى الرغم من وجود المصالحة وتجديدها بين بني حاتم والأيوبيين، إلا أنها لم تكن مقنعة لهما، وذلك بسبب عدم مقدرة الأراضي الخراجية أو العشرية لبني حاتم تحمل دفع هذا المبلغ، وعدم قبول سيف الإسلام بقاء اليمن الأعلى تحت سلطانهم، لذلك نشبت الحرب بينهما.

2 ـ مرحلة الحرب:

ونتيجة لعدم قناعة الطرفين بمقدار المال المدفوع للمصالحة.. فما أن عاد بشر إلى أخيه علي بن حاتم إلى صنعاء حتى أسرع في الاستعداد للحرب والتحصن في جبالها المنيعة. فعمرا حصون (ذمرمر، وكوكبان، والظفر، والعروس، وبراش، وفدة، والفص)، بالإضافة إلى حصن أشيح في آنس[3]. أما سيف الإسلام فإنه لما انقضت مدة المصالحة فيما بينه وبين بني حاتم، وتمكنه من السيطرة على جميع حصون اليمن الأسفل، توجه نحو صنعاء، للاستيلاء عليها، فلما وصل إلى قاع جهران شمال ذمار، قابله به القاضي حاتم بن أسعد، فسأله الذمة والوقوف عن المسير نحو صنعاء، والتزم عن السلطان علي بن حاتم أن يدفع له ثلاثين ألف دينار. وثلاثين حصاناً لتلك السنة، ووضع لذلك رهائن عنده حتى يأتيه بالمبلغ، فقبل سيف الإسلام

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 30، الخزرجي: العسجد، ص: 163، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 392.
(2) الخزرجي: العسجد، ص: 163، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 136.
(3) ابن حاتم: السمط، ص: 32، الخزرجي: العسجد، ص: 164، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 392.

ذلك واشترط عليه أنه إذا عاد بغير ما تعهد به سوف يشنق الرهائن[1]. والواقع أن تشدد سيف الإسلام هذا بشنق الرهائن هو خوفه من التلاعب عليه، وتأخيره عن المسير إلى صنعاء دون الوفاء بذلك التعهد، لأنه عندما يقعد في جهران لعدة أيام قد تصل ما بين أربعة أيام إلى أسبوع، سيكلفه ذلك الكثير من الإنفاق على الحملة من المؤن والأعلاف وغيره، وقد تنتهي مؤنه وأعلافه. وبالتالي لا يستطيع إكمال المسير إلى صنعاء، إلا بعد أن يطلب المدد من اليمن الأسفل.

وبالنسبة للقاضي حاتم فقد قبل بشرط سيف الإسلام، وتوجه إلى السلطان علي بن حاتم إلى صنعاء وأخبره (بما كان من الكفالة عنه). إلا أن السلطان علي بن حاتم رفض دفع المبلغ. فاضطر القاضي إلى العودة إلى سيف الإسلام خائفاً من شنق الرهائن بحسب ما كان الشرط بينهما، فلما أخبر القاضي سيف الإسلام برفض السلطان حاتم دفع ما كفل به، طلب سيف الإسلام من القاضي أن يحلف له على صدق كلامه وأن يكون معه، وسيعفيه من وعده بشنق الرهائن، فحلف له[2].

بعد ذلك تعاون القاضي حاتم مع سيف الإسلام، فأشار عليه أن يتجه أولاً للاستيلاء على حصن (أشيح) وذلك ليؤمن ظهره عند ذهابه إلى صنعاء. فسار إليه وناوش أصحابه القتال ليوم كامل، لم يتمكن خلالها من اقتحام الحصن لحصانته، وفي اليوم التالي لجأ إلى أخذ حصن بجانبه بالقوة يسمى حصن ظفار الواديين، فقتل السلطان يحيى بن سليمان بن المظفر وجماعته. ونتيجة لذلك خاف أصحاب حصن أشيح على أنفسهم، فاستسلموا لسيف الإسلام وسلموا له الحصن، ثم استولى على آنس كله[3].

الاستيلاء على صنعاء:

وما أن تمكن سيف الإسلام من السيطرة على آنس حتى عاد نحو صنعاء، فاستولى عليها بغير قتال في يوم السبت لعشر بقين من شوال سنة 585هـ/ نوفمبر 1189م. وذلك بسبب هروب بني حاتم إلى الجبال للتحصن بها. وما كادت تمضي فترة قصيرة على سيطرة سيف الإسلام على صنعاء حتى أمر ببناء دار له بها سميت بالدار السلطانية[4] في المنطقة المشهورة حتى الآن ببستان السلطان.

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 32، الخزرجي: العسجد، ص: 164، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 392، 393.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 32، 33، الخزرجي: العسجد، ص: 164، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 393.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 33.

(4) ابن حاتم: السمط، ص: 38.

السيطرة على مغارب صنعاء:

ما كادت تمضي فترة قصيرة على دخول سيف الإسلام صنعاء حتى أسرع في الاتجاه نحو غرب وشمال غرب صنعاء للاستيلاء عليها. فسار إلى وادي ضهر وفرض الحصار على حصن (فدة) المطل على الوادي بالمجانيق، مما جعل أصحاب الحصن يسرعون بتسليمه دون قتال[1].

كذلك حاول سيف الإسلام الاستيلاء على حصن (العروس) قرب كوكبان فحاصره، وأثناء الحصار قدمت إليه امرأة ومعها طفل، وقالت له إنها سمت مولودها باسمه وترجو منه أن يترك حصار الحصن إكراماً له، ففعل ذلك سيف الإسلام[2]. واتجه نحو حصن (الظفر) الذي كان فيه سالم بن علي بن حاتم، فاستولى عليه بالقوة. ثم سار نحو حصن كوكبان شبام، وكان تحت سيطرة السلطان عمرو بن علي بن حاتم والذي كان معه ألف وخمسمائة رجل ومائة فارس، فحاصره حصاراً شديداً، حيث نصب عليه أربعة مجانيق وظل يضرب عليه ليلاً ونهاراً حتى أثر على سور الحصن المبني من التراب. ولما طالت مدة الحصار وطالت الحرب، وقتل خمسمائة من أهل كوكبان وألف من الحراس الموجودين فيه، وانتشر الضجر والسأم بين الجند، طلب السلطان عمرو بن علي بن حاتم من سيف الإسلام تسليم الحصن له مقابل إبقاء حصن (العروس) له، فوافق سيف الإسلام على ذلك، وتسلم الحصن في ذي الحجة سنة 585هـ/ يناير 1190م[3].

كذلك اتجه سيف الإسلام سنة 585هـ/ 1189م نحو حصن (سواد عزان) قرب (ثلاء)، وكان لمشايخ أولاد مفرج والشيخ حاتم بن سعيد الشهابي، فطلب في البداية تسليم الحصن دون قتال، فرفضوا ذلك، فقاتلهم حتى تمكن من السيطرة عليه بالقوة بعد قتله لأربعين رجلاً منهم، وأسره للشيخين عبد الله وعامر ابني مفرج وحاتم بن سعيد الشهابي. ولما وصل الأسرى إلى سيف الإسلام أمر بقتل الشهابي، وأخذ فدية قدرها ثلاثين ألف دينار مقابل إطلاق عبد الله وعامر ابني مفرج[4]. وكما يتضح أن

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 37، الخزرجي: العسجد، ص: 166، 167، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 143.

(2) الخزرجي: العسجد، ص: 165، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 133، 134.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 36، 37، الخزرجي: العسجد، ص: 166، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 142، 143.

(4) ابن حاتم: السمط، ص: 34، الخزرجي: العسجد، ص: 165، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 139.

السبب في قتل الشهابي رفضه تسليم الحصن حينما طلب الأيوبيون منه تسليمه كونه كان أحد متولي أمر الحصن. أما أخذ الفدية من ولدي عامر بن مفرج بسبب غياب أبيهما الذي كان بيده أمر الحصن. وأنهما كما يبدو كانا دون البلوغ، فلم يعاقبهما سيف الإسلام بالقتل. بذلك سيطر الأيوبيون على كثير من حصون مغارب صنعاء.

السيطرة على شمال صنعاء:

بعد أن تمكن سيف الإسلام من السيطرة على الكثير من حصون بني حاتم في مغارب صنعاء، توجه سنة 586هـ/ 1190م نحو حصن (ذمرمر)، وكان فيه السلطان علي بن حاتم وأخوه بشر، فحاصره من جميع جهاته. ووضع لحصاره خمسمائة فارس وعشرة آلاف راجل بقيادة أبي ريا، الذي جعل إليه أمر صنعاء، موزعين على خمس عشرة محطة على الآتي: (محطة في الظلمة، ومحطة في الحصنين، ومحطة في أكمة بن سنية، ومحطة في أكمة الهامة، ومحطة في أكمة الداية، ومحطة في الحصن الأبيض، ومحطة في الحصن الأحمر في زجان، ومحطة في قهال، وثلاث محاط في قاع البياضي)[1].

وظل الهمام (أبو ريا) متولياً لأمر صنعاء ومستمراً في فرض الحصار على (ذمرمر). ومن أجل بقائه قوياً، فقد جعل سيف الإسلام أمراء رداع وعنس وجهران والحقل تحت طاعة والي صنعاء[2]. والغرض من ذلك مده بالجند والعُدد والأموال حتى لا تسقط صنعاء من تحت نفوذ الأيوبيين.

وفي نفس الوقت الذي كانت فيه قوات الأيوبيين محاصرة لحصن (ذمرمر) توجهت قواتهم نحو الحصون القريبة منه، فساروا نحو حصون الفصين وجبل الظلمة، فنصب المجانيق عليها. وتمكن من الاستيلاء على حصن الفص الصغير بالقوة. أما حصن الفص الكبير فقد أخذه بدون قتال، بسبب طلب السلطانين عمرو وعلوان ابني بشر بن حاتم اللذين كانا فيه، إجارتهما من سيف الإسلام، فأجارهما وأجار من كان معهما في الحصن من الحريم والخدم. وأرسل الحريم إلى حصن (ذمرمر)، أما السلطان عمرو وعلوان فقد أخذهما أسيرين معه[3]. وآنذاك حاول أخوهما الآخر علي بن بشر مهاجمة صنعاء من حصن (براش) لكي يخفف هجوم

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 37، الخزرجي: العسجد، ص: 167، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 143، 144.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 38، 39.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 34، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 140.

الأيوبيين على حصن الفص الكبير، إلا أن الهمام أبا ريا تمكن من القبض عليه وأدخله صنعاء أسيراً[1].

كذلك عمل الأيوبيون خلال محاصرة (ذمرمر) على التوجه للسيطرة على عدة مناطق في الشمال. ففي ذي القعدة سنة 586هـ/ نوفمبر 1190م توجه سيف الإسلام نحو (شُوابه) في البون، ثم اتجه نحو الجوف، ثم صعدة فسيطر عليها. وعاد إلى صنعاء في المحرم سنة 587هـ/ يناير 1191م[2]. بذلك اتسع سلطان الأيوبيين على كثير من مناطق شمال صنعاء. ولم يقف التوسع الأيوبي عند ذلك الحد، بل شمل مناطق أخرى، فقد توجه سيف الإسلام إلى حضرموت، فاستولى على شبام وتريم وغيرهما، ثم عاد إلى اليمن الأسفل[3].

وفي الوقت الذي امتد فيه حصار الأيوبيين لحصن (ذمرمر) لمدة أربع سنين، والتي أدت إلى تعب أهل الحصن ونفاذ قوتهم وكثرة الإنفاق على سيف الإسلام، أمر واليه على صنعاء أن يصالح السلطان علي بن حاتم وهي المصالحة الثانية والأخيرة، على أن يعطي علي بن حاتم (خمسمائة دينار وخمسمائة كيلجة من الطعام شهرياً) بشرط أن لا يكون له سلطان على مناطقه، بل تكون في يد الأيوبيين، فوافق السلطان علي بن حاتم على ذلك[4]. وظلّ سيف الإسلام وفياً له بالمبلغ طيلة حياته[5]. حيث كانت من سمته الوفاء بما تعهد عليه[6]. وهكذا انتهت دولة بني حاتم في صنعاء وسيطر الأيوبيون على اليمن كله. وبذلك تمكن الأيوبيون من توحيد اليمن تحت نفوذهم.

أهم أعمال سيف الإسلام:

لقد كانت من أهم أعمال سيف الإسلام في اليمن عمارة عدة قلاع وحصون منها: حصن تعز، وحصن (التعكر) وحصن (حب) وحصن (خدد) وأسوار زبيد، صنعاء، كما بنى مدينة تعز ومدينة الجند، وشيد مدينة المنصورة قبلي الجند، فبنى

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 35.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 38.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 39.

(4) ابن حاتم: السمط، ص: 37، 38، الخزرجي: العسجد، ص: 167، ابن الديبع: قرة، ص: 395، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 134، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 144، ذكر ابن حاتم، ص: 37، والخزرجي، ص: 167، أن هذا المبلغ كان يدفع لبني حاتم شهرياً كراتب، بينما ذكر ابن الديبع، ص: 395، أن هذا المبلغ كان يعطى لبني حاتم سنوياً.

(5) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 395.

(6) الخزرجي: العسجد، ص: 167.

فيها قصراً كبيراً له وحمامات وبيوت للعسكر. كما أحيا وادي الدارة والقاعدة، وبنى قرية في خنوة، وشيد بها داراً مصيفاً له. كما أجرى العيون من صبر إلى وادي نخلة، وغرس أنواع الغرسات، جلبت بعضها من الديار المصرية. كذلك قرر قواعد الملك باليمن، فأنشأ الدواوين، ووضع الضرائب السلطانية، وقنن القوانين، ظلت تعمل بها بعده لفترة طويلة، إلى غير ذلك من الأشياء التي لا تنحصر[1].

مما سبق يتضح أن سيف الإسلام طغتكين كان من أهم الشخصيات الأيوبية التي حكمت اليمن، فقد تمكن من توحيدها كلها تحت نفوذه. وظل يحكمها بنوع من المهارة والحكمة والتعقل حتى وفاته في مدينة المنصورة التي بناها قرب الجند في يوم 26 شوال سنة 593هـ/ سبتمبر 1197م، مورثاً السلطة بعده لأولاده.

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 39، الخزرجي: العسجد، ص: 168، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 133، زبارة: أئمة اليمن، ص: 114، مسفر: المرجع السابق، ص: 109، الحمزي: كنز، ص: 93.

المعز.. إسماعيل بن طغتكين

كان المعز إسماعيل على غير اتفاق سياسي مع أبيه طغتكين حول أسلوب حكم أهل اليمن. وكان بداية الخلاف بينهما سنة 587هـ/ 1191م، عندما ولّى طغتكين ابنه منطقة كوكبان وبلاد والظاهر، فسمح المعز لأصحابه أن يسيئوا السيرة مع أهل تلك البلاد، بسبب ميلهم إلى الإمام، فقسوا عليهم قسوة شديدة، جعلتهم يطلبون المساعدة من القبائل المجاورة ومن الإمام، فلبوا طلبهم، وتجمعوا لقتال الأيوبيين، فقتلوا منهم سبعمائة رجل، وعقروا خيلهم ونهبوا أموالهم، فأثار ذلك غضب السلطان طغتكين، فجهز عسكراً كثيراً وأرسلهم إليهم، فقاتلوا أهل تلك البلاد حتى قتلوا منهم نحو مائتي رجل[1].

بعد ذلك عزل طغتكين ابنه المعز عن التولية. ولم يقبل أن يوليه مرة أخرى لعدم رضاه عن سياسته، مما أدى إلى حدوث خلاف بينهما، فغضب طغتكين من ابنه، وطرده من اليمن سنة 589هـ/ 1193م، فسار إلى الخليفة العباسي فأكرمه، وأعاده إلى اليمن مصطحباً رسالة منه إلى أبيه طغتكين يطلب العفو عنه[2].

وبالرغم من قبول طغتكين العفو عن ابنه المعز، إلا أنه ما كاد يستقر مع أبيه فترة قصيرة حتى خرج مرة أخرى من اليمن غاضباً من أبيه سنة 593هـ/ 1196م أثناء مرض طغتكين في طريقه نحو الشام أو مصر. فما أن وصل المعز حَرَضْ من المخلاف السليماني حتى أرسل إليه كبار أعيان الدولة يخبرونه بوفاة أبيه ويطلبون عودته[3].

توليه السلطة:

لم يلق المعز أية مشكلة في توليه السلطة في اليمن، وذلك لعاملين،

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 43، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 338، الكبسي: اللطائف، ص: 60، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 149.

(2) محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 150، عن الذهبي، 2/ 452، جميل حرب: المرجع السابق، ص: 105، عن ابن واصل: مفرج الكروب، 2/ 338، الحداد: التاريخ العام، 3/ 29.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 44، الخزرجي: العسجد، ص: 171، 172، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 340، 341، جميل حرب: المرجع السابق، ص: 105، 106، وعندما توجه إلى بغداد سار نحو الشام فقدم على عمه صلاح الدين بدمشق في منتصف شهر صفر سنة 589هـ عن المقريزي: السلوك، 1/ 15.

أحدهما: أن الولاة الأيوبيين كانوا يسلمون بمبدأ الوراثة في تولي الحكم السياسي، فكتبوا إليه يدعونه الحضور ليتولي أمر اليمن، وبذلوا له الطاعة والولاء. والأخرى: هو أن طغتكين كان قد جعل اليمن كله خاضعاً لسلطان الأيوبيين، فسهل ذلك للمعز أن يحل محل أبيه دون أن تعترضه أية مشكلة.

ولما كانت السلطة قد وصلت إليه وهو في حَرَض، فكان لا بد من الرجوع إلى مقر حكم أبيه في تعز. وفي أثناء سيره إليها توالت المناطق بإعلان الولاء له. وفي البداية أطاعته البلاد الشامية وهي ما بين حَرَض وزبيد[1]. ولما توجه إلى زبيد ودخلها في 19 ذي القعدة سنة 593هـ/ سبتمبر 1197م، أعلنت القوى الأيوبية فيها الطاعة له. وعندما دخل تعز في 22 ذي القعدة من السنة المذكورة سلم له الولاة السلطة وأعلنوا له الطاعة. وقعد فيها شهراً يرتب أمرها ويصلح شؤونها. ثم سار إلى ذي جبلة فدخلها في 24 ذي الحجة. وتسلم حصن التعكر فيها. بعد ذلك طلع صنعاء فتسلمها من واليها في المحرم من سنة 594هـ/ نوفمبر 1197م[2]. أما عدن فقد أرسل إليها والياً من لديه هو مهكار بن محمود[3]. وهكذا سيطر المعز على اليمن دون أية معارضة من أحد.

معاملة المعز للأيوبيين:

كان المعز شاباً متحمساً اتصف بالشجاعة[4]، ولكن كانت تنقصه المقدرة على معرفة الأسلوب السياسي والتجربة في الحكم، كما كانت تنقصه الخبرة الكافية في كيفية التعامل مع الرجال، وهي أهم دعائم السياسة والحكم، كذلك اتصف بظلم الجند والأمراء والرعايا[5] باستخدام القسوة والشدة، فقتل بعضاً منهم وهرب بعض آخر[6]. إضافة إلى أنه كان شحيحاً عليهم[7]، مما جعله يحقق الفشل السياسي في حكمه لليمن.

فمن ناحية استخدامه للقسوة مع الأمراء الأيوبيين. فأول حدث قام به بعد تسليمه السلطة مباشرة سنة 593هـ/ 1197م، القيام بقتل الأمير القاضي الأسعد أمير

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 45.
(2) ابن حاتم: السمط، ص: 45، الخزرجي: العسجد، ص: 172، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 51.
(3) ابن حاتم: السمط، ص: 85.
(4) الخزرجي: العسجد، ص: 172، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 404.
(5) الخزرجي: العسجد، ص: 174، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 404، المفضل المزيد، ص: 85.
(6) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 34، 35.
(7) الخزرجي: العسجد، ص: 173.

(حَرَض) ومصادرة أمواله وجميع ما يملك من العبيد والخدم والجواري[1]. والحدث الثاني قتل الأمير الهمام أبو ريّا. وقد كان الهمام هذا اتجه إلى تعز عندما تسلم المعز السلطة، بهدف إعلان الولاء والطاعة له، وقال له: «إنما أنا من جملة المماليك والعبيد وأنت أولى بملك أبيك وبلادك»، فشكر المعز له ذلك ورافقه إلى صنعاء، فلما تسلمها وثب على الهمام وقبض عليه ثم قتله في المحرم سنة 594هـ/ 1197م، وسلم صنعاء للشهاب الجَزَرِي[2]. كذلك قام المعز بقتل جمعٍ كبيرٍ من غلمان أبيه[3] وأخاف جمعاً آخر منهم فهربوا منه[4].

جابه المعز خلال حكمه لليمن مشكلتين خطيرتين، كادتا تقضيان على سلطانه منذ السنة الأولى لحكمه لليمن. إحداهما: ظهور الإمام الزيدي عبد الله بن حمزة، والأخرى: انشقاق القادة الأيوبيين عليه. وزادت الأمور أكثر تعقيداً انضمام هؤلاء المنشقين عليه إلى تأييد الإمام ومناصرتهم له. واتجاههم لمقاتلته. حيث ظل المعز يقاتل الطرفين طيلة حكمه لليمن. وليس الأمر كذلك، بل إن المعز دفع حياته ثمناً لذلك الصراع. وسوف نورد في الصفحات التالية علاقة المعز بالإمام وصراعهما، فضلاً عن صراعه للأيوبيين المنشقين عليه ونهاية حكمه لليمن.

1 ـ علاقة الإمام بالمعز:

استغل الإمام عبد الله بن حمزة موت سيف الإسلام طغتكين وعدم الكفاءة السياسية للمعز في حكم اليمن المتمثلة في عدم اتفاقه مع القادة الأيوبيين، فبادر في ذي القعدة سنة 593هـ/ سبتمبر 1197م بإعلان الدعوة لنفسه بالإمامة الزيدية. بادئاً ذلك من الجوف، ثم اتجه منها إلى هجرة معين بصعدة، حيث بايعته فيها علماء الهدوية بالإمامة[5]. وكان من الطبيعي أن يجر ظهور الإمام الزيدي صراعاً مع المعز الأيوبي، الذي ورث السلطة على اليمن كلها. وأن يلقى تأييداً أو معارضة من بعض أهل اليمن. وليس موضوعنا هنا التعرض لعلاقة الإمام مع أهل اليمن جميعاً. ولكن سنختصر علاقته بالمعز ومن ساعده لذلك.

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 44، الخزرجي: العسجد، ص: 172، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 341، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 152.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 45.

(3) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 134، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 153، جميل حرب: المرجع السابق، ص: 106.

(4) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 135.

(5) زبارة: أئمة اليمن، ص: 113، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، ص: 341.

لقي الإمام عبد الله بن حمزة تأييداً من قبل الزعامات القبلية آنذاك، وهم بنو حاتم الذين كانوا يحكمون صنعاء، وما حولها قبيل القضاء عليهم من قبل طغتكين الأيوبي. وذلك بسبب قطع المعز للجامكية الشهرية (المرتب الشهري) الذي كان يدفعه لهم طغتكين. فسمحوا للإمام استخدام حصونهم المنتشرة حول صنعاء. لذلك اشترى بنو حاتم حصون كوكبان وبكر وظفر في مغارب صنعاء من الحاميات الأيوبية. وتركوا الإمام يستخدم هذه الحصون ضد الأيوبيين. بذلك ضمن الإمام أهم مناصر له من الحصون القريبة من صنعاء. وقد جاء تأييد بني حاتم للإمام مبكراً فأثناء ما كان في صعدة بعث إليه السلطان علي بن حاتم أخاه بشراً لمبايعته[1].

أعطى ذلك الإمام دافعاً أن يتجه نحو مغارب صنعاء، فسار حتى وصل إلى (ثلاء) قرب كوكبان. فلما وصلها توافدت إليه الكثير من أهل تلك الجهات معلنة الطاعة له. أمام ذلك حاول الأيوبيون الموجودون بصنعاء أن لا يقفوا مكتوفي الأيدي تجاه الإمام، فقد خرج إليه جماعة منهم، واتجهوا إلى (ثلاء) فحاصروهم بها ودار قتال شديد بينهم انتهى بقتل أحد أنصار الإمام هو الأمير محمد بن علي[2]. وبالرغم من ذلك فإن الطرفين في هذه المعركة لم يحققا أي انتصار مؤثر. فقد عاد الأيوبيون إلى صنعاء وظل الإمام بثلاء.

على أن سيطرة الإمام على مناطق في مغارب صنعاء شكل خطورة على المعز فعندما عاد إلى صنعاء قادماً من تعز بداية عام 594هـ/ 1197م، حاول استمالة السلطان علي بن حاتم إلى طاعته وصرفه عن طاعة الإمام ومناصرته، حيث وعده بأنه سيعطيه صنعاء، فكاتبه بذلك إلى حصنه في (ذي مرمر)، فبعث إليه السلطان علي بن حاتم أخاه بشراً وولده عمر بن علي. فلما وصلا إلى صنعاء أخذهما معه إلى حقل كتاب[3]. وكما يبدو أن السبب في أخذ بشر وعمر كي يظلا رهينتين عنده من أجل إجبار علي بن حاتم عدم طاعة الإمام، إلا أن ذلك جعل علي بن حاتم يظل مستمراً في طاعته للإمام، أما وعد المعز بإعطاء علي بن حاتم صنعاء فغير معقول، إلا إذا اعتبرنا أن المعز وعده بإعطائه بعض حصون شمال صنعاء فيمكن تصديق ذلك.

استمرت القوات الأيوبية في مقاومة الزيدية، فأثناء تواجد الإمام في مغارب صنعاء خرج إليه المعز سنة 594هـ/ 1197م، مع الأمير حَكْوَ، فقاتلا جيش الإمام حتى انتصرا عليه، وأجبراه على التشتت، ثم عادا إلى صنعاء، ومنها سار المعز

(1) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 341، زبارة: أئمة اليمن، ص: 113.

(2) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 341، زبارة: أئمة اليمن، ص: 114.

(3) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 341، زبارة: أئمة اليمن، ص: 114.

نحو ذي جبلة وعمل فيها على تهديم دار العز الذي بناه المكرم[1]. ولما ازداد ضغط الإمام على مناطق شمال وغرب صنعاء، وانضمام حَكْوَ إليه عاد المعز في نفس السنة لمحاربة الإمام وحَكْوَ، وأثناء وجوده في صنعاء واستعداده للخروج لحربها حدث خلاف هشام الكردي وشمس الخواص للمعز، مما جعله يضطر إلى العودة إلى تعز دون الذهاب لقتال الإمام وحَكْوَ[2]، فأتاح ذلك الخلاف أو التمرد الأيوبي أن يستولي الإمام على صنعاء وذمار سنة 595هـ/ 1198م. بذلك استفاد الإمام من التمرد الأيوبي في توسيع مناطق نفوذه.

ومن جهة المعز فإنه لم يسكت عن سيطرة الإمام لصنعاء. فسرعان ما جهز جيشاً كبيراً سنة 595هـ/ 1198م واتجه بهم نحو ذمار، فاستولى عليها بغير حرب، وذلك بعد قتله لحَكْوَ وهروب حاميتها، ثم سار نحو صنعاء فسيطر عليها دون قتال بسبب هروب الإمام وجيشه منها إلى شبام ثم إلى (أثافت) التي استقر بها[3]. وبذلك استعاد المعز سيطرته على ذمار وصنعاء.

ظلت الحرب مستمرة بين الأيوبيين والزيدية، فعندما كان الإمام مستقراً في (حوث) سنة 595هـ/ 1198م حاول والي صنعاء الشهاب الجزري الاتجاه إليه لمحاربته، واصطحب معه السلطان بشر بن حاتم، فلما سمع الإمام بقدومهما نحوه هرب من (حوث) إلى (أثافت) مما جعل الشهاب الجزري يترك مطاردته ويعود إلى صنعاء دون أن يلتقي به في حرب. وآنذاك لم يتفق الشهاب مع بشر فلما سار إلى المعز إلى ذي جبلة سنة 596هـ/ 1198م لحق به الشهاب وأغرى المعز على سجنه فسجنه في حسن التعكر[4].

وآنذاك لقي الإمام عبد اللّه بن حمزة معارضة لإمامته من قبل أحد أمراء الزيدية هو الأمير يحيى ابن الإمام أحمد بن سليمان، الذي سبق له أن أعلن طاعته وموالاته للأيوبيين عهد طغتكين، مقابل توليته على صعدة، إلا أن الإمام عبد اللّه بن حمزة أخرجه منها عندما أعلن إمامته. فظل الأمير يحيى يتحين الفرصة للخروج عليه. ففي سنة 595هـ/ 1198م استولى على حصن (مبين) بحجة لم يتمكن الإمام من إخراجه منه بسبب مناعة الحصن، وأثناء ما كان الإمام في (أثافت) من نفس السنة، حاول الإمام مراسلته لإعلان طاعته له، مقابل توليته على صعدة، إلا أن الأمير لم يثق بالإمام رغم إصداره منشوراً بتوليته، لذلك اتجه الأمير إلى

---

(1) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 342، زبارة: أئمة اليمن، ص: 114.
(2) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 346.
(3) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 348، زبارة: أئمة اليمن، ص: 118.
(4) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 350، 351، زبارة: أئمة اليمن، ص: 120.

الشهاب الجزري إلى صنعاء وأعلن طاعته وموالاته للأيوبيين، وأخذ في نشر الدعوة للمعز في شمال صنعاء، وسب الإمام ودعاه «بمسيلمة الكذاب»، وعندما وصل الأمير إلى الهجر قرب صعدة، حاصرته قوات الإمام وحاربوه حتى أسروه وأخذوه إلى السجن، وظل في سجنه حتى مات[1]، وكما يتضح أن هذه المعارضة جاءت بتحريض من الأيوبيين، وتأييد من بني حاتم إلا أن عمر هذه المعارضة لم تطل، فقد انتهت سريعاً بموت الأمير ولكن ظهرت للإمام معارضة أخرى هي مشكلة المطرفية.

وفي سنة 596هـ/ 1198م حاول المعز أن يتجه من تعز نحو اليمن الأعلى وبصحبته ألف فارس وعدد كبير من الجند، بهدف القضاء على الإمام وأنصاره فلما وصل صنعاء أقام بها عدة أيام، ثم اتجه إلى (أثافت) التي كان الإمام مستقراً بها، فدخلها وأخرب عدة قرى حولها، أما الإمام نفسه فقد هرب من المعز من (أثافت) إلى حجة، ثم هرب إلى (حوث). وبالنسبة للمعز فقد عاد من (أثافت) إلى كوكبان التي كان فيها عمرو بن علي بن حاتم، فنصب عليها المنجنيقات وحاصرها لمدة أربعة أشهر. بعد ذلك تمت المصالحة بينه وبين الإمام وبني حاتم على أن يكون حصن كوكبان ومن بجانبه من الحصون للمعز مقابل إطلاقه لسراح بشر بن حاتم، وبالفعل تمت المصالحة على ذلك، فتسلم المعز الحصن وأطلق سراح بشر بن حاتم[2]. فهدأت بذلك حدة الصراع بين الطرفين. وفي سنة 598هـ/ 1201م توجه المعز إلى حجة، فتمكن من طرد أنصار الإمام منها وإعادتها إلى سيطرته. ثم عاد إلى زبيد حيث لقي مصرعه بها كما سيتضح فيما بعد.

ومن خلال ما تقدم يلاحظ أن الصراع السياسي في شمال صنعاء وغربها ظل محتدماً بين الأيوبيين والزيدية، وأن الإمام بعد إعلان دعوته للإمامة الزيدية ظل يتنقل من مكان إلى آخر في شمال وغرب صنعاء، مثل الجوف، صعدة حجة، شبام كوكبان، ثلاء، حوث، أثافت في بلاد الظاهر ثم شوابة، خوفاً على نفسه من الأيوبيين ومحاولة لتثبيت سلطانه على تلك الجهات، على أن تلك المناطق هي التي ظلت في معظم الأوقات تحت سيطرة الإمام، أما صنعاء وذمار فلم يتمكن الإمام من السيطرة عليهما، إلا لبضعة أشهر لأن القوى الأيوبية لم تتح له الفرصة للاستقرار بهما. وخلال ذلك التنقل لم يتمكن الإمام بنفسه من الالتقاء مباشرة في أية حرب مع الأيوبيين، عدا أنصاره، بسبب تفوق الجيش الأيوبي عليه، وعدم

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 67، 68، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 336 ـ 339، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 173، 174.

(2) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 352، 353، زبارة: أئمة اليمن، ص: 121.

تثبيت سلطانه كاملاً على مناطق شمال صنعاء لتمرد بعض الزيدية وبعض القبائل عليه، وكما يلاحظ أن ظهور الإمام الزيدي في تلك المنطقة شكل خطورة على المعز وصعوبة في استعادتها لسلطانه.

وعن علاقة بني حاتم بالمعز فقد تأرجحت بين التأييد له وبين التأييد للزيدية فإنه بمجرد تولية المعز السلطة الأيوبية أعلن بنو حاتم عدم طاعتهم له. بسبب قطعه المخصص الشهري المحدد لهم من قبل سيف الإسلام، وحاولوا شراء حصونهم مثل كوكبان وثلاء والظفر من الحاميات الأيوبية، ومالوا إلى مناصرة الإمام الزيدي واتفقوا معه أن يستخدموا حصونه القريبة من صنعاء مقابل اشتراكهم في حكم صنعاء عند السيطرة عليها من قبل الإمام، أي أن يكون حكم صنعاء نصفين بينهما، وأن تعاد لهم حصونهم بعد الاستيلاء على صنعاء. ولما تمكن الإمام من الاستيلاء على صنعاء رفض مشاركة بني حاتم في حكمها، مما جعل السلطان علي بن حاتم يحجم عن مناصرة الإمام، ويميل إلى التعاون مع المعز، وظل في حصنه (ذي مرمر) حتى وفاته سنة 597هـ/ 1200م[1].

والذي يبدو أن استمالة المعز لبني حاتم سنة 594هـ/ 1197م هي التي جعلت الإمام يخلف وعوده لهم. لذلك تعاون بشر بن حاتم مع الشهاب الجزري عندما خرج إلى (حوث) لمحاربة الإمام، إلاّ أن خلافاً حدث بينهما جعل الشهاب يرسل إلى المعز يطلب إليه بشر بن حاتم، ولما طلب المعز بشراً لحق به الشهاب وطلب من المعز سجنه فصدقه المعز وسجن بشراً في حصن التعكر[2]، مما جعل بني حاتم يميلون إلى مناصرة الإمام، لذلك توجه المعز إلى كوكبان التي كان بها عمرو بن علي بن حاتم وجماعته فحاصروهم لمدة أربعة أشهر. ولما نفذت مؤنهم وأشرفوا على الهلاك طلبوا منه الأمان، فلم يقبل ذلك إلا بتسليمه حصن كوكبان وحصن بكر والظفر، وأن يسلم السلطان علي بن حاتم خمسين ألف دينار (فدية) أو فكاك لأخيه بشر، فوافق السلطان، وتمت المصالحة على ذلك[3]. وهكذا انتهى الصراع بين المعز وبني حاتم بتسلم حصونهم.

2 ـ مخالفة الأيوبيين للمعز:

على الرغم من السهولة التي استولى بها المعز على السلطة في اليمن، إلا أن سياسته تجاه الكثير من الأمراء والجند الأيوبي الذين كانوا أكثرهم من الأكراد[4]

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 173، 174. (2) ابن حاتم: السمط، ص: 69.
(3) ابن حاتم: السمط، ص: 70، زبارة: أئمة اليمن، ص: 121.
(4) الخزرجي: العسجد، ص: 174.

جلبت له المشاكل المتعددة، أدت إلى خروجهم عن طاعته وتمردهم عليه، وميلهم إلى أعدائه، ومحاربتهم له. وسوف نورد هنا مجموعة من هؤلاء المنشقين عليه، موضحين الظروف التي أدت إلى انشقاقهم، ودفعتهم إلى عِدائه بالإضافة إلى سياسة المعز نحوهم وكيفية خروجهم من هذه الظروف أو الوقوع فيها.

1 ـ حَكْو بن محمد الكردي:

كان حَكْوَ أحد الأمراء الذين رتبهم المعز مع الشهاب الجزري في صنعاء. اتصف بالشجاعة والشهامة، وكان الجزري يعتمد عليه في كثير من القضايا[1]. وكثيراً ما حالفه الحظ بالنجاح في كثير من أموره فرفعت من شأنه[2]. وأصبح أحد القادة البارزين، ثم حدث انقطاع وعدم وجود مودة بينه وبين الجزري، أدت إلى خلاف فيما بينهما[3]. فخشي حَكْوَ أن يكيد له الجزري عند المعز فيصبح مصيره القتل[4]. فعمل على مراسلة الإمام عبد اللّه بن حمزة سراً، يخاطبه في الانضمام إليه. أسفرت عن مبايعة حَكْوَ للإمام سراً في 6 رمضان سنة 594هـ/ يوليو 1198م[5]. وهو بذلك أول أيوبي ينضم إلى الإمام، فكان بعمله هذا فاتحة الطريق لبقية الأيوبيين ليحذوا حذوه.

وما أن علم المعز بميل حَكْوَ إلى الإمام ومراسلته له، حتى أرسل إليه عسكراً يقبضون عليه. فالتقوا به في (ذمار) فاستقبلهم وأظهر لهم أنه لم يمل إلى الإمام وأنه عازم على الاتجاه نحو المعز إلى تعز، فصدقوه، ورافقوه في المسير نحوها، حتى وصلوا حقل كتاب وباتوا ليلتهم فيه، فانسل حَكْوَ في الليل خفية منهم، ومعه جماعة من جنده، فساروا هاربين متجهين نحو الإمام، ثم لحقته جماعة أخرى من عسكره، انتهى بهم المسير جميعاً إلى الوصول إلى جبل (كنن) في سنحان في 17 رمضان سنة 594هـ/ يوليو 1998م[6].

بدء القتال:

في الوقت الذي وصل فيه (حَكْوَ) إلى (كُنَنْ) في سنحان باشر القتال ضد

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 45.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 46.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 46، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 344.

(4) مسفر: المرجع السابق، ص: 168.

(5) ابن حاتم: السمط، ص: 46، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 344.

(6) ابن حاتم: السمط، ص: 47، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 244، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 161.

الحاميات الأيوبية ومن يناصرهم من القبائل. فبدأ بمقاتلة أهل سنحان الذين قدموا لمساعدة الأيوبيين بحصن (لاحج)، فهزمهم وقتل قائدهم مع جماعة من أصحابه وأسر جماعة أخرى. ونهب ما معهم من المعدات والأموال. ثم هجم على حصن (لاحج) نفسه فقتل المتمركزين به من الأيوبيين، ثم توجه إلى (تُرْبَان) في بلاد نهد فقتل من بها من الأيوبيين ونهبهم[1] كذلك توجه إلى اعتراض الخزانة التي بعث بها المعز من اليمن الأسفل إلى الشهاب الجزري بصنعاء والذي كان قد بعث بمائة فارس لحماية الخزانة. فقاتلهم (حَكْوَ) في موضع يسمى (الماورة) في أسفل وادي خدير، فهزمهم وأخذ الخزانة بعد قتله لجماعة منهم وأسره لجماعة آخرين[2]. والواقع أن حَكْوَ كان يعلم بميعاد قدوم الخزانة وعدد حراسها لذلك توجه بجيش أكثر منهم فاستولى عليها.

وما أن علم الإمام عبد الله بن حمزة بما فعله حكو حتى بعث إليه يطلب قدومه. فسار إلى الإمام أثناء إقامته بشبام كوكبان فوصله في ذي القعدة سنة 594هـ/ أغسطس 1198م. (فسر به الإمام سروراً عظيماً). وجعله أميراً على الجند والأمراء الذين عنده[3]. وبذلك كسب الإمام مناصراً له من القيادات الأيوبية.

ترتب على ذلك العمل الذي قام به (حكو) انقطاع صلته بالأيوبيين. فاتجه يشن الغارات المتعددة على مراكزهم وحامياتهم. فتارة لوحده، وتارة أخرى بصحبة الإمام، حتى ضاق منه الأيوبيون ضيقاً شديداً، وعانوا منه قسوة كبيرة. وكان من الطبيعي أن يدرك المعز مدى خطورة حكو لا سيما بعد انضمامه للإمام وبعد أن توجه إلى محاربة الأيوبيين وتخويفهم. لذلك جهز المعز جيشه للذهاب بهم إلى مقر الإمام في شبام لمحاربته. ولما وصل إلى ظاهر صنعاء حدث آنذاك خلاف شمس الخواص له. فتفرق جيش المعز مما جعله يترك الذهاب إلى شبام ويعود إلى اليمن الأسفل[4].

أسفر هذا الخلاف الأيوبي عن انضمام شمس الخواص إلى الإمام وتسليمه صنعاء له. وذلك بعد انسحاب المعز والشهاب الجزري منها. فلما رأى ذلك حكو

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 47.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 47، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 344، 345، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 161، 162.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 48، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 345، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 162.

(4) ابن حاتم: السمط، ص: 48، 50.

طمع في النزول إلى اليمن الأسفل لانتزاعها من المعز. فخرج نحوها من صنعاء يوم الاثنين 12 ربيع الأول سنة 595هـ/ 1 يناير 1199م. وسار لمقاتلة المعز وبرفقته مائة وعشرين فارساً[1].

وفي الوقت الذي توجه فيه حكو نحو اليمن الأسفل، أعد المعز جيشاً قوياً للاتجاه به إلى صنعاء مكوناً من ستمائة فارس بقيادة الشهاب الجزري. وبعض المقدمين مثل محمد بن المعلم، وجمال الدين البقش وياقوت النجمي. فساروا حتى وصلوا ذمار فوقفوا بها[2].

ولما علم حكو بوصول قوات المعز إلى ذمار أدرك أنه غير قادر على مقاومتهم فخاف على نفسه ووقف خارج ذمار ينتظر إمدادات الإمام وبالفعل وصل الإمام إلى معسكر حكو بجيشه وبمن انضم معه من قبائل مذحج وعنس وَزُبَيْد. وأثناء ذلك استغل الشهاب الجزري خلو صنعاء من الإمام وحكو. فأراد أن يخلفهما إليها، فترك في ذمار جماعة من قواته وذهب بمائتي فارس نحو صنعاء، فلما وصلها فرض عليها الحصار[3].

وفي أثناء ذلك استغل الإمام وحكو تقسيم الجيش الأيوبي إلى فرقتين، فاتجهوا نحو الفرقة الموجودة بذمار. وما أن وصلوا إليها حتى خرج إليهم الجيش الأيوبي لقتالهم. فدار قتال شديد أسفر عن انسحاب الأيوبيين إلى داخل المدينة للاحتماء بها. فلحق بهم جيش الإمام وحكو ودخلوا المدينة على أثرهم. ولم يتركوا لهم فرصة الاحتماء بها. فحدثت معركة كبيرة بين الطرفين داخل المدينة. انتهت المعركة بهزيمة الأيوبيين وأسر بعضهم على رأسهم ابن المعلم، وهروب البعض الآخر نحو اليمن الأسفل. وسيطرة الإمام على ذمار[4]. وقد قدر عدد القتلى في هذه المعركة من الفريقين بنحو سبعين رجلاً[5]، ويرجع السبب في انتصار الإمام إلى الدعم القبلي من مذحج وعنس وَزُبَيْد، وقوات حكو الأيوبية. إضافة إلى ذلك عدم تقدير الشهاب الجزري لقوات الإمام وحكو فقسم جيشه إلى فرقتين. فضلاً عن ذلك عدم وجود أماكن محصنة يحتمي بها الأيوبيون في ذمار لذلك لحقتهم الهزيمة. ومن الملاحظ من تلك المعركة أن الإمام وحَكو استفادا من

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 58، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 167.
(2) ابن حاتم: السمط، ص: 59، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 167.
(3) ابن حاتم: السمط، ص: 59، 60.
(4) ابن حاتم: السمط، ص: 60..
(5) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 347.

طرد الأيوبيين من ذمار. وذلك لكي يتجها نحو الشهاب الجزري إلى صنعاء لمقاتلته دون أن تقدم القوات الأيوبية المساعدة له وهذا ما حدث بالفعل.

فما أن انتهى الإمام وحكو من السيطرة على ذمار وطرد الأيوبيين منها، حتى عادا مسرعين لفك حصار صنعاء. وكان الإمام قد سبق حكو فوصلها يوم الثلاثاء 20 ربيع الأول سنة 595هـ/ 9 يناير 1199م. وسار إلى أحد الأبواب التي يوجد بها أنصاره فدخلها واحتمى بها وفوت الفرصة على الشهاب الجزري دخولها. فخاف الشهاب من قدوم حكو وراء الإمام، فاتجه بمن معه من الجيش إلى حصن (براش) للتحصين به[1].

ومن خلال ذلك كان من المتوقع أن ينسحب الشهاب الجزري إلى اليمن الأسفل، للنجاة بنفسه وجيشه. إلا أن المساعدة التي وعد بها وقدمها السلطان بشر بن حاتم من المال والرجال إلى الشهاب هي التي جعلته يتجه إلى حصن (براش) ولكن المساعدة لم تكن كافية للأيوبيين[2].

وما أن وصل حكو إلى صنعاء حتى اتفق مع الإمام وجمع كبير من القبائل للاتجاه إلى محاصرة الشهاب الجزري في حصن (براش). فحاصروه من جميع جهاته. ولما لم يكن للشهاب الجزري مؤنة كافية تمكنه من تحمل الحصار لفترة طويلة. فقد ضاق هو وأصحابه من ذلك الحصار. فراسل الإمام في العفو عنه والسماح له ولأصحابه العودة إلى اليمن الأسفل. فوافق الإمام بعد مشورة حكو وابن المعلم. بشرط أن يصل الشهاب إليه للوداع. وأن لا يفسد أحداً من العسكر. فوافق الشهاب على ذلك فأمنه الإمام وأصحابه. فنزلوا من الحصن ولم يصلوا إلى الإمام. بل ساروا نحو اليمن الأسفل عن طريق سنحان. وعند سير الشهاب في هذا الطريق اتفق مع جماعة من الجند الأيوبي وأهل سنحان على مساعدة المعز عند قدومه من تعز فوافقوه. ولما سمع الإمام بذلك غضب وأرسل حملة على أثر الشهاب. فلحقوه في (خبرة) وألقوا القبض عليه مع بعض أصحابه. بينما تمكن البعض الآخر من الهرب. فأخذوه إلى الإمام إلى صنعاء وأدخلوه في ربيع الآخر سنة 595هـ/ يناير 1199م. فأرسلوه مقيداً إلى حصن (فدة) ليسجن فيه[3]. والواقع أن الشهاب كان آنذاك غير قادر على الاتفاق مع القبائل لمناصرة المعز. وإنما كان ذلك التصرف عبارة عن حيلة من الإمام وحكو لإلقاء القبض على الشهاب إذ أنه لو

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 60، 61، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 168.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 61.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 61، 62، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 168.

كان حَرْض القبائل لمناصرة المعز لكان أسرع في الاتجاه نحوه قبل أن تتمكن قوات الإمام من اللحاق به وإلقاء القبض عليه.

مقتل حكو:

لم تكد تصل الأخبار إلى مسامع المعز بانهزام جيشه في ذمار، وإلقاء القبض على الشهاب الجَزَرِي في صنعاء، حتى أعد جيشاً جراراً جمعه من كل منطقة من اليمن الأسفل. حدث ذلك في الوقت الذي كان الإمام وحكو غير متوقعين أن المعز قادر على جمع جيش كبير كهذا والتحرك به نحو صنعاء، وخاصة لما اتصف به المعز من كراهية الجند له، ولكنه فعل ذلك فسار بجيشه الكبير حتى بلغ نقيل صيد (سمارة) فعسكر به في دار السلطان[1].

أما من ناحية حكو فإن فكرة السيطرة على اليمن الأسفل لا زالت تراود فكره وذلك بسبب كراهية الجند للمعز. وقد شجّع حكو لهذه الفكرة ابن المعلم، والغرض منه إغراء حكو في النزول إلى اليمن الأسفل من أجل إلقاء القبض عليه من قبل المعز وكان لهذا الغرض يراسل المعز سراً بكل ما يجري له مع حكو. لذلك التشجيع صمم حكو النزول إلى اليمن الأسفل. وفي الوقت الذي أعد المعز جيشاً للاتجاه نحو صنعاء. أعد حكو جيشاً للاتجاه به نحو تعز، فسار حتى بلغ حقل كتاب فعسكر به. وعندما علم بوصول المعز إلى نقيل صيد حاول أن يسبقه للسيطرة على رأس النقيل للتحصن فيه. ولكن ابن المعلم نصحه بعدم ترك مكانه فسمع كلامه. وذلك من أجل انتظار وصول الإمام وجيشه لنصرته. ولكن الإمام لم يتمكن من الوصول قبل قتل المعز[2]. وبالنسبة للمعز فإنه لم يلبث أن أسرع في المسير من نقيل صيد (سمارة) عندما وصلته رسالة من ابن المعلم تستعجله. فسار حتى طلع رأس النقيل يوم الاثنين 16/ شهر ربيع الآخر سنة 595هـ/ 4 فبراير 1199م. ثم سار نحو حقل كتاب. وما أن تكامل وصول جيشه حتى دارت معركة كبيرة بين الطرفين أسفرت عن هزيمة جيش حكو وقتله مع جماعة كبيرة من جنده[3]. واستيلاء المعز على جميع ما في معسكر حكو من الأموال والمؤن. بذلك يكون المعز قد استأصل أول بذور الشقاق عليه. بعد ذلك سار نحو ذمار فاستولى عليها بالقوة بعد هروب أنصار الإمام وأتباع حكو

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 62، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 169.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 62، 63.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 63، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 348، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 170.

منها[1]. والواقع أن سبب هزيمة حكو ثقته بعدم مناصرة الأيوبيين للمعز. وتباطؤ الإمام عن مناصرته. فضلاً عن تآمر ابن المعلم ضده ومراسلة المعز سراً.

ومن جهة الإمام فإن خروجه من صنعاء كان في يوم 17/ ربيع الآخر وكانت عادته أن يخرج بعد يومين أو ثلاثة من خروج حكو. إلا أنه لما وصل إلى قاع جهران وصلته أخبار قتل حكو كما وصلته عساكره من ذمار هاربين منهزمين. فقلق من ذلك. وأسرع بالعودة نحو شبام مستقره المعتاد وكان بها السلطان عمرو بن علي بن حاتم. فتثاقل عن تسليم حصن شبام كوكبان للإمام مما جعله يتجه إلى حصن (ثلاء) القريب منه فوصله يوم الخميس 21/ جمادى الأولى فاستقر به. وأثناء عودته تلك كتب إلى واليه على صنعاء صفي الدين محمد بن إبراهيم يحثه على التحصن بها وتسليم حصن (فدة) لسلاطين بني حاتم[2].

دخول المعز صنعاء:

ما كاد المعز يستولي على ذمار حتى أسرع في المسير نحو صنعاء. فعندما قرب منها خاف أنصار الإمام منه. فولوا هاربين إلى (ثلاء) وتركوا صنعاء خالية من الجند، فدخلها المعز. واستولى عليها دون قتال أو مقاومة من أحد[3]. وبذلك سيطر المعز على صنعاء بسهولة.

ومن ناحية الشهاب الجزري الذي كان مسجوناً في سجن (فدة) غرب صنعاء، فإنه لما علم بقتل حكو وسيطرة المعز على ذمار، حاول الهرب من السجن مع جماعته، إلا أن أنصار الإمام حاصروه ومنعوه من الهرب. ولما تحقق لهم وصول المعز إلى صنعاء تركوا محاصرة الشهاب وهربوا إلى (ثلاء) فأتاح ذلك فرصة له أن يفلت من الحصار ويتجه إلى صنعاء. فدخلها على أثر دخول المعز لها[4].

لم يلبث المعز في صنعاء غير أيام قلائل حتى اتجه نحو (شوابة) شمال صنعاء. وذلك بهدف متابعة الإمام وأنصاره. وتأمين صنعاء من هجمات تلك المنطقة. فلما وصل إلى (ريدة) قابله بها علي بن دغفان (صاحب شوابة) باذلاً له الطاعة والولاء، وطالباً مصالحته. فصالحه وعاد إلى صنعاء. ثم ترك الشهاب

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 64، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 171.
(2) ابن حاتم: السمط، ص: 63، 65، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 170، 171.
(3) ابن حاتم: السمط، ص: 66.
(4) ابن حاتم: السمط، ص: 66، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 172.

الجزري والياً عليها وعاد إلى تعز[1] وبذلك تمكن المعز من قتل بعض المنشقين عليه وإعادة سيطرته على ذمار وصنعاء.

2 ـ هشام الكردي:

تتابع القادة الأيوبيون في التمرد عن الطاعة، فأثناء ما كان المعز في صنعاء ينوي الخروج لمحاربة الإمام، خاف من بطشه أحد المقدمين وهو هشام الكردي فخرج عليه واتجه صوب الإمام حيث استقبله وضمه إلى أتباعه[2] إلا أن هشاماً لم يحارب الأيوبيين أثناء ما كان منضماً للإمام، فقد عاد إلى صفوف الجيش الأيوبي في عهد الأتابك سنقر[3].

3 ـ شمس الخواص:

أعطى انضمام حَكْو الأيوبي للإمام فرصة لبقية الأيوبيين أن يسلكوا طريقه في الانضمام للإمام نتيجة خوفهم من قتل المعز لهم فأثناء ما كان حكو تابعاً للإمام فكَّر شمس الخواص أن يلحق به فلم تمض عدة أيام على تمرد هشام الكردي على المعز عندما كان يريد الاتجاه لمحاربة الإمام وحكو حتى تمرد عن الطاعة أحد المقدمين الآخرين، هو شمس الخواص الذي كان من أقرب الناس للمعز. (وكان صاحب بابه وبيته، وإليه أمر الجند كافة). حدث خلافه أثناء ما كان معسكراً في ظاهر صنعاء يريد الاتجاه إلى شبام لمحاربة الإمام، وذلك بسبب عداوة شمس الخواص لخادم المعز المسمى الشهاب رشيداً، الذي حاول أن يدخل العداوة والبغضاء بين شمس الخواص والمعز فحسن إليه قتله فلما وافق المعز على ذلك. عملت حيلة لقتله بالسم عن طريق وضعه في (زبدية) طعام، فوصل الخبر إليه وظل محتاطاً إلى أن تحقق له أن المعز يحاول إعطائه الزبدية التي وضع بها رشيد السم، فنهض من ساعته بمن معه من الجند البالغ عددهم ستمائة فارس. معلناً التمرد والخروج عن الطاعة. فسار بهم حتى وصلوا منطقة (عصر) غرب صنعاء فعسكروا بها. أما المعز فلما رأى أن معظم جنده تمرد مع شمس الخواص. ترك الاتجاه لمحاربة الإمام وعاد إلى تعز[4].

والواقع أن المعز لم يحسن التصرف، فقد وقع في خطأ حينما صدق وشاية القادة

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 66، 67، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 173.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 48، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 162، 163.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 66.

(4) ابن حاتم: السمط، ص: 48، 50، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 346، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 163.

ضد بعضهم البعض. مما جعله يفقد ثقة بعضهم. فخافوا منه وتمردوا عليه.

وأثناء ما كان شمس الخواص معسكراً في (عصر) راسل الإمام إلى شبام، يطلب منه أن يصل إليه للسيطرة على صنعاء[1]. وسرعان ما استجاب الإمام لرسالته. فأسرع في القدوم إليه وبرفقته حكو. فما أن وصلوا إليه حتى اتفقوا على الذهاب إلى صنعاء. فساروا بجيوشهم وعسكروا قرب سورها[2].

وبالنسبة لأهل صنعاء داخل السور فقد انقسموا إلى فرقتين. فرقة رغبت دخول الإمام وفرقة أخرى كرهت دخوله، ونتيجة لعدم مقدرة من يكره الإمام عمل أي شيء لم يكن لهم بد من أن يستسلموا لكثرة الجيش المؤيد للإمام خارج المدينة بقيادة شمس الخواص وحكو. فسهل ذلك لشمس الخواص والإمام أن يدخلا صنعاء دون مقاومة. وذلك في شهر ذي القعدة سنة 594هـ/ سبتمبر 1198م. أما حكو فقد بقي بجيشه خارج المدينة مع بعض أنصار الإمام[3] بذلك أصبحت صنعاء تحت سلطة الإمام.

وعلى الرغم من مساعدة شمس الخواص في إدخال الإمام إلى صنعاء، إلا أنه (لما رأى إقبال الناس على الإمام وطاعتهم له). حسم على نفسه من انضمامه إليه وإدخاله صنعاء. (وخشي من غائلته وأدركته النفاسة له). فما كان منه إلا أن يحاول الذهاب للقبض على الإمام أثناء ما كان في المسجد. فحاصره قبل صلاة المغرب من كل جهاته. فاضطر أنصار الإمام إلى التفرّق من حوله دون أن يتمكنوا من عمل أي شيء ضد شمس الخواص لقلتهم ودخول الليل عليهم، أما الإمام فقد خاف على نفسه وخرج متنكراً من المسجد، واتجه إلى دار أحد أنصاره بصنعاء فاختبأ عنده. وحاول أن يعمل على إدخال أنصاره من خارج سور صنعاء أو يخرج إليهم فلم يتمكن من ذلك كما حاول أن يطلب (حكو) للدخول إلى صنعاء. ولكن (حكو) خاف من المكيدة عليه وعلى أصحابه، عند دخولهم أثناء الليل، فاعتذر عن الدخول[4].

وبالرغم من عدم دخول (حكو) صنعاء إلا أنه لم يسكت من عمل شمس الخواص. فقد راسله وقال له: (إن الإمام مع أهل البلد يمنعونه ونحن من ورائهم) فلما رأى شمس الخواص موقف (حكو) لم يكن له مفر من أن يجمع أصحابه

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 50، 51، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 165، 166.
(2) ابن حاتم: السمط، ص: 51، 52.
(3) ابن حاتم: السمط، ص: 52، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 164، 165.
(4) ابن حاتم: السمط، ص: 52 ـ 54، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 165، 166.

ويغادر صنعاء. ولكي لا يفقد مساعدة الإمام وخاصة بعد مخالفته للمعز. اعتذر له عن عمله ذلك. وبايعه وطلب منه منشوراً (مقتضاه الإذن له بالتوجه حيث أحب). فخرج من صنعاء مع طلوع شمس اليوم التالي لدخوله إليها. متجهاً نحو تهامة[1]. ويلاحظ أن شمس الخواص لم يكن مخلصاً في ميله إلى الإمام. ولكنه أدخله صنعاء نكاية بالمعز فقط، ثم تركه وأحجم أن يبقى من أتباعه، فاتجه نحو تهامة.

ومن جهة المعز فما أن وصلت الأخبار إلى مسامعه بأن شمس الخواص متجه إلى تهامة حتى أسرع بتجهيز قواته والسير بهم نحو (زبيد) خشية عليها من سيطرة شمس الخواص لها. فوصل إليها ودخلها قبل مجيء شمس الخواص. أما بالنسبة لجند شمس الخواص فقد تغير موقفهم تجاهه. فأثناء سيرهم في الطريق اتفقوا على عدم طاعته والإمساك به نتيجة خروجه عن المعز وميله إلى الإمام فألقوا القبض عليه. وأوصلوه إلى المعز إلى (زبيد) وفي هذه المرة لم يستخدم المعز القسوة تجاه قوّاده. بل عفا عنه ونفاه إلى جزيرة دهلك فمات بها[2]. وبذلك انتهت أحد الشخصيات الأيوبية المنشقة دون أن يضطر المعز الاتجاه لمحاربته. ومن الملاحظ هنا أن تمرد شمس الخواص وإلقاء القبض عليه حدث قبل أن يقتل حَكُو.

4 ـ هَلَنْدري:

استفاد الإمام من الأيوبيين المنشقين، فساهموا في توسعه في السيطرة على بعض المناطق اليمنية، ولما تمكن المعز من القضاء عليهم واستعاد صنعاء وذمار. خاف منه الإمام فانتقل من (شبام) إلى (ثلاء) ثم استقر به المقام في (أثافت) في بلاد الظاهر. وآنذاك حاول أن يستغل انشقاق هلندري (أو هلدري) ابن أحمد المرواني الكردي عن المعز. فكاتبه يطلب قدومه إليه ليوليه على قيادة الجند بدلاً عن حكو[3].

وكان هلندري من أتباع طغتكين فنفاه إلى الشام لخوفه منه، ثم عاد أيام المعز للعمل تحت خدمته ولكنه لم يتفق معه، لذلك أعلن هلندري التمرد على المعز. واحتمى عند المؤيد بن قاسم صاحب المخلاف السليماني. وما أن وصل إليه كتاب الإمام، حتى أسرع إلى إجابته. فسار من ساعته نحوه إلى (أثافت) فوصلها في

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 57.
(2) ابن حاتم: السمط، ص: 58، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 346، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 167.
(3) ابن حاتم: السمط، ص: 67، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 175.

شعبان سنة 595هـ/ مايو 1199م. ومن جهة الإمام لما رآه قادماً خرج إلى لقائه فاستقبله بحفاوة وإكرام. وجعله أميراً لجنده وهي الوظيفة التي كانت لحكو[1]. وبذلك أصبح هلندري منضماً للإمام وأحد قادته وأنصاره. إلا أن ذلك لم يدم طويلاً.

وفي الوقت الذي كان فيه المعز محاصراً لكوكبان، الذي كان به بنو حاتم. حاول الإمام الاستغاثة بهلندري. فبعث إليه يطلب توجهه إلى حصن (ذمرمر) لمساعدة بني حاتم. لأن الزيدية وبني حاتم كانوا اتفقوا آنذاك على مساعدة بعضهم البعض. فاتجه هلندري إلى (ذمرمر) ولكنه وصل إليه عندما تمت المصالحة بين المعز وبني حاتم[2]. لأن بني حاتم فضلوا عدم محاربة المعز. فعاد هلندري من هناك دون اشتراكه في قتال الأيوبيين.

وخلال وجود هلندري في منطقة (الذنائب) في حجة وما والاها، راسله علم الدين وردسار الذي كان في (المحاليب) يرغبه في العودة إلى المعز ويلومه على ميله إلى الإمام فلم يجبه بشيء. ليس ذلك فحسب بل حاول الإمام مكاتبة وردسار وكافة جنده يستميلهم إليه ويدعوهم إلى الدخول في طاعته[3]. إلا أنهم رفضوا ذلك. وكان حدوث ذلك قبل أن ينشق وردسار على المعز. وعندما كان هلندري في (حوث) راسله القائد عطيفة على مخالفة الإمام وأخذ تهامة، فبدأ هلندري يضمر التخلي عن مناصرة الإمام. ولكنه لاطفه وأوهمه أنه يريد أخذ الأموال المحددة على أهل تهامة. فنزل إليها عن طريق (الذنائب) ثم اتجه للسيطرة على المهجم والمحاليب والهلبة[4]. وكذلك جاءته رسالة من (طاشيكين) أحد أمراء الخلافة العباسية ببغداد تخبره بمخالفة الإمام، ويعده عن الخلافة بتمليكه اليمن. فقوَّى ذلك من عزم هلندري على عدم مناصرة الإمام. فكان كلما استدعاه تثاقل عن المجيء إليه وأبدى له الاعتذار[5]. والجدير بالذكر أن هلندري رغم انضمامه إلى الإمام إلاَّ أنه لم يلتقِ مع الأيوبيين في أي قتال. فسهل له ذلك العودة إلى صفوفهم.

وفي الوقت الذي كان فيه هلندري واقفاً في (الذنائب) يحاول العودة إلى صف الأيوبيين. قدم إليه وردسار هارباً من المعز في نية الميل إلى الإمام. فحاول هلندري منعه وأصر على ذلك بينما أصر وردسار على الذهاب. فحدث شجار

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 67، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 175.
(2) ابن حاتم: السمط، ص: 71.
(3) ابن حاتم: السمط، ص: 70، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 175.
(4) ابن حاتم: السمط، ص: 75.
(5) ابن حاتم: السمط، ص: 76، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 175.

بينهما كان سيؤدي إلى قتال. وفي أثناء ذلك حينما كان هلندري يحاول منع وردسار من الاتجاه إلى الإمام علماً أن المعز قادم إليهما. فخاف وردسار وجيشه وجيش هلندري منه فأسرعوا في التحرك نحو الإمام إلى صعدة، أما هلندري فقد اتجه إلى (الظهيرة). ولما وصل المعز إلى (الذنائب) عسكر بها وأثناء ذلك عمل هلندري على مراسلته مخبراً إياه أنه خرج عن طاعة الإمام ونكث ببيعته له وطلب من المعز العفو عنه. وكنوع من المجاملة قدم له حصاناً ومملوكاً وفهداً. ونتيجة لمحاولة هلندري منع وردسار من الوصول إلى الإمام وغيرها عفا عنه المعز وضمه إلى صفه وأقطعه (حرض في تهامة/ والحموس في بلاد الأهنوم بحجة، وصعدة)[1] وبذلك عاد هلندري إلى صفوف الأيوبيين.

5 ـ وَرْدَسَار:

يأتي هذه المرة دور أحد القادة الأيوبيين في الانشقاق هو وَرْدَسَار، الذي كان غالباً ما يرافق المعز في حملاته[2]. وكان حدوث الخلاف بينهما في عدن. فخاف وردسار على نفسه من القتل فهرب مع جماعة من أصحابه، وسار بهم حتى وصلوا مغارب ذمار. ومنها كاتب وردسار الإمام يطلب الوصول إليه. ونتيجة لخوفه من إلقاء القبض عليه من حاميات المعز اتجه نحو ريمة الأشباط ينتظر جواب الإمام فمكث عند أحد مشايخها. ومن جهة والي صنعاء الشهاب الجزري فإنه لما علم بانشقاق وردسار وتوجهه إلى الإمام، بعث عسكراً إلى الهان (أنس) لرصد المسالك، ومنعه من الوصول إلى الإمام. فلم يتمكنوا من منعه لأنه سبقهم باجتياز الطريق إلى ريمة[3].

وما أن وصل جواب الإمام إلى ريمة بقدوم وردسار إليه حتى أسرع في الخروج منها متجهاً إلى صعدة. فسار عبر طريق مسار في خوف من جنود المعز حتى وصل إلى حجة. فعمل على مراسلة هلندري الذي كان قد استقر في الذنائب في طلب السماح له القدوم إليه. فسمح له هلندري فلما وصل إليه وردسار مع جماعته استقبلهم هلندري وأكرمهم وأوقفهم عنده.

وأثناء تلك الإقامة جرت محاورة بين الطرفين حول موقفهما. فأوضح هلندري أنه عدل عن رأيه في طاعة الإمام وعاتب عليه، ويريد منع وردسار

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 78.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 66.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 76، زبارة: أئمة، ص: 123، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 176.

وجماعته من الوصول إليه. وكان جند هلندري آنذاك أكثر من جند وردسار فلم يتمكن من الخروج من لديه بالقوة مما جعله يشرع في استمالة جند هلندري للتوجه معه إلى الإمام فأجابه جمع كبير منهم، ولم يبق مع هلندري إلا عدة أشخاص[1] وذلك بسبب خوفهم من عدم تمكنه من الوفاء لهم بإعطائهم أعطياتهم، وعدم كفاية المنطقة المسيطر عليها لعطاياتهم، إضافة إلى خوفهم من المعز بعد أن أعلنوا مخالفتهم له.

وما أن تمكن وردسار من استمالة جند هلندري وسماعهم بقدوم المعز نحوهم، حتى أسرعوا جميعاً في المسير نحو الإمام، بعد أن تركوا هلندري لوحده مع خمسة عشر نفراً، غير قادرين على منعهم المسير[2] فلما وصلوا إلى صعدة استقبلهم الإمام وأكرمهم[3]. وكان وصولهم إليها يوم الأربعاء 12/ جمادى الآخرة سنة 598هـ/ مارس 1202م[4]. وبذلك انضم وردسار إلى الإمام. إلا أنه لم تمض فترة قصيرة على انضمامه حتى وصله خبر قتل المعز فعاد إلى صفوف الأيوبيين قبل تورطه في الاشتراك في محاربتهم.

6 ـ الأتابك سُنْقُر المعزي:

كان الأتابك سيف الدين سُنْقُر آخر المنشقين عن المعز. وكان يعمل لديه مقدم رتبه (بمبين) وأثناء ما كان المعز قد اتجه إلى (حجة) سنة 598هـ/ 1202م لتسلم الأموال الواجبة عليها. ووصل إلى منطقة (الذنائب) واستقر بها. أرسل إلى أهل (قدم) جماعة من عساكره، فساروا إلى أحد حصونهم المسمى (حقيل) وألقوا القبض على والي الحصن، وأرسلوه إلى المعز. وكان هذا الوالي قد ترك رهائن عند المعز وكان مطيعاً له. فلما علم أهل قدم بإلقاء القبض عليه، غضبوا وتجمعوا وأحاطوا بجماعة المعز الذين قدموا إليهم فقتلوهم عن آخرهم. أدى ذلك التصرف إلى غضب المعز فقام بقتل كل الرهائن الموجودين لديه لأهل قدم وأكثرهم أطفالا[5].

وفي نفس الوقت انسحب الأتابك سيف الدين سنقر من (مَبْيَن) إلى المعز إلى الذنائب فوجد الرهائن قد قتلوا فاستنكر هذا العمل ولام المعز على تصرفه فغضب

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 77، 78.
(2) ابن حاتم: السمط، ص: 77، 78، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 176.
(3) ابن حاتم: السمط، ص: 78.
(4) ابن حاتم: السمط، ص: 76، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 176.
(5) ابن حاتم: السمط، ص: 79، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 356، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 177.

المعز من لومه له، وأضمر على قتله. فخاف سنقر منه، وكان قد سبق أن داخله الخوف والشك منه من حديث سابق بينهما. فلم يكن له بد من إنقاذ نفسه من فتك المعز به. فاتجه إلى إفساد الجند سراً. فلما أطاعوه أظهر الخلاف على المعز وبدأ في قتاله وذلك عن طريق شن الغارات المتعددة في مناطق تهامة. فأول ما بدأ به أنه اتجه بمن أطاعه من الجند نحو المهجم (فنهبوا ما فيها من الأموال) ثم انتقل هو وأصحابه وحريمهم إلى (المدارة) وجعلوها مستقرهم[1].

في الوقت ذاته حاول المعز التوجه لمطاردتهم وقتالهم. فاتجه من (الذنائب) نحو المهجم فلم يجدهم فترك بها حامية من جيشه مكوَّنة من مائة فارس. ثم سار إلى الكدراء. أما الأتابك سنقر فإنه عندما خرج المعز من (المهجم) خلفه إليها ونهب ما فيها من الخيل والعدد والأموال وعاد إلى (المدارة). أقلق هذا التصرف المعز فعزم على الاتجاه إلى مقرهم إلى (المدارة) للقضاء عليهم. فما أن وصل إليهم حتى خرج إليه عساكرها فباغتوه بالهجوم وقتلوا أحد جنده، مما أدى إلى إرباك جيش المعز وانهزامه. وذلك بسبب المفاجأة، وتركه حاميات في مدن تهامة وذهابه إليهم بجيش غير كافٍ فأضعف ذلك من قواته فانهزم[2] ثم اتجه المعز منهزماً نحو الكدراء ومنها أسرع إلى زبيد لتجميع جيشه والعودة بهم إلى قتال سنقر مرة أخرى.

أما من جهة الأتابك سنقر فإنه لما انهزم المعز توجه إلى مطاردته إلى الكدراء. فلم يجده بها فنهبها وأخذ منها أموالاً كثيرة، ثم عاد إلى (المدارة) وبدأ يراسل الإمام في الميل إليه. وأثناء ذلك المراسلة حدث قتل المعز في زبيد فعاد الأتابك سنقر إلى صفوف الأيوبيين دون أن يلتقي بالإمام[3]. وهكذا تعددت الشخصيات الأيوبية التي أعلنت الانشقاق على المعز. مما جعله يعاني منها كثيراً حيث ظل يصارعهم طيلة فترة حكمه. كما ساعد هذا الانشقاق الأيوبي الإمام عبد اللّٰه بن حمزة على الاستيلاء على كثير من مناطق شمال صنعاء. فأقلق ذلك المعز وجعل حكمه لليمن غير مستقر.

مخالفة المعز:

تورد المصادر ثلاثة أحداث جسام خرج فيها المعز عن أهداف الحكم

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 80، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 357، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 177.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 80، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 357، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 178.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 81، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 178، 179.

الأيوبي هي أولاً: إدعاؤه الخلافة لنفسه[1]. وثانياً: إدعاؤه النسب الأموي[2]. وثالثاً: اعتناقه مذهب الإسماعيلية[3].

وكما يبدو أن المعز لم يدع إلى نفسه بالخلافة ولكنه حاول الاستقلال بحكم اليمن عن الأيوبيين بمصر. وفكرة الاستقلال عادة اتبعها أفراد البيت الأيوبي بمناطق نفوذهم في الشام ومصر. كذلك فإن المعز لم يدع النسب الأموي. ولكنه كما يبدو حاجج الزيدية بما فعله بنو أمية معهم. أي أنه إذا كانت الزيدية تدعي الأحقية بتولي الخلافة أو الحكم كونهم علويين. فهو يتصرف معهم كما تصرف بنو أمية مع سابقيهم. وبالنسبة لاعتناق المعز المذهب الإسماعيلي فهو كذلك لم يعتنقه ولكنه تعاطف معهم سياسياً فلم يَقْسُ عليهم لعدم وجود مبرر يوجب ذلك. قياساً لقسوته على أهل السُنَّة الذين خرجوا عليه حين قتل كثيراً منهم. فجعل ذلك الكثير يعتقدون أنه مال إلى مذهبهم الإسماعيلي وخرج عن مذهب أهل السنة. وحواره مع الإسماعيلية في ذي جبلة دليل على عدم اعتقاده بمذهبهم حيث أورد الخزرجي أن الإسماعيلية: (طمعوا في سقوط مذهب السُنَّة ولو بذي جبلة وسألوه أن يأمر الخطباء. فامتنع فسألوا أن يأمر بإسقاط ذكر الشيخين فقال لا طاقة لي بالسواد الأعظم. فقالوا له افعل لنا هذا ولو في ذي جبلة وحدها فأبى عليهم)[4]. وبذلك فإن المعز لم يكن قد مال إلى الإسماعيلية أو ادَّعى الخلافة أو النسب الأموي.

مقتل المعز:

نتيجة لما اتصف به المعز من القسوة تجاه الجند والرعايا وما عمل بهم من القتل والظلم والإخافة[5] وما اتصف به من قلة النظر في أحوالهم (وجعل أكثر بطانته وأصحاب مشورته الخدم والحريم). تآمر عليه الجند واتفقوا على قتله، وأخفوا ذلك حتى تأتيهم الفرصة. وقد ساعدهم لذلك عاملان. أحدهما: استقلاله عن الأيوبيين في مصر والشام. والآخر: حدوث انشقاق الجند الأيوبي عليه. ومحاربة الأتابك سنقر له. وكانت الفرصة المناسبة لقتله عندما أراد المعز التوجه من (زبيد) إلى (المدارة) لمقاتلة الأتابك سنقر. فلما وصل إلى (القوز) شمال زبيد وأمر الجند على الاصطفاف إلى صفين ميمنة وميسرة في غرض القتال. وثبوا عليه وقتلوه دون أن يدافع عنه أحد منهم بسبب اتصافه بالظلم نحوهم. وكان من ضمن من قتله (هندوة، والقرابلي، والدقيق)

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 71، زبارة: أئمة اليمن، ص: 123.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 71.

(3) الخزرجي: العسجد، ص: 173.

(4) الخزرجي: العسجد، ص: 173.

(5) الخزرجي: العسجد، ص: 73.

وكان قتله في آخر رجب سنة 598هـ/ أبريل 1202م[1]. وبذلك انتهى حكم المعز لليمن، بعد صراع مستمر مع المنشقّين عنه والزيدية.

ومن الملاحظ مما سلف أنه على الرغم من أن الملك طغتكين تمكن من توحيد اليمن تحت النفوذ الأيوبي. إلا أن ابنه المعز لم يتمكن من جعل اليمن كلها موحدة تحت نفوذه. والسبب في ذلك يرجع إلى سياسته تجاه القادة الأيوبيين. الذين كانوا عماد الدولة الأيوبية في اليمن. فقد استخدم القسوة نحوهم من أول أيام توليته السلطة فأعدم والي حَرَض ووالي صنعاء. فأخاف ذلك بقية الأيوبيين. وبدأوا يبحثون عن ملجأ يؤمن حياتهم. فاستغلوا فرصة عداء الإمام للأيوبيين. فانشقوا عن المعز وانضموا إلى الإمام. الذي هو الآخر استغل انشقاق هؤلاء القادة الأيوبيين وعمل على ضمهم إليه. فساهم ذلك في زيادة قوة الإمام وتوسعه في بعض مناطق اليمن. فأدى ذلك بالمعز أن يظل طيلة فترة حكمه يناضل من أجل القضاء على هؤلاء المنشقين والقضاء على الإمام والحدّ من توسعه. وعلى الرغم من ذلك فقد تمكن من القضاء على بعض المنشقين عليه والحدّ من توسع الإمام ولكنه دفع حياته ثمناً لذلك الصراع أو لسياسته تلك.

أحوال الأيوبيين بعد قتل المعز

1 ـ انضمام الشهاب إلى الإمام:

بعد قتل المعز ارتبك أمر القوى الأيوبية في صنعاء. فقد عمل جماعة من الجند الموجودين بها على مكاتبة الأمير وردسار للحضور إليهم، فطلب من الإمام السماح له ولمن معه بالذهاب إلى صنعاء، فوافق على ذلك. وآنذاك أسرع وردسار في الخروج إليهم من (حُوْث) فسار حتى وصل صنعاء[2] لمعرفة طلب الأيوبيين له. وأما ما كان من الشهاب الجزري والي صنعاء فقد خاف على نفسه من الأيوبيين الموجودين بها. والذين أخذوا يطالبونه بإعطائهم أموال المعز التي كانت عنده، وهددوه بالقتل. فبدأ ينقل حريمه ومتاعه إلى حصن (عُضْدان) خوفاً منهم. ثم عاد للقعود بصنعاء بمفرده، وأخذ يفكر في الميل إلى طاعة الإمام فاستغل وجود الأمير وردسار الذي كانت له علاقة طيبة بالإمام بصنعاء. فطلب منه أن يتوسط له عند الإمام بالانضمام إليه. شريطة أن لا يؤاخذه بما تقدم من الإساءة ومحاربته له.

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 82، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 182، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 52، العرشي: بلوغ المرام، ص: 41. يورد الجند في السلوك، 2/ 535 أن وفاة المعز كان في ر جب سنة 599هـ.

(2) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 358.

فكتب وردسار إلى الإمام يخبره بطلب الشهاب فعاد جوابه بإعطائه الأمان والترحيب به في دخوله في طاعته وطلب الالتقاء به في بيت (مساك)[1] قرب ريدة.

وفي الوقت الذي كان فيه الشهاب الجزري ينوي الميل لطاعة الإمام كان وردسار يفكر في الاتجاه إلى اليمن الأسفل لإعلان طاعته للأمراء الأيوبيين بها لأن الأسباب التي جعلته يميل إلى الإمام قد زالت بانتهاء المعز. فسار نحو تعز قبل التقاء الإمام بالشهاب.

وأثناء ذلك التقى الشهاب بالإمام في بيت (مساك) في 18/ شوال سنة 598هـ/ 12 يوليو 1202م. انتهى هذا اللقاء بمبايعة الشهاب للإمام والعودة إلى صنعاء لتسليمها له. وقد تسلمها نيابة عنه أخوه عماد الدين يحيى بن حمزة. فخطب بها للإمام وأذّن بحي على خير العمل وألغى الخطبة لبني العباس[2] بذلك سيطر الإمام على صنعاء دون قتال. ومن جهة الأتابك سنقر فإن خبر لقاء الشهاب والإمام وصل إليه إلى الجند أثناء استقباله لوردسار فغضب الأتابك من الشهاب وفكّر في إرسال قواته إليها لاستعادتها.

وبالنسبة للإمام فبعد أن استولى على صنعاء أرسل الشهاب وأخاه عماد الدين إلى (الدملوة) لإقناع الأمير نجاح الذي كان متمرداً على سنقر بالانضمام إلى الإمام. ولكنهما لم يتمكنا من إقناعه. فعاد أخو الإمام إلى صنعاء أما الشهاب فقد كاتب الأتابك سنقر يطلب الوصول إليه. فرحب به وعفا عنه، وجعله من أتباعه[3]. وخلال بقائه مع الأتابك استعان به في الاتجاه إلى عدن لمحاصرة الأمير برعش فيها والذي تمرد عن طاعة الأتابك. كما كان الأتابك يستعين به في أغلب حملاته[4].

وعلى الرغم من دخول الشهاب الجزري في طاعة الأتابك سنقر إلا أنه لم يستمر على تلك الطاعة. فقد تمرد عليه سنة 705هـ/ 1208م واتجه إلى (يفعان) في زبيد، ثم راسل الإمام يطلب القدوم إليه. فرحب به الإمام وسار إليه أثناء ما كان في (حلملم) فانضم إليه وأصبح من أتباعه. وظل الشهاب في طاعة الإمام إلى أن توجه الأتابك من صنعاء إلى زبيد سنة 608هـ/ 1210م حيث تمكن من إلقاء القبض على الشهاب وأرسله إلى سجن التعكر[5]. وبقي في سجنه إلى أن سعى وردسار في قتله بعد وفاة الأتابك سنقر[6]. وهكذا كانت مواقف الشهاب الجزري بعد مقتل المعز متأرجحة بين طاعته للإمام وطاعته للأيوبيين.

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 86، 87، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 185.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 87، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 185.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 93. (4) ابن حاتم: السمط، ص: 123.

(5) ابن حاتم: السمط، ص: 143 ـ 147.

(6) ابن حاتم: السمط، ص: 148، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 395، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 323.

مراسلة الإمام لكبار القادة الأيوبيين:

حاول الإمام استغلال مقتل المعز وتفكك الجند الأيوبي وانشقاقهم. فأسرع إلى مراسلة أكابر أمرائهم يدعوهم إلى طاعته. ظناً منه أن الأيوبيين بعد قتلهم للمعز سيطيعونه. وسيحقق بذلك رغبته الكبرى أن يصبح حاكماً لليمن كله. فكلف بإيصال كتبه إليهم أحد دعاته هو مرحب بن سليمان الحرازي. الذي أسرع في السير إلى تهامة. فلما وصل إلى (المهجم) التقى بالأمير علي بن أبي بكر القرابلي وسلمه رسالة الإمام. فأحسن استقباله وأبدى استعداده لطاعته. ثم سار إلى الكدراء. ولما التقى بها بالأمير (الدقيق) رفض طاعته وأورد طعناً على الإمام[1] واستنكر أن يكتب في رسالته إليه أنه ابن رسول اللّه ﷺ وقال: (هل بقي أحد في اليمن من يدعى بهذا الاسم؟ فما قتلنا إسماعيل إلا عليه)[2] يدل ذلك على أنه رافض أن يدخل في طاعة الإمام.

استمر رسول الإمام في السعي وراء أكابر الأمراء فسار يبحث عن الأتابك سنقر الذي كان آنذاك من أهم الشخصيات الأيوبية. فلما وصل إلى زبيد وجده قد رحل عنها واتجه إلى تعز. فأسرع باللحاق به إليها فوصلها أثناء ما كان الأتابك سنقر في عدن، فبعث إليه برسالة تخبره أنه رسول الإمام. فردَّ عليه الأتابك أن يتوقف في تعز حتى يعود من عدن[3]. وحينما عاد منها إلى الجند اتجه إليها رسول الإمام. فاستقبله الأتابك وأكرمه. ثم أخذ منه رسالة الإمام وقرأها. وصادف آنذاك أن وصل كتاب إليه من وردسار، فتوقف الأتابك عن الرد للإمام، حتى يصل إليه وردسار. لأنه عاش مع الإمام ويعرفه أكثر من الأتابك. وما أن وصل وردسار إلى الجند حتى خلع طاعته للإمام. فاعتبر الأتابك هذا الخلع رداً له للإمام. فأذن للرسول العودة من عنده بغير جواب[4]. والحقيقة أن الخلاف المذهبي بين الزيدية والأيوبيين السُنّة هي التي أوقفت طاعتهم له. وما كان انضمامهم إليه سابقاً إلا نكاية بالمعز وخوفاً منه. أما وقد انتهى المعز فلا داعي لطاعة الإمام. ومع قناعة الأتابك باستحالة طاعته للإمام بعد أن أصبح أعلى قائد للأيوبيين في اليمن إلا أنه

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 93.

(2) ابن دغثم: سيرة الإمام عبد اللّه بن حمزة، تحقيق د. عبد الغني محمود، دار الفكر، بيروت جـ3، ط1، 1993م، ص: 290، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 366.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 94، ابن دغثم: سيرة الإمام، ص: 93 ـ 95، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 363.

(4) ابن دغثم: سيرة الإمام، ص: 93 ـ 95، ابن حاتم: السمط، ص: 94، 95، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 363، 364.

استخدم أسلوباً سياسياً مرناً في الرد على الإمام. وهو التوقف عن أي رد يغضبه حتى لا ينهض لمحاربة الأيوبيين.

كذلك استغل الإمام تمرد الأمير نجاح الأيوبي في حصن الدملوة بالصلو عن الأيوبيين. فأرسل إليه أخاه عماد الدين يحيى بن حمزة والشهاب الجزري كوسيطين برفقتهما بعض قادة الشهاب وجنده، وذلك لإقناع الأمير نجاح في الانضمام للإمام. وذلك بهدف إيجاد قاعدة له في اليمن الأسفل للضغط على القادة الأيوبيين الموجودين هناك أو جذبهم للدخول في طاعته. فساروا على خوف من الأيوبيين متحاشين الاقتراب من مراصدهم ومراكزهم المنتشرة على حصون اليمن المتعددة. ولما اقتربوا من حصن (حب) في بعدان، علم بهم الأتابك سنقر الذي كان آنذاك معسكراً في (إب) فحاول أن يمنعهم عن الوصول إلى الدملوة. إلا أنهم أسرعوا في المسير وسبقوا وصول جنده إليهم. وساروا نحوها عبر طريق غير معتادة المسير فيها، خوفاً من الاصطدام بالحاميات أو المراصد الأيوبية[1].

ولما وصلوا الدملوة صعد بعض الجند إلى الحصن لإخبار الأمير نجاح بوصول عماد الدين أخي الإمام والشهاب. وكان قد سبقت المراسلة إليه تحثه على الانضمام إلى الإمام. وتخبره بقدوم رسولين إليه. فنزل الأمير نجاح من الحصن واستقبلهما وأقعدهما في الجنات، شمال الدملوة وأكرمهما مع جندهما بإرسال الضيافات إليهم يومياً، أثناء ذلك انفصل عن الشهاب عسكره بسبب عدم صرف أعطياتهم واتجهوا إلى الأتابك سنقر للانضمام إليه، ولم يبق مع الشهاب سوى أربعين فارساً. وكان الأمير نجاح قد أرسل الشهاب إلى لحج لجمع الأموال للإنفاق على الجند الموجودين لديه. فلما رأى ما حدث من عسكر الشهاب، توقف عن الإنفاق. وبالرغم من محاولة عماد الدين والشهاب لإقناع الأمير نجاح الأيوبي بالانضمام إلى الإمام. وقعودهم عنده لعدة أيام. إلا أنهم لم يتمكنوا من إقناعه. رغم أنه ظل خارجاً عن طاعة الأتابك سنقر لفترة طويلة. ومن جهة الإمام فإنه لما علم بمخالفة جند الشهاب عليه. وعدم قبول نجاح طاعته، فضلاً عن تمكن وردسار من انتزاع صنعاء من أيدي الزيدية. كتب إلى أخيه عماد الدين يطلب منه سرعة القدوم إليه. أمام ذلك اضطر عماد الدين سرعة العودة إلى اليمن الأعلى. فسلك طريقاً بعيدة عن الأماكن التي كان يتمركز بها الأيوبيون ومراصدهم. أما الشهاب الجزري فقد اضطر أن يتجه إلى الأتابك سنقر إلى تعز لإعلان طاعته له[2]. وبذلك لم تنجح محاولة الإمام بضم الأيوبيين إلى صفه.

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 88، 89.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 90 ـ 92.

الناصر أيوب بن طغتكين

بحكم تسليم الأيوبيين بالنظام الوراثي في الحكم فقد أصبح الناصر بن طغتكين. الذي كان لا يزال في سن الطفولة أي لا يتجاوز العشر سنين. هو الوريث الشرعي للحكم الأيوبي في اليمن. ونتيجة لصغر سن الناصر وعدم مقدرته على القيام بأمور الدولة السياسية والعسكرية والإدارية. فقد نصب الأتابك سيف الدين سنقر المعزي للقيام بذلك العمل. ويرجع سبب تنصيبه للقيام بأمور الدولة الأيوبية إلى عاملين. أحدهما: قيام الأتابك سنقر بتربية الناصر، حيث كان أتابكاً له. والآخر: أنه كان متزوجاً من أم الناصر(1) ولا يستبعد أن أم الناصر هي التي دفعت ابنها إلى اختيار سنقر لتولي السلطة الأيوبية نيابة عن ابنها.

وعن الطريقة التي وصل بها الأتابك سنقر إلى تولي السلطة الأيوبية في اليمن فالواقع أنه نتيجة تمرد سنقر على المعز ومحاربته فقد كان من الصعب أن يصبح متولياً لها لولا ظروف خدمته وقدمته إلى الصفوف الأولى للسلطة. وهي الآتي:

أحدها إختيار الأكراد له:

فقد تم اختياره من قبل الأكراد في زبيد بعد قتلهم للمعز مباشرة ليتولّى أمرهم. نتيجة اشتراكهم في فكرة واحدة هي قيامهم ضد المعز. وذلك بمحاربة سنقر له واشتراك الأكراد بقتله. فراسلوه للوصول إليهم إلى زبيد ليتولّى أمرهم. ولم تكد تصل رسالتهم إليه حتى قطع مراسلته للإمام، وسار من (المدارة) نحو زبيد(2). ولما وصلها سرعان ما عقد مصالحة مع الأكراد(3). استهدفت هذه المصالحة كما يبدو قبول الأكراد بتولية سنقر أميراً عليهم. مقابل عدم معاقبتهم لقتل المعز وإبقائهم في مناصبهم في زبيد وتهامة ثم تقديمهم إلى الصفوف الأولى في السلطة الأيوبية في اليمن.

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 84، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 135، الخزرجي: العسجد، ص: 175.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 84، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 186.

(3) الجندي: السلوك، 2/ 536، الكبسي: اللطائف، ص: 66، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 186، الخزرجي: العسجد، ص: 175.

وثانيها مراسلة الناصر له:

فبعد أن تم للأتابك مصالحة الأيوبيين في زبيد تركهم وأسرع في السير نحو تعز ليتوج سلطة زبيد بسلطة تعز الشرعية، لأن الشرعية في تولي السلطة يعطيه طاعة الأيوبيين في اليمن كله. وقد ساعده على الإسراع للذهاب إلى تعز أنه تلقى رسالة من الناصر بعد قتل المعز أثناء ما كان في حصون حجة وتهامة متمرداً بها ضد الأيوبيين. تطلب منه القدوم إليه. مانحاً إياه العفو عما جرى بينه وبين أخيه المعز. فكانت هذه فرصة لسنقر أن يصل إلى أعلى السلطة، لعدم وجود من ينافسه من الأمراء الأيوبيين في اليمن، نتيجة صغر سن الناصر، وقرابته من البيت الأيوبي. إضافة إلى حالة التفكك والارتباك الذي أصاب الأيوبيين بعد قتل المعز. فجمع الأتابك سنقر بين موالاة الأكراد له في زبيد وموالاته للناصر. فحين وصل إلى تعز استقبله الناصر وخلع عليه وجعله أتابك عسكره. وما أن صار الأمير سنقر أتابكاً للأيوبيين حتى خرج إلى العسكر بتعز يأخذ العهد منهم لطاعة الناصر وطاعته[1]. فأطاعوهما. وبذلك أصبح الأتابك سنقر صاحب السلطة الفعلية. أما الناصر فقد كان لا يملك من السلطة إلا اسمها لصغر سنه.

وعن إكمال الأتابك لأخذ الطاعة له من الأيوبيين في اليمن وتولية الولاة عليها. فقد توجه من تعز إلى عدن وعزل عنها مهكار بن محمود الذي كان والياً عليها من قبل المعز وولّى مكانه عليها الأمير (برعش)[2] ثم اتجه سنقر نحو ذي جبلة فأعلن من بها من الأيوبيين الطاعة له. وبالنسبة لذمار وصنعاء فقد ولّى عليهما سنقر الأمير وردسار، وبذلك أطاع سنقر جميع الأيوبيين في مناطق اليمن ولم يبق خارجاً عن طاعته إلا مناطق الأئمة الزيدية في صعدة وما حولها.

ولما حدثت التمردات الأيوبية على سنقر اتجه للقضاء عليها. فكان لا بد له من تغيير عدة ولاة. فقد ولّى على زبيد مهكار بن محمود[3] وولّى على تهامة عدا زبيد والكدراء الأمير حسام الدين بكتمر السيفي[4] وذلك بعد قضائه على تمرد الأكراد فيها. أما عدن فقد عزل عنها (برعش) وولّى مكانه أحمد بن عبد اللّه بن عبد الوهاب[5] وضمن عملية التولية الأخرى. فقد ولّى سنقر على ذمار ورداع

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 84 ـ 85. (2) ابن حاتم: السمط، ص: 88.
(3) ابن حاتم: السمط، ص: 85.
(4) الخزرجي: العسجد، ص: 175، ابن حاتم: السمط، ص: 85.
(5) ابن حاتم: السمط، ص: 105، كريم: عدن، ص: 244، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 190.

البغش المعظمي[1] وولّى على وصاب فخر الدين أبا بكر علي بن رسول. وعلى ريمة بدر الدين الحسن بن رسول. وعلى (حب) في بعدان شمس الدين علي بن رسول[2] كذلك ولّى الأتابك وزيراً له الأمير علي بن عبد اللّه بن عبد الوهاب[3] وبذلك أصبح سنقر صاحب السلطة الفعلية في التولية وإدارة الدولة. وسنتكلم هنا عن أهم شخصيتين للدولة الأيوبية في عهد الناصر هما علم الدين وردسار والأتابك سنقر وعلاقتهما بالقوى الأيوبية والزيدية.

علم الدين وردسار:

عودته إلى الصف الأيوبي: كان الأمير علم الدين وردسار بن سامي المعزي أحد الأمراء الكبار الذين لا نظير لهم وقتذاك حيث (بلغ عدد مماليكه مائتين وستين مملوكاً)[4] وكان انضمامه للإمام يشكل خطورة على الأيوبيين. ولكنه لم يعمل على قتالهم. لأن الفترة التي قعدها عند الإمام كانت قصيرة. ولما قتل المعز زالت مخاوف وردسار وزالت معها أسباب وقوفه ضد الأيوبيين كما زالت معها بقاؤه موالياً للإمام. فعندما وصلت مكاتبة الأيوبيين بصنعاء إلى وردسار يطلبونه القدوم إليهم. أسرع في المسير إليهم من (حوث) بعد استئذانه من الإمام[5] وبعد وصوله إلى صنعاء لم يستعجل إعلان موالاته للأيوبيين. فقد ظل على علاقته الطيبة بالإمام متمسكاً بطاعته له. وعمل خلال بقائه في صنعاء على مكاتبة الإمام بشأن انضمام الشهاب الجزري إليه.

وعلى الرغم من أن وردسار كان يتظاهر بطاعة الإمام حين دخل صنعاء إلا أنه بدأت تراوده فكرة التخلي عنه والاتجاه إلى طاعة الأتابك سنقر في تعز. فلم يكد يستقر عدة أيام في صنعاء حتى أسرع في التوجه نحو اليمن الأسفل[6] لإعلان طاعته للأتابك وقد كان مقتل المعز، ومراسلة الأيوبيين بصنعاء له، وتولي الأتابك سنقر أمر الدولة الأيوبية في اليمن. فرصة مناسبة لوردسار أن يعيد تفكيره ويعمل على تحديد موقفه من القوة الموجودة باليمن بتحويل موالاته للأيوبيين، وترك مناصرته للإمام.

وخلال سير وردسار في طريقه إلى تعز كتب من حقل كتاب إلى الأتابك سنقر يشرح له أنه قادم إليه لإعلان طاعته له، وأنه لم يتمكن من التخلص من

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 96.
(2) ابن حاتم: السمط، ص: 105.
(3) ابن حاتم: السمط، ص: 112.
(4) ابن حاتم: السمط، ص: 149.
(5) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 308، الكبسي: اللطائف، ص: 66.
(6) ابن حاتم: السمط، ص: 86، زبارة: أئمة الزيدية، ص: 125.

المراكز الأيوبية المنتشرة عبر الطريق. ويطلب منه إمداده والإذن له للقدوم إليه. ولذلك أمر الأتابك سنقر الحاميات الأيوبية بعدم التعرض له. أما أنصار الإمام فقد أوهمهم وردسار أنه لا يزال مناصراً له وأن لديه منشوراً من الإمام بفسح الطريق له فتركوا التعرض له. وسار حتى وصل الجند حيث كان الأتابك سنقر معسكراً بها[1] بعد عودته من عدن. فلما وصل إليها خرج الأتابك وعسكره والناس إلى لقاء وردسار والترحيب به[2].

ولايته لصنعاء:

أقام وردسار في الجند ثلاثة أيام يتحاور فيها مع الأتابك سنقر. انتهت بإعلان انضمامه إلى معسكر الأيوبيين وخلع طاعة الإمام. وبيع علمه في السوق دليلاً على التهجين به والإسقاط لحرمته. وآنذاك قام الأتابك سنقر بتولية وردسار صنعاء وما حولها وأقطعه إياها من (نقيل سرح إلى البون)[3] وكما يتضح أن السبب في تعيين وردسار لتلك المناطق علاقته الطيبة بالإمام. وذلك لتجنيب الأيوبيين الدخول في صراع معه. إلا أن العلاقة الحسنة بين الإمام ووردسار قد تبدلت وتحولت من علاقة طيبة إلى علاقة عدائية. بسبب خلع وردسار الطاعة للإمام وموالاته للأيوبيين الذين كانوا يشكلون أخطر الأعداء للإمام.

وفي تلك الأثناء جهز الأتابك سنقر حملة لوردسار مكونة من ثمانين فارساً من جند سنقر مضاف إليها عسكر وردسار نفسه كذلك أعطاه عشرين ألف دينار[4]. للاستعانة بها لتجهيز الحملة، فتوجه وردسار بذلك من الجند نحو اليمن الأعلى لاستعادتها لسلطان الأيوبيين. فبدأ بالسيطرة على ذمار دون قتال لأن جميع الجند الذين كانوا بها دخلوا تحت طاعته دون مقاومة، ثم سار منها نحو صنعاء فاستولى عليها بغير قتال في 13/ ذي الحجة سنة 598هـ/ 5 سبتمبر 1202م بعد أن هرب منها واليها إلى الإمام[5] وبذلك استعاد وردسار ذمار وصنعاء للسلطة الأيوبية بعد أن كان الإمام قد سيطر عليهما.

بنو حاتم ووردسار:

وما أن سيطر وردسار على صنعاء حتى توجه إلى مصالحة سلاطين بني حاتم

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 94، الكبسي: اللطائف، ص: 68، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 188.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 94.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 95، 96.

(4) ابن حاتم: السمط، ص: 76، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 188، 189.

(5) ابن حاتم: السمط، ص: 97، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 189.

بأن يكون لهم نصف الرحبة مما يليهم وإطلاق مزارعهم التي بوادي (ضهر) ـ كذا كتب بالضاد ـ وشعوب والمنظر[1] وتهدف هذه المصالحة لضمان إيقاف بني حاتم من مناصرتهم للإمام. لأن بني حاتم كانوا قد كاتبوا الإمام بعد قتل المعز وشرحوا له كثرة خلاف الأيوبيين على المعز وحثوه على اغتنام الفرصة والاتجاه للسيطرة على اليمن[2]. كما يهدف ذلك الصلح عدم فتح جبهات متعددة لوردسار وإتاحة الفرصة له بالتحرك نحو عدو واحد هو الإمام.

خلاف أهل صنعاء لوردسار:

في الوقت الذي خرج فيه وردسار نحو كوكبان لاستخراج الأموال المقررة عليهم. تمرد أهل صنعاء عن طاعته في يوم الأربعاء 2/ جمادى الأخرى سنة 599هـ/ 16 فبراير 1303م. وألقوا القبض على أخيه شمس الدين الذي تركه نائباً عنه فيها. واعتصموا في المدينة ومالوا إلى تأييد الإمام، وأذّنوا (بحي على خير العمل) وما أن سمع وردسار بمخالفتهم له حتى أسرع في العودة نحوهم خوفاً من أن يسبقه الإمام في السيطرة عليها. فاتجه إلى صنعاء وعسكر في ناحيتها الشرقية وفرض عليهم الحصار في يوم الجمعة 4 من شهر المذكور[3]. وبدأ بمراسلة أهل صنعاء للعودة إلى طاعته. إلا أن أهل صنعاء أصروا على عدم طاعته رغم الحصار المفروض عليهم. وراسلوا الإمام يطلبون منه النجدة. وبالفعل أرسل إليهم أخاه عماد الدين يحيى بن حمزة في جمع كبير من عسكره. فساروا حتى وصلوا إلى وادي (ضهر) فعسكروا به. ولم يستطيعوا التقدم نحو صنعاء لنجدة أهلها، بسبب محاصرتها من وردسار ومساندة قبائل بني شهاب وسنحان وغيرهم للأيوبيين[4]. وقد كان بنو شهاب وسنحان حرضوا أهل صنعاء على التمرد ووعدوهم بالمناصرة، فلما تمردوا أخلفوا بوعدهم وناصروا وردسار عليهم[5].

وأثناء فرض وردسار الحصار على صنعاء حاول مراسلة أهلها يطلب مصالحتهم مقابل العفو عنهم. إلا أنهم لم يقبلوا ذلك. فاضطر مراسلة الأتابك سنقر إلى تعز يطلب نجدته له. فوصل رسول وردسار أثناء ما كاد الأتابك مجهزاً

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 98، زبارة: أئمة، ص: 125، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 368، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 190، مسفر: المرجع السابق، ص: 127.

(2) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 358، الكبسي: اللطائف، ص: 66.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 100، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 190، 191.

(4) ابن حاتم: السمط، ص: 100، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 374، والكبسي: اللطائف، ص: 69.

(5) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 374، الكبسي: اللطائف، ص: 69.

لستمائة فارس وعدداً من الرُجّل في نية الذهاب بهم نحو زبيد للقضاء على عصيان الأكراد بها. ففضل الإسراع نحو صنعاء خوفاً من تمكن الإمام من الاستيلاء عليها. فوصلها في يوم الخميس 6/ رجب سنة 599هـ/ 11 مارس 1203م. وما أن سمع أهل صنعاء بوصول الأتابك سنقر بجيشه نحوهم حتى خافوا منه وندموا على تمردهم وغيروا في أمرهم فاستغاثوا به طالبين الأمان منه فأمنهم بالرغم من مخالفتهم لوالي صنعاء وردسار الأيوبي. واكتفى بفرض عقوبة مالية عليهم وتوجيه اللوم لهم وكان مقدار العقوبة (عشرة آلاف دينار وعشر أفراس) وأوكل أمر استخراج العقوبة لوردسار[1] واتجه سنقر لدحر قوات الإمام التي قدمت نجدة لأهل صنعاء وعسكرت في وادي (ضهر) ثم واصل سيره إلى كوكبان وبلاد بني شهاب فبذلوا له الطاعة ثم عاد إلى صنعاء ومنها اتجه نحو اليمن الأسفل[2].

أما ما كان من وردسار فإنه استغل تكلفته بأخذ العقوبة المالية من أهل صنعاء فقام بالانتقام منهم أشد الانتقام حيث أنزل بهم الرجال والنساء أنواع العذاب[3] مثل الضرب والتعليق والعصر للأرجل والرؤوس والتحريق. كما ملأ بهم السجون[4] واضطرهم إلى بيع أراضيهم وبيوتهم فتفرقوا في الجهات اليمنية وقد فعل بهم ذلك نتيجة أفعالهم، كما وصفهم ابن حاتم بقوله: (وقد كان عندهم من البطر ما يجاوز الحد حتى حملهم على الخلاف)[5] لذلك استحل وردسار عقابهم.

علاقة وردسار بالإمام الزيدي:

تميزت علاقة كل من وردسار وسنقر بالإمام عبد اللّٰه بن حمزة في عهد الناصر منذ استيلاء وردسار على صنعاء سنة 598هـ/ 1202م. بالاعتراف الأيوبي بدولة الإمام على صعدة وما حولها فعقدت المصالحة على تحديد مناطق شمال صنعاء التابعة لكل طرف بينما كان الأيوبيون قبل ذلك لا يعترفون بالإمام. وظلوا مستمرين في حربه رغم تواجده في عدة مناطق في شمال صنعاء. وذلك كما يبدو بسبب علاقة وردسار الطيبة بالإمام حين كان تابعاً له في عهد المعز. إلا أن هذه المصالحة لم تحل الخلاف فيما بين الطرفين. فقد ظل نقض المصالحة وتجديدها

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 101، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 375، الكبسي: اللطائف، ص: 70، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 192.
(2) ابن حاتم: السمط، ص: 101 ـ 103.
(3) ابن حاتم: السمط، ص: 101.
(4) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 375، الكبسي: اللطائف، ص: 70، زبارة: أئمة، ص: 126، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 192.
(5) ابن حاتم: السمط، ص: 101.

مستمراً في كل سنة. وذلك كما يتضح بسبب تأرجح ميل القبائل وبني حاتم بين الموالاة للزيدية والموالاة للأيوبيين. فضلاً عن الخلاف المذهبي بينهما. أحدث ذلك صراعاً مستمراً وحروباً متعددة بين الطرفين حول السيطرة على مناطق وحصون اليمن الأعلى أو شمال وغرب صنعاء. فما كادت سنة من السنوات تخلو من وجود حروب بينهما استمرت طيلة فترة تولي وردسار لصنعاء. اتسم ذلك الصراع بالتحدي تارة والتعنت تارة أخرى. فضلاً عن محاولة كل طرف إبراز قواته ومحاولة كل طرف السيطرة على العديد من مناطق شمال وغرب صنعاء وإخراج كل منهما الآخر منها. ويمكن التدليل على ذلك بما أورده ابن حاتم عن وردسار بقوله: (وكان بينه وبين الإمام حروب كثيرة، فحيناً ينتصر على الإمام، ويطرده عن البلاد، وحيناً ينتصر عليه الإمام ويمنعه حقوقه من البلاد)[1] وسوف نورد هنا بعضاً من ذلك الصراع الذي دار بين الإمام ووردسار.

عندما انتزع وردسار صنعاء من تحت يد الإمام سنة 598هـ/ 1202م واتجه لمصالحة بني حاتم لعزلهم عن مناصرة الإمام. كان من الطبيعي أن تحدد العلاقة بين الطرفين بالعلاقة الطيبة أو العدائية. ونتيجة أن أهم هدف للأيوبيين هو سيطرتهم على اليمن كله. وأن أهم هدف للإمام نشر مذهبه وسيطرته على اليمن كله. لذلك كان من الطبيعي أن يحدث هذا صراعاً كبيراً بين الطرفين. فعلى أثر استيلاء وردسار على صنعاء من قوات الإمام. كتب الإمام رسالة إلى وردسار يعاتبه عن التخلي عن طاعته والعودة إلى طاعة الأيوبيين وسيطرته على صنعاء[2] ولكن وردسار رد على الإمام بأنه لم يخرج عن الطاعة وأهداه (ثياباً وطيباً)[3]. وكما يتضح أن وردسار كان يهدف بعبارة (لم يخرج عن الطاعة). أنه لم يخرج عن طاعة الأيوبيين الذين كلفوه بالاستيلاء على صنعاء. إضافة إلى ذلك فإنه أيضاً لم يخرج عن طاعة الإمام إذا ظل في مناطق نفوذه المعتادة في صعدة وما حولها. وبقي الأيوبيون مسيطرين على بقية اليمن. إلا أن طموح كل طرف في توسيع نفوذه، كان لا بد من وجود صراع وقتال فيما بينهما، لذلك حاول وردسار أن يرسل العديد من الغارات لإخضاع مناطق ما حول صنعاء كي تصبح صنعاء في مأمن من أية هجمات يشنها أنصار الإمام في المناطق المجاورة لها[4] أدى ذلك إلى إشعال الحرب بين الطرفين.

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 98، مسفر: المرجع السابق، ص: 127، 128.

(2) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 367، زبارة: أئمة، ص: 125، الكبسي: اللطائف، ص: 69.

(3) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 367.

(4) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 370.

ونتيجة لعلاقة وردسار الطيبة بالإمام فقد لجأ الطرفان إلى المصالحة وترك الحرب. وهي المصالحة الأولى المسمّاة بمصالحة وضع الحدود أو مصالحة قسمة البلاد بينهما. وتمت تلك المصالحة سنة 599هـ/ 1203م لمدة سنة (على أن يكون البون الأعلى والبون الأسفل لوردسار. ويكون الظاهران والجوف وصعدة للإمام وأن يدفع الإمام لوردسار في كل سنة مائة حمل موقرة حديداً من صعدة وعشرون رأساً من الخيل)[1] إلا أن هذه المصالحة لم تستمر فقد نقضت بعد عدة أشهر وتجددت الحرب بين الطرفين. ولما قدم الأتابك سنقر إلى صنعاء في نفس السنة لنجدة وردسار على أهل صنعاء وخروجه إلى أحد جبال غرب كوكبان. جرت المراسلة بينه وبين عماد الدين يحيى بن حمزة أخي الإمام الذي كان في (ثلاء) على تجديد مصالحة وردسار السابقة الذكر لمدة سنة. فوافق الطرفان على ذلك[2]. وكان السبب في تجديد المصالحة كي يتفرغ الأيوبيون إلى النزول إلى زبيد للقضاء على تمرد الأكراد بها.

وعلى الرغم من عقد تلك المصالحة التي اشترك فيها الأتابك سنقر ووردسار والإمام وأخوه عماد الدين. إلا أنها سرعان ما نقضت وقد اتهم كل طرف الآخر بأنه هو الذي نقض المصالحة. فعندما عاد وردسار من زبيد في المحرم سنة 600هـ/ سبتمبر 1203م اتهم الإمام بنقض المصالحة بعدة أشياء منها مراسلته القرابلي الأيوبي يطلب منه الانضمام إليه[3]. بيما اتهم الإمام وردسار بنقض المصالحة لأن الإمام نفسه لم يفعل ما يوجب نقضها[4]. لذلك نشبت الحرب بين الطرفين وكانت أكثر حدة. فقد اتجه وردسار إلى عدة مناطق شمال صنعاء وخاض عدة معارك مع أنصار الإمام وأهمها آنذاك معركة (مطرة) التي كان الإمام قد انتزعها من الأيوبيين. حيث التقى بها الجيش الأيوبي بقيادة وردسار بجيش الإمام بقيادة صنوه إبراهيم. فدارت معركة كبيرة بين الطرفين في 8/ شعبان سنة 600هـ/ 12 أبريل 1204م. انتهت بانتصار وردسار الأيوبي وقتل خلق كثير من جيش الإمام على رأسهم شقيقه إبراهيم[5]. وتسمى هذه المعركة بيوم نصف وهي في مشرق نهم ثم هناك يوم عقار وهو موضع في البون الأعلى[6]. ونتيجة استمرار تلك الحروب أضاف الأتابك

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 102، 103، الخزرجي: العسجد، ص: 178، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 371.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 102، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 367، 377.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 115، 116.

(4) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 380، زبارة: أئمة، ص: 127.

(5) ابن حاتم: السمط، ص: 106، زبارة: أئمة، ص: 129، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 384، 385، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 196.

(6) الخزرجي: العسجد، ص: 177، مسفر: المرجع السابق، ص: 128.

سنقر لوردسار عدة جهات مثل ذمار ورداع وغيرها[1]. بسبب شكوة وردسار بأن مالية صنعاء لا تكفي مؤنة عسكره.

ظلت الحروب مستمرة بين الطرفين حتى حلت سنة 601هـ/ 1204م. فسعى الطرفان إلى المهادنة بينهما على تسليم الإمام لوردسار كوكبان ويسلم وردسار في مقابل ذلك خمسة آلاف دينار سبئية، وعدد من البلدان التي استولوا عليها من الإمام. مثل بلدة مطرة، وجانباً من قرى الخشب، وبلاد حاشد، وبلاد بني زهير، وبلاد حصن ثلاء، من قرية حبابة مما خلفها، وبلاد حصن بكر وما يتصل بها. ونصف ما يحصل من مغارب كوكبان[2]. وأن تكون مدة الهدنة سنتين متواليتين تبدأ من منتصف شهر محرم سنة 600هـ/ 14/ سبتمبر 1204م[3]. إلا أن هذه المصالحة لقيت معارضة من الأتابك سنقر الذي رفض القبول بها[4]. وذلك بسبب تنازل وردسار على الكثير من المناطق التي بذل فيها الأيوبيون الكثير من التضحيات في سبيل السيطرة عليها من أنصار الإمام. وكان سنقر يهدف أن تتم مصالحة الإمام دون إعطائه تلك المناطق. من أجل ذلك كاتب وردسار الإمام يخبره بعدم قبول الأتابك لتلك المهادنة. لذلك جددت تلك المهادنة مرة أخرى، بأن يسلم الإمام لوردسار عشرة رؤوس من الخيل وعشراً من الإبل وخمسة أحمال حديد وحصاناً أصفر[5].

وبالرغم من ذلك لم تستمر هذه المصالحة قائمة بين الطرفين، فقد نقضها الأتابك سنقر لعدم قناعته بها فاستولى على العديد من مناطق الإمام. فاشتعلت لذلك الحرب بين الطرفين. تولى وردسار الاستمرار في محاربة الإمام بعد عودة سنقر من صعدة. ولكن الحرب توقفت سنة 602هـ/ 1205م حينما سعى الإمام ووردسار على عقد مصالحة لمدة عشر سنوات متوالية. على أن يسلم وردسار للإمام الرهائن الذين عنده من العرب من بني صريم وبني شاور والأهنوم ووداعة وبكيل[6]. وكما يبدو أن المناطق التي استولى عليها الأيوبيون ظلت معهم ولم يعيدوها للإمام. لذلك لم يدم هذا الصلح. فقد نقض سنة 603هـ/ 1206م، وجرت حروب بين الطرفين انتهت بالعودة إلى الصلح على ما كانت عليه سابقاً[7]. وهي

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 149. (2) ابن حاتم: السمط، ص: 113.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 117، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 385، زبارة: أئمة، ص: 130، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 199.

(4) ابن حاتم: السمط، ص: 118. (5) ابن حاتم: السمط، ص: 118.

(6) ابن حاتم: السمط، ص: 130، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 389، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 209.

(7) ابن حاتم: السمط، ص: 132.

مصالحة المحاددة. وبعد مصالحة سنقر للإمام سنة 605هـ/ 1208م الآتي ذكرها استمرت هذه المصالحة بين الطرفين حتى وفاة وردسار.

من خلال ما تقدم نجد أن القتال والصراع بين وردسار والإمام كان محتدماً قوياً. وذلك بسبب محاولة الأيوبيين فرض سلطانهم على اليمن كله. ومحاولة الإمام الاحتفاظ بسلطانه في شمال صنعاء والتوسع نحو مناطق أخرى كانت تحت سلطان الأيوبيين، فقد تمكن وردسار خلال ذلك القتال من السيطرة على عدة مناطق مثل حضور وشبام كوكبان وحجة. في شمال غرب صنعاء. وبلاد الظاهر ومطرة وريدة وحوث والبون وشوابة في شمال صنعاء. فضلاً عن براقش في الجوف ومأرب وبيحان في شرق صنعاء. وغيرها من المناطق الأخرى. على أن هذه المناطق لم يتمكن وردسار من المحافظة عليها تحت سيطرة الأيوبيين فقد تمكن الإمام من استعادة الكثير منها وتكررت عملية الكر والفر من قبل الطرفين. لذلك ظل الصراع مستمراً حول السيطرة على هذه المناطق واستعادتها. نستنتج من ذلك أن مناطق شمال وغرب صنعاء لم يستقر فيها الحكم الأيوبي أو حكم الإمام عبد الله بن حمزة بسبب القتال المستمر حول فرض كل منهما السيطرة على هذه المناطق.

الأتابك سنقر:

مما سبق يتضح أن حادثة قتل المعز أدت إلى تحول موالاة الأتابك سنقر وبروزه على مسرح التاريخ في اليمن. فقد اتصف بالشجاعة وحسن السياسة[1]. ويمكن تقسيم سياسته إلى ثلاثة عناصر. أحدها: معاملته للقوى الأيوبية. والثاني: معاملته لأهل وصاب. والثالث: صراعه مع الزيدية.

1 ـ معاملته للأيوبيين:

في السنة التالية لولاية سنقر أتابكية الناصر، تمرد عليه عدة قيادات أيوبية. إلا أن معاملة الأتابك سنقر للقادة الأيوبيين اتصفت بالحكمة والتعامل الطيب. وذلك يعود إلى تجربته في معارضة المعز. فبالرغم من معارضة الأمير نجاح الأيوبي في الدملوة والأمير برعش في عدن. والشهاب الجزري لحكم الأتابك سنقر. إلا أنه لم يستخدم ضدهم العنف فقد عفا عنهم وتركهم تحت خدمته. كما سيتضح فيما بعد، أما الأكراد في زبيد فقد اختلفت معاملته لهم. وذلك بسبب إقدامهم على قتل المعز، وإصرارهم على التمرد عليه، ولأنهم كانوا يشكلون خطورة على سلطته. وفيما يلي سنورد تعامل الأتابك سنقر لتلك القيادات الأيوبية الخارجة عليه.

---

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 175، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 405.

أ ـ الأتابك والأكراد في زبيد:

بعد عودة الأتابك سنقر من مساعدة وردسار من صنعاء إلى تعز، جهز حملة بالمؤن اللازمة لمحاربة أكراد زبيد الذين خرجوا عن طاعته. فوجد الأمور أمامه مضطربة بمخالفة (برعش) له في عدن، نتيجة إعانة (نجاح) صاحب الدملوة له بالأموال وتحريضه على الخلاف. إلا أنه وجد عصيان الأكراد في زبيد وتهامة يشكل خطورة كبيرة عليه. فبدأ بهم أولاً. وكما يبدو أن السبب في تمرد أكراد زبيد هو أنهم كانوا يطمحون في مشاركة الأتابك في حكم اليمن. كونهم أقدموا على قتل المعز وتوليته عليهم. ولما لم يحقق لهم الأتابك سنقر ذلك. أعلنوا التمرد وسيطروا على تهامة. ولكن الأتابك أصر على محاربتهم فاستعان لقتالهم بوالي صنعاء وردسار. فكتب إليه يحثه على سرعة إتمام مصالحة الإمام والنزول إلى تهامة. فأسرع وردسار إلى النزول مصطحباً معه جيشاً كبيراً. فالتقى بسنقر في تهامة من ناحية وادي سهام. ثم ساروا جميعاً نحو زبيد[1].

وما أن وصل سنقر ووردسار بجيشيهما إلى زبيد حتى اتجهوا لقتال الأكراد من ناحية الباب الشرقي، باب الشبارق، والباب الجنوبي المسمى باب القرتب. أما الأكراد فإنهم لما رأوا جيش سنقر قادماً إليهم خرجوا لقتالهم. فدارت معركة كبيرة على أبواب زبيد هجم فيها الأكراد على قلب عسكر الأتابك. فخلخل ذلك صفوف جيشه وكادت الهزيمة تلحق به. لولا ثباته عند الأعلام[2]. ومعاودته الكرة بمهاجمة الأكراد فقاتلهم قتالاً شديداً أسفر عن انتصاره عليهم وقتله الكثير منهم. وتمكنه من دخول زبيد بالقوة من الباب الشمالي المسمى باب سهام في يوم الأحد 10/ ذي القعدة سنة 599هـ/ 21/ يوليو 1203م[3].

بعد هذا الانتصار الذي حققه الأتابك سنقر اتجه إلى إلقاء القبض على كبار القادة المتمردين من الأكراد فوجد أنهم هم الذين قتلوا المعز، لذلك قام بقتلهم وهم الدقيق وهندوة وغيرهما[4]. ونتيجة لذلك أعلنت تهامة طاعتها له بكاملها[5]. وبذلك انتهى سنقر من أخطر تمرد يواجهه وإعادة سيطرته على تهامة وزبيد. ثم

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 103، الخزرجي: العسجد، ص: 176، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 194.

(2) الخزرجي: العسجد، ص: 176، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 194.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 103، الخزرجي: العسجد، ص: 176، الجندي: السلوك، 2/ 536، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 194.

(4) ابن حاتم: السمط، ص: 104، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 195.

(5) الخزرجي: العسجد، ص: 176.

ولّى عليها مهكار بن محمود، وعاد إلى تعز ثم أسرع في السير نحو عدن للقضاء على تمرد برعش فيها، أما وردسار فقد عاد إلى صنعاء[1].

ب ـ الأتابك وبرعش في عدن:

على الرغم من أن الأتابك سنقر هو الذي ولى الأمير برعش على عدن. إلا أنه أعلن التمرد عليه. وذلك بسبب تحريض الأمير نجاح صاحب الدملوة له. وإمداده بالأموال. وكانت بداية ذلك عندما طلب الأتابك سنقر من برعش أن يرسل إليه الجباية المالية من عدن، من أجل إنفاقها في الاتجاه نحو تهامة للقضاء على تمرد الأكراد بها. فبعث إليه لأخذ الأموال فخر الدين بكتمر السيفي. وعندما أحضر برعش أكياس الفلوس طلب منه بكتمر أن يعدّها فاعتذر برعش وقال: «النقاد يتقدم صحبتك». وبالفعل سار معه النقاد. ولما وصلت الأكياس عند الأتابك فتحها فوجدها فلوس وحديد فغضب لذلك وأراد معاقبته فأجل ذلك إلى حين عودته من زبيد لأنه كان مشغولاً بتمرد الأكراد بها[2].

وخلال ذلك لم يهمل سنقر أمر برعش، فقد بعث إليه الشهاب الجزري للقضاء عليه أو توقيفه من التوسع. فلما وصل إلى عدن عسكر خارجها. فخرج إليه برعش من عدن فدارت معركة قوية بين الطرفين انتهت بهزيمة الشهاب ونهب معسكره. وآنذاك قدمت إلى عدن الحامية الأيوبية التي تركها الشهاب بلحج بقيادة بكتمر السيفي والذي حاول أن يسرع في دخول عدن حين علم بخروج برعش منها. ولكن برعش سبقه في العودة مما جعل بكتمر يتجه إلى قطع طريق جند برعش المتأخرين فقاتلهم ونهبهم وظل أمر الكر والفر هناك إلى أن قدم سنقر إليهم[3].

ومن جهة الأتابك سنقر فقد أسرع في الاتجاه نحو عدن بعد عودته من زبيد. فلما وصلها فرض عليها الحصار وقطع المواد الغذائية والمياه حتى ضاقت الناس بها وضاق معهم برعش. فاضطره ذلك إلى مراسلة الأتابك يطلب منه العفو عنه وإعطاءه الأمان. فعفا عنه الأتابك وعزله عن عدن وأعطاه حصناً في أعالي لحج. فمات فيه بعد فترة قصيرة تقدر بشهر أو شهرين. وبذلك تمكن الأتابك من السيطرة على عدن دون قتال. وأقام بها عدة أيام ثم عاد إلى تعز بعد أن ولّى عليها أحمد بن عبد اللّه بن عبد الوهاب[4].

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 103، 104. (2) ابن حاتم: السمط، ص: 104، 105.
(3) ابن حاتم: السمط، ص: 103، كريم: عدن، ص: 244.
(4) ابن حاتم: السمط، ص: 105، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 195، كريم: عدن، ص: 244.

جـ ـ الأتابك ونجاح :

وبالنسبة لصاحب حصن الدملوة الأمير نجاح فقد تركه الأتابك سنقر ولم يتحرك سريعاً للقضاء عليه رغم قربه من مقر الأتابك بتعز، لانشغاله بالقضاء على تمردات أخرى أكثر خطورة منه. ولما رأى الأمير نجاح عدم جدوى استمرار خروجه عن الطاعة. انتهى تمرده بعد فترة بمصالحة الأتابك سنقر له وعفوه عنه وإقطاعه لحج وأبين[1]. وبذلك انتهى التمرد الأيوبي على سنقر. وكما يبدو أن الانشقاق أو التمرد الذي قام به القادة الأيوبيون في عهد سنقر كان نتيجة توليته السلطة الأيوبية بعد أن كان متمرداً عليهم. وأن هؤلاء القادة كانوا يطمحون في أن يكونوا هم أتابكة الجند الأيوبي في اليمن وأصحاب السلطة العليا بها وليس سنقر، وخاصة الأمير نجاح الذي رفض تولية سنقر منذ اليوم الأول لتعيينه.

2 ـ الأتابك وأهل وصاب :

أثناء ما كان الأتابك سنقر في زبيد لقي تمرداً من أهل وصاب. وكما يبدو أن ذلك ناتجاً عن عدم تحمل بلادهم لما فرضه عليهم سنقر من الواجبات المالية. وقد استعان أهل وصاب بالقبائل المجاورة لبلادهم بينما استعان سنقر بوالي صنعاء وردسار الذي سار منها والتقى به في وصاب في موضع يسمى (الدغاري) في شهر ربيع الأول سنة 604هـ/ 1207م، وقبل حدوث القتال بينهم حاول الشريف محمد بن عيسى القراظي بذل الطاعة لسنقر وإعطائه رهينة لذلك. إلا أن سنقر طلب عدة رهائن أي ثلاثة من كل قبيلة وأن يشتركوا معه في حرب الإمام. فرفض أهل وصاب ذلك. فوقعت الحرب بين الطرفين أسفرت عن قتل مائة وسبعين قتيلاً من الأيوبيين وعدد كبير من القبائل المناصرة لأهل وصاب. انتهت المعركة بهزيمة الأيوبيين وانسحاب سنقر إلى زبيد ووردسار إلى صنعاء. وكما يبدو أن هزيمة الأيوبيين كان ناتجاً عن عدم تمكنهم من التحصن. بينما قاتل أهل وصاب من أماكنهم المحصنة. إلا أن انسحاب الأيوبيين كما يبدو لم يأت إلا بعد أن تحطم معظم زروع أهل وصاب.

وعلى الرغم من انسحاب سنقر وجيشه إلا أن أهل وصاب والقبائل المجاورة لهم خافوا من عودة الحرب بينهم وبين سنقر وتحطيم زروعهم. فسعى في عقد مصالحة بينهم أحد رجال ريمة المسمى أبو المعالي بن أحمد الحرازي. ونزل من أهل وصاب خمسون رجلاً إلى زبيد طالبين من الأتابك سنقر العفو عنهم فعفا عنهم

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 133 ـ 135.

وصفح عن أفعالهم. (وكتب منشوراً بالصدقة عليهم ببلادهم وأن لا مطلب عليهم فيها) فعادوا إلى بلادهم مطمئنين غير خائفين، وكما يبدو أن عفو سنقر لهم عن دفع الواجبات المالية كان ناتجاً عن تحطيم زروعهم. وبذلك انتهت حادثة أهل وصاب بالمصالحة[1].

3 ـ الأتابك وعلاقته بالإمام:

بالرغم من أن الأتابك سنقر كان قد راسل الإمام عبد الله بن حمزة للميل إليه أثناء تمرده على المعز. إلا أن علاقته بالإمام عندما تولى أمر الأيوبيين اتسمت بالعلاقة العدائية. وذلك كما يتضح ناتج عن أن الأتابك أصبح مسؤولاً عن المحافظة عن مناطق نفوذ الأيوبيين في اليمن بأن لا يسمح للإمام توسيع سلطانه نحوها. وليس الأمر كذلك فقط بل سعى الأتابك كما سعى الأيوبيون من قبله إلى إنهاء دولة الزيدية في اليمن. ولكن لم يتمكن الأتابك من فعل ذلك. إلا أنه ظل يقاتل الإمام طيلة فترة حكمه للدولة الأيوبية في اليمن. وظل يدعم وردسار في محاربة الإمام. وكان يقوم بحملاته إلى مناطق الإمام تارة لوحده وتارة أخرى يصطحب معه وردسار. وفيما يلي نورد بعضاً من ذلك الصراع المستمر بين الأتابك والإمام عبد الله بن حمزة.

بسبب استمرار القتال بين الإمام الزيدي ووالي صنعاء وردسار منذ تولّيها. جهز جيشاً كبيراً من تعز وسار بهم لمحاربة الإمام. ولكن قدومه جاء بعد أن عقد وردسار صلحاً مع الإمام يبدأ تنفيذه في المحرم سنة 601هـ/ أغسطس 1204م فاضطر وردسار لما علم بقدوم الأتابك الإسراع إلى ذمار للقائه وإخباره بذلك الصلح. فأبدى الأتابك عدم رغبته بذلك الصلح. ولكنه اضطر إلى العودة إلى تعز التزاماً بما صالح به وردسار[2].

أدت عودة الأتابك سنقر من ذمار عدم قناعة كثير من قبائل اليمن الأعلى التي لا ترغب بحكم الإمام. فما كان الأتابك يصل تعز حتى تواصلت إليه المكاتبات من تلك القبائل تحثه وتحرضه على القدوم للسيطرة على بلادهم. كما وردت كتب أخرى مماثلة إلى وردسار وهو بصنعاء من أهل الظاهر والجوف والأشراف آل القاسم في شمال تهامة. وتأكيداً لذلك الطلب (عرض أهل الظاهر رهن أولادهم بصنعاء وكفلوا له بالبلاد ومحصولها) مما يدل أن القبائل التي كانت داخلة ضمن

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 118.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 119، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 202.

حدود الإمام غير راضية عن حكمه. بسبب النزاع القبلي فيما بينهم وميل الإمام إلى جانب أحد تلك القبائل. أدت تلك المكاتبات أن يتجه وردسار بنفسه إلى الأتابك إلى (الجند) مصطحباً معه السلطان بشر بن حاتم الذي أعلن آنذاك ميله للأيوبيين. وذلك لعرض مراسلة القبائل على الأتابك. فوافق ذلك ما يرغب به الأتابك. واتفق معهما على الخروج إلى صعدة لمحاربة الإمام[1].

لذلك أعد الأتابك سنقر جيشاً كبيراً وسار بهم عبر ذمار إلى صنعاء فدخلها يوم الأربعاء 16/ شهر رجب سنة 601هـ/ 8 مارس 1205م، وما أن سمعت القبائل المجاورة لصنعاء بوصوله إليها حتى جاءته من كل جهة. فقرّب وجوههم وسلاطينهم وأحسن إليهم وأفاض بالإنعام على أكثرهم. أما القبائل التي كانت تناصر الإمام لما علمت بخروج الأتابك نحوها خافوا منه فمالوا إلى موالاته وتركوا مناصرة الإمام. وبالنسبة للأتابك فقد واصل سيره بعد خروجه من صنعاء نحو مناطق الإمام. فسار إلى (ريدة) ثم إلى (شوابة) ثم إلى (الجوف) فوصلها في 7 شعبان سنة 601هـ/ 30 مارس 1205م. وحينئذاك جاءته معظم أهل الجوف باذلين له الطاعة. ثم سار نحو (صعدة) فدخلها يوم الجمعة 13/ شعبان سنة 601هـ/ 8/ أبريل 1205م فهدم درب الإمام وداره في هجر معين[2] وخلال رحلة الأتابك سنقر في تلك المناطق التي كان الإمام يسيطر عليها لم يجد أية مقاومة من القبائل المناصرة للإمام أو من الإمام نفسه، وذلك لعدم مقدرتهم على حربه. وكان الأتابك في الغالب يمكث في كل منطقة عدة أيام تتراوح ما بين الخمسة إلى السبعة الأيام[3].

وبعد سيطرة الأتابك سنقر على صعدة ولّى عليها أحد قادته المسمى أسد الدين أقرا سنقر وجعل معه رتبة أو حامية مكونة من مائة وستة وعشرين فارساً[4]. ثم سار هو ووردسار إلى العمشية في حرف سيفان وفيها افترق الاثنان. فعاد وردسار إلى صنعاء. أما الأتابك فقد اتجه إلى الخموس بأهنوم حجة ثم سار منها إلى حرض في تهامة. فجاءه إليها المؤيد بن القاسم معلناً الطاعة له فأقطعه إياها، وسار إلى بلاد بني شاور عن طريق حصن (مبين) فاستولى على عدة قرى هناك بالقوة. وعاد منها إلى اليمن الأسفل. وبذلك تمكن الأتابك من أن يدخل أهم مراكز اليمن الأعلى التي كانت تحت سيطرة الإمام. حيث أعلن أهلها موالاتهم

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 119، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 202.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 120، 121، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 200، 202، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 386.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 120. (4) ابن حاتم: السمط، ص: 122.

للأيوبيين. إلا أن تلك الموالاة لم تكن كافية. فقد كان بحاجة إلى ترك حاميات في جميع تلك المناطق لتثبيت سلطان الأيوبيين فيها. ولكن ترك حاميات في جميع تلك المناطق يشكل عبئاً على الأيوبيين من ناحية عدم توفر الأعداد الكافية من الجند لتركهم حاميات. ومن ناحية أخرى لعدم توفر الإمكانات المالية وعدم تحمل تلك المناطق للإنفاق على الحاميات. لذلك السبب ترك تلك المناطق بدون حاميات وعاد إلى اليمن الأسفل. وعدم ترك حاميات في تلك المناطق أو ترك حاميات ضعيفة في بعضها جعل الإمام والقبائل المناصرة له يتجهون لاستعادة سيطرتهم على تلك المناطق. ومن ثمة فإن رحلة سنقر تلك لم يحقق فيها الأيوبيون ثمرة كبيرة، غير إبراز مقدار قوتهم الكبيرة التي فاقت قوات الإمام والقبائل معاً. والتي أوقفتهم على أية محاولة للمقاومة. إلا أن ذلك لم يكن إلا لوقت قصير.

ظل الأتابك سنقر يطلع سنوياً من تعز إلى اليمن الأعلى لإخضاع القبائل الموجودة هناك. وذلك لعدم توفر حاميات في تلك المناطق. والهدف من ذلك الطلوع المستمر هو مساعدة وردسار على حكم تلك المناطق. ومنع القبائل من الإقدام على التمرد على الأيوبيين، فضلاً عن استمرارهم في دفع واجبات الدولة المالية المقررة عليهم دون اللجوء إلى حرب. وتهديد الإمام وإجباره على عدم التمكن من الاستقرار وإقامة دولته. أو بعبارة أخرى يمكن أن نقول أن الأتابك استعاض عن وجود حاميات في اليمن الأعلى بطلوعه إليها سنوياً من اليمن الأسفل. ونورد هناك أمثلة لاستمرار طلوعه إلى تلك المناطق.

توجه الأتابك سنقر من تعز إلى وصاب ثم سار نحو صنعاء فدخلها يوم الأحد 2/ شهر رجب سنة 604هـ/ 22/ يناير 1208م. ثم سار منها مع وردسار إلى (ريدة) ثم إلى (شوابة) فأتاه أهل الجوف طالبين الأمان ومعلنين الطاعة له. كذلك طلع مرة أخرى من تعز إلى زبيد ثم إلى صنعاء فدخلها في المحرم سنة 605هـ/ يوليو 1208م. واتجه إلى (شبام) ثم (ثلاء) ثم (الظاهر) ثم (حوث) ثم (براقش) بالجوف[1]. وفي هذه السنة تمت المصالحة بينه وبين الإمام على أن يسلم الإمام (مائة حمل حديد من صعدة لوردسار وعشرة من الخيل وللإمام الظاهر والجوفين وصعدة ولوردسار البونين)[2]. ومن الملاحظ أن هذه المصالحة تشبه المصالحة الأولى والهدف منها هي منع الحرب بين الطرفين واعتراف الأيوبيين بحكم الإمام في مناطق محددة حددتها تلك المصالحة.

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 135، 139، 144.
(2) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 393.

وبالرغم من تلك المصالحة إلا أن الحرب لم تتوقف بين الأيوبيين والإمام بسبب تأرجح ميل القبائل اليمنية بين الطرفين. فقد نقضت المصالحة واتجه الأتابك مرة ثالثة من تعز إلى زبيد ثم إلى صنعاء فدخلها في شوال سنة 606هـ/ مارس 1210م. وسار منها إلى شبام كوكبان ثم إلى الظاهر ثم الجوف فحارب بها من وقف ضده[1]. وجددت المصالحة. ثم سار إلى حجة وعاد منها إلى صنعاء فدخلها في المحرم سنة 607هـ/ يونيو 1210م[2]. ثم اتجه إلى الطويلة وعاد إلى تعز[3]. وكذلك اتجه مرة رابعة من تعز إلى زبيد ثم إلى صنعاء فوصلها في ربيع الآخر سنة 608هـ/ سبتمبر سنة 1211م. ثم اتجه إلى عدن ومنها سار إلى حضرموت فعاد منها إلى تعز حيث توفي بها في ربيع الآخر سنة 609هـ/ أغسطس 1212م[4] وهكذا ظل الأتابك يطلع إلى اليمن الأعلى سنوياً طيلة حكمه.

من خلال ما تقدم نجد أن الأتابك سنقر كان سنوياً يتجه إلى العديد من مناطق اليمن الأعلى التي كان الإمام يحاول السيطرة عليها، مثل شبام كوكبان وغربها، وثلاء، والطويلة، وحجة. وكذلك الظاهر، وشوابة، وحوث، وصعدة. بالإضافة إلى الجوف وغيرها. وفي معظم الأحيان كان الأتابك يسير بجيشه في هذه المناطق دون أن يلقى بها أية مقاومة من الإمام أو أنصاره. وفي أحيان قليلة كان يلقى بعض المقاومة. ومن الملاحظ أن القبائل في تلك المناطق كانوا عندما يدخل إليهم الأتابك بجيشه يعلنون الولاء والطاعة له. وعندما يخرج من عندهم يعلنون الولاء والطاعة للإمام. وكما يتضح أن موالاة هذه القبائل سواء أكان للأيوبيين أم للإمام كان ناتجاً عن خوفهم من القوة. إضافة إلى صراعهم القبلي فيما بينهم. على أن موالاة هذه القبائل للأيوبيين تارة وللإمام تارة أخرى. أدى إلى صراع مستمر بين الإمام والأيوبيين كما هو موضح سابقاً.

وبالنسبة للإمام عبد اللّه بن حمزة فبالرغم من أنه جعل حصن ظفار في الظاهر قاعدة له إلا أنه لم يتمكن من استمرار الاستقرار فيه، نتيجة محاربة كل من وردسار والأتابك له. كما أنه لم يتمكن من مجابهة قوات الأيوبيين في كثير من حروبه. فقد ظل الإمام يتنقل ما بين صعدة، وحوث، والظاهر، وذمرمر، وشوابة. إضافة إلى الجوف. وأيضاً ثلاء. وشبام وكوكبان، وحجة، وغيرها. وذلك لخوفه

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 144، زبارة: أئمة، ص: 132.
(2) ابن حاتم: السمط، ص: 145.
(3) ابن حاتم: السمط، ص: 145، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 392.
(4) ابن حاتم: السمط، ص: 147.

من مجابهة الأيوبيين الذين كانوا أكثر عدداً من عدد جيشه. وتنقل كذلك في تلك المناطق لإخضاع قبائلها لسلطانه.

الناصر بعد موت سنقر:

بعد موت سنقر تولى الناصر قيادة الأيوبيين بنفسه. وكان حينذاك قد بلغ خمس عشرة سنة حسب تقدير ابن حاتم[1] أي أنه ولد في السنة التي توفي فيها أبوه طغتكين وهي سنة 593هـ/ 1196م أو عشرين سنة حسب تقدير آخر[2]. وحاول الناصر أن يستقل بالسلطة. ولكنه لم يحسن ذلك لعدم توفر التجربة السياسية في قيادة الدولة. فقد جعل وردسار مستشاراً له. وجعل غازي بن جبريل الذي كان والياً للحج مساعداً له حيث عينه (أستاذ داره، وصاحب بابه، وأتابكته). لذلك كان غازي صاحب الأمر والنهي في أمور كثيرة، فعامل أكابر الناس وأمراءه بالسم حتى أفنى كثيراً منهم[3]. دون أن يتمكن الناصر من منعه بل سمح له بفعل ذلك.

آنذاك بدأ مشوار التخلص من القادة الأيوبيين الكبار، باشتراك كل من الناصر ووردسار وغازي. فلما طلب الناصر من وردسار النزول إليه إلى تعز للتشاور معه في أمور الدولة. اشترط عليه قتل الشهاب. فسمح الناصر لأحد مماليكه بقتله بعد مشاورة غازي وموافقته، بعد ذلك نزل وردسار إلى تعز فاستقبله الناصر استقبالاً حسناً ساده التعظيم والتبجيل. حيث أضاف حصن السمدان لولايته[4].

واستكمالاً لخطة التخلص من القادة أراد الناصر السير إلى حجة فاصطحب معه وردسار وغازي. ولما وصلوا إلى المهجم التي كان متولياً عليها بكتمر السيفي اتفقوا معه على الذهاب إلى حجة. فخرجوا جميعاً. ولما وصلوا إلى خبت الذنائب عسكر فيها الناصر. وأرسل إلى حجة بكتمر حيث وصل إلى أحد حصونها المسمى (مبين). وخلال ذلك اتفق الناصر ووردسار على قتل بكتمر بعد عودته من حجة. فبدأ الناصر بإرسال غازي إلى المهجم للسيطرة على أمواله وعياله. فعلم بذلك بكتمر وتوقف عن العودة إليهم واتجه إلى قرية الذنائب. وآنذاك لم يقتنع مماليك وردسار ومماليك الناصر والمماليك البحرية بالتآمر على قتل بكتمر لعدم وجود

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 152.

(2) محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 221.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 148، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 395، عبد العال: المرجع السابق، ص: 221، 222.

(4) ابن حاتم: السمط، ص: 149، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 395، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 223.

سبب مقنع لهم بقتله. فخافوا أن يشملهم التآمر. فأعلن بعضهم التمرد. فاتجه جماعة من مماليك وردسار إلى خيمته لقتله، ولكنه تمكن من الهرب منهم إلى خيمة الناصر. كذلك تمرد أكثر من خمسين فارساً من مماليك الناصر بينهم أميران واتجهوا جميعاً إلى بكتمر إلى قرية الذنائب[1].

ونتيجة لذلك خاف الناصر ووردسار من تمرد الباقين وإصابتهما بضرر فقرروا العودة. فاتجه وردسار إلى صنعاء. وسار الناصر إلى زبيد ثم إلى تعز، بعد أن أخذ معه أموال وعيال بكتمر. منها مائة وسبعون درعاً وأربعمائة قوس وأكثر من مائة من الدواب غير الثياب والآلات والأثاث[2]. ومن جراء ذلك عمل بكتمر ومن انضم معه من المماليك على شن الغارات المتعددة على تهامة. وراسلوا الإمام للانضمام إليه. فخاف الناصر من ذلك وطلب من وردسار القدوم إليه بجيشه من صنعاء لمحاربة بكتمر. ولما وصل وردسار بجيشه إلى تهامة التقى بالناصر، فساروا جميعاً نحو بكتمر السيفي فنشبت بين الطرفين عدة معارك انتهت بعقد مصالحة على أن يسلموا لبكتمر أربعين ألف مثقال ثمن دوابه، ويعطوه الأمان مقابل رحيله من اليمن إلى الشام. فقبل بهذا بكتمر وتمت المصالحة على ذلك. وآنذاك تآمر الناصر على وردسار فسقاه سمًّا مرض منه ومات في حصن السمدان في سنة 610هـ/ 1214م[3]. وهكذا أدت التآمرات على التخلص من أهم القادة الأيوبيين.

بعد ذلك استقل غازي بالأمر وحرض الناصر على السير إلى اليمن الأعلى لمحاربة الإمام فساروا نحوها ووصلوها في ذي القعدة سنة 610هـ/ أبريل 1214م. وأثناء ذلك أمر الناصر بالقبض على أموال وردسار ومماليكه مما أدى إلى هروب بعضهم خوفاً منه. بعد هذا التصرف خرج الناصر من صنعاء لمحاربة الإمام فعسكر في الجراف لمدة ستة أيام. وآنذاك سُقِي سمًّا مرض منه ونقل إلى صنعاء فمات بها يوم الجمعة 10/ محرم سنة 611هـ/ مايو 1215م. وأُتهم غازي بقتله بالسم[4]. والواقع أن تصرفات الناصر هي التي سببت له القتل إذ أنه تصرف مع قادته ومماليكهم بغير ما يجب فصادر ممتلكاتهم. وأخاف جماعة منهم. لذلك لا يستبعد أن يكون مماليك وردسار هم الذين تآمروا على قتله كما تآمروا على قتل غازي بعده.

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 149، 150، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 396، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 223، 224.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 151، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 397.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 152، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 225.

(4) ابن حاتم: السمط، ص: 152، 153، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 398، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 226، الحمزي: كنز، ص: 91.

وبعد موت الناصر اختار أكابر الأمراء في صنعاء غازي بن جبريل أميراً عليهم ولذلك عاد غازي نحو تعز لإدارة الدولة الأيوبية. ولكن نتيجة اتهامه بقتل الناصر وتآمره لقتل كبار القادة فقد ترصد له جماعة من المماليك عند وصوله إلى (إب) فقتلوه[1] في نفس الشهر الذي قتل به الناصر. وهكذا ساد عهد الناصر الأخير بعد موت سنقر فوضى، تآمر القادة على قتل بعضهم البعض. فذهب ضحية هذا التآمر الكثير من قادة الدولة الأيوبية في اليمن على رأسهم الناصر نفسه. ومن الملاحظ أن الأيوبيين لجأوا إلى التآمر على بعضهم البعض بالقتل بالسم أو الخنق بدلاً من التمرد والانضمام إلى الإمام.

مما سبق نجد أن الأتابك سنقر كان من أكفأ القادة الأيوبيين فقد أدى دوراً بارزاً في قيادة الدولة الأيوبية في اليمن في عهد الناصر. حيث يرجع إليه الفضل في المحافظة على وحدة الصف الأيوبي. واستمرار محاربة الإمام ومنعه من التوسع في اليمن الأعلى. واستمرار بقاء الدولة الأيوبية قوية في اليمن. ولما مات الأتابك سنقر اختل توازن الصف الأيوبي. ولم يتمكن الناصر لصغر سنه وعدم معرفته بالأمور السياسية لدولته المحافظة على وحدة الصف الأيوبي وقوته. فتآمر القادة الأيوبيون على قتل بعضهم البعض بالسم. أدى إلى وصول التآمر إلى قتل الناصر نفسه.

5 ـ أحوال الأيوبيين بعد قتل الناصر وفي عهد سليمان بن تقي الدين الأيوبي:

وفي الوقت الذي قتل فيه السلطان الناصر والأتابك غازي اختار الأمراء الأيوبيون في تعز أميراً منهم يسمى المجاهد ليتولى السلطة الأيوبية في اليمن. وصيًا لأخوات السلطان الناصر[2]. إلا أنه نتيجة لاستمرار الوراثة في السلطة السياسية لدى الأيوبيين. فقد حاولوا البحث عن شخصية تنتسب إلى البيت الأيوبي. فصادف آنذاك وجود رجل ينتسب إليهم هو سليمان بن تقي الدين الأيوبي. غير معروف لدى كثير من الأيوبيين. فضلاً عن أنه لم تكن لديه معرفة بالجندية. ولا خبرة في تولي الإمارة. ولا تجربة في السياسة والحكم. إلاَّ أن قرابته من البيت الأيوبي هي التي أوصلته إلى أعلى السلطة الأيوبية في اليمن. فتم اختياره أميراً للأيوبيين فيها.

وبالرغم من محاولة الأمير المجاهد سجن سليمان وعدم القبول بتوليته. إلا

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 153، 154، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 399، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 231، عند الحمزي في كنز، ص: 91 أن غازياً قتل في السحول من إب.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 154.

أن نساء القصر الأيوبي في اليمن مثل أم السلطان الناصر وأخواته لعبن دوراً كبيراً في إخراجه من السجن وتوليته السلطة الأيوبية في اليمن. اضطر ذلك المجاهد إلى الهرب خوفاً منهن إلى السمدان[1].

وخلال فترة حكم سليمان الأيوبي القصيرة لليمن والتي لا تتجاوز السنة. لم يستقر حكمه عليها. بسبب جهله بالأمور السياسية. فقد ظهرت ضده عدة تمردات. قسم منها قام بها أهل اليمن والقسم الآخر قام بها القادة الأيوبيون. وهي كالتالي:

1 ـ تمردات أهل اليمن:

تمرد على سليمان الأيوبي أهل (صبر) المطل على تعز فأرسل إليهم جيشاً بقيادة أبي شامة وصالح بن هشام اللذين كانا قد أقطعهما صنعاء وذمار. وما أن وصل الجيش الأيوبي إلى صبر حتى خرج إليهم أهلها وقاتلوهم قتالاً شديداً حتى انتصروا عليهم وقتلوا هذين القائدين[2]. كذلك تمرد على سليمان أهل (السهلية) في تهامة. الذين اتجهوا للاستيلاء على الحصون التي كان الأيوبيون يتمركزون في بلادهم. فأرسل إليهم سليمان الأمير سيف الدين بن عصبة فقاتلهم حتى انتصر عليهم وأجبرهم على الطاعة ووضع الرهائن لذلك[3]. كما تمرد على سليمان صاحب المخلاف السليماني الأمير المؤيد ابن القاسم، الذي اتجه لشن الغارات على (المحاليب) في تهامة. وأعلن موالاته للإمام[4] وكما هو واضح أن سبب تمرد أهل اليمن على سليمان هو ظلم وتعسف حكم القادة الأيوبيين عليهم فاستغلوا عدم مقدرة سليمان لحكم اليمن فتمردوا عليه.

2 ـ تمرد الأيوبيين:

أول من تمرد على سليمان من الأيوبيين المجاهد الذي كان قد هرب إلى السمدان. ولكنه عاد إلى تعز على إثر مراسلة من بعض أهلها يطلبون منه العودة إليهم وأنهم سيساعدونه على الاستيلاء على تعز. وأعلموه أن سليمان متجه إلى بعض المناطق، فوثق بذلك وأسرع بالعودة إلى تعز قبل خروج سليمان منها. فأدى

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 159، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 402، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 237.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 159، 160، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 402.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 160، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 402.

(4) ابن حاتم: السمط، ص: 160.

ذلك إلى سرعة إلقاء القبض عليه. وإيداعه السجن ثم قتله بعد عدة أيام[1]. وهكذا كانت نهاية المجاهد.

كذلك تمرد على سليمان الأمير بدر الدين الحسن بن رسول الذي كان قد عزله عن حرض والسهلية في تهامة وولاه بدلاً عنها صنعاء. وأثناء سير الحسن بن رسول في طريقه إلى صنعاء ترصد له بعض جند سليمان ولكنه تحاشاهم. ولما وصل صنعاء واستقر بها أرسل إليه سليمان جمعاً من العسكر لإلقاء القبض عليه. فلما علم الأمير بدر الدين الحسن بن رسول اتجه إلى الكدراء من تهامة. فخشي سليمان من استيلائه عليها. فأسرع من تعز في النزول إليها. فلما وصلها نشبت حرب بين الطرفين انتهت بعقد صلح بينهما[2]. وكما يتضح أن بدر الدين لم يكن يرغب في تولي صنعاء ومحاربة الزيدية آنذاك.

وتمرد أيضاً على سليمان جمع كبير من القادة الأيوبيين في تهامة بسبب طلب سليمان معاقبة أحد الأيوبيين الذي استجار بأحد القادة المسمى أطنبا سنقر. فلما طلب هذا القائد الأمان له من سليمان رفض منحه وأخذه بالقوة. أدى ذلك إلى إعلان أغلب القادة الأيوبيين في تهامة تمردهم على سليمان. الذي اتجه لمحاربتهم في (النعجية). ولكنهم دافعوا عن أنفسهم حتى هزموه واتجهوا إلى (المحاليب) وراسلوا الإمام طالبين الانضمام إليه[3]. وهكذا تعددت التمردات الأيوبية على سليمان.

وبالنسبة للإمام عبد الله بن حمزة فقد استغل عدم وجود شخصية قوية تحكم اليمن من الأيوبيين فتوسع سنة 611هـ/ 1214م في مناطق كثيرة من اليمن الأعلى كانت تابعة للأيوبيين مثل صنعاء وذمار وكوكبان وغيرها[4]. وهكذا كان وضع اليمن السياسي في عهد سليمان غير مستقر. وفي هذا الجو المشحون بعدم الاستقرار السياسي قدم إلى اليمن الملك المسعود الأيوبي.

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 160، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 402، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 237.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 161، 162، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 402، 403، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 240.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 163، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 403، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 240.

(4) زبارة: أئمة، ص: 135.

الملك المسعود ابن الكامل

سبب الحملة:

استمر ملوك بني أيوب في مصر يهتمون بإبقاء اليمن تحت سيطرتهم لذلك أرسلوا حملة عسكرية إليها، وكان الدافع لإرسالها سببين:

أحدهما: رسالة أحد المطرفية المسمى الحسن بن محمد النساخ، إلى الخليفة الناصر العباسي ببغداد يطلب منه القضاء على الإمام الزيدي عبد الله بن حمزة الذي سيطر على مناطق كثيرة في اليمن. فأرسل الخليفة العباسي إلى الأيوبيين بمصر يحثهم على إرسال قواتهم لحرب الإمام[1].

ثانيهما: تدهور وضع الجند في اليمن بعد مقتل المعز وسمّ أخيه الناصر ابني طغتكين وعدم قناعتهم بتولية سليمان والنساء السلطة في اليمن لذلك كله اضطر الملك العادل إلى إعداد حملة كبيرة لإرسالها إلى اليمن، مزودة بأموال كثيرة وجيش عظيم[2]. بلغ قوامه ألف فارس وخمسمائة من الرماة والجاندرية[3]، وأسند قيادة هذه الحملة إلى المسعود ابن الكامل، والأتابك جمال الدين ابن فليت[4].

سير الحملة:

خرجت الحملة من مصر في 17 رمضان سنة 611هـ/ 20 يناير 1215م، متجهة نحو اليمن عبر النيل إلى قوص ومنها براً إلى عيذاب. ثم بحراً إلى جدة. ومنها ساروا نحو مكة لأداء مناسك العمرة وفريضة الحج. فوصلوا إليها في ذي القعدة سنة 611هـ/ 5 أبريل 1215م[5]. بعدها تابع المسعود سيره نحو اليمن. فلما وصل إلى منطقة (الراحة) توجه إليه المؤيد ابن القاسم صاحب المخلاف السليماني، لاستقباله وإعلان الطاعة له، فأحسن إليه المسعود وخلع عليه[6].

---

(1) زبارة: أئمة، ص: 135 ـ 139، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 403.
(2) الخزرجي: العسجد، ص: 180، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 411، 412.
(3) محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 243، 344، جميل حرب: المرجع السابق، ص: 110، 111.
(4) الخزرجي: العسجد، ص: 180، جميل حرب: المرجع السابق، ص: 111.
(5) محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 246.
(6) ابن حاتم: السمط، ص: 166، جميل حرب: المرجع السابق، ص: 111.

السيطرة على اليمن:

أما الأيوبيون الذين كانوا مرابطين في زبيد وأعمالها التهامية، فقد خرجت جماعة من قادتهم إلى (الهلبة) لاستقبال المسعود الأيوبي وتقديم الولاء والطاعة له، في مقدمتهم الأمير بدر الدين الحسن بن رسول، وأخوه نور الدين بالإضافة إلى سبعين فارساً من أكابر الجند، وعند لقاء المسعود بهم أكرمهم وخلع عليهم[1]. ثم ساروا جميعاً نحو زبيد فدخلوها مستهل المحرم سنة 612هـ/ مايو 1215م. من ناحية باب الشبارق[2]. وآنذاك توجه المسعود إلى دار السلطنة للإقامة بها[3]. لانتظار وصول المؤن القادمة إليه عن طريق البحر[4].

ومن ناحية سليمان فإنه لما وصل المسعود إلى زبيد لم يتوجه لاستقباله وإعلان الولاء والطاعة له. ولكنه اتخذ موقفاً حذراً منه، فلجأ إلى حصن تعز للتحصن به[5]. وإزاء ذلك حاول المسعود أن يستخدم أسلوباً سياسياً لمعالجة الموقف قبل الدخول في حرب معه. وذلك بغرض معرفة نوايا سليمان حول حكم اليمن. وكذا نوايا الجند الأيوبي بها من حيث تأييدهم لسليمان أم لا؟ بأن يكون حكم الجبال لسليمان وحكم التهائم للمسعود[6]. ولكن هذه الفكرة لم تلق تأييداً من قبل القادة الأيوبيين على رأسهم الأمير بدر الدين الحسن بن رسول، الذي نصح المسعود بعدم المصالحة وطلب منه الإرسال إلى القوى الأيوبية في تعز بإلقاء القبض على سليمان. فعمل برأيه وما أن وصل المسعود إلى تعز حتى قام بتكلفة واليها وخدم الحصن بها، بإلقاء القبض على سليمان. فألقوا القبض عليه ووضعوه تحت الحراسة المشددة[7]. إلى أن طلع المسعود إلى حصن تعز في يوم الأحد غرة شهر صفر سنة 612هـ/ 1 يونيو 1215م[8]. وتسلمه منهم، وبعثه إلى الديار المصرية[9]. ولما استقر المسعود في تعز وصلت إليه أغلب قادة الأيوبيين من اليمن

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 166، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 247.
(2) ابن حاتم: السمط، ص: 176، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 412.
(3) الخزرجي: العسجد، ص: 181.
(4) ابن حاتم: السمط، ص: 167.
(5) الخزرجي: العسجد، ص: 181.
(6) ابن حاتم: السمط، ص: 167، الخزرجي: العسجد، ص: 181، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 248.
(7) ابن حاتم: السمط، ص: 167، الخزرجي: العسجد، ص: 181.
(8) الخزرجي: العسجد، ص: 181، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 148، 149.
(9) ابن حاتم: السمط، ص: 167، الخزرجي: العسجد، ص: 181.

الأسفل معلنين له الولاء والطاعة[1]. وبذلك أصبحت تهامة واليمن الأسفل تحت سلطة المسعود الأيوبي.

ولاة المسعود:

وفي الوقت الذي استقبل فيه المسعود أكابر الأمراء الأيوبيين ولآهم بعض مناطق اليمن أو أقطعهم إيَّاها. من ذلك أقطع الأمير بدر الدين الحسن بن رسول القحمة. وأقطع أخاه نور الدين عمر صهبان، وأقطع ابن فليت الكدراء ورمع. ثم أقطعه صنعاء. وبعد موته أقطعها الحسام لؤلؤ. ثم أقطعها نجم الدين ابن أبي زكرى أو زكريا. كما أقطع الهلبة للمؤيد ابن القاسم السليماني[2]. وهكذا كانت إقطاعيات المسعود للأمراء الأيوبيين. وعن مفهوم الإقطاع آنذاك فكان يعني إعطاء الأمير أرضاً يساوي دخلها المالي صرفيات عدد جنوده.

الاتجاه نحو اليمن الأعلى:

انطلاقاً من أهداف الأيوبيين الأساسية بالسيطرة على اليمن كله. جهز الملك المسعود جيشاً قوياً يقدر بنصف الجند القادم معه من مصر، تحت قيادة الأتابك جمال الدين بن فليت. وأوكل إليه الاتجاه نحو اليمن الأعلى لاستعادتها من تحت سيطرة الإمام عبد اللّٰه بن حمزة[3]. الذي كان قد سيطر عليها بعد موت الناصر وخروج غازي منها وقتله [4]. أما المسعود فقد استقر بتعز لإصلاح الأمور السياسية والإدارية بها.

سار الجيش الأيوبي من تعز حتى وصل ذمار. فما أن وصل إليها حتى قدمت إليه الكثير من القبائل من أهل الحقول وسنحان وبني شهاب. معلنة له الولاء والطاعة. ومطالبين المصالحة، فاستقبلهم الأتابك ابن فليت وأحسن إليهم بالخلع والمال. وأقام بذمار عدة أيام يصلح أمورها. ثم ترك بها حامية أيوبية واتجه نحو صنعاء[5].

وعندما علم الإمام باتجاه الأتابك ابن فليت نحو صنعاء أدرك أنه غير قادر على البقاء بها ومقاومة الأيوبيين. فلجأ إلى تخريب دورهم وهي دار السلطنة ودور المعز. حتى لا يفكر الأيوبيون في التحصن أو الاستقرار بها. واتجه إلى حصن أنعم إلى كوكبان. فلما وصل ابن فليت صنعاء وجدها قد خلت من الإمام وأنصاره

---

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 181.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 167، 193، 194، اسمه ابن أبي زكرى، أو زكري أو زكريا.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 168، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 249.

(4) ابن حاتم: السمط، ص: 154، الخزرجي: العسجد، ص: 180.

(5) ابن حاتم: السمط، ص: 168، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 404، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 250.

فدخلها في ربيع الآخر سنة 612هـ/ أغسطس 1215م، دون قتال ومعه من الجند ما يزيد على الستمائة فارس[1]. وبذلك سيطر الأيوبيون على صنعاء وذمار. وانتهت منهما سلطة الإمام.

وما أن وصل ابن فليت إلى صنعاء حتى خرج لمحاربة الإمام وانتزاع القلاع والحصون في شمال وغرب صنعاء. فاتجه نحو حصن أنعم فحاصره وسيطر عليه بالقوة. ثم اتجه نحو شبام كوكبان والمناطق القريبة منها مثل البلاد الحميرية والمصانع فحارب أهلها حتى أخضعهم لسلطانه. ثم عاد ابن فليت إلى صنعاء وأقام يشن الغارات المتعددة على الحصون القريبة منها حتى استولى على أكثرها. وأخذ الرهائن من قبائلها من أجل ضمان استمرار طاعتهم له وأداء الحقوق المالية الواجبة عليهم. بعد ذلك عاد إلى تعز[2].

لم تمض مدة طويلة من ترك الأتابك ابن فليت صنعاء حتى عاد إليها بجيشه، واتجه مرة أخرى لمحاربة الإمام. فخاف منه الإمام وأحس أنه غير قادر على محاربته. فما أن وصل إلى (أسفل مدع) حتى أسرع بمراسلة ابن فليت يطلب منه عقد الصلح. فقبل ذلك. وعقد بينهما الصلح، على أن يظل ابن فليت محتفظاً بالمناطق التي استولى عليها من الإمام. وأن يطلق الإمام أولاد محمود العجمي والي صنعاء السابق. وأن يدفع الإمام كل شهر من بلاده عشرين حصاناً وعشرين جملاً. بينما اشترط الإمام أن يطلق ابن فليت جميع الرهائن الذين أخذهم من حصن أنعم، وتم عقد الصلح في 7 محرم سنة 613هـ/ أبريل 1216م[3]. لمدة ستة عشر شهراً[4].

بعد عقد الصلح أناب ابن فليت على صنعاء جمال الدين كونج وترك معه ثلاثمائة فارس. واتجه نحو تعز فأقام بها حتى نهاية سنة 613هـ/ وبداية 1216م. وخلال غيبته عن صنعاء حدث حولها نزاع قبلي بين القبائل حول السيطرة على الحصون القريبة من صنعاء. فانقسموا إلى قسمين: قسم وقف بجانب الإمام، والقسم الآخر وقف بجانب الأيوبيين.

ومن ناحية قبائل سنحان بقيادة الشيخين الفضل وراشد ابني المظفر الهرش

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 168، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 405.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 168، 169، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 405، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 250.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 170، زبارة: أئمة، ص: 141، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 251.

(4) زبارة: أئمة، ص: 141، عند عبد العال: مدة الصلح ثلاثة عشر شهراً.

فقد خرجوا عن طاعة الأيوبيين، واتجهوا إلى طاعة الإمام، والسيطرة على حصن (كنن) وقطعوا طريق الإمدادات والاتصالات بين الجيش الأيوبي بصنعاء واليمن الأسفل، بالإضافة إلى سيطرتهم على حصن (براش) المطل على صنعاء من شرقها. وطلبوا من الإمام إمدادهم بالجند. فأرسل إليهم ولده الأمير عز الدين محمد. الذي وصل إليهم في مستهل المحرم سنة 614هـ/ أبريل 1217م. ومن جهة بني حاتم فعندما علموا بوقوف سنحان إلى جانب الإمام. وأرادوا الاتجاه للسيطرة على صنعاء جاء إليها مسعود بن علي بن حاتم وابن عمه علوان بن بشر بن حاتم بجمع كبير من همدان فأقاموا بصنعاء مناصرين للأيوبيين ضد الإمام وقبائل سنحان. وفي غضون ذلك سمع ابن فليت باضطراب أمر صنعاء فأسرع في الاتجاه نحوها، فلما وصل إلى بئر الخولاني قام بمحاصرة جبل (كُنَنْ) وجرت بينه وبين أنصار الإمام في سنحان عدة معارك[1]. والواقع أن قبائل سنحان استغلت عدم وجود قوة كبيرة من الأيوبيين بصنعاء فاتجهت للاستيلاء عليها وعلى من حولها من الحصون مستعينة بالإمام. ولكن وقوف بني حاتم إلى جانب الأيوبيين فوّت عليهم الفرصة. لأن صنعاء والحصون القريبة منها كانت تابعة لبني حاتم، وهؤلاء لا يرضون أن يستولي على حصونهم قبائل أخرى. لذلك وقفوا بجانب الأيوبيين مناصرين وموالين لهم.

لم تمض فترة طويلة على فرض ابن فليت الحصار على جبل (كنن) حتى توفي الإمام عبد اللّه بن حمزة في 12/ محرم سنة 614هـ/ أبريل 1217م في كوكبان على أثر مرض حدث له، وأقيم مكانه على وجه الحسبة ابنه عز الدين. فاستمر يحارب ابن فليت عدة أيام. ثم لحقت به شخصية أخرى أيوبية هو الأتابك جمال الدين ابن فليت الذي مات في معسكره في بئر الخولاني في يوم الخميس سلخ شهر ربيع الأول سنة 614هـ/ أول يوليو 1217م. وقبر في صنعاء في اليوم التالي[2]. وهكذا انتهت أهم شخصيتين لمعسكرين متصارعين. وقد أتاح موت الإمام فرصة للأيوبيين أن يستولوا على مناطقه.

دور المسعود:

ما أن وصلت الأخبار إلى مسامع المسعود بموت الأتابك ابن فليت حتى

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 170، 171، الخزرجي: العسجد، ص: 182، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 405، زبارة: أئمة، ص: 141، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 252، 253.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 171، 172، الخزرجي: العسجد، ص: 182.

أسرع في الطلوع إلى اليمن الأعلى للوقوف بنفسه ضد الزيدية وأنصارهم. ومن هنا بدأ دور المسعود في محاربة الزيدية فسار حتى وصل بئر الخولاني فعسكر به في مستهل جمادى الأولى سنة 614هـ/ أغسطس 1217م. وأثناء ذلك توجه المسعود نحو حصن (براش) فأخذه بالقوة. وأخذ ما به من حريم الشيخ راشد بن المظفر. فأحسن إليهن وأرسلهن إلى حصن أشيح (في أنس) ثم توجه إلى صنعاء فدخلها في اليوم الثامن من الشهر نفسه[1].

وعلى أثر أسر المسعود لحريم الشيخ راشد وموت الإمام الزيدي توجه راشد إلى المسعود طالباً منه المصالحة وباذلاً له الولاء والطاعة، فأدت تلك المصالحة إلى رحيل قوات الإمام من حصن (كنن) فرحلوا عنه في 25 شهر جمادى الأولى سنة 614هـ/ 30 أغسطس 1217م. وتركوه للأيوبيين. حيث استولوا عليه في اليوم التالي دون قتال. بذلك تمكن المسعود من إنهاء التمرد القبلي المناصر للإمام في سنحان. فانتهت خطورة تهديدهم لصنعاء[2].

وبعد ذلك توجه المسعود نحو حصن كوكبان فأخذه من عماد الدين دون حرب في يوم الخميس 5 جمادى الآخرة من نفس السنة. بسبب عدم مقدرة الزيدية المدافعة عن الحصن ومقاومة الأيوبيين. ومن الواضح أن الزيدية ضعفت بعد موت الإمام عبد اللّٰه بن حمزة. وتخلت القبائل عن مناصرتهم. لذلك سرعان ما تم الاتفاق بين المسعود والزيدية على المصالحة بعدم الحرب. والتي عقدت في اليوم التالي لنفس التاريخ السالف الذكر. بعدها عاد المسعود إلى صنعاء وترك جمال الدين كونج والياً عليها وعاد إلى تعز[3].

ظل المسعود يتنقل فيما بين تعز وصنعاء عدة مرات. بغرض إصلاح أحوالها السياسية والعسكرية. وعدم إتاحة الفرصة للزيدية وأنصارهم محاولاً السيطرة على صنعاء. ففي شهر رمضان من سنة 615هـ/ نوفمبر 1218م طلع المسعود صنعاء للمرة الثانية. واتجه إلى عدة مناطق شمالها مثل ظفار في الظاهر والجوف ثم حوث وشوابه وريدة. فخضعت هذه المناطق للأيوبيين ولم تظهر أية منطقة أية مقاومة عليهم عدا بعض الاعتراض من حامية حصن ظفار. ثم عاد المسعود إلى صنعاء فوصل إليها في 3 ذي القعدة من نفس السنة. وبذلك حقق المسعود هدفه بالسيطرة على الكثير من مناطق الزيدية. ومن الملاحظ هنا أن المسعود استخدم نفس

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 172، الخزرجي: العسجد، ص: 182.
(2) ابن حاتم: السمط، ص: 172، الخزرجي: العسجد، ص: 182.
(3) ابن حاتم: السمط، ص: 173، الخزرجي: العسجد، ص: 182، زبارة: أئمة، ص: 144.

أسلوب الأيوبيين السابقين له بحكم اليمن. باستمرار الطلوع إلى اليمن الأعلى والسيطرة على مناطقه. ولما رأت الزيدية عدم مقدرتها على محاربة المسعود وجيشه طلبوا منه الصلح. فتمت المصالحة في شهر رجب سنة 616هـ/ سبتمبر 1219م لمدة سنة[1].

استمر طلوع المسعود نحو اليمن الأعلى. ففي 6 رجب سنة 617هـ/ سبتمبر 1220م توجه من تعز إلى صنعاء مرة ثالثة، ومنها سار إلى حصن (بكر) وكان فيه بعض أولاد الإمام. فحاصره لمدة ثمانية أشهر. ولما طال الحصار وأضر ذلك بمن في الحصن رأت الزيدية عدم جدوى الاستمرار في البقاء في الحصن. أو شن الحرب. لذلك باع الأمير يحيى بن حمزة الحصن للمسعود بعشرة آلاف دينار مصرية. وتسليمه في مستهل ربيع سنة 618هـ/ أبريل 1221م بعدها عاد إلى صنعاء وأقطعها للأمير بدر الدين الحسن بن رسول ثم سار إلى زبيد[2].

في غضون ذلك خرج أمراء مكة عن طاعة الأيوبيين بقيادة الحسن بن قتادة، فاتجه المسعود لقتالهم باعتباره أقرب الحكام الأيوبيين إليها. ولما وصل إليها استولى عليها بالقوة في ربيع الأول سنة 619هـ/ أبريل 1222م. ثم ولّى عليها نور الدين عمر بن رسول[3]. وجعل معه حامية مكونة من ثلاثمائة فارس[4]. ثم عاد إلى زبيد فدخلها في جمادى الأولى من نفس السنة[5].

على أن خروج المسعود من مكة أتاح فرصة للحسن بن قتادة محاولة استعادة سلطانه عليها فجهز جيشاً لقتال نور الدين. ولكن نور الدين كان متيقظاً له. فلما رآه يتجهز بعسكره هجم عليهم على حين غفلة قبل أن يتهيئوا للقتال. أدى ذلك إلى انهزامهم وهروب أميرهم الحسن بن قتادة. بعد أن قتل جماعة من عسكره وتفرق الآخرون. وإزاء ذلك شكر المسعود لنور الدين عمله هذا. ولكنه طلب منه العودة إلى اليمن ليتولى أحد مناطقها[6].

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 174، الخزرجي: العسجد، ص: 183، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 409، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 257، الحداد: التاريخ العام لليمن، ص: 53.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 174، 175، الخزرجي: العسجد، ص: 183، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 409، 410، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 259، الحداد: التاريخ العام لليمن، ص: 53.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 175، الخزرجي: العسجد، ص: 183.

(4) محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 261.

(5) ابن حاتم: السمط، ص: 175، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 261.

(6) ابن حاتم: السمط، ص: 175، عبد العال: المرجع السابق، ص: 261.

وعلى أية حال فإنه نتيجة لهدوء أوضاع اليمن السياسية النسبية آنذاك. وبسبب تخلخل أوضاع الأيوبيين السياسية في مصر والشام تطلع المسعود إلى الحصول على ولاية فيها فضلاً عن أنه رغب في زيارة أسرته في مصر. فاتجه من زبيد نحو الديار المصرية في منتصف شهر رمضان سنة 620هـ/ أكتوبر 1223م[1]. واستخلف على اليمن الأمير الحسام لؤلؤ[2].

حركة مرغم الصوفي:

انتهز مرغم الصوفي فرصة توجه المسعود نحو الديار المصرية، وخلو اليمن الأعلى من وجود إمام. فحاول أن يدعو الناس إلى طاعته. وأخبرهم أنه داعي إمام حق. فانضم إليه الكثير ممن صدقه من الناس من أهل الحقل وقبائل جنب وعنس. إضافة إلى أهل جبل مسلم المسمى سحمر وبني سيف من عتمة[3]. وكان مرغم هذا رجلاً من الصوفية تحلى بزي أو حلية الفقراء النساك[4]. من أجل كسب الناس واستقطابهم إلى دعوته.

ولما علم الحسام لؤلؤ الأيوبي بحركة مرغم الصوفي كلّف نور الدين عمر بن رسول الاتجاه لحربه. فسار نور الدين بجيشه ومعه الشيخ راشد بن المظفر بن الهرش السنحاني. وما أن وصلوا إليه حتى فاجأهم مرغم وأنصاره بالقتال. أسفرت المعركة التي وقعت في 25/ جمادى الآخرة سنة 623هـ/ 1226م. عن انهزام الأيوبيين، وهروب جماعة منهم نحو اليمن الأسفل، واتجاه نور الدين بمن بقي معه إلى التحصن بحصن (ذروان) في ذمار. كما أسفرت عن قتل الشيخ راشد. وكان سبب قتله ترصد أنصار مرغم له لقوله عنهم: «وما قدر بني شريم حتى يقيموا لهم إماماً، يعني بني شريم هؤلاء المذكورين أهل عتمة وسحمر. فحفظوا ذلك له» ونتيجة لذلك رتبوا أمرهم لقتله إذا وقعت الحرب. فلما دار القتال ترصدوا له وقتلوه. وكان قتله سبباً لهزيمة الأيوبيين[5].

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 176، الخزرجي: العسجد، ص: 183.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 176، عند الخزرجي، ص: 164 والحمزي، ص: 95، أن المسعود استخلف عمر بن رسول.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 176، الخزرجي: العسجد، ص: 184، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 262، 263.

(4) ابن حاتم: السمط، ص: 176.

(5) ابن حاتم: السمط، ص: 176، الخزرجي: العسجد، ص: 184، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 263.

وفي الوقت الذي انهزم فيه الأيوبيون. وبقي نور الدين بقلة من أصحابه في حصن (ذروان) تحاصره قبائل تلك الناحية من كل جهة. اضطر إلى مكاتبة أخيه بدر الدين الحسن بن رسول والي صنعاء. يشرح له موقفه ويطلب منه النجدة. أمام ذلك الموقف سرعان ما جهز بدر الدين جيشاً كبيراً من صنعاء تولى قيادتهم بنفسه. وترك متولياً عليها علاء الدين سنقر السيفي في جماعة من العسكر. وكان خروجه من صنعاء يوم الأحد 10 شهر رجب سنة 623هـ/ يونيو 1226م. فلما عبروا في طريقهم على أهل سنبان حاول هؤلاء اعتراضهم ومنعهم من الوصول. فحدث قتال شديد بين الطرفين. انتهى بهزيمة أهل سنبان وقتل الكثير منهم. ولما وصل خبر قتلهم وقدوم بدر الدين بجيشه إلى مسامع المحاصرين بذروان خافوا على أنفسهم. وتركوا محاصرة ذروان وانصرفوا قبل وصول الأيوبيين إليهم[1]. وهكذا تمكن بدر الدين من فك الحصار عن أخيه.

بدر الدين والزيدية:

وآنذاك استغل عز الدين بن محمد الإمام المنصور عدم وجود الملك المسعود في اليمن. وظهور حركة مرغم الصوفي وهزيمة الأيوبيين. وكذلك خلو صنعاء من بدر الدين وجيشه. فاتجه عز الدين للسيطرة عليها ومعه سبعمائة فارس وألف راجل. فساروا سنة 623هـ/ 1226م. حتى وصلوا «ريعان» فعسكروا بها ثم اتجهوا إلى (عَصِرْ) وعسكروا بها في انتظار التهيؤ لدخول صنعاء. ومن جهة بني حاتم الذين تحالفوا مع الأيوبيين على المناصرة، فإنهم لما علموا بقدوم الزيدية نحو صنعاء للاستيلاء عليها. أسرعوا في السير إليها من بلادهم بجيش كبير من القبائل تحت قيادة سالم بن علي بن حاتم، وعلوان بن بشر بن حاتم للوقوف مع الأيوبيين ضد الزيدية. وما أن وصلوا إلى صنعاء حتى أسرعوا مع الأيوبيين إلى عَصِرْ لمقاتلة الزيدية[2].

وفي الوقت الذي كان فيه الإمام عز الدين بجيشه في (ريعان) أسرع الأيوبيون الذين كانوا بصنعاء إلى مكاتبة بدر الدين يخبرونه بقدوم الزيدية إليهم. وما أن علم بدر الدين بهذا الخبر حتى أسرع بالاتجاه نحو صنعاء ومعه أخيه نور الدين قبل أن يكملا إنهاء مرغم الصوفي وقواته. ثم ساروا حتى دخلوها في 26 رجب سنة

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 178، 180، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 263، 264، جميل حرب: المرجع السابق، ص: 112.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 180، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 415، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 264، 265.

623هـ/ 1226م. أثناء ما كانت الزيدية والأيوبيون وبنو حاتم متقابلين في عَصِرْ استعداداً للقتال[1].

وفي ذلك الوقت دخل الأميران بجيشيهما صنعاء دون الذهاب نحو المعركة في عَصِرْ وذلك من أجل إراحة جيشيهما من عناء السفر وتناول الأكل والشراب ثم المحافظة على صنعاء، إذا دبرت الزيدية حيلة لدخولها أثناء القتال أو بعد انهزام الجيش الأيوبي. وبعد إراحة الجيش سرعان ما اتجه بدر الدين بجيشه إلى المعركة بعَصِرْ فقاتل الزيدية قتالاً شديداً أسفرت المعركة عند دخول الليل عن هزيمة الزيدية. وقتل الكثير منهم وإصابة عز الدين بنشاب في عينه أصابها العور وعلى أثرها مات في ذي الحجة من نفس السنة كما أدت المعركة إلى انسحاب الزيدية هاربين نحو منطقة (ثلاء) تاركين الكثير من سلاحهم. وفي اليوم التالي للمعركة اتجه بدر الدين إلى (ريعان) فهربت منه الزيدية التي كانت بها، وأخذ بدر الدين ما تركوه فيها من المؤن ثم عاد إلى صنعاء[2]. وهكذا تمكن بدر الدين من هزيمة الزيدية ومنعهم من الاستيلاء على صنعاء.

عودة المسعود إلى اليمن وخروجه منها:

لم يهمل الأيوبيون بمصر ما يحدث لقواتهم في اليمن، فما كادت الأخبار تصل إلى مسامع المسعود إلى مصر حتى نهض مسرعاً عائداً إلى اليمن. فوصل تعز في 17 صفر سنة 624هـ/ 7 فبراير 1227م. ومنها توجه نحو بلاد بني سيف في عتمة لمعاقبة أنصار مرغم الصوفي، فأخرب عليهم بلدتهم بكاملها. وعاد إلى تعز[3].

وفي ذلك الوقت حاول الحسام لؤلؤ أن يفسد العلاقة فيما بين المسعود وأولاد بني رسول بسبب حسده لهم، لما حققوه من انتصار ضد مرغم الصوفي والزيدية، وخشيته من لوم المسعود له بعدم تقديم المساعدة لهم كونه جعله نائباً له باليمن. فعمل على الكيد بهم لدى المسعود[4]. فسمع كلامه وقام بإلقاء القبض

---

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 184، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 415، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 265.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 182، 183، الخزرجي: العسجد، ص: 185، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 415، 416، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 266، الحداد: التاريخ العام، ص: 55.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 194، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 416، 417، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 271، 272، الحداد: التاريخ العام، ص: 58.

(4) ابن حاتم: السمط، ص: 187.

على جميع بني رسول وهم بدر الدين الحسن وفخر الدين أبو بكر وشرف الدين موسى. وأرسلهم إلى مصر، عدا نور الدين عمر بن رسول. وبعد القبض على بدر الدين الذي كان والياً لصنعاء ولّى عليها الحسام لؤلؤ[1].

وعلى الرغم من أن المسعود عاد إلى اليمن إلا أنه لم يقعد بها طويلاً فقد عاد سريعاً إلى مصر بعد أن هدأت الأمور السياسية باليمن. وكان سبب عودته دعوة أبيه الملك الكامل إليه بالحضور إلى مصر، وذلك بعد موت المعظم موسى والي دمشق. لذلك اتجه المسعود عائداً نحو الديار المصرية عله يحظى بولاية دمشق في الشام. فأناب عنه في حكم اليمن نور الدين عمر بن رسول وقال له: (تقف أنت نائباً حتى يصلك أمرنا بتسليم البلاد لمن يتعين له)[2]. واتجه نحو مصر ومعه الحسام لؤلؤ. فلما وصل إلى مكة توفي بها في 13 جمادى الأولى سنة 626هـ/ أبريل 1229م. فقام الحسام لؤلؤ بتوصيل خزانة المسعود وأولاده وأمواله إلى مصر[3].

من خلال ما تقدم نجد أن الملك المسعود تمكن من قيادة الأيوبيين في اليمن بكفاءة عالية فلم يحدث خلال عهده أي انشقاق أو تمرد من القادة الأيوبيين مما يدل على قناعتهم بقيادته وحكمته السياسية وارتضاهم لحكمه. ولذلك تمكن المسعود من توحيد اليمن تحت نفوذه. وقد ساعده لذلك موت الإمام الزيدي عبد اللّه بن حمزة. وعدم ظهور إمام يتمتع بنفس شخصيته وقوته. وبعد هذا المجهود الذي بذله المسعود في توحيد اليمن عاد إلى مصر ولكن الأجل وافاه في الطريق. وبانتهاء المسعود انتهى الحكم الأيوبي لليمن. فقد ظل عمر بن رسول نائباً للأيوبيين لمدة سنتين ثم أعلن استقلاله عنهم في 628هـ/ 1231م. وهكذا كانت نهاية حكم الأيوبيين لليمن.

خاتمة الحكم الأيوبي:

نستخلص مما سبق أن الأيوبيين تمكنوا من توحيد اليمن تحت نفوذهم والقضاء على دويلاتها المتعددة بعد أن كانت توزعت مناطقها إلى دويلات صغيرة متعاصرة زمنياً ومختلفة مذهبياً، ومتصارعة سياسياً، حيث نشأت في كل منطقة دويلة مستقلة. مثل بني مهدي في زبيد وهم خوارج كما يقال أما الإسماعيلية فكان

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 194، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/416، الحداد: التاريخ العام، ص: 59، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 270، الحمزي: كنز، ص: 95.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 195، الحمزي: كنز، ص: 95.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 195، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، 1/ 413، محمد عبد العال: المرجع السابق، ص: 273، الحداد: التاريخ العام، ص: 60.

بنو زريع في عدن وبنو حاتم في صنعاء، وكانت الزيدية في صعدة. كما نخلص أن الأيوبيين تمكنوا من أن يجعلوا اليمن ولاية تابعة لهم، وظل الارتباط مستمرًا بهم، حيث استمر الأيوبيون بمصر يرسلون الحملات إلى اليمن للاحتفاظ بسلطانهم عليها. كما أنهم توارثوا السلطة بها. فقد جاء طغتكين بعد أخيه تورانشاه، وورث السلطة بعد طغتكين ولديه المعز والناصر، ثم قدم المسعود ابن الملك الكامل الأيوبي ليحكم اليمن وكان آخر الأيوبيين بها.

كذلك نخلص أن الصراع ضد الأيوبيين احتدم واشتد مع أهل اليمن المخالفين لهم مذهبياً مثل الإسماعيلية والزيدية. إلا أن الإسماعيلية انتهوا سريعاً ولم يتمكنوا من استمرار مقاومة الأيوبيين بسبب انتهاء دولتهم في مصر. أما الزيدية فقد ظل الصراع بينها وبين الأيوبيين مستمراً في مناطق شمال صنعاء. بسبب استمرار ظهور أئمة الزيدية. وبسبب الخلاف المذهبي فيما بينهما. حيث كان الأيوبيون سُنَّة والأئمة زيدية، لذلك شكلت الزيدية عائقاً كبيراً أمام الأيوبيين في الاحتفاظ بسلطانهم على مناطق شمال صنعاء في عهدي المعز والناصر. كما أن الأيوبيين شكلوا عائقاً كبيراً أمام الإمام نحو توسيع مناطق نفوذه في اليمن الأعلى. وقد عمق الصراع فيما بينهما العداء القبلي بين قبائل اليمن. والطبيعة الجغرافية لليمن. حيث تأرجحت موالاة القبائل بين الأئمة والأيوبيين. مما عمَّق الصراع كثيراً بين الطرفين. بينما اختلف الحال في مناطق اليمن الأسفل وحضرموت وتهامة. فقد أعلن أصحاب هذه المناطق موالاتهم للأيوبيين بسبب التقارب المذهبي بينهم. كونهم ينتمون جميعاً إلى مذاهب أهل السُنَّة. فلم يعمل هؤلاء على مقاتلة الأيوبيين لذلك كان الحكم الأيوبي في هذه المناطق أكثر استقراراً وأمناً من غيرها.

خاتمة القسم السياسي:

من خلال استعراضنا للقسم السياسي لتاريخ اليمن نجد أن اليمن تأرجحت بين التوحيد لجميع مناطقه وبين تكوين العديد من الدويلات.

فمن جهة تعدد الدويلات فقد حدث ذلك قبيل تكوين الدولة الصليحية مثل وجود بني معن وبني الكرندي وبني وائل، وبعد انهيارها مثل بني زريع وبني مهدي والأئمة الزيدية وغيرهم. وكانت هذه الدويلات في صراع مستمر فيما بين بعضها البعض، في سبيل محاولة كل دويلة الاحتفاظ بسلطانها أو التوسع على حساب الدويلات الأخرى. أثر ذلك الصراع على وضع اليمن السياسي والمذهبي والحضاري.

فقد كانت مدن اليمن المتعددة وعواصم تلك الدويلات تتعرض للنهب والسلب والتدمير من قبل المخالفين لمن فيها سياسياً ومذهبياً مثل نهب مدينة زبيد

من قبل الصليحيين وبني مهدي والأيوبيين. وكذلك نهب الكثير من مدن اليمن من قبل ابن مهدي والتي بلغت خمساً وعشرين مدينة وحصناً. وعلى الرغم من أن ظاهرة النهب والسلب لأهل المدن والقرى غير المحاربين ظاهرة غير إسلامية إلا أنه حدث ذلك.

ومن ناحية الهدم والتدمير فقد حدث لكثير من الأماكن من قبل كل الدويلات المتعادية مثل هدم سور صنعاء وقصر غمدان فيها من قبل بني حاتم. وهدم بني مهدي لجامع الجند. وهدم الأيوبيين لجامع بني مهدي وهدمهم لداري الإمارة والإمام بصعدة. وهدم الإمام لداري السلطان والإمارة بصنعاء والذين بناهما الأيوبيون. كذلك هدم دار العز الذي بناه المكرم من قبل المعز الأيوبي. إضافة إلى هدم الكثير من الحصون والقلاع وغيرها. وبسبب ذلك الهدم انتهت المعالم المعمارية من أن تشاهدها الأجيال الأخرى للاستفادة من عقلية ذلك الجيل المعمارية أو للتدليل على حياة حكام ذلك العصر.

كذلك أثر ذلك الصراع على النواحي الفكرية والدينية والاقتصادية. فقد أدت الخلافات المذهبية إلى قتل الكثير من العلماء مثل قتل الزنجيلي لعلماء حضرموت وهروب علماء زبيد خوفاً من ابن مهدي إلى الجبال وقتله لمن كانوا بجامع الجند. كذلك تعرضت القوافل التجارية للتوقف بسبب ذلك الصراع مثل توقف التجارة بين زبيد وعدن أثناء الصراع الدائر بين كل من النجاحيين والصليحيين والنجاحيين وبني مهدي.

وكان سبب ذلك الصراع والهدم والسلب والنهب هو الخلاف المذهبي، والوضع الجغرافي والقبلي لليمن. فمن حيث النواحي المذهبية كان الصليحيون وبنو زريع وبنو حاتم إسماعيلية وبنو نجاح والأيوبيون سُنَّة، وبنو مهدي خوارج، والأئمة زيدية، لذلك الخلاف المذهبي دار الصراع بين النجاحيين السُنَّة وبين الصليحيين الإسماعيلية طيلة بقاء الدولتين كذلك دار صراع بين الصليحيين الإسماعيلية والأئمة الزيدية طيلة بقاء الدولة الصليحية. كما دار صراع بين بني مهدي الخوارج وبني نجاح السُنَّة وبين بني مهدي وكل من بني زريع وبني حاتم وغيرهم، ولم يخلصهم منه إلا تكوين تحالف قبلي ضد بني مهدي. كذلك دار صراع بين الأئمة الزيدية وبين بني حاتم الإسماعيلية. كما عمل الأيوبيون السُنَّة على إنهاء جميع دويلات اليمن الإسماعيلية والخوارج وظلوا يحاربون الزيدية طيلة فترة بقائهم في اليمن.

وبالنسبة لتوحيد اليمن فقد عملت على توحيدها دولتان هما الدولة الصليحية

الإسماعيلية والدولة الأيوبية السنية، فكانت اليمن أثناء توحدها أكثر استقراراً وأكثر مساهمة في التحضر وأقل صراعاً.

وقد تمكنت الدولة الصليحية من توحيد اليمن بواسطة اعتمادها على قبائل متعددة ليست بينها عداوات مذهبية أو ثارات قبليّة فضلاً عن انتمائها المذهبي. فقد تحالف بنو الصليحي وهم من همدان مع بني الزواحي وهم من حمير كما تحالفوا مع قبائل أخرى من همدان مثل يام وشاكر، ومن مذحج مثل جنب، ومن حمير مثل آل أبي البركات. ومن خولان مثل بني الزر من بني مروان. إضافة إلى ذلك فقد كان العامل الأهم لتمكن علي الصليحي من توحيد اليمن هي تركه للحرية المذهبية. وعلى العكس من ذلك فلم تتمكن أية دويلة يمنية ولا الأئمة الزيدية من توحيد اليمن وذلك لأنهم اعتمدوا على قبائل بينها وبين القبائل الأخرى ثارات وعداوات. ثم جاء الأيوبيون وعملوا على توحيد اليمن وذلك لأن جيشهم كان جيشاً نظامياً وليس قبلياً وكان يدين بمذهب واحد، ولذلك تمكنوا من توحيد اليمن بسهولة. وعلى أية حال مهما كانت الأسباب في توحيد اليمن أو تعدد دويلاته فإنه للعامل المذهبي دور كبير في ذلك في تلك الفترة. بهذا العرض التاريخي السابق الذكر نأمل أن نكون قد أعطينا صورة توضيحية عن أهم فترات تاريخ اليمن.

القسم الثاني

مظاهر الحضارة

الباب الأول : النظم الحضارية

الباب الثاني : الحياة الإقتصادية

الباب الثالث : الحياة العلمية

الباب الرابع : الحياة الاجتماعية

تمهيد

أولًا

حدود اليمن ومسمياته الإقليمية

أطلقت المصادر على القسم الجنوبي للجزيرة العربية اسم اليمن وعلى القسم الشمالي منها اسم الشام، وبذلك ترادف لفظ الجنوب مع لفظ اليمن، ولفظ الشمال مع لفظ الشام. يقول الهمداني: (معرفة تفصيل هذه الجزيرة عند أهل اليمن هي يمن وشام، فجنوبها اليمن وشمالها الشام)[1].

وهكذا فقد بدا واضحاً أن هناك ترادفاً بين كلمتي اليمن والجنوب وكلمتي الشام والشمال، وأن كلمة اليمن تعني الجنوب، وكلمة الشام تعني الشمال، وبصفة عامة فقد كان اليمنيون يطلقون على من يتجه نحو الجنوب أنه اتجه نحو اليمن، وعلى من اتجه نحو الشمال أنه اتجه نحو الشام. ومثل ذلك ما أطلق على اليمن ذاتها، فمن يتجه جنوباً من صعدة أو من حَرَض إلى تعز يقولون إنه اتجه نحو اليمن، ومن يتجه من تعز نحو شمال اليمن يقولون إنه اتجه نحو الشام. من الأمثلة في هذا الشأن ما أورده صاحب السمط تعليقاً على استيلاء الملك العزيز طغتكين على حصن (حب) في بعدان سنة 584هـ/ 1188م، وقتل جميع من كان به قوله: (وتزلزلت لذلك اليوم جميع اليمن شاماً ويمناً) يعني شمالاً وجنوباً وما قاله أيضاً بأن المعز بن طغتكين: (استولى على البلاد الشامية وهي ما بين حرض إلى زبيد)[2].

ومن ناحية ثانية حدَّد الهمداني حدود اليمن بأن البحر يحيط بها من جهاتها الغربية والجنوبية والشرقية[3]. يوضح القلقشندي أسماء هذه البحار بقوله: (اليمن قطعة من جزيرة العرب، يحدها من الغرب بحر القلزم، ومن الجنوب بحر الهند،

---

(1) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 89. د. محمد متولي: جغرافية جزيرة العرب، ص: 8.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 26، 45.

(3) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 90، ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ5، ص: 447، 448. طبعة بيروت/ 1984م/ 1403هـ.

ومن الشرق بحر فارس)[1]. أما من ناحية الشمال فقد اختلفت المصادر في تحديدها، فيذكر الهمداني أن أول بلاد اليمن من ناحية بحر فارس يبدأ من (يَبْرَيْن) عند منطقة (دَمَافَطَنْوَي) أي منطقة سلوى شمال عمان، ويسير هذا الحد قاطعاً وسط الجزيرة العربية في خط قد يكون مستقيماً حتى ينتهي في تهامة عند جبل (كُدُمُّل) عند حَمِضَة قرب الليث على ساحل البحر الأحمر[2]، أما المسعودي فيقول إنه: (مما يلي مكة إلى الموضع المعروف بطلحة الملك)[3] (وما على سمت ذلك إلى بحر فارس)[4]. ويحدد ابن حوقل طرف اليمن في تهامة شمالاً بالسرين فيقول: (فما كان من حد السرين حتى ينتهي إلى ناحية يلملم ثم ظهر الطائف ممتداً على نجد اليمن)[5]. أما عمارة فيحدد طرف تهامة اليمن بمنطقة حَلْي بن يعقوب[6]. على أن البعض لم يقف عند هذا التحديد، بل إنهم يجعلون (مكة حداً فاصلاً بين اليمن والشام)[7]. وكما يتضح أن هذا التحديد ناتج عن مسمّى كلمة اليمن التي تعني الجنوب وكلمة الشام التي تعني الشمال.

ومما سبق يتضح أن الحد الشمالي لليمن كان غير ثابت، كما كان يطرأ عليه التغيير. بالامتداد أو الانكماش حسب قوة أو ضعف الدولة الحاكمة في اليمن ذاتها. فهو قد يمتد إلى أقصى أعمال بني طرف، سواء عند السرين أو عند الليث أو عند حَمِضَة أو حَلْي بن يعقوب شمالاً حتى باب المندب جنوباً، ومنه إلى أطراف حضرموت شرقاً. وفي إطار هذا التحديد ستكون دراستنا لبلاد اليمن في العصر الإسلامي التي عرفت بإقليم اليمن[8] أو قطر اليمن[9].

مسميات الوحدات الإقليمية باليمن:

تعددت مسميات الوحدات الإقليمية داخل قطر اليمن تعدداً ملحوظاً:

أولاً: التسمية حسب البيئة الطبيعية وهي قسمان: الجبال والتهائم[10]، أو

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ5، ص: 6، د. محمد متولي: جغرافية اليمن الشمالي، ص: 8.
(2) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 90، د. محمد المتولي: جغرافية اليمن الشمالي، ص: 8.
(3) المسعودي: مروج الذهب، ص: 89. طبعة بيروت، 1403هـ/ 1983م.
(4) قدامة ابن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة، العراق، 1981م، ص: 82.
(5) ابن حوقل: صورة الأرض، ليدن، 1938، ص: 29.
(6) عمارة: المفيد، ص: 66.
(7) د. محمد متولي، جغرافية شمال اليمن، ص: 7.
(8) عمارة: المفيد، ص: 47.
(9) الخزرجي: العسجد، ص: 58.
(10) عمارة: المفيد، ص: 47، ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 67.

ما يسمى نجد اليمن وتهامة اليمن[1]، وتتمثل الجبال أو النجد بالسلسلة الجبلية الوسطى التي تمتد من عدن جنوباً إلى آخر حدود اليمن شمالاً وهي ما تسمى بسلسلة جبال السراة. والتهائم هي السهل الساحلي المجاور للبحر، والذي يمتد من عدن حتى آخر حدود اليمن شمالاً عند منطقة حَلْي بن يعقوب أو الليث.

وهناك تسمية ثانية حسب البيئة الطبيعية أيضاً هي أن اليمن يمنان: يمن أعلى ويمن أسفل، (فاليمن الأعلى قصبته صنعاء... وأما اليمن الأسفل فقصبته زبيد)[2]. ويرى البعض أن تعز هي قصبة اليمن الأسفل باعتبار أن المناطق النجدية أي المرتفعة من اليمن أو هضبتها قسمت إلى قسمين: أعلى للمناطق المرتفعة من الهضبة. وأسفل للمناطق المنخفضة منها.

أما ما ذكره كل من الخزرجي وابن الديبع فإنهما ضما إقليم تهامة باعتباره إقليماً منخفضاً إلى المناطق الجبلية المنخفضة وجعلا من زبيد عاصمة لهذا القسم. علماً بأنه ليست هناك حدود فاصلة فيما بين اليمن الأعلى واليمن الأسفل لهضبة اليمن أو نجدها. فقد يتسع نطاق اليمن الأسفل فيشمل الهضبة الجنوبية لنجد اليمن حتى صنعاء، ويقتصر إطلاق اليمن الأعلى على شمال صنعاء فقط[3]، وبالعكس قد يتسع اليمن الأعلى فيشمل هضبة شمال اليمن حتى يصل إلى جنوب صنعاء بحيث تصبح صنعاء قصبة له[4].



ثانياً
المخلاف

من بين مسميات الوحدات الإقليمية المخلاف وجمعها المخاليف، وهو اسم تميزت به التقسيمات الإدارية في بلاد اليمن دون غيرها من البلاد الإسلامية الأخرى

---

(1) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص: 69، 70، ليدن 1906م، الاصطخري: المسالك والممالك، ص: 21، القاهرة، الأنصاري: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص: 215، طبع بطر يورغ، 1965. عن مناطق نجد اليمن وتهامتها. ذكر المقدسي: (وأما اليمن فقسمان ما كان نحو البحر فهو غور واسمه تهامة قصبته زبيد ومن مدنها معقر وكدره ومور... وأما ما كان من ناحية الجبال فهو بلاد بارد يسمى نجداً قصبتها صنعاء ومن مدنها صعدة نجران جرش..). المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 69، 70.

(2) الخزرجي: العسجد، ص: 80، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 32 ـ 36.

(3) البلاذري: فتوح البلدان، ص: 80.

(4) الخزرجي: العسجد، ص: 80، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 32 ـ 36. يحيى بن الحسين: غاية الأماني، جـ1، ص: 241، 242.

وهي تسمية قديمة تطلق في جميع اليمن سواء بالسهل أو الجبل، وتأتي عادة مقرونة باسم منطقة أو شخص مثل مخلاف المَعَافِر، ومخلاف الجَنَد، ومخلاف جَعْفَر، ومخلاف عَنَّة، ومخلاف أُحَاظَة[1] أو يقال وُصَاب ومخاليفها وصنعاء ومخاليفها، وكَوْكَبَان ومخاليفها[2].

ويشمل المخلاف عدة قرى وحصون ويعرفه ابن المجاور بقوله: (ما كان حول كل حصن من القرى والزراعات فهو مخلاف)[3]. وليست هناك حدود ثابتة للمخلاف، فقد يشمل حصوناً وقرى عديدة أو قليلة حسب الظواهر الجغرافية من جبال حاجزة وغيرها، أو عوامل قبلية حسب حجم القبيلة من كثرة وقلة، أو حسب عوامل سياسية من حيث قوتها السياسة أو ضعفها.



ثالثاً

تسمية الحصن

حتمت طبيعة بلاد اليمن الاهتمام بإنشاء الحصون في مختلف المناطق، وقد أطلق عليها اسم المنطقة التي يقع فيها من حصون اليمن الأسفل: السَمَدَان، السَّوَاء، الدُمْلُوة، ذَخِر، التَعْكُر، حَبٌّ، عَزَّان، الشَّعِر، خُدَد، الشَّوَافِي، أَشْيَح، مُقْرَى، وُصَاب، قَيْظَان، ذَرْوَان[4]. ومن حصون اليمن الأعلى: مَسَار بَرَاش، ذَمَرْمَر، كَوْكَبَان، الظَّفَر، العَرُوس، الفَصّ، فَدَّة[5] وغيرها.

---

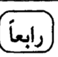
(1) عمارة: المفيد، ص90 ـ 97، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 335.

(2) عمارة: المفيد، ص: 93، 94، 133.

(3) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 170. وردت أسماء مخاليف اليمن في كثير من المصادر الجغرافية منها كتاب الخراج لقدامة بن جعفر، وأحسن التقاسم للمقدسي، فهذان المصدران ذكرا حوالي ثمانية وأربعين مخلافاً. (قدامة، ص: 88، 92، المقدسي، ص: 88 ـ 93) في حين ذكر اليعقوبي حوالي أربعة وثمانين مخلافاً. (اليعقوبي: تاريخ، ص: 162، اليعقوبي: البلدان، ص: 317) وأوصل ابن خرداذبة عددها إلى أكثر من مائة مخلاف (المسالك، ص: 136 ـ 142). وفي الوقت الذي ذكر فيه ابن المجاور أن تسمية المخلاف لم تكن مستعملة في القرنين الخامس والسادس الهجريّين إلا في المناطق الجبلية دون تهامة (ابن المجاور، ص: 170) ووافق ابن المجاور في قوله ذلك ياقوت الحموي حين ذكر في معجمه ستة وثلاثين مخلافاً في الجبال (ياقوت: معجم البلدان، جـ5، ص: 67 ـ 70) وهذا غير صحيح فقد ظهر اسم المخلاف في المناطق التهامية من اليمن، مثل المخلاف السليماني في هذه الفترة.

(4) عمارة: المفيد، ص: 86 ـ 94، التعريف بالأسماء والحصون سنوردها في الملحق.

(5) ابن حاتم: السمط، ص: 28 ـ 32.



رابعاً

تسمية النواحي والديار والأعمال

أطلق اسم النواحي ومفردها ناحية على كثير من المناطق، فيقال ناحية أبين، ناحية عثر، ناحية الأحقاف، ناحية مهرة، ناحية سبأ. كما أطلق اسم الديار على بعض المناطق الأخرى مثل ديار كندة. كذلك أطلقت كلمة (أعمال) على ملحقات المناطق مثل أعمال برع، أعمال العمد، أعمال لسعان، أعمال حراز وأعمال بني طرف، وأعمال الحصون والجبال، وأعمال تهامة.

وهناك تسمية بنسبة اسم المنطقة إلى كلمة صاحب، مثل صاحب عثر، صاحب بيحان صاحب نجران، صاحب جرش، صاحب حلي[1]، وأحياناً كان يذكر اسم هذا الصاحب مثل وائل بن عيسى صاحب أحاظة، علي بن معن صاحب عدن، ابن الكِرَنْدِي صاحب المعافر[2].

وهكذا نرى تعدد الأقاليم داخل مسميات اليمن تبعاً للعوامل الجغرافية أو القبلية أو السياسية. ومن خلال تلك المسميات يمكن أن نطلق على كل إقليم خضع لحاكم واحد اسم وحدة إدارية، أو منطقة إدارية، أو قسم إداري.

والملاحظة العامة أن العامل الجغرافي له تأثير كبير في أحوال اليمن الإدارية والسياسية. ففي المناطق السهلية كانت الوحدات الإدارية كبيرة المساحة وظلت تقريباً تتبع نفس التقسيم الإداري في عهد الصليحيّين والأيوبيّين ومن عاصرهم.

أما المناطق الجبلية فقد كانت أكثر تعقيداً وتعدداً بسبب التغيير المستمر في تقسيمها الإداري، ربما كان يحدث دمج لبعض مناطقها في وحدة إدارية واحدة، أو فصل بعض مناطقها عن بعض في وحدات إدارية متعددة. وذلك بسبب طبيعتها الجبلية التي تمثل حواجز فاصلة فيما بين مناطقها أو تعدد قبائلها. لذلك ظلت المناطق الجبلية متغيرة التقسيم الإداري.

أما من الناحية السياسية فقد كانت الجبال عاملاً مساعداً في قيام الدويلات أو تمرد الحكام المحليّين، فقد كانت أول إنطلاقة علي بن محمد الصليحي من جبل مسار بحراز. كما كان ظهور ابن مهدي من حصن الشرف قرب زبيد[3]. كما تمرد

(1) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 70.

(2) الخزرجي: العسجد، ص: 107.

(3) عمارة: المفيد، ص: 101، 232، ابن الديبع: قرة العيون، 343، 361.

الكثير من الأيوبيّين مثل نجاح الأيوبي حاكم حصن الدملؤة، وحكو بن محمد الكردي، وهشام الكردي وغيرهما[1] في اليمن الأعلى.

وكانت الجبال أيضاً عاملاً مساعداً على استمرار وجود النظام القبلي وما يتبع ذلك من عصبيات قبلية ضد بعضهم البعض وضد الدولة. لأن الجبال كانت تفصل بين كل تجمع سكاني وآخر سواء أكان التجمع ينتمي إلى فرع قبلي واحد أم إلى عدة فروع. فأينما غلبت وحدة المنطقة شكلت وحدة قبلية لها استقلالها وعصبيتها. ولذلك كانت أقاليم اليمن تتوزع بين العديد من الزعامات القبلية، وفي أغلب الأوقات تتنازع هذه القوى فيما بينها للسيطرة على الأقاليم، وغالباً ما كانت هذه الزعامات القبلية تهتم بالاستيلاء على الحصون والقلاع لأنها أساس السيطرة على المخاليف والقرى المجاورة لها.

مما سبق نجد أن أسماء الوحدات الإدارية في اليمن ارتبطت بأسماء المناطق اليمنية المتعددة. وقد ظلت هذه الأسماء موجودة أثناء توحد اليمن أو تجزّئها. أما المسميات الإدارية المرتبطة بأسماء الحكام فقد انتهت بزوال حكمهم.

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 45، 46، 48.

الباب الأول

النُّظُم الحَضَارِيَّة فِي اليمن

الفصل الأول: نظام الإمارة

الفصل الثاني: النظام الإداري

الفصل الثالث: النظام القضائي

الفصل الرابع: النظام العسكري

نظام الإمارة



التبعية

اتسم الحكم في اليمن بالتبعية الإسمية إما للخلافة العباسية ممثلاً بالزياديّين ثم النجاحيّين في زبيد وتهامة. أو للخلافة الفاطمية ممثلاً بالصليحيين في نجد اليمن في كل من صنعاء وذي جبلة بالإضافة إلى الزريعيّين في عدن. كما اتسم أيضاً بعدم إعلان التبعية لإحدى الخلافتين ممثلاً بالأئمة الزيدية في صعدة وبني مهدي في زبيد.

ففي مجال التبعية للخلافة العباسية سار النجاحيون في حكمهم لتهامة موالين للخلافة العباسية خلفاً للزياديّين. فقد حصل الأمير نجاح على تفويض من الخلافة العباسية بعد استيلائه على السلطة في زبيد من الخارجين على البيت الزيادي، الذين قتلوا الطفل الزيادي آخر بني زياد وعمته أواخر العهد الزيادي.

حيث أراد نجاح أن يكسب الصفة الشرعية لحكمه بمراسلته الخليفة العباسي في بغداد آنذاك معترفاً بسيادته باذلاً له الولاء والطاعة وطالباً منه تقليده الحكم على اليمن، فأجاب الخليفة العباسي لطلبه وفوض له النظر العام في إقليم اليمن، وتقليد القضاء لمن يراه أهلاً لذلك[1].

بهذا التفويض الذي حصل عليه نجاح أصبح نائباً عن الخلافة العباسية في اليمن، وصاحب التصرف في جميع أمور المناطق الداخلة تحت سيطرته في اليمن، وصاحب الحق الشرعي في إدارتها يولي من يشاء من القضاة والوزراء والأمراء أو محاسبتهم أو عزلهم. فكانت بذلك سلطة الخلافة العباسية في عهد بني نجاح لا تتعدى السلطة الإسمية[2].

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 85، 86، الجندي: السلوك، جـ2، ص: 485، الخزرجي: العسجد، ص: 104، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 334، كان الخليفة العباسي الذي حكم الخلافة العباسية في تلك الفترة القادر من 381ـ422هـ/ 991ـ1030م. ثم القائم من 422ـ467هـ/ 1074م.

(2) زهران رياض: دولة حبشة في اليمن، ص: 117، المجلة التاريخية المصرية، سنة 1959م.

- Francinestone: studies on the Tihamah, p.32, 1989.

واقتصر استمرار النجاحيّين بالتبعية للخلافة العباسية بإعلان الخطبة للخلفاء العباسيّين وضرب السكة باسمهم[1]. واتباع مذهبهم الديني.

ورغم أن المصادر لم تذكر عن استمرار كل أمير من بني نجاح يسعى إلى الحصول على تفويض من الخليفة العباسي للحكم، إلا أن استمرار الخطبة للعباسيّين في تهامة وضرب السكة باسمهم دليل على التبعية لهم. وكذلك توجه جياش بن نجاح إلى طلب (الغز) (السلاجقة) وجلبهم إلى اليمن والاستعانة بهم دليل على تبعية هذه الإمارات للخلافة العباسية[2] إضافة إلى ذلك إعلان بعض المناطق اليمنية موالاتها لحكام تهامة فقد كان بنو معن حكام عدن المحليّين موالين للزياديّين ويدينون بالمذهب السنّي وظلوا على ذلك معلنين الولاء لبني نجاح في زبيد إلى أن استولى الصليحيون على عدن.

أما بالنسبة للتبعية للخلافة الفاطمية فقد تمثل بالصليحيّين فبعد أن جهر علي بن محمد الصليحي بالدعوة الإسماعيلية الفاطمية باليمن أراد أن يكسب حقاً شرعياً بسلطته على اليمن، فكاتب الخلافة الفاطمية، ويعني الحق الشرعي هو كسب تأييد ودعم الخلافة الفاطمية، كما يعني إقناع القوى الأخرى بالطاعة له وعدم مقاومته.

لذلك أرسل علي الصليحي إلى الخليفة الفاطمي المستنصر باللّه سنة 453هـ/ 1061م، بهدية عبارة عن سبعين سيفاً ذات مقابض من عقيق وخمسة أثواب وَشْي وفصوص عقيق ومسك وعنبر[3] رمزاً للطاعة له ويستأذنه في إظهار الدعوة له باليمن فقبل المستنصر باللّه ذلك وقلده على اليمن (وأمر له برايات، وكتب له الألقاب وعقد له الولاية وآذن له بنشر الدعوة)[4].

غير أن المصادر اختلفت في تحديد زمن طلب الصليحي من الخلافة الفاطمية

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 209، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 96، الخزرجي: العسجد، ص: 114، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 351.

(2) عمارة: المفيد، ص: 215، 216.

(3) محمد بن مالك الحمادي: كشف أسرار الباطنية، ص: 81، 82، جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمي ص: 77، القاهرة، 1976م، سياسة الفاطميّين الخارجية، القاهرة، 1976م، ص: 82، د. محمد أمين صالح: العلاقة بين دولة الصليحيّين والخلافة الفاطمية، ص: 62. د. عصام الدين الفقي: اليمن في ظل الإسلام، ص: 165.

(4) الجندي: السلوك، جـ2، ص: 486، الخزرجي: العسجد، ص: 57، ابن الديبع: 1) قرة العيون، ص: 246، 2) بغية المستفيد، ص: 46، د. حسن إبراهيم حسن: اليمن البلاد السعيد، ص: 71، القاهرة سلسلة اخترنا لك (ع) 52، جمال الدين سرور: 1) سياسة الفاطميّين الخارجية، ص: 82، 2) النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، ص: 77.

بالإذن له بنشر الدعوة الإسماعيلية الفاطمية باليمن. فبعضهم يذكر أنه كتب إليهم بذلك بمجرد أن استقر في جبل مسار بحراز سنة 429هـ[1]، وبعضهم يذكر أنه كتب إليهم بعد استيلائه على صنعاء سنة 448هـ/ 1056م[2]. وبعضهم الآخر يذكر أنه كتب إليهم بذلك سنة 453هـ/ 1061[3] أي بعد مقتل نجاح واستيلاء الصليحي[4] على زبيد وأعمالها التهامية، ولكن الذي يبدو أن هذا الاختلاف يرجع إلى طبيعة استمرار تطور الدعوة الإسماعيلية باليمن من دور الستر إلى دور الظهور. فقد كان علي الصليحي مستمراً في مكاتبة الفاطميّين يبلغهم بكل خطوة يخطوها في اليمن دليلاً على الولاء والتأيّيد والإذن له. فعندما جهر بالدعوة في جبل مسار سنة 439هـ/ 1047م أبلغهم بذلك، وعندما استولى على صنعاء أخبرهم بالاستيلاء عليها، ولما قضى على الأمير نجاح الذي كان يمثل القوى السنّية والخلافة العباسية كاتب الخليفة الفاطمي المستنصر باللّه سنة 453هـ/ 1061م يطلب منه عقد توليته على اليمن كلها فوافق الخليفة الفاطمي له بالولاية وقلّده على اليمن كلها. بذلك أصبحت سلطة علي الصليحي على اليمن سلطة شرعية، فكان من حقه تولية من يشاء على مدن اليمن، وحصونها وقراها أو عزلهم أو محاسبتهم.

وهناك ظهرت في اليمن دويلات تستولي على السلطة دون أن توالي أياً من الخلافتين العباسية أو الفاطمية هم الأئمة الزيدية وابن مهدي.

فبالنسبة للأئمة الزيدية فإنهم يأتون في قائمة الحكام في اليمن الذين لا يطيعون أياً من الخلافتين المذكورتين، إذ أنهم كانوا مذهبياً يدعون لمذهب الإمام زيد بن علي رضي اللّه عنه[5]، وسياسياً يدعون لأنفسهم بالسلطة باعتبارهم أئمة دعاة يرجع أصول نسبهم إلى علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه، وفي اعتقادهم يعتبرون أنفسهم أحق بالخلافة أو السلطة من العباسيّين أو الفاطميّين.

وقد كان الأئمة الزيدية يظهرون في اليمن بين الحين والآخر شاهرين لسيوفهم

(1) الحمادي: كشف أسرار الباطنية، ص: 81، حسن سليمان، الصليحيون في اليمن وعلاقتهم بالفاطميّين بمصر، ص: 55. رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، 1951، 1952م.

(2) الجندي: السلوك، جـ2، ص: 486، ابن الديبع: بغية المستفيد، ص: 46.

(3) عمارة: المفيد، ص: 118، 119، الخزرجي: العسجد، ص: 57، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 193، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 246.

(4) محمد أمين صالح: العلاقة بين دولة الصليحيّين والخلافة الفاطمية، ص: 62.

(5) يحيى حميد المقرائي: نزهة الأنظار في ذكر الأئمة الزيدية الأطهار، ق 15ب، ص: 358، دار الكتب المصرية، رقم 358.

داعين لأنفسهم بالإمامة[1]. وعلى ذلك فإن أسلوب تولي السلطة عند الأئمة الزيدية هي الخروج والدعوة إلى النفس. وأهم الأسر التي ظهرت في اليمن من الزيدية هم أسرة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين، وبنو حمزة، وأولاد العياني.

ومن القوى السياسية التي استولت على بعض مناطق اليمن ولم تدن بالطاعة لأي من الخلافتين المذكورتين، هم بنو مهدي الذين نهجوا نهجاً آخر عن اتجاه أهل السُنَّة الموالين للعباسيّين أو الإسماعيلية الموالين للفاطميّين أو الزيدية، فكونوا لأنفسهم سلطة بعيدة عن تلك الاتجاهات جميعها[2].

وفي العهد الأيوبي كانت السلطة الأيوبية الحاكمة في اليمن تابعة لسلطنة مصر وكلاهما تتبعان الخلافة العباسية، حيث تولّى رئاسة الدولة سلاطين أو ملوك من البيت الأيوبي يحملون تفويضاً عاماً لحكم اليمن. من قبل سلاطين مصر. فمثلاً أعطى صلاح الدين أخاه سيف الإسلام طغتكين تفويضاً عاماً لإدارة إقليم اليمن عندما أرسله إليها لإعادة توحيدها سنة 579هـ/ 1183م[3]. ثم تتالى الأيوبيون يحكمون اليمن بنفس التبعية والتفويض العام لإدارة إقليم اليمن حتى نهاية حكمهم سنة 626هـ/ 1228م.

ثانياً

الوراثة في الحكم

والملاحظة العامة أن نظام الوراثة لم يظهر في مناصب الإمارة فقط، وإنما ظهر أيضاً في مناصب الوزارة والنيابة والإدارة والقضاء، وسوف نظهر هذه الوراثة عند الحديث عن هذه المناصب.

عمل أمراء الدول اليمنية المختلفة على جعل الحكم وراثياً في أسرهم منذ بداية الدول المستقلة في اليمن في عهد بني زياد. وكذلك كان الأمر بالنسبة لبني نجاح والصليحيّين وبني زريع وبني حاتم وبني مهدي وغيرهم من الأسر الحاكمة في اليمن. وكانت الوراثة تنتقل ما بين الأبناء أو الأخوة.

فبالنسبة لبني نجاح في زبيد وتهامة تولّى بعد نجاح ابنه سعيد الأحول إلى أن

---

(1) د. أحمد صبحي: الزيدية، ص: 69. الإسكندرية، 1980.

(2) عمارة: المفيد، ص: 236، الخزرجي: العسجد، ص: 140، 141، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 373، د. محمد أمين صالح: دولة الخوارج في اليمن، ص: 132، د. محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 61.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ10، ص: 111.

مات سنة 461هـ/ 1069م[1]. ثم تولّى بعده أخوه جياش بن نجاح، ومن بعده استمرت السلطة في بيت جياش إلى أن انتهت الدولة النجاحية بقتل الأمير فاتك بن محمد بن منصور بن فاتك بن جياش النجاحي سنة 553هـ/ 1158م[2].

كذلك جرى التوريث في زبيد عند بني مهدي، فبعد أن تولّى علي بن مهدي السلطة في زبيد سنة 554هـ/ 1559م لم يمكث غير ستة أشهر تولّى بعده السلطة ابنه مهدي بن علي، ثم تولّى بعده أخوه عبد النبي ابن مهدي، واستمر في الحكم إلى أن قدم الأيوبيون إلى اليمن سنة 569هـ/ 1173م[3].

ووجد نظام الوراثة في الحكم أيضاً عند الصليحيّين (429 ـ 532هـ) وكان التوريث عندهم مرتبطاً بموافقة الخلافة الفاطمية، فلما رغب علي الصليحي أن تكون السلطة في ولاية اليمن وراثية في أسرته كتب رسالة إلى الخليفة الفاطمي المستنصر باللّه يطلب منه أن يعهد إلى ابنه محمد الأغر بولاية العهد، فوصلته الموافقة لابنه بولاية العهد في رجب سنة 456هـ/ 1064م، ولقب بالأمير الأعزل شمس المعالي، إلا أنه لم يعش طويلاً إذ توفي سنة 458هـ/ 1065م، ولما علم المستنصر باللّه الفاطمي بوفاته عهد بولاية العهد لابنه الآخر الأوسط الأمير المكرم أحمد بن علي بن محمد الصليحي وذلك في سنة 458هـ/ 1065م، ولما ذهب علي الصليحي للحج سنة 459هـ/ 1067م أناب عنه أمر اليمن لابنه الأمير المكرم حسب توليته ولاية العهد[4].

أما من جانب الخلافة الفاطمية، فلما علم المستنصر باللّه الفاطمي بقتل الداعي علي الصليحي أصدر تقليداً للمكرم بتوليته إقليم اليمن فأرسل إليه رسالة في شعبان سنة 460هـ/ يونيو 1068م، أوضح فيها له عن أسفه لقتل أبيه وعهد إليه أمر اليمن ونشر الدعوة بها[5]. بذلك يكون المكرم قد تولّى الأمر بعد أبيه وراثياً

---

(1) بعد قتل نجاح تأرجحت السلطة على زبيد وتهامة، فيما بين الصليحيّين والنجاحيّين عهد سعيد الأحول فتارة كان يستولي عليها الصليحيون، وتارة أخرى يستردها النجاحيون إلى أن تغلب عليها جياش بن نجاح نهائياً سنة 477هـ مثبتاً الحكم في أسرته ومتحدياً غارات الصليحيّين على تهامة (عمارة: المفيد، ص: 148، 149، الخزرجي: العسجد، ص: 64، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 266 ـ 269).

(2) انظر، الخزرجي: العسجد، ص: 104 ـ 128، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 341 ـ 359.

(3) انظر، الخزرجي: العسجد، ص: 128 ـ 145، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 359 ـ 373.

(4) مجهول: السيرة الصليحية، ص: 14 ـ 17، الهمداني: الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، ص: 95، 96، د. حسن إبراهيم حسن: اليمن البلاد السعيد، ص: 78، د. محمد أمين صالح: العلاقة بين دولة الصليحيّين والخلافة الفاطمية، ص: 62، 63.

(5) مجهول: السيرة الصليحية، ص: 18، 88، د. جمال الدين سرار: 1) النفوذ الفاطمي في جزيرة =

بموافقة الخليفة الفاطمي المستنصر بالله. على ذلك أصبح المكرم أحمد هو المسؤول عن تولية وعزل من يشاء من ولاة اليمن.

وعندما توفي المكرم خلف طفلاً تحت وصاية أمه، ولكي تكسب أمه السيدة الحرة حقاً شرعياً من الخليفة الفاطمي المستنصر بالله أرسلت إليه تطلب منه أن يستخلف ابنها الذي سمي علي بن المكرم، ولقب عبد المستنصر مكان أبيه في ولاية اليمن[1]. وحسب سير الفاطميّين على الإلتزام بمبدأ الوراثة في تولي الابن الأكبر أو الموصى له بالخلافة[2]. وبناء على ما اعتاد عليه الخليفة الفاطمي المستنصر بالله من إعطاء تولية العهد لأبناء الصليحيين، وهو ما يدخل ضمن نطاق اختيار الخليفة وتفويضه. فقد وافق المستنصر بالله الفاطمي على جعل ابن المكرم يتولّى مقاليد أمور اليمن بعد أبيه[3]، لذلك أرسل المستنصر بالله الفاطمي رسالة إلى السيدة الحرة ينصب ولدها الأصغر علي بن المكرم ويقلده المكانة التي كان عليها أبوه، وهي تولي إقليم اليمن ومقاليد الدعوة الإسماعيلية بها، وجعل حق الوصية للسيدة الحرة حكم الدولة وإدارتها نيابة عن ابنها الطفل حتى يبلغ رشده، إذ يقول النص: (فقد جعل إليك أمير المؤمنين النظر في تلك البلاد والأعمال ومراعاة دعاتها وانتظام حال الدعوة فيها)[4].

وعندما عارض بعض اليمنيّين تولية الأطفال السلطة في اليمن ردّ عليهم الخليفة المستنصر بالله الفاطمي أنه يجوز تولي الأطفال، فأورد دليلاً يوافق مفهوم الإسماعيلية الفكري والسياسي بأنه فوض (لأمير المؤمنين الخلافة وسنه دون الثمان سنين وجده علي بن الحسين تولّى الخلافة وعمره تسع سنين وقد جاز هذا في الإمامة وهي الدرجة التي تلي النبوة فكيف الدعوة التي لأمير المؤمنين أن يتصرف فيها على اختياره ويفوض إلى من يرتضيه ويختاره)[5]، بذلك المفهوم وهو

= العرب، ص: 80، 2) سياسة الفاطميّين الخارجية، ص: 84، د. محمد أمين صالح: العلاقة بين دولة الصليحيّين والخلافة الفاطمية، ص: 64، د. عصام الفقي: اليمن في ظل الإسلام، ص: 56.

(1) حسن إبراهيم حسن: اليمن البلاد السعيد، ص: 83، د. جمال الدين سرور: 1) النفوذالفاطمي في جزيرة العرب، ص: 83، 2) سياسة الفاطميّين الخارجية، ص: 87، حسين الهمداني: الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، ص: 148، 149، مصطفى غالب: أعلام الإسماعيلية، ص: 149.

(2) د. حسن سليمان: تاريخ اليمن السياسي، ص: 197، عارف تامر: أروى بنت اليمن، ص: 121.

(3) السجلات المستنصرية، سجل رقم 38، ص: 161، 165، حسين الهمداني: نفس المرجع، ص: 141 ـ 150، د. محمد أمين صالح: العلاقة بين دولة الصليحيّين والخلافة الفاطمية، ص: 67.

(4) السجلات المستنصرية، سجل رقم 37، ص: 163، سجل رقم 50، ص: 166، 169.

(5) السجلات المستنصرية، سجل رقم 37، ص: 127، د. محمد جمال سرور: 1) النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، ص: 84، 2) سياسة الفاطميّين الخارجية، ص: 88، د. محمد أمين صالح: دولة الصليحيّين والخلافة الفاطمية، ص: 67، 68.

الاختيار والتفويض من الخليفة الفاطمي لمن يرتضيه اقتنع الناس في اليمن بولاية علي بن المكرم تحت وصاية والدته.

وكذلك وجدت الوراثة في الولايات أو الأقاليم التابعة للصليحيّين مثل إقليم عدن وإقليم صنعاء والتي استمرت تحت التبعية للصليحيّين ثم استقلت عنهم.

ففي إقليم عدن ولّى المكرم أحمد الصليحي عليها كل من العباس والمسعود ابني الكُرَّم الهمداني سنة 469هـ/ 1076م قسمة بينهما، استمر أبناؤهما يحكمون عدن وراثياً إلى أن تولاّها كل من سبأ بن زريع وابن عمه علي بن أبي الغارات حيث حدث خلاف بين عمالهما حول جمع المال في عدن أدّت إلى حرب فيما بينهما تمكن خلالها سبأ بن زريع من الانتصار علي ابن عمه فانفرد بحكمه لعدن وأعمالها[1].

واستمر أولاد سبأ بن زريع بمفردهم يتوارثون السلطة في عدن، فبعد سبأ بن زريع تولّى ابنه علي الأعز سنة 533هـ/ 1138م لفترة بسيطة ثم تولّى أخوه محمد بن سبأ سنة 534هـ/ 1139م، ثم ابنه عمران بن محمد بن سبأ سنة 550هـ/ 1155م، ولما توفي عمران سنة 560هـ/ 1164م ترك خلفه أولاداً صغاراً تحت كفالة جوهر المعظمي وفي عهده دخل الأيوبيون إلى اليمن[2].

وفي إقليم صنعاء تولّى الحكم فيها وراثياً ثلاث أسر همدانية أولهم آل الغشم المغلسي من سنة 492هـ/ 1098م حتى سنة 510هـ/ 1016م، وثانيهم أسرة بني القبيب الهمداني من سنة 517هـ/ 1123م حتى سنة 532هـ/ 1137م، أما الثالثة فهي أسرة اليامي الهمداني تولت حكم صنعاء سنة 533هـ/ 1138م باختيار قبيلة همدان لحاتم بن أحمد بن عمران اليامي ابن المفضل اليامي واستمر حاتم يحكم صنعاء وأعمالها إلى سنة 556هـ/ 1160م، فتولّى بعده ابنه علي بن حاتم اليامي[3] ثم أخوه السلطان بشر بن حاتم.

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 172 ـ 177، الجندي: السلوك، جـ2، ص: 501، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 82 ـ 84، الخزرجي: العسجد، ص: 84، 88، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 304 ـ 309، أحمد فضل العبدلي: هدية الزمن في أخبار الملوك ولحج وعدن، ص: 54 ـ 55، د. حسن سليمان: تاريخ اليمن السياسي، ص: 222 ـ 226، محمود المحامي: اليمن شماله وجنوبه، ص: 172، د. فضيله الشامي: إمارة آل زريع بعدن (476 ـ 569)، ص: 100، 102، مجلة المؤرخ العربي 74/ 1978م، د. محمد أمين صالح: بنو معن ثم آل زريع في عدن، ص: 326 ـ 328، د. محمد كريم: عدن دراسة في أحوالها السياسية والاقتصادية (476 ـ 626)، ص: 115، محمد الحداد: التاريخ العام لليمن، ص: 296 ـ 299.

(2) عمارة المفيد، ص: 177 ـ 191، الجندي: السلوك، جـ2، ص: 501 ـ 505.

(3) الخزرجي: العسجد، ص: 71 ـ 83، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 278 ـ 303.

وامتدت الوراثة في السلطة إلى بعض الشخصيات الكبيرة التي استعان بها الصليحيون مثل أبي البركات الحميري الذي يرجع الاستعانة به إلى فترة انتقال المكرم أحمد إلى ذي جبلة وجعلها عاصمة له سنة 467هـ/ 1074م، حينما ولي أبي البركات الحميري على حصن التعكر وما حوله، ثم أصبح تولي الحصن وراثياً في أولاد أبي البركات الحميري، حيث تولّى بعده ابنه خالد ثم أخوه المفضل ثم ابنه منصور بن المفضل بن أبي البركات الذي باع منطقة ولايته التي ورثها عنهم إلى الداعي محمد بن سبأ الزريعي سنة 547هـ/ 1152م[1]، ما عدا حصن صبر في تعز الذي ظل به أحمد بن منصور بن الفضل بن أبي البركات.

كذلك وجدت السلطة الوراثية عند الأئمة الزيدية في كثير من الأحيان، وإن كانت السلطة في نظام الأئمة الزيدية تتم عن طريق المبايعة، والتي تسمح بانتقال الإمامة من إمام إلى آخر من أبناء عمومتهم. إلا أنها اتبعت هي الأخرى نظام الوراثة في الأبناء، فأول من تولّى الإمامة وراثياً عند الزيدية في اليمن الإمام المرتضى وأخوه الإمام الناصر ابني الإمام الهادي إلى الحق، ثم ابنه المنصور يحيى بن الناصر أحمد سنة 366هـ/ 976هـ[2].

كذلك قام بالاحتساب للزيدية معاصراً للصليحيّين كل من الشريف الفاضل القاسم بن جعفر، ولما قتل سنة 468هـ/ 1075م في الجوف قام بأمر الاحتساب أخوه ذو الشرفين، واستمر حتى وفاته سنة 478هـ/ 1085م[3].

كذلك تولّى بعد الإمام أحمد بن سليمان سنة 566هـ/ 1170م ابنه يحيى وإن لم يستقر في السلطة بسبب صراعه مع الإمام عبد اللّه بن حمزة الذي توفي سنة 614هـ/ 1217م والذي ولي بعده ابنه الأمير عز الدين بن المنصور باللّه ولقب بالناصر لدين اللّه[4].

كذلك استمرت الوراثة عند الأيوبيّين في حكمهم لليمن، فبعد أن تولّى حكم اليمن تورانشاه (569 ـ 571هـ/ 1174 ـ 1176م) تولّى بعده أخوه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب (579 ـ 593هـ/ 1183 ـ 1197م) ثم أصبحت السلطة في اليمن

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 172 ـ 191، الخزرجي: العسجد، ص: 83 ـ 96، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 305 ـ 320.

(2) زبارة: أئمة اليمن، ص: 65، الواسعي: تاريخ اليمن، ص: 179، المرتضي محمد بن يحيى بن الحسين والناصر أحمد بن يحيى.

(3) زبارة: إتحاف المهتدين، ص: 52. صنعاء، 1343هـ.

(4) زبارة: أئمة اليمن، ص: 118، 147، الواسعي: تاريخ اليمن، ص: 179، 192.

وراثية في ولدي طغتكين وهما المعز إسماعيل (593 ـ 598هـ/ 1197 ـ 1202م) ثم أخوه الناصر (598 ـ 611هـ/ 1202 ـ 1214م)[1]. وهكذا سار نظام الوراثة في تولي السلطة في اليمن في جميع دويلاتها.

وقد أدّى النظام الوراثي في تولي السلطة في اليمن إلى صراع فيما بين الأسرة الواحدة. ومن أمثلة ذلك الصراع ما حدث بين أولاد الأسرة النجاحية حول تولي السلطة في زبيد وأعمالها[2]. وما حدث بين بني زريع وأبناء عمومتهم حول تولي السلطة في عدن[3]، وهذا الصراع فيما بين الأخوة والأقارب حول السلطة أدّى إلى التأثير على الوضع الإداري في اليمن. كما تسبب في انهيار تلك الدويلات.

(1) دائرة المعارف الإسلامية، جـ5، ص: 560، وانظر ابن حاتم: السمط، الخزرجي: العسجد، ابن الديبع: قرة العيون، د. محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن.

(2) انظر زهران رياض: دولة حبشية في اليمن، د. محمد أمين صالح: بنو نجاح في زبيد، عمارة: المفيد، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، الخزرجي: العسجد، ابن الديبع: قرة العيون.

(3) انظر. فضيلة الشامي: إمارة آل زريع بعدن، د. محمد أمين صالح: بنو معن ثم آل زريع في عدن، د. محمد كريم: عدن دراسة في أحوالها السياسية والاقتصادية (476 ـ 626).

النظام الإداري

تعددت ألقاب حكام الأقاليم في الدول اليمنية بين لقب والي في عهد بني نجاح والصليحيّين، ولقب نائب في عهد بني زريع والأيوبيّين، فضلاً عن لقب الأتابك أو الإقطاع في عهد الأيوبيّين.



الـــولاة

اتبع الأمراء نظام الولاية بتعيين حكاماً لهم على الأقاليم التابعة للدولة. وكان أهم عمل للولاة هي تنفيذ أوامر حكام اليمن وطاعتهم، والقيام بالإشراف على الأعمال الإدارية والمالية والعسكرية لولايتهم أو إقليمهم. مثلاً كان نجاح قبل توليه الإمارة والياً من قبل بني زياد على أعمال الكدراء والمهجم ومور والواديين، وهي تشكل نصف مالية زبيد وأعمالها التهامية[1]. وكان مناصراً لأمرائه حتى لقب بنصير الدين. كذلك القائد سرور كان والياً على المهجم[2]، وقد ارتفعت مكانة القائد سرور إلى رتبة وزير التفويض للأمير فاتك بن منصور في أواخر عهد دولة بني نجاح.

وكان أسلوب التولية عند الصليحيّين أنهم يولون من يثقون بهم[3] من أسرهم وأقربائهم، ومن المخلصين لهم ممن لهم كفاءة ومقدرة في تولي أعمال المدن والحصون وإدارتها وقيادة الجند. ولا غرابة في ذلك فإن الصليحيّين كانوا شيعة إسماعيلية، بينما كان معظم اليمن آنذاك على مذهب أهل السُنَّة مناصرين للخلافة العباسية. لذلك كان اعتماد الصليحيّين على أقربائهم وشيعتهم في تولي السلطة الإدارية والعسكرية وخاصةً في الوظائف الكبيرة. فمثلاً وَلّى علي الصليحي صهره أسعد بن شهاب بن جعفر الصليحي على زبيد وأعمالها التهامية[4]. وولّى أخاه

(1) عمارة: المفيد، ص: 84، الخزرجي: العسجد، ص: 104، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 332.

(2) عمارة: المفيد، ص: 226.

(3) عمارة: المفيد، ص: 126، حسين الهمداني: الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، ص: 87، 106.

(4) عمارة: المفيد، ص: 120، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 76، الخزرجي: العسجد، ص: 58، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 247، مجهول: السيرة الصليحية، ق14، الهمداني: =

عبد اللّه بن محمد الصليحي على حصن التعكر المشرف على ذي جبلة وأعمالها[1]، إلى أن قتل مع الصليحي عام 459هـ/ 1066م، فتولاه ابنه أسعد ثم نقل ولايته إلى حصون ريمة وأعمالها في عهد المكرم أحمد بن علي الصليحي.

كما ولّى المكرم على حصن التعكر أحد الزعامات القبلية الموالية له وهو أبو البركات الحميري، كذلك ولّى على حصن تعز أبا الفتح بن الوليد الحميري أخو أبي البركات[2]. وولّى على حصن أشيح ابن عمه سبأ بن أحمد الصليحي[3]. أما صنعاء وأعمالها فقد ولّى عليها عمران بن الفضل اليامي وأبا السعود أسعد بن شهاب الصليحي[4]، وعلى مغارب اليمن الأعلى ولّى عامر بن سليمان الزواحي[5]. وعلى مخلاف البياض عبد اللّه بن موسى بن هارون[6]. وهكذا نجد أن المكرم قد مارس سلطته الإدارية وغيرها فأعاد الدولة الصليحية إلى ما كانت عليها عهد أبيه من الوحدة والتماسك.

وعندما قارب أجل المكرم أوصى إلى زوجته السيدة الحرة إدارة الحكم في اليمن والتي كانت في حياته تشاركه إدارة الدولة، وإلى جانبها أوصى في الدعوة الإسماعيلية إلى ابن عمه سبأ بن أحمد الصليحي[7]. وزكّى هذه التوصية الخليفة الفاطمي.

بعد ذلك أصبحت السيدة الحرة صاحبة السلطة الشرعية في حكم اليمن، فباشرت عملية التولية والعزل حسب التفويض الصادر إليها من الخليفة الفاطمي، فقامت بتولية المفضل بن أبي البركات على حصن التعكر وأعماله واعتمدت عليه

= الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، ص: 87، محمد الحداد: التاريخ العام لليمن، جـ2، ص: 127.

(1) عمارة: المفيد، ص: 139، ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 169، الخزرجي: نفس المصدر، ص: 62، ابن الديبع: نفس المصدر، ص: 261، 262.

(2) عمارة: المفيد، ص: 154، 155، الوصابي: تاريخ وصاب، ص: 42.

(3) عمارة: المفيد، ص: 147، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 80، الخزرجي: العسجد، ص: 62.

(4) عمارة: المفيد، ص: 142، الخزرجي: العسجد، ص: 62، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 362، 363، الهمداني: الصليحيون، ص: 137، حسن سليمان: تاريخ اليمن، ص: 192.

(5) مجهول: السيرة الصليحية، ص: 45، د. حسن سليمان: تاريخ اليمن السياسي، ص: 186، عارف تامر: أروى بنت اليمن، ص: 90، 91. سلسلة اقرأ عدد: 33، القاهرة.

(6) مسلم اللحجي: تاريخ مسلم اللحجي (خـ) ق195، صورة لدى الباحث.

(7) عمارة: المفيد، ص: 146، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 41، د. محمد أمين صالح: العلاقة بين دولة الصليحيّين والخلافة الفاطمية، ص: 67، د. عدنان الترسيسي: اليمن وحضارة الغرب، ص: 96.

في كثير من أمور الدولة وسياستها، فكانت تستشيره وتعمل برأيه في كثير من أعمالها حتى بلغت مكانته مرتبة عالية فأصبح لديها من أهم قادة الدولة إلى درجة أنها كانت لا تقطع أمراً إلا برأيه[1] لكونه يتزعم القوى القبلية والعسكرية التي كانت تناصرها. وبعد موت المفضل سنة 504هـ/ 1110م ولِّت مكانه ابن عمه أسعد بن أبي الفتوح الحميري الذي استمر حتى قُتل سنة 514هـ/ 1120م[2]. فتولَّى بعده المنصور بن المفضل بن أبي البركات الحميري ثم ابنه أحمد بن المنصور.

كما اعتمدت السيدة الحرة في شؤون الحكم والإدارة على كثير من القادة الصليحيّين منهم سبأ بن أحمد الصليحي الذي كان متولياً حصن أشيح المقابل لتهامة والذي ظل منه يقاوم النجاحيّين في تهامة حتى وفاته سنة 491هـ/ 1098هـ[3]. وأسعد بن عبد اللّه الصليحي الذي تولّى حصن قيظان في الشعر[4]، وعامر بن سليمان الزواحي الذي كان متولياً مغارب اليمن الأعلى[5]، ثم ابنه سليمان الذي تولّى بعده كما تولّى عبد اللّه بن يعلى الصليحي حصن خدد[6].

ومن ضمن أعمال التولية التي قام بها الإمام الزيدي عبد اللّه بن حمزة للمناطق التي سيطر عليها في اليمن الأعلى وَلّى قاسم بن مطرف الأهنومي عاملاً على منطقة (الحموس) من بلاد الأهنوم وما إليها، وولّى على بلاد سفيان في أرض بكيل الشريف حاتم بن علي القاسم[7]. كما ولّى على الجوف أخاه صارم الدين إبراهيم بن حمزة، ولما قتل ولاها أخاه الآخر الأمير الحسن بن حمزة[8]. كذلك ولّى الأمير عماد الدين بن حمزة بن سليمان ما يلي بني صريم إلى بلاد الطرف، وما يتصل بها من بلاد حمير ونواحيها إلى بكر وإلى مساقط حراز. وولّى الأمير شمس الدين يحيى بن أحمد شمال بلاد خولان صعدة والأهنوم وبني جماعة

(1) عمارة: المفيد، ص: 155، الخزرجي: العسجد، ص: 66، الهمداني: الصليحيون، ص: 62.

(2) الجندي: السلوك، جـ2، ص: 498، الخزرجي: العسجد، ص: 68، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 274، الهمداني: الصليحيون، ص: 167.

(3) عمارة: المفيد، ص: 146 ـ 148، الخزرجي: العسجد، ص: 64، الهمداني: الصليحيون، ص: 150 ـ 154.

(4) الخزرجي: العسجد، ص: 161، الهمداني: الصليحيون، ص: 163.

(5) مسلم اللحجي: تاريخ مسلم اللحجي، ق195، مجهول: السيرة الصليحية، ص: 45.

(6) عمارة: المفيد، ص: 160، الوصابي، ص: 44، عن السيدة الحرة انظر حياة عبد القادر أحمد المرسي: دور السيدة الحرة أروى بنت أحمد الصليحي في اليمن 473 ـ 532هـ/ 1080 ـ 1138م. رسالة ماجستير، جامعة الملك عبد العزيز، 1499/ 1500هـ/ 1979 ـ 1980م.

(7) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، جـ1، ص: 377، 383.

(8) يحيى بن الحسين: نفس المصدر، ص: 385، زبارة: أئمة اليمن، جـ1، ص: 129.

بصعدة وبني بحر، وأيضاً ولّى الأمير بدر الدين محمد بن أحمد الحسني صنو الأمير شمس الدين نجران، وعلي بن الحسن على صعدة، ثم ولّى بعد ذلك على صعدة وأعمالها ونجران وما يتصل به الأمير مجد الدين يحيى بن بدر الدين محمد بن أحمد بن يحيى الحسني، ولما استشهد ولاها أخاه تاج الدين[1]. كذلك ولّى على الظاهر الشيخ أمين الدين وعلى عيان وما يليه إلى نواحي الجهات الغربية من بلاد حجور وقحطان الأمير صفي الدين محمد بن إبراهيم. كما أقام الأمير علم الدين بن شمس الدين يحيى بن جعفر على الحقل وما يليه من بلاد جنب نجران وعلى مذحج نجران أيضاً كل من الشيخ سعد والشيخ مفضل بن رزاح وسليمان بن ناصر الدين بن عبد الله السحامي[2].

وهكذا نجد أن الأئمة الزيدية ظلت محصورة في أغلب فتراتها في ما يسمى باليمن الأعلى هضبة شمال صنعاء، كما أنها ظلت في صراع مستمر مع جميع القوى التي سيطرت على اليمن.

أما الأيوبيون فكانوا يختارون لإقليم اليمن في الغالب حكاماً من أقاربهم ومن رجالهم المخلصين لهم، الذين لهم كفاءة وقدرة على إدارة الأقاليم. وكانوا يحملون ألقاباً مختلفة مثل والي أو نائب أو إقطاع أو أتابك.

في البداية عين تورانشاه كبار رجاله حكاماً على الأقاليم يحملون لقب نائب[3]. كما سنعرض فيما بعد. ونظراً لمحاولات النواب الاستقلال وقت غياب تورانشاه فقد عاد طغتكين وكذلك ابنه المعز إسماعيل إلى نظام الولاية بدلاً من النيابة بجانب منح حكم الأقاليم كإقطاع.

فقد ولي طغتكين على (عدن) (ابن عين الزمان)[4] وعلى (ذمار) مظفر

---

(1) ابن المهلا: علم الإفادة، ق69، مجهول: بعض أمراء اليمن. مخطوط رقم 990، معهد إحياء المخطوطات العربية، جامعة الدولة العربية، ق3.

(2) ابن المهلا: علم الإفادة. ق69. عن الدولة الزيدية انظر: محمد عبد الله ماضي: دولة اليمن الزيدية، المجلة التاريخية المصرية. مج3، 14، مايو 1950م، ص: 15 ـ 35. صلاح مهران: الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في دولة الأئمة الزيدية (284 ـ 858) رسالة دكتوراه، جامعة المنيا، سنة 1987م.

(3) كذلك عمل تورانشاه على مصالحة بعض الزعامات القبلية بإبقائها في السلطة مقابل دفع مبالغ مالية، من ذلك مصالحة صاحب بلاد جنب في عنس (ابن حاتم: السمط، ص: 17) ومصالحة صاحب طمار أحد زعماء تهامة. أبو شامة: الروضتين، جـ1، ق2، ص: 554.

(4) الجندي: السلوك، جـ2، ص: 528، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 387، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 133، العبدلي: هدية الزمن، ص: 74، د. محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 123، محمد =

الدين قايماز[1]، ثم تحولت فيما بعد إلى إقطاع. كما عزل المعز إسماعيل والي عدن وعيّن مكانه الأمير شجاع الدين مهكار بن محمود[2]، أما في عهد الناصر فقد ظهر نظام الأتابكة. وفي عهد المسعود عاد إلى تولية النواب كما سيتضح فيما بعد.

الأتابك:

وانتقلت وظيفة الأتابك إلى اليمن على يد الأيوبيّين، ويعني لفظ الأتابك مربي الأمير أو أمير أب أو أبو الأمراء. ويعتبر الأتابك أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب الكافل[3]. ويتولّى الأتابك إدارة الإقليم وقيادة الجند وغيره. وممن تولّى منصب الأتابك في اليمن سيف الدين سنقر سنة 598هـ/ 1201م بعد قتل الأكراد للمعز إسماعيل في زبيد، وذلك عن طريق استدعائه من قبل الأكراد وتنصيبه من قبلهم أتابكاً للناصر ابن طغتكين الذي كان لا يزال طفلاً[4]. فباشر سلطة التولية والعزل، فولّى على عدن الأمير (برعش) وعندما تمرد عليه عزله وولى مكانه أحمد بن عبد اللّه بن عبد الوهاب، وولى على زبيد عز الدين مهكار بن محمود بعد عزله عن ولاية عدن[5].

وبعد وفاة الأتابك سنقر سنة 609هـ/ 1212م دعا الملك الناصر الأتابك غازي بن جبريل وجعله صاحب بابه ثم أستاذ داره، ثم أتابكاً له[6]. وعامل الأتابك غازي أكابر الناس والأمراء بالتخلص منهم بالسم فاستمر يفنيهم الواحد بعد الآخر حتى أفنى عدداً كبيراً منهم، ويقال إنه هو الذي سقى مولاه الملك الناصر بالسم طمعاً في السلطة إلا أنه قتل على يد الجند في إب في المحرم سنة 711هـ/ مايو 1214م[7].

= مسفر عسيري: الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن في العصر الأيوبي، ص: 97.

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 27، الخزرجي: العسجد، ص: 161، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 389، الكبسي: اللطائف السنية، ص: 56، د. محمد عبد العال: نفس المرجع، ص: 129، د. عصام الدين الفقي: اليمن في ظل الإسلام، ص: 211، د. جميل حرب: الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص: 104.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 85.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ2، ص: 18.

(4) ابن حاتم: السمط، ص: 85، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 135، د. محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 186 ـ 187.

(5) ابن حاتم: السمط، ص: 85، 103، 104، 105.

(6) ابن حاتم: السمط، ص: 148 ـ 149.

(7) ابن حاتم: السمط، ص: 148، 152، 154، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، جـ1، ص: 395، 398 ـ 399، د. محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 221 ـ 222، 227 ـ 231.

النواب:

وجدت وظيفة نائب في اليمن عند بني زريع حكام عدن والأيوبيّين، وكان هؤلاء النواب يختارون من أقدم رجال الجند وأكابر أمرائهم وأعيانهم[1]. وممن لهم خبرة في الأعمال الإدارية والعسكرية. وكان عمل النواب يمثل عمل الولاة مثل حماية مناطق نفوذهم، والإشراف الإداري عليها وتقليد العمال والكتاب والتوقيع على الأوامر الإدارية[2]. وجمع أموال بيت المال من زكاة وضرائب وصرف الأعطيات للجند وبناء مرافق عامة مثل بناء مساجد ومدارس ومدن وطرق وغيره[3].

وظهرت وظيفة النائب في عدن لكل من سبأ بن زريع وابن عمه علي بن الغارات[4]. لما انفرد سبأ بن زريع بالسلطة، جعل أبا الندى بلال بن جرير المحمدي نائباً له بها بالإضافة إلى تولية الوزارة[5]. وقد أدّى النائب بلال المحمدي دوراً بارزاً في خدمة الزريعيّين، فقد كان قائداً لجيش سبأ الذي اتجه للاستيلاء على عدن ثم تولّى بها النيابة[6].

كذلك استدعى بلال محمد بن سبأ من ذي جبلة ليوليه سلطة الدولة الزريعية بعد موت أخيه الأعز بن سبأ سنة 534هـ/ 1139م فاستقبله قرب عدن واستحلف له العسكر جميعاً وأنزله دار المنظر[7]. كما وجهه إلى الدملوة للقضاء على أنيس ووزيره يحيى العامل اللذين تركهما الأعز يديران الدولة كأوصياء لأولاده الأطفال. واستمرت النيابة في أسرة بلال إلى زوال الدولة الزريعية[8].

وفي العهد الأيوبي عيَّن تورانشاه نواباً له لحكم أقاليم اليمن والمخاليف والأعمال والحصون. فقد عيَّن الأمير سيف الدين منقذ نائباً عنه على زبيد وأعمالها، كما ولى عثمان الزنجبيلي نائباً على عدن وما يتبعها، وولى ياقوت التعزي نائباً له على تعز ومخاليفها، وولى مظفر الدين قايماز نائباً عنه على حصن

(1) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 131، الخزرجي: العسجد، ص: 155.
(2) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ4، ص: 16، محمد عسيري: الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن في العصر الأيوبي، ص: 210.
(3) الجندي: السلوك، جـ2، ص: 523، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 383.
(4) الخزرجي: العسجد، ص: 84، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 306.
(5) انظر الوزارة.
(6) الخزرجي: العسجد، ص: 85، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 307 ـ 309.
(7) الخزرجي: العسجد، ص: 87 ـ 88، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 309.
(8) الخزرجي: نفس المصدر، ص: 88.

التعكر وذي جبلة ومخلاف جعفر[1]. كذلك استناب نواباً له على كل حصن استولى عليه في اليمن[2]. ثم ترك هؤلاء النواب سنة 571هـ/ 1176م وعاد إلى الشام، فاستمر هؤلاء النواب موالين لتورانشاه يبعثون إليه بمالية اليمن إلى الشام وإلى الإسكندرية بمصر إلى أن مات سنة 576هـ/ 1180م رمزاً للطاعة والتبعية له. وعندما تغيب تورانشاه عن العودة إلى اليمن تنافس هؤلاء النواب فيمن تكون له السلطة في اليمن بدلاً من تورانشاه، فرفض كل واحد منهم طاعة الآخر، فضرب كل واحد منهم العملة باسمه، وألزم كل واحد منهم أهل بلدته بعدم التعامل إلا بعملته[3].

وكان أبرز هؤلاء النواب نائبين هما نائب زبيد ونائب عدن باعتبار أن زبيد كانت مركزاً للدويلات السابقة وبها خزانة أعمال اليمن، وباعتبار أن عدن كانت فرضة اليمن وبها خزانتها التجارية وحدث بينهما التنافس، وقد استطاع صاحب عدن أن يستولى على حضرموت سنة 575هـ/ 1179م ويضمها إلى عدن[4]، كما استطاع أن يجذب إلى صفه نائب تعز ونائب ذي جبلة فوقفا معه في حربه ضد صاحب زبيد، حطان بن منقد الذي دخل معه في صراع وحروب، ولما رأى صلاح الدين اختلاف هؤلاء النواب خاف أن تطمع الزعامات القبلية اليمنية في العودة إلى الاستيلاء على اليمن، فأرسل الأمير المقدم (قتلغ إبه) أو (خطلبا بن موسى) الذي كان والياً على القاهرة إلى اليمن[5]، فسار هذا الأمير إلى عدن فقابله الزنجبيلي بالإجلال والتعظيم، واتفق معه على الذهاب لمحاربة حطان أو خطاب وهو محمد بن كامل بن منقذ نائب زبيد، فسارا معاً نحوه، وفي الجند تقابلا مع ياقوت التعزي ومظفر قايماز فساروا جميعاً نحو زبيد. فلما علم حطان بهم وعدد قوتهم لم يستطع البقاء لمقاومتهم فهرب نحو الجبال إلى حصن قوارير شرق

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 20 ـ 21، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 131، الجندي: السلوك، جـ2، ص: 522 ـ 523، الخزرجي: العسجد، ص: 156، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 382 ـ 383، د. محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 103، الشماحي: اليمن الإنسان والحضارة، ص: 124.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ1، ص: 53، د. محمد عبد العال: نفس المرجع والصفحة.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 22، ابن عبد المجيد، بهجة الزمن، ص: 131، الجندي: السلوك، جـ2، ص: 524، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 384، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، جـ1، ص: 327، د. محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 107.

(4) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، جـ1، ص: 327، العبدلي: هدية الزمن، ص: 74.

(5) ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جـ1، ص: 104، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص: 111 ـ 112.

زبيد[1]. فدخل الأمير قتلع إبه أو خطلبا زبيد دون قتال فاستولى عليها سنة 574هـ/ 1178م، وظل يحكمها فترة قصيرة، فلما شعر بقرب أجله أرسل إلى حطان وقال له: (أنت أولى بالأمر من عثمان الزنجبيلي)[2] فعاد حطان يحكم زبيد سنة 576هـ/ 1180م، وبعودته عاد أمر اليمن إلى ما كان عليه من خلاف بين عثمان الزنجبيلي وحطان، وقد جرت فيما بعد بينهما حروب وفتن حتى اشتد بينهما الأمر فحاول الزنجبيلي الاستيلاء على زبيد بالقوة[3]. أمام ذلك اضطر صلاح الدين إلى إرسال أخاه سيف الإسلام طغتكين للقضاء على تلك الاختلافات وإعادة طاعتهم للسلطة الأيوبية[4].

كذلك وجدت وظيفة نائب في عهد الملك المسعود في الفترتين اللتين عاد فيهما من اليمن إلى مصر. وقد اختلفت المصادر في ذكر من تولّى له النيابة في هاتين الفترتين. فبعضهما تذكر أن الأمير نور الدين عمر بن رسول هو الذي تولّى النيابة للملك المسعود في اليمن خلال الفترتين وهي الأولى سنة 620هـ/ 1123م والثانية سنة 626هـ/ 1129م[5]. وبعضها تذكر أن الذي تولّى النيابة في الفترة الأولى هو الحسام لؤلؤ، أما الفترة الثانية فهو الأمير نور الدين بن رسول[6].

والذي يبدو أن الملك المسعود في الفترة الأولى أعطى السلطة العليا لحسام لؤلؤ بينما اعتمد في النواحي العسكرية في ضبط أمور اليمن على الأمير نور الدين عمر بن رسول، بدليل طلبه من الأمير نور الدين العودة من مكة إلى اليمن[7] لكي يتولّى أعمالاً هامة بها، وبعد سفر الملك المسعود من اليمن أصبحت السلطة الفعلية للأمير نور الدين وأخوته، حيث إن أغلب المعارك في اليمن في فترة عودة الملك المسعود إلى مصر، كان يديرها أبناء بني علي بن رسول ضد الزيدية وضد

---

(1) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 142، الجندي: السلوك، جـ2، ص: 524، محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 113 ـ 114. الزنجيلي تطلق عليه بعض المصادر الزنجيلي.

(2) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 132.

(3) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ2، ص: 104.

(4) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 132، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص: 114 ـ 115.

(5) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 138 ـ 139، الخزرجي: العسجد، ص: 184 ـ 189، 192، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 416، 421، يحيى بن الحسين: غاية الأماني: ج1، ص: 410، 117، الكبسي: اللطائف، ص: 87 ـ 88، الإنسي: اتحاف ذوي الفطن بمختصر أنباء الزمن، ص: 33، محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 262 ـ 272، عصام الفقي: اليمن في ظل الإسلام، ص: 232 ـ 234، الشماحي: اليمن الإنسان والحضارة، ص: 125.

(6) ابن حاتم: السمط، ص: 175 ـ 176، 194 ـ 195.

(7) ابن حاتم: السمط، ص: 175، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص: 262.

مرغم الصوفي الذي خرج في عنس وعتمة وما حولها في سنة 623هـ/ 1226م، وفي هذه الفترة إِرتفع شأن بني رسول وسطوتهم في اليمن، مما جعل الملك المسعود يخاف منهم، فعند عودته إلى اليمن سنة 624هـ/ 1226م ألقى القبض على جميع أخوة الأمير نور الدين عمر بن رسول وأرسلهم إلى مصر[1]. أما الفترة الثانية فقد اتفقت المصادر على أن الملك المسعود أناب عنه في اليمن كلها سنة 626هـ/ 1228م الأمير نور الدين عمر بن رسول، فقد أراد الملك أن يجعل الحسام لؤلؤ نائباً عنه في اليمن، إلا أن الحسام لؤلؤ اعتذر أن يبقى بها، فنظر الملك المسعود في أرباب دولته وأعيانها وخواصها ليولي أحدهم، فلم يجد من يصلح للنيابة غير الأمير نور الدين عمر بن رسول، فعقد له الملك المسعود بالنيابة عنه في اليمن وقال له: (تقف أنت نائبنا حتى يصلك أمرنا بتسليم البلاد لمن يتعين له)[2]. وتعتبر هذه النيابة كما يسمونها نيابة الغيبة وهي التي يترك لها الوالي أو السلطان نائباً عنه في فترة غيابه[3]. ولما مات الملك المسعود في نفس السنة وهو ربيع الأول 626هـ/ يناير 1229م، بعد ذلك أصبح أمر اليمن بيد بني رسول.

الإقطاع:

استخدم الأيوبيون نظام الإقطاع في اليمن كأحد أساليب النظم الإدارية، ويعين قيام المُقْطَعْ له بجمع موارد الإقطاع المالية من خراج وضريبة ومكوس وغيره[4]. والصرف منها عطاءات ومرتبات للجند بالإضافة إلى نفقات عسكرية أخرى. ويرجع استخدامهم للإقطاع إلى التواجد الأيوبي في اليمن، والذي كان قائماً على النظام العسكري[5]. كذلك منح الأيوبيون السلطة الإدارية لبعض المناطق على شكل إقطاع يحدد فيه مناطق نفوذهم وسلطتهم، وهو نظام يسهل للولاة والمقطع لهم فرض السلطة السياسية والعسكرية والإدارية على المناطق المسيطر عليها، شريطة أن يدافع عنها وينظمها إدارياً، ويلتزم بأوامر والي إقليم اليمن من حيث الاستعانة به

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 192، 194، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 138 ـ 139، الخزرجي: العسجد، ص: 188، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص: 262، 273.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 195.

(3) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 139.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ3، ص: 117.

(5) كما يرجع استخدام الإقطاع في اليمن إلى انتشاره في الأمصار الإسلامية الأخرى، وممن طبق هذا النظام السلاجقة عهد (نظام الملك) وزير الملك ألب إرسلان وابنه ملكشاه، ومنهم انتشر إلى الدولة الأيوبية بمصر ثم اليمن، إبراهيم طرخان: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، ص: 21 ـ 23.

لإخضاع المناطق التي تقع تحت سلطتهم أو القضاء على أي تمردات ضدهم[1].

وكان الإقطاع في اليمن يمنح مدة بقاء المقطع له في السلطة سواء استمرت سنة أو عدة سنوات أو مدة حياته إذا بقي في السلطة[2]، وهو يشبه النظام الذي سارت عليه البلدان الإسلامية الأخرى[3]. وكانت المناطق تقطع على قدر كفايتها للجند المرتبين بها، فمثلاً كان من نقيل سرح إلى نقيل صيد يحمل كفاية ثلاثمائة فارس، ومن نقيل عجيّب إلى نقيل سرح يحمل كفاية مائتي فارس. وفي حالة احتياج المنطقة لزيادة الجند المرتبين بها يضاف إليها مناطق أخرى[4].

ومن الإقطاعات ما أقطعه طغتكين من أرض اليمن مثل إقطاع الهمام أبي رَيًّا صنعاء من نقيل سرح إلى نقيل عجيّب، وإقطاع رداع وبلاد عنس ومرعان، وإقطاع جهران وبلاد ألهان، وإقطاع الحقل لكبار الأيوبيّين، وأمرهم بطاعة الهمام أبي ريًّا. وكان الهدف من وراء هذه التبعية، هو أن يستطيع الهمام مقاومة آل حاتم الذين تحصنوا في الجبال حول صنعاء، وكذلك مقاومة الأئمة الزيدية الذي كانوا بين الحين والآخر يحاولون مدّ سيطرتهم من صعدة إلى صنعاء كذلك أقطع طغتكين حَرَضَ للقاضي الأسعد، وأقطع القَحْمَة ياقوت القحمي[5].

ولـم تستمر هذه الإقطاعات فقد ظلت تتغير بتغير الولاة على اليمن، كما أنها اتسعت فشملت معظم اليمن. ففي عهد المعز إسماعيل أبدل إقطاع صنعاء من الهمام أبي ريًّا إلى الشهاب الجزري، وأقطع حرض للأمير هلندري[6]، ثم توقف.

أما في عهد سُنْقُرْ أتابك الناصر سنة 618هـ ـ 611هـ، فقد كثرت الإقطاعات في اليمن في عهده وانتشرت بشكل واسع، فقد منح صنعاء إقطاعاً لوردشار من نقيل سرح إلى البون. وأقطع بكتمر السيفي تهامة عدا زبيد والكدراء، وأقطع بلاد بني طرف (المخلاف السليماني) للشريف المؤيد قاسم وأقطع لحج لغازي بن جبريل[7].

---

(1) من ذلك ما طلبه سنقر من والي صنعاء وردسار بالتحرك معه إلى وصاب للقضاء على التمردات التي حدثت بها فاتجه الأتابك سنقر من تعز ووردسار من صنعاء فالتقيا في موضع يسمى الدغاري قرب وصاب. ابن حاتم: السمط، ص: 133.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 96، 148، 175، 194.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ3، ص: 117.

(4) ابن حاتم: السمط، ص: 38 ـ 39، محمد مسفر، ص: 229.

(5) ابن حاتم: السمط، ص: 39 ـ 43، محمد مسفر عسيري: نفس المرجع والصفحة.

(6) ابن حاتم: السمط، ص: 78، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، جـ1، ص: 356، مسفر: نفس المرجع، ص: 230.

(7) ابن حاتم: السمط، ص: 85، 96، 142، 148، بامخرمة: قلادة النحر، ص: 817.

واستمر الإقطاع في عهد الملك الناصر وأتابكه غازي بن جبريل يزداد، فقد أبقى وردشار على إقطاعه لصنعاء وأضاف إليه ذمار ورداع، وأقطع ريمة إلى حَرَض والهَلْيَةْ للأمير بدر الدين حسن بن علي بن رسول، وأقطع أخاه فخر الدين أبا بكر بن علي بن رسول وصاب، وأقطع سيف الدين بن عطية المحالب. وفي عهد سليمان شاهنشاه غيّر بعض الإقطاعات، فأقطع صنعاء لأبي شامة ثم غيَّره بالأمير بدر الدين الحسن بن رسول، وأقطع ذمار صالح بن هشام الكردي[1].

وفي عهد الملك المسعود سنة 612 ـ 626هـ أعاد توزيع الإقطاعات وأعطى إقطاعات أخرى فقد أقطع القحمة لبدر الدين الحسن بن علي بن رسول، وأقطع أخاه الشهيد نور الدين عمر بن رسول صُهْبَان، وأقطع الكدراء ورِمَعْ لابن فليت، وأقطع شرف الدين بن علي بن رسول جهران، وأقطع التريبة فخر الدين بن علي بن رسول، وأقطع أَبْيَنَ وأَحْوَر عمر بن مهدي ثم زاده المفاليس وبلاد بني مسلية وحضرموت والشِّحْر، كذلك أقطع صنعاء للحسام بن لؤلؤ، ثم أقطعت لبدر الدين الحسن بن رسول، كما أقطع المهجم للأمير علم الدين بن وردشار، ثم أقطعها بدلاً عنه نجم الدين أبا زكريا[2]، وهكذا انتشرت الإقطاعات الإدارية في اليمن عهد الأيوبيّين.

والمرجح أن هذه الإقطاعات الصغيرة كانت تارة تستقل في إدارتها وتارة تخضع للمدن المجاورة لها، مثل الكدراء ورمع كانتا تضمان إلى زبيد أو تستقلان عنها، كذلك كانت جهران تضم إلى صنعاء أو تستقل عنها، كما يلاحظ أن الإقطاعات في العهد الأيوبي في بعض الأحيان كانت تمنح متفرقة وبعيدة عن بعضها البعض، مثل حَرَضْ ورَيْمَة والمَفَالِيس وأَبْيَن وحضرموت وذلك خوفاً من خروج مقتطعيها عليهم[3].

والذي يمكن أن نستنتجه من كبر أو صغر حجم الإقطاعات أنه إذا كان لدى الوالي أو النائب كفاءة إدارية ومقدرة حربية ضمت إليه وحدات إدارية كثيرة ومتعددة كإقطاع. مثل إقطاعية صنعاء التي كان يتولاّها قادة أكِفَّاء من كبار الأمراء الأيوبيّين وأقدرهم، وذلك لمجابهة الأئمة الزيدية والقبائل المتمردة عليهم بها. فكان يضم إليها إقطاعات ذمار ورداع وألهان[4]. وهكذا نجد أن كبر حجم

---

(1) ابن حاتم: نفس المصدر، ص: 41، 148، 159، 166، محمد مسفر، المرجع السابق، ص: 231 ـ 232.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 167، 175، 190، 193، 194، محمد مسفر عسيري: المرجع السابق، ص: 231 ـ 232. وردشار تطلق عليه بعض المصادر وردسار.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 148، 175، محمد مسفر عسيري: المرجع السابق، ص: 134.

(4) ابن حاتم: السمط، ص: 38 ـ 39.

الإقطاعات كان يعتمد على عاملين هما عامل المجابهة القتالية وعامل الكفاءة بالإضافة إلى المقدرة الحربية والإخلاص والثقة به.

وظائف أخرى:

وجدت في اليمن عدة وظائف أخرى منها ناظر الزمام وتعني القيام بأمور القصور في أعمال الخدمة وإعداد الطعام، والمتولي لها يقوم بالإشراف على خدم القصر، من مماليك وغيره[1]، وصاحبها يعد أكبر الخدم[2]، وممن تولّى هذه الوظيفة في زبيد الشيخ صواب، وسرور الفاتكي في عهد النجاحيّين[3]، وتشبه عمل الزمام عمل الوصفان وأستاذ دار.

ومنها وظيفة أستاذ دار وموضوعها (التحدث في أمر بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناة والحاشية والغلمان، وهو الذي يمشي بطلب السلطان ويحكم في غلمانه وباب داره) (وله حديث مطلق التصرف في استدعاء ما يحتاجه كل من بيت السلطان من النفقات والكساوي وما يجري مجرى ذلك للماليك وغيرهم)[4]، وممن تولّى وظيفة أستاذ دار في اليمن الأتابك غازي بن جبريل تولاّها للملك الناصر الأيوبي. كما تولاّها للملك المسعود الأمير بدر الدين الحسن بن علي بن رسول[5].

ومنها أيضاً وظيفة وصفان، وهي القيام بخدمة القصور من حراسة ومراسيم وإعداد الطعام وغيره، وقد استطاع أصحاب هذه الوظيفة أن يصلوا إلى أعلى مراتب الدولة في عهد النجاحيّين، وهي أعمال الوزارة النجاحية، وممن تولّى هذه الوظيفة في زبيد سرور الفاتكي[6].

أما وظيفة الحِجَابة وهي تعني حجب الناس عن الدخول إلى السلطان وقد تولاّها للملك الناصر بن طغتكين، غازي بن جبريل[7].

وأخيراً وظيفة أمرة الأمراء وهي تقليد لما هو جاري في الخلافة العباسية في عهد البويهيّين، وقد تولاّها للإمام الديلمي الشريف ذو الشرفين[8].

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 225.
(2) القلقشندي: صبح الأعشى: ج4، ص: 22.
(3) عمارة: المفيد، ص: 225.
(4) القلقشندي: صبح الأعشى: ج4، ص: 20.
(5) ابن حاتم: السمط، ص: 148، 173.
(6) عمارة: المفيد، ص: 224 ـ 225.
(7) ابن حاتم: السمط، ص: 148.
(8) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 241.

الوزارة والكتابة:

١ ـ **الوزارة**: ظهرت الوزارة في دولة بني نجاح في زبيد استمراراً لتواجدها سابقاً لأول مرة في اليمن في عهد الدولة الزيادية، تولاَّها رجال من أولاد من قدم مع الأمير محمد بن زياد، من بني هشام بن عبد الملك الأموي. بعهد الوزارة من قبل الخليفة المأمون العباسي[1]. ولم ترد بالمصادر أخبار عن وزراء بني زياد رغم ما مرّ بهذه الدولة من أحداث سياسية خطيرة. بما يرجح اقتصار عمل الوزير على الأعمال الكتابية وقد يتسع عمله فيشمل الأعمال الكتابية والمالية أو الحسابية، أي القيام بأعمال ديواني الإنشاء والخراج وما يتبع هذين الديوانين من مكاتب ودواوين[2]. وقد حدث تطور على من يتولّى الوزراء وتطور اختصاصها في أواخر عهد الدولة الزيادية. فقد تولّى الوزراء الأستاذون من الأحباش والنوبة ابتداء من رشيد فالحسين بن سلامة ثم مرجان وهم جميعاً من عبيد القصر[3]. تولاَّها لآخر أميرين طفلين زياديين. إلا أن هذا الحال لم يستمر، فقد تمكن نجاح من الانفراد بالسلطان حينما تآمر الوزير مرجان مع نفيس لقتل سيدهما الأمير الزيادي الطفل وعمته، فانتقم منهما ثم كاتب الخليفة العباسي مناشداً إياه إعطاء الإمارة، فأصدر له تقليداً بها كما ذكرنا. فأصبح بذلك أول الرقيق يتولّى سلطة الإمارة في زبيد[4].

أعاد بنو نجاح منصب الوزارة إلى ذلك البيت الأموي، فكان آخرهم خلف بن أبي طاهر وزير جياش بن نجاح[5] ومستشاره. وقد خرج هذا الوزير مع جياش في رحلته إلى الهند والتي أقاما بها ستة أشهر ثم عادا إلى عدن. وذلك بعد مقتل سعيد الأحول ابن نجاح واستعادة الصليحيّين حكم تهامة للمرة الثانية، ومن عدن اتجه الوزير خلف إلى زبيد خفية لتمهيد الطريق لعودة جياش لحكمها، فجمع الأحباش المتفرقين في تهامة وبذل الأموال، كما استمال إليه علي بن القم[6] وزير

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 42 ـ 45، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 220، من بني هشام، ينسب إلى سليمان بن هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 220.

(2) عمارة: المفيد، ص: 146.

(3) (كان نجاح ونفيس عبدي مرجان، ومرجان نفسه كان عبداً للحسين بن سلامة، وهذا كان عبداً لسيده رشيد)، د. محمد أمين صالح: بنو نجاح في زبيد، ص: 124.

(4) عمارة: المفيد، ص: 63 ـ 86.

(5) عمارة: المفيد، ص: 136، الخزرجي: العسجد، ص: 114، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 90.

(6) كان علي بن القم (من أعيان الرجال كرماً ورئاسة وكفاءة في الكتابة وكان شاعراً) عمارة: =

الصليحيّين في تهامة، ونجح خلف في تدبير انقلاب داخلي[1] استعاد به جياش حكمه في تهامة.

كذلك اشترك الوزير خلف مع جياش في تدبير حيلة لوقف الغارات السنوية التي كان أبو حمير أحمد بن المظفر الصليحي يشنها على تهامة[2]. ورغم هذه الخدمات الجليلة التي قدمها هذا الوزير حتى إن جياشاً لقبه (قسيم لملك) إلا أن العلاقة فسدت بين الرجلين، بما حدث في منزل الوزير من جلسة شراب وغناء شعر في مدح بني أمية طرب له الوزير وخلع على كل من في مجلسه ثلاث مرات، فلما علم جياش بالخبر تخوف منه فساءت العلاقة بينهما فافترقا[3].

ثم تولّى الشيخ إسماعيل بن محمد المعروف بابن النوقا وزارة القلم لجياش بن نجاح واستمر في الوزارة في عهود الأمراء من أولاد جياش وهم فاتك ومنصور وعبد الواحد[4].

ثم حدث تطور في الوزارة، فبعد أن كان يتولّى الوزارة أدباء وشعراء أصبحت تسند إلى أحد قادة الجند من الوصفان والأستاذين الذين يعود أصلهم إلى الحبشة، كما اختلفت مهام الوزراء بحيث صاروا يتولون قيادة الجند والقيام بأعمال التولية والعزل والمحاسبة وغيرها. وبهذا المفهوم يطلق على هذه الوزارة وزارة السيف، أو يطلق عليهم الوزراء العظام.

وقد تولّى عبيد آل نجاح بعد أن استقر أمر الحكم في زبيد وأعمالها لمنصور بن فاتك النجاحي وعبيد أبيه بحيث صار أمر الحكم في زبيد مقاسمة بين

= المفيد، ص: 123، تولى الوزارة مرتين أثناء حكم الصليحيّين لتهامة، الأولى بجانب الوالي أسعد بن شهاب، 445 ـ 459هـ/ 1088 ـ 1066م، والثانية بجانب أسعد بن عراف 481 ـ 482هـ/ 1088 ـ 1089م، عمارة: المفيد، ص: 123، 136.

(1) كان الوزير علي بن القم على غير وفاق مع الصليحيّين كونه على مذهب أهل السنة والصليحيون شيعة. لذلك تعاون مع النجاحيّين في إعادتهم إلى حكم زبيد وتهامة عندما قدم خلف بن أبي طاهر ثم نجاح إليها، وكان له مساهمة كبيرة في إعادة نجاح إلى تولي سلطة تهامة سنة 482هـ. عمارة، ص: 204 ـ 207، د. محمد أمين صالح: بنو نجاح في زبيد، ص: 110. أما ابنه الحسين بن علي بن القم فقد هرب من النجاحيّين إلى الصليحيّين فكان كاتباً للسيدة الحرة. الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ13، ص: 6.

(2) عمارة: المفيد، ص: 149 ـ 150، الخزرجي: العسجد، ص: 123، الوصابي: تاريخ وصاب، ص: 41، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 355، د. محمد أمين صالح: بنو نجاح في زبيد، ص: 108.

(3) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 103.

(4) عمارة: المفيد، ص: 284، د. محمد أمين صالح: بنو نجاح في زبيد، ص: 126.

أولاد نجاح وعبيدهم على أن تكون الإمارة في أولاد جياش وتكون الوزارة في أولاد عبيدهم[1] .

وفي عهد هؤلاء الوزراء كانت الوزارة تعقد إليهم بشكل تفويضي بمعنى أن يفوض الأمر للوزراء تدبير الأمور بحسب رأيهم[2] . والواقع أن إعطاء الوزراء هذا التفويض في أواخر عهد فترة بني نجاح كان بسبب تولي أولاد نجاح السلطة وهم صغار ليست لهم المقدرة على القيام بأعباء الحكم، لذلك أعطيت لوزرائهم السلطة الكاملة في الحكم، فسيطروا على شؤون الدولة. وقد وصف المؤرخون حالة أمراء آل نجاح أواخر عصر دولتهم مع وزرائهم بقولهم: (ولم يكن لأولاد نجاح من الأمر سوى النواميس الظاهرة من الخطبة لهم بعد بني العباس والسكة والركوب بالمظلة أيام المواسم وعقد الآراء في مجالسهم. أما الأمر والنهي والتدبير وإقامة الحدود وإجازة الوفود فلعبيدهم الوزراء وهم عبيد فاتك بن جياش وعبيد أبيه منصور بن فاتك)[3] .

أول من تولّى الوزارة في هذه الفترة من القادة الذين استأثروا بالسلطة دون الأمراء الوزير (أنيس الفاتكي) للأمير منصور بن فاتك بن جياش بن نجاح سنة 503هـ/ 1109م. وقد قام هذا الوزير بالدفاع عن الدولة النجاحية، فحارب عرب أهل الجبال في عدة مواقع، صدهم عن السيطرة على زبيد. كما أنه اتخذ لنفسه الأبهة في الملك فبنى دوراً وقصوراً ذات حجرات كبيرة واسعة، فاقت بناء من سبقوه وعمل لنفسه مظلة الركوب وضرب السكة باسمه، وهي الأعمال التي اختص بها الأمراء دون الوزراء، وبذلك لم يعد للأمير النجاحي أي سلطة. وعندما بدأ الأمير منصور بن فاتك يكبر خاف الوزير أنيس من استحواذه على السلطة فهمَّ بقتله إلا أن الأمير عَلِمَ بمؤامراته فسبقه بالقتل بأن تحايل فدعاه إلى وليمة في قصر الإمارة، فلما حضر أمر بقطع رأسه ومصادرة أمواله[4] .

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 209، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 96.

(2) الماوردي: الأحكام السلطانية، جـ20، القاهرة، ط1، 1404هـ/ 1983م. محمد أمين صالح: بنو نجاح في زبيد، ص: 126، قال ابن خلدون (وزارة التفويض، هي حال ما يكون الوزير مستبداً عليه) أي على السلطان، جـ1، ص: 423، محمد عيسى الحريري: دولة بني نجاح باليمن، ص: 630.

(3) عمارة: المفيد، ص: 209، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 96، الخزرجي: العسجد، ص: 114، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 351، وانظر: د. محمد أمين صالح: بنو نجاح في زبيد، ص: 126.

(4) عمارة: المفيد، ص: 209 ـ 210، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 97، الخزرجي: العسجد، ص: 114 ـ 115، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 352، د. محمد أمين صالح: بنو نجاح في زبيد، ص: 112، د. محمد عيسى الحريري: معالم التطور في دولة بني نجاح باليمن وعلاقتهم بالصليحيّين، ص: 66 ـ 67.

ثم ولّى الأمير منصور بعده الوزير (منّ اللّه الفاتكي) سنة 517هـ/ 1123م، فقام بواجبه في الدفاع عن الدولة النجاحية ضد هجمات الصليحيّين، فقد صد هجوم الداعي المصري ابن نجيب الدولة قائد الصليحيّين سنة 518هـ/ 1124م وهزمه على باب زبيد. كذلك صد هجوم أسعد ابن أبي الفتوح الحميري قائد السيدة الحرة الصليحية، وقتل ما يزيد على الألف من جيشهم. كما أنه (تصدق على مدارس الفقهاء الحنفية والشافعية بما أغناهم عمن سواهم من الأراضي والمرافق والرباع) ومع عمله هذا للدولة النجاحية وللفقهاء إلا أنه كان ظالماً لم يرع لمولاه منصور بن فاتك معروفاً، فخرج عن طوعه فدبر لقتله بالسم سنة 519هـ/ 1125م، وولّى مكانه أميراً صغيراً هو الطفل فاتك بن منصور، وذلك لكي يستطيع التصرف بحرية في حكم الدولة دون أية معارضة أو أوامر توجه إليه. وقد انتهت حياته بأن مات مسموماً في جمادى الأولى سنة 524هـ/ إبريل 1130م[1].

تولّى بعده الوزارة للأمير فاتك بن منصور النجاحي الوزير (زريق الفاتكي) الذي لم تكن له خبرة بإقامة نواميس السلطنة ولم تكن له طاعة لدى الجند، فاستقال منها وتولّى بدله (مفلح الفاتكي)[2].

وكان آخر هؤلاء الوزراء المستأثرين على السلطة وأعظمهم القائد سرور الفاتكي وكان والياً على المهجم منذ عام 529هـ/ 1134م، ولما أصبح وزيراً كان يتردد بين المهجم وزبيد فيقيم بالعاصمة عشرة أشهر من أول أيام ذي القعدة إلى آخر أيام شعبان، فيصوم رمضان في المهجم ويقضي شهر شوال ثم يعود إلى زبيد فيحتفل الناس بقدومه ويستقبله الفقهاء المالكية والحنفية والشافعية، وكان يترجل لهم ولا يترجل لأحد سواهم، كما يستقبله التجار والعسكر وعامة الناس، فإذا دخل المدينة وقضى حق السلام لمولاه الأمير يتجه إلى دار مولاته ليسلم عليها ويطلعها على شؤون الدولة. كما كان يتصدق على الفقهاء والقضاة وغيرهم من العلماء باثني عشر ألف دينار سنوياً[3].

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 210 ـ 212، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 98، الخزرجي: العسجد، ص: 115 ـ 117، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 352 ـ 353، د. محمد أمين صالح: بنو نجاح في زبيد، ص: 112 ـ 113، محمد عيسى الحريري: المرجع السابق، ص: 68 ـ 70.

(2) عمارة: المفيد، ص: 212 ـ 215، الخزرجي: العسجد، ص: 118، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 353، محمد عيسى الحريري: المرجع السابق، ص: 70 ـ 71.

(3) عمارة: المفيد، ص: 221 ـ 228، الخزرجي: العسجد، ص: 125 ـ 126، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 356 ـ 357، د. محمد أمين صالح: بنو نجاح في زبيد، ص: 114، د. محمد عيسى الحريري: دولة بني نجاح باليمن وعلاقتهم بالصليحيّين، ص: 72 ـ 75.

وفي عهد الوزير سرور الفاتكي طمع علي بن مهدي في السيطرة على تهامة، فدبر قتل سرور على يد أحد رجاله في صفر سنة 551هـ/ 1156م ثم تنازع قادة بني نجاح حول تولي السلطة بها مما أدّى إلى نهاية الدولة النجاحية في شهر رجب سنة 554هـ/ 1159م على يد علي بن مهدي[1].

وفي عهد الدولة الصليحية لم يكن للوزراء شأن نظراً لسيطرة الأمراء والقادة الصليحيّين على مقاليد الحكم. وقد تولّى الوزارة لعلي الصليحي الوزير أبو البقاء الذي سار في مقدمة قافلة علي الصليحي الذاهبة إلى الحج سنة 459هـ/ 1067م وتمكن من أن يصل إلى مكة بالكثير من أموال الصليحي التي كان يريد أن يهديها إلى الفاطميّين[2]. وكانت مهمته القيام بالأعمال الكتابية والأعمال المالية.

أما في عهد المكرم فلم تشر المصادر إلى ظهور الوزراء. ومن المرجح أن أبا البقاء والأزرقي وابن أبي الفتح هم الذين تولوا الوزارة له. ثم ظهرت الوزارة في عهد السيدة الحرة ملكة اليمن، تولاّها زريع بن أبي الفتح. وقد تقدم هذا الوزير مع القاضي الحسين بن إسماعيل الأصبهاني وبعض رجالات الدولة وظلوا يحسّنون لها أمر الزواج من سبأ بن أحمد بن المظفر الصليحي حتى قبلت وأجابت إلى العقد[3]. ومع كل فإنّ الوزير لم يكن سوى وزير تنفيذ.

غير أن الوزارة كان لها شأن آخر في دولة بني زريع في عدن، ففي الدملوة التي تملكها زريع بن العباس والتي اتخذها الأمير علي الأعز بن سبأ بن أبي السعود بن زريع مقراً له عام 532هـ1137م تولّى الوزارة والكتابة يحيى بن علي العامل إلى جانب متولي الحصن أنيس الأعز ـ وهو أستاذ حبشي ـ إلا أن علياً الأعز لم يعمر طويلاً إذ توفي بعد سنتين مخلفاً ثلاثة أطفال هم حاتم، ومنصور وعباس جعل كفالتهم للوالي أنيس والوزير يحيى العامل[4].

وفي عهد محمد بن سبأ الزريعي من 534 ـ 550هـ/ 1139 ـ 155م، تولّى الوزارة أبو الندى بلال بن جرير المحمدي بجانب نيابة حكم عدن، حتى وفاته عام

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 228 ـ 233، الخزرجي: العسجد، ص: 127 ـ 128، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 357 ـ 364، د. محمد أمين صالح: نفس المرجع، ص: 114 ـ 115، د. محمد عيسى الحريري: نفس المرجع، ص: 84 ـ 85.

(2) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 139 ـ 141.

(3) عمارة: المفيد، ص: 152، د. محمد أمين صالح: العلاقة بين دولة الصليحيّين والخلافة الفاطمية، ص: 69.

(4) عمارة: المفيد، ص: 184 ـ 185، الخزرجي: العسجد، ص: 88، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 310، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 64.

545هـ/ 1150م فخلفه ولده مدافع بن بلال ثم أخوه أبو الفتوح ياسر بن بلال الذي تولاَّها بقية عهد محمد بن سبأ وعهد ابنه عمران بن سبأ واستمر حتى نهاية الدولة الزريعية سنة 569هـ/ 1173م[1]. كذلك تولَّى الوزارة وكتابة الإنشاء في عدن للداعي عمران الأديب أبو بكر أحمد العَنَدِي[2].

كذلك وجدت الوزارة في مناطق أخرى باليمن. **أحدها**: لدى أحمد بن المنصور بن المفضل بن أبي البركات الحميري صاحب حصن صبر بتعز وهي بقايا ولاية جده لأبيه من قبل الصليحيّين. تولاَّها عبد اللّه بن حسان إلى جانب توليه القضاء[3]. **والثانية**: لدى دولة بني حاتم اليامي الهمدانيّين سلاطين صنعاء تولاَّها الأديب الأجل عبد اللّه بن أحمد الصنعاني[4]. **والثالثة**: لدى الأمير الشريف غانم بن يحيى صاحب المخلاف السليماني تولاَّها الشيخ مسلم بن بخيت[5].

هذه الوزارة كما رأينا يتولاَّها غالباً الأدباء والشعراء والمجيدون للغة الذين يتولون الأعمال الكتابية لديوان الإنشاء، ويطلق عليها وزارة القلم حسب الاصطلاح أو وزارة تنفيذ التي يقوم صاحبها بتنفيذ أوامر الولاة[6].

لم توضح المصادر عن وجود وظيفة وزير للسلاطين الأيوبيّين في بداية عهدهم في اليمن منذ تورانشاه حتى عهد المعز إسماعيل، وربما يعود ذلك إلى أن هؤلاء السلاطين ونوابهم كانوا على درجة من المعرفة بالأعمال الكتابية والحسابية، فقد كان مبارك بن منقذ نائب أعمال زبيد (من أمراء الدولة الصليحية، وشاد الدواوين بديار مصر)[7]. وكان سيف الإسلام طغتكين (يشارك الفقهاء وله مسموعات ومقروءات) له إجازة من القاضي أحمد بن علي العرشاني، بينما أخذ القاضي عنه موطأ مالك[8]. وأدّى عدم استقرار الأيوبيّين في منطقة واحدة إلى عدم

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 185 ـ 191، الخزرجي: العسجد، ص: 88 ـ 89، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 310 ـ 311.
(2) عمارة: المفيد، ص: 326.
(3) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 232.
(4) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 87، لا يوجد تعريف للأديب عبد اللّه بن أحمد الصنعاني.
(5) عمارة: المفيد، ص: 223، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 112، لا يوجد تعريف بالشيخ مسلم بن يشجب أو بخيت.
(6) النويري: نهاية الأرب، جـ6، ص: 64. مطبعة دار الكتب المصرية، 1345هـ/ 1926م.
(7) الجندي: السلوك، جـ2، ص: 522، الخزرجي: العسجد، ص: 155، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 383.
(8) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 122، جـ2، ص: 529.

تنظيم وظائف الإدارة في اليمن، فقد كانوا متنقلين من منطقة إلى أخرى ليوحدوا اليمن ويقضوا على ما بقي بها من دويلات[1]. فضلاً عن ذلك أن الأيوبيّين اعتمدوا على كتاب للدواوين في كل ولاية أو إقليم سيطروا عليه في اليمن. ولذلك استغنوا عن وظيفة وزير.

ثم ظهرت الوزارة منذ عهد الأتابك سُنْقُر سنة 598هـ/ 1202م تولاًها مصريون، وكانت مهام الوزراء في هذا العهد أيضاً هي القيام بالأعمال الكتابية والحسابية. وممن تولّى الوزارة للأتابك سنقر كل من عزّ الدين الكرماني[2]، والأديب يوسف بن إبراهيم القفطي[3]، كما تولّى لوردشار أحد الكتاب المصريّين وهو القاضي الأشرف. كذلك تولّى كتابة الإنشاء والوزارة لبدر الدين عمر بن رسول أثناء عمله للأيوبيّين، أبو الغيث الأصبهاني[4].

٢ ـ **الكُتَّابُ**: يتولّى الكتاب العمل في الدواوين مثل ديوان البريد، والرسائل، والخاتم، وديوان الإنشاء، وذلك من حيث قراءة الرسائل وكتابة الرد عليها وتوقيعها وختمها وحزمها وإرسالها واستقبالها وغير ذلك. ولا يتولّى ديوان الإنشاء إلا أجلّ كتّاب البلاغة[5]. وقد عرضنا سابقاً للوزراء الذين تولوا العمل في ديوان الإنشاء، إلا أن هناك من تولّى أعمال الكتابة في الدواوين ولم يطلق عليهم لقب وزير بل كاتب.

ففي عهد الدولة النجاحية تولّى الشيخ حمير بن أسعد الكتابة للوزير مفلح الفاتكي والوزير منّ اللّه الفاتكي. وتولّى محمد بن عبد اللّه اليافعي الكتابة للوزير رزيق الفاتكي، كذلك تولّى عبيد بن بحر الكتابة للوزير سرور الفاتكي النجاحي[6].

وفي عهد الصليحيّين تولّى سلامة بن الحسين الأزرقي الكتابة للملك المكرم أحمد بصنعاء. وتولّى أبو شجاع الحصيني الذي قدم من بغداد إلى ذي جبلة كتابة الإنشاء للمفضل ابن أبي البركات الحميري، وذلك لما عرف عنه من إجادة الكتابة

---

(1) انظر ابن حاتم: السمط، ص: 15 ـ 42، الخزرجي: العسجد، ص: 146 ـ 171، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 374 ـ 399، محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 69 ـ 147.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 137، محمد مسفر، المرجع السابق، ص: 213.

(3) القفطي: أنباء الرواة في أخبار النحاة، ص: 11، طبع دار الكتب المصرية 1371هـ، محمد عسيري: نفس المرجع.

(4) ابن حاتم: السمط، ص: 31، 184.

(5) القلقشندي: صبح الأعشى: ج3، ص: 486.

(6) عمارة: المفيد، ص: 212، 217، 226، د. محمد أمين صالح: بنو نجاح في زبيد، ص: 126.

فقربه إليه وأجزل له العطاء وأجرى له أرزاقاً وولاّه كتابة الإنشاء[1]، كذلك تولَّى أبو عبد اللَّه الحسين بن علي بن محمد بن ميمون بن القم الكتابة للسيدة الحرة وكان (يكتب عن الحرة الملكة إلى الديار المصرية والأقطار النازحة)[2]. وتولَّى الكتابة للسيدة أبو نصر سلامة بن الحسن. كما تولَّى الكتابة للسيدة الحرة محمد بن الأزدي، الذي كانت السيدة أرسلته إلى الخليفة الفاطمي بمصر بهدية صحبة بن نجيب الدولة عندما طلبوا عودته من اليمن[3].

وعند الزريعيّين تولَّى محمد بن عزي الكتابة في عدن للوزير بلال بن جرير المحمدي[4]. وعند الأيوبيّين تولَّى كتابة الإنشاء للملك المسعود بن الكامل، علوان الخاوي الرعيني الذي كان مشهوراً بكتابة الخط[5]. وعند الأئمة الزيدية تولَّى ركن الدين أبو فراس دغثم الكتابة للإمام المنصور باللَّه عبد اللَّه بن حمزة[6].

ويبدو أن هؤلاء الكتَّاب كانوا غالباً ما يقومون بأعمال كتابة الإنشاء وأحياناً يقومون بالأعمال الحسابية، حيث نجد أن الكاتب عبيد بن بحر كان يكتب صرفيات مطبخ سرور في شهر رمضان والتي كانت تقدر بألف دينار كل يوم[7].

أما الكتَّاب الذين تخصصوا في كتابة الأموال، فقد كانت لهم مسميات عدة مثل مُتَوَلي أمر العمال وصاحب ديوان التحقيق أو ديوان النظر. ويقوم صاحب هذا الديوان بالإشراف على عمال الأموال واستخراج الأموال منهم ووضع الحسابات الخاصة بالإيرادات والنفقات[8]. ولا يتولَّى هذا العمل إلا المهرة الذين يجيدون الأعمال الحسابية والإدارية، ويعتبر هذا الديوان من أهم دواوين الدولة لقيامه بأعمال الجباية وحفظ حقوق الدولة[9]. وممن تولَّى ديوان الخراج في زبيد أبو الحسن علي بن محمد بن ميمون بن القم[10] وتولَّى أمر العمال في عهد الصليحيّين في زبيد العامل أحمد بن سالم. وكانت مهام عمله هي تعيين العمال

---

(1) مسلم اللحجي: تاريخ مسلم اللحجي، ص: 124.
(2) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 299.
(3) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 277.
(4) عمارة: المفيد، ص: 327.
(5) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 348، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 246.
(6) الحبشي: مصادر الفكر الإسلامي في اليمن، ص: 409.
(7) عمارة: المفيد، ص: 226، د. أمين صالح: بنو نجاح في زبيد، ص: 126 ـ 127.
(8) عمارة: المفيد، ص: 123.
(9) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ1، ص: 430.
(10) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 299.

على منطقة سلطته والإشراف عليهم، واستخراج الأموال منهم، ونقلها من الأقاليم إلى زبيد، ووضع حساب الجباية والنفقات، كما كان من مهام عمله نقل الأموال المستخرجة من زبيد إلى صنعاء بعد صرف أرزاق الجند وغيرهم، حيث كان المرتفع منها إلى صنعاء يقدر بحوالي مائة ألف ألف دينار سنوياً[1].

وكاتب ديوان التحقيق مهامه هي المقابلة على الدواوين أي مراجعة مقدار الجبايات والمنصرف منها ومقابلتها على الدواوين المختصة بها، وكان لا يتولاّها إلا خبير بشؤون المال حاذقاً بأعمال الكتّاب والحساب، وكان يوضع لمن يتولاّها تقدير في المجالس، فيمنح الخلع ومرتبه يجلس عليها وحاجب بين يديه[2]. وممن أصبح صاحب ديوان التحقيق في زبيد في عهد النجاحيّين، أحمد بن فلاح[3].

كذلك وجد كاتب ديوان النظر والذي يعني رئاسة أعمال الدواوين وصاحبها له سلطة العزل والتولية لأعمال الديوان ومن مهامه عرض الأرزاق في أوقاتها، واستخراج أموال بيت المال والتصرف فيها والمحاسبة عليها، ولا يلي هذا العمل (إلا ذوو العدالة البارزة من أهل العلم والديانة)[4]. وممن تولّى كتابة ديوان النظر والتحقيق في عدن في عهد الزريعيّين الحراني[5].

كان ذلك هو استعراض لوظائف النظام الإداري من ولاة وأتابكية ونواب وإقطاع ووزراء وكتّاب وغيرهم. وذلك وفقاً لما عرضته لنا المصادر عن الفترة المحددة للبحث.

ومن الملاحظ من ذلك العرض أن النظام الإداري كان من أهم دعائم حكام اليمن وعليه يعتمد نجاحهم أو فشلهم. وقد أسندوا ولاية الأقاليم لمن يثقون بهم ومن لديهم الكفاءة في العمل كما أسندوا أعمال الدواوين إلى المهرة في الأعمال الحسابية، وذلك للإشراف على جمع أموال الدولة والإشراف على صرفياتها. وكذلك اعتمدوا على جُلّ الأدباء والمجيدين لمعرفة اللغة للقيام بالأعمال الكتابية. مثل كتابة الرسائل والرد عليها. لذلك كان النظام الإداري المالي والكتابي على درجة عالية من المقدرة والكفاءة وحسن الأداء. أسهم في تنظيم دول اليمن المتعددة أو الموحدة.

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 123، د. محمد أيمن صالح: بنو نجاح في زبيد، ص: 101 ـ 102.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى: ص: 389.

(3) عمارة: المفيد، ص: 193.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى: ج3، ص: 389، جـ4، ص: 31.

(5) عمارة: المفيد، ص: 331. ديوان النظر يشبه ديوان الزمام أو الأزِمّة والمقصود بالأزمة هي: (أن الدواوين تجمع لرجل يضبطها بزمام يكون له على كل ديوان، فيتخذ دواوين الأزمة ويولي على كل منها رجلاً) قدامة بن جعفر، الخراج، ص: 55.

النظام القضائي في اليمن

عرّف الماوردي القضاء بأنه: «فريضة محكمة وسنة متبعة»[1] وأوضح بأنه وسيلة لإحقاق الحقوق والقضاء على المظالم، وأن الشريعة الإسلامية حدّدت القواعد الدقيقة التي تكفل تحقيق العدالة الفردية والاجتماعية.

كما عرف ابن خلدون القضاء بقوله: «هو الفصل بين الناس في خصوماتهم حسماً للتداعي وقطعاً للنزاع»[2] وعلى ذلك فالقضاء يقوم بفصل المنازعات، وقطع التشاجر والخصومات، واستيفاء الحقوق ممن مطل بها، وإيصالها إلى مستحقيها، والعدل في القضاء بين المشروف والشريف والتسوية في الحكم بين القوي والضعيف[3] وغيرها.

وإذا تتبعنا نظام القضاء في اليمن نجد أن الخلفاء في العهدين الأموي والعباسي هم الذين كانوا يعينون على القضاء في اليمن في عصر الولاة. فمثلاً في العهد الأموي تولّى طاوس بن كيسان (106هـ/ 724م) قضاء مخلافي صنعاء والجند وكان يختلف بينهما[4]. وتولّى قضاء صنعاء للخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز وهب بن منبه (114هـ/ 732م)[5]. وفي عهد الخليفة المأمون العباسي ولّى قضاء أعمال تهامة القاضي محمد بن هارون التغلبي إلى جانب واليها محمد بن زياد[6].

وعندما بدأ اليمن يستقل من الناحية الإسمية عن الخلافة العباسية أصبحت مهام تعيين القضاء موكولة إلى ولاتها أو حكامها، فقد كان بنو نجاح والصليحيون وبنو مهدي هم الذين يتولّون تعيين القضاء في اليمن، فمثلاً ولّى كل من علي الصليحي

---

(1) الماوردي: الأحكام السلطانية، دار الفكر القاهرة، ط1 سنة 140هـ/ 1983م، ص: 63 ـ 64.
(2) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، جـ1، ص: 17.
(3) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص: 64.
(4) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 56، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 104، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 57، د. أيمن سيد: تاريخ المذاهب الدينية في اليمن، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1408هـ/ 1988م، ص: 45 ـ 46.
(5) الرازي: تاريخ مدينة صنعاء، تحقيق حسين العمري، ط2، سنة 1401هـ/ 1981م، ص: 296، ابن سمرة طبقات، ص: 57، د. أمين صالح: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 227.
(6) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 170، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 151.

وبعده جياش بن نجاح على القضاء في زبيد وتهامة أبو الحسن بن أبي عقامة[1] وولّى ابن مهدي على قضائها القاضي عبد الله بن محمد بن عبد الله[2].

وعندما ظهرت وظيفة قاضي قضاة اليمن أصبحت مهمة تعيين القضاء موكولة إلى من يتولّى هذه الوظيفة. أما تعيين قاضي القضاة فكان من اختصاص الولاة أو الحاكم. فمثلاً ولّى شمس الدولة توران شاه الأيوبي القاضي جمال الدين أبو محمد عبد الله بن محمد الدمشقي قاضي قضاة اليمن[3]، فتولّى بدوره تعيين القاضي عمران بن يحيى بن علي من الأشعوب على قضاء المعافر[4]. كما كان لكل مدينة أو إقليم قاضي قضاة، فأبو بكر أحمد بن محمد بن موسى كان قاضي قضاة الجند، وكانت مهام قاضي قضاة البلدة أو المدينة تعيين قضاة المدينة أو الإقليم، فمثلاً ولّى قاضي قضاة الجند المذكور آنفاً على قضاء الجند، القاضي عبد الرحمن بن عثمان بن أبي رزام، كذلك كان قضاة الأقاليم يولّون قضاة النواحي، فالقاضي أبو الخطاب عمر بن سمرة تولّى قضاء أماكن كثيرة من مخلاف جعفر من قبل القاضي طاهر بن يحيى بن أبي الخير[5] وقد يطلق على قاضي المدينة أو البلدة حاكم المدينة أو حاكم البلدة، مثل القاضي القاسم بن محمد بن عبد الملك ابن أبي الفلاح كان حاكم البلدة، والقاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن علي أخو الحفائلي كان حاكم مدينة زبيد[6] كذلك وجدت وظيفة نائب قاضي وقد تولاّها الفقيه زياد بن أسعد بن علي الخولائي نائباً عن القاضي عبد الجبار في قضاء الجند[7].

كما كانت وظيفة قاضي القضاة يطلق على صاحبها قاضي الأقضية والذي تولّى هذه الوظيفة القاضي علي بن قاسم الحكمي[8]، وقاضي القضاء الأكبر والذي تولاّها القاضي أبو الربيع سليمان بن الفضل بعد ولاية القاضي أبي بكر اليافعي المتوفى سنة 552هـ/ 1157م والقاضي أبو الحسن علي بن أحمد بن علي العرشاني (ت625هـ/ 1227م)[9] أو رئاسة القضاء ومن تولاّها في زبيد القاضي

---

(1) الجندي: السلوك ج1، ص: 291 ـ 293.

(2) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 241.

(3) الجندي: السلوك، ص: 471، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 197 ـ 199.

(4) ابن سمرة: طبقات، ص: 229، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 345.

(5) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 390، 538.

(6) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 441 ـ 442.

(7) ابن سمرة: طبقات، ص: 217.

(8) الأهدل: تحفة الزمن، ص: 335.

(9) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص: 128، 167.

أبو الفتوح بن أبي عقامة[1]، والقاضي أحمد بن علي بن أبي بكر بن حمير الهمداني (607هـ/ 1210م)[2].

وكان لا بدّ من إصدار تقليد بتولية القضاة أو عزلهم، سواء كان شفوياً أو كتابياً، فمثلاً عندما قدم الملك سيف الإسلام طغتكين الأيوبي إلى اليمن استدعى أحد القضاة وقال له: (يا قاضي أحمد ألزم بيتك وأنت يا مسعود قد وليتك القضاء)[3] فكان ذلك أمراً شفوياً بالعزل والولاية لغيره.

أحياناً كان بعض الفقهاء يزهد في تولي منصب القضاء فقد امتنع كثير من فقهاء اليمن عن تولي القضاء، إما بسبب الخلافات المذهبية، أو لعدم الحاجة إلى مزيد من الأموال وعدم حاجتهم إلى وظائف وأعمال في الدولة أو لخوفهم الحيف عن الحق من ذلك. فقد عرض السلطان أسعد بن وائل التبعي الوائلي على الفقيه أبو أحمد زيد بن الحسن بن محمد الفائشي الحميري (490هـ/ 1067م) أن يتولّى حكم الشريعة بأحاظة فامتنع عن ذلك[4].

وكان الفقيه أبو عبد اللّه جعفر بن عبد الرحيم المحابي فقيهاً سنيًا ورأس الفقهاء في الجند تولّى بها الفتوى والتدريس، وعندما استولى علي بن محمد الصليحي الإسماعيلي على الجند سنة 451هـ/ 1059م طلب منه أن يلي القضاء بها فامتنع عن توليته[5] وربما يعود رفضه إلى الخلاف المذهبي فيما بينهما.

وامتنع الفقيه أبو محمد الحسين بن أبي بكر بن أبي حسان الشيباني المولود سنة 502هـ/ 1108م الذي سكن قرية الخوخة وحيس أن يتولّى قضاء زبيد من قبل توران شاه وقاضيه جمال الدين عبد اللّه بن عمر الدمشقي، فرفض. كما عرض عليه سيف الإسلام طغتكين وقاضيه أثير الدين تولي القضاء بها فرفض ذلك أيضاً[6].

وامتنع الفقيه علي بن عيسى بن مفلح بن المبارك المليكي الذي سكن عدن أن يتولّى القضاء بها من قبل سيف الإسلام طغتكين، وخرج منها إلى الخبت ثم

---

(1) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 296، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 201.

(2) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 236.

(3) الجندي: السلوك ج1، ص: 423، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 325.

(4) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 331، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 232.

(5) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 94، الجندي: السلوك، ص: 271، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 184 ـ 185.

(6) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 247، الجندي: نفس المصدر، ص: 379 ـ 380، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 82.

عاد إلي عدن وتوفي بها بعد سنة 580هـ[1]/ 1087م وهكذا امتنع عدة قضاة عن تولي القضاء في اليمن.

وكان الولاة في اليمن يحترمون أحكام القضاة في الأمور الدينية ولا يتدخلون فيما يقضون به[2] وبناء على ذلك يمكن أن نقول إنه لا سلطان على القضاة في الأمور الدينية، بينما كان الولاة يتصرفون باجتهادهم في الأمور الدنيوية وفقاً للشرع واستشارة ذوي الخبرة والمعرفة من رجالهم.

وكانت العادة المتبعة في الغالب أن مذاهب أصحاب القضاء هي نفسها مذاهب السلطة الحاكمة، ومع ذلك كان قضاء اليمن في عهد الدولة الصليحية في أيدي أهل السُنّة في جميع المناطق التي سيطر عليها الصليحيون عدا ذي جبلة وحراز في عهدي المكرم والسيدة الحرة أروى فقط.

وفي حال امتناع أحد العلماء عن تولي القضاء قد يستعين قاضي القضاء باستشارته في من يولي القضاء لبلد ما، فقد طلب القاضي أثير الدين قاضي قضاة اليمن أيام سيف الإسلام طغتكين من الحسن بن أبي بكر بن أبي إختيار الشيباني أن يدله على من يصلح للقضاء على زبيد بعد أن امتنع أن يتولّى هو القضاء بها، فأشار عليه بأبي عبد اللّه بن محمد بن أبي عقامة فقام بتوليته[3] كذلك أشار القاضي عيسى على أحد قضاة سهفنة والذي كان يتولّى قضاء ذي جبلة بأن يولي قضاء الجند القاضي أحمد بن علي بن أبي بكر العرشاني (542 ـ 607هـ/ 1147 ـ 1210م) فولاّه[4].

ولم يكن تعيين القضاة يتم إلا بعد التأكد من صلاحيته واستيفائه لشروط الولاية من حيث المعرفة بالدين والتفقه به والنزاهة والشرف، كما كانوا يتحرون السؤال عن حاله وماله[5].

تبدأ إجراءات التقاضي بتقدم المدعي بشكواه للقاضي، فيكتب هذا إخطاراً للمدعًى عليه ليقابل خصمه في الدعوى المرفوعة ضده، ثم يقضي بعد ذلك بينهما. من ذلك أن القاضي مسعود بن علي بن مسعود بن جعفر قاضي قضاة اليمن في العهد الأيوبي قدم إليه أحد التجار بشكوى يدعي فيها أنه باع للملك أو السلطان طغتكين بضاعة بمال جزيل ثم صار يماطله في الثمن، فخاف التاجر على ماله

(1) الجندي: السلوك، ص: 421.
(2) الأهدل: تحفة الزمن، ص: 57.
(3) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 82.
(4) الجندي: السلوك، ص: 422.
(5) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 435، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 336.

فذهب يشتكي إلى القاضي مسعود فكتب هذا القاضي إخطاراً للملك صورته: (ليحضر فلان بن فلان إلى مجلس الشرع الشريف بذي أشرق ولا يتأخر إن كان يؤمن بالله واليوم الآخر) فلما تسلم السلطان الإخطار وقرأه قال: (نعم أؤمن بالله واليوم الآخر) فحضر إلى مجلس القاضي وساوى القاضي بينه وبين خصمه، فأجلس التاجر بإزاء السلطان واستمع إلى أقوالهما، فاعترف السلطان بالمال، فأمره القاضي بردّ مال التاجر، فردّ السلطان المال للتاجر[1].

القضاء في الدول المستقلة:

توارث القضاء في زبيد بنو أبي عقامة المنسوبون إلى القاضي محمد بن هارون التغلبي الذي قدم مع ابن زياد من بغداد، لذلك كان بنو أبي عقامة هم قضاة زبيد في عهد الصليحيّين والنجاحيّين بها. ففي أثناء حكم الصليحيّين لزبيد ولّى علي الصليحي على قضائها إلى جانب واليها أسعد بن شهاب، القاضي السني أبو محمد الحسن بن محمد بن عقامة بن الحسن بن محمد بن هارون التغلبي وقد وصفه أسعد بن شهاب بقوله: (أقام الحسن على أمور الشريعة قياماً يؤمن عيبه ويحمد غيبه)[2].

وكان القاضي الحسن أيام حكم الصليحيّين لزبيد يميل إلى ملوك بني نجاح السنيّين بسبب الاختلاف المذهبي فيما بينه وبين الصليحيّين الإسماعيلية فسعى إلى إعادة النجاحيّين إلى حكم زبيد وتهامة، فكانت له المساهمة الكبيرة والدور البارز في إعادة الملك لجياش بن نجاح على زبيد، فلما عاد جياش ولّى الحسن القضاء بها، وكان عند جياش «معظماً مبجلاً يلقبه بمؤتمن الدين»[3] إلا أن العلاقة ساءت فيما بينهما بسبب توسط القاضي لخطبة امرأة من الفرسانيّين من أهل موزع لجياش بن نجاح. وذلك عندما ذهب القاضي لخطبة المرأة لجياش، فوافق بعضهم وتردد البعض الآخر، فسأل أهلها القاضي عن جواز تزويج جياش في حالة افتراقهم ذلك. فردَّ القاضي عليهم بقوله: «إذا لم ترض المرأة والأولياء جميعاً لم يصلح النكاح، فأصروا على الامتناع ووثقوا بمشورته»، فعاد القاضي إلى جياش يخبره بامتناعهم. ولكن جياشاً حاول إرضاءهم بالمال حتى أجابوا إلى تزويجه، وعندما تزوجها عرف أن أهم أسباب امتناعهم كانت فتوى القاضي لهم، فأضمر جياش على قتله فقتله لبضع وثمانين وأربعمائة[4]. وهكذا كانت ولاية القاضي الحسن لقضاء زبيد في عهد الصليحيّين والنجاحيّين ونهايته.

---

(1) الجندي: نفس المصدر والصفحة، الأهدل: نفس المصدر والصفحة.

(2) الجندي: السلوك، ص: 291، 293، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 317، 319.

(3) الجندي: نفس المصدر، ص: 294، الأهدل: نفس المصدر، ص: 200.

(4) الجندي: نفس المصدر، ص: 294، 295، الأهدل: نفس المصدر، ص: 200.

ثم تولّى قضاء زبيد لبني نجاح بعد الحسن ابن أخيه القاضي أبو الفتوح عبد اللّه بن محمد بن علي بن أبي عقامة[1]، ثم بعده ابن عمه ابن القاضي المعروف بالحفائلي وهو أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن أبي عقامة[2].

أما في ذي جبلة فقد اعتمد الصليحيون في قضائها على قضاة المذهب الشيعي الإسماعيلي وذلك يرجع إلى أنها نشأت في عهدهم أسسها عبد اللّه بن محمد الصليحي الإسماعيلي سنة 485هـ/ 1065م، ثم أصبحت عاصمة الدولة الصليحية في عهد المكرم والسيدة الحرة. فقد تولّى القضاة في عهدها القاضي الإسماعيلي لمك بن مالك الحمادي الهمداني ت520هـ/ 1126 والذي قدم من القاهرة حوالي سنة 460هـ/ 1068م بعد رحلته العلمية إليها، بعثه علي الصليحي لدراسة المذهب الإسماعيلي فاستغرقت الدراسة حوالي خمس سنوات، ثم عاد بعد قتل علي الصليحي مباشرة[3].

وقد اختلفت مصادر أهل السُنَّة ومصادر أهل الشيعة في وصف وظيفة لمك بن مالك الحمادي، فمصادر أهل السُنَّة كطبقات ابن سمرة والسلوك للجندي تذكر أنه قاضي ذي جبلة وإب[4]، بينما تصفه كتب الشيعة بأنه كان «قاضي قضاة اليمن»[5] بالإضافة إلى أنه هادي دعاتها[6] أو داعي القلم[7].

والذي يبدو أن مرجع هذا القول عنه نابع من خلال وجهة نظر المذهبيّين فأهل السُنَّة يرون أن سلطته القضائية محصورة في مناطق معينة مثل ذي جبلة وإب، بينما أغلب المناطق اليمنية كان قضاتها من أهل السُنَّة، لذلك أطلقوا عليه قاضي ذي جبلة وإب[8]، أما في نظر أهل الشيعة الإسماعيلية فإنه يعتبر عندهم قاضي قضاة اليمن، باعتباره أكبر قاضي إسماعيلي في اليمن، وقاضي السلطة الإسماعيلية

(1) ابن سمرة: طبقات، ص: 240، الجندي: السلوك، ص: 439 ـ 240، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 201 ـ 305.

(2) ابن سمرة: طبقات، ص: 240، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 470، الهمداني: الصليحيون والحركة الفاطمية، ص: 179، د. أيمن: تاريخ المذاهب الدينية في اليمن، ص: 130 ـ 135.

(3) ابن سمرة: طبقات، ص: 234، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 470، الهمداني: الصليحيون والحركة الفاطمية، ص: 170، د. أيمن: تاريخ المذاهب الدينية في اليمن، ص: 130 ـ 135.

(4) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 234، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 470.

(5) د. عبد المنعم ماجد: السجلات المستنصرية سجل رقم 55، ص: ، الهمداني: نفس المرجع، ص: 175، 177، د. أيمن سيد: نفس المرجع، ص: 130.

(6) د. أيمن سيد: نفس المرجع، ص: 130.

(7) الهمداني: نفس المرجع، ص: 175، 177.

(8) ابن سمرة: طبقات، ص: 234، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 470.

الصليحية التي انتشرت سلطتها السياسية على اليمن كله، لذلك فهو من هذه الوجهة قاضي قضاة اليمن[1] أما القضاة الإسماعيلية فقد كانوا قلّة بالنسبة لأهل السُنَّة.

ثم خلف لمك في تولي القضاء في ذي جبلة جرير بن يوسف ثم يحيى بن لمك الحمادي ثم القاضي أحمد بن عبد السلام النقوي[2].

وعندما توفيت السيدة الحرة سنة 532هـ/ 1137م أصبحت بلاد الصليحيّين وحصونهم تحت سيطرة منصور بن المفضل بن أبي البركات فصار القضاء في ذي جبلة لأهل السُنَّة فأول من تولّى القضاء بها منهم القاضي السني أبو بكر بن محمد بن عبد اللّه بن إبراهيم اليافعي (490 ـ 552هـ/ 1169 ـ 1157م) الذي كان قاضياً للجند ولاّه منصور بن أبي البركات قضاء ذي جبلة إلى جانب قضاء الجند، ثم عينه قاضي القضاة من صنعاء إلى الجند، ثم طلب منه أن ينتقل إليه إلى ذي جبلة كونها عاصمة دولته وكون القاضي قاضي قضاة البلدان الواقعة تحت سيطرته، فرفض القاضي في بادئ الأمر، لأن الروافض من أهل المذهب الإسماعيلي يسكنونها ولا يوجد بها من أهل السُنَّة إلا القليل والذين كانوا يجتمعون بالمسجد الذي عرف بمسجد أهل السُنَّة، غير أنه انتقل إليها وقد لامه الكثير من فقهاء أهل السُنَّة على انتقاله آنذاك منهم الفقيه أبو الفتوح بن عبد الحميد الفائشي الذي عاتبه بشعر على هذا الانتقال. إلا أنه عندما انتقل إليها لم يستطع المكوث بها طويلاً، فاعتذر إلى منصور بن أبي البركات عن السكن بها فعاد إلى الجند وظل مستقراً بها. ومع ذلك فقد كان يذهب إليها بين الحين والآخر ثم يعود إلى الجند[3].

أما قضاء تعز وصبر في عهد الدولة الوليدية، فقد تولّى قضاءها القاضي زيد بن عبد اللّه بن حسان بن محمد بن زيد بن عمر تولها للأمير أحمد بن منصور بن المفضل بن أبي البركات[4].

وفي عدن ظل القضاء تحت سيطرة أهل السُنَّة خلال حكم الصليحيّين

---

(1) حسين الهمداني: الصليحيون، ص: 177، د. أيمن سيد: تاريخ المذاهب الدينية في اليمن، ص: 130.

(2) ابن سمرة: طبقات، ص: 234، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 470.

(3) الجندي: السلوك، ص: 356، 357، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 252، 253، من شعر أبي الفتوح الفائشي يعاتب القاضي أبا بكر بن محمد اليافعي بسبب انتقاله إلى ذي جبلة قوله:

حللت في ذي جبلة قاضياً ... فبئسها أرضاً وبئس القضاء

تؤم بالطائفة الملحدين ... من بعد ما كنت إمام الرضاء

الجندي: نفسه المصدر والصفحة.

(4) ابن سمرة: طبقات، ص: 232.

والزريعيّين لها، ففي عهد الزريعيّين تولّى قضاء عدن الفقيه السني أبو الفتح بن عمر ولاّه السلطان زريع بن العباس اليامي، ثم تولّى بعده قضاء عدن في عهد الدّاعي محمد بن سبأ القاضي السني أحمد بن عبد اللّه بن محمد بن أبي سالم القريظي، واستمر هذا القاضي في مجلس الحكم والقضاء في عدن لمدة أربعين سنة من أيام الداعي محمد بن سبأ إلى سنة 481هـ/ 1158م أيام الأيوبيّين[1]. ويرجع ذلك إلى أن أغلب من سكن عدن كانوا من أهل السُنَّة.

وعندما اشترى الداعي محمد بن سبأ الزريعي بلاد الصليحيّين التي كانت تحت سيطرة منصور بن المفضل مثل ذي جبلة وإبِ والجند أبقى رئاسة القضاء للقاضي السني أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه اليافعي. وقد بدأ عمل هذا القاضي في هذه المنطقة منذ فترة مبكرة، فقد ولاّه المفضل بن أبي البركات على قضاء الجند والجؤة، وأبقاه ابنه منصور بن المفضل بن أبي البركات على قضاء الجند وضم إليه قضاء ذي جبلة وصنعاء كما ذكرنا سابقاً. وفي عهد الداعي محمد بن سبأ الزريعي وحكمه لهذه المنطقة ضم إلى هذا القاضي قضاء الجؤة وعدن وأبين ولحج[2]، وأصبح يلقب بقاضي قضاة اليمن من إب إلى عدن[3] وعندما ضم إليه قضاء صنعاء أصبح يلقب «قاضي قضاة اليمن المنوط به أحكام صنعاء وعدن وزير الدولتين الزريعية والوليدية»[4] ويتضح من خلال هذه التسمية أنه أصبح قضاء الدولة الزريعية بعدن والوليدية الحميرية بذي جبلة وكذا الحاتمية الهمدانية بصنعاء تحت سيطرة أهل المذهب السني خلال فترة تولّي القاضي اليافعي لهذه الوظيفة آنذاك، كما يدل على أن الحاتميّين بصنعاء كانوا يتبعون اسمياً الدولتين الوليدية الحميرية ثم الزريعية، فقد أمدّ الحاتميون الزريعيّين بجيش لمناصرتهم في حربهم لابن مهدي حينما طلبوا منهم ذلك خلال فترة محاولة ابن مهدي مدّ سيطرته على اليمن[5]. أو أن الإسماعيلية في كل من عدن وذي جبلة وصنعاء تركوا القضاء في يد أهل السُنَّة لأن أغلب الرعايا في تلك المناطق كانوا سُنَّة آنذاك.

ثم تولّى بعد القاضي أبي بكر اليافعي وظيفة قاضي قضاة اليمن من صنعاء إلى

(1) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 224، 225، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 537.
(2) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 288، 355.
(3) ابن سمرة: طبقات، ص: 165، 166.
(4) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 354، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 250، 251.
(5) الخزرجي: العسجد، ص: 139، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 368 ـ 371، د. محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 65، محمد كريم: عدن، ص: 190 ـ 193.

عدن القاضي أبو الربيع سليمان ابن الفضل[1]. ثم تولّى قضاء لحج من قبل الزريعيّين القاضي السنّي محمد بن سعيد بن معن القريظي (497 ـ 575[2]/ 1103 ـ 1179م).

أما قضاء تَرِيم بحضرموت فقد تولاّه القاضي أبو أكدر واستمر إلى أن قدم الأيوبيون إلى حضرموت بقيادة والي عدن عثمان الزنجبيلي الذي قتل القاضي أثناء استيلائه على حضرموت سنة 575هـ[3].

وعندما استولى علي بن مهدي على زبيد سنة 554هـ/ 1159م، هرب خوفاً منه الكثير من قضاتها وعلمائها، فبعضهم اتجه هارباً نحو الجبال فاستقروا في بعض مناطقه مثل ذي أشرق[4] وبعضهم هرب إلى عدن[5] والبعض الآخر هرب إلى مكة. وقد عمل ابن مهدي أعمالاً أخافت الكثير من أهل اليمن، فقد قام بقتل بعض أهل المناطق التي أغار عليها مثل لحج والجند التي أحرق مسجدها على من فيه[6] وأغار على بواديه وقتل أهل الذِّنبتين وأهل العَرَبة فأخاف ذلك فقهاء اليمن. فالإمام يحيى بن أبي الخير خرج خائفاً من ابن مهدي هارباً من ذي أشرق إلى ضراس ثم إلى ذي السفال[7]. ويبدو أن ابن مهدي قد هدد فقهاء أهل السُنَّة الذين هادنوا السلطة السياسية الإسماعيلية الصليحية والزريعية، بينما يبدو أنه هادن القضاة والفقهاء السنيّين الذين رفضوا أن يتولوا السلطة في عهد تلك الدولتين. كما يبدو أنه هادن قضاة وفقهاء أهل المذهب الحنفي.

أما تولية القضاء في عهد بني مهدي. فقد كانوا جميعاً من قضاة أهل السُنَّة ففي زبيد عزلوا قضاتها من بني عقامة وولوا مكانهم في القضاء عليها كل من القاضي عبد اللّه بن نبيل، والقاضي عبد اللّه بن محمد بن عبد اللّه بن عبلة[8] وفي ذي جبلة وإبِ وأعمالها ولّوا على قضائها القاضي طاهر بن يحيى بن أبي الخير (518 ـ 587هـ). واستمر في قضائها إلى أيام شمس الدولة توران شاه

(1) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 537، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 128.

(2) ابن سمرة: طبقات، ص: 225، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 250، 251، ابن سمرة: يذكر أن وفاته كانت سنة 576هـ/ 1180م نفس الصفحة.

(3) ابن سمرة: طبقات، ص: 225.

(4) ابن سمرة: طبقات، ص: 179، الجندي: السلوك، ص: 342، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 240.

(5) الأهدل: تحفة الزمن، ص: 330.

(6) الخزرجي: العسجد، ص: 137، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 366، الكبسي: اللطائف، ص: 51، 52، د. محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 63.

(7) ابن سمرة: طبقات، ص: 179.

(8) ابن سمرة: طبقات، ص: 236، 241، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 471.

الأيوبي[1]. وفي الجند ولوا على قضائها القاضي عبد الجبار بن محمد الحنفي، ثم خلفه في قضاء الجند نائبه القاضي زياد بن أسعد الجماعي الخولاني[2].

أما القضاء عند الزيدية فقد كان متذبذباً حسب تذبذب سلطتهم السياسية، فقد كانت المناطق التي يتواجد بها الزيدية آنذاك والواقعة فيما بين صنعاء وصعدة تارة تحت سيطرتهم وتارة أخرى تحت سيطرة القوى المنافسة لهم، مثل الصليحيّين والحاتميّين والأيوبيّين: وقد ظلت الزيدية في صراع مستمر مع تلك القوى حول السيطرة على تلك المناطق، وفي غياب تمكن إحدى تلك السلطات من السيطرة على هذه المنطقة ظل العامل القبلي فيها هو الذي يحل في الغالب محل القضاء الشرعي، ومع استمرار تلك الصراعات فقد كان أغلب سيطرة الزيدية على صعدة وما حولها. ثم يتسع ويشمل معظم مناطق شمال صنعاء. وكانوا يولون قضاة من أهل مذهبهم، ففي عهد الإمام عبد اللّٰه بن حمزة عندما سيطر على صعدة واتسعت سيطرته على المناطق التقليدية للزيدية تلك فقد كان قضاته عليها كالآتي:

تولّى القضاء في صعدة وأعمالها القاضي عبد اللّٰه بن محمد بن حمزة بن أبي النجم، وتولّى القضاء في بلاد جنب من صعدة القاضي يحيى بن جعفر بن أحمد، وقضاء بلاد حوث القاضي عمرو بن علي العنسي، وقضاء الجوف القاضي سليمان بن عبد اللّٰه السفياني، وقضاء وادعة الشام قرب صعدة القاضي عبد اللّٰه بن معروف، وتولّى قضاء بلاد خولان في مغارب صعدة القاضي محمد بن نشوان الحميري[3].

وعندما قدم الأيوبيون إلى اليمن اصطحبوا معهم قضاة من أهل السُنَّة وولّوهم رئاسة القضاء في اليمن، وربما يعود ذلك إلى أن اليمن كانت آنذاك تحت السيطرة السياسية لعدة مذاهب غير سنية، مثل الشيعة الإسماعيلية والزيدية والخوارج، فاصطحبوا معهم قضاة من غير أهل اليمن، أما قضاة المدن والنواحي فقد كانوا من اليمنيّين، فعندما قدم شمس الدولة توران شاه سنة 569هـ/ 1174م اصطحب معه إلى اليمن القاضي جمال الدين أبو محمد عبد اللّٰه بن عمر الدمشقي فولاّه قاضي قضاة اليمن أجمع[4]. فأصبحت مهمة تولية القضاة على القضاء في اليمن موكولة إلى هذا

(1) ابن سمرة: طبقات، ص: 188، 235، الجندي: السلوك، ص: 389، 390، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 292، 293.

(2) ابن سمرة: طبقات، ص: 232، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 322.

(3) يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، (خ) ق68ب، 69أب.

(4) ابن سمرة: طبقات، ص: 242، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 471، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 149، محمد عسيري: الحياة السياسية في اليمن، ص: 260.

القاضي، والذي ولَّى بدوره على قضاء المعافر القاضي عمران بن يحيى بن علي من الأشعوب، وعلى قضاء ذي جبلة القاضي علي بن أسعد بن المسلم الصعبي المتوفى سنة 576هـ[1]/ 1180م وولَّى على قضاء زبيد القاضي علي بن حسين البشري[2].

ارتبط عمل القاضي عبد اللّٰه بن عمر الدمشقي في اليمن بوجود توران شاه بها، فقد غادرها مرتحلاً عنها عندما غادرها توران شاه[3] فقام بمهمة تولية القضاة على القضاء في اليمن نواب توران شاه عليها كل في منطقة عمله، فمثلاً عثمان الزنجبيلي نائب عدن ولَّى على قضاء لحج القاضي منصور بن إبراهيم الموصلي[4].

وعندما قدم سيف الإسلام طغتكين إلى اليمن سنة 579هـ/ 1183م اصطحب معه القاضي أثير الدين محمد بن أحمد بن بنان الأنباري فولاَّه منصب قاضي قضاة اليمن كلها[5] وولَّى القاضي أثير الدين بدوره على قضاء اليمن القضاة الآتيين.

ولَّى على قضاء عدن القاضي عمر بن محمد الكتيبي سنة 580هـ/ 1184م والقاضي عبد الوهاب بن علي المالكي بعد موت القاضي أحمد القريظي سنة 581هـ/ 1185[6] وولَّى على قضاء أبين سنة 580هـ/ 1184م القاضي محمد بن علي بن عمر بن أبي قره[7] ثم القاضي أبا الخطاب عمر بن علي بن سمرة الجندي[8]. وولَّى على قضاء لحج القاضي محمد بن سعيد القريظي، ثم ولَّى بعده أخاه علي بن سعيد القريظي ثم القاضي أبا بكر بن علي القريظي[9]، وولَّى على قضاء المعافر القاضي أبا إسحاق إبراهيم بن أبي الأعز سنة 580هـ/ 1184م[10]، وعلى قضاء زبيد ولَّى القاضي عبد اللّٰه بن محمد بن أبي عقامة التغلبي[11]،

---

(1) ابن سمرة: طبقات، ص: 235، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 470، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 367.

(2) ابن سمرة: طبقات، ص: 242، 243.

(3) الجندي: السلوك، ص: 471.

(4) ابن سمرة: طبقات، ص: 204، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 403، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 305.

(5) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 441، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 162.

(6) ابن سمرة: طبقات، ص: 224، 225، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 152، 211، 212.

(7) ابن سمرة: طبقات، ص: 223، 224.

(8) ابن سمرة: طبقات، ص: 223، 224، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 427، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 210.

(9) ابن سمرة: طبقات، ص: 225، 226.

(10) ابن سمرة: طبقات، ص: 229، 230، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 345.

(11) ابن سمرة: طبقات، ص: 241.

والملاحظ أن بني عقامة قد أعيدوا إلى قضاء زبيد في العهد الأيوبي بعد أن كان ابن مهدي قد عزلهم عنه.

وعندما حدث خلاف فيما بين سيف الإسلام طغتكين وقاضي قضاة اليمن أثير الدين سنة 481هـ/ 1185م رحل القاضي عن اليمن، فتولّى مهام تولية القضاء بها سيف الإسلام طغتكين نفسه، فولّى على قضاء الجند القاضي عيسى بن علي بن المسلم سنة 583هـ/ 1187م وعزل عنه القاضي ضياء الدين أحمد بن محمد بن موسى العمراني[1] وولّى على قضاء حيس القاضي أبا بكر بن فالح لبضع وثمانين وخمسمائة من الهجرة[2].

كما قام ولاة المدينة بتولية قضاة على مدنهم فوالي صنعاء وُرْدُشَار ولّى على قضائها القاضي السني سري بن إبراهيم بن أبي بكر العرشاني[3].

أما في عهد الملك المسعودر ابن الكامل الأيوبي فقد ولى قاضي قضاة اليمن من أهل اليمن نفسها اسمه القاضي أبو بكر بن أحمد بن موسى[4]. أما رئاسة القضاء في ذي جبلة فقد تولاّها القاضي أحمد بن علي بن أبي بكر بن حمير بن فضيل الهمداني (542 ـ 607هـ[5]/ 1147 ـ 1210) وعلى ذلك فكل قضاة الأيوبيّين في اليمن من أهل السُنَّة. وذلك لأن الأيوبيّين أنفسهم سُنَّة.

ولاية المظالم:

عرَّفها الماوردي بقوله: «ونظر المظالم هو قود المتظالمين إلى التناصف بالرهبة وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة»[6] ويحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة تقمع المظالم من الخصمين وتزجر المعتدي[7].

وكان الولاة والأمراء والوزراء والسلاطين والقضاة هم الذين يقومون بعمل ولاية المظالم؛ فمثلاً في عهد الدولة النجاحية كان الوزير سرور الفاتكي يجلس للمظالم، وكان المتظلم من الرعية يجفو عليه ويفحش له القول وهو آمن من حميته وعزته وغضبه[8].

---

(1) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 236.

(2) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 472.

(3) الجندي: نفس المصدر، جـ1، ص: 424، 489، 490.

(4) ابن سمرة: طبقات، ص: 236.

(5) الجندي: السلوك، ص: ، ابن سمرة: الطبقات، ص: 236.

(6) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص: 69.

(7) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ1، ص: ، د. توفيق سلطان: دراسات في النظم الإسلامية، ص: 191.

(8) عمارة: المفيد، ص: 228.

وفي العهد الأيوبي كان السلطان طغتكين يتولّى عمل المظالم، فعندما قعد في ذي جبلة لكشف المظالم قدم إليه رجل من عامة السوق يشكو أحد أجناده، حيث أراد الجندي من البائع أن يزيد في السعر، من أجل إعطائه الضريبة فلما رفض البائع بطش به الجندي وكسر مكياله وفرّق طعامه. «فلما سمع الملك العزيز طغتكين الشكوى أمر بالبحث عن الجندي وإحضاره، وكان الجندي أحد المقدمين من أمراء الحلقة. فلما حضر وتبين خطأه أمر بقطع يده تنكيلاً وإرهاباً للباقين من الأمراء والعسكر أن يستنوا بسنته»[1].

وعندما كان طغتكين بصنعاء قدم إليه رجل من أهل سِهام بتهامة متظلماً من ضامن السوق بها. أورد قصته بامخرمة بقوله: «يحكى أن رجلاً من أهل سهام ورد إلى السوق بشيء من العَزَف ليبيعه فلقيه صاحب السوق، فقال: سلم درهماً لهذا الغلام، فقال: ما عندي شيء مما يتوجه فيه الضمان، فقال له: سلم درهمين، فقال: سبحان اللّه العظيم! أقول لك ما معي شيء يتوجه فيه الضمان وتقول سلّم درهمين، فلكمه لكمة شديدة وقال: سلّم ثلاثة دراهم وأمر بعض أعوانه أن يأخذها منه فلم يجد بدًا من تسليمها»[2].

فلما شكا الرجل لطغتكين بقصته تلك مع الضامن، أعطاه ميعاداً محدداً أن يقابله في نفس الميعاد بنفس السوق. وفي نفس الميعاد حضر الملك سيف الإسلام طغتكين في جماعة من عسكره إلى مدينة الكدْراء ثم إلى السوق القريب منها، فاستدعى الوالي والضامن والمشتكي. فلما تحقق من الشكوى «أمر بشنق الضامن في السوق وفصل الوالي عن تلك الجهة وولّى غيره، وقال: يظلم هذا عندكم ولا تنصفوه وتكلفوه الوصول إلى أبوابنا وهو لا يقدر واللّه لئن أتاني أحد شاكياً لأشنقن الوالي فلم يمد أحد يده إلى ظلم بعدها»[3]. وهكذا كانت ولاية المظالم في يد أصحاب السلطة والنفوذ والقوة.

من الملاحظ في النظام القضائي أن مهنة القضاء كانت مهنة تخصصية لا يستطيع القيام بها إلاّ المتخصصين بها. لذلك أوكلت إلى القضاة القيام بهذا العمل. وقد ترك الحكام لهم الحرية الكبيرة في إصدار الأحكام الشرعية وساندوهم في تنفيذ أحكامهم. وكان الدين نفسه هو الرادع لهؤلاء القضاة في العدل في الأحكام وهو أقوى من الحكام في حالة خشيتهم للّه سبحانه وتعالى ومعرفتهم لأحكام الدين الإسلامي.

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 40، 41. (2) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص: 134.

(3) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص: 145، كما قام القضاء بعمل ولاية المظالم. انظر فصل القضاء إجراءات التقاضي.

النظام العسكري

يعتبر الجيش من أهم العوامل التي يرتكز عليها قيام الدويلات في اليمن. وسنتحدث هنا عن عناصر هذا الجيش وأسلحته والأساليب والتشكيلات العسكرية. وذلك بناء على ما أوردته المصادر عن الفترة التي ندرسها.

أولاً

عناصر الجيش

تعدّدت عناصر الجيش في اليمن في الفترة الإسلامية بتعدد الدويلات التي قامت بها، فمنها اعتمدت على العنصر القبلي مثل الصليحيّين وبني زريع وبني مهدي والزيدية وغيرهم، ومنها ما اعتمدت على الرقيق المجلوب من الأحباش أو غيرهم مثل بني نجاح، أما الأيوبيون فقد اعتمدوا على الأتراك والأكراد أو الغز.

وأهم هذه العناصر هو العنصر القبلي اليمني باعتبار أن أغلب دويلات اليمن اعتمدت في جيشها على هذا العنصر، وقد اختلفت القبائل اليمنية في قبول الدخول في رسوم الجندية، فبعض القبائل اليمنية كانت تعتبر الدخول فيها واستخدام غاراتها سُبَّة وعيباً، وترفض قبول الأعطيات من خلالها، وبعض القبائل كانت تحب الدخول في رسوم الجندية وتفضل العمل بها على غيرها من الأعمال، وتطلب المزيد من أعطياتها، وتعتبر قبيلة همدان وملوكها من أهم القبائل اليمنية التي كانت تفضل الدخول في رسوم الجندية ولا تعتبره سُبة، مما جعلها تلقى شهرة لدى بعض الدويلات اليمنية، حتى أصبحت تلك الدول تهابها وتقبل المسالمة معها وتعطيها الجوائز والأموال[1]. كما كانت تستجلبها للحرب معها، من ذلك حكام زبيد الذين كانوا يهادونها ويبعثون إليها بالأموال، كما كانوا يرسلون إليهم بدعوتهم للعطاء والخروج معهم لحرب بعض أعدائهم، ومن الذين نزلوا إلى زبيد من زعماء همدان لطلب المزيد من العطايا دغفان بن محمد الهمداني، ونزل بعده الضحاك الهمداني في أكثر من مائة فارس[2].

جيش النجاحيّين:

كان أغلب جيش النجاحيّين من الأحباش، حيث كانوا يستدعونهم من الحبشة لاستخدامهم في الحرب. من ذلك أن سعيداً الأحول أرسل إلى الحبشة

(1) مسلم اللحجي: تاريخ مسلم اللحجي، (خ) ق14، 17. (2) مسلم اللحجي: نفس المصدر، ق17.

لشراء عدد من الجنود يجيدون فنَّ الرمي بالحراب فاشتروا عشرين ألف منهم. لذلك كان الأحباش في عهد النجاحيّين هم أهم الجند المدافعين عن زبيد وأعمالها، فعندما توجه المكرم لاستخلاص أمه أسماء بنت شهاب من الأسر سنة 461هـ/ 1568م اصطف لقتاله في زبيد عشرون ألف رجل من الحبشة. وعندما أراد جياش استعادة ملكهم في زبيد من الصليحيّين كاتب الحبشة المتفرقين من أعمال تهامة وأمرهم بالاستعداد والحضور إليه، فحضر منهم حول مدينة زبيد حوالي خمسة آلاف رجل مسلح بالحراب[1]، ونتيجة لكثرة استخدام الأحباش في الجندية وعزوف العرب الإنخراط فيها، أصبحت السيطرة الفعلية في زبيد وتهامة بأيديهم. كما أصبح هؤلاء الأحباش أمراء للدولة النجاحية، منهم نجاح نفسه الذي أسس الدولة النجاحية وأولاده الذين استمروا يحكمونها من سنة (432هـ/ 1041م حتى 554/ 1150م).

كذلك استعان آل نجاح في الجيش بعناصر أخرى غير حبشية وذلك عندما استمرت الحرب بين الصليحيّين والنجاحيّين، استدعى جياش جنداً من الأتراك الغز ثلاثة آلاف فارس لتدعيم وتقوية جيشه، فوصل إليه منهم إلى زبيد ألف فارس يرأسهم عثمان الغزي، إلا أن جياشاً عندما تمكن من السيطرة على زبيد، شعر أن هؤلاء الغز سيشكلون خطراً على سلطته، فتخلص من أكثرهم ولم يبق منهم غير أربعمائة فارس على رأسهم عثمان الغزي، استمروا في خدمته وأولاده فترة طويلة منحوا خلالها وادي ذوآل إقطاعاً لهم[2].

جيش الصليحيّين:

أما جيش الصليحيّين فكانت عناصره تتكوّن من القبائل اليمنية، لأن عليًا الصليحي كان أحد زعماء قبائل حراز الحميرية. فعندما سيطر على جبل مسار تجمعت حوله بعض قبائل همدان وسَنْحان ويَام وجُنَبْ[3]. وقد استطاع علي الصليحي السيطرة على قبيلة همدان حيث وطأها وطأة المتثاقل فلم يذر لها الخروج عنه في وقته. لأن قبيلة همدان كانت تعد من أهم أجناد اليمن آنذاك للأسباب التي أوضحناها سابقاً[4]. وبسيطرته على هذه القبيلة وطاعة القبائل الأخرى له سيطر على اليمن كلها بسهولة. وظل جيش المكرم على نفس الحالة مكوّناً من القبائل اليمنية.

وفي عهد السيدة الحرة بدأت القبائل اليمنية تخرج عن سيطرة الدولة

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 203، 205، 231، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 77، 78، 92.

(2) عمارة: المفيد، ص: 215، 216.

(3) مجهول: تاريخ اليمن، ق173، عمارة: المفيد، هامش ص: 109.

(4) مسلم اللحجي: تاريخ مسلم اللحجي، ق14، 17.

الصليحية، فاستعانت السيدة بعناصر أرمينية ونوبية أرسلت إليها من مصر، من قبل وزير الخليفة الفاطمي محمد بن أبي المأمون الذي تولّى وزارة مصر للآمر بأحكام اللّه الفاطمي سنة 515هـ/ 1121م حيث إنه أرسل من مصر لابن نجيب الدولة مدداً من الجند الأرمن والنوبيّين يقدر عددهم بحوالي أربعمائة أرمني وخمسمائة نوبي، لذلك كان جيش ابن نجيب الدولة المصري في اليمن معظمه من الأرمن والنوبيّين. فعندما شنّ هجوماً على زبيد عهد الوزير النجاحي مَنّ اللّه الفاتكي سنة 518هـ/ 1124م انهزم جيشه وقتل منهم مائة من العرب وثلاثمائة أرمني وخمسمائة أسود من النوبيّين[1].

كذلك اعتمد الزريعيون في جيشهم على القبائل اليمنية أيضاً، من ذلك أنه لما حدث صراع فيما بين سبأ الزريعي وابن عمه أبي الغارات نزل سبأ من الدُملُوة لحرب ابن عمه في عدن بجيش من عدة قبائل هي همدان وحنب بن سعد وعنس وخولان وحمير ومذحج وغيرهم فالتقى الجيشان في وادي لحج انتصر خلالها سبأ الزريعي[2].

جيش الحاتميين:

كما اعتمد الحاتميون أيضاً في تكوين جيشهم على القبائل اليمنية، فمثلاً عند دخول حاتم بن أحمد اليامي صنعاء سنة 533هـ/ 1138م لتولي السلطة بها دخل معه سبعمائة فارس من همدان، وعندما خرج السلطان علي بن حاتم لنصرة الزريعيّين على ابن مهدي سنة 569هـ/ 1173م خرج من صنعاء بمن معه من قبائل همدان وبني شهاب ونهد وغيرهم[3].

جيش الأئمة:

كذلك تكوّن جيش الأئمة الزيدية من عناصر قبلية. فمثلاً لذلك لما خرج الإمام أحمد بن سليمان لقتال أهل يام قرب صعدة سنة 549هـ/ 1154م بسبب إحداثهم ليلة الإفاضة دعا للخروج معه بلاد بني شريف وسنحان كما قدمت إليه قبائل أخرى من نهد وجنب وخثعم[4].

جيش الأيوبيّين:

أما الجيش الأيوبي فقد تكوّن من عناصر تركية وأكراد إلا أن معظم جيشهم

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 164، 210.
(2) عمارة: المفيد، ص: 178، الخزرجي: العسجد، ص: 85.
(3) الخزرجي: العسجد، ص: 74، 139، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 288، 268.
(4) المحلي: الحدائق الوردية، ص: 128، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، جـ1، ص: 309.

في اليمن كانوا من الأكراد حتى استفحل خطرهم على سلاطين الأيوبيّين. فقد قام الأكراد بقتل المعز إسماعيل الأيوبي في زبيد سنة 598هـ[1]/ 1201م، كما اشتمل الجيش الأيوبي أيضاً على عناصر مملوكية أوضح ذلك ابن الديبع بقوله: «وكانت عسكر الناصر يومئذٍ ثلاثمائة مملوك وأربعمائة جندي»[2] وهكذا تنوّعت عناصر الجيش اليمني.



الوحدات العسكرية

كانت الوحدات العسكرية القتالية في الجيش اليمني تشابه الوحدات القتالية التقليدية في الجيش الإسلامي، والتي كانت تتكوّن عادة من الفرسان، والرَجَّالة أو المشاة، والرماة بأنواعهم، أي رماة الرماح، ورماة السهام، ورماة الأقواس، والدبابيس بالإضافة إلى رماة المنجنيق والنار وغيرهم كما سيأتي:

الفرسان أو الخيالة:

يعد الفرسان من أهم الوحدات القتالية آنذاك بحيث لا تخلو أية معركة منهم وخاصة في المناطق السهلية والمفتوحة، وتعد الخيول من أهم عناصر الهجوم والإنسحاب السريعين، فكانت تستخدم للمطاردة، والاستطلاع، والتطويق، والإلتفاف لسرعتها في الحركة. وقد استخدم الحكام اليمنيون الفرسان في جيوشهم، فعندما حج علي الصليحي سنة 459هـ/ 1066م سار بألفي فارس. ولما نزل المكرم إلى زبيد لحرب النجاحيّين سنة 461هـ/ 1068م سار معه ثلاثة آلاف فارس غير الرجالة. وفي أثناء غزو سعيد الأحول النجاحي لذي جبلة سنة 461هـ/ 1068م كتبت السيدة الحرة إلى أسعد بن شهاب وعمران اليامي في صنعاء أن يتجها منها نحو زبيد، فنزلا إثر طلوعه منها في ثلاثة آلاف فارس[3]. وعندما قدم الأيوبيون إلى اليمن بقيادة توران شاه قدم بجيش قوامه ألف فارس وقيل ثلاثة آلاف فارس[4].

ولأهمية الخيول في المعركة، فقد اهتم اليمنيون بتربيتها، فكانت منطقة مهَرَة من أشهر مناطق اليمن في تربية الخيول، وكانت اليمن تصدر الخيول إلى مناطق

(1) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 135، الخزرجي: العسجد، ص: 174.
(2) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 405.
(3) عمارة: المفيد، ص: 126، 128، 143، الخزرجي: العسجد، ص: 58، 63، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 257، 264.
(4) الخزرجي: العسجد، ص: 148.

كثيرة، بلغت ضريبة الفرس الواحد الخارج من فرضة عدن في عهد السلطان الناصر الأيوبي سبعين ديناراً[1].

الرجالة أو المشاة:

كان المشاة أو الرجالة أداة فعالة في المعارك في اليمن وكانوا يشكلون الغالبية العظمى للجيش اليمني. من ذلك أنه عندما نزل سبأ بن أحمد المظفر الصليحي لقتال النجاحيّين كان من مشاة جيشه فقط عشرة آلاف راجل. ولما حاصرت قبائل اليمن ابن نجيب الدولة في مدينة الجَنَدْ، كان عدد المشاة ثلاثين ألف راجل[2].

الرماة:

أما الرماة بأنواعهم، كرماة الرماح والحراب والسهام، فكانت فرقتهم تتكوّن من المشاة والفرسان، وكان لهم دور بارز في المعارك، وقد تدار المعركة بكاملها بالرماة. فمثلاً لذلك عندما نزل سبأ بن أحمد المظفر الصليحي على زبيد في عهد جياش جهز له النجاحيون كميناً كبيراً تمكنوا من إهلاك معظم جيش سبأ قتلاً بالحراب[3].

ثالثاً

أنواع الأسلحة

استخدم الجيش اليمني أنواع الأسلحة القتالية المعروفة آنذاك في العالم الإسلامي مثل السيف، والرمح، والسهم، والحربة وغيرها.

السيف: يعتبر السيف أهم سلاح للجيس في القتال في المعارك المختلفة. اعتمد عليه الجيش اليمني سواء الرجالة أم الفرسان، وقد اشتهرت اليمن بصناعة السيوف، وكان الجيش المسلح بالسيوف يشكل غالبية الجيش في بعض المعارك في اليمن، من ذلك أنه عندما طلع علي الصليحي حصن مسار بحراز لم ينتصف النهار إلا وقد أحاط به عشرون ألف ضارب سيف[4].

القوس: القوس هي آلة الرمي في القتال وكان أحد معدات القتال الهامة آنذاك وقد استخدمها الجيش اليمني في كل معاركه. من ذلك استدعى جياش بن نجاح ثلاثة

---

(1) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 141.

(2) عمارة: المفيد، ص: 149، 166، الخزرجي: العسجد، ص: 64، 70، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 276.

(3) عمارة: المفيد، ص: 149.

(4) عمارة: المفيد، ص: 117، الخزرجي: العسجد، ص: 56، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 276.

آلاف رام بالقوس من الغز عندما كان في صراع مع الصليحيّين[1] وأرسل وزير الخلافة الفاطمية بمصر محمد بن أبي المأمون جيشاً ممن يجيدون استخدام الأقواس بأقواسهم يقدر عددهم بحوالي أربعمائة رام أرمني وسبعمائة أسود[2].

الحراب: كما كانت الحراب وهي آلة دون الرمح أحد المعدات القتالية الهامة استخدمها الجيش اليمني في معاركه المتعددة، من ذلك أن الأمير سعيد الأحوال النجاحي أرسل إلى الحبشة لشراء عشرين ألف حربة. وعندما أراد غزو ذي جبلة سنة 461هـ/ 1069م بغرض القضاء على الصليحيّين خرج ومعه ثلاثون ألف حربة[3]. كذلك حينما أراد سعيد الأحول قتل علي الصليحي سنة 459هـ/ 1066م خرج إليه من البحر في خمسة آلاف حربة[4].

الدروع: واستخدم الجيش اليمني أيضاً الدروع وهي لبوس من الحديد يقي الجيش المقاتل من ضربات السيوف ومن توجيه السهام والحراب عليهم، وكان حملتها يقفون في مقدمة الصفوف ليحموا الجيش المتقدم للقتال، ومن الجيش الذي استخدم الدروع في اليمن، جيش حاتم الغشم الذي حكم صنعاء منذ سنة 592هـ/ 1195م وذلك عندما أراد ابنه محمد بن حاتم غزو نجران خرج بجيشه إلى خارج صنعاء فأرادوا العود إليها لقضاء بعض حوائجهم فقال لهم: صبوا دروعكم ههنا وأدخلوا، فصبوا دروعهم في ذلك الموضع، فسمي ذلك الموضع مصب الدروع[5].

المنجنيق: واستخدم الجيش اليمني سلاح المنجنيق وهي القَذّاف التي ترمى بها الحجارة وهي تعدّ من الأسلحة الهامة في كسب المعركة وتحقيق الانتصار. وممن استخدم المنجنيق في اليمن، جيش علي الصليحي في معركة (الهرابة) سنة 448هـ/ 1556م[6] كما استخدمها سيف الإسلام طغتكين الأيوبي في معاركه في شمال صنعاء ضد آل حاتم اليامي في كل من (جبال الظلمة) الذي نصب فيه

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 215، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 103، الخزرجي: العسجد، ص: 119.

(2) عمارة: المفيد، ص: 164، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 275.

(3) عمارة: المفيد، ص: 143، 203، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 77، 78، الخزرجي: العسجد، ص: 59، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 258 ـ 264.

(4) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 77، الخزرجي: العسجد، ص: 59.

(5) الخزرجي: العسجد، ص: 72.

(6) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، جـ1، ص: 252، الهمداني: الصليحيون، ص: 83، محمد الأكوع: مفيد عمارة، هامش ص: 119.

المنجنيق لأخذ حصن الفص، وحصن (كوكبان وحصن فدة)[1].

كذلك استخدم الجيش في اليمن أنواع أخرى من الأسلحة في معاركهم مثل الدبابيس والرماح[2]. والعرادات[3]، والنفط. كما اصطحبوا معهم عند خروجهم إلى المعارك ما يلزمهم من المؤن والمعدات مثل الزاد والمياه والخيام[4]، والسلالم[5]، ورواحل[6] لحمل الجنود والمؤن مثل الحمير والبغال وغيرها.

الجمال: كما استخدمت الجمال في الجيش اليمني إضافة إلى الخيول وخاصة في المناطق السهلية التهامية. وممن استخدمها علي الصليحي في رحلته إلى الحج والتي قتله فيها سعيد الأحول في المهجم وغنم فيها أموال الصليحي التي اصطحبها معه، منها ألفي فرس وثلاثة آلاف جمل بعددها[7].

الرايات والأعلام: ذكرت المصادر التي بين أيدينا أن الجيوش في اليمن آنذاك استخدمت الرايات والأعلام. ولكن لم توضح لنا هذه المصادر ألوان تلك الرايات والأعلام والألقاب التي كتبت عليها. فمن حيث استخدام الرايات بعث الخليفة الفاطمي المستنصر بالله لعلي الصليحي الرايات، كتبت عليها الألقاب[8]. ويبدو أن الرايات كان غالباً ما يستخدمها الأمراء. أما الأعلام فقد استخدمها جميع فرق الجيش، واستخدمت لأغراض متعددة منها الاستقبال العسكري فمثلاً لذلك عندما ذهب أحد زعماء همدان وهو الضحاك مع مائة فارس إلى زبيد لمساعدة حاكمها في حربه مع أعدائه، خرج حاكم زبيد لاستقباله بالأعلام والرايات[9].

كما استخدمت لغرض تجميع الجند، حيث كان قادة الجماعات وأمراء الجيش أثناء الاستعداد للحرب وأثناء المعارك يرفعون أعلامهم لتجميع أفرادهم حولهم، لكي يسهل على القادة معرفة أصحابهم فيستطيعون إصدار أمرهم إليهم

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 165 ـ 167.
(2) الخزرجي: العسجد، ص: 185.
(3) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، جـ1، ص: 252.
(4) الخزرجي: العسجد، ص: 72.
(5) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ11، ص: 397، استخدمت السلالم لصعود سور زبيد أثناء الفتح الأيوبي.
(6) الخزرجي: العسجد، ص: 72.
(7) عمارة: المفيد، ص: 201.
(8) الخزرجي: العسجد، ص: 57.
(9) مسلم اللحجي: تاريخ مسلم اللحجي، ق17، يبدو أن الضحاك قدم إلى زبيد في عهد أبي الجيش بن زياد، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 59.

بالتقدم نحو القتال أو الانسحاب أو ما إلى ذلك. كما أن الأعلام تساعد الجند على معرفة اتجاه أصحابها وأماكن تجمعهم، من ذلك الاستخدام، عندما تمرد الأكراد واستولوا على زبيد أمر الأتابك سيف الدين سُنْقُر الأمير علم الدين وُرْدُشار النزول من صنعاء لحربهم، فلما قرب من زبيد خرج إليه الأكراد لحربه فالتقى الجمعان في (القرتب) حيث بدأ فرسان الأكراد بسرعة الهجوم على قلب جيش الأمير سُنْقُر حتى انهزم عسكره، فرفع الأعلام لتجميع جيشه، فلما اجتمعوا حوله عاود الكرة نحو الأكراد فحاربهم حتى هزمهم[1].

ضرب الطبول والأبواق: كان الجيش في اليمن يستخدم ضرب الطبول والأبواق وقد استخدمت لعدة أغراض، منها إشعار الجند بالاستعداد للتجمع، واستعداداً لبدء الحرب واستعداداً للرحيل، وإعلاناً بالفرحة بالنصر، واستقبالاً للجيش العائد من المعركة أو المنتصر فيها وغيرها. ومن أمثلة ضرب الطبول والأبواق آنذاك الآتي:

عندما أراد سبأ بن أحمد بن المظفر الصليحي الرحيل من ذي جبلة إلى حصن أشيح بعد زواجه من السيدة الحرة أروى أعلن ضرب الطبول استعداداً للرحيل[2].

وعندما انتصر سعيد الأحول على علي الصليحي في المهجم سنة 459هـ/ 1066م أعلن ضرب الطبول والأبواق فرحة بالنصر واستعداداً بالعودة إلى زبيد[3]. كذلك عندما أراد جياش بن نجاح أن يستولي على زبيد سنة 477هـ/ 1089م بمساعدة ابن القم بعد أن جهز أنصاره سراً داخل المدينة، أمر بضرب الطبول والأبواق استعداداً لاحتلال زبيد فقامت معه خمسة آلاف من الحبشة وعامة المدينة[4]. ولما قدم جند همدان بقيادة الضحاك إلى زبيد خرج حاكمها لاستقبالهم بالطبول والبوقات[5] وهكذا كان استخدام ضرب الطبول والأبواق.

الطلائع: وجدت في الجيش اليمني فرقة تسمى الطلائع، وهي الفرقة التي تقوم بالذهاب في مقدمة الجيش لإستطلاع عدد قوات العدو ومعداته وأماكن تواجده كما أنها تقوم باستكشاف خطط العدو القتالية وكمائنه، وذلك ليسهل لهم

---

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 176.

(2) عمارة: المفيد، ص: 153، الخزرجي: العسجد، ص: 65.

(3) عمارة: المفيد، ص: 196.

(4) عمارة: المفيد، ص: 207، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 93، الخزرجي: العسجد، ص: 110.

(5) مسلم اللحجي: تاريخ مسلم اللحجي، ق: 17.

معرفة الطريقة أو الكيفية التي يتم عليها قتالهم والانتصار عليهم، من ذلك أن الداعي محمد بن سبأ الزريعي كان من طلائع الداعي سبأ بن أبي أسعد[1].

الأطباق والكمائن: كان الجيش في اليمن يستخدم عملية الإطباق والإلتفاف والكمائن، ولعل ذلك كان مناسباً لمناطق اليمن الجبلية. من ذلك تدبير السيدة الحرة أروى والمكرم والحسين بن التبعي صاحب حصن الشعر، في دعوة سعيد الأحول إلى التقدم إلى ذي جبلة، ووضع كمين له عند حصن الشعر. فلما طلع ووصل تحت حصن الشعر ظهر الكمين وأطبق عليه الجيش من كل مكان فقتلوه وقتلوا أكثر جنده[2].

التشكيل في المعركة: واستخدم الجيش في اليمن نفس التشكيل العسكري الذي استخدمه المسلمون في الأمصار الإسلامية. فقد كان يوزع إلى مقدمة وميسرة وميمنة وقلب وخلف وطلائع. ولعل هذا التشكيل كان أكثر استخداماً في المناطق السهلية والمفتوحة. من ذلك لما نزل المكرم من صنعاء سنة 461هـ/ 1068م لحرب آل نجاح وفك أسر والدته أسماء منهم. اصطف جند آل نجاح في عشرين ألف رجل، واصطف جند العرب مع المكرم فكانت ميمنة جند المكرم لأسعد بن شهاب وميسرة جنده لعم أسعد بن شهاب. وكان المكرم في القلب. وفي القتال كانت الحرب شديدة على الأحباش في الجانبين وهما الميسرة والميمنة. انكسر خلالها جند الأحباش وانهزم آل نجاح وهربوا إلى دهلك[3].

ومن فنون القتال المستخدمة في الجيش في اليمن، الهجوم على جند القلب حيث إن هذا الهجوم يشكل أحد المهام الرئيسية في قتال الجيوش، لأن قائد الجيش عادة ما يقف في القلب فمهاجمته واقتحامه يحدث الهزيمة للجيش كله، وخاصة إذا قتل قائد الجيش أثناء اشتداد المعركة. حيث إن ذلك يؤدي إلى إرباك الجيش وعدم مقدرته على تنظيم صفوفه. فيعطي ذلك الجيش المهاجم الفرصة لكسب المعركة وتحقيق النصر. حتى ولو كان عدد أفراده أقل من عدد أفراد خصمه. ومن الهجمات على جيش القلب ما قام به الأكراد ضد الأتابك سنقر حينما نزل إليهم إلى زبيد لمحاربتهم أثناء قيامهم بالتمرد عليه في زبيد. فلما اصطف الفريقان للقتال هجم الأكراد على قلب جيش سنقر فتضعضع جيشه وانهزم، فانسحب وعاود الهجوم مرة ثانية، فحقق النصر على الأكراد واستولى على زبيد[4].

ومن الأساليب العسكرية التي كان يستخدمها الجيش في اليمن (شراء

---

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 85.
(2) عمارة: المفيد، ص: 142، 143.
(3) عمارة: المفيد، ص: 131، 132.
(4) الخزرجي: العسجد، ص: 176.

الحصون) فقد كانت الحصون من أهم المواقع العسكرية التي كانت تكسب أصحابها النصر أو المقاومة لمناعة مواقعها الطبيعية، حيث لا يستطيع الجيش المهاجم اجتيازها بسهولة، لذلك كان من السهل على القوى العسكرية شراء الحصون، لأن ذلك يعد أحسن وسيلة وأسهل أسلوب من الدخول في حرب قد تهلك الكثير من قواتهم، من ذلك شراء الداعي محمد بن سبأ الزريعي الحصون من المنصور ابن المفضل سنة 547هـ/ 1152م وهي الحصون التي ورث حكمها عن الصليحيّين، وشراء سيف الإسلام طغتكين حصن الدُّملُوة، وشراء الملك المسعود حصن بُكُر[1].

وفي سبيل التغلب على مناعة الحصون في اليمن كان الجيش يستخدم الحصار لها لفترة طويلة دون الدخول في قتال مباشر، فيمنعون عنهم المدد من مؤن وطعام وماء، وعندما تنفذ تلك المؤن يستسلم أهل الحصن دون قتال، أو يقاتلونهم وهم في حالة ضعف، فيكسب الجيش المحاصر لهم تحقيق النصر، ومن ذلك حاصر سيف الإسلام طغتكين حصن (قيظان) تسعة أشهر حتى سلموا له، وحاصر حصن (حَبْ) لأكثر من سنة بدأ سنة 581هـ/ 1185م ترك في حصاره الأمير همام الدين ثم ذهب إلى مكة للحج فلما عاد من الحج استولى على الحصن بالقوة سنة 582هـ/ 1186م بعد قتل معظمهم[2].

ومن الأساليب العسكرية (المصالحات) فقد استخدمت المصالحة العسكرية لعدّة أسباب، منها تجنب القتال بين الطرفين، لعدم تحقيق الحرب لأية نتائج بعد استمرار القتال بين الطرفين المتحاربين لفترة طويلة دون تحقيق النصر لأحدهما، واستهلاك الحرب للمؤن ولوازم القتال، واقتسام البلدان فيما بين الأطراف المتحاربة وغير ذلك. من هذه المصالحات، عندما طالت مدة الحرب فيما بين السلطان طغتكين وعلي بن حاتم اليامي، أمر طغتكين واليه على صنعاء همام الدين أبا ريّا أن يصالح علي بن حاتم (على أن يعطيه في كل شهر خمسمائة دينار وخمسمائة كيلجة ولا يكون له بلد)[3] فتصالحا على ذلك. ومنها مصالحة اقتسام البلدان فقد صالح الأمير علم الدين وردشار الإمام عبد الله بن حمزة على أن يكون

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 162، 183، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 314، 390، 416.

(2) الخزرجي: العسجد، ص: 60 ـ 62، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 388، 390، د. محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 125 ـ 127، 131.

(3) الخزرجي: العسجد، ص: 167، 178، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 408، د. محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 144. وقيل أن ذلك المبلغ في كل سنة وليس في كل شهر.

البون الأعلى والأسفل للأمير وردشار الأيوبي ويكون الظاهران والجوف وصعدة للإمام[1].

ومن الأسالب العسكرية أيضاً صرف الأموال للجند في سبيل تفريقهم عن الحصار من ذلك ما عملته السيدة الحرة حينما وزعت عشرة آلاف دينار مصرية لتفريق الجند عن محاصرة ابن نجيب الدولة أثناء حصارهم له في الجند[2].

ومنها كذلك إستعانة إحدى القوى بأعدائها لمحاربة أعداء آخرين. من ذلك أن عبيد فاتك بن جياش ومولاهم منصور بن فاتك السنيّين استنجدوا بالمفضل بن أبي البركات والسيدة الحرة الإسماعيليّين مقابل ربع مالية زبيد وتهامة لنصرتهم على ابن عمهم عبد الواحد بن جياش الذي استولى على السلطة في زبيد[3]. وهكذا تعددت الأساليب العسكرية.

ومن الأساليب العسكرية كذلك أنه كان يصرف للجند مكافآت مالية عندما يحققون النصر على الأعداء، من ذلك ما وهبته السيدة أسماء بنت شهاب للجند المنتصرين في زبيد عندما فكُوا أسرها من النجاحيّين، وهي مائة ألف دينار لقائد ميمنة المكرم وما يساوي ذلك المبلغ لقائد ميسرته[4].

كما كانت تصرف مبالغ مالية في كل سنة كصلة عسكرية، من ذلك ما كان يصرفه سرور الفاتكي سنوياً صلة لجنده[5].

وحسب ما تشير إليه المصادر كان يصرف للجند مرتبات أو أرزاق ولكن لم توضح لنا تلك المصادر مقدار تلك الأرزاق، ولا كيفية استلامها نقداً أم عيناً، ولا وقت استلامها شهرياً أم سنوياً أم غير ذلك. من تلك الإشارات التي أوضحتها المصادر أن مالية زبيد في عهد علي الصليحي كانت ألف ألف دينار سنوياً خارجاً عن أرزاق الجند[6].

ومن حيث استخدام الجيش اليمني للرتب العسكرية نجد أنه كان يوجد بعض الرتب العسكرية مثل عرافة التي تولاّها سرور الفاتكي فقد كان ولي العرافة على طائفة من جند الدولة النجاحية[7].

نظام ابن مهدي العسكري: استخدم ابن مهدي نظاماً عسكرياً جديداً وهي

---

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 167، 178، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 408، د. محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 144. وقيل أن ذلك المبلغ في كل سنة وليس في كل شهر.

(2) عمارة: المفيد، ص: 167.

(3) عمارة: المفيد، ص: 208، 209.

(4) عمارة: المفيد، ص: 133.

(5) عمارة: المفيد، ص: 226.

(6) الخزرجي: العسجد، ص: 58.

(7) عمارة: المفيد، ص: 225.

مليكة الدولة لكل ما يحتاجه الجندي من سلاح وعدة وغيره. والدولة هي التي تقوم بكفاية الجندي بكل ما يحتاجه من غذاء وملابس له، ولأسرته وأهله. وما على الجندي إلا الطاعة الجبرية لكل التعاليم التي يصدرها ابن مهدي. ومن هذه التعاليم العسكرية الآتي:

1 ـ يحمل الجندي كل ما تغزله زوجته وبناته إلى بيت المال.

2 ـ يقوم ابن مهدي بكسوة الجندي وأهله ومن عنده.

3 ـ ليس لأحد من عسكره فرس يربطه في داره ولا عدة من سلاح وغيره تظل مع الجندي في غير وقت الحرب، بل الخيل تظل في اصطبل ابن مهدي والسلاح في خزائنه وعندما تحدث الحرب يُخْرج لهم الخيل والسلاح.

ومن التعاليم العسكرية الصارمة لابن مهدي:

1 ـ قتل المنهزم من عسكره.

2 ـ قتل من شرب الخمر.

3 ـ قتل من سمع الغناء.

4 ـ قتل من يزني.

5 ـ قتل من يتأخر عن صلاة الجماعة.

6 ـ قتل من يتأخر عن مجلس وعظه يومي الإثنين والخميس.

7 ـ قتل من يتأخر عن زيارة قبر أبيه.

وهذه التعاليم العسكرية الشديدة لابن مهدي كانت سارية على عسكره فقط دون الرعايا من الأمة[1].



رابعاً

الأسطول

لم تشر المصادر عن وجود أسطول بحري لليمن يدافع عن مدنها البحرية، فعندما هجم جيش صاحب جزيرة كيش على عدن أيام الزريعيّين رسا أسطولهم تحت جبل صيرة. فلم يحدث أن تعرض لهم أسطول يمني منعهم من دخول المرسى، فدخلوا المدينة دون مدافع[2]. وذلك رغم اشتغال أهل اليمن بالتجارة

(1) عمارة: المفيد، ص: 237، الخزرجي: العسجد، ص: 142.

(2) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 124، 125، د. محمد أمين صالح: بنو معن ثم زريع في عدن، ص: 329 ـ 332.

وامتلاكهم المراكب الكثيرة فقد كان يرسو في ميناء عدن في كل عام ما بين سبعين إلى ثمانين مركباً[1] وكان تجار عدن يملك البعض منهم المراكب العظيمة بجميع ما فيها من تجارة لا يشاركه أحد غيره[2].

ويرجع ذلك إلى أن الدويلات التي حكمت اليمن آنذاك، كان لا يوجد بها جيش عسكري نظامي لاستخدامها النظام العسكري القبلي في حروبهم، والذي يقتضي تجنيد رجالها أثناء الحرب فقط، وتركهم في وقت السلم يزرعون ويفلحون دون إخضاعهم إلى تقاليد عسكرية منظمة تلزمهم الاستمرار وتمنحهم العطاء، بل كانوا يخضعون لنظامهم القبلي المنظم للقبيلة فقط.

كما يرجع إلى أنه كان لا يوجد في اليمن آنذاك دولة موحدة لجميع بلدانها فقد كانت مقسمة إلى عدة دويلات متصارعة لا تستطيع معها اليمن حل مشاكلها الداخلية في صراعاتها المتعددة. كما أن اليمن لم تكن دولة مواجهة لبلدان معادية تملك أسطولاً بحرياً، يحتم عليها مجابهتها بقوى بحرية مثلها، ذلك كله فرض على اليمن عدم تمكنها من بناء أسطول بحري سواء للإتجاه نحو التوسع أو المجابهة لأي عدوان أو حتى الدفاع عن مدنها الشاطئية.

وعرفت اليمن الأسطول البحري منذ عهد الأيوبيّين، فعندما قدم توران شاه إلى اليمن أدخل معه أسطولاً، وهو عبارة عن عدة سفن سميت (بالشواني) وظلت هذه السفن راسية في ميناء عدن دون عمل لها لفترة طويلة تزيد على سنوات مما يدل على أن اليمنيّين غير محتاجين إلى استخدام الأسطول البحري آنذاك. وفي عهد السلطان طغتكين انتشر قراصنة البحر على طريق التجارة اليمنية إلى الهند، فأرسل طغتكين هذه الشواني لحماية التجار وتجارتهم على طول طريق عدن الهند البحري دون أن يأخذ مقابل ذلك من التجار. وفي عهد الملك المسعود بدأ يأخذ ضريبة على سفن التجار مقابل إرسال سفن الشواني لحمايتهم وحماية تجارهم[3] وهكذا استخدم الأسطول لحماية التجارة في اليمن وظل عمل الشواني في البحر إلى أن انتهت القرصنة البحرية في اليمن في أخريات العهد الأيوبي.

---

(1) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 144.

(2) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، دار صادر، بيروت، ص: 251.

(3) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 141، 142، كانت كل شونة واحدة مزودة بأبراج وقلاع للدفاع والهجوم وبها مخازن للمؤن والمياه العذب ومزودة بأكثر من مائة وأربعين مجدافاً وبها قاذفات النفط، ص: 167، د. توفيق سلطان، دراسات في النظم الإسلامية، طبع وزارة التعليم، جامعة الموصل، سنة 1988م، ص: 167.

من خلال استعراض النظام العسكري نجد أن الجيش اليمني كان معظمه جيشاً قبلياً غير نظامي. وأن القبائل كانت على عداء مع بعضها البعض. لذلك احتدم الصراع بين قبائلها ودويلاتها. فلم تتمكن أية دويلة اعتمدت على القبائل المتعادية من توحيد اليمن. أما الدويلات التي تمكنت أن توحدها فقد كان جيشها من عناصر قبلية غير متعادية. لذلك السبب كان توحيد اليمن. وعن التشكيلات العسكرية فقد كانت تتناسب مع طبيعة اليمن الجبلية ومعرفتهم لفن الحرب. أما أنواع الأسلحة فقد كانت مشابهة لأسلحة الجيش الإسلامي في الأمصار الأخرى.

الباب الثاني

الحياة الاقتصادية

الفصل الأول: الزراعة

الفصل الثاني: الصناعة

الفصل الثالث: التجارة

الفصل الرابع: النظام المالي

الـزراعـة

تناول فصل الزراعة التضاريس، والموارد المائية، وملكيّة الأراضي الزراعية، من ملكيّة خاصة، وملكية للدولة وأوقاف، وتناول العمل الزراعي من ري، وتسميد وحرث، وبذر، وحصاد، كما تناول نوعية المحاصيل الزراعية بالإضافة إلى المراعي الطبيعية والحيوانات، وسوف تكون دراستنا لذلك وفقاً لما أمدتنا به المصادر من معلومات لذلك العصر الذي نبحث فيه.



العوامل الطبيعية
في بلاد اليمن وأثرها في الحياة الاقتصادية

1 ـ التضاريس:

على الرغم من موقع بلاد اليمن في النطاق المداري فيما بين خطي عرض 12,5° ـ 17,5° شمال خط الاستواء[1]، إلا أن طبيعة البلاد من حيث وجود الجبال العالية والهضاب والسهول، وبالتالي الاختلاف في الارتفاعات أدّى إلى تنوع المناخ والإنتاج الزراعي واختلافهما من منطقة إلى أخرى، هذا بالإضافة إلى مدى توفر المياه الجوفية أو مياه الأمطار في بعض المناطق، ومن ناحية أخرى، فقد كان للمناخ والبيئة أثرهما على قدرات السكان في المناطق المختلفة، وأثر ذلك كله على الإنتاج بشكل عام.

كان الإنسان اليمني في بعض المراحل التاريخية قادراً على تسخير وتطويع العوالم الطبيعية لصالحه، مما ساعد على خلق مجتمع حضاري، فعمل مدرجات زراعية على معظم المنحدرات الجبلية كما عمل على الاستفادة من التكوينات الجبلية وجريان السيول بينهما، فأقام بين بعض هذه الجبال سدوداً مثل سد مأرب لحجز المياه لاستخدامها وفقاً لاحتياجاته.

غير أنه في بعض المناطق اليمنية كان الإنسان اليمني أسيراً لهذه العوامل

---

(1) د. محمد متولي: جغرافية اليمن الشمالي، جـ3، ص: 93.

الطبيعية فعجز عن إمكانية التأثير فيها، أو خلق نوع من التعاون بين سكان المناطق المختلفة مما كان سبباً في عدم قيام وحدة سياسية في كثير من الأحيان، فأثر ذلك على مستوى الفكر اليمني الحضاري.

وفيما يتعلق بالتكوين الجغرافي فكان يتكوّن من سهول وهضاب وجبال على النحو التالي: **السهل الساحلي الغربي**: وهو عبارة عن شريط يمتد على طول المنطقة المطلة على البحر الأحمر، والواقعة فيما بين الساحل ومناطق الهضاب والجبال التي تحده شرقاً، ويتراوح عرضها ما بين 30 إلى 70 كيلو متر[1]. ويطلق على هذا السهل اسم تهامة اليمن.

ويقطع هذا السهل من الشرق إلى الغرب عدة مجاري سيول تصب من المناطق الجبلية إلى السهل، وتكوِّن أودية متعددة في تهامة اليمن أشهرها على الترتيب من الجنوب إلى الشمال، مُوْزَع، رَسْيَان، نَخْلة، زَبِيد، رِمَاع، سِهَام، سُرْدُد، حَرَض، خُلَب، جَازَان، ضَمَد، بَيْش، وغيرها من الأودية الصغيرة[2].

وتعتبر تلك الأودية أكثر تعداداً للسكان من غيرها من مناطق السهول الأخرى، نظراً لتوفر المياه فيها وخاصة في مواسم المطر، كما تعتبر من أخصب مناطق اليمن وأكثرها صلاحية لإنتاج الغلات المدارية الحارة مثل الذرة والدخن والقطن والموز وغيره[3].

ووجدت في هذا السهل مُدن وقرى جذبت إليها السكان مثل المَهْجَم، والكَدْرَاء وحرض وبيش، سواء للعمل الزراعي أو التجاري، وأيضاً نشأت فيه عاصمة للحكم منذ أوائل القرن الثالث الهجري، هي زبيد التي استقطبت إليها العديد من العلماء والسّاسة والتجار والحرفيّين وغيرهم، كما يمر عليه طريقان تجاريان إلى خارج اليمن على امتداد السهل مما أدّى إلى وجود العديد من المحطات التجارية المتعددة.

السهل الشرقي الصحراوي: وهو السهل الممتد فيما بين حضرموت ونجران مجاوراً لصحراء الربع الخالي. وفي هذا السهل يوجد العديد من الأودية، تصب فيه كثير من مجاري السيول التي تتجمع من عدة روافد من سفوح جبال المناطق المجاورة لها غرباً، وهذه الأودية هي: بيحان، الجُوبَة، حَرِيْب، مَآرب، الجَوْف،

---

(1) د. محمد متولي: جغرافية اليمن الشمالي، ص: 152.

(2) د. محمد متولي: نفس المرجع، ص: 125 ـ 127، وحسين الويسي: اليمن الكبرى، النهضة العربية، القاهرة، 1962، ص: 18 ـ 22.

(3) د. محمد متولي: جغرافية اليمن الشمالي، ص: 214، 80.

نَجْران[1]، إضافة إلى أودية صغيرة أخرى. إلا أن معظم روافد تلك السفوح الجبلية الشرقية لليمن تصب في واديين هامّين هما وادي مأرب ووادي الجوف، لذلك نشأ في مأرب أعظم سدود اليمن لحجز المياه واستغلالها في الزراعة، وكان لذلك أثره في قيام حضارات قديمة متعددة. حيث كانت هذه المنطقة من أكثر مناطق اليمن اخضراراً وأكثرها ازدهاراً وحضارة منذ القدم. ولهذا كانت مزدهرة بالعمران والحياة البشرية آنذاك[2]، بما فيها من العديد من المدن والقرى. فلما انهار سد مأرب تأثرت المنطقة واندثرت المدن والقرى، وأصبحت من أقل المناطق اليمنية كثافة في السكان.

السلسلة الجبلية: وهي ما يطلق عليها جبال السَّرَاة أو نجد اليمن، وهي التي تخترق وسط اليمن وتمتد على طولها من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال مبتدئة من جبال المعافر جنوباً حتى آخر حدود اليمن شمالاً عند جبال الحجاز ويتراوح عرض تلك الجبال ما بين 100 ـ 150 كيلو متر، ويصل الارتفاع ما بين 1800 ـ 2000 متر فوق مستوى سطح البحر[3] وتكون تلك الجبال فيما بينها عدة وديان وقيعان تشتمل على أراضي ومدرجات زراعية خصبة.

وتعتبر هذه المنطقة من أكثر المناطق اليمنية أمطاراً، كما تكثر فيها الينابيع والعيون المائية التي تجري في كثير من أوديتها المختلفة[4]، لذلك تعتبر هذه السلسلة أكثر مناطق اليمن صلاحية للزراعة وإنتاجاً للمحاصيل والغلات المتنوعة التي تجمع ما بين مزروعات الأقاليم الحارة مثل الذرة الرفيعة، والذرة الشامية، والدخن، والموز، ومزروعات الأقاليم المعتدلة مثل العنب والقمح والشعير والبقولات[5].

كما تعتبر هذه المنطقة من أكثر المناطق اليمنية اعتدالاً في المناخ لا تميل إلى البرودة القاسية ولا إلى الحرارة الشديدة، مما جعلها من أكثر مناطق اليمن في الكثافة السكانية، حيث تزدحم في قيعانها وسفوحها ووديانها الكثير من التجمعات السكانية، وقد أسهمت تلك التجمعات بدور بارز في مختلف مظاهر الحياة الحضارية لليمن في الفترة موضوع الدراسة، حيث وجد بها الكثير من الأنشطة الزراعية والصناعية والفكرية.

وكان الطريق الممتد عبر سلسلة جبال السَّراة من الجنوب إلى الشمال من

---

(1) د. محمد متولي: جغرافية اليمن الشمالي، ص: 128، 129، الويسي: اليمن الكبرى، ص: 26، محمد الأكوع: اليمن الخضراء، ص: 54 ـ 56.

(2) عدنان ترسيسي: اليمن وحضارة العرب، منشورات دار الحياة، بيروت، ص: 12.

(3) د. محمد متولي: جغرافية اليمن الشمالي، ص: 83.

(4) د. نزتر الحديثي: اليمن في صدر الإسلام، ص: 39.

(5) د. محمد متولي: جغرافية اليمن الشمالي، ص: 256، 258.

الطرق التي يصعب استخدامها[1]، مما أدّى إلى عدم إمكان تحقيق الاتصال بين كثير من السكان، وبالتالي تأكيد العزلة، وتكوين وحدات قبلية منفصلة، واستمرار ظاهرة النزعة القبلية والعصبية. وصعوبة استمرار وجود دولة موحدة تضم شتات القبائل والمناطق المختلفة.

2 ـ الموارد المائية:

من المعروف أنه لا يوجد باليمن أنهار دائمة الجريان كمصر أو العراق، إنما تعتمد بصفة أساسية على مياه الأمطار التي تتجمع على شكل سيول في الأودية أو تحجزها السدود كسد مأرب من قبل، أو تخترقها التربة فتغذي الينابيع والعيون والآبار[2].

وتسقط الأمطار في اليمن صيفاً، وقد لاحظ ابن بطوطة ذلك وقال: «إن المطر ببلاد الهند واليمن والحبشة إنما ينزل في أيام القيظ»[3]. أي شهور يونيه (حزيران)، ويوليه (تموز) وأغسطس (آب) وجزء من سبتمبر (أيلول)[4] في حين يذكر ابن رسته أنهم «يمطرون في شهور الصيف شهراً واحداً وفي الخريف تمام أربعة أشهر ثم تنقطع الأمطار عندهم»[5]. أما ابن المجاور فيذكر أن نزول المطر في اليمن أكثر من تلك المدة بقوله: «وينزل الغيث في جبال اليمن ستة شهور»[6] وهو الأقرب إلى الصواب، حيث يوجد باليمن موسمان للأمطار أحدهما: رئيسي ويمتد من شهر يوليو حتى شهر سبتمبر، والآخر: ثانوي يتركز خلال شهري إبريل ومايو[7].

ثانياً

أنواع ملكية الأراضي الزراعية

وعن ملكية الأرض فقد تعددت أنواع ملكية الأراضي الزراعية في اليمن، بين ملكية خاصة وملكية الدولة، كما ظهر فيها أراضي الإقطاع والوقف.

(1) مجموعة: الأغا خان للعمارة، ص: 64.
(2) د. محمد متولي: جغرافية اليمن الشمالي، ص: 230 ـ 232.
(3) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص: 251.
(4) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص: 34، ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص: 152، الهمداني: الدافعة، ص: 118، 119، د. محمد متولي: جغرافية اليمن الشمالي، ص: 230.
(5) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص: 109.
(6) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 160.
(7) د. محمد متولي: نفس المرجع السابق، ص: 229، 230.

كانت أغلب ملكية الأراضي في اليمن ملكية خاصة موزعة بين الملاّك الصغار وهم أغلبية الملاّك، وملاك كبار وهم قلة يملكون أراضي واسعة[1] منهم على سبيل المثال: الوزير رزيق الفاتكي النجاحي ت 524هـ/ 1129م الذي كان يملك أراضي واسعة وكثيرة في زبيد حيث عجز الفقهاء عن تقسيمها بين ورثته لكثرتها[2]. والشيخ علي بن أحمد المعلم ت 596هـ/ 1199م، والذي كانت له أملاك واسعة في ذي جبلة وما حولها مثل المجرعة وضَرَاس وذي أَشْرَق وغيرها من الأماكن[3]. ومنهم الفقيه محمد بن الحسين وأخوه علي اللذين كانت لهما أراضي جليلة في الجهة القبلية في منطقة عواجة وهي عبارة عن وادٍ واسع[4].

ومن الضياع ما حصل عليه الشيخ حمير بن سعيد وهي عبارة عن ضيعتين كبيرتين ملكهما عن طريق الهبة، **أحدهما**: من عثمان العزي وهي ضيعة كبيرة في وادي ذو آل، **والأخرى**: من الوزير مَنِّ اللّه الفاتكي ت (10 جمادى الأولى 524هـ/ 27 مارس 1130م) وهي ضيعة العبادي بما فيها من زروع وأبقار، وهي ضيعة كبيرة تغني من يملكها، وكان سبب حصول الشيخ حمير على هاتين الضيعتين مقابل وساطته في تزويج الوزير مَنِّ اللّه الفاتكي من جارية عثمان الغزي المسمّاة (وردة) لأن حمير كان يعمل في تربية الجواري وبيعها وكان قد باع تلك الجارية إلى عثمان الغزي. وكان مَنُّ اللّه الفاتكي قد أُعجب بها وأرادها لنفسه، وفي نفس الوقت كان قد طمع في أخذ الأقطاع الذي منحه جياش للغز من يد عثمان الغزي، فتوسط فيما بينهما حمير بأن يتنازل عثمان الغزي عن جاريته الجميلة (وردة) لمَنِّ اللّه الفاتكي مقابل تنازل الآخر عن انتزاع الأقطاع منه، فتمت الوساطة وكان منح الضيعتين مقابل ذلك[5].

ووجدت أراضي تملكها الدولة في اليمن منها ما صار ملكاً للدولة عن طريق المصادرات أو الاستصفاء، ومنها ما هو عن طريق الشراء ومنها ما هو عن طريق زراعة الأراضي أو استصلاحها.

فمن الأراضي التي صارت ملكاً للدولة عن طريق الاستصفاء أو المصادرة هي

---

(1) بيوتروفسكي: اليمن قبل الإسلام والقرون الأولى للهجرة، تعريب محمد الشعبي، ص: 103. دار العودة، بيروت، ط1، 1987.

(2) عمارة: المفيد، ص: 212، 213.

(3) الخزرجي: العسجد، ص: 170.

(4) وطيوط: تاريخ المعلم وطيوط، ق: 3.

(5) عمارة: المفيد، ص: 215 ـ 220، الخزرجي: العسجد: 119 ـ 121.

أراضي الصوافي. وهي جمع صافية وهي ما صفيت لبيت المال[1]. ومن هذه الصوافي التي صادرتها الدولة منها ما كانت ملكاً لفرد بعينه، مثل ما استصفاه المفضل بن أبي البركان الحميري أحد حكام الدولة الصليحية، الذي استصفى أملاك الفقيه عبد اللّٰه بن عمرو بن إسحاق المصوع، وكانت صوافيه هذه في قرية ذي سفال في وادي ظبا وذلك سنة 480هـ/ 1087م[2] حيث كانت أغلب الصوافي القديمة بذي سفال مملوكة له[3]. ومنها ما كانت ملكاً لجماعة من الناس، مثل ما استصفاه طغتكين من أراضي النخيل المملوكة لأهل زبيد، وذلك عن طريق فرض زيادة الخراج عليهم إلى الحد الذي صاروا عاجزين عن دفعه، فلما عجزوا اضطرت جماعة منهم إلى الهروب نتيجة هذه الزيادة، فأمر طغتكين باستصفاء نخيل كل من هرب منهم لبيت المال. بذلك صارت أراضي النخيل في زبيد ملكاً للدولة عن طريق المصادرة[4].

أما الأراضي التي تملكتها الدولة عن طريق الشراء، بعض أراضي النخيل، فقد وجدت قطعتان من النخيل في تهامة كانتا من أحسن قطع النخيل بها، لهما صيت ذائع، **إحداهما**: تسمى (الفازة) **والثانية**: تسمى (القبة) فأمر الأتابك سُنقُر، ت (609هـ/ 1212م) عماله أن يزيدوا الخراج عليها، فأثقلت الزيادة أصحابهما وعجزوا عن أدائها، فتظلموا إليه فلم ينصفهم، بل طلب منهم شراءها فباعوها له بأبخس الأثمان، حيث كان يشتري الألفي نخلة بخمسمائة دينار، كل نخلة بدرهم. وقد كان أهل النخل أرادوا أن يتركوا العمل بالنخيل بعد البيع، إلا أن الأتابك سنقر أجبرهم على العمل بها. وعندما أحس أحد أصحاب النخيل بذلك الغبن الذي لحق بهم في شراء النخيل، فقام بقتل الأمير الذي تولّى الإشراف عليها من قبل الأتابك سنقر كي يعيد أراضي النخيل لأصحابها فلم يستطع، بذلك بقي النخل سلطانياً أي ملكاً للدولة[5].

كذلك وجدت في اليمن أملاك للدولة وهي التي زرعها الملك سيف الإسلام طغتكين الأيوبي ت 593هـ/ 1196م بأنواع الثمار حين أنشأ مدينة المنصورة قبلي الجند فقد قام بجلب الفواكه والخضروات إليها من بلدان مختلفة فزرعها من كل

---

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 168.

(2) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 275، 276، ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 96.

(3) بامخرمة: قلادة النحر، جـ3، ص: 601.

(4) الخزرجي: نفس المصدر والصفحة.

(5) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 91، 92، الخزرجي: العسجد، ص: 168 ـ 179.

صنف، ومن المزروعات التي جلبها من الهند الفوفل، والنارجيل، ومن السِنْد النَبَق، ومن الساحل اليمني قصب السكر والموز، ومن العراق الرُّمان والعنب والكثير من النخيل، ومن الديار المصرية الليمون والأترنج والنارنج، ومن الحجاز الدوم ـ المُقْل ـ كما جلب إليها العديد من السكان[1].

كما استصلحت أراضي زراعية، منها ما قام به السيد الفاضل القاسم بن جعفر العياني سنة 467هـ/ 1074م بإصلاح أراضي زراعية بالجوف وأجرى إليها الغيل الذي حوله من مجراه الجديد إلى مجراه القديم[2]. وأصلح الأمير ناصر الدين قارون في قرية رباك بلحج بستاناً جميلاً حفر به الآبار وغرسه بالنارنج والأترج والموز. كما غرس به الناخوذة عمر الأمدي سنة 615هـ/ 1218م شجر الشكي (التركي)[3].

وبرغم أن الأراضي الزراعية في اليمن كانت مملوكة أو موقوفة إلا أنه وجدت بها أراضي زراعية لا مالك لها ولا واقف مثل ما كان في سهل تهامة في منطقة (سفاكا) من القحمة في وادي ذوال حيث كان بها أرض زراعية واسعة، بها الكثير من أنواع الفواكه ليس لها أي مالك. من ذلك ما أورده ابن المجاور عن عقد بها مليء ومكتظ بالمزروعات قوله: «ويكون بهذا العقد النارنج والأترج والليمون والموز ضائع لا مالك له وهذه الأشجار بين أنهار وعيون»[4].

كذلك وجدت أراضي في اليمن على شكل إقطاعات، منها ما أقطعه الخليفة الأمين العباسي للأشراف العلويّين، وذلك عندما كثر الأشراف العلويون بأرض الحجاز، خرج قوم منهم إلى العراق وطلبوا من الخليفة الأمين أرضاً يقيمون عليها ويأكلون منها: (فأقطعهم من مكة إلى الهَلِّيَة طولاً ومن صعدة إلى ساحل البحر عرضاً). فاستمرت هذه الاقطاعات معهم إلى سنة 615هـ/ 1121م حينما انتزعها الأيوبيون منهم[5].

ومن ضمن إقطاعات الأراضي ما أقطعه جياش بن نجاح للمماليك (الغز) الذين استقدمهم لمساعدته في الحرب التي كانت مستمرة بينه وبين سبأ بن أحمد

---

(1) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 265.

(2) الجنداري: جامع الوجيز في وفيات العلماء أولي التبرير، ق53.

(3) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 105، العبدلي: هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، دار العودة، بيروت، ص: 2، 1400هـ/ 1980م، ص: 33.

(4) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 62.

(5) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 57.

الصليحي، حيث إن جياشاً طلب جيشاً من (الغز) سنة 486هـ/ 1093م، ليحارب بهم الصليحيّين فقدم إليه أربعمائة فارس يرأسهم عثمان الغزي، ثم قدم إليه آخرون مَرُّوا على الطريق من مكة إلى زبيد، فلما رأى كثرتهم خاف منهم فتخلص من أكثرهم وبقي منهم جميعاً أربعمائة وخمسون فارساً أقطعهم جياش وادي (ذو آل ورعيته من عك وبلاد الأشاعرة وعرضه يوم وطوله من الجبل إلى البحر يومان) واستمر هؤلاء (الغز) يستغلون هذه الأقطاع من سنة 486هـ/ 1093م إلى سنة 514هـ/ 1120م حينما تحسنت أحوالهم فغني بعضهم وتملكوا الأراضي بينما ظل البعض الآخر على الأقطاع وحل محلهم أولادهم على جزء منه والجزء الآخر ضم إلى قائدهم عثمان الغزي[1].

كما وجدت باليمن أراضي موقوفة أوقفت لأغراض متعددة منها وقف السيدة الحرة أروى بنت أحمد الصليحية، فقد أوقفت أرضاً زراعية في نواحي جبلة وحقل قتاب لتصرف غلاتها في شراء الفحول من البقر. كما أوقفت أرضاً أخرى لرعي المواشي[2]. كذلك أوقف المعز إسماعيل بن طغتكين وادي الضباب جنوب تعز ليصرف ريعه على المدرسة السيفية بتعز وذلك بعد موت أبيه طغتكين سنة 593هـ/ 1197م. كما أوقف أرضاً جيدة في زبيد للصرف على مدرسة الميلين بها[3].

كما كان يوجد في اليمن نظام تقبيل ثمار الأراضي الزراعية، والتقبيل هو قبول الشيء المعرض للبيع بمبلغ محدد يتم الاتفاق عليه بين البائع والمشتري على أن يدفع المبلغ بعد بيع الثمار، من ذلك ما كان يجري في زبيد فكان إذا طرح النخيل تقبل كل واحد من الناس كل على قدر طاقته (ويجيء إليه الناس من باب حرض إلى آخر أعمال أبين وينزل أهل الجبال إلى تهامة)[4].

وكان يوجد في اليمن أيضاً نظام رهن الأرض، من ذلك ما حدث في بلاد وادعة بنجران، فقد كان الرعية يرهنون أراضيهم لجيرانهم وكان التجار اليهود والنصارى هم الذين يقومون بهذا العمل، وكان إذا طلب أصحاب الأرض من اليهود إعادتها امتنعوا، واستمرت عملية الرهن قائمة إلى أن أصبحت أغلب أراضيهم في أيادي اليهود، وعندما حاول أصحاب الأرض استعادة أراضيهم بالقوة

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 215 ـ 217. لم توضح لنا المصادر المكان الذي قدم منها «الغز» ولكن ربما قدموا من المناطق الكردية أو من بلاد الغزنويّين.

(2) د. حسن سليمان: أروى سيدة ملوك اليمن، ص: 92، تاريخ اليمن السياسي: ص204.

(3) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 400 ـ 403.

(4) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 79.

من اليهود، احتمى هؤلاء التجار اليهود بأهل نجران وبالسلطان هشام بن نباته الكوكباني، فمنعوهم من استعادة أراضيهم، وفي عهد الإمام أحمد بن سليمان العلوي الذي تولّى إمامة الزيدية سنة 533هـ/ 1138م اشتكى أهل تلك الأراضي المرهونة إليه من هؤلاء التجار اليهود وقصوا إليه قصة رهن الأرض فقالوا له: (إن هذه الأموال جميعها من أجدادنا وآبائنا ومنا وإن الرجل منا إذا احتاج رهن الجربة في بعض قيمتها فإذا أتى بعد ذلك يستخرجها ممن هي في يده امتنع عليه وتأنى وظلم صاحبها وصارت جميع أموالنا في أيدي هؤلاء التجار) فحاول الإمام علاج هذه المشكلة، فطلب من اليهود إعادة أراضي الرعية، وعندما رفض اليهود أجبرهم الإمام على إعادة الأرض لأصحابها وإعادة نصف غلاة الثمرة لتلك السنة. وهكذا استطاع الناس استعادة أراضيهم من اليهود بتدخل الإمام[1].



العمل الزراعي

1 ـ نظام الري:

عمل اليمنيون على الاستفادة بمياه الأمطار، وذلك بإنشاء السدود والخزانات والصهاريج المتعددة. في المناطق المناسبة حتى اشتهرت بلاد اليمن بأنها بلاد السدود ومن أقدم سدود اليمن كما هو معروف سدّ مأرب المشهور وإلى جانبه وجدت سدود قديمة أخرى مثل سدّ الخانق بصعدة، وسدّ ريعان في وادي ضهر، وسدّ العرائس في لحج، وسدود أودية بيحان وجردان وعمد ويحصب[2]، كما استفاد اليمني من مياه الينابيع والعيون وحفر الآبار المتعددة لري أرضه. وعلى ذلك يوجد في اليمن أربعة طرق للري هي:

1 ـ الري بمياه الأمطار.

2 ـ الري بمياه السدود.

3 ـ الري بمياه الينابيع والعيون.

4 ـ الري بمياه الآبار.

وقد أوضح ابن رسته طرق الري بقوله: «وضياعهم أجل ضياع وأكثرها فاكهة وأحسنها عمارة وهي على ثلاثة أصناف صنف منها أعزاء وصنف منها على العيون

---

(1) سليمان الثقفي: سيرة الإمام أحمد بن سليمان، ق6، لم نعثر على ترجمة لنباته الكوكباني.

(2) د. يوسف عبد الله: أوراق في تاريخ اليمن، جـ1، ص: 15.

وصنف على الآبار يسقى منها بالإبل والبقر وصنف هي أسراها وأكثرها قيمة على ماء السد»[1].

أ ـ الري من سيول الأمطار:

يؤدي سقوط الأمطار على الجبال والمرتفعات إلى إنشاء مجاري لمياه السيول، وتعتبر هذه المجاري ملكاً عاماً لجميع من يملكون الأراضي على مجاري هذه السيول في أودية اليمن، ولا يجوز لأحد أن يملك مجرى هذه المياه أو المياه نفسها منفرداً دون الآخرين، كما لا يجوز للحاكم أو الإمام إقطاعها لأحد من الناس أو امتلاكها دون الآخرين[2] فهي من المنافع العامة.

والقاعدة العامة في ري أراضي المزارعين من مياه السيول، أن يتم ذلك حسب الدور بحيث يروي المزارع أرضه الأول ثم الذي يليه كل بحسب دوره[3] حتى يروي جميع المزارعين أراضيهم، وليس لأحد حق أن يحجزها أو يحل في الدور قبل غيره[4].

وفي حالة قلة مياه السيول وعدم غزارتها أو كفايتها، تروى الأراضي الزراعية الأولى، فالتالية لها بحسب دور كل واحد إلى حيث تنتهي مياه السيول، فتوضع علامة عند انتهاء ري الأراضي الزراعية، وعندما تأتي سقطة المطرة الثانية، يبدأ الري من حيث انتهى ري مياه المطرة الأولى، وهكذا حتى ينتهي سقي الوادي كله. وهكذا يجري في كل مرة تقديم الأعلى فالذي يليه، بحسب دور كل واحد منهم[5]. تلك الطريقة في حالة تتابع سقوط المطر قبل أن يبدأ ضمور زرع المطرة الأولى، أما إذا تأخر جريان مياه المطر على المجاري ويبدأ يضمر زرع المطرة الأولى، يبدأ سقي أعلى أراضي الوادي ثم الذي يليها بحسب دورها إلى حيث ينتهي جريان مياه الأمطار أو السيول بدلاً من التتابع من حيث انتهت المطرة الأولى. وذلك لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الزرع[6].

---

(1) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص: 112.

(2) الشيلي: المشروع الروي، ص: 152، حسين الأهدل: كشف القناع في معرفة أحكام الزرع، تحقيق الحبشي مجلة الإكليل عدد (1) سنة 1980م، ص: 116.

(3) الشيلي: المشروع الروي، ص: 152، حسين الأهدل: كشف القناع في معرفة أحكام الزرع، ص: 116.

(4) حسين الأهدل: نفس المصدر والصفحة.

(5) الشيلي: المشروع الروي، ص: 152.

(6) الشيلي: المشروع الروي، ص: 152.

ب ـ الري عن طريق السدود:

تقام السدود على فتحات جبال تتجمع إليها المياه من منحدرات متعددة، وتكون هذه السدود قريبة من الضيعات، وفي موضع مرتفع عنها، حتى يسمح بانحدار المياه إليها بسهولة، ويوضع أسفل هذه السدود فتحة لكل سد تغلق حتى يمتلئ السد بالمياه ثم تفتح ليخرج منها الماء وتسير إلى الأراضي التي أسفله، لذلك فالسد ملكهم جميعاً، ويوضح ابن رسته أن الري عن طريق السدود هو أكثر أنواع الري المستخدمة في اليمن[1].

جـ ـ الري عن طريق الغيول والينابيع:

توجد كثير من الغيول في المناطق الجبلية في اليمن، وهي عبارة عن ينابيع أو عيون تخرج منها المياه في موسم المطر، وتنضب في انعدامها. والنظام المتبع في ري الأراضي الزراعية أسفل هذه الغيول أو الينابيع، هي أن يبني المزارعون بالتعاون فيما بينهم كل على قدر حصته سداً أو خزاناً أو بركة بالحجر قريبة من مياه العين، ويكون مستواها أسفل من مستوى مخرج مياه العين كي تتجمع إليها المياه الخارجة من العين، ويضعون لهذه البركة فتحة أسفلها تسمح بخروج المياه منها، وتوضع لهذه الفتحة صمام تحكم يفتح ويغلق عند الحاجة، ويوجد أسفل فتحة البركة قناة رئيسية لتوصيل المياه تمتد عبر الأراضي الزراعية المراد سقيها[2].

ويعد المجرى الرئيسي ملكاً عاماً لجميع المرزاعين[3]، أما المجاري الفرعية فهي عادة ما تكون ملكاً خاصاً لأصحاب الأراضي، وإذا كانت هناك أراضي داخلية تسقى عن طريق أراضي أخرى، فإن المجاري الفرعية عبرها قد تشترى، أو تستأجر، أو يسمح لهم بها، وذلك حسب العادة والاتفاق[4].

ونظام توزيع مياه الغيل على المزارعين هو نظام الحصص أو الأسراب، وهو النظام الذي يتحصل بموجبه كل مزارع على نصيبه من مياه الغيل على قدر حيازته للأراضي الزراعية[5].

---

(1) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص: 112.
(2) الأهدل: كشف القناع في معرفة أحكام الزرع، ص: 127 ـ 131، د. محمد متولي: جغرافية اليمن الشمالي، ص: 250، 251.
(3) الشيلي: المشروع الروي، ص: 152.
(4) الأهدل: كشف القناع في معرفة أحكام الزرع، ص: 127 ـ 131.
(5) حسين الأهدل: كشف القناع في معرفة أحكام الزرع، ص: 116، د. محمد متولي: جغرافية اليمن الشمالي، ص: 248، 249.

وعادة ما تملأ البركة أو الخزان على قدر غزارة مياه الغيل فتارة يمتلئ بنصف نهار، وتارة بيوم كامل، وتارة أخرى بأقل أو أكثر، وقد تحسب حصص أو أسراب المزراعين بالأيام أو بعدد مرات امتلاء البركة[1].

ويتولّى الإشراف على توزيع المياه رجل له خبرة في حصص كل أرض وأوقات امتلاء البركة بالمياه. يختاره المزارعون، ويقوم بمراقبة حصص كل فرد، وترتيبهم في أخذ المياه وفض النزاع الذي قد ينشأ بين المزارعين بشأن أحقيتهم في المياه وترتيبهم[2].

ويوضح الهمداني طريقة الري من الغيول في وادي ضهر بصنعاء كمثل لما يجري عليه الري بواسطة الغيول في اليمن. بأن تروى الأرض الأول فالأول، ولا يقدم فيها سلطان على يتيم أو ذمي، حتى ولو لم تكن أرضه مزروعة، وإذا حاول بعض خدم السلطان أن يجروا الغيل إلى أرضه بغير معرفة وعلم المشرف (الدائل) تهدم غرس السلطان كلها مهما بلغت قوته، وإذا كان لأي فرد في الوادي ضيعة بور (صلب) وكان صاحبها في بلاد الروم أو غيرها، فلا بدّ أن تسقى أرضه إذا حلّ وقتها حتى ولو لم يكن بها زرع، ويكون توالي ري الأرض الزراعية من أسفل الوادي إلى أعلاه، ومن أعلى إلى أسفل وهكذا[3].

وفي حالة ري الأرض سواء من الغيول أو السدود، فإن الأرض تسوى تسوية جيدة، بحيث تعمل الأرض أحواضاً، وطريقة وضع الأحواض أن تقسم الأرض أقساماً تشبه الأحواض، وذلك بأن يضع خطاً بالمحراث (أتلام) خطاً أو تلماً مستوياً، ويزيد بجانبه خطاً أو تلماً آخر، بحيث يكون ما بين الخطين مرتفعاً، وهو ما يسمى عريم أو كفل أو زبير، ثم يترك بعده مسافة حسب رغبته في تقسيم الأرض من حيث قوة وضعف المياه التي يروى بها. وبعد ترك المسافة تضع تلماً أو خطاً بالمحراث وبجانبه خطاً آخر حتى يكون له ارتفاع، وبنفس الطريقة يعمل في الطرف الثالث والرابع حتى تتكوّن له أحواض إما مربعة، أو مستطيلة وذلك بحسب المسافة التي تركها[4].

---

(1) د. محمد متولي: نفس المرجع، ص: 248 ـ 251.

(2) د. محمد متولي: نفس المرجع، ص: 246، 247.

(3) الهمداني: الإكليل، 8/ 121، 122، د. محمد أمين صالح: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 204، 205.

(4) الأشرف عمر بن رسول: ملح الملاحة في معرفة الفلاحة، تحقيق محمد عبد الرحيم حازم، مجلة الإكليل، ص: 77. (أتلام) كل شق في الأرض كخط المحراث (ج) تلم، المعجم الوجيز، ص: 77.

ويختلف ري الأرض من محصول إلى آخر، ففي بعض أنواع الزرع قد تفرغ الأحواض عند مجرد امتلائها بالماء في نفس اليوم، وفي بعض أنواع الزراعات تسد الأحواض ليستقر الماء فترة طويلة، وتظل بها حتى تجف، مثل زراعة الأرز[1].

د ـ الري من الآبار:

كذلك اعتمد اليمنيون على الآبار في ري أراضيهم، فيرفعون مياه الآبار عن طريق الإنسان أو الحيوانات المختلفة، مثل الإبل والبقر[2] والحمير، أو غيرها وذلك عن طريق ربط الدلو بطرف حبل طويل، والطرف الآخر يربط في الحيوان فينزل الدلو في البئر ثم يجره الحيوان ويفرغه في أحواض أو صهاريج بجانب الآبار ويستمر الإنزال والرفع حتى تتجمع فيها المياه، ثم ترسل إلى الضيعات عن طريق سواقي معدة لري الأرض، وقد أوضح ذلك ابن بطوطة بقوله: «إنهم ـ أي اليمنيون ـ يعتمدون في ري أراضيهم على آبار شديدة العمق ولكي يقوموا بهذا العمل فإنهم يربطون دلواً كبيرة بعدة حبال ويشدون أطرافها الأخرى إلى حزامات عبيد ذكوراً وإناث فيجر هؤلاء الدلو متسلقين عموداً من خشب أقيم حول البئر ثم يصبون الماء في صهريج ينطلق منه الماء لري الأرض»[3]. وكانت أراضي تهامة هي إحدى الأراضي التي تروى عن طريق الآبار[4].

2 ـ التسميد (تسميد الأرض):

استخدم اليمنيون السماد الطبيعي في تسميد أراضيهم، وقد وصف صاحب كتاب (ملح الملاحة في معرفة الفلاحة) أنواع السماد الطبيعي الجيد، فذكر أن أجودها هو زبل الحمام وسرقين الطير ـ عدا طير الماء مثل البط ـ ثم أجود أنواع السماد مرتبة هو سرقين الخيل والبغال والحمير ثم الضأن والماعز ثم البقر[5].

وإذا خلط السرقين أو ما يسمى الدمان بعضه ببعض كان سماداً جيداً، وإذا خلط السرقين بثلاثة أمثاله من التراب صار سماداً جيداً للزراعة، وكانت أراضي المحاصيل الزراعية في اليمن مثل أراضي (القمح) تسمد بالسماد الجيد قبل الحرث ثم يحرث عليه، وذلك بأن ينثر الدمان (السماد) على طول الجربة ثم تحرث[6].

---

(1) الأشرف عمر بن رسول: ملح الملاحة في معرفة الفلاحة، المصدر السابق، ص: 178 ـ 184.
(2) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص: 112.
(3) نقلاً عن د. محمد سعيد العطار: التخلف الاقتصادي والاجتماعي باليمن، ص: 170.
(4) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 59.
(5) الأشرف عمر بن رسول: ملح الملاحة في معرفة الفلاحة، ص: 176.
(6) الأشرف عمر بن رسول: نفس المصدر والصفحة، والسرقين: هو ما يسمى الدمان وهو روث الحيوانات.

3 ـ الحرث:

تحرث الأرض المسمدة عادة في غير وقت الندى، وذلك عندما تضربها الشمس وتجف منها المياه، وتحرث بحسب نوعية التربة من جودة وضعف، وعلى قدر صلابتها ولينها، وعلى حسب نوعية المحاصيل الزراعية، فمثلاً في زراعة البُر تحرث أرضه جيداً، وفي الدخن تحرث الأرض مرتين، أو ثلاث مرات، وفي السمسم تحرث أربع أو خمس مرات، وفي زراعة الفَوَّة تحرث الأرض مرات كثيرة قد تصل إلى عشرين مرة، وقد تحرث الأرض مرة واحدة في المناطق الجيدة التربة ثم تبدأ عملية الزراعة بها[1].

ويختلف وقت الحرث من منطقة إلى أخرى في اليمن، وذلك بحسب المناخ من حرارة وبرودة واعتدال، أو حسب موسم زراعة المحاصيل بها. ففي بعض المناطق يترك الفلاح الأرض ترتوي بماء الأمطار في آخر تموز وأول آب ثم يتركها لتجف مياهها، ثم تبدأ عملية الحرث في آخر أيلول، وتحرث مرة ثانية في تشرين أول وثالثة في تشرين الثاني، ثم تبدأ عملية بذر المحاصل في كانون أول[2].

وفي بعض المناطق اليمنية تبدأ عملية الحرث في آذار ثم تحرث مرة ثانية في نيسان وثالثة في أيار، ثم تبدأ عملية بذر المحاصيل في شهر حزيران[3].

وتستخدم الثيران أو غيرها للحرث بأن تركب آلة الحرث يجرها ثوران أو جمل أو غيرها، وعند الحرث يوضع خط الحرث بجوار الخط الآخر بحيث تكون مقاربة بعضها إلى بعض، أي أن تراب خط الحرث الثاني ينقلب على شق الخط الأول، فإذا حرث الحرثة الأولى بالطول يحرث الحرثة الثانية بالعرض مقاطعة للحرثة الأولى، وذلك كي يسمح بتقليب التربة وتصفية الحشائش منها وتوزيع السماد عليها[4].

ويستمر الحرث في أثناء الزراعة لبعض المزروعات مثل الذرة الرفيعة والدخن، فبعد أربعين يوماً من البذر تحرث الأرض المزروعة، بأن يمرّ المحراث وسط الزرع في المكان الذي جعله فارغاً من الزرع، والذي سمي كفلاً أو عريماً بحيث يشكل خط الحرث شقاً أو انخفاضاً، ثم يوضح خط الحرث الثاني بجانب الزرع من الجهة الثانية، حتى يصبح الزرع على ارتفاع (كفل) وشق الحرث (التلم)

(1) الأشرف عمر بن رسول: ملح الملاحة في معرفة الفلاحة، ص: 187، 188.
(2) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 317، الهمداني: الدامغة، ص: 120.
(3) الأشرف عمر بن رسول: ملح الملاحة في معرفة الفلاحة، ص: 177.
(4) الأشرف عمر بن رسول: نفس المصدر، ص: 178.

فارغ من الزرع، ويسمى هذا الحرث في الجبال (بالكحيف) وفي تهامة يسمى (الشتاه)، وبعد شهرين من الحرث المسمّى (الكحيف) تحرث الأرض المرزوعة مرة ثانية في المناطق الجبلية، أما تهامة فتكتفي بحرثة واحدة، فيوضع شق الحرث (التلم) مكان شق الحرث السابق لأن التراب قد ردمها (غطاها) بحيث يرفع الزرع مرة ثانية كما عمل في المرة الأولى، وتسمى هذه الحرثة الثانية في الجبال (بالخلفة أو الجلاب). والحرث أثناء الزراعة يساعد على عملية ري الزراعة والاحتفاظ بالماء من خلال الشق (التلم) كما يساعد على تنقية الأرض من أنواع الحشائش والأشجار فتجود الزراعة في الأرض وتنتج أكثر[1].

تعتمد أوقات الزراعة في اليمن على الأشهر الشمسية ونورد هنا أسماء هذه الأشهر مع ما يقابلها بالرومية ما الآتي:

اسم الشهر	عدد أيامه	مقابله	اسم الشهر	عدد أيامه	مقابله
كانون الثاني	31 يوماً	يناير	تموز	31 يوماً	يوليو
شباط	28 يوماً	فبراير	آب	31 يوماً	أغسطس
آذار	31 يوماً	مارس	أيلول	30 يوماً	سبتمبر
نيسان	30 يوماً	إبريل	تشرين أول	31 يوماً	أكتوبر
أيار	31 يوماً	مايو	تشرين الثاني	30 يوماً	نوفمبر
حزيران	30 يوماً	يونيو	كانون أول	31 يوماً	ديسمبر

وفي بعض المناطق اليمنية لا زالت بعض الأشهر الحميرية تستخدم بها مثل شهر مَبْكَرْ عن شهر أيار، مايو ،وعلاَّن عن شهر أيلول، سبتمبر[2].

4 ـ البذر:

تتم عملية البذر بحسب نوعية المحاصيل المزروعة، وحسب نوعية الأرض. فالبُر (القمح) يبذر (يسفح) والأرض ندية من المطر، ليست ملطة من شدة المطر، ويكون البذر متوسطاً بحيث يقع في موضع وطأ القدم بقدر سبع حبات أو ما يقاربها، ويحرث على البذر حتى يغطى بالتراب، وإذا كانت الأرض جيدة يكثف بذرها ولا يخفف، أما الأرض المتوسطة في الخصوبة فيوسط بذرها ولا يرق

(1) الأشرف عمر بن رسول: ملح الملاحة في معرفة الفلاحة، ص: 182، 183.

(2) الأشرف عمر بن رسول: المصدر السابق، ص: 175.

(يخفف)، وفي الذرة يبذر والأرض متوسطة بين الرطوبة والجفاف[1] وفي الطهف يبذر قبل أن يجف الماء من على وجه الأرض[2].

وطريقة البذر في الذرة بأن يوضع خط الحرث (التلم) مستقيماً مستوياً، كل خط مستقيم بجانب الخط السابق له غير منطرح عليه بحيث يشكل ما بين الخطين إرتفاع (كفل) ثم يبذر الحب داخل الشق (التلم) أو خط الحرث، بأن ترمى ثلاث أو أربع أو خمس حبات من بين الأنامل، في كل خطوة، في أثر آلة الحرث (المحراث) حتى يغطى الحب بالتراب، وإذا لم يغطه التراب يطأ الباذر بقدمه حتى يغطى الحب، وتعتمد وطأة الباذر على الحب بقدمه أو عدم وطأته لها على خفة التراب وثقله من حيث تغطية الحب أو عدمه[3].

5 ـ الزرع والحصاد:

ويختلف نمو المحصول الواحد من منطقة إلى أخرى، فالبُر الأبيض والبُر المسمّى الهلبا يزرع في المناطق الباردة، فيستغرق مكوثه أي نموه إلى حصاده أربعة أشهر إلى أربعة أشهر ونصف، والبُر المسمّى الوسني يزرع في المناطق المعتدلة ويستغرق ثلاثة أشهر ونصف[4]، والشعير في مأرب تستغرق مدته حوالي الشهرين[5]. والذرة التي تزرع في المناطق المعتدلة والحارة يختلف وقت بقائها من منطقة إلى أخرى، ومن نوع إلى آخر، فالذرة البيضاء والصفراء تستغرق مدتها خمسة أشهر كما هو في تهامة، وبعضها يستغرق أربعة أشهر وسبعة أشهر كما هو في الجبال[6]، وهكذا تختلف مدة بقاء المحاصيل في الأرض بحسب التربة والهواء ونوع الزرع.

وقد يزرع المحصول الواحد في بعض المناطق مرتين أو أكثر في أوقات مختلفة، في حين يزرع في بعض المناطق مرة واحدة، فمثلاً البُر المسمى الوسني الذي يزرع في المناطق المعتدلة، يزرع في أول تموز، ويزرع في نصف تشرين أول إلى نصف تشرين الثاني، ويزرع في كانون أول إلى كانون الثاني[7].

---

(1) الأشرف عمر بن رسول: المصدر السابق، ص: 178 ـ 192.
(2) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 317، الطهف: حبته أصغر من الدخن.
(3) الأشرف عمر بن رسول: نفس المصدر، ص: 182.
(4) الأشرف عمر بن رسول: ملح الملاحة في معرفة الفلاحة، ص: 177، 178.
(5) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ص: 35.
(6) الأشرف عمر بن رسول: نفس المصدر، ص: 181.
(7) الأشرف عمر بن رسول: نفس المصدر، ص: 180.

والذرة في تهامة تختلف زراعتها عن الجبال، ففي الجبال تزرع في نيسان لمرة واحدة، بينما في تهامة تزرع لعدة مرات في أوقات مختلفة، فتزرع في أول آب وأيلول، وفي 29/ آذار، وتزرع في تشرين أول، و16/ تشرين الثاني، والعشرين من كانون أول[1] وهكذا تتعدد زراعة المحصول الواحد في المنطقة الواحدة.

وفي بعض مناطق اليمن مثل مأرِب والجَوْف وبَيْحَان، فإن القطعة من الأرض (الجربة أو العقار) تمتلئ من السيل ثم تبذر بالطهف أو الدخن قبل أن يجف الماء من على وجه الأرض، وعندما ينضب ماؤها تبدأ عملية إنبات الزرع، وبعد الحصاد تحرث وتزرع مرة ثانية، ثم ثالثة، ولذلك فهي تصلح للحرث والبذر مرة بعد أخرى فيستمر بها الإنماء والإنبات والحصاد مرات كثيرة[2].

ومن حيث تعدد المزروعات في الحقل الواحد، قد تزرع عدة أنواع من المزروعات دفعة واحدة مختلطة مع بعضها البعض، مثل السمسم واللوبيا والعتر والقثاء والبطيخ والقرع وغيره، فينبت كل محصول ويحصد حسب زمان استغراقه في الأرض الأول فالأول[3].

ومن أمثلة المزروعات التي تزرع عدة مرات في بعض مناطق اليمن مثل صنعاء تزرع الحنطة والعنب وتحصد في السنة دفعتين، ويزرع الشعير والأرز ويحصد من دفعتين إلى ثلاث أو أربع دفعات، ويحصد الموز كل أربعين يوماً، وهناك أنواع من الثمار يحصد على دفعتين في السنة[4]، ويضيف القزويني أنها تزرع في السنة أربع مرات، وتحصد كل زرعة في ستين يوماً، وتحمل أشجارها في السنة مرتين[5].

أما بعض مناطق اليمن وخاصة المدرجات الجبلية فهي لا تزرع إلا مرة واحدة، وذلك بسبب أن أراضيها لا تستطيع الاحتفاظ بالندى فترة طويلة، وهي تعتمد على استمرار هطول الأمطار فتزرع في موسم المطر فقط. فالزرع يمكث بها حتى يحصد مدة خمسة أشهر، وشهرين قبل البذر، تستطيع الأرض حبس الندى فتصبح فترة احتفاظ الأرض بالندى سبعة أشهر[6]، مع استمرار هطول الأمطار، أما

---

(1) الأشرف عمر بن رسول: نفس المصدر، ص: 181.
(2) الهمداني: صفة الجزيرة العربية، ص: 317، 318، د. أمين صالح: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 205.
(3) الهمداني: نفس المصدر والصفحة.
(4) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص: 109 ـ 111.
(5) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص: 65.
(6) الهمداني: الدامغة، ص: 122.

بقية الفترة، فتظل جافة، لذلك فهذه الأرض لا تزرع إلا مرة واحدة في العام.

وتزرع بعض الأراضي عدة مرات على الرية (السقية) الواحدة مثل أراضي مأرب وأرض دلتا السيول في تهامة، لما لهذه الأراضي من خصوبة وجودة، وقد أوضح ياقوت الحموي أن أهل (مأرب يزرعون على ماء جار يأتيهم من ناحية السد، فيسقون أراضيهم سقية واحدة، ثم يزرعون عليها ثلاث مرات في كل عام ويكون بين بذر الشعير وحصاده في ذلك الموضع شهران)[1] فمثلاً يبذر البُر في كانون أول ويحصد في آيار حتى ولو لم يصبه ماء[2].

من ذلك نستطيع القول أن هناك بعض أراض تحتفظ بنداها أو رطوبتها لفترة طويلة، فتزرع مرتان أو ثلاث أو أربع مرات، وبعضها لا تحتفظ برطوبتها أو نداها إلا قليلاً فتزرع لمرة واحدة وهكذا تنوعت زراعة المحاصيل في اليمن حسب نوعية التربة ـ وخصوبتها ونوعية المزروعات والطقس.

6 ـ المحاصيل الزراعية:

يزرع في اليمن أنواع كثيرة من الحبوب والفواكه والخضروات وقد اشتهرت بعض المناطق اليمنية بجودة الزراعة بها وكثرتها، من ذلك مثلاً كان مخلاف ذي جرة وخولان خزانة اليمن، وذمار ورعين والسحول مصر اليمن، لأن الذرة والشعير والبُر تبقى بها المدة الكثيرة[3] كما ذكر ياقوت الحموي حديث أحد رجال اليمن عن الزراعة بها قوله: «أما جبالها فكروم وورس وسهولها بر وشعير وذرة»[4] وعلى ذلك فإن أهم زراعة اليمن هي الذرة والشعير والبُر.

فيزرع باليمن أنواع الذرة البيضاء والصفراء والحمراء والغبراء[5]. فهي تزرع في تهامة وفي المناطق الجبلية في موسم الحر، وأشهر مناطق زراعتها هي السحول ورعين وذمار وخولان[6] بالإضافة إلى مناطق جبلية أخرى مثل شَهَارة[7] ومِسْوَر[8]

---

(1) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ص: 35.

(2) الهمداني: صفة الجزيرة العربية، ص: 317، الدامغة، ص: 120.

(3) ياقوت الحموي: المصدر السابق، جـ5، ص: 79.

(4) ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ5، ص: 448.

(5) الهمداني: صفة الجزيرة العربية، ص: 317، د. أمين صالح: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 305.

(6) ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ5، ص: 69.

(7) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ق: 34.

(8) القزويني: آثار البلاد، ص: 62.

والشَرْجَة والسَرْوات[1] وعَثّر ونَجْرَان[2]، كما تزرع في مأرب، والجُوْف وبَيْحَان[3] وغيرها.

ويزرع في اليمن القمح (الحنطة ـ البُر) بأنواعه الذي منه (المسمّى بالبُر العربي) وحبه أبيض رقيق الحب، والبُر الهلبا وحبه أبيض قصير والبُر الوسني وحبه أحمر، والبُر الحبشي حبه ما بين البياض والحمرة[4] وغيرها ويزرع في موسم اعتدال الطقس وبرودته، في مناطق شتى من اليمن، وأهمها هي السلسلة الجبلية لليمن وهضابها والسهول المجاورة لها بما فيها من وديان وقيعان، مثل صبر (تعز) والشعر والشوافي[5] والسحول ورعين وذمار وخولان[6]، وصنعاء ومأرب والجوف ونجران[7] وصعدة[8] وشهارة[9]، ومسور[10]، وما حولها مثل جبل تخلى[11]، وزرعت الحنطة والشعير في إقليم فشال على وادي رِمَع في تهامة سنة 623هـ/ 1226م[12]. كذلك زرع في نفس تلك المناطق الشعير والعلس[13].

كذلك زرع في اليمن النخيل في كل من مأرب[14] ونجران وجرش[15] وأهم منطقة في زراعته هي تهامة وخاصة زبيد وما حولها[16].

وتزرع أنواع الخضروات والفواكه في أنحاء اليمن، فقد كان معظم الفواكه

---

(1) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 86.

(2) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 318، 319، حمد الجاسر: كتب المنازل من روافد الدراسات في جغرافية جزيرة العرب، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، جـ1، ص: 231.

(3) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 318، 319.

(4) الأشرف عمر بن رسول: ملح الملاحة في معرفة الفلاحة، ص: 177، 178.

(5) الأشرف عمر بن رسول: نفس المصدر والصفحة.

(6) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ص: 69.

(7) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 317.

(8) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 206.

(9) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ص: 34.

(10) القزويني آثار البلاد، ص: 62.

(11) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 310.

(12) ابن المجاور، نفس المصدر، ص: 63.

(13) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 310، الربعي: نفس المصدر، ص: 34، القزويني: نفس المصدر، ص: 62، ياقوت: نفس المصدر.

(14) ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ5، ص: 68.

(15) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 86، الاصطخري: المسالك والممالك، ص: 26.

(16) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 91، 92.

التي تزرع بمصر تزرع في اليمن[1]. ونورد هنا مثلين أحدهما لصنعاء وهو ما يمثل زراعة المناطق الباردة والمعتدلة. والآخر لزبيد يمثل زراعة المناطق الحارة.

ففي صنعاء يزرع الرمان الحلو والحامض والممزوج، والسفرجل، والإجاص (البرقوق) والمشمش، والتفاح الحامض والممزوج، والخوخ (الفرسك) بأنواعه المسمّى الفارسي، والهندي، والحميري، والكمثري، والتين، والجوز، واللوز، والكروم (العنب) بأنواعه[2]، ويزرع فيها قصب السكر، وفستق، وبطيخ وقثاء، وأنواع الخضروات، والأترج[3]، كذلك يزرع بها ألوان الرياحين والورد والياسمين والنرجس وألوان السوسن[4]، وضروب من الزهور والورد والأنوار، والمردقوش (الزعفران)، والأس والمنشور، والعبيثران، والنمام، والأدرنون، والشاهترج، والباذيونه (البابونج) والأقحوان، والباقلا الخضراء (الفول) وجميع أصناف البقول وأنواع الحبوب[5].

وفي زبيد يزرع بها الكثير من الفواكه والخضروات وأنواع المشمومات والزهور مثل الرمان والتين، والبلس، والعنب، والعنباء، والنارجيل، القفر، والباذان، والنخيل المبسوطة على كل لون أصفر وأحمر وأخضر وتوني ومقصاب كما يزرع بها الموز بكثرة والليمون، والنارنج الحلو والحامض وزهرة اللينوفر، والفل الأبيض، والياسمين، وزهر النانج، وزهر الكاذي، والغافية (الحنون) والوُزّاب، والصبر والأترج الأصفر[6].

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، ص: 16.

(2) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص: 111، الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 314، الإكليل، ص: 120، 121، الرازي: تاريخ مدينة صنعاء، ص: 96، 97، ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 185، د. محمد أمين صالح: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 305. يوجد في اليمن أنواع كثيرة من العنب (الكروم) وقد ذكر ابن رسته قريباً من سبعين لوناً، الأعلاق، ص: 111، أما الهمداني في صيفة، ص: 314، يذكر أسماء عدة أصناف منها مثل العنب الملاحي، والدوالي، والأشهب، والدرانج، والتواسي، والزيادي، والأطراف، والعيون، والقوارير، والحرش، والتشاني، والنابكي، والرازقي، والصروع، والرومي، والوادبي.

(3) ابن رسته: نفس المصدر والصفحة.

(4) ابن رسته: نفس المصدر والصفحة، ابن المجاور: نفس المصدر والصفحة.

(5) الرازي: نفس المصدر والصفحة، الأقحوان: نبت زهره أصفر وأبيض، ورقه كأسنان المنشار، ومنه البابونج، المعجم الوجيز ص: 21، النمام: نوع من النعنع يسمى نعنع الماء، المعجم الوجيز، ص: 636.

(6) ابن الديبع: بغية المستفيد، ص: 34، ابن الوزير: الدر المنثور، جـ1، ق4.

ويزرع الورس في مذيخرة[1]، واللبان في الشحر[2]، وقد ذكر القزويني عن الأصمعي أن: (أربعة أشياء ملأت الدنيا لا تكون إلا باليمن، الورس، والكندر (اللبان) والخطر، والعصب)[3].

وكمثال لما تزرعه بعض المناطق اليمنية، يزرع الأرز الأبيض في شهارة[4]، وزرع في فشال سنة 624هـ/ 1227م ويزرع في تهامة السندروس وشجر الحنون، والتمر هندي، والإهليج[5]، ويزرع الحناء في وادي نخلة، والخيار، والقثاء والكزبرة في وادي الجنان[6].

ويزرع الصبر في حضرموت، وسقطرى[7]. كما يزرع في مأرب والجوف الحمص والكمون والسمسم (الجلجلان) الذي يعد أجود أنواع السمسم[8]. كذلك يزرع في حضرموت الكثير من النبق حيث إن الشجرة الواحدة تغل وقر خمسة أباعير (جمال)[9] وهكذا تنوعت الزراعة في اليمن.

درس الحبوب وخزنها:

استخدم اليمنيون أسلوب درس الحبوب وخزنها، فبعدما يحصد البُر يجفف بالشمس، ثم يرقن (يكوم) بحيث يكون ثماره من أعلى متجمعة وجذوعه من أسفل مفتوحة على شكل هرم، ولا يرقن (يكوم) إلا وهو مجفف ليس به شيء من رطوبة المطر أو الندى حتى لا يعفن أو يتلف، وبعد ثمانية أيام من رقنه (تكويمه) يفك ويداس بالمدواس بواسطة الثيران بربط حجر في المدواس وذلك بأن يكون بالحجر ثقب أو به خط دائري محفور يربط بهما الحجر، ويستمر الدرس حتى

---

(1) ابن حوقل: صورة الأرض، ص: 37، الإصطخري: المسالك والممالك، ص: 26.

(2) الإصطخري: نفس المصدر، ص: 27، المسعودي: نزهة المشتاق ج1، ص: 31، المقريزي: الطرفة الغريبة في أخبار وادي حضرموت العجيبة، ص: 40.

(3) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص: 65 ـ 69، الورس: نبت من الفصيلة القرنية ثمره مغطّى بغدد حمر، يستعمل لتلوين الحرير ونحوه لاحتوائه على مادة حمراء، المعجم الوجيز، ص: 665، الخطير: نبات يخضب به، والعصب، ضرب من البرود اليمنية، يعصب غزله ثم يصبغ ثم يحاك وهو يشبه الأرجوان الأحمر، محمد الأكوع: اليمن الخضراء، ص: 69.

(4) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ق: 34.

(5) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 62، 63، 81، 91.

(6) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 139 ـ 143.

(7) المسعودي: نزهة المشتاق ج1، ص: 31، ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص: 155.

(8) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 317، 318.

(9) المقريزي: الطرفة الغريبة في أخبار وادي حضرموت العجيبة، ص: 38.

يخلص الحب من التبن، ثم تذرى الحبوب على الرياح حتى يطير منها ما بقي من التبن، وعندما تذرى يمسح بين الفترة والأخرى وجه البُر المذرى بشجرة تشبه المكنسة، حتى يصفى (يزول) ما بقي من ركب التبن ومن السنابل التي لم تدرس. ثم يكومه كومة واحدة، ثم يكال ثم يرفع ليخزن، وذلك بعد أن يبرد من حر الشمس حتى لا يصيبه السوس، ثم يخزن بمخازن كُوَّتها (فتحاتها) مقابلة للشمال، بحيث لا تكون المخازن بجانب مسكن، أو مطبخ، أو نار، أو ضوء، أو دمان (سماد) أو قرب دواب، أو تبن، ولا تكون فتحاته إلى المشرق أو الجنوب حتى يسلم من السوس، وبنفس الطريقة تتم مع العلس الشعير مع فارق أن العلس والشعير يرقن (يكوم) من ساعته دون تجفيف. أما الذرة فيقطع سنابله من عيدانه ثم يداس وإذا كان قليلاً يخبط بالمخابط وعادة ما تكون مخازنه محفورة في الصفا الأملس[1].

النقاوي:

إذا أراد المزارع إعداد البذر للسنة القادمة، يختار من السنابل أحسنها وأكثرها حباً وأذكاها وأجودها، أي أنقى حباً فيضعها منفردة، ثم يضحيها حتى تنشف رطوبتها، ثم يخبطها بالمخابط وينظفها من القيش (أي السنابل)، ثم يحفظها في مكان جيد الهواء لا يناله حر الشمس ولا الرطوبة حتى لا يسوس، إلى أن يحول عليها الحول، وإلى أن يأتي موسم الزرع، يخرجها ويبذر بها[2].

الأضرار الزراعية:

تعرضت الزراعة في اليمن إلى أنواع متعددة من الأضرار التي تصيب الزروع وتتلفها، منها الجدمة (الحطمة)، والجراد، والأضراب (الصقيع) القحط، والجدب.

ففي سنة 421هـ/ 1030م اشتد القحط باليمن[3] وفي سنة533هـ/ 1138م أضرَّ الجدب بأرض وادي قتام، كما أضرَّت به الحطمة (الجدمة)، وكادت تقضي على أصول أشجار أعنابهم، كذلك أضرت الحطمة بأرض نجران سنة 533هـ/ 1138 ضرراً شديداً[4] كذلك وقعت حطمه عظيمة في تهامة سنة 556هـ/ 1160م[5] ووقع قحط عظيم باليمن سنة 655هـ/ 1257م نضبت المياه وقل الزرع وارتفعت الأسعار

---

(1) الأشرف عمر بن رسول: ملح الملاحة في معرفة الفلاحة، ص: 179 ـ 183.

(2) الأشرف عمر بن رسول: ملح الملاحة في معرفة الفلاحة، ص: 183، القيش: السنابل بعد تخليص الحب منه.

(3) عبد الباقي: بهجة الزمن، ص: 47.

(4) الثقفي: سيرة الإمام أحمد بن سليمان، ق: 6، 7.

(5) الخزرجي: العسجد المسبوك، ص: 137.

في صنعاء وصعدة، وهلك الكثير من الناس جوعاً، ومن شدة الجوع أكل الناس الكلاب[1]، كما اشتد القحط على المواشي فهلك الكثير منها[2]. وكثر الجراد في أيام الإمام أحمد بن سليمان، ففي وادٍ قرب صعدة، أضرَّ الجراد به ضرراً كبيراً[3]، كذلك أتى الجراد على بلاد حضرموت فأضرّ بزرعها، وكانت عادة الناس فيها يخرجون بالأكياس ليجمعوا الجراد[4].

كما عم الضريب (الصقيع) في كل ناحية من اليمن، فأضر بالزراعة حتى أدّى بهم الأمر إلى استئصال أشجار الأعناب من شدة الإضرار بها[5]، كذلك أضرت الرياح بالزراعة فقد حدث في نجران ريح الطرف لمدة 12 يوماً هلكت الكثير من الزروع والكروم[6].

رابعاً

المراعي والحيوانات

أ ـ المراعي:

وجدت في اليمن المراعي المتعددة لرعي الأغنام والبقر والإبل وغيرها منها ما كانت توجد طبيعية ومنها ما خصصها الإنسان للرعي.

وكانت معظم المراعي في اليمن هي مراعي طبيعية إذا نزل عليها المطر تنمو وتخصب ويقبل الناس للرعي بها، وتوجد هذه المراعي في كل أنحاء اليمن، من ذلك يوجد في حضرموت بالقرب من أحقاف الرمل أراضي للرعي إذا نزل عليها المطر أخصبت وكثرت بها المراعي، فتظل بها قبيلة الشماح مقيمة ترعى إبلها وأغنامها مدة الخصب[7].

كان الحال بصفة عامة في موسم الأمطار حيث تكسى الأراضي والجبال وغيرهما بالمزارع والحشائش فتستخدم مراعي للأبقار والأغنام وغيرها[8].

(1) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، جـ1، ص: 443.
(2) وطيوط: تاريخ المعلم وطيوط، ق: 3.
(3) الثقفي: نفس المصدر، ق11.
(4) المقريزي: الطرفة الغريبة في أخبار وادي حضرموت العجيبة، ص: 39.
(5) مجهول: تاريخ اليمن، ق: 40.
(6) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 122.
(7) المقريزي: الطرفة الغريبة في أخبار حضرموت العجيبة، ق: 41.
(8) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 310.

ومن ناحية أخرى فقد كان أصحاب الأراضي من الأفراد وكذلك رجال الدولة يخصصون مراعي للحيوانات، وذلك في المناطق المزدحمة بزراعة المحاصيل الزراعية، مثل أنواع الحبوب والخضر والفواكه من ذلك كان يوجد عقد شجر وغدير ماء بجوار مسجد الأشاعر في زبيد يستخدم لرعي البقر[1]. كما أن السيدة الحرة أروى الصليحية خصصت أرضاً لرعي البقر في ذي جبلة[2].

وكانت الأراضي المعدة للرعي ملكية عامة لجميع الناس إلا ما كان منها ملكاً للأفراد. ومن مهام الرعاة أنهم يرعون أنعامهم في المناطق المخصصة للرعي، ويمنعون أنعامهم من إتلاف مزارع الحبوب والفواكه المملوكة للغير[3].

ب ـ الحيوانات:

يوجد في اليمن أنواع متعددة من الحيوانات منها ما يستخدم للركوب ونقل البضائع والحروب مثل الخيول، والإبل، والبغال، والحمير، ومنها ما يستخدم للذبح واستخراج الألبان منه، مثل البقر والغنم وغيره.

فالخيول توجد في كل من (عنس) وتسمى الخيول العنسية نسبة إليها، وفي الجوف وتسمى الخيول الجوفية، كذلك يوجد بها الخيول الحجيجية والتي تشتهر بالصبر والصباحة، وتستخدم للقتال وحمل السلاح[4]. كما يوجد بها الخيول العربية الفائقة[5].

وتوجد الإبل في (أرحب بن الدعام) من همدان وتسمى الإبل الأرحبية وفي (مَهَرَة) في حضرموت وتسمى الإبل المهرية العيدية نسبة إلى العيد قبيلة في مهرة. كما يوجد بها الإبل المسمّاة الصدفية، والحرمية، والداعرية، التي تنسب إلى داعر من بلحارث، أو الصدف، أو الحرم، وكذلك توجد بها الإبل المجيدية نسبة إلى بني مجيد في موزع، وتعد الإبل المهرية المعنبرة من أجود أنواع الإبل في اليمن[6].

كذلك يوجد في اليمن البغال الجيدة للركوب والحمل[7]، ويوجد بها الحمير

---

(1) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 69.
(2) د. حسن سليمان: أروى سيدة ملوك اليمن، ص: 93، تاريخ اليمن السياسي، ص: 204.
(3) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 250.
(4) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 320، د. محمد أمين صالح: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 207.
(5) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ5، ص: 16.
(6) الهمداني: نفس المصدر والصفحة، د. محمد أمين صالح: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 206.
(7) القلقشندي: نفس المصدر والصفحة.

التي تستخدم لنقل البضائع وغيرها كما تستخدم للركوب، ومن أهم أماكن وجود الحمير حضرموت والمعافر، وهي أشهرها لما تتمتع به من الخفة والسرعة والمرح والنشاط والقوة[1].

ومن الحيوانات التي تستخدم لاستخراج الألبان والذبح البقر والأغنام، فمن الأبقار يوجد في اليمن في مناطق متعددة أهمها الجَنَدْ وخدير، وجبلان، وتسمى البقر الجَنَدِيَّة، والخديرية، والجبلانية، نسبة إليها، ويعد جلود البقر الجبلانية من أجود الجلود حيث يدبغ جلدها للنعال ويبلغ قيمة الجلد منها حوالي عشرة مثاقيل إلى عشرين مثقالاً. وتتصف هذه الأبقار بأن لها صيالة وحدة في قرونها وبأس وتقتل السباع، وهي ما تسمنها العرب من البقر، وتشتهر البقر الجندية والخديرية في ضخامة جسمها وقوتها وطيب لحمها، حيث يبلغ حجمها مبلغاً عظيماً. ويضيف الهمداني في وصف البقر الخديرية قوله: (وللسكاسك البقر الخديرية لا يلحق بها في العظم بقراً). ومن البقر الجندية ما يبلغ ثمن الثور منها ثلاثين ديناراً مطوقة، ويعد لحمه (أطيب من لحم الحمل الشهري في سائر البلاد لرقته، ولطفه ودسمه ولا يكون له رائحة)[2]. كذلك يوجد في جزيرة سقطرى ألوف مؤلفة من الحيوانات، الإبل، والبقر، والضأن[3].

كذلك يوجد في اليمن أنواع من الوحوش كالزرافي، والأسود، والغزلان[4]، وفي مأرب يوجد النعام والفهود والظباء والأيايل[5]. ومن الطيور الدجاج، والأوز، والحمام[6] كما يوجد في اليمن الكثير من القرود[7]. وعلى ذلك كان تنوع الحيوانات والمراعي.



خامساً

دراسة تاريخية لأنماط الزراعة في اليمن

في هذه الصفحات التالية دراسة تاريخية للعديد من المزروعات في اليمن،

---

(1) الهمداني: نفس المصدر والصفحة.

(2) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 269، 316، 320، د. أمين صالح: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 207.

(3) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 266.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ5، ص: 16.

(5) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 199.

(6) القلقشندي: نفس المصدر والصفحة.

(7) الإصطخري: المسلك والممالك، ص: 27.

مثل، القمح، الذرة الرفيعة، والرز، والقطن، والنخيل، والعنب، وقصب السكر، وغيرها وذلك من حيث بداية نشأة هذه المزروعات أو الموطن الأصلي لها، وزمن دخول هذه المزروعات إلى اليمن وأصنافها والأماكن الصالحة لزراعتها، وطرق ريها وذلك وفقاً لما أوردته بعض المصادر نوضح ذلك كالآتي:

1 ـ القمح الصلب (القاسي)

يعد القمح الصلب أحد محاصيل الحبوب القديمة، والذي انتشرت زراعته في كثير من مناطق العالم، التي يميل فيها المناخ إلى البرودة والاعتدال. وهو من المحاصيل الرئيسية للأفراد نظراً لارتفاع نسبة البروتين فيه وتعدد استعمالاته في التغذية[1].

وعن الزمن الذي عرفت فيه زراعة القمح الصلب فمن المعتقد أن أول بداية لمعرفة وجوده كانت في عصور ما قبل الإسلام. أما عن الموطن الأصلي لنشأة القمح الصلب، فيذهب الباحثون إلى اعتبار الحبشة أو الأجزاء الجنوبية والشرقية لحوض البحر المتوسط هي الموطن الأصلي لنشأة هذا النوع. أما القمح اللين أو الطري (الحنطة) فإن موطنه الأصلي أفغانستان[2]. في حين أن القمح الثنائي الحبة أو القمح المنتفخ فإنهما أكثر قدماً من القمح الصلب، وانتشرت زراعتهما في منطقة البحر الأبيض المتوسط[3].

وبالنسبة لانتشار القمح في شبه الجزيرة العربية فمن المحتمل أنه انتشر فيها في عصر الاحتلال الروماني لمصر عن طريق الحبشة، إذا اعتبرنا بالفعل أن الحبشة هي الموطن الأصلي لظهور هذا النبات[4]، وعلى ذلك فإن الحبشة وشرق البحر الأبيض المتوسط ووسط آسيا واليمن إذا لم تكن هي المراكز الأولى لنشأة نبات القمح الصلب، فهي المراكز الثانوية لتطور هذا النبات[5].

وأهل اليمن يستخدمون كلمة (البُر) للدلالة على القمح الصلب (القاسي) أوضح ذلك الهمداني الذي عاش في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي بهذه

---

(1) أندريوواطون: الإبداع الزراعي في بدايات العالم الإسلامي، انتشار المحاصيل والتقنيات الزراعية ما بين عامي 700 و1100 للميلاد، ترجمة أحمد الأشقر، منشورات جامعة حلب، معهد التراث العلمي العربي، ص: 44، 45.
هذا الموضوع زائد عن الرسالة.
(2) أندريوواطون: المرجع السابق، ص: 45.
(3) أندريوواطون: المرجع السابق، ص: 52.
(4) أندريوواطون: المرجع السابق، ص: 53.
(5) أندريوواطون: المرجع السابق، ص: 46.

العبارة التي أوردها صاحب كتاب الإبداع الزراعي بقوله: «البُر ليس هو نفسه الحنطة ذلك أنه إذا صنعت منه العجين وأردت بعد ذلك أن تقتطع قطعة من ذلك العجين فإن الجزء المجاور سينجر مع الجزء الذي تود اقتطاعه»[1]. أما عبارة الهمداني نفسها فهي: (ثم من البُر العربي الذي ليس بحنطة، فإذا ملك عجينه، ثم أردت قطع شيء منه تبع القطعة تابعة منه تطول كتابعة القبيط)[2].

وبالنسبة لري زراعة البُر في اليمن فبعضه يعتمد في سقيه على الأمطار وخاصة في الموسم الذي تهطل فيه الأمطار في اليمن في شهر يونيه، وبعضه يعتمد في ريّه على المياه الجوفية في شهر فبراير، وفي الغالب يسقى فيما بين ثلاث ريات، وفي المناطق الشرقية التي تزرع بالقمح في أكتوبر تسقى فيما بين أربع إلى ست ريات، خلال موسم النمو[3]. وعن كمية الأمطار فتناسب زراعة القمح المناطق التي تبلغ النسبة السنوية لسقوط الأمطار فيها ما بين 300 ـ 700 مللتر[4]، وهذه المناطق هي المرتفعات الجبلية لليمن وهي الهضبة الوسطى أما السهل الشرقي وسهل تهامة فتعتمد زراعة القمح فيها على مياه السيول ومياه الآبار.

وعن تسوية الأراضي المعدة لزراعة البُر (القمح الصلب) فإن الأراضي التي تسقى بالمطر لا تحتاج إلى تسوية. أما الأراضي التي تسقى بالغيول والعيون والآبار والسيول فإن زراعة القمح فيها تحتاج إلى تسوية[5]، وتتم التسوية بتقسيم الأراضي بعد ذريها إلى عدة أحواض ثم يسقى البُر (القمح) بالماء في هذه الأحواض بشكل متساوي ويجب تجنب بذر القمح والأراضي مغمورة بالماء[6]. كما يجب تجنب سقي زراعة القمح (البُر) أثناء هبوب الرياح الشديدة لأن ذلك يؤدي إلى ترقيد (البُر) القمح مما يقلل من المحصول[7].

أصناف القمح الصلب في اليمن:

يوجد في اليمن عدة أصناف من القمح الصلب (البُر) زرعت في العصر الإسلامي منها الآتي:

---

(1) أندريوواطون: المرجع السابق، ص: 46 ـ 51.

(2) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 317.

(3) عبد الله المجاهد: إنتاج المحاصيل، ص: 40.

(4) عبد الله المجاهد: المرجع السابق، ص: 25.

(5) عمر بن يوسف بن رسول: ملح الملاحة في معرفة الفلاحة، ص: 53، تحقيق عبد الله المجاهد، دار الفكر، دمشق، 1987.

(6) عمر بن رسول: المصدر السابق، ص: 53، 54.

(7) المجاهد: المرجع السابق، ص: 41.

١ ـ **الصنف الأول**: ويسمى (البُر العربي) ولون حبّه أبيض رقيق الحبة. ومن خلال اسم هذا الصنف وهو (البُر العربي) فمن المعتقد أنه انتقل إلى اليمن من الأجزاء الجنوبية والشرقية من حوض البحر الأبيض المتوسط. أو أن موطنه الأصلي اليمن نفسها. ويزرع هذا الصنف في اليمن في المناطق الباردة في أول حزيران (يونيو) ويستمر من بداية زراعته حتى حصاده أربعة أشهر. وغالباً ما يعتمد هذا الصنف في سقيه على الري الصناعي. إلا أنه يوجد نوع من هذا الصنف المسمّى (الدثاء) يعتمد في سقيه أحياناً على المطر الموسمي في كل من بلاد صبر ومخلاف جعفر (أب)[1].

٢ ـ **الصنف الثاني**: ويسمّى (الهلبا) ولون حبه أبيض قصير وليس على سنابله شيء من السفا ويزرع في مزارع البُر العربي وهي المناطق الباردة، وذلك في النصف من حزيران (يونيو) ومدة بقائه في التربة من يوم زراعته حتى حصاده ثلاثة أشهر ونصف[2].

٣ ـ **الصنف الثالث**: (البُر الحبشي) ومن خلال اسم هذا الصنف من المرجح أنه انتقل إلى اليمن من الحبشة. وحبه متوسط بين الطول والقصر ولونه بين البياض والحمرة، وهو في الجودة ما بين العربي والوسني. ويزرع هذا الصنف في أول حزيران (يونيو) وتمتد زراعته إلى أول تموز (يوليو)[3].

٤ ـ **الصنف الرابع**: (البُر الوسني) وحبه أحمر غليظ مذنب رزين وهو أجود أصناف البُر ويزرع في المناطق المعتدلة، ويسقى بعضه بالمطر، ويستمر بقاؤه في التربة من يوم زراعته حتى حصاده ثلاثة أشهر ونصف، ويزرع هذا الصنف في تعز معتمداً على سقيه على الغيول فيما بين نصف تشرين الأول حتى نصف تشرين الثاني (أكتوبر ـ نوفمبر)، كذلك يزرع نوع من هذا الصنف يسمى (القياض) في أول فصل الشتاء فيما بين كانون الأول إلى كانون الثاني (ديسمبر ـ يناير) ويعتمد في سقيه على الغيول، ويستمر من يوم زراعته حتى حصاده ثلاثة أشهر[4]. وهناك عدة أصناف أخرى من البُر في اليمن تسمى باسم المناطق التي تزرع بها.

---

(1) عمر بن رسول: المصدر السابق، ص: 49، 50.
(2) عمر بن رسول: المصدر السابق، ص: 50، 51.
(3) عمر بن رسول: المصدر السابق، ص: 50.
(4) عمر بن رسول: المصدر السابق، ص: 51 ـ 53.

2 ـ الذرة الرفيعة :

هو أحد المحاصيل العالمية التي عرفت منذ القدم. وحول الموطن الأصلي لزراعة الذرة فإن أقدم تأهيل لنبات الذرة وجدت في إفريقية في مناطق (تشاد والسودان وأوغندا). وذلك في الألف الثاني قبل الميلاد أو قبله. ثم انتشر إلى الشرق والجنوب الشرقي من أفريقية ومنها انتشر إلى الهند والجزيرة العربية[1].

وذكر ابن بطوطة في القرن السابع الهجري (الرابع عشر الميلادي) أن الذرة كانت المحصول الرئيسي حول ظفار[2]. وبالنسبة لكمية الأمطار فالذرة تنمو في المناطق التي تتراوح هطول الأمطار فيها سنوياً ما بين 300 ـ 600مم، كما يناسبه الجو الدافئ الذي تتراوح درجة حرارته ما بين 25 ـ 30 درجة مئوية[3].

أصناف الذرة الرفيعة :

يوجد في اليمن عدة أصناف من الذرة الرفيعة وكل صنف يختلف عن الصنف الآخر بشكل حبه ولونه، ومواعيد زراعته والمناطق التي تزرع بها وطرق ريه.

وقد أشار الهمداني في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) أنه يوجد في اليمن عدة ألوان من الذرة منها الذرة البيضاء والصفراء والحمراء والغبراء[4] وأيده في هذا الرأي عمر بن رسول الذي عاش في القرن السابع الهجري.

فالذرة البيضاء والصفراء تزرع في الأودية الحارة والمناطق المعتدلة التي تقرب إلى الحر. ووقت زراعتها في المناطق الجبلية في شهر نيسان (إبريل) ويستمر بقاء الذرة البيضاء والصفراء في التربة في المناطق الجبلية من يوم زراعته حتى حصاده مدة خمسة أشهر ونصف[5].

وهناك صنف من هذه الذرة يسمى (الشريجي) ولونه بين الأبيض والأصفر ويزرع في المناطق الجبلية المعتدلة والتي تميل أكثرها إلى البرودة. ويزرع هذا الصنف في وقت زراعة الذرة الصفراء والبيضاء في نيسان (إبريل) ويمكث من يوم زراعته حتى حصاده سبعة أشهر[6].

---

(1) أندريوواطون: الإبداع الزراعي، ص: 17.

(2) أندريوواطون: المرجع السابق، ص: 29، وأشار نيبو هـ، ص: 290 ـ 289 إلى أن نسبة البذر تساوي 4 ـ 1 في الجزء الساحلي من اليمن، الإبداع، ص: 26.

(3) المجاهد: المرجع السابق، ص: 74.

(4) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 317.

(5) عمر بن رسول: ملح الملاحة، ص: 61.

(6) عمر بن رسول: المرجع السابق، ص: 62.

كما يوجد صنف من هذه الذرة يسمى (الجعيدي) ولونه بين الأبيض والأصفر مع الميل أكثر إلى الأصفر. ووقت زراعة هذا الصنف أول آيار (مايو). ويزرع في منطقة السحول والعدين، ويستمر من يوم زراعته حتى حصاده ما بين أربعة أشهر ونصف إلى خمسة أشهر[1].

كذلك يوجد صنف من هذه الذرة يسمى (الغربة) ولونه بين الأبيض والأصفر مع الميل أكثر إلى الأبيض ومزارعه المناطق الجبلية الحارة ويزرع في حزيران (يونيه) ويستمر من يوم زراعته حتى حصاده أربعة أشهر[2].

أما صنف الذرة الحمراء فيزرع في المناطق الجبلية الباردة ويزرع في نصف آذار (مارس) ويستمر من يوم زراعته حتى حصاده سبعة أشهر، ومن الذرة الحمراء صنف يسمى (البضعة) يزرع في الأودية التي تعتمد في سقيها على الغيول وتزرع في المواضع الكثيرة الأنداء والباردة. وموعد زراعته في أول نيسان (إبريل) ويقيم في التربة من يوم زراعته حتى حصاده سبعة أشهر. ومن هذه الذرة صنف يسمى (الصومي) يزرع خلال نصف شهر من بداية موسمه، ويمكث في التربة من يوم زراعته حتى حصاده مدة أربعة أشهر. وهذا الصنف هو الوحيد الذي يزرع ويحصد ثلاث مرات في السنة في اليمن[3].

وبالنسبة لزراعة الذرة في تهامة فيزرع فيها صنفان من الذرة هما البيضاء والذرة الحمراء ولها أوقات مختلفة في السنة.



أولًا
الذرة البيضاء

وهي نوعان، نوع يسمى (البديجا) ونوع يسمى (الحرجى) ووقت زراعته في وادي زبيد، ووادي رمع، ووادي سردُ، ووادي مورفي العشر الأول من آب (أغسطس) ومن هذا الصنف نوعان. نوع يسمى (الخامس) نسبة إلى خامس بنات نعش (اسم لموعد زراعة في اليمن) ووقت زراعته في وادي زبيد في أول أيلول (سبتمبر) ونوع يسمى (السابعي) نسبة إلى سابع بنات نعش. ويزرع في تهامة في التاسع عشر من أيلول (سبتمبر) ويزرع هذا النوع في معظم تهامة. ومنها نوع

(1) عمر بن رسول: المرجع السابق، ص: 62.
(2) عمر بن رسول: ملح الملاحة، ص: 63.
(3) عمر بن رسول: المرجع السابق، ص: 63.

يسمى (الزعر) يزرع في وادي سردُد، ووادي مور. وميعاد زراعته في التاسع والعشرين من آذار (مارس) وجميع زراعة الذرة في تهامة تستمر من يوم زراعتها حتى حصادها ثلاثة أشهر.

وبالنسبة لسقي زراعة الذرة في تهامة فهي تعتمد على طريقتين: **إحداهما**: الري عن طريق السيول والغيول، وبهما تروى معظم أراضي الوديان في تهامة. **وثانيهما**: الري على الأمطار، وتروى بها المناطق القريبة من الجبال والتي تهطل فيها الأمطار بنسبة كافية لزراعة الذرة[1].

ثانياً
الذرة الحمراء

ويزرع هذا الصنف في وادي زبيد، ووادي رمع، والمناطق المجاورة لها، ووقت زراعته مواعيد زراعة الذرة البيضاء في تهامة. ومن هذا الصنف عدة أنواع لكل منها موعد مختلف في زراعته. منها ما يزرع في السادس من تشرين الأول (أكتوبر) ومنها ما يزرع في السادس عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ومنها ما يزرع في العشر الأول من كانون الأول (ديسمبر) ومنها ما يزرع في أول أشهر الشتاء، وجميع هذا الصنف من الذرة الحمراء يقيم في التربة من يوم زراعته حتى حصاده ثلاثة أشهر. ويسقى بنفس الطريقة السابقة عن طريق السيول والغيول والأمطار[2].

3 ـ الرز (أَرز ـ أُرز):

هو أحد المحاصيل العالمية القديمة نشأ في المناطق المناخية الحارة. وعن موطنه الأصلي فمن المعتقد أن نمو الرز نشأ في الأراضي المستنقعة في جنوب شرق آسيا في المناطق الممتدة من شمال شرق الهند (البنغال) إلى جنوب الصين[3].

ومن المعتقد أن ظهور نبات الأرز يرجع إلى الألف الثالث قبل الميلاد. ثم انتقلت زراعته من جنوب شرق آسيا والصين إلى ما بين النهرين في القرن الثاني قبل الميلاد ومرة أخرى في العهد المسيحي الأول[4].

أما عن انتقال نبات الرز إلى اليمن فمن المعتقد أنه انتقل إليها في القرن

(1) عمر بن رسول: المرجع السابق، ص: 67، 68.
(2) عمر بن رسول: المرجع السابق، ص: 69.
(3) أندريوواطون: الإبداع الزراعي، ص: 39.
(4) أندريوواطون: المصدر السابق، ص: 32، 33، 39.

الرابع الميلادي. فقد ذكر أنه خلال القرن الميلادي الأول كان الرز يرسل كل سنة من الهند إلى سقطرى والقرن الأفريقي وبعد ظهور الإسلام انتشرت زراعة الرز في اليمن وبلاد العرب بشكل واسع[1]. ويزرع الرز في اليمن في العشر الأول من نسيان (إبريل) وهو موعد زراعة الذرة في بعض مناطق اليمن.

وعن طريقة زراعة الرز وسقيه في اليمن، أن تحرث الأرض وتقسم إلى عدة حقول أو أقسام أو قطع مفصولة عن الأخرى بحاجز ترابي، وذلك بهدف حجز المياه، وبعد الحرث والتسوية والتقسيم يرسل الماء على كل قطعة ويبقى الماء في القطعة غامراً لها حتى يتم للقطعة شرب الماء. وإذا شربت القطعة لأكثر الماء أو بقيت المياه في القطعة ليلة كاملة. يسفح الرز بقشره ويروى بالماء. ثم تبقى القطعة سبعة أيام أو ثمانية أيام بعد السفح، وعندما يبدأ ظهور نبات الرز يفتح لباقي الماء ليخرج من الحقول. ثم يجري تصفية الحقول من الحشائش. ثم يعاد سقيه بالماء قبل أن تجف أرضه. ويستمر الأرز من يوم بذره حتى حصاده ما بين ستة أشهر إلى سبعة أشهر[2]. والرز أحد المحاصيل التي تحتاج إلى مياه كثيرة. ولذلك غالباً ما يزرع في الأرض المروية أو المناطق المغمورة في المياه أو المستنقعة وطريقة ري الرز أن يغطى بالمياه تغطية مستمرة (منذ بداية زراعته حتى حصاده) وعملية سقي الرز وتغطيته بالمياه فيروى مرتين قبل أن ينش البذور ثم يروى مرتان كل أسبوع[3].

وقد يزرع الرز معتمداً على الأمطار في المناطق التي تكثر فيها هطول الأمطار. كذلك يزرع الرز بدون سقاية في المناطق ذوات الأمطار المناسبة كما أنه يمكن أن يزرع الرز بدون سقاية في المناطق الرطبة[4]. أما في اليمن فغالباً ما يعتمد ري الرز على السيول والغيول والعيون ونادراً ما يزرع على المطر.

4 ـ القطن (العطب):

هو أحد المحاصيل القديمة ظهرت زراعته في المناطق الحارة التي تبلغ درجة حرارتها ما بين. 2 ـ 35 درجة مئوية[5]. وعن الوطن الأصلي لزراعة القطن البري فهناك رأيان: **أحدهما**: يورد أن أول ما ظهر نبات القطن البري في الهند والباكستان وبلوخستان. **وثانيهما**: يشير أن الجزيرة العربية والسودان أو أجزاء أخرى من

---

(1) أندريوواطون: المصدر السابق، ص: 34 ـ 41.
(2) عمر بن رسول: ملح الملاحة، ص: 70، 71.
(3) أندريوواطون: المصدر السابق، ص: 225.
(4) أندريوواطون: المصدر السابق، ص: 225 ـ 237.
(5) عبد الله المجاهد: إنتاج المحاصيل، ص: 189.

جنوب الصحراء الكبرى والأراضي السهلية المحيطة بها هي الموطن الأصلي لظهور زراعة القطن[1]. ولكن من المعتقد أن المهد المحتمل لزراعة القطن البري كانت في الجزء الشمالي الغربي من شبه القارة (الهندية). ومنها انتشر إلى بقية العالم (آسيا ـ أفريقيا ـ أوروبا) في وقت مبكر جداً.

وعلى أية حال فإن القطن عرف على شكل عشب أو على شكل نبات يزرع من أجل استخراج الزيت من بذره ثم تطور ليصبح نباتاً ذا ألياف[2]. سواء أكانت الجزيرة العربية هي إحدى المواطن الأصلية أم أنه انتقل إليها من الهند أو غيرها.

وإذا كانت الهند هي الموطن الأصلي لنبات القطن البري فقد انتشر إلى شبه الجزيرة العربية عن طريق الخليج في عصور متقدمة من التاريخ فهناك تقارير تشير إلى وجود زراعة شجرة القطن في اليمن منذ العهود القديمة. فقد أوردت هذه التقارير (أن الأكفان التي وجدت في بعض القبور الحميرية كانت مصنوعة من القطن الذي يحتمل أن يكون قد أنتج محلياً)[3].

ومن المرجح أن انتشار زراعة القطن في عهود ما قبل الإسلام كانت محصورة تماماً في المناطق ذات المناخ الدافئ جداً. والتي تتوافر فيها المياه الغزيرة سواء أكانت من الأمطار أم من وسائل الري الاصطناعي[4].

وقد وجد عدد كبير من الأسماء لنبات القطن ولخيوطه في اللغة العربية في صدر الإسلام تختلف عن الأسماء الهندية مما (يوحي بأن الخيوط كانت معروفة في أرجاء شبه الجزيرة العربية منذ زمن سحيق وربما كان النبات أيضاً معروفاً هناك منذ زمن بعيد جداً)[5].

وعلى كلٍّ فإن زراعة نبات القطن في الفترة الإسلامية اتسعت فكان يزرع في شبه الجزيرة العربية في كل من البحرين واليمن وفي جزيرة سقطرى[6]. أما الأقمشة المصنوعة كلها من القطن التي كانت تنتج في اليمن في القرنين التاسع والعاشر الميلادي (الرابع والخامس الهجري) فكانت خيوط السداة فيها رديئة ومتقاربة من بعضها البعض بينما كانت خيوط اللحمة جيدة تترك مسافات أوسع فيما

(1) أندريوواطون: الإبداع الزراعي، ص: 73.
(2) أندريوواطون: المصدر السابق، ص: 73.
(3) أندريوواطون: المصدر السابق، ص: 77.
(4) أندريوواطون: المصدر السابق، ص: 78.
(5) أندريوواطون: المصدر السابق، ص: 83.
(6) أندريوواطون: المصدر السابق، ص: 78.

بينها. وهذا يعود إلى صعوبة استعمال القطن في السداة ولا سيما في الأنوال التي كانت تستعمل لصنع سداة ثقيلة[1].

ري القطن:

القطن أحد المحاصيل المروية (يروى رياً غزيراً مستمراً تقريباً) وقد ذكر ابن وحشية في الفلاحة ج11 ص213 «أنه لا يستطيع أن يتحمل الجفاف»[2]. والقطن يحتاج إلى سقاية أسبوعية. وذلك بحسب كمية المياه التي تغطي حقل القطن[3]. وفي العالم الإسلامي نظامان لري القطن. **أحدهما**: النظام الأسباني: «والذي كان النبات يسقى فيه كل خمسة عشر يوماً بعد أن يصل إلى ارتفاع الأصبع» **وثانيهما**: النظام السوري: «الذي كانت الأرض فيه تروى مرة قبل الزراعة ومرة ثانية عندما كان النبات يصل إلى ارتفاع عرض اليد ثم يروى بعد ذلك كل خمسة عشر يوماً حتى منتصف شهر آب»[4].

وأحياناً قد يزرع القطن بدون سقاية[5] في المناطق التي تهطل الأمطار بغزارة أو في المناطق المشبعة بالمياه أو المستنقعة أو المناطق المستمرة الندى.

وموسم زراعة القطن في اليمن في نصف يوليو ويستمر حتى سبتمبر. وغالباً ما يعتمد ري القطن فيها على الآبار الجوفية في تهامة كما يعتمد في ريه على السيول في مناطق الوديان وتصل عدد الريات من 5 ـ 7 ريات[6]. وأحياناً يعتمد القطن في ريه على الأمطار في المناطق أو المواسم التي تهطل فيهما الأمطار بغزراة في اليمن. ويستمر بقاء شجرة القطن ما بين ثلاث سنين إلى أربع سنين لمن يريد بقاؤه. وتحمل شجرته بعد ستة أشهر من زراعته. وتحتاج زراعة القطن في اليمن إلى حرث جيد مع الاهتمام بريه بالماء جيداً[7].

5 ـ قصب السكر:

هو أحد محاصيل المناطق المناخية الحارة، ومن المحتمل أن أول ما ظهرت زراعة قصب السكر في جنوب الصين، وذلك في الجزء الأخير من الألف الأول

---

(1) أندريوواطون: المصدر السابق، ص: 82.
(2) نقلاً عن أندريوواطون: الإبداع الزراعي، ص: 237.
(3) أندريوواطون: المصدر السابق، ص: 225 ـ 237.
(4) أندريوواطون: المصدر السابق، ص: 237.
(5) أندريوواطون: المصدر السابق، ص: 237.
(6) عبد الله المجاهد: إنتاج المحاصيل، ص: 191 ـ 195، 196.
(7) عمر بن رسول: ملح الملاحة، ص: 82، 83.

قبل الميلاد. ومنها انتشر إلى الهند ثم انتشر إلى بقية العالم. ومن المعتقد أن زراعة قصب السكر ظهرت في الجزيرة العربية قبل الإسلام ومن حيث التأكيد فإن زراعة قصب السكر اتسعت وانتشرت في الفترة الإسلامية. فقد ذكرت المصادر العربية وجود عدة مناطق في الجزيرة العربية تزرع قصب السكر خلال القرنين التاسع والعاشر الميلادية الثالث والرابع للهجرة. وفي هذه الفترة الإسلامية انتقلت زراعة قصب السكر من الجزيرة العربية عن طريق عُمان إلى زنجبار وإلى سواحل إفريقية الشرقية[1] وقد ذكر الهمداني الذي عاش في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي في كتابه صفة جزيرة العرب، أن زراعة قصب السكر كانت موجودة في اليمن خلال تلك الفترة. وله ثلاثة أسماء هي: 1 ـ قصب السكر 2 ـ قصب المضار «لأنه يمضر بالفم» أي يمضغ فيبلع ماؤه. 3 ـ قصب الشيرين[2].

وعن طريق سقي قصب السكر فهو يحتاج إلى سقاية وافرة في بداية زراعته وفي أيامه الأولى. وبعد أن تظهر فروعه الجديدة يحتاج إلى سقاية أسبوعية[3]. وقد يروى قصب السكر ما بين أربعة أيام وثمانية أيام[4].

6 ـ العنب:

يعدّ العنب أحد أشجار الفاكهة ويزرع في المناطق المعتدلة الدافئة والمعتدلة الباردة[5]. وقد انتشرت زراعة العنب في اليمن منذ القدم، فقد ظهرت شجرة العنب وثمرته مرسومة على النقوش اليمنية القديمة، مما يدل على انتشار زراعته في اليمن منذ القدم.

ويغرس العنب على ثلاث طرق: **الأولى**: الإقلام (العقل) **والثانية**: طريقة الترقيد. **والثالثة**: طريقة التطعيم نوضحها كالآتي.

الطريقة الأولى:

الإقلام (العقل). يقطع أغصان العنب طول كل غصن (أو قلم) ثلاثة أذرع. ثم يغرس هذا الغصن في تربة جيدة عمقها ذراع ونصف ويسقى لوقتها ثم يتعهد سقيها كل ثلاثة أيام أو أربعة أيام حتى يقوى ويرشد. وبعد أن يرشد يتابع سقية كل

---

(1) أندريوواطون: الإبداع الزراعي، ص: 63، 64.

(2) الهمداني: صفة، ص: 310. قصب السكر يسمى قصب الشيرين أو الشيري.

(3) أندريوواطون: المصدر السابق، ص: 237.

(4) أندريوواطون: المصدر السابق، ص: 225.

(5) عمر بن رسول: ملح الملاحة، ص: 132 ـ هامش.

ثمانية أيام حتى يقوى وتثبت عروقه في الأرض. وموعد زراعة هذا الصنف في اليمن إما أيلول (سبتمبر) أو في نصف كانون الثاني (يناير) في المناطق المعتدلة والتي تميل أكثرها إلى البرد[1].

الطريقة الثانية:

الترقيد (أو التبريك) وهي تثبيت أحد فروع العنب في الأرض أو في حوض أو في سلة مع بقاء الغصن ملتصقاً بالشجرة الأم ثم يستمر سقيه بالماء كل ثالث يوم أو رابع يوم إلى أن تثبت الجذور في التربة التي في الحوض (أو السلة أو غيره). ووقت ترقيد أو تبريك الغصون أيام الخريف أيام كثرة الأمطار في اليمن في شهر أيلول (سبتمبر) وإذا مضت على الغصون سنة على ترقيدها قطعت من أصولها (أمها) وحملت بسلتها وزرعت في أماكن أخرى أي أماكن مستديمة ويستمر في سقيها إلى أن ترشد. وتبدو ثمرته وتظهر فيها الحلاوة بعد ذلك يخفف السقي إلى أن تزكى حلاوته ثم يقطع عنها الماء نهائياً[2].

الطريقة الثالثة:

التطعيم. وتهدف هذه الطريقة إلى تغير أحد الأصناف إلى صنف آخر «أو تركيب العنب بعضه في بعض» وهي جرح الكرمة (العنب) بالسكين أربع جرحات مربعة قبل تقليمها ثم يؤخذ من العنب العاصمي أو الزيتوني ومخ العصفور والبياض من كل صنف غصناً أو قلماً ويبرم أسفل كل غصن بحيث ينزل في المربعات المجروحة. فإذا صارت الأربعة الأغصان في الأربع الفتحات المجروحة يربط عليها بخرقة ربط جيد حتى لا يدخل التراب بين الفتحات (أو الجروح) وذلك من أجل التحام الأصل بالطعم. ويترك رؤوس الأغصان الأربعة ظاهرة. ثم يستمر بالتعاهد بسقيها سقياً جيداً ويتفقد سقيه كل وقت وكلما دعت الحاجة. ويظل يستمر بالتعاهد بالسقي حتى يتم التحام الشق ويجري الماء في الأغصان إلى أن يورق ويرشد. وهذا الصنف يحمل حملاً ضعيفاً ثم يقوى الحمل. وفي كل سنة يزداد هذا الحمل وتزداد الثمار. كما أن هذا الصنف يجمع أربعة أصناف في أصل واحد ووقت تطعيم هذا الصنف في كانون الثاني (يناير)[3].

---

(1) عمر بن رسول: المصدر السابق، ص: 133.

(2) عمر بن رسول: المصدر السابق، ص: 136.

(3) عمر بن رسول: المصدر السابق، ص: 139.

7 ـ النخيل:

للنخيل في اليمن عدة أصناف منه الصنف المسمّى «الثغل» ولونه أصفر وهو أجود الأصناف وأطيب ثمرة ويغرس عن طريق السلخ أو بالفسائل في تربة جيدة وعمق يصل إلى نصف متر أو أكثر وبُعْد يقرب من متر بين الفسيلة والأخرى. ويتعاهده بالسقي كل أسبوعين وكلما تتابع سقيه كان أجود. ويحمل هذا الصنف بعد خمس سنين إذا تتابع عليه السقي[1] ومنه «المولد» وهو ثلاثة أصناف «دحر ـ مقصاب ـ ذيل» ولونها جميعاً أصفر. ويغرس رطباً بلحمه، وهو أجود من غرس الفص «النوى» لوحده. في حوض كبير أو مشاتل. ويسقى هذا الغرس كل ثاني يوم حتى يظهر نباته، وذلك بعد عشرين يوماً أو شهر وإذا بلغ السنة نقل من تلك الأحواض أو المشاتل بأصوله أو ترابه الذي يحتوي عليه الغرس إلى الأماكن المعدة لزراعته أو الحقل المستديم. ويسقى عند نقله سقياً جيداً. ثم يسقى كل ثالث يوم حتى يرشد ويقوى. ويستمر في سقيه إلى أن يستغني عن السقي المستمر ومنه ما يستغنى بعد أربع سنين ومنها ما يستغنى بعد خمس سنين[2]. وهناك العديد من أصناف النخيل الأخرى لا داعي لذكرها هنا.

ومعظم النخيل في اليمن يعتمد في سقيه على مياه السيول أو الغيول. حيث يوجد نوع من النخيل في اليمن يسمى (البعل) لا يسقى إلا من مياه السيول[3]. ومن المعتقد أن زراعة النخيل في اليمن انتشرت قبل الإسلام ثم اتسع انتشارها في الفترة الإسلامية.

8 ـ الفوَّة:

هي أحد المحاصيل المستخدمة عروقها في الصباغة ولونها أحمر وانتشرت زراعة الفوّة في اليمن بشكل واسع في العصر الإسلامي وخاصة عصر بني زريع والعصر الأيوبي والرسولي.

ري الفوَّة: تغرس الفوَّة بواسطة الجذور (العروق) في قعر التلم أو الخط المعدّ لزراعة الفوَّة وتسقى الفوَّة بقدر ما يملأ التلم أو الخط. وكلما بان في الأرض الجفاف سقاها بالماء وغالباً ما يسقيها كل خمسة أيام أو ستة أيام. وبعد الإنبات تسقى كل ثمانية أيام أو عشرة أيام. وبعد أن يمضي على زراعتها أربعون يوماً تتم

---

(1) عمر بن رسول: ملح الملاحة، ص: 122، 123.

(2) عمر بن رسول: المصدر السابق، ص: 124، 125.

(3) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 319.

تصفية الأراضي من الحشائش. بعد ذلك يتم سقيها بعد اثني عشر يوماً. وبعد شهرين من تنقيتها من الحشائش ينقيها مرة أخرى، ثم يرويها بعد اثني عشرة يوماً وتظل عملية الاهتمام بالفوّة مستمرة من حيث تقليب الأرض حولها وعزقها. فيسقيها كلما جفت أرضها واصفرّ أسفل ورقها الذي يلي التراب. وإذا حال عليها الحول أو مضت سنة من غرسها قلعت[1] ولزراعة الفوّة وقتان: **أحدهما**: تشرين الأول (أكتوبر) **وثانيهما**: أول كانون (ديسمبر) وذلك لتجنب الفوّة من موسم الأمطار في اليمن وكثرتها لأن الفوّة لا تطيب في كثرة المياه[2].

وهناك العديد من المزروعات الأخرى وجدت في اليمن في العصر الإسلامي، كالمزروعات المستخدمة في الصباغة مثل الورس والعصفر. كما وجدت فيها العديد من أشجار الثمار والفواكه مثل الموز والبطيخ الأحمر والتفاح والمشمش والخوخ والرمان. إضافة إلى وجود الحمضيات مثل الليم والليمون والأترج فضلاً عن وجود العديد من الحبوب مثل الغرب والذرة الشامية. لم نحاول إيراد دراسة تاريخية عنها بسبب عدم معرفة تاريخ زراعتها في اليمن. واكتفينا بإيراد دراسة مختصرة عن المزروعات السابقة الذكر.

الخاتمة:

ويتبين مما سبق أن الإنسان اليمني لم يقف موقفاً متفرجاً أمام العوامل الطبيعية ويبقى أسيراً لها. ولكنه جاهد الطبيعة القاسية في اليمن جهاداً كبيراً فحاول التغلب على المناطق الجبلية التي اتصفت بقلّة أراضيها الزراعية وانحصار الأراضي الصالحة للزراعة في الوديان الضيقة والقيعان. فعمل الإنسان اليمني على إقامة المدجات الزراعية، من أجل توسيع رقعة الأراضي الزراعية. وحفظ التربة من الإنجراف والمياه من الضياع. كذلك عمل الإنسان اليمني على إقامة السدود على مداخل فتحات الأودية لحجز كمية المياه الزائدة على حاجته من جراء سقوطها بكثرة في مواسم الأمطار الغزيرة. والاستفادة منها في ري مزروعاته وشربه في السنوات التي تقل فيها كمية الأمطار وكذلك للاستفادة منها في السنوات التي يتقدم فيها موسم الأمطار في اليمن أو يتأخر. ومن ناحية أخرى فإن الإنسان اليمني أدّى دوراً كبيراً منذ فترة مبكرة في الاهتمام في

(1) عمر بن رسول: ملح الملاحة، ص: 91، 92.

(2) عمر بن رسول: المصدر السابق، ص: 94، 95.

الزراعة سواء عن طريق إدخال الكثير من أنواع المزروعات إلى اليمن من جنوب شرق آسيا وشرق وجنوب أفريقية وجنوب مناطق البحر المتوسط. أو نقلها من اليمن إلى تلك البلدان للتشابه المناخي بين اليمن وهذه البلدان في زراعة كثير من المحاصيل الزراعية. بالإضافة إلى ذلك فإن اليمن كانت محطة لنقل الكثير من مزروعات جنوب شرق آسيا إلى شرق أفريقية وجنوبها والعكس. بذلك نرجو أن نكون قد وفقنا في إعطاء صورة عن الزراعة وعن الأنماط الزراعية وطرق الري في اليمن في العصر الإسلامي.

الصناعة

أوضح فصل الصناعة المعادن، والنشاط الصناعي، من الصناعة المعدنية، والصناعة الجلدية والصناعات الأخرى، بالإضافة إلى صناعة المنسوجات والصباغة والزخرفة. التي وجدت في اليمن في الفترة التي ندرسها، حسب ما ذكرتها المصادر.

مارس اليمنيون في العصر الإسلامي أنواعاً مختلفة من الحرف واشتغلوا بصناعات كثيرة مثل الصناعات المعدنية والجلدية وصناعة المنسوجات والزيوت وغيرها من الصناعات المختلفة، وقد استعان اليمنيون بأصحاب الخبرة في الصناعة من بلدان مختلفة وخاصةً في الصناعات المعدنية. فمعدن الفضة من الرضراض في نهم ومخلاف يام من أرض همدان كان عماله من الفرس، يوضح ذلك الهمداني بقوله: «وكان أهله جميعاً من الفرس من تأوب إليه في الجاهلية وأيام بني أمية وبني العباس وكانوا يسمون فرس المعدن»[1]، كذلك استعان اليمنيون بأهل الخبرة في الصناعة في مصر والشام، يوضح ذلك ابن فضل اللّه العمري بقوله: «ولا تزال ملوك اليمن تستجلب من مصر والشام طوائف من أرباب الصناعات لقلة وجودهم باليمن»[2]. وبرغم أن النصين خارجان عن الفترة الزمنية للبحث إلا أنهما يعطيان مفهوماً حول استعانة اليمنيّين بالصُنّاع من بلدان مختلفة.

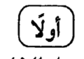
وكان الحرفيون يتعلمون الحرفة عن طريق الوراثة، فظهرت أسر متخصصة بالحرف المتنوعة، وكان الفرد يتعلم الحرفة عن طريق التدريب عليها، وذلك بالمشاهدة والملاحظة وممارسة العمل بجانب السابقين له في الحرفة، وغالباً ما كانت الحرف تتعرض للهزات التي تهددها بالانقراض، ففي بعض الأحيان لا يستطيع الأبناء مواصلة نفس حرفة آبائهم، فقد يموت صاحب الحرفة قبل أن يعلن ابنه أو التابع له حرفته وتجربته. ومن جهة ثانية تأثرت الصناعة بالصراعات القبلية المتكررة، أو نتيجة لاشتراك الحرفيّين في الحروب التي يجبرهم الحكام على الاشتراك فيها مما جعلهم يطلبون المال من هؤلاء الحكام بدلاً من تكسبهم من

(1) الهمداني: كتاب الجوهرتين، ص: 126.

(2) ابن فضل اللّه العمري: مسالك الأبصار، ص: 52، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ5، ص: 36.

حرفتهم، لذلك كانت هناك محاولات للاحتفاظ بالصناعة والحرف، فقد وجه الشريف محمد بن القاسم خطاباً لأهل شهارة يأمرهم بأن يأكل كل صاحب حرفة من حرفته وكل صاحب ضيعة من محصول ضيعته، وكل تاجر من غلة متجره وماله[1].

وتأثرت الصناعة أيضاً بتوقف استخراج بعض المعادن، فقد توقف استخراج معدن الذهب بجهة عطان في بيشه وانقطع العمل به في القرن الرابع الهجري، أيضاً توقف استخراج معدن الرضراض في خَدْنِهْم ومخلاف يام من أرض همدان في بداية سنة 270هـ/ 883م. والذي كان لمراد وبني غيلان رهط بني الروية وبني الحارث وخولان العالية وذلك بسبب خلاف فيما بينهم جميعاً بعد قتل محمد بن يعفر فتوقف العمل به[2].



أولًا

المواد الخام

المعادن: وجدت في اليمن أنواع متعددة من المعادن في مناطق مختلفة مثل الذهب والفضة والعقيق والجزع وغير ذلك من المعادن الأخرى التي كان يستخرجها اليمنيون. والذي يوجد باليمن من المعادن الآتي:

الذهب: ويوجد في منطقة (ضَنْكَان) ويساوي الرطل منه مائة دينار علوية وديناراً ونصفاً. ويوجد أيضاً معدن الذهب في (القُفَاعة) في صعدة من أرض خولان، وهو بالقرب من الحصوف مدينة الحَكَمْ في أعلى وادي خلب، ورطله يساوي مائة وستة دنانير علوية، وقريب منه في الجودة يوجد معدن الذهب في (الخُلَّة) من أرض حجور من أرض همدان، كما يوجد بأرض (بني سابقة) بالحد بين صعدة ونجران يساوي رطله مائة وأربعة دنانير علوية، كذلك يوجد الذهب (بعطان بيشه)[3]، وفي منطقة (سلوق) في خدير[4]. كما يوجد معدن الذهب في جبل يسمى سرواح قرب بيحان وتبره (أو ترابه) أصفر يشبه الزرنيخ[5].

الفضة: ويوجد معدن الفضة في منطقة تسمى قرية (المعدن) وهي قرية كبيرة

---

(1) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ق9.

(2) الهمداني: الجوهرتين العتيقتين، ص: 123 ـ 126. تحقيق كريستوفر كول، ط2، 1985م، دار بساط بيروت.

(3) الهمداني: كتاب الجوهرتين، ص: 123.

(4) القزويني: آثار البلاد، ص: 45.

(5) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 199. ويبدو أن سرواح هي صرواح.

بها غيل ونخيل وكان بها أربعمائة تنور لمعالجة الفضة وينتج منها في الأسبوع، حمل فضة مقداره عشرون ألف درهم، وذلك في عهد محمد بن يعفر حاكم صنعاء آنذاك، حيث كانوا يدفعون إليه من معامل الفضة ضريبة أو ما تسمى حق السلطان حوالي ألف ألف درهم في السنة[1].

كما وجد معدن الفضة في أرض بني مذحج، كان يستخرجها ابن زياد حاكم زبيد، وكان ينفق على الدرهم أربعة دوانيق نتيجة ضعفه وعسر استخراجه[2]، كما وجد في منطقة سلوق من خدير[3]، وفي أعمال العواهل قرب وادي بيحان في جبل يسمى المعدن[4].

وقد يعالج كل من معدنيْ الذهب والفضة في اليمن ويصنع منهما أنواعاً مختلفة من الأشياء، منها صك النقود الدينار والدرهم، وقد يُصَدَّر على شكل سبائك، وكان سعره باليمن أرخص من أي بلد آخر، فقد ربح منه الكثير من تجار العراق، وفارس، والشام، ومصر[5].

العقيق: اشتهرت اليمن بالعقيق اليماني المشهور، ويوجد في مناطق عديدة منها منطقة سعوان وهو ما يسمى بالعقيق السعواني[6]، وهو فص أسود فيه عرق أبيض[7]، وجبل ألهان وهو البقراني النفيس الذي له عدة ألوان، فالفص منه يكون وجهه أحمر فوق عرق أبيض فوق عرق أسود[8]، ووجد بألهان أيضاً مثل مقري وقساس منه ذو اللون الأحمر والأصفر[9]. ويوجد العقيق العرواني، ولونه أحمر بعرق أبيض في منطقة الشرف شهارة وغرب همدان[10]، كما يوجد فيما بين نجران وأفلح، ويصنع بعض العقيق في اليمن وبعضه يصدر خاماً[11].

الجزع: يوجد الجزع في اليمن بأنواعه المختلفة المسمّى الفارسي،

(1) الهمداني: كتاب الجوهرتين، ص: 127.
(2) الهمداني: نفس المصدر، ص: 129. لم أهتدِ من المصادر على مكان مذحج المشار إليها.
(3) القزويني: آثار البلاد، ص: 45.
(4) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 45.
(5) الهمداني: كتاب الجوهرتين، ص: 128.
(6) الهمداني: الإكليل، جـ8، ص: 86.
(7) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 321.
(8) الهمداني: الإكليل: ج8، ص86.
(9) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 322.
(10) الهمداني: الإكليل: ج8، ص86.
(11) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص: 36.

والحبشي، والمعسَّل، والمعرق، والعرواني، وأجوده وأغلاه ثمناً هو البقراني[1]. كما يوجد بها الجزع الموشى والمسير. ومن أهم مناطق استخراجه جبل نقم قرب صنعاء ووادي ضهر، وسعوان، والسر، ويوجد بالقرب من صنعاء أيضاً الجزع السماوي المسمّى العشاري، والخولاني، والجرتي في عذيقة والسرب[2]. ويصنع من الجزع ألواح وصفائح وقوائم سيوف، ومقابض سكاكين، ومداهن وقحفة وغير ذلك[3]. كما يصنع منه الأواني الكبيرة والعظيمة[4].

ويوجد ببلاد اليمن أنواع أخرى من المعادن منها الخرز وأجوده البقراني الذي يبلغ قيمة الفص منه مائة دينار وأكثر[5]. وكذا معدن البلور، ومنه النوع (المسني) الذي يعمل منه مقابض السكاكين[6] وحجر الجرتي الأسود والأخضر، الذي يصنع منه أيضاً مقابض السكاكين[7]. وأنواع الشب منه شب الفؤاد. كما يوجد بها الصندل، وأيضاً يوجد بها طين من معدن أبيض لين لزج أشبه شيء بالصابون[8] كذلك يوجد الكبريت في ذمار ومنها يصدر إلى أنحاء اليمن[9]. كما يوجد الحديد في منطقة (رغافة) بصعدة[10]. وفي العهد الأيوبي في اليمن كان من شروط الصلح فيما بين الإمام عبد الله بن حمزة وأمير صنعاء وردشار، أن يدفع الإمام للأيوبيّين في كل سنة مائة حمل مثقلة بالحديد من صعدة[11]، كما يوجد في سلوق من خدير، كذلك يوجد العنبر في اليمن في كل من منطقة الشحر[12]. والمنطقة الواقعة ما بين عدن وباب المندب من جهة البحر[13]، كما يوجد اللؤلؤ في عدن[14].

---

(1) الهمداني: صفة، 322، د. محمد أمين صالح: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 207.
(2) الهمداني: الإكليل، جـ8، ص: 75. د. محمد أمين صالح: نفس المرجع والصفحة.
(3) الهمداني: صفة، ص: 322.
(4) ابن الفقيه، نفس المصدر والصفحة.
(5) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص: 112.
(6) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 322.
(7) الهمداني: الإكليل، جـ8، ص: 86.
(8) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ق34.
(9) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 190، 191.
(10) عبد المؤمن: مراصد الإطلاع، جـ2، ص: 622.
(11) الخزرجي: العسجد، ص: 178.
(12) القزويني: آثار البلاد، ص: 45، 47.
(13) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 102.
(14) الإصطخري: المسالك والممالك، ص: 26.



ثانياً
النشاط الصناعي

1 ـ الصناعات المعدنية:

وكان لوجود تلك الأنواع المتعددة من المعادن أثرها في إيجاد كثير من المصنوعات المعدنية، فقد صنعت منها أدوات الفلاحة المختلفة، والسكاكين، والسيوف اليمانية المشهورة، والأواني المتنوعة. وقد سميت الصناعات بأسماء المناطق التي اشتهرت بصناعتها، ومن ضمن الصناعات المعدنية في اليمن الآتي:

صناعة السيوف: المشهورة بالسيوف اليمانية التي ليس لها مثيل في البلدان، لاتصافها بالليونة وعدم الانكسار. وفي المناطق التي صنعت بها منطقة (بيلمان) ولذا تسمى السيوف البيلمانية[1]، وفي منطقة (نقم) وسميت بالسيوف النقمية، وفي منطقة ذي برعش وسميت بالسيوف البرعشية[2].

صناعة الدروع والسهام: صنعت الدروع المحكمة الصنع في منطقة (سلوق)[3] وهي التي سميت بالدروع السلوقية، كما صنعت في صعدة السهام التي اشتهرتَ باسم السهام الصعدية[4].

السياط والأسنة والرماح: وصنعت في ذي أصبح السياط التي تسمّى السياط الأصبحية، وفي منطقة ذي يزن الأسنة التي سميت الأسنة اليزنية، كذلك صنعت الرماح في كل من شرعب، وسمهرية، وشراعة، وإليها تنسب الرماح الشرعبية، والسمهرية، والشراعية. كما صنعت النصال في بني حريم من حضرموت وإليها تنسب النصال الحرمية[5]. وصنع في منطقة (حلى) الأقداح، وفي منطقة (عثر) وعدن صنع القفاع[6]. وتصنع في اليمن أواني كبيرة من حجر يشاكل الرخام ولكنه أشد بياضاً منه[7]، كما تصنع الأواني الكبيرة من الجزع[8].

---

(1) عبد المؤمن: مراصد الإطلاع، جـ1، ص: 244، بيلمان: موضع ينسب إليه السيوف البيلمانية ويشبه أن يكون بأرض اليمن، إسماعيل الأكوع: البلدان اليمنية، عند ياقوت الحموي، ص: 63.

(2) محمد الأكوع: اليمن الخضراء، ص: 236. مطبعة السعادة، مصر، ط1، 1971م.

(3) القزويني: آثار البلاد، ص: 45. (4) محمد الأكوع: نفس المصدر والصفحة.

(5) الهمداني: الإكليل، جـ2، ص: 26، 144، 354، 382، 383، د. أمين صالح: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 207.

(6) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 98.

(7) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 322.

(8) ابن رسته: الإعلاق النفيسة، ص: 112.

وكانت بعض الصناعات المعدنية في اليمن تكفت بالأحجار الكريمة مثل العقيق والجزع، حيث كان يصنع منها ألواح وصفائح وقوائم سيوف ومقابض سكاكين وغيره[1]. ومن ضمن ما طرز أو كفت أو زين من تلك الصناعات السيوف، فقد أرسل علي بن محمد الصليحي حاكم اليمن بهدية جليلة إلى المستنصر باللّه الفاطمي حاكم مصر وهي عبارة عن سبعين سيفاً قوائمها من العقيق[2]، كما صنع من معدن المسنى مقابض سكاكين[3]. وهكذا وجدت في اليمن عدة صناعات معدنية بعضها زينت بالأحجار الكريمة.

2 ـ الصناعات الجلدية:

كما اشتهرت اليمن بدباغة الجلود والصناعات الجلدية، فوجد بها مدابغ الجلود في جميع أقاليمها[4] لتوفر شجرة القرظ بها والتي تستخدم لدبغ الجلود، ومن تلك الجلود التي صنعت في اليمن أنواع الخفاف النفيس[5]. ومن المناطق التي اشتهرت بدباغة الجلود والصناعات الجلدية منطقة صعدة وبها دار دباغة، يدبغ بها الأديم الجيد، وكانت دار صناعة الأديم بها عديم المثال[6]، لذلك صنع في صعدة النعال الجيدة[7]. كما صنع بها الأنطاع (البساط) الحسنة والركاء الجيد[8]، (وهو القِرَبْ أو المَسَبْ) كذلك منطقة زبيد وجدت بها مدابغ كثيرة للجلود[9]. وقد كان مقدار ضريبة الجلود بها ثلاثة عشر ألف دينار سنوياً[10]، وهذا ما يدل على كثرة دباغة الجلود بها والصناعة منه. كما وجدت دباغة الجلود في كل من عدن وجرش، ونجران[11]، وأيضاً وجدت في صنعاء دار لدباغة الجلود فكان يدبغ بها جلود البقر الجبلانية التي يصنع منها النعال، حيث يبلغ الجلد منها عشرة مثاقيل إلى عشرين

(1) الهمداني: صفة، ص: 322.
(2) الخزرجي: العسجد، ص: 57، بامخرمة: قلادة النهر، ص: 600.
(3) الهمداني: صفة، ص: 322.
(4) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 13.
(5) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص: 148.
(6) الإدريسي: نزهة المشتاق، جـ1، ص: 55، 146.
(7) ابن حرداذبه: المسالك والممالك، ص: 139.
(8) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 98، الانطاع: مفردها نطع: وهي بساط من الجلد، والركاء: مفردها ركوة، وهو إناء صغير من الجلد يشرب فيه الماء، المعجم الوجيز، ص: 277، 621.
(9) المقدسي: نفس المصدر والصفحة. أوضح المقدسي، ص: 98، أن أديم زبيد ونيله لا نظير له كأنه لازورد.
(10) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 89.
(11) ابن حوقل: صورة الأرض، ص: 36.

مثقالاً. ويصنع منها الشرع المدرهمة العرسية والسمسمية، التي يبلغ الأشرع المدنر الأحرش (أي الملس) دنانير[1]، كما وجد بصنعاء صناعة النعال المشعرة، والأنطاع (البساط)، والبرود الجيدة المرتفعة الثمن، والمصمتة، التي تصدر إلى أنحاء اليمن وخارجها[2]. ومما يدل على كثرة الدباغة في صنعاء ما ذكره الرازي من أن عدد مطاحن القرظ الذي يدبغ بها الجلود والأدم في صنعاء حوالي 33 مطحنة[3].

وتدبغ في منطقة (الشوافية) في نواحي إب جلود النمر النفيسة المحلوكة السواد اليقق البياض الذي يبلغ الجلد منه عدة دنانير. كما صنع منها السروج والفرش النفيسة منها فرش العباء الملون النفيس والذي يستخدم لتزيين الخيل فيكون جلالاً لها، وهو مُلْبَن مثل تلبين الوشي لبنة بيضاء، وإلى جنبها لبنة سوداء جرداء غير مخملة، كذلك صنع بها الأنطاع الصت التي لا تؤثر عليها مياه الأمطار[4]. وأيضاً صنع في اليمن النعال التي سميت بالنعال الترخمية، وهي المشهورة بصناعة الخذية[5]. وفي مخلاف بني مجيد يوجد بها البقر الملمعة والتي يصنع من جلودها النعال فيه توليع من بياض وصفرة كأحسن الوشي ويباع النعل منها بدنانير ويصدر إلى أنحاء الأقطار[6]. وقد زخرفت الجلود بزخارف ورسوم ملونة وجميلة، كما أنه ذهبت بعض صناعة الجلود[7].

3 ـ الصناعات الأخرى:

يوجد معاصر السليط (الزيت) في مناطق عديدة من اليمن منها منطقة (حيس)[8] و(المخاء)[9] (وصنعاء) التي يوجد بها حوالي أربع وخمسين معصرة للسمسم (الجلجلان) حسب تقدير الرازي[10]، وأربع عشرة معصرة حسب تقدير

---

(1) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 320.

(2) ابن رسته: الإعلاق النفيسة، ص: 112.

(3) الرازي: تاريخ مدينة صنعاء، ص: 115، د. محمد أمين صالح: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 207.

(4) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 320، 321، الصت: هي التي لا ينفذ منها الماء، نفس المصدر والصفحة، هـ2.

(5) الهمداني: الإكليل، جـ4، ص: 326.

(6) عبد الله يوسف غنيم: جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك لأبي عبيدة البكري، ص: 27.

(7) حسن صالح شهاب: أضواء على تاريخ اليمن، ص: 161.

(8) عمارة: المفيد، ص: 100.

(9) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 86.

(10) الرازي: تاريخ مدينة صنعاء، ص: 115، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، ص: 37، د. محمد أمين صالح: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 208.

آخر[1]. كما وجدت معاصر السليط في قرية (لَخَبَة) في لحج بعدن[2].

كما وجدت في اليمن صناعة الحلويات، وقد تفننوا في صناعتها واكتسبوا شهرة في ذلك، وكما يذكر الهمداني فقد كان الرجل إذا أكل منها (قضم على طيبه أنامله) وكانوا يصنعونه من (معقدات الأترج والقرع والجزع والرانج واللبي (الدعبب) كما صنع بها الشهد الحضوري الماذي الجامد الذي يقطع بالسكاكين. ويهدى من هذه الحلويات المصنوعة (إلى العراق ومكة وسائر البلدان)[3].

وكانت طريقة صناعة تلك الحلويات تتم بتسخين معقدات الفاكهة في الشمس حتى يصير في عقود قصب اليرع، ثم يوضع في مظروف ويوضع في مكان بارد ويترك حتى يجمد مع ختم أفواه المظروف بالقَصَّة (أي الغطاء المقصوص من المظروف). وبهذا العمل يصبح طعم الحلويات المربى كالعسل، وطريقة إفراغه بأن يكسر المظروف ثم يقدم للموائد فيقطع بالسكين على طيفورية أو رغيف[4].

كما وجدَت صناعة الزجاج حيث يوجد معامل الزجاج في منطقة (لَخَبَة) بظاهر عدن على بعد فرسخين إلا ربع منها أنشأها عثمان الزنجبيلي وكان ينقل منها الزجاج إلى عدن[5].

صناعة العطور: كما اشتهرت عدن بصناعة العطور[6] فقد نقل بعض المؤرخين من كتاب (الأزمنة والأمكنة) للمرزوقي المتوفى سنة 421هـ/ 1030م (أن طيب الخلق جميعاً كان بعدن ولم يكن يحسن صنعه أحد في غير العرب، حتى إن تجار البحر لترجع بالطيب المعمول بعدن، تفخر به في السند والهند، ويرتحل به تجار البر إلى فارس والروم. وأن الناس على ذلك إلى اليوم ما يحسن عمله إلا أهل الإسلام بعدن)[7].

---

(1) مجهول: تاريخ اليمن، ق67.

(2) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 30.

(3) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 316، 317، آدم متز: الحضارة الإسلامية، جـ2، ص: 312، د. محمد أمين صالح: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 225.

(4) الهمداني: نفس المصدر والصفحات: آدم متز: نفس المصدر والصفحة، د. محمد أمين صالح: نفس المرجع والصفحة. يسمى المظروف الذي يوضع به المربى عند أهل اليمن (جِغْنَان).

(5) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 148، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 30، العبدلي: هدية الزمن، ص: 9.

(6) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 192، محمد كريم: عدن دراسة في أحوالها، ص: 338، علي زيد: معتزلة اليمن، ص: 50.

(7) سعيد الأفغاني: أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، دار الفكر، ص: 269، حسن صالح =

ووجدت في اليمن عدة صناعات أخرى منها صناعة سفرات الطعام من خوص النخيل[1]، كما وجدت صناعة الخزف في كل من الدُمَيْنِية[2] وعدن[3]. كما صنعت الحلي في عدن[4] والمزامير في صنعاء[5]. والفخار في كل من صنعاء[6] وذي جبلة[7] وفي حُرَازة من أيفوع المعافر الأطباق المسمّاة الأطباق الحرازية[8]، وقد زخرفت الأواني الفخارية بألوان عدة منها اللون الأحمر الذي يستخرج من دم الأخوين[9]، الذي يوجد بجزيرة سقطرى. وهكذا تنوعت الصناعات المختلفة في اليمن.

صناعة النبيذ: صنع النبيذ في مناطق كثيرة من اليمن منها عدن وزبيد، ففي عدن كان أهم بئر يستخرج منها الماء لتصنيع النبيذ هي بئر زعفران، فمنها يستخرج الماء، ويوضع عليه ثمرة الكاذي ذو الرائحة العطرية النفاذة، ويترك في الشمس لمدة عشرة أيام، يتحول بعدها إلى نبيذ كامل لا يحتاج إلى عسل، ويصدر إلى جميع أنحاء اليمن[10]، وقد أوضح المقدسي أنه يصنع (في عدن شراب يفضل على القصب)[11]. وفي العهد الأيوبي صدر ماء زعفران إلى كل من الجَنَد، وتعز، وصنعاء وزبيد، ليصنع منه النبيذ. وعندما دخل الأتابك سنقر إلى عدن في إمارة محمد بن علي التكريتي لها، شرب من هذا النبيذ فأعجبه[12] مما يدل على أنه كان من أحسن أنواع النبيذ في اليمن.

وفي زبيد يصنع النبيذ بكثرة من التمر والبُر والرطب ويسمى بها (الفضيح) ويستغرق عمله يوماً وليلة، ويشرب منه الناس في زبيد جميعاً النساء والرجال، وقد

= شهاب: أضواء على تاريخ اليمن، ص: 143، 144، نزار الحديني: اليمن في صدر الإسلام، ص: 43، محمد كريم: عدن دراسة في أحوالها، ص: 338، 339.

(1) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص: 246.

(2) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 233.

(3) العبدلي: هدية الزمن، ص: 9.

(4) ابن المجاور: نفس المصدر، ص:

(5) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص: 112.

(6) بامخرمة: قلادة البحر، ص: 955.

(7) عمارة: المفيد، ص: 138، 139.

(8) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 195.

(9) حسن صالح شهاب: نفس المرجع، ص: 164، دم الأخوين: هو صمغ أحمر يؤتى به من جزيرة سقطرى: المعتمد، ص: 158.

(10) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 131، محمد كريم: عدن دراسة في أحوالها، ص: 339.

(11) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 98.

(12) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 79.

كان ضمان دار النبيذ في زبيد في العهد الأيوبي يقدر باثني عشر ألف دينار سنوياً[1]. وهذا يدل على مقدار ضخامة النبيذ في زبيد. ومن الملاحظ أن هذا النبيذ غير مسكر وغير محرم، لأنه لا يترك لفترة طويلة حتى يتخمر.

ثالثاً

صناعة المنسوجات

وجد باليمن مصانع للمنسوجات اشتهرت اليمن بصناعة أنواع الملابس مثل الوصائل والوشي، من هذه المصانع ما تملكه الدولة وهي التي تقوم بصناعة ملابس للأمراء وكبار موظفي الدولة. من ذلك الطراز الذي أنشئ بصنعاء حيث كان يوجد بها نوعان من الطراز أحدهما طراز (العامة) والآخر يسمى (طراز الخاصة)[2]. ومن قطع الوصائل اليمنية آنذاك ما نجده محفوظاً حتى الآن بالمتحف الإسلامي بالقاهرة، فهناك قطعة نسجت بصنعاء سنة 311هـ/ 923م كتب عليها (مما عمل في طراز الخاصة بصنعاء) وقطعة أخرى مطرزة بالخط الكوفي نصها (بفضل طراز الخلافة)[3].

وكان يكتب على المنسوجات إلى جانب اسم الطراز الذي نسجه سواء كان طراز الخاصة أم العامة، اسم المدينة التي صنع بها، واسم الوالي أو الخليفة الذي أمر بالصناعة، وسنة الصنع بالخط الكوفي المورق والمزهر[4]. ومن ضمن العبارات التي كانت تكتب على منسوجات الطراز أو الوصائل اليمنية التي توجد قطع منها بالمتحف الإسلامي بالقاهرة العبارة الآتية: (بسم اللّه الرحمن الرحيم نعمة من اللّه لعبد اللّه أبي العباس الإمام المعتضد باللّه أمير المؤمنين أيده اللّه مما أمر بعمله في طراز صنعاء سنة أربع وثمانين ومائتين)[5].

وانتشرت صناعة المسنوجات في مناطق كثيرة في اليمن واشتهرت مسميات هذه المنسوجات بأسماء المناطق التي صنعت بها، ومن ضمن المنسوجات التي صنعت باليمن الآتي:

---

(1) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 90.

(2) د. ربيع حامد: مناسج الطراز بمدينة صنعاء، دراسة حول المنسوجات اليمنية في العصر الإسلامي، ص: 46، 47. مجلة الإكليل، عدد 2، سنة 1988م.

(3) وفيه عزي: نماذج من الفنون الإسلامية في اليمن، ص: 29، المجلة، رجب 1383هـ/ 1962م.

(4) د. ربيع حامد، نفس المرجع والصفحة.

(5) د. رأفت النبراوي: دراسة لقطعتين نادرتين من المنسوجات الإسلامية في مصر واليمن، مجلة الداره، عدد 2، أغسطس، 1987، ص: 207.

١ ـ **البرود**: من أهم صناعة المنسوجات في اليمن هي البرود التي اشتهرت باسم البرود اليمانية[1]، وقد صنعت البرود في مناطق متعددة من اليمن، منها منطقة السحول، وسميت البرود نسبة إليها[2]، وصنعت البرود الحريرية في حجة سميت أبراد حجة[3]، وصنعت البرود في كل من المعافر، عدن، وشرعب، والتي سميت بأسماء تلك المناطق[4]. وصنعت البرود أيضاً في الجريب[5] وفي زبيد[6]، وفي صنعاء، وكان سعر البرود اليمانية غالية الثمن حتى بلغ ثمن الثوب من البرد حوالي خمسمائة دينار[7]. وهذا المبلغ مرتفع يدل على جودة صناعتها وأن البرود اليمنية كان لا يستطيع شراؤها إلا الطبقة الحاكمة أو أهل الثراء.

٢ ـ **الثياب**: وصنعت في اليمن أنواع كثيرة من الثياب، منها في المعافر والتي اشتهرت باسم الثياب المعافرية[8]، كما صنعت ثياب قطنية بيضاء في السحول سميت الثياب السحولية[9]، وقد كفن رسول اللّه ﷺ بثوبين منها[10]، وصنعت الثياب في (تزيد) بها عدة خطوط سميت بالثياب التزيدية[11]، وهناك الثياب السعيدية، ربما تكون النسبة إلى سعيد الأحول النجاحي حاكم زبيد. في القرن الخامس الهجري، والثياب العدنية[12] نسبة إلى عدن، وصنعت الثياب في ظفار وهي ما تسمى بالثوب الظفاري[13]. وفي حُرَازة من أيفوع المعافر صنعت ثياب التجاوز وهي الشريحة التي تطرز بألوان الصباغات[14]. كما صنع في

(1) القزويني: آثار البلاد، ص: 69.

(2) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 98.

(3) مجهول: سيرة الإمام عبد اللّه بن حمزة، ق1.

(4) حسن صالح شهاب: أضواء على تاريخ اليمن، ص: 157، 158. دار العودة، بيروت، ط2، 1981م.

(5) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 98.

(6) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: R. B. Serjeant: Islamie Textiles in the yemen, p.89 . 31, Labanan, 1972.

(7) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص: 112.

(8) عبد المؤمن: مراصد الإطلاع، جـ3، ص: 1287.

(9) عبد المؤمن: مراصد الإطلاع، جـ2، ص: 696.

(10) عمارة: المفيد، ص: 88، ابن المجاور، صفة بلاد اليمن، ص: 175، مجهول: نموذج، ق7.

(11) الهمداني: الإكليل، جـ1، ص: 189، د. أمين صالح: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 207.

(12) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص: 36.

(13) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 141.

(14) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 195.

زبيد أنواع أخرى مثل الملايات والجراب وغيرها[1]. كذلك صنع في اليمن الحلل (وهي ما تشتمل على القميص والإزار والرداء) منها ما صنع في منطقة السلوق بخدير[2].

٣ ـ **الحرير**: وأنتجت اليمن أيضاً المنسوجات الحريرية في أماكن متعددة، منها ما صنع في الشوافية من الحرير النفيس الملوكية، فصنعت منه الفرش العجيبة التي تستخدم للراحة[3]، كما صنع في حجة البرود الحريرية[4]، وفي زبيد صنع شقق الحرير الذي منه الحرير الأبيض والبيرم والسباعيات، وهناك نوعان من صناعة الحرير أحدهما: حرير صرف، والآخر مخلوط بكتان[5].

رابعاً

الصباغات والزخرفة

استخدم الصناع اليمنيون ألواناً مختلفة في صباغة المنسوجات، مثل اللون الفاتح، والأبيض المائل إلى الصفرة، والأصفر الفاتح، والسمني، والأزرق وغيرها.

ومن خلال قطع قماش الوصائل اليمنية الموجودة بالمتحف الإسلامي بالقاهرة والتي يعود صناعتها بصنعاء إلى القرنين الثالث والرابع الهجريّين، نجد أن منها ما كانت ملونة باللون البني الفاتح، مخططة بخطوط زرقاء رأسية سميكة، وخطوط أخرى أفقية رفيعة متقاطعة، تشكل مربعات ، ومنها ما كانت مقلمة لونها أبيض يميل إلى الإصفرار، عليها خطوط رأسية داكنة اللون، ومنها ما كانت مقلمة لونها سمني، وخطوطها الرأسية يغلب عليها اللون البني[6].

واستخدم الصانع اليمني الزخرفة على المنسوجات بمختلف الألوان مثل الأصفر، والأزرق، والأبيض، بزخارف هندسية متنوعة، واستخدم الخط كعنصر أساسي في الزخرفة وخاصة في كتابة أشرطة الطراز وإشارات الصناع، وذلك بالخط الكوفي المزهر والمورق[7].

---

(1) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 89.

(2) القزويني: آثار البلاد، ص: 45.

(3) الهمداني: صفة، ص: 195.

(4) مجهول: سيرة عبد الله بن حمزة، ق1.

(5) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 89.

(6) د. ربيع حامد: مناسج الطراز بمدينة صنعاء، دراسة حول المنسوجات اليمنية في العصر الإسلامي، مجلة الإكليل عدد (2)، السنة 6، 1988م، ص: 46 ـ 48.

(7) د. ربيع حامد: نفس المصدر والصفحة.

فمثلاً كانت زخرفة الوصائل اليمنية (عن طريق الخطوط الملونة الناشئة عن صبغ السداة واللحمة قبل النسيج بلون أو بعدة ألوان أبرزها الأبيض والأزرق الضارب إلى الصفرة والأسمر الضارب إلى الحمرة)[1].

وفي حضرموت كانوا يصبغون الثوب بالزاج فيتحول لونه لا أخضر ولا أزرق بل لون عجيب[2].

وقد استخرج اليمنيون مادة الصباغة من بعض الأشجار لاستخدامها في صباغة المنسوجات وتلوينها، وأيضاً في تلوين الأواني الفخارية وتزيين المرايا. وكانوا عادة ما يخلطون الأصباغ بالعطور لتفوح الملابس بالرائحة العطرية الجميلة، ومن أشهر أنواع النباتات التي استخدمت في الأصباغ والتلوين الآتي:

نبات (الوَرْسُ) وهو أنواع، منه الأسود، ويخرج صبغتين أصفر خالص الصفرة، ومنه الأحمر وهو الأجود[3]. ويصف ابن حوقل الوَرْسُ في اليمن بقوله: «وفيها ينبت الورس وهو نبات أحمر في معنى الزعفران يباع منوان بدينار فيصبغ به»[4]، أما الإدريسي فيقول عنه: «والورس نبات يشبه الزعفران تصبغ به الثياب»[5] ويلون به أنواع المنسوجات مثل الحرير وغيره. وأهم مناطق الورس في اليمن هي منطقة مذيخرة[6].

نبات (العصب) وهو نبات كالورس يستخرج منه صبغ أحمر تصبغ به البرود، وهي البرود المعروفة بالعصب[7]. ويوجد العصب أيضاً في مذيخرة.

ويقال عن المنسوجات في اليمن (عصفرت) و(زعفرت) أي صبغت بالعصفر والزعفران[8].

---

(1) د. رأفت محمد النبراوي: دراسة لقطعتين في المنسوجات الإسلامية في مصر والمين، مجلة الدارة، عدد (2)، السنة 18، المحرم 1408هـ، ص: 208.

(2) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 253.

(3) يوسف بن عمر بن رسول: المعتمد في الأدوية المفردة، ص: 537. مطبعة البابي الحلبي، مصر، ط 3، 1403هـ/ 1983م.

(4) ابن حوقل: صورة الأرض، ص: 37.

(5) الإدريسي: نزهة المشتاق، جـ1، ص: 53.

(6) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 183، الإصطخري: المسالك والممالك، ص: 24.

(7) حسن صالح شهاب، أضواء على تاريخ اليمن، ص: 167.

(8) (العصفر) نبات صيفي من الفصيلة المركبة: نيوبية الزهر، يستخرج منه صبغ أحمر يصبغ به الحرير ونحوه، (والزعفران) نبات بصلي معمر من الفصيلة السوسنية، منه أنواع برية ونوع صيفي طبي مشهور: المعجم الوجيز، ص: 288 ـ 421.

وتصبغ المنسوجات (بالفُوَّة) وهي عروق نبات لونها أحمر، يستعملها الصباغون[1]، وقد انتشرت زراعته بشكل واسع في اليمن في العهد الأيوبي سنة 615هـ/ 1218م، حيث زرع اليمنيون الفوَّة في جميع جبال اليمن، وتركوا الكثير من الغلال الأخرى، لأن (الجريب) كان يغل من الشعير والحنطة خمسة دنانير ملكية، بينما جريب الفُوَّة كان يغل حوالي ستين ديناراً، لذلك زرعته جميع طبقات الناس في اليمن، فكانت الضريبة التي تؤخذ من الفوّة في عدن تقدر بمائة وخمسين ألف دينار سنوياً، أما ضريبة البهار الواحد من الفوّة فقد كان اثني عشر ديناراً في عهد المعز إسماعيل الأيوبي، وهذا مبلغ كبير يدل على كمية الفوَّة التي زرعت في اليمن. ولما كثرت زراعة الفوَّة وأثرت على الزراعة الأخرى في اليمن، صادر الملك المسعود الأيوبي الفوَّة سنة 624هـ/ 1226م فقلَّت بعدها زراعته في اليمن[2].

وفيما سبق يتضح لنا أن الإنسان اليمني كانت لديه المقدرة على صناعة أنواع المصنوعات والتفنن فيها. فأجاد صناعة بعض تلك المصنوعات حتى بلغت أعلى الأثمان. ونالت بها اليمن شهرة. وأنه كان يوجد لديه الاكتفاء الذاتي في صناعة جميع أنواع تلك المصنوعات الهامة التي كان محتاجاً إليها في حياته العامة والخاصة، سواءً على نطاق ملابسه المتنوعة وفرشه، أو على نطاق الأواني المنزلية المتعددة، أو الأدوات المستخدمة في حرفه المختلفة، وأدوات الزينة، أو غيرها.

---

(1) يوسف بن عمر بن رسول: المعتمد في الأدوية المفردة، ص: 371.

(2) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 140، 144، 145، ص: 175.

التجارة

عالج هذا الفصل الطرق البحرية والبرية، وأشهر المدن التجارية، والبضائع المصدرة والمستوردة، وكذلك التجارة الداخلية، بالإضافة إلى العملة والمكاييل والموازين والمقاييس. وذلك وفقاً لما أوردته المصادر عن الفترة المحددة للبحث.

أولًا

التجارة الخارجية

أ ــ **الطرق البحرية**: تطل اليمن على مياه المحيط الهندي من جهة الجنوب، والبحر الأحمر من جهة الغرب، وتتحكم في بوغاز باب المندب الموصل بينهما، وتظهر أهمية موقعها هذا بأنها تتوسط أقصر الطرق البحرية الموصلة بين المحيط الهندي والبحر المتوسط، ولهذا أدّى اليمنيون دوراً بارزاً في التجارة في هذه البحار خلال فتراتهم التاريخية، فسلكوا الطرق البحرية الموصلة إلى الهند والصين، وشرق أفريقيا والبحر الأحمر، واشتغلوا بالتجارة فيما بين مناطقها المتعددة.

وكان لا بدّ لمن يسلك هذه البحار أن يكون خبيراً بها، عارفاً بمواسم الصلاحية للرحلات البحرية وطرقها المسلوكة، من إرتفاع الأمواج، وشدة الرياح، ووجود الصخور والخلجان وغيرها.

فالرياح كانت هي العامل الحاسم آنذاك في دفع المراكب الشراعية وانتقالها من مكان إلى آخر، وكان لهذه الرياح مواعيد وأوقات محددة يجب على كل ملاّح مراعاتها، كما يجب على الملاح أن يكون عارفاً بمواسم الرياح الصالحة للإبحار وغير الصالحة يوضح ذلك العبارة الآتية: (والمعلم الماهر لا تخفى عليه جميع الأرياح ومواسم [أسفار] جميع الدنيا، لأنها مرتبة على الأرياح)[1].

كذلك يجب على الملاح معرفة أماكن الصخور والشعاب المرجانية المنتشرة بأشكال مختلفة في البحار كي يتجنبها أثناء سيره. وقد أوضح الملاحون أماكن

(1) حسن صالح شهاب: فن الملاحة عند العرب، ص: 187، دار العودة، بيروت، ط1، 1984م، عن كتاب الفوائد لابن ماجد، ص: 329.

وجود هذه الصخور في البحار المتعددة، وحذروا الملاحين الآخرين تجنبها. من ذلك أن ساحل بلاد العرب الجنوبية تكثر فيه الرؤوس الخطرة والخلجان الداخلية في البر. لذلك يجب على المراكب الابتعاد عن الساحل إلى عرض البحر بالقدر الذي يحميه خطر الوقوع عليها[1].

وبالنسبة لبحر القلزم يقول عنه الجغرافيون أنه (مثل الوادي به جبال كثيرة قد علا الماء عليها وطرق السفن بها معروفة، لا يهتدى فيها إلاّ بربان يتخلل بالسفينة في أضفاف تلك الجبال بالنهار أما بالليل فلا يسلك)[2].

هذا وتواجه السفن الأمواج الشديدة في السير فالبحر الموصل من شرق أفريقية إلى عمان جنوب الجزيرة العربية (موجه عظيم كالجبال الشواهق وأنه موج أعمى، يريدون بذلك أنه يرتفع كارتفاع الجبال وينخفض كأخفض ما يكون في الأودية، لا ينكسر موجه، ولا يظهر من ذلك زبد ككسر أمواج سائر البحار، ويزعمون أنه موج مجنون)[3].

استطاع البحار اليمني أن يعرف الرياح الموسمية الصيفية والتي تساعده على الاتجاه جنوباً، والرياح الموسمية الشتوية التي تتجه شمالية شرقية، فاستفاد منها برحلاته المتجهة عبر مختلف البحار، والرياح الأصلية شمال، وجنوب، وقبول، ودبور، وما بينها رياح هوجاء ضارة بالمراكب المسافرة. وأول رياح الدبور أو الكوس وهو ما يوافق 11 مايو يسمى (غلق الموسم) لأن السفر يتوقف فيه. أما آخره فيسمى (مفتاح البحر) لأن السفر يبدأ فيه، وعلى ذلك فإن بدء السفر من المراسي الغربية والجنوبية إلى المراسي الشرقية والشمالية في موسم الصيف وهو ما يسمى الدبور، ويبدأ موسم السفر من المراسي الشمالية والشرقية إلى المراسي الجنوبية والغربية في الشتاء وهو ما يسمى القبول. وعندما تكون المدة الباقية من الموسم غير كافية للسفر يجب عدم السفر لأن ذلك يؤدي إلى المهلكة، لانقلاب موسم الرياح قبل التمكن من الوصول إلى المكان المحدد لاتجاههم[4].

وقد كانت أقصى نهاية السفر البحري من ناحية الشرق هي زينون (كاينون)

---

(1) حسن صالح شهاب: فن الملاحة عند العرب، ص: 225.

(2) ابن حوقل: صورة الأرض، ص: 35، 36، الإصطخري: المسالك والممالك، ص: نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات، ص: 36.

(3) المسعودي: مروج الذهب، جـ1، ص: جورج فضلو حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي، ص: 232، ترجمة، يعقوب بكر، الأنجلو المصرية، القاهرة.

(4) حسن صالح شهاب: فن الملاحة عند العرب، ص: 188 ـ 192.

بالصين حيث لا يسلك بعدها، كما أنه كان آخر مكان يصل إليه المسلمون غرباً إلى شرق إفريقية هي مدغشقر[1]. أما المسافة من جزيرة العرب إلى الهند فهي تستغرق شهراً ثم تستغرق من الهند إلى الصين حوالي شهرين[2]، وإذا أضفنا إليها فترة التوقف في المراسي وانتظار الموسم فإن الرحلة من الجزيرة العربية إلى الصين تستغرق حوالي ستة أشهر[3]. ورحلة العودة تستغرق نفس هذه الفترة.

واستخدم البحارة اليمنيون في ارتيادهم البحر طريقين: أحدهما: السير قرب الشواطئ، والآخر وسط البحر مباشرة، فالسفن التي تسير قرب الشاطئ كانت تسير من عدن إلى عمان ثم فارس والهند بمحاذاة شواطئ اليمن وفارس والسند[4]. كما كان السير من الشرق الأقصى والذي يبدأ من الصين يمر أيضاً بمحاذاة ساحل الهند الغربي فساحل عُمان ثم ساحل اليمن فالبحر الأحمر، كذلك كانت السفن تسير بمحاذاة ساحل شرق أفريقيا حتى بلاد الزنج[5]، عن ذلك قال ابن المجاور: «ومن عدن إلى مقدشوه موسم [أي سفرة] ومن مقدشوه إلى كلوة موسم ثاني ومن كلوة إلى القمر موسم ثالث»[6]. وكانوا يختارون السير بمحاذاة الشواطئ لعدة أسباب إما لصغر المراكب أو لأنهم كانوا يتاجرون عبر مراسي الشواطئ، أو للتزود بالمياه والطعام، أو بسبب الرياح، أو هروباً من قراصنة البحر أو غيرها من الأسباب كما أنه يوفر لهم الأمان من هياج البحر، لذلك لجأوا للسير بمحاذاة الشواطئ.

أما الطريق الآخر فهو اختراق البحر مباشرة، فقد كانت سفنهم تقطع المحيط الهندي مباشرة إلى (كُولَمْ مَلى) في جنوب مالابار ثم تواصل السير منها إلى الصين، وكانت رحلة العودة من الصين إلى الهند ثم إلى مهرة في اليمن تتبع نفس الطريق[7]، وكذلك اختراق بحر شرق أفريقية مباشرة، فقد ذكر ذلك ابن المجاور بقوله: «فكان القوم يجمعون الثلاثة المواسم في موسم واحد. وقد جرى مركب

---

(1) نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات، ص: 38، 227.

(2) د. علي حسين الناصري: النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية أواخر العصور الوسطى، ص: 141. مكتبة الأنجلو المصرية، ط1.

(3) حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي، ص: 219.

(4) نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات، ص: 227.

(5) د. علي الناصري: النشاط التجاري في شبه جزيرة العرب، ص: 134، 136.

(6) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 117، حسن صالح شهاب، أضواء على تاريخ اليمن، ص: 72.

(7) حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي، ص: 208. كولم ملي تسمى أيضاً (كويلون Quilon) كولوملي.

من القمر إلى عدن بهذا المجرى سنة ست وعشرين وستمائة أقلع من القمر وكان طالباً كلوة فأرسى بعدن» وقال أيضاً: «وكانوا يطلعون من القمر يأخذون عدن رأساً واحداً في موسم واحد»[1]، والرحلة عبر البحر مباشرة كانت على ما يبدو للسفن الكبيرة التي تحمل بضائع ضخمة كما أنه كانت تستخدم للسفر عبر المسافات الطويلة والبعيدة التي لا يحتاجون معها التوقف. ويجب على المسافر في هذا الطريق معرفة موسم السفر بدقة. أي لا تسلك هذه الطريق إلاّ بربان أي دليل.

ب ـ الطرق البرية:

لقيت الطرق البرية في اليمن اهتماماً كبيراً من قبل الكثير من رجالاتها باعتبار أنها تخدم أغراضاً متعددة مثل طرق سير الحجيج وطرق بريد لنقل الرسائل الإدارية والأموال كالخراج والجبايات، وأيضاً لسير الجيش من مكان إلى آخر، وكذلك باعتباره طريقاً تجارياً تُنْقَل عبره البضائع إلى أماكن متعددة.

وجرت العادة عند إنشاء الطرق أن يجعلوا بين كل فرسخ وآخر أو مرحلة وأخرى مسجداً للمصلين واستراحة وبئراً لمياه الشرب[2]، وكانوا في الغالب يجعلون هذه الطرق تمر عبر القرى العديدة لتوفر لهم الأغراض المطلوبة للسفر.

ومن الذين اهتموا بإصلاح الطرق في اليمن الأمير الحسن بن سلامة آخر أمراء الدولة الزيادية في زبيد في نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجريّين، فقد قام بإصلاح الطرق على طول اليمن. فأصلح من حضرموت إلى عدن وطوله حوالي شهر ومن عدن إلى مكة وطوله كذلك حوالي شهر[3].

ويوجد في اليمن ثلاث طرق برية رئيسية وهي: طريق السهل الشرقي، والطريق الجبلي، والطريق الساحلي.

١ ـ **طريق السهل الشرقي**: وهي الطريق التي تسير من حضرموت عبر شبوه ومأرب، ثم نجران[4] ومنها إلى مكة أو جدة وبالعكس فتسير إلى شبوة ومنها إلى حضرموت ثم عدن[5]، وهي الطريق التي كانت تسلكها قوافل التجارة قديماً. أما في العصر الإسلامي فقد قل السير عليها لعدم توفر المياه الكافية

(1) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 117.
(2) عمارة: المفيد، ص: 71.
(3) الإصطخري: المسالك والممالك، ص: 28.
(4) مجموعة: دائرة المعارف الإسلامية، جـ13، ص: 171.
(5) د. يوسف عبد الله: أوراق في تاريخ اليمن، جـ1، ص: 175.

لسفر القوافل التجارية أو الحجيج. إلا أن بعض القوافل كانت تضطر إلى عبور هذا الطريق رغم صعوبته لقربه من مكة، فظل هذا الطريق يسلك على نطاق ضيق في فترات متعددة من العصر الإسلامي. من ذلك ما ذكر الاصطخري بقوله: «وأما أهل حضرموت ومهرة كانوا يقطعون بلادهم في العرض ويسيرون حتى يصلوا إلى طرق الجادة التي بين عدن ومكة، والمسافة بينهم إلى الاتصال بهذه الجادة ما بين ثلاثين إلى خمسين مرحلة»[1]. وإلى جانب تلك الطريق فقد كان من أهم الطرق لأهل حضرموت في الفترة الإسلامية هو السير من حضرموت إلى عدن ومنها إلى مكة[2].

٢ ـ **الطريق الجبلي**: وهو الطريق الذي يخترق السلسلة الوسطى لجبال اليمن بالطول والتي تسير من عدن إلى الجؤة، والجند، وذي أشرق، وإب، وذمار وصنعاء، وريدة، وأثافت، وخيوان، وصعدة، وجرش، وبيشة، وتبالة... إلخ[3]. وكان السفر في هذا الطريق أكثر نشاطاً في العصر الإسلامي وخاصة فترة الحكم الأموي والعباسي. ونجد الجغرافيّين الأوائل مثل قدامة بن جعفر، والمقدسي، وابن خرداذبة، يهتمون بذكر الطريق الجبلي أكثر من غيره فيذكرون محطاته العديدة التي تمر بها التجارة والحاج، بينما لا يهتمون بذكر المعلومات الكافية عن طريق الساحل، مما يدل على أن الطريق الجبلي كان أكثر استخداماً لقوافل التجارة والحاج، من غيرها من الطرق خلال العصور الإسلامية الأولى، حيث كانت بلاد اليمن تابعة للعباسيّين، وخاصة في العصر العباسي الأول.

ولكن هذا الطريق الجبلي بدأت تقل أهميته عندما تحول حكم اليمن إلى الدويلات المستقلة مثل بني زياد وبني نجاح والصليحيّين وغيرهم، فاستخدموا بدلاً منه الطريق الساحلي على طول تهامة. وذلك لأسباب عدة منها كما يبدو وجود دولة الإمامة الزيدية بصعدة والتي كانت في عداء مستمر مع الدويلات الأخرى المسيطرة على وسط اليمن وجنوبه، مما يعرقل مرور القوافل التجارية بصعدة، يدل على ذلك ما حدث في عهد الإمام أحمد بن سليمان من أن بعض أفراد من التجار

---

(1) الإصطخري: المسالك والممالك، ص: 28.

(2) عمارة: المفيد، ص: 71، 72.

(3) قدامة بن جعفر: كتاب الخراج، ص: 188، 189. المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 112، ابن خرداذبة: المسالك، ص: 134، 135، الإصطخري: المسالك والممالك، ص: 27، 28، عمارة: المفيد، ص: 72 ـ 75، مجهول: عود ملوك اليمن، ق5.

يرأسهم علي بن زيد ساروا عبر صعدة، فأمسك بهم الإمام وحبسهم، فاستخلصوا أنفسهم من الحبس بأربعة آلاف دينار أرسلت إليهم من منازلهم[1]، ومنها صعوبة السير عبر الطرق الجبلية، لذلك تقلص النشاط التجاري عبر الطريق الجبلي وحل محله طريق السهل الساحلي.

٣ ـ **الطريق الساحلي**: ويبدأ الطريق الساحلي سيره عبر تهامة، ويتفرع هذا الطريق منذ بدايته إلى فرعين، فرع يتجه على الساحل مباشرة والذي يسير من عدن إلى باب المندب، ثم المخاء، والسحاري، والخوهة (الخوخة)، والأهواب، وغلافقة، والشرجة، وعثر، وحمضة، وحلى، ثم السرين ثم جدة[2]، وفرع يتجه من عدن إلى موزع، وحيس، وزبيد، وفشال والقحمة، والكدراء والمعجم، ومور، وجيزان، والساعد، وعثر، والهجر، ثم السرين ومنها إلى مكة أو جدة[3]. ويقدر سير القوافل على هذه الطريق من عدن إلى مكة في تلك الفترة بحوالي الشهر[4]، وقد ازداد نشاط هذا الطريق الساحلي أثناء حكم الدولة النجاحية والصليحية والأيوبية وذلك لزيادة النشاط التجاري فيما بين مصر واليمن.

2 ـ البضائع التجارية:

أ ـ الصادرات: تصدر اليمن أنواعاً متعددة من المصنوعات والمنتجات اليمنية التي اشتهرت بها إلى كثير من الدول المختلفة.

فكانت تصدر من الأحجار الكريمة الجزع والعقيق[5]. ومن الأسلحة السيوف اليمانية الجيدة، ومن المنسوجات تصدر أنواع البرود التي اشتهرت بها لجودتها[6]، كما تصدر الوشي الجيد وسائر أنواع الثياب والعنبر، ومن أصباغ الملابس تصدر الورس[7] والفوّة[8]، ومن الحيوانات تصدر البغال والحمير[9] والخيول الجيدة التي

---

(1) الثقفي: سيرة الإمام أحمد بن سليمان، ق13.

(2) عمارة: المفيد، ص: 76 ـ 78.

(3) عمارة: نفس المصدر، ص: 78 ـ 80.

(4) الإصطخري: المسالك والممالك، ص: 28.

(5) الإصطخري: المسالك والممالك، ص: 26، ابن الفقيه: مختصر البلدان، ص: 36.

(6) القزويني: آثار البلاد، ص: 49، 96.

(7) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص: 71، بدر الدين حي الصيني: العلاقة بين العرب والصين، مكتبة النهضة المصرية، ط1، 1370هـ/1950م. ص: 131.

(8) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 144، 145، 175.

(9) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص: 71، بدر الدين الصيني: نفس المرجع والصفحة.

تستخدم في السباق[1]، وتصدر اليمن إلى جميع البلدان الكهرباء البحرية والمقل، والكلك، والقسط الحلو[2].

ومن منتجات اليمن المصدرة إلى البلدان المختلفة فكانت تصدر إلى الحجاز التمر والدخن والذرة، وتصدر إلى الحبشة الجزع[3]، وتصدر اللبان إلى الهند والصين وخراسان وجميع الأقطار، كما تصدر اللك في عيدانه إلى مصر وسائر البلدان[4].

كما تخصصت بعض المناطق اليمنية بتصدير بعض منتجاتها فكان يتم تصدير السمك المجفف من الشحر إلى عُمَان والبصرة[5]، ومن مرباط والشحر اللبان[6]، ومن سقطرى وحضرموت الصبر[7]، ومن صنعاء كان يصدر الأدم (الجلود) والنعال المشعرة، والأنطاع، والصت، والأردية والبرود، وألوان الفصوص والأواني، والجزع وأنواع الخرز[8]، كما تصدر صعدة الجلود[9] وعدن العطور[10]، وتصدر كثير من المناطق اليمنية مثل المعافر، والسحول، وشرعب، وعدن، وحجة أنواع الثياب والبرود إلى مختلف الدول[11]. كذلك تصدر زبيد أنواع الملابس والمربى منه المقصوص من قليل العسل، والمطحون وهو الجيد، والتمر هندي (الحُمَر) الذي أجوده المقلس، وأيضاً تصدر الجلود[12].

وهناك صادرات من اليمن إلى بلدان مختلفة بعضها من إنتاج اليمن وبعضها من مستورداته من بلدان متعددة، يوضح ذلك المقدسي بقوله: «اليمن معدن العصائب، والعقيق والأدم، والرقيق، فإلى عمان تخرج آلات الصيادلة والعطر كله، حتى السمك المجفف، والزعفران واليقم، والساج، والسماسم، والعاج، واللؤلؤ، والديباج، والجزع، واليواقيت، والأبنوس والنارجيل، والعنبر،

---

(1) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص: 328.

(2) عبد الله يوسف غنيم: جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك للبكري، ص: 131.

(3) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 89.

(4) عبد الله يوسف غنيم: نفس المرجع والصفحة.

(5) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 87.

(6) الإصطخري: المسالك والممالك، ص: 27، الإدريسي: نزهة المشتاق، جـ1، ص: 56، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ5، ص: 15.

(7) الإدريسي: نزهة المشتاق، جـ1، ص: 56، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1409هـ/ 1989م.

(8) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص: 112.

(9) الإدريسي: نزهة المشتاق، جـ1، ص: 55، الصت: صناعة من الجلد لا ينفذ منها الماء.

(10) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 192.

(11) انظر عنها في الصناعة.

(12) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 89.

والإسكندروس، والصبر والحديد والرصاص والخيزران، والفصار والصندل والبلور والفلفل وغير ذلك يزيد عدن بالعنبر والشروب والدرق والحبش والخدم وجلود النمر . . .»[1].

ومن خلال قائمة الصادرات التي أوردها المقدسي، نجد أن منها ما ينتجه اليمن مثل العقيق، والجزع والصبر، ومنها ما يأتيها من بلدان متعددة، فتصدره إلى البلدان الأخرى مثل خشب الساج والعاج وغيره.

عشور البضائع المصدرة: كان يتم تحصيل العشور على البضائع التي يتم تصديرها عبر فرضة عدن، وكذلك كانت على البضائع والسلع التي ترد إلى عدن، أما البضائع الواردة لغرض إعادة تصديرها إلى البلدان الخارجية الأخرى فهذه كان يتم حجزها في مخازن الميناء ليتم إعادة تصديرها دون دخول المدينة، فلم توضح المصادر ما إذا كان يتم تحصيل العشور عليها أم لا، لكن الثابت أنه كان يتم تحصيل رسم الفرضة والوكالة حتى يتم تصديرها أو بيعها[2]. وقد أورد ابن المجاور قائمة بالعشور المستحقة على بعض السلع سيرد ذكرها في فصل النظام المالي.

ب ـ الواردات:

تستورد اليمن منتجات متعددة من بلدان مختلفة، بعض هذه الواردات مواد خام تصنع في اليمن بعضها للاستهلاك المحلي والآخر للتصدير، وبعض هذه الواردات يؤخذ عليها عشور والبعض الآخر يؤخذ عليها زكوات[3].

فمن المواد الخام التي تستوردها اليمن وتقوم بتصنيعها ثم تصديرها: الجلود (الأدم) يوضح ذلك ابن المجاور بقوله عنها: «كانوا يدبغون الأدم ويجلب إليهم من أعلى مكة ونجران إلى عمان ومن حلي بني زهرة إلى كرمان ومن كيش وجنابة وفارس ومن بني مكرمان ومن زيلع ورحبتو والمنذرية ومن عدن إلى مكة» فتدبغ هذه الجلود باليمن لتوفر شجر القرظ بها الخاص بالدباغة وتصنع منها بعض الصناعات الجلدية، ثم تصدر إلى بلدان كثيرة يوضح ذلك بقوله: «وكان ينزف جميع هذا الأدم إلى العراق وخراسان وكرمان وما وراء النهر وخوارزم وهجر» كما يصدر (إلى أقاصي الأرض وأدانيها)[4].

---

(1) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 97، 98، حسين علي المسري: تجارة العراق في العصر العباسي، ص: 383.

(2) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 143.

(3) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 143.

(4) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 97، 98.

وأهم البضائع التي تستوردها اليمن من البلدان المختلفة هي حسب بلدانها كالآتي:

من مصر تستورد اليمن الكثير من المنتجات الزراعية التي تستهلك في عدن وغيرها وتعفى هذه الواردات من العشور، وقد عدد ابن المجاور أصناف البضائع الواردة من ديار مصر بأنها: (الحنطة والدقيق، والسكر، والأرز، والصابون الرقي، والأشنان، والعطارة، وزيت الزيتون، وزيت الحار، والزيتون المملح) كما تستورد منها القليل مما يتعلق بالنقل والقليل من العسل النحل[1].

كذلك تستورد اليمن منتجات كثيرة من الهند معفية من العشور مثل (الهليلج العربي، والأكراز والمخاد، والمساور، والأنطاع والأرز والماس مخلوط والسمسم والصابون والتيس والماعز وحطب القرنفل وثياب العرانية ونعال والخرز والغلمان)[2].

كما تستورد من الهند الأعواد والصندلات والكافور والماكافور والجوزبوا والقرنفل والقاقلة الكبابة والنارجيل والثياب المتخذة من الحشيش والثياب العظيمة المخملية وأنياب الفيل[3].

وتستورد من سرنديب الياقوت بألوانه كلها وأشباهه، والماس والدر والبلور والسنبادج الذي يعالج به الجوهر. ومن حلى الفلفل، ومن كله الرصاص القلعي، ومن ناحية الجنوب اليقم والدادي ومن السند القسط والقنا والخيزران[4].

ومن الصين تستورد اليمن الحرير والكيمخاء (الكيمخت) والمسك والعود والسروج والغضار والصُلَينيج والدار صيني والخلو لنجان[5] والحديد، القرند، والدار فلفل والهرنوة والبسباسة والإهليلجات والأبنوس والذبل[6].

وتستورد اليمن من جنوب شرق أفريقية منتجات كثيرة منها الذهب والعاج والشمع[7] وقشر السلحفاة وقرن الكركدن وكميات من جوز الهند والرقيق والجواري[8].

---

(1) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 142، الأشنان شجر ينبت في الأرض الرملية يستعمل هو أو رماده في غسل الثياب والأيدي، المعجم، ص: 19.

(2) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص: 71، الإدريسي: نزهة المشتاق، جـ1، ص: 54.

(3) ابن خرداذبة: نفس المصدر والصفحة، الإدريسي: نفس المصدر والصفحة.

(4) ابن خرداذبة: نفس المصدر والصفحة، الإدريسي: نفس المصدر والصفحة.

(5) ابن خرداذبة: نفس المصدر والصفحة.

(6) الإدريسي: نفس المصدر والصفحة.

(7) حسن صالح شهاب: أضواء على تاريخ اليمن، ص: 70.

(8) د. محمد كريم: عدن دراسة في أحوالها، ص: 345.



التجارة الداخلية

1 ـ أشهر المدن التجارية:

نشطت مدن اليمن في العصر الإسلامي في النواحي التجارية نشاطاً ملحوظاً كان له أهمية كبيرة في العلاقات بين اليمن وكثير من البلدان المختلفة. وكمثل لهذا النشاط التجاري يوضح لنا ابن فضل الله العمري ذلك في قوله عن اليمن: «ولها ارتفاع صالح من الأموال، وغالب أموالها من موجبات التجار الواصلين من الهند ومصر والحبشة مع ما لها من دخل البلاد» كما يضيف: «واسم اليمن أكبر لا تعد في البلاد الخصب بلاده وغالب دخله من التجارة والجلابة براً وبحراً»[1].

بهذين النصين يتبين لنا اتساع النشاط التجاري في اليمن. ومن أهم علامات هذا النشاط التجاري وجود العديد من المدن التجارية في اليمن، نورد هنا أهم هذه المدن مثل زبيد، وصعدة، وصنعاء، وعدن.

أ ـ **زبيد**: تعد من المدن التجارية الهامة، فقد وصفها الإدريسي الذي عاش في القرن السادس الهجري بأنها: (مدينة كبيرة وأهلها مياسير أهل ثروة ومال، والمسافرون إليها كثيرون، وبها مجتمع التجار من أرض الحجاز، وأرض الحبشة وأرض مصر، الصاعدون في مراكب جدة وأهل الحبشة يجلبون رقيقهم إليها ويخرجون منها ضروب الأفاوية الهندية والمتاع الصيني وغيره)[2]، كما ذكر القلقشندي أن زبيد (فرضة اليمن وبها مجتمع التجار من الحجاز، ومصر والحبشة، ومنها تخرج بضائع الهند والصين)[3]. من هذين الوصفين نجد أن زبيد تعتبر مركزاً تجارياً هاماً يقوم بعملية التصدير والاستيراد، وأهم البلدان التي تصدر إليها وتستورد منها هي الصين والهند والحجاز ومصر والحبشة.

وتصدير التجارة من زبيد أو الاستيراد إليها عن طريقين: **أحدهما**: الطريق البري الموصل من زبيد إلى الحجاز ومصر، وهي الطريق التي تسلكه قوافل الحجاج من مصر إلى مكة ومن مكة إلى اليمن، والعكس، **وثانيهما**: طريق البحر من ميناء غلافقة في زبيد إلى مصر عن طريق ميناء

(1) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ممالك مصر والشام والحجاز واليمن، ص: 154، 158، القاهرة، 1985م.

(2) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، جـ1، ص: 53.

(3) صبح الأعشى، جـ5، ص: 10.

عيذاب أو الطور أو السويس[1] وأيضاً إلى بلاد الحبشة والصين والهند والعكس.

٢ ـ **وتعتبر صعدة** أيضاً من المدن التجارية الهامة، فقد ورد عنها أنها (مدينة عامرة آهلة يقصدها التجار من كل بلد، وبها مدابغ الأدم وجلود البقر التي للنعال، وهي خصبة كثيرة الخير)[2]، كما يذكر الإدريسي عن صعدة قوله: «والذي يتجهز به من صعدة الأدم لأن بها دار صناعة الأدم العديم المثال إلا ما كان منه بصنعاء، وبها مجتمع التجار، وأهلها أهل أموال وافرة وبضائع وتجارة كثيرة»، ويقول الإديسي في موضع آخر و(صعدة وهي مدينة صغيرة لكنها متحضرة وبها دار الدباغة يدبغ بها ويتجهز منها إلى كثير من بلاد اليمن والحجاز)[3].

٣ ـ **أما صنعاء**: فهي من المدن التجارية الهامة يقول المقدسي عنها بأنها قصبة نجد اليمن بها تجارات مفيدة[4] ويصفها القلقشندي بأنها: (من أعظم مدن اليمن بها أسواق ومتاجر كثيرة)[5]، لذلك تعتبر صنعاء من المدن التجارية الهامة في اليمن، وكانت أغلب تجارة صنعاء وصعدة عن طريق البر إلى كل من العراق، وفارس، والشام، ومصر، فكان يوجد طريق تجاري تسلكه القوافل من صنعاء إلى البصرة، عن طريق اليمامة[6] وطريق آخر من صعدة إلى البصرة عن طريق الركب[7]. وابن المجاور يذكر بأن اليمنيّين كانوا يسافرون إلى البصرة والكوفة بالحمير وعليها الجلود في كل عام مرتين عن طريق اليمامة أو الإحساء[8]، بالإضافة إلى طريق صنعاء ـ صعدة ـ مكة ـ الشام ـ مصر. ويستخدم تجار الذهب والفضة في البلاد المختلفة هذه الطرق في القدوم إلى صنعاء لشراء الذهب والفضة، ويكسبون من وراء تجارتهم مبالغ كبيرة لارتفاع ثمنها في بلادهم ورخصها في اليمن[9].

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ5، ص: 17.
(2) ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ3، ص: 206، عبد المؤمن: مراصد الإطلاع، جـ2، ص: 841، إسماعيل الأكوع: البلدان اليمنية عند ياقوت الحموي، ص: 175.
(3) الإدريسي: نزهة المشتاق، جـ1، ص: 55، 146.
(4) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 86.
(5) القلقشندي: صبح الأعشى: ج5، ص: 39. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص: 95.
(6) الهمداني: كتاب الجوهرتين، ص: 127.
(7) قدامة بن جعفر: الخراج، ص: 217.
(8) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 189.
(9) الهمداني: كتاب الجوهرتين، ص: 128، بيوترفسكي: اليمن قبل الإسلام، والقرون الأولى للهجرة، ص: 115.

٤ ـ **وتعتبر عدن**: أهم منطقة تجارية في اليمن في العصر الإسلامي، فهي أعظم مراسي اليمن[1]، كما أنها محطة تجارية لكثير من البلدان. وذلك يعود إلى عاملين هامين: **أحدهما**: أن عدن تتوسط طرق التجارة البحرية فيما بين أقصى المشرق وأقصى المغرب، فنشأ لذلك، فيما بين المشرق والمغرب من دول علاقات تجارية واسعة. **وثانيهما**: أن السفر عبر البحر كان يسير على حسب مواسم معلومة، لا تستطيع المراكب التجارية السفر بغير تلك المواسم، وكان لكل مدينة بحرية ولكل اتجاه منها مواسم محددة، منها عدن إذ يوضح ذلك ابن فضل اللّه العمري بقوله: «ولحط المراكب عليها وإقلاعها مواسم مشهورة»[2] لذلك فإن المراكب التجارية آنذاك كانت لا تستطيع اختراق البحر كله من الصين أو الهند إلى الحبشة أو مصر أو غيرهما في موسم واحد. فكان لا بدّ من التوقف في عدن، والانتظار لموسم آخر لمواصلة السير، فهي كما وصفها القلقشندي مدينة (ذات حطّ وإقلاع)[3] أو محطة توقف للتجارة الشرقية والغربية، لذلك فهي تمثل الوسيط التجاري فيما بين الكثير من البلدان.

وكثر وصف الجغرافيّين العرب لها فما قاله اليعقوبي عن عدن أن بها (مرفأ مراكب الصين)[4]. أما ابن خرداذبة المتوفى سنة 300هـ/ 912م فيذكر أن (بها العنبر والعود والمسك ومتاع السند والهند والصين والزنج والحبشة وفارس والبصرة، وجدة والقلزم)[5]، ويصف المقدسي المتوفى أواخر القرن الرابع الهجري 388هـ/ 997م عدن بأنها (دهليز الصين وفرضة اليمن، وخزانة المغرب، ومعدن التجارة كثير القصور مبارك على من رحله مثر لمن سكنه)[6]. كما يصف المقدسي مقدار أرباح التجار الذين يدخلون عدن للتجارة بها بقوله: «إذا أنت دخلت عدن فسمعت أن رجلاً ذهب بألف درهم فرجع بألف دينار وآخر دخل بمائة فرجع بخمسمائة وآخر بكندر فرجع بمثله كافوراً طلبت نفسك التكاثر»[7]، من هذه النصوص يتضح مدى النشاط التجاري بعدن ومدى اتساع التجارة بها خلال القرنين الثالث والرابع الهجريّين بين المشرق والمغرب إضافة إلى العراق وفارس

---

(1) ابن فضل اللّه العمري: مسالك الأبصار، ص: 155، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ5، ص: 10.
(2) ابن فضل اللّه العمري: نفس المصدر، ص: 157.
(3) القلقشندي: صبح الأعشى: ج5، ص: 10. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص93.
(4) اليعقوبي: كتاب البلدان، ضمن الأعلاق النفيسة، ص: 319.
(5) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص: 61، د. علي الناصري: النشاط التجاري، ص: 84.
(6) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 85.
(7) المقدسي: نفس المصدر، ص: 97، 98.

والحجاز والحبشة. كما أنها توضح أهمية عدن كمحطة تجارية هامة لهذه البلدان.

وتعد الصين من أهم المناطق التجارية التي لها علاقة كبيرة مع عدن واليمن وقد نقل آدم متر عن أحد كتاب الصين عن تجارة العرب مع الصين عام 1178م قوله: «إن مملكة العرب لا يقومها بلد آخر من البلدان الأجنبية الغنية في كثير ما يدخر لها من البضائع الأجنبية»[1]، ويؤيد الإدريسي الذي عاش في القرن السادس الهجري هذا الرأي، حيث يوضح أن علاقة عدن التجارية كانت كبيرة مع الصين بالإضافة إلى الهند بقوله: «ومدينة عدن مدينة صغيرة وإنما شهر ذكرها لأنها مرسى البحرين منها تسافر مراكب السند والهند والصين وإليها يجلب متاع الصين»[2]. أما ياقوت الحموي المتوفى سنة 626هـ/ 1228م، فهو يوضح لنا أكبر علاقة تجارية لعدن كانت مع الهند حيث يقول عنها: (هي مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن... إلا أن هذا الموضع هو مرفأ مراكب الهند والتجار يجتمعون إليه لأجل ذلك فإنها بلدة تجارة)[3]. مما يدل على أنه في هذه الفترة ازدادت علاقة عدن التجارية بالهند إلى جانب الصين.

وتزداد علاقة عدن واليمن التجارية خلال القرون الرابع والخامس والسادس الهجرية، مع بلدان عديدة، فيذكر صاحب كتاب المراصد المتوفى سنة 739هـ/ 1338م قوله عن عدن: (وهي مرفأ مراكب الهند والحجاز والحبشة)[4]، ويضيف ابن فضل اللّه العمري قوله عنها: (وإليها مجمع الرفاق وموضع سفر الآفاق يحط بها من الصين والهند والسند والعراق وعمان والبحرين ومصر والزنج والحبشة)[5]. وهكذا تزداد علاقة عدن التجارية اتساعاً لتشمل بلدان كثيرة ممتدة من أطراف الشرق حتى أطراف الغرب، وأنها كانت وسيطاً تجارياً فيما بين هده البلدان.

وأهم فترات النشاط التجاري لعدن هي الفترة الإسلامية، أيام وجود الدويلات المستقلة، منذ القرن الثالث الهجري، وكانت أكثر نشاطاً واتساعاً خلال حكم الصليحيّين وآل زريع والأيوبيّين لليمن. وسوف نورد هنا الأسباب التي أدّت إلى زيادة النشاط التجاري بعدن خلال القرنين الخامس والسادس الهجريّين.

(1) أدم متر: الحضارة الإسلامية، ص: 326.
(2) الإدريسي: نزهة المشتاق، جـ1، ص: 54.
(3) ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ2، ص: 89.
(4) عبد المؤمن: مراصد الاطلاع، جـ2، ص: 923.
(5) ابن فضل العمري: مسالك الأبصار، ص: 157.

أحدها: وجود تجار الكارم الذين يرجع نشأتهم إلى العصر الفاطمي[1]، وهم التجار الذين كانوا يعملون في التجارة فيما بين المشرق والمغرب عبر عدن ومصر، والذين جعلوا من عدن مركزاً رئيسياً لنشاطهم التجاري. وقد أدّى تجار الكارم دوراً بارزاً في المساهمة في تحويل التجارة من الصين والهند إلى عدن ومصر ثم المغرب بفضل نشاطهم المتزايد بهذا الطريق البحري[2].

والثاني: هو اهتمام الدولة الفاطمية بالتجارة البحرية عبر عدن، وذلك نتيجة العلاقة العدائية فيما بين الفاطميّين والعباسيّين، وتقلص التجارة البرية الواصلة إلى مصر عبر بغداد. فاستعاض الفاطميون تنشيط تجارة البحر عبر عيذاب بدلاً من التجارة البرية. لذلك أنشأ الفاطميون أسطولاً بحرياً، (يلتقي به الكارم فيما بين عيذاب وسواكن وما حولها، خوفاً على مراكب الكارم من قوم كانوا بجزائر بحر القلزم هناك يعترضون المراكب فيحميهم الأسطول منهم، وكانت عدة هذا الأسطول خمسة مراكب ثم صارت إلى ثلاثة، وكان والي قوص هو المتولي لأمر هذا الأسطول، وربما تولاّه أمير من الباب، ويحمل إليه من خزائن السلاح ما يكفيه)[3].

وهكذا فقد كان تأمين حركة الملاحة في البحر الأحمر من أهم الأسباب التي أدّت إلى تحول النشاط التجاري إلى عدن.

وثالثاً: يوضح ابن المجاور أن عدن كانت قليلة السكان ثم ازداد الاهتمام ببنائها عهد الزريعيّين خلال القرن الخامس الهجري، وذلك لسببين: **أحدهما**: هجوم صاحب جزيرة كيش (قيس) على عدن سنة 530هـ/ 1135م، ومحاولته القضاء عليها وتحويل التجارة عنها إلى كيش، فلما فشل في محاولته هذه وانتصار آل زريع عليه، بدأوا بعدها بالنزول من جبال عدن وسكنوا سهلها أو واديها وبنوا به

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى: ج3، ص: 520.

(2) جوتيان: دراسات في التاريخ والنظم الإسلامية، ترجمة د. عطية القوصي، نشر وكالة المطبوعات، طبع دار العلم، بيروت، ط1، 1980م. ص: 281، د. عطية القوصي: تجارة مصر في البحر الأحمر عند فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1976م، ص: 103. عن تجارة المكارم، انظر صبحي لبيب: التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى، مجلد 2.
د. أحمد حطيط: الكارم وتجارة الكارم في عصر المماليك، مجلة الفكر العربي، عدد 54، ص: 170 ـ 183.
Ashtor: The Karimi Marchants, J. R. A. S. April, 1956.
Goitem: New light on the beginning of the Karimi Marchants, J. E. S. H. O, 1,1958.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى: ج3، ص: 524، محمد كريم: عدن دراسة عن أحوالها، ص: 349، أحمد الحطيط: الكارمية وتجارة الكارم في عصر المماليك، ص: 170.

دوراً جميلة بالحجارة والجص، ومنذ ذلك الحين توسعت عملية العمارة بها.
وثانيهما: أن الاهتمام ببناء عدن كان بعد خراب فرضة أبين لقدمه، فتحول عنها الكثير من التجار واستقروا بعدن واستمروا في بنائها[1].

كذلك اهتم الأيوبيون بتأمين التجارة وحمايتها، فقد أرسل سيف الإسلام طغتكين سفن الشواني إلى البحر الهندي والأحمر لحماية التجارة والتجار من لصوص البحر، وقد وصلت الشواني التي أعدت لحماية التجارة والتجار إلى قلهات بالهند سنة 602هـ/ 1205م عهد الأتابك سنقر وذلك لانقطاع مراكب الهند التجارية لمدة سنة واحدة بسبب تعرضها لقراصنة البحر[2]، واستمرت الشواني تحمي التجارة طيلة العهد الأيوبي في اليمن[3].

بذلك بلغت عدن مبلغاً تجارياً كبيراً آنذاك، حيث كانت تجذب إليها الكثير من التجار، فازدادت كمية البضائع الواردة إليها والصادرة منها، فقد كان (لا يخلو أسبوع بها من عدة تجار وسفن واردين وبضائع شتى ومتاجر متنوعة والمقيم بها في مكاسب وافرة، وتجارة مربحة، لا يبالي بما يغرمه بالنسبة إلى الفائدة، ولا يفكر في سوء المقام لكثرة الأموال النامية)[4]. أما ابن المجاور فيوضح ذلك بقوله: (وكان يرسي في كل عام تحت جبل صيرة سبعين إلى ثمانين مركب). وقد يزيد عن ذلك أو ينقص[5].

وقد عادت هذه التجارة بفوائد عظيمة على حكام اليمن مما جعلهم يعيشون في سعة من العيش، حيث كان مقدار العشور الذي يرفع كل سنة إلى خزانة تعز من عدن في العهد الأيوبي حوالي أربع خزائن هي:

1 ـ خزانة قدوم المراكب من الهند.
2 ـ خزانة دخول الفوَّة إلى عدن.
3 ـ خزانة خروج الخيل من عدن إلى الهند.
4 ـ خزانة سفر المراكب إلى الهند. ويقدر دخل كل خزينة بمائة وخمسين ألف دينار في السنة، فيكون دخل الخزائن مجتمعة ستمائة ألف دينار[6].

من خلال عدد هذه الخزائن يتضح لنا أن الصادرات كانت أكثر من

(1) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 126، 130.
(2) ابن حاتم: السمط، ص: 131.
(3) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 142.
(4) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ص: 157، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ5، ص: 10.
(5) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 144.
(6) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 144، 145.

الواردات، فالصادرات ثلاث خزائن بينما الواردات خزانة واحدة، وقد تكون خزانة سفر المراكب إلى الهند من بضائع بلدان مختلفة، ولكن مما لا شك فيه أن لليمن خزانتين هما: خزانة دخول الفوَّة عدن وهي زراعة يمنية تستخدم في صبغ الملابس، وخزانة خروج الخيل من عدن إلى الهند وهي من خيول اليمن، حيث إن الخيول اليمنية كان يتم تصديرها إلى الهند، وتبلغ قيمة الحصان الواحد من الخيل ما بين ألف إلى أربعة آلاف دينار وهي الخيل التي تجلب للسباق[1].

إلا أن هذه الحالة لم تكن ثابتة في اليمن، ففي آخر فترة حكم الأيوبيّين حاولوا مصادرة الفوَّة ومنع تصديرها وذلك نتيجة اتجاه أغلب الناس في اليمن إلى زراعتها وإهمال بقية المزروعات، مما قلص صادرات الفوَّة من اليمن، كذلك قلَّت تجارة الخيول إلى الهند حينما فرض الأيوبيّون ضريبة عالية على الخيول الصادرة من اليمن فبلغت ضريبة الخيل الواحد الصادر منها حوالي سبعين ديناراً[2].

وفي نطاق البضائع الواردة تطبق في عدن عدة إجراءات إدارية فعندما يقدم إليها مركب محمل بالبضائع يرسو أولاً بعيداً عن الفرضة، فيذهب إليه بعض الأفراد بالصنابيق وهم ما يسمون بالمبشرين فيسألون ربان المركب عن البلد القادم منها وأحوال التجار الذين لهم أهل وعلاقة بعدن، كما يسأل ربان السفينة المبشرين عن الوالي في المدينة وعن أسعار البضائع. وفي المركب يقوم الكَرَّانِي (الكاتب) بتسجيل جميع ما في المركب من بضائع ومتاع وقماش، ويكتب أسماء التجار وربان المركب. وبعد كتابة كل ما في المركب ترسل الصفحة المكتوبة إلى الوالي، ويعود المبشرون فيتجولون في البلد يبشرون أو يخبرون أهل من وصل من أهل عدن بجمع الشمل، وعن البضائع والجهة الواصلة إليها. بعدها يأتي المركب إلى المراسي فيصعد نائب الوالي ويفتش الركاب تفتيشاً دقيقاً لكل رجل (ويصل التفتيش إلى العمامة والشعر والكمين وحزة السراويل وتحت الآباط) بعدها يسمح بنزول الأقمشة والبضائع إلى الفرضة (فتحل شدة شدة وتعد ثوباً ثوباً). كما توزن البضائع الداخلة إليها بالقبان[3]. وكما يبدو أن هذا التفتيش الدقيق لأخذ ضراب على الحلي والمجوهرات.

ومن ضمن المعاملات التجارية في ميناء عدن أنه من أراد السفر منها لا بدّ أن

---

(1) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص: 328.

(2) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 140.

(3) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 138، 139، د. عصام الدين: اليمن في ظل الإسلام، ص: 256.

يأخذ تصريحاً من الوالي بالسماح له بالسفر وذلك بأن يقدم للوالي قبل السماح له بالسفر ضميناً يضمن عليه بما قد يظهر عليه من مال للدولة مثل عشور أو غيره أو ما يظهر للناس من مال كدين أو قرض أو قيمة بضائع أو أشياء أخرى أو غيرها. وإذا لم يكن له أحد في عدن يضمنه، ينادي منادٍ في الأسواق إن فلاناً مسافر فمن له عليه شيء يطالبه، فإذا ظهر أحد أخذ ماله، وإذا لم يظهر أحد سمح له في السفر(1).

كذلك إذا أراد صاحب مركب السفر من عدن إلى أي بلد من البلدان رفع علماً خاصاً بذلك على ظهر المركب، يظل مرفوعاً عدة أيام حتى يتم السفر. وعندما يعلم التجار برفع العَلَمْ وسفر المركب يتجهز من يريد السفر منهم، فيسرعون بنقل تجارتهم وأمتعتهم إلى المركب إلى أن يتم السفر(2).

٢ ـ **الأسواق**: نشطت التجارة الداخلية في اليمن في العصر الإسلامي نشاطاً كبيراً في العديد من المدن والقرى، فكانت الحركة التجارية بين المدن ذاتية النشاط حيث كان تجار زبيد وذمار وصنعاء يذهبون إلى عدن بمنتجاتهم ويجلبون منها أنواعاً من البضائع مثل القطن (العطب) والعطر والفولاذ (الهندوان)(3).

كذلك كانت الحركة التجارية بين القرى والمدن اليمنية نشيطة فكانت القرى تصدر للمدن الأصناف العديدة من منتجاتها سواء الزراعية أو الصناعية أو المواد الخام. فكانت (ألهان) و(سعوان) تصدر أنواع الجزع والعقيق إلى صنعاء(4)، كما كانت تصدر من جبلان إلى صنعاء أنواع الأبقار الجبلانية(5)، كذلك كانت الأخشاب التي تستخدم في العمارة تجلب إلى أنحاء اليمن من أودية كثيرة منها سردد، مور، رماع، نخلة، زبيد، ريمان، ذوال وغيرها، كما كان ينتج أهل الجليلة في تهامة القلا وهو الحطم ويصدَّر منها إلى أنحاء اليمن(6).

وتصدّر الشحر السمك المجفف إلى عدن وأطراف اليمن(7) وتصدر خيوان الزبيب الطيب المذاق إلى أنحاء اليمن(8). وتصدر كثير من مناطق ساحل تهامة مثل

(1) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 146.
(2) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ5، ص: 11، جميل حرب: الحجاز واليمن، ص: 158.
(3) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 192.
(4) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 321، 322.
(5) ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ2، ص: 102.
(6) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 63، 92.
(7) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 87.
(8) الإدريسي: نزهة المشتاق، جـ1، ص: 147.

الشرجة، والحردة، وعطنة مخازنها من الذرة إلى عدن. وتعد السروات معدن الحبوب والتمور والعسل الكثير تصدرها إلى أنحاء اليمن[1]، كما تصدر منطقة (سفاكا) في تهامة التمر الهندي (الحمر) إلى الأماكن المختلفة في اليمن، وفي زبيد تباع الخضر والبقول مع الغلال[2] منها ما تنتجه زبيد نفسها ومنها ما يجلب إليها من القرى المجاورة.

والأسواق هي مركز الحركة التجارية وهي أسبوعية في الكثير من مدن اليمن وقراها. ففي مدينة عدن كان يقام سوق تجاري على شاطئ البحر يجتمع إليه الكثير من تجار عدن وغيرها[3]. ومن أهم أنواع التجارة فيه العطور أو الطيب بأنواعه والأدم واللؤلؤ، والبرود التي كانت تجلب من المعافر[4].

وفي قرية (أسامي) في تهامة كان يعقد سوق تجاري أسبوعي يحضره الكثير من القرى المجاورة. وفي منطقة الأهواب على ساحل زبيد كان يوجد بها أسواق ودكاكين وجامع[5] وتوجد أيضاً أسواق تجارية في كل من السَّرَين، وحَلْي بن يعقوب، وضَنْكَان، وعَثَّر[6].

وهناك أسواق تجارية داخلية كثيرة يحضرها في يوم ميعادها الجمع الكثير من الناس. ففي مغارب اليمن الأعلى مثل منطقة (قدم) و(الكلابح) و(شظب) و(الشرف) وغيرها من مناطق حجة والمناطق المجاورة لها حيث كان يقام بها سوق كبير وصفه الهمداني بقوله: (سوقهم الأعظم الجريب يتسوقه يوم وعده ما يزيد على عشرة آلاف إنسان)[7] وهذا ما يدل على كبر حجم النشاط التجاري الداخلي في هذا السوق.

كما يوجد أسواق أخرى في كثير من مناطق اليمن، منها سوق صنعاء الذي يجلب إليه القطن والزعفران والأصباغ وغيرها ويشترون منه البز والحرير والجلود والبرود. وسوق الشحر الذي اشتهر ببيع اللبان والعنبر، كما يوجد به البز والأدم والصبر والدخن، ويأتيه التجار من البر والبحر[8].

---

(1) المقدسي: نفس المصدر، ص: 86. (2) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 82، 89.
(3) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ5، ص: 11.
(4) سعيد الأفغاني: أسواق العرب، ص: 268، 269.
(5) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 88، 247.
(6) حمد الجاسر: كتب المنازل من روافد الدراسات عن جغرافية جزيرة العرب، مصادر جزيرة العرب، جـ1، ص: 321.
(7) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 127، إسماعيل الأكوع: البلدان اليمنية عند ياقوت، ص: 77.
(8) سعيد الأفغاني: أسواق العرب، ص: 273، 274، 276.

وكانت أغلب أسواق اليمن تقام أسبوعية، وخاصة في المدن الصغيرة والقرى وتسمى الأسواق باسم اليوم الذي تعقد به السوق، مثل سوق الخميس، سوق الجمعة، سوق الأحد، وهكذا فمثلاً كان في (أتافث) يقام بها السوق يوم الجمعة[1].

والأسواق التي تقام في القرى عادة ما تقام في منطقة متوسطة بين مجموعة من القرى بحيث يستطيع أهل القرى الوصول إليه والعودة منه في نفس اليوم. وأحياناً قد يسافر بعض التجار إلى أسواق أخرى بعيدة تستغرق في الذهاب إليه والعودة منه عدة أيام. لأن الأسواق القروية عادة لا تحوي كل أنواع البضائع، فهي عادة ما تتوفر بها متطلبات القرى الخاصة والضرورية التي يحتاجها أغلب الأفراد مثل الملابس والحبوب أو المنتجات التي تشتهر بإنتاجها المنطقة نفسها.

وكانت لكل سوق أسبوعي مشرف عليه يسمى صاحب السوق هو الذي يقوم بجباية الأموال من السوق وعادة ما كانت الضرائب (الجبايات) يأخذها مشرفو الأسواق عن طريق الضمان[2]. كما أن المشرف يقوم بحل المشاكل الناشئة بين تجار السوق أو بينهم وبين الأفراد المتسوقين.

وإلى جانب الأسواق الأسبوعية هناك أسواق موسمية وهي أسواق تقام بمناسبة معينة مثل سوق يقام في زبيد في موسم حصاد النخيل، وهذا النخيل عبارة عن عشر قطع في زبيد كل قطعة طولها وعرضها ربع فرسخ، وفي كل قطعة ثلاثة أصناف من الرطب حماري وخضاري وصفاري، وعندما يحين نضج الرطب فيها يتقبل الأفراد النخيل كل على قدر طاقته، ويحضر إليه الناس من أنحاء اليمن من أطراف أبين إلى أطراف حرض، كما ينزل إليه الكثير من أهل الجبال، ويقيم الناس فيه بأعمال ترفيهية كثيرة مثل اللعب والضحك والشراب[3].

وتأخذ الأسواق في اليمن شكل أسواق تخصصية مثل عادة الأسواق في سائر المدن الإسلامية حيث يطلق عليها اسم صنف البضاعة التي يحتويها هذا السوق، مثل سوق الحبوب، سوق السليط، سوق الحدادين أو غيره. وكانت الأسواق المتخصصة تقام في كل من المدن والقرى فمثلاً وجد في عدن سوق العطارين، وسوق الخضر[4]، وفي صنعاء وجد سوق العطارين وسوق التبانين، وسوق

(1) قدامة ابن جعفر: الخراج، ص: 189.
(2) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 134.
(3) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 79.
(4) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 130، 148.

اللسانين، وسوق العراقيّين[1]، ومن الأسواق المتخصصة في القرى كان يقام سوق البز في بلدة (أسامي) بعد صلاة ظهر يوم السوق، وذلك بسبب أن أهل القرية يقدمون إلى السوق بمصنوعاتهم ومنتجاتهم في أول النهار ليبيعوها، وتستمر عملية بيعهم لبضائعهم إلى وقت الظهر، وبعد صلاة الظهر يتجهون إلى سوق البز لشراء ما يحتاجونه من البز والقماش[2] ويتضح من ذلك أن أغلب الناس في (أسامي) آنذاك كانوا لا يملكون نقوداً عند انعقاد السوق، لذلك يتجهون إلى بيع أحد مصنوعاتهم لشراء منتجات أخرى بثمنها.

ب ـ **الحسبة**: كانت مدن اليمن وبعض الجهات بها يتولّى عليها حاكم يعين من القضاء ومهام هذا الحاكم متعددة من أهمها الحسبة، وأهم أعمال الحسبة هي كل ما يتعلق بالمعاملات من غش المبيعات وتدليس الأثمان، ومن مهامه (المنع من التطفيف والبخس في المكاييّل والموازين والصنجات) وغيرها[3].

وبالإضافة إلى قيام الولاة والعمال والحكّام والقضاة بأعمال الحسبة فقد كانت هناك بعض أعمال الحسبة تتم عن طريق التراضي بين البائع والمشتري دون اللجوء إلى الحاكم، وذلك بحكم العرف المتبع والإلتزام بأنظمة الحسبة، من ذلك أن رجلاً اشترى ملابس فلما وجد بها عيباً ردها على البائع وفي ذلك قال ابن المجاور: (إذا اشترى زيد ثوباً واستغلاه فرق (لطف) طرفه ورده على صاحبه لاستظهار عيبه)[4] وعند الأئمة الزيدية كان الإمام هو الذي يقوم بعملية الحسبة[5].

ثالثاً

وسائل المعاملات التجارية

1 ـ العملة:

كان للعملة فضل كبير في تسهيل المعاملات التجارية وازدهارها بين البلد الواحد أو البلدان المختلفة، وقد لجأت كل الشعوب إلى ضرب العملة، من أنواع المعادن مثل الذهب والفضة والنحاس والبرونز، إلا أن أكثر المعادن شهرة في

---

(1) الرازي: تاريخ مدينة صنعاء، ص: 332، 106، 107، 112، د. محمد أمين صالح: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 208.

(2) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 88.

(3) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص: 218، 219.

(4) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 146.

(5) مجهول: سيرة عبد الله بن حمزة، جـ30، ق62.

ضرب العملة هي الذهب والفضة، ومن حيث قيمة العملة فقد جعلوها مساوية لقيمة المعدن الذي ضرب منها، أي أن العملة تحمل قيمتها في نفسها، فالدينار الذي ضرب من الذهب قيمته تساوي قيمة وزن الذهب الذي ضرب به، ولذلك كان من السهل التعامل بنقود بلد ما في البلدان الأخرى، فمثلاً الدينار الذهب المصري كان التجار يتعاملون به في اليمن[1] والهند وغيرها من البلدان، لأن القيمة الحقيقية للدينار كانت في الذهب نفسه الذي ضربت منه العملة المصرية وهكذا جميع العملات.

ومن الملاحظ أن العملة المضروبة من الذهب أو الفضة أو غيرهما، لم تكن متساوية الحجم والوزن في البلد الواحد أو في البلدان المختلفة، فالبعض يضرب الدينار بوزن وحجم كبيرين، والبعض الآخر يجعله صغيراً، فقد يصل وزن الدينار إلى أربعة غرامات أو ثلاثة وقد يكون غرامين، فمثلاً كان الدينار المصري أكبر من الدينار اليمني الملكي المنسوب إلى الملك المكرم، إذ أن الدينار المصري يساوي أربعة دنانير ونصف ملكي[2]. كذلك ضرب الملك المعز إسماعيل بن طغتكين درهماً كبيراً وزنه ثلاثة عشر قيراطاً، بينما كان الدرهم المضروب قبله في عهد الدولة العباسية وعهد سيف الإسلام طغتكين يساوي أربعة قراريط وحبة[3]. مما جعل الدينار أو الدرهم يختلف من مكان إلى آخر وذلك بحسب وزنه ومعدنه، ومع ذلك الاختلاف فقد التزمت بعض المناطق اليمنية بتوحيد وزن العملة، فضربت دنانير مساوية للدنانير المصرية[4].

ومن الملاحظ أيضاً أن العملة كانت تضرب في مناطق كثيرة ويرجع ذلك إلى توفر المعادن بها مثل الذهب والفضة، أو لأنها كانت عواصم لبعض الدويلات.. ففي اليمن ضربت العملة في كل من عدن والجند، وزبيد، وذمار، وذي جبلة، وصنعاء، وصعدة، وبيشة، وعثر، ومسور، وغيرها[4]. وكان حكام تلك المناطق يراقبون نقاوة المعدن الذي تضرب به العملة وذلك خوفاً من تزييف العملة من حيث خلط معدنين أحدهما أقل قيمة من الآخر فأحياناً كانوا يخلطون الذهب

---

(1) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 12.

(2) ابن المجاور: صفة، ص: 145، تقسم العملة المصرية إلى دينار ودرهم وفلس، أما الدينار اليمني فيقسم إلى درهم، وجوز، وفلوس، ودوس، فالدينار يساوي 4 دراهم، والدرهم يساوي 3 جوز، والجائز يساوي 8 فلوس، والفلس يساوي 4 دوس، ابن المجاور: صفة، ص: 145.

(3) ابن المجاور: صفة، ص: 12.

(4) د. محمد أبو الفرج القس: المسكوكات في الحضارة العربية الإسلامية، مجلة الإكليل اليمنية، ص: 41، 42.

بالنحاس لأن النحاس قيمته أرخص من قيمة الذهب، فيقلل ذلك من قيمة العملة المضروبة، فمثلاً عندما ضرب الإمام عبد الله بن حمزة عملته، أشاعوا أنها مزيفة فرفض الناس التعامل بها، ثم عادوا للتعامل بها عندما أثبت لهم أنها غير مزيفة[1]. كذلك تأثرت قيمة العملة بوفرة وندرة المعدن الذي يضرب منه الدينار أو الدرهم فالبلد الذي يتوفر فيه الذهب أو الفضة يقل قيمته عن البلد الذي لا يوجد بها هذين المعدنين. يشير إلى ذلك ابن رسته بقوله: (فضرب الدرهم ربما ارتفع من الستين إلى المائة بدينار)[2]، ولكن استعاضوا عن ذلك بوفرة وندرة السلع وجودتها، فالبلد الذي توجد لديه سلعة ما، ولا توجد في البلد الآخر قيمتها تكون عالية وخاصة إذا كان الطلب عليها كبيراً، فمثلاً كان العقيق باليمن له قيمة كبيرة لأنه لا يوجد بكثرة في غيرها[3].

ضربت في اليمن عدة أنواع من العملات من معادن النحاس والفضة والذهب منها العملات الصغيرة ومنها العملات الكبيرة، فضرب الفلس والدرهم والدينار، وكان يضرب الدرهم على عدة أجزاء منها الدرهم الكامل ويسمى الدرهم الكبير[4] ونصف الدرهم، وربع الدرهم ويسمى الدرهم الصغير، كذلك ضرب الدينار على عدة أجزاء منها الدينار الكامل ذهباً، ويسمى الدينار الكبير أو المثقال، وضرب منه نصف الدينار، وثلث الدينار، وربع الدينار ويسمى الدينار الصغير[5] ويزن الدينار مثقالاً من الذهب[6] أي 4,265 من الجرامات أو 72 حبة من الشعير[7]. وقد يساوي المثقال 4,45 غرام أو 24/ قيراطاً[8].

---

(1) مجهول: سيرة عبد الله بن حمزة، 3/62، صورة للمخطوط لدى الباحث د. عبد الغني عبد المعطي: عوامل الصراع السياسي المذهبي، مجلة الإكليل اليمنية، ص: 83، ذكر صاحب سيرة الإمام عبد الله بن حمزة 3/ 61 أن الدينار السبائي (السبئي) الذي ضرب في دولي علي بن محمد الصليحي ودرهم الغز (الأيوبي) كانا جميعاً مشوبان بالنحاس، لذلك رأى الإمام عبد الله بن حمزة ضرب الدينار نقي، فضربه سنة 601هـ، وذكر في صفحة أخرى 3/ 61، 62، أن دنانير أعدائه كانت مخلوطة في الصفر والغش، فكانوا مجبرين على قبولها ولكنها تسبب لهم خسارة.

(2) الأعلاق النفيسة، ص: 112، 113.

(3) الحمادي: كشف أسرار الباطنية، ص: .

(4) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 89.

(5) مجهول: سيرة الإمام عبد الله بن حمزة، ق62.

(6) مجهول: نفس المصدر والصفحة.

(7) د. سيدة الكاشف: دراسات في النقود الإسلامية، المجلة التاريخية المصرية، ع12/ 1965، ص: 66، 67.

(8) حسن صالح شهاب: عدن فرضة اليمن، ص: 129.

وقد أبان ابن رسته عن سعر صرف هذه العملات بقوله: (ومعاملة أهل البلد بالدنانير المطوقة والدرهم السديسية، والفلوس فضرب الدرهم ربما ارتفع من الستين إلى المائة بدينار والفلوس أربعة وعشرين بدرهم ووزن كل درهم سدس درهم)[1].

وتنسب العملة إلى الشخص الذي ضربها فيقال: (دينار سعيدية) نسبة إلى سعيد الأحول ابن نجاح[2] أو (دنانير ملكية) نسبة إلى الملك المكرم بن علي الصليحي[3] أو (دنانير سبئية)[4] نسبة إلى سبأ بن أحمد بن المظفر الصليحي. أو (دينار حاتمية)[5]. نسبة إلى حاتم اليامي حاكم صنعاء أو (دينار علوي) نسبة إلى الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين حاكم صعدة[6]. أو تنسب إلى البلد التي ضربت بها فيقال دينار عثري نسبة إلى بلدة عثر في المخلاف السليماني[7]. وقد ينسب إلى لونه مثل الدينار الأحمر[8]، وباسم معدنه مثل الدينار الذهب.

ضربت أنواع عديدة من النقود في عصر الولاة باليمن وخاصة في العصر العباسي، منها فلس، ضرب بصنعاء سنة 157هـ/ 772م في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور العباسي كتب عليه اسم ولي العهد والعبارة الآتية في الظهر: محمد رسول اللّه، المهدي محمد بن أمير المؤمنين، في الوجه: لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له. في دوره من الظهر: محمد رسول اللّه ـ أرسله ـ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله. وفي دوره في الوجه: ضرب هذا الفلس باليمن سنة سبع وخمسين ومائة[9].

---

(1) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص: 112، 113.

(2) د. حسن سليمان: الصليحيون في اليمن وعلاقتهم بالخلافة الفاطمية، ص: 250.

(3) عمارة: المفيد، ص: 135.

(4) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ق61. الدينار السبئي قد يكون منسوباً إلى بلدة سبأ أو سبأ بن زريع.

(5) الخزرجي: العسجد، ص: 161.

(6) الهمداني: كتاب الجوهرتين، ص: 123.

(7) ابن حوقل: صورة الأرض، ص: 23، عمارة: المفيد، ص: 66، د. حسن سليمان: نفس المرجع والصفحة.

(8) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 80.

(9) د. محمد أبو الفرج العش: المسكوكات في الحضارة العربية الإسلامية، الآثار الإسلامية في الوطن العربي، ص: 109 ـ 211، مجلة الإكليل، ص: 41، الفلس موجود في متحف الأوسمة بباريس، والنصف درهم موجود في متحف قطر الوطني، د. العش: نفس المصدر، ص: 109، 210، الآية القرآنية المضروبة في الدينار من جهة الظهر فهي من سورتين من القرآن فآية (محمد =

ومنها درهم ضرب بصنعاء سنة 169هـ/ 785م منها نصف الدرهم كتب عليها في الظهر: العباس (محمد رسول اللّه) بن محمد. أي أن محمد رسول اللّه كتب بين عبارة العباس وبن محمد. وفي الوجه: لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له. (قطره 19مم. وزنه 1,33غ).

ودرهم آخر ضرب بصنعاء سنة 173هـ/ 789م كتب عليها اسم الخليفة هارون الرشيد العباسي، ووالي اليمن الغطريف بن عطاء الكندي الذي حكمها سنة (170 ـ 173هـ) (786 ـ 789م)، كما ضربت عدة دنانير عباسية، منها دينار ضرب سنة 189هـ/ 804م كتب عليه في الوجه: لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له.

في الظهر: محمد رسول اللّه للخليقة. يقصد الخليقة الناس جميعاً.

في الدور وجه: محمد رسول اللّه ـ أرسله ـ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله.

في الدور ظهر: باسْم اللّه ضرب هذا الدينار سنة تسع وثمانين ومائة[1].
(الوزن 4,9غ، والقطرَ 18,4مم)[1].

كما ضربت الدنانير في اليمن في بعض السنين في عدة مناطق يمنية في كل من (بيشه) منها سنة 339هـ، 340هـ، وفي (ذمار) منها سنة 447هـ، 339هـ، وفي (عدن) منها سنة 337هـ، 338، 340، 347، 349هـ، وفي (عثر) منها سنة 342، 344، 346، 348هـ، وفي (زبيد) منها سنة 341، 342، 350، 357، 359، 362هـ[2].

كما وصلتنا دنانير ضربت في مدن مختلفة في القرنين الخامس والسادس الهجريين نسبت إلى نجاح والصليحيّين والأيوبيّين وكذا الأئمة الزيدية. من تلك الدنانير ديناران أحدهما ضرب بصنعاء سنة 435هـ والآخر ضرب بالجند سنة 438هـ، يحملان اسم الخليفة القائم بأمر اللّه العباسي واسم المظفر بن علي[3].

= رسول اللّه) من سورة الفتح الآية رقم (29) والآية الثانية هي ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون**﴾ سورة التوبة آية رقم (37) وكلمة أرسله غير واردة في الآية.

(1) أحمد محرم: عملة عباسية في اليمن، الآثار الإسلامية في الوطن العربي، انظر أحمد محرم: نفس المرجع، ص: 226، 228، د. محمد العش: نفس المرجع، ص: 210، 211.

(2) د. محمد أبو الفرج العش: المسكوكات في الحضارة العربية الإسلامية، الآثار الإسلامية، ص: 210، 211، مجلة الإكليل، ص: 42.

(3) المظفر بن علي هو المظفر بن علي بن إبراهيم بن محمد بن زياد تولى حكم زبيد بعد أبيه =

ومنها ثلاثة دنانير ضربت للنجاحيّين، ديناران ضربا بالجند أحدهما سنة 437هـ والآخر سنة 439هـ، ودينار ثالث ضرب في زبيد سنة 444هـ تحمل هذه الدنانير الثلاثة اسم الخليفة العباسي القائم بأمر اللّه وعلي بن المظفر ـ وهو ابن المظفر المذكور سابقاً ـ والمؤيد نجاح نصير الدين[1].

من خلال ذلك نجد أن الثلاثة الدنانير الأخيرة تشير بوضوح إلى نجاح مؤسس الدولة النجاحية وإلى جانبه ذكر اسم علي بن المظفر بن علي بن إبراهيم بن محمد بن زياد تولّى السلطة في زبيد والجند بعد أبيه المظفر[2]، مما يدل على اشتراك نجاح مع آخر أُمراء بني زياد وربما أنه كان هذا الأخير طفلاً وكانت السلطة بيد نجاح وأن النجاحيّين يعتبرون امتداداً لبني زياد، وإلى جانبهما ذكر الخليفة العباسي رمزاً للتبعية للعباسيّين.

أول دينار وجد مضروباً للصليحيّين سنة 433هـ يحمل اسم الداعي علي بن محمد الصليحي، لم يذكر فيه اسم الخليفة الفاطمي، غير أنه ذكرت فيه العبارة المشهورة عند الشيعة وهي: (علي ولي اللّه) وهي ما تعبر عن ولاء الصليحي للفاطميّين، وضرب دينار آخر للصليحيّين في زبيد سنة 442هـ يحمل اسم الداعي علي بن محمد الصليحي ممهوراً بعبارة (علي ولي اللّه) بالإضافة إلى عبارة (سيف المعد) ويقصد بالمعد لقب المستنصر باللّه الفاطمي[3]. ولقد كتب عليه:

على أحد وجهيه: لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه علي ولي اللّه.

على الوجه الآخر: أمر به الأمير سيف المعد علي بن محمد[4].

كذلك ضرب دينار آخر في زبيد للصليحيّين سنة 445هـ كتب عليه الشعار الآتي: الوسط الوجه: المستنصر باللّه أمير المؤمنين.

المدار الأول للوجه: محمد رسول اللّه ـ أرسله اللّه ـ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله.

= إبراهيم الذي تولى حكم زبيد بعد أخيه، أبي الجيش بن إبراهيم سنة 393هـ، الجندي: السلوك، جـ2، ص: 480.

(1) د. محمد أبو الفرج العش: نفس المرجع، الآثار الإسلامية، ص: 211، مجلة الإكليل، ص: 42، 43.

(2) الجندي: السلوك، جـ2، ص: 481.

(3) د. محمد أبو الفرج العش: المسكوكات في الحضارة العربية الإسلامية، ص: 211، مجلة الإكليل، ص: 43.

(4) Bikhazi Ramzi: Coins of Al - Yaman, P. 77, 78.

المدار الأول للظهر: ضرب هذا الدينار بزبيد سنة خمس وأربعين وأربعمائة.
المدار الثاني للوجه: أمر به الأمير المظفر في الدين نظام المؤمنين.
المدار الثاني للظهر: لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه علي ولي اللّه[1].
كما وجدت دنانير للصليحيّين ضربت في زبيد سنوات 445هـ، 447هـ، 451هـ[2].

وفي سنة 477هـ أمر المكرم بضرب الدينار الملكي[3]، وكتب عليه:
في أحد وجهيه: لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه علي ولي اللّه.
في الوجه الآخر: الملك السيد المكرم عظيم العرب سلطان أمير المؤمنين[4].

كذلك ضربت دنانير في عدن للصليحيّين عام 486هـ تحمل اسم الخليفة المستنصر باللّه الفاطمي، واسم الملك المكرم عظيم العرب سلطان أمير المؤمنين[5] وشعاره الآتي:

الوسط الوجه: لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه علي ولي اللّه.
الوسط الظهر: الملك السيد المكرم عظيم العرب سلطان أمير المؤمنين.
المدار على الوجه: ضرب الدينار بعدن سنة ست وثمانين وأربعمائة.
المدار على الظهر: الإمام أبو تميم المستنصر باللّه أمير المؤمنين[6].

ومن الملاحظ من ذلك أن الدنانير ظلت تضرب في عهد السيدة الحرة باسم المكرم. كما ضربت عملة صليحية في ذي جبلة سنة 530هـ/ 1130م تحمل إسم المكرم فقط دون ذكر اسم الخليفة الفاطمي[7]، ويعود ذلك إلى انفصال الدعوة في اليمن عن مصر باعتقاد حكام اليمن بالدعوة الطيبية. بينما كانت مصر تعتقد بالدعوة الحافظية، فاستقلت اليمن عن الفاطميّين فلم تضرب العملة بأسمائهم.

كذلك ضربت في عدن عملة في عهد الزريعيّين تحمل اسم محمد بن سبأ الزريعي مع لقب له هو (المتوج) و (داعي أمير المؤمنين) كما تحمل اسم الخليفة الفاطمي (الآمر بأحكام اللّه). وفي عهد عمران بن محمد بن سبأ الزريعي ضرب

---

(1) العش: المسكوكات: مجلة كلية الآداب، ص: Bikhazi Ramzi: Coins of Al - Yaman, P.43 . 77, 78.

(2) العش: المسكوكات، مجلة كلية الآداب، ص: 43، 44.

(3) عمارة: المفيد، ص: 135.

(4) عمارة: المفيد، ص: 135. هامش رقم (4).

(5) د. محمد أبو الفرج العش: نفس المرجع، الآثار الإسلامية، ص: 212، الإكليل، ص: 43.

(6) د. محمد أبو الفرج العش: المسكوكات في، الآثار الإسلامية، ص: 212، مجلة الإكليل، ص: Bikhazi Ramzi: Coins of Al - Yaman, P. 77, 78.43 .

(7) د. محمد أبو الفرج العش: المسكوكات، مجلة الإكليل، ص: 43.

دينار سنة 556هـ/ 1160م لا يحمل اسم الخليفة الفاطمي، ولكنها تحمل مأثوراتهم الشيعية وهي: (علي ولي اللّه) مما يدل على بقاء ولائهم لهم فهي تحمل عبارة (لا إله إلا اللّه علي ولي اللّه) (أوحد ملوك الزمن ملك العرب واليمن عمران بن محمد)[1].

وعندما قدم الأيوبيون إلى اليمن، كان لا بدّ من تغيير العملة التي تحمل أسماء الشيعة الإسماعيلية، لذلك ضربوا عملة تحمل أسماؤهم، ففي عهد تورانشاه في اليمن فيما بين سنة (569هـ ـ 571هـ) (1174 ـ 1176م) ضربت عملة ذهبية في اليمن لا تحمل اسم البلد التي ضربت فيها أو التاريخ، وكتب عليها العبارة الآتية:

على أحد وجهيه: لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه المستضيء بأمر اللّه أمير المؤمنين.

على الوجه الآخر: الملك المعظم ملك اليمن شمس الدولة تورانشاه بن أيوب[2].

كما ضرب كل واحد من نواب تورانشاه السكة باسمه ومنع أهل بلدته التعامل بعملة الآخر[3]. وعندما قدم سيف الإسلام طغتكين إلى اليمن سنة 579هـ/ 1183م ضرب درهماً صغيراً وزنه أربعة قراريط وحبة سمي بالدرهم السيفي نسبة إليه. وفي عهد المعز إسماعيل بن طغتكين ضرب الدرهم الكبير الذي كان وزنه ثلاثة عشر قيراطاً[4]. كذلك ضرب الملك الناصر أيوب بن طغتكين الدرهم بتعز[5]، وقد بلغت عشور دار الضرب في زبيد في عهد الأيوبيّين مبلغاً قدر بثلاثة عشر ألف دينار[6]. وهذا المبلغ يدل على كثرة العملات التي كانت تضرب في زبيد.

وفي عهد النجاحيّين وبني مهدي ثم الأيوبيّين كان الدرهم يساوي ثلاثة جوز والجائز يساوي ثمانية فلوس، والفلس يساوي أربعة دواس، والأربعة الدراهم تساوي ديناراً واحداً والأربعة الدنانير والنصف تساوي ديناراً ذهباً[7].

---

(1) د. محمد أبو الفرج العش: المسكوكات في الحضارة العربية الإسلامية، الآثار الإسلامية، ص: 212، مجلة الإكليل، ص: 44. Bikhazi Ramzi: Coins of Al - Yaman, P. 77, 78.

(2) د. محمد أبو الفرج العش: المسكوكات في الحضارة العربية الإسلامية، الآثار الإسلامية، ص: 213.

(3) عبد الباقي: المسمّى بهجة الزمن، ص: 77.

(4) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 89، في عهد الأتابك سنقر أنشأ داراً لضرب العملة بصنعاء، ابن حاتم: السمط، ص: 140.

(5) د. محمد العش: نفس المرجع، ص: 214.

(6) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 90.

(7) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 80، 89.

ساهم الأئمة الزيدية في اليمن بضرب العملة بأسمائهم فالإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ضرب دنانير باسمه في صنعاء 293هـ وفي صعدة سنة 298هـ، وقد وجد دينار للزيدية ضرب بصنعاء سنة 360هـ يحمل اسم (الداعي إلى الحق أمير المؤمنين يوسف ابن رسول الله)[1].

وضرب الأمير ذو الشرفين عملة باسمه في منطقة مسور بحجة، فقد أمر بإقامة دار سك للعملة بها، وطلب من جميع الشيعة والأخوان والأعيان، أن يجمعوا له الفضة التي لديهم على سبيل الاستقراض. فاستجاب له جميع شيعته وأهل بيته وإخوانه وأعوانه وولاته على مخاليفه فجمعت له الفضة من أماكن كثيرة حتى إنهم خلعوا الفضة من السلاح المحلّى بها، وغيرها، وجمعت كذلك حلية الحريم فاجتمع له مال كثير من الفضة أمر به إلى دار الضرب فضربت به العملة. ولم يحدد لنا المصدر أنواع العملة وأجزائها. ولكن الذي يبدو أنها كانت من الدراهم. لأن الدراهم تضرب من الفضة وكان ذو الشرفين قد أمر بإقامة دار للضرب في مسور، وكان يقدر عدد الصناع في دار الضرب آنذاك بحوالي ثلاثين فرداً ازدادوا فيما بعد إلى أربعين شخصاً[2].

كذلك ضرب الإمام عبد الله بن حمزة عملة باسمه، حيث أنشأ بصعدة سنة 601هـ/ 1204م دار لضرب الدنانير والدراهم وضع بها آلات الضرب. وجعل أحد الموثوق بهم مسؤولاً عنها، وهو علي بن حسن الصعدي، وقد جلبت له الفضة من مشارق اليمن ومغاربها ومن التجار من زبيد جمعت له نصف عشر بيت المال، وبدأ بضرب درهم صغير فضي، ثم درهم كبير، وكان صرف الدرهم الكبير بأربعة دراهم صغيرة. ثم ضرب الإمام الدينار ذهباً خالصاً جعله مساوياً لدينار الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين. وقسم الدينار إلى ثلاث سكك أو أجزاء، الجزء الأول المثقال الكامل ثم نصف المثقال ثم ربع المثقال وكتب عليها جميعاً الشعار الآتي:

على أحد وجهيه: لا إله إلا الله محمد رسول الله علي ولي الله.

في دور الوجه: التاريخ والبلدة التي ضرب بها.

في الوجه الآخر الظهر: الإمام المنصور بالله أمير المؤمنين.

في دور الظهر: عبد الله بن حمزة بن سليمان ابن رسول الله صلى الله عليه وآله.

---

(1) د. محمد أبو الفرج العش: المسكوكات في الحضارة العربية الإسلامية، الآثار الإسلامية، ص: 212.

(2) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ق57.

وعلى المثقال الكامل أضاف في دوره كتابة العبارة الآتية بعد علي ولي اللّٰه، ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[1] [المائدة: 55].

وفي بداية ضرب الإمام عبد اللّٰه بن حمزة لعملته رفض كثير من الناس التعامل بها بسبب إشاعة خبر أنها مزيفة، ولم يسكت الإمام إزاء هذا الموقف فقد جمع الناس من أهل (حوث) وأعمالها وهددهم بالعقوبة لمن يرفض التعامل بعملته، وكتب كتاباً قرئ على الناس في سوق حوث نسخته: (... وكانت دراهم الظلمة تأتينا وإياكم مخلوطة بالصفر والغش فلا نجد بداً من قبولها ولم نر إلا أن نضرب للمسلمين نقداً طيباً مباركاً فبلغنا أن الدرهم المبارك خرج ووقع منه بعض نفرة من المفسدين ونحن نعيذكم باللّٰه سبحانه أن تعرضوا للعقوبة في مصالح نفوسكم فتخسروا أموالكم لغير موجب، قوموا في نفاذ درهمكم ديناً ومنعه فباللّٰه قسماً صادقاً لئن ردّ الظلمة درهمنا أو منعوا منه، لا أقبل درهمهم في بلادنا إلا من يكون منهم نأخذ ماله ونضرب رقبته، ونهتك ستره، ونخرب بلده، وإن كان تاجراً أخذنا بضاعته فانظروا لأنفسكم نظراً مخلصاً فالأمر جد ولا تظنوا أني أعاملكم في الدرهم بالهون ولا الرفق وإنما السيف والسوط والحبس وأخذ المال فمن صدقنا فليحزم ومن كذبنا فليقدم)[2]. وأمام هذا التهديد الشديد الذي توعد به الإمام بالقتل والحبس والعذاب ومصادرة الأموال، أخذ الناس يتعاملون بدرهمه حتى انتشر التعامل به بين الناس، وعم البلاد كلها وتعامل به الأيوبيون وغيرهم[3]، وإضافة إلى دار الضرب الذي أنشأها الإمام في حوث أنشأ داراً أخرى في ظفار ذي بين فضرب به العملة باسمه[4].

2 ـ المقاييس والمكاييل والأوزان:

كانت بعض المكاييل والموازين في اليمن تساوي مكاييل وموازين البلدان الإسلامية الأخرى، فمثلاً الرطل اليمني كان يساوي الرطل البغدادي[5]، وبعضها

---

(1) مجهول: سيرة الإمام عبد اللّٰه بن حمزة، دار المخطوطات اليمنية رقم، ق61، 62، وكان وزن درهم الإمام عبد اللّٰه بن حمزة يساوي قفله وثمن قفله.

(2) مجهول: سيرة الإمام عبد اللّٰه بن حمزة، جـ3، ق62، د. عبد الغني محمود عبد المعطي: عوامل الصراع السياسي المذهبي، الإكليل، ص: 83.

(3) مجهول: نفس المصدر والصفحة.

(4) كرستان رومان: التقارير الأولى للبعثة الفرنسية عن ظفار ذي بين ج. ع. ي، ترجمة أحمد ناجي، الآثار الإسلامية في الوطن العربي، ص: 130.

(5) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 99.

اختلف عنها، بل اختلفت المكائيل والموازين ووحدة القياس من منطقة إلى أخرى في اليمن نفسها، وذلك يرجع إلى تعدد دويلاتها وإلى عدم وجود وحدة قياس موحدة في اليمن. فمثلاً كان معيار وزن سنجة زبيد أقل من سنجة عدن بشيء يسير. كذلك اختلفت الموازين والمكاييل من زمن إلى آخر. فمثلاً سنة 625هـ/1227م (غيروا جميع مكاييل اليمن ووضعوه على عيار زبدي الجند) وأيضاً اختلفت وحدة القياس والمكاييل من سلعة إلى أخرى، وذلك حسب نوعية السلعة من حيث الصلابة والسيولة والعد، وسميت باسم الوعاء الذي يحتويها، فمثلاً كان السمن يقاس (بالجمنة) والشيرج يقاس (بالجرة)[1]، وهما الوعاءان أو الظرفان اللذان يحفظ بهما السمن والشيرج لسيولتهما.

ومن ضمن المقاييس والمكاييل التي استخدمت باليمن الآتي:

المقاييس: في القياس استخدم (المعاد) لقياس مساحات الأراضي الزراعية[2]، واستخدم (الذراع) الحديدي في قياس أنواع القماش[3].

الموازين: وفي الموازين استخدم (الرطل) و(المن) و(الزبدي) لوزن بعض السلع واستخدم (البهار) لوزن بعض السلع مثل الفلفل والهيل والكتان[4] والبهار يساوي ثلاثمائة رطل[5]، واستخدمت (الفراسلة) لوزن بعض السلع مثل الكافور والزعفران والقرنفل.

المكاييل: ومن المكاييل استخدم (المد) لكيل بعض السلع مثل أنواع الغلال، وكان (المد) يساوي 32 ثمن. والثمن 32 زبدي. والزبدي مَنْ، والمَنْ رطلين، والرطل 120 درهم، والدرهم 13 قيراطاً. كما استخدم في المكاييل الرُبَيْعَة، والزبدي، والأوقية[6]، والقفيز[7]، والوساق، والوساق يساوي 60 صاعاً، والصاع أربعة أمدد، والمد 32 ثمن، والثمن 10 أصيع، والصاع يساوي رُبَيْعَة ثم

---

(1) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 89، 144، السنجة: سنجة الميزان ما يوزن به كالرطل وآلاقه والأوقية، المعجم، ص: 323. وقد يطلق عليها صنجة.

(2) الخزرجي: العسجد، ص: .

(3) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 89.

(4) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 89، 140، 141.

(5) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 99.

(6) ابن المجاور: نفس المصدر والصفحات، المد: مكيال قديم اختلف الفقهاء في تقديره، المعجم، ص: 575.

(7) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 308.

صار يساوي أربع ربيعات، والربيعة 18 أوقية، والصاع 72 أوقية[1].

وهناك وحدات أخرى متعددة في القياسات منها استخدام العدد لبعض السلع القابلة للعد، واستخدام كل من الكلمات الآتية كوحدة قياس وهي: (قطعة) و(قفه) و(كورجة) فالذرة يقاس (بالقفه) والقماش يعد بالقطعة وبالكورجة. والكورجة عشرون قطعة[2].

وبعض السلع تقاس بعدة معايير مثل السمن الذي يوزن بالرطل وبالمن، ويقاس بالظرف الذي يعبأ به، والحرير يوزن بالمن ويقاس بالذراع، ويعدّ بالقطعة[3].

وهناك بعض المعايير تستخدم كوزن وكمكيال مثل (المن) و(الزبدي) و(الأوقية). ففي الوزن بالزبدي يساوي مَنْ والمن يساوي رطلين. وفي المكيال الربيعة الزبيدية تساوي ثماني عشرة أوقية والمد يساوي ربيعة[4]، وهكذا تنوّعت وحدات القياس باليمن بحسب المناطق وحسب نوع السلعة.

مما تقدم نجد أن التجارة في اليمن نشطت نشاطاً كبيراً خلال العصر الإسلامي. سواءً على مستوى التجارة الداخلية أو التجارة الخارجية، وسواء في فترة الدول المستقلة أو الدولة الواحدة. وذلك بفضل وقوع اليمن على مفترق الطرق التجارية البحرية الموصلة بين الشمال والجنوب. والذي جعلها تلعب دور الوسيط التجاري بين البلدان المتعددة.

---

(1) الأهدل: كشف القناع في أحكام الذرع، ص: 153، 154.

(2) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 89.

(3) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 89.

(4) الأهدل: كشف القناع في أحكام الذرع، ص: 154.

النظام المالي



الإيـرادات

تنوّعت الموارد المالية في بلاد اليمن شأنها في ذلك شأن باقي الأمصار الإسلامية الأخرى، ويمكن تقسيم تلك الموارد إلى قسمين: **أحدهما**: موارد شرعية مثل الزكاة والجزية وعشور الأراضي الزراعية (الخراج) وعشور التجارة. **وثانيهما**: موارد غير شرعية مثل المكوس والرسوم والهدايا والمصالحات وغيرها.

الموارد الشرعية

أ ـ عشور الأرض (الخراج).

نظراً لأهمية موارد الأراضي الزراعية، نعرض لأحكام الأراضي الإسلامية بصفة عامة ثم أحكام أراضي اليمن بصفة خاصة وما طرأ عليها من تغيُّر. يقول أبو عبيدة: (وجدنا الآثار عن رسول الله ﷺ، والخلفاء بعده، قد جاءت في إفتتاح الأرضين بثلاثة أحكام: أرض أسلم عليها أهلها فهي ملك أيمانهم، وهي أرض عشر، لا شيء عليهم فيها غيره. وأرض افتتحت صلحاً على خراج معلوم، فهم على ما صولحوا عليه، لا يلزمهم أكثر منه. وأرض أخذت عنوة، فهي التي اختلف فيها المسلمون. فقال بعضهم: سبيلها سبيل الغنيمة، فتخمّس وتقسّم، فيكون أربعة أخماسها خططاً بين الذين افتتحوها خاصة، ويكون الخمس الباقي لمن سمى الله تبارك وتعالى. وقال بعضهم: بل حكمها والنظر فيها إلى الإمام: إن رأى أن يجعلها غنيمة، فيخمسها ويقسمها، كما فعل رسول الله ﷺ بخيبر. فذلك له. وإن رأى يجعلها فيئاً فلا يخمسها ولا يقسمها، ولكن تكون موقوفة على المسلمين عامة ما بقوا، كما صنع عمر بالسواد)[1].

وقد اعتبرت اليمن من البلاد التي أسلم عليها أهلها فهي أرض عشرية يقول أبو يوسف: (وكل أرض أسلم عليها أهلها فهي أرض عشرية، وأرض الحجاز

---

(1) أبو عبيدة بن سلام: كتاب الأموال، ص: 132، بيروت، ط1، 1409هـ/ 1989م.

والمدينة ومكة واليمن وأرض العرب كلها أرض عشر)[1] والمقصود بالأرض العشرية هي ما فرض على ما تخرجه هذه الأرض من زروع وثمار بقيمة العشر أو نصف العشر حسب سهولة الري أو صعوبته، وهذه هي الزكاة المفروضة على أموال المسلمين. وليس في مال المسلمين حق سوى الزكاة كما قال رسول الله ﷺ[2].

ولما كان مصرف هذه الزكاة أو الصدقات محدداً حسب قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 60]. لذلك احتاج الأمر إلى فرض أموال أخرى للإنفاق على الجند وبناء المرافق العامة ودفع مرتبات الموظفين إلى غير ذلك من المصروفات العامة.

لذلك فرض ولاة اليمن أموالاً جعلوها وظيفة على أهلها. ففي أثناء خلافة عبد الملك بن مروان (65 ـ 86هـ)، (685 ـ 705) وابنه الوليد (86 ـ 96هـ(705 ـ 714م) وبالتحديد أيام ولاية محمد بن يوسف الثقفي[3] (73 ـ 91هـ(692 ـ 710م) أخي الحجاج لليمن (ضرب على أهل اليمن خراجاً جعله وظيفة عليهم، فلما ولي عمر بن عبد العزيز (99 ـ 101هـ/ 717 ـ 720م) كتب إلى عامله على اليمن بإلغاء تلك الوظيفة، والاقتصار على العشر، وقال: والله لأن تأتيني من اليمن حفنة كتم أحب من إقرار هذه الوظيفة فلما ولي يزيد بن عبد الملك (101 ـ 105هـ/ 720 ـ 723م) أمر بردّها[4].

ويشير ابن رسته إلى هذا الإلتزام المالي على صنعاء وأعمالها في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري يقول: (وكانت قراهم عشرية قبل ولاية ابن يعفر فوظف بدل ذلك عليهم مائتي ألف دينار)[5].

هذا وقد اختلفت مسميات هذه الوظيفة في المصادر فقد تسمى عشوراً أو ارتفاعاً أو خراجاً فضلاً عن تداخلها دون تحديد واضح لنوعيتها بما يواجه الباحث من صعوبات في الفصل بينها فقدامة بن جعفر وابن رسته يعتبرانها وظيفة فرضت

---

(1) أبو يوسف: كتاب الخراج، ص: 173. بيروت، ط1، 1045هـ/ 1985م.

(2) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص: 99، د. محمد أمين صالح: النظام المالي، ص: 93.

(3) محمد بن يوسف الثقفي توفي سنة مائة للهجر، ولاه الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان على اليمن، الرازي: تاريخ مدينة صنعاء، ص: 597.

(4) البلاذري: فتوح البلدان، ص: 80، 81، د. محمد ضياء الدين الريس: الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، ص: 217، القاهرة، ط5، 1985م. د. محمد أمين صالح: النظام المالي والاقتصادي في الإسلام، ص: 86، ط1، 1984م، عصام الدين الفقي: اليمن في ظل الإسلام، ص: 266.

(5) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص: 112.

على أصحاب الأرض من أهل اليمن[1] فهي إذاً خراج باعتبار أن الخراج في المصطلح المالي الإسلامي هو الضريبة المفروضة على الأرض. أما ابن خرداذبة وابن خلدون فهما يستخدمان مسمّى الخراج قدره الأول بستمائة ألف دينار سنوياً، وقدره الثاني بثلاثمائة وسبعين ألف دينار سنوياً[2]. ويتعجب المقدسي من مسمّى الخراج الذي أطلقه ابن خرداذبه[3].

أما عن مسمّى الارتفاع الذي ذكره بعض الجغرافيّين والمؤرخين فإنه يحتمل عدة معانٍ، **أولها**: خاص وهي الأموال المفروضة على الأرض الزراعية كما يفهم من قول عمارة (رأيت مبلغ ارتفاع أعمال ابن زياد بعد تقاصرها في سنة ست وستين وثلاثمائة من الدنانير ألف ألف عثرية، خارجاً عن ضرائبه على مراكب الهند من الأعواد المختلفة والمسك.. وخارجاً عن ضرائب العنبر على السواحل بباب المندب وعدن وأبين والشحر وغير ذلك وخارجاً عن ضرائبه على معادن اللؤلؤ وعن ضرائبه على صاحب جزيرة دهلك)[4].

وثانيها: عام وهي جملة الأموال المحصلة على الأرض والضرائب على التجارة وغيرها كما يفهم من نص عمارة السابق[5]. ومصطلح الارتفاع في هذه الحالة قد يتفق مع مصطلح الخراج الذي شمل جميع موارد الدولة.

وثالثها: بمعنى ما يتم دفعه إلي السلطة المركزية مما بقي من موارد الإقليم بعد خصم المصروفات فهو يمثل فائض الأموال[6] أو المبالغ التي يلتزم بدفعها الحكام المحليون لهذه السلطة.

ومهما يكن من أمر ففي عهد الخلافة العباسية ظلت اليمن كما يعتقد تعامل على أنها أرضاً خراجية، فقد ذكر الجهشياري في كتابه (الوزراء والكتّاب) أن ارتفاع مالية اليمن التي كانت تحمل إلى مركز الخلافة العباسية ببغداد في عهد الخليفة هارون الرشيد (170 ـ 193هـ/ 786 ـ 809م) بلغت ثمانمائة ألف دينار سنوياً عدا الثياب[7].

---

(1) قدامة بن جعفر: كتاب الخراج، ص: 449.

(2) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص: 144، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ1، ص: 321.

(3) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 105.

(4) عمارة: المفيد، ص: 66، 67، ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 184، 185، أورد ابن المجاور كلمة مغاص بدلاً من كلمة معادن.

(5) عمارة: المفيد، ص: 66، 67.

(6) الجهشياري: الوزراء والكتاب، ص: 281، عمارة: المفيد، ص: 66، 67.

(7) الجهشياري: الوزراء والكتاب، ص: 281.

وخلال الفترة التي قتل بها الخليفة المتوكل العباسي سنة 247هـ/ 861م وخلع الخليفة المستعين سنة 251هـ/ 865م[1]، امتنعت اليمن عن إرسال الخراج إلى مركز الخلافة العباسية ببغداد، وذلك بسبب اختلال أمرها، واختلال أمر الأطراف باليمن والتي بدورها امتنعت عن إرسال الأموال إلى بني زياد. يوضح ذلك النص التالي الوارد في معظم المصادر اليمنية والذي جاء فيه: (وكان بنو زياد قائمين بخدمة الخلفاء العباسيّين ومواصلتهم بالهدايا والأموال، فلما اختل أمرهم وغلب أهل الأطراف على ما بأيدهم تغلب بنو زياد على ما بأيديهم من أعمال اليمن وركبوا بالمظلة وساسوا قلوب الرعايا بإبقاء الخطبة العباسية)[2].

ومما تقدم يتضح أن اليمن لم تستمر في الامتناع عن دفع الخراج إلى الخلافة العباسية ببغداد فترة طويلة، فقد عادت الدولة الزيادية إلى دفعه. ذكر ذلك ابن خرداذبه المتوفى سنة 300هـ/ 912م، أن خراج بعض عمال اليمن الواصل إلى مركز الخلافة العباسية بلغ ستمائة ألف دينار سنوياً، إذ جاء ذلك في مصدره المسالك والممالك: «ووجدت في ديوان الخراج رفع لبعض عمال اليمن لجبايتها ستمائة ألف دينار وهذا أكثر ما ارتفع منها في هذه الدولة»[3]. ومن الملاحظ أن كلمة (لبعض عمال اليمن) التي أوردها ابن خرداذبة، دلالة على أن الخراج كان يرفع من تهامة اليمن، وليس من اليمن كله، على اعتبار أن تهامة كانت موالية للخلافة العباسية وصاحبته التقليد الشرعية فيها. وكما يتضح أن هذه الأموال خاصة بالمتحصلات المالية للزراعة أما الأموال التجارية فمن المعتقد أنها لم تدخل في هذا التقدير كما أشار إلى ذلك عمارة.

وقد نقل المقدسي المتوفى نحو 380هـ/ 990م في مصدره (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) ما أورده ابن خرداذبة عن خراج اليمن، ولكنه استغرب لذكر كلمة خراج على اليمن فقال: (وجدت في كتاب ابن خرداذبة خراج اليمن ستمائة

---

(1) عمارة: المفيد، المصدر السابق، ص: 85، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 157، 158.

(2) عمارة: المصدر السابق، ص: 85، الخزرجي: المصدر السابق، ص: 104، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 333، المفضل المزيد، ص: 54. ابن حوقل: صورة الأرض، ص: 24، ابن المجاور، صفة، ص: 72.

(3) أبو القاسم عبد اللّه بن خرداذبة، المسالك والممالك تحقيق محمد محرم، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط1، 1988م. ص: 123، أحمد عبد الباقي: معالم الحضارة العربية في القرن الثالث الهجري، د. عبد الرحمن الشجاع: اليمن في عيون الرحالة، دار الفكر، ط1، بيروت، دمشق، ص: 131.

ألف دينار فلا أدري ما أراد بذلك ولم أر ذلك في كتاب الخراج بل المعروف أن جزيرة العرب عشرية)[1].

وعلى أية حال فقد عاد المقدسي وذكر خراج اليمن بمسمّى آخر هو كلمة ارتفاع فقال: (وذكر قدامة بن جعفر الكاتب أن ارتفاع. . . اليمن ستمائة ألف دينار)[2]، مما يدل على أن المقدسي رفض إطلاق اسم الخراج على مالية اليمن، بينما قبل أن تكون تسميتها بالارتفاع، ولقد أخذ برأيه هذا غالبية المصادر اليمنية. ومهما يكن من أمر، سواء وردت كلمة خراج صراحة على اعتبار أن حكام اليمن فرضوا زيادة على العشر، أو وردت كلمة ارتفاع على اعتبار أن اليمن لا يفرض عليها الخراج، فهي في نظرنا تعد خراجاً لعدم التزام حكام اليمن بأخذ الأموال بمقدار العشر.

ومن الملاحظ أنه عندما اتسعت رقعة الدولة الزيادية عهد أبي الجيش إسحاق بن إبراهيم الزيادي في منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، والتي شملت تهامة اليمن والكثير من المناطق الجبلية، ارتفع خراج اليمن ارتفاعاً كبيراً، أوضح ذلك ابن خلدون في تاريخه بقوله: (قال ابن سعيد: رأيت مبلغ جبايته وهو ألف ألف مكررة مرتين وثلاثمائة ألف وستة وستون ألفاً من الدنانير العثرية عدا ضرائبه على مركب السند وعلى العنبر الواصل بباب المندب وعدن وأبين وعلى مغائص اللؤلؤ وعلى جزيرة دهلك)[3] ومن المرجح أن هذا المبلغ هو جملة إيرادات الأراضي الزراعية أي الخراج لتهامة اليمن قبل خصم أرزاق الجند والعمال ورجالات الدولة. وأما ما يرسل إلى مركز الخلافة العباسية ببغداد، فهي المبالغ التي ذكرها ابن خرداذبة والمقدسي السالفة الذكر.

خراج تهامة اليمن عهد الدويلات الأخرى:

ومنذ منتصف القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي توقفت اليمن عن رفع خراجها إلى مركز الخلافة العباسية، ذلك بسبب خروجها عن طاعة الخلافة

---

(1) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص: 98، الشجاع: المرجع السابق، ص: 132.

(2) المقدسي: المصدر السابق، ص: 98، الشجاع: المرجع السابق، ص: 131، 132.

(3) عبد الرحمن بن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ص: 455، 456. من الملاحظ من عبارة ابن خلدون أنها تشابه عبارة عمارة والمصادر اليمنية الأخرى مع فارق أن ابن خلدون أضاف ثلاثمائة وستة وستين ألف دينار زائدة على ما أورده عمارة. وربما يرجع ذلك إلى أن ابن خلدون خلط بين السنة التي ذكرها عمارة وهي ستة وستين وثلاثمائة. والمبلغ الذي ذكره عمارة وهو ألف ألف دينار.

العباسية بسيطرة الصليحيّين الإسماعيلية عليها، أو بسبب استمرار النجاحيّين في حرب الصليحيّين لاستعادة السيطرة على تهامة والاحتفاظ بحكمهم عليها.

فعندما استولى علي الصليحي على زبيد وتهامة سنة 455هـ/ 1063م ولّى عليها صهره أسعد بن شهاب فدخلها سنة 456هـ/ 1064م، وظل أسعد يرفع خراج تهامة اليمن إلى صنعاء مائة ألف دينار سنوياً[1]، بعد خصم أرزاق الجند وغيره من الأسباب اللازمة[2] وفي عهد المكرم الصليحي وأمه أسماء بنت شهاب استمرت تهامة اليمن ترفع خراجها إليها من العين ألف ألف دينار في كل عام[3] خارجاً عن أنواع الضرائب.

من الملاحظ أن المصادر ذكرت رقمين لموارد تهامة في عهد الدولة الصليحية إحداهما مائة ألف دينار والآخر ألف ألف دينار والذي يظهر أن الرقم الأول ذكر بعد خصم أرزاق الجند وغيره، بينما ذكر الرقم الثاني قبل خصم أرزاق الجند وغيره.

أما في عهد سبأ بن أحمد الصليحي الذي اتخذ من حصن (أشيح) والحصون المطلة على تهامة مقراً له، فقد ظل في صراع مستمر مع جياش أمير الدولة النجاحية حول السيطرة على تهامة، وكانا يتناوبان حكمها. وخلال هذا التناوب كان سبأ الصليحي يحتسب للعمال بما أخذه منهم جياش بن نجاح في أشهر الصيف والخريف، وكذلك كان جياش عندما يسترد تهامة يحتسب للعمال بما أخذه منهم سبأ في أشهر الشتاء والربيع[4] ورغم عدم توضيح المصادر مقدار المبلغ الذي كان يأخذه كل من سبأ وجياش إلا أننا نستنتج من خلال ما سبق أنهما كانا يتقاسمان المائة ألف دينار.

---

(1) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 120، الوصابي: تاريخ وصاب، ص: 32، ابن الديبع: الفضل المزيد، ص: 57. ذكر الخزرجي، ص: 58، أن سعد بن شهاب كان يرفع إلى الصليحي ألف ألف دينار بعد صرف أرزاق الجند الذين بها وغيرها من المصروفات ووافقهم في هذا المبلغ الهمداني في كتابه: الصليحيون، ص: 106.

(2) ابن الديبع: الفضل المزيد، ص: 57، الهمداني: الصليحيون، ص: 106.

(3) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 123، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 248، الهمداني: المرجع السابق، ص: 106.

(4) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 148، 149، الخزرجي: العسجد، ص: 64، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 266، الفضل المزيد، ص: 59، الهمداني: المرجع السابق، ص: 151، يحيى بن الحسين: غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، ص: 275، الهمداني: الصليحيون، ص: 151.

وعندما تمكنت الدولة النجاحية من استعادة تهامة وأحكام السيطرة عليها وعدم تمكن الصليحيّين انتزاعها منهم مرة أخرى، بلغ خراج تهامة وارتفاع ماليتها التي شمل امتداد مناطقها من الشرجة إلى باب المندب، مبلغ مائة وسبعة آلاف دينار سنوياً خارجاً عن أرزاق الجند وغيرها[1]. أما بقية تهامة التي كانت تحت سيطرة الشريف غانم صاحب المخلاف السليماني، فقد كان يدفع لحكام الدولة النجاحية في زبيد جزءاً من خراج أرضه على شكل أتاوة أو هدايا، حيث بلغ مقدار ما يدفعه لهم ستين ألف دينار سنوياً[2] تلك هي خراج الأراضي الزراعية في تهامة اليمن وهناك نوع آخر من الخراج في زبيد سمي بخراج النخيل نورده كالآتي:

خراج النخيل في زبيد:

انتشرت زراعة النخيل في زبيد بكثرة أثناء حكم الدولة الصليحية لها، وحكم بني نجاح وبني مهدي، حتى صار يوجد عشر قطع من النخيل كل قطعة عرضها وطولها ربع فرسخ[3]، واستدعى ذلك أن يصبح لهذا النخيل خراج سنوي يدفع إلي الدولة. ففي عهد حكم الدولة النجاحية ودولة بني مهدي لزبيد كان ضمان النخيل بها يقدر بسبعين ألف دينار سنوياً، وكان المزارعون يدفعونه عيناً أي تمراً وليس نقداً[4].

وفي عهد الحكم الأيوبي لليمن (569 ـ 626هـ/ 1174 ـ 1149م) أيام طغتكين 579 ـ 593هـ/ 1183 ـ 1179م)، أوصى بالشدة على أصحاب النخيل، بينما أوصى بالرفق على المزروعات الأخرى، وذلك بسبب ما يلقاه الفلاح من تعب في عمله حيث كان يحرث، ويسقي، ويبذر، ويعزق ويحصد، فيجد بذلك مشقة له، أما أصحاب النخيل فكانوا يجنون ثمارهم كل عام دون مشقة، لذلك شدد عليهم، مما أدّى إلى هروب الكثير من أصحاب النخيل فاضطر طغتكين إلى مصادرة نخيلهم مقابل الخراج فكان كل نخيل يصادره يسمى صوافي أي ما يصفى إلى بيت المال[5].

لذلك كان المتحصل من نخيل في زبيد عهد الدولة الأيوبية تسعين ألف دينار نقداً (غير الذي يصل إلى الخزانة وعمال السلطان ونواب الديوان وغير النخيل

---

(1) عمارة: المصدر السابق، ص: 227، 228.

(2) عمارة: المصدر السابق، ص: 222.

(3) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 78، 79، الفرسخ مقياس قديم يقدر بثلاثة أميال، ص: 467 معجم.

(4) ابن المجاور: المصدر السابق، ص: 80، محمد علي مسفر: المرجع السابق، ص: 242.

(5) ابن المجاور: المصدر السابق، ص: 80، مسفر: المرجع السابق، ص: 242، 243.

السلطانية والأوقاف وغير الذي لأرباب الجهات وأصحاب الدولة)[1] من التمور العينية أي أن جملة الخراج لجميع النخيل يقدر بمائة وعشرة آلاف دينار سنوياً[2].

ثم ازداد هذا المبلغ أواسط عهد نفس الدولة الأيوبية حتى وصل ضمان النخيل في زبيد مائة ألف دينار سنوياً[3] غير المصروف عيناً، ثم ارتفع هذا المبلغ أواخر العهد الأيوبي في اليمن، فبلغ خراج نخيل زبيد مائة وعشرة آلاف دينار نقداً سنوياً، غير ما حمل إلى الخزانة من الخراج العيني من التمور[4].

وكانت مالية «عدن وأعمالها» في عهد الصليحيّين التي كانت ترفع إلى صنعاء أو ذي جبلة حسب الاتفاق فيما بين حكام عدن والصليحيّين على دفعها تقدر بحوالي مائة ألف دينار سنوياً. وحاول بنو زريع التخلص من هذا الالتزام المالي السنوي الذي خفض إلى النصف ثم إلى الربع ثم توقف بنو زريع نهائياً عن دفع هذا المبلغ للصليحيّين[5] كما ذكرنا سابقاً.

كذلك كانت مالية كوكبان وحوشان في عهد الصليحيّين تساوي مالية عدن، وهو مبلغ مائة ألف دينار[6]. أما مالية لحج التي كانت ترفع في العهد الأيوبي فتقدر بحوالي ألف دينار سنوياً[7]. ومن ناحية أخرى، فقد كان الشريف غانم بن يحيى صاحب المخلاف السليماني متعهداً بمبلغ ستين ألف دينار يرسلها سنوياً إلى وزراء بني نجاح[8].

تلك المناطق التي حددت المصادر متحصلاتها المالية، أما بقية المناطق فلم تشر إليها المصادر.

ب ـ عشور التجارة:

هي ضريبة تقدر بعشرة في المئة، تفرض على غير المسلمين من التجار الأجانب القادمين بتجارتهم إلى دار الإسلام[9]. كما أخذت بمقدار العشر من تجار

---

(1) ابن المجاور: المصدر السابق، ص: 79.

(2) ابن المجاور: المصدر السابق، ص: 80.

(3) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 90، مسفر: المرجع السابق، ص: 242.

(4) ابن المجاور: المصدر السابق، ص: 80، مسفر: المرجع السابق، ص: 243.

(5) عمارة: المفيد، ص: 174، 175، ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 122.

(6) عمارة: المفيد، ص: 133.

(7) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 155.

(8) عمارة: المفيد، ص: 222، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 110، الخزرجي: العسجد، ص: 123، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 355.

(9) د. محمد أمين صالح: النظام المالي والاقتصادي في الإسلام، ص: 28، د. حسين الحاج: النظم الإسلامية، ص: 274.

أهل الذمة وبمقدار ربع العشر من تجار المسلمين. وأول من فرضها في الإسلام الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه[1]، فقد كتب أبو موسى إلى عمر رضي اللّه عنه أن تجار المسلمين إذا دخلوا دار الحرب أخذوا منهم العُشر، قال فكتب إليه عمر رضي اللّه عنه: (خذ منهم إذا دخلوا إليها مثل ذلك العُشر، وخذ من تجار أهل الذمة نصف العُشر، وخذ من المسلمين من مائتين خمسة مما زاد، فمن كل أربعين درهماً درهم)[2] أي بواقع ربع العشر، وفي نص آخر عن زياد بن جدير قال: «استعملني عمر على العشر، فأمرني أن آخذ من تجار أهل الحرب العشر، ومن تجار أهل الذمة نصف العشر، ومن تجار المسلمين ربع العشر»[3] وهكذا يتضح أن عشور التجارة هي نظام مالي إسلامي صار نافذاً في جميع ولايات الدولة الإسلامية ومنها بلاد اليمن منذ عهد الراشدين. وهي تماثل ما يؤدى اليوم بالرسوم الجمركية. غير أنه يلاحظ أن المصادر التي ذكرت التجارة في اليمن استخدمت للتعبير عن تلك العشور عدة مسميات مثل (الضريبة، أو الجباية) التي تشمل ضرائب أو رسوماً أخرى علاوة على (العشور) لذلك يصعب تحديد مبالغ كل من العشور أو الضريبة أو الجباية كل على حدة ولذلك يحسن بيان المقصود بكل المصطلحات الثلاثة المشار إليها.

كانت عدن من أهم مناطق اليمن في تحصيل العشور على البضائع التجارية، ويرفع حكام عدن إلى حكام زبيد «جباية عدن عن المراكب العشرية.. والمرتفع له في السنة عن هذا المكان على التقريب مائتا ألف دينار عثري، وربما زادت الزيادة العظيمة وربما نقصت اليسير»[4].

ويصل عدن في كل عام ما بين ثمانين إلى تسعين مركب تجاري، وقد يصل عشور المركب الواحد إلى ثمانين ألف دينار في عهد الزريعيّين كما كان في عهدهم وعهد الأيوبيّين في اليمن تصل إلى خزانة الدولة من مراكب الهند خزينة يقدر مبلغها بحوالي مائة وخمسين ألف دينار[5].

وفي عهد الزريعيّين والأيوبيّين أيضاً لم يكن يؤخذ عشور على المواد الغذائية الواردة من مصر والهند مثل الحنطة والدقيق والسكر والأرز

(1) أبو عبيدة بن سلام: الأموال، ص: 640، د. محمد أمين صالح: نفس المرجع والصفحة.
(2) يحيى بن آدم: الخراج، ص: 162، د. محمد أمين صالح: نفس المرجع والصفحة.
(3) أبو عبيدة بن سلام: نفس المصدر، ص: 638.
(4) ابن حوقل: صورة الأرض، ص: 23، 24.
(5) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 140.

والصابون وزيت الزيتون وزيت الحار والزيتون المملح وغيره[1].

وفيما يلي قائمة بمقدار العشور على بعض البضائع الواردة مع ملاحظة أنه قد استجد عليها ضرائب وقوانين جديدة على يد من يُدْعَى خلف اليهودي النهاوندي في عهد الدولة الزريعية[2].

اسم الصنف	مقدار العشور
بهار الفلفل	8 دنانير
بهار قشر المحلب	3,5 دنانير
بهار الطباشير	3/ 2 و20 ديناراً
بهار الهيل	7 دنانير
بهار الكتان	2/ 1 7 دنانير
بهار الحُمَرْ (التمر هندي)	ثلاث جوز
بهار الزيت (السليط)	5 دنانير
بهار الأنكزة (الحلتيب)	8 دنانير
فراسلة الكافور	25,75 ديناراً ونصفاً وسدساً
فراسلة القرنفل	10 دنانير
فراسلة الزعفران	2/ 1 3 دنانير
عود الدفؤة	3/ 1 10 دنانير
على العشرة المقاطع	2,5 ديناران ونصف
على العشر العقدات	نصف وربع جائز
على رأس الضأن	4/ 1 ربع دينار
على الحصان الداخل إلى البلد	25 ديناراً
على رأس الرقيق الداخل	ديناران
على العويل السندابوري	8 دنانير
على كورجة النياب الخام الهندي	2,6 ديناران ونصف[3]

(1) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 142، 143.

(2) لن نعثر على ترجمة لخلف اليهودي النهاوندي.

(3) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 140، 141، 148.

كذلك فرضت العشور على البضائع الصادرة من اليمن، وكان يختلف فرض العشور من سلعة إلى أخرى، وفيما يلي قائمة بمقدار العشور على بعض البضائع الصادرة:

اسم الصنف	مقدار العشور
على شقق الحرير من عمل زبيد	1/2 نصف دينار وجائز
على كورجة المحابس	4 أربعة دنانير
على كورجة الأحواك	2,5 ديناران ونصف
على كورجة السباعي	2,5 ديناران ونصف
على الثوب الظفاري	1/4 ربع دينار وجائز
على الشقة البيضاء	1/8 ثمن دينار
على السوسي	1/4 ربع جائز
على سوسي الكتان الكبار	جائز قيراط
على سوسي الكتان الصغير	جائزان وفلسان
على قفة الذرة	1/8 ثمن دينار
على الرقيق الخارج	1/2 نصف دينار
على الحصان الخراج من الفرضة	70 سبعون ديناراً
على العويل الخارج من الباب	1/2 نصف دينار
على بهار الفوّة	ديناران في عهد الزريعيّين
على بهار الفوّة	12 دينار في عهد الأيوبيّين[1]

جـ ـ الجزية:

تعتبر الجزية فريضة إسلامية على أهل الذمة؛ فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن وأمرني أن آخذ من كل حالم ديناراً أو عدله من معافر»[2].

(1) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 140، 141، الفوّة: عروق نبات، لونها أحمر، يستعملها الصباغون، الملك المظفر يوسف: المعتمد، ص: 371.

(2) يحيى بن آدم: الخراج، ص: 70، أبو عبيدة: الأموال، ص: 121، ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 18، د. محمد أمين صالح: النظام المالي والاقتصادي في الإسلام، ص: 26، من معافر: أي ما قيمته من ثياب تصنع بالمعافر باليمن.

لم تحدد لنا المصادر مقدار مبالغ الجزية التي كانت تؤخذ من أهل الذمة في اليمن خلال فترة البحث، إلا أن بعض القضاة والحكام في اليمن كانوا يأخذون أرزاقهم من الجزية. من ذلك أن القاضي أبو الخطاب عمر بن سعيد بن محمد بن علي الربيعي الكعومي الجميلي المولود على رأس الستمائة تولّى قضاء صنعاء ونواحيها بناءً على طلبه من الخليفة المستعصم العباسي ت (656هـ/ 1258م) «وكان رزقه على القضاء ورزق حكام الجهة من الجزية ولم يزل على ذلك إلى أن توفي» يوضح ذلك الجندي بقوله: «ولم تزل جزية اليهود وجامكية (أي مرتب) من جاء معه إلى أن هلك، فأخذ بنو عمران الجزية إليهم، وجعلوا لحكام كل بلد جَامِكِيَّة من الوقف وربما جعلوه من مال الديوان»[1].

د ـ الزكاة:

هي أحد أركان الإسلام الخمسة وتعني الصدقة فهي فريضة إسلامية فرضها اللّه تعالى بقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: 103]. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: 24، 25]. ويقول عنها الماوردي: «الصدقة زكاة، والزكاة صدقة، يفترق الاسم ويتفق المسمّى. ولا يجب على المسلم في ماله حق سواها»، قال رسول اللّه ﷺ: «ليس في المال حق سوى الزكاة»[2]. وتفرض الصدقة أو الزكاة على عدة أموال هي الزروع والثمار، والمواشي والأنعام، والبضائع التجارية والذهب والفضة والمعادن والركاز[3].

وزكاة المزروعات هي (العشر) حيث سميت أرض اليمن عشرية باعتبار أن أرض اليمن أسلم عليها أهلها فهي ليست أرض خراج، والعشر هو الصدقة وهو الزكاة المفروضة على أنواع الزروع والثمار، يقول يحيى بن آدم: «وعلى المسلم أن يزكي زرعه العشر أو نصف العشر»[4] حسب سهولة الري أو صعوبته.

وعلى الرغم من أن حكام اليمن كانوا بدون شك يعملون على جمع الزكوات سواءً أكانت من التجارة أم من الزروع أم من الأنعام أم من غيره. إلا أن المصادر

---

(1) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 515، 516 (بنو عمران هم الذين خلفوا القاضي أبا الخطاب واستمروا بعده).

(2) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص: 99، د. محمد أمين صالح: النظام المالي، ص: 63.

(3) د. محمد أمين صالح: نفس المرجع والصفحة، د. حسين الحاج: النظم الإسلامية، ص: 262، 263.

(4) يحيى بن آدم: الخراج، ص: 108، 141، 155.

لم توضح لنا مقدار المبالغ التي كانت تدخل خزانة الدولة من هذه الزكوات. وما ذكرته المصادر عبارة عن إشارات عن أخذ الزكاة فقط وهي الآتي:

عن عشور الأراضي الزراعية أو زكاتها أوضح ابن حوقل عن أموال أبي الجيش ابن إسحاق الزيادي في زبيد وتهامة قوله: «وأكثر أمواله المقبوضة من العشور»[1].

أما زكاة التجارة فأبو عبيدة يقول: «يُقَوِّمُ الرجل متاعه، إذا كان للتجارة، إذا حلت عليه الزكاة، فيزكيه مع ماله». وقد أجمع المسلمون الأولون على أن الزكاة فرض واجب في التجارة[2].

يذكر المقدسي أن الأئمة الزيدية في صعدة كانوا لا يأخذون الضرائب على التجارة وإنما كانوا يأخذون الزكوات عليها وهي مقدار ربع العشر[3]، وفي أيام الإمام أبو الفتح الديلمة (444هـ/ 1052م) أخذ من أهل صنعاء الزكوات[4].

وفي عدن وجدت دار للزكوات حيث كانت الزكوات تؤخذ من البضائع التي لا يؤخذ عليها عشور، وذلك في عهد كل من الزريعيّين والأيوبيّين[5].

2 ـ الموارد غير الشرعية:

(الضرائب والرسوم والمكوس) تأخذ الموارد غير الشرعية مسميات مختلفة مثل الضرائب والمكوس والرسوم وغيره وقد اضطرت إلى أخذه الدول اليمنية المتعددة بسبب حاجتها إلى الأموال.

ففي عهد آل زياد ومن أتى بعدهم، كانت لهم «ضرائب عن العنبر على السواحل بباب المندب وعدن وأبين والشحر وضرائب على مغاص اللؤلؤ وغيرها»[6].

كذلك كان الحسيني صاحب صعدة يأخذ ضرائب على القوافل التجارية[7]، كما كان حاكم السرين يأخذ على المراكب الصاعدة والنازلة من اليمن رسماً من

(1) ابن حوقل: صورة الأرض، ص: 23.
(2) أبو عبيدة: الأموال، ص: 527، 530.
(3) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 105.
(4) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 240.
(5) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 143.
(6) عمارة: المفيد، ص: 67، ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 184، 185، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 49.
(7) ابن حوقل: صورة الأرض، ص: 25.

الرقيق والمتاع الوارد مع التجار[1] ولم تحدد المصادر قيمة الضرائب أو الرسوم على هذه الأصناف.

وفي العهد الأيوبي لليمن فرضت ضرائب جديدة منها ضريبة الشواني ورسم دار الوكالة ورسم دار الدلالة. فالشواني هي السفن التي تقوم بحماية التجار وتجارتهم في المحيط الهندي منذ عهد سيف الإسلام طغتكين الأيوبي، بسبب تعرض التجارة في هذا المحيط للقرصنة البحرية.

وكان طغتكين ينفق على هذه الشواني من خزانة الدولة ما بين خمسين وستين ألف دينار كل عام ثم أشار بعض الناس على المسعود الأيوبي بفرض ضريبة على التجار مقابل هذه الحماية ففرضت ضريبة الشواني منذ سنة613هـ/ 1216م وتقدر بحوالي عشر العشور حسب تحديد ابن المجاور لها بقوله: «كل ما أخذ من العشور ألف دينار يأخذ منه الشواني مائة دينار» واستمر أخذ ضريبة الشواني نحو اثني عشر عاماً من سنة 613هـ/ 1216م إلى سنة 624هـ/ 1227م حيث بطل العمل بأخذها[2] أي أنها استمرت في عهد الملك المسعود الأيوبي فقط.

أما دار الوكالة التي تعني «أن يعهد الرجل إلى غيره في أن يعمل له عملاً»[3] فقد أسست في (عدن) سنة 625هـ/ 1227م وحدد رسمها بحوالي قيراط عن كل دينار[4]، ويبدو أن دار الوكالة كانت مهمتها تخزين البضائع ثم بيعها من قبل وكلاء للتجار الذين كانوا يبيعون البضائع في ميناء عدن نيابة عنهم.

كذلك أسست دار الدلالة في عام 625هـ/ 1227م وهي التي تقوم بالتوفيق بين البائع والمشتري أو (الجمع بين البيعين) أو (من ينادي على السلعة لتباع بالممارسة)[5] وكان يؤخذ دلالة على كل دينار فلساً واحداً وإذا بيع بالجملة يؤخذ على كل مائة دينار ديناراً واحداً[6].

أما المكوس في اليمن فقد وجدت منذ عهد الدولة الزيادية وتؤخذ ممن

---

(1) ابن حوقل: نفس المصدر، والصفحة.

(2) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 141، 142، د. محمد عبد العال: بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما، الإسكندرية، 1980م، ص: 387، 389.

(3) المعجم الوجيز، ص: 680.

(4) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 143، الدينار يساوي: أربعة دراهم والدرهم 13 قيراطاً. ابن المجاور، ص: 89.

(5) المعجم الوجيز، ص: 223.

(6) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 143، 146.

يدخل البلد من التجار[1]، وقد وجدت في اليمن أعداد كبيرة من المراصد. بهدف أخذ المكوس التجارية من التجارة العابرة في تلك المراصد، ويبدو أن كثرة المراصد كانت ناتجة عن طبيعة استقلال المناطق اليمنية استقلالاً اسمياً وكثرة الدويلات بها، مما جعل كل منطقة تقيم لها مراصد تجارية لرصد البضائع الداخلة إليها والخارجة منها، بحيث لا يتم السماح للتجار بالمرور إلا بعد أخذ المكوس المقررة عليها[2].

وعن مقدار مبالغ المكوس التي كانت تؤخذ في مناطق اليمن نذكر الآتي:

كان يؤخذ مكس (بِعَثْر) على كل حمل ديناراً، وعلى سلة الزعفران ديناراً، كذلك كان يؤخذ مكوس على رأس الرقيق من اليمن، وعلى من اجتاز السرين أو كمران أو عدن من التجار[3].

وعلى باب زبيد كان يؤخذ مكوس على حمل المسك ديناراً، وعلى حمل البز نصف دينار، أما بقية المراصد فتعطى دراهم علوية[4]. وكذلك كان يؤخذ مكس في (الخوخة) على كل حمل مقدار سدس الحمل وفي (موزع) وهي من أعمال بني مجيد على كل حمل مقدار ثُمْنَه[5]. وهكذا شملت المكوس مناطق كثيرة من اليمن.

كذلك وجدت في اليمن موارد مالية مؤقتة هي ضمن الموارد غير الشرعية مثل الموارد المالية الصناعية، والمصادرات، والمصالحات، وغنائم حرب المسلمين وهي كالآتي:

الموارد المالية الصناعية:

كما كانت دويلات اليمن تتحصل على موارد مالية من الصناعات مثل الصناعات الجلدية وصناعات النبيذ والصناعات النقدية أو إصدار العملة وغيره.

---

(1) المعجم الوجيز، ص: 587.

(2) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 104، 105، كان أصعب تفتيش دقيق في المراصد يتم في غلافقة فرضه زبيد (نفسه).

(3) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 104، 105، كانت عدن وزبيد تتاجران بالرقيق.

(4) المقدسي: نفس المصدر، والصفحات، الدينار العلوي نسبة إلى الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين.

(5) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 92، 93، بعض المصادر تستخدم كلمة مكوس بمعنى العشور، فقد وصل إلى عدن في عهد الداعي عمران الزريعي مركب تجاري كان المبلغ المتحصل منه حوالي مائتي ألف دينار يذكر بامخرمة أن هذا المبلغ هو مكوس المركب، (ثغر عدن، ص: 215) بينما يذكر ابن الديبع أن هذا المبلغ هو عشور المركب. (قرة العيون، ص: 317).

فمن حيث الصناعات الجلدية فقد انتشرت في زبيد انتشاراً واسعاً، فوجد بها الكثير من مدابغ الجلود منذ عهد الدولة الزيادية[1]، وقد بلغ ضمان المدابغ الجلدية في زبيد في عهد الدولة النجاحية والأيوبية ثلاثة عشر ألف دينار سنوياً[2].

ومن جهة صناعة شراب النبيذ، فقد كثرت صناعته في كل من عدن وزبيد، ففي عدن كان يصنع شراب النبيذ عن طريق إضافة ثمره الكاذي ذات الرائحة العطرية إلى ماء بئر زعفران فيصبح طعمه حلواً[3] أما في زبيد فقد كانت صناعة شراب النبيذ يعمل من «التمر والزبيب والعسل والحنطة والشعير وغير ذلك»[4]، وكانوا يصنعونه في دور خاص تسمى دور النبيذ وقد بلغ جملة ضمان دور النبيذ في زبيد في عهد الدولة النجاحية والأيوبية اثني عشر ألف دينار سنوياً[5]، مما يدل على كثرة صناعة شراب النبيذ في زبيد آنذاك، وكان أغلب الناس النساء والرجال يقبلون على شرب النبيذ في زبيد[6]، مما يدل على أن هذا النوع من النبيذ غير محرم وغير مسكر، وإلا لما شربه أغلب الناس واهتمت الدولة به.

وقد أورد ابن منظور أن كلمة النبيذ اسم يطلق على الشراب المتخذ من التمر والشعير والعنب وغيره سواء كان مسكراً أو غير مسكر، كما أورد أن هناك نوعين من النبيذ يسمى «نبيذ الطرح» وهو ما لم يسكر فهو حلال أما إذا قعد فترة أطول وأسكر فهو حرام[7]. ومن خلال ذلك يتضح لنا أن النبيذ نوعان نوع لا يسكر وهو عبارة عن عصير يشربه الناس جميعاً، فهو حلال وذلك النوع هو الذي انتشر في زبيد وعدن وشربه كافة الناس، أما النوع الثاني فهو النوع المسكر، ويبدو أن هذا النوع المسكر كان غير موجود في تهامة اليمن وعدن وإن وجد فقد كان مقصوراً على التجار غير المسلمين يعملونه ويشربونه لأن عدن وزبيد انتشر فيهما الكثير من التجار غير المسلمين.

ومن ناحية إصدار العملة أو ما تسمى بصك النقود، فقد عملت مختلف

---

(1) المقدسي: المصدر السابق، ص: 93. الموارد المالية الصناعية زائد عن الرسالة.

(2) ابن المجاور: المصدر السابق، ص: 89، الشجاع: المرجع السابق، ص: 161.

(3) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 131.

(4) ابن المجاور: المصدر السابق، ص: 89، 90، الشجاع: المرجع السابق، 162، ذكر هذه العبارة ابن منظور بقوله: «في الحديث ذكر النبيذ وهو ما يعمل من الأشربة من التمر والزبيب والعسل والحنطة والشعير وغير ذلك» لسان العرب مادة نبذ.

(5) ابن المجاور: المصدر السابق، ص: 131، الشجاع: المرجع السابق، ص: 162.

(6) ابن المجاور: المصدر السابق، ص: 79.

(7) ابن منصور: لسان العرب/ مادة نبذ.

الدويلات في اليمن على إنشاء دور العملة سميت بدور الضرب، وكانت تتحصل منها موارد مالية كبيرة مقابل إصدار العملة، ففي عهد الدولة النجاحية والأيوبية بلغت موارد إصدار العملة من دار الضرب في زبيد ثلاثة عشر ألف دينار سنوياً[1] وهذا يدل على أن الذهب والفضة الخاصة بإصدار العملة كانت ملكاً لأصحاب الثروة من تجار وملاك الأراضي، بينما كانت الدولة تملك آلة صك العملة، أي أن الدولة كانت تشرف على إصدار العملة، وذلك بهدف عدم إنقاص الوزن الخاص بالعملة، وعدم إدخال التزييف عليها، أو تسرب الغش إليها مثل خلط الذهب مع النحاس وإعطائه الناس على أنه ذهب. لذلك كانت الدويلات تراقب إصدار العملة وتطبع عليها اسم الحاكم الذي ضربت العملة في عهده، وتاريخ الضرب والمدينة التي صدرت فيها، وهذا ما يعبر أن هذه العملة غير مزيفة، وتحت ضمان الحاكم الذي ذكر اسمه عليها، وذلك من أجل تسهيل تداول العملة بين جميع الناس.

المصادرات:

تعد المصادرات من موارد الدولة المالية المؤقتة غير الشرعية وهي انتزاع أموال بعض الأفراد بالقوة[2] أو قبضها أو استصفائها وقد تعددت أنواع المصادرات للأموال الثابتة أو المنقولة كأحد أشكال العقوبة التي يفرضها الولاة والأمراء على أتباعهم بعيداً عن أحكام القضاء الشرعي. كما تعد نوعاً من المحاسبة المالية أو الإدارية للأشخاص العاملين بجهاز الدولة الذين يتضح أنهم استولوا على أموال الدولة أو أموال الناس بطريقة غير مشروعة.

ومن أمثلة المصادرات التي تمت في اليمن مصادرة أراضي الفقيه السنّي عبد اللّٰه المصوع الذي قام بقتل خالد بن أبي البركات الحميري المتولي حصن التعكر بذي جبلة من قبل الصليحيّين وذلك بسبب اعتناقه المذهب الإسماعيلي المخالف لأهل السُنّة. فلما تولّى المفضل بن أبي البركات الحصن بعد أخيه خالد أمر بقتل هذا الفقيه ومصادرة أمواله وبساتينه وأراضي قومه[3].

وفي عهد الدولة النجاحية استصفى الأمير منصور بن جياش أموال وأراضي

---

(1) ابن المجاور: المصدر السابق، ص: 89، الشجاع: اليمن في عيون الرحالة، ص: 161.

(2) قال ابن منظور عن المصادرة: «ومن كلام كتاب الدواوين أن يقال صودر فلان العامل على مال يؤديه أي فروق على ما ضمنه» لسان العرب، مادة صدر.

(3) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 269، 270.

وزيره أنيس الفاتكي بعد قتله بسبب شكه بأن الوزير هَمَّ بقتله فسبقه الأمير بالقتل ثم صادر أمواله[1].

وقد صادر طغتكين أموال أشخاص كثيرين في اليمن، فبعد استيلائه على زبيد عام 579هـ/ 1183م صادر أموال حطان بن منقذ متولي أعمال زبيد، وكان قد استأذن في السفر إلى مصر. فجمع أمواله وخرج بها، فأمر طغتكين بالقبض عليه وعلى أمواله[2]. التي قدرت آنذاك بحوالي سبعين غلافاً زردية مملوءة ذهباً عيناً[3]، وقدرت قيمة ذلك بألف ألف دينار[4] أي مليون دينار. كذلك استولى طغتكين على أموال عثمان الزنجبيلي نائب عدن عندما حاول الهرب بها من عدن عن طريق البحر حيث لحقته سفن طغتكين في البحر فأخذت بعض أمواله[5].

كذلك صادر طغتكين أموال وأملاك الشيخ علي بن أحمد المعلم حين عجز عن سداد مبلغ الضمان الذي التزم به في مخلاف جعفر[6] وهو مبلغ خمسين ألف دينار[7] وكانت المصادرة لأملاكه ودوره في المجرعة وذي جبلة وضراس وذي أَشْرق وكانت أملاكاً كثيرة[8].

المصالحات:

كذلك كانت المصالحة تشكل إحدى موارد الدولة المالية المؤقتة لبعض الدول اليمنية وأحد المصروفات لبعض الدول الأخرى. ومن ضمن المصالحات المالية في اليمن التي تدخل ضمن نطاق إيراد الدولة الأيوبية المصالحة التي صالح بها طغتكين، علي بن حاتم اليامي حاكم صنعاء على دفع ثمانين ألف دينار حاتمية

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 210، الخزرجي: العسجد، ص: 155، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 79، ابن الديبع: قرة العيون، 352.

(2) الخزرجي: العسجد، ص: 159، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 386، 387.

(3) ابن شداد: سيرة صلاح الدين، ص: 280، د. محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 121، 122.

(4) ابن واصل: مفرج الكروب: ج2، ص: 105، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ1، ص: 111، د. محمد عبد العال: نفس المرجع، ص: 122.

(5) ابن واصل: نفس المصدر، ص: 106، الخزرجي: نفس المصدر والصفحة، د. محمد عبد العال: نفس المرجع، ص: 123.

(6) الخزرجي: العسجد، ص: 170، ابن الديبع، قرة العيون، ص: 399.

(7) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 370.

(8) الخزرجي: نفس المصدر، ص: 170.

ومائة حصان في سنة واحدة، ثم عدل هذا الصلح فصالحه لمدة سنة أخرى على دفع ستين ألف دينار حاتمية وثمانين فرساً[1].

وكذلك المصالحة التي صالح بها وردشار الأيوبي للإمام الزيدي عبد الله بن حمزة، على أن يدفع الإمام في كل سنة مائة حمل موقراً حديداً وعشرين رأساً من الخيل[2]، وأيضاً مصالحات بعض الشخصيات مثل مصالحة توران شاه مع صاحب طمار من أعمال تهامة على أداء بعض المال للأيوبيّين[3].

الغنائم:

الغنيمة هي الفوز بالشيء، وفي الحرب الظفر بمال العدو[4]. والأصل في الغنيمة أن تؤخذ من قتال المسلمين للكفار يوضح ذلك يحيى بن آدم بقوله: «سمعنا أن الغنيمة ما غلب عليه المسلمون بالقتال، حتى يأخذوه عنوة»[5]. ويعتبر خمس هذه الغنائم مورداً شرعياً لأنها من مال الكفار، غير أن الغنائم المذكورة حالياً هي من طوائف المسلمين المتقاتلين فهي مورداً مالياً غير شرعي للمنتصر، ونتيجة لاستمرار الصراع والحرب فيما بين دويلات اليمن فقد ظلت عملية الاستيلاء على الغنائم ظاهرة بارزة عند جميع دويلاتها، وقد شكلت الغنائم مورداً مؤقتاً غير شرعي لمالية بعض دويلات اليمن، وبلغت الغنائم مبالغ ضخمة في كثير من الأحوال.

وكأمثلة لتلك الغنائم ما غنمه علي بن محمد الصليحي في موقعة (صوف) سنة 444هـ/ 1052م التي دارت بينه وبين قبيلة حاشد، إذ أنه استولى على كل ما كان معهم من الخيل والسلاح والرماح[6]. وكذلك غنم سعيد الأحول النجاحي خزائن وأموال علي الصليحي التي اصطحبها معه في سفره للحج سنة 459هـ/ 1066م بعد قتله إياه في المهجم وكانت أموالاً جليلة[7]، كما غنم الإمام أحمدبن سليمان الكثير من أموال الباطنية من أهل يام بالخانق بعد حربه لهم وانتصاره عليهم[8].

(1) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 389، 392، الخزرجي: العسجد، ص: 163.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 102، 103.

(3) أبو شامة: الروضتين، ص: 554.

(4) المعجم الوجيز، ص: 456.

(5) يحيى بن آدم: الخراج، ص: 21، د. محمد ضياء الدين الريس: الخراج والنظم المالية، ص: 111.

(6) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ق7.

(7) الخزرجي: العسجد، ص: 59، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 255.

(8) المحلى: الحدائق الوردية، ص: 128.

ومن الغنائم ما غنمه بعض الفقهاء وقبائل اليمن عند استيلائهم على حصن التعكر بذي جبلة أثناء ما كان المفضل بن أبي البركات في زبيد يساعد أبناء جياش بن نجاح وعبيدهم، فغنموا ما في الحصن وكان نصيب أحدهم وهو إبراهيم بن زيدان من العين حوالي خمسة وخمسين ألف دينار(1).

ومن الغنائم أيضاً ما غنمه بلال بن جرير عندما استولى على حصن الخضراء بعدن على أثر الحرب التي دارت بين سبأ بن زريع وابن عمه علي بن أبي الغارات والتي كان بلال فيها قائداً لسبأ فأخذ بلال الحرة بهجة أم علي بن أبي لغارات وغنم الأموال التي كانت توجد معها وهي من الذخائر ما لم تقدر بثمن(2).

ومن أهم الغنائم في اليمن ما غنمه ابن مهدي، فقد غنم الكثير من أموال دويلات اليمن يوضحها ابن الديبع بقوله: «وانتقلت إليه جميع أموال اليمن وذخائرها يقال إنه حصل في خزائنه ملك خمس وعشرين دولة من دول أهل اليمن أموال الحبشة ووزرائها وأموال عبيد فاتك وأموال بني سليمان الشرفاء وملك بني وائل ومعاقل بني الصليحي وذخائر علي الصليحي وولده المكرم وذخائر الحرة السيدة ومدينة الجند وأعمالها ومعاقل الداعي عمران بن محمد بن سبأ وحصن السمدان وغير ذلك»(3).

طريقة تحصيل الأموال:

كانت أهم طريقة لجباية الأموال هي (نظام الضمان) أو نظام التَقَبُّلْ.. وهو تحصيل الموارد المالية مثل العُشر التجارية والزراعية، والضرائب وغيرها، وهو عبارة عن التزام شخص ما مسبقاً بدفع مبلغ محدد للدولة لما ضمنه من مورد مالي، ثم يتولّى الضامن تحصيل الأموال المقررة، وفي هذه الحالة قد يلجأ الضامن أو الملتزم إلى استغلال الموقف.

وعلى هذا التعريف السابق فإن الضامن أو المُتَقَبِّلَ يتعهد بالقيام بعملية جباية الأموال عن التجارة القادمة لمدينة زبيد أو الخارجة منها، كما يتعهد بالقيام بعملية جباية عشور المراكب التجارية القادمة إلى عدن وغلافقة، أما عملية تقدير تحصيل الأموال فهي تتم عن طريق (الأمانات) فقد تزيد جباية الأموال في سنة ما وقد تقل في السنة الأخرى(4).

---

(1) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 171.
(2) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 125.
(3) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 373، انظر ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 123، 124.
(4) ابن حوقل: صورة الأرض، ص: 32. وبالنسبة لطرق جباية الأموال فقد ذكرت المصادر =

فمثلاً كان هناك ضمان القبان في عدن ومبلغه عشرون ألف دينار سنوياً، وضمان سوق الخضر والجواري والرطب واللحم وجميع الدواب بمبلغ أحد عشر ألف دينار[1].

وفي منطقة العارة قرب باب المندب كان يؤخذ ضمان من كل حملٍ نصفاً وربع عشر وكان ضمان العشر يؤخذ من سنابيق الصيادين الذاهبة من زبيد إلى عدن والقادمة من عدن إلى زبيد، ومن مراكب الزيلع القادمة من الحبشة، وجملة الضمان في هذه المنطقة في كل عام ألفاً ومائتي دينار، واستمر الضمان إلى أن أزيل في سنة 620هـ/ 1223م في العهد الأيوبي، ثم أعيد هذا الضمان أو الرسم سنة 624هـ/ 1226م فارتفع الضمان في هذه السنة إلى ألف وسبعمائة دينار[2].

وفي زبيد تعدد الضمان بها للمحاصيل الزراعية وأنواع البضائع التجارية فقد كان يؤخذ بها قبالات أي ضمان عن عشور التجارة عن «جميع ما يدخلها ويخرج منها.. مائتا ألف دينار»[3] في عهد بني زياد، وفي عهد النجاحيّين والأيوبيّين كان ضمان المدابغ في زبيد حوالي ثلاثة عشر ألف دينار، وضمان دار الضرب (العملة) بها ثلاثة عشر ألف دينار، وضمان دار النبيذ اثنا عشر ألف دينار، وضمان خراج النخيل مائة ألف دينار، كما كان ضمان سنابيق الصيادين والجالة والخضر والبقول التي تباع مع الغلال وما يدخل من باب زبيد يقدر بحوالي تسعين ألف دينار ملكي، كذلك كان ضمان سوق السمك بزبيد كل يوم ثلاثة عشر دينار ملكي[4]، وعلى ذلك يصبح ضمان سوق السمك في زبيد في السنة يساوي حوالي أربعة آلاف وسبعمائة وخمسين ديناراً.

كذلك شمل الضمان عشور الأراضي الزراعية فقد كان الشيخ علي بن أحمد المعلم يضمن الأراضي الزراعية في مخلاف جعفر في العهد الأيوبي عهد طغتكين وابنه المعز ففي عهد طغتكين ضمن في إحدى المرّات الأراضي الزراعية للمخلاف

= طريقتين، أحدهما (نظام الضمان) وهو عبارة عن ضمان رجل ما لشيء ما أو تكفله له وإن كان الضامن أو المتكفل، قد تكفل بخراج ما وتم تحصيله أكثر مما ضمن، فهذا رباً لا يجيزه الشرع، وثانيهما (نظام التقبل) وهو أن يتقبل بخراج أو جباية أكثر مما أعطى، فذلك الفضل رباً، فإن تقبل وزرع فلا بأس، ابن منظور: لسان العرب مادة قبل.

(1) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 144 ـ 148.

(2) ابن المجاور: المصدر السابق، ص: 99، 100.

(3) ابن حوقل: صورة الأرض، ص: 23.

(4) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 89، 90، 243.

وهي من المصابيح إلى ضربة عمر بمبلغ خمسين ألف دينار[1] إلا أنه عجز عن سداد المبلغ فاضطر طغتكين إلى مصادرة أمواله[2].

وهكذا اتسع العمل بالضمان حتى شمل جميع موارد بيت المال من الأراضي الزراعية وأنواع البضائع التجارية، يوضح ذلك ابن المجاور بقوله: «ولم يبق شيء يدور عليه اسم أو حرف إلا وقد رجع فيه الضمان ما خلا الماء والسمك»[3]. وحتى السمك ضمن أيضاً.

ونتيجة لانتشار نظام الضمان والتقبيل في دويلات اليمن فمن المرجح أنهما غير محرمان والذي يمكن أن نفهمه أن (نظام الضمان) أو (نظام التقبل) اختص بما يؤديه الإنسان من عمل فقط، وهو أن يلتزم شخص ما أو يتعهد بأداء عمل مالي ما دون تحديد المبلغ المراد جبايته مسبقاً ثم القيام بتحصيله، إلا إذا كان من باب التقدير، لأن الضمان أو التعهد بأداء عمل ما يتناسب مع الشرع، بينما لا يتناسب معه أن يحدد الضامن أو المتعهد أو المتقبل المبلغ المراد تحصيله مسبقاً ويتعهد بدفعه ثم يقوم بجبايته وذلك للتغير في مقدار جباية الأموال من سنة إلى أخرى، ثم إن الضامن أو المتقبل قد يتحصل على مبالغ أكثر مما ضمن، وقد يظلم الناس في تحصيله للمال وهذا يخالف الشرع.

ثانياً
المصروفات

كان لكل نوع من الموارد الإسلامية أوجه صرفها المحددة لها، فالصدقة أو الزكاة التي تؤخذ من المعادن وخمس الركاز، وأعشار الأراضي والثمار، وعشور الأموال التجارية من المسلمين الذي هو ربع العشر، فهي تصرف وفقاً لما حددته الآية القرآنية الكريمة: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 60].

أما مصروفات الدولة المتعددة فهي تصرف من الفيء أو من الأموال الموظفة على الأراضي الزراعية (الخراج) وعشور التجارة من غير المسلمين والجزية والضرائب وغيره[4].

وقد تعددت أنواع مصروفات الدولة وأغراضها كما تنوعت أهدافها

(1) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 370.
(2) انظر المصادرات.
(3) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 148.
(4) أمين صالح: المرجع السابق، ص: 59، 115.

وأساليبها فشملت المصروفات مرتبات للموظفين والحكام والجند وغيرهم كما شملت بناء أنواع المرافق العامة والنواحي العسكرية والهدايا والصلات والمنح والمكافآت وغيرها.

فعن مرتبات الموظفين والحكام في اليمن لم توضح المصادر مقدارها والذي أشار إليه عمارة أنه كان يوجد نظام صرف الأرزاق بقوله: «وحكى لي عبيد بن بحر وغيره أن الهدايا التي يدفعها في كل سنة برسم حواشي السلطان من الجهات والأزمة ووصفان الخاص عشرون ألف دينار هدية وصلة خارجاً عن أرزاقهم المستقرة»[1]. مما يدل على صرف المرتبات للموظفين والحكام والجند وغيرهم.

وعن بناء المرافق الحيوية والمنشآت الدينية والتجارية، فقد اهتم الحكام بالإنفاق عليها[1]. ففي عهد الدولة الزيادية بنوا سوراً حول مدينة زبيد[2]. وقام بتجديده الحسين بن سلامة، ثم جدد مرة أخرى في عهد الدولة النجاحية[3]، وفي عهد طغتكين الأيوبي أدار سوراً آخر خارج السور القديم وذلك بهدف إسكان الجند فيما بين السورين بأموالهم ودوابهم[4]، كذلك أدار بنو زريع سوراً حول مدينة عدن[5].

كذلك أنشأت في عدن حمامات[6] وأسواق في عهد الدولة الزيادية أما في عهد الدولة الأيوبية أيام ولاية عثمان الزنجبيلي (571 ـ 579هـ/ 1176 ـ 1184م) فقد بني فيها قيسارية للتجار وأسواق ودكاكين كما بنى إسماعيل بن طغتكين (593 ـ 598هـ/ 1197 ـ 1202م) فيها قيسارية للعطارين جميعها دكاكين[7] كما بني في زبيد منذ نشأتها حمامات وأسواق[8].

واهتم الحكام بالإنفاق على بناء المؤسسات الدينية مثل بناء الجوامع والمدارس، فقد بنيت الجوامع في زبيد في عهد الدولة الزيادية، وجددت في عهد الحسين بن سلامة نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، كما جدد بنو نجاح مسجد زبيد وبنوا مسجداً آخر، وأيضاً بنى بنو مهدي جامعاً في زبيد سمي

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 227. بناء المرافق + عن الرسالة.
(2) الخزرجي: المصدر السابق، ص: 97.
(3) ابن المجاور: المصدر السابق، ص: 73.
(4) ابن المجاور: المصدر السابق، ص: 74.
(5) ابن المجاور: المصدر السابق، ص: 128.
(6) المقدسي: المصدر السابق، ص: 85.
(7) ابن المجاور: المصدر السابق، ص: 130، أطلق عليها ابن المجاور قيصارية.
(8) المقدسي: المصدر السابق، ص: 84.

بالمشهد، وفي العهد الأيوبي أمر توران شاه بخراب جامع ابن مهدي وأمر بتجديد جامع زبيد القديم[1].

ومن حيث بناء المدارس فقد بنى إسماعيل بن طغتكين في زبيد مدرستين، إحداهما للشافعية، والأخرى للحنفية[2]. وبالنسبة للطرقات فقد مهد الحسين بن سلامة الطريق من عدن إلى مكة عبر تهامة اليمن وذلك لتسهيل سير الحجاج والتجار[3].

المصروفات الحربية:

كما شملت المصروفات شراء الأسلحة للجند، من ذلك أن سعيداً الأحول بعد تمكنه من قتل علي الصليحي سنة 459هـ/ 1066م وسيطرته على زبيد بعث إلى الحبشة لشراء عشرين ألف حربة[4]، والمقصود بالحربة هنا شراء جند يجيدون الرمي بالحراب مع سلاحهم الحراب.

وفي عهد الداعي سبأ بن أبي المسعود أنفق على محاربة ابن عمه علي بن أبي الغارات من أجل السيطرة على عدن ثلاثمائة ألف دينار، ثم أفلس فاقترض من تجار عدن ثلاثين ألف دينار قضاها عنه ابنه علي بن سبأ[5].

كما قام الداعي محمد بن سبأ حاكم عدن بشراء حصون الأمير منصور بن المفضل الحميري التي ورثها من الصليحيّين بمبلغ مائة ألف دينار[6].

وشملت المصروفات أيضاً التصدق على المدارس والفقهاء المدرسين. من ذلك أن الوزير مَنّ اللّه الفاتكي النجاحي تصدق على مدارس الفقهاء الحنفية والشافعية بما أغناهم من الأراضي والمرافق والرباع[7] وهذا يعبر عن إنفاق الدولة على مشاريع التعليم.

كذلك وجدتُ مصروفات كثيرة مثل الصلة والمعونات والخلع والعطايا والهدايا فمن الأموال المصروفة كصلة لبعض الشخصيات منها صلة مستديمة سنوياً وهي ما كانت تصرفه السيدة أسماء بنت شهاب الصليحية لأخيها أسعد بن شهاب

---

(1) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 385، 386.

(2) الخزرجي: العسجد، ص: 178، ابن الديبع: بغية المستفيد، ص: 71.

(3) عمارة: تاريخ اليمن، ص: 71، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 92.

(4) عمارة: المصدر السابق، ص: 203. المصروفات الحربية + عن الرسالة.

(5) عمارة: المصدر السابق، ص: 182.

(6) عمارة: المصدر السابق، ص: 187.

(7) عمارة: المصدر السابق، ص: 210.

وهو مبلغ خمسين ألف دينار سنوياً[1] ومنها صلة مؤقتة وهي ما صرفته السيدة أسماء لعامل مالية زبيد أحمد بن سالم العاملي وذلك عندما رفع إليها خراج تهامة. رآها توزع أغلب المبلغ على وفود العرب. فاغتاظ أحمد العامل لهذا التصرف منها لتعبه في جمعه، فأمرت السيدة أسماء أخاها أسعد والي زبيد أن يصرف للعامل مبلغ عشرين ألف دينار صلة له[2].

ومن المعونات ما صرفته السيدة الحرة أروى الصليحية وهو مبلغ عشرين ألف دينار معونة لمسلم بن الزر عندما طلب معونتها إلا أنه ردّ المبلغ لأنه كان يحتاج إلى المعونة العسكرية[3].

ومن الخلع التي منحها حكام اليمن لبعض الشخصيات خلعة الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين للسلطان بشر بن حاتم اليامي عندما قدم إليه معلناً الولاء والطاعة، وهي عبارة عن خلعة الخليفة التي كانت للملك العزيز وسيفه وطوق ذهب وكز نضار وغير ذلك[4]. ومنها خلعة الملك المسعود لبني علي بن رسول عندما استقبلوه في منطقة الهَلْية في تهامة أثناء قدومه إلى اليمن سنة 613هـ/1216م حيث خلع عليهم أنفس الخلع فأعطي الأمير الحسن بن علي بن رسول حصاناً وجواداً وألف دينار ذهباً[5].

ومن العطايا التي كانت تمنح في اليمن عطايا محمد بن سبأ الزريعي عندما اشترى حصون وقلاع الصليحيّين مدحه الشعراء فبسط يديه بالعطايا لهم فكان كل من رفع إليه قصيدة أعطاه حوالة إلى خزائنه فبلغت جملة حوالاته بالعطايا لهم خمسة آلاف دينار[6].

ومنها العطايا الجليلة التي منحها الملك المسعود الأيوبي لعلم الدين سليمان بن موسى الحميري حينما وصل إليه إلى محطة (بُكُر) معلناً الطاعة له[7].

ومن الصدقات التي منحت في دويلات اليمن منها ما كان يتصدق به الوزير النجاحي سرور الفاتكي سنوياً على الفقهاء والقضاة المتصدرين في الحديث والنحو

---

(1) الخزرجي: نفس المصدر، ص: 123.
(2) عمارة: المفيد، ص: 134، 135.
(3) عمارة: المصدر السابق، ص: 162.
(4) ابن حاتم: السمط، ص: 30.
(5) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، جـ1، ص: 404.
(6) عمارة: المفيد، ص: 188.
(7) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 84. تحقيق حجازي.

واللغة، وعلم الكلام بمبلغ يقدر بحوالي اثني عشر ألف دينار كل عام[1].

كذلك كانت الهدايا من أهم المصروفات في دويلات اليمن، ومن هذه الهدايا هدية علي بن محمد الصليحي للخليفة المستنصر بالله الفاطمي بمصر وهي هدية جليلة عبارة عن سبعين سيفاً قوائمها من العقيق[2]، وهناك هدايا سنوية منها هدايا الوزير النجاحي سرور الفاتكي التي كان يدفعها في كل سنة برسم حواشي السلطان من الجهات والأزقة ووصفان الخاصة وتقدر بحوالي عشرين ألف دينار[3].

كذلك كان المحمول من الهدايا من أعمال تهامة إلى بيت الأمير النجاحي في كل سنة ستين ألف دينار، والمحمول إلى بيت الحرة عَلَم وحواشيها وترائبها ومن يلوذ بها على وجه الهدايا مبلغ خمسة عشر ألف دينار[4].

ومن ضمن الهدايا التي أرسلتها السيدة الحرة أروى إلى خليفة مصر مع كاتبها محمد الأزدي عندما رحل ابن نجيب الدولة إلى مصر، هدية قيمتها عبارة عن (زبدية قيمة الجوهر الذي فيها أربعون ألف دينار)[5] وهكذا كانت الهدايا أحد جوانب مصروفات الدولة.

ومن ضمن المصروفات الهامة الجوائز المتعددة التي كانت تمنح للشعراء المادحين للأمراء والسلاطين منها الآتي:

فالوزير النجاحي مفلح الفاتكي مدحه أبو المعالي الشاعر بقصيدة فأعطاه خمسمائة دينار، كما مدح ابنه منصور فأعطاه ثلاثمائة دينار[6]. ومدح الأمير غانم بن يحيى بن حمزة السليماني الشاعر المعروف بابن مكرماني البرعي فأثابه عليها ألف دينار[7].

ومدح ابن جديد المغربي السيدة الحرة أروى بنت أحمد، والمفضل بن أبي البركات الحميري سنة 503هـ/ 1109م، فكسب منهما أموالاً كثيرة، منها كسب عن قصيدة ألقاها عليه مبلغ ألف دينار، كذلك مدح المفضل بن أبي البركات الشاعر محمد بن زياد الماربي فأعطاه ألف دينار[8].

(1) عمارة: المفيد، ص: 210، 227، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 352، 353، 357.

(2) الخزرجي: العسجد، ص: 57، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 45.

(3) عمارة: المفيد، ص: 227.

(4) عمارة: المفيد، ص: 227، 228.

(5) الخزرجي: العسجد، ص: 70، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 277.

(6) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 354.

(7) عمارة: المفيد، ص: 292، 293.

(8) عمارة: المفيد، ص: 268، 269.

ومدح الداعي محمد بن سبأ الزريعي الشاعر المشهور أبو الفتوح بن قلابس بقصيدة مشهورة فأجازه عليها ألف دينار[1]، ومدحه الشاعر القاضي يحيى بن أبي يحيى فأجازه بخمسمائة دينار وخلعة[2] كذلك مدح الأديب أبو بكر العندي الداعي عمران الزريعي بقصيدة فأجازه بقدح من فضة فيه ألف وسبعمائة دينار وخلعة، كما أطلق له عشور مركب بألفي دينار عن مدحه له بقصيدة مشهورة[3] وأيضاً مدحه القاضي يحيى بن أبي يحيى بقصيدة فأجازه عليها بألف دينار، كما أجازه بألف دينار عن قصيدة أخرى[4]. وهكذا صرفت مبالغ كثيرة كجوائز للشعراء لمدحهم الأمراء والسلاطين.

كما كانوا يصرفون مبالغ مقابل الحج فقد أمر الوزير النجاحي الفاتكي أن تجهز الحرة عَلَم أم فاتك للحج بمبلغ ثلاثين ألف دينار[5]، وقد استمرت في الإكثار بالحج حتى سميت الحجَّاجة.

وأيضاً كان أمراء الصليحيّين يدفعون ألوف الدنانير كوفادة سنوية لمن يرفع إليهم مالية زبيدة وتهامة، ويبدو أن هذه الوفادة كانت مقابل حماية طلوع الأموال من تهامة إلى صنعاء. كما كانت السيدة الحرة أسماء بنت شهاب الصليحي تفرق في بعض الأحيان معظم ارتفاع زبيد وتهامة على وفود العرب[6].

كما كثرت مخصصات القصور في اليمن، فالسيدة الحرة أروى بنت أحمد كان مخصص لها سنوياً ارتفاع مالية عدن وهو مبلغ مائة ألف دينار تصرف معظمه على قصرها من الحواشي والجواري وغيره[7]. وكانت السيدة عَلَمْ أم فاتك النجاحي تصرف على قصرها لحواشيها وجواريها مبلغ ستين ألف دينار سنوياً[8].

وهناك صرفيات أخرى مثل مكافآت الجند[9]، ومصروفات مطابخ شهر رمضان في المهجم وشراء الحصون، والمصالحات[10]. والهبات، والهدايا،

---

(1) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 314.
(2) عمارة: المفيد، ص: 188.
(3) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 317.
(4) الخزرجي: العسجد، ص: 91.
(5) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 354.
(6) عمارة: المفيد، ص: 134، 206.
(7) عمارة: نفس المصدر، ص: 137، 147.
(8) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 117.
(9) عمارة: المفيد، ص: 133.
(10) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 314، 357، 395.

والإتاوة وغيرها. وهكذا تنوّعت أشكال المصروفات في الدويلات اليمنية.

يتضح مما سبق عرضه عن النظام المالي أن الموارد المالية الشرعية كان لها أوجه صرف محددة. وهي أموال لا تكفي لسد حاجات الدولة المتنوعة. لذلك عملت الدويلات المتعددة في اليمن على فرض أموال إضافية على أنواع التجارة وبعض الأراضي الزراعية لمجابهة مصروفات الدولة المختلفة، مثل مرتبات للجند والموظفين وشراء أسلحة وبناء المرافق وغيرها من المصروفات الأخرى.

الباب الثالث

الحياة العلمية والتعليمية

الفصل الأول: التعليم

الفصل الثاني: الحركة العلمية

الفصل الثالث: المذاهب الإسلامية

التعليم

تعددت مراحل التعليم ومراكزه ومدارسه في بلاد اليمن، كما تعددت مجالسه وطرق الدراسة ومواد وتمويل التدريس وانتهاء بمنح الإجازات، ونورد هنا التعليم بصورته التي كانت في الفترة المحددة للبحث فيها حسب ما أوردته المصادر.

أولًا
المراحل التعليمية

أخذ نظام التعليم باليمن ثلاث مراحل هي: مرحلة الكتاتيب (المعلامة). ومرحلة دراسة العلوم الدينية واللغوية، ومرحلة التفقه، أو المرحلة المتقدمة.

المرحلة الأولى:

الدراسة في الكتاتيب (المِعْلاَمَة) ويتركز الاهتمام في هذه المرحلة على تعليم الصبية القراءة والكتابة وتحفيظهم القرآن الكريم عن ظهر الغيب[1] وقد يكلف الصبي بإعادة قراءته وحفظه مرة أخرى أو أكثر، وكانت الكتاتيب منتشرة في القرى والمدن بحيث يتيسر للأولاد الالتحاق بأقربها إلى بيوتهم، حتى إذا ما أتموا هذه المرحلة التي تختتم باستكمال حفظ القرآن، انتقل من أراد أهله استمراره في التعليم إلى الالتحاق بالمدرسة أو المسجد لتلقي العلوم الدينية واللغوية في القرى الكبيرة أو المدن[2].

وقد يبدأ الالتحاق للدراسة في الكتاتيب في سن الخامسة أو قبل ذلك أو بعده، وعادة ما يكون أولاد المعلمين في هذه المرحلة هم الذين يدرسون في سن مبكرة.

وتعتمد فترة بقاء الصبي في الدراسة في هذه المرحلة على مدى قدرته على حفظ وختم القرآن، وهي فترة يستطيع البعض إنهاءها في سنتين وقد تمتد إلى ثلاث أو أربع سنوات.

وتبدأ هذه المرحلة بتعليم القراءة والكتابة باستخدام الألواح الخشبية وحفظ قصار سور القرآن، ثم التدرج إلى أن يتم الانتهاء من حفظ القرآن كله. فإذا ما ختم

---

(1) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 340.

(2) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 3.

الصبي القرآن يكون قد انتهى من هذه المرحلة، ويقام له احتفال أو وليمة بهذه المناسبة حسب حالة ولي أمره، فقد تكون مقصورة على زملائه فقط من الطلاب، وقد يدعى إليها الكثير من الناس[1]. وقد تقام وليمة صغيرة بعد حفظ كل جزء ثم وليمة كبيرة بعد حفظ القرآن كله.

المرحلة الثانية:

وهي الدراسة في المسجد أو المدرسة، وهي مرحلة التفقه في العلوم، ويدرس الطالب في هذه المرحلة العلوم الدينية واللغوية على أستاذة متفقهين في هذه العلوم.

وتبدأ الدراسة مبسطة بحيث يدرس الطالب مثلاً (مختصر ابن عباد) في النحو، وهو ما كان يبدأ المبتدئون في قراءته[2]. كما يجب حفظ قواعد اللغة. ثم يتم التدرج إلى ما هو أكثر صعوبة وهكذا حتى يدرس الطالب العديد من كتب الفقه واللغة، وقد يعيد الطالب دراسة الكتاب أكثر من مرة. فمثلاً إرتحل يحيى بن أبي الخير (489 ـ 558هـ) ـ (1095 ـ 1163م) إلى الإمام زيد بن الحسن الفائشي (458 ـ 528هـ) ـ (1065 ـ 1157م) في أحاظة، فأعاد عليه كتاب (المهذب)[3] كما درس عنده (التعليق) و(الملخص) و(غريب أبي عبيدة)[4]، وتعتمد هذه المرحلة على الحفظ والفهم معاً. وَيُعَدُّ الطالب الأكثر حفظاً من الطلاب النجباء.

ويبدأ الطالب في هذه المرحلة بسماع قراءة الأستاذ لما يدرسه من الكتب، ثم يقرأ ما سمع إلى أن يحفظه. ومن أمثلة الحفاظ الشيخ سراج الدين أبو الحسن علي بن أبي حمير العرشاني (557هـ/ 1162م) أحد الشيوخ المشهورين بالحفظ. قال عنه تلميذه الإمام يحيى بن أبي الخير: (ما رأيت أحفظ من هذا الشيخ [يعني علي بن أبي بكر] في الحديث ولا أعرف منه، قيل له: ولا في العراق قال: ما سمعت)[5]. وحفظ يحيى بن أبي الخير كتابي (المهذب) و(اللمع) غيباً أخذهما عن الفقيه عبد الله بن أحمد الزبراني[6].

---

(1) انظر أبو عبد الله الطيب بن عبد الله بن أحمد أبي مخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص: 143.

(2) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 287، يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، صورة من المخطوط لدى الباحث، ق: 29ب.

(3) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 175.

(4) الأهدل: تحفة الزمن، ص: 238.

(5) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 172.

(6) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 340.

وبالنسبة لطريقة اختيار المدرّس الذي يدرس على يديه الطالب فأولياء التلاميذ هم الذين يتفقون مع من يرغبون من معلمي الصبيان، أن يتلقى أبناؤهم العلم على أيديهم، وفي مرحلة التفقه قد يختار الطالب نفسه أستاذه، ولم يكن هناك إجبار على التقيد بأن يتعلم الأولاد القراءة والكتابة على معلم بذاته أو التفقه في كتاب بعينه، وكان الإقبال على من هم أكثر شهرة في العلم، وعلى سبيل المثال فقد دَرَسَ أو تفقه أحمد بن عبد اللّٰه بن أبي عمران (ت 526هـ/ 1131م) على يد كل من الإمام زيد اليفاعي (ت بعد سنة 513هـ/ 1119م) والإمام أبي بكر المحابي (ت 500هـ/ 1106م) والإمام ابن عبدويه (ت 525هـ/ (1131م)[1] وهم أشهر علماء اليمن آنذاك، وفي هذه المرحلة يرتحل الطالب في طلب العلم إلى أماكن كثيرة سواء داخل اليمن أو خارجها.

وفترة الدراسة اليومية في هذه المرحلة الثانية مثل المرحلة الأولى تبدأ منذ الصباح إلى أن تحين صلاة العصر. وقد يقوم بعض المدرسين بإعطاء الطلبة رياضة بدنية. فمثلاً كان الفقيه أبو عبد اللّٰه محمد بن أحمد بن بطال الركبي المتوفى لبضع وثلاثين وستمائة يُدرس الطلبة إلى أن يفرغ من صلاة العصر، بعد ذلك يأمرهم بالخروج للاشتغال بالرياضة البدنية، فكانوا يتسابقون ويتعلمون الوثب إلى إصفرار الشمس قرب صلاة المغرب وبعدها ينصرفون إلى الوضوء لصلاة المغرب[2].

وتنتهي الدراسات الفقهية واللغوية في كثير من الأحيان بنهاية هذه المرحلة، بحصول الطالب على الإجازة للعمل في القضاء لمن يجيد الفقه، أو في حقل التدريس لمن يجيد الفقه واللغة، أو الذهاب إلى الأعمال الكتابية لمن يجيد اللغة، وليست لهذه المرحلة سنوات محددة لإنهائها وإنما تنتهي هذه المرحلة بتمكن الطالب من حفظ الكتاب الذي يدرسه وفهمه وحصوله على الإجازة به.

المرحلة الثالثة:

وليس معنى ذلك انتهاء المراحل الدراسية لمن يريد الاستمرار في الدراسة، إما إلى جانب عمله، وإما متفرغاً لها.

ويستمر الطالب في هذه المرحلة الثالثة المتقدمة في مواصلة دراسة العلوم اللغوية والدينية حتى التفقه بها. وخلال هذه المرحلة يتجه الطالب إلى التدريب على المناظرات العلمية. وأهم ما تتميز به هذه المرحلة السعي للالتقاء بمشاهير

---

(1) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 170، سيأتي الحديث عن الرحلة الخارجية والداخلية فيما بعد.

(2) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 231.

العلماء والأخذ عنهم أينما كانوا، هذا إلى جانب المشاركة في المناظرات. فقد كان الفقيه أبو بكر بن جعفر المحابي (ت 500هـ/ 1106م) يرحل كل سنة إلى زبيد لمناظرة فقهائها[1].

وفي هذه المرحلة تظهر الشروح والاختصارات، والتهميشات وشروح الشروح، والتعليقات على الكتب، أو بعض المسائل، كما تظهر المؤلفات، فمن شروح المختصرات (شرح مختصر المزني) تصنيف أبو الفتح يحيى بن ملامس (ت. بعد سنة 420هـ/ 1029م) ومن المختصرات (مختصر في النحو يعرف بالمفتاح) تأليف أبو بكر ابن الفقيه أبي عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن إبراهيم اليافعي الجندي (490 ـ 552هـ) ـ (1096 ـ 1157م)[2].

ومن المؤلفات كتاب (الكافي) في علم المواريث للصردفي، وكتاب (القاضي) في المذهب الحنفي للقاضي محمد بن أبي عوف[3] وكتاب (المجموع) للإمام جعفر المحابي[4] (ت 460هـ/ 1067م) وكتاب (البيان) للعمراني[5] (ت 558هـ/ 1162م) وتظهر في هذه المرحلة التأليفية مدى القدرة على الابتكارات والتجديدات والإضافات.

ويطلق على العلماء في هذه المرحلة الألقاب المختلفة مثل الإمام والشيخ الحافظ، وقد يضاف إليها ألقاب أخرى مثل سراج الدين[6]. وجمال الدين شمس الشريعة. أو سيف السُنَّة، أو إمام الأئمة[7] وغير ذلك. وهؤلاء هم الذين يتصدون للفتوى. ورئاسة علماء العلوم مثل رئاسة أو إمامة الحديث، أو الفقه، أو اللغة، أو النحو، وهكذا.

وقد يبلغ من شهرة البعض أن يبعث إليهم بعض الحكام يستدعونهم إلى بلادهم للتدريس بها. ومن أمثلة ذلك طلب والي الجند في مطلع القرن الخامس الهجري من الإمام الزاهد جعفر بن عبد اللّه المحابي، أن ينتقل إليه من الظُرَافة إلى الجند للقيام بعملية التدريس بها فاستجاب له[8]. وكذلك كان مشايخ بني عمران

---

(1) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 282.
(2) الجندي: نفس المصدر، ص: 266، 354.
(3) الجندي: نفس المصدر، ص: 282 ـ 284.
(4) الأهدل: تحفة الزمن، ص: 191.
(5) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 177.
(6) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 447، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 267.
(7) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 87، 179، 190.
(8) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 94، الظُرَافة: قرية شرق قرية سهفنة، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 270، ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 320.

الذين سكنوا مصنعة (سَيْر) سنة (556هـ/ 1160م) وانقطعوا بها لتدريس العلوم، حتى أصبحت (سَيْر) بوجودهم موئلاً لطلبة العلم. وعندما صار القضاء الأكبر لبني عمران انشغلوا به عن التدريس، مما دفعهم إلى طلب الفقهاء للتدريس لأولادهم ومن جاء للدراسة إليهم. فمن استدعوا من الفقهاء: الفقيه عبد اللّه بن أحمد الزبراني، والفقيه أبو الحسن بن راشد، والفقيه منصور بن محمد بن منصور الأصبحي وغيرهم.

كذلك طلب الشيخ يحيى بن إسحاق العياني السكسكي من الفقيه إبراهيم بن حديق الذي اشتهر بجودة الفقه، أن ينتقل إلى (جَبَأ) ليُدَرّسَ ابنه أبا بكر ومن يحضر إلى (جَبَأ) للدراسة بها[1].

وأيضاً عندما بنى الشيخ أبو الحسن علي بن إبراهيم ابن أبي الأمان مدرسة بذي جبلة سنة (558هـ/ 1062م) استدعي إليها للتدريس الفقيه محمد بن عيسى بن سالم الميتمي المولود سنة(522هـ/ 1128م)[2].

كذلك كان العلماء أنفسهم ينتقلون من بلدة إلى أخرى للتدريس أو طلباً للأمان. فمثلاً كان الفقيه يحيى بن أبي الخير (ت. 558هـ/ 1062م) يدرس في (سَيْر) ولما حصل بين أهلها الحرب انتقل منها إلى ذي السفال، فمكث بها يدرس مدة ثم انتقل إلى ذي أَشْرق فمكث بها أكثر من سبع سنين يدرّس[3]. ولما هجم علي بن مهدي على الجند سنة (557هـ/ 1061م) وقتل الكثير من أهلها. خاف الإمام يحيى منه فانتقل إلى ذي السفال وبها مات سنة (558هـ/ 1062م)[4].

وكذلك الفقيه محمد بن عبد اللّه البريهي السكسكي الملقب بسيف السُنّة (ت. 586هـ/ 1190م) كان يسكن مدينة إب ويدرس بها ثم درَّس بذي جبلة، ثم انتقل إلى الجند ومكث يدرس بها[5]، وقد انتقل إلى الجند الكثير من طلاب اليمن للتفقه على يده. وعلى ذلك كانت مراحل التعليم في اليمن. ومن

---

(1) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 340، 447، 539، 540، جَبَأ: مدينة قديمة غربي جبل صبر وجنوبي تعز، ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 310، المقحفي: معجم البلدان، والقبائل اليمنية، ص: 105، وجَبَأ مدينة كورة المَعَافِر وهي لآل الكِرَنْدِي من حِمير، مراصد الاطلاع ج1، ص: 308، (سَيْر) بلدة من ناحية السبرة قرب الجند، ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 318.

(2) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 392، 393.

(3) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 179، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 342.

(4) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 179.

(5) الجندي: السلوك، ص: 367، وقيل مات سيف السنة سنة 585هـ نفس المصدر.

الملاحظ في ذلك عدم وجود فترة محددة للتعليم في جميع المراحل التعليمية.



ثانياً
مراكز التعليم

يعتبر المسجد مركزاً من أهم مراكز التعليم في الإسلام، وقد استخدم المسجد في اليمن كما في غيرها من بلدان العالم الإسلامي لتعليم القرآن والدين الإسلامي. ذلك أن فكرة تخصيص أماكن للتدريس خارج المسجد لم تظهر إلا في فترات متأخرة. لذلك ظلت المساجد في اليمن تستخدم أماكن للتدريس بالإضافة إلى الكتاتيب حتى بداية العصر الأيوبي، حيث أنشئت ـ إلى جانب المسجد والكتاتيب وبيوت الأثرياء والعلماء ـ المدارس للقيام بدور بارز في العملية التعليمية كمركز من مراكز التعليم، أما فكرة استخدام المنزل في التدريس فتعود إلى فترة شيخوخة المدرسين الذين فضلوا أن يظل عطاؤهم العلمي مستمراً فاستخدموا بيوتهم أماكن للتدريس[1].

١ ـ **المساجد**: ففيما يتعلق بالمساجد فقد احتلت الدرجة الأولى، كونها جعلت مراكز للتدريس منذ عهد الرسول ﷺ. حيث استمر العلماء بعده يستخدمون المساجد كأماكن للتعليم في كافة أرجاء الدولة الإسلامية وكانت حلقات العلم تعقد في أركان المسجد، وتختص كل حلقة بتدريس أحد العلوم الإسلامية الفقهية واللغوية، وبالنسبة لليمن فقد كان الطلاب يدرسون في المساجد الكبيرة مثل جامع الجند وجامع الأشاعر بزبيد والجامع الكبير بصنعاء وغيرها، وذلك في مرحلة دراسة العلوم ومرحلة التفقه. أما المرحلة الأولى وهي مرحلة الكتاتيب فقد كان التعليم لهذه المرحلة في جميع المساجد الصغيرة في القرى والمدن. ومثال لذلك أقام الفقيه أبو عبد اللّٰه بن مضمون يَدْرُس في جامع إب لمدة سبع سنين[2].

٢ ـ **البيوت**: كما كان للبيوت دور مهم في تدريس العلوم الدينية واللغوية وغيرها فقد كان بعض العلماء يستخدمون بيوتهم للتدريس، كما كان الأغنياء يرتبون من يتولّى التدريس لأبنائهم في بيوتهم وخاصة في مراحل التعليم الأولى، ويرجع سبب استخدام العلماء البيوت للتدريس إلى مرحلة شيخوخة الفقهاء، فكان الإمام زيد بن عبد اللّٰه اليفاعي المعافري ممن قام

---

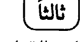
(1) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 120.

(2) الجندي: السلوك، 1/ 459.

بالتدريس في بيته في الجند وذلك بعد عودته من مكة سنة (512هـ/ 1118م) وهي فترة شيخوخته[1] وكذلك قام الفقيه أسعد بن محمد (ت. 576هـ/ 1180م) بالتدريس في منزله المسمّى أرووس بالصلو[2] كما درس في منزله بدلال في بعدان الفقيه منصور بن علي بن عبد اللّه بن إسماعيل الذي ولد سنة 529هـ[3]/ 1134م بذلك الشكل استخدمت البيوت للتدريس في اليمن.

٣ ـ **المدارس**: والذي يبدو أن تطور نظام أماكن التدريس من المسجد إلى إيجاد أماكن خاصة بها وهي المدرسة، هو نظام استحدثه الأيوبيون ونفذوه في المناطق الواقعة تحت حكمهم لتدريس ونشر المذهب السنّي ونقلوا ذلك عن السلاجقة، فقد كان التعليم القائم في المسجد يعتمد في أغلبه على المجهود الذاتي لرجالات الدين، أما عند بناء المدارس فقد اعتمد التعليم على توجيه من رجالات الدولة، سواء أكانوا رجال دين أم علم أم سياسة. لذلك اتجهت الدولة إلى بناء المدارس والإشراف عليها وتوحيد انتماء المجتمع إلى مذهب واحد أو مذاهب متقاربة ليس بينها صراع سياسي، لذلك ظهرت مدارس في هذه الفترة أنشأتها الدولة، مثل مدرسة الميلين بزبيد والمدرسة السيفية بتعز اللتين بنيتا في العهد الأيوبي.

والواقع أن حاجة الدولة إلى من يقوم بأعمالها الإدارية والكتابية والقضائية والتدريس وغيرها هي التي دعت إلى إيجاد المدارس المنظمة للتعليم، والانفاق عليها من قبل الدولة. وذلك لعدم مقدرة المجهود الذاتي للأفراد القيام بتلبية حاجات الدولة من تلك الأعمال.



مجالس التعليم

في مرحلة الدراسة في المسجد وجدت عدة تسميات لمجالس التدريس، منها ما سمي (حلقة علم) أو (مجلس سماع) أو (مجلس تدريس) وهي تأخذ في مجموعها شكل دائري حول الأستاذ المكمل للدائرة. وهناك فرق بين هذه

(1) ابن سمرة: طبقات، ص: 120، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 309، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 213.

(2) ابن سمرة: طبقات، ص: 226، الجندي: السلوك، ص: 445.

(3) ابن سمرة: طبقات، ص: 214.

المجالس من حيث نوعية العلم الذي يدرس بها، وعدد الطلاب وغيرها. وسنتكلم بإيجاز عن كل واحد منها وشيوخها فيما يلي:

حلقة العلم: هي عبارة عن جلسة علمية يجلس فيها الفقهاء للمناقشة في الأمور العلمية والدينية أو استذكارها، ففي اجتماع الفقهاء في الجند كان الفقيه أسعد بن أبي بكر الجعدي، يحضر حلقة الإمام زيد بن عبد الله اليفاعي المتوفى بعد (سنة 513هـ/ 1119م)[1] وربما تدار في هذه الحلقة الفتوى فيحضرها عامة الناس والطلبة.

مجلس التعلم: وهي عملية التدريس نفسها، فعندما يذهب الطلاب للدراسة في المسجد كانوا يجلسون على الأرض أمام الأستاذ الذي يجلس على كرسي مرتفع، أو يجلس على الأرض متكئاً بظهره على جدار المسجد بجانب المنبر أو متكئاً على المنبر نفسه[2]، أو على أحد الأعمدة، أما الطلاب فيجلسون حوله، ويتسع عدد طلاب هذا المجلس حتى يبلغ الخمسين طالباً، وقد يبلغ الثلاثمائة. وممن كان لهم مجالس تدريس على سبيل المثال الفقيه محمد بن سالم بن إسحاق الأصبحي المولود سنة 495هـ/ 1101م كان له مجلس تدريس في قرية المُلْحَمَة في بَعْدَان، وقد لزم مجلس التدريس بعد شيخه الفقيه يحيى بن عمران[3]. ثم حل محله في مجلس التدريس هذا بعد وفاته أخوه عبد الله بن سالم المولود سنة 505هـ/ 1111م[4].

كذلك كان للفقيه إبراهيم بن محمد بن زكريا المتوفى سنة 609هـ/ 1212م مجلس تدريس في زبيد ثم خلفه في مجلس التدريس تلميذه الفقيه موسى بن عجيل[5].

مجلس السماع: وفيه يجلس الطلبة أمام الأستاذ كجلسة التدريس نفسها وغالباً ما تختص تسمية مجلس السماع على مجلس سماع الحديث. وممن عقدوا هذا المجلس شيخ المحدثين الفقيه الحافظ علي بن أبي بكر بن حمير العرشاني

---

(1) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 173، الجندي: السلوك ج1، ص: 381، 308، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 278، عبد الرحمن عبد الواحد محمد: الحياة العلمية في اليمن في القرن الثالث والرابع للهجرة، رسالة دكتوراه، جامعة الأزهر، ص: 106 ـ 111 ـ 113.

(2) الجندي: السلوك ج1، ص: 304 ومثلاً على جلسة الطلاب حول الأستاذ، عندما كان الفقيه أبو بكر المحابي يأتي من الظرافة إلى ذي أشرق كان يرى الفقيه مقبل بن محمد بن زهير المتوفى سنة 579هـ/ 1183م وحوله أصحابه يقرأون عليه. ابن سمرة: طبقات، ص: 115.

(3) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 213، 214، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 391.

(4) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 193.

(5) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 474.

(ت. 557هـ ـ 1161م) الذي كان له مجلس سماع في شرح (صحيح البخاري) في إب عقده في جمادى الآخرة سنة 548هـ/ [1] 1153م وقد روى عنه جماعة من المشايخ منهم يحيى بن أبي الخير، ولما انتقل إلى ذي أشرق حضر مجلس سماع الحديث هذا الفقيه أسعد بن يعفر بن سالم العريقي (ت. 567هـ/ 1171م) كما حضر مجلس السماع فيها الفقيه محمد بن مفلح الحضرمي[2].

وممن عقدوا هذا المجلس أيضاً الفقيه أحمد بن محمد بن عبد اللّه البريهي السكسكي (ت. 585هـ/ 1189م) الذي ارتحل إلى مكة فسمع (صحيح مسلم) ثم رجع إلى إب فعقد بها مجلس سماع (صحيح مسلم) ثم نزل إلى الجند وعقد بها مجلس السماع[3]. وممن حضر له مجلس السماع في الجند الفقيه أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن علقمة الجماعي[4]. وهكذا كان المقصود بمجلس السماع، أي سماع الحديث.

وليست هناك مدة محددة للدراسة في هذه المجالس فقد تطول أو تقصر حسب نوعية الكتب الدراسية وحجمها، فقد يدرس الطالب كتاباً واحداً وقد يدرس عدة كتب، وقد يستمر في حضور تلك المجالس إلى أن يكتفي. فقد لزم الفقيه أبو الحسن بن أبي بكر ابن أبي اختيار المولود سنة (501هـ/ 1107م) مجلس الطويري سبع سنين[5].

وكذلك لزم الفقيه أبو عبد اللّه محمد بن مضمون بن الفقيه عمر بن محمد الذي ولد سنة (559هـ/ 1163م) مجلس سيف السُنَّة أحمد البريهي فترة تقدر بإحدى عشرة سنة، أقام منها في جامع إِب مدة سبع سنين[6]، ولزم الفقيه عمر بن سمرة مجلس القاضي محمد بن زيد بن عبد اللّه بن حسان قريباً من ثلاث سنوات[7].

بالإضافة إلى تلك المجالس هناك مجالس أخرى تسمى مجالس المذاكرة وتختص بمذاكرة الفقه أو ذكر اللّه تعالى[8]. وهذه المجالس عادة ما تعقد بعد

---

(1) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 171، عبد الرحمن عبد الواحد: المرجع السابق ص: 115ـ117.
(2) الجندي: نفس المصدر، ص: 395، 420.
(3) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 190.
(4) الأهدل: تحفة الزمن، ص: 305.
(5) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 82.
(6) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 459.
(7) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 233.
(8) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 151.

صلاة المغرب إلى صلاة العشاء وقد تستمر إلى ما بعد صلاة العشاء[1]. وهكذا كانت مجالس التعليم.

رابعاً

طرق التدريس

كانت أهم الطرق التعليمية المستخدمة في اليمن هي السماع، والقراءة، والحفظ، والكتابة، والإملاء، والمناظرة وهي الطرق نفسها المستخدمة في العالم الإسلامي كله، وسنتكلم بإيجاز أيضاً على كل طريقة على حدة.

1 ـ طريقة السماع:

وهي أول طريقة من الطرق التعليمية سواء أكانت طريقة السماع في مرحلة الكتاتيب (المِعْلاَمَة) أو مرحلة المسجد أو المدرسة. فكان الطالب في مرحلة الكتاتيب يسمع نطق الحروف والكلمات، ثم يعيد نطقها كما سمعها من الأستاذ ثم يحفظها، واستمر السماع أسلوباً من أساليب التدريس في مرحلة القراءة بالمسجد والمدرسة، فقد كان الطالب أول ما يحضر مجلس التدريس يبدأ بسماع قراءة الكتاب من أستاذه سواء كانت كتب فقه أو حديث أو لغة وكانوا كثيراً ما يهتمون بأن يسمع الطالب قراءة الأستاذ للكتاب، وإن كان الطالب يعرف القراءة، لأن بداية تصحيح نطق الكلمات هي قراءة الأستاذ للكتاب على الطالب ثم سماعه منه[2].

ثم أصبحت كلمة (السماع) بعد ذلك مصطلحاً يطلق غالباً على من يسمع الحديث ويقرأه، فمثلاً: ارتحل الفقيه سيف السُنَّة أحمد بن محمد البريهي إلى مكة فسمع بها صحيح مسلم سنة 580هـ[3]/ 1184م ومن يمنح إجازة في السماع يعني منح إجازة في الحديث[4]. وعلى ذلك فعندما ترد كلمة سمع على فلان تعني درس الحديث، وتفقه على فلان، أي درس الفقه، فمثلاً تفقه القاسم الجمحي بالشيخ عبد الله بن علي من آل زرقان، وسمع من عبد العزيز بن يحيى المعافري[5] فهذا يعني أنه درس الفقه والحديث.

---

(1) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص: 113.

(2) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 154.

(3) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 190.

(4) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 368.

(5) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 89.

2 ـ طريقة القراءة:

بعد السماع تبدأ الطريقة الثانية في التعليم بإعادة الطالب قراءة ما سمعه من أستاذه، ويقوم الأستاذ بمراقبة سلامة نطق الطالب للكلمات. فإذا أخطأ يصحح له الكلمات التي أخطأ في نطقها. وهذا الأسلوب يُعَوِّد الطالب على سلامة النطق. وقد يأمر الأستاذ الطالب بإعادة قراءة الكتاب المرة بعد المرة حتى يستطيع الطالب قراءته كاملاً بطريقة سليمة[1]. مع فهمه على أن كلمة قراءة إذا أتت غير مقرونة باسم أي كتاب أو العلم الذي يقرأه الطالب فهي تعني قراءة القرآن، ومن يمنح إجازة في القراءة يعني منح إجازة في قراءة القرآن. أما من درس الفقه فيذكرون اسم من قرأ أو درس عليه.

3 ـ طريقة الحفظ:

أما الطريقة الثالثة وهي طريقة الحفظ فهي تبدأ منذ السنة الأولى لدخول الطالب مرحلة الكتاتيب (المِعْلاَمة) ثم يستمر الحفظ في مرحلة القراءة في المسجد والمدرسة. وتعتبر عملية الحفظ وخاصة للقرآن الكريم والأحاديث من أهم عمليات التحصيل العلمي عند المسلمين. وقد تمتد عملية الحفظ إلى كتب الفقه وكتب اللغة، وقد بالغ كثير من الناس بالحفظ آنذاك، فكانوا يحفظون إلى جانب القرآن وآلاف الأحاديث كتباً فقهية وكتباً لغوية ونحوية بكاملها[2]. وكان الفقيه الذي يحفظ كثيراً يسمونه الشيخ الحافظ. فمثلاً كان الشيخ سراج الدين أبو الحسن علي بن أبي بكر العرشاني (ت. 557هـ/ 1161م) مشهوراً بالحفظ، وقد قال عنه تلميذه الإمام يحيى بن أبي الخير: «ما رأيت أحفظ من هذا الشيخ... في الحديث ولا أعرف منه. قيل له: ولا في العراق، قال ما سمعت»[3] وهكذا كان أغلب الطلاب في تلك الفترة يحفظون الكثير من الكتب.

4 ـ طريقة الكتابة والإملاء:

أما الكتابة فهي النقل من الكتب أو الإملاء وتعد من أهم طرق التعليم، ومن أهم متطلبات الدراسة، ويبدأ الطالب بتعلم الكتابة منذ مرحلة الكتاتيب، ثم يستمر في ممارسة الكتابة بشكل أوسع في مرحلة الدراسة في المسجد والمدرسة. وكانوا

---

(1) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 154، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 228 ـ 247، 248، إسماعيل الأكوع: المدارس الإسلامية في اليمن، ص: 11.

(2) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 103، 122، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 240.

(3) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 172، اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان جـ3، ص: 314.

غالباً ما يقومون بنقل الكتب التي يدرسونها من أساتذتهم. ويقوم الأستاذ بمطابقة النسخة التي نقلها الطالب بنسخته لأن النقل الحرفي لكتاب الأستاذ شرط مهم من شروط الدراسة في تلك الفترة. وبعدها يقوم الطالب أو الأستاذ بوضع شروح للكتاب، أو تعليقات، أو تهميشات، أو مختصرات، كما كان الأستاذ يملي كتابه على الطلاب بعد الفراغ من تدريسه أو في أثنائها[1]. وإذا كانت بالكتاب الذي درسه الطالب تعليقات أو غيرها ينقل الكتاب بتعليقاته موضحاً صاحب الكتاب وصاحب التعليق، والأستاذ الذي درس عليه الكتاب. وتسمى عملية الكتابة استنساخ، ويسمون الكتاب نسخة. وقد يكتب الأستاذ على الكتاب الذي نقله الطالب ودرسه عليه (إجازة) للطالب بهذا الكتاب، بعد أن يكون قد تفقه فيه[2].

5 ـ طريقة المناظرة:

الطريقة الخامسة هي المناظرة وهي تعد من أهم طرق التفقه، وهي عادة ما تُتَّبَعْ في المرحلة الأخيرة من عملية التفقه العلمي. وعادة ما كانت المناظرة تجري بين علماء وفقهاء، أو بين فقهاء كبار وفقهاء جدد، أو بين أصحاب مذهب ومذهب آخر، أو غير ذلك. ومن أمثلة المناظرة في اليمن ما يأتي:

في مجال الفقهاء أصحاب مذهب واحد، كان الإمام الفقيه زيد اليافعي يناظره الكثير من جُلَّة الفقهاء، المشتغلين بالتدريس[3].

وفي مجال المناظرة بين أصحاب مذهبين سنيّين، كان الفقيه الإمام أبو بكر ابن الإمام المحابي، يرحل إلى زبيد كل عام يناظر فيها فقهاء الحنفية وعلى رأسهم يومئذٍ القاضي محمد بن أبي عوف[4].

وفي مجال المناظرة في العقيدة فيما بين مذهبين أحدهما المذهب الشافعي، والآخر المذهب الزيدي، هي محاولة القاضي الزيدي جعفر بن عبد السلام النزول إلى اليمن الأسفل لمناظرة أهل السُنّة في العقائد[5] وهكذا كانت طرق التدريس آنذاك.

---

(1) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 474.

(2) الجندي: السلوك ج1، ص: 368، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 231.

(3) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 175.

(4) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 282.

(5) الجندي: نفس المصدر، ص: 399. المناظرة: اصطلاحاً هي النظر بالبصيرة في الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهاراً للصواب، أبو الحسن الجرجاني: التعريفات، ص: 127.



وظائف التدريس

اتبع الفقهاء المدرسون نظاماً وظيفياً في سلك التدريس فأوجدوا عدة درجات ومراتب وظيفية تنظم علاقتهم مع بعضهم البعض. وتنظم سلطة كل واحد منهم وظيفياً في المدرسة، وشملت هذه الدرجات الوظيفية كل مراكز التعليم في اليمن. ومن هذه المراتب والدرجات الوظيفية. (مرتبة معيد) و(مرتبة فقيه مدرس) و(مرتبة فقيه رئيس تدريس) وقد يضم إلى رئاسة التدريس رئاسة الفتوى أو رئاسة علم أو رئاسة فقه.

مرتبة المعيد: والمقصود بها إعادة الدرس وقد عرفها القلقشندي بقوله: «المعيد وهو ثاني رتبة المدرّس فيما تقدم وأصل موضوعه أنه إذا ألقى المدرس الدرس وانصرف أعاد للطلبة ما ألقاه المدرس إليهم ليفهموه ويحسنوه»[1]. وقد ظهرت هذه الوظيفة مع ظهور المدارس النظامية في العالم الإسلامي خلال القرن الخامس الهجري، وانتقلت إلى اليمن مع ظهور هذه المدارس النظامية باليمن في العهد الأيوبي وما بعده[2].

مرتبة فقيه مدرس: وتحتل المرتبة التالية بعد رئاسة التدريس ويتولّى شاغلها تدريس العلوم الدينية واللغوية. وانتشر وجود هذه المرتبة في جميع مراكز التدريس في اليمن. ويتولّى هذه الوظيفة من بلغ درجة عالية في العلوم الدينية واللغوية. وهي من أهم مراتب التدريس، وفي هذه المرتبة قد يتخصص الفقيه المدرس بتدريس علم واحد فيسمى باسم العلم الذي يدرسه. مثل محدث لمن يدرس الحديث[3]. ومقرئ لمن يقرئ القرآن[4] وقد يجمع بين تدريس عدد من العلوم مثل الفقه والحديث واللغة معاً[5].

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ5، ص: 464.

(2) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 506، وظيفة معلم الكتاتيب (المِعْلاّمة) لم تدخل ضمن وظائف التدريس وذلك استناداً لتعريف كلمة مدرس.

(3) ابن سمرة: طبقات، ص: 283، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ5، ص: 464، المحدث: (المراد به من يتعاطى حديث النبي ﷺ بطريقة الرواية والدراية، والعلم بأسماء الرجال وطرق الأحاديث والمعرفة بالأسانيد ونحو ذلك) القلقشندي: نفس المصدر والصفحة.

(4) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 453، القلقشندي: نفس المصدر والصفحة، المقرئ: (وهو الذي يقرئ القرآن العظيم، وقد غلب اختصاصه في العرف على مشايخ القراءة من قراء السبعة المجيدين لتعليم القراءة) القلقشندي: نفس المصدر والصفحة.

(5) الجندي: السلوك، ص: 291، 292.

ويطلق على الفقيه إذا كان غزير العلم إماماً في العلم الذي يجيده وقد يتولّى رئاسة هذا العلم فمن تولّى رئاسة الفقه من الفقهاء الفقيه إسحاق العشاري المعافري (ت. 460هـ/ 1067م) انتهت إليه رئاسة الفقه في بلده المعافر[1]. وفي القراءات تولّى أبو الخطاب عمر بن أحمد بن أسعد الذي عرف بالحذاء وسكن (جَبَأ) رئاسة القراءات في اليمن أجمع. وفي اللغة كان كل من الحسن بن عباد (480هـ/ 1087م) وابن أخيه إبراهيم بن محمد بن عباد (480هـ/ 108م) إمامي النحاة في اليمن في عصرهما. وفي الحديث كان أبو الوليد عبد الملك بن أبي ميسرة اليافعي (ت. 473هـ/ 1080م)[2] والحافظ علي بن أبي بكر بن أحمد العرشاني إمامين في الحديث[3] وفي عدة علوم كان أبو محمد الحسن بن محمد بن أبي عقامة إماماً في عدد من العلوم[4].

مرتبة رئاسة تدريس:

وجدت هذه المرتبة الوظيفية في كثير من المراكز الدراسية في اليمن، وهي أرفع المراتب الوظيفية في التدريس، وكان غالباً ما يضم إلى هذه الوظيفة رئاسة الفتوى. وممن تولّى هذه الوظيفة الفقيه عبد اللّه بن عبد الرزاق بن حسن بن أزهر (ت. 528هـ/ 1133م) تولّى رئاسة التدريس والفتوى بذي أشرق. والفقيه أبو محمد عبد اللّه بن أبي القاسم بن حسن الذي عرف بابن الأبار والذي تفقه بابن عبدويه، تولّى رئاسة التدريس والفتوى بزبيد، واشتهر بها فكان مجلسه للتدريس مزدحماً بالطلبة[5]. والفقيه محمد بن سالم بن زبير الأصبحي البعداني (495 ـ 597هـ) (1101 ـ 1200م) تولّى رئاسة التدريس والفتوى في المَلْحَمة في بعَدَان. وتولّى رئاسة تدريس ورئاسة فقه في ذي السُّفَال الفقيه أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن عمران بن علقمة (534/ 616هـ) (1139/ 1219م)[6] وهكذا نجد رئاسة التدريس اقترنت برئاسات أخرى. ووجدت في أماكن كثيرة في اليمن.



مواد التدريس

تميز العصر الذي ندرسه بأنه عصر الاهتمام بالعلوم الدينية واللغوية من فقه

(1) الجندي: نفس المصدر، ص: 272. (2) الأهدل: تحفة الزمن، ص: 94، 194، 351.
(3) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 171.
(4) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 291، 292.
(5) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 319، 320، 377، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 220، 274.
(6) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 391، 404.

وأصول فقه وحديث ومواريث وتفسير وقراءات ومعاني القرآن، ومن نحو وصرف ولغة وأدب وشعر وغيره. أما بقية العلوم الأخرى من فلك وطب وهندسة وغيرها فقد كان الاهتمام بها قليلاً.

وكانت أهم الكتب الدراسية التي كانت تدرس في اليمن خلال القرنين الخامس والسادس الهجريّين كالآتي:

أولاً: أهم الكتب التي كانت تدرس لمؤلفين غير يمنيّين.

ففي اللغة: كان كتاب (سيبويه)[1] و(مختصر العين) للخوافي[2]، و(الجمل) في النحو للزجاج[3]، و(غريب الحديث) لأبي عبيدة[4]، و(كافي الصفار) في النحو للصفار[5].

وفي الفقه: كان يدرس كتاب (المزني)[6] وشروحه ومختصره.

وفي أصول الفقه: رسالة الشافعي[7] ومصنفات القاضي أبي الطيب[8] وهو كتاب (شرح المولدات) وكتاب (العدة) وكتاب (الإفصاح) لأبي علي الطبري[9]

---

(1) سيبويه: عمر بن عثمان (ت. 180هـ/ 796م) وقيل توفي في غير ذلك كان أعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو. ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ3، ص: 413، الزركلي: الأعلام، جـ5، ص: 81.

(2) الخوافي: عبد الله بن سعيد الخوافي (ت. 480هـ/ 1087م) كاتب فرضي حاسب له نظم. الزركلي: الأعلام، جـ4، ص: 90.

(3) الزجاج: هو أبو الحسين بن صالح بن محمد بن العباس الزجاج (ت. قبل الأربع مائة) ابن سمرة، ص: 131.

(4) أبو عبيدة: معمر بن المثنى التيمي النحوي (ت. 209هـ/ 824م) من أئمة العلم والأدب واللغة قال عنه الجاحظ: لم يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم منه. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ5، ص: 235 ـ 243، الزركلي: الأعلام، جـ7، ص: 272.

(5) الصفار: هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي المتوفى سنة 337هـ أو سنة 338هـ، ويعرف بالصفار، ابن سمرة: طبقات، ص: 90.

(6) المزني: هو الإمام أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل المزني (ت. 264هـ). ابن سمرة: طبقات، ص: 82.

(7) الشافعي: هو صاحب المذهب الإمام محمد بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبد المطلب، ابن سمرة، ص: 134.

(8) أبو الطيب الطبري: هو الطاهر بن عبد الله بن طاهر الطبري (ت. 450هـ). ابن سمرة، ص: 127، 128.

(9) أبو علي الطبري: هو القاضي حسين بن علي الطبري (ت. 495هـ).

وكتاب ابن القطان[1] وكتاب للمحاملي[2] الموسوم (بالمجمع)[3].

وفي الفروع: كان يدرس كتاب (الفروع) لسليم بن أيوب الرازي[4] كذلك كان يدرس (المهذب) في فروع الفقه الشافعي للشيرازي (ت. 476[5]/ 1083م) والذي وصل إلى اليمن في أواخر القرن الخامس الهجري[6]. كما كان يدرس في اليمن الكتب الأخرى للشيرازي مثل (التنبيه) و(اللمع) و(النكت في الخلاف) و(التبصرة) و(المعونة) ويدرس (الشامل) للصباغ[7]، وأيضاً يدرس (الإبانة) و(شرح التلخيص) لأبي علي السنجي (ت. 403هـ/ [8] 1012م) ويدرس كذلك، كتاب (المعتمد في الخلاف) للبندنيجي (ت. 495هـ[9]/ 1101م) كما كان يدرس في فقه الشافعي كتاب (الشريعة) للآجري[10] والآجري شافعي المذهب حنبلي العقيدة وهو ـ أي الكتاب هو ـ السبب الذي جعل أهل الجبال في اليمن حنابلة في العقيدة[11].

وفي التفسير: يدرس ناسخ القرآن ومنسوخه ومعانيه للصفار[12].

أما الحديث: فكان يدرس (صحيح مسلم) و(موطأ مالك) و(صحيح البخاري) و(سنن أبي داود) و(جامع معمر) و(جامع أبي قرة)[13].

---

(1) ابن القطان: هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن شاكر المعروف بابن القطان المصري (ت. 407هـ) ابن سمرة، ص: 118.

(2) المحاملي: هو أبو الحسن أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن القاسم الضبي المعروف بالمحاملي (ت. 415هـ) ابن سمرة، ص: 103.

(3) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 118.

(4) الرازي: هو الإمام أبو الفتح سليم بن أيوب بن سليم الرازي، ابن سمرة: 118 هامش (7).

(5) الشيرازي: هو الإمام أبو إسحاق الشيرازي المتوفى سنة (476هـ/ 1083م). ابن سمرة، ص: 118 هامش (8).

(6) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 118.

(7) الصباغ: هو أبو نصر عبد السيد بن محمد بن عبد الواحد المعروف بابن الصباغ (ت. 477هـ) ابن سمرة: 151 هامش (5).

(8) السنجي: هو أبي علي الحسن بن شعيب بن محمد السنجي (ت. 403هـ/ 1012م) ابن سمرة، ص: 176 هامش (2).

(9) البندنيجي: هو أبو نصر محمد بن هبة الله البندنيجي (ت. 495هـ/ 1101م). ابن سمرة، ص: 143.

(10) الآجري: هو أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجري (ت. 360هـ/ 970م) ابن سمرة، ص: 101 هامش (4).

(11) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 176، 120.

(12) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 90، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 319.

(13) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 74، 171، 181، 190.

وعلى كلٍّ فإن أغلب الكتب التي كانت تدرس في كل من بغداد ومكة والمدينة ومصر والشام وفارس تدرس أيضاً باليمن، وذلك يعود إلى جلب تلك المصنفات إلى اليمن بواسطة اليمنيّين الذين كانوا يذهبون إلى تلك الأمصار، أو العلماء القادمين منها إلى اليمن. كما كانت معظم تلك المصنفات يتم اقتناؤها بمعرفة الحجيج حيث تروج سوق الكتب كغيرها من السلع الأخرى، وهناك الكثير من الكتب الأخرى التي كانت تدرس في اليمن.

ثانياً: أهم الكتب التي كانت تدرس في اليمن لمؤلفين يمنيّين، فهي:

في اللغة: كان يدرس (النظام) في اللغة لعيسى الربعي[1]. و(قيد الأوابد) لإبراهيم الربعي[2].

وفي الفقه وأصوله: كان يدرس (شرح مختصر المزني) لابن ملامس[3]، وكتاب (القاضي) لمحمد بن عوف[4] و(الجامع في الخلاف) لجعفر المحابي و(البيان) للعمراني[5].

وفي الفرائض: كان يدرس (الكافي في الفرائض) للصردفي[6] و(كافي المبتدي) لمحمد بن سراقة[7].



سابعاً

الانفاق على التعليم

وكان الانفاق على التعليم يعتمد على مصادر متعددة، فكان المسجد ـ بالإضافة إلى كونه مكاناً للعبادة ـ مكاناً يعقد به مجلس القضاء أو حلقات التدريس وغيرها، وبالتالي كان الصرف على التعليم بالمسجد في إطار ما يصرف على المسجد منه، فقد كان هناك وقف مخصص للصرف على التعليم، وكان بعض الأغنياء يقومون بالصرف على القائمين بالتدريس في بعض المساجد أو الكتاتيب، كما كان الطلاب يدفعون للمدرسين قدراً معيناً طبقاً لحالة أهالي الطلاب المالية.

(1) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 156، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 329.
(2) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 157.
(3) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 266.
(4) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 103، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 282، 283.
(5) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 103، 178، 179.
(6) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 107، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 294.
(7) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 107.

ولذلك كان بعض المعلمين يرفضون التدريس لغير ذي سعة. فقد كان الإمام أبو بكر بن جعفر بن عبد الرحيم المحابي المتوفى (500هـ/ 1111م) والذي سكن الجَنَد لا يدرس إلا لمن يستطيع أن ينفق على نفسه من الطلبة.

وقد كان يدقق في كيفية قبول الطلبة. فكان (متى وصله طالب سأله عن حسبه ونسبه فإن وجده ذا أصل لائق أقرأه وأمره بالاجتهاد، وإن لم يكن ذا أصل صرفه عن الطلب ولم يقرئه)[1].

لذلك اقتصر طلابه على ذوي اليسار، وكانت حلقة درسه تتراوح ما بين الخمسين والستين طالباً. وقد علل صاحب تحفة الزمن تصرف الإمام المحابي بهذا الشكل يرجع إلى أنه نظر إلى قول الحكيم بزرجمهر القائل: «لا تعلموا أولاد السفلة العلوم فإنهم متى علموها طلبوا معالي الأمور، وإذا نالوها ولعوا بمذلة الأحرار»[2].

والواقع أن هذا الأمر يتنافى مع قواعد الإسلام التي تحث على العلم، والحث على طلبه ولو في الصين، ولكن يبدو أن الدافع على قيام الفقيه بهذا الأمر وصرفه غير القادرين مادياً عن العلم، إنما يرجع إلى عدم مقدرة الفقيه ذاته الانفاق على الطالب كونه من غير ذوي اليسار، والدليل على ذلك أنه كان يصحب الملوك والسلاطين من أهل السُنَّة ويقبل جوائزهم وممن صحبهم الأمير جياش بن نجاح، والحسين بن المغيرة التبعي، وأحمد بن عبد اللّه الكِرَنْدي[3].

وبصفة عامة فقد كان العلماء يرون أن من واجبهم القيام بالتدريس لأنه علامة من علامات نشر الدين وأحد المهام الدينية التي كانت واجبة على العلماء قبل غيرهم، لذلك كان الفقهاء في كثير من الأحيان يُدَرِّسُون دون مقابل. ومن هؤلاء الإمام زيد بن عبد اللّه بن جعفر اليافعي المعافري، وكان رجلاً ذا مال ويسار. وأصله من المعافر سكن الجند ودَرَّسَ بها وكان يتولَّى الانفاق على الطلبة وكسوتهم من ماله الخاص، لذلك كثر عدد طلابه حتى بلغ عدد حلقة درسه ما بين المائتين والثلاثمائة طالب[4]. فكان هذا الفقيه على عكس أبي جعفر المحابي، لأن الشيخ زيد رحمه اللّه كان يعمل بالحديث الشريف القائل: «يأتيكم أقوام من أقطار

---

(1) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 283.
(2) الأهدل: تحفة الزمن، ص: 208.
(3) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 104، 105.
(4) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 120، 121.

الأرض يطلبون العلم فاستوصوا بهم خيراً»[1]. لذلك لم يبخل الإمام زيد بماله وعلمه فنشر التعليم والدين لدى كثير من طلاب اليمن. ونتيجة لسعة ماله كان متنزهاً عن صحبة الملوك والسلاطين ولا يقبل جوائزهم[2] كأبي جعفر المحابي.

وهناك الكثير ممن قام بالتدريس وأنفق على الطلبة المنقطعين للدراسة منهم: الفقيه محمد بن عبدويه الذي سكن جزيرة كمران منذ عام 490هـ/ 1096م، فقد كان يدرِّس الطلبة القادمين إليه وينفق عليهم، فقدم إليه الكثير من طلاب اليمن من تِهَامة، والجند، وذي أشْرق، وعدن، وأبْيَن، ولحج، وحضرموت وغيرها[3].

ومنهم بنو عمران الذين سكنوا (سَيْر) فقد كانوا يقومون بكفاية الطلبة وكسوتهم والذين كانوا يبلغون حوالي المائة دارس[4]. ومنهم الفقيه أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن بطال الركبي المتوفى سنة 630هـ/ 1332م والذي سكن الدُّملُوة[5].

والفقيه أبو بكر ابن الشيخ يحيى بن إسحاق العياني السكسكي الذي سكن (جَبَأ) والذي كان عدد طلابه يبلغون أيضاً حوالي مائة طالب. والفقيه أبو عبد اللّه بن محمد بن علي القلعي (ت. 630هـ/ 1232م) الذي سكن مِرْبَاط بحضرموت[6].

كذلك اهتم بعض الحكام بالانفاق على الطلاب، وقد يكون الدافع لهم هو العمل على نشر مذهب من المذاهب. فكان السلطان أسعد بن وائل (ت. 515هـ/ 1121م) حاكم أُحَاظَة وابنه عبد اللّه (ت. 539هـ/[7] 1144م) من أولئك الذين قاموا بالانفاق على الطلاب بهدف نشر المذهب الشافعي وتدريسه، والعمل على إغراء الفقهاء وجذبهم للتدريس في بلاده. فقد أقطع السلطان عبد اللّه المذكور الفقيه عيسى بن إبراهيم الربعي أرضاً تسمى أرض (الموجا) كي يستقر عنده في أُحَاظة، كما أعطاه خمسمائة دينار فاستقر الفقيه في بلاد السلطان[8]. وقد أورد عنه ابن سمرة قوله: «وكان هذا السلطان هو وآباؤه ساعين في الخير بعيدين عن الابتداع،

---

(1) الأهدل: تحفة الزمن، ص: 208، نص الحديث عند ابن ماجه في المقدمة وعند الترمذي في باب العلم.

(2) الجندي: السلوك، ص: 309، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 213.

(3) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 145 ـ 149، الجندي: السلوك، ص: 322 ـ 324.

(4) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 497.

(5) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 232.

(6) الجندي: السلوك، جـ، ص: 447، 526.

(7) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 158.

(8) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 332.

يؤثرون مذهب السُنّة وعمارة المساجد، ومحبة العلماء والقراء والعباد، ويعظمون السلف الصالح، ويتبركون بذكرهم، ويقتدون بأقوالهم وأفعالهم»[1].

كذلك كان بنو نجاح يصرفون مكافآت للفقهاء المدرسين منهم الوزير مَنّ اللّه الفاتكي الذي قال عنه عمارة: «وهو الذي تصدق على مدارس الفقهاء الحنفية والشافعية بما أغناهم عمن سواهم من الأراضي والمرافق والرباع»[2] وهكذا نجد الكثير ممن ساهموا في تعليم ونشر المذاهب السنية.

وفي ظل الأيوبيّين تطور التعليم في اليمن تطوراً كبيراً نتيجة للإهتمام الكبير بالتعليم، فقد أصبح الانفاق على التعليم في معظمه، على نفقة الدولة وخاصة في المدن. فقد جعلوا التعليم أحد المهام الأساسية للدولة، فعملوا على بناء مدارس نظامية خاصة بالتعليم تحتوي على مساكن للطلبة ومساكن للمدرسين، وجعلوا كل مدرسة مخصصة أساس للتدريس طبقاً لأحد المذاهب السنية، وخاصة المذهب الشافعي والمذهب الحنفي، وعينوا على كل مدرسة ناظراً خاصاً بها من أهل المذهب نفسه. كما التزمت الدولة بالإنفاق على المدرسين. فكانت كل مدرسة تبنى يحدد لها أوقافاً معينة، فمثلاً أوقف الملك المعز إسماعيل الأيوبي وادي الضباب جنوب غرب تعز على المدرسة السيفية بتعز[3]. كما أوقف على مدرسة الميلين في زبيد أوقافاً جيدة[4].

وهكذا أصبح الإشراف على التعليم والانفاق عليه من قبل الدولة في العهد الأيوبي. وربما يعود هذا العمل إلى اهتمام الدولة بتحديد المذاهب التي ترغب هي في تدريسها للطلاب ليخرجوا حكاماً وقضاة وفقاً لمذهب الدولة نفسها. ولعدم مقدرة العلماء والناس الانفاق على التعليم.

ثامناً

الإجـازات

كان أكبر اهتمام المسلمين في الفترة الإسلامية هو تحصيل العلوم والتفقه بها. ولا يطلبون لذلك شهادات. وشهادة الفقيه أو العالم هو علمه الذي يعبر عنه

(1) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 158.

(2) عمارة: المفيد، ص: 210.

(3) الخزرجي: العسجد، ص: 171، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 136، عن بناء المدارس في العهد الأيوبي انظر فصل العمارة.

(4) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 403، إسماعيل الأكوع: المدارس الإسلامية في اليمن، ص: 24.

بلسانه، أو فكره، أو قلمه، وكانوا إذا أرادوا أن يعرفوا علم الشخص، يناقشه العلماء المشهورون ويناظرونه في العلوم فإذا رووه عارفاً بالعلوم قد سبر غورها، شهدوا له بأنه عالم. ومجرد شهادة العلماء المشهود لهم بالعلم لأي عالم بالعلم والمعرفة، تعتبر أقوى الشهادات، وعلى موجب هذه الشهادة يستطيع بعدها الفقيه التوظف في القضاء، أو التدريس.

من ذلك أن الفقيه أبا الطيب طاهر بن الإمام يحيى بن أبي الخير (ناظر الفقيه الحنفي محمد بن أبي بكر المدحدح، بين يدي عبد النبي ابن علي بن مهدي مراراً، فقطعه واستظهر عليه) فولاه ابن مهدي قضاء ذي جبلة وأعمالها[1].

ومع ذلك فقد وجدت شهادات علمية أو إجازات تبرهن بالدرجة الأولى أن الطالب درس على أحد الفقهاء المشهورين، كما أنها تعبر عن الأستاذ الذي درس عنده الطالب، ومقدار شهرته كما تعبر عن الكتاب الذي درسه الطالب وشهرة هذا الكتاب، أو ما يحوي هذا الكتاب من علم، وكذلك تعبر عن نوعية الدراسة، أهي قراءة أم سماع، أو تفقه أو غيره وتسمى الإجازة في الفقه (إجازة) فقط. والإجازة في الحديث تسمى مسموعات[2]، وعلى ذلك يوجد هناك العديد من الإجازات منها إجازة سماع، إجازة بكتاب، إجازة بمؤلفات عالم وإجازاته، إجازة عامة، وسنتكلم بإيجاز عن كل واحد من هذه الإجازات على حدة:

إجازة سماع: كان غالباً ما يطلق كلمة (إجازة سماع) على الإجازة في كتب الحديث، فعندما ينتهي الطالب من سماع كتب الحديث وقراءتها على أستاذه يمنحه الأستاذ إجازة في الكتاب الذي أسمعه إياه. ومن أمثلة من منح هذه الإجازة السماعية، سيف السُنَّة أحمد بن محمد البريهي (ت. 586هـ/ 1190م) الذي ذهب إلى مكة وسمع عن الهروي كتاب (صحيح مسلم) في الحديث. بعدها منحه الهروي إجازة سماع أورد لنا الجندي نصها بقوله: فقال في كتاب السماع في اللفظ ما مثله: «سمع على الشيخ الإمام السيد الفقيه الزاهد العابد سيف السُنَّة أبو العباس أحمد بن محمد وأرخ ذلك أنه كان سنة إحدى وثمانين في شهر المحرم»[3] بعد الخمسمائة.

وتحصل كل من الفقيه أسعد ابن الفقيه الهيثم وولداه زيد وعمرو من الفقيه خيري ابن يحيى (ت. 498هـ/ 1104م) على إجازة أوردها لنا الجندي في كتابه نقلاً عن جزء من كتاب البخاري كتب عليه خطياً قوله: وجدت ذلك بخطه إجازة لهم

---

(1) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 186 ـ 188.

(2) انظر، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 368، 369.

(3) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 368.

وصورة ما وجدت بجزء البخاري ما مثاله: «سمع على هذا الجزء من صحيح البخاري الشيخ الفقيه أسعد بن الهيثم وولداه زيد وعمرو»[1].

وكانت إجازة السماع تكتب على نسخ الكتب التي يدرس بها الطالب. فمثلاً لذلك يذكر الجندي في كتابه السلوك قوله أن: «مالك بن جرير وولده إبراهيم حضرا سماع أبي قرة على ابن ميسرة بمسجد الجند سنة ست وتسعين وأربعمائة ونسخته للكتاب صارت إليَّ وعليها سماع جمع من الفقهاء»[2].

إجازة في كتاب: وتمنح هذه الإجازة لمن درس الكتاب المجاز به وهي تدل على أنه تفقه بكتاب فلان، وهذا الكتاب المجاز به له شهرته ومكانته لدى العلماء، وكذلك الأستاذ الذي تولّى تدريسه. ومن خلال هذه الإجازة يستطيع العلماء الآخرون أن يقيموا الطالب علمياً من خلال الكتاب والأستاذ الذي منح الطالب الإجازة. ومن أمثلة من منح إجازة في كتاب. الشيخ أبو السعود بن خيران المولود سنة (518هـ/ 1124م) الذي درس على الإمام يحيى بن أبي الخير الفقه والقراءات، فأجازه في كتاب (الملخص) في الجدل لابن عبدويه[3].

وعادة ما تكتب الإجازة على الكتب التي درسها الطالب فمن هؤلاء على سبيل المثال أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن محمد بن بطال الركبي قال عنه الجندي: رأيت إجازته وتاريخها سنة (601هـ/[4] 1204م).

إجازة عالم وإجازاته: كذلك تمنح إجازة عالم في كتبه والكتب التي درسها وسمعها وأجيز بها. وكانت كذلك تكتب هذه الإجازة على أحد الكتب، من ذلك ما أورده الجندي عن إجازة سيف السُنَّة أحمد البريهي وأولاده بقوله: «ووجدت بالكتاب أيضاً ما مثاله إجازة من الشيخ عبد اللّه بن عمر بن أحمد بن الحسين بن إبراهيم الوراق، فقال فيها أيضاً ما مثاله: استخرت اللّه العلي العظيم وأجزت

---

(1) الجندي: المصدر السابق.

(2) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 288، ومن ضمن إجازة السماع، قرأ القاضي جعفر بن عبد السلام على القاضي أحمد بن الحسن الكني ومن جملة ما قرأ كتاب (الزيادات) فمنحه إجازة سماع بهذا الكتاب: كتب الكني ما لفظه: (سمع هذا الكتاب من أوله إلى آخره القاضي شمس الدين جمال الإسلام والعلم جعفر بن أحمد بن أبي يحيى اليماني إدام اللّه عونه، حتى يقرئه قراءة من كان واقفاً على معانيه دقيقة وجليلة إلى كتاب السيرة والباقي مقراتي له وقرأ غيرنا إلا الفرائض فإنه ما سمع مني لأني أيضاً ما سمعتها على شيخي). إبراهيم بن القاسم الشهاري: طبقات الزيدية الكبرى، ص: 32.

(3) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 192.

(4) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 231.

الشيخ الإمام الأجل السيد الفقيه ناصر السُنَّة أبي العباس أحمد بن محمد ولأولاده الكرام يحيى وعيسى وإسماعيل ومحمد وعلي أن يرووا عني مسموعاتي وإجازاتي وأرخ كون ذلك في ذي الحجة سنة ثمانين وخمسمائة»[1]. الموافق 1184م.

كما حصل على إجازة من هذا النوع القاسم بن أحمد الشاكري من الفقيه سليمان بن محمد بن أحمد الشاوري: (في جميع مسموعاته ومسموعات من أجاز له)[2].

إجازة عامة: وكانت تمنح من فقيه لآخر إجازة عامة بكتبه وإجازاته في جميع العلوم التي أخذها وممن حصلوا على هذه الإجازة العامة، الفقيه بهاء الدين محمد بن يوسف الجندي الذي تحصل على إجازة عامة من الفقيه أبي محمد عبد اللّه بن علي العرشاني المولود سنة (595هـ/ [3] 1198).

وقد تمنح الإجازة الفقهية من شيوخ البلدان سواء كانت الإجازة لتدريس مؤلفاتهم أو تدريس الكتب التي أجيزوا فيها. من ذلك أن الفقيه طاهر بن يحيى بن أبي الخير العمراني، عندما سكن مكة بأهله بعد هروبه من ابن مهدي من اليمن (وصلته الإجازات من الشيوخ في البلدان)[4].

وكانت الإجازات تمنح من الفقيه إلى جميع تلاميذه، بعد تدريسهم كتابه، إلا الذين يخالفونهم في الإجابة على المسائل الفقهية، من ذلك أن الفقيه سيف السُنَّة أحمد بن محمد البريهي: (أجاز أصحابه كلهم) عدا الفقيه الذي خالفه[5]. وهذا يدل على أن الفقيه المدرس يقوم بإجراء اختبار شفوي لطلابه في الكتاب أو الكتب التي درسهم إياها ثم يمنحهم الإجازة بها.

من كل ذلك يتضح لنا أن الإجازة تعني السماح للمجاز له بتدريس الكتاب أو الكتب المجاز بها. أي القيام بعملية التدريس في الكتب المجاز بها.

مما سبق يتضح لنا أن التعليم في اليمن كان الدعامة الأساسية لمعرفة التعاليم الإسلامية والمحافظة عليها. ونشر المذاهب الدينية. كما كان الدعامة الأساسية للسلطة السياسية لدويلات اليمن في إيجاد مجموعة من القضاة والإداريّين والكتبة والحكام وغيرهم يتولون حل مشكلات الدولة والمجتمع. كما ساهم التعليم في محافظة المجتمع على حرفه المتنوّعة والتي شملت كافة متطلبات الحياة ومجالاتها.

---

(1) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 368.
(2) يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، ق: 179.
(3) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 425.
(4) الجندي: نفس المصدر، ص: 389.
(5) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 191.

الحركة العلمية

كان للحركة العلمية في اليمن نهضة ومؤثرات ثقافية مختلفة ومراكزها المتعددة، كما كان لها خصائصها العديدة، بالإضافة إلى النشاط التأليفي الديني واللغوي والتاريخي والجغرافي وأيضاً اشتملت على الحركة الأدبية. نوضح ذلك وفقاً لما جاءت به المصادر عن العصر المحدد للبحث بالأتي:



المؤثرات الثقافية

لا شك أن اليمن تأثرت كغيرها من البلدان التي دخلها الإسلام بحركة الفكر الإسلامي السائدة في قلب العالم الإسلامي مغربه ومشرقه، مثل مكة، والمدينة، والشام، ومصر، والعراق، وخراسان، وكرمان وغيرها. وكانت كل من مكة والمدينة هما المعبر الذي سلكته تلك المؤثرات حيث يلتقي اليمنيون بغيرهم من مسلمي البلدان الأخرى أثناء موسم الحج حيث يتوافد الفقهاء من كافة بلاد الإسلام لأداء فريضة الحج. يقول ابن سمرة (وأكثر ما تفقه أهل اليمن في صدر الإسلام وما بعده إلى وقت ظهور تصانيف الشافعية بفقهاء مكة والمدينة)[1].

وتأثرت اليمن مذهبياً بالمذاهب المختلفة التي ظهرت في العالم الإسلامي، فكان أقدم المذاهب التي تأثرت بها اليمن، هو مذهب الإمام مالك الذي كان يدرس بها كتابه (الموطأ) ثم مذهب الإمام أبي حنيفة الذي كان مذهبه أكثر انتشاراً في القرون الثلاثة الأولى للهجرة[2]. وظل المذهبان المالكي والحنفي منتشرين في اليمن حتى القرن السابع الهجري[3]، أما المذهب الشافعي فقد أخذ في الانتشار في اليمن إبتداء من القرن الرابع الهجري[4]، وسوف نتحدث عن المذاهب تفصيلاً في الفصل التالي.

---

(1) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 55.

(2) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 96، الآجري: هو أبو بكر محمد بن الحسين الآجري البغدادي المتوفى سنة 360هـ، ابن سمرة، ص: 65.

(3) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 74.

(4) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 74، 80، د. محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 25.

كذلك تأثرت اليمن بالمذهب الأباضي الذي ابتدأ يظهر من حضرموت ثم صنعاء منذ سنة 127هـ، عندما ثار طالب الحق عبد الله بن يحيى بن أباض الكندي ضد الأمويين[1]. وقد ظل مذهب الأباضية في هضبة شمال غرب صنعاء حتى القرن الخامس الهجري[2]. أما حضرموت فقد ظل بها حتى آخر القرن السادس الهجري[3].

كما تأثرت اليمن بمذهب الباطنية أو الإسماعيلية بقدوم ابن حوشب الكوفي وظهور علي بن الفضل في نهاية القرن الثالث الهجري[4]. وقد بلغ هذا المذهب أوج قوته أيام الدولة الصليحية في القرن الخامس الهجري، واستطاع أن يحكم اليمن سياسياً قرابة قرن من الزمن، ثم انتهى أمام كل من المذهب الشافعي في اليمن الأسفل والمذهب الزيدي في اليمن الأعلى.

وتأثرت اليمن بالمذهب الزيدي بدخول الأئمة الزيدية ابتداء من سنة280هـ/ 893م عندما قدم إليها الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين[5]، كما تأثرت بدخول العديد من فقهاء الزيدية القادمين من خراسان مثل القاضي زيد البيهقي[6]. ومن جهة أخرى تأثرت الزيدية بمذهب الاعتزال باعتبار أن أغلب الزيدية هم تلاميذ المعتزلة أو بواسطة دخول كتب المعتزلة إلى اليمن في القرن السادس الهجري بواسطة القاضي الزيدي جعفر بن عبد السلام (ت. 573هـ/ 1177م)[7].

على إن أهم مذهب تأثر به اليمن هو مذهب الإمام الشافعي ابتداء من دخوله في القرن الثالث الهجري وظهوره بها في القرن الرابع[8]. وانتشر بعد ذلك انتشاراً واسعاً في أنحاء اليمن، وذلك لدراسة اليمنيّين على تلاميذ الشافعي وتلاميذ تلاميذه في كل من مكة والمدينة وغيرهما، أو بقدوم الكثير من الشافعية إلى اليمن مثل

---

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ5، ص: 373، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، جـ1، 124، 125.

(2) مسلم اللحجي: شيء من أخبار الزيدية، صورة للمخطوط لدى الباحث، ق: 5، 20.

(3) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، جـ1، ص: 125، باوزير: معالم تاريخ الجزيرة العربية، ص: 272.

(4) القاضي النعمان: رسالة افتتاح الدعوة، دار الثقافة، بيروت، ط1، 1970م، ص: 32 ـ 47.

(5) الهمداني: الإكليل، جـ1، ص: 329، د. أمين صالح: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 149.

(6) يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، ق: 59، د. أيمن فؤاد سيد: تاريخ المذاهب الدينية في اليمن، ص: 265.

(7) يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، ق: 64، د. أيمن فؤاد، تاريخ المذاهب الدينية في اليمن، ص: 265.

(8) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 55، د. محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 25.

الفقيه المراغي الذي سكن سهفنة[1]، والفقيه ابن عبدويه الذي سكن جزيرة كمران[2]، وغيرهما، ومن ناحية ثالثة دخول الكثير من كتب الشافعية إلى اليمن مثل (الرسالة) للشافعي و(المهذب) و(التنبيه) و(اللمع) للإمام أبي إسحاق الشيرازي (ت. 476هـ/ 1083م) و(العدة) للحسين بن علي الطبري (ت. 495هـ/ 1101م) وكتاب (الإبانة) و(شرح التلخيص) لابن علي السنجي (ت. 403هـ/ 1012م) و(الشامل) لابن الصباغ (ت. 477هـ/ 1084م) وغيرها[3]، كذلك تأثر أهل السُنَّة في اليمن وخاصة الشافعية بعقائد الإمام أحمد بن حنبل[4]، ثم بعده بعقائد الإمام أبي الحسن الأشعري[5].

وهكذا تأثرت اليمن بكثير من المذاهب المعروفة في العالم. ومن الملاحظ أن كل المذاهب التي دخلت اليمن لم تدخلها إلا بعد نصف قرن أو قرن من ظهورها. وهذا يعود إلى بُعد اليمن عن حركة النشاط الفكري، مما يؤدي إلى تأخر دخول المذاهب إليها.

هذا من ناحية المذاهب الفقهية، أما من ناحية القراءات فنجد اليمن قد تأثرت بالقراءات السبع حيث دخلت فروع القراءات إلى اليمن عن طريق الطلاب اليمنيين الذين رحلوا للدراسة إلى مكة والمدينة وغيرها أو عن طريق العلماء الوافدين إليها.

فممن قدم إلى اليمن من المقرئين عبد اللّه بن صالح بن غسان الكوفي (ت. سنة 204هـ/ 819م) سكن صنعاء وكان يجيد القراءة بحرف حمزة وحرف عاصم فنشرها في صنعاء[6].

وممن رحل من اليمنيّين إلى مكة والمدينة أبو قرة موسى بن طارق اللحجي (ت. 203هـ/ 818م) الذي أدرك القارىء المشهور نافع بن نعيم المدني فأخذ عنه القراءة، فلما عاد إلى اليمن نشرها في كل من عدن ولحج والجند وزبيد[7].

وفي القرن الرابع والخامس الهجريّين كانت القراءة الشائعة في اليمن هي

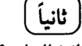
---

(1) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 89.
(2) ابن سمرة: نفس المصدر.
(3) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 120، 176.
(4) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 163.
(5) يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، ق: 56ب، د. أيمن فؤاد: تاريخ المذاهب في اليمن، ص: 73.
(6) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 152، حمزة: هو ابن حبيب الزيات أحد القراء السبعة (ت. 157هـ/ 773م)، الجندي: نفس المصدر والصفحة.
(7) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 69، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 159، عاصم: هو ابن أبي النجود أحد القراء السبعة، (147هـ/ 744م)، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 152.

قراءة عاصم، وقراءة عمرو بن العلاء[1]. فقراءة عمرو بن العلاء انتشرت في كل من صنعاء، وزبيد وأدخلها صنعاء أبو خليد بن ماجان[2]. أما زبيد فقد كان غالب القراء يقرأون بها أيضاً، وأوضح مثال لذلك عندما قدم عمارة اليمني من قريته في المخلاف السليماني إلى زبيد للدراسة قرأ القرآن بحرف عمرو بن العلاء[3]. واستمرت هذه القراءة مستخدمة في زبيد في عهد النجاحيّين[4].

وفي القرن الخامس والسادس الهجريّين انتشرت قراءة أبي معشر الطبري في كل من مخلاف جعفر والجند والمعافر، فقد كان يقرأ بها كل من الإمام زيد اليفاعي والإمام زيد بن الحسن الفائشي (ت. 528هـ/ 1133م)[5].

وفي القرن السادس وبداية القرن السابع الهجريّين انتشرت القراءات السبع في كل من زبيد وحضرموت وغيرهما، فكان يقرأها في زبيد أبو عبد اللّه محمد بن أبي بكر بن أبي الحسين الزوقري الركبي[6]، ويقرأها في حضرموت أبو أكدر[7] (ت. 575هـ/ 1179م) وهكذا انتشرت جميع القراءات في اليمن.



ثانياً

المراكز العلمية

بجانب هذه المؤثرات الثقافية تعددت مراكز التعليم باليمن، وليس هنا مجال الحصر للمراكز العلمية في اليمن وإنما سيأتي ذلك عند توضيح العوامل التي أدّت إلى نشأتها وهي تشمل عوامل دينية وجغرافية واقتصادية وسياسية.

العامل الديني: فكان العامل الديني أو العامل المذهبي هو العامل الأول في تأسيس المراكز العلمية في اليمن، حيث عملت الفرق المختلفة على نشر مذاهبها وهكذا تميزت تلك الفترة بالطابع المذهبي عند كل الفرق وصبغت المراكز العلمية

---

(1) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 96، 97، د. أيمن فؤاد: تاريخ المذاهب الدينية في اليمن، ص: 57.

(2) الأهدل: تحفة الزمن، ص: 85.

(3) عمارة: المفيد، ص: 214.

(4) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 78.

(5) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 155، الجندي: السلوك ج1، ص: 329، 330، أبو معشر الطبري، هو عبد الكريم بن عبد الصمد بن محمد بن علي القطان الشافعي شيخ أهل مكة، في عصره كان إماماً في القراءات (ت. سنة487هـ/ 1094م) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 155.

(6) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 548.

(7) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 220.

في الحواضر بصبغة مذهبي ودخلت في صراعات فيما بينها، فعندما أسست الإسماعيلية ذي جبلة مركزاً لها سنة 448هـ/ 1056م أصبح فقهاؤها من الشيعة الإسماعيلية[1] أسس أهل السُنَّة عدة مراكز علمية ودينية حولها مثل إب ودَلاَلَ في بَعْدَان وذي السُفَال، وسَهْفَنَة والظُّرَافة، وظُبَاً وغيرها. إضافة إلى احتفاظ أهل السُنَّة بالجند كمركز علمي ومذهبي كبير لم تستطع الإسماعيلية التأثير عليه[2].

وعندما أنشأت المُطَرَّفِيَّة هجرة وَقَش وسَنَاع، أنشأت الزيدية المُخْتَرعة مدرسة لها في سناع نفسها إلى جانب المطرفية، كما أنشأ الإمام عبد الله بن حمزة مدرسة في كَوْكَبَان قريباً منهم[3]. كذلك أنشأ آل علوي بحضرموت مدارس لأهل السُنَّة بجوار الأباضية[4]. من ذلك نجد أن العامل المذهبي أسهم في تعدد المراكز العلمية في اليمن.

العامل الجغرافي: كذلك لعب العامل الجغرافي دوراً بارزاً في تعدد المراكز العلمية في اليمن. ففي المناطق الجبلية كثرت بها المراكز نتيجة صعوبة المواصلات فيما بين المنطقة والأخرى. فمثلاً وجدت حول ذي جبلة العديد من المراكز[5]، بينما قلت في المناطق السهلية، فمثلاً قدم عمارة من المخلاف السليماني من منطقة الزرائب إلى زبيد للدراسة بها[6] مما يدل على إنه لم يكن بذلك المخلاف مركزاً علمياً.

العامل الاقتصادي: وكان للعامل الاقتصادي أثره البارز في تعدد المراكز العلمية. فنجد أن المناطق التجارية والمناطق الأكثر خصباً، كانت أكثر سكناً فاستقر بها العلماء ووفد إليها الكثير من الطلبة مثل الجند، والمعافر، وذي جبلة وإب، وذي أشرق وظرافة وجبأ، وعدن، وزبيد، وكمران وغيرها، انتشرت بهذه البلاد أغلب المراكز العلمية في اليمن آنذاك، لتوفر الإمكانات المالية بها لتمويل التعليم لأن التعليم آنذاك كان يمول ـ كما قلنا ـ ذاتياً من قبل المجتمع نفسه. فقد كان الكثير من المدرسين يحضرون إليها للتدريس. كما كان الكثير من الطلبة يذهبون إليها للتعلم ثم يعودون إلى مناطقهم، حيث توجد أراضيهم ليستقروا بها،

---

(1) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 234، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 470.

(2) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 190.

(3) يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، ق: 64.

(4) باوزير: معالم تاريخ الجزيرة، ص: 272.

(5) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 94 ـ 102.

(6) عمارة: المفيد، ص: 124، 125.

فتوافد الطلاب والفقهاء إلى تلك المراكز من كل مكان[1]، بذلك أصبحت المناطق التجارية والزراعية الخصبة أكثر المناطق سكناً، كما أصبحت أماكن سكن المدرسين والعلماء والطلاب مراكز علمية.

العامل السياسي: ويظهر في تعدد الحواضر في اليمن بحسب تعدد دويلاتها واختلاف مذاهبها. فمثلاً كانت صعدة حاضرة للأئمة الزيدية، وكانت صنعاء حاضرة سنية في عهد بني يعفر، وإسماعيلية في عهد الصليحيّين، وسنية في عهد الأيوبيّين. وكانت ذي جبلة حاضرة إسماعيلية منذ أن أسسها عبد الله الصليحي سنة 458هـ/ 1064م، ثم أصبحت سنية في عهد الأيوبيّين[2].

ومن جهة زبيد فقد ظلت في أغلب فتراتها حاضرة سنية، رغم تأرجح السلطة فيها بين الصليحيّين والنجاحيّين وبني مهدي، وأما تعز فقد أنشأها الأيوبيون حاضرة سنية لهم. وكانت عدن حاضرة سنية في عهد آل معن، ثم إسماعيلية في عهد بني زريع، ثم سنية في عهد الأيوبيّين، وكانت تريم وشبام في حضرموت حاضرتين للأباضية ثم أصبحتا حاضرتين للسنة في عهد آل علوي وآل راشد والأيوبيّين[3]، وبالطبع كانت هذه الحواضر السياسية مراكز علمية.

وهكذا نجد أن تعدد الحواضر أدّى إلى تعدد المراكز العلمية بحسب المذاهب المسيطرة عليها. وأدّت السيطرة على هذه الحواضر مذهبياً إلى ترك بعض العلماء للسكن بها والذهاب إلى القرى البعيدة، هروباً من الصراع المذهبي والسياسي.

وكانت الظروف السياسية لليمن أثناء القرنين الخامس والسادس الهجريّين مليئة بالصراعات السياسية والمذهبية، فمثلاً كان الصراع حول زبيد على أشده فيما بين النجاحيّين السُنّة، والصليحيّين الشيعة الإسماعيلية. مما جعل الكثير من العلماء يتجنبون السكن بها، ويتجهون إلى مناطق أخرى مثال الفقيه ابن عبدويه عندما اتجه من عدن بأمواله إلى زبيد للسكن بها ونهبت أمواله من قبل جند المفضل بن أبي البركات الحميري أحد قادة الصليحيّين (سنة 497هـ/ 1103م). لذلك تجنب الفقيه السكن في زبيد وتحول إلى السكن في جزيرة كمران[4].

كما وجد صراع سياسي فيما بين النجاحيّين وابن مهدي حول السيطرة على

(1) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 88، 92 ـ 102، 152، 190.
(2) انظر الباب الإداري.
(3) انظر الباب الإداري.
(4) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 144، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 323.

زبيد ولما استولى عليها ابن مهدي سنة 554هـ/ 1159م هرب الكثير من فقهائها إلى جبال اليمن الأسفل وإلى عدن وإلى مكة[1].

كذلك ساهم بعض الأمراء والحكام في استقطاب علماء ومدرسين فقهاء إلى مناطقهم، مثل والي الجند، عبد اللّه الكرندي بداية القرن الخامس الهجري، والسلطان أسعد بن وائل الوحاظي وغيرهما[2].

وهكذا نجد أن العوامل السياسية ساهمت كثيراً في خلق مراكز علمية كثيرة في مدن اليمن وقراها.



ثالثاً

خصائص الحركة العلمية

١ ـ **شمولية المعرفة**: كانت أهم خصائص الحركة العلمية في اليمن هي شمولية المعرفة مثلها في ذلك مثل بقية الأمصار الإسلامية. فقد كان الفقيه يجيد عدة علوم سواء كانت علوماً لغوية، مثل النحو واللغة والشعر والأدب، أو علوماً دينية مثل الفقه والحديث والتفسير والقراءات.

فمن كان يجيد الفقه والحديث معاً الفقيه أبو عبد الرحمن الحسين بن خلف المقيبعي (ت. سنة 560هـ/ 1164م) كان فقيهاً محدثاً، والفقيه الحسن بن أبي بكر بن أبي اختيار (ت. سنة 583هـ/ 1187م) آخر من درس على ابن عبدويه، كان بارزاً في الفقه والحديث[3]. كذلك كان الفقيه آنذاك يجمع بين علوم اللغة والعلوم الدينية وقد يجمع بينها وبين علم الكلام، وقد يجمع بينها جميعاً.

فمن جمع بين علمي اللغة والكلام، الفقيه أبو العباس أحمد بن بحارة الحنفي الذي كان مبرزاً في علم الكلام والأدب واللغة والشعر[4].

وممن جمع بين الدين واللغة، الفقيه العلامة نشوان بن سعيد الحميري (ت. سنة 573هـ/ 1177هـ) الذي كان نحوياً لغوياً فقيهاً شاعراً[5]، وكان الفقيه

---

(1) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 342، 375.

(2) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 332.

(3) ابن سمرة: طبقات، ص: 243، 246، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 275، 276، 277.

(4) عمارة: المفيد، ص: 294، لم تحدد تاريخ وفاته وقد ذكر عمارة أنه لم يدركه عاصر القاضي أبو الفتوح بن أبي عقامة.

(5) عمارة: نفس المصدر والصفحة.

أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزوقري الركبي من مواليد المائة السادسة الهجرية نحوياً فروعياً أصولياً فرضياً حسابياً[1].

وممن جمع بين علمي الدين والكلام الإمام أبو أحمد زيد بن الحسن بن محمد الفائشي الحميري المولود في (شوال 458هـ/ أغسطس 1066م) كان عرافاً بالدور (الهندسة أو الهيئة)، والحساب، والأصول، وعلم الكلام[2].

وممن جمع بين عدة علوم، الفقيه أبو العباس أحمد ابن الفقيه محمد بن عبد الله البريهي السكسكي (ت. سنة 586هـ/ 1180م) كان عالماً بالنحو واللغة وأصول الدين والحديث، وتولّى رئاسة الفقه والحديث في إب[3]. والفقيه أبو عبد الله محمد بن موسى بن الحسين بن أسعد العمراني (ت. سنة 558هـ/ 1162م) الذي كان أول من داوم في مجلس الإمام يحيى بن أبي الخير من سنة (517هـ/ 1123م) فكان عارفاً بالفقه والنحو واللغة والحديث والأصلين والفرائض والحساب والدور[4]. والفقيه أبو السعود بن خيران الذي ولد سنة 518هـ/ 1124م كان فقيهاً في فنون القراءات والفقه والنحو واللغة، وقد درس عليه عمر بن سمرة سنة 574هـ/ 1178م[5]، والفقيه إبراهيم بن علي بن عجيل، كانت وفاته لبضع وأربعين وستمائة كان عالماً بالفقه والنحو واللغة والأدب والفرائض وعلم الحساب[6].

وهكذا اتصف علماء اليمن آنذاك بإجادة عدد من العلوم، مما يدل على شمولية المعرفة وهي الصفة التي شملت العالم الإسلامي آنذاك.

2 ـ الرحلة في طلب العلم:

١ ـ **الرحلة الداخلية**: ومن خصائص الحركة العلمية في اليمن أيضاً الرحلة في طلب العلم اعتماداً على شهرة المدرس بالعلوم الدينية واللغوية وغيرها. فحيثما يستقر الفقيه العالم في أحد مناطق اليمن يرحل إليه الطلبة من كل مكان من أنحاء اليمن. وقد كثرت الرحلات الداخلية من وإلى أماكن متعددة في اليمن. ومن ضمن من اشتهر بالعلوم ورحل إليهم الطلاب نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر بعض الأجلّة من العلماء منهم:

---

(1) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 548.
(2) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 329، 330.
(3) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 367، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 267.
(4) الأهدل: تحفة الزمن، ص: 291، 292.
(5) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 392.
(6) الجندي: نفس المصدر، ص: 478، 479.

ابن عبدويه: فعندما استقر الإمام أبو عبد الله محمد بن عبدويه 525هـ/ 1130م بجزيرة كمران وشاع صيته وعلمه قدم إليه الطلاب من أنحاء مختلفة من اليمن. كالجند وسهفنة[1]، وذي أشرق[2]، والمَلْحَمَة[3]، وأُحَاظَة[4]، والمُشَيْرق[5]، والمعافر، وأبين، وزبيد، والهرمة[6]، وحَيْس[7]، والمَهْجَم[8]، وقد علّل الجندي سبب ذهاب الكثير من الطلبة إليه برغم بعده عن مناطقهم، عدم وجود الإمام زيد اليفاعي (ت. بعد سنة 513هـ/ 1119م) في الجند آنذاك لذهابه إلى مكة بسبب الخلاف الذي حدث بينه وبين المفضل ابن أبي البركات[9].

البريهي: كذلك عندما اشتهر سيف السُنّة أبو العباس أحمد بن محمد البريهي (586هـ/ 1190م) وذاع صيته في علم الحديث، قام بتدريسه في كل من إب وذي جبلة، ثم نزل مدينة الجند للتدريس بها. فارتحل إليه الطلاب لدراسة الحديث بها من أماكن متعددة من اليمن مثل (ظبا)[10]. و(ذي أشرق) و(الشعبانية)[11] وأعمال الجند وغيرها[12].

ونذكر ممن اشتهر بالرحلة في طلب العلم والثقافة في الدين داخل بلاد اليمن:

1 ـ زيد بن الحسن بن محمد الحسن الفائشي (458 ـ 428هـ/ 1065 ـ 1133م) وكان

---

(1) سهفنة: قرية قبلي الجند على ثلث مرحلة منها، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 264.

(2) ذي أشرق: قرية بوادي نخلان على نصف مرحلة من الجند، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 280.

(3) الملحمة: قرية بوادي السحول تحت الحصن المعروف بشواحط، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 277.

(4) أحاظة: ويقال لها وحاظة: قرية في جبل حبيش في بلاد السحول شمال إب، ابن سمرة: طبقات، ص: 207.

(5) المشيرق: من بلاد بني حبيش من أعمال إب، ابن سمرة: طبقات، ص: 324.

(6) الهرامة: قرية من زبيد، هامش تحفة الزمن، ص: 224.

(7) حيس: بلدة مشهورة جنوب زبيد وفرضتها الخوخة على ساحل البحر الأحمر، ابن سمرة: طبقات، ص: 313.

(8) المهجم: بلدة في تهامة بوادي سردد ما بين جبل ملحان وبلدة الزيدية، ابن سمرة: طبقات، ص: 324.

(9) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 303 ـ 208، 329 ، 330.

(10) ظبأ: قرية ما بين السفال، وسهفنة: الجندي: السلوك، جـ1، ص: 274.

(11) الشعبانية: صقع متسع فيه قرى كثيرة من أعمال تعز، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 415.

(12) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 190، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 1/ 367.

رحّالاً في طلب العلم[1]، رحل إلى مناطق كثيرة من اليمن للتفقه في الدين والعلوم، فرحل إلى (المشيرق) فتفقه بأسعد بن الهيثم، ورحل إلى (سَيْر)[2] فتفقه بأبي إسحاق الصردفي ورحل إلى (الظُرَافة)[3] فتفقه بالإمام أبي بكر بن جعفر المحابي، ورحل إلى تهامة فتفقه بكل من يعقوب بن أحمد والإمام عبدويه، ودرس اللغة (بأحاظة) على الإمام عيسى بن إبراهيم الربعي عن كتابه (النظام) في اللغة، وتفقه (بذي أشرق) بكل من خيري بن يحيى بن ملامس ومقبل بن محمد بن زهير، وإبراهيم بن عباد في اللغة، وعندما ارتحل إلى مكة تفقه بالحسين بن علي الطبري، وأبي نصر البندنيجي[4].

2 ـ عبد اللَّه بن عبد الرزاق بن أزهر (ت. 528هـ/ 1133م) دخل إلى الصلو فأخذ ناسخ القرآن ومنسوخه للصفار عن ابن أبي ميسرة، وذلك سنة 490هـ/ 1096م وتفقه بأبي بكر بن جعفر المحابي في الجند، ثم عاد إلى (ذي أشرق) وتولّى بها رئاسة التدريس والفتوى[5].

3 ـ أبو الحسن علي بن أبي بكر بن حمير العرشاني (494 ـ 557هـ/ 1100 ـ 1161م) ارتحل داخل اليمن في طلب العلم إلى الفقيه زيد بن الحسن الفائشي (بأحاظة) وارتحل إلى (المشيرق) فأخذ عن أسعد بن ملامس، وارتحل إلى (ريمة)[6] فأخذ عن عبد الرحمن بن عثمان، وأبي بكر بن أحمد الخطيب وإلى (الجُوَة)[7] فأخذ عن القاضي مبارك وعن يحيى بن عمر الملحمي[8] وفي سنة 545هـ/ 1150م ارتحل إلى مدينة (إب) فأخذ الحديث عن سيف السُنَّة أحمد البريهي، ثم ارتَحل إلى (عدن) فأخذ عنه القاضي أحمد القريظي[9].

---

(1) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 157.

(2) سير: قرية على مسافة نصف مرحلة من مدينة الجند، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 539.

(3) الظرافة: شرقي سهفنة، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 270.

(4) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 156.

(5) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 319.

(6) ريمة: بلاد واسعة في الغرب الجنوبي من صنعاء على مسافة أربع مراحل، وهي مشرفة على تهامة من ناحية بيت الفقيه يمر وادي رمع من جنوبها ووادي سهام من شمالها، ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 316.

(7) الجوءة: على مرحلة من جنوب الجند تحت جبل وحصن الدملوة، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 279.

(8) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 168.

(9) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 315، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 168.

وهكذا اتسعت حركة الرحلة الداخلية في سبيل طلب العلم إلى مناطق كثيرة من اليمن.

٢ ـ **الرحلة الخارجية**: بعد أن ذكرنا بعضاً ممن قاموا برحلات داخلية بين مدن اليمن من أجل طلب العلم والتفقه بالدين، يجدر بنا أن نذكر بعضاً ممن رحلوا خارج اليمن للهدف نفسه إلى مكة والمدينة والعراق ومصر وغيرها من البلدان وليس هنا مجال لحصرهم، وإنما نذكر بعضاً منهم على سبيل المثال:

1 ـ خيري بن يحيى بن عيسى بن ملامس (ت. سنة 480هـ/ 1087م) رحل إلى مكة وتفقه بأبي بكر محمد بن منصور السهروردي شارح المختصر، روى عنه كتاب أبي داود، كما روى (صحيح البخاري) عن الإمام الحافظ أبي ذر عبد بن أحمد الهروي، وروى عن أحمد بن محمد المكي البزاز (كتاب الشريعة) للآجري[1].

2 ـ أبو الطيب طاهر بن يحيى بن أبي الخير (518 ـ 587هـ/ 1124 ـ 1191م) رحل إلى مكة وذلك عندما عمت فتنة ابن مهدي على اليمن، فارتحل بأولاده ونسائه ومكث سبع سنين، روى عن كبار المحدثين في الحرم منهم الشيخ الإمام أبي علي الحسين بن علي الأنصاري والشيخ الإمام أبو حفص المانشي وعبد الدائم العسقلاني، ومقرئ الحرمين الشريفين أبي عبد اللّه محمد بن إبراهيم بن أبي مشيرح الحضرمي. ثم عاد إلى اليمن في سنة 566هـ/ 1170م[2].

3 ـ الفقيه مقبل بن محمد بن زهير (ت. 579هـ/ 1183م) ارتحل إلى كرمان وتفقه بها علي قطب الدين وبجماعة من فقهائها. ثم رجع إلى اليمن وسكن في ذي أشق رغبة بكتبها الموقوفة[3].

4 ـ الفقيه الحافظ محمد بن يحيى بن سراقة العامري المعافري (ت. سنة 410هـ/ 1019م) ارتحل إلى العراق حيث درس الفقه الشافعي في البصرة على أبي الحسين ابن اللبان البصري (ت. سنة 430هـ/ 1038م) ودرس في بغداد على الشيخ أبي حامد أحمد بن أبي طاهر الإسفرائيني (ت. سنة 406هـ/ 1015م) ثم عاد إلى اليمن وسكن المعافر[4].

---

(1) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 101.
(2) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 187.
(3) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 115، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 319.
(4) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 84 ـ 86.

5 ـ ورحل من الزيدية إلى الجبل والديلم عبد الله بن علي العنسي فأحضر معه سنة 501هـ/ 1107م كتب المعتزلة والزيدية[1].

6 ـ ورحل إلى العراق والري من الزيدية (أيضاً) القاضي جعفر بن عبد السلام (ت. 573هـ/ 1177م) فقرأ بهما الفقه الزيدي وعقائد المعتزلة ثم عاد إلى اليمن بكتبهم، واستقر بهجرة سناع يدرس المذهب الزيدي[2].

7 ـ ورحل إلى مكة أبو الوليد عبد الملك بن محمد بن ميسرة اليافعي 493هـ/ 1099م وذلك سنة 431هـ/ 1039م فأخذ عن سعد الزنجاني، ثم عاد إلى اليمن، فلقي أبا بكر بن أحمد بن محمد اليزدي بعدن فأخذ عنه الرسالة الجديدة للإمام الشافعي سنة 437هـ/ 1045م[3].

8 ـ الفقيه عبد الله بن عمير العريقي، رحل إلى مكة فقرأ بها (المعتمد) عن البندنيجي[4].

9 ـ القاضي لمك بن مالك الحمادي، أرسله الداعي علي بن محمد الصليحي في رحلة إلى مصر لدراسة المذهب الإسماعيلي للدولة الفاطمية في عهد المستنصر بالله، فمكث في القاهرة يدرس بها المذهب حوالي خمس سنوات (454 ـ 459هـ/ 1063 ـ 1068م)[5] ولما مات علي الصليحي عاد لمك إلى اليمن، فتولّى قضاء المذهب الإسماعيلي في صنعاء وفي ذي جبلة[6]، إضافة إلى توليه أمر الدعوة الإسماعيلية في اليمن إلى جانب المكرم أي أن المكرم كان (داعي السيف) ولمك (داعي القلم)[7].

10 ـ يحيى بن الحسين بن عبد الله بن أحمد الهجيري (ت. رمضان 577هـ/ 1181م) رحل إلى مصر فقرأ على الفقيه الشنتريني، ثم عاد إلى اليمن وسكن هجرة وقش[8].

---

(1) يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، ق: 60، د. محمد الدجيلي: الحياة الفكرية في اليمن، ق: 6، ص: 97 ـ 99.

(2) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 399، يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، ق: 64أ، محمد الدجيلي: الحياة الفكرية في اليمن، ق: 6، ص: 95.

(3) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 158، 159. (4) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 54.

(5) الهمداني: الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، ص: 175، د. أيمن فؤاد، تاريخ المذاهب الدينية في اليمن، ص: 131.

(6) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 134.

(7) الهمداني: نفس المرجع، ص: 179.

(8) يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، ق: 45أ.

11 ـ محمد بن أحمد بن النعمان الحضرمي رحل إلى الإسكندرية كذلك فأخذ بها عن الحافظ أحمد بن محمد السلفي (ت. سنة 576هـ/ 1180م) وإلى أصبهان فأخذ عن أبي الفضل محمد بن عبد الواحد الشيلي الأصبهاني (الشمائل للترمذي) ولما عاد إلى اليمن واستقر بعدن درس عنده عمر بن سمرة، كما درس عنده كتاب (الشمائل) إمام مسجد الشجرة بعدن ومحمد بن أحمد القريظي وذلك في سنة 565هـ/ 1169م[1]. وهكذا ارتحل الكثير من اليمنيّين إلى أماكن كثيرة من العالم الإسلامي لطلب العلم.

وإذا كان اليمنيون قد ارتحلوا داخل اليمن وخارجه من أجل الحصول على العلم نجد من ناحية أخرى أنه قدم إلى اليمن الكثير من الفقهاء من أمصار إسلامية متعددة، وقد ساهمت مجموعة منهم في النشاط التأليفي والحركة العلمية في اليمن. ومن ضمن من قدم منهم الآتي[2]:

1 ـ الحسين بن جعفر المراغي (ت. سنة 437هـ/ 1045م) لقيه القاسم الجمحي وأحمد الصعبي في حج سنة 388هـ/ 998م فاستدعياه للقدوم إلى اليمن فقدم إليها وسكن بسهفنة، وفيها أخذ المذكوران عنه مختصر المزني وسننه وسنن الربيع ومؤلفه في علم الكلام المسمّى (الحروف السبعة في الرد على المعتزلة وغيرهم من أهل الضلال والبدعة)[3].

2 ـ الحسين بن محمد بن الحسين بن حي التجيبي القرطبي (ت. 456هـ/ 1063م) قدم إلى اليمن من الأندلس سنة 442هـ/ 1050م فدخلها في عهد الدولة الصليحية واستقر بها إلى أن توفي و(كان أديباً فاضلاً عالماً بالهندسة والهيئة) صنف (زيج مختصر على طريقة السند هند)[4].

3 ـ أبو عبد اللّه محمد بن عبدويه (439 ـ 525هـ/ 1048 ـ 1130م) قدم إلى اليمن من العراق وسكن جزيرة كمران سنة 505هـ/ 1111م وصنف (الإرشاد في أصول الفقه)[5].

(1) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 232، 233.

(2) منهم معمر بن راشد البصري (ت. 153هـ/ 770م) قدم من البصرة إلى اليمن وسكن صنعاء وهو أول من ألف الكتب بها فصنف (الجامع في السنن) وعرف باسم (جامع معمر) وهو أقدم من (الموطأ) ابن سمرة: طبقات، ص: 66.

(3) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 83، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 265، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 183.

(4) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج10، ص: 158، 159.

(5) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 146، الجندي: السلوك، ص: 423، 424.

4 ـ القاضي الرشيد أحمد بن علي بن إبراهيم بن محمد بن الحسين بن الزبير الغساني الأسواني (ت. 563هـ/ 1167م) وصفه بامخرمة بأنه (كان أوحد عصره في علم الشرع والشعر والرياضيات والأدب والهندسة) قدم إلى اليمن رسولاً من الخليفة الحافظ عبد المجيد الفاطمي (524 ـ 544هـ/ 1129 ـ 1149م) إلى الداعي محمد بن سبأ الزريعي في عدن. وصنف باليمن (المقامة الحصيبية)[1].

وراثة الفقه: ومن ضمن الخصائص العلمية وراثة الفقه حيث اتصف العصر الذي ندرسه في اليمن والعالم الإسلامي بالأسلوب الوراثي لجميع أنواع الأعمال. فكان الآباء دائماً يحرصون على أن يرث أبناؤهم أعمالهم. وذلك يعود إلى أسباب عدم تكفل الدولة بمهام التعليم، وأن التعليم كان يعتمد على المجهود الذاتي لأفراد المجتمع وعلى رأسهم حملة العلم. لذلك كان الاهتمام قائماً على تلقين الآباء العلوم لأبنائهم وأقاربهم، فشملت الوراثة جميع أنواع الأعمال من حرف ومهن صناعية، وزراعية، وتجارية. إضافة إلى أنواع العلوم والسلطة السياسية.

على أن التوريث في العلوم المختلفة والمهن كانت الصفة المقبولة لدى كثير من الناس، وهي الصفة الغالبة التي سادت العصور الإسلامية حينما كان التعليم قائماً على جهود أفراد المجتمع. لذلك ظهرت في اليمن الكثير من الأسر تورث العلوم أبناءها نورد هنا بعض منها على سبيل المثال:

منهم فقهاء بني ملامس: الذين سكنوا (المشيرق) أولهم الفقيه الإمام أبو الفتح يحيى بن عيس بن ملامس (ت. بعد 420هـ/ 1029م)[2] وأورد عنه الأهدل قوله: (وتوارث ذريته العلم مدة ثم انقرضوا)[3]، فقد تفقه عليه ابنه الفقيه خير ابن الإمام يحيى، وهذا تفقه عليه ابنه الفقيه أسعد بن خير بن يحيى، وهذا بدوره تفقه عليه ابناه محمد وعلي[4].

فقهاء بني عقامة: سكنوا زبيد، وظلوا يتوارثون القضاء والفقه بها منذ أن قدم جدهم محمد بن هارون التغلبي، الذي ينتسب إليه بنو أبي عقامة[5]. مع ابن زياد زمن الخليفة العباسي المأمون، إلى أن انتهت الدولة النجاحية من زبيد، وتولى

---

(1) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 36، 37.

(2) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 91، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 266.

(3) الأهدل: تحفة الزمن، ص: 183، ترجم له الأهدل، ص: 182، 183، وسمّاه أبو الفتوح علي بن عيسى بن ملامس.

(4) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 321.

(5) عمارة: المفيد، ص: 45.

الحكم بها بنو مهدي، أزالوا بني عقامة عن القضاء بها سنة 554هـ/ 1159م[1]، ثم أعادهم الأيوبيون.

فقهاء بني الهيثم: أولهم الفقيه أبو سعيد الهيثم بن محمد بن الحسين مولده سنة 369هـ/ 979م وصفه الأهدل بقوله: (كان فقيهاً مشهوراً بالعلم وله ذرية فيهم المعلم والتدريس والقضاء والفتوى بطناً بعد بطن)[2]، كما وصفه الجندي بقوله: (له ذرية بورك بها ما لم يبارك بها من ذراري الفقهاء لا تكاد تخلو من فقيه يفتي وحاكم يقضي ومدرس يقرئ)[3].

فقهاء بني عمران: سكنوا مصنعة (سير)[4]، وتولوا فيها التدريس، فصارت (سير) بقدومهم ملاذاً لطلاب العلم[5]، أولهم الإمام يحيى بن أبي الخير العمراني (ت. سنة558هـ/ 1163م) ثم تلاه ابنه طاهر (ت. سنة587هـ/ 1191م) تفقه بأبيه يحيى، ثم ابني طاهر محمد وأسعد تفقها بأبيهما طاهر[6].

فقهاء بني الإمام: سكنوا (ذي أَشْرَق) ويرجع نسبهم إلى الفقيه الإمام محمد بن سالم عبد الله بن محمد بن سالم الشعبي (395 ـ 456هـ/ 1004 ـ 1063م) أصله من ذبجان تفقه بالقاسم بن محمد الجمحي استمرت أسرته تتوارث الفقه إلى سنة 722هـ/ 1322م[7]. وهكذا نجد الكثير من الأسر في اليمن توارثت العلم.

رابعاً

حركة التأليف

انتشرت حركة التأليف في اليمن منذ بدأت حركة تصنيف المؤلفات في العالم الإسلامي في منتصف القرن الثالث الهجري، في مختلف العلوم الدينية واللغوية وكتابة التاريخ والجغرافيا بالإضافة إلى النشاط الأدبي وهو ما نعبر عنه بالحركة العلمية في اليمن.

---

(1) الأهدل: تحفة الزمن، ص: 110.
(2) الأهدل: نفس المصدر، ص: 183.
(3) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 539.
(4) الأهدل: نفس المصدر، ص: 237.
(5) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 68.
(6) الأهدل: نفس المصدر، ص: 292، 337، محمد وأسعد لم يحقق الجندي لأحد منهما تاريخاً.
(7) بامخرمة: قلادة النحر، جـ2، ص: 598.

1 ـ النشاط العلمي في تأليف الكتب في مجال العلوم الدينية واللغوية:

من رواد حركة التأليف من اليمنيين أبو قرة بن طارق اللحجي (ت. سنة203هـ/ 818م) ألف في علم الحديث كتابه (الجامع) واشتهر باسم (سنن أبي قرة)[1]، وقد وصفه الجندي بقوله: (لم يكن أهل اليمن يعولون في معرفة الآثار إلا عليه، وذلك قبل دخول الكتب المشهورة)[2]. كما أن له تآليف في الفقه استخرجها من فقه الإمام مالك، والإمام أبي حنيفة، ومعمر بن راشد، وابن جريج، وسفيان الثوري، وسفيان بن عُيَيْنَة[3].

ومن ضمن من ساهم في رواية الحديث والتصنيف فيه محمد بن يحيى بن أبي عمر العدني (ت. سنة320هـ/ 932م) صنف (المسند) في الحديث[4]، والفقيه علي بن أبي بكر العرشاني (494 ـ 557هـ/ 1100 ـ 1161م) صنف كتاباً في الحديث سمّاه (الزلازل والأشراط)[5]، ومنهم الفقيه محمد بن سعيد بن معن القريظي (499 ـ 575هـ/ 1105 ـ 1179م) صنف في الحديث كتاباً سمي (المستصفى في سنن المصطفى)، ويعد كتابه هذا من الكتب المفيدة والمتداولة في اليمن[6].

ومن فقهاء الزيدية القاضي جعفر بن عبد السلام (ت. سنة 573هـ) صنف في الحديث (تيسير المطالب من أمالي أبي طالب)[7]. والقاضي محمد بن حمزة بن أبي النجم صنف كتاباً سمي (درر الأحاديث)[8]. ومن الأئمة الزيدية الإمام أحمد بن سليمان (ت. 566هـ/ 1170م) صنف كتاباً في الحديث سمي (أصول الأحكام في الحلال والحرام)[9]. والإمام عبد الله بن حمزة (ت. سنة 614هـ/

---

(1) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 69.

(2) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 159. (3) ابن سمرة: نفس المصدر والصفحة.

(4) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 261.

(5) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 172، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 351.

(6) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 433، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 250، بدأ تدوين الحديث والفقه والتفسير منذ عام 143هـ/ 760م، فصنف جرير في مكة، ومالك الموطأ في المدينة، والأوزاعي في الشام وبشر بن أبي عمر وحماد سلمة بالبصرة، ومعمر بن راشد وسفيان الثوري بمكة، يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، ق: 5 .

(7) يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، ق: 64ب، جمع فيه أمالي أبي طالب يحيى بن الحسين الهاروني (ت. سنة 424هـ/ وقد ذكر معجزات النبي ﷺ وفضائله وشمائله، الحبشي: مصادر، ص: 40.

(8) يحيى بن الحسين: نفس المصدر، ق: 67ب.

(9) الحبشي: مصادر الفكر الإسلامي باليمن، منشورات مركز الدراسات اليمنية، صنعاء، ص: 534، جمع فيه ما يزيد على ثلاثة آلاف حديث من أحاديث الأحكام وهو مرتب على أبواب الفقه، الحبشي: مصادر، ص: 534.

1217م) صنف في الحديث (حديقة الحكمة النبوية في شرح الأربعين السلفية)[1].

كذلك نشطت حركة التأليف في الفرائض والمواريث ألف فيها. الفقيه محمد بن أبي سراقة (410هـ/ 1019م) الذي سكن المعافر والذي يعد من أوائل من ألف في علم الفرائض فله مؤلف سمي (كافية المبتدي)[2]، وأبو محمد الحسن بن أبي عقامة (480هـ/ 1087م) الذي سكن زبيد له مختصر سمّي (مختصر في علم الفرائض والحساب) وآخر سمّاه (الملطف في علم المساحة)[3]، وإسحاق بن يوسف الصردفي (ت. سنة 505هـ/ 1111م) الذي سكن الصردف له كتاب سمي (الكافي في الفرائض)[4]، وقد وصفه الجندي بقوله: (ومنذ وجد كتابه لم يتفقه أحد من أهل اليمن في شيء من الفنون المذكورة إلا منه)[5]، وألف في الفرائض من الزيدية الفضل بن أبي السعد العصفيري عاصر الإمام عبد اللّه بن حمزة له (الفائض في علم الفرائض) فوق عشرة أجزاء، وله (عقد الأحاديث في علم المواريث) في أربعة أجزاء كما له المختصر المفيد سمي (مفتاح الفائض في علم الفرائض)[6].

كذلك انتشرت حركة التأليف في الفقه وأصوله انتشاراً واسعاً فمن ضمن من ألف بها أو شرح أو اختصر كتباً في الفقه أو فروعه الآتي:

في المذهب الشافعي: يحيى بن عيسى بن ملامس (ت. سنة 420هـ/ 1029م) له مختصر مفيد اختصره من كتاب المزني سمي (مختصر المزني)[7]، والفقيه جعفر بن عبد الرحيم المحابي (ت. سنة 460هـ/ 1067م) له مصنف في الفقه سمي (الجامع في الخلاف) وله أيضاً كتاب (التقريب)[8]. والفقيه أبو الفتوح عبد اللّه بن محمد بن أبي عقامة (من علماء القرن الخامس الهجري) سكن زبيد

---

(1) الحبشي: مصادر الفكر، ص: 540، شرح فيه أربعين حديثاً جمعها الشريف زيد عبد اللّه السليفي، الحبشي: مصادر، ص: 534.

(2) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 107.

(3) الأهدل: تحفة الزمن، ص: 197، 198، وله كتاب سمي (جوهر الأخبار)، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 197.

(4) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 107.

(5) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 284، الصردفي: أصله من المعافر وسكن الصردف ويورد صاحب شذرات الذهب أنه توفي سنة 500هـ/ 1106م، شذرات الذهب، ص: 410.

(6) يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، ق: 70ب، د. محمد رضا الدجيلي: الحياة الفكرية في اليمن ق: 6، ص: 135.

(7) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 91، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 182.

(8) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 272.

صنف كتاب (التحقيق) وله (مختصر في أحكام الجنايات)[1] وصفه عمارة بقوله: (وصنف بالمذهب والخلاف لم يفقه أحد من أهل عصره بعد تصنيفها إلا منها)[2]. والفقيه أبو حفص عمر بن إسحاق المصوع (ت. سنة 477هـ/ 1084م) سكن ظبا ألف (المذهب) في فروع الفقه، وله أيضاً (الجامع)[3]، والفقيه أبو محمد عبد اللّٰه بن يحيى بن أبي الهيثم الصعبي (475 ـ 553هـ/ 1082 ـ 1108م) صنف (التعريف) في فقه الشافعي وله احترازات المهذب في الفروع وله كتاب سمي (عقيدة) على مذهب ابن حنبل[4]، كما أن له كتاب (الاختيار)، والفقيه زيد بن الحسن بن محمد الفائشي (458 ـ 528هـ/ 1065 ـ 1133م) سكن أحاظة له (مختصر في فقه الشافعي سمّاه التهذيب)[5]. والفقيه أبو محمد عبد اللّٰه بن علي بن إبراهيم بن محمد الحربي (483 ـ 547هـ/ 1090 ـ 1152م) صنف كتاباً مفيداً سمّاه (الشروط)[6].

كذلك منهم الفقيه طاهر بن يحيى بن أبي الخير (518 ـ 587هـ/ 1124 ـ 1191) صنف (مقاصد اللمع) في أصول الفقه وله في علم الكلام (كسر قناة القدرية) (وحدة الفكر في الرد على المعتزلة في نفي القدر) وكتاب (مناقب الشافعي) وله (معونة الطلاب في شرح الشهاب). والفقيه كمال الدين مسعود المولود سنة (548هـ/ 1153م) له شرح (اللمع) سمّاه (الأمثال)[7]. وأحمد بن مقبل الدثيني (556 ـ 630هـ/ 1160 ـ 1234م) صنف كتاب الجامع في أربعة مجلدات كبار وله كتاب (الإيضاح) وله (شرح المشكل) من كتاب اللمع[8].

وألف في الفقه الحنفي محمد بن عوف الحنفي سكن زبيد له مصنف سمي (القاضي)[9]. كما صنف في فقه الحنفية أيضاً الفقيه أحمد بن حسين بن

---

(1) الأهدل: تحفة الزمن، ص: 205، اليافعي: مرآة الجنان، جـ3، ص: 325.

(2) عمارة: المفيد، ص: 289، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 205.

(3) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 96.

(4) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 161 ـ 163، اليافعي: مرآة الجنان، جـ3، ص: 307، العامري: غربال الزمن، ص: 433.

(5) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 157، 158، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 231.

(6) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 164، الجندي، السلوك، ص: 349، 350.

(7) الأهدل: تحفة الزمن، ص: 293، 335.

(8) الجندي: السلوك، ص: 517.

(9) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 103، الجندي: السلوك، ص: 282، 283، الفقيه محمد بن عوف عاصر الفقيه أبو بكر بن جعفر المحابي (ت. سنة 500هـ).

أبي عوف (ت. سنة 500هـ/ 1106م) سمي (شرح المختصر القدوري)[1].

وفي الفقه الزيدي ألف سليمان بن ناصر السحامي الذي درس على القاضي جعفر بن أحمد بن عبد السلام (ت. سنة 573هـ/ 1177م) كتاباً سمي (النظام) وصنف كتاباً آخر سمي (شمس الشريعة) في الفقه الزيدي في ستة مجلدات استخرجها من (جامع آل محمد) وذكر فيها أقوالاً من علماء آل البيت وأقوالاً من المذاهب الأربعة. كما ألف فروع الفقه الزيدي أخوه علي بن ناصر السحامي كتاباً عرف (ببيان السحامي)[2].

وفي مجال اللغة وجد الكثير من اليمنيّين من ألفوا فيها سواء أكانت تأليفاً أم شروحاً فمن ضمن من ألفوا وشرحوا على سبيل المثال الآتي:

عيسى بن إبراهيم الربعي (ت. سنة 480هـ/ 1087م) سكن أحَاظة له كتاب (نظام الغريب) في اللغة وصفه الجندي بقوله: (وعليه يعول كثير من أهل اليمن من وقت وجوده إلى هذا الزمن من لا يقرأه ويتكرر فيه لا يعده كثير من الناس لغوياً)، وأخوه إسماعيل بن إبراهيم الربعي (ت. سنة 480هـ/ 1087م) سكن أحاظة له كتاب سمي (قيد الأوابد) في اللغة ويعتبر هذان الأخوان إمامي النحو والأدب في وقتهما في اليمن[3].

كذلك الحسن بن أبي عباد له مختصر في النحو سمي (مختصر الحسن) وقد وصفه الجندي بأن (غالب فقهاء اليمن وأنحائها كل منهم لا يستفتح الاشتغال بصناعة النحو إلا به) وابن أخيه إبراهيم بن محمد بن أبي عباد (ت. سنة 553هـ/ 1158م) له (تلقين المتعلم) في النحو وله (مختصر كتاب سيبويه)[4]، ويعتبر الحسن وابن أخيه إبراهيم إمامين في النحو في اليمن في عصرهما، وإليهما ارتحل طلاب النحو من أنحاء اليمن. كان وجودهما أواخر القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجريّين[4]،

---

(1) الحبشي: مصادر الفكر الإسلامي، ص: 171، القدوري توفي سنة (428هـ/ 1036م) الحبشي، مصادر، ص: 171.

(2) يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، ق: 67، ق: 68، د. محمد دجيلي: الحياة الفكرية في اليمن، ص: 135.

(3) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 156، 157، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 229، 230، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 329.

(4) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 287، يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، ق: 29، يورد الحبشي أن وفاة الحسن كانت على رأس الخمسمائة ووفاة إبراهيم أوائل المائة الخامسة للهجري، الحبشي: مصادر، ص: 369.

وأيضاً الفقيه أبو بكر بن أبي عبد اللّه بن محمد اليافعي (449 ـ 555هـ/ 1057 ـ 1160م) سكن الجند ألف مختصر في النحو يعرف (بالمفتاح) وهو من الكتب المفيدة عند أهل اليمن[1].

والأديب ابن أبي عمر الصنعاني عاصر الإمام أحمد بن سليمان، والإمام عبد اللّه بن حمزة ألف في اللغة (سقط الجواهر الأدبية في الغريب من ألفاظ اللغة العربية).

والحسين بن مسلم التهامي عاصر الإمام عبد اللّه بن حمزة أيضاً ودرس على الحسن الرصاص، له رسائل في علم الكلام ردّ على الأشعرية منها رسالة سميت (الكاشفة بالبرهان الصحيح واللسان الصريح)[2]. وهناك آخرون ممن ألفوا في اليمن في اللغة ليس هنا مجال حصرهم.

٢ ـ **النشاط العلمي في التاريخ**: بدأ ظهور المؤلفات التاريخية في اليمن منذ ظهور الدويلات المستقلة بها أواخر القرن الثالث الهجري. وقد أخذت كتابة التاريخ في اليمن الطابع المحلي، وغالباً ما كان تدوين التاريخ يساير امتداد السلطة السياسية. كما اتصف التاريخ اليمني بعدم تأثره بعلم الحديث، في تدوين الأحداث التاريخية وذلك بسبب تأخر نشأة الكتابة التاريخية في اليمن عن نشأته في العالم الإسلامي[3].

ونتيجة لتعدد وجود المذاهب في اليمن ما بين سنية وإسماعيلية وزيدية، تعددت كتابة التاريخ بحسب وجود هذه المذاهب[4]، كما وجدت عدة طرق وأساليب في تدوين التاريخ في اليمن[5]. مثل الكتابة بحسب السنين لحوادث اليمن، أو حسب الدويلات، أو حسب المذاهب، وسوف نستعرض هنا الطرق المختلفة في تدوين التاريخ اليمني خلال فترة الدراسة:

من أوائل ما ظهر في اليمن من الكتابة التاريخية في عهد الدويلات المستقلة هي الكتابة على شكل سير ذاتية لمؤسسي المذاهب أو الدويلات، ومن أوائل ما ظهر في هذا الصدد (سيرة الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين) تأليف

---

(1) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 287، 354.
(2) يحي بن الحسين: طبقات الزيدية، ق: 68أ، 70أ.
(3) د. أيمن فؤاد سيد: مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، ص: 8، 14.
(4) د. أيمن فؤاد: نفس المرجع، ص: 23.
(5) راضي دغفوس: مصادر تاريخ جنوب الجزيرة العربية، مجلة المؤرخ العربي، ص: 120.

العلوي علي بن محمد بن عبد اللّه العلوي المتوفى أواخر القرن الثالث الهجري[1].

واستمرت كتابة السير الذاتية وعلى الأخص عند الزيدية، فظهرت في القرن الخامس الهجري: (سيرة الأميرين الأجلين الشريفين الفاضلين القاسم ومحمد ابني جعفر بن القاسم بن علي العياني)[2]، تأليف مفرج بن أحمد الربعي من رجال القرنين الرابع والخامس الهجريين، ولهذه السيرة أيضاً أسماء أخرى مثل اسم (سيرة الأميرين القاسم ومحمد ابنا الإمام القاسم بن علي العياني)[3]، واسم (سيرة في أحوال القاسم بن جعفر بن علي العياني المتوفى سنة 468هـ وأحوال أخيه ذي الشرفين)[4].

ومن السير الذاتية للزيدية أيضاً في القرن السادس الهجري: (سيرة المتوكل على اللّه أحمد بن سليمان) الذي تولّى إمامة الزيدية في اليمن الأعلى ما بين سنة 533 ـ 566هـ/ 1138 ـ 1170م، تأليف سليمان بن يحيى الثقفي من علماء القرن السادس الهجري[5].

وكذلك (سيرة الإمام المنصور باللّه عبد اللّه بن حمزة) الذي تولّى إمامة الزيدية في اليمن الأعلى أيضاً ما بين 594 ـ 614هـ/ 1197 ـ 1217م تأليف علي بن نشوان بن سعيد الحميري (ت. سنة610هـ/ 1213م) والذي عاصر الإمام عبد اللّه بن حمزة، وهي سيرة حافلة تقع في عدة مجلدات.

وللإمام عبد اللّه بن حمزة عدة سير أخرى منها (سيرة الإمام عبد اللّه بن حمزة) تأليف ركن الدين أبو فراس فاضل بن عباس بن علي دغشم كان متولياً كتابة الإنشاء للإمام عبد اللّه بن حمزة[6]، اختصرها من سيرة الإمام المنصور باللّه

---

(1) د. أيمن فؤاد: نفس المرجع، ص: 82، 83، عبد اللّه الحبشي: مصادر الفكر الإسلامي، ص: 403، هناك سيرة أخرى للهادي إلى الحق أسمّاها: (سيرة إمام الهدى والصدق أمير المؤمنين الهادي إلى الحق) تأليف أبي جعفر محمد بن سليمان الكوفي المتوفى بداية القرن الرابع الهجري، د. أيمن فؤاد: نفس المرجع، ص: 83. وهناك سيرة أخرى للمنصور باللّه اسمها: (سيرة المنصور باللّه) ابن محمد القاسم بن علي العياني المتوفى سنة 393هـ/ تأليف الحسين بن أحمد بن يعقوب المتوفى أواخر القرن الرابع الهجري، د. أيمن فؤاد: نفس المرجع، ص: 83، 84، د. شاكر مصطفى: المرجع السابق، ص: 104.

(2) Wilfeed Madelung: The Sirat Al - Amerayn Sources For The History Of Arabia, P. 69

(3) مخطوطة بدار المخطوطات اليمنية بصنعاء تحت هذا الاسم رقم 2573.

(4) د. شاكر مصطفى: التاريخ والمؤرخون في اليمن الإسلامي، حتى القرن السابع الهجري، ص: 104.

(5) د. شاكر مصطفى: نفس المرجع، ص: 109، الحبشي: نفس المرجع، ص: 406.

(6) عبد اللّه الحبشي: نفس المرجع، ص: 109.

لعلي بن نشوان في أربعة مجلدات[1] أو ستة أجزاء[2]. وأيضاً وجدت سيرة أخرى له باسم (سيرة الإمام عبد الله بن حمزة) تأليف محمد بن أحمد الأنف (ت. سنة623هـ/ 1226م)[3].

كذلك وجدت سيرة ذاتية لدى الإسماعيلية الصليحية وهي السيرة المشهورة باسم السيرة الصليحية واسمها (سيرة السلطان المعظم الأمير الأجل المكرم شرف الدولة عزّ الملك الصليحي منتخب الدولة وغرسها ذي السيفين الداعي الأريحي أحمد بن علي بن محمد الصليحي أعلى الله قدسه)[4].

كذلك وجدت كتابة تاريخية على شكل تراجم لطبقة معينة، وغالباً ما أخذ هذا الطابع الشكل المذهبي فكان كل مذهب يترجم لأهل مذهبه، أما تراجم لأهل اليمن جميعاً فقد ظهر متأخراً أي في عهد الدولة الرسولية وما بعدها. ومن ضمن الترجمات لأهل كل مذهب الآتي:

تاريخ مسلم اللحجي: وهو مسلم بن محمد بن جعفر اللحجي الشطبي المتوفى سنة 545هـ/ 1150م له تاريخ يسمى (تاريخ مسلم اللحجي وطبقات مشاهير اليمن) ذكر فيه أعلام علماء مذهب الزيدية المُطَرَّفِيَّة، وقد رتبه على خمس طبقات هي:

1 ـ **الطبقة الأولى**: في أحوال ابني الهادي.

2 ـ **الطبقة الثانية**: في ذكر أحوال المختار وأولاده وبني الضحاك.

3 ـ **الطبقة الثالثة**: من أخذ عن الطبري مثل مُطَرِّف وابن أبي الفوارس.

4 ـ **الطبقة الرابعة**: من أخذ على مطرف بن شهاب مثل نهد الصباح.

5 ـ **الطبقة الخامسة**: من عاصر مسلم من العلماء المطرفية[5].

وله أيضاً كتاب (الأترجة في شعراء اليمن) وهو تاريخ الشعراء في اليمن في عصر الجاهلية والإسلام[6]. كذلك له كتاب (شيء من أخبار الزيدية)[7].

---

(1) يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، ق: 69أ.
(2) د. شاكر مصطفى: نفس المرجع، ص: 111.
(3) عبد الله الحبشي: نفس المرجع، ص: 409.
(4) الاسم نقل من صورة المخطوط وهي لدى الباحث.
(5) يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، ق58أ ب، د. أيمن فؤاد: مصادر تاريخ اليمن، ص: 106، عبد الله الحبشي: مصادر الفكر في اليمن، ص: 405، د. محمد الدجيلي: الحياة الفكرية في اليمن، ق6، ص: 147، 148.
(6) د. أيمن فؤاد: نفس المرجع، ص: 107، د. محمد الدجيلي: نفس المرجع، ص: 156.
(7) د. شاكر مصطفى : التاريخ والمؤرخون في اليمن، ق7، ص: 108.

ومن كتب الطبقات أيضاً كتاب (طبقات فقهاء اليمن) للفقيه عمر بن علي بن سمرة الجعدي المولود سنة 547هـ/ 1152م والمتوفى بعد سنة 586هـ/ 1190م ويسمى أيضاً (كتاب طبقات فقهاء اليمن وعيون من أخبار سادات رؤساء الزمن، ومعرفة أنسابهم، ومعرفة أعمارهم، ووقت وفاتهم)[1]، كما يسمى أيضاً (طبقات فقهاء اليمن الأسفل) أو (طبقات الفقهاء في جبال اليمن من صنعاء إلى عدن)[2]. وهو عبارة عن تراجم للفقهاء الشافعية في اليمن منذ ظهور الإسلام إلى زمن المؤلف أي سنة 586هـ/ 1152م[3].

كما ألفت كتب تاريخية في اليمن تتكلم عن فرق مذهبية معينة سواء كان الغرض من التأليف إبراز مساوئ هذه الفرق أم محاسنها، ومن هذا النمط كتاب (كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة) تأليف محمد بن مالك ابن أبي القبائل الحمادي والمتوفى نحو 470هـ/ 1077م، وهو فقيه تحول من الإسماعيلية إلى السُنَّة. تكلم عن أخبار الإسماعيلية الباطنية في اليمن وتاريخهم وعقائدهم فأبرز مساوئهم ونصح المسلمين عدم الإلتزام بمذهبهم، وركز فيه على علي بن الفضل الداعي الإسماعيلي وعن قيام الدولة الصليحية[4].

ومنها أيضاً كتاب (تحفة القلوب وفرحة المكروب) أو (تحفة القلوب في ترتيب الهداة والدعاة في الجزيرة اليمنية) تأليف الداعي الإسماعيلي في اليمن حاتم بن إبراهيم بن الحسن ابن المسعود الحامدي (557 ـ 596هـ/ 1161 ـ 1199م) وهو عبارة عن استعراض للعقيدة الإسماعيلية، وشرح أخبار انتقال زعماء الدعوة المستعلية من مصر إلى اليمن[5].

كما يدخل ضمن هذا النمط من كتب التراجم والفرق كتاب (الحدائق الوردية في مناقب الأئمة الزيدية) تأليف حميد بن أحمد المحلي المتوفى سنة 652هـ/ 1254م، ترجم فيه للأئمة الزيدية في اليمن حتى وصل إلى زمن الإمام

---

(1) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: ، ط، د. شاكر مصطفى: التاريخ والمؤرخون في اليمن حتى ق6، ص: 108.
(2) ابن سمرة: نفس المرجع، ص: ط.
(3) د. أيمن فؤاد سيد: مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، ص: 111، د. محمد الدجيلي: الحياة الفكرية في اليمن، ق6، ص: 156، 157.
(4) د. أيمن فؤاد: نفس المرجع، ص: 92، د. شاكر مصطفى: نفس المرجع، ص: 105، 106.
(5) د. شاكر مصطفى: التاريخ والمؤرخون في اليمن حتى ق6، ص: 109، د. محمد الدجيلي: الحياة الفكرية في اليمن، ق6، ص: 157.

المنصور بالله عبد الله بن حمزة المتوفى سنة 614هـ/ 1217م[1].

كما وجدت كتب تاريخية ألفت بأسماء مدن يمنية والدول التي حكمتها وعلمائها وغير ذلك، وهذه الكتب وإن كانت تحمل أسماء مدن محددة، إلا أنها تستعرض تاريخ معظم اليمن منها:

تاريخ مدينة صنعاء: تأليف أبو العباس أحمد بن عبد الله الرازي الصنعاني المتوفى بعد سنة 460هـ/ 1068م، تحدث فيه عن مدينة صنعاء وعن جماعة من علماء أهل اليمن وأمرائها وغالبهم من أهل صنعاء والجند، إضافة إلى أنه ذكر أخباراً عن مختلف اليمن، ووصل فيه إلى سنة 460هـ/ 1068م[2].

وكتاب (المفيد في أخبار زبيد) لنصر الدين جياش بن نجاح المتوفى سنة (500هـ/ 1107م)[3]. إلا أنه لم يعثر على هذا الكتاب، وربما استعرض امتداد الدولة النجاحية في اليمن، وقد استفاد منه عمارة وغيره في كتبهم.

وكتاب (المفيد في أخبار صنعاء وزبيد وشعرائها وملوكها وأعيانها وأدبائها)[4] لنجم الدين أبو محمد عمارة بن أبي الحسن بن علي بن زيدان الحكمي المقتول سنة 569هـ/ 1174م تحدث فيه عن أخبار اليمن جبالها وسهولها، وهو عبارة عن تاريخ عام لليمن منذ قيام الدولة الزيادية حتى نهاية الدولة الصليحية ـ عدا الزيدية ـ ويعد كتاب عمارة من أهم كتب التاريخ اليمني منذ قيام الدويلات المستقلة حتى القرن السادس الهجري[5]، ويحتمل أن له أيضاً كتاب (أنموذج ملوك اليمن)[6].

كذلك وجدت كتب في تاريخ اليمن العام، فهناك مؤرخ مجهول في القرن الخامس الهجري كتب تاريخ اليمن واسمه (تاريخ اليمن في الكوامن والفتن وملوك حمير وفي رجال الحديث من الصحابة والتابعين وتابعي تابعيهم ومن وفد على الرسول

---

(1) د. شاكر مصطفى : نفس المرجع، ص: 111، عبد الله الحبشي: مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن، ص: 411.

(2) د. أيمن فؤاد: نفس المرجع، ص: 104، عبد الله الحبشي: نفس المرجع، ص: 405، د. شاكر مصطفى: نفس المرجع، ص: 105.

(3) د. أيمن مصطفى، مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، ص: 96، 97، د. محمد الدجيلي: الحياة الفكرية في اليمن، ق6، ص: 153.

(4) هذا الاسم مكتوب على غلاف نسخ المفيد لعمارة تحقيق محمد الأكوع.

(5) د. أيمن فؤاد: نفس المرجع، ص: 108، 109، د. شاكر مصطفى: التاريخ والمؤرخون في اليمن حتى ق7، ص: 107، 108، د. محمد الدجيلي: نفس المرجع، ص: 150 ـ 152.

(6) د. أيمن فؤاد: نفس المرجع، ص: 108، د. محمد الدجيلي: نفس المرجع، ص: 151.

ﷺ من أهل اليمن ومن خرج من العمال وما جرى في اليمن إلى القرن الخامس الهجري المحمدية صلى اللّه عليه وسلم وآله وأصحابه الطاهرين أجمعين آمين)[1].

كذلك كتب في تاريخ اليمن العام الفقيه، أحمد بن علي بن أبي بكر العرشاني (542 ـ 607هـ/ 1147 ـ 1210م) له كتاب سمي (تاريخ اليمن) وله أيضاً (مختصر) جمع فيه من قدم اليمن من الفضلاء، وله كذلك تذييلات منها (تذييل على تاريخ الطبري) و(تذييل على تاريخ القضاعي)[2].

كذلك وجد في اليمن تدوين التاريخ على حسب السنين وهو ما يسمى بالحوليات من ذلك ما كتبه طاهر بن يحيى بن أبي الخير العمراني (518 ـ 587هـ/ 1124 ـ 1191م) عرف باسم (تاريخ طاهر بن يحيى العمراني) رتبه على حسب السنين مبتدئاً من أول الإسلام حتى عصره[3].

وهكذا تنوّعت كتابة التاريخ الإسلامي في اليمن بأساليب متنوعة كما أنها اقتصرت على حسب الدويلات والفرق والمذاهب الإسلامية التي وجدت بها.

3 ـ **النشاط العلمي في الجغرافيا**: وجدت كتابة الجغرافيا في اليمن وهو ما كان يطلق عليه (علم البلدان)، وأول من ألف في هذا الموضوع الهمداني: أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني المتوفى سنة (360هـ/ 970م) له كتاب (صفة جزيرة العرب) فهو يعطي تعريفاً عن الأماكن المختلفة في اليمن مع ذكر وديانها وما في هذه الوديان وبلدان اليمن وسلاسلها الجبلية[4]. وله أيضاً كتاب (المسالك والممالك في عجائب اليمن وجزيرة العرب وأسماء بلادها)[5] إلا أنه مفقود.

كذلك ساهم في التأليف الجغرافي عن اليمن أحد الوافدين إليها وهو ابن المجاور: ابن محمد بن مسعود بن علي بن أحمد ابن المجاور المتوفى سنة(630هـ/ 1233م) له كتاب سمي (صفة بلاد اليمن والحجاز) وصف فيه بلاد

---

(1) مخطوطة تحت هذا الاسم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة، ميكروفيلم رقم 18، مصور عن مخطوطة الأمبروزيانا.

(2) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 422، 423، د. شاكر الدجيلي: الحياة الفكرية في اليمن ق6، ص: 158، 159.

(3) د. أيمن فؤاد: نفس المرجع، ص: 112، د. محمد الدجيلي: نفس المرجع، للمزيد من معرفة مصادر تاريخ اليمن، انظر د. أيمن فؤاد سيد: مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي.

(4) د. أيمن فؤاد: نفس المرجع، ص: 72.

(5) د. شاكر مصطفى: التاريخ والمؤرخون في اليمن حتى القرن السابع الهجري، ص: 102.

اليمن ونواحيها وطرقها وأورد المسافات وذكر آثار كل منزلة كما تحدث عن عادات السكان وأخلاقهم[1].



خامساً

النشاط الأدبي في مجال الشعر:

انتشرت الحركة الشعرية في اليمن خلال فترة الدراسة انتشاراً واسعاً وظهر فيها نوابغ الشعراء والأدباء، ولهم شعر راقٍ وجيد أغلبه بعيد عن التكلف والتصنع. وقد تنافس الشعراء في بلاط الأمراء والسلاطين الذين كانوا يشجعون الشعراء والأدباء فيجزلون لهم العطايا والهدايا الفاخرة ويبالغون في إكرامهم، والشعراء يبالغون أيضاً في مدح الحكام، مما جعل الكثير من الناس يتأثرون بهذا المديح فيؤيدون الحكام ويسلمون لهم بالطاعة، لأن الشعر آنذاك كان بمثابة الإعلام عن الحكام وأعمالهم، ولذلك ظهرت نهضة شعرية شاملة في اليمن[2].

وليس هنا مجال لحصر الشعراء ولا شعرهم وإنما لإعطاء فكرة عن الأغراض الشعرية للشعراء، وانتماءاتهم الفكرية ومستوياتهم وطبقاتهم.

ومن حيث أغراض الشعر في اليمن فقد اتصف في معظمه بالمديح للأمراء والحكام والعلماء وغيرهم. كما شمل عدة أغراض أخرى منها الهجاء والغزل، والتهدد، والتوعد، والتأنيب، والرد والعتاب، والتوبيخ، والرثاء، والفخر، والتحريض على القتال، كما تحدث عن فلسفة بعض الشعراء وعقائدهم المذهبية[3].

وربما عبر الشعر عن قصة حياة الشعراء والأمراء والحكام وبلدانهم وقومهم. فيصف حياتهم ومعاركهم ضد القبائل الأخرى. وانتصاراتهم وهزائمهم. وعموماً قد يشير الشعر إلى أخبار هامة للتاريخ في فترات حياة الشعراء والأمراء والمعاصرين لهم ويوضح أسلوب حياة المجتمع الثقافية والاجتماعية والدينية[4].

وقد ظهر الكثير من الشعراء في اليمن من نوعيات مختلفة في المجتمع منهم شعراء أمراء وملوك وسلاطين ووزراء، وأدباء وفقهاء وقضاة وغير ذلك.

---

(1) د. أيمن فؤاد: نفس المرجع، ص: 123.

(2) إسماعيل باقر: السلطان الخطاب حياته وشعره، دار المعارف بمصر، ص: 26، 27.

(3) إسماعيل باقر: نفس المرجع والصفحات.

(4) انظر أحمد محمد العقيلي: ديوان السلطانين، إسماعيل باقر حسن: السلطان الخطاب حياته وشعره، نشوان الحميري: شرح القصيدة الحميرية، عمارة: المفيد تحقيق محمد الأكوع، ص: 240 _ 366.

فمن الملوك والسلاطين والأمراء والشعراء الملك علي بن محمد الصليحي مؤسس الدولة الصليحية الذي كان شاعراً مجيداً[1]. والملك أبو طامي جياش بن نجاح صاحب زبيد الذي كان شاعراً فصيحاً بليغاً أديباً[2]، وهو من الشعراء المجيدين، له ديوان شعر في مجلد ضخم، وله ترسل جيد ومتوسط بعيد عن التكلفة، ومن الشعراء السلاطين السلطان عبد اللّه يعلى الصليحي صاحب حصن خدد، والسلطان حاتم بن أحمد بن عمران (ت. سنة 556هـ/ 1160م) صاحب صنعاء، والسلطان الخطاب بن أبي الحفاظ الحجوري[3]، وأخوه السلطان سليمان، ومن المخلاف السليماني كان الأميران وهاس ودهمش شاعرين مجيدين[4].

ومن الوزراء الشعراء، الوزير خلف بن أبي طاهر الأموي وزير الملك جياش الذي كان حسب وصف بامخرمة له (أحد أفراد الدهر فضلاً ونبلاً ورئاسة وعقلاً)[5]. والوزير الحسين بن علي بن محمد بن القم (430 ـ 480هـ/ 1038 ـ 1087م) الذي تأدب على أبيه علي[6]، وكان شاعراً أديباً من أفاضل المبرزين في اليمن في الشعر والنثر والكتابة[7]، كان يحاكي طريقة أبي مقلة في الكتابة[8]. وكان يكاتب عن السيدة الحرة الصليحية إلى الديار المصرية والأقطار الخارجية الأخرى[9]، وقد هرب ابن القم من زبيد خوفاً من جياش بن نجاح إلى سبأ بن أحمد بن المظفر الصليحي في الجبال فمدحه بعدة قصائد[10].

أما الأئمة الشعراء فأبرزهم الإمام أحمد بن سليمان الذي تولّى الإمامة الزيدية في (532 ـ 566هـ/ 1137 ـ 1170م) والإمام عبد اللّه بن حمزة الذي تولّى إمامة الزيدية أيضاً سنة (594 ـ 614هـ/ 1197 ـ 1217م)[11].

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 287، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 195.
(2) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 78.
(3) عمارة: المفيد، ص: 213، 250، 251، 275، 276، 278.
(4) د. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، دار المعارف بمصر، ص: 161.
(5) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 102.
(6) عمارة: المفيد، ص: 241.
(7) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، دار المأمون، جـ1، ص: 30.
(8) صلاح الدين خليل الصفدي: الوافي بالوفيات، دار النشر فرانز شتاينر بقيسباون، 1404هـ/ 1984م، جـ13، ص: 6.
(9) عمارة: المفيد، ص: 241، الصفدي: نفس المصدر والصفحة.
(10) عمارة: المفيد، ص: 243.
(11) يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، ق60، 61.

ومن الشعراء اللغويّين نشوان بن سعيد الحميري الذي عاصر الإمام أحمد بن سليمان كان شاعراً كثير الافتخار بقحطان على عدنان[1].

ومن الشعراء الأدباء الذين كان لهم شعر جيد الشاعر أبو بكر أحمد العندي، وهو الذي تولّى ديوان الإنشاء ووزارة آل زريع في عدن، وكان الداعي محمد بن سبأ يستشيره ويثق بمشورته[2]. وقد مدح من آل زريع الداعي محمد بن سبأ وابنه عمران. كما مدح الأيوبيّين عندما دخلوا اليمن بشعر جيد، وقد نال جوائز ضخمة على شعره، ومن جوائزه أنه منح عن قصيدة مدح لعمران، وعاء من فضة فيه ألف وسبعمائة دينار، وخلعه من أبي السعود بن عمران وأضاف أبوه الداعي عمران إليه مكس أحد المراكب مقدار مكسه ألفي دينار[3].

كذلك ساهم الشعراء الفقهاء في حركة الشعر، في اليمن بشعر جيد، فمن الفقهاء الشعراء الفقيه أبو العباس أحمد بن بحارة الحنفني، كان شاعراً مبرزاً في الأدب واللغة وعلم الكلام، يحذو حذو طريقة أبي نواس في الاشتهار بالخلاعة[4].

كذلك ساهم القضاة في حركة الشعر في اليمن، فمن الشعراء القضاة بنو أبي عقامة في زبيد منهم القاضي أبو محمد بن أبي عقامة، كان شاعراً وفقيهاً وإماماً في اللغة العربية، قتله جياش بن نجاح في زبيد، بسبب فتواه التي تقضي بعدم زواج إحدى بنات أهل موزع لجياش إلا برضا أهلها جميعاً. ومنهم القاضي الشاعر ابن أبي الفتوح والي الأعمال المقاربة لزبيد مثل حَيْس وفَشَال، وهو يعد من الشعراء المجيدين المكثرين، ومنهم أيضاً القاضي أبو محمد عبد اللّه بن علي بن أبي عقامة، الذي كان من الشعراء المجيدين، والقاضي أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه المعروف بالحفائلي الذي كان شاعراً مترسلاً[5].

كما اشتهر بالشعر من قضاة الإسماعيلية القاضي يحيى بن أحمد بن أبي يحيى الذي كان مقيماً بصنعاء، كان من أشهر شعراء أهل الجبال، مدح الداعي محمد بن سبأ صاحب عدن عندما اتجه لاستلام ذي جبلة من الأمير منصور بن المفضل،

---

(1) يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، ق60، 62.

(2) عمارة: المفيد، ص: 326 ـ 333، وانظر محمد سعيد جرادة: الأدب والثقافة في اليمن عبر العصور، ص: 151 ـ 162.

(3) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 69، 215.

(4) عمارة: المفيد، ص: 294.

(5) عمارة: المفيد، ص: 288 ـ 291، الحفائلي لقب من ألقاب المكتب (الديوان)، عمارة: المفيد، ص: 291.

فأجازه الداعي على مدحه ألف دينار، وقد كانت نهاية هذا القاضي الذبح من قبل أصحاب ابن مهدي عندما هاجموا مخلاف جعفر[1].

كما اشتهر من الشعراء الإباضية الشاعر أبو إسحاق إبراهيم بن قيس الحضرمي، تولّى زعامة الإباضية في حضرموت قبيل منتصف القرن الخامس الهجري أيام علي الصليحي مؤسس الدولة الصليحية، وقد استطاع أبو إسحاق هذا أن يقف حائلاً دون تحقيق أطماع علي الصليحي في احتلال حضرموت، ولأبي إسحاق هذا ديوان يصور فيه أحداث حياته تصويراً جيداً، كما أن له قصيدة يشيد فيها بالإباضية وأخلاقهم الفاضلة، ويوضح كيف أصبح إماماً عليهم[2]، ويعتبر ديوانه مرآة صادقة يحكي عن عقيدة الإباضية وجهاده في نصرة هذا المذهب.

كما اشتهر الكثير من الشعراء الذين يتكسبون بشعرهم، فكانوا يمدحون الأمراء والسلاطين والحكام ليتقاضوا من وراء ذلك بعض المال. ولهم في ذلك المديح شعر جيد، ومن هؤلاء الشعراء الذين كانوا يتكسبون بشعرهم:

الشاعر محمد بن زياد المأربي أصله من مدينة مأرب[3]، درس الأدب على يد علي بن رزين في هجرة وقش. ثم اتجه إلى الجبال وتهامة يمدح الملوك والأمراء فكسب منهم أموالاً جليلة[4]، قال عنه مسلم اللحجي: (ثم رغب محمد بن زياد المأربي في الشعر وقوله واتخذه صناعة يتكسب بها)[5]. فممن مدحهم المفضل بن أبي البركات الحميري، الذي وصله عن قصيدة مدحه بها بألف دينار، كما مدح أبا السعود بن زريع، والشريف عيسى بن حمزة السليماني صاحب عثر فوصله على مدحه بصلات جزيلة[6].

ومن الشعراء الذين كانوا يتكسبون بشعرهم الشاعر عمارة اليمني أصله من بلاد حكم بالمخلاف السليماني، درس في زبيد الفقه واللغة والأدب، ثم بدأ يشتغل بالتجارة ما بين عدن وزبيد، وفي عدن بدأ حياته الشعرية عن طريق الأديب الشاعر أبي بكر أحمد العندي الذي أشار عليه أن يقول شعراً يمدح فيه الداعي

(1) عمارة: المفيد، ص: 321، 322.

(2) باوزير: معالم تاريخ الجزيرة العربية، ص: 266، د. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، ص: 174 ـ 177.

(3) عمارة: المفيد، ص: 268.

(4) يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، ق44أ.

(5) مسلم اللحجي: تاريخ مسلم اللحجي ق121.

(6) عمارة: المفيد، ص: 269، 270.

محمد بن سبأ حاكم عدن، وفي البداية عمل الأديب العندي قصيدة شعر على لسان عمارة هنأ بها عرس الداعي محمد بن سبأ على بنت الشيخ بلال المحمدي[1]. بعدها أشار العندي على عمارة أن يطالع كتب الأدب ويتوقف عن مطالعة الفقه فاشتغل عمارة منذ ذلك الحين بالشعر ومدح الملوك والأمراء ونال الكثير من العطايا والجوائز، يدل على ذلك ما روي أن الداعي محمد بن سبأ استدعى إليه عمارة وطلب منه أن يقول شعراً يمدحه، فلما أنشده عمارة شعره، أعجب به الداعي وقال له: (قد كنت أتيت القاضي بخمسمائة وخلعة، وأنا أتيتك مما تحت يدك بمثل ذلك، وأميزك عنه في الخلعة بثيابي التي عليَّ)[2]. كما أنه مدح بقية الزريعيّين وخواص رجالهم مثل الأديب العندي وبلال المحمدي وولده ياسر بن بلال، كذلك مدح آل أبي عقامة قضاة زبيد[3].

وعندما اتجه عمارة إلى مصر سنة 552هـ/ 1157م جعلها دار إقامته، وفيها مدح الخلفاء والوزراء الفاطميّين، مثل الملك الصالح طلائع بن رزيك[4]. ولعمارة ديوان شعر جيد ورائق ومؤنق يمدح فيه الفاطميّين[5]، أما شعره فيمن مدحهم من اليمن فمفقود، وعلى العموم فشعر عمارة في أغلب ديوانه يدور حول مدح عظماء الفاطميّين من الخلفاء والوزراء والأمراء وأرباب السيوف والأقلام، وحَظِيَ بنو رزيك بأفخم مدائحه في ديوانه، وذلك يعود إلى أنه قال شعره ذلك في مصر[6].

ومن الشعراء المداحين، أو شعراء التكسب بالشعر إن جاز التعبير، الشاعر المعروف بابن مكرمان وهو من أهالي جبال برع، له قصيدة مدح بها الشريف الأمير غانم بن يحيى بن حمزة السليماني صاحب عثر فأثابه عليها بألف دينار وهي من الشعر الجيد والسلطان زكريا بن شكيل بن عبد البحري من بني بحر مدح الملك جياش بن نجاح ملك زبيد[7].

ومن الذين مدحوا الداعي علي بن محمد الصليحي الشاعر عمرو بن

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 280، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 197، د. ذو النون المصري: عمارة اليمني، النهضة المصرية، 1966م، ص: 108، وانظر محمد سعيد جرادة، مرجع سابق، ص: 137 ـ 146.

(2) ذو النون المصري: نفس المرجع والصفحة.

(3) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 198، ذو النون المصري: نفس المرجع والصفحة.

(4) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 198، ذون النون المصري، عمارة اليمني، ص: 48، 115.

(5) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 198.

(6) ذون النون المصري، نفس المرجع، ص: 141، 142.

(7) عمارة: المفيد، ص: 271، 292، 293.

يحيى بن أبي الغارات، ومن الذين مدحوا علي بن مهدي صاحب زبيد وأولاده في تهامة بشعر جيد الشاعر ابن الهبيني[1].

ومن الشعراء المداحين القادمين من خارج اليمن الشاعر مواهيب بن جديد المغربي، مدح الملك المفضل بن أبي البركات الحميري في ذي جبلة سنة 503هـ وكسب منه ومن السيدة الحرة أموالاً كثيرة، ومن ضمن جوائزه أنه مدح المفضل بقصيدة نال عليها ألف دينار، وعندما خرج من اليمن إلى مصر نهبت أمواله في مصوع فذهب كل ماله[2].

ومن الأغراض الشعرية استخدم اليمنيون الشعر في تدوين الكتابة التاريخية فكتبوا عدة قصائد شعرية تاريخية بعضها افتخار قحطان على عدنان، وممن نهجوا هذا النهج الهمداني له: (قصيدة الدامغة وشرحها) ردّ بها معارضاً على قصيدة الكميت بن زيد الأسدي التي هجا بها قحطان ومدح معداً من عدنان، فالقصيدتان عبارة عن مفاخرة فيما بين قبيلتي عدنان وقحطان[3].

ومنهم أيضاً محمد بن عبد اللّه الكلاعي المتوفى أوائل القرن الخامس الهجري، له قصيدتان: **إحداهما**: (قصيدة ذات فنون) وهي قصيدة رائية في ذكر أنساب حمير ومفاخرها نظمها في قصر كحلان من منطقة رعين سنة 404هـ/ 1013م. **والأخرى**: (القصيدة الكلاعية أو القاصمة) ذكر فيها أمراء قحطان ووزرائهم وكبرائهم وعلمائهم وشعرائهم أوردها في حوالي أكثر من ألف بيت[4].

ومنهم خمرطاش، أبو الحسن بن خمرطاش الزبيدي المتوفى سنة 554هـ/ 1159م له (القصيدة الخمرطاشية) وهي في تاريخ اليمن القديم[5].

ومنهم كذلك نشوان الحميري: وهو نشوان بن سعيد الحميري المتوفى سنة 573هـ/ 1177م له (القصيدة الحميرية) في ملوك حمير وأقيال اليمن وشرحها

---

(1) عمارة: نفس المصدر، ص: 277، 323.

(2) عمارة: نفس المصدر، ص: 285.

(3) د. أيمن فؤاد سيد: مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، ص: 74، 75، د. شاكر مصطفى: التاريخ والمؤرخون في اليمن الإسلامي حتى القرن السابع الهجري، مجلة كلية الآداب والتربية، جامعة الكويت، (ع) 13، ص: 102.

(4) د. أيمن فؤاد سيد: نفس المرجع، ص: 76، 77، د. شاكر مصطفى: نفس المرجع، ص: 105.

(5) د. شاكر مصطفى: نفس المرجع، ص: 107.

المسمّى (خلاصة السيرة الجامعة لعجائب أخبار الملوك التبابعة) وله (قصيدة يائية في تاريخ أنسابه)[1]. وهكذا تنوع النشاط الأدبي.

سادساً

مقتطفات من شعر الفترة المحددة للبحث

كان الشعر أحد المواضيع الأدبية الكبيرة التي ألقى فيها الشعراء قصائد كثيرة في أغراض الشعر المتعددة، وخاصة في مجال مدح الأمراء والحكام والسلاطين وغيرهم. وليس هدفنا هنا حصر ذلك الشعر، ولكن نورد نموذجاً شعرياً لبعض أشعار شعراء فترة الدراسة لأخذ فكرة عن شعرهم في الصفحات التالية:

1 ـ أبو عبد الله بن الحسين بن علي القمي: الذي ولد بزبيد وتأدب فيها: من شعره قوله:

الليل يعلم أني لست أرقده ... فلا يغرنك من قلبي تجلده

فإن دمعي كصوب المزن أيسره ... وإن وجدي كحر النار أبرده

لي في هوادجهم قلب أضربه ... قسموه وإلا قمت أنشده

وبان للناس ما قد كنت أكتمه ... من الهوى وبدا ما كنت أجحده

ومن مديحه في الداعي سبأ بن أحمد الصليحي قوله:

كريم إذا جادت فواضل كفه ... تيقنت أن البخل ما يفعل السحب

أجار فلا خوف وأحي فلا ردّي ... وجاد فلا فقر ورام فلا صعب

ويثني على قصاده فكأنه ... يجاد بما يجدي ويحبي بما يحبوا

كتبت إليه والمفاوز بيننا ... فكان جوابي جود كفيه لا الكتب

وما كنت أدري قبل قطع هباته ... إليّ الفيافي أن أنعمه ركب

وله من قصيدة يهنئ بها المكرم بن علي زوج الملكة الحرة بدخوله عليها:

وكريمة الحسبين يكنف قصرها ... أسد تهاب الأسد من صولاتها

وتكاد من فرط الحياء تغض عن ... تمثالها المرأي في مرآتها

ظفرت يداك بها فَبُخٍ إنما ... لك تذكر العلياء مصنوناتها

وله يعاتب جياشاً:

يا أيها الملك الذي ... كل الملوك له رعية

(1) د. أيمن فؤاد سيد: نفس المرجع، ص: 78، 79، عبد الله الحبشي: مصادر الفكر الإسلامي في اليمن، ص: 407، محمد سعيد جرادة: مرجع سابق، ص: 168.

إن كـنـت مـن خـدامـكـم فـعـلام لا أعـطـى جـريـة
أو كـنـت مـن ضـيـفـانـكـم فـالـضـيـف أولـى بـالـعـطـيـة

ومن مراثيه:

لهفي لفقدك لهفاً غير منقطع ما كان أقرب يأسي منك من طمعي
إن تسترح فأنا المبلو بعدك بالأحـ زان أو تسل إنـي دائـم الـجـزع
كيف التداوي بدنيا لست ساكنها أو إغتباطي بعيش لست فيه معي

2 ـ ومن شعر محمد بن زياد المأربي: يمدح أبا السعود بن زريع قوله:

يـا نـاظـري قـل لـي تـراه كـمـا هـو إنـي لأحـسـبـه تـقـمـص لـؤلـؤة
مـا أن بـصـرت بـزاخـر فـي شـامـخ حتى رأيتك جالساً في الدُّمـلُـوة

3 ـ ومن شعر الملك جياش بن نجاح حاكم زبيد قوله:

إذا كـان حُـلـمُ الـمـرء عـون عـدوه عـلـيـه فـإن الـجـهـل أبـقـى وأروح
وفي الصفح ضعف والعقوبة قوة إذا كنت تعفو عن كفور وتصفح

وكتب إليه الحسين بن علي القمي:

يـا أيـهـا الـمـلـك الـذي جـرت لـه غـلـب الـمـلـوك نـواكـس الأذقـان
أتـرى الـذي وسـع الـخـلائـق كـلـهـا يـا ابـن الـنـصـيـر تـضـيـق عـن إنـسـان

فأجابه جياش:

لا والـذي أرسـى الـجـبـال قـواعـدا ذي الـعـزة الـبـاقـي وكـل فـان
مـا إن تـضـيـق بـرحـبـنـا لـك مـنـزل ولـو أنـه فـي بـاطـن الأجـفـان

وله:

تـذوب مـن الـحـيـا خـجـلاً بـلـحـظـي كـمـا قـد ذبـت مـن نـظـري إلـيـكـا
أهـابـك مـلأ صـدري إذ فـؤادي بـجـمـلـتـه أسـيـر فـي يـديـكـا

4 ـ ومن شعر عمرو بن يحيى بن أبي الغارات الهيثمي شاعر الداعي علي بن محمد الصليحي قوله على لسانه:

سلي فرسي عني ودرعي وصعدتي وسيفي إذا ما المشرفية سلت
أنا ابن الربيع المنشدين محمد إذا المعطرات السود بالماء ضنت
وسميت في قومي علياً لأنني علوت فأحذيت الكواكب همتي

وله على لسانه:

الـحـزم قـبـل الـعـزم فـاحـزم وأعـزم وإذا اسـتـبـان لـك الـصـواب فـصـمـم

واستعمل الرفق الذي هو مكسب ... ذكر القلوب وجد وأجمل واحلم
واحرس وشن واشجع وصل وامنن ... وصل واعدل وانصف وارع واحفظ وارحم
وإذا وعدت فعد بما تقوى على ... إنجازه وإذا اصطنعت فتمم

5 ـ كما كان علي بن محمد الصليحي حاكم اليمن شاعراً ومن شعره قوله:

وألذ من قرع المثاني عنده ... في الحرب ألجم يا غلام وأسرج
خيل بأقصى حضرموت أشدها ... وزئيرها بين العراق فمنبج

ومن شعره:

أنكحت بيض الهند سمر رماحهم ... فرؤوسهم عوض النثار نثار
وكذا العلا لا يستباح نكاحها ... إلا بحيث تطلق الأعمار

6 ـ ومن شعر القاضي أحمد بن محمد العثماني قوله:

إن من يعرف أيام الصبا ... صدَّ إذ أبصر شيبي وصبا
والذي تعرف مهري أدهما ... أنكرته إذ رأته أشهبا
فاصرفوا الهم عن أضيافكم ... وخذوا متن عيشنا ما وهبا
ضم شمل الود منا مجلس ... ترقص الأركان فيه طربا
كل سمح الكف لو تسأله ... كلما يملك جوداً وهبا
رب شمطاء تركناها وقد ... ركد الليل وأرخى الطنبا
قالت الطارق من قلت؟ أنا ... واصيحابي وقالت مرحبا

7 ـ ومن مدح الشاعر مواهيب بن جديد المغربي للمفضل بن أبي البركات الحميري قصيدة نال عليها ألف دينار قوله فيها:

هذي الخميلة للربيع المونق ... من وشي ذاك البارق المتألق
فانظر إلى زهر الرياض وضحكها ... من فيض دمع غمامه المترقرق
سكبت عليها السحب شملة مرعد ... وطفا مذهبه بقدحه مبرق
فكأنه الماء فيضي الحيا ... منبجس من عسجدي محرق
غمر الرياض فكل وشي قراره ... منه يزر على غدير متأنق
وكأن جدوله المرقرق صفحة ... سيف تشرب من خلال الغلفق
نشر الربيع عليه مطوى الثرى ... من سندس خضر ومن استبرق
والطل يندو والظل من عذباته ... والورق تسجع في الأراك المورق

8 ـ مدح الشاعر أبو الفتوح بن قلاقس الداعي محمد بن سبأ بقصيدة نال فيها ألف

دينار أولها قوله:

سافر إذا حاولت قدرا	سار الهلال فصار بدرا
والماء يكسب ما جرى	طيباً ويخبث ما استقر
وبنقله الدرر النفيسة	بدلت بالبحر نحرا
يا راوياً عن ياسر	خبراً ولم يعرفه خبرا
أقرأ بغرة وجهه	صحف المنى إن كنت تقرا
والثم بنان يمينه	وقل السلام عليك بحرا
وغلطت في تشبيهه	بالبحر فاللهم غفرا
أو لست نلت بذا غنى	جماً ونلت لذاك فقرا
وعهدت هذا ولم يزل	مداً وذاك يعود جزرا

9 ـ كما مدح القاضي يحيى الداعي عمران بن محمد بن سبأ بقوله:

كرم المكرم يذهل المشتاق عن	أشواقه والصب عن أوطانه
كرم إذا أخبرته وخبرته	حقرت قدر سماعه لعيانه
ليس البحار ولا السحائب تدعي	بسماحهن الجري في ميدانه
يممته والدهر قد بلغت إلى	أقصى المدى مني مدى حدثانه
فأجارني من جوره من لا يرى	أن النجوم أعز من جيرانه
لا يطمع المخلاف فيّ وأهله	لا كنت بعد اليوم من سكانه

10 ـ كذلك مدح الأديب الشاعر أبو بكر العندي الداعي عمران بقصيدة أولها قوله:

فلك مقامك والنجوم كؤوس	بسعوده التثليث والتسديس

ومنها:

والبدر وجهك طالعاً في دسته	لا البدر أجلى وجهه الحنديس
يا داعي الدين الذي أنس العلا	في جنب مغنى منه فهو أنيس
يا واحد العرب الذي يسمو بها	يوم المفاخر بحده القدموس
يا من تطابق فعله ومقاله	فسمي به التطبيق والتجنيس
حق الكواكب أن تكون مدايحاً	لك والبروج صحائف وطروس

وقوله:

حياك يا عدن الحيا حياك	وجرى رضاب لماه فوق لماك
وافتر ثغر الروض فيه مضاحكاً	بالبشر رونق ثغرك الضحاك

ووشت حدائقه عليك مطارفاً ... فاختال في حبراتها عطفاك
فلقد خصصت بفضل سرّ أصبحت ... فيه القلوب وهن من أسراك

ومنها:

وعلام استسقى الحيا لك بعد ما ... ضمن المكرم بالندى سقياك
وهمت مكارمه عليك فصافحت ... عن كفه مغنى الغنا مغناك
وتأرجت رياك مسكاً عندما ... عبقت بريا ذكره رياك

ومنها:

والجود مبتسم الشغور ببذله ... أبداً وبيت المال منه شاك
من دوحة الشرف الزريعي ... رسخت بأصل في المفاخر زاكي

ومن مدائحه فيه أيضاً القصيدة المشهورة التي أولها:

ذكر العذيب ومايلات قبابه ... وقف الفؤاد على أليم عذابه
لله أيام العذيب وإن ثنت ... قلب المعنى المستهام لما به
وسقى ندا كرم المكرم ملتقى ... عقدات أجرعه وشم هضابه
ملك لو استسقى الزمان بجوده ... أغناه من سقيا ملت سحابه
ملك أفاض على الزمان بهاؤه ... فأعاده في عنفوان شبابه[1]

كذلك مدح الشاعر أبو بكر العندي شمس الدولة تورانشاه عندما فتح عدن بقوله:

أعساكر أرسلتها وجنودا ... أم أنجماً أطلعتهن سعودا
أم تلك ماضية العزائم أرهفت ... بالرأي منك وجردت تجريدا
أم تلك أقدار الإله ونصره ... رفعت عليك لواءها المعقودا
فسموت تطوى البيد متسقاً بها ... حتى كادت أن تبيد البيدا
ونهضت لا الصعب المرام رأيته ... صعباً ولا المرمى البعيد بعيدا
واقتدتها قيد الأياطل غادرت ... متن الفلاة بركضها معقودا
شعثاً يطير بها المراح كأنها ... العقبان تحمل في الحديد أسودا
وشهرت نصرك والعائم فالتظت ... منها البلاد تلبها ووقودا
بسيوف بأس لا تفل مضارباً ... وجياد ركض لا تجف لبودا
جردتها من أرض مصر ما ارتضت ... إلا ربا يمن لهن غمودا

---

(1) انظر عمارة: المفيد، ص: 240 ـ 318، تحقيق الأكوع.

حتى صدمت بها زبيد صدمةً كادت تزول عن الوجود زبيدا

11 ـ ومن شعراء تلك الفترة الشاعر عمارة اليمني الذي مدح شمس الدولة تورانشاه بقصيدة وحرضه فيها على فتح اليمن أولها قوله:

العِلْم مذ كان محتاج إلى العَلَم وشفرة السيف تستغني عن القلم
كم تترك البيض في الأجفان ظامية إلى الموارد في الأعناق والقمم
أمامك الفتح من شام ومن يمن في ترد رؤوس الخيل باللجم
فعمك الملك المنصور رسومها من الفرات إلى مصر بلا سأم
فاخلق لنفسك ملكاً لا تضاف به إلى سواك وأور النار في العلم
هذا ابن تومرت قد كانت بدايته كما يقول الورى لحماً على وضم
وقد ترقى إلى أن أمسكت يده من الكواكب بالأنفاس والكظم
حاسب ضميرك عن رأي أتاك وقل نصيحة وردت من غير متهم

وله من أخرى:

أفاتح أرض النيل وهي عظيمة على كل راجٍ فتحها ومؤمل
متى توقد النار التي أنت قادح بغمدان مشبوباً سناها بمندل
وتفتح ما بين الحصين وأبين وصنعاء من حصن حصين ومعقل
وتملك من مخلاف طرف وجعفر نقيضين من حزن خصيب ومسهل
وتخلق ملكاً لا يخيل بفخره على أحد إلا على عزمك العلي

وله من أخرى:

قالوا إلى اليمن الميمون رحلته فقلت ما دونه شيء سوى السفر
سير يسر بني الدنيا وطيب وطول عمر كذا يحكي عن الخضر
لا تُوقدنَّ لها النار التي خمدت خفض عليك تنل ما شئت بالشرر
المال ملء يد والقوم ملك يد ولا أطيل وهذا جملة الخبر[1]

12 ـ ومنهم الشاعر الحسن بن محمد النساخ المُطَّرفي الذي كتب رسالة إلى الخليفة الناصر العباسي يشكو فيها الإمام عبد الله بن حمزة ويطلب منه القدوم للسيطرة على اليمن، مطلعها يقول:

فيا غادياً نحو العراق محثحثاً رحيل زكاة والحياة نصاب
إلى أن ترى بغداد والمنبر الذي به نسب للهاشمي قراب

---

(1) ابن شداد: الروضتين، ص: 216، 217.

ألم بأبراج الخليفة لاثماً عراصاً وما كل التراب ترابا
ثرى مسه العباس ثم رجاله هو المسك والكافور طاب وطابوا
وقل لإمام العصر يا بن خلائف هم حج محجوجة وكعاب
مقام بني العباس مشنق نبعة وعن شيبة الحمد انتضاه نصاب
غدت ملة الإسلام مقصومة العرى وعامر دين الله وهو خراب
تذبح أبناء وتسبى عقائل ضلال ترى في أرضنا وتباب
بنات رسول الله بين بيوتهم سبايا من الستر الجميل سلاب
فدع عنك أرض الروم وانهض لمكة فيسفك فيه مضرب وذباب
فما في قتال الروم فخر وهذه بأظهركم ما في الكلام كذاب
بغير ريب الدهر دين محمد وما راب أديان اليهود مراب

ومما سبق نجد أن الحركة العلمية اتسمت بالنشاط المتزايد في مجالات العلوم المنتشرة آنذاك وأهمها العلوم اللغوية والأدبية والعلوم الدينية واتسعت لتشمل اليمن كله. وكان لها الأثر الكبير على حياة المجتمع اليمني السياسية والدينية والفكرية والحضارية.

المذاهب الإسلامية في اليمن

مرّت بلاد اليمن كغيرها من بلدان العالم الإسلامي بما يمكن أن نطلق عليه مرحلة ما قبل المذاهب واستمرت إلى منتصف القرن الثاني الهجري، وقد بلغت اليمن آنذاك مبلغاً كبيراً في العلم، ذكر لنا ذلك الجندي في عبارته الموجزة بقوله: (كان العلم في اليمن أشهر من سواه)[1] فارتحل إليها لطلب العلم الكثير. منهم سفيان الثوري، وسفيان بن عُيَيْنَة، وابن مبارك وغُنْدَر وهشام بن عروة[2]. كما رحل إليها محمد بن إدريس الشافعي وأخذ عن هشام بن يوسف الأبناوي قاضي صنعاء وغيره[3]، وأحمد بن حنبل الذي وصل إلى عدن ليتلقى العلم على إبراهيم بن الحكم العدني[4].

ويبدو أن الرحلة كانت نتيجة أن الكثير من اليمنيّين كانوا سباقين للذهاب إلى مكة والمدينة لقربهما إليهم، للتفقه على أيدي الصحابة والتابعين، وكانت صفة العلماء آنذاك هي الرحلة إلى بلدان من أخذوا العلم عن الصحابة والتابعين. وخاصة بعد موت أكثر الصحابة.

المرحلة المبكرة للمذاهب في اليمن:

ثم بدأت تظهر المذاهب الإسلامية وتنتشر في الأمصار ومنها اليمن، وممن ساهم في دخول المذاهب إلى اليمن، الإمام أبو قرة موسى بن طارق اللحجي الجندي (203هـ/ 818م)[5] كان فقيهاً حافظاً (وإماماً لمعرفة السنن والآثار)[6]. صنف كتاب (الجامع) في السنن المعروف بـ(سنن أبي قرة) يروي فيه عن أصحاب المذاهب. كما أن له تآليف في الفقه انتزعها من فقه الأئمة الذين لقيهم وأخذ عنهم

---

(1) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 138.

(2) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 66.

(3) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 157، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 34، د. محمد أمين صالح: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 217.

(4) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 66، د. محمد أمين صالح، نفس المرجع والصفحة.

(5) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 69.

(6) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 159، أبو قرة اللحجي أصله من الرعارع في لحج سكن الجند، ابن سمرة، ص: 69، وقد ينسب إليه الزبيدي نسبة إلى سكنه بها. الجندي: السلوك، ص: 159.

وهم الإمام مالك، والإمام أبي حنيفة، والإمام سفيان الثوري، والإمام سفيان بن عيينة، ومعمر، وابن جريج، وكان أبو قرة كثير التردد فيما بين عدن ولحج وزبيد ومكة، وله في كل بلد منها رواية وأصحاب، وكان أهل اليمن قبل دخول الكتب المشهورة إليهم من كتب أهل السُنَّة لا يرجعون إلا إلى سنن أبي قرة وسنن معمر[1].

بعد ذلك عم انتشار المذاهب الإسلامية في اليمن كلها، فأخذت كل منطقة بمذهب معين. ففي القرن الثالث الهجري كان انتشار المذاهب الإسلامية في اليمن على الوجه التالي:

كان الغالب على منطقة ما بين صنعاء إلى صعدة أول الأمر مذهب أبي حنيفة، وكانوا متولين أمر الجوامع فيها، كذلك انتشر حول صنعاء مذهب الإباضية، كما انتشر شمال غرب صنعاء مذهب الباطنية الإسماعيلية، أما في أواخر القرن الثالث منذ سنة 280هـ/ 893م والقرن الرابع الهجريّين فقد انتشر في صعدة مذهب الشيعة الزيدية. كذلك انتشر في نواحي نجد اليمن مذهب سفيان الثوري، وفي المعافر انتشر مذهب أبي المنذر. وفي تهامة انتشر المذهب المالكي حيث كان الأذان فيها يردد على مذهب مالك[2] كما انتشر مذهب مالك في عدن[3]، وأيضاً كانت تكبيرة العيدين في زبيد على أقوال أبي مسعود[4] ومع انتشار المذاهب المختلفة في اليمن، إلا أننا نجد أنه في القرن الثالث الهجري وبداية القرن الرابع (كان الغالب في اليمن مذهب مالك وأبي حنيفة) وكان مذهب أبي حنيفة أكثر انتشاراً[5].

ويرجع فضل انتشار المذاهب في اليمن إلى إرتحال التلاميذ اليمنيّين من اليمن إلى خارجها للدراسة على يد أصحاب هذه المذاهب، وبعودتهم إلى اليمن نشر كل واحد منهم المذهب الذي تعلمه في منطقته، فمثلاً: أدخل مذهب مالك إلى وَصَاب الفقيه يوسف بن موسى بن علي المعروف بالتباعي الحميري، الذي

---

(1) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 69، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 159، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 99.

(2) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 69، د. أيمن فؤاد: تاريخ المذاهب الدينية في اليمن، ص: 57، أبو المنذر: هو أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري كان إماماً مجتهداً، توفي سنة 319هـ/ 931م، الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ1، ص: 336، د. أيمن فؤاد: نفس المرجع والصفحة، هامش رقم (4).

(3) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 132.

(4) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 96.

(5) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 74 ـ 79، د. محمد عبد العال أحمد: الأيوبيون في اليمن، ص: 25، د. أيمن فؤاد: نفس المرجع، ص: 58.

ارتحل إلى المدينة، فأدرك بها مالكاً فأخذ عنه المذهب، ثم أدخله إلى اليمن ونشره بها[1]، كما يرجع فضل انتشار المذاهب أيضاً إلى قدوم بعض أصحاب هذه المذاهب إلى اليمن واستقراراهم بها. وسوف نستعرض مذاهب أهل اليمن الدينية خلال فترة الدراسة في الصفحات التالية:



المذهب الشافعي

أما عن المذهب الشافعي فقد بدأ باليمن بداية بسيطة في القرن الثالث الهجري[2] ثم ظهر أكثر وضوحاً إبان القرن الرابع الهجري[3]، مبتدئاً من المعافر والجند على يد عدة فقهاء أدوا دوراً بارزاً في تدريس الفقه الشافعي ونشره. وعلى رأسهم الفقيه المعافري موسى بن عمران الخداشي السكسكي (من أعيان القرن الثالث والرابع الهجريّين روى كتاب (المنتقى في السنن)) عن مؤلفه موسى بن أبي الجارود المكي المتوفى في (القرن الثالث) والذي بدوره روى كتاب الأمالي عن الشافعي[4]. وقد استقر موسى بن عمران المعافري يدرس مذهب الشافعي في قرية (المَلْحَمة) قرب الجند. فكان يتردد عليه الكثير من الطلاب من أماكن متعددة من اليمن، مثل المعافر والجند، ومخلاف جعفر، لدراسة الفقه[5]، مكن ذلك جماعة كثيرة منهم من دراسة مذهب الإمام الشافعي ثم نشره في اليمن.

ومن المتقدمين أيضاً في نشر مذهب الشافعي وقتذاك الفقيه عبد اللّٰه بن علي الزرقاني المتوفى في رجب 371هـ/ 981م ارتحل إلى مكة سنة 353هـ/ 964م للدراسة بها، فأخذ مذهب الشافعي عن الأسيوطي عن الطحاوي المصريّين عن

---

(1) الأهدل: تحفة الزمن، ص: 299.

(2) أحمد شرف الدين: تاريخ اليمن الثقافي، جـ4، ص: 40، د. محمد الدجيلي: الحياة الفكرية في اليمن، ق 6، ص: 21.

(3) د. محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 25.

(4) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 80، 81، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 277، أحمد شرف الدين: نفس المرجع، ص: 51، د. محمد الدجيلي: نفس المرجع، ص: 21، 22.

(5) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 250، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 171، أورد يحيى ابن الحسين في كتابه غاية الأماني اسماً آخر عن أول من نشر مذهب الشافعي في الجند ومخلاف جعفر في القرن الثالث الهجري، هو عمر بن محمد الحواشي السكسكي وربما حدث نوع من التصحيف فيما بين الحواشي والخداشي، جـ1، ص: 203. لم أعثر على ترجمة للحواشي في المصادر التي اطلعت عليها.

المزني عن الشافعي[1]. ثم عاد إلى اليمن وسكن قرية الصردف شرق الجند، فأخذ عنه المذهب كثير من اليمنيّين[2].

وممن ساهم في نشر المذهب الشافعي أيضاً في نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجريّين الفقيه أبو عبد اللّه محمد بن يحيى بن سراقة العامري ت (410هـ/ 1019م) ارتحل إلى العراق فأخذ عن ابن اللبان في البصرة علم الفرائض[3]. وتفقه في بغداد على أبي حامد الإسفرائيني، ثم ارتحل إلى مكة ومنها عاد إلى اليمن وسكن المعافر فألّف كتاباً سمي (كتاب المبتدئ في علم الفرائض) وتتلمذ عليه الكثير من أهل اليمن في مذهب الشافعي منهم أبو الفتح يحيى بن ملامس[4].

كما ساهم أيضاً في نشر مذهب الشافعي في زبيد في هذه المرحلة الفقيه أبو بكر بن المُضَرَّب الذي تفقه بشافعي آخر هو ابن المثنى، وهذا بدوره تفقه عن المروزي[٥].

ثم تأتي مرحلة زيادة انتشار مذهب الشافعي في القرن الخامس الهجري على يد الفقيه القاسم بن محمد الجمحي القرشي المتوفى بسهفنة (537هـ/ 1045م) وتلاميذه. والذي يعد من أهم الفقهاء الذين دَرَّسُوا مذهب الشافعي ونشروه في اليمن. فقد وصفه الجندي بقوله: (كان هذا القاسم من علماء اليمن وعظمائهم انتشر عنه المذهب انتشاراً كاملاً وطبق الأرض بالأصحاب حتى لم يكن لأحد في المتقدمين من أهل اليمن أصحاب كأصحابه كثرة وفضلاً)[6].

تفقه القاسم باليمن على يد عبد اللّه بن علي الزرقاني، وتفقه بأبي بكر بن المضرب في زبيد (بمختصر المزني) وشيء من شروحه. كما تفقه بالفقيه عبد العزيز بن يحيى (أو ربحي في المعافر، ثم عاد إلى سهفنة، فأسس فيها مدرسته الفقهية)[7].

---

(1) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 253، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 173.

(2) الأهدل: تحفة الزمن، ص: 172.

(3) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 257، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 174، د. محمد الدجيلي: المرجع السابق، ص: 22.

(4) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 91.

(5) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 88، 89، المروزي: هو القاضي أبو حامد أحمد بن عامر بن بشر المروزي، نفس المصدر.

(6) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 265، كما وصفه ابن سمرة بقوله: (كانت الشفعوية وكتبها وشيوخها قبل القاسم بن محمد القرشي وأصحابه غير مشهورة في اليمن)، ابن سمرة: طبقات، ص: 80.

(7) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 88، 89، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 264، د. محمد الدجيلي: المرجع السابق، ص: 23، 24.

لم يكتف القاسم بما أخذه من العلم في اليمن بل ارتحل إلى مكة سنة 388هـ/ 998م، فلقي بها الفقيه أبا بكر أحمد بن إبراهيم المروزي، فأخذ عنه كتاب (السنن لأبي داود) وأخذ عنه (موطأ مالك) وأخذ أيضاً (مختصر المزني) عن البردعي النيسابوري عن المزني، كما أخذ علم القراءات ومعاني القرآن عن أحمد المقرئ النيسابوري[1].

ولما عاد إلى اليمن اصطحب مع زميله الفقيه أحمد بن عبد اللّه الصعبي الفقيه الحسين بن جعفر المراغي من مكة إلى سهفنة باليمن، فأخذ فيها عن المراغي (سنن المزني) و(سنن الربيع) وتآليف المراغي في علم الكلام، لذلك جمع القاسم بين عدد من العلوم مثل الفقه والحديث وعلم الكلام وأصول الفقه وعلم القراءات ومعاني القرآن[2].

وفي أثناء استقرار القاسم في سهفنة للتدريس (قصده الطلاب من أنحاء اليمن. من صنعاء ونواحيها، والجند ونواحيها، ومن عدن، وأبين، ولحج، ونواحيها، ومن المعافر، والسُّحُول، وأُحَاظَة، ومخلاف جعفر، كوادي ظُبَأ وشَقَب وبحرانة ونواحي هذه الأماكن)[3].

لذلك يعتبر القاسم أشهر من نشر مذهب الشافعي في القرن الخامس الهجري وقد عده ابن سمرة بأنه (إمام أئمة الشافعية من صنعاء وعدن)، كما وصفه بقوله: (وهذا الفقيه القاسم، هو الذي انتشر عنه مذهب الشافعي في مخلاف الجند وصنعاء وعدن ومنه استفاد فقهاء هذا المذهب في هذه البلاد)[4] فبواسطته وتلاميذه انتشر فقه المذهب الشافعي خلال القرن الخامس الهجري في عموم اليمن، في فترة معاصرة حكم الدولة الصليحية في صنعاء ثم ذي جبلة، وبني زريع في عدن.

ومن أهم تلاميذه الذين ساهموا في تدريس المذهب ونشره هم: من المعافر (إسحاق العشاري ت (460هـ/ 1067م)) ومن الظُرَافة (جعفر بن عبد الرحيم المحابي ت (460هـ/ 1067م)) ومن وادي ظبأ (عمرو بن إسحاق المصوع وأبو الخير محمد بن كديس ت (508هـ/ 1114م)) ومن الصَّلْو (عبد الملك بن

(1) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 89، 90، الجندي: نفس المصدر، ص: 265.

(2) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 90، الجندي: نفس المصدر، ص: 265.

(3) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 88، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 264، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 281.

(4) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 87، 88.

محمد بن ميسرة اليافعي المتوفى في رجب (493هـ/ 1099)) وغيرهم الكثير[1].

ومن تلاميذ تلاميذه من (الظرافة) أبو بكر بن جعفر المحابي ت (500هـ/ 1106م) تفقه بأبيه جعفر المحابي، ومن (الصردف) إسحاق بن يوسف بن يعقوب الصردفي ت (505هـ/ 1111م) تفقه أيضاً بجعفر المحابي[2] وغيرهما، فكان لهؤلاء وغيرهم مساهمة كبيرة في نشر وتدريس المذهب الشافعي في اليمن.

كما كان الإمام زيد بن عبد الله بن جعفر بن إبراهيم اليافعي المعافري ت (514هـ/ 1120م) من أهم من نشر فقه المذهب الشافعي في هذه الفترة، ويعد شيخ المصنفين وأحد عيان علماء اليمن وشيخ أشياخ فقهاء الزمن[3].

تفقه باليمن بصهره الشيخ إسحاق بن يوسف الصردفي، فقرأ عليه علم الفرائض والمواريث والحساب، ثم قرأ عند الإمام أبي بكر بن جعفر المحابي كتاب (الفروع) لسليم بن أيوب الرازي. ثم ارتحل إلى مكة للمرة الأولى فدرس الفقه على الإمامين الفقيهين الحسين بن علي الطبري مصنف (العدة) وأبي نصر البندنيجي مصنف (المعتمد في الخلاف) كما درس عليهما مصنفاتهما ومصنفات شيخهما أبي إسحاق الشيرازي مصنف (المهذب) في فقه الشافعي[4].

ولما عاد إلى (الجند) في عهد حاكمها من قبل الصليحيّين الأمير المفضل بن أبي البركات الحميري. اجتمع إليه للتفقه في مذهب الشافعي الكثير من التلاميذ من نواح شتى من اليمن حتى تجاوز عددهم ما بين المائتين[5]، والثلاثمائة طالب[6]. لأنه كان يقوم بالانفاق على معظم طلابه، ويعتبر الإمام زيد اليفاعي أول من أدخل كتب الشيخ أبي إسحاق الشيرازي الشافعي إلى اليمن مثل (المهذب) و(اللمع) و(التنبيه)[7].

ثم حدث خلاف مع شيخه الإمام أبي بكر المحابي في الجند حول تولي

---

(1) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 94 ـ 97، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 270 ـ 274.

(2) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 103، 106، 107، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 282، 283.

(3) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 119، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 203، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 207، أصله من المعافر سكن الجند، قيل أنه توفي سنة 514هـ/ 1120م، وقيل أنه توفي سنة 515هـ/ 1120م، الجندي: السلوك ، جـ1، ص: 310.

(4) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 119، 120، الجندي: نفس المصدر والصفحة، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 207، 208.

(5) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 120.

(6) الجندي: السلوك جـ1، ص: 304، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 208.

(7) الأهدل: تحفة الزمن، ص: 213.

قضاء الجند وإمامة مسجدها، وذلك بسبب الفتنة التي أحدثها بينهما الأمير المفضل بن أبي البركات الحميري، فاضطر إلى الرحيل عن اليمن للمرة الثانية إلى مكة فمكث بها اثنتي عشرة سنة تولّى خلالها رئاسة التدريس والفتوى بها، ثم عاد إلى اليمن بعد موت المفضل وذلك سنة 512هـ/ 1118م[1].

وعقب عودته قدم إليه الكثير من التلاميذ من أنحاء اليمن للدراسة والتفقه في مذهب الشافعي، فاجتمع عنده ما يزيد على مائتي طالب من تهامة، وحضرموت، وعدن، ولحج، وأبين والمعافر، والسحول، ونواحي الجند، وغيرها[2]، وكان غالب تدريسه في هذه المرة في بيته نتيجة كبر سنه وشيخوخته[3].

ومن ضمن من قدم إلى اليمن لنشر المذهب الشافعي في هذه المرحلة الفقيه أبو عبد اللّه محمد بن عبدويه النهرواني (ت. 523هـ/ 1128م) تفقه في بغداد بالإمام أبي إسحاق الشيرازي بكتاب (المهذب) و(بمسائل الخلاف) و(في الأصول والجدل) ثم سافر من بغداد إلى اليمن فسكن في عدن في عهد آل زريع ثم ارتحل إلى جزيرة كمران[4].

ومن ضمن من ارتحل إليه لدراسة مذهب الشافعي، الفقيه عبد اللّه بن أحمد بن محمد الزبراني من زَبَرَان، ورافقه الفقيه عبد اللّه بن يحيى الصعبي من سهفنة، سنة 505هـ/ 1111م، ورحل إليه زيد بن الحسن بن محمد الفائشي من أُحاظة، وعمر بن علي بن أسعد السلالي من نَخْلان، وعيسى بن عبد العزيز بن أبي قرة وأخوه عبد اللّه من أبين ولحج، وراجح بن كَهلان من زبيد[5]، كما رحل إليه من غيرهم الكثير.

كذلك كان يحيى بن أبي الخير العمراني (489 ـ 558هـ/ 1095 ـ 1162م)، من بين من اشتهروا بالفقه وعملوا على نشر مذهب الشافعي وقد بدأ حياته العلمية بقراءة القرآن الكريم في بلده (سير) ثم تفقه على خاله أبي الفتوح بن عثمان بن

---

(1) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 122، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 308، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 212، قيل عاد إلى اليمن من مكة في سنة 512هـ/ 1118م، وقيل سنة 513هـ/ 1119م، والأهدل: نفس المصدر، ص: 112.

(2) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 152، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 318.

(3) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 309.

(4) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 144، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 223.

(5) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 149، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 324، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 224.

أسعد بن عمران. فأخذ عنه (الكافي في الفرائض) للصردفي[1]. ثم تفقه بموسى الصعبي فأخذ عنه (التنبيه)[2].

ولما قدم إلى (سير) الفقيه عبد اللّٰه بن أحمد الزبراني باستدعاء من مشايخها أخذ عنه يحيى بن أبي الخير (المهذب) و(اللمع) لأبي إسحاق الشيرازي و(الملخص) و(الارشاد) لابن عبدويه، كما أعاد عليه (كافي الفرائض) للصردفي[3].

ثم ارتحل يحيى بن أبي الخير إلى الإمام زيد بن الحسين الفائشي بأحاظة فأخذ عنه (التعليق) في أصول الفقه، و(الملخص) لأبي إسحاق، وفي اللغة أخذ عنه (غريب الحديث) لأبي عبيدة، و(مختصر العين) للخوافي، و(نظام الغريب) للربعي وغير ذلك في مسائل الدور والخلاف. ورحل إلى ذي السفال فأخذ الفقه عن عمرو بن بيش اللحجي، و(كافي النحو) لأبي جعفر الصفار، و(الجمل) للزجاج. كما أخذ عنه علم الدور[4].

وعندما وصل الإمام زيد اليفاعي من مكة إلى الجند ارتحل إليه يحيى بن أبي الخير كغيره ممن ارتحلوا إليه من أهل اليمن، فسمع عنده كتاب (النكت) وأخذ عنه (المهذب) للمرة الثالثة. وبعد موت الفقيه زيد اليفاعي، انتقل يحيى إلى سهفنة فقرأ عند القاضي مسلم بن أحمد الصعبي كتاب (الحروف السبعة) في علم الكلام والتوحيد وأصول الدين تأليف الشيخ الحسين بن جعفر المراغي[5].

وفي سنة 517هـ/ 1123م انتقل يحيى إلى ذي أشرق فسمع بها (الجامع للسنن) تصنيف الترمذي عن الشيخ سالم بن أحمد بن سالم[6]. كما سمع كتاب (التبصرة) في علم الكلام وأصول الدين تصنيف أبي الفتوح في مدرستي الشيخين الإمامين زيد بن الحسن الفائشي، وزيد اليفاعي، والمدرستان تنقلانه عن الشيخ أبي نصر البندنيجي[7].

---

(1) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 174، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 340، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 238.

(2) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 175.

(3) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 175، الجندي: نفس المصدر والصفحة، الأهدل: نفس المصدر والصفحة.

(4) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 175، الجندي: السلوك جـ1، ص: 340، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 238.

(5) ابن سمرة: نفس المصدر والصفحة، الجندي: نفس المصدر والصفحة.

(6) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 175، 176، الجندي: نفس المصدر والصفحة.

(7) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 177.

كذلك ابتدأ الإمام يحيى في سنة 517/ 1123م بمطالعة (شروح المزني) وكتب أخرى مثل (المجموع) للمحاملي و(الشامل) لابن الصباغ وكتاب (الفروع) لسليم الرازي، و(شرح المولدات) للقاضي ابن الطيب، و(العدة) للقاضي حسين الطبري و(الإبانة) و(شرح التلخيص) لأبي علي السنجي[1].

وفي سنة 521هـ/ 1127م ارتحل الفقيه يحيى بن أبي الخير إلى مكة للحج، فالتقى بها بالفقيه الإمام محمد بن أحمد العثماني الدمياطي، فناظره وذاكره في مسائل الفقه والأصول. ولما عاد إلى اليمن استمر في تدريس فقه الشافعي في منطقة (سير) إلى سنة 549هـ/ 1154م. . وعندما حدث حرب وفتن فيما بين أهل (سير) تعذر عليه البقاء بها فانتقل إلى ذي السفال، ثم إلى ذي أشرق. وأقام بها سبع سنين، وفي أثناء وجوده بها انتقل إليه فقهاء تهامة هاربين من ابن مهدي[2]. فأقاموا عنده أياماً طويلة مطمئنين بوجودهم معه. إلا أنه حدث خلاف بين فقهاء تهامة وفقهاء ذي أشرق بسبب مناظرة كلامية في المعتقدات أدّت إلى تكفير بعضهم البعض[3].

وفي سنة 554هـ/ 1159م قدم إلى إب القاضي جعفر بن أحمد بن عبد السلام المعتزلي الذي أحضر كتب المعتزلة من العراق بغرض مناظرة الشافعية في اليمن الأسفل، فأرسل إليه الإمام يحيى تلميذه علي بن عبد اللّه بن عيسى بن أيمن الهرامي لمناظرته.

فاجتمع معه في حصن شُوَاحِط[4]، فناظره الهرامي حتى قطعه في عدة مسائل[5]، فعاد إلى صنعاء دون مقدرته من مناظرة الشافعية.

وعندما أغار عبد النبي على الجند وبواديها سنة 557هـ/ 1161م خرج الإمام يحيى من ذي أشرق خوفاً منه إلى (ضَرَاس) ثم ذهب إلى ذي السفال وبها توفي سنة 558هـ/ 1162م[6].

ومن أعمال الإمام يحيى أبي الخير تصنيف الكتب، فقد أشار عليه الإمام زيد اليفاعي بمطالعة جميع الشروح واستخراج الزوائد منها عن (المهذب) بعد ذلك بدأ جمع كتابه (الزوائد) سنة 517هـ/ 1123م، وانتهى منه سنة 520هـ/ 1126م[7]. بذلك

(1) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 176.
(2) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 177 ـ 179، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 240.
(3) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 342، 343.
(4) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 180.
(5) الأهدل: تحفة الزمن، ص: 241.
(6) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 179.
(7) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 179، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 341.

يكون الإمام يحيى قد بدأ في تأليف الكتب قبل ارتحاله إلى مكة، مما يدل على أن اليمن آنذاك قد بلغت مرحلة متطورة في العلم.

وعندما عاد الإمام يحيى من مكة إلى اليمن بدأ في تصنيف كتابه (البيان) في سنة 528هـ/ 1133م وانتهى منه سنة 533هـ/ 1138م، ورتبه على نمط ترتيب (المهذب)، وكان كتاب (البيان) من أشهر الكتب الفقهية في اليمن ويقع في حوالي عشرة مجلدات، وقد وصفه بعض المحققين له بقولهم: (إنه انتحل الشروح المفيدة والأدلة السديدة والمسائل العتيدة، والأقيسة الأكيدة، وضمنه الكتاب المذكور)[1].

كذلك اشتهر كتاب (البيان) خارج اليمن، فلما قدموا به إلى بغداد، وضع في أطباق الذهب وطيف به مزفوفاً داخل العراق. وقد قال جماعة من أهلها عن الكتاب (ما كنا نظن في اليمن إنساناً حتى قدم (البيان) بخط علوان)[2]. كما وصفه ابن سمرة بقوله: (فكان كتابه (البيان) كاسمه بياناً وللعلماء هدى وتبياناً)[3].

وفي سنة 549هـ/ 1154م صنف كتاب (مشكلات المهذب)[4] كما صنف كتاب (الانتصار في الرد على القدرية الأشرار)[5] وقد بالغ الإمام يحيى بالرد على المعتزلة والأشاعرة في هذا الكتاب[6]. وكان سبب تأليفه ما أثاره القاضي الزيدي المعتزلي جعفر بن عبد السلام من فتنة الخوض في علم الكلام في إب سنة 554هـ[7].

وهكذا كانت حياة الإمام يحيى بن أبي الخير العلمية حافلة بالكثير من الأعمال في مجال التدريس والتصنيف.

ومن أهم تلاميذ الإمام يحيى الذين عملوا على نشر مذهب الشافعي وتدريسه، ابنه الفقيه طاهر بن يحيى بن أبي الخير (518 ـ 578هـ/ 1124 ـ 1191م)[8]. وكذلك الفقيه الأجل سيف السُنَّة (زين الحنبلية) أحمد بن محمد بن عبد اللّه بن مسعود البريهي السكسكي (ت 585هـ/ 1189م) الذي سكن إب. وقد تفقه بالإضافة إلى الإمام يحيى بكل من الإمام زيد اليفاعي، والحافظ علي

---

(1) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 345.

(2) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 345، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 243.

(3) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 182.

(4) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 342، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 243.

(5) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 180.

(6) الأهدل: تحفة الزمن، ص: 241.

(7) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 180، كما صنف الإمام يحيى في ذي أشرق كتاب (غرائب الوسيط)، و(مختصر من أحياء علوم الدين) ابن سمرة، ص: 181.

(8) ابن سمرة: المصدر السابق، ص: 186، 187.

العرشاني[1]، ولما ارتحل سيف السُنَّة أحمد البريهي إلى مكة سنة 580هـ/ 1184م سمع فيها (صحيح مسلم) فلما رجع إلى اليمن دَرَّسَه في كل من إب وذي جبلة، ولما نزل الجند اجتمع إليه الكثير من الطلاب لدراسة (صحيح مسلم) من ظبأ وذي أشرق، وأعمال الجند وغيرها[2].

من خلال عرض مجموعة الفقهاء السباقين يتضح لنا كيف كان هؤلاء الفقهاء يدرسون العلوم ويُدَرِّسُونَهَا، والكتب التي كانت تُدَرَّس وطريقة التدريس، وطريقة نشر فقه ومذهب الإمام الشافعي في اليمن، كذلك كيف كان نشاطهم العلمي والتأليفي ورحلاتهم داخل وخارج اليمن وكيفية اجتماع التلاميذ حولهم وعلاقتهم ببعضهم البعض.

والجدير بالذكر أن حكام اليمن من الصليحيّين والزريعيّين أتاحوا الحرية الكاملة لأهل المذاهب السنية، أن يمارسوا نشاطهم المذهبي كيفما يشاءون، فلم يحاولوا العمل على محاربتهم من أجل تغيير مذهبهم، باعتبار أن مذاهبهم مذاهب إسلامية، ليسوا على خلاف كبير معهم من الناحية الدينية، ولكن الخلاف بينهم كان حول مفهوم السلطة والحكم، إذ أن لكل مذهب إسلامي مفهوماً سياسياً حول السلطة. كان هذا المفهوم أكثر شدة وارتباطاً بالمذهب عند الشيعة منه عند أهل السُنَّة. لذلك ترك الصليحيون لأهل السُنَّة الحرية في نشر مذهبهم بل والاستعانة بهم في تولي مناصب القضاء في كافة المناطق التي دخلت تحت سيطرتهم في اليمن[3]، أي أن السلطة الدينية في عهد الصليحيّين كانت في يد أهل السُنَّة، في حين كانت السلطة السياسية إسماعيلية. وذلك بسبب أن معظم السكان الذين حكمهم الصليحيون كانوا من أهل السُنَّة. لذلك تركوا لهم الحرية الدينية يحلون مشاكلهم من واقع مذهبهم.

الشافعية والسلطة:

على أن الحال لم يخل من بعض الصدام بين فقهاء السُنَّة الشافعية وأمراء الإسماعيلية من الصليحيّين، فقد أقدم الفقيه عبد اللّه بن عمر بن المصوع على قتل الأمير خالد بن أبي البركات أثناء ولايته للتعكر في ذي جبلة[4]، وذلك بسبب

---

(1) الأهدل: تحفة الزمن، ص: 266، 267.

(2) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 190.

(3) عمارة: المفيد، ص: 121 ـ 123.

(4) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 96، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 276، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 187، 188.

الخلاف المذهبي فيما بينهما حيث كان الأمير خالد على مذهب الروافض وهم الإسماعيلية الباطنية[1]. ووجود القاضي الإسماعيلي لمك بن مالك الحمادي الذي درس المذهب الإسماعيلي بمصر مدة خمس سنوات، وعاد إلى اليمن بمساعدة الوالي خالد، حيث تولَّى القاضي لمك آنذاك قضاء ذي جبلة[2]. بالإضافة إلى انتشار سب السلف الصالح من الخلفاء الراشدين عند الشيعة الإسماعيلية في ذي جبلة وحراز، إذ أن اليمن كلها لم تعرف سب الخلفاء الصحابة إلا في مركزي الإسماعيلية بكل من حراز وذي جبلة[3] فأثار ذلك غضب فقهاء السُّنَّة وعلى رأسهم الفقيه عبد اللّه بن عمر المصوع الذي أقدم على قتل والي التَّعْكُر خالد بن أبي البركات. ولما خلفه أخوه المفضل في تولي حصن التعكر، قام بالثأر لأخيه من فقهاء الشافعية، فقتل المذكور وصادر أمواله وسبى بنيه[4]. فأدّى ذلك إلى خوف الكثير من فقهاء الشافعية في ذي أشرق، وظبأ، ونخلان، فهرب بعضهم منه ومن ضمن من هرب من فقهاء الشافعية في ذي أشرق، الفقيه إبراهيم بن عباد والفقيه زيد بن الحسن الفائشي[5].

ومن جهة أخرى حاول الأمير المفضل بن أبي البركات أن يدخل الفتنة فيما بين فقهاء الشافعية في الجند، والتي كان يوجد بها إمامان فقيهان لكل واحد منهما مدرسة ولكل مدرسة آراؤها الفقهية التي تمثل حزباً قائماً بذاته، وهما مدرسة الإمام زيد اليفاعي ومدرسة الإمام أبي بكر بن جعفر المحابي. فحاول الأمير المفضل في فتنته بينهما أن يولي مدرسة الإمام زيد قضاء الجند وإمامة مسجدها ونظر الأوقاف بها لمدة شهر ثم يعزلهم، ويولي مدرسة الإمام أبي بكر المحابي. وهكذا سار في التولية والعزل، حتى أدّى ذلك إلى نشوب الخلاف والفتنة فيما بين الإمامين والمدرستين. مما اضطر الإمام زيد اليفاعي إلى الهجرة إلى مكة للمرة الثانية، فمكث بها مدة اثنتي عشرة سنة تولَّى فيها رئاسة التدريس والفتوى. ثم عاد إلى اليمن سنة 512هـ/ 1118م بعد أن مات المفضل بن أبي البركات[6].

---

(1) الأهدل: تحفة الزمن، ص: 187.

(2) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 234.

(3) الأهدل: تحفة الزمن، ص: 73.

(4) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 96، الجندي: نفس المصدر والصفحة، الأهدل: نفس المصدر والصفحة.

(5) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 156.

(6) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 121، 122، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 308، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 209، 212، بامخرمة: قلادة النحر، جـ1، ص: 664.

كما استمر الصراع في عهد المفضل بن أبي البركات، حيث حاول فقهاء السُنَّة الاستيلاء على حصن التعكر، وذلك في أثناء نزول المفضل إلى زبيد لمساعدة أولاد فاتك النجاحي في استعادة سلطتهم على زبيد من أبناء عمومتهم. فلما علم المفضل باستيلاء الفقهاء على حصن التعكر بمساعدة بعض القبائل، عاد مسرعاً من زبيد إلى ذي جبلة. ولكنه لم يتمكن من استعادة الحصن فقد مات عقب وصوله[1] مباشرة وقيل مات مسموماً[2]، وربما يعود قتله بالسم من قبل رجال السُنَّة انتقاماً منهم على ما فعله بفقهاء أهل السُنَّة وعلى مخالفته مذهبهم.

كذلك ربما يرجع قتل السلطان أسعد بن أبي الفتوح الحميري ابن عم المفضل ابن أبي البركات في حصن صبر بتعز سنة 514هـ/ 1120م، بسبب مخالفته مذهب أهل السُنَّة وتأييده مذهب الإسماعيلية[3].

وفي عهد بني مهدي عملوا على عداء المخالفين لهم فيما اتخذوه من مذاهب فحدث أن تعرض أهل السُنَّة إلى قتل وتشريد، فعندما استولى ابن مهدي على زبيد وتهامة سنة 554هـ/ 1150م، هرب الكثير من فقهاء زبيد إلى الجبال حيث استقروا في ذي أشرق عند الإمام يحيى بن أبي الخير الذي أكرمهم فأنِسُوا بالمكوث عنده[4].

ومن ضمن من هرب منهم من زبيد إلى عدن لنفس السبب الفقيه أبو عبد اللَّه محمد بن عبد اللَّه بن قريظة[5] والفقيه حسين المقيبعي[6]، ومن هرب منهم متنقلاً من مكان إلى آخر. الفقيه أبو الحسن علي بن أحمد بن علي اليهاقري انتقل من الجند إلى العوادر شرق الجند فمكث بها حتى توفي سنة 558هـ/ 1162م[7]، والإمام يحيى بن أبي الخير انتقل من ذي أشرق إلى ذي السفال، والفقيه طاهر بن يحيى بن أبي الخير ارتحل بأسرته إلى مكة فمكث بها سبع سنين ثم عاد إلى اليمن[8].

وعندما قدم الأيوبيون إلى اليمن سنة 569هـ/ 1173م أزالوا كل الدويلات المذهبية في كل من عدن، وذي جبلة، وزبيد، وصنعاء. ومنذ ذلك الحين

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 158.

(2) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 97.

(3) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 153.

(4) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 342، د. محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 59 ـ 67.

(5) الأهدل: تحفة الزمن، ص: 279.

(6) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 375.

(7) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 380، 381، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 277.

(8) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 179 ـ 187.

أصبحت السلطة السياسية لصالح أهل السُنَّة في اليمن بالإضافة إلى السلطة الدينية، ففي عهدهم دخل التعليم مرحلة جديدة وهي مرحلة الدراسة في المدارس فساهم ذلك في نشر مذهب أهل السُنَّة في مناطق سلطة الأيوبيّين السياسية في كل من تهامة والهضبة الجبلية ما بين صنعاء وعدن، التي انتهى منها مذهب الإسماعيلية، فلم يعد بعد ذلك لهم وجود في تلك المنطقة منها ذي جبلة التي كانت أحد مراكز الإسماعيلية الرئيسية حيث استقر بها في العهد الأيوبي الكثير من أهل السُنَّة حتى أصبح غالب السكان بها في عهدهم من أهل السُنَّة[1].



ثانياً
المذهب الزيدي

ارتبط نشر المذهب الزيدي في اليمن بالأئمة الزيدية أنفسهم أي أننا لا نستطيع فصل نشر المذهب الزيدي عن سيطرة الأئمة الزيدية على مناطق اليمن وتوسعهم فيها. أو عن تاريخهم السياسي وهذا موضوع طويل ليس هذا مجال البحث فيه ولكننا هنا نعطي أمثلة عن انتشار المذهب الزيدي عن طريق أئمته. وعلى ذلك فقد بدأ دخول المذهب الزيدي إلى اليمن في أواخر القرن الثالث الهجري على يد الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين، عندما قدم إليها بناء على استدعاء من قبائل صعدة الموالين للعلويّين. فقد كانت قبائل خولان صعدة منقسمة فيما بينها إلى فريقين: الأكيليون وعلى رأسهم آل عباد كانوا موالين للخلافة العباسية، والفطيميون كانوا موالين للعلويّين. وعلى أثر خلاف فيما بين القبيلتين ذهب الفطيميون إلى المدينة المنورة لطلب الإمام الهادي إلى الحق، فقدم إلى اليمن سنة 280هـ/ 893م وفي سنة 284هـ/ 897م بايعوه إماماً عليهم وناصروه، واستقر الإمام بصعدة وأصبح الفطيميون عماد دولته وأولاده من بعده، وعليهم كان قيام الدولة الزيدية وبدايتها نكاية منهم لأعدائهم الأكيليّين أنصار الخلافة العباسية[2].

يتضح من ذلك أن الدعوة للإمام الهادي لم تكن صادرة من عامة قبائل اليمن، بل كانت من قبائل خاصة هم خولان صعدة[3]، لذلك ظلت صعدة أهم

---

(1) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 356.

(2) الهمداني: الإكليل، جـ1، ص: 329، د. محمد أمين صالح: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 149، الفطميون من سعد بن سعد بن خولان، والأكيليون من الربيعة بن سعد من خولان، الهمداني: الإكليل جـ1، ص: 307، 327.

(3) د. محمد أمين صالح: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 149.

مركز للزيدية، وفيها عمل الإمام على حل الخلاف فيما بين القبيلتين الكبيرتين من أهل خولان[1].

كما كان توسعه نحو نجران بنفس الطريقة بأنه عمل على حل الخلاف، فأصلح فيما بين (بني الحارث) من جهة و(شاكر) و(يام) و(الأحلاف) من جهة أخرى الذين كانوا على عداء مع بعضهم البعض[2].

وهكذا كانت بداية وجود الزيدية في اليمن على يد الإمام الهادي إلى الحق، عن طريق حل المشاكل القبلية، فأدّى ذلك إلى طاعة تلك القبائل له وتأسيس دولته التي استمرت طوال العصر الإسلامي، لأن الظروف كانت مناسبة لنجاح قيام الدولة الزيدية في اليمن آنذاك، فمن الناحية الخارجية سيطر الأتراك على أمر الخلافة العباسية[3]، واضطربت الأحوال فيها فضعفت[4]، وذلك نتيجة ظهور ثورتي الزنج في البصرة والقرامطة في البحرين فلم تستطع الخلافة العباسية أن تقدم لأنصارها في اليمن أي دعم أو مساعدة بسبب ما تعرضت له، فتركتهم يحلون مشاكلهم بأنفسهم.

ومن الناحية الداخلية كانت القبائل اليمنية في صعدة ونجران وغيرهما يسودها العداء والفتن والحروب لم تستطع حل مشاكلها، فكان ذلك فرصة مناسبة للإمام الهادي أن يدخل اليمن ويعمل على الصلح فيما بين قبائلها ويستقر بها. كما أن بني يعفر أعوان الخلافة العباسية في اليمن كانوا غير قادرين على منع الإمام من دخول اليمن بسبب الضعف الذي حل بهم. وذلك يتضح من خلال عدم مقدرتهم على حل مشاكل عداء القبائل مع بعضها البعض. إضافة إلى ذلك ما ساد اليمن من قحط وجدب أثّر في إمكانيات دويلاتها من عدم توفير الأموال اللازمة والجند لحماية البلاد[5].

والزيدية هم (أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي ساقوا الإمامة في أولاد فاطمة عليها السلام ولم يجوزوا الإمامة في غيرهم)[6]. ويتضح من ذلك أن مفهوم الزيدية السياسي هو أن يكون الإمام عدلاً فاطمياً أي من نسل كل من الحسن

---

(1) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، جـ1، ص: 167، د. محمد أمين صالح: نفس المرجع والصفحة.

(2) يحيى بن الحسين: نفس المرجع والصفحة.

(3) د. محمد أمين صالح: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 149.

(4) محمد عبد الله ماضي: دولة اليمن الزيدية، المجلة التاريخية المصرية، 3، (1950م)، ص: 23.

(5) د. محمد أمين صالح: نفس المرجع، ص: 149، 150.

(6) الشهرستاني: الملل والنحل، جـ1، ص: 207، د. محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 36.

والحسين وفي نطاق بني فاطمة[1]. ولا يتولّى السلطة منهم إلا من كان مجتهداً بلغ درجة الإمامة في العلوم الدينية. لذلك كان أغلب من يتولّى الإمامة عند الزيدية علماء مجتهدون[2]، أما من لم يبلغ الإمامة وأعلن الخروج يعد محتسباً. ومن ضمن مفهوم الزيدية السياسي أيضاً أنهم يجوزون ولاية المفضول مع وجود الأفضل، إذا كان به مصلحة عامة للمسلمين. كما جوزوا خروج إمامين في وقت واحد، إذا كانا في بلدين متباعدين، أما عصمة الإمامة والاعتراف بنظرية المهدي المنتظر فهم لا يقرون بها[3].

ويطلق على الزيدية في اليمن (الزيدية الهادوية) نسبة إلى الإمام الهادي الذي يعتبر عالماً مجتهداً في المذهب الزيدي، والذي أسس له مذهباً خاصاً به في الفروع، وقد (خالف جده الإمام زيد بن علي على ما في مذهبه ولم يتقيد بأقواله)[4]. أي أن الإمام الهادي سار في الأصول على حسب مذهب الإمام زيد أما الفروع فقد اجتهد بها[5]، وهذا يرجع إلى اشتراط الزيدية في الإمامة الاجتهاد وعدم التقيد بمذهب من سبقوهم[6].

وقد تأثر الإمام الهادي والزيدية عموماً بآراء المعتزلة في أصول الدين وعلم الكلام، لأن الإمام الهادي نفسه كان تلميذاً للشيخ أبي القاسم البلخي المعتزلي المتوفى سنة 319هـ/ 931م[7]. كما تأثرت الزيدية بمذهب أبي حنيفة في الفقه وفروعه، فصار أقرب مذاهب أهل السُنَّة إلى الزيدية[8]. أو أن الزيدية صارت أقرب المذاهب إلى أهل السُنَّة.

وقد أدّى الإمام الهادي ومن أتى بعده من الأئمة دوراً بارزاً في نشر المذهب الزيدي في اليمن ابتداء من صعدة ونواحيها. وقد خاض رجال الزيدية معارك عدة مع كل من الأباضية والإسماعيلية في الهضبة الواقعة ما بين صعدة وصنعاء، حتى

(1) د. أمين صالح: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 148.

(2) محمد عبد اللّه ماضي: دولة اليمن الزيدية، ص: 22، د. محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 34 هامش رقم 2.

(3) د. محمد أمين صالح: نفس المرجع، ص: 148.

(4) يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، ق 5أ.

(5) يحيى بن محمد المقرائي: نزهة الأنظار في ذكر أئمة الزيدية الأطهار، دار الكتب المصرية ميكروفيلم رقم 358، ق16.

(6) محمد عبد اللّه ماضي: دولة اليمن الزيدية، ص: 21.

(7) يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، ق 5أ.

(8) يحيى بن الحسين: نفس المصدر، ق 24أ، محمد عبد اللّه ماضي: نفس المرجع والصفحة.

استطاعوا أن يحولوا معظمهم إلى مذهب الزيدية الهادوية تارة بالقوة وتارة بالتهديد وأخرى بالإقناع، أما بقية القبائل فقد اعتنقوا المذهب عن تعلمهم له.

غير أننا نجد في نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجريّين أن الزيدية الهادوية في اليمن افترقت إلى ثلاث فرق، فرقة سميت مُخْتَرِعة، وهي التي تقول باختراع الأعراض، وفرقة مُطَرِّفِيَة، وهي التي تقول بحدوث العالم وأن العالم يحيل ويستحيل، وفرقة حسينية نسبة إلى الحسين بن القاسم العياني (ت. 404هـ/ 1013م) والتي ادّعت أنه المهدي المنتظر، ونتيجة لهذا الانقسام دخلت الزيدية المطرفية والزيدية المخترعة في صراع فكري حول العقيدة تلاه صراع عسكري في عهد الإمام عبد اللّه بن حمزة، والذي أجبر الكثير من المطرفية على ترك مذهبهم والعودة إلى مذهب الاختراع كما سيتضح فيما بعد.

قبيل قيام الدولة الصليحية عام 429هـ/ 1037م خلت اليمن من أئمة زيدية، غير أنه قدم إلى اليمن بداية قيام الدولة الصليحية إمام زيدي لنشر المذهب الزيدي بها هو أبو الفتح الديلمي، فحاول نشره في كل من البون شمال صنعاء وصعدة وصنعاء وذمار، إلا أن الداعي علي الصليحي لم يترك له فرصة لاستمرار إمامته في اليمن، وجمع شمل الزيدية تحت لوائه. فاتجه إليه وقتله سنة 444هـ/ 1052م بنجد الحاج في بلاد عنس[1].

وكذلك عمل على نشر المذهب الزيدي في عهد الصليحيين كل من الشريف الفاضل وأخيه ذي الشريفين، وكان هذان الشريفان أهم من قاما بنشر المذهب الزيدي في هضبة شمال صنعاء في عهد علي الصليحي وابنه المكرم. وقد ظل الشريفان يصارعان الدولة الصليحية مدة حياتهما، فتارة يتصالحان معها وأخرى يدخلان في حرب معها، فلما سعى علي الصليحي لتكوين دولته نهض إليه الشريف الفاضل وأخوه وأبوهما بمساعدة بعض رؤساء همدان لمقاومة الصليحي، فخاضوا معه عدة معارك. كان آخرها المعركة التي حدثت في منطقة (الهرابة) انتهت بانتصار علي الصليحي[2]. بعدها توقفت الحرب بينهما إلى أن قتل علي الصليحي سنة 559هـ/ 1066م فعادو الشريفان الحرب مع الصليحيين في عهد المكرم على أثر قتل أبيه مباشرة، واستطاع الشريفان أن يسيطرا على بلاد وادعة وبكيل مما اضطر المكرم إلى أن يعقد صلحاً معهما بأن يكون نقيل عجيب الحد الفاصل بين الزيدية

(1) المحلي: الحدائق الوردية، ص: 104، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 71، 72.

(2) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ق 13 أ، حسين الهمداني: الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، ص: 82.

والإسماعيلية، وذلك بسبب اتجاه المكرم لاستخلاص أمه من أسر آل نجاح لها[1]، كذلك استطاع الشريفان أن يوجدا للزيدية مراكز هامة هي شهارة، والجوف وصعدة[2].

وهكذا سيطرت الزيدية على معظم هضبة شمال صنعاء، برغم أن الصليحيّين في بعض الأحيان كانوا يصلون إلى صعدة والجوف ويحكمونها لبعض الوقت إلا أن الزيدية سرعان ما تستولي عليها وتعيد سيطرتها على تلك المناطق.

وعندما سقطت الدولة الصليحية بموت السيدة الحرة سنة 532هـ/ 1137م ظهر الإمام أحمد بن سليمان يدعو إلى نفسه بالإمامة حسب مفهوم الزيدية، فبايعه الكثير منهم، وسيطر على كل من صعدة وأعمالها ونجران، والجوف والظاهر[3]، فساهم الإمام أحمد بن سليمان مساهمة كبيرة في نشر مذهب الزيدية في هذه الأماكن، حتى إن بعض المؤرخين يعدونه مؤسس الدولة الزيدية الثانية باليمن[4]، كذلك ساهم في فترة الإمام أحمد بن سليمان في نشر المذهب الزيدي في شهارة الأشراف آل القاسم[5]، وبذلك أصبحت هضبة شمال صنعاء في عهد الإمام أحمد بن سليمان في الغالب تحت سيطرة المذهب الزيدي.

وممن قدم إلى اليمن من فقهاء الزيدية الفقيه زيد بن الحسن البيهقي قدم من خراسان 540هـ/ 1145م بدعوة من عُلَيْ بن حمزة السليماني، وذلك عندما ظهر باليمن مذهب المطرفية. كذلك قدم بعلوم أهل البيت من الزيدية من الجبل والديلم الفقيه عبد اللّه العنسي سنة 501هـ/ 1107م وخاصة كتب الإمام المؤيد باللّه أحمد بن حسين الهاروني (ت. 411هـ/ 1020م)[6].

ومن أهم من ساهموا في نشر المذهب الزيدي من اليمنيّين من غير الأئمة الزيدية في عهد الإمام أحمد بن سليمان هو القاضي جعفر بن عبد السلام (ت. 573هـ/ 1177م) والذي يعد أهم علماء الزيدية الهادوية المخترعة. وقد كان أبوه عالم الباطنية (الإسماعيلية) وحاكمها، وأخوه عيسى شاعرهم، قتله ابن مهدي.

---

(1) أحمد المطاع: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 185.

(2) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، جـ1، ص: 262 ـ 269.

(3) المحلي: الحدائق الوردية، ق 126، الخزرجي: العسجد، ص: 74.

(4) د. أيمن فؤاد سيد: تاريخ المذاهب الدينية في اليمن، ص: 265.

(5) الخزرجي: العسجد المسبوك، ص: 82، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، جـ1، ص: 316، 317.

(6) يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، ق 59، 60، د. أيمن فؤاد سيد: تاريخ المذاهب الدينية في اليمن، ص: 256، 265.

وكان القاضي جعفر المذكور يميل أول الأمر إلى المطرفية[1]، إلى أن قدم القاضي زيد البيهقي سنة 540هـ/ 1145م من خراسان إلى اليمن فحوله من الزيدية المطرفية إلى الزيدية المخترعة[2]، وقد أشار كل من الفقيه زيد والإمام أحمد بن سليمان على القاضي جعفر الذهاب إلى العراق للتفقه بمذهب الزيدية وعلومهم، فرافق القاضي جعفر في رحلته إلى العراق. وقد أوضح صاحب طبقات الزيدية أن سبب ذهاب القاضي جعفر إلى العراق هو اختلاف اليمن الأعلى وافتراقها إلى زيدية مطرفية وزيدية مخترعة[3].

وعندما وصل القاضي جعفر إلى العراق وجد من بقي من الزيدية بها قد صاروا على عقائد المعتزلة، وذلك لانتشار مذهب الاعتزال بها، وتقارب الأصول الاعتقادية فيما بينهم وبين الزيدية، فقرأ على المعتزلة كتاب البهشمية وغيرها من كتب الفقه والحديث، وعند عودته إلى اليمن سنة 554هـ/ 1159م اصطحب معه الكثير من كتب المعتزلة وبعض كتب الحديث مثل الأمالي في الحديث وأمالي أبي طالب الهاروني (ت. سنة 424هـ/ 1032م) وأمالي السيد المرشد بالله (ت. سنة 537هـ/ 1142م) ونحو ذلك من الكتب. ويعد القاضي جعفر أول من أخرج كتب المعتزلة إلى اليمن[4].

وبعد عودة القاضي جعفر من العراق دَرَّسَ بصنعاء ثم اتجه إلى منطقة سَنَاع وهي قرية أكثر سكانها زيدية مطرفية، وذلك لتدريس المذهب الزيدي بها ونشره فوصله إليها الكثير من الناس من مناطق كثيرة يدرسون فقه المذهب الزيدي[5].

وقد حاول القاضي جعفر في مدرسة سناع مهاجمة عقائد المطرفية، فغضبت المطرفية لذلك، وكتبوا إلى جميع أصحابهم بهجاء القاضي واتهموه بأنه باطني ابن باطني، فطلب منهم المناظرة وقال لهم: (تعالوا إلى المناظرة ويظهر كل منا ما عنده بين يدي حاكم، فقالوا ومن الحام؟ فقال لهم: إمام الزمان أحمد بن سليمان)[6]، فرفضوا المناظرة على اعتبار أن الإمام أحمد بن سليمان إماماً زيدياً لا يعترفون بإمامته، ولا يمكن أن يكون حكماً فيما بينهم في عقائدهم المطرفية.

---

(1) يحيى بن الحسين: نفس المصدر، ق 60، د. أيمن فؤاد: نفس المرجع، ص: 265.
(2) د. أيمن فؤاد: نفس المرجع، ص: 256.
(3) يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، ق 64 أ، ب.
(4) يحيى بن الحسين: نفس المصدر والصفحة.
(5) يحيى بن الحسين: نفس المصدر والصفحة.
(6) يحيى بن الحسين: نفس المصدر والصفحة.

وعندما دخل الأيوبيون اليمن تمكنوا من القضاء على مذهب الإسماعيلية، والإباضية، وحاولوا القضاء على المذهب الزيدي. ولكن الزيدية حافظت على بقاء مذهبهم في اليمن بواسطة ظهور الأئمة الزيدية، في فترات ضعف الأيوبيّين، فعندما توفي طغتكين الأيوبي سنة 593هـ/ 1196م ظهر الإمام عبد اللّٰه بن حمزة سنة 594هـ/ 1197م في (ثلا) داعياً إلى نفسه بالإمامة، فبايعه الكثير من الزيدية[1]، فسيطر على صعدة وما حولها وعلى الجوف، وقد ساعد الإمام في بسط سيطرته على تلك المناطق تمرد الأيوبيّين على المعز إسماعيل وانضمامهم إليه. فقد تمكن بواسطتهم دخول صنعاء في فترات صراعه مع المعز إسماعيل إلا أنه سرعان ما استعادها الأيوبيون.

خاض الإمام عبد اللّٰه بن حمزة عدة معارك شديدة مع والي صنعاء وردشار الأيوبي منها يوم نصف، الذي قتل فيه أخوه، إبراهيم بن حمزة، ويوم عقار في البَوْن الأعلى، ويوم في بلاد رَذمار، الذي تمكنت فيه القوى الأيوبية من إجبار الإمام على المصالحة بدفع أتاوة مالية لهم مع وضع حدود فاصلة فيما بينهم هي البَوْن الأعلى والأسفل للأيوبيّين، والظاهران والجَوف وصعدة للإمام عبد اللّٰه بن حمزة[2].

وهكذا استطاع الإمام الزيدي الاحتفاظ ببعض مناطق اليمن ليستمر فيها المذهب الزيدي، علاوة على التوسع في مناطق أخرى في وقت ضعف الأيوبيّين كما ذكرنا، فعندما توفي الملك الناصر سنة 611هـ/ 1214م سار الإمام إلى صنعاء وطرد الحامية الأيوبية منها، وفي عهد شاهنشاه الأيوبي وصل إلى ذمار[3]، وهكذا نجد الإمام عبد اللّٰه بن حمزة قد حاول التوسع في نشر المذهب الزيدي في العهد الأيوبي. وحدث العكس في عهد الملك المسعود الأيوبي، الذي تمكن من تقليل نفوذ الإمام الزيدي في صنعاء وما حولها، فاستولى على الكثير من مناطق الزيدية عدا منطقة صعدة، التي ظل الإمام مسيطراً عليها إلى وفاته سنة 614هـ/ 1217م، وبعد موته تمكن المسعود الأيوبي من دخول الجوف والظاهر ثم صعدة[4].

ومن هذا كله يتضح لنا أن أهم منطقة انتشر فيها المذهب الزيدي آنذاك هي

---

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 172، زبارة: أئمة اليمن، جـ1، ص: 113، د. محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 159، محمد الحداد: تاريخ اليمن العام، جـ3، ص: 70.

(2) الخزرجي: العسجد، ص: 177، 178، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 407، 408.

(3) الخزرجي: العسجد، ص: 180، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 411.

(4) الخزرجي: العسجد، ص: 182، 183، د. محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 159 وما بعدها.

هضبة شمال صنعاء وخاصة صعدة. وقد ظلت الزيدية في أغلب فتراتها مسيطرة عليها محافظة على بقاء المذهب الزيدي في هذه المنطقة، كما حاول الزيدية مراراً نشر المذهب الزيدي خارج تلك المنطقة إلا أنها كانت فيما بين المد والجزر.

ثالثاً

المُطَرَّفِيَّة

كانت بداية ظهور المُطَرفيَّة المبكر هو أواخر القرن الرابع الهجري زمن أبي طالب الأخير وفي عهد القاسم العياني[1]، الذي أصبح إماماً للزيدية فيما بين (388 ـ 393هـ/ 998 ـ 1002م) على أثر الخلاف الذي حدث فيما بين علي بن شهر أحد علماء الزيدية المخترعة، الذي كان يسكن (بيت أكلب) بجبال عيال يزيد[2]، وبين علي بن حرب الذي كان يسكن (ريدة) والذي تربت على يديه المطرفية. وهو أن علي بن شهر كان يعتقد بأن اللّه يخترع الأعراض في الأجسام أي أن اللّه يخلق الأصول والفروع معاً، بينما يعتقد علي بن حرب بأن اللّه خلق الأصول وخلق فيها الطبائع وهذه الطبائع هي التي تغير نفسها بنفسها، أي أن الأصول تخلق الفروع عن طريق الإحالة والاستحالة[3].

أما ظهور المُطَرِفية بشكل أساسي كفرقة، فقد كان في بداية القرن الخامس الهجري بظهور مُطَرّف بن شهاب الذي عمل على تأسيس فرقة المطرفية، وذلك حينما اتجه مع صاحبين له إلى (سناع) وبنيا فيها مدرسة لتدريس آراء المطرفية. ومن هنا بدأ تأسيس قواعد مذهبهم (بأن قالوا إن العالم يحيل ويستحيل) بعد ذلك بدأت المطرفية في الانتشار والتوسع حتى ضمت قبائل كثيرة في اليمن[4].

أما عن مطرف بن شهاب العبادي نفسه الذي نسبت إليه الفرقة المطرفية فكان يسكن بيت حَنْبَص ونواحيه، ويعمل في حرث أرضه، ثم كره ذلك العمل فاتجه

---

(1) يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، ق 41 أ.

(2) علي بن الحسين: ذوب الذهب، ق 140أ، يحيى بن الحسين: نفس المصدر والصفحة، علي بن شهر هو صاحب القول بالاختراع، مسلم اللحجي، ص: 29، وهو رئيس المخترعة وسموا مخترعة لقولهم باختراع الأعراض في الأجسام، يحيى بن الحسين: نفس المصدر، ق 37ب.

(3) يحيى بن الحسين: نفس المصدر، ق 39ب، علي بن حرب كان غزير العلم وهو القائل بأن العالم يحيل ويستحيل وهو مدرس مطرف بن شهاب الذي تنتسب إليه المطرفية، يحيى بن الحسين: نفس المصدر، ق 39 ب، 41أ.

(4) يحيى بن الحسين: نفس المصدر، ق 40ب، د. أيمن فؤاد: تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن، ص: 346.

إلى طلب العلم مستعيناً بما لديه من مال فسار نحو صنعاء فتعلم بها علوم القرآن وعلم التجويد وغيرها من العلوم الدينية، ومن ضمن من تعلم عليه الفقيه علي بن حرب في (ريدة) كما أخذ الاعتقاد إلى الهادي عن علي بن محفوظ، وكان المطرف قد بايع الحسين بن القاسم بالإمامة (في دار معين) ثم اشترك معه في قتل رجل، بعدها أنكر مطرف هذا الفعل فرجع عن القول بإمامة الحسين بن القاسم[1].

فلما أراد علي الصليحي الذهاب إلى الحج في إحدى حجاته، أراد أن يأخذ معه مُطَّرَف بن شهاب، كما أخذ معه غيره من ذوي الجاهات والسلطان في اليمن، لأن الصليحي أراد في سفره ذلك (أن لا يترك أحداً من اليمن ذوي رئاسة يخشى منه إلا أخذه في صحبته). خوفاً من أن يثوروا بعده على السلطة، وكان مطرف أحد تلك الشخصيات التي كان يخاف منها. أرسل علي الصليحي رسوله زيد بن دغفان الشهابي إلى مطرف الذي كان آنذاك يسكن في (مَدَر) من مشرق حاشد. فاعتذر إلى الرسول وقال له: (اعتذر لي بما تراه) فعاد الرسول إلى الصليحي وقال له: إن مطرف مريض. فقال الصليحي للرسول: (ارجع إليه وأحمله إليّ مريضاً) فرجع الرسول إلى مطرف فقال مطرف له: (لا آتيه أبداً وليكن ما يكون) فرجع الرسول إلى الصليحي وقال له إن مطرف (مريض ثقيل المرض) لا يقدر التحرك من فراشه[2]. من ذلك يتضح لنا مدى أهمية مطرف عند الصليحي وخوفه منه لتمتعه بسلطة سياسية واسعة عند المطرفية، كما تدلنا على كيفية تعلم مطرف الذي أصبح رئيساً للمطرفية كمذهب، وكيف بدأ بنشره.

وكان انتشار المطرفية في جهات (بني شهاب) و(وَقَش) و(هجرة قاعة)، و(سناع)[3]. كما انتشرت في بني الضُرَيْوه في (ثُلاء) على رأسهم الشيخ راشد بن الجنبي، و(الأَهْنُوم) و(هجرة الظهراوين بشَظَب) و(حَضُور)[4]. إضافة إلى (سودة شَظَب) و(الرَّجْو). وهكذا انتشرت المطرفية في شمال غرب صنعاء أو مغارب اليمن الأعلى. وظلت المطرفية في عهد الدولة الصليحية تزداد انتشاراً في تلك المناطق، وذلك نتيجة عدم مقاومة الصليحيّين لهم بتركهم الحرية لدينهم. وعدم وجود أئمة زيدية آنذاك تعمل على إقناعهم لترك مذهب المطرفية.

ولما تولّى إمامة الزيدية المخترعة الإمام أحمد بن سليمان سنة 533هـ/ إلى

(1) يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، ق 41 أ ب.
(2) يحيى بن الحسين: نفس المصدر والصفحة.
(3) يحيى بن الحسين: نفس المصدر، ق 57ب.
(4) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ق 96.

سنة 566هـ/ 1137 ـ 1170م، طلب عُلَيّ بن حمزة، القاضي زيد البيهقي القدوم من خراسان إلى اليمن لمجابهة المطرفية الذين كثر انتشارهم بها، وربما كان ذلك بإيعاز من الإمام أحمد بن سليمان، فقدم القاضي زيد سنة 540هـ/ 1145م كما أشرنا سابقاً ودَرَّسَ في صعدة لمدة سنتين، ثم عاد إلى العراق، مصطحباً معه القاضي جعفر بن عبد السلام لدراسة المذهب الزيدي والاعتزالي بها[1].

ونورد هنا بعض صراع المطرفية مع القاضي في سبيل نشر المذهبين. فلما عاد القاضي جعفر من العراق بكتب المعتزلة ودراسة المذهب الزيدي اتجه إلى مكان وجود المطرفية (بسناع) فأسس بها مدرسته الزيدية الإعتزالية. ومن هنا بدأ الصراع بين الزيدية المخترعة والزيدية المطرفية باعتبار (سناع) من أهم مناطق المطرفية، فقد حاولت مدرسة القاضي جعفر سب المطرفية، في حين سبت المطرفية القاضي جعفر واتهمته بأنه باطني ابن باطني، ولما طلب منهم المناظرة تحت إشراف الإمام أحمد بن سليمان رفضوا المناظرة لأنهم لا يعترفون بإمامته[2].

ثم حدث صراع فيما بينهم في مدرسة (سناع) الذي كان مقرها الجامع، فقد قام بعض الأشراف ذات ليلة بإطفاء سراج المطرفية، فقامت المطرفية بإطفاء مصباح القاضي فتسبب هذا الحادث في مشاجرة كلامية بينهم، انسحب على أثرها القاضي من الجامع إلى بيته، فرجمت المطرفية بيته في الليل، فلما بلغ الإمام أحمد بن سليمان ما لقيه القاضي جعفر من المطرفية، نهض يطوف البلاد وينهي الناس عن مذهب المطرفية، ويحذرهم عقابه لهم، فأثر ذلك على كثير من الناس فنفروا عن مذهب المطرفية[3]، وهكذا استخدم الإمام أحمد بن سليمان أسلوب الإقناع أيضاً عن طريق إبراز عقائد المطرفية وتوضيح بطلانها.

ويبدو أن استخدام مسجد المطرفية نفسه (بسناع) كمدرسة للمخترعة كان مقصوداً من قبل القاضي جعفر بغرض مجابهة المطرفية، أثار ذلك غضبهم باعتبار أن المسجد مدرستهم. واستمرت معارضة المخترعة للمطرفية يومياً كما أن طلبهم المناظرة، أدى إلى بداية الصراع فيما بينهم. ولقد استفادت المخترعة بمساعدة السلطة السياسية لها، وهو الإمام أحمد بن سليمان لذلك لم تجرؤ المطرفية الدخول في المناظرة، لأنه بمجرد حدوث الخلاف

---

1) يحيى بن الحسين: نفس المصدر، ق 64 أ، د. أيمن فؤاد: تاريخ المذاهب الدينية في اليمن، ص: 265.

2) يحيى بن الحسين: نفس المصدر، ق 64.

3) يحيى بن الحسين: نفس المصدر والصفحة.

في الرأي أياً كان الخلاف سيؤدي إلى صراع مؤكد وهذا في غير صالحهم.

واستمر أسلوب طلب المناظرة والإقناع بالحجة والبرهان والدليل فيما بين الزيدية المخترعة والمطرفية في عهد الإمام عبد اللّه بن حمزة الذي تولّى إمامة الزيدية فيما بين 593 ـ 614هـ/ 1196 ـ 1217م. والذي كان في البداية لا يميل إلى تكفير المطرفية، فأنشأ مدرسة له في ذَمَرْمَر تدرس المذهب الزيدي. كانت تناظر المطرفية، فتطورت المناظرة إلى سباب فيما بين الطرفين. فقد كانت مدرسة ذَمَرْمَر تسب المخالفين لهم وعلى الأخص المطرفية وتؤذيهم مما أثار غضب المطرفية على الإمام، فأدّى ذلك إلى التشاحن فيما بين الطرفين[1].

ثم رأى الإمام أن أسلوب المناظرة لم يعد كافياً لإقناع المطرفية لما تحتاجه المناظرة من وقت طويل في الإقناع[2]، فحكم بكفرهم وأباح دماءهم وأمر بقتالهم[3]، وبدأ ذلك بعد أن أجريت الهدنة فيما بين الإمام عبد اللّه بن حمزة والأمير وردشار والي صنعاء من قبل الأيوبيّين سنة 599هـ/ 1202م[4] حيث أتاحت له تلك المهادنة فرصة التفرغ لجهاد المطرفية[5]، فاتجه الإمام إلى منطقة (مدرع) فجمع أهلها وأعلن ردّة المطرفية وكفرهم[6]. وكان الغرض من عمله هذا إشعار القبائل بحكمه على المطرفية، لمنع أي فرد الدخول معهم أو مساعدتهم، وأن حربه ضدهم يعد واجباً دينياً.

بعد هذا التفكير للمطرفية جرت محاولة إقناع المطرفية بأداء الطاعة للإمام فاتجهت جماعة من كبار أهل (مدرع) ومشايخهم إلى المطرفية بهجرة (قاعة) يعرفونهم بحكم الإمام ضدهم وينصحونهم بطاعته والتسليم له قبل إعلان الحرب عليهم[7].

أما أهل هجرتي (وَقش) و(سَنَاع) فقد استنكروا إصدار الإمام حكم التكفير

(1) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ق 88.
(2) يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، ق 57أ.
(3) د. محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 244، عبد الغني عبد المعطي: عوامل الصراع السياسي المذهبي، مجلة الإكليل عدد 2، السنة 5، 1408هـ/ 1987م، ص: 76.
(4) يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، ق 57أ ب، د. محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 193.
(5) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ق 88.
(6) يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، ق 57أ ب.
(7) يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، نفس الصفحة.

ضدهم فاتجهوا يحرضون أصحابهم على حربه[1]، فبايعوا الشريف يحيى بن منصور بن المفضل من أولاد الهادي من المطرفية إماماً عليهم، وذلك لمعارضة إمامة عبد اللّه بن حمزة وذلك سنة 599هـ/ 1203م إلا أنه سرعان ما مات سنة 600هـ/ 1203م في هجرة (وَقَش) فاختاروا أخاه بعده إماماً لهم. ففي سنة 610هـ/ 1213م تزعم المطرفية أخوه هذا وهو محمد بن منصور بن المفضل الهادوي الملقب بالمشرقي. وكان من أشد آل البيت تعصباً للمطرفية[2] فحرضهم على حرب الإمام، فأرسل الإمام لمحاربته أخاه يحيى بن حمزة[3]. ومع ذلك فقد أبدى الإمام استعداده للمناظرة بعد تكفيرهم، فدعا المطرفية من أهل هجرة (قاعة) للمناظرة عنده، وإن رفضوا المناظرة تركوا مذهب المطرفية ودخلوا مذهب أهل البيت[4].

لم تستطع المطرفية قبول المناظرة بعد تكفيرهم فهرب شيخ المطرفية الفضيلي إلى مسور عندما علم بقدوم الإمام إلى البلاد الحمرية خوفاً من طلبه مناظرته أما كبار علمائهم الآخرين مثل الحملاني، وعلي بن يحيى فقد رفضوا أن يتقدموا للمناظرة وطلبوا من أهل (مدرع) أن يبعثوا جماعة منهم ممن هم على غير عداء مع الإمام ولا يخشون بطشه وسطوته عليهم للدفاع عنهم[5].

ولما عجزت المدافعة عنهم وعدم استطاعتهم للحضور لمناظرة الإمام لخوفهم من بطشه نتيجة إعلانه ردّتهم وكفرهم، وأن الإمام مشدد عليهم بالمناظرة أو الإستسلام فقد أعلن أهل هجرة (قاعة) الاستسلام له وخروجهم عن مذهب المطرفية، فبعث الإمام القاضي شرف الدين إبراهيم بن أحمد الفهمي وجماعة من الأشراف يشهدون خروجهم عن مذهب المطرفية[6]. ثم دخل الإمام هجرة (قاعة) وأقام في التدريس بها الفقيه محمد بن أحمد المحلي وبذلك أصبحت هجرة (قاعة) تحت سيطرة الإمام وبدأت عملية إنهاء المطرفية[7].

---

(1) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، جـ1، ص: 397، 398، ومن ضمن من استنكر منهم أحد زعمائهم وهو راشد بن محمد الصفري الجنبي وهو الذي نشر مذهب المطرفية في الأهنوم، وتولى أمرهم بها، وهو شيخ النفحة (الذين قالوا بأن اللّه خلق العالم نفحة واحدة وجعل بعضه يحيل بعضاً، ولم يبق له تدبير في خلق ولا نظر في بريته) فحث المطرفية على حرب الإمام، الربعي: سيرة ذي الشرفين، ق 95، 97.

(2) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ق 109.

(3) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، جـ1، ص: 397، 398.

(4) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ق 127. (5) الربعي: نفس المصدر والصفحة.

(6) الربعي: نفس المصدر والصفحة، يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، ق 57.

(7) يحيى بن الحسين: نفس المصدر، 57.

كان أول ما بدأ الإمام بالقتل للمطرفية عندما وجد أحد شيوخ المطرفية وكبارهم وهو علي بن موسى الغيلاني، الذي كان يذهب إلى إنكار المفاضلة فادَّعى (أن اللّه ساوى بين النبي واليهود وما اختص نبيه ﷺ بفضل ولا اجتباه لرسالة). أمام ذلك أمر الإمام بقتله، كما أمر بقتل أحد كبار المطرفية وهو حسان بن نعمة عندما قدم إلى حوث هارباً من مكة والتي كان ينشر بها مذهب المطرفية. كما أن الإمام اتجه إلى إجبار المطرفية إلى البيعة له، وهي تعني خروجهم عن مذهب المطرفية وتسليمهم بمذهب الإمام، فعندما قدمت جماعة منهم إلى حوث تريد الحج سألهم الإمام عن معتقدهم فخافوا منه وأنكروا مذهب المطرفية، فأجبرهم على البيعة له، وعندما حاول رجل منهم رفض البيعة له قتله، فأشاعت المطرفية أنه (ناظر الإمام فاستظهر عليه فقتله)[1].

وتابع الإمام قتل المطرفية والتنكيل بهم فرادى وجماعات، ففي سنة 611هـ/ 1214م قام بهدم مساجد المطرفية بسَنَاع وَوَقَش[2]، كما قام بهدم دورهم ومساكنهم والتي حملت أخشابها إلى قاهرة ظَفَار، وأخرج أهل وَقَش إلى بلاد أنِس وخولان وذهبوا كل مذهب[3]. ونتيجة لما جرى للمطرفية من قتل وتنكيل أرسل أحدهم وهو ابن النساخ برسالة إلى الخليفة العباسي: يخبره بما جرى لهم من قبل الإمام ويطلب منهم المدد لإنقاذ اليمن منه[4].

حاولت المطرفية الاستعانة بالقوى المعادية للإمام عبد اللّه بن حمزة فذهبت المطرفية على رأس أحد كبار علمائهم وهو الشريف أبي الفتح بن محمد العباسي يطلبون المساعدة ضد الإمام من وردشار الأيوبي، إلا أنه لم يقدم لهم أية مساعدة بسبب صلحه معه من ناحية وعدم ثقته بهم من ناحية ثانية. كما ذهبت المطرفية إلى السلطان بشر بن حاتم فحاول بشر أن يشجع المطرفية ضد الإمام واستمرارهم في الظهور عليه[5]. وهكذا كان العداء شديداً بين الإمام والمطرفية.

أما عن فكرة تكفير المطرفية فهناك رأيان: رأي يتزعمه الإمام عبد اللّه بن حمزة يرى: (أنهم كفار تصريحاً ولا يفرق في ذلك بين دار الحرب ودار الكفر في حق المطرفية وأهل الجبر ونحوهم من المشبهة). بل زاد في حق المطرفية بأن قال

---

(1) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ق 89، 93، 95.
(2) يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، ق 38أ، علي بن الحسين: ذوب الذهب، ق 140أ.
(3) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، جـ1، ص: 400.
(4) د. محمد عبد العال: الأيوبيون، ص: 244.
(5) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ق 93، 96.

إنهم (زادوا على كفار المجوس والنصارى وكذا المجبرة ويحكم عليهم حكم المحاربين وسار فيهم بذلك)[1].

وهناك رأي آخر قال به بعض الزيدية مثل الأمير المعتضد يحيى بن منصور بن مفضل وأخوه الأمير محمد بن منصور بن مفضل، وابنا أخيه والإمام يحيى بن حمزة والفقيه علي بن عبد اللّه بن أبي الخير الصائدي الذي يعد أحد علماء الزيدية المخترعة[2]. قال: (إنه ذهب إلى الرَّجْو وهو بلد المطرفية في ذلك الوقت وفيها كتب لهم هناك ففتشها فلم يجد منها ما يوجب الكفر)[3]. وهكذا كان صراع الزيدية المخترعة والمطرفية ومحالة الإمام عبد اللّه بن حمزة نشر المذهب الزيدي.

رابعاً

الأباضية

الأباضية هم أحد فرق الخوارج الذين أجمعوا على إمامة عبد اللّه بن أباض، وحول مفهوم علاقتهم ببقية الفرق الإسلامية فإنهم كما تصف كَفَّروا مخالفيهم (وأجازوا شهادتهم وحرموا دماءهم سراً واستحلوها علانية، وصححوا مناكحتهم والتوارث منهم، واستحلوا من أموالهم الخيل والسلاح)[4]. كما أنهم (يرون أن مرتكب الكبيرة كافر للنعمة لا مشرك ويرون أن مخالفيهم من المسلمين دار توحيد ودار السلطان دار بغي)[5] على ذلك فإن حربهم موجه ضد السلطة باعتبار أن شرعيته للسلطة غير صحيحة حسب نظرهم، أما مفهومهم السياسي حول الإمامة فهم يرون أن الإمامة جائزة في جميع الناس[6].

كانت بداية ظهور الأباضية في اليمن في أواخر الدولة الأموية، عندما أعلن زعيمهم عبد اللّه بن يحيى بن إباض الكندي الحضرمي الملقب (بطالب الحق) النهوض ضدهم مبتدئاً من حضرموت سنة 127هـ/ 744م حينما خرج بها عليهم طالباً البيعة له بالإمامة حسب مفهوم الأباضية، فبايعه الكثير من أهل حضرموت

---

(1) يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، ق 38أ.

(2) يحيى بن الحسين: نفس المصدر والصفحة، علي بن الحسين: ذوب الذهب، ق 140ب.

(3) يحيى بن الحسين: نفس المصدر، ق 38ب.

(4) البغدادي: الفرق بين الفرق، ص: 87، 88، الشهرستاني: الملل والنحل، جـ1، ص: 134، د. صابر طعيمة: الأباضية عقيدة ومذهباً، ص: 83.

(5) الشهرستاني: الملل والنحل، جـ1، ص: 134، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ13، ص: 245، د. صابر طعيمة: نفس المرجع، ص: 83.

(6) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ق 77.

بالإمامة. بعدها سيطر على حضرموت كما استطاع أن يستولي على صنعاء ومكة والمدينة فيما بين سنة 127 ـ 131هـ/ 744 ـ 748م.

إلا أن الدولة الأموية وجهت إليه جيشاً كبيراً بقيادة عبد اللّه بن محمد بن عطية السعدي، تمكن من القضاء على الأباضية في تلك الأماكن وإعادة السيطرة الأموية عليها[1].

ومن خلال الانطلاقة السريعة التي قام بها عبد اللّه بن إباض الحضرمي للاستيلاء على اليمن نجد أنه قد ترك بها أثراً كبيراً، رغم أن سلطته السياسية لم تستمر طويلاً، فقد ظلت الأباضية منتشرة في كل من شمال صنعاء وحضرموت إلى ما بين القرنين السادس والسابع الهجريّين، وسوف نستعرض هنا كمثل الانتشار الأباضية في هاتين المنطقتين خلال فترة الدراسة في القرنين الخامس والسادس الهجريّين.

ففي حضرموت ازدادت الأباضية قوة خلال القرن الخامس الهجري فظهر بها أبو إسحاق إبراهيم بن قيس الهمداني الأباضي إماماً للأباضية وتزعم حركتهم وحروبهم ضد القرامطة والصليحيّين مؤسساً دولة أباضية في حضرموت، ولجأ خلالها إلى حاكم عُمَان الأباضي الخليل بن شاذان يطلب النصر منه ضد أعدائه الصليحيّين وغيرهم فأمده بالمال والسلاح فانتشرت الأباضية في حضرموت خلال حكمه، انتشاراً كبيراً[2]، كما ذكرنا.

وقد استمر تواجد الأباضية بحضرموت إلى العهد الأيوبي حيث أوضح صاحب غاية الأماني عنهم قوله: (قال بعض المؤرخين: لم يزل أهل حضرموت على رأي الخوارج إلى خروج بني أيوب إلى اليمن فأظهروا مذهب الشافعي وعقيدة أهل السُنَّة)[3].

وقد انتشر الأباضيون في شمال صنعاء ونواحيها في (ناحية شَظَب وما يليها شمالاً وجنوباً، ومغرباً إلى ناحية حجة والشرف). كذلك تواجدت الأباضية في مخلاف (البياض) من بلد (قُدَم)[4] في حجة.

---

(1) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ5، ص: 373، 392، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، جـ1، ص: 124، 125، صلاح البكري: تاريخ حضرموت، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط2، 1375هـ/ 1965م، ص: 66، 70، باوزير: معالم تاريخ الجزيرة العربية، منشورات الصبان، عدن ط2، 1385هـ/ 1966م، ص: 252، محمد الحداد، تاريخ اليمن العام، جـ2، ص: 58، 59.

(2) باوزير: نفس المرجع، ص: 262، 264، 265.

(3) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، جـ1، ص: 125.

(4) مسلم اللحجي: شيء من أخبار الزيدية، صورة لذي الباحث، ق 5، 20.

وفي القرن الرابع الهجري ظهر للأباضية عدة شخصيات منهم محمد بن أحمد الظلمي الذي كان رأساً من رؤوس الأباضية وعلماً من أعلامهم، إلا أنه لم يستطع تزعم الأباضية نتيجة استمرار محاربة الزيدية والإسماعيلية لهم. لذلك تحول كثير من (الأباضية إلى الزيدية الهادوية في عهد الناصر لدين اللّه ابن الهادي منهم محمد الظلمي المذكور)[1].

أما عن محاولة الأباضية الظهور وعن صراعهم مع الزيدية فقد ظهر واحد منهم هو موسى بن عيسى بن عبد الرحيم بن هارون داعياً إلى نفسه بالإمامة حسب مفهوم الأباضية، وكان ظهوره في منطقة عوف من أعمال شظَب، وكان يعد آنذاك من الناحية العلمية أوحد الأباضية علماً، ورأياً وتدبيراً، ومن الناحية القبلية وسيط البيت من بني هلان بن جابر ورئيس الجابريّين، فأجابه أهل شظب إلى المبايعة بالإمامة إلا أن أحد رجال الزيدية وهو عمرو القاضي ومعه أسدي من أهل (شظب)، أحدثا فتنة فيما بين القبائل التي اجتمعت لمبايعته ومناصرته في يوم سوقهم بالكلاَئح بأن أثارا عداوة قديمة لهم، فلم يجتمع رأي هذه القبائل بسبب هذه العداوة التي أثارها هذان الرجلان، فافترقت القبائل على عدائها القديم. ولم يتم للداعي الأباضي توحيد صفهم واستكمال البيعة له بالإمامة فبطلت دعوته[2].

وفي منتصف القرن الخامس الهجري ظهر ثانية أحد الأباضية وهو المحيط بن عبد المجيد الأباضي فبايعه جميع الأباضية من أهل الشرف بحجة وغيرهم من المناطق المجاورة. وصادفت دعوة هذا الأباضي وجود الأمير الزيدي ذي الشرفين الذي أعلن نفسه محتسباً للإمامة الزيدية، فغضب لهذا التجمع الأباضي، فدعا الزيدية من القبائل المناصرة له إلى حربه، فاجتمع سنة 469هـ/ 1076م جميع الشرفاء والسلاطين والمقدمات إلى ذي الشرفين في منطقة شهارة فاتفق رأيهم على حرب الأباضي الذي بايعه أهل الشرف. لذلك اتجه ذو الشرفين إلى تجميع قواته من أنحاء المناطق المسيطر عليها في اليمن الأعلى، فوجه الشريف الأجل ناصر الدولة وعزها الحسن بن إبراهيم والسلطان يحيى إلى صعدة ونواحيها من بلد خولان، ووجه السلطان عبد الباعث ونشوان إلى ناحية البون والمشرق من بلد همدان ووجه رجالاً مع الشريف ليث الدولة وعضدها حميدان بن القاسم إلى بلد وادعة كما وجه الشريف الأجل سنان الدولة وركنها أحمد بن جعفر والسلطان

---

(1) مسلم اللحجي: نفس المصدر، ق 19، 25

(2) مسلم اللحجي: تاريخ مسلم اللحجي، ق 28، 29، يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، ق 48أ.

الحسين بن إبراهيم إلى بلد بكيل. وواعدهم جميعاً الاجتماع عنده في العاشر من ذي القعدة سنة 466هـ/ 1077م[1]. يدل هذا الحشد الكبير الذي ذهب ذو الشرفين إلى تجميعه دلالة واضحة على مدى ما بلغته قوة الأباضية آنذاك في بلاد الشرف من حجة، كما يدل على قوة الصراع الذي دار فيما بين الزيدية والأباضية.

وأمام هذا التجمع الزيدي الكبير ضد الأباضية جمع إمام الأباضية جيشاً كبيراً من أصحابه لمواجهتهم، فاتجهوا للاستيلاء على الحصون المجاورة لهم استعداداً للقتال، فنزلوا جبل (المحطور) شمال حجة قرب حصن (الأدن) وحول هذين الحصنين وفيهما دارت معركة شديدة بين الطرفين قتل فيها الكثير من الطرفين، وانتهت المعركة بانتصار الأمير ذي الشرفين وانهزام الأباضية وتخريب ديارهم، وعلى الأخص منازل أحد قادتهم الكبار وهو شرحبيل بن الحربي الأباضي الذي قتل في المعركة الشريف ناصر الدولة[2].

وعلى أثر محاربة الزيدية للأباضية فقد فضل بعضهم التحول إلى الزيدية، فتحول الكثير منهم، وعلى رأسهم العلامة إبراهيم بن علي الطامي الذي كان له الأثر الكبير في إخراج الكثير من أهل (شظب) عن مذهب الأباضية إلى المذهب الزيدي[3].

كذلك حدثت عدة صراعات وحروب فيما بين الأباضية والباطنية الإسماعيلية، فقد كانت مخاليف البياض من بلاد (قدم) وبلاد (الجابرين) معتقدين بمذهب الأباضية. وعندما دخلت الإسماعيلية اليمن بدأ بعض القدميّين يميلون إلى مذهبهم، مما أدّى إلى دخولهم مع جيرانهم الجابريّين الأباضية في صراع، فذات يوم حدث أن رجلاً من القدميّين كان يتبع الإسماعيلية (القرامطة) خرج إلى بلد الجابريّين فقتله اثنان من الجابريّين الأباضية. ولما اشتدت الحرب بين الطرفين ناصرت الإسماعيلية فيه القدميّين، إذ جاء على رأسهم عبد الحميد بن محمد المسوري بجيشه، فقاتل الأباضية من الجابريّين حتى انتصر عليهم وقتل منهم الكثير، كما قام بتخريب بلادهم ونهب أموالهم وقتل أطفالهم[4]. مما أدّى إلى تحول الكثير منهم عن مذهبهم الأباضي.

من ذلك نجد أنه رغم تواجد الأباضية في اليمن وقبول أهلها لفكرهم، إلا أن

---

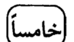
(1) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ق 77، لا يوجد تعريف لتلك الشخصيات في المصادر التي تحت أيدينا.

(2) الربعي: سيرة ذي الشرفين، ق 77ب، 78أ.

(3) يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، ق 48أ.

(4) مسلم اللحجي: شيء من أخبار الزيدية، ق 20، 22.

الأباضية لم يستطيعوا الاستمرار في نشر مذهبهم الأباضي بها أو المحافظة على مذاهبهم، وذلك بسبب محاربة بقية الفرق لهم.



الدعوة الإسماعيلية في اليمن

أطلق على الإسماعيلية عدة تسميات منهم القرامطة نسبة إلى قرمط، الذي ابتدأ يدعو إلى الإسماعيلية فلما تولّى أحد أتباعه وهو أبو سعيد الجنابي السلطة في البحرين استقل عنهم. والباطنية نسبة إلى التأويل بالباطن، والإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، كذلك سميت بالإمامية نسبة إلى الأئمة من آل البيت.

تميزت الدعوة الإسماعيلية في اليمن بثلاثة أدوار رئيسية وهي: الدور الأول وهو دور الستر الذي كان قائماً قبيل الدولة الصليحية، وهو الدور الذي ارتبط دعاته بالإمام الإسماعيلي الغائب، ثم بالإمام المهدي بالمغرب، والدور الثاني وهو دور الظهور، متمثلاً بظهور الدولة الصليحية في اليمن وارتباطها بالدولة الفاطمية بمصر، والدور الثالث وهو دور العودة إلى الستر مرة أخرى، وهي فترة ما بعد انتهاء الدولة الصليحية، وفي هذا الدور انفصلت اليمن عن مصر ودعا دعاتها للإمام الطيب.

الإسماعيلية في دورها الأول:

بدأ نشر مذهب الإسماعيلية في اليمن سنة 268هـ/ 881م على يد رجلين أحدهما كوفي يسمى الحسن بن فرج بن حوشب بن زادان الكوفي، والآخر يمني يسمى علي بن الفضل الحداني الذي استقر في سرو يافع من مخلاف الجند[1].

أما الحسن بن حوشب فقد اتجه إلى اليمن الأعلى إلى بلدة لاعة من بلاد حجة ولقب بمنصور اليمن، فنشر مذهب الإسماعيلية في كثير من مناطق مغارب اليمن الأعلى مثل جبل تخلى، وحجة، ومخاليف البياض، وعزان، ومسور[2].

---

(1) محمد بن مالك الحمادي: كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، ص: 47، د. أمين صالح: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 165، د. محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 27 ـ 31، قيل أن قرمط لقب لرجل بسواد الكوفة كان يحمل غلة السواد على أثوار له واسمه محمد بن الأشعث ويلقب بقرمط ثم فشا مذهب القرامطة بسواد الكوفة منذ سنة 278هـ/ 909م، سهيل زكار: أخبار القرامطة، ص: 9، استطاع علي بن المفضل أن يكوّن دولة له في اليمن فيما بين سنة 298هـ/ 303هـ.

(2) محمد بن مالك الحمادي: كشف أسرار الباطنية، ص: 47، مسلم اللحجي: شيء من أخبار الزيدية، ق21.

واستمر منصور اليمن ينشر المذهب الإسماعيلي في اليمن إلى أن توفي سنة 302هـ/ 915م فاستخلف في رئاسة الدعوة عبد اللّه بن عباس الشاوري، وهو من جبل شاور من قدم في مخلاف البياض، وأوصى إلى جانبه ولده الحسن بن الحسن بن منصور اليمن، إلا أن الاثنين لم يتفقا حول رئاسة الدعوة، فقد كان الشاوري لا يريد أحداً بجانبه، وابن منصور اليمن كان يريد أن تكون له رئاسة الدعوة الإسماعيلية في اليمن بعد أبيه، فدب الخلاف بينهما، وكانت بداية الخلاف عندما بعث الشاوري إلى المهدي في المغرب، بكتاب (يسأله فيه الولاية لنفسه وعزل أولاد المنصور) فاستجاب المهدي لطلبه، وعندما قدم ابن منصور اليمن إلى المهدي في المغرب يطلب هو الآخر توليته على اليمن كان المهدي قد سبق توليتها للشاوري، فأمره أن يطيع الشاوري[1].

لم يقتنع ابن منصور اليمن بهذا الوضع، فعندما عاد إلى اليمن أضمر التخلص من الشاوري، ومن خلال عمل أبناء منصور اليمن كحجاب للشاوري استغل أحدهم وهو الحسن بن الحسن بن منصور اليمن الفرصة عندما حانت له فغدر بالشاوري فقتله، وتولّى الأمر مكانه، وخرج عن مذهب الإسماعيلية إلى مذهب أهل السُنّة، وتتبع الإسماعيلية أنصار أبيه بالقتل والتنكيل والإبادة حتى أفنى الكثير منهم[2].

وبهذا تكون الخلافة الفاطمية بالمغرب قد ساهمت في إيجاد خلاف في اليمن بين الحسن بن منصور اليمن ابن رئيس الدعوة الإسماعيلية السابق، وبين عبد اللّه الشاوري، المولّى الجديد رئيساً للدعوة الإسماعيلية والتي لم يجزم في التولية لها منصور اليمن في وصيته لمن بعده، بل ترك أمر الوصية بها إلى الخليفة الفاطمي، باعتباره هو الذي يملك هذا الأمر، وهي نظرة تتمشى مع أفكار الدعوة والمذهب الإسماعيلي، حيث وَلّى الخليفة الفاطمي المهدي رئاسة الدعوة في اليمن عبد اللّه الشاوري بدلاً عن الحسن بن منصور اليمن، مما أدّى إلى انشقاق الحسن عنهم وتحوله إلى مذهب أهل السُنّة بل وتتبعه قتل الإسماعيلية باليمن[3].

كما ساهم أيضاً في إيجاد الخلاف بين الإسماعيلية في اليمن اتجاه المهدي

---

(1) محمد بن مالك الحمادي: نفس المصدر، ص: 75، 76، د. أمين صالح: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 178، د. محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 32، 33، عن دخول ابن حوشب اليمن، انظر: افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص: 32 ـ 46.

(2) الحمادي: كشف أسرار الباطنية، ص: 77، حسين الهمداني: الصليحيون، ص: 51، 52.

(3) حسين الهمداني: الصليحيون، ص: 49 ـ 51، د. أمين صالح: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 177.

نحو المغرب بدلاً عن اليمن، فقد كانت الدعوة في اليمن تدعو إلى أنه سيظهر بها، وكان أسلوب الدعوة الإسماعيلية إليه هي الدعوة السرية حيث إن الإسماعيلية كانت تجيز أن يستتر الإمام إذا لم تسنح له الفرصة في الظهور خوفاً عليه من الوقوع في أيدي أعدائه[1] فعندما اتجه إلى مصر في نية الاتجاه إلى المغرب أربك ذلك أمر الدعوة في اليمن. مما جعل الداعي ابن الفضل ينفصل عن الدعوة الإسماعيلية بالدعوة إلى نفسه، وذلك بواسطة تحريض داعي دعاة المهدي وباب أبوابه (فيروز) الذي كان يرغب في اتجاه المهدي إلى اليمن، فلما اتجه المهدي إلى مصر، انفصل عنه فيروز واتجه إلى اليمن، فأخبر ابن الفضل بخبر المهدي محرضاً إياه على الخروج، فاتفق رأيهما على الانشقاق عن الدعوة الإسماعيلية فانشق ابن الفضل عنها، بل وحارب زميله منصور اليمن، وبقدر ما كان لاتجاه المهدي إلى مصر وعدم قدومه إلى اليمن هو العامل المساعد على التأثير بخروج ابن الفضل عن الدعوة الإسماعيلية، فقد كان لإعلان ابن الفضل الخروج عن الدعوة الإسماعيلية أثر في مواصلة المهدي لمسيرته نحو المغرب وعدم التفكير في الاتجاه نحو اليمن[2].

حاول ابن منصور اليمن أن يولي إلى جانبه على (مَسْوَر) إبراهيم بن عبد الحميد السباعي من حمير، كما ولّى مساعداً له على (عثر محرم بمسور) ابن العرجاء وهو موضع بني العرجاء وهم قوم من سلاطين مغرب همدان، إلا أن ابن العرجاء لم يثق بابن منصور اليمن فغدر به فقتله عندما قدم إلى عثر محرم[3].

فلما سمع بذلك إبراهيم السباعي استقل بالأمر لنفسه، وأعلن موالاته لبني زياد في زبيد، إلا أن بني زياد لم يثقوا به فحاولوا قتله، فلما أحس منهم الغدر به استقل عنهم، ثم عاد وتقاسم مغرب اليمن الأعلى مع ابن العرجاء واستمر السباعي في تتبع الإسماعيلية بالقتل في كل مكان حتى أباد أكثرهم[4].

ورغم محاولة ابن منصور اليمن والسباعي في قتل الإسماعيلية والخروج عنها إلى مذهب أهل السُنَّة، إلا أنه بقي بعض أفراد منهم يكتمون أمرهم، وممن تولّى

---

(1) د. محمد أمين صالح، نفس المرجع، ص: 164.

(2) القاضي النعمان: رسالة افتتاح الدعوة، دار الثقافة، بيروت، ط1، 1970م، ص: 149، 150، حسين الهمداني: الصليحيون، ص: 39 ـ 41، د. أمين صالح، تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 172 ـ 174.

(3) محمد بن مالك الحمادي: كشف أسرار الباطنية، ص: 48، 77.

(4) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، جـ1، ص: 221، د. محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 33، 34 ـ 39، 40.

رئاسة الدعوة الإسماعيلية منهم في هذا الدور بعد الشاوري الداعي هارون بن محمد بن رحيم اللاعي من لاعة في مسور، ثم تولّى بعده الحسن بن المنتاب من حمير، ثم تولّى بعده رئاسة الدعوة الإسماعيلية سليمان الزواحي من حمير أيضاً من ضلع شبام، بعدها سلم الزواحي أمر الدعوة الإسماعيلية إلى علي بن محمد الصليحي من حراز من همدان ودخلت في عهد الصليحي الدعوة الإسماعيلية دوراً جديداً هو دور الظهور[1]، وهكذا كان الدور الإسماعيلي الأول.

الدور الثاني دور الظهور:

كان الدور الثاني من أهم الأدوار التي صادفت الدعوة الإسماعيلية في اليمن، فقد سَمَت فيه الدعوة حتى بلغت مبلغاً كبيراً لم تبلغه أغلب المذاهب التي دخلت اليمن آنذاك. ويبدو أن سليمان الزواحي قد تعمد اختيار أحد الزعامات القبلية لتحقيق قفزة بالدعوة الإسماعيلية من دور الدعوة السرية إلى دور الظهور عن طريق العمل العسكري والسياسي والديني للدعوة، إذ أن العامل القبلي له دور مهم في التأثير على الحياة السياسية في اليمن آنذاك. لذلك اختار علي بن محمد الصليحي الذي كان أبوه محمد الصليحي ذا نفوذ قبلي كبير في بلدة حراز، حيث كان فقيهاً فيها، ويطيعه جميع أهل بلدته ولا يخرجون عن أمره، لذلك رأى الزواحي أن خير من يستطيع القيام بدور الظهور هو علي بن محمد الصليحي، فعكف على تلقينه مذهب الإسماعيلية حتى استماله إليه، وعندما قرب أجل الزواحي أوصى بجميع كتبه وأموال كثيرة كان قد جمعها من أهل مذهبه لعلي الصليحي. فعكف علي الصليحي على دراسة تلك الكتب حتى صار فقيهاً في مذهب الإسماعيلية كما صار مستبصراً بعلم التأويل[2] ولما أحس الصليحي بمقدرته على النهوض، نهض من حصن مَسَار بحراز سنة 429هـ/ 1037م فاستولى عليه، فلما ظهر شأنه وصلته الشيعة الإسماعيلية من أنحاء اليمن مع ما جمعوا له من الأموال الكثيرة، وفي سنة 453هـ/ 1061م كتب علي الصليحي إلى الخليفة الفاطمي المستنصر بالله يستأذنه في إظهار الدعوة وتوليته على اليمن فأذن له في نشر الدعوة في اليمن وتوليته عليها، فازدادت أعماله العسكرية في الاتساع، فلم يأت عام 455هـ/ 1063م إلا وقد استولى على اليمن كله سهله ووعره، واستمر يحكم اليمن معلناً طاعته وولاءه للفاطميّين بمصر

(1) حسين الهمداني: الصليحيون، ص: 56 ـ 61، د. محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 43.

(2) عمارة: المفيد، ص: 95 ـ 97، الخزرجي: العسجد المسبوك، ص: 56، 57، ابن الديبع: قرة العيون: ص: 242، 243.

ودعوتهم الإسماعيلية إلى أن قتل سنة 459هـ/ 1066م فتولّى بعده ابنه المكرم ثم السيدة الحرة اللذين سارا على نهج علي الصليحي في الولاء والطاعة للإسماعيلية وللفاطميّين كما سبق توضيحه[1].

هذا وقد استعان الصليحيون في الدعوة الإسماعيلية بمن يدعى لمك من مالك الحمادي وهو من بني حماد من همدان، أرسله علي بن محمد الصليحي إلى القاهرة سنة 454هـ/ 1053م لدراسة المذهب الإسماعيلي، فاستقبله الخليفة الفاطمي وأنزله في دار المؤيد في الدين هبة اللّه الشيرازي[2] فمكث لمك في القاهرة يتفقه في المذهب الإسماعيلي على يد المؤيد هبة اللّه الشيرازي لمدة خمس سنوات كان خلالها (لا يفارق المؤيد، بل ظل بين يديه يسأله ويأخذ عنه ويكتب ما استفاده منه إلى أن استوعب ما عنده)[3]. وعندما قتل الصليحي سنة 459هـ/ 1066م وتولّى مكانه ابنه المكرم أعاد الخليفة المستنصر الفاطمي لمك إلى اليمن ليساعد المكرم في الدعوة، وأرسل معه رسالة يعزي بها المكرم في قتل أبيه. ولما وصل لمك إلى اليمن في حوالي سنة 460هـ/ 1067م استعان به المكرم في نشر الدعوة الإسماعيلية حسب توجيه الخليفة الفاطمي فجعله (داعي القلم) في حين تولّى هو أمر الملك وسياسته، فجعل نفسه داعي السيف[4] كذلك تولّى لمك قاضي قضاة الإسماعيلية في اليمن[5] ولما توفي المكرم وأصبحت السيدة الحرة أروى هي المسؤولة عن الدولة الصليحية جعلت سبأ بن أحمد بن المظفر متولياً (داعي السيف) وأبقت لمك الحمادي متولياً داعي القلم وقاضي قضاة الإسماعيلية في اليمن. ولقب في عهدها (بداعي البلاغ)[6] ومن هنا نرى أن لمك قد أدّى دوراً مهمًّا في نشر الدعوة الإسماعيلية ومذهبهم في عهد المكرم وعهد السيدة الحرة وظل مخلصاً للدعوة الإسماعيلية إلى أن توفي سنة 510هـ/ 1116م.

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 101 ـ 119، الخزرجي: العسجد المسبوك، ص: 56 ـ 58، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 243 ـ 246.

(2) إدريس بن الحسن الأنف: نزهة الأفكار وروضة الأخبار، مخطوط رقم 2253، دار الكتب المصرية، ق34.

(3) الهمداني: الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، ص: 176.

(4) إدريس بن الحسن الأنف: نفس المصدر، ق35أ، الهمداني: نفس المرجع، ص: 179.

(5) إدريس الأنف: نفس المصدر، والصفحة، مصطفى غالب، أعلام إسماعيلية، ص: 441.

(6) إدريس الأنف: نزهة الأفكار، ق35أ، مصطفى غالب: أعلام إسماعيلية، ص: 441 .

Abbas. Hamdani: The Dai'Hatim Ibn Ibrahim AL - Hamidi, (D 596 HI 199 A. D.) and His Book Tuhfat AL - Qulub, P. 261, ORIENS 23, 24, (1970 - 71).

وبعد موت الخليفة المستنصر الفاطمي سنة 487هـ/ 1094م انقسمت الإسماعيلية في مصر إلى فرقتين: فرقة إسماعيلية نزارية نسبة إلى الابن الأكبر المستنصر، وفرقة إسماعيلية مستعلية نسبة إلى أحمد بن المستنصر، الملقب بالمستعلي، وهو الابن الأصغر للمستنصر، وادعت الإسماعيلية المستعلية أن المستنصر أوصى للمستعلي بالإمامة بعده، في حين ادعت النزارية أن نزار هو الأحق بالإمامة باعتباره الابن الأكبر[1] وتبعاً لهذا الانقسام في مصر فقد اتبعت اليمن فرقة الإسماعيلية المستعلية، حيث إن السيدة الحرة والقاضي لمك قد أيدا الدعوة المستعلية وظلا مواليّين لها. ويبدو أن هذا التأييد اليمني كان نابعاً من إيمانهم بأن الإمامة تحصل بالوصية والنص عليها من الإمام السابق لمن يشاء من الأولاد حسب رأي المذهب الإسماعيلي، سواء كان الأصغر أو الأكبر.

وعندما توفي المستعلي سنة 495هـ/ 1101م تولّى مكانه في حكم مصر الفاطمية ابنه الآمر بأحكام اللّٰه الذي كان لا يزال طفلاً آنذاك فتولّى أمر الدولة الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي، فكاتب السيدة الحرة أروى بالدعوة للخليفة الجديد[2] فقامت السيدة بالدعوة للآمر بأحكام اللّٰه، يعاونها القاضي يحيى بن لمك الحمادي الذي خلف أباه في وظيفة قاضي قضاة المذهب الإسماعيلي باليمن وداعي القلم، فاستمر موالياً للدعوة الإسماعيلية الفاطمية إلى أن مات سنة 520هـ/ 1126م[3]. وبعد قتل الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام اللّٰه في ذي القعدة سنة 524هـ/ أكتبور 1130م، انقسمت الإسماعيلية في مصر إلى فرقتين أيضاً، **إحداهما**: فرقة إسماعيلية حافظية، وهم أتباع أبي الميمون عبد المجيد الملقب بالحافظ لدين اللّٰه، والذي نسبت إليه الدعوة الحافظية وهو من غير ولد الخليفة الفاطمي السابق، فسلمت مصر بهذه الدعوة. **والأخرى**: فرقة إسماعيلية طيبية نسبة إلى أبي القاسم الطيب ابن الآمر الذي قيل إنه ولد قبل موت أبيه بأشهر ونص عليه من بعده[4].

وتمسكت السيدة الحرة أروى بنت أحمد بالدعوة للإمام المستور الطيب ابن الآمر ابن المستعلي[5] ومن هنا بدأ دور انفصال الدعوة الإسماعيلية باليمن عن

(1) د. أيمن فؤاد سيد: تاريخ المذاهب الدينية في اليمن، ص: 154.

(2) د. أيمن فؤاد: نفس المرجع، ص: 159.

(3) حسين الهمداني: الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، ص: 181.

(4) د. أيمن فؤاد: تاريخ المذاهب الدينية في اليمن، ص: 171، هناك اختلاف حول ولادة هذا الطفل من حيث هو ذكر أم أنثى وهل ولد قبل قتل أبيه أم بعده وهل ولد له طفل أم لا، انظر د. أيمن فؤاد: نفس المرجع، ص: 171 ـ 173.

(5) د. محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 49.

مصر، ويبدو أن اليمن سلمت بالدعوة الطيبية على اعتبار أنها امتداد للخليفة الإسماعيلي السابق وعلى اعتبار أنهم يؤمنون بالنص من الخليفة السابق وخاصة أن الحافظ لم ينص عليه الخليفة السابق نتيجة قتله، لذلك اعتبروا ابن الخليفة السابق وهو الطيب وريثاً له في الدعوة، وذلك خوفاً من انتقال الدعوة إلى فرد آخر لم ينص عليه، وأول دعاة هذا الدور في اليمن هو الداعي الذؤيب بن موسى الوادعي.

الدعوة الحافظية:

بعد موت السيدة الحرة أروى سنة 532هـ/ 1137م ظهرت في اليمن الدعوة الحافظية إلى جانب الدعوة الطيبية، فقد أرسل خليفة مصر الفاطمي عبد المجيد الملقب بالحافظ، القاضي الرشيد ابن الزبير الأسواني سنة 534هـ/ 1139م، إلى علي بن سبأ الزريعي يقلده أمر الدعوة الحافظية في اليمن فلما وصل القاضي الرشيد وجد علياً قد مات فقلد أمر الدعوة الحافظية أخاه محمد بن سبأ الزريعي ولقب بالمعظم[(1)] وانحصرت الدعوة الحافظية في نطاق نفوذ الزريعيّين في عدن الذين استمروا موالين لها إلى نهاية دولتهم بقدوم الأيوبيّين إلى اليمن سنة 569هـ/ 1173م الذي انتهت بوجودهم الدعوة الحافظية عن اليمن.

المرحلة الثالثة دور الستر وهي القيام بالدعوة الطيبية:

يعد الداعي الذؤيب بن موسى أول دعاة الدعوة الطيبية في اليمن[(2)] الذي كان مقر إقامته في بلده بحوث من الظاهر والذي في عهده دخلت الدعوة الطيبية دور الستر[(3)]، ويعتبر الداعي الذؤيب أول الدعاة الذين حصلوا على رتبة الداعي المطلق، بينما كان الداعي لمك (داعي البلاغ)[(4)] وفي هذه المرحلة استقلت الدعوة الطيبية عن كل من الخلافة الفاطمية بمصر وكذا عن الزريعيّين أتباع الدولة الصليحية في اليمن[(5)].

انحصرت الدعوة الطيبية في مغارب اليمن الأعلى أي في غرب وشمال غرب

---

(1) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 248، د. محمد عبد العال، الأيوبيون في اليمن، ص: 54، 55، د. أيمن فؤاد: تاريخ المذاهب الدينية في اليمن، ص: 186.

(2) د. أيمن فؤاد، نفس المرجع، ص: 190.

Abbas Hamdani: Arabian Studies, P. 95. ORIENS, P. 272.

(3) إدريس: نزهة الأفكار، ق35ب.

(4) د. أيمن فؤاد: نفس المرجع، ص: 193.

(5) Abbas Hamdani: The Dai'Hatim Ibn Ibrahim AL - Hamidi, (D 596 H/ 1199 A. D.) and His Book Tufat AL - Qualub, P. 271.

صنعاء في كل من حَرَاز وحُوْث وكَوْكَبان. واستخدم دعاة الدعوة الطيبية في هذه المناطق مساعدين لهم في نشر الدعوة، أطلق على كل واحد منهم رتبة مأذون، وهي رتبة بعد الداعي المطلق، كما استخدموا أحياناً رتبة المكاسر، وهي رتبة بعد المأذون. وسنورد دعاة الدعوة الطيبية ومساعديهم في هذه المناطق.

الذوئب بن موسى:

ظل الداعي الذوئب يرأس الدعوة الطيبية كأول داعٍ مطلق للدعوة الطيبية، يعاونه في رتبة المأذونية كل من الداعي الخطاب بن الحسن بن أبي الحفاظ الحجوري المتوفى سنة 533هـ/ 1138م في منطقة الجَرِيب[1] والداعي إبراهيم بن الحسن الحامدي المتوفى سنة 554هـ/ 1159م[2].

(1) إدريس الأنف: نزهة الأفكار، ق36أ، قطب الدين سليمان: منتزع الأخبار، ق2/ وقد تمكن الخطاب بن الحسن بن أبي الخطاب الحجوري من أن يتولى السلطة السياسية في منطقة الجَرِيب إلى جانب الدعوة إلى الطيبية، وذلك على أثر صراع فيما بينه وبين أخيه سليمان، حيث كان أبوهما الحسن الحجوري يحكم الجريب وكان من القوة والمكانة مما جعل النجاحيّين في زبيد يستعينون به في صراعهم ضد بعضهم البعض، فقد ذهب إليه إبراهيم بن جياش النجاحي في سنة 503هـ/ 1109م يستمده للقضاء على أخيه عبد الواحد الذي استولى على الحكم في زبيد ـ إسماعيل باقر: السلطان الخطاب، ص: 31، محمد العقيلي: ديوان السلطانين، ص: 23، 24، وعندما مات الحسن الحجور حوالي سنة 503هـ/ 1109م وقيل 500/ 1106م تولى الحكم بعده ابنه الأكبر سليمان الذي كان يميل إلى مذهب أهل السُنَّة، بينما أخوه الخطاب وأخته يميلان إلى الصليحيّين والدعوة الإسماعيلية الطيبية، حيث إنه تولى رتبة المأذونية في الدعوة الطيبية للداعي المطلق الذوئب. إدريس الأنف: نزهة الأفكار ق36أ، إسماعيل باقر نفس المصدر، ص: 40، وكان بداية الصراع فيما بين الأخوين عندما قتل أخوهما أحمد الذي يميل إلى مذهب السنة مع سليمان، أختهم التي تميل مع أخيها الخطاب إلى مذهب الإسماعيلية، فغضب لهذا العمل أخوه الخطاب فقام بقتل أخيه أحمد انتقاماً لأخته، من هنا بدأ الصراع العسكري والسياسي والديني فيما بين السلطانين الخطاب وسليمان، على أثر ذلك انقسمت حجور بين الأخوين فاستمرت الحرب بينهما أكثر من عشر سنوات استطاع الخطاب أن ينتصر على أخيه سليمان ويستولي على حكم منطقة الجريب في سنة 514هـ/ 1120م، استمر حتى سنة 533هـ/ 1138م، ومع ذلك فقد ظلت الحرب فيما بين الأخوين للمرة الثانية أثناء تولي الخطاب السلطة قرابة خمس عشرة سنة استطاع الخطاب قتل أخيه سنة 530هـ/ 1135م، بعدها تمكن أبناء سليمان الذين احتضنهم الخطاب من قتله غيلة على فراشه سنة 533هـ/ 1138م. إدريس الأنف: نزهة الأفكار، ق36، 37 ـ قطب سليمان: منتزع الأخبار، ق3، الهمداني: الصليحيّون ص: 200 ـ 203، إسماعيل باقر: السلطان الخطاب، ص: 36، 37، محمد العقيلي: ديوان السلطانين، ص: 29.

(2) إدريس الأنف: المصدر السابق، ق37أ، قطب سليمان: المصدر السابق، ق5.

إبراهيم بن الحسن الحامدي:

وعندما توفي الداعي الذوئب في المحرم سنة 546هـ/ 1151م تولّى مكانه رئاسة الدعوة الطيبية مأذونه الداعي إبراهيم بن الحسن الحامدي كداع مطلق للإمام المستور الطيب ابن الآمر لأحكام الله، وأقام الحامدي مساعداً له في رتبة المأذونية الداعي علي بن الحسن بن أحمد بن الوليد الأنف العبشمي القرشي، فعمل هذا المأذون على نشر الدعوة الطيبية الإسماعيلية حتى توفي في رمضان سنة 554هـ/ 1159م فأقام مكانه في رتبة المأذونية ابنه حاتم بن إبراهيم الحامدي الذي استقر في بعض أوقاته في صنعاء، وإلى جانبه جعل مساعداً له في رتبة المكاسر محمد بن طهر الحارثي[1].

حاتم بن إبراهيم الحامدي:

واستمر الداعي إبراهيم الحامدي يدعو للدعوة الطيبية إلى أن توفي في شعبان سنة 557هـ/ 1161م فتولّى بعده رئاسة الدعوة الطيبية كداع مطلق ابنه حاتم بن إبراهيم الحامدي[2] الذي جعل مقر إقامته في حصن الخطيب في حراز[3]. وأقام في رتبة المأذونية في صنعاء الداعي محمد بن طاهر الحارثي[4].

وفي عهد الداعي المطلق حاتم الحامدي دخلت الدعوة الطيبية في حروب طويلة مع السلطان علي بن حاتم اليامي حاكم صنعاء في كل من كوكبان والعروس وغيرهما. وذلك نتيجة معاداة السلطان علي بن حاتم للدعوة الطيبية[5].

كذلك في أيام الداعي المطلق حاتم بن إبراهيم الحامدي ومأذونه الداعي محمد بن طاهر الحارثي، دخل الأيوبيون إلى اليمن، فاستمر المأذون الداعي محمد بن طاهر يدعو بصنعاء في عهدهم إلى وفاته سنة 584هـ/ 1188م فأقام الداعي المطلق مكانه بصنعاء في رتبة المأذونية الداعي علي بن محمد بن الوليد[6].

---

(1) إدريس الأنف: نفس المصدر، ق37أ، 38أ، قطب بن سليمان: نفس المصدر، ق4.
Abbas Hamdani: The Dai'Hatim Ibn Ibrahim AL - Hamidi, 272.

(2) إدريس الأنف: نفس المصدر، ق38أ، قطب بن سليمان: نفس المصدر، ق7.
Abbas Hamdani: The Dai'Hatim Ibn Ibrahim AL - Hamidi, P. 287.

(3) إدريس الأنف: نفس المصدر، ق41ب.
Abbas Hamdani: The Dai'Hatim Ibn Ibrahim AL - Hamidi, P. 286, 287.

(4) قطب محمد سليمان: نفس المصدر، ق10.

(5) Abbas Hamdani: Arabian studies, P. 154.

(6) إدريس الأنف: نزهة الأفكار، ق42أ، قطب بن سليمان: منتزع الأخبار، ق10، 11.
Abbas Hamdani: The Dai'Hatim Ibn Ibrahim AL - Hamidi, p. 296.

علي بن حاتم الحامدي:

ولما توفي الداعي المطلق حاتم الحامدي في المحرم سنة 596هـ/ 1199م تولّى مكانه في رئاسة الدعوة الطيبية كداع مطلق ولده علي بن حاتم الحامدي[1] الذي أقام بصنعاء يدعو للطيبية في عهد الأيوبيّين إلى وفاته في المحرم سنة 605هـ/ 1208م[2].

علي بن محمد بن الوليد القرشي:

ثم تولّى مكانه في رئاسة الدعوة كداع مطلق والذي استقر في صنعاء الداعي علي بن محمد بن الوليد القرشي، فاستمر في رئاسة الدعوة إلى أن توفي سنة 612هـ/ 1215م.

ابن حنظلة بن سالم المرادي:

ثم تولّى بعده رئاسة الدعوة الطيبية في رتبة الداعي المطلق الداعي ابن حنظلة بن سالم المرادي الذي استمر يدعو إلى سنة 626هـ/ 1228م[3].

وبالنسبة للعلاقة بين الدعوة الطيبية والأيوبيّين فإننا نجد أن الأيوبيّين قد تغاضوا عن وجود الدعوة الطيبية في اليمن، ولم يدخلوا في صراع معها[4]، ويرجع ذلك إلى دخول الدعوة الطيبية في دور الستر من ناحية، ومن ناحية ثانية ترك رجال الدعوة الطيبية معترك السياسة، فقد أعلن حاتم بن إبراهيم عدم تدخله في سياسة الدولة[5] لذلك كانت الدعوة الطيبية على علاقة حسنة مع الأيوبيّين[6]. وهكذا كان انتشار المذهب الإسماعيلي ومروره بالأدوار الثلاثة.

عقيدة ابن مهدي:

واستكمالاً لذكر انتشار المذاهب الدينية في اليمن فلا بدّ لنا من ذكر مذهب ابن

---

(1) قطب بن سليمان: منتزع الأخبار، ق12.

(2) إدريس الأنف: نزهة الأفكار، ق44أ.

Abbas Hamdani: The Dai'Hatim Ibn Ibrahim AL - Hamidi, p. 298.

(3) قطب محمد بن سليمان: نفس المصدر، ق13 ـ 17.

Abbas Hamdani: The Dai'Hatim Ibn Ibrahim AL - Hamidi, p. 296.

(4) Abbas Hamdani: Arabian studies, p. 157.

(5) د. مصطفى غالب: أعلام إسماعيلية، ص: 87.

(6) Abbas Hamdani: Arabian studies, p. 157.

عن الدعوة الطيبية في اليمن انظر: Abbas Hamdani: The Tayyibi - Fatimid Community of the yemen at the Time of the Ayyubid conquest of Southern Arabia, P. 151 - 160.

مهدي حيث كان مذهب ابن مهدي هو المذهب الحنفي في الفروع الفقهية، أما في أصول الدين فقد خالف فيه المذهب الحنفي، واتجه إلى مذهب الخوارج فاتخذه مذهباً له، فكان يكفر بالمعاصي ويقتل بها، كذلك يقتل من خالف اعتقاده من المسلمين، ويستبيح وطء سباياهم واسترقاق ذراريهم وجعل دارهم دار حرب[1].

ويبدو أن الأصول الاعتقادية لابن مهدي كانت في البداية غير واضحة، فقد استخدم طريقة التصوف باتباع التنسك والتعبد منذ سنة 531هـ/ 1136م حتى سنة 536هـ/ 1141م فكان يخرج للحج في كل موسم ويعظ الناس في البوادي. لذلك أعفت الحرة عَلَمْ أم فاتك بن منصور النجاحي، ابن مهدي وأصهاره ومن يلوذ إليه من خراج أراضيهم[2]. كذلك حاول التقرب إلى الإسماعيلية ومصاحبتهم ففي سنة 549هـ/ 1154م اتجه إلى محمد بن سبأ الزريعي الإسماعيلي في ذي جبلة يطلب المساعدة منه في القضاء على النجاحيّين في زبيد فلم يجبه الزريعي لذلك[3].

فلما لم تفده هاتين الطريقتين اتجه إلى استخدام فكر الخوارج في محاربة آل نجاح، ولما تمكن من القضاء عليهم، والاستيلاء على زبيد استمر على مذهبه الخارجي في محاربة جميع المذاهب فقد تتبع الإسماعيلية بالقتل، وممن قتل منهم القاضي الشاعر يحيى بن أحمد بن يحيى أخا القاضي جعفر الزيدي المعتزلي[4]. كما أحرق مسجد الجند بحجة أن الإسماعيلية الزريعيّين أنجاس نجسوا الجامع حيث أورد ابن المجاور قوله عنهم: (فهم أنجاس ينجس الجامع بذكرهم. وكل من هو نجس طهر وقد طهرناه بالنار)[5]. كما تتبع أهل السُنَّة بالقتل فقتل بعضهم وهرب منه البعض الآخر.

العقائد في اليمن:

انتشرت في اليمن الأسفل عقائد الحنابلة، أوضح ذلك ابن الأهدل بقوله:

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 236، الخزرجي: العسجد، ص: 140، 141، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 373، حمزة علي لقمان: تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية ص: 62، د. أمين صالح: دولة الخوارج في اليمن، ص: 132، د. محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 61.

(2) عمارة: المفيد، ص: 230، الخزرجي: العسجد، ص: 129، د. أمين صالح: نفس المرجع، ص: 128.

(3) عمارة: المفيد، ص: 232، الخزرجي: العسجد، ص: 131، د. أمين صالح: نفس المرجع، ص: 131.

(4) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 183.

(5) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 165، د. أمين صالح: دولة الخوارج في اليمن، ص: 136.

(وغالب فقهاء الجبال قديماً وحديثاً على معتقد الحنابلة)[1]. وكان بداية دخول عقيدة الحنابلة اليمن عندما دخلت كتبهم إليها وانتشارها مثل كتاب (الشريعة) للآجري، وكتاب (التبصرة) للشيرازي. كما يرجع إلى وجود الفقيه المراغي في اليمن الذي استقر في سَهْفنة والذي دَرَّسَ كتابه الذي ألفه والمسمّى (الحروف السبعة في الرد على المعتزلة وغيرهم من أهل الضلال والبدعة)[2]. كذلك كان الإمام يحيى بن أبي الخير رغم كرهه الخوض في علم الكلام يميل إلى عقيدة الحنابلة فقد ألف كتاباً في الرد على الأشعرية وعلى المعتزلة سمي (الإنتصار في الرد على القدرية الأشرار)[3].

كذلك انتشر في هذه المنطقة مذهب الأشاعرة عندما دخلت كتب المعتزلة إلى اليمن مباشرة وذلك عندما قدم الأيوبيون إليها سنة 569هـ/ 1173م حيث اصطحبوا معهم كتب الأشاعرة منها (المقالة القدسية) و(أول إحياء علوم الدين في عقيدة الأشعري) فاعتنقها أكثر شافعية اليمن، فلم تأت نهاية القرن السادس إلا وقد عمت عقائد الأشعرية في اليمن الأسفل[4].

أما اليمن الأعلى فقد دخلت إليه عقيدة المعتزلة بواسطة القاضي جعفر بن عبد السلام الذي ذهب إلى العراق لدراسة مذهبهم وإحضار كتبهم إلى اليمن، فأحضرها في منتصف القرن السادس الهجري، وقد حاول القاضي جعفر نشر عقيدة المعتزلة في اليمن الأسفل فاتجه إليها لمناظرة فقهاء أهل السُنَّة بها وعلى رأسهم الإمام يحيى بن أبي الخير، فلما صار في منطقة (إب) سنة 554هـ/ 1159م لقي بها سيف السُنَّة أحمد البريهي فناظره سيف السُنَّة وأسقط حجته[5]، وحذره من الاتجاه إلى الإمام يحيى إلى الجند وقال له: (إن نزلت لقيت البحر الذي تغرق فيه يحيى بن أبي الخير)[6] فلم يستطع القاضي جعفر الاتجاه نحو الإمام يحيى إلى

---

(1) الأهدل: تحفة الزمن، ص: 242. (2) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 124.

(3) ابن سمرة: نفس المصدر، ص: 180، 181، الأهدل: نفس المصدر، ص: 241، 242.

(4) يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، ق56ب. ود. أيمن فؤاد: تاريخ المذاهب الدينية في اليمن، ص: 73، كانت العقائد السائدة عند أهل اليمن في العهد الأموي هي مذهب أهل الجبر، والذي يقول: (إن الإنسان مجبر على أفعاله) وهو المذهب الذي كان الأمويون أنفسهم يميلون إلى الاعتقاد به وكان سائداً في دولتهم وفي عهد الخلفاء العباسيّين ظلت اليمن على الاعتقاد بمذهب الجبر لأن العباسيّين تركوا الناس على عقائدهم السابقة فلم يعملوا على تغييرها، أحمد الشرفي: عقائد أهل اليمن، ص: 52، 67.

(5) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 399.

(6) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 343، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 241.

الجند، وقد لقي القاضي جعفر في (إب) استنكاراً بها فقد (همَّ أهل السُنَّة به يضربونه فخرج هارباً)[1] منها متجهاً إلى حصن شواحِط حيث لقي بها الفقيه علي بن عبد اللّه الهرمي تلميذ الإمام يحيى بن أبي الخير الذي كلفه بمناظرة جعفر عندما سمع بنزوله إلى إب لمناظرة أهل السُنَّة. فناظره الهرمي (فقطعه في عدة مسائل)[2] بعدها عاد القاضي جعفر نحو صنعاء فاستقر في (سَنَاع) يدرس المذهب الزيدي وعقائد المعتزلة ويناظر المطرفية بها، وبذلك باءت محاولة القاضي جعفر المعتزلي في مناظرة أهل السُنَّة بالفشل، فلذلك انحصر مذهب الأشاعرة عند أهل السُنَّة في اليمن الأسفل في حين انحصر مذهب المعتزلة في اليمن الأعلى عند أهل الزيدية.

من خلال ذلك كله نجد أن المناطق اليمنية تميزت بعضها عن بعض في اعتناق المذاهب الإسلامية، وأدّى هذا التمايز إلى اختلاف تطورها المذهبي. فمناطق السهل التهامي سادها مذهب واحد هو مذهب أهل السُنَّة أما منطقة نجد اليمن وهي الهضبة الجبلية لليمن يمكن أن نقسمها بناء على هذا التمايز المذهبي إلى قسمين وهما قسم هضبة جنوب صنعاء أو ما يطلق عليه اليمن الأسفل وقسم هضبة شمال صنعاء أو ما يطلق عليه اليمن الأعلى.

فهضبة جنوب صنعاء انتشر فيها مذهب مالك وهو المذهب الذي كان يعتمد على النص أكثر من اعتماده على الرأي، لأنه نشأ في الحجاز، وأكثر أهل الحجاز رواة للحديث باعتبار أن المدينة ومكة داري الهجرة ومأوى الصحابة[3]. لذلك كان اعتماد أهل الحجاز كثيراً على النص، وعلى رأس مدرسة أهل الحجاز الإمام مالك بن أنس[4].

وعندما قدم مذهب الشافعي إلى اليمن وهو المذهب الذي يجمع بين الرأي والنص، تأثرت به هذه المنطقة وأصبح منذ القرن الرابع هو الغالب بها[5]، أما اليمن الأعلى وهو هضبة شمال صنعاء فكان الغالب عليها مذهب أبي حنيفة[6]. وهو المذهب الذي يعتمد على الرأي أكثر من الاعتماد على النص لأنه نشأ في العراق التي كان أكثر أهلها يعتمدون على الرأي[7] لبعدهم عن مصدر الحديث وهي

(1) الجندي: نفس المصدر، ص: 399.

(2) الجندي: نفس المصدر، ص: 344، الأهدل: نفس المصدر، والصفحة.

(3) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ص: 797.

(4) أحمد أمين: ضحى الإسلام، جـ3، ص: 151.

(5) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 80 ـ 87، 88، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 249.

(6) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 96.

(7) الحضري بك: تاريخ المذاهب الإسلامية، ص: 139.

مكة والمدينة، وكان على رأس مدرسة أهل الرأي في العراق الإمام أبو حنيفة النعمان[1]. وربما يعود انتشار مذهب أبي حنيفة بين صعدة وصنعاء إلى العلاقة التجارية التي كانت قائمة بين اليمن والعراق خلال القرون الهجرية الأولى، فقد كانت هناك طريق تجاري تربط بين البصرة وصعدة يبدأ من الركب شمال صعدة أو من نجران إلى البصرة عن طريق الرضراض[2]، كما كانت هناك أسواق تجارية للعراقيّين بصنعاء[3] كما يعود إلى انتشار تدريس الفلسفة بهذه المنطقة[4].

ونتيجة انتشار الفلسفة والاعتماد على الرأي بهذه الهضبة انتشر بها الكثير من الفرق الإسلامية والمذاهب مثل الأباضية، والإسماعيلية والزيدية، وربما يعود انتشار الزيدية بها. نتيجة للتقارب من الناحية الدينية فيما بين مذهب أبي حنيفة والمذهب الزيدي، فقد انتشر المذهب الزيدي في المناطق التي انتشر بها المذهب الحنفي، وأيضاً نتيجة للتقارب فيما بين المذهب الزيدي ومذهب الاعتزال في الاعتقادات الدينية، فقد انتشر مذهب المعتزلة في الأماكن التي تدين بالمذهب الزيدي. وهكذا نجد أن جميع المذاهب الفقهية التي اتفقت على ترجيح الرأي على النص انتشرت في هضبة شمال صنعاء. بينما المذاهب التي اتفقت على ترجيح النص أو تجمع بين الرأي والنص انتشرت في هضبة جنوب صنعاء.

ومما يتضح لنا من خلال استعراض فصل المذاهب الإسلامية في اليمن أن مذهب أهل السُنَّة انتشر عن طريق العلماء وساد معظم اليمن. بينما انتشر المذهب الزيدي عن طريق الأئمة الزيدية. كما يتضح أنه نتيجة للتعدد المذهبي في اليمن الأعلى من زيدية مخترعة وزيدية مطرفية وإسماعيلية وأباضية أعاق ذلك تلك المذاهب من الانتشار في أنحاء اليمن. فقد ظلت تلك المذاهب تتصارع مع بعضها البعض في معظم أوقاتها. لم يؤثر ذلك الصراع على الجانب الديني لهم فقط. بل أثر على الجانب السياسي لتلك المذاهب. كذلك يتضح أنه على الرغم من أن المذهب الزيدي أكثر قرباً لأهل السُنَّة إلاّ أنه لم يتمكن من الانتشار في أنحاء اليمن. وذلك بسبب ذلك الصراع وبسبب ارتباط أئمة الزيدية بقبائل متعادية مع بعضها البعض فأثر ذلك على انتشار الزيدية الديني والسياسي.

---

(1) أحمد أمين: ضحى الإسلام، جـ3، ص: 151.

(2) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 214 ـ 217.

(3) الرازي: تاريخ مدينة صنعاء، ص: 105.

(4) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 192.

الباب الرابع

الحياة الاجتماعية

الفصل الأول: عناصر السكان

الفصل الثاني: طبقات المجتمع

الفصل الثالث: مظاهر الحياة الاجتماعية

عناصر السكان

عناصر السكان:

تعددت العناصر التي شكلت المجتمع اليمني، أهمها القبائل اليمنية التي شكلت الغالبية العظمى لسكان اليمن، وإلى جانبهم استقرت عناصر أخرى متعددة، منهم الأحبوش والفرس (الخراسانيون والطبرانيون) والغز (السلاجقة والأكراد والأتراك) والأيوبيون وغيرهم.

1 ـ القبائل اليمنية:

الظاهرة العامة التي تميز بها اليمن أن مناطقه سميت بأسماء قبائله المتعددة. فهي تتكوّن من عدة قبائل أهمها حِمْيَر وَكَهْلاَن ويتفرع منهما عدة بطون.

فحِمْير تنتشر أكثر بطونها في المنطقة الواقعة فيما بين عدن وصنعاء، ومن أهم تلك البطون ذو أَصْبَح (الأَصَابح) ولَحْج والمَعَافِر والسَّحُول وذو الكَلاَع ورُعَيْن ويَحْصِب وتستقر على امتداد وسط هضبة جنوب صنعاء إلى عدن. وفي شرق الهضبة توجد أَبْيَن ويافع ورَدَاع ورَدْمَان والأَوْزَاع وذَمَار وَعَنْس. وفي غرب الهضبة بنو مَجيد وشَرْعَب ووُصَاب وجبْلاَن وجُبْلان ريمة وألْهان وحَرَاز[1]. ومن أشهر قبائل حِمْير أيضاً خَوْلان التي تنقسم إلى قسمين هما خَولان قضاعة ومساكنهم في صعدة وخولان العالية ومساكنهم شرق صنعاء حتى مأرب.

أما كَهْلان فمن أهم بطونها هَمَدان، وتستقر في هضبة شمال صنعاء حتى صعدة وتنقسم إلى قسمين فشرق الهضبة لبَكِيل وغربها حاشد وتعتبر مدينة خَيْوان هي الحد الفاصل بينهما، غير أن هذا الفاصل لم يمنع من وجود بعض قبائل كل من حاشد وبَكيل في مناطق القبيلة الأخرى[2]. ومن قبائل هَمَدَان الهامة بالإضافة إلى حَاشِد وبَكِيل أَرْحب وَنِهْم وعذَر وَحجور وقُدم ويَام وشاكر وَوادِعة[3].

---

(1) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 95، 96، 190، 209، الإكليل، جـ2، ص: 3، 86، 235، 236، 264 ـ 266، 363، د. نزار الحديثي: أهل اليمن في صدر الإسلام، ص: 43.

(2) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 217، ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ5، ص: 69.

(3) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 145، 215 ـ 217 ـ 227، د. نزار الحديثي: أهل اليمن في صدر الإسلام، ص: 46 ـ 48.

ومن كَهْلان أيضاً مَذْحج واستقرت شرق ذمار[1] وأشهر قبائلها بنو الحارث بن كعب وسعد العشيرة وجُعْفِي والنَخَع ومُرَاد وجَنْب وصُدَاء ورهاء وعَنْس[2]. والأَزْد وأهم منطقة لها هي مأرب[3]. ومن أشهر قبائلها عك[4] ودوس وغامد، وبَارق وأحجِن والجنادبة وزهران وغيرها[5]، وكذلك كِنْده ومنطقتها حضرموت ومن أهم قبائلها تَجِيب السَكَاسِك والسُكُون[6].

على أن القبائل اليمنية خالطت بعضها البعض وتداخلت مساكنها في بعض الأحيان، ففي صعدة سكنت يرسم من ذي الكلاع من حمير[7]. وقبائل من همدان إلى جانب خولان قضاعة. وفي المهجم سكنت في عاليتها قوم من خولان من حمير وفي أسفلها قوم من عك من الأزد. وفي القحمة سكن الأشاعر من الأزد من كهلان ومعهم قوم من خولان وهمدان[8]. وفي الكدراء سكن خليط من عك ومن الأشاعر، وفي باديتها أغلبهم من عك وقليل من خولان. وفي رداع سكنها خليط من حمير وخولان، وفي حضرموت سكنها إلى جانب كندة قوم من حمير. وفي الجند سكن إلى جانب حمير قوم من السكاسك من كندة وفي المعافر سكن إلى جانب حمير قوم من همدان هم بنو مران وقوم من السكاسك من كندة ومن بني وَاقِد. وفي نجران سكنها قوم من همدان في شرقها وقبائل من مذحج في شمالها كما سكنها قبائل من حمير ومن كهلان[9].

وقد سيطر على كثير من القبائل اليمنية صراع حربي متعدد تعددت أغراضه وأسبابه منها صراع حول السيادة والسلطة بمحاولة بعض القبائل السيطرة على القبائل الأخرى سياسياً أو السيطرة على أراضيهم الزراعية أو بسبب العداوات القديمة القائمة فيما بين القبائل وبعضها البعض[10].

---

(1) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 179.

(2) ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ5، ص: 89، الأكوع: البلدان اليمنية، ص: 264.

(3) ياقوت الحموي: نفس المصدر، جـ5، ص: 34.

(4) الهمداني: الإكليل، جـ2، ص: 238.

(5) ياقوت الحموي: نفس المصدر، جـ5، ص: 90.

(6) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 95، 96، 171، د. نزار الحديثي: أهل اليمن في صدر الإسلام، ص: 51 ـ 54.

(7) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 224، ياقوت الحموي: نفس المصدلر، جـ ، ص: ، الأكوع: نفس المرجع، ص: 102، د. نزار الحديثي: نفس المرجع، ص: 49.

(8) الهمداني: صفة، ص: 96، 97، 244.

(9) الهمداني: صفة، ص: 97 ـ 99 ـ 101 ـ 118، 165، 224 ـ 231.

(10)انظر الهمداني، الإكليل، جـ1، ص: 208، 298، جـ2، ص: 119، د. محمد أمين صالح: تاريخ اليمن الإسلامي، فصل 5، 6.

فمن هذه الصراعات القبلية، فقد كانت المنطقة فيما بين مأرب والجوف لا يزال القتال مستمراً بين أهلها[1]. كما حدث صراع قبلي بين أهل منطقة سهفنة قرية الشيخ أبي محمد بن يحيى ابن أبي الهيثم بن عبد السميع الصعبي السهفني (ت. 503هـ/ 1109م) وبين بني مليك حيث أن الأملوك غزوا سهفنة ونهبوها وقتلوا بعضاً من أهلها وأخرجوا بعضاً آخر، وكان الشيخ المذكور ممن تعرضوا للأذى في هذا الصراع[2].

كذلك حدثت حرب قبلية بمنطقة (سير) في مخلاف جعفر بين قوم الإمام يحيى ابن أبي الخير (ت. 558هـ/ 1162م) وبين من حولهم من العرب فخاف الإمام من تلك الحرب فخرج هارباً منها إلى ذي السفال[3].

كما حدث صراع قبلي سنة 560هـ/ 1164م في منطقة (ترن) على بعد ثلاثة فراسخ من العارة، حيث إن أهل (ترن) كانوا أهل (أنعام وخيل وزرع وضرع لما كثر المال عليهم وحسن الحال بهم) هجموا على الحجازيّين المجاورين لهم فانتصروا عليهم فاستعان الحجازيون بالسكاسك فهجموا على أهل (ترن) واستولوا على أراضيهم[4].

وأوضح دليل على الصراع الذي عم اليمن وصنعاء ما أورده صاحب الأنباء بقوله: (من سنة 405هـ/ إلى سنة 448هـ عمَّ الخراب صنعاء وغيرها من بلاد اليمن لكثرة الخلاف والنزاع وعدم اجتماع المملكة الواحدة... وأظلم اليمن وكثر خرابه وفسدت أحواله... وكانت صنعاء وأعمالها كالخرفة لها في كل سنة أو شهر سلطاناً غالباً عليها، حتى ضعف أهلها وانتقلوا إلى كل ناحية)[5].

العناصر الأجنبية:

كذلك استقرت باليمن إلى جانب سكانها الأصليّين عناصر أجنبية متعددة، مثل الفرس والأحباش والصومال والبربر والهنود وغيرهم. ففي عدن مثلاً استقر بها كثير من العناصر الآنفة الذكر لأغراض تجارية، وذلك بسبب أهمية عدن كمركز تجاري آنذاك، فاستقر بها عرب من الإسكندرية ومصر، ومن غير العرب استقر بها الفرس والمقديشيون والأحباش والبربر والهنود[6].

---

(1) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 200.
(2) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 334.
(3) الجندي: نفس المصدر، ص: 342.
(4) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 100 ـ 102.
(5) الهمداني: الصليحيون، ص: 63، عن أبناء 1 ـ 27، 28.
(6) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 134، 146.

وفي صعدة وصنعاء وذمار وجدت جماعات من الأبناء[1]. كما استقر في زبيد جماعات من الخراسانيّين قدموا ضمن جند ابن زياد حينما قدم من العراق إلى اليمن. وعددهم حوالي سبعمائة فارس من مسودة خراسان[2]. كذلك استقر في زبيد وتهامة الكثير من الأحباش والنوبيّين جلبوا إليها كجند أو رقيق في عهد بني زياد والدولة النجاحية[3]. كما استقر بها جماعات من الغز السلاجقة في عهد النجاحيّين[4].

كذلك استقر في اليمن لأغراض سياسية وعسكرية كثير من الأيوبيّين أو ما يطلق عليهم صاحب السمط (الغز) من الأكراد والأتراك والمماليك وقد تولت هذه العناصر حكم اليمن أثناء فترة الحكم الأيوبي لها 569 ـ 626هـ/ 1173 ـ 1229م.

وقد اختلطت هذه العناصر الأجنبية جميعاً في المجتمع اليمني وذابت أكثرها بفعل عامل الزمن، من ذلك ما قاله المكرم عن الأحبوش أورده عمارة بقوله: (واعلموا أن عرب هذه التهائم يستولدون الجواري السود)[5].

أهل الذمة:

وجد أهل الذمة في بعض مناطق اليمن. فالنصارى كانوا يوجدون في نجران، وفي جزيرة سقطرى[6]. أما اليهود فكانوا يوجدون في مناطق كثيرة من اليمن مثل نجران[7] وصعدة وصنعاء وذي جبلة والجند وعدن.

وكان أهل الذمة يشتغلون بالتجارة كما كانوا يملكون أراضٍ واسعة، من ذلك نصارى ويهود نجران كانوا يشترون الكثير من الأراضي الزراعية للمسلمين في نجران[8].

كذلك كان اليهود يشتغلون بالتجارة في عدن وخاصة أثناء نشاطها التجاري، حيث كان مضمون اليهودي وكيل تجار عدن وفي نفس الوقت رئيساً ليهود اليمن[9]

(1) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 100، 206، 224، الأبناء هم بقايا أبناء الفرس المستولدين في اليمن.

(2) عمارة: المفيد، ص: 46، اختلفت المصادر في عدد الخراسانيّين، فابن المجاور يذكر عددهم ألف وسبعمائة فارس، وابن الديبع والخزرجي يذكران عددهم تسعمائة فارس. قرة العيون، ص: 39 العسجد، ص: 97.

(3) عمارة: المفيد، ص: 67.

(4) انظر فصل العسكرية.

(5) عمارة: المفيد، ص: 134.

(6) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 209، 266.

(7) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 209.

(8) سليمان الثقفي: سيرة الإمام أحمد بن سليمان، ص: 6.

(9) جواتيان: دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، ص: 281.

في أيام الزريعيّين. وورثه في العمل التجاري ابنه داود بن مضمون اليهودي الذي ساهم في حفر ثلاثة آبار مياه في عدن[1].

كذلك اشتغل اليهود في الصناعة حيث كانوا في ذي جبلة يصنعون الفخار[2]، وفي عدن كانوا يعملون في صياغة الذهب والفضة[3].

الرقيق:

انتشر الرقيق في اليمن حيث كان يجلب الغلمان والجواري من الهند[4] ويجلب الوصيفات والوصفان من الحبشة والنوبة، فكان يدخل اليمن في كل سنة ألف رقيق وخمسمائة وصيف وخمسمائة وصيفة حبشية ونوبية[5].

وقد امتلأت أغلب قصور الأمراء والأثرياء بالرقيق والجواري والوصيفات في كل من عواصم الدويلات اليمنية في كل من زبيد وذي جبلة وصنعاء وعدن، فكان في قصر علي بن محمد الصليحي في صنعاء أربعمائة وصيفة[6] وكان في قصور فاتك النجاحي في زبيد أكثر من ألف جارية. وكانت قصور المفضل ابن أبي البركات في ذي جبلة مليئة بالجواري. ففي أثناء صراع أهل الجبال معه عندما نزل لنصرة عبيد فاتك اتجه إبراهيم بن زيدان إلى قصوره في حصن التعكر سنة 504هـ/ 1110م وأخرج كل ما بها من حظايا المفضل من السرابا. وألبسهن أجمل الأزياء وأحسنها وجعل الطارات بأيديهن وأطلعهن على سقوف القصور يضربن ويرقصن ليشاهدهن المفضل ابن أبي البركات فلما شاهدهن مات كمداً غِيرة عليهن[7].

ومن أشهر تجار الرقيق الشيخ حمير بن أسعد الذي تولّى منصب كاتب الوزير مَنّ اللّه الفاتكي وغيره من وزراء آل نجاح. فكان يجلب الجواري من عدة أماكن ثم يقوم بتربيتهن في داره وتعليمهن الغناء والطبخ وخزن الثياب وعمل الطيب، ثم يبعهن. وقد كان عمله في البداية منادماً وخادماً لجماعة من ملوك الجبال ثم نزل تهامة واشتغل بتخريج الجواري والمغنيات، كما كان يتاجر ببيع السموم الذي يقتل به الملوك حيث إن كل من مات بالسم من ملوك بني نجاح ووزرائهم من

(1) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 131.
(2) عمارة: المفيد، ص: 138، 139.
(3) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 32.
(4) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 143.
(5) عمارة: المفيد، ص: 67.
(6) يحيى بن الحسين: أنباء الزمن، ق40.
(7) عمارة: المفيد، ص: 158، 211.

سمومه[1]. وربما كان يستخدم ما يهاديه من الجواري أو من يبيعهن لبعض الشخصيات ليقمن بوضع السموم لمخدومهن.

ويشتهر سوق الجواري في عدن فكانت الجارية إذا أرادوا بيعها تبخر وتطيب وتعدل ويشد وسطها بمئزر ويطوف بها المنادي في الأسواق. وعندما يحضر التجار لشرائها يفحصونها فحصاً دقيقاً فيقلبون يديها ورجليها وفخديها وسرتها وصدرها ونهديها وشعرها وأسنانها ولسانها وغير ذلك من الأماكن الأخرى[2] فإذا أعجبته اشتراها. ويبدو أن هذا التفتيش الدقيق من أجل معرفة سنها وجمالها، وخلوها من العيوب. فكلما كانت الجارية صغيرة السن وجميلة أقبل الناس على شرائها. ويبدو أن بيع الجواري كان مرتفع الثمن وخاصة صغيرات السن، لذلك يدقق المشتري في التفتيش من أجل مبلغ الشراء ومعرفة صغر الجارية من كبرها.

(1) عمارة: المفيد، ص: 217.
(2) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 145.

طبقات المجتمع

ذكر بعض المؤرخين أن المجتمع اليمني تمثل فيه عدة طبقات وتشمل الطبقة عدة طوائف، مثل طبقة الفقهاء فيها طائفة فقهاء الشافعية، وطائفة فقهاء المالكية، وطائفة فقهاء الحنفية[1]. وبناء على مفهوم المهنة الواحدة والتشابه في الناحية العلمية والمالية والسلطة للجماعات وما أشار إليه المؤرخون اليمنيون[2]. يمكن تقسيم المجتمع في اليمن في العصر الإسلامي موضوع البحث إلى قسمين: **أحدهما**: الطبقات الخاصة، وتشمل طبقة الحكام، طبقة العلماء، طبقة كبار الملاك. **والثاني**: الطبقات العامة، وتشمل الجند والرعايا والفلاحين، وأرباب الحرف، وهذه الطبقات جميعاً تتكوّن من جميع عناصر المجتمع اليمني سواء العناصر اليمنية أم العناصر الأجنبية.

على أن التشكيل الطبقي في المجتمع اليمني كان غير جامد ولكنه كان متحركاً يسمح بالتنقل من طبقة إلى أخرى بالصعود أو النزول. فالأرقاء الذين جلبوا إلى المجتمع اليمني لم يظلوا رقيقاً، بل أصبحوا كبار رجالات السلطة والثروة والجاه والعلم. مثل الحال في الدولة النجاحية التي كان الأمراء والوزراء ورجال الدولة وقادة الجند بها من الرقيق، فالأمير نجاح وأولاده تولوا رئاسة الدولة في زبيد، وتولّى عبيدهم الوزارة وقيادة الجند، كما كانوا من كبار الملاك، كذلك بلغوا مراتب كبيرة في العلم، فجياش بن نجاح كان شاعراً مؤرخاً إلى جانب توليه رئاسة الدولة النجاحية[3].

ونستعرض هنا الطبقات الاجتماعية في اليمن من حيث التدليل على تواجد هذه الطبقات في المجتمع اليمني في فترة البحث. وليس لاستعراض أعمال كل طبقة.

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 223 ـ 226، الخزرجي: العسجد المسبوك، ص: 126، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 357.

(2) المؤرخون اليمنيون هم، عمارة، الخزرجي، ابن الديبع.

(3) انظر عمارة؟: المفيد، ص: 194، 232، الخزرجي: العسجد المسبوك، ص: 104، 128، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 351 ـ 359.



أولًا
الطبقات الخاصة

1 ـ طبقة الحكام:

وتشتمل عدة فئات أو طوائف هم: الملوك والسلاطين والولاة وزعماء القبائل والوزراء والقادة أو أرباب السيوف وكبار الموظفين وكل من يشترك معهم فيما يتعلق بالحكم. وقد تعددت عناصر الحكام في اليمن، فمنها الزعامات القبلية، والأشراف والأحبوش ثم الغز (الأكراد والأيوبيون).

فالزعامت القبلية تعد من أهم العناصر التي تولت السلطة في اليمن مثل بني الكرندي من حمير، تولوا السلطة على مخلاف المَعَافر ومخلاف الجند ومخلاف عُنَّة (العدين) حتى ذي جبلة. وبني وائل بن عيسى من ذي الكلاع من حمير، تولوا مخلاف أحاظة التي من حصونها زهران ويَفُور. وعزان وشعب ومن مدنها شاحط، كما تولّى السلطان أبو عبد اللّه الحسين ابن التبعي (ت. 478هـ/ 1085م) من حمير الحكم على حصن خدد والشوافي[1]. وإلى جانب أولئك فقد تولت السلطة في اليمن العديد من الزعامات القبلية الأخرى وأشهرهم آل الروية وآل أبي الفتوح الخولاني وبنو يعفر وآل شاور وآل الزواحي وبنو الصليحي وبنو زريع وبنو حاتم. مما يدل على أن العناصر القبلية كانت أهم العناصر الذين وصلوا إلى طبقة الحكام في اليمن آنذاك.

وقد تصارعت الزعامات القبلية حول السلطة في اليمن، فكان الصراع حول السيطرة على صنعاء بين قبائل همدان وخولان وحمير والأبناء وبني شهاب[2].

وتولت الزعامات القبلية السلطة في اليمن بعضها بواسطة التأييد من الخلافة العباسية مثل آل يعفر من حمير في صنعاء، أو بتأييد من الخلافة الفاطمية مثل الصليحيّين وآل زريع من همدان، وبعضها بواسطة القوة وعدم التبعية لإحدى الخلافتين العباسية أو الفاطمية مثل بني مهدي من حمير[3].

ومن الذين حكموا مناطق من اليمن الأشراف، وهم ينتسبون إلى علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه، ويعرفون بالسادة، وقد تنوّعت مذاهبهم فمنهم من

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 87 ـ 89، 90 ـ 92.

(2) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 64، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 231.

(3) انظر فصل التبعية للخلافة من الباب الأول.

تمذهب بمذهب أهل السُنَّة، ومنهم من تمذهب بالمذهب الزيدي.

فمن الذين اعتقدوا المذهب الزيدي باليمن الأئمة الزيدية وأولهم الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين[1]. الذي قدم إلى صعدة من المدينة سنة 280هـ/ 893م. بناء على استدعاء من قبائل خولان بصعدة له ليحل النزاع القائم فيما بينهم، فاستقر في بلادهم حاكماً عليهم وظل يحكمهم هو وذريته من بعده[2] ومنهم أيضاً الإمام أبي الفتح الديلمي (ت. 444هـ/ 1052م) الذي قدم إلى اليمن من بلاد الديلم، وهو أبو الفتح ابن الناصر بن الحسين[3]. ومن السادة أيضاً الشريف الفاضل القاسم بن جعفر بن القاسم بن علي العياني (ت. 468هـ/ 1075م) الذي قدم إلى اليمن من الحجاز[4] ومنهم كذلك الأشراف بنو حمزة نسبة إلى حمزة بن أبي هاشم (ت. 459هـ/ 1066م) الحسن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحسن[5].

ومن الأشراف الذين يعتنقون مذهب أهل السُنَّة الأشراف السليمانيون الذين حكموا المخلاف السليماني، وكان أولهم غانم بن يحيى بن سليمان الذي طرد من مكة سنة 450هـ/ 1058م[6] وقد تولَّى حكم المخلاف من بعده أبناؤه: منهم الشريف

---

(1) يحيى بن الحسين: غاية الأماني جـ1، ص: 166، د. محمد أمين صالح: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 147. هو يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (نفسه).

(2) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، جـ1، ص: 167، د. محمد أمين صالح: تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 148، 149.

(3) زبارة: إتحاف المهتدين، ص: 51، هو أبو الفتح الناصر بن الحسين بن محمد بن عيسى بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن الحسن بن زيد بن علي بن أبي طالب (نفسه).

(4) زبارة: إتحاف المهتدين، ص: 49، هو القاسم بن جعفر بن القاسم بن علي العياني بن عبد الله بن محمد بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (نفسه).

(5) الأشرف الرسولي عمر بن رسول: طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب، ص: 94، دمشق 1949م، هو الحسن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحسن بن القاسم بن إسماعيل بن إبراهيم طباطبا بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (نفسه).

(6) زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، جـ1، ص: 38، الأشراف السليمانيون كان مذهبهم مذهب أهل السنة، بدليل استنجادهم بالخلافة العباسية وصلاح الدين الأيوبي، عندما اتجه إليهم ابن مهدي لقتالهم وقتل وهاس بن غانم سنة 561هـ/ 1165م أخو حاكم المخلاف الشريف قاسم بن غانم. (الخزرجي: العسجد، ص: 147، 148) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 376، د. محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 72، د. محمد أمين صالح: دولة الخوارج في اليمن، بنو مهدي في زبيد، ص: 141، كما أنهم ظلوا موالين للنجاحيّين السُنَّة (عمارة: المفيد، ص: 222، 290) وأيضاً والوا الأيوبيّين ولم يوالوا الزيدية المجاورين لهم.

قاسم بن غانم الذي استقبل تورانشاه الأيوبي سنة 569هـ/ 1173م[1] في حَرض وشكا له عن أعمال عبد النبي ابن مهدي حاكم زبيد. وقد أبقاه تورانشاه على حكم المخلاف، ثم تولّى حكم المخلاف بعده ابنه المؤيد بن قاسم السليماني. وفي عهده قدم الملك المسعود الأيوبي سنة 612هـ/ 1215م. فقدم له هذا الشريف فروض الولاء والطاعة[2]. ولذلك تركه المسعود مستمراً في حكم المخلاف، كما أقطعت له حَرَض والهَلْيَة[3].

كما دخل العبيد الأحباش طبقة الحكام في تهامة اليمن، وكانوا يجلبون في عهد بني زياد على شكل وصفان من الحبشة والنوبة، يصل منهم في كل سنة ألف رأس للعمل كعبيد في القصر أو جند في الجيش. وبرزت منهم عناصر تولوا الوصاية والوزارة، ثم دلفت إليهم السلطة ممثلة في تولية بني نجاح. واستمر بنو نجاح في الاعتماد على العبيد، ففي أثناء صراع النجاحيّين مع الصليحيّين بعث سعيد الأحول بن نجاح إلى الحبشة لشراء عشرين ألف رجل ممن يجيدون الرمي بالحراب، لذلك امتلأت زبيد بالأحباش. فعندما نزل المكرم إليها سنة 461هـ/ 1073م اصطفت لمقاومته حوالي عشرون ألف رجل منهم[4].

وكان الوصفان الأحباش يربون في زبيد تربية عسكرية في قصور وبيوت الحكام والأمراء، وكانوا يصعدون في الترقية إلى المناصب العليا، فمثلاً لذلك كان سرور الفاتكي أحد الوصفان الذين اشترتهم الحرة الصالحة عَلَمْ أم فاتك بن منصور بن جياش حيث (تربى في حجرها ولم يلبث أن ترعرع وبرع ثم ولته زمام المماليك وصرفت إليه الرياسة في القصر) ثم (ولي العرافة على طائفة من الجند ثم رقت به الحال إلى أن ولي الخطابة بين السلطان وبين الوزراء الأكابر واستغنى به عن الأزمة... وترقت الحال بسرور حتى أخرج الوزير مفلح من زبيد) وتولّى الوزارة مكانه[5].

وقد ظلّ الأحباش يحكمون في تهامة كأمراء ووزراء وقوّاد حتى أزالهم بنو مهدي عام 554هـ/ 1559م[6].

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 16، د. محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 83، هو غانم بن سليمان بن وهاس بن داود بن أبي الطيب بن عبد الرحمن بن عبد الله بن داود الحموي بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن سليمان بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، (الرسولي: طرفة، ص: 108).

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 166، د. محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 83.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 174.

(4) عمارة: المفيد، ص: 67، 131، 203.

(5) عمارة: المفيد، ص: 224، 225. (6) عمارة: المفيد، ص: 209، 233.

وقد اختلط الحكام الأحباش بالمجتمع اليمني وتزوجوا منه، مثل الأمير جياش بن نجاح الذي تزوج امرأة من أهل موزع[1]. كما كانوا يتقربون لأفراد المجتمع، فيزورون الفقهاء ويعودون المرضى ويحضرون عقد النكاح والولائم ويستجيبون للمتظلمين من الرعايا[2].

ومن طبقة الحكام في اليمن الأيوبيون ونوابهم، وهم من عناصر كردية وعناصر تركية وكانت بداية حكمهم لها سنة 569هـ/ 1174م عندما اتجه توران شاه بجيشه لفتحها، وقد سيطر الأيوبيون على اليمن كلها عدا صعدة في بعض الفترات، وبعد توران شاه تولَّى السلطة فيها أخوه الملك سيف الإسلام طغتكين ثم إبناه المعز إسماعيل والناصر ثم شاهنشاه ثم الملك المسعود ابن الكامل، وقد استمر الحكم الأيوبي لليمن حتى سنة 626هـ/ 1229م[3].

وتعد طبقة الحكام من أهم الطبقات تأثيراً على المجتمع، فهي عامل مساعد على نهوض المجتمع أو ركوده، كما أن لها الدور الأكبر في استمرار الحكم لفترة طويلة أو إنهياره بسرعة. فالحسن بن سلامة (ت. 426هـ/ 1034م) تميز عهده بالأعمال الحسنة في اليمن، حيث إنه استطاع أن يعيد توحيد اليمن بعد أن كانت مناطق الجبال قد استقلت عن حكم بني زياد، وبنى عدة مدن ومهد الطريق عبر المناطق اليمنية من حضرموت إلى عدن ومنها إلى مكة وعلى امتداد هذه الطريق بين المسافة والأخرى أنشأ بها الجوامع وحفر الآبار[4].

بينما آل مهدي الذين حكموا زبيد منذ سنة 554هـ/ 1158م عملوا القتل والتخريب، فهرب منهم علماء زبيد إلى كل من عدن والجبال ومكة، وأحرقوا مسجد الجند سنة 558هـ/ 1162م بمن فيه من الضعفاء والعجزة والعاكفين وغيرهم، كما أنهم قتلوا الشريف وهاس بن غانم السليماني أخو حاكم المخلاف السليماني[5]، لذلك لم تستمر سلطتهم غير خمس عشرة سنة من سنة 554هـ/ 1158م حتى سنة 569هـ/ 1174م.

كذلك المعز إسماعيل الأيوبي ظلم وأخاف الكثير من مماليك أبيه مما جعل

---

(1) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 294، 295.

(2) عمارة: المفيد، ص: 228.

(3) انظر، ابن حاتم السمط، د. محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن.

(4) عمارة: المفيد، ص: 68 ـ 71.

(5) عمارة: المفيد، ص: 233 ـ 236، الجندي: السلوك، جـ2، ص: 518، 519، الخزرجي: العسجد، ص: 136 ـ 145، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 364 ـ 373.

الكثير منهم يهربون منه[1]، فقد قام بمجرد تولية السلطة بقتل واليين لأبيه هما القاضي الأسعد والي حرض، والهمام أبا ريّا والي صنعاء سنة 594هـ/ 1198م[2]. كما قتل الكثير من غلمان أبيه[3]، لذلك تمرد عليه الجند فكثرت الفتن في عهده وفي النهاية قتل من قبل الأكراد في زبيد سنة 598هـ/ 1202.

وقد شكل الحكّام أعلى السلم الطبقي في المجتمع اليمني، تمتعوا بسلطات واسعة مثل فرض الضرائب أو إلغائها[4]. وتعيين الوزراء أو عزلهم. كما تمتع هؤلاء الأمراء والوزراء بسلطات واسعة على من هم أقل منهم سلطة.

وحصلت هذه الطبقة على ميزات كبيرة في المجتمع من حيث بناء وسكن القصور الكبيرة والعديدة، من ذلك أن علياً الصليحي عندما جعل صنعاء مقراً له بنى بها عدة قصور كما بنى المكرم والسيدة الحرة قصرين لهما في ذي جبلة سمي كل منهما بدار العز[5].

وكان بعض الحكام ينعزلون في سكنهم عن أهل المدينة، من ذلك الأئمة الزيدية في صعدة، يوضح ذلك ابن المجاور بقوله: (وأما درب الإمام فهو حصن بناه أبو محمد بن عبد اللّه بن حمزة ما بين الشمال والمشرق منفرداً بذاته لم يخالطه شيء قريب من البلد، لم يسكنه إلا الإمام وعترته)[6].

واحتوت قصور الحكام العديد من الجواري. فقد كان المفضل ابن أبي البركات الحميري والي حصن التعكر في ذي جبلة للسيدة الحرة يملك العديد من الحظايا والسراري. وكان منصور بن فاتك النجاحي يملك في قصره في زبيد أكثر من ألف سرية، كذلك كان بعض الحكام يملكون ثروة كبيرة، من ذلك الوزير النجاحي زريق الفاتكي كان يملك ثروة كبيرة احتار الفقهاء في قسمتها لكثرتها وكثرة أولاده من بعده[7].

2 ـ طبقة العلماء:

تشمل طوائف الفقهاء القضاة والمحدثين والقراء والمفسرين بالإضافة إلى

---

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 174.
(2) ابن حاتم: السمط، ص: 44، 45.
(3) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 134.
(4) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 80، 140.
(5) عمارة: المفيد، ص: 119، 142.
(6) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 206.
(7) عمارة: المفيد، ص: 158، 211، 212، 213.

الأدباء والشعراء واللغويّين وكل من يشترك معهم في الصفة العلمية.

وقد استأثرت طبقة العلماء بالكثير من وظائف الدولة وخاصةً الدينية مثل القضاء والفتوى، وكذلك الوظائف العلمية والإدارية مثل التدريس والوزارة وأعمال الديوان.

ويعتبر العلماء من أهم الطبقات نفوذاً في الدولة وإجلالاً لدى الحكام الذين كانوا يحترمون العلماء ويبجلونهم، مثل السيدة الحرة الصليحية كانت تجلّ الإمام الفقيه يحيى ابن أبي الخير الذي قدم إلى ذي جبلة (بشفاعة إليها بسبب أيتام كانوا تحت يده وعلى أرضهم جور، فوهبت ذلك للفقيه وكتبت للأيتام مسامحة جارية إكراماً لقدوم الفقيه)[1].

ساهمت طبقة العلماء في تأييد الطبقة الحاكمة أو معارضتها، من ذلك أن الفقيه الحسن بن أبي عقامة كان أحد المساهمين في إعادة السلطة في زبيد من الصليحيّين إلى جياش النجاحي، وذلك بسبب الاختلاف المذهبي، حيث إن الحسن بن أبي عقامة كان سني المذهب يرى أن النجاحيّين المعتنقين لمذهب أهل السُنَّة أولى بالسلطة في زبيد من الصليحيّين الإسماعيلية[2]. كما قام الفقيه عبد اللّٰه المصوع السني المذهب بقتل خالد بن أبي البركات الذي مال إلى المذهب الإسماعيلي[3]. كذلك استولى فقهاء الشافعية على حصن التعكر في ذي جبلة بمساعدة جماعة من الرعايا سنة 504هـ[4].

كان لطبقة العلماء أثر بارز على الحياة الاجتماعية في اليمن فقد كان لهم مساهمات كبيرة في مجال تدريس العلوم والانفاق عليه وفي مجال النهضة العلمية والمذهبية[5]. فمثلاً الفقيه أبو العتيق أبو بكر ابن الفقيه أبي عبد اللّٰه محمد بن عبد اللّٰه بن إبراهيم اليافعي الجندي (490/ 1096م) (كان سخي النفس حسن الأخلاق موالفاً للأصحاب، عالي الهمة باذلاً لجاهه وماله في منافع الإسلام، استوهب خراج أراضي الفقهاء في الأجناد، ثم سئل التخفيف في ذلك من الأرض التي حول المدينة فجعل ذلك حيث يسمع الأذان)[6].

(1) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 345.
(2) الجندي: نفس المصدر، ص: 294.
(3) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 96.
(4) إدريس عماد الدين: عيون الأخبار، جـ7، ق179. عمارة: المفيد، ص: 158.
(5) انظر الباب الخاص بالحركة العلمية والتعليمية.
(6) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 345.

بلغ الكثير من طبقة العلماء مبلغاً كبيراً في النواحي العلمية، وقد أطلقت عليهم ألقاب متعددة تعبر على مقدار بلوغهم العلمي مثل إمام، وعالم ورئيس مذهب أو رئيس علم. وتولّى الكثير منهم وظائف علمية هامة. من ذلك على سبيل المثال الفقيه أبو عبد اللّه محمد ابن القاضي عبد اللّه ويعرف بالحفائلي تولّى رئاسة طبقة فقهاء المذهب الشافعي أيام دولة بني نجاح[1]. والفقيه محمد بن أبي بكر المدحدح تولّى رئاسة طبقة فقهاء المذهب الحنفي أيام بني مهدي[2]. أما الفقيه إسحاق العشاري المعافري (ت. سنة 460هـ/ 1067م) فقد تولّى رئاسة الفقه في بلدة المعافر، كما تولّى رئاسة الفقه بالإجماع الفقيه يحيى بن أبي الخير (ت. سنة 558هـ/ 1162م)[3]. كذلك فإن الفقيه محمد بن عبد اللّه (ت. سنة 590هـ/ 1193م) تولّى رئاسة الفتوى بذي أشرق[4]. والفقيه أبو الخطاب عمر بن علي بن سمرة الجندي (547 ـ 586هـ/ 1152 ـ 1190م) تولّى رئاسة الفتوى بذي جبلة[5]. والفقيه إبراهيم بن إسماعيل بن حديق السكسكي تولّى رئاسة علم في جَبَأ[6]، والفقيه أبو العتيق أبو بكر ابن الإمام جعفر بن عبد الرحيم المحابي (ت. سنة 500هـ/ 1106م) انتهت إليه رئاسة العلم باليمن[7].

وممن كان إماماً في الحديث الفقيه أبو الوليد عبد الملك بن أبي ميسرة اليافعي (ت. سنة 473هـ/ 1080م)[8] والفقيه الحافظ علي بن أبي بكر بن أحمد العرشاني (ت. سنة 557هـ/ 1161م)[9] أما الفقيه أبو محمد الحسن بن أبي عقامة المتوفى لبضع وثمانين وأربعمائة فقد كان إماماً في أنواع العلوم[10].

وممن تولّى علمين معاً الفقيه أبو عبد اللّه محمد بن سالم بن زيد الأصبحي البعداني (475 ـ 577هـ/ 1084 ـ 1189م) تولّى رئاسة التدريس والفتوى في (الملحمة في بعدان) والفقيه عبد اللّه بن عبد الرزاق بن حسن بن أزهر (ت.

---

(1) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 440، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 339.
(2) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 188، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 389.
(3) الجندي: نفس المصدر، ص: 272، 343.
(4) الأهدل: تحفة الزمن، ص: 307.
(5) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 538، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 310.
(6) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 231.
(7) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 282.
(8) الأهدل: نفس المصدر، ص: 188.
(9) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 171.
(10) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 291 ـ 295.

528هـ/ 1133م) تولّى رئاسة التدريس والفتوى في (ذي أشرق) وأبو محمد عبد اللّه بن أبي القاسم بن حسن الذي عرف بابن الآبار تفقه بابن عبدويه انتهت إليه رئاسة التدريس والفتوى بزبيد[1].

تنوّعت الحالة المالية لطبقة العلماء فبعضهم كان فقيراً يدل على ذلك أن الوزير مَنَّ اللّه الفاتكي (تصدق على مدارس الفقهاء الحنفية والشافعية بما أغناهم عمن سواهم من الأراضي والمرافق والرباع). كذلك كان سرور الفاتكي يصرف لهم سنوياً اثني عشر ألف دينار يوضح ذلك عمارة بقوله: (رأيت جريدة الصدقات التي يدفعها عند دخوله إلى زبيد للفقهاء والقضاة والمتصدرين في الحديث والنحو واللغة وعلم الكلام والفروع اثني عشر ألف كل سنة)[2].

كما كان بعضهم أغنياء ورثوا الثراء والغنى من أسرهم، ومن هؤلاء الفقهاء الأغنياء على سبيل المثال. الفقيه أبو محمد عبد اللّه ابن الفقيه عمر بن المصوع (ت. سنة 480هـ/ 1087م) كان يملك أراضٍ كثيرة ورثها عن أمه وأبيه حيث كان غالب الصوافي القديمة بذي السفال ملكَ أبيه[3]. والفقيه أبو الفتح يحيى بن عيسى بن إسماعيل بن محمد بن ملامس (ت. سنة 420هـ/ 1029م) الذي سكن (المشيرق)[4]. والفقيه علي بن عباس بن عيسى بن مفلح المليكي (ت. بعد سنة 580هـ/ 1184م) الذي سكن (عدن)[5].

كذلك الفقيه أبو بكر ابن الشيخ يحيى بن إسحاق بن علي بن إسحاق العياني السكسكي (عاصر ابن سمرة) حيث كان أبوه الشيخ يحيى الذي سكن (جبأ) من أعيان اليمن في الصلاح وثروة المال وفعل المعروف وكثرة الحج (وكان يقوم بكفاية نحو مائة طالب من الطعام)[6] وغيرهم من الفقهاء.

3ـ طبقة كبار الملاّك:

وتشمل كبار ملاك الأراضي الزراعية وكبار التجار، فالمال كان له أثره الفعال

(1) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 319، 320، 377، 391.

(2) عمارة: المفيد، ص: 210، 227.

(3) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 96، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 272 ـ 276، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 185 ـ 187، قام هذا الفقيه السني بقتل خالد بن أبي البركات الحميري فقتل وصدورت أمواله من قبل المفضل بن أبي البركات الحميري.

(4) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 266.

(5) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 219، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 270.

(6) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 446، 447.

في المجتمع اليمني حيث إنه جعل أصحابه طبقة متميزة في المجتمع، فقد ساهم أو ساعد في التحصيل العلمي لطبقة العلماء، كما ساهم في صعود بعض الزعامات القبلية إلى السلطة. وتشمل هذه الطبقة نوعين من الملاك هما: ملاك الأراضي الزراعية والتجار.

فبالنسبة لملاك الأراضي الزراعية تملك كثير من اليمنيّين أراضي زراعية واسعة، مثل الشيخ أحمد المعلم الذي (كانت أملاكه جليلة في أماكن كثيرة) وأغلبها في المجرعة (المقرعة) وذي جبلة وضراس، وذي أشرق[1]. كما كان من كبار ملاك الأراضي الزراعية بعض طبقة الحكام وبعض طبقة العلماء كما هو موضح سابقاً.

أما التجار فقد وجدوا في الكثير من مدن اليمن الرئيسية، حيث إن التجارة نشطت في اليمن في فترة البحث نشاطاً كبيراً فكانت عدن مركزاً رئيسياً في النشاط التجاري يربط بين الشرق والغرب. كذلك كانت زبيد وصنعاء وصعدة من المراكز التجارية الهامة في اليمن، وقد كسب التجار من وراء عملهم في التجارة مبالغ كثيرة، حيث كان الرجل منهم يملك الكثير من الأموال، ويوضح ذلك ابن بطوطة بقوله: (وللتجارة منهم أموال عريضة، وربما يكون لأحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه لا يشاركه فيه غيره لسعة ما بين يديه من الأموال)[2].

وقد كسب التجار حظوة كبيرة لدى الحكام فقربوهم إليهم، وكانوا يلجأون إليهم في وقت الشدّة لإمدادهم بالمال، من ذلك أن الداعي سبأ بن محمد الزريعي أمير عدن عندما أفلس في حربه مع ابن عمه أبي العلاء اقترض من تجار عدن مبلغ ثلاثين ألف دينار قضاها عنه ولده علي بن سبأ فيما بعد[3].

كما كان بعض من الفقهاء يعملون بالتجارة إلى جانب التدريس أو يشاركون غيرهم في التجارة بأموالهم مما يعود عليهم بكثير من الأرباح فيصرفون منها في المجالات العلمية. منهم الإمام زيد بن عبد اللّه اليفاعي المعافري كانت له في بلده أموال كثيرة، فعندما ارتحل إلى مكة للمرة الثانية سنة 500هـ/ 1106م والتي مكث بها مدة 12 سنة تولّى خلالها رئاسة التدريس والفتوى بها[4]. حيث كانت ثمار أراضيه الزراعية تأتيه من اليمن إلى مكة، فيعطي بعض هذا المال تجار مكة ليتاجروا له، حيث كانوا يسافرون للتجارة إلى كل من عدن، وزبيد، ومصر، والعراق، فيعودون

---

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 170.

(2) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص: 251.

(3) الخزرجي: العسجد، ص: 86.

(4) الأهدل: تحفة الزمن، ص: 212.

له بأرباح هذه التجارة فتجمعت له من تلك العملية ثروة كبيرة، وقد بلغ ماله منها حوالي أربعة عشر ألف مثقال، كان يصرفها في سبيل التدريس[1].

وممن استغل ماله في التجارة من الفقهاء الوافدين على اليمن الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبدويه، كان من أبناء التجار المسافرين في البحار، وقد دخل اليمن آخر المائة الخامسة للهجرة، سكن عدن ثم رحل إلى زبيد ومنها رحل إلى جزيرة كمران واستقر بها. فأرسل عدداً من الرقيق يشتغلون في التجارة له إلى كل من الحبشة، والهند، وعدن، ومكة، فكسب أموالاً كثيرة، وقد بلغت تجارته حوالي ستون ألف دينار وكان ينفق معظم هذه الأموال على الطلبة المتفرغين عنده للدراسة[2]، وهكذا استغل بعض الفقهاء أموالهم في التجارة وإنفاقها على التعليم.



الطبقات العامة

تعد هذه الطبقات من أهم الطبقات وأكثرها تعداداً وانتشاراً، وتشمل على الجند والرعايا والفلاحين وأرباب الحرف.

1 ـ طبقة الجند:

تعتبر هذه الطبقة من الطبقات المميزة في المجتمع وخاصة كبارهم، باعتبار أنها الطبقة المحاربة، وأنهم يملكون القوة، بواسطتهم يتم فرض السلم والحرب.

ونتيجة لأهمية الطبقة العسكرية كان أول ما يقوم به الحكام هو استحلافهم للعسكريّين بالطاعة لهم، من ذلك عندما مات علي الأعز الزريعي قدم أخوه محمد بن سبأ من ذي جبلة إلى عدن لتولي السلطة بعد أخيه. فقام الوزير بلال المحمدي باستحلاف العسكر جميعاً بالولاء والطاعة له ثم سلمه مقاليد الحكم في عدن[3]. كذلك عندما تولّى غازي بن جبريل الأتابكية للملك الأيوبي جمع غازي إليه الأكابر من الأمراء والعسكريّين فاستحلفهم للناصر وله[4].

وتنوّعت عناصر الجند، فمنهم رجال القبائل اليمنية الذين ساهموا في إقامة

---

(1) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 121.

(2) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 144، 145، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 223، العامري: غربال الزمان، ص: 416.

(3) الخزرجي: العسجد، ص: 87، 88، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 309. العبدلي: هدية الزمن، ص: 57/ محمد كريم: عدن، ص: 159.

(4) ابن حاتم: السمط، ص: 148.

الدولة الصليحية والزريعية والحاتمية والإمامة الزيدية ومنهم الطبريون الزيدية الذين قدموا من طبرستان إلى اليمن لمناصرة الأئمة الزيدية منذ عهد الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين[1]، ومنهم الأحبوش الذين جلبوا كجند أو رقيق إلى اليمن فكانوا عماد الدولة النجاحية[2]. ثم الغز (الأكراد والأتراك الذين قدموا مع الأيوبيّين إلى اليمن)[3].

وكان العسكريون من أكثر الطبقات صعوداً إلى الطبقة الحاكمة، وقد اختلف صعود الطبقة العسكرية إلى الطبقة الحاكمة من عنصر إلى آخر. ففي القبائل اليمنية كان أهم الشخصيات صعوداً هم الزعامات القبلية أو من يقربون إليهم، لأن النظام القبلي يلزم أفراد القبيلة طاعة زعمائها، لذلك كان كبار القادة العسكريّين في النظام القبلي زعماؤها.

ففي الدولة الصليحية كان أهم الشخصيات العسكرية التي اعتمدوا عليها آل الزواحي وآل الصليحي وآل أبي الوليد الحميري. فمن آل الزواحي عامر بن سليمان الزواحي الذي كان متولياً حصون مغارب اليمن الأعلى[4]، ومن آل الصليحي عدة شخصيات أهمهم سبأ بن أحمد ابن المظفر الصليحي الذي كان متولياً حصن أشيح وهو الحصن المقابل لزبيد وأعمالها المسيطر عليها النجاحيون، لذلك كان سبأ بن أحمد الصليحي في صراع مستمر حول السيطرة على تلك المنطقة، وقد استمرت الحرب سجالاً بين الطرفين إلى أن حدثت بينهما وقعة الكظائم على باب زبيد سنة 479هـ/ 1086م والتي انتصر فيها النجاحيون وقتل من الصليحيّين أغلب جيشهم المكوّن من ثلاثة آلاف فارس وعشرة آلاف راجل[5].

وعندما مات سبأ بن أحمد الصليحي سنة 492هـ/ 1098م خرجت صنعاء عن طاعة الصليحيّين[6].

أما آل الوليد الحميري فمنهم المفضل ابن أبي البركات الذي تولّى حصن التعكر المطلّ على ذي جبلة، وكان من أهم الشخصيات العسكرية للسيدة الحرة، غزا تهامة عدة مرات واسترجع لها خمسين ألف دينار من الزريعيّين، وهو نصف

(1) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، ج1، ص: 181، 182.
(2) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 343 ـ 345.
(3) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 404 ـ 406.
(4) انظر ولاة الصليحين فيما سبق.
(5) عمارة: المفيد، ص: 149، 150، الهمداني: الصليحيون والحركة الفاطمية، ص: 150 ـ 152.
(6) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 284.

المبلغ الذي كانوا قد تعهدوا على دفعه للسيدة سنوياً منذ توليهم عدن بعد أن كانوا قد امتنعوا عن دفعه لها. وقد علا شأن المفضل لدى السيدة فوصفه عمارة بقوله: (وهو رجل الدولة ومدبرها والمرجوع إلى رأيه وسيفه والحرة لا تقطع أمراً إلا به، فعظم بذلك شأنه، وعلت كلمته.. ولم يبق في اليمن من يساويه ولا من يساومه)[1]. وعند موت المفضل سنة 504هـ/ 1110م ولت السيدة حصن التعكر وأمر الجند ابن عمه أسعد بن أبي الفتوح الحميري فاستمر إلى أن قتله رجلان من أصحابه في حصن صبر في تعز سنة 514هـ/ 1120م[2] وبعد قتله خرجت عدن عن طاعة الصليحيّين.

أما عند النجاحيّين والأيوبيّين فقد كان العسكريون يصعدون في الترقية وفقاً للنظام العسكري الذي يستطيع الفرد من خلاله الترقي إلى أعلى المناصب، من ذلك أن كبار القادة في أخريات الدولة الزيدية أصبحوا أمراء الدولة النجاحية، وكبار القادة في الدولة النجاحية، أصبحوا وزراء في تلك الدولة[3]. كذلك كان الأتابك في النظام الأيوبي من كبار القادة الأيوبيّين بالإضافة إلى أن سلاطين وملوك بني أيوب هم أنفسهم كانوا من كبار القادة[4].

2 ـ الرعايا:

هم (الذين عليهم راعٍ يدير أمرهم ويرعى مصالحهم)[5] أي هم الطبقة المحكومة وهم عامة الناس، وهي أكثرُ الطبقات الاجتماعية عدداً وأكثرها اتساعاً. وتشمل أرباب الحرف والصناعات والفلاحين، وصغار التجار وصغار الموظفين، والحمالين والصيادين والحراس ومن يشاركهم في هذه الصفة من عامة المحكومين.

وقد نالت طبقة الرعايا لدى بعض الحكام قسطاً من العطف، ففي أثناء الصراع بين الصليحيّين والنجاحيّين حول السيطرة على زبيد وعمالها التهامية كانوا جميعاً لا يؤذون الرعايا ولا يظلمونهم. بل كان كل منهما يحسب للعمال ما أخذه الطرف الآخر من أموال الرعايا. فعندما كان سبأ بن أحمد الصليحي يسيطر على زبيد وتهامة ويقوم بعملية جباية أموالها خلال فصل الشتاء والربيع يحتسب للعمال ما يأخذه منهم جياش النجاحي والعكس عندما يسيطر جياش في فصل الصيف

(1) عمارة: المفيد، ص: 155، 156.
(2) الخزرجي: العسجد، ص: 274، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 274.
(3) انظر الخزرجي: العسجد، ص: 105 ـ 128.
(4) انظر ابن الديبع: قرة العيون، ص: 373 ـ 422.
(5) المعجم الوجيز، ص: 569.

والخريف على تلك المنطقة يحتسب للعمال ما قبضه منهم سبأ الصليحي في شهور الشتاء والربيع[1].

ساهمت الرعايا في الأحداث السياسية مع القضاة ضد الدولة الحاكمة من ذلك ما حدث في عهد الصليحيّين أن فقهاء الشافعية في مخلاف جعفر اتفقوا مع الرعايا في القيام معهم للإستيلاء على حصن التعكر في ذي جبلة من واليها المفضل ابن أبي البركات الحميري الذي كان يميل إلى مذهب الإسماعيلية، فلما نزل هذا الوالي إلى زبيد لمساعدة النجاحيّين ضد بعضهم البعض، استغل فقهاء الشافعية هذه الفرصة فاصطحبوا معهم جماعة من الرعايا واستولوا على الحصن وأشعلوا على رأسه النار إشارة إلى الاستيلاء على الحصن، فلما قدم الصباح حضر لمساعدتهم عشرون ألفاً من الرعايا[2]. فاضطر المفضل ابن أبي البركات للعودة سريعاً من تهامة لمواجهة ثورة الفقهاء في التعكر.

كما ساهمت طبقة الرعايا في الأحداث السياسية ضد الدولة في العهد الأيوبي. من ذلك عصيان أهل صنعاء سنة599هـ/ 1202م عندما خرج واليها وردشار الأيوبي إلى كوكبان لاستخراج أموال بيت المال، استغل أهل صنعاء هذه الفرصة فأمسكوا أخاً له يلقب بشمس الدين وناصروا الإمام فأقاموا الأذان (بحي على خير العمل) فعاد وردشار مسرعاً إلى صنعاء وحاصرها وطلب منهم الصلح فلم يجيبوه وكاتبوا الإمام أن يقدم إليهم ليساعدهم ضد واليها ويفرض عليه الحصار، بينما أرسل وردشار إلى الأتابك سنقر في تعز يعلمه بما حدث في صنعاء، فطلع الأتابك سنقر مسرعاً إلى صنعاء، فلما شاهد أهل صنعاء جيشه خافوا منه فطلبوا منه الأمان. أما هو فقد طلب منهم عشرة آلاف دينار وعشر أفراس عقوبة لهم على عملهم، فقبلوا ذلك منه، فأمر سنقر وردشار أن يأخذ تلك الأموال التي فرضها عليهم، فبادر بالانتقام بتعذيب أهل صنعاء الرجال والنساء بأنواع العذاب مما اضطرهم إلى بيع أراضيهم الزراعية وبيوتهم وتفرقوا في كل مكان[3].

وقد أشار ابن حاتم إلى أن أهل صنعاء كانوا مخطئين بذلك بقوله: (وقد كان عندهم من البطر ما يجاوز الحد حتى حملهم على الخلاف)[4].

(1) عمارة: المفيد، ص: 148، 149.

(2) إدريس عماد الدين بن الحسن القرشي: عيون الأخبار (خ) ج7، ص: 179، عمارة: المفيد، ص: 158.

(3) ابن حاتم: السمط، ص: 100، 101، محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 190 ـ 192.

(4) ابن حاتم: السمط، ص: 101.

كذلك ساهمت طبقة الرعايا من أهل وصاب في الأحداث السياسية، فعندما استولى الأشراف على أغلب اليمن الأعلى، أراد الأيوبيون أن يستولوا على وصاب ومخاليفها ثم صعدة وأعمالها ثم يتجهون إلى مكة لمحاربة الأشراف المكيّين بها. فاتجه وردشار من صنعاء والأتابك سنقر من زبيد والتقوا في وصاب في موضع يقال له (الذعاري) ثم تقدم الأتابك سنقر فعسكر بالقرب من حصن الشريف وصاحبه يومذاك رجل يسمى محمد بن عيسى القراظي الذي حاول عن أهل وصاب أن يسلم رهينة للأتابك سنقر كدليل على الطاعة والولاء على أن يجنب مزروعاتهم من التلف، فرفض سنقر ذلك الطلب، فدارت الحرب بين الطرفين انضم خلالها مع أهل وصاب كثير من العرب انتصر خلالها أهل وصاب على الأيوبيّين، فقتلوا منهم مائة وسبعين قتيلاً، بينما قتل من عرب وصاب جماعة كثيرة[1].

أدركت بعض الشخصيات أن الأيوبيّين سيقومون بالانتقام من أهل وصاب، فحاول أحدهم وهو أبو المعالي ابن أحمد الحرازي من أهل ريمة الأشباط أن يصلح بين أهل وصاب والأتابك سنقر، (فتقدم إلى وصاب بعد أن استصحب معه شيئاً من الأموال والكسوات أعطاه إياها الأتابك. فما زال بأهل وصاب يتلطف، وعظم عليهم هذا الأمر الذي كان منهم، وأعلمهم أن الغز لا يتركون لهم وتراً، وأنهم إن لم يستدركوا أمرهم بالتودي للأتابك والانطراح إليه، فإنه غير تارك لهم) فاستجابوا له (ونزل منهم خمسون رجلاً إلى زبيد، والأتابك يومئذٍ بها، فسألوه العفو فعفا وصفح وزاد بالإكرام، وضاعف الإحسان، وكتب لهم منشوراً بالصدقة عليه ببلادهم، وأن لا مطلب عليهم فيها، وعادوا إلى بلادهم)[2].

كذلك حاول بعض طبقة العامة الاستفادة من مجالس العلماء فكان كثيراً منهم يجتمعون في مجالس الفقهاء وغيرهم بعد صلاة المغرب إلى وقت صلاة العشاء الآخرة[3]. وهكذا كانت مساهمات الرعايا في الأحداث.

3 ـ الفلاحون:

وهم العاملون في الأرض، ويشكلون أغلب السكان، وكان حالهم مرة يرفق بهم الحكام ومرة يظلمون.

ففي عهد الدولة الأيوبية أوصى سيف الإسلام طغتكين بالعدل على أهل

---

(1) ابن حاتم: السمط، ص: 133 ـ 135، محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 211.

(2) ابن حاتم: السمط، ص: 134، 135، محمد عبد العال: الأيوبيون في اليمن، ص: 212.

(3) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص: 113.

الحرث فقال: (إن الفلاح يحرث ويسقي ويبذر ويعزق ويذري في الهواء ويجد مشقة عظيمة فالواجب أن يرفق بهم). أما أهل النخل فقد أمر طغتكين أن يزيد الخراج على نخيلهم والسبب في ذلك أن أهل النخل كما يقول: (يجنون الثمر من العام إلى العام بدون عناء ولا تعب)[1].

4 ـ أرباب الحرف والصناعات:

وجد في اليمن أنواع كثيرة من الحرف والصناعات حيث إن اليمنيّين آنذاك اهتموا بالحرف والصناعات فكان منهم أربابها المتفنون فصنعوا الأردية من البرود التي يبلغ ثمن الثوب عندهم حوالي خمسمائة دينار[2] كما أتقن اليمنيون الصناعات الجلدية وصناعة المنسوجات والصناعات المعدنية[3].

وكان الصناع والحرفيون عادة ما يكتبون أسماءهم على أعمالهم بالإضافة إلى تاريخ الصنع ونوع الصناعة والبلدة التي صنع بها، سواء أكان في مجال العمارة أم المنسوجات أم المصنوعات المعدنية.

ففي مجال العمارة وجد في محراب مسجد العباس في قرية (أسناف بمنطقة خولان الطيال كتابة في المحراب عليه اسم الحرفي الذي عمله بالخط الكوفي المورق والمزهر يرجع تاريخه إلى سنة 519هـ/ 1152م واسمه محمد بن أبي الفتح بن علي بن أرحب. كذلك كتب اسم الحرفي الذي عمل محراب جصي لجامع الجند أواخر العهد الأيوبي في اليمن في سنة 618هـ واسمه عبد اللّه بن أبي الفتوح)[4].

أما في مجال الصناعات المعدنية والمنسوجات فقد سبق الحديث عنها في فصل الصناعة.

كذلك عملت الرعايا في وظائف أخرى متعددة فكان منهم رعاة الماشية، والحمالين، وحراس ضيعات[5] وصيادين وغيره، فمثلاً كان أهل منطقة المنذرية في اليمن أكثر أهلها صيادين وحمارين[6]، وكان أهل عدن ما بين تجار وحمالين وصيادين للسمك[7]. وهكذا تنوعت طبقة أرباب الحرف والصناعات في اليمن.

---

(1) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 80.

(2) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص: 112.

(3) انظر فصل الصناعة.

(4) د. ربيع حامد خليفة: توقيعات الصناع والفنانين على الآثار والفنون اليمنية الإسلامية، ص: 83، 84، مجلة الإكليل ع3، 4، خريف 1409هـ/ 1988م.

(5) عمارة: المفيد، ص: 138، 139.

(6) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 99.

(7) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص: 251.

ومن الملاحظ في تكوين الطبقات الاجتماعية في اليمن أنها كانت على أساس الإنتماء الوظيفي من حيث اشتراك أهل الطبقة الواحدة في وظيفة اجتماعية واحدة سواءً أكانت علمية أم مهنية أم حرفية أم إدارية وحكم. كما أن المجتمع كان مرناً في التنقل من طبقة إلى أخرى وذلك في ظل استمرار وتزايد النشاط الطبقي المتعدد في المجتمع. أما إذا ظلت الطبقة الواحدة على جمودها ولم تنشط وتحاول الرفع من مستوى حياتها العلمية والمهنية وغيره، ففي هذه الحالة تظل الطبقة جامدة في أسفل السلم الطبقي لا تستطيع تغيير طبقتها إلاّ بذلك النشاط.

وبالنسبة لترتيب الطبقات فقد كان على أساس سلطانهم ونفوذهم ومستوى حياتهم الاجتماعية. وليس على أساس دور كل طبقة. إذ أن دور كل طبقة يقدره المجتمع نفسه. ويختلف من فترة زمنية إلى أخرى. وذلك وفقاً للعمل الذي تؤديه كل طبقة.

فقد تقوم طبقة الحكام بأعمال وأدوار أكثر أهمية بما يؤدونه من عمل في تأمين المجتمع وتحقيق العدالة فيما بينهم. وقد تقوم طبقة العلماء بأدوار أكثر أهمية لما ينشرونه من علم ومعرفة. وقد تقوم طبقة التجار أو الرعايا بأدوار أكثر أهمية لما يقدمونه من خدمة للمجتمع في جميع مجالات الحياة المعيشية والخدماتية وغيرها.

ومهما يكن من أمر فإن لكل طبقة دور مهم في المجتمع وإن اختلف مستواه من طبقة إلى أخرى وإن هذه الأدوار شيء ضروري وحتمي داخل المجتمع.

مظاهر الحياة الاجتماعية

تعددت مظاهر الحياة الاجتماعية في اليمن من زواج واحتفالات بالمواسم والأعياد، والعادات والتقاليد المختلفة. وقد اهتمت المصادر بإبراز مظاهر الحياة الاجتماعية للطبقة الحاكمة أكثر من غيرها من الطبقات الأخرى، ونوردها هنا على أساس الموضوع وليس على الأساس الطبقي. وذلك وفقاً لما أوردته المصادر عن فترة البحث.

1 ـ الزواج وإجراءاته:

أ ـ **الخطبة**: كانت الخطبة من أهم المقدمات الأساسية للزواج وهي تبدأ بالتقدم وإبداء الرغبة في الزواج من فتاة بعينها، فيتقدم الشاب لأهلها لخطبتها وتبدأ بتعريف الخاطب وأهله لأهل الفتاة التي يرغب في خطبتها. فإذا ما تمت الموافقة على الخطبة، واستجاب الخاطب لمطالب أهل الخطيبة من كسوة وحلي وجهاز ومقدار المهر مقدمه ومؤجله وغير ذلك، كان ذلك إيذاناً بالعمل على استكمال مراسيم الزواج.

وفي حالة وجود فوارق اجتماعية تتمسك بها بعض الطبقات أو التزوج بأكثر من واحدة أو كبر السن كان بعض الناس يطلبون عند التقدم للخطبة موافقة جميع الأقارب من أخوال وأعمام وغيرهم إلى جانب موافقة الأبوين، من ذلك عندما طلب جياش بن نجاح أن يخطب امرأة من الفرسانيّين من أهل موزع، فتوسط لذلك الطلب أحد فقهاء زبيد آنذاك وهو الحسن بن أبي عقامة الذي كان يلتقي مع أهل موزع في النسب إلى بني تغلب. فلما ذهب الفقيه إلى أهل موزع رفض بعضهم زواج جياش وقبل بعضهم، ولما استشار بعض أهل موزع الفقيه على الموافقة (فأشار عليهم بالترك خوفاً من السبة عليهم)[1]، وقال لهم (لا يصلح إلا برضى الكل فأصروا على الامتناع، فيقال إن ذلك كان بإشارة لعدم كفاءة جياش)[2].

---

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 111.

(2) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 348، يبدو أنه يقصد بعدم الكفاءة إما لكبر سن جياش عن الفتاة، أو للفوارق الطبقية فيما بين أهل موزع الذين ينتسبون إلى بني تغلب وجياش الذي ينتمي إلى الأرقاء من الحبشة وهو مفهوم غير إسلامي. ومن الواضح أنه يقصد بعدم الكفاءة فارق السن.

فحاول جياش أن يسترضي الممتنعين بالمال فأرضاهم حتى قبلوا زواجه[1]. وكثيراً ما كان لا تتم الموافقة على قبول الزواج بسبب السن أو الزواج بأكثر من واحدة.

وكانت بعض القبائل ترفض مصاهرة القبائل الأخرى لأسباب متعددة، أهمها العداء الواقع بينها أو للتمايز الطبقي، فتنظر بعض القبائل للبعض الآخر على أنها أقل رفعة وجاهاً. وقد أدّى ذلك إلى حروب فيما بين القبائل اليمنية وإجلاء بعض القبائل عن بلدانها. من ذلك أن رجلاً من بني سعد بن سعد بن خولان من صعدة أراد أن يخطب واحدة من كرائم من بني حي بن خولان (فأكبروا أنفسهم عليه) ومنعوه من أن يتقدم عليهم، فألح الرجل عليهم بالطلب فخصوه، فغضب لذلك بنو سعد بن سعد بن خولان، فحاربوهم مدة حتى أخرجوهم عن صعدة فلحقوا بمصر وسكنوا صعيدها[2].

ومن التمايز الطبقي فيما بين القبائل في الزواج أن يحدث الزواج من نفس الطبقة. فبعض القبائل لا تقبل أن تزوج أي فرد من قبائل أخرى غير مكافئة لها. من ذلك أن بني مالك من بني حي من صعدة كانوا يعظمون بني حرب ويتزوجون منهم ومن العرب ولا يزوجون أحداً آخر، بينما (بنو حرب لا تزوج إلاّ رجلاً منها أو قرشياً)[3]. والواقع أن هذه النظرة الطبقية لمفهوم الزواج نظرة عصبية خارجة عن مفهوم الدين الإسلامي، مما يوحي أنهم غالباً ما كانوا يجهلون الدين ويتصرفون من وحي النظام القبلي.

ومن التمايز الطبقي أيضاً التنافس بين بعض الأفراد في خطبة امرأة واحدة. وغالباً ما كان يحدث هذا التنافس فيما بين رجال السلطة من الأمراء والقادة، وبين رجال الثروة والمال، لما تتمتع به المرأة المتنافس عليها من جمال أو مكانة اجتماعية وسياسية. فقد تنافست مجموعة من قادة الدولة النجاحية في خطبة المغنية وردة مولاة عثمان الغزي لجمالها وصوتها الحلو، هذه المجموعة هم الوزير سرور الفاتكي، والقائد إسحاق بن مرزوق، والقائد إقبال الفاتكي، فكانت من نصيب سرور الفاتكي لعدم وجود زوجة أخرى له وتزوج الآخرين بأكثر من واحدة[4].

كما وجد آنذاك النوع المعروف بالزواج السياسي في عهد الصليحيّين، وذلك عندما توفي المكرم أراد الداعي سبأ بن أحمد المظفر أن يتزوج بالسيدة الحرة أروى

---

(1) الخزرجي: العسجد، ص: 112، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 348.
(2) الهمداني: الإكليل، ج1، ص: 208، 209.
(3) الهمداني: الإكليل، ج1، ص: 302.
(4) الوصابي: تاريخ وصاب، ص: 60.

زوجة المكرم، وخاصة أنها تولت حكم اليمن نيابة عن ابنها الطفل. ففي بادئ الأمر رفضت الزواج منه، فجمع عسكره واتجه لحربها، وبالفعل حدثت الحرب بينهما عدة أيام آخرها تمّ تحكيم الخليفة المستنصر بالله الفاطمي، فأرسلا إليه رسولين هما القاضي الحسن بن إسماعيل الأصبهاني، وأبو عبد الله الطيب فرجع الجواب من المستنصر بالله يأمرها بالزواج من الداعي سبأ بن أحمد فقبلت الزواج منه على مضض[1].

وفي نطاق معرفة الفتاة قبل الزواج فهناك فرصة كي يتعرف الخاطب من أهل الريف في اليمن على جمال المرأة المخطوبة ونشاطها. فقد كانت أغلب فتيات البادية يعملن في الزراعة وبعضهن في التجارة فإذا أراد الرجل أن يخطب فتاة ريفية بدوية يدله الأب على السوق الذي تذهب إليه الفتاة للتجارة ليشاهد نشاطها وجمالها وبيعها وشرائها فإذا أعجبته تقدم لخطبتها[2].

ب ـ **المهر**: وكان المهر عادة ما يدفع بما يتفق والحالة الاجتماعية للزوج أو الزوجة، وبما يتناسب مع مكانة الأسرتين ومستواهما، وحتى في إطار الأسرة الواحدة، فقد كان والد العروس يطمع في أن يزوج ابنته من أحد أبناء الأسر الكبيرة أصحاب الثروة والجاه، وهذا ما حدث عندما تقدم علي بن محمد الصليحي ليخطب ابنة عمه أسماء بنت شهاب الصليحي، إذ طلب أبوها مهراً كبيراً ليعجز ابن أخيه عن توفيره[3]. ولهذا سعى ليوفر القدر المطلوب، والسبب في ذلك أن شهاب الصليحي كان يريد أن يزوج ابنته أحد أصحاب الثروة والجاه من ملوك بني الكِرَنْدي في المعافر أو أحد ملوك همدان لجمال أسماء المنقطع النظير[4].

وكانت ظاهرة المغالاة في المهر منتشرة في اليمن عند الأمراء والسلاطين وزعماء القبائل وأصحاب الثراء فيدفعون مبالغ ضخمة صداقاً لزواجهم لا يقدر عليها الآخرون تعبيراً عن إظهار الأبهة والمقدرة والتفاخر بين الناس وعن مدى ما بلغوه من مكانة. من ذلك ما أعطى القائد فرج السحرتي من المال لعلي الصليحي

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 150، د. محمد عبد العال: بعض مظاهر العلاقة اليمنية المصرية في العصر الإسلامي، بحث قدم لندواة العلاقات المصرية اليمنية التي عقدتها لجنة تضامن الشعوب الأفريقية والآسيوية بالقاهرة.

(2) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 191.

(3) عمارة: المفيد، ص: 98، الوصابي: تاريخ وصاب، ص: 31.

(4) عمارة: المفيد، ص: 98، 99.

ليقدمها لعمه شهاب وهي أضعاف ما طلب شهاب من الأموال مهراً لابنته[1].

كذلك دفع المكرم أحمد صداق السيدة الحرة أروى بنت أحمد الصليحي مبلغ مائة ألف دينار، وهو مقدار مالية عدن آنذاك[2]. كما خصص لها مالية عدن سنوياً لتصرفه في شؤون قصرها، وأيضاً بلغ مهر السيدة الحرة حينما زفت مرة أخرى إلى سبأ بن أحمد الصليحي بعد موت المكرم مائة ألف دينار عيناً وخمسين ألف أصناف من تحف وطيب وكساوي[3].

وهكذا كانت المغالاة في المهور عند أصحاب الطبقة العليا من زعماء القبائل وغيرهم، فأقل ما كان يدفع اللعويون والمرانيون وهم من حاشد من همدان من المهور المؤجلة ألف دينار وست جوار فُرس وست جوارٍ روم[4]. وقد أدّت ظاهرة ارتفاع المهور بهذا الشكل إلى الحد من الزواج في إطار تلك الطبقة.

أما في نطاق الطبقات الأخرى فقد كان المهر أقل من ذلك كثيراً. فعندما أراد أحد الرجال المحاربين الذين استعان بهم الداعي سبأ بن محمد الزريعي أن يتزوج ولم يكن ذا مال طلب الرجل من الداعي سبأ بن محمد الزريعي تكاليف الزواج له ولولديه وابنته مقابل ذهابه للقتال معه هو وولديه، فأعطى كل واحد منهم مائة دينار[5].

أما الطبقة الفقيرة في السلم الطبقي فقد كان المهر عندها قليلاً جداً لا يكاد يذكر قياساً لما كانت تدفعه الطبقات العليا. ولم تشر المصادر إلى قيمته لضآلته

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 99، السحرتي نسبة إلى قبيلة من الأحبوش سكنت اليمن ولا يزال لها بقية في الحبشة، وفرج السحرتي كان قائداً لبني زياد في زبيد. (ابن الديبع: قرة العيون، ص: 354هـ 1) وكان القائد فرج السحرتي ممثل القيادة السنية في زبيد، وعلي الصليحي ابن الفقيه السني محمد الصليحي قاضي حراز، فعندما نزل علي الصليحي إلى زبيد قبل جهره بالدعوة الإسماعيلية، يبحث عن المال مهراً لزوجته إما قرضاً أو هبة. وهب القائد فرج المال الذي طلبه علي الصليحي من مهر وجهاز وهو أضعاف ما طلب شهاب. وخاصة عندما عرف فرج أن شهاب كان يريد أن يزوج ابنته لملوك بني الكرندي في المعافر أو ملوك همدان. وذلك على أساس أن علياً الصليحي كان أباه من أهل السنة وهو ـ أي فرج ـ لم يعرف ميله إلى الإسماعيلية بعد. انظر: عمارة: المفيد، ص: 95، 100.

(2) عمارة : المفيد، ص: 174، الوصابي: تاريخ وصاب، ص: 38.

(3) عمارة: المفيد، ص: 151، الخزرجي: العسجد المسبوك، ص: 65، الوصابي: تاريخ وصاب، ص: 41، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 268.

(4) الهمداني: الإكليل، ج10، ص: 32، د. محمد أمين صالح، تاريخ اليمن الإسلامي، ص: 209.

(5) عمارة: المفيد، ص: 181، الخزرجي: نفس المصدر، ص: 86، الوصابي: نفس المصدر، ص: 65، ابن الديبع: نفس المصدر، ص: 308.

وتناسبه مع حالتهم المالية، وقد أدّت قلة المهور، أو الصدقات وخفتها إلى إقبال عامة الناس وتشجيعهم على الزواج[1].

ومن عادات بعض نساء زبيد وتهامة عدم أخذ المهور من أزواجهن مقدماً بل يحبذن تأجيله، ويعتبر أخذ المهر بكامله مقدماً عيب كبير على اعتقاد أن المرأة في هذه الحالة تريد الطلاق، يوضح ذلك ابن المجاور بقوله: (ونساء أهل هذه البلاد لم يأخذن من أزواجهن المهر وأخذ المهر عندهم عيب عظيم، وكل امرأة تأخذ المهر من زوجها يسمونها مفروكة أي أن زوجها أعطاها مهرها وفركها أي طلقها)[2]. وكان هذا التصرف يؤدي إلى خوف الرجال من الزواج منها مرة ثانية حيث يقول الرجل عنها: (أخاف أن تأخذ مني المهر كما أخذت من غيري)[3]. وعلى ذلك فإنهم يؤجلون دفع المهور إلى زمن غير محدد، وقد يموت الزوج والمهر في ذمته، أو تموت الزوجة والمهر دين على زوجها. وطريقة تأجيل المهر تساعد أكثر الشباب على الإقبال على الزواج وخاصة متعسري الحال. ويكفي لزواجهم دفع مبلغ بسيط كمهر مقدماً.

وكان تجهيز العرس بحسب المكانة التي تليق بالعروسين وفقاً للحالة المالية والطبقة الاجتماعية التي ينتميان إليها. فمثلاً أعطى القائد فرج السحرتي جهازاً هبةً منه لعلي الصليحي وزوجته أسماء بنت شهاب، فكان أحسن جهاز يحتفل به الملوك لعقائلهم[4]. وذلك عندما نزل علي الصليحي للبحث عن مهر خطيبته لما اشترط أبوها في مهرها.

كذلك كانوا يقدمون الكسوة والحلي بحسب ثرائهم ومقدرتهم ومكانتهم الاجتماعية، فقد دفع سبأ بن أحمد المظفر الصليحي مقدار خمسين ألف دينار من تحف وألطاف وطيب وكساوي[5].

وكانت تقام الولائم أيضاً حسب حالة الزوج المالية والاجتماعية، فكلما كانت حالة الزوج والزوجة متيسرة كانت الولائم كبيرة وضخمة، وربما تستمر عدة أيام وقد تبلغ شهراً. من ذلك ما فعلته السيدة الحرة أروى بنت أحمد الصليحية عندما تزوجت

---

(1) الهمداني: الإكليل، ج10، ص: 32.
(2) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 85.
(3) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 85، 86.
(4) عمارة: المفيد، ص: 99، انظر سبب منح السحرتي المال لعلي الصليحي فيما سبق هامش المهر.
(5) عمارة: المفيد، ص: 99، 151، الخزرجي: العسجد المسبوك، ص: 65.

الداعي سبأ بن أحمد الصليحي، فقد أولمت مدة شهر كامل كانت الضيافات خلاله تخرج من قصرها في ذي جبلة إلى مخيم الداعي سبأ بن أحمد الصليحي وعساكره يومياً، فأنفقت مقدار ما دفع من مهر لها وهو مبلغ مائة ألف دينار[1].

والواقع أنه لم يكن هناك حداً معيناً لتحديد المهور أو تحديد نوعية الحلي والكسوة والجهاز الذي تجهز به العروس. كما أنه لم تحدد كيفية الوليمة التي تقام بهذه المناسبة، وترك أمرها لتتم وفقاً للحالة المادية والمكانة الاجتماعية.

وارتفاع المهور وضخامة تجهيز العروسين وكثرة الولائم تعبر عن مظاهر الثراء والسلطة ومظاهر الأبهة والعظمة التي تظهر بها الطبقة الثرية أو الحاكمة، وهذا التصرف يعطيها قدراً من الفخر والاعتزاز بين الناس ثم هي أيضاً أحد مظاهر التسلط والثراء في داخل المجتمع.

كما إن ارتفاع المهور وتفاوتها يعبران عن مدى الفرق بين الطبقات بحيث لا يستطيع أصحاب الدخول الصغيرة الزواج من الطبقة الثرية لذلك يظل الزواج محصوراً بين الطبقة الواحدة، وقد تحدث المغالاة في المهور كوسيلة لرفض شخص ما لا توافق الأسرة على الارتباط به.

وكانوا عادة ما يهنئون العروسين عن طريق الشعر، فقد هنأ الشاعر العندي على لسان عمارة شعراً الداعي محمد بن سبأ الزريعي بعرسه على بنت الوزير بلال المحمدي[2].

جـ ـ **الطرح**: وهناك عادة في الزواج عند أهل اليمن يسمونها «الطرح» وهي مساهمة المدعوين للعرس بمبالغ من المال على قدر حالتهم، ويظل هذا المبلغ الذي قدمه المدعوون ديناً على العريس يعيده فيما بعد في مثل هذه المناسبة من الزواج. فكان عندما يُقْدِم أحد الشباب على الزواج يدعو أصحابه وأصدقاءه وزملاءه وأهله وعندما يحضر هؤلاء احتفال العريس، يكتبون أسماءهم في قرطاس موضحاً أمام اسم كل منهم المبلغ الذي يقدمه إلى العريس[3].

وقد تصل مبالغ «الطرح» لبعض الناس إلى مبالغ كبيرة سواء كانت نقدية أو عينية من ذلك لما تزوج الشاعر العندي بنت الشريف أبي الحسن علي بن محمد العمري بعدن سنة (505هـ/ 1111م) حمل الناس إليه مع اختلاف طبائعهم أموالاً

(1) عمارة: المفيد، ص: 152.

(2) الوصابي: تاريخ وصاب، ص: 72.

(3) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 72. (الطرح) يسمى في بعض المناطق (تجدود).

بلغت ألف دينار خارجاً عن بقية الأصناف[1] وقد تساعد هذه المبالغ البعض في استغلالها في التجارة[2].

كذلك كانت النساء أيضاً يقدمن «الطرح» مثل الرجل وكان هذا المبلغ يرد إليهن في مناسبات مماثلة[3].

ولم يقتصر ما يعرف «بالطرح» على حفلات العرس فقط، وإنما كان يتم في كثير من المناسبات الأخرى، مثل الاحتفالات بالمواليد وحفلات الختان، حيث كانت النساء يقدمن الهدايا والأموال وكانت كل هذه الأموال والهدايا يتم ردّها في مثل هذه المناسبات التي قدمن فيها، ويعتبر عدم ردّ الطرح عيباً كبيراً، لأن هذا المبلغ يكون ديناً لا بدّ من الوفاء به[4].

وكانت من عادة أهل اليمن في الزواج أن يتزين الرجال فيخضبون أيديهم وأرجلهم بالحناء[5]. كما كانت النساء في صنعاء يخضبن أرجلهن بالحناء[6]. إضافة إلى تزيّن النساء بأنواع الزينة في مناسبات العرس في عموم اليمن.

وكانت من عادة المناطق الشمالية لزبيد من أهل الزَرِيْبة والعَنْبَرة والهَرَمة والقُرَشِيَّة، عدم ظهور بناتهم قبل الزواج، فهم لا يسمحون للبنت بالخروج أو التزين (إلا إذا عقد نكاحها وقطع مهرها وسلم دفعها) بعد ذلك (تظهر البنت بطبل وزمر على رؤوس الأشهاد بالمهادن والضيافات والطرح والتسليم)[7].

ويعلل ابن المجاور ذلك التصرف بأن أهلها كانوا يخافون اطلاع البنت وهي صغيرة على أعمال العرس أو الزواج من تزين وتجمل وتحسن، لأن ذلك يجعلها عندما تكبر وتشب فتخرج عن الطريق الصحيح إلى غير الطريق[8].

كذلك كان من عادة نساء زبيد أن يقبلن الزواج من أجنبي ويفضلنه، ولكنهن يرفضن الخروج عن اليمن مهما عرض لهن، فإذا تزوجت إحداهن أحد الغرباء تقنع منه بالقليل من النفقة والكسوة، وإذا سافر بغرض العودة تودعه وهي راضية وهي

---

(1) الوصابي: تاريخ وصاب، ص: 73، الجندي: السلوك، ج1، ص: 430، 431.
(2) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 7.
(3) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 86.
(4) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 86.
(5) ابن المجاور: نفس المصدر والصفحة.
(6) الهمداني: الإكليل ج2، ص: 177.
(7) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 239.
(8) ابن المجاور: نفس المصدر والصفحة.

تتكفل بالنفقة عن أولادها حتى يعود ولا تطالبه بنفقة وكسوة عن الأيام التي غاب فيها عنها[1].

وكان بعض الأفراد في اليمن يتزوجون بأكثر من واحدة وخاصة الحكام والأغنياء. من ذلك أن جياش بن نجاح كان متزوجاً امرأة هندية، ثم تزوج عليها امرأة من أهل موزع[2] كما كان القائد إسحاق بن مرزوق متزوجاً بأربع[3]، وممن تزوج بأكثر من واحدة أيضاً ابن أبي أسعد بن أبي الفتوح، الذي كان له مالاً كثيراً بلغ نصيب إحدى نسائه منه ثمانين ألف درهم من النقد، ومطرف بن شهاب المطرفي الذي كان متزوجاً بأربع نساء[4].

2 ـ الأعياد والمواسم:

اعتاد اليمنيون شأنهم في ذلك شأن بقية المسلمين في البلدان الإسلامية الأخرى، أن يحتفلوا بالأعياد والمناسبات الدينية مثل ليالي رمضان وعيدي الفطر والأضحى وبالإضافة إلى المناسبات الدينية كانوا يحتفلون بمناسبة نضج النخيل في زبيد.

وتحتفل بعض مناطق بقدوم شهر رمضان، ويظل الاحتفال به طيلة الشهر. فكان في عدن قبل يومين من قدوم رمضان يزين أهلها أسطح منازلهم ويضربون عليها بالطبول (الدبادب) وإذا دخل رمضان عليهم اجتمعت مجاميع من الناس يدورون عند السحر يقرأون القصائد إلى آخر الليل، وهكذا كل ليلة إلى نهاية الشهر. وكان الغرض من هذا العمل إيقاظ النائمين للقيام بإعداد طعام السحور وأكله وهي ما تشبه عمل المسحراتي. على أن هؤلاء المسحراتية كانوا يتقاضون مقابل عملهم هذا أموالاً كانوا يجبونها من الناس قرب العيد[5].

كذلك كان الناس في بعض المناطق يقيمون المطابخ في شهر رمضان ويدعون إليها عامة الناس. ففي المهجم شمال زبيد كان الوزير النجاحي سرور الفاتكي يتجه إليها ليقيم بها مطبخاً طوال شهر رمضان يدعو إليه كافة الناس، حتى بلغت مصاريف مطبخه في كل ليلة حوالي ألف دينار[6]. أي ما يعادل ثلاثين ألف دينار طيلة شهر رمضان.

---

(1) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص: 248.
(2) الخزرجي: العسجد المسبوك، ص: 110.
(3) الوصابي: تاريخ وصاب، ص: 61.
(4) مجهول: تاريخ اليمن، ق66.
(5) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 100.
(6) عمارة: المفيد، ص: 226.

وفي عيد رمضان جرت العادة في غلافقة أن يقوم بعض أهلها بوضع الأسمطة الموائد بعد صلاة عيد الفطر، يدعون الناس إلى أكل ما بها من الطعام وقد أشار إلى ذلك ابن المجاور حيث ذكر أن عمراً بن القشري أمر أهله في ليلة عيد الفطر أن يطبخوا ويشووا، فعندما صلّى الناس دعاهم عمرو إلى الأكل فدخل الناس إلى داره فأكلوا أطعمته وأشويته وشربوا من أشربته(1).

أما عيد الأضحى فكان بعض الأفراد يضحون بأنواع الأضحيات فيذبحون الأبقار والماعز والضأن ويُعِدُّون أنواع المأكولات ويلبسون أنواع الملابس الجديدة، فمثلاً في هذه المناسبة طلب أحد العلماء وهو الشيخ (أحمد المقري) من أحد الأعيان وهو الشيخ علي بن أحمد المعلم (ت. 596هـ/ 1199م) أن يعطيه هبة لأضحية عيده وكسوة وطعاماً له ولأولاده فمنحه الثري الشيخ علي المعلم بقرة وضأن وماعز ومائة كيلجة بر ومائة كيلجة قمح وكسوة له ولأولاده(2).

ومن عادة أغنياء أهل صنعاء في عيدي الفطر والأضحى آنذاك أن أهل الثراء منهم يأمرون عبيدهم وإماءهم فيكنس كل رجل منهم ساحة باب داره ويرشونها بالماء، ثم يفرشونها بالحصير وفوقه يفرش البساط الرومي والطرسوس والأرمني الأحمر والأرجوان، ثم يطرحون عليها الريحان وغيره من الأزهار الطبيعية ويرشونها بماء الورد الكثير والكافور، كما يضعون المباخر يطرحون فيها العود الرطب وغيره ليشيع في الهواء الريح الطيب(3).

ويهتم أهل اليمن بموسم أول جمعه من رجب في جامع الجَنَد من كل سنة. فمن أجل هذا اليوم كان يحضر الكثير من الناس من أهل الجند وما حولها فيجتمعون ويصلّون في مسجدها صلاة الجمعة الأولى من رجب. ويرجع سبب احتفالهم بهذا اليوم إلى أن الصحابي الجليل معاذ بن جبل رضي الله عنه نزل (الجَنَد) في مثل هذا اليوم، فاتخذه أهل اليمن عيداً لهم. وهم يعتبرون الصلاة فيه في هذا اليوم تعادل عمرة أو أكثر(4). ويسمى هذا اليوم عندهم بالموسم لكثرة من يحضره من الناس.

3 ـ الاحتفالات:

وفي الاحتفالات في المناسبات والضيافات كان الأثرياء والأمراء والحكام

(1) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 241.
(2) الخزرجي: العسجد المسبوك، ص: 171.
(3) الرازي: تاريخ مدينة صنعاء، تحقيق د. حسن العمري، ط2، 1401هـ/ 1981م، ص: 91، 92.
(4) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 166.

يقدمون موائد واسعة تشتمل على العديد من الأسمطة فيها الكثير من الخراف المشوية، إضافة إلى أنواع المأكولات الأخرى والحلويات. من ذلك ما عمله عثمان الغزي حين قام بضيافة الوزير النجاحي مَنِّ اللّه الفاتكي، فقد قام بوضع أربعة أسمطة واسعة قدم في كل سماط منها ثلاثين خروفاً مشوياً، وثلاثين جاماً من الحلاوة[1].

أما ما يقدمه الأمراء والحكام من أطعمة فكما وصف ابن بطوطة يتكوّن من نوعين هما: (طعام العامة وطعام الخاصة، فأما الطعام الخاص فيأكل منه السلطان وقاضي القضاة والكبار من الشرفاء ومن الفقهاء والضيوف، وأما الطعام العام فيأكل منه سائر الشرفاء والفقهاء والقضاة والمشايخ والأمراء ووجوه الأجناد، ومجلس كل إنسان للطعام معين لا يتعداه ولا يزاحم أحد منهم أحداً)[2].

كذلك كانت تقام احتفالات خاصة في اليمن وخاصة في قصور الأمراء والأثرياء، تقام فيها حفلات غناء وجلسات الشراب، حيث انتشر الغناء آنذاك في كثير من القصور، فقد كانت قصور السيدة الحرة أروى الصليحية مليئة بالجواري المغنيات، كذلك كانت قصور أمراء زبيد مليئة بالمغنيات منهن جارية مولدة سميت أم أبي الجيش اتصفت بأنها فائقة الجمال والحسن وكانت حسنة الغناء، ومن الجواري المغنيات في زبيد الموصوفات بالجمال والحسن الحرة عَلَمْ أم فاتك بن منصور النجاحي[3].

وكانت تعقد في مجالس الأمراء وخاصة في زبيد مجالس للغناء والشراب، من ذلك أن الأمير عثمان الغزي كان قصره مليئاً بالجواري المغنيات دعا الوزير النجاحي مَنِّ اللّه الفاتكي إلى عزومة أخرج فيها الوصيفات الساقيات الشراب والمغنيات للغناء، فغنين فيهن المغنية وردة التي اتصفت بالجمال والحسن المنقطع النظير والصوت الحلو العذب، كذلك كان الويزر إقبال يملك عشرين مغنية[4].

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 218، الخزرجي: العسجد المسبوك، ص: 120، الوصابي: تاريخ وصاب، ص: 58. عثمان الغزي هو أحد قادة الغز الذين جلبهم جياش لمحاربة الصليحيّين وقد منحه وادي ذوال، إقطاعاً له، عمارة ص: 216.

(2) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص: 250.

(3) عمارة: المفيد، ص: 156، 210، 211، كانت الحرة علم جارية مغنية ثم أصبحت حرة بعد استولادها فاتك بن منصور بن فاتك بن جياش النجاحي الذي أصبح أمير الدولة النجاحية بعد أبيه منصور، وقد أطلق على الحرة علم، الحرة الملكة، والصالحة، والحجاجة (عمارة: المفيد، ص: 211 ـ 224، 230).

(4) عمارة: المفيد، ص: 215 ـ 217 ـ 219، 223.

ومن الاحتفالات الشعبية الاحتفال بيوم نضج ثمار النخيل في زبيد حيث إن زراعة النخيل في زبيد كانت كثيرة، فكان فيها عشر قطع مزروعة بالنخيل كل قطعة عرضها وطولها ربع فرسخ بها ثلاثة أصناف من الرطب حماري وصفاري وخضاري، فإذا حمل النخل يتقبله الناس كل على قدر طاقته، وفي موسم نضج ثمار هذا النخل وقطعها يتوافد اليمنيون على زبيد من كثير من أنحاء اليمن ليحضروا الاحتفال السنوي الكبير الذي يستمر لمدة شهرين أو ثلاثة أشهر حيث يختلط النساء والرجال ولا همّ لهم سوى اللعب والضحك وشرب النبيذ الذي يسمى (الفضيخ) والذي يعمل من التمر والبرّ والرطب[1].

فإذا ما تم الانتهاء من جني ثمار النخيل يخرج الصغار والكبار والأبرار مع الفجار خلال يومي الإثنين والخميس إلى موضع اسمه (الفازة) بالقرب من غَلاَفِقَة بالطبل والزمر بجمالهم التي يلبسونها عدة تامة من الأجراس والقلاقل ويشدون في رقبتها المقانع والحلي، ويركبون على كل جمل أربعة أفراد، بينما يسير بقية الناس على الأقدام إلى البحر ليسبح الرجال والنساء عرايا مختلطين، وهم في شرب ولعب ورقص ثم يرجعون إلى البلد بقية الأسبوع[2].

وهناك احتفال آخر في زبيد بمناسبة أخرى للنخيل، وهي ما تسمى (بسبوت النخيل) وذلك أنهم يخرجون في أيام البسر والرطب في كل سبت إلى حدائق النخل، ولا يبقى بالمدينة أحد من أهلها ولا من الغرباء، ويخرج أهل الطرب وأهل الأسواق لبيع الفواكه والحلويات[3].

كذلك كان من العادات الجاهلية في اليمن تقديم أضحية المراكب للجبل في منطقة صيرة بعدن وهي ما تسمى بأضحية الجبل وهي عادة جاهلية، فإذا تأخرت المراكب عن المجيء إلى ثغر عدن عن موسمها يخرجون إلى جبل صيرة رؤوس من البقر عند اصفرار الشمس وتبقى تلك البقر في أماكنها حتى منتصف الليل ثم بعد ذلك ترد ست رؤوس منها إلى عدن ويبقى رأس واحد في مكانه في الجبل، فعندما يصبح الصبح يضحى بهذه البقرة في مكانها. وقد صارت هذه العادة متبعة في عدن منذ قديم الزمن حتى زمن بني زريع ثم بطل العمل بها[4] لأنها عادة جاهلية لا يقرها الإسلام.

ونذكر احتفالاً سنوياً للباطنية في اليمن يسمى ليلة الإفاضية، وهي اجتماع

(1) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 79.
(2) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 80، 81.
(3) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص: 247.
(4) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 114.

جماعة من الرجال والنساء في ليلة واحدة من السنة، فيطفئون الأنوار خلالها، وعندما يظلم المكان يأخذ كل واحد من الرجال ما صادفه من النساء فيحصل فيها الفساد لأنه قد يأخذ الرجل محرماته، وانتشرت هذه العادة السيئة عند الباطنية في كل من وادعة ويام بصعدة وقد خرج إليهم الإمام أحمد بن سليمان سنة 549هـ/1154م فحاربهم وقتل الكثير منهم[1] كما انتشرت هذه العادة في بعض قبائل همدان مثل عذر والأهنوم في مغرب بلاد همدان[2].

4 ـ العادات والتقاليد:

لم تمدنا المصادر بالمعلومات الكافية وخاصة عن عادات وتقاليد أهل اليمن، وقد وردت بعض المعلومات ولكنها قاصرة على مناطق دون أخرى، فعن أهل زبيد قال ابن المجاور بأنهم ضعاف التركيب محلقو الرؤوس، وعن أخلاقهم وسلوكهم وآدابهم وصف ابن المجاور نساء أهل زبيد بأنهن خلقات رخوات التكك وفي كلاً منهن غنج كثير، بينما وصف رجالها بأنهم يتشبهون بالنساء في بعض حركاتهم وغنجهم، واستطرد ابن المجاور في وصف نساء زبيد وقال: (ما رأيت في جميع اليمن سهلها وجبلها وجهاً حسناً يعتمد عليه النظر ولا فيهم ظرافة ولا لطافة ولا ملاحة ولا حلاوة)[3] في حين ذكر ابن بطوطة عن زبيد أن (لأهلها لطافة الشمائل وحسن الأخلاق وجمال الصور ولنسائها الحسن الفائق الفاتن)[4].

وفي الوقت الذي أورد فيه ابن المجاور بأنه لم ير في اليمن سهلها وجبلها وجهاً حسناً يعود ويذكر في موضع آخر أن منطقة الحليلة جنوب زبيد والخُوخَة قوله: (ويكون فيها الصبايا الملاح والنساء الصباح)[5] ومع ذلك، فقد وصف المقدسي اليمنيّين بقوله أنه (لا ظرف لأهل اليمن)[6] وهو ما يتفق مع قول ابن المجاور[7] أما أهل زبيد كما يصفهم المقدسي فإن لهم أدنى ظرف[8] كما يتفق مع ما ذكره ابن بطوطة في وصفه لأهل تعز، حيث ذكر أن (أهلها ذو تجبر وتكبر وفظاظة)[9].

---

(1) المحلى: الحدائق الوردية، ص: 205.
(2) اللحجي: شيء من أخبار الزيدية، ق16.
(3) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 70، 85، 246.
(4) ابن بطوطة: رحلة بن بطوطة، ص: 247.
(5) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 92.
(6) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 103.
(7) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 246.
(8) المقدسي: نفس المصدر، ص: 84.
(9) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص: 249.

وعن الجواري في عدن وصفهن ابن المجاور بأنهن يمارسن البغاء علناً في الظاهر[1] وهو يتفق في ذلك مع قول المقدسي[2]. فابن المجاور يصفهن بأنهن مبتذلات الفروج وهن في حال هرج ومرج وأن هذا العمل عندهن ليس بعيب وليس بعار عند سُكّانها، أهلها وغريبها يوضح ذلك بقوله: (فترجع الجارية ترجو الفرج أو تبذل الفرج للرجل ولا حرج. وإلى الآن هذا موجود في عدن من الغريب وأهلها، وليس هذا الفن عندهم عار)[3].

ويبدو أن هذه الإباحة كانت منتشرة في غير المسلمين، في أوساط الجواري كما يصف حيث إن عدن سكنها بعض عناصر غير إسلامية عندما نشطت التجارة بها، من مقادشة وزيالع وأحباش وبربر[4] بالإضافة إلى الهنود وغيرهم. ولم توضح لنا المصادر عن أنهم أسلموا. ولذلك انتشرت في أوساطهم هذه العادة السيئة.

5 ـ المرأة:

وعن المرأة اليمنية فكانت ذات أهلية في المجتمع اليمني فهي سيدة بيت زوجها تقوم بمهامها المعروفة في بيتها، وتعمل على راحة زوجها وتربية أبنائها، وكان عليها عملية جلب الماء من الآبار والينابيع وغيرها. أما المرأة الريفية فتقوم بمشاركة زوجها في عمله في الزراعة فتساعده في البذر والحصاد ورعاية الزروع وغير ذلك من الأعمال الخاصة بها. وعن أعمال المرأة وخاصة الريفية أورد مسلم اللحجي قوله: (وإنما ينكح الزراع امرأة تطحن وتعجن وتخبز وتغزل وتقوم بخدمة كثيرة لزوجها وضيفه وولدها وخدمها وغير ذلك من رقع ثوبها وغسله وتنظيف بيتها وكنسه ونحو ذلك وسواه من الأعمال)[5].

كما أن كثيراً من نساء اليمن يعملن في الغزل فهن يقمن بغزل ونسج أنواع الملابس ويوجد في اليمن نوعان من الغزل الذي تشتغل به المرأة وهما النوع الحميري والنوع الفارسي[6].

---

(1) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 7.
(2) المقدسي: نفس المصدر، ص: 103.
(3) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 7.
(4) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 134.
(5) مسلم اللحجي: تاريخ مسلم اللحجي، ق278.
(6) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 256، فالنوع (الحميري هو الذي يخرج الأصبع الوسطى على الإبهام في الغزل، والفارسي هو الذي تدخل الإبهام على الأصبع من فوق الغزل (نفسه) ويصعب تفسير هاتين الطريقتين.

كذلك كانت بعض النساء في اليمن وخاصة الريفيات يعملن بالتجارة في الأسواق إلى جانب الرجال، فالمرأة كانت تقوم بعملية البيع والشراء. وتحمل فوق رأسها قدر طاقتها من أنواع البضائع، وتذهب وهي محملة بالبضائع عبر مسافات طويلة تقطع كثيراً من الجبال والسهول والأودية والشعاب كي تصل بها إلى الأسواق وتبيعها وتشتري ما تحتاج إليه، وكثيراً ما يستمر عملها هذا طيلة حياتها[1].

على أن هذه الأسواق التجارية كانت تعقد أسبوعياً في كل مناطق اليمن وعادة ما تذهب النساء إلى سوق أو سوقين في الأسبوع من هذه الأسواق الأسبوعية، كما عملت النساء في الصناعة فقد عملت نساء عدن في صنع القفاع[2] والقفاع مفردها قفعة وهي الجُلَّة بلغة اليمن يحمل فيها القطن[3].

وعن كشف وجوه النساء وسترها كان معظم نساء اليمن كاشفات الوجوه وخاصة عند أهل البادية لأن معظمهن كن يعملن سواء بالزراعة أو التجارة أو غيره، يوضح ذلك ابن المجاور بقوله: (إذا خطب زيد بنت عمرو وأنعم له بذلك يقول زيد لعمرو: أريد أشاهد جمال كريمتك فيقول له عمرو: أقدم إلى السوق الفلاني فإنها تتوعد به شاهدها في بيعها وشرائها وجمالها)[4] مما يدل ذلك على أن نساء الريف كن كاشفات الوجوه.

أما المدينة فقد كانت بعض النساء بها يسترون وجوههن والبعض الآخر يكشفن وجوههن فقد كانت المغنيات في زبيد يغنين وهن كاشفات الوجه، كما أن عمارة يوضح أن أسماء بنت شهاب الصليحي لا تستر وجهها وتلك عادتها في أيام زوجها لسمو قدرها عمن تحتجب عنه النساء[5] مما يدل ذلك على أن المرأة في المدينة كانت في حالة كشف الوجه وستره.

وبالنسبة للمرأة الجارية فقد كُنَّ يعملن في قصور الأمراء والحكام تحت مسميات عدة مثل خدم حواشي جواري سرايا حظايا وصيفات. وقد امتلأت قصورهم بهن. فمثلاً كانت قصور علي الصليحي بصنعاء يوجد بها أربعمائة وصيفة وقصور المفضل بن أبي البركات كانت مليئة بالحظايا والسرايا، وقصور فاتك بن منصور النجاحي في زبيد أكثر من ألف جارية.

---

(1) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 191، 192.
(2) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 137.
(3) ابن منظور: لسان العرب، (مادة قفع).
(4) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 191.
(5) عمارة: المفيد، ص: 133، 219.

وكان للمرأة الجارية تجار يعملون على جلبهن وتدريبهن على الخدمة في القصور من ذلك الشيخ حمير بن أسعد الذي كان يقوم بجلب الجواري من أماكن متعددة ويقوم بتربيتهن تربية خاصة في داره للخدمة في القصور. فيعلمهن الغناء وفنون الطبخ وطرق خزن الثياب وعمل الطيب ثم يقوم ببيعهن.

كذلك ساهمت المرأة في اليمن في إدارة شؤون الحكم سواءً إلى جانب أزواجهن أو أولادهن أو منفردات من ذلك الحرة أسماء بنت شهاب التي ساهمت مع زوجها علي الصليحي وابنها المكرم في السلطة والإدارة. والسيدة الحرة أروى ساهمت مع زوجها المكرم وابنها علي بن المكرم ثم انفردت بالسلطة فحكمت اليمن. كذلك وصلت الجواري إلى المساهمة في السلطة من ذلك الجارية (عَلَمْ) التي تزوجها منصور بن فاتك. فبعد قتل زوجها شاركت ابنها في السلطة. وكانت لها الكلمة المسموعة عند وزراء الدولة النجاحية مثل سرور الفاتكي. كما كان لها سلطة في إدارة الدولة. من ذلك أنها أعفت ابن مهدي من خراج أرضه وأصحابه كما أنه كان يحج في خفارتها الكثير من اليمنيّين. وقد أُطلق عليها الحجاجة لكثرة استمرارها في الذهاب إلى الحج. كما سبق ذكره.

عادات أخرى:

كذلك وجدت في اليمن عادة تسليف أنواع الحبوب وهي ما تسمى الطعام فكان بعض الناس يتسلفون الطعام (الحبوب) إلى وقت المحصول، ففي أحد السنوات قل المطر في اليمن في بعض جهاتها فاحتاج الناس إلى الطعام فقال أحد الفقهاء في تهامة للناس (من أراد منكم السلف إلى الخير طعام فليأت إلى القرية وكان متوجهاً إليها فوصلوا إليه وأسلفهم)[1].

ووجدت في اليمن بعض أنواع التسليات منها لعبة الشطرنج فقد كان جياش النجاحي يلاعب الشطرنج الحسين بن علي ابن القم الذي كان حينذاك رأس طبقة أهل زبيد في الشطرنج[2].

كذلك وجدت في اليمن عادات الكرم ومن جملة من شملهم الكرم آل الروية من مأرب والسخطيون من حمير، ويعفر بن عبد الرحمن في صنعاء من حمير[3] وغيرهم.

---

(1) المعلم وطيوط: تاريخ المعلم وطيوط، مخطوطة رقم 161، دار الكتب المصرية ق4أ، ولم نعثر على اسم القرية، ولكنها كما يبدو شمال تهامة.

(2) عمارة: المفيد، ص: 205.

(3) الهمداني: الإكليل، ج2، ص: 64 ـ 66.

ومن ضمن العادات والتقاليد، فقد كانت بعض مناطق اليمن تفضل نظام العرف على غيره من الأنظمة، يوضح ذلك ابن المجاور بقوله: (وجميع عرب أهل هذه الأعمال، الجبال والتهائم إلى حدود الحجاز لا يقبل أحدهم حكم الشرع وإنما يرضون بحكم المنع، ولا شك أنه حكم الجاهلية الذي كانوا يتحكمون به)[1].

6 ـ المأكل والملبس:

أ ـ المأكل: صنع اليمنيون أنواعاً مختلفة من الأطعمة، واختلف صنع الطعام من منطقة إلى أخرى، وذلك بحسب ما يتوفر لكل منطقة من المنتجات الزراعية، ففي المناطق الجبلية وخاصة المعتدلة والباردة كانوا كثيراً ما يزرعون بها القمح من البر والعلس والشعير فكان لذلك أغلب أكلهم منها. وفي صنعاء وما حولها استخدم أهلها خبز الرقاق الذي يتصف بالرقة والبياض وهو من البر، وخبز النسول من بر العلس وهو ألطفها خبزاً وأخفها، والرغيف في صنعاء أغلبه لين ينعطف ولا ينكسر. ولهم ضروب كثيرة من أنواع الخبز، ويستخدمون في همدان ومشرق خولان وجَهْران من الألبان اللبن الرائب وهو أثخن من الزبدة في غير اليمن. وكذلك يستخدمون الزبدة التي تعد بمثابة الجبن الرطب. ولهم أيضاً ألوان من الطعام والحلاوة والشربة (مثل ألوان السمائد وألوان اليُقط والكشك الشري وألوان الحلبة ومعقدات الأترج والقرع والجزع وقديد الخوخ والرنج واللّيّ وغير ذلك) كذلك يوجد بها (الشهد الحضوري الماذي الجامد الذي يقطع بالسكاكين)[2] ومن مأكولات أهل صنعاء وذمار وشبام أيضاً الحنطة والحلبة واللحم والشراب الذي لا يقطعونه جميعاً صيفاً ولا شتاء ضعيفاً ولا قوياً[3].

وفي المناطق التهامية والجبلية الحارة يكثر بها زراعة الذرة الشامية والذرة الرفيعة والدخن لذلك يكثر استخدامهم للخبز المصنوع منه. ففي زبيد كانوا يعملون من الدخن والذرة الحفوش والكبان واللحم والفطير يأكلونه باللبن والسمك يسمونه (الملتح) وكذلك يأكلون الجبن والحليب والقند[4].

كذلك يكثر أكل اللحوم في المناطق الجبلية مثل الجند وصنعاء[5] وذي جبلة وصعدة وقد يفضلون نوعاً على آخر من ذلك أن أهل صنعاء يفضلون أكل لحم البقر على

(1) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 7.
(2) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 315، 316، اللّيّ: الدعبب.
(3) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 192.
(4) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 86.
(5) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 316.

الضأن السمين[1] وفي بعض مناطق منها قد (يسلق اللحم بالماء والملح ويثرد الخبز ويقلب عليه السمن الكثير فيشرب اللحم المرقة ويفرق جميع اللحم على الثريد). بينما يكثر أكل السمك في مدن السواحل مثل زبيد وعدن والشحر وحضرموت والمنذرية[2].

وأيضاً تنوع استخدام الأطعمة بحسب بداوة المناطق وتمدنها فالمناطق الريفية كانوا يصنعون أكلهم من البر، والذرة والدخن مصحوباً بأدام (سبغ) اللبن أو السمن[3] بينما تنوّعت الأطعمة في مناطق المدن حيث توفرت لهم اللحوم والأسماك والمواد المجلوبة من الخارج مثل الأرز وأنواع البهارات وأنواع الحلويات.

كذلك اختلف استخدام تناول الأطعمة بين الطبقات المختلفة وذلك بحسب مراكزهم الاجتماعية وثرائهم. فكان رجال الطبقة العليا من الأمراء والوزراء ومن في مستواهم يتناولون أفخر المأكولات وقد يبلغ طول السماط خمسين ذراعاً ويكثر عددها إلى أربعة أسمطة[4].

وقد وصف القلقشندي طعام طبقة أصحاب الثراء وأصحاب السلطة بقوله: (إن لأهل اليمن سيادات بينهم محفوظة وسعادات عندهم ملحوظة ولأكابرها من رفاهية العيش والتنعم والتفنن في المأكل: يطبخ في بيت الرجل منهم عدة ألوان ويعمل فيها السكر والقلوب)[5].

ذلك وصف لمأكولات الطبقة الغنية والحاكمة، بينما كان رجال الطبقة الفقيرة لا يأكلون إلا ما تيسر من الطعام، فكان أهل الحرف من الصيادين والحمالين والزراع يتناولون طعاماً بسيطاً حيث كان يشمل طعامهم على فطيرة خبز وقطيب أو رغيف خبز من علس أو بر وقطعة حلاوة يوضح ذلك ابن المجاور بقوله: (يقول زيد لعمرو: ما تَصَبَّحْت اليوم؟ يقول فطير دخن وقطيب أو ملتح وسليط ويقول مضر لجعفر ما تَعَوَّفْت؟ يقول رغيف خبز بر بفلس وقطعة حلاوة بأربعة فلوس فصار المبلغ ستة فلوس، ويقول خالد لزيد: إني أكلت اليوم أكلة تكفيني ثلاثة أيام فطير وحليب وقند شرقي وترفت إلى أن شبعت)[6].

كذلك تنوّع استخدام الأطعمة بحسب حاجات الناس لها من حيث المكوث

(1) ابن رستة: الأعلاق النفيسة، ص: 112.
(2) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 86، 99، 137، 222، 223، 253، 265.
(3) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 316.
(4) الوصابي: تاريخ وصاب، ص: 58.
(5) القلقشندي: صبح الأعشى، ج5، ص: 7.
(6) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 86، 87.

والسفر، فصنعوا الأطعمة التي يستمر بقاؤها وقتاً طويلاً دون أن يصيبها التلف خبز الملة والكشك والمهادن، والخبز اليابس الذي لا يصيبه التغير حتى يتسنى لهم استخدامه في السفر. كما أنهم جففوا الأسماك واللحوم وأيضاً كان لأهل صنعاء طريقة خاصة لحفظ اللحوم بعد طبخه، وذلك أنهم كانوا يطبخون اللحم بالخل وهذه الطريقة عندهم آنذاك كانت تجعل اللحم يمكث أكثر من شهر دون أن يتلف[1].

وكان المسافرون يأكلون في أسفارهم الخبز الطري والخبز اليابس الذي لا يصيبه التغيّير حيث كانوا يأكلون نصف طريقهم الخبز الطري ونصف طريقهم الآخر الخبز اليابس. وكان الخبز اليابس يدق ويطرأ باللبن أو السمن ثم يؤكل[2].

وكانوا غالباً ما يصنعون خبزهم للأسفار مخلوطاً بالسمن لأن السمن اليمني أجود من زيت السمسم. لذلك كانوا لا يصنعون حلوياتهم إلا بالسمن ولا يصنعونها بغيره[3]. وهكذا كانت أنواع المأكولات.

ب ـ **الملبس**: اختلف لباس الناس في اليمن من منطقة إلى أخرى وذلك بحسب العوامل الطبيعية من حرارة وبرودة وغيره، فكانت ملابس أهل الجبال غير ملابس أهل تهامة. ففي المناطق الجبلية مثل صنعاء والمناطق المجاورة لها كانوا يلبسون لباس الخام ليحميهم من البرودة، ولبسوا لباس (الفتوحي) وهي القمصان الواسعة التي يشدّ وسطها بحزام[4]. ولبسوا لباس الخز والكتان والرقائق، كما كانوا يلبسون البرود والصوف والمبطنات التي تحميهم من البرودة، ودواويح الثعالب ـ وهو الفراء المدبوغ من جلد الثعلب[5] ـ كما لبسوا مدارع من صوف[6] وجباب وعمائم[7]. ومع وجود ملابس الشتاء الثقيلة أو الخام ولبسها في صنعاء إلا أنه كما يصف الهمداني قد يلبس الإنسان فيها في الشتاء ملابس الصيف ويلبس في الصيف ملابس الشتاء دون أن يصاب الإنسان فيها بضرر[8]. ولبس أهل صعدة الحرير والقطن[9].

---

(1) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 315، 316.

(2) الهمداني: نفس المصدر والصفحات.

(3) الهمداني: نفس المصدر والصفحات.

(4) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 188، 192، 253.

(5) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 313.

(6) يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، ق43أ.

(7) الهمداني: الدامغة، ص: 123.

(8) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص: 313، الدامغة، ص: 123.

(9) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 206.

أما في التهائم فقد لبس فيها الحرير والقطن. ففي زبيد لبسوا الحرير ولبسوا القلنسوات المصنوعة من خوص النخل، ولبس أهل عدن الكتان والعمائم الملس، وسراويل[1]، ولبس في حضرموت القطن[2] ولبس أهل شبام وحضرموت لباساً ذا لون أزرق ومشوا حفاة مكشوفي الرؤوس[3] ولبس أهل ضَنْكان القمصان والأردية، وأهل السرين وحلّي وعثر لبسوا الرداء والأزر[4] أما أهل المخاء فكانوا يأتزرون بإزار واحد يلتف الرجل فيه[5].

ومع تنوع ملابس أهل اليمن إلا أن الكثير ممن كانوا يعملون في الزراعة كانوا في الغالب يلبسون الإزار بلا قميص إلا القليل[6] وخاصة في موسم الحر. والإزار ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن[7] كما لبسوا الأردية[8] وهي ما تلبس فوق الثياب كالجبة والعباءة، والثوب يستر الجزء الأعلى من الجسم فوق الإزار[9].

وكان الناس في اليمن مثل غيرهم في البلاد الإسلامية يلبسون الملابس بحسب ثرائهم وحالتهم الاجتماعية والسياسية ونوع عملهم. فكانت ملابس الأمراء والحكام غير ملابس الرعايا والجند فمثلاً لبس المعز إسماعيل الأيوبي ملابس الخلفاء وهي عبارة عن قمصان بأكمام طويلة واسعة طول الكم عشرة أذرع أو ثمانية أذرع وتسمى الثمانية أو العشارية نسبة إلى طول الأكمام فيها، بحيث يرسل الملك أو الخليفة كمه فيقبل الناس كمه بدلاً من يده[10] كما كان لأصحاب الحرف والمهن ملابس خاصة تتناسب ونوع عملهم وهكذا، ووجدت ملابس خاصة بالسلاطين وملابس خاصة بالمزارعين أو الدباغين وغيرهم، فمثلاً عندما ذهب علي بن محمد الصليحي إلى (حيس) لبس ملابس سلاط[11] ليخفي مظهره الأميري حتى

---

(1) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 68، 136، 139.
(2) الشيلي: المشروع الروي، ص: 156.
(3) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 253.
(4) حمد الجاسر: كتب المنازل من روافد الدراسات عن جغرافية جزيرة العرب، مصادر جزيرة العرب: 1/ 231.
(5) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 100.
(6) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 99.
(7) المعجم الوجيز، ص: 15.
(8) جمد الجاسر: نفس المرجع والصفحة.
(9) المعجم الوجيز، ص: 261.
(10) الخزرجي: العسجد المسبوك، ص: 174، محمد عبد العال أحمد: الأيوبيون في اليمن، ص: 155، هـ7.
(11) عمارة: المفيد، ص: 100.

لا يتعرف عليه الناس الذين يعرفونه فيظهر أمره قبل تحقيق مطلبه.

واختلفت ملابس أهل المدن عن ملابس أهل البادية فغالباً ما يسود أهل المدن الترف ورغد العيش فيتأنقون في ملابسهم. فمثلاً كان أهل مدينة زبيد يظهرون بالملابس النظاف[1] وأهل مدينة صنعاء يظهرون بأزياء حسنة[2] لأن أهل المدن عادة ما تتمركز بها أغلب أعيان الدولة وموظفيها، وأهل الثراء من التجار والملاك وغيرهم، حيث وجدت لديهم أنواع الملابس الجليلة على اختلاف أصنافها[3].

أما أهل البادية فملابسهم غير ملابس أهل المدينة، لأن أغلب أهل البادية كانوا من الزراع أو رعاة الماشية لذلك كانت ملابسهم بسيطة كبساطتهم وغالباً ما كانت تشتمل على إزار[4] وسترة أو مدرعة.

وفي نطاق تجهيز الملابس كان يوجد في اليمن أسواق لخياطة أنواع الثياب، فقد أمر علي بن محمد الصليحي بثياب كثيرة جداً فخاطوها قمصاناً صغاراً وكباراً ثم فرّقها على الأيتام والأرامل وفقراء المسلمين[5].

أما نساء اليمن فقد لَبسن الملابس الجليلة على اختلاف أنواعها. ومن ملابسهن (الفتوحي) الذي لبسته نساء المسلمين، فقد كان يلبسه في بغداد وحضرموت وصنعاء وعموم اليمن، كما لبست نساء اليمن فاخر الحلل[6]، ولبسن الخلع واللجاع. والعبلات (العباءات) ولبِسْن القناع، وكانت الجواري في عدن عندما يعرضن للبيع يشد وسطهن بمئزر[7].

وفي نطاق التزين بالمجوهرات لبستْ نساء اليمن أنواع المجوهرات مثل الخلخال والدُمْلج والحجل[8]، وأنواع المصوغات واللؤلؤ واليواقيت الفاخرة[9].

كذلك تزينت نساء اليمن بأنواع الزينة فكن يتعطرن ويتكحلن، وكانت نساء حضرموت يضفرن شعر رؤوسهن ويربطن شعرهن وسط رؤوسهن ويسمونه

(1) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 7.
(2) الخزرجي: نفس المصدر، ص: 151.
(3) عمارة: المفيد، ص: 234.
(4) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 99.
(5) يحيى بن الحسين: طبقات الزيدية، ق47ب، 48أ.
(6) عمارة: نفس المصدر والصفحة.
(7) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 145، 189، 253.
(8) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 136، 145.
(9) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 136.

(الطُرْطُر) ومثل ذلك يفعل الكثير من نساء اليمن. كذلك كانت نساء المحاليب شمال زبيد يطولن شعرهن ويربينه منذ الطفولة حتى الكبر، فيضفرنه ضفراً ملاصقاً وهو ما يسمى (دبوقة) ويدهنه ويسرحنه ويغسلنه بالسدر والطين[1]. وهكذا كان تنوّع الملبوسات في اليمن.

العمران:

تعددت المنشآت المعمارية في اليمن في فترة البحث وفقاً لأغراضها الدينية من بناء مساجد ومدارس، أو أغراضها المدنية من بناء قصور ومنازل، أو أغراضها الحربية من بناء الحصون والقلاع[2].

وفي موضوعنا هذا سوف لا نستعرض فنون العمارة المختلفة من زخرفة ونقوش كما لا نتابع تأثراتها المتنوعة، فهذه لها دراسة أخرى ليس هنا مجالها. وإنما سنهتم بالفترات التي أنشئت بها هذه المنشآت والأشخاص الذين ساهموا في بنائها أو تجديدها.

فالعمارة في اليمن تأثرت بعوامل البيئة من حرارة وبرودة واعتدال، فمثلاً في المناطق الباردة كانت الغرف مفتوحة إلى حجري مغطى، بينما في المناطق الحارة كانت الغرف مفتوحة إلى حجري مكشوفة وكانت المنازل فسيحة[3].

كما بنيت العمارة حسب توفر المادة الخاصة بها لكل منطقة في اليمن. فمثلاً بنيت صنعاء بالحجر والرخام المنحوت والمنجور[4] بالإضافة إلى الآجر والجص[5]. بينما تهامة مثل السرين وحلى بن يعقوب بنيت بالخشب والحشيش، أما زبيد نفسها فقد كان أغلب بنائها بالآجر[6].

وكانت الأخشاب من أهم ما اعتمدت عليه العمارة في اليمن، حيث كانت تجلب من أودية كثيرة من اليمن منها: وادي ذُو آل، ووادي نبع، ووادي رَيمان،

---

(1) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 56، 136، 253، المحاليب بليده وناحية دون زبيد من أرض اليمن مراصد الاطلاع، ج3، ص: 1132.

(2) انظر. د. مصطفى شيحة: مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية في ج. ع. ى، ص: 17 ـ 19.

(3) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 119، 200.

(4) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص: 251.

(5) عبد الله يوسف الغنيم: جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك للبكري، ص: 134، حمد الجاسر: كتب المنازل من روافد الدراسات عن جغرافية جزيرة العرب، مصادر جزيرة العرب، ج1، ص: 231.

(6) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 84.

ووادي عرم، ووادي جابية المداراة ومن وادي زَبيد سخمل والفائشي ووادي نخْلة ومن أودية الشام وادي رِمَاع، ووادي الكَذْرَاء، ووادي سُرْدُد، ووادي مَوْر[1]. وسنتحدث عن اهتمام الحكام في بناء المدن والمساجد والمدارس والقصور والحصون والطرقات.

أولًا

المدن

بناء المدن من أهم مرتكزات قيام الدولة في القصور المختلفة ومنها العصر الإسلامي حيث اختطت المدن كعواصم أو مستقرات لحكومات متعددة، وقد كان بناء المدن في اليمن في الفترة الإسلامية لنفس الغرض، فعن مدينة زبيد يوضح المقدسي أنها (قصبة تهامة... ومستقر ملوك اليمن) وعن عدن فهي (فرضة اليمن) وصنعاء (قصبة نجد اليمن)[2].

وكان يبنى في المدينة العديد من القصور[3] للأمراء والحكام وحواشيهم والعديد من المساكن للجند[4] ودور للإمارة[5] يقيم بها الجهاز الإداري من قضاة وعلماء وكتّاب، كما يقام بها بيوت الأموال ومساجد وجوامع وأسواق ودكاكين وحمامات وآبار وغيره[6] بالإضافة إلى دور الصناعة[7] وسك العملة[8].

وكانت المدن تخطط على شكل أحياء أو دروب يسكنها الناس مجتمعين على اختلاف طبقاتهم[9] أو متوزعين على شكل تجمع قبلي[10] أو توزيع طبقي[11].

وكانت المدن تحصن بأسوار حولها، منها دائري كما هو في زبيد[12]. ومنها

---

(1) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 63.
(2) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 84، 85.
(3) عمارة: المفيد، ص: 119، 207.
(4) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 74.
(5) عمارة: المفيد، ص: 120.
(6) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 130.
(7) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص: 55.
(8) الخزرجي: العسجد المسبوك، ص: 114، 115.
(9) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 357.
(10) مسلم اللحجي: تاريخ مسلم اللحجي، ص: 18.
(11) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص: 249.
(12) الخزرجي: العسجد المسبوك، ص: 97.

ما يناسب ظروف البيئة المحاط بها المدينة مثل عدن، والهدف من وراء ذلك حماية رجالات الدولة والجند وحماية بيت المال والتجار والموظفين وغيرهم. وكانت الأسوار تبنى حول المدينة عالية بحيث لا يستطيع العدو اختراقها بسهولة. كما كان يضاف عدة أسوار جديدة إلى المدينة في حالة توسيعها مثل زبيد. وكان يوضع على الأسوار عدة أبواب ضخمة بالإضافة إلى أبراج للمراقبة وحراس منوابين[1] كما سيتضح ذلك كله فيما سيأتي.

فالمدن اليمنية التي نستعرض الحديث عنها تشكل ثلاثة أنواع من المدن، النوع الأول مدن أنشئت منذ زمن قديم وجرى عليها التجديد والإصلاح عبر فتراتها الزمنية حتى فترة البحث مثل مدينة صنعاء وعدن. ومدن أنشئت في الفترة الإسلامية استمر التجديد عليها وترميمها من قبل الحكام المتعاقبين عليها حتى فترة البحث مثل مدينة الجند وزبيد وصعدة. وأخيراً مدن أنشئت في فترة البحث مثل مدينة ذي جبلة ومدينة المنصورة.

النوع الأول: مدن قديمة

1 ـ **مدينة صنعاء**: تعد مدينة صنعاء من أقدم مدن اليمن، يصفها ابن رسته بقوله: (وهي مدينة كثيرة الأهل طيبة المنازل بعضها فوق بعض إلا أنها مزوقة أكثرها بالجص والآجر والحجارة المهندمة فمنها ما أساسها من الجص والآجر، وسائرها حجارة مهندمة حسان وبعض أراضي بنائها الجص والآجر وبعضها بالجص وأكثر سطوحها مفروشة بالحصى لكثرة أمطارها)[2].

كما يضيف ابن رسته عن عمارة صنعاء أنه على ضفتي طريق السيل الذي يخترق صنعاء أقيمت (قصور مبنية من الجص والآجر والحجارة وعامة هذه القصور للدباغين)[3]. وفي عهد علي بن محمد الصليحي عندما استولى على صنعاء جعلها مقر حكمه، فبنى بها عدة قصور، إلا أن هذه القصور أهملت بعد أن انتقلت عاصمة الصليحيّين إلى ذي جبلة في عهد المكرم، فتهدمت هذه القصور. وقد حكى محمد بن بشارة وهو من أهل صنعاء وذلك سنة 535هـ/ 1140م أنه لم يدرك قصور الصليحي إلا وهي متهدمة، وأن الناس لا زالت تبني من أنقاضها دوراً منذ

(1) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 74، 130.
(2) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص: 109.
(3) ابن رسته: نفس المصدر، ص: 110.

أن تهدمت حتى وقته سنة 535هـ[1] كما بني في صنعاء العديد من الحمامات[2] وعن مياه أهل صنعاء فهم يفضلون مياه الآبار للشرب على العيون الجارية[3].

أما عن سور صنعاء فيذكر ابن رسته أنه لم يكن لها سور في القديم. والذي بنى السور بها هو حاكمها آنذاك وذلك بعد فتنة ابن يعفر[4] (ت. 322هـ) وفي عهد علي بن محمد الصليحي أدار حولها سوراً بالحجر والجص ووضع عليه سبعة أبواب[5] وفي عهد طغتكين الأيوبي تمت الإعادة لسورها[6].

وكان تخطيط مدينة صنعاء على شكل دروب توزع السكان بها قبلياً حيث سكنت كل درب فيها قبيلة معينة، أوضح ذلك مسلم اللحجي بقوله: (وكانت صنعاء فيما بلغني دروباً مقسمة بين همدان وأعلاهم يومئذٍ آل الضحاك وآل حماد وآل دينج)[7] وقد تنازعت عدة قبائل حول السلطة على صنعاء عن ذلك قال ابن عبد المجيد: (وأقامت الفتنة على صنعاء بين همدان وخولان وحِمْير والأبناء وبني شهاب في كل شهر أمير، وعليهم رئيس في أكثر أوقاتها خالية من السلطان)[8].

2 ـ **عدن**: تعد عدن أهم فرضة في اليمن وهي مدينة قديمة يصفها القلقشندي بأنها (لم تزل بلد تجارة من زمن التبابعة إلى زماننا)[9] ويصفها المقدسي بأنها كثيرة القصور[10]. وقبيل عهد الزريعيّين كان أهل عدن يسكنون على ذروة الجبل الأحمر وحُقّات وجبل المنظر وعندما هاجم عدن جند الجاشو من أهل جزيرة كيش (قيس) بغرض القضاء على ميناء عدن أيام سبأ بن زريع. وبعد انتصار الزريعيّين على جند جزيرة قيس نزلوا هم وغيرهم من ذروة الجبال والحصون وسكنوا وادي عدن. وبنوا فيها الدور الجميلة بالحجر والجص. وهم كما يصف ابن المجاور أول من بنى الدور بالحجر والجص وذلك بعد أن ظهر لهم المقلع الذي يقطعون به الحجارة، وأول من أظهر المقلع أبو الحسن علي بن

(1) عمارة: المفيد، ص: 119، 120.
(2) الرازي: تاريخ مدينة صنعاء، ص: 114.
(3) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص: 111.
(4) ابن رسته: نفس المصدر، ص: 110.
(5) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 179.
(6) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 395، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 133.
(7) مسلم اللحجي: تاريخ مسلم اللحجي، ص: 18.
(8) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 64.
(9) القلقشندي: صبح الأعشى، ج5، ص: 11.
(10) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 85.

الضحاك الكوفي ثم كثرت بعد ذلك المقالع في جبل عدن. وكان يجلب الحجر قبل وجود المقلع من أعمال أبين[1].

وفي العهد الأيوبي في اليمن ازداد النشاط التجاري في عدن فبنى عثمان الزنجبيلي نائب تورانشاه الأيوبي على عدن قيصارية للتجار، كما بنى بها الأسواق والدكاكين، كذلك بنى بها الملك المعز إسماعيل بن طغتكين أو العزيز طغتكين بن أيوب قيصارية جديدة للعطارين جميعها دكاكين بالباب والقفل تقفل بالليل وجددها المعتمد رضي الدين محمد بن علي التكريتي نيابة عن الملك المسعود الأيوبي[2]. كذلك بنيت في عدن حمامات عديدة إلا أنها رديئة كما يصفها المقدسي لأنهم يجلبون إليها الماء من على بعد مرحلة من عدن. لعدم وجود الماء بها لأن آبار عدن نفسها كانت آبار مالحة[3].

ونتيجة لازدياد النشاط التجاري بعدن ازداد استقرار السكان بها فاستوطنها الكثير من الناس من كل مكان وبنوا فيها الدور والقصور، كما بنوا المساجد وأقاموا المنابر وحفروا الآبار، وبنوا الحمامات وقد رجح ابن المجاور أن سبب ازدياد بناء عدن كان بسبب خراب فرضة أبين نتيجة لقدمها فانتقل التجار من أبين إلى عدن فبنيت المدينة وكثرت بها العمارة[4].

وعن صهاريج عدن فقد ذكر ابن المجاور أن بداية بنائها كان في عهد الفرس في اليمن عند بئر زعفران، إلا أنها تخربت فبنيت ثانية في عهد بني زريع في نفس المكان على يمين الدرب في لحف الجبل الأحمر وكانت هذه الصهاريج تقوم بعملية خزن مياه الأمطار عند هطولها على جبل عدن[5].

أما عن سور عدن فقد كانوا يهتمون بتسوير الجهة المطلة على البحر وهي الجهة الشرقية ذلك لأن عدن تحيط بها الجبال من جميع جهاتها عدا تلك الجهة المطلة على البحر، فعن تسويرها ذكر المقدسي أنه أقيم لعدن سور في جهة البحر من الجبل إلى الجبل ووضعوا فيه خمسة أبواب[6] وفي عهد بني زريع أداروا سوراً

---

(1) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 125، 126.

(2) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 130، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 254، ترجمة المعتمد انظر بامخرمة: ثغر عدن، ص: 254.

(3) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 85.

(4) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 130.

(5) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 132.

(6) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 85.

مكان السور الأول من حصن جبل الأخضر إلى جبل حُقّات إلا أن هذا السور تهدم وارتدم لضعفه من دوام الموج عليه، فأقيم مكانه سور مشبك من القصب، وفي العهد الأيوبي أداروا سوراً حول المدينة كلها من ساحل البحر ومن رؤوس الجبال بالحجر والجص فبنى عثمان الزنجبيلي التكريتي سوراً على جبل المنظر إلى آخر جبل العُر ووضع عليه باب حقات ثم أداروا سوراً ثانياً على الجبل الأخضر من حصن الأخضر إلى التعْكر (جبل جديد) وأدار سوراً آخر على الساحل من الصناعة إلى جبل حقات وركب عليه ستة أبواب هي: باب الصناعة، باب حومة، باب السكّة، وباب الفرضة وباب مشرق، وباب البر[1].

النوع الثاني: مدن أنشئت في العصر الإسلامي وهي:

1 ـ **الجند**: بنيت مدينة الجند عندما قدم الصحابي الجليل معاذ بن جبل رضي اللّه عنه إلى اليمن مرسلاً من قبل الرسول ﷺ، وعندما تولّى أمر اليمن سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أدار عليها سوراً من الحجر والجص وأعلاه بالطين واللبن سنة 593هـ/ 1197م (وركب على السور خمسة أبواب هي باب المنصورة، وباب الحديد بناه الملك المسعود يوسف بن محمد بن أبي بكر، وباب الأقطع، وباب السر، ينفذ إلى باب البستان) كما بنى القصور والبساتين والمساجد[2].

2 ـ **زبيد**: كانت بداية تخطيط مدينة زبيد عندما تقلد أمر تهامة ابن زياد من قبل الخليفة المأمون العباسي سنة 204هـ/ 819م وكانت مستديرة الشكل يوضح ذلك الخزرجي بقوله: (وهي مدينة مدورة الشكل عجيبة الوضع على النصف فيما بين البحر والجبل)[3]. وكان سورها مبنياً بالطين وبه عدة أبواب وعدة حصون، يوضح ذلك المقدسي بقوله: (عليها حصن من الطين بأربعة أبواب: باب غُلافقة، وباب عدن، وباب هشام، وباب الشبارق)[4] ثم حدث أن بنيت عدة أسوار لزبيد في عهودها المختلفة فأول من قام ببناء سور لها بعد سورها القديم الحسين بن سلامة ثم أدار النجاحيون سوراً آخر أداره مَنّ اللّه الفاتكي

---

(1) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 128.

(2) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 163، 164.

(3) الخزرجي: العسجد المسبوك، ص: 97، طاهر مظفر العميد: بناء مدينة زبيد في اليمن، ص: 340، 343.

(4) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 84، ذكر في النص باب هشام والكن الذي يبدو أنه باب الشام.

وزير الأمير منصور بن فاتك بن جياش النجاحي (503 ـ 521هـ/ 1109 ـ 1127م) واستمرت عملية بناء السور لمدينة زبيد في عهد بني مهدي، حيث أدار عليها سوراً ثالثاً، وفي عهد الملك سيف الإسلام طغتكين الأيوبي (579 ـ 593هـ/ 1183 ـ 1197م) أداروا سوراً على مدينة زبيد بناه بالطين واللبن في عرض عشرة أذرع ووضع عليه أربعة أبواب هي باب غُلاَفقة، وباب سِهَام، وباب الشُبارق، وباب القُرْتُب[1] كما وضع على السور عدة أبراج ذكرها ابن المجاور بقوله: (عددت أبراج زبيد فوجد بها مائة برج وتسعة أبراج، بين كل برج وبرج ثمانين ذراعاً، ويدخل في كل برج عشرون ذراعاً)[2]. وجعلوا على تلك البروج والأبواب حراساً مناوبين[3]. وبجانب ذلك السور ترك طُغتكين مساحة من الأرض ثم أدار سوراً آخر بناه بالطين واللبن ذا طول كبير وسعة في العرض. وذلك لإسكان الجند فيما بين السورين بأموالهم ودوابهم، فلما فرغ من بناء السور توفي[4] قبل أن يسكن الجند به فسكنوا في عهد ابنه المعز إسماعيل بن طغتكين.

وكان الغرض من بناء مدينة زبيد لتكون مركزاً للدولة محصنة من أي مخاطر عليها يستوطنها الحكام، ويوضح ذلك الخزرجي بقوله: (فجعلها ابن زياد دار ملكه ومستقر إقامته)[5].

وعن العمارة داخل مدينة زبيد فقد بنيت بها العديد من العمائر وكان (أكثر بنيانهم بالآجر ومنازلهم فسيحة) كما بنيت بها الأسواق إلا أنها ضيقة كما يصفها المقدسي، وبنى بها جامع نظيف بعيداً عن الأسواق وأيضاً بنيت بها الحمامات النظيفة واستخرجت بها الآبار الحلوة[6].

3 ـ **صعدة**: كانت صعدة مدينة قديمة خربت وتأسست كمدينة جديدة في عهد الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين حين قدم إليها وسكنها منذ عام 280هـ/ 893م فسكنت معه الكثير من الناس، فلما كثر السكان بها بنى أحد التجار مسجداً بها كما بنيت لها الأسواق والدور[7].

---

(1) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 73، 74، الخزرجي: العسجد المسبوك، ص: 101، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 331، طاهر مظفر العميد: نفس المرجع، ص: 353.
(2) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 74.
(3) الخزرجي: العسجد المسبوك، ص: 102.
(4) ابن المجاور: نفس المصدر والصفحة.
(5) الخزرجي: نفس المصدر، ص: 97.
(6) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 84، 85.
(7) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 204 ـ 206.

وكان تخطيط المدينة على شكل أربعة دروب مدارة بالمدينة وهي الدرب العتيق ودرب القاضي، ودرب العز، بني في أيام سيف الإسلام طغتكين بن أيوب، ودرب القاضي ابن زيدان وحول هذه الدروب الأربعة أدير السور وركب في السور عدة أبواب هي باب الدرب العتيق، وباب علي بن قاسم، وباب درب العز، وباب درب القاضي ابن زيدان، وباب حوْث، أما درب الإمام فقد كان منفرداً لوحده وخارجاً عن الأربعة الدروب لم يسكنه إلا الإمام وعترته، أما أهل المدينة فلم يخالطهم. وعن شرابهم فقد كانوا يشربون من الأنهر الصغيرة والأعين[1].

النوع الثالث: مدن أنشئت في زمن البحث وهي:

1 ـ **مدينة ذِي جِبْلَة**: كان بداية اختطاط مدينة ذي جبلة في عهد الصليحيّين اختطها عبد اللّه بن علي الصليحي سنة 458هـ/ 1065م حينما ولاه أخوه علي الصليحي على حصن التعْكُر وأعمال ذي جبلة. وفي عهد المكرم أحمد وزوجته السيدة الحرة أصبحت ذي جبلة مقر حكم الصليحيّين وعاصمتهم منذ عام 467هـ/ 1075م حيث اختط كل منهما داراً له سميت كل دار بدار العز، كما بنت السيدة الحرة فيها المسجد الجامع، بالإضافة إلى بناء حائط يطل على منبعين للمياه فيه بستان به أنواع كثيرة من الأشجار[2].

2 ـ **تَعِزّ**: عندما قدم توران شاه الأيوبي إلى اليمن سنة 569هـ/ 1174م اختط مدينة تعز، وجعلها مقر حكمه[3] ثم أصبحت بعد ذلك عاصمة ملوك اليمن. وكان تخطيطها على شكل أحياء سكنية سكنها الناس بشكل طبقي، يصفها ابن بطوطة بقوله: (فتوجهنا إلى مدينة تعز حضرة ملك اليمن، وهي من أحسن مدن اليمن وأعظمها.. وهي ثلاث محلات: **إحداها**: يسكنها السلطان ومماليكه وحاشيته وأرباب دولته، وتسمى باسم (المعزية) **والثانية**: يسكنها الأمراء والأجناد وتسمى عدينة، **والثالثة**: يسكنها عامة الناس وبها السوق العظمى وتسمى المحاليب)[4].

3 ـ **مدينة المنصورة**: وفي العهد الأيوبي بنى سيف الإسلام طغتكين مدينة المنصورة قبلي الجند سنة 592هـ/ 1195م كما بنى فيها قصراً كبيراً له وبيوتاً

(1) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 204 ـ 206.

(2) عمارة: المفيد، ص: 139 ـ 142.

(3) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج5، ص: 648.

(4) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص: 249. زار ابن بطوطة تعز في عهد الدولة الرسولية.

للعساكر وحمامات[1] كذلك زرع بها أنواع المزروعات جلبت من أماكن متعددة[2].

المساجد: اهتم الأمراء والحكام ببناء المساجد والجوامع الكبيرة اهتماماً غير عادي في جميع العهود الإسلامية في اليمن، لأن بناء المساجد يعد أحد دعائم السلطة السياسية والدينية، وإلى جانب كون المساجد مكان عبادة لجميع الناس يستخدم أيضاً كمكان لتدريس العلوم وخاصة العلوم الدينية. كما جرت العادة أن يدعى في الخطبة للأمراء والحكام تعبيراً عن الطاعة والولاء لمن يدعى له.

ونجد أن هناك نوعين من عمارة المساجد في اليمن أحدهما مساجد بناها الأمراء والحكام وكان في الغالب لكل أمير مسجداً خاصاً بناه باسمه، والآخر جوامع كبيرة بُنيت في فترات مختلفة وظلت ترمم وتجدد ويضاف إليها الزيادات من قبل أغلب الحكام. ومن أهم الجوامع التي رممت وعمل عليها الإضافات والزيادات الآتي:

جامع الجند: يعتبر جامع الجند أحد الجوامع الأولى التي بنيت في اليمن في فترة مبكرة من الإسلام فيعود بناؤه إلى فترة وجود الصحابي الجليل معاذ بن جبل رضي اللّه عنه حين بعثه الرسول ﷺ سنة تسعة للهجرة[3] ولا خلاف في أن الذي بنى جامع الجند هو معاذ بن جبل[4]. وقام بإعادة تجديده الأمير الحسين بن سلامة[5] حيث قام بتجديد المقدم والجناحين، أما المؤخر فقد بناه بعض القضاة من وفر المسجد[6]، وفي عهد المفضل ابن أبي البركات الحميري أعاد تجديد المسجد سنة 480هـ/ 1087م بالحجر المنقوش واللبن المربع. ولما دخل ابن مهدي إلى مدينة الجند، قام بإحراق الجامع بالحجة التي يوضحها ابن المجاور عن ابن مهدي حينما سأله الناس عن سبب إحراق الجامع ردّ عليهم بقوله: (قد استوجب النار، قيل: ولم؟ قال: لأنه قد خطب على منبره الإسماعيلية يعني ملوك بني زريع ولاة عدن، فهم أنجاس ينجس الجامع بذكرهم وكل من هو نجس طهر وقد طهرناه بالنار)[7]. ثم أعاد بناءه.

---

(1) الخزرجي: العسجد المسبوك، ص: 168.
(2) انظر، ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 265.
(3) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 165، د. مصطفى شيحة: مدخل إلى العمارة الإسلامية في الجمهورية العربية اليمنية، ط1، 1407هـ/ 1987م، ص: 37.
(4) الخزرجي: العسجد المسبوك، ص: 14.
(5) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 165.
(6) الجندي: السلوك، ج2، ص: 496.
(7) ابن المجاور: نفس المصدر والصفحة، د. مصطفى شيحة: مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية في ج. ع. ى، ص: 28.

وفي العهد الأيوبي أعاد بناء مسجد الجند سيف الإسلام طغتكين وقد (رفع أسقفه بالآجر والجص بعد أن ذَهَّبَه) وفي دولة الملك الناصر بن طغتكين أجراه بالذهب واللازورد سنة 603هـ/ 1206م[1]. وبنى الأتابك سنقر للجامع الصفين الجناحين والمؤخرة[2] كذلك أمر الملك المسعود بإعادة تجديد الأروقة الثلاثة الشرقية والغربية والجنوبية فأكمل في عام 626هـ/ 1128م[3].

جامع صنعاء: أما جامع صنعاء الذي بني بالحجر والجص[4] فقد اختلفت الأخبار والروايات فيمن بدأ بناءه فيقال إن أول من بناه هو وبر بن يحنس الصنعاني بأمر من رسول اللّه ﷺ حين ولاه على صنعاء سنة ست للهجرة، حيث أمره أن يبني حائط بأذان مسجداً وقيل الذي بناه في نفس المكان، بأمر من رسول اللّه ﷺ فروة بن مسيك المرادي، أو أبان بن سعيد أو المهاجر بن أمية الذين تولوا أعمال صنعاء في عهد الرسول ﷺ وعهد أبي بكر رضي اللّه عنه[5] والذي يبدو أن بناء المسجد كان بعد العام الثامن للهجرة وهو بعد الفتح الإسلامي لمكة وأن بناءه كان على شكل مسجد صغير أما الجامع بشكله المتسع فقد كان بناؤه متأخراً حيث استمرت الإصلاحات والزيادات للجامع في مراحل كثيرة.

ففي العهد الأموي أمر الخليفة الوليد بن عبد الملك واليه على صنعاء أيوب بن يحيى الثقفي أن يزيد في الجامع فزاد فيه من الجهة القبلية[6]. وجدد في عهد الخليفة المهدي العباسي، وعُمِّر بعد خرابه بالسيل في عهد بني يعفر، كذلك أصلح الحسين بن سلامة الجامع أواخر القرن الرابع الهجري، وفي عهد السيدة الحرة أروى بنت أحمد الصليحية عملت على إصلاح زيادة في الجناح الشرقي للجامع سنة 525هـ/ 1130م، وفي العهد الأيوبي أمر الأمير وردشار والي صنعاء للأيوبيّين بعمارة المنارة الغربية سنة 603هـ/ 1205م، كما أمر بناء المطاهير وبئر بالجامع والبركة ومجرى من البئر إلى المطاهير[7].

---

(1) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 165، 166.

(2) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 409.

(3) د. مصطفى شيحة: مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية في ج. ع. ى. ص: 38.

(4) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص: 110.

(5) الرازي: تاريخ مدينة صنعاء، ص: 75 ـ 82 ـ ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص: 20، الخزرجي: العسجد المسبوك، ص: 14، الحجري: مساجد صنعاء، بيروت، ط2، 1398هـ، ص: 23، 24.

(6) الرازي: نفس المصدر، ص: 85، 214.

(7) الحجري: مساجد صنعاء، ص: 23 ـ 28.

جامع زبيد: وفي زبيد بنيت عدة جوامع فيها، منها جامع زبيد الذي يرجع تاريخه إلى بداية نشأة مدينة زبيد عند بداية الدويلات المستقلة. وفي عهد القائد الحسين بن سلامة (ت. 426هـ/ 1034م) قام بتجديد جامع زبيد بالإضافة إلى عدة جوامع أخرى بها. وفي عهد النجاحيّين جددوا عمارة جامع زبيد المسمّى الجامع القديم، وعندما تولّى الحكم فيها بنو مهدي (554 ـ 569هـ/ 1159 ـ 1174م) أهملوا الجامع المذكور ومنعوا إقامة الخطبة فيه وبنوا جامعاً في زبيد سمي بالمشهد[1]. وعندما قدم الأيوبيون إلى اليمن أمر توران شاه بخراب جامع ابن مهدي وتجديد عمارة جامع زبيد المسمّى القديم فبدأت العمارة فيه سنة 573هـ/ 1177م في عهد المبارك بن منقذ نائب توران شاه على زبيد الذي جدد مقدمة الجامع، وأكمل بناء المؤخرة والجناحين الشرقي والغربي والمنارة سيف الإسلام طغتكين بن أيوب[2].

ومن المساجد الأخرى التي بنيت أيضاً في اليمن المسجد الجامع الذي بنته السيدة الحرة، بجوار دارها بذي جبلة[3]. وبنى عمران بن محمد بن سبأ الزريعي منبراً جميلاً ونفيساً في جامع عدن[4] كما بنى عثمان الزنجبيلي مسجداً بعدن، وبنى سيف الدين سنقر جامع المعزية بتعز وأصلح منبره وبنى جامع خنفر في أبين[5]. كذلك بنى جوهر المعظمي جامع عمق بالصلو وبنى جامعاً في منطقة (معبرة من بلاد الأشعوب، وجامعاً ثالثاً في منطقة الخناخن)[6]. وبنى المبارك بن منقد مسجد المناخ في زبيد[7]. وهناك العديد من الجوامع والمساجد الأخرى التي بنيت في اليمن[8].

قصور: يصف ابن المجاور (601 ـ 690هـ) (1204 ـ 1291م) منازل أهل اليمن في كثير من جهاتها بقوله: (وبناء دورهم مربعة كل دار وحدها طبقتين الأسفل منهما مخازن والأعلى منهما مجالس، وبناؤهم بالحجر والجص والخشب

---

(1) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 385.

(2) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 386، بغية المستفيد، ص: 75.

(3) عمارة: المفيد، ص: 142.

(4) الخزرجي: العسجد المسبوك، ص: 95، ابن الديبع: قرة العيون، ص: 319.

(5) الخزرجي: نفس المصدر، ص: 178، ابن الديبع: نفس المصدر، ص: 409.

(6) الجندي: السلوك، ج6، ص: 444.

(7) ابن الديبع: بغية المستفيد، ص: 70.

(8) في الغالب كان تخطيط المسجد الجامع على شكل مستطيل يتوسطه فناء مكشوف وبه أربعة أروقة القبلة. انظر د. مصطفى شيحة: مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية في ج. ع. ى، ص: 38 وما بعدها.

والملج والجص)[1] أما القلقشندي فقد وصف عمارة أهل اليمن بقوله: (ولهم الديار الجليلة والمباني الأنيقة إلا الرخام ودهان الذهب واللازورد فإنه من خواص السلطان لا يشاركه فيه غيره من الرعايا)[2].

أما ألأمراء والحكام فقد اتخذوا مساحات واسعة داخل كل مدينة فبنوا فيها الدار السلطانية وقصر الإمارة وغيره. من ذلك بنى شُخَار بن جعفر دار الملك في زبيد أيام بني زياد جعلها كبيرة الطول والعرض، وبناها بالآجر والجص بناء محكماً. وكان يسكن بها كل من يتولّى زبيد، وقد جعل لهذا البناء باباً عالياً جداً ينظر منه من يقدم في الطريق إلى بعد فرسخين، وقد بقي الباب سليماً إلى أن هدمه الملك المسعود الأيوبي سنة 618هـ/ 1221م[3].

كما أن الأمراء والحكام بنوا لهم ولأسرهم وحواشيهم قصوراً ضخمة في بعض مدن اليمن تعبر عن الأبهة والفخامة، فمن بين من بنى دوراً ضخمة، الوزير أنيس الفاتكي وزير منصور بن فاتك النجاحي فقد بنى داراً واسعة أقام بها عدة حجرات واسعة، عرض كل قاعة ثلاثون ذراعاً، وعرض كل مجلس فيها أربعون ذراعاً[4].

وفي عهد الصليحيّين عندما انتقلت السيدة الحرة إلى ذي جبلة بنت بها دار العز الأولى، ولما انتقل المكرم إليها بعد السيدة بنى دار العز الثانية في أرض بور جعلها مطلة على النهرين الصغيرين اللذين كانا يجريان على ذي جبلة ومطلة على دار السيدة[5].

وفي عهد الأيوبيّين في اليمن بنى سيف الإسلام طغتكين في عدن داراً تسمى دار السعادة مقابل الفرضة[6] كما بنى أيضاً قصراً بصنعاء سمّي دار السلطان[7] كذلك بنى ابن الحامين داراً في عدن تسمى دار الطويل على محاذاة الفرضة وأيضاً بنى فيها الملك المعز إسماعيل بن طغتكين داراً على جبل حُقّات تسمى دار المنظر[8].

---

(1) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 137.
(2) القلقشندي: صبح الأعشى ج5، ص: 7.
(3) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 78، سميت دور الحكومة بعدة تسميات منها قصر الإمارة ودار الإمارة، ودار الخلافة، ودار السلطانية، ودار العز ودار الملك.
(4) عمارة: المفيد، ص: 210.
(5) عمارة: نفس المرجع، ص: 139، 142.
(6) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 110.
(7) ابن حاتم: السمط، ص: 38.
(8) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 111.

بناء المدارس:

ساهم اليمنيون في بناء مدارس منذ منتصف القرن السادس الهجري في قرى يمنية متعددة، وذلك ضمن المجهود الذاتي للتعليم. من ذلك بنى الشيخ علي بن إبراهيم ابن أبي الأمان سنة 558هـ/ 1162م مدرسة بذي جبلة. وبنى الشيخ الحسين بن عيسى بن عمران ابن أبي النهي مدرسة في الشوافي، وبنى مشايخ بني حميد في إصهبان مدرسة درس بها الفقيه أبو العتيق أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن عمران الصفوي (ت. 660هـ/ 1261م). وبنى مشايخ بني وائل مدرسة الزواحي من أعمال بني حبيش في ذي جبلة. كذلك بنى علي بن محمد بن غليس العريقي الوصابي (ت. بعد 610هـ/ 1213م) ثلاث مدارس في وصاب[1]. ويبدو أن المدارس التي بناها اليمنيون لا تشتمل على أماكن إيواء للطلبة والمدرّسين.

ثم بدأت المدارس النظامية في عهد الأيوبيّين في اليمن والتي تجمع بين المدرسة والمسجد ولها حجرات لإقامة الطلبة والمدرسين[2]. وأول من بناها منهم المعز إسماعيل بن طغتكين الذي حكم اليمن (593 ـ 598هـ/ 1196 ـ 1201م) بنى مدرسة الميلين في زبيد واشترى دار سنقر في تعز وجعلها مدرسة سميت المدرسة السيفية[3]. كما بنى الأتابك سنقر في زبيد المدرسة المعروفة بالعاصمية نسبة إلى مدرسها الفقيه الشافعي محمد بن عاصم، والمدرسة المعروفة بالرحمانية نسبة إلى مدرسها الفقيه الحنفي محمد بن الرحمانية[4].

---

(1) الجندي: السلوك، ج1، ص: 392 ـ 394، 462، 497، الأكوع: المدارس الإسلامية في اليمن، ص: 15.

(2) بامخرمة: قلادة النحر، ج3، ص: 828، الأكوع: نفس المرجع، والصفحة. د. محمد سيف النصر: المدارس اليمنية، مجلة الإكليل، ، ع1 سنة 3، خريف 1406هـ/ 1985م، ص: 99، د. مصطفى شيحة: مدخل إلى العمارة، ص: 85.

(3) الخزرجي: العسجد، ص: 173. ابن الديبع: قرة العيون، ص: 403، بغية المستفيد، ص: 76.

(4) الخزرجي: العسجد، ص: 178، ابن الديبع: بغية المستفيد، ص: 77، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، جـ1، 395، الأكوع: نفس المرجع، ص: 28، 31. كان تخطيط المدارس أحد المهام الدينية فهي تجمع بين المسجد كمنشأة دينية، والمدرسة كمنشأة تعليمية أيضاً، فيها فناء مكشوف وفي ناحية القبلة (الشمال) بيت للصلاة وقد يكون مغطى بقبة واحدة أو عدة قباب أو قد يغطى بسقف خشبي، وفي الجنوب إيوان مفتوح على الفناء، أما الجناحات فهما يغطيان بسقف خشبي، وبها كذلك أماكن لسكن الطلبة وما يتبعها من مرافق خاصة بهم مثل الحمامات والمطاهر، وبرك الماء وغيرها، انظر د. مصطفى شيحة: مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية في ج. ع. ى، ص: 85 وما بعدها.

الحصون:

استغل الأمراء والحكام في العصور الإسلامية العوامل الطبيعية مثل الجبال التي يصعب على الأعداء اجتيازها بسهولة، فأنشأوا عليها الحصون بقصد الدفاع، وحفظ خزائن المال ودواوين الدولة وغيرها.

وهناك الكثير من الحصون بنيت في اليمن. ففي عهد الصليحيّين بنى علي بن محمد الصليحي حصن مسار بحراز، كما بنى عبد اللّه بن محمد الصليحي حصن التعكر بذي جبلة وأيضاً بنى سبأ بن أحمد بن المظفر الصليحي حصن أشيح بألهان، كذلك بنى سبأ بن زريع حصن الدملوة بالصلو[1]. كما بنى اليامي حاكم صنعاء عدة حصون في اليمن الأعلى مثل براش المشرف على صنعاء وذمرمر وكوكبان والعروس وغيرها[2]. وبني ذو الشرفين حصن شهارة.

وفي العهد الأيوبي أعيد بناء الكثير من الحصون نتيجة تهدمها بسبب الحرب أو بسبب قدمها، ومن تلك الحصون التي بناها طغتكين حصن حَبٍّ وحصن خِدِدَ وحصن التعكر وغيرها[3]، كما أن معظم عمارة حصن تعز من عمارته، كذلك بنى حصن صغير على ذروة جبل المفاليس يسمى المصانع، كما بنى الأتابك سيف الدين سنقر عدة مباني ومناظر في حصن الدُملُوة كانت أشكالها جميلة كتب اسمه على أبوابها[4]. كذلك أدار الملك المسعود سوراً ثانياً حول حصن الدملوة نة 624هـ/ 1226م لإحكام التحصين به[5]، كما بنى الإمام عبد اللّه بن حمزة حصن ظفار ذي بين وكحلان وتلمص وحصن الطويلة وغيرها[6].

ومن أهم الحصون التي بنيت في اليمن لحفظ أموال بيت المال الحصن المطل على تعز، بني بأسوار وثيقة بالجص والحجر، عليه أبواب محكمة، وصفه ابن المجاور بقوله: (ليس في جميع اليمن أسعد منه حصناً لأنه سرير الملك وحصن الملوك.. لأن أحوال جميع اليمن مكنوزة به)[7].

---

(1) عمارة: المفيد، ص: 117، 139، 146، 147، 183، 184.

(2) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 392.

(3) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 133.

(4) الخزرجي: العسجد، ص: 149، 167، 178.

(5) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 154.

(6) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، ج1، ص: 406.

(7) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 156.

طـرق:

كما اهتم الأمراء والحكام وأهل الخير في اليمن بإنشاء الطرق، فقد اهتم الحسين بن سلامة بالطرق الموصلة إلى مكة لتسهيل طريق الحج وخاصة الطرق الممتدة من حضرموت إلى مكة، حيث وضع الأميال والفراسخ والبرد على طول هذه الطريق، واستنبط الآبار في المراحل المختلفة[1]. وهكذا حقق هذا العمل عدة أغراض منها تسهيل سير الحجاج وتسهيل سير القوافل التجارية عبر اليمن وتسهيل سير الجند والبريد من مكان إلى آخر وتسهيل حركة انتقال الناس داخل اليمن.

كما بدأ علي بن محمد الصليحي في إنشاء الطريق من زبيد إلى مكة ابتداءً من زبيد، غير أنه لم يكن البناء يصل به إلى المهجم حتى قتل قبل أن يكمل مشروعه[2]، كما أن السيدة الحرة أروى بنت أحمد قامت ببناء طريق من نقيل صيد ـ سمارة ـ إلى السياني على مسافة ثلاث مراحل[3]، أما نقيل صيد فقد بنى مدرجه الملك علي بن محمد الصليحي. كذلك بنى الملك المعز إسماعيل بن طغتكين الطريق من إب إلى المغربة على مسافة فرسخين[4].

ولم يقتصر الاهتمام على الحكام إذ قام الشيخ أحمد الجنيد بن بطال وقيل الشيخ محمد بن سليمان بن بطال بإنشاء الطريق من المفاليس إلى نقيل الحمر. يقدر بحوالي ثلاثمائة منعطف (ملوى) وقد كلفه الانفاق على هذه الطريق مبلغاً كبيراً، حيث كان يذبح في كل منعطف رأس بقر وينفق ستة أحمال حنطة ويصرف ثلاثمائة دينار[5]. كذلك بنى رجل جبلي سنة 500هـ/ 1106م قنطرة المكسر بعدن طولها ثلاثمائة وستون ذراعاً[6].

الأوقاف وأثرها في الحياة الاجتماعية:

شكلت الأوقاف ظاهرة هامة في اليمن في العصر الإسلامي، وكان لها أثر كبير في الحياة العلمية والاقتصادية والاجتماعية، فقد تعددت أغراضها وأنواعها فأوقف الناس أنواعاً متعددة على شكل أرض زراعية أو محلات أو دكاكين أو أسواق، ومنها ما كانت على شكل كتب فقهية ومصاحف وتعددت أغراض هذه

(1) عمارة: المفيد، ص: 71، بامخرمة: ثغر عدن، ص: 92.
(2) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 75.
(3) د. حسن سليمان: الملكة أروى سيدة ملوك اليمن، نشر مكتبة مصر، دار الثناء، ص: 93.
(4) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 175، 176، ص: 235.
(5) ابن المجاور: نفس المصدر، ص: 150.
(6) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 27.

الوقفيات بعضها لصالح الفقراء والمساكين، وبعضها لصالح الطلاب الأيتام والقادمين من أماكن متعددة من اليمن لطلب العلم، وبعضها لصالح المساجد من حيث إصلاحها وكفاية القائمين عليها، ومن هذا الشكل فقد كان للأوقاف أكبر الأثر في الحياة الاجتماعية.

وكانت الأوقاف غالباً ما تكفي للقيام بنفقات الغرض الذي حددت له فمثلاً كانوا يبنون مسجداً ويوقفون عليه وقفاً يكفي لإقامة إمام أو مؤذن وأيتام ومعلم، أو كانوا يبنون مدرسة ويوقفون عليها وقفاً جيداً يكفي للمدرس ولعدد من الطلاب والأيتام[1].

ونستعرض هنا بعض أنواع الأوقاف التي خصصت لأغراض متنوعة في اليمن، فمنها ما كان لصالح الفقراء والمساكين مثل ما أوقفه الفقيه علي بن عيسى بن مفلح المليكي العدني الذي كان ذا مال وبنين وكتب كثيرة أسند وصيته إلى الشيخ الموفق يحيى بن يوسف المسلماني سنة 580هـ/ 1184م ولم يعرف عنه غير ذلك، وأنه وجدت بثغر عدن أراضٍ تعرف بتركة المسلماني وقف غالبها على الفقراء والمساكين[2].

ومنها ما كان لصالح الحرم المكي الشريف مثل ما أوقفه عثمان الزنجبيلي نائب تورانشاه على عدن، ما بناه بها من الدور والدكاكين والأسواق وبعض العقارات لصالح الحرم المكي، كما أوقف سوق البز بها لصالح مسجده بعدن[3].

كذلك أوقف طغتكين الأيوبي لصالح الحرم المكي وادي الجريب والمسلب وظل يرفع دخلها إلى مكة إلى سنة 625هـ/ 1227م حينما حوَّل الملك المسعود هذه الوقفية إلى الديوان[4].

ومنها ما أوقف لصالح المتفرغين للدراسة والمسجد معاً، أوقف جوهر المعظمي لجامع عمق بالصلو وقفاً صالحاً يقوم بكفاية جمع من الطلبة الذين يدرسون في هذا المسجد[5].

ومنها ما أوقف لصالح المدارس التي بنيت في اليمن مثل ما أوقفه كل من الشيخ الفقيه علي بن محمد بن غليس العريقي المتوفى حوالي 610هـ/ 1213م أوقف

(1) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 468.

(2) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 270.

(3) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 384، 385.

(4) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص: 246.

(5) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 444.

وقفاً جيداً من ماله ومال أخيه عمر لصالح المدرسة التي بناها في وصاب[1]، والفقيه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن سليمان بن بطال المشهور ببطال الركبي من ركب الدملوة بالصلو المتوفى سنة 630هـ/ 1232م أوقف جملة من أراضيه وكتبه على المدرسة التي بناها بقرية (ذي يعمد)[2].

وفي العهد الأيوبي بنوا عدة مدارس متخصصة لتدريس العلوم الدينية المختلفة وأوقفوا عليها أوقافاً جيدة منها اشترى المعز إسماعيل دار سنقر بتعز وجعلها مدرسة سميت المدرسة السيفية أوقف عليها وادي الضباب[3]، جنوب تعز كذلك بنى المعز مدرسة الميلين في زبيد أوقف عليها أوقافاً جيدة[4].

وكانت الأوقاف إذا صرفت في غير الغرض الذي حدد لها الموقّف تؤثر تأثيراً كبيراً على الطلاب المستفيدين منها وعلى المدرسين وغيرهم. فمثلاً كانت سهفنة أراضي كثيرة أوقفت لصالح المدرسين والطلبة، فقصدها الطلاب من كل مكان من اليمن حتى إنها (لم تكد تخلو عن فقيه مدرس وطلبة مجتهدين) حيث استمر الطلاب يقصدونها إلى أن استولى على أوقافها بعض الصعبيّين فصرفوا أوقافها عن غير الوجه الذي خصصت له. وهو الانفاق على المدرسين والطلاب، فانقطع عنها طلاب العلم والمدرسين فخرب مركزها العلمي[5].

كذلك اهتم علماء اليمن وفقهاؤها بجلب الكتب الدينية واستنساخها ووقفها على المدرسين ليستفيد منها الطلاب والفقهاء من ذلك كانت في منطقة (ذي أشرق) الكثير من الكتب الموقوفة مما أغرى الفقهاء على الإقامة بالقرب من تلك المكتبات، وممن انتقل للإقامة فيها الفقيه مقبل بن زهير بن خلف الهمداني، رغبة في كتبها الموقوفة[6].

وفي قرية سودة بالجند أوقف الفقيه أبو عبد الله سليمان بن أسعد بن محمد الجدني الحميري (ت. 593هـ/ 1196م) كتبه لصالح الدارسين، وأوقف الفقيه مسلم بن أسعد (أخو عثمان بن أسعد) كتباً جليلة، كانت تحت نظارة القاضي طاهر بن يحيى (ت. 587هـ/ 1191م)[7].

---

(1) بامخرمة: قلادة النحر، مخطوط رقم 1184، إسماعيل الأكوع: المدارس الإسلامية في اليمن، ص: 23.

(2) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 232.

(3) بامخرمة: ثغر عدن، ص: 136.

(4) ابن الديبع: قرة العيون، ص: 403.

(5) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 264.

(6) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص: 115، الجندي: السلوك، جـ1، ص: 319.

(7) الأهدل: تحفة الزمن، ص: 293، 315.

وكان بعض الناس يقومون باستنساخ الكتب ووقفها، منهم جوهر المعظمي نسخ بيده القرآن عدة مرات وأوقفها في أماكن متفرقة من اليمن منها في جامع الجند ختمة كاملة (ثلاثون جزءاً)[1].

ومن ضمن العلماء الذين استمروا ينسخون الكتب الفقهية المتعددة الإمام سيف السُنَّة أحمد البريهي (ت. 586هـ/ 1192م)، فقد كان بجانب اشتغاله بالتدريس ينسخ الكتب، بعضها يوقفها لصالح الطلاب وبعضها تباع ويشترى بثمنها ورق مصري أو بغدادي فيستمر ينسخ الكتب ويوقفها وهكذا (حتى إنه كان ينسخ في كل عام نسخة بيان ونسخة المذهب ونسخة كافي الصردفي وربما التنبيه أيضاً)[2]، (وكان مهما حصل من كيلة المسجد أخذ به ورقاً وحبراً ونسخ به كتباً ووقفها على المسجد)[3].

وقد بلغت كتبه الموقوفة ما يزيد على المائة كتاب معظمها في مسجد مدينة (إب) وبعضها في مسجد الجند[4]، وهكذا وجدت طريقة نسخ الكتب ووقفها.

وكان الفقهاء يكتبون على الكتب عبارات توضح اسم صاحب الوقف والأشخاص الذين يحق لهم الاستفادة من هذه الكتب الموقوفة ومن يشرف على الوقف. فشيخ السُنَّة أحمد بن محمد البريهي أوقف كتباً عديدة من خطه وضبطه. وكانت كتبه تخصص وقفها لصالح أهل السُنَّة الشافعية في الفروع والحنابلة في المعتقد. فكان يكتب على كل كتاب هذين البيتين.

هذا الكتاب لوجه اللّه موقوف ... منا إلى الطالب السني مصروف
ما للأشاعرة الضلال في حسبي ... حق ولا للذي في الزيغ معروف[5]

وإضافة إلى تلك البيتين وجدت صيغة أخرى لوقفية كتبها على صحيح مسلم بخطه أوردها الجندي بقوله: (وقفه أحمد بن محمد بجميع الكتب المنسوبة إليه في الحديث والأصول والفروع والفرائض والتفسير واللغة والنحو وهي ثمانون كتاباً على أهل السُنَّة يقوم فيها من يوجد فيه الشروط المذكورة ـ يعني بيتيه اللذين ذكرت. . . من ذلك ذريته ـ أي يتقدم من وجد فيه شرط البيتين من ذريته ونسله وبنيهم ونسلهم ثم قراباته من عصباته أي يتقدم من قراباته من عصباته فمن خرج

(1) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 444، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 343.
(2) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 371.
(3) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 371.
(4) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 372، الأهدل: تحفة الزمن، ص: 267.
(5) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 368، الخزرجي: طراز أعلام الزمن، ق78ب.

عن الشرط ببدعة أو ما يرد به الشهادة خرج من الوقف، فإن تاب عاد استحقاقه، ولا حقّ في الوقف لمبتدع لعن اللّه من يتملكها، أو يملكها أو يسعى في فساد الوقف أو يكتمها على من يستحقها أن يغيرها من ينتفع بها إذا سئل بشرط الحفظ، كتبه أحمد بن محمد تقبل اللّه منه الوقف سنة أربعة وثمانين وخمسمائة)[1].

ويشرف على الأوقاف فقهاء يكلفهم أصحاب الأوقاف بهذه المهمة والعمل بتنفيذ شرط الواقف فكان فقهاء وعلماء كل قرية أو منطقة يسند إليهم نظارة الوقف الذي يقبلون الإشراف عليه وتوجيه ريعه للأغراض التي خصصت لها كما كان كل إمام مسجد أو مدرسة هو الذي يقوم بالإشراف على الأوقاف المخصصة لهذا المسجد أو تلك المدرسة، ويصرفه في أغراضه التي حددت له والتي كانت مخصصة للقيام بكفاية إمام المسجد والمؤذن والمقيم. وفي المدرسة كفاية الطلاب والمدرسين، فمثلاً في وصاب أوقف الشيخ علي بن محمد العريقي من ماله لصالح المدارس التي بناها بها وجعل نظارة الوقف إلى الفقيه أحمد بن علي بن محمد بن يزيد من قرية بعدان[2].

واستمر إسناد الواقف أمر الوقف إلى من يرى من الفقهاء والعلماء حتى نهاية العصر الأيوبي، غير أن الوضع قد تغير في عهد بني رسول وخاصةً ابتداء من عهد المؤيد الرسولي حيث أصبح السلطان هو ناظر الأوقاف في اليمن[3].

وما نستنتجه من فصل مظاهر الحياة الاجتماعية أن هذه المظاهر تحكمت فيها حالات المجتمع الطبقية والمادية من فقر وثراء وسلطة ونفوذ وعلمية وغيره. فعلى قدر مستوى الأفراد المادية والطبقية أو مستوى سلطانهم ونفوذهم ومالهم وتدينهم وغيره. تتم إقامة الاحتفالات وإقامة الولائم والتفنن في الملبس والمأكل وبناء المنازل وغيره. كما يتضح أن بناء المساجد والمدارس والطرقات وأعمال الخير ساهمت فيه أغلب الطبقات الاجتماعية. بينما نجد أن بناء المنشآت الحكومية مثل دُور الإمارة وبيت المال وتسوير المدن وبناء القلاع والحصون اقتصر على الطبقة الحاكمة لأنها تخدم أهدافهم.

---

(1) الجندي: السلوك، جـ1، ص: 372، الخزرجي: طراز أعلام الزمن، ق78ب.
(2) بامخرمة: قلادة النحر، ص: 828، الأكوع: المدارس الإسلامية في اليمن، ص: 23.
(3) الجندي: السلوك، جـ1، ص333.

الخاتمة

نخلص من هذا البحث أن تكوين اليمن الطبيعي من وجود سلاسل جبلية وسهول ووديان. ووجود مذاهب متعددة من شيعة وسُنة وخوارج، بالإضافة إلى وجود النظام القبلي كل ذلك ساهم في تعدد دويلات اليمن وتصارعها.

ففي صعدة وجدت دولة الأئمة الزيدية وظلوا في صراع مستمر مع جميع القوى التي كانت تسيطر على اليمن مثل الصليحيّين الإسماعيلية والأيوبيّين السُنَّة، وغيرهم.

وفي تهامة كان النجاحيون يمثلون القوة السّنية بها استمروا يصارعون الصليحيّين حتى استطاعوا السيطرة على تهامة واستمرت السيطرة إلى أن ظهر في زبيد علي بن مهدي الخارجي مزيلاً دولة آل نجاح سنة 554هـ مهدداً أهل السُنَّة بها مما جعلهم يهربون منه إلى الجبال وعدن ومكة.

أما عدن فكان الزريعيون الإسماعيلية قد ورثوا رئاسة الدعوة الحافظية وأصبحوا يمثلون الخلافة الفاطمية. وانتهوا بسيطرة الأيوبيّين على كل من مصر واليمن. هذه التعددية للدويلات أثرت في مظاهر الحضارة في اليمن سلباً وإيجاباً كما بينته الدراسة.

وعلى الرغم من ذلك التعدد لدويلات اليمن، إلاّ أنه سعت بعض دويلاتها على توحيد اليمن مثل الدولة الصليحية. ثم الأيوبية كما هو موضح سابقاً. وكانت اليمن أكثر استقراراً ومساهمة في مظاهر الحضارة أثناء توحيدها.

وبالنسبة للحضارة ففي مجال الاقتصاد نشطت الحركة التجارية البحرية في اليمن فترة البحث، فكانت عدن أهم مركز تجاري يربط بين المشرق والمغرب، كما نشطت اليمن في التجارة البرية مع كل من العراق وفارس والحجاز والشام ومصر.

وكانت اليمن تصدر الكثير من منتجاتها التي اشتهرت بها، وخاصة الأحجار الكريمة مثل العقيق اليماني، والكثير من الصناعات مثل صناعة السيوف وصناعة المنسوجات والصناعات الجلدية.

كما ساهمت اليمن في المجال الفكري في الكثير من العلوم وقد تميزت تلك

الفترة بالعلوم التي كانت مهمة آنذاك وهي العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه، وعلوم اللغة من نحو وأدب، وبرز في هذه العلوم الكثير من اليمنيّين.

كما تميز اليمنيون في تلك الفترة في السعي في طلب الغلم في رحلات داخلية وخارجية. كان لها أثرها في إنشاء العديد من المراكز التعليمية في اليمن لنشر الدين والعلوم الدينية بين جميع اليمنيّين.

وقد تميز اليمنيون بالحركة الفكرية فتقبلوا جميع المذاهب الإسلامية من شيعية وسنية وخوارج بفرقها المتعددة وساهموا في نشرها في اليمن بحماس كبير. وقد تعايشت هذه المذاهب في حرية وسلام من قبل أفراد الشعب اليمني أما من ناحية السلطة فقد كانت هذه المذاهب في صراع مستمر.

وفي المجال الاجتماعي فقد تشكلت طبقات المجتمع في اليمن من حكام وعلماء وكبار ملاك وتجار إلى جند ورعايا وفلاحين وأرباب حرف من جميع عناصر المجتمع سواء العناصر اليمنية أم العناصر الأجنبية. وساهم هؤلاء جميعاً في النواحي الحضارية لليمن.

وانتشر في المدن اليمنية ترف في العيش لدى طبقة الحكام فقد بنوا بيوتاً وقصوراً واسعة وامتلكوا الكثير من الجواري والمغنيات وأكلوا أفخم المأكولات. وكانت حفلاتهم الخاصة وحفلات الزواج أضخم الحفلات. بينما كانت غالبية القرى اليمنية وحال الناس بها على عكس ذلك.

والخلاصة أن هذه الدراسة التي أتشرف بتقديمها، قد أبرزت الحياة السياسية والكثير من مظاهر الحضارة خلال القرنين الخامس والسادس الهجريّين في اليمن.

نرجو من اللّه سبحانه وتعالى التوفيق والعون والهداية

ملحق رقم (١)

الحصون:

ـ **أشيَح**: حصن منيع من جبال اليمن يقع في بلاد آنس، (ياقوت معجم، جـ1، ص: ، مراصد الاطلاع، جـ1، ص: 85، ابن سمرة، ص: 307، الحجري، ص: 82، الأكوع: البلدان اليمنية عند ياقوت الحموي، ص: 31).

ـ **بَرَاش**: حصن مطل على صنعاء من الشرق ويشرف على جبل نُقُم، (مراصد الاطلاع، جـ1، ص: 174، الأكوع: البلدان اليمنية، ص: 40).

ـ **التَعْكُر**: قلعة حصينة مكينة من مخلاف جعفر باليمن مطل على ذي جبلة، من الناحية الجنوبية، (مراصد الاطلاع، جـ1، ص: 265، ابن سمرة، ص: 309، الأكوع، ص: 61).

ـ **خَبّ**: قلعة مشهورة باليمن في جبل بَعْدان من أعمال إب، (مراصد الاطلاع، جـ1، ص: 375، الحجري، ص: 227).

ـ **خَدَد**: حصن في مخلاف جعفر باليمن، من ناحية بني حُبَيْش من أعمال إب، (مراصد الاطلاع، جـ1، ص: 453، الحجري، ص: 305).

ـ **الدُّمْلُوة**: حصن عظيم باليمن، في منطقة الصُّلو جنوب الجَنَد بحوالي ثلاثين كيلو متر، (مراصد الاطلاع، جـ2، ص: 534، الأكوع، ص: 117)..

ـ **ذَرْوَان**: حصن باليمن جنوب صنعاء على بعد 145 كيلو متر من أعمال يريم، (مراصد الاطلاع، جـ2، ص: 586، الأكوع، ص: 122).

ـ **ذَمَرْمر**: من حصون صنعاء اليمن، من الناحية الشمالية على بعد عشرين كيلو متر من حصون بني حشيشن قبلي صنعاء، (مراصد الاطلاع، ص: 587، الحجري، ص: 350، الأكوع، ص: 123، 124).

ـ **السَمَدَان**: حصن باليمن عظيم الخطر، يقع في المعافر جنوب تعز بحوالي 64 كيلو متر، (مراصد الاطلاع، جـ2، ص: 735، الأكوع، ص: 155).

ـ **السَّوَاء**: حصن من أعمال تعز، من الناحية الجنوبية لها وهو وسطاً بين السمدان وتعز، (مراصد الاطلاع، ص: 749، الأكوع، ص: 156).

ـ **صَبر**: جبل شامخ عظيم، مطل على تعز من الناحية الجنوبية، (مراصد الاطلاع، جـ2، ص: 832، الأكوع، ص: 172، 173).

ـ **الظَّفر**: حصن من أعمال صنعاء، (مراصد الاطلاع، جـ2، ص: 905، الأكوع، ص: 194).

ـ **العَرُوس**: حصن مقابل لكوكَبَاب من الناحية الجنوبية من أعمال صنعاء، (الأكوع، هـ ص: 207).

ـ **عَزَّان**: حصن يطل على إب من الناحية الجنوبية الشرقية، (الأكوع، ص: 207).

ـ **الفَصْ**: من حصون اليمن وهو شمال صنعاء قرب حصن ذمرمر، (مراصد الاطلاع، جـ3، ص: 1037، الأكوع، ص: 225).

ـ **كوْكَبَان**: جبل قرب صنعاء في الشمال الغربي من صنعاء على بعد 40 كيلو متر، (مراصد الاطلاع، جـ1، ص: 43).

ـ **مَسَار**: قلعة من أعمال جبل حراز باليمن.

ـ **وُصاب**: جبل يحاذي زبيد باليمن فيه عدة قرى وحصون شرق زبيد، (مراصد الاطلاع، جـ3، ص: 1439، الأكوع، ص: 300).

البلدان:

ـ **أَبين**: مخلاف باليمن منه عدن. ويقع شمال شرق عدن، (مراصد الاطلاع، جـ1، ص: 22، ابن سمرة، ص: 306، الأكوع، ص: 16).

ـ **أُحَاظه**: في أعلى جبل حبيش من بلاد السحول شمال إب. ابن سمرة، ص: 307.

ـ **أَلْهَان**: مخلاف باليمن في بلاد آنس، (مراصد الاطلاع، جـ1، ص: 113، الحجري: ص: 89).

ـ **الْبَون**: حقل واسع في بلاد همدان شمال صنعاء على مسافة يوم منها، (ابن سمرة، ص: 308، الحجري، جـ1، ص: 130).

ـ **جَبَأ**: مدينة قديمة غربي جبل صبر جنوبي تعز، وهي مدينة المعافر، وهي بلدة كبيرة خرج منها جماعة من الفقهاء وهي أكبر بلد اليمن فقهاء ومتفقهين (الجندي: السلوك، جـ1، ص: 358، ابن سمرة، ص: 310، الحجري، جـ1، ص: 151).

ـ **الجَعامِي**: قرية من أُحاظة وهي قرية من معشار يفوز، (الجندي: جـ1، ص: 331، ابن سمرة، ص: 311).

ـ **الجُؤة**: بلد قريب من الجند شرقيها. وهو قريب من الدُّملُوة بالصُّلو، (مراصد الاطلاع، جـ1، ص: 354، ابن سمرة، ص: 311، الأكوع، ص: 110).

ـ **حَراز**: بلد واسع في همدان وهو غربي صنعاء على مسافة يومين، نيف وستين كيلو متر (ابن سمرة، ص: 312، الأكوع، ص:).

ـ **حُرازة**: قرية بالمعافر، وهي في عزلة الأيفُوع من الحجرية، (ابن سمرة، ص: 312، الأكوع، ص: 90هـ 3).

ـ **حَجُور**: بلد واسع من بلاد همدان في الشمال الغربي من صنعاء، (الحجري، جـ1، ص: 240).

ـ **الخُوْخَة (الخُوْهَه)**: قرية بساحل حيس، (الجندي) السلوك، جـ1، ص: 479، ابن سمرة، ص: 314).

ـ **دلاَل**: عزلة من ناحية بعدان من مخلاف جعفر من أعمال إب، (ابن سمرة، ص: 314).

ـ **ذُؤال**: وادي باليمن، أم بلاده القحْمة قريب زبيد، مراصد الاطلاع، جـ2، ص: 589، يقع بين وادي سِهام شمالاً ووادي رِمع جنوباً ويمر بجوار بيت الفقيه والمنصورة، الأكوع، ص: 124هـ 5.

ـ **ذي أشرق**: قرية كبيرة في وادي نَخْلان على نصف مرحلة من الجند تقريباً، (الجندي: السلوك، جـ1، ص: 280، ابن سمرة، ص: 315).

ـ **ذي جِبْلَة**: مدينة باليمن شمال الجند يطل عليها جبل التعكر وهي على بعد ستين كيلو متر من صبر المطل على تعز (ابن سمرة، ص: 315، الأكوع، ص: 71هـ 4).

ـ **ذي السُّفال**: قرية على مرحلة من قبلي الجند وعلى نصف مرحلة من قبلي سَهْفنة، (الجندي: السلوك، جـ1، ص: 272، ابن سمرة، ص: 315).

ـ **رَيْمه**: (بلاد واسعة في الغرب الجنوبي من صنعاء على مسافة أربع مراحل وهي مشرفة على تهامة من ناحية بيت الفقيه، يمر وادي رِمَع من جنوبها ووادي سهام من شمالها). ابن سمرة، ص: 316.

ـ **زَبَران**: قرية على أكمه مرتفعة من جهة يمن (جنوب) مغرب الجند، (الجندي: السلوك، جـ1، ص: 328) وهي على بعد ثلاثة أميال من الناحية الجنوبية الغربية. هامش نفس الصفحة، ابن سمرة، ص: 317.

ـ **سَبأ**: أرض باليمن مدينتها مأرب، بينها وبين صنعاء ثلاثة أيام، (مراصد الاطلاع، جـ2، ص: 687، الأكوع، ص: 143).

ـ **السُّحُول**: قرية من اليمن، وحقل يبدأ من سفوح إب الشمالية ويمتد شمالاً إلى رحاب. وهو من أخصب حقول اليمن، (الأكوع، ص: 145هـ 4) وهو بين إب والمخادر (ابن سمرة، ص: 317).

ـ **سَهْفَنة**: قرية قبلي الجند على ثلث مرحلة منها، (الجندي: السلوك، جـ1، ص: 264، ابن سمرة، ص: 318).

ـ **سَيْر**: بلد في شرق الجند، (مراصد الاطلاع، جـ2، ص: 765، الأكوع، ص: 157).

ـ **الشِّحْر**: صقع على بحر الهند من ناحية اليمن، بين عدن وعمان، (مراصد الاطلاع، جـ2، ص: 785، الأكوع، ص: 163) ويمتد من حضرموت إلى مهرة، (الأكوع هـ1).

ـ **الشِّعْر**: مخلاف واسع من ناحية النادرة شرقي إب، (ابن سمرة، ص: 318).

ـ **الشَّوافِي**: مخلاف من أعمال إب من الجهة الغربية، (ابن سمرة، ص: 319) وهي غربي مدينة إب بمسافة فرسخ (الجند السلوك، ص: 333هـ 4).

ـ **الصَّرْدَف**: هي قرية شرق الجند تحت الجبل المعروف بسورق، (الجندي: السلوك، جـ1، ص: 252. مراصد الاطلاع، جـ2، ص: 238، ابن سمرة، ص: 319، الحجري، ص: 465).

ـ **صُهْبان**: مخلاف من أعمال ذي السُّفال (ابن سمرة، ص: 320).

ـ **ضَرَاس**: قرية في جبال اليمن في عزلة نخلان من ذي السفال من أعمال إب، (مراصد الاطلاع، ص: 867، ابن سمرة، ص: 320.

ـ **ظُبَا**: قرية ما بين ذي السفال وسهفنة: (الجندي: السلوك، ص: 270، ابن سمرة، ص: 320).

ـ **الظُّرَافَة**: قرية شرقي القرية التي تعرف بسهفنة (الجندي: السلوك، ص: 270، ابن سمرة، ص: 320هـ).

ـ **عَرَشَان**: وهي بلدة في عزلة المكتب المتصلة بذي جبلة من الناحية الجنوبية، (الجندي: السلوك، ص: 350، هـ2).

ـ **كِنْده**: مخلاف باليمن من حضرموت.

ـ **مِرْبَاط**: فرضة مدينة ظفار بين حضرموت وعمان على بعد خمسة فراسخ من ظفار، من أعمال الشحر شرقي حضرموت، (ابن سمرة، ص: 323).

ـ **المُشَيْرِق**: من بلاد بني حبيش من أعمال إب، (ابن سمرة، ص: 324).

ـ **مُقْرى**: مخلاف قديم في عزلة أنس في الجنوب الغربي من صنعاء على مرحلة منها، (ابن سمرة، ص: 324).

ـ **مَهْرة**: صقع واسع شرقي حضرموت، (الأكوع، ص: 127هـ).

ـ **يَفَاعة**: قرية من المعافر (الجندي: السلوك، جـ1، ص: 303).

ـ **يَفُوز**: في عزلة بني عوض من الكلاع من العدين، بناه السلطان وائل بن عيسى الوائلي الكلاعي (ت. 515هـ) (المقحفي: المعجم، ص: 715).

ـ **اليَهَاقِر**: قرية غربي مدينة الجند، (ابن سمرة، ص: 327).

المصادر والمراجع

أولًا

المصادر المخطوطة

- **ابن المهلا الشرفي**: عبد الحفيظ بن المهلا (ت. سنة 1077هـ/ 1666م). علم الإفادة في تاريخ الشرف والسادة، دار المخطوطات بصنعاء 140 تاريخ.

- **الأفضل بن رسول**: عباس بن علي بن رسول (ت. سنة 778هـ/ 1376م). (العسجد المسبوك والزبرجد المحكوم في أخبار الخلفاء والملوك) دار الكتب المصرية (خ) رقم 1136.

- **الأنف**: عماد الدين إدريس بن الحسين بن عبد اللّه الأنف (ت. سنة 872هـ/ 1467م)

1 ـ عيون الأخبار وفنون الآثار، الجزء السابع، اطلعت عليه من د. أيمن فؤاد سيد.

2 ـ نزهة الأفكار وروضة الأخبار في ذكر من قام باليمن من الملوك الكبار والدعاة الأخيار، دار الكتب المصرية (خ) رقم 2253. ميكروفيلم.

- **بامخرمة**: أبو محمد عبد اللّه الطيب بن عبد اللّه بن أحمد بن علي بامخرمة (ت. 947هـ/ 1540م) قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، دار الكتب المصرية (خ) رقم 167.

- **الثقفي**: سليمان الثقفي (من علماء القرن السادس الهجري) سيرة الإمام أحمد بن سليمان، دار المحفوظات اليمنية بصنعاء (خ) رقم 2524.

- **الجنداري**: أحمد بن عبد اللّه (ت. سنة 1337هـ) الجامع الوجيز في وفيات العلماء ذوي التبريز، مخطوط بدار المخطوطات اليمنية بصنعاء رقم 32 تاريخ.

- **الحمزي**: عماد الدين إدريس (ت. سنة 714هـ/ 1314م) كنز الأخبار في معرفة السير والأخبار. معهد المخطوطات العربية (خ) رقم 1184.

ـ **الخزرجي**: شمس الدين أبو الحسن علي بن الحسن بن أبي بكر بن الحسن (ت. سنة 812هـ/ 1409م).

1 ـ العسجد المسبوك فيمن ولِّي اليمن من الملوك. مخطوط مصور، دار الفكر، دمشق، صورة ثانية، 1401هـ/ 1981م، نشر في ج. ع. ي. وزارة الإعلام مشروع الكتاب 6/ 1.

2 ـ طراز أعلام الزمن. معهد المخطوطات العربية رقم 336.

ـ **الربعي**: مفرج بن أحمد الربعي. سيرة ذي الشرفين، دار المخطوطات اليمنية بصنعاء (خ) رقم 2573.

ـ **الروضي**: حسام الدين محسن بن الحسن بن القاسم (ت. سنة 1170هـ/ 1757م) ذوب الذهب بمحاسن من شاهدت في عصري من أهل الأدب. معهد المخطوطات العربية رقم 1056.

ـ **الشهاري**: إبراهيم بن القاسم (ت. سنة 1153هـ/ 1740م). طبقات الزيدية، دار الكتب المصرية (خ) رقم 211 ميكروفيلم.

ـ **قطب بن سليمان**: قطب بن سليمان برهانيوري. منتزع الأخيار في أخبار الدعاة الأخيار، معهد المخطوطات العربية رقم 1261.

ـ **اللحجي**: مسلم بن محمد بن جعفر اللحجي: (ت. سنة 545هـ/ 1150م).

1 ـ تاريخ مسلم اللحجي صورة لدى الباحث من صورة للدكتور/ عبد الرحمن شجاع.

2 ـ شيء من أخبار الزيدية. صورة لدى الباحث من صورة للدكتور/ عبد الرحمن شجاع.

ـ **مجهول**: تاريخ اليمن. معهد المخطوطات العربية رقم 968 تاريخ.

ـ **مجهول**: تراجم بعض أمراء اليمن. معهد المخطوطات العربية (خ) رقم 990.

ـ **مجهول**: السيرة الصليحية. صورة لدى الباحث من صورة جامعة صنعاء.

ـ **مجهول**: سيرة الإمام عبد اللّٰه بن حمزة دار المخطوطات اليمنية بصنعاء رقم.

ـ **مجهول**: نموذج ملوك اليمن دار المخطوطات اليمنية صنعاء (خ) رقم 2428.

ـ **المحلي**: حميد بن أحمد الشهيد (ت. 652هـ/ 1254). الحدائق الوردية في مناقب الأئمة الزيدية، صورة للمخطوط بالأوفست، دمشق، 1402هـ/ 1982م.

ـ **المقريزي**: تقي الدين أحمد بن علي (ت. 845هـ/ 1441م) الطرفة الغريبة في أخبار حضرموت العجيبة، جامعة القاهرة، (خ) رقم 26247/ 2.

ـ **الوزير**: عبد اللّه بن علي (ت. 1147هـ/ 1735م) جامع المتون في أخبار اليمن الميمون أو الدر المنثور الجزء الأول دار المخطوطات اليمنية بصنعاء رقم 2525.

ـ **وطيوط**: الحسين بن إسماعيل البجلي المعروف بالمعلم وطيوط. تاريخ المعلم وطيوط، دار الكتب المصرية (خ) رقم 173.

ـ **يحيى بن الحسين**: يحيى بن الحسين بن الإمام المنصور باللّه القاسم بن محمد (ت. 1100هـ/ 1688م).

1 ـ أنباء الزمن في تاريخ اليمن جامعة القاهرة (خ) رقم 26134.

2 ـ طبقات الزيدية المسمى الطبقات الزهر في أعيان العمر. مخطوط لدى الباحث صورة من د. طه أبو زيد.

ـ **يحيى حميد**: يحيى بن محمد بن الحسن المذحجي (ت. 990هـ/ 1582م) نزهة الأنظار في ذكر الأئمة الزيدية الأطهار، دار الكتب المصرية، رقم 358 ميكروفيلم.



ثانياً

المصادر المطبوعة

ـ **أبو شامة**: شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت. 665هـ) الروضتين في أخبار الدولتين. تحقيق د. محمد حلمي، د. محمد مصطفى زيادة، وزارة الثقافة والإرشاد، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1962م.

ـ **أبو عبيدة**: أبو عبيدة القاسم بن سلام (ت. 224هـ/ 837م) كتاب الأموال، تحقيق د. محمد عمارة، دار الشروق، بيروت، ط1 سنة (1409هـ/ 1989م).

ـ **أبو يعلى الفراء**: القاضي أبو يعلي محمد بن الحسين الفراء الحنبلي (ت. 458هـ/ 1065م) الأحكام السلطانية، مطبعة البابي الحلبي، مصر، ط1، 1356هـ/ 1938م.

ـ **أبو يوسف**: أو يوسف يعقوب بن إبراهيم (ت. 182هـ) كتاب الخراج، تحقيق إحسان عباس، دار الشروق، بيروت، ط1 سنة 1405هـ1985م.

ـ **ابن الأثير**: عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الشيباني (ت. 630هـ/ 1232م) الكامل في التاريخ جـ10، 11، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، سنة 1407هـ-1987م.

ـ **ابن بطوطة**: أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي (ت. 779هـ/ 1377م) رحلة ابن بطوطة، دار صادر، بيروت، سنة 1384هـ/ 1964م.

ـ **ابن تغري بردي**: جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي (ت. 874هـ) النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، جـ6، طبع دار الكتب المصرية، سنة 1355هـ/ 1936م.

ـ **ابن جبير**: أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني (ت. 614هـ/ 1217م) رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، سنة 1384هـ/ 1964م.

ـ **ابن حاتم**: بدر الدين محمد بن حاتم بن أحمد اليامي الهمداني (ت. بعد سنة 702هـ/ 1302م) السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن، تحقيق د. ركس سمث، طبع لندن، سنة 1974م.

ـ **ابن حوقل**: أبو القاسم محمد بن حوقل (ت. أواخر القرن الرابع الهجري). صورة الأرض، طبع لندن طبعة بريل سنة 1967م.

ـ **ابن خرداذبة**: أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة (ت. في حدود سنة 300هـ). المسالك والممالك، لندن، مطبعة بريل سنة 1889م.

ـ **ابن خلدون**: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت. 808هـ/ 1406م). تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، سنة 1982م.

ـ **ابن خلكان**: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان (ت. 681هـ) وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1970م.

ـ **ابن الديبع**: عبد الرحمن بن علي بن الديبع الشيباني (ت. 944هـ/ 1537م).

1 ـ بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد، تحقيق عبد الله الحبشي. نشر مركز الدراسات اليمنية، صنعاء 1979م.

2 ـ قرة العيون في أخبار اليمن الميمون اليمنية، صنعاء 1979م. تحقيق محمد الأكوع، المطبعة السلفية، القاهرة، 1391هـ/ 1971م.

ـ **ابن رسته**: أبو علي أحمد بن عمر بن رسته (ت. 295هـ/ 890م). الأعلاق النفيسة، طبع لندن، مطبعة بريل سنة 1891م.

- **ابن سمرة:** عمر بن علي بن سمرة الجعدي (ت. بعد 586هـ/ 1190م) طبقات فقهاء اليمن، تحقيق فؤاد سيد، دار القلم، بيروت، د. ت.

- **ابن شداد:** بهاء الدين أبو عبد الله محمد الأنصاري (ت. 632هـ) سيرة صلاح الدين، طبع في مطبعة الأدب والمؤيد بمصر سنة 1317هـ في ذيله منتجات من كتاب التاريخ لصاحب حماه: تأليف تاج الدين شاهنشاه بن أيوب.

- **ابن عبد المجيد:** تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد (ت. 743هـ/ 1342م). بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق عبد الله الحبشي، محمد السنباني، نشر دار الحكمة اليمانية، طبع دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 1408هـ - 1988م.

- **ابن فضل الله العمري:** شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت. 749هـ/ 1349م) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (ممالك مصر والشام والحجاز واليمن)، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد الفرنسي، القاهرة، د. ت.

- **ابن الفقيه:** أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني المعروف بابن الفقيه مختصر البلدان، طبع مدينة ليدن، مطبعة بريل سنة 1967م.

- **ابن واصل:** جمال الدين محمد بن سالم بن واصل (ت. 697هـ/ 1297م) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، نشر جمال الدين الشيال، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1957م.

- **ابن المجاور:** محمد بن مسعود بن علي بن أحمد البغدادي النيسابوري المعروف بابن المجاور (ت. بعد 630هـ/ 1232م). صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز (المسمى تاريخ المستبصر) تحقيق أوسكو لوفغرين، طبع ليدن، مطبعة بريل سنة 1951م.

- **ابن منظور:** أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت. 711هـ/ 1311م) لسان العرب.

- **الإدريسي:** أبو عبد الله محمد بن محمد بن إدريس الحموي الحسني (ت. 560هـ/ 1311م). نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، 1409هـ/ 1989م.

- **الأشرف عمر بن يوسف** بن عمرو بن علي بن رسول (ت. 696هـ/ 1296م). كتاب ملح الملاحة في معرفة الفلاحة، تحقيق محمد عبد الرحيم جازم نشر ضمن مجلة الإكليل اليمنية العدد الأول، السنة الثالثة، خريف 1406هـ/ 1985م، صنعاء + تحقيق عبد الله المجاهد.

ـ **الاصطخري**: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفاسي (ت. في النصف الأول من القرن الرابع الهجري) المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال، محمد شفيق غربال، القاهرة، 1381هـ/ 1961م.

ـ **الأنسي**: عبد الملك بن حسين الأنسي الصنعاني. إتحاف ذوي الفطن بمختصر أنباء الزمن، منشورات جامعة صنعاء ملحق العدد الثالث من مجلة كلية الآداب سنة 1981م.

ـ **الأنصاري**: شمس الدين أو عبد اللّٰه محمد الأنصاري (ت. 727هـ/ 1326م) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر. طبع مدينة بورغ، 1965م.

ـ **الأهدل**: بدر الدين أبو عبد اللّٰه الحسين بن عبد اللّٰه الحسين بن عبد الرحمن بن محمد الأهدل (ت. 855هـ/ 1451م). تحفة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق عبد اللّٰه الحبشي، منشورات المدينة، دار التنوير للطباعة، بيروت، ط1، 1986م/ 1407هـ.

ـ **الأهدل**: حسين ابن أبي القاسم الأهدل كشف القناع في معرفة أحكام الزرع، تحقيق عبد اللّٰه الحبشي، نشر في مجلة الإكليل اليمنية، عدد (1) 1980م.

ـ **بامخرمة**: أبو الطيب عبد اللّٰه الطيب بن عبد اللّٰه بن أحمد أبي مخرمة (ت. 947هـ1540م). تاريخ ثغر عدن، دار الجيل، بيروت، دار عمار عمان، الطبعة الثانية، 1408هـ/ 1987م.

ـ **البغدادي**: عبد القاهر بن طاهر أبي منصور البغدادي (ت. 429هـ/ 1037م مختصر كتاب الفرق بين الفرق، اختصارعبد الرزاق بن رزق الرسعني، نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، المركز الإسلامي للطباعة، د. ت.

ـ **البغدادي**: عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي (ت. 739هـ/ 1338م) مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، ط1، سنة 1374هـ/ 1955م.

ـ **البلاذري**: أبو الحسن البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 1413هـ/ 1983م.

ـ **الجرجاني**: أبو الحسن علي بن محمد بن علي الجرجاني كتاب التعريفات، دار الشؤون الثقافية العامة ـ العراق ـ بغداد ـ د. ت.

ـ **الجهشياري**: أبو عبد اللّٰه محمد بن عبدوي الجهشياري كتاب الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط2، 1401هـ/ 1980م.

- **الجندي**: أبو عبد اللّه بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب الجندي السكسكي (ت. بعد 732هـ/ 1322م) السلوك في طبقات العلماء والملوك، جـ1، 2. تحقيق محمد الأكوع، نشر وزارة الأعلام اليمنية 20/ 1، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط1، سنة 1403هـ/ 1983م، جـ2، ط1، سنة 1309هـ/ 1989م.
- **الحامدي**: إبراهيم بن الحسين الحامدي (ت. 557هـ/ 1162م) كنز الولد، تحقيق د. مصطفى غالب، دار الأندلس ط1، سنة 1979م.
- **الحمادي**: محمد بن مالك بن أبي الفضائل الحمادي (ت. 470هـ/ 1077م) كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، تحقيق د. محمد زينهم عزب، دار الصحوة للنشر، مصر، ط1، سنة 1406هـ/ 1986م.
- **الرازي**: أحمد بن عبد اللّه بن محمد الصنعاني (ت. بعد 460هـ/ 1067م). تاريخ مدينة صنعاء، تحقيق د. حسين بن علي العمري، دمشق، ط2، 1401هـ/ 1981م.
- **زبارة**: محمد بن محمد زبارة.

1 ـ أئمة اليمن، مطبعة الناصر بتعز، ربيع الأول 1372هـ/ ديسمبر 1952م.

2 ـ إتحاف المهتدين بذكر الأئمة المجددين ومن قام باليمن الميمون من قرناء الكتاب المبين، مطبعة المقام الشريف بصنعاء في شهر رجب سنة 1343هـ.

- **الزبيدي**: محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس.
- **السجلات المستنصرية**: سجلات المستنصر باللّه الفاطمي إلى دعاته في اليمن تحقيق د. عبد المنعم ماجد، دار الفكر العربي، القاهرة، 1957م.
- **الشهرستاني**: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت. 548هـ/ 1153م) الملل والنحل، تحقيق سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.
- **الشيلي**: محمد بن أبي بكر (ت. 1093هـ) المشروع الروي في مناقب السادة بني علوي.
- **الصفدي**: صلاح الدين خليل بن أيبك (ت. 764هـ1363م). الوافي بالوفيات، الجزء الثالث عشر، تحقيق مجموعة، دار النشر فرانز شنابنر بقيسادن 1404هـ/ 1984م.
- **العامري**: يحيى بن أبي بكر بن محمد بن يحيى العامري (ت. 893هـ) غربال الزمان في وفيات الأعيان، صححه محمد ناجي وعلي العمر، دار الخير للنشر والتوزيع، دمشق، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق 1405هـ/ 1985م.

ـ **عمارة اليمني**: نجم الدين عمارة بن علي اليمني (ت. 569هـ/ 1174م) تاريخ اليمن، تحقيق محمد بن علي الأكوع، مطبعة السعادة، ط2، 1396هـ/ 1976م.

ـ **القاضي النعمان**: النعمان بن محمد بن منصور بن حيون (ت. 363هـ/ 974م) رسالة افتتاح الدعوة، تحقيق وداد الفضلي، بيروت، 1971م.

ـ **قدامة بن جعفر**: أبو الفرج قدامة بن جعفر (ت. بعد سنة 320هـ). الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق د. محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر، العراق، 1981م، ج. ع. وزارة الثقافة، سلسلة كتب التراث (110).

ـ **القزويني**: زكريا بن محمد بن محمود (ت. 682هـ/ 1283م) آثار البلاد وأخبار العباد، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت 1399هـ/ 1979م).

ـ **القفطي**: جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (ت. 646هـ/ 1248م) أنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، القاهرة 1950 ـ 1973م.

ـ **القلقشندي**: أبو العباس أحمد القلقشندي (ت. 821هـ/ 1481م) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، جمع دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922م.

ـ **الكبسي**: محمد بن إسماعيل الكبسي (ت. 1308هـ) اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية، مطبعة السعادة، مصر، سنة 1983م.

ـ **الماوردي**: أبو الحسن علي بن الحسين (ت. 450هـ) الأحكام السلطانية، دار الفكر، ط1، سنة 1404هـ/ 1983م.

ـ **المسعودي**: أبو الحسن علي بن الحسين (ت. 346هـ/ 950م). مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار المعرفة، بيروت، ط2، سنة 1403هـ/ 1983م.

ـ **المقريزي**: تقي الدين بن أحمد بن علي (ت. 845هـ/ 1441م). السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق مصطفى زيادة، طبع دار الكتب المصرية، القاهرة، سنة 1934م.

ـ **المقدسي**: شمس الدين أبي عبد اللّٰه محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت. 380هـ/ 990م). أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبع ليدن، مطبعة بريل، ط2، سنة 1909م.

ـ **نشوان الحميري**: نشوان بن سعيد بن سلامة (ت. 573هـ/ 1177م). الحور العين تحقيق كمال مصطفى، بيروت.

- **النويري**: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت. 733هـ/ 1335م). نهاية الأرب في فنون الأدب، مطبعة دار الكتب المصرية، 1345هـ/ 1926م.

- **الهمداني**: أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت. 360هـ/ 970م).

* صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد الأكوع، دار الأدب، بيروت، ط2 1403هـ/ 1983م. نشر مركز الدراسات والبحوث اليمنية.

* الإكليل جـ1، 2، 8، تحقيق محمد الأكوع، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1383هـ/ 1963م، جـ10، تحقيق محب الدين الخطيب، مطبعة السلفية، القاهرة 1367هـ.

* كتاب الجوهرتين العتيقتين المائعتين من الأصفر والبيضاء. تحقيق د. كريستوفول، ترجمة د. يوسف عبد الله، نشر ج. ع. ي، وزارة الإعلام، مشروع الكتاب، 15/ 3، طبعة ثانية سنة 1985م.

- **الوصابي الحبشي**: وجيه الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن عمر الحبشي الوصابي (ت. 782هـ). تاريخ وصاب المسمى الاعتبار في التواريخ والآثار، تحقيق عبد الله الحبشي نشر مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، طبع دار العودة، بيروت، ط1، 1979م.

- **اليافعي**: عبد الله بن أسعد بن علي (ت. 768هـ/ 1366م). مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط2، سنة 1390هـ/ 1970م.

- **ياقوت الحموي**: ياقوت بن عبد الله الرومي (ت. 626هـ/ 1229م).

1 - معجم البلدان، دار صادر، بيروت، سنة 1404هـ/ 1984م.

2 - معجم الأدباء، جـ10، طبع دار المأمون، القاهرة.

- **يحيى بن آدم**: يحيى بن آدم القرشي (ت. 203هـ). كتاب الخراج، تحقيق أحمد شاكر، دار التراث، القاهرة، ط2.

- **يحيى بن الحسين**: يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي (ت. 1100هـ/ 1689م) غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق د. سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1388هـ/ 1986م.

- **اليعقوبي**: أحمد بن علي بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب المعروف باليعقوبي (ت. 284هـ).

1 ـ تاريخ اليعقوبي، مطبعة العربي، النجف، سنة 1358هـ.
2 ـ كتاب البلدان، ضمن كتاب الأعلاق النفيسة.

ـ **الملك المظفر**: يوسف بن عمر بن رسول (ت. 694هـ). المعتمد في الأدوية المفردة، صححه وفهرسه مصطفى السقا، مطبعة البابي الحلبي، ط2، 1403هـ/ 1983م.

ثالثاً

المراجع العربية

ـ **إبراهيم أحمد المقحفي**: معجم البلدان والقبائل اليمنية، نشر دار الكلمة صنعاء، مطبعة بساط بيروت، ط2، 1977م.

ـ **إبراهيم علي طرخان**: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط، دار الكتاب العربي، القاهرة، سنة 1388هـ/ 1968م.

ـ **أحمد أحمد بن محمد المطاع**: تاريخ اليمن الإسلامي (من سنة 204هـ/ إلى سنة 1006هـ). تحقيق عبد الله الحبشي، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط1 سنة 1986 ـ 1407هـ، منشورات المدينة.

ـ **أحمد أمين**: ضحى الإسلام، جـ3، مكتبة النهضة المصرية، جـ3، ط6، سنة 1956م.

ـ **أحمد فخري**: اليمن ماضيها وحاضرها. مطبعة الرسالة، القاهرة، طبع سنة 1967م.

ـ **أحمد حسين شرف الدين**:
1 ـ اليمن عبر التاريخ، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ط2، 1384هـ/ 1964م.
2 ـ تاريخ اليمن الثقافي، الجزء الرابع مطبعة الكيلاني الصغير، مصر، سنة 1387هـ/ 1967م.

ـ **أحمد فضل بن علي محسن العبدلي**: هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، دار العودة، بيروت، ط2، 1400هـ/ 1980م

ـ **آدم متز**: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط2.

ـ **إسماعيل بن علي الأكوع**:
* المدارس الإسلامية في اليمن نشر جامعة صنعاء، طبع دار الفكر، دمشق، 1400هـ/ 1980م.

* البلدان اليمنية عند ياقوت الحموي. نشر مكتبة الجيل الجديد صنعاء، طبع مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1408هـ/ 1988م.

ـ **إسماعيل قربان حسين**: السلطان الخطاب حياته وشعره. دار المعارف، القاهرة د. ت.

ـ **أندريواطون**: الإبداع الزراعي في بدايات العالم الإسلامي، انتشار المحاصيل والتقنيات الزراعية ما بين عامي 700 ـ 110 للميلاد ـ ترجمة أحمد الأشقر. منشورات جامعة حلب معهد التراث العلمي العربي.

ـ د. **أيمن فؤاد سيد**:

* تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجري، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1408هـ/ 1988م.

* مصادر تاريخ اليمن في مصر الإسلامي، نشر المعهد الفرنسي بالقاهرة. سنة 1974م.

ـ **بدر الدين حي الصيني**: العلاقات بين العرب والصين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط1، 1370هـ/ 1950م.

ـ م. ب. **بيوتروفسكي**: اليمن قبل الإسلام والقرون الأولى للهجرة، تعريب محمد الشعيبي، دار العودة، بيروت، ط1، 1987م.

ـ د. **توفيق سلطان اليوزبكي**: دراسات في النظم الإسلامية، جامعة الموصل، ط3، 1988م.

ـ د. **جميل حرب محمود حسين**: الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، نشر تهامة، جدة، مطبعة سحر، ط1، سنة 1405هـ/ 1985م.

ـ **جورج فاضلو حوراني**: العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة د. يعقوب بكر، مطابع دار الكتاب العربي، القاهرة، نشر مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، سنة 1958م.

ـ **جواتيابن**: دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، ترجمة عطية القوصي، نشر وكالة المطبوعات الكويت، ط1، سنة 1980م.

ـ د. **حسن إبراهيم حسن**: اليمن البلاد السعيد، سلسلة، اخترنا لك عدد 52، دار المعارف بمصر، د. ت.

ـ **حسن سليمان محمود**: تاريخ اليمن السياسي في العصر الإسلامي، بغداد، ط1، سنة 1969م. ساعد المجمع العلمي العراقي على طبعه.

ـ **حسن صالح شهاب**:

* أضواء على تاريخ اليمن البحري، دار العودة، بيروت، ط2، سنة 1981م.

* فن الملاحة عند العرب، دار العودة، بيروت، ط1، سنة 1982م.

ـ **حسين بن أحمد العرشي**: بلوغ المرام في شرح مسك الختام في من تولّى اليمن من ملك وإمام، مطبعة البرتيري، القاهرة، سنة 1939م.

ـ **د. حسين الحاج حسن**: النظم الإسلامية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، سنة 1406هـ/ 1987م.

ـ **حسين بن علي الويسي**: اليمن الكبرى، مطبعة النهضة العربية، القاهرة، 1962م.

ـ **حسين بن فيض الله الهمداني**: الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، دار المختار للطباعة، دمشق، 1955م.

ـ **حمزة علي لقمان**: تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية، دار مصر للطباعة، 1379هـ/ 1960م.

ـ **ذو النون المصري**: عمارة اليمني، مكتبة النهضة المصرية، سنة 1766م.

ـ **زامباور، أدوردفون**: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، ترجمة زكي محمد حسن، حسن أحمد محمود، طبع جامعة فؤاد الأول، 1951، 1952م.

ـ **سعيد الأفغاني**: أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، دار الفكر، بيروت، ط3، سنة 1394 ـ 1974م.

ـ **سعيد عوض باوزير**:

1 ـ معالم تاريخ الجزيرة العربية، منشورات مؤسسة الصبان وشركاه، عدن، ط2، سنة 1385هـ/ 1966م.

2 ـ صفحات من تاريخ حضرموت، مطبعة السلفية، القاهرة، 1378هـ/ 1959م.

3 ـ الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، طبع سنة 1381هـ/ 1961م.

ـ **شوقي ضيف**: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات، دار المعارف، بمصر 1980م.

ـ **صالح بن علي الحامدي**: تاريخ حضرموت، نشر مكتبة الإرشاد، جدة، سنة 1968م، طبع دار الكتب، بيروت، ط1، سنة 1388هـ/ 1968م.

ـ **صلاح عبد القادر البكري**: تاريخ حضرموت السياسي، مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط2، سنة 1375هـ/ 1956م.

ـ **عارف تامر**: أروى بنت اليمن، سلسلة اقرأ، عدد (330) سنة 1970م.

ـ **عبد الله أحمد الثور:** هذه هي اليمن، مطبعة المدني، القاهرة، 1969م.
ـ **عبد الله عبد الكريم الجرافي:** المقتطف من تاريخ اليمن، مؤسسة دار الكتب الحديث، بيروت، سنة 1984م.
ـ **عبد الله عبد الوهاب الشماحي:** اليمن الإنسان والحضارة، دار الهناء للطباعة والنشر، مصر، سنة 1972م.
ـ **عبد الله المجاهد:** إنتاج المحاصيل.
ـ **عبد الله محمد الحبشي:** مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن، منشورات مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، د. ت.
ـ **عبد الله بن محمد بن حاتم السقاف:** تاريخ شعراء حضرموت، جـ1، مطبعة حجازي القاهرة، 1937م.
ـ **عبد الله يوسف الغنيم (محقق):** جزيرة العرب من كتب الممالك والمسالك لأبي عبيد البكري، الناشر: ذات السلاسل للطباعة والتوزيع، ط1، 1397هـ/ 1977م.
ـ **عبد الفتاح أحمد فؤاد:** الإمام الزيدي أحمد بن سليمان وآراؤه الكلامية، دار الدعوة للطبع والنشر، مصر، سنة 1987م.
ـ **عبد الواسع بن يحيى الواسعي:** تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حواديث وتاريخ اليمن، الدار اليمنية للنشر، ط4، سنة 1404هـ/ 1984م.
ـ **عدنان ترسيسي:** اليمن وحضارة العرب، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت.
ـ **عصام الدين الفقي:** اليمن في ظل الإسلام منذ فجره حتى قيام دولة بني رسول، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة 1981م.
ـ **علي حسين السليماني الناصري:** النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية، أواخر العصور الوسطى (1250 ـ 1517) مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، سنة 1981م.
ـ **علي محمد زيد:** معتزلة اليمن، نشر مركز الدراسات والبحوث اليمنية، صنعاء، دار العودة بيروت، الطبعة الأولى، 1981.
ـ **عطية القوصي:** تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، دار النهضة العربية القاهرة، سنة 1976م.
ـ **محمد أحمد الحجري:**

* مساجد صنعاء عامرها وموفيها، دار إحياء التراث العربي، بيروت ط2، سنة 1398هـ.

* معجم بلدان اليمن وقبائلها، تحقيق إسماعيل الأكوع، نشر وزارة الإعلام اليمنية، مشروع الكتاب 16/1 طبع النفائس، بيروت، ط1، سنة 1404هـ/ 1984م.
ـ **محمد أحمد عيسى العقيلي:**
* ديوان السلطانين، مطبوعات تهامة، ط2، سنة 1403هـ/ 1983م.
* المخلاف السليماني، دار الكتاب العربي القاهرة، د. ت.
ـ **محمد أحمد بن عمر الشاطري**: أدوار التاريخ الحضرمي، نشر مكتبة الإرشاد، جدة، طبع دار الكتب بيروت، 1381هـ/ 1962م.
ـ **محمد أبو زهرة**: الإمام زيد حياته وعصره آراؤه وفقهه.
ـ **د. محمد أمين صالح:**
* تاريخ اليمن الإسلامي في القرون الثلاثة الأولى للهجرة (عصر الولاة) مطبعة الكيلاني، القاهرة، ط1، سنة 1975م.
* النظام المالي والاقتصادي في الإسلام، المطبعة التجارية الحديثة، ط1، سنة 1404هـ/ 1984م.
ـ **د. محمد جمال الدين سرور:**
* النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، دار الفكر العربي، القاهرة سنة 1369هـ/ 1950م.
* سياسة الفاطميين الخارجية، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة 1396هـ/ 1976م.
ـ **د. محمد رضا الدجيلي**: الحياة الفكرية في اليمن في القرن السادس الهجري، منشورات مركز دراسات الخليج العربي، بجامعة البصرة، شعبة دراسات العلوم الاجتماعية (78) ط1، سنة 1405هـ/ 1985م.
ـ **محمد سعيد جرادة**: الأدب والثقافة في اليمن عبر العصور، دار الفارابي، بيروت، سنة 1977م.
ـ **محمد سعيد العطار**: التخلف الاقتصادي الاجتماعي في اليمن، ط1، سنة 1965م.
ـ **محمد محمد سطيحة**: اليمن شماله وجنوبه، معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة، سنة 1972م.
ـ **د. محمد ضياء الدين الريس**: الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، دار التراث، القاهرة، ط5، 1985م.

ـ د. **محمد عبد العال أحمد:**

1 ـ الأيوبيون في اليمن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية، سنة 1980م.

2 ـ بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدها 628 ـ 923هـ/ 1231 ـ 1517م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية سنة 1980م.

3 ـ البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه، الهيئة العامة للكتاب، الإسكندرية، 1980م.

4 ـ مذكرات في التاريخ الإسلامي.

ـ **محمد بن علي الأكوع:** اليمن الخضراء مهد الحضارة، مطبعة السعادة، القاهرة، ط1، سنة 1391هـ/ 1971م.

ـ **محمد بن علي مسفر العسيري:** الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن في العصر الأيوبي 569 ـ 626هـ، دار المدينة، جدة ط1، سنة 1405هـ/ 1985م.

ـ د. **محمد عيسى الحريري:** معالم التطور السياسي في دولة بني نجاح باليمن وعلاقتهما بالصليحيين دار القلم، الكويت، ط1، سنة 1404هـ/ 1984م.

ـ د. **محمد كريم إبراهيم:** عدن دراسة في أحوالها السياسية والاقتصادية 476 ـ 626هـ/ 1083 ـ 1228م منشورات العلوم الاجتماعية (77) سنة 1985م.

ـ د. **محمد متولي:** جغرافية شبه جزيرة العرب، الجزء الثالث جغرافية اليمن الشمالي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2، سنة 1978م.

ـ **محمد بن يحيى الحداد:** التاريخ العام لليمن، اليمن في موكب الإسلام (1) دار التنوير للطباعة والنشر، ط1، سنة 1407هـ/ 1986م منشورات المدينة.

ـ **محمود كامل المحامي:** اليمن شماله وجنوبه، دار بيروت سنة 1968م.

ـ **مجموعة:** دائرة المعارف الإسلامية.

ـ د. **مصطفى عبد الله شيحة:** مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية في الجمهورية اليمنية، القاهرة، ط1، سنة 1408هـ/ 1987م.

ـ د. **مصطفى غالب:** أعلام الإسماعيلية، منشورات دار اليقظة العربية، دار النهضة العربية بيروت سنة 1964م.

ـ د. **نزار عبد اللطيف الحديني:** أهل اليمن في صدر الإسلام، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

ـ **نقولا زيادة**: الجغرافيا والرحلات. دار الكتاب اللبناني المصري، 1987م.

ـ **نعيم زكي فهمي**: طرق التجارة الدولية ومحطاتها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة 1973م.

ـ **هادي عطية مطر الهلالي**: نشأة الدراسات النحوية واللغوية في اليمن وتطورها، منشورات مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة، شعبة الدراسات الأدبية واللغوية (79) دار آفاق عربية للطباعة والنشر، بغداد، مطبعة جامعة البصرة، سنة 1404هـ/ 1984م.

ـ **د. يوسف محمد عبد الله**: أوراق في تاريخ اليمن وآثاره بحوث ومقالات جـ1، منشورات وزارة الإعلام اليمنية، دار التنوير للطباعة، بيروت، ط1، 1406هـ/ 1985م..

الدوريات:

ـ **د. محمد حطيط**: الكارمية وتجارة الكارم في عصر المماليك، مجلة الفكر العربي، العدد 54 السنة 9، كانون الأول، ديسمبر 1988م.

ـ **أحمد محرم**: عملة عباسية في اليمن، الآثار الإسلامية في الوطن العربي، المؤتمر التاسع صنعاء 30 ربيع الأول ـ 6 ربيع الآخر سنة 1400هـ الموافق 16 ـ 22 فبراير/ شباط 1980م ص: 226 ـ 228 طبع تونس سنة 1985م المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

ـ **أيمن فؤاد سيد**: دراسة نقدية لبعض مصادر جنوب الجزيرة العربية في العصر الفاطمي مصادر تاريخ الجزيرة العربية جـ1، ص: 245 ـ 252.

ـ **حمد الجاسر**: كتب المنازل من روافد الدراسات عن جغرافية جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك للبكري، مصادر تاريخ الجزيرة العربية.

ـ **راضي دغفوس**: مصادر تاريخ جنوب الجزيرة العربية، مجلة المؤرخ العربي، العدد (10) بغداد ج سنة 1979م.

ـ **رأفت النبراوي**: دراسة لقطعتين نادرتين من المنسوجات الإسلامية في مصر واليمن، مجلة الدارة، عدد 2 أغسطس سنة 1987م.

ـ **د. ربيع حامد خليفة**:

* مناسج الطراز الخاصة بمدينة صنعاء، مجلة الإكليل العدد الثاني، السنة السادسة، صيف 1408هـ/ 1988م.

* توقيعات الصناع والفنانين على الآثار والفنون اليمنية الإسلامية، مجلة الإكليل، العدد الثالث والرابع، خريف 1409هـ/ 1988م.

ـ **زهران راضي**: دولة حبشية في اليمن، المجلة التاريخية المصرية، مج 8، القاهرة سنة 1959م.

ـ **سلطان ناجي**:

* الدولة القرمطية (3) 268 ـ 303هـ) (881 ـ 915م) مجلة الحكمة العدد 24 السنة الثالثة، أغسطس 1973م.

* تاريخ اليمن الإسلامي مجلة الحكمة العدد 27، السنة الثالثة 1394 مارس 1974م.

ـ **د. سيدة كاشف**: دراسات في النقود الإسلامية، المجلة التاريخية المصرية، ع 12، سنة 1964، 1995م.

ـ **د. شاكر مصطفى**: التاريخ والمؤرخون في اليمن الإسلامية حتى القرن السابع الهجري، مجلة كلية الآداب والتربية، جامعة الكويت، ع 13 يونيو 1978م.

ـ **صبحي لبيب**: التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى، المجلة المصرية المجلد الرابع، العدد 2 سنة 1952م.

ـ **طاهر مظفر العميد**: بناء مدينة زبيد في اليمن، مجلة كلية الآداب، بغداد، العدد 13 سنة 1970م مطبعة المعارف، بغداد، ص: 341 ـ 460.

ـ **عبد الرحمن شعيل**: عمارة اليمني عند المؤرخين، مجلة العرب، جـ1، السنة 3 تشرين الأول 1968م الرياض.

ـ **عبد الرحمن عبد الله الحضرمي**: زبيد العاصمة الأولى في اليمن بعد الإسلام، مجلة الحكمة عدد 15/ السنة الثانية، أغسطس 1972م/ 1392هـ.

ـ **د. عبد الغني محمود عبد المعطي**: عوامل الصراع السياسي المذهبي، مجلة الإكليل، العدد الثاني، السنة الخامسة، خريف 1408هـ/ 1987م.

ـ **عبد الله الحبشي**: المطرفية مذهب مجهول، مجلة اليمن الجديد، العدد 3 السنة 6 نوفمبر/ ديسمبر 1976م والعدد (1) السنة 7/ يناير فبراير 1978م صنعاء وزارة الأعلام.

ـ **فضيلة عبد الأمير الشامي**: إمارة آل زريع بعدن، مجلة كلية الآداب، ع 26 بغداد 1979م.

ـ **كرستان رويان**: التقرير الأول للبعثة الأثرية الفرنسية عن منطقة ذي بين ج. ع. ي. تعريب أحمد ناجي ساري، الآثار الإسلامية في الوطن العربي المؤتمر

التاسع صنعاء 30 ربيع الأول 6 ربيع الآخر/ 1400هـ، الموافق 16 ـ 22 فبراير/ شباط 1980م، طبع تونس، سنة 1985م، ص: 127 ـ 134، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

ـ د. **محمد أبو الفرج العش**: المسكوكات العربية الإسلامية، الآثار الإسلامية في الوطن العربي المؤتمر التاسع سنة 1980م طبع 1985م تونس ص: 219 ـ 228 مجلة الإكليل اليمنية العدد الخامس، سبتمبر 1981م، ذو القعدة 1401هـ ص: 41 ـ 45.

ـ د. **محمد أمين صالح**:

* بنو نجاح في زبيد، مجلة (الغد) العدد الأول، السنة الثالثة مارس 1977م ص: 101 ـ 115، العدد الثاني السنة الثالثة، يونيو سنة 1977، ص: 123 ـ 133.
* دولة الخوارج في اليمن ـ بنو مهدي في زبيد (554 ـ 569) المجلة التاريخية المصرية مج 25 سنة 1978، ص: 127، 128.
* العلاقة بين دولة الصليحيين والخلافة الفاطمية، المجلة التاريخية المصرية، مج 26، سنة 1979م، ص: 61 ـ 84.

ـ **محمود ياسين التكريتي**: الأيوبيون في اليمن تاريخهم السياسي (569/ 626هـ ـ 1174/ 1226م) مجلة أداب الرافدين، كلية الآداب، جامعة الموصل، العدد 12، سنة 1400هـ/ 1980م.

ـ **محمد سعيد جرادة**:

* الخطاب شاعر الدولة الصليحية، مجلة الحكمة (ع) 14/ السنة الثانية يوليو سنة 1392هـ/ 1972م.
* سليمان الحجوري شاعر بني نجاح، مجلة الحكمة (ع) 15 السنة الثانية أغسطس 1392هـ/ 1972م.
* عمارة اليمن، مجلة الحكمة عدد 12/ السنة الأولى سنة 1392هـ/ 1972م.

ـ **محمد سيف النصر**: المدارس اليمنية تخطيطها وعناصرها المعمارية، مجلة الإكليل، العدد الأول، السنة الثالثة، خريف 1406هـ/ 1985م صنعاء.

ـ **محمد عبد العال أحمد**:

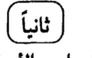
1 ـ دراسة حول أقوال المؤرخين عن الفتح الأيوبي لليمن، مجلة معهد المخطوطات العربية 13 (1967م) ص: 319 ـ 338.

2 ـ بعض مظاهر العلاقات المتنوعة بين اليمن ومصر في العصر الإسلامي بحث مقدم للندوة الثالثة للعلاقات المصرية اليمنية التي نظمتها اللجنة المصرية للتضامن الإفريقي الأسيوي، القاهرة فبراير 1990.

- **محمد عبد الله قاضي**: دولة اليمن الزيدية ـ نشأتها ـ تطورها ـ علاقتها، المجلة التاريخية المصرية، المجلد (3) عدد (1) مايو سنة 1950م.
- **محمد علي الأكوع**: دراسة لمخطوطة عن اليمن، مصادر تاريخ الجزيرة العربية.
- **محمد علي مسفر**:
* العلاقات السياسية بين الحجاز واليمن في عهد الأيوبيين.
* مجلة كلية العلوم الاجتماعية، العدد الخامس، 1401هـ/ 1981م جامعة الملك محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.
- **د. محمد عيسى الحريري**: تحقيق تطور المذهب الزيدي في اليمن، قطعة منتزعة من كتاب شفاه صدور الناس لأحمد بن محمد الشرقي. المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مج 7 عدد 26، ربيع 1987م، ص: 44 ـ 75.
- **د. مصطفى شيحة**: دراسة زخرفية لسيوف يمانية، مجلة الإكليل، عدد (1) السنة الثالثة خريف 1406هـ/ 1985م.
- **وفية عزي**: نماذج من الفنون الإسلامية في اليمن، مجلة المجلة العدد 71 ديسمبر سنة 1962م.

الرسائل العلمية:

- **حسن سليمان محمود**: الصليحيون في اليمن وعلاقتهم بالفاطميين في مصر رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، 1951، 1952م.
- **حياة عبد القادر أحمد المرسي**: دور السيدة الحرة أروى بنت أحمد الصليحية في اليمن 473 ـ 532هـ/ 1080 ـ 1138م، رسالة ماجستير، جامعة الملك عبد العزيز 1499 ـ 1400هـ/ 1979 ـ 1980م.
- **صلاح مهران محمد**: الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في دولة الأئمة الزيدية باليمن 284 ـ 858هـ/ 897 ـ 1454م، رسالة دكتوراه، جامعة المنيا، 1407 ـ 1987م.
- **عبد الرحمن عبد الواحد محمد**: الحياة العلمية في اليمن في القرنين الثالث والرابع للهجرة، رسالة دكتوراه جامعة الأزهر 1406هـ/ 1986م.
- **نصاري فهمي غزالي**: العلاقات المصرية اليمنية على عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية وتأثيرها السياسي والحضاري في اليمن، رسالة دكتوراه، كلية دار العلوم 1984م.



المراجع الأجنبية

- **Abbas Hamdani:** The Da'Hatim Ibn Ibrahim - al - Hamidi. (D. 596 H/1199 A. D) and his book Tuhfat Al - Qulub - ORINENS, 23 - 24 - (1970 - 71), pp. 258 - 300.
- **Abbas Hamdani:** Evolution of the organizational structure of the Fatimi Da' wah. The Yemeni and Presian Contribution, Arabian Studies III, 1976, PP. 85 - 114.
- **Abbas Hamdani:** The Tayyibi - Fatimid community of the Yemen at the time of the Ayyabid conquest of Southern Arabia, Arabian Studies G. U. Vol. VII, 1985, PP. 151 - 160.
- **Bikhazi, Ramzi, J.** Coins of Al - Yemen, 132 - 569 A. H., Al - Abhath, Vol. XXIII, Nos. 1 - 4 (Beirut - December, 1970), PP. 17 - 127..
- **R. B. Serjeant:** Islamic textiles material for a history up to the Mongol conquest. Chapter XV. The textiles in the Yemen, Beirut, 1972.
- **R. B. Serjeant, And Ronald Lewcock:** San's an Arabian Islamic City. Published in 1983 by the world of Islamic Festival turst, London.
- **Ronald, Lewcock:** The old walled city of san's UNESCO, 1989, Printed in Belgium, published in 1986. By the United Nations educat. Scientific and Cultural Organization.
- **Francinestone**: Studies on the Tihamah. The report of the Tihamam expedition, 1982 and realted papers.
- **Studies In The History of Arabia, University of Riyyadh:** Saudi Arabic, 23 rd - 28 th of April, 1977, press, 1399 A. H. 1979.
  1 - **I. K. Poonawala:** Ismaili sources for the history of South - West Arabia.
  2 - **G. R. Smith:** Ibn Hatim's, Kitab Al - Simt and it's place in Medical Al Yemenite Historiography.
  3 - **Michael, L. bates:** The chapter on the fatimid Da'a is in Yemen in the Ta'rikh of Umara Al - Hakami, (d 569/1174).
  4 - **Wilferd Madelung:** The Sirat Al - Amirayn Al - Ajallayn Al - Sharifayn Al - Fadilayn Al - Iman Al - Qasim B. Ali Al - Iyani As A Historical Source.

فهرس المحتويات

الباب الثاني

دويلات صنعاء وعدن وزبيد

الباب الثالث

الحكم الأيوبي لليمن

القسم الثاني
مظاهر الحضارة

الباب الأول
النُّظُم الحَضَارِيَّة فِي اليمن

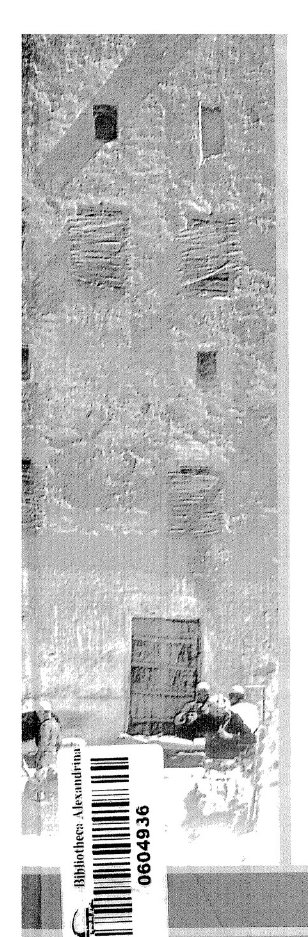
الباب الثاني
الحياة الاقتصادية

الباب الثالث

الحياة العلمية والتعليمية

الباب الرابع

الحياة الاجتماعية





الجمهورية اليمنية
وزارة الثقافة والسياحة
صنعاء - الحصبة - ص.ب.: (٣٦)-(٢٣٧)
هاتف: ٢٣٥١١٤ - فاكس: ٢٣٥١١٣
بريد الكتروني moc@y.net.ye